صَدَى القُرآن

الصَّدَى الأَدَبِيُّ لِلآياتِ



أنور غني الموسوي

دار أقواس للنشر - العراق 2026

صدى القرآن

الصدى الأدبي للآيات

أنور غني الموسوي

صدى القرآن

الصدى الأدبي للآيات

أنور غني الموسوي

دار أقواس للنشر

العراق 2026

المحتويات

المحتويات 1

المقدمة 3

سِفْرُ الصَّدَى الأَوَّلُ 7

سِفْرُ الصَّدَى الثَّانِي 12

سِفْرُ الصَّدَى الثَّالِثُ 24

سِفْرُ الصَّدَى الرَّابِعُ 38

سِفْرُ الصَّدَى الخَامِسُ 56

سِفْرُ الصَّدَى السَّادِسُ 70

سِفْرُ الصَّدَى السَّابِعُ 88

سِفْرُ الصَّدَى الثَّامِنُ 101

سِفْرُ الصَّدَى التَّاسِعُ 112

سِفْرُ الصَّدَى العَاشِرُ 117

سِفْرُ الصَّدَى الحَادِي عَشَرَ 131

سِفْرُ الصَّدَى الثَّانِي عَشَرَ 142

سِفْرُ الصَّدَى الثَّالِثَ عَشَرَ 154

سِفْرُ الصَّدَى الرَّابِعَ عَشَرَ 166

سِفْرُ الصَّدَى الخَامِسَ عَشَرَ 179

سِفْرُ الصَّدَى السَّادِسَ عَشَرَ 189

سِفْرُ الصَّدَى السَّابِعَ عَشَرَ 199

سِفْرُ الصَّدَى الثَّامِنَ عَشَرَ 211

سِفْرُ الصَّدَى التَّاسِعَ عَشَرَ 222

سِفْرُ الصَّدَى العِشْرُونَ 234

سِفْرُ الصَّدَى الحَادِي وَالعِشْرُونَ 245
سِفْرُ الصَّدَى الثَّانِي وَالعِشْرُونَ 257
سِفْرُ الصَّدَى الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ 268
سِفْرُ الصَّدَى الرَّابِعُ وَالعِشْرُونَ 280
سِفْرُ الصَّدَى الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ 291
سِفْرُ الصَّدَى السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ 303
سِفْرُ الصَّدَى السَّابِعُ وَالعِشْرُونَ 323
سِفْرُ الصَّدَى الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ 334
سِفْرُ الصَّدَى التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ 345
سِفْرُ الصَّدَى الثَّلَاثُونَ 357
سِفْرُ الصَّدَى الحَادِي وَالثَّلَاثُونَ 367
سِفْرُ الصَّدَى الثَّانِي وَالثَّلَاثُونَ 378
سِفْرُ الصَّدَى الثَّالِثُ وَالثَّلَاثُونَ 388

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ نُورًا يَهْدِي البَصَائِرَ فِي ظُلُمَاتِ التِّيهِ، وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ مِنْ وَحْشَةِ الغَفْلَةِ وَبَرْدِ القَسْوَةِ، وَجَعَلَ كَلَامَهُ سِرَاجًا لَا يَنْطَفِئُ ضِيَاؤُهُ، وَبَحْرًا لَا تَنْفَدُ عَجَائِبُهُ، وَنَبْعًا لَا يَنْضَبُ مَعِينُهُ. نَحْمَدُهُ حَمْدَ مَنْ أَصْغَى بِسَمْعِ قَلْبِهِ إِلَى جَلَالِ الوَحْيِ فَارْتَوَى، وَنَشْكُرُهُ شُكْرَ مَنْ تَأَمَّلَ فِي مَلَكُوتِ الآيَاتِ فَاهْتَدَى، وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَى المَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، الَّذِي كَانَ القُرْآنُ خُلُقَهُ وَنَبْضَ حَيَاتِهِ، وَعَلَى آلِهِ وَمَنْ تَبِعَهُ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ؛

فَإِنَّ كَلَامَ اللَّهِ إِذَا نَزَلَ عَلَى الأَرْضِ اليَبَابِ أَحْيَاهَا، وَإِذَا لَامَسَ القَلْبَ الغَافِلَ أَيْقَظَهُ، وَإِذَا تَرَدَّدَ فِي أَرْجَاءِ الرُّوحِ أَحْدَثَ فِيهَا صَدًى لَا يَخْبُو أَثَرُهُ. وَمِنْ رَحِمِ هَذَا الإِصْغَاءِ الخَاشِعِ، وُلِدَتْ فِكْرَةُ هَذَا السِّفْرِ: «صَدَى القُرْآنِ: الصَّدَى الأَدَبِيُّ لِلْآيَاتِ»؛ لِيَكُونَ نَافِذَةً وَجْدَانِيَّةً تَتَلَقَّى شُعَاعَ الآيَةِ الكَرِيمَةِ، وَتَعْكِسُهُ عَلَى مِرْآةِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ بِلُغَةٍ تَنْبِضُ بِالمجَازِ وَالرَّمْزِ، وَتُحَلِّقُ فِي آفَاقِ التَّأَمُّلِ الشُّعُورِيِّ البَعِيدِ عَنْ جَفَافِ العِبَارَةِ وَرَتَابَةِ السَّرْدِ التَّقْلِيدِيِّ.

لَقَدْ بُنِيَتْ مَقْطُوعَاتُ هَذَا الكِتَابِ عَلَى هَنْدَسَةٍ فَنِّيَّةٍ وَرُوحِيَّةٍ صَارِمَةٍ، تَصُوغُ مِنْ كُلِّ آيَةٍ عَالَمًا مُتَكَامِلًا فِي فَقْرَةٍ وَاحِدَةٍ مُتَدَفِّقَةٍ، تَبْدَأُ بِتَقْرِيرِ الحَقِيقَةِ الكَوْنِيَّةِ، ثُمَّ تَرْتَدُّ إِلَى أَعْمَاقِ الذَّاتِ لِتُفَكِّكَ أَوْهَامَهَا، وَتَسْتَحْضِرُ مَشَاهِدَ الطَّبِيعَةِ وَتَنَاقُضَاتِ المادَّةِ، حَتَّى تَصِلَ بِالقَارِئِ إِلَى لَحْظَةِ التَّحَوُّلِ الرُّوحِيِّ وَالحُكْمِ القَطْعِيِّ الَّذِي يُعْلِنُ زَوَالَ الظِّلَالِ وَبَقَاءَ الحَقِّ الأَبَدِيِّ. فَهُوَ لَيْسَ تَفْسِيرًا يُحْصِي الأَحْكَامَ، بَلْ هُوَ تَجْرِبَةُ تَذَوُّقٍ وَمُعَايَشَةٍ تُحَوِّلُ المَعَانِيَ الذِّهْنِيَّةَ إِلَى صُوَرٍ حَيَّةٍ تَسْرِي فِي العُرُوقِ.

فَيَا أَيُّهَا القَارِئُ الكَرِيمُ، ادْخُلْ هَذَا المِحْرَابَ بِقَلْبٍ حَاضِرٍ، وَتَمَهَّلْ عِنْدَ عَتَبَاتِ كُلِّ مَقْطُوعَةٍ؛ لِتَسْمَعَ فِي سُكُونِ رُوحِكَ رَجْعَ الصَّدَى الَّذِي تَتْرُكُهُ الآيَاتُ. نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا العَمَلَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ كُلَّ مَنْ قَرَأَهُ أَوْ تَأَمَّلَهُ، فَكُلُّ كَلَامٍ يَنْقَطِعُ عَنْ نُورِ السَّمَاءِ فَهُوَ سَرَابٌ زَائِلٌ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ تَسْتَمِدُّ بَقَاءَهَا مِنْ جَلَالِ اللَّهِ.

بَوَّابَةُ النُّورِ وَمِيثَاقُ الدُّخُولِ

مَفَاتِيحُ الفَهْمِ فِي مَلَكُوتِ التَّدَبُّرِ لَا تُفْتَحُ بِمَعَاوِلِ الجَدَلِ الجَافِّ، بَلْ بِأَنَامِلِ الرُّوحِ الَّتِي تَرْتَجِفُ شَوْقًا أَمَامَ جَلَالِ الكَلِمَةِ الإِلَهِيَّةِ. هَذَا الكِتَابُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ، «صَدَى القُرْآنِ»، لَيْسَ مُجَرَّدَ حُرُوفٍ مَصْفُوفَةٍ عَلَى وَرَقٍ أَبْيَضَ، بَلْ هُوَ مِحْرَابٌ نَثْرِيٌّ يُحَاوِلُ الإِصْغَاءَ بِوَعْيٍ وَخُشُوعٍ إِلَى الصَّدَى العَمِيقِ الَّذِي تَتْرُكُهُ آيَاتُ الذِّكْرِ الحَكِيمِ فِي مَرَايَا النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ. فَفِي زَمَنٍ تَزْدَحِمُ فِيهِ الأَصْوَاتُ الصَّاخِبَةُ وَتَتَشَتَّتُ فِيهِ البَصَائِرُ بَيْنَ ظِلَالِ المَادَّةِ الفَانِيَةِ، يَأْتِي هَذَا العَمَلُ لِيَكُونَ مَلَاذًا هَادِئًا يُعِيدُ تَرْتِيبَ الكَوْنِ الدَّاخِلِيِّ لِلْإِنْسَانِ، وَيَصِلُ مَا انْقَطَعَ بَيْنَ القَلْبِ وَنَبْعِهِ الأَوَّلِ.

لَقَدْ وُلِدَتْ فِكْرَةُ هَذِهِ المَقْطُوعَاتِ مِنْ رَحِمِ التَّأَمُّلِ الصَّامِتِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، حَيْثُ تَتَجَلَّى الآيَةُ القُرْآنِيَّةُ كَشَمْسٍ مُشْرِقَةٍ تَكْشِفُ عُمُقَ النَّفْسِ، وَتُدَاوِي جِرَاحَ الفِطْرَةِ، وَتُقِيمُ مَوَازِينَ العَدْلِ وَالرَّحْمَةِ فِي أَرْضِ الوُجْدَانِ. إِنَّنَا هُنَا لَا نُقَدِّمُ تَفْسِيرًا فِقْهِيًّا أَوْ لُغَوِيًّا بِالمَعْنَى التَّقْلِيدِيِّ المَعْهُودِ فِي كُتُبِ التُّرَاثِ، بَلْ نُقَدِّمُ تَجْرِبَةَ "انْعِكَاسٍ وَجْدَانِيٍّ وَأَدَبِيٍّ"؛ حَيْثُ تَسْقُطُ الآيَةُ عَلَى مِرْآةِ الرُّوحِ، فَتُحَرِّكُ سَوَاكِنَهَا، وَتُفَكِّكُ أَوْهَامَهَا، ثُمَّ تُعِيدُ صِيَاغَتَهَا فِي قَالَبٍ بَلَاغِيٍّ مَشْحُونٍ بِالمَجَازِ وَالرَّمْزِ، لِيَشْعُرَ القَارِئُ أَنَّ الخِطَابَ القُرْآنِيَّ يَتَنَزَّلُ عَلَى قَلْبِهِ هُوَ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ بِالذَّاتِ.

هَنْدَسَةُ المِعْمَارِ النَّثْرِيِّ وَفَلْسَفَةُ البِنَاءِ

بِنَاءُ هَذَا السِّفْرِ يَقُومُ عَلَى نَبْضِ النَّثْرِ الفَنِّيِّ، حَيْثُ تَتَعَانَقُ رَهَافَةُ المَجَازِ مَعَ عُمْقِ الرَّمْزِ وَإِشْرَاقِ الِاسْتِعَارَةِ، لِتَنْسَابَ الكَلِمَاتُ فِي تَدَفُّقٍ شُعُورِيٍّ يُقَارِبُ رُوحَ السَّرْدِ التَّعْبِيرِيِّ المَمَانِعِ لِرَتَابَةِ الحِكَايَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ. فَكُلُّ مَقْطُوعَةٍ هُنَا لَيْسَتْ شَرْحًا عَابِرًا أَوْ خَاطِرَةً مُرْسَلَةً، بَلْ هِيَ كُتْلَةٌ نَصِّيَّةٌ وَاحِدَةٌ مُتَمَاسِكَةٌ تَتَنَفَّسُ بِنَفَسٍ طَوِيلٍ، تَبْدَأُ بِتَقْرِيرِ الحَقِيقَةِ الكَوْنِيَّةِ الرَّاسِخَةِ، ثُمَّ تَرْتَدُّ بِصِدْقٍ وَوَاقِعِيَّةٍ إِلَى أَعْمَاقِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ لِتَكْشِفَ ضَعْفَهَا، وَحَيْرَتَهَا، وَتَنَاقُضَاتِهَا اليَوْمِيَّةَ أَمَامَ جَلَالِ المِيثَاقِ الإِلَهِيِّ. إِنَّهَا تَصْهَرُ المَعَانِيَ القُرْآنِيَّةَ المُجَرَّدَةَ فِي بُوتَقَةِ التَّجْرِبَةِ الحَيَّةِ، فَتُحَوِّلُ العَدْلَ إِلَى مِيزَانٍ، وَالغَفْلَةَ إِلَى ظِلٍّ زَائِلٍ، وَالطُّمَأْنِينَةَ إِلَى مَاءٍ يَسْرِي فِي عُرُوقِ الأَرْضِ اليَبَابِ. وَعَبْرَ هَذَا التَّدَرُّجِ الدَّاخِلِيِّ المُحْكَمِ الَّذِي يَمْزُجُ بَيْنَ مَشَاهِدِ الطَّبِيعَةِ الصَّامِتَةِ وَخَفَقَاتِ الوِجْدَانِ الحَيِّ، تَطْرُقُ المَقْطُوعَةُ أَبْوَابَ القَلْبِ بِرِفْقٍ، فَتُفَكِّكُ أَوْهَامَهُ بِلَا تَكَلُّفٍ، وَتُوقِظُ بَصِيرَتَهُ بِلَا وَعْظٍ مُبَاشِرٍ، لِيَخْرُجَ القَارِئُ مِنْ كُلِّ فَقْرَةٍ وَقَدْ لَامَسَ رَجْعَ الصَّدَى الحَقِيقِيَّ لِلْآيَةِ فِي وَاقِعِهِ وَسُلُوكِهِ.

مِيثَاقُ القِرَاءَةِ وَدَعْوَةُ الإِبْحَارِ

فِي ظِلِّ هَذِهِ الصَّفَحَاتِ، يَتَحَوَّلُ القَارِئُ مِنْ مُتَلَقٍّ عَابِرٍ إِلَى شَرِيكٍ فِي رِحْلَةِ البَحْثِ عَنِ الحَقِيقَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ. فَكُلُّ مَقْطُوعَةٍ هُنَا هِيَ مِرْآةٌ مَصْقُولَةٌ تَدْعُوكَ لِأَنْ تَرَى فِيهَا نَفْسَكَ بِلَا أَقْنِعَةٍ، وَأَنْ تَقِيسَ مَسَافَةَ القُرْبِ وَالبُعْدِ بَيْنَ خُطُوَاتِكَ وَبَيْنَ صِرَاطِ السَّمَاءِ. لَا تَقْرَأْ هَذَا الكِتَابَ بِعَجَلَةِ العَابِرِينَ الَّذِينَ يَلْتَهِمُونَ السُّطُورَ دُونَ تَوَقُّفٍ، بَلِ اقْرَأْهُ بِأَنَاةِ الغَوَّاصِ الَّذِي يَبْحَثُ عَنِ اللُّؤْلُؤِ فِي أَعْمَاقِ البِحَارِ، لِتَسْمَعَ فِي سُكُونِ قَلْبِكَ رَجْعَ الصَّدَى الَّذِي تُحْدِثُهُ الآيَاتُ.

تَوَقَّفْ عِنْدَ كُلِّ اسْتِعَارَةٍ، وَتَأَمَّلْ كَيْفَ تَتَحَوَّلُ المَعَانِي الذِّهْنِيَّةُ المجَرَّدَةُ إِلَى أَشْجَارٍ وَمِيَاهٍ وَمَوَازِينَ وَأَنْوَارٍ تَنْبِضُ بِالحَيَاةِ. وَاجْعَلْ مِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ جِسْرًا يَعْبُرُ بِكَ مِنَ التَّشَتُّتِ إِلَى السَّكِينَةِ، وَمِنْ ضَجِيجِ الأَرْضِ إِلَى رَحَابَةِ السَّمَاءِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا العَمَلَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وَأَنْ يَكُونَ صَدًى طَيِّبًا يَتَرَدَّدُ أَثَرُهُ فِي القُلُوبِ الحَيَّةِ، فَكُلُّ كَلِمَةٍ لَا تَصِلُ القَلْبَ بِخَالِقِهِ هِيَ غُبَارٌ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِنُورٍ يُشْرِقُ مِنْ مِشْكَاةِ الوَحْيِ وَيَبْقَى بِبَقَاءِ اللَّهِ.

جَدْوَى الصَّدَى الأَدَبِيِّ وَحِكْمَةُ الِانْعِكَاسِ الوِجْدَانِيِّ

مِرْآةُ الرُّوحِ الصَّقِيلَةُ لَا تَعْكِسُ نُورَ الوَحْيِ كَخَيَالٍ عَابِرٍ، بَلْ تُحَوِّلُهُ إِلَى حَيَاةٍ تَنْبِضُ فِي مَفَاصِلِ الإِنْسَانِ. إِنَّ القِرَاءَةَ الأَدَبِيَّةَ وَالفَنِّيَّةَ لِلقُرْآنِ الكَرِيمِ لَيْسَتْ تَرَفًا بَلَاغِيًّا وَلَا تَزْيِينًا لَفْظِيًّا، بَلْ هِيَ تَجْرِبَةٌ وُجْدَانِيَّةٌ تَنْقُلُ المتَلَقِّي مِنْ حُدُودِ الفَهْمِ الذِّهْنِيِّ الجَافِّ إِلَى رَحَابَةِ المعَايَشَةِ الشُّعُورِيَّةِ الحَيَّةِ. فَحِينَ يَتَلَقَّى القَلْبُ الآيَةَ الكَرِيمَةَ بِأَدَوَاتِ الجَمَالِ وَالفَلْسَفَةِ وَالحِكْمَةِ، يَتَحَوَّلُ النَّصُّ مِنْ مَعْلُومَةٍ تُحْفَظُ فِي الذَّاكِرَةِ إِلَى تَجْرِبَةٍ تُعَاشُ فِي الوَاقِعِ.

وَتَتَجَلَّى الثَّمَرَةُ العَمَلِيَّةُ وَالرُّوحِيَّةُ لِهَذَا الصَّدَى الأَدَبِيِّ المطَعَّمِ بِالفَلْسَفَةِ وَالعُمْقِ الإِنْسَانِيِّ فِي أَرْبَعِ غَايَاتٍ جَوْهَرِيَّةٍ:

- كَسْرُ الأُلْفَةِ وَإِيقَاظُ الدَّهْشَةِ الأُولَى: حَاجِزُ الاعْتِيَادِ يُطْفِئُ بَرِيقَ المعَانِي فِي القُلُوبِ الغَافِلَةِ. فَيَأْتِي التَّنَاوُلُ الأَدَبِيُّ لِيُعِيدَ صِيَاغَةَ المعْنَى فِي صُوَرٍ اسْتِعَارِيَّةٍ طَازِجَةٍ، تُحَوِّلُ المجَرَّدَاتِ إِلَى مَشَاهِدَ حِسِّيَّةٍ تُرَى بِالعَيْنِ وَتُلْمَسُ بِاليَدِ، فَتَسْتَعِيدَ الرُّوحُ دَهْشَتَهَا الأُولَى أَمَامَ جَلَالِ الخِطَابِ الإِلَهِيِّ.

- تَفْعِيلُ البُعْدِ الإِنْسَانِيّ وَمُخَاطَبَةُ الفِطْرَةِ: أَعْمَاقُ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ مَلِيئَةٌ بِأَسْئِلَةِ الخَوْفِ وَالتَّوْقِ وَالحَيْرَةِ وَالِانْكِسَارِ. إِنَّ الِانْعِكَاسَ الأَدَبِيَّ لَا يَقِفُ عِنْدَ سَرْدِ الحُكْمِ الشَّرْعِيّ فَحَسْبُ، بَلْ يَغُوصُ فِي مَكَامِنِ الضَّعْفِ الإِنْسَانِيّ لِيُفَكِّكَ أَوْهَامَ الغُرُورِ وَالأَنَانِيَّةِ، فَيَشْعُرُ القَارِئُ أَنَّ الآيَةَ تَتَنَزَّلُ عَلَى أَزْمَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ وَتُدَاوِي جِرَاحَهُ الخَفِيَّةَ بِصِدْقٍ وَرِفْقٍ.

- رَبْطُ الحِكْمَةِ بِسُنَنِ الوُجُودِ: سُنَنُ اللَّهِ فِي الآفَاقِ تَتَطَابَقُ مَعَ آيَاتِهِ فِي الأَنْفُسِ. وَحِينَ يَمْتَزِجُ النَّصُّ الأَدَبِيُّ بِالعُمْقِ الفَلْسَفِيّ، فَإِنَّهُ يَكْشِفُ الخَيْطَ الخَفِيَّ الَّذِي يَرْبِطُ سُلُوكَ الفَرْدِ بِقَوَانِينِ الكَوْنِ الكُبْرَى، فَيُرِي الإِنْسَانَ كَيْفَ يَتَنَاقَضُ زَوَالُ المَادَّةِ الفَانِيَةِ مَعَ خُلُودِ الحَقِّ وَالعَدْلِ، مِمَّا يَمْنَحُ العَقْلَ رُؤْيَةً شُمُولِيَّةً مُتَّزِنَةً لِلْحَيَاةِ وَالمَصِيرِ.

- تَسَلُّلُ الحَقِيقَةِ عَبْرَ بَوَّابَةِ الجَمَالِ: جِبِلَّةُ الإِنْسَانِ تَنْفِرُ مِنَ الوَعْظِ المَبَاشِرِ الجَافِّ وَتَأْنَسُ لِلْجَمَالِ. فَاللُّغَةُ الفَنِّيَّةُ الرَّفِيعَةُ، بِمُوسِيقَاهَا الدَّاخِلِيَّةِ وَتَوَازُنِ جُمَلِهَا، تَعْمَلُ كَنَسِيمٍ يَفْتَحُ نَوَافِذَ القَلْبِ المُغْلَقَةِ، فَتَدْخُلُ الحِكْمَةُ إِلَى الوِجْدَانِ بِسَلَاسَةٍ وَعُمْقٍ، وَتُثْمِرُ تَحَوُّلًا رُوحِيًّا وَسُلُوكِيًّا دَائِمًا.

هَكَذَا يَغْدُو الصَّدَى الأَدَبِيُّ جِسْرًا يَعْبُرُ بِهِ القَارِئُ مِنْ سَطْحِ الحُرُوفِ إِلَى جَوْهَرِ المَعَانِي، فَكُلُّ قِرَاءَةٍ لَا تُوقِظُ فِي القَلْبِ بَصِيرَةً وَلَا تَزْرَعُ فِي الرُّوحِ حِكْمَةً هِيَ عُبُورٌ عَابِرٌ عَلَى شَاطِئِ البَحْرِ، وَلَا ارْتِوَاءَ حَقِيقِيًّا إِلَّا لِمَنْ غَاصَ فِي أَعْمَاقِ الوَحْيِ مُسْتَنِيرًا بِنُورِ اللَّهِ.

سِفْرُ الصَّدَى الأَوَّلُ

سورة الفاتحة

عَتَبَةُ الابْتِدَاءِ وَفَيْضُ الاسْمِ الأَوَّل

صَدَى {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ}

أَقِفُ عَلَى عَتَبَةِ الوُجُودِ الأُولَى مُتَوَشِّحاً بِافْتِقَارِي، فَأَرَى الأَشْيَاءَ كُلَّهَا تَنْتَظِرُ إِذْنَ الحَرَكَةِ مِنْ نَبْضِ اسْمِكَ الَّذِي يُوقِظُ المَعْنَى فِي صَمْتِ العَدَم. إِنَّنِي لَا أَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ خُطُوَاتِي سِوَى هَذَا التَّوَسُّلِ الشَّفَّافِ إِلَى سَنَدٍ عُلْوِيٍّ يُبَدِّدُ وَحْشَةَ الطَّرِيقِ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ الرِّحْلَةُ فِي مَجَاهِيلِ الزَّمَن. وَكَمْ تَاهَتْ رُوحِي فِي صَحَارَى الخَوْفِ حِينَ ظَنَّتْ أَنَّهَا تَقْدِرُ عَلَى العُبُورِ بِمُفْرَدِهَا، حَتَّى تَوَسَّدَتْ اسْمَ اللهِ فَانْقَلَبَ التِّيهُ فِي دَاخِلِي إِلَى وَاحَاتٍ يَسْرِي فِيهَا اللُّطْفُ كَالْمَاءِ العَذْبِ فِي عُرُوقِ الشَّجَر. أُبْصِرُ رَحْمَتَكَ الوَاسِعَةَ سَمَاءً تَظِلُّ الكَائِنَاتِ جَمِيعاً، وَأَلْمَسُ رَأْفَتَكَ الخَاصَّةَ نَدًى خَفِيّاً يَسْقُطُ بِرِفْقٍ عَلَى أَوْرَاقِ قَلْبِي المُتْعَبِ فَيُعِيدُ إِلَيْهِ النَّضَارَةَ وَالسَّكِينَة. فَمَا أَشَدَّ غُرْبَةَ المُسَافِرِ حِينَ يَخْطُو فِي عَرَاءِ الدُّنْيَا دُونَ أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ مِفْتَاحَ الأَمَانِ الَّذِي تَضَعُهُ البَسْمَلَةُ فِي كَفِّ الدُّعَاءِ وَاليَقِين. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ البَذْرَةُ الصَّغِيرَةُ فِي تُرَابِ التَّوَكُّلِ إِلَى أَثَرٍ نُورَانِيٍّ يَتَّصِلُ بِالسَّمَاء، بَيْنَمَا تَتَلَاشَى كُلُّ حَرَكَةٍ تَنْقَطِعُ عَنْ مَدَدِكَ الأَزَلِيِّ كَالسَّرَابِ فِي الهَجِير. فَكُلُّ ابْتِدَاءٍ بِغَيْرِ اسْمِكَ وَهْمٌ يَزُولُ وَيَنْطَفِئُ، وَبِاسْمِكَ وَحْدَهُ تَسْتَقِيمُ الحَيَاةُ وَيُزْهِرُ فِي الوِجْدَانِ سَلَامٌ لَا يَذْبُل.

نَشِيدُ العَوَالِمِ فِي مِحْرَابِ الرُّبُوبِيَّة

صَدَى {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

أُصْغِي إِلَى هَمْسِ الكَائِنَاتِ مِنْ حَوْلِي، فَأَجِدُ الوُجُودَ كُلَّهُ نَشِيدَ امْتِنَانٍ صَاعِداً نَحْوَ السَّمَاءِ الَّتِي تَرْعَى المَجَرَّاتِ وَالذَّرَّاتِ عَلَى حَدٍّ سَوَاء. إِنَّ هَذَا القَلْبَ لَا يَسْتَقِرُّ نَبْضُهُ إِلَّا حِينَ يَعْتَرِفُ بِالْجَمِيلِ لِمَنْ يُرَبِّي البَذْرَةَ الصَّامِتَةَ فِي ظُلْمَةِ التُّرَابِ حَتَّى تَصِيرَ شَجَرَةً تَعَانِقُ الضِّيَاءَ وَتَمْنَحُ الظِّلَّ لِلْعَابِرِين.

وَكَمْ احْتَنَفَتْ نَفْسِي بِأَنَانِيَّتِهَا حِينَ ظَنَّتْ أَنَّ النِّعَمَ تَسْقُطُ فِي كَفِّهَا صُدْفَةً، بَيْنَمَا هِيَ رَسَائِلُ حُبٍّ مُتَّصِلَةٌ مِنْ يَدِ التَّدْبِيرِ الحَكِيمِ الَّذِي لَا يَغْفُلُ عَنْ نَبْضَةٍ أَوْ نَفَس. أَتَأَمَّلُ اتِّسَاعَ العَوَالِمِ الظَّاهِرَةِ وَالخَفِيَّةِ، فَأَرَى كُلَّ مَا فِيهَا يَسْبَحُ فِي فَلَكِ رِعَايَتِكَ كَمَا تَسْبَحُ النُّجُومُ فِي مَدَارَاتِهَا، فَتَنْكَسِرُ فِي دَاخِلِي وَحْشَةُ الغُرْبَةِ وَيَتَبَدَّدُ خَوْفُ الضَّيَاع. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَتَحَرَّرَ اللِّسَانُ مِنْ ثِقَلِ الجُحُودِ لِيَنْضَمَّ إِلَى جَوْقَةِ الكَوْنِ المُتَنَاغِمَةِ فِي مِحْرَابِ الرُّبُوبِيَّةِ الخَالِدَة. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ تَفَاصِيلُ عُمْرِي البَسِيطَةُ بِالشُّكْرِ إِلَى جِسْرٍ مِنَ النُّورِ يَصِلُ أَرْضِي الفَانِيَةَ بِسَمَائِكَ البَاقِيَةِ وَيَمْلَأُ أَرْجَاءَ الرُّوحِ سَكِينَة. فَكُلُّ ثَنَاءٍ لِغَيْرِ اللهِ غُبَارٌ تَذْرُوهُ رِيَاحُ الفَنَاءِ، وَلَكَ وَحْدَكَ الحَمْدُ الَّذِي يُعِيدُ لِلْحَيَاةِ مَعْنَاهَا وَيُبْقِي لِلْوُجُودِ جَلَالَه.

غَيْثُ الوُجُودِ وَنَدَى الفُؤَاد

صَدَى {الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ}

تَنْهَمِرُ رَحْمَتُكَ يَا اللهُ غَيْثاً كَوْنِيّاً يَغْسِلُ وَجْهَ الوُجُودِ كُلِّهِ، فَأَرَى المِخْلُوقَاتِ تَتَنَفَّسُ فِي ظِلِّ كَرَمِكَ الوَاسِعِ الَّذِي لَا يَسْتَثْنِي أَحَداً مِنْ فَيْضِ العَطَاء. وَأَلْمَسُ فِي أَعْمَاقِي رَأْفَتَكَ الخَاصَّةَ نَدًى حَانِياً يَتَسَلَّلُ بِرِفْقٍ إِلَى مَوَاضِعِ الانْكِسَارِ فِي رُوحِي لِيُعِيدَ إِلَيْهَا الحَيَاةَ وَالِاتِّزَانَ بَعْدَ عَوَاصِفِ الأَلَم. وَكَمْ خَشِيتُ وَحْشَةَ العُزْلَةِ فِي هَذَا الفَضَاءِ الفَسِيحِ، حَتَّى أَدْرَكْتُ أَنَّ عَيْنَ رِعَايَتِكَ تَخُصُّنِي بِلُطْفٍ دَقِيقٍ يَرْفَعُنِي كُلَّمَا أَثْقَلَنِي الطِّينُ وَشَدَّنِي التُّرَابُ إِلَى أَسْفَل. أُبْصِرُ حَنَانَكَ يَسْرِي فِي مَفَاصِلِ الأَيَّامِ كَالنَّسِيمِ الخَفِيِّ، فَيُزْهِرُ الرَّجَاءُ فِي تُرْبَةِ نَفْسِي بَعْدَ طُولِ جَفَافٍ، وَتَتَفَتَّحُ أَزْهَارُ اليَقِينِ عَلَى ضِفَافِ قَلْبِي المُنْهَك. فَمَا أَعْذَبَ أَنْ تَتَحَوَّلَ رَهْبَةُ الجَلَالِ فِي وِجْدَانِي إِلَى أُنْسٍ شَفَّافٍ بِجَمَالِ الرَّحْمَةِ الَّتِي تَسْبِقُ كُلَّ عِتَابٍ وَتَمْحُو كُلَّ شَتَات. هَكَذَا تَتَعَلَّقُ بَصِيرَتِي كُلَّمَا تَلَاطَمَتْ أَمْوَاجُ الحَيَاةِ بِحَبْلِ لُطْفِكَ المَمْدُودِ الَّذِي يَصِلُ ضَعْفِي البَشَرِيَّ بِقُوَّتِكَ الأَزَلِيَّةِ وَيَمْنَحُنِي طَوْقَ النَّجَاة. فَكُلُّ قَسْوَةٍ فِي هَذَا العَالَمِ ظِلٌّ عَابِرٌ يَتَبَدَّدُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتِ الكَوْنَ فَصَانَتْهُ مِنَ التَّلَاشِي وَأَبْقَتْ لَهُ المَعْنَى.

مِيزَانُ الحَقِّ وَمَآبُ الخُلُود

صَدَى {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}

تَتَكَشَّفُ الحَقَائِقُ أَمَامَ بَصِيرَتِي حِينَ أَنْظُرُ إِلَى نِهَايَةِ المِطَافِ، فَأَرَى المُلْكَ كُلَّهُ يَؤُولُ إِلَى مَالِكِهِ الحَقِيقِيِّ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَلَا يَغْفُلُ عَنْ أَثَر. إِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا المَشْحُونَةَ بِالضَّجِيجِ وَالادِّعَاءِ تَسْكُنُ فَجْأَةً فِي وِجْدَانِي كُلَّمَا تَذَكَّرْتُ أَنَّ وَرَاءَ الزَّمَنِ يَوْماً تُرَدُّ فِيهِ المَظَالِمُ وَيَنْطِقُ فِيهِ العَدْلُ المُطْلَقُ بِفَصْلِ الخِطَاب. وَكَمْ اضْطَرَبَ قَلْبِي المُتْعَبُ مِنْ تَقَلُّبَاتِ الأَرْضِ وَجَوْرِ المَوَازِينِ، حَتَّى اسْتَنَدَ إِلَى حَقِيقَةِ أَنَّكَ وَحْدَكَ صَاحِبُ الأَمْرِ فِي ذَلِكَ المَوْقِفِ العَظِيمِ الَّذِي تَتَلَاشَى فِيهِ كُلُّ السُّلُطَاتِ الزَّائِفَة. أُبْصِرُ أَعْمَالَ الإِنْسَانِ وَنَوَايَاهُ الخَفِيَّةَ تَسِيرُ نَحْوَ مِيزَانِكَ الدَّقِيقِ كَمَا تَسِيرُ الأَنْهَارُ نَحْوَ البَحْرِ، فَتَسْقُطُ عَنْ عَيْنِي غِشَاوَةُ الغُرُور، وَأُدْرِكُ أَنَّ البَقَاءَ لِلصِّدْقِ وَحْدَهُ لَا لِبَرِيقِ المَادَّةِ الفَانِي. فَمَا أَهْوَنَ مَا يَفُوتُنِي فِي هَذَا العَالَمِ العَابِرِ مَا دَامَ الحِسَابُ بِيَدِ اللهِ الَّذِي يَعْلَمُ سِرَّ الدَّمْعَةِ الصَّادِقَةِ وَخَفْقَةَ النِّيَّةِ الخَالِصَةِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْل. هَكَذَا تَتَحَرَّرُ رُوحِي مِنْ أَسْرِ الخَوْفِ مِنَ الخَلْقِ، لِتَسْتَقِيمَ عَلَى جَادَّةِ اليَقِينِ وَهِيَ تَرْقُبُ يَوْمَ اللِّقَاءِ بِعَيْنِ الرَّجَاءِ وَالتَّسْلِيمِ المُطْلَق. فَكُلُّ مَا عَلَى التُّرَابِ ظِلٌّ يَنْقَضِي وَيَزُولُ، وَلَا يَبْقَى فِي سِجِلِّ الأَبَدِ إِلَّا مَا خَلُصَ لِوَجْهِكَ فِي يَوْمٍ أَنْتَ مَالِكُهُ وَحْدَك.

مِحْرَابُ التَّوْحِيدِ وَمَدَدُ العَاجِزِين

صَدَى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}

أُقْبِلُ بِوَجْهِي وَقَلْبِي نَحْوَ قِبْلَتِكَ الخَالِصَةِ، فَأَشْعُرُ أَنَّ كُلَّ سُجُودٍ لِغَيْرِكَ انْكِسَارٌ يَهُونُ بِهِ الإِنْسَانُ، وَأَنَّ العُبُودِيَّةَ لَكَ وَحْدَكَ هِيَ ذُرْوَةُ الحُرِّيَّةِ وَالِارْتِفَاعِ فَوْقَ قُيُودِ المَادَّة. إِنَّنِي أَبْرَأُ فِي مِحْرَابِكَ مِنْ حَوْلِي الضَّعِيفِ وَقُوَّتِي القَاصِرَةِ، مُعْتَرِفاً أَنَّ الرُّوحَ لَا تَمْلِكُ أَنْ تَخْطُوَ خُطْوَةً فِي طَرِيقِ الطَّاعَةِ إِلَّا بِمَدَدٍ يَتَنَزَّلُ مِنْ سَمَائِكَ وَيَشُدُّ أَزْرَ العَاجِزِين. وَكَمْ تَشَتَّتَتْ نَفْسِي حِينَ كَانَتْ تَلْتَفِتُ إِلَى الأَسْبَابِ الفَانِيَةِ تَلْتَمِسُ عِنْدَهَا النَّجَاةَ، حَتَّى أَبْصَرَتْ أَنَّ البَابَ الوَحِيدَ المَفْتُوحَ لِلْغَوْثِ هُوَ بَابُ اللهِ الَّذِي لَا يُغْلَقُ دُونَ السَّائِلِينَ وَلَا يَرُدُّ يَداً امْتَدَّتْ إِلَيْه. أَرَى الكَوْنَ كُلَّهُ يَخْشَعُ فِي صَمْتٍ مَهِيبٍ لِجَلَالِكَ، فَتَنْصَهِرُ فِي دَاخِلِي كُلُّ رَغْبَةٍ فِي التَّعَلُّقِ بِسِوَاكَ، وَيَصِيرُ قَلْبِي مِرْآةً صَافِيَةً لَا تَعْكِسُ إِلَّا وَجْهَكَ الكَرِيم. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا المِيثَاقَ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ صِدْقِ التَّوَجُّهِ إِلَيْكَ وَحَاجَةِ الفَقِيرِ إِلَى

عَوْنِكَ، فَلَا عِبَادَةَ تَسْتَقِيمُ دُونَ تَوْفِيقِكَ، وَلَا اسْتِعَانَةَ تَصْدُقُ دُونَ الإِقْبَالِ عَلَيْك. هَكَذَا يَتَحَوَّلُ عَجْزِي البَشَرِيُّ إِلَى قُوَّةٍ نُورَانِيَّةٍ حِينَ أَضَعُ يَدِي فِي كَفِّ رِعَايَتِكَ، فَأَمْضِي فِي دُرُوبِ الحَيَاةِ مُطْمَئِنّاً أَنَّ السَّنَدَ الحَقِيقِيَّ لَا يَخْذُلُ مَنْ لَاذَ بِهِ فِي العَاصِفَة. فَكُلُّ مَا سِوَاكَ وَهْمٌ يَتَبَدَّدُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَأَنْتَ وَحْدَكَ المَقْصُودُ بِالْحُبِّ وَالطَّاعَةِ، وَالمعِينُ الَّذِي تَسْتَقِيمُ بِهِ الرُّوحُ وَيَبْقَى بِهِ المَعْنَى.

نُورُ الجَادَّةِ وَبُوصَلَةُ الحَائِرِين

صَدَى {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}

أَقِفُ فِي مُفْتَرَقِ الطُّرُقِ المَتَشَابِكَةِ فَأَرْفَعُ بَصَرِي نَحْوَ سَمَائِكَ طَالِباً ذَلِكَ الخَيْطَ النُّورَانِيَّ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ يَقِينِ الحَقِّ وَتِيهِ الضَّلَال. إِنَّ هَذَا العَقْلَ القَاصِرَ يَظَلُّ أَسِيرَ الحَيْرَةِ وَالتَّرَدُّدِ مَا لَمْ تَتَدَارَكْهُ رِعَايَتُكَ بِهَدْيٍ يَكْشِفُ لَهُ اسْتِقَامَةَ الدَّرْبِ وَسَطَ ضَبَابِ الشُّبُهَاتِ وَتَقَلُّبِ الأَهْوَاء. وَكَمْ تَعَثَّرَتْ خُطَايَ حِينَ ظَنَنْتُ أَنَّ بَصِيرَتِي وَحْدَهَا تَكْفِي لِلْعُبُورِ، حَتَّى أَدْرَكْتُ أَنَّ الهِدَايَةَ مَنَّةٌ عُلْوِيَّةٌ يَهَبُهَا اللهُ لِلْقُلُوبِ الَّتِي تَصْدُقُ فِي طَلَبِ النَّجَاةِ وَتَخْلَعُ رِدَاءَ الكِبْرِيَاء. أَتَأَمَّلُ انْسِيَابَ النَّهْرِ نَحْوَ البَحْرِ دُونَ التِفَاتٍ، فَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ رُوحِي كَذَلِكَ المَاءِ الصَّافِي الَّذِي لَا يَنْحَرِفُ عَنْ غَايَتِهِ وَلَا يَغْتَرُّ بِبَرِيقِ المَسَالِكِ المَعْوَجَّةِ الَّتِي تُغْرِي العَابِرِينَ بِالسَّرَاب. فَمَا أَشَدَّ حَاجَتِي إِلَى ثَبَاتِ القَدَمِ فِي زَمَنٍ تَتَقَلَّبُ فِيهِ المَوَازِينُ، وَتَتَعَدَّدُ فِيهِ الرَّايَاتُ، وَلَا يَبْقَى فِيهِ مِنْ أَمَانٍ إِلَّا لِمَنْ لَزِمَ جَادَّتَكَ الوَاضِحَة. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الصَّلَاةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى نِدَاءٍ دَائِمٍ لِلِاسْتِقَامَةِ، فَلَا أَطْلُبُ فَقَطْ مَعْرِفَةَ الطَّرِيقِ، بَلْ أَلْتَمِسُ القُوَّةَ عَلَى المَشْيِ فِيهِ حَتَّى آخِرِ نَفَسٍ فِي العُمْر. فَكُلُّ دَرْبٍ يَبْتَعِدُ عَنْ مَنْهَجِكَ سَرَابٌ يُفْضِي إِلَى الفَنَاءِ، وَصِرَاطُكَ المُسْتَقِيمُ هُوَ الحَقُّ الخَالِدُ الَّذِي يَصِلُ العَبْدَ بِرَبِّهِ وَيُبْقِي لِلْوُجُودِ مَعْنَاه.

قَافِلَةُ النُّورِ وَمَتَاهَةُ الظِّلَال

صَدَى {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}

أَمُدُّ بَصَرِي عَلَى امْتِدَادِ الزَّمَنِ الغَابِرِ، فَأَرَى قَافِلَةً مِنَ الأَرْوَاحِ البَيْضَاءِ تَعْبُرُ جِسْرَ اليَقِينِ وَقَدْ خَلَعَتْ نِعَالَ الطِّينِ، وَتَوَشَّحَتْ بِنِعْمَةِ النُّورِ الَّذِي لَا يَنْطَفِئُ فِي عَوَاصِفِ الغِيَاب. إِنَّنِي لَا أَمْشِي

فِي فَرَاغٍ أَصَمَّ، بَلْ أَتَتَبَّعُ آثَارَ أَقْدَامٍ سَبَقَتْنِي إِلَى حَضْرَةِ الحَقِّ، فَتَرَكَتْ عَلَى رِمَالِ الوُجُودِ نُجُوماً تَهْدِي السَّالِكِينَ، وَأَزْهَاراً تَنْبُتُ كُلَّمَا لَامَسَتْهَا دَمْعَةُ الخُشُوعِ الصَّادِق. وَكَمْ ارْتَجَفَتْ رُوحِي حِينَ أَبْصَرَتْ هَاوِيَتَيْنِ سَحِيقَتَيْنِ تَتَرَبَّصَانِ بِالقَلْبِ إِذَا غَفَلَ عَنْ رِعَايَةِ اللهِ؛ هَاوِيَةُ الجُحُودِ الَّتِي تَحَمَّدَتْ فِيهَا القُلُوبُ كَالصَّخْرِ الأَصَمِّ فَأَبْصَرَتِ الحَقِيقَةَ ثُمَّ أَدَارَتْ لَهَا ظَهْرَ الكِبْرِيَاءِ حَتَّى اسْتَوْطَنَهَا الغَضَب، وَهَاوِيَةُ التِّيهِ الَّتِي تَشَظَّتْ فِيهَا البَصَائِرُ كَالغُبَارِ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ فَمَشَتْ بِغَيْرِ بُوصَلَةٍ تَلْهَثُ خَلْفَ السَّرَابِ وتُعَانِقُ الوَهْمَ عَلَى أَنَّهُ النَّجَاة. أَرَى نَفْسِي وَاقِفَةً بَيْنَ مِرْآتَيْنِ؛ مِرْآةٌ تَعْكِسُ وُجُوهَ المُنْعَمِ عَلَيْهِمْ وَقَدْ صَارُوا مَنَارَاتٍ لِلْحَقِّ تَسْتَقِي مَاءَهَا مِنْ نَبْعِ السَّمَاءِ، وَمِرْآةٌ أُخْرَى تَكْشِفُ انْكِسَارَ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ حِينَ بَنَوْا قُصُورَهُمْ عَلَى جُرُفِ الأَنَانِيَّةِ وَالهَوَى. فَمَا أَشَدَّ تَقَابُلَ المَصَائِرِ فِي هَذَا المَشْهَدِ المَهِيبِ، فَلَا أَمْلِكُ إِلَّا أَنْ أُعَلِّقَ قَلْبِي بِحَبْلِ الرَّجَاءِ، مُتَبَرِّئاً مِنْ قَسْوَةِ مَنْ عَرَفَ فَجَحَد، وَمِنْ حَيْرَةِ مَنْ جَهِلَ فَشَرَد. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الخَطْوَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى صِرَاعٍ صَامِتٍ بَيْنَ نِدَاءِ المَلَكُوتِ الَّذِي يَجْذِبُنِي إِلَى رُفْقَةِ الأَبْرَار، وَثِقَلِ التُّرَابِ الَّذِي يُغْرِينِي بِالِانْحِرَافِ عَنِ الجَادَّةِ نَحْوَ ظُلُمَاتِ الِاغْتِرَار. فَكُلُّ مَسِيرٍ خَارِجَ قَافِلَةِ النُّورِ سُقُوطٌ فِي مَتَاهَةِ الظِّلَالِ الفَانِيَة، وَلَا خُلُودَ لِلرُّوحِ إِلَّا فِي صُحْبَةِ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ حِينَ اسْتَقَامُوا عَلَى صِرَاطِكَ فَبَقِيَ لَهُمُ المَعْنَى وَتَلَاشَى السِّوَى.

سِفْرُ الصَّدَى الثَّانِي

سورة البقرة

مَفَاتِيحُ الغَيْبِ وَبَوَّابَةُ المعْنَى

صَدَى {الم}

أَقِفُ أَمَامَ هَذِهِ الحُرُوفِ الثَّلَاثَةِ المَقْطُوعَةِ عَنْ مَأْلُوفِ الكَلَامِ، فَأَرَى اللُّغَةَ تَخْلَعُ نِعَالَ العَادَةِ وَتَنْحَنِي فِي مِحْرَابِ السِّرِّ الإِلَهِيِّ المَكْنُون. إِنَّ عَقْلِي البَشَرِيَّ القَاصِرَ يَصْطَدِمُ بِعَجْزِهِ الأَوَّلِ عِنْدَ عَتَبَةِ هَذَا الإِعْجَازِ الصَّامِتِ، فَيُدْرِكُ أَنَّ الحَقِيقَةَ الكُبْرَى أَوْسَعُ مِنْ أَنْ تُحِيطَ بِهَا قَوَالِبُ الحُرُوفِ المَأْلُوفَة. وَكَمْ اغْتَرَّتْ نَفْسِي بِأَدَوَاتِ البَيَانِ وَفَصَاحَةِ اللِّسَانِ حِينَ ظَنَّتْ أَنَّهَا تَمْلِكُ مَفَاتِيحَ الكَوْنِ، حَتَّى أَوْقَفَتْهَا هَذِهِ الرُّمُوزُ النُّورَانِيَّةُ عَلَى حَافَّةِ الدَّهْشَةِ وَالتَّسْلِيم. أُبْصِرُ الأَلِفَ وَاللَّامَ وَالمِيمَ نُجُوماً مُعَلَّقَةً فِي سَمَاءِ الوَحْيِ، تَتَحَدَّى كِبْرِيَاءَ الفَصَاحَةِ وَتُعْلِنُ أَنَّ كَلَامَ اللهِ نَسِيجٌ عُلْوِيٌّ لَا يُشْبِهُ حِكَايَاتِ التُّرَابِ وَلَا يَخْضَعُ لِقَوَانِينِ البَشَر. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَبْدَأَ الكِتَابُ المَجِيدُ بِإِيقَاظِ الرُّوحِ عَبْرَ الصَّمْتِ البَلِيغِ، لِيُعَلِّمَ القَلْبَ أَنَّ المَعْرِفَةَ تَبْدَأُ حِينَ يَعْتَرِفُ الإِنْسَانُ بِحُدُودِ إِدْرَاكِهِ أَمَامَ لَا نِهَائِيَّةِ المعْنَى. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ هَذِهِ الحُرُوفُ فِي وِجْدَانِي إِلَى بَوَّابَةٍ مِنَ النُّورِ تَفْصِلُ بَيْنَ ضَجِيجِ الأَرْضِ وَسَكِينَةِ السَّمَاء، فَأَدْخُلُ إِلَى مَلَكُوتِ القُرْآنِ خَاشِعاً مُنْكَسِرَ الغُرُور. فَكُلُّ بَيَانٍ بَشَرِيٍّ يَتَلَاشَى عِنْدَ أَبْوَابِ الغَيْبِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِكَلِمَةِ الحَقِّ الَّتِي تَعْجِزُ العُقُولُ عَنْ مُجَارَاتِهَا وَيَبْقَى جَلَالُهَا وَالمعْنَى.

مِرْآةُ اليَقِينِ وَمَنَارَةُ المتَّقِين

صَدَى {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}

أَرْفَعُ بَصَرِي نَحْوَ هَذَا الصَّرْحِ السَّمَاوِيِّ الشَّامِخِ، فَأَرَى كِتَاباً لَا تَتَسَلَّلُ إِلَيْهِ ظِلَالُ الشَّكِّ وَلَا تَعْبَثُ بِأَرْكَانِهِ رِيَاحُ الظُّنُونِ وَالتَّرَدُّد. إِنَّ هَذِهِ الرُّوحَ المُثْقَلَةَ بِحَيْرَةِ السُّؤَالِ وَقَلَقِ المَصِيرِ تَجِدُ فِي صَفَحَاتِهِ شَاطِئَ الأَمَانِ الَّذِي تَتَكَسَّرُ عِنْدَهُ أَمْوَاجُ الرَّيْبِ وَأَوْهَامُ العَقْلِ القَاصِر. وَكَمْ تَاهَتْ بَصِيرَتِي فِي

مَتَاهَاتِ الفَلْسَفَاتِ الفَانِيَةِ تَلْتَمِسُ يَقِيناً لَا يَتَزَحْزَحُ، حَتَّى أَشْرَقَتْ عَلَيْهَا شَمْسُ التَّنْزِيلِ فَبَدَّدَتْ ضَبَابَ الشُّبُهَاتِ وَأَعَادَتْ لِلْقَلْبِ طُمَأْنِينَتَهُ الأُولَى. أُبْصِرُ نُورَ الهِدَايَةِ يَنْبَعِثُ مِنْ بَيْنِ السُّطُورِ كَالنَّبْعِ الصَّافِي، وَلَكِنَّهُ لَا يَسْقِي إِلَّا القُلُوبَ الَّتِي تَهَيَّأَتْ بِالتَّقْوَى وَخَلَعَتْ أَرْدِيَةَ الكِبْرِيَاءِ وَالعِنَاد. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّلَاقِي بَيْنَ صَفَاءِ الوَحْيِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَنَقَاءِ الفِطْرَةِ الَّتِي تَخْشَى الضَّيَاعَ فِي ظُلُمَاتِ الهَوَى. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ التَّقْوَى فِي دَاخِلِي إِلَى عَيْنٍ ثَالِثَةٍ تُبْصِرُ مَا وراءَ الحُرُوفِ، فَيَصِيرُ الكِتَابُ دَلِيلاً حَيّاً يَقُودُ خُطُوَاتِي فِي عَتْمَةِ الحَيَاةِ نَحْوَ مَنَازِلِ الرِّضْوَان. فَكُلُّ مَعْرِفَةٍ بَعِيدَةٍ عَنِ الوَحْيِ سَرَابٌ يَزُولُ، وَلَا هِدَايَةَ خَالِدَةَ إِلَّا فِي نُورِ هَذَا الكِتَابِ الَّذِي يُحْيِي القُلُوبَ المُتَّقِيَةَ وَيُبْقِي لِلْوُجُودِ مَعْنَاه.

جُسُورُ الغَيْبِ وَزَكَاةُ العَطَاء

صَدَى {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}

أَمُدُّ جُسُورَ بَصِيرَتِي خَلْفَ حُجُبِ المادَّةِ الكَثِيفَةِ، فَأَرَى الحَقِيقَةَ الكُبْرَى تَتَجَلَّى لِلْقُلُوبِ الَّتِي لَا تَحْبِسُ نَفْسَهَا فِي سِجْنِ الحَوَاسِّ وَضِيقِ المحْسُوس. إِنَّ إِيمَانِي بِالغَيْبِ هُوَ تَحَرُّرُ رُوحِي مِنْ أَسْرِ الطِّينِ، وَتَحْلِيقُهَا فِي فَضَاءِ اليَقِينِ الَّذِي يُصَدِّقُ بِوَعْدِ السَّمَاءِ وَإِنْ غَابَ عَنْ عَيْنِ الرَّأْسِ وَمِيزَانِ التُّرَاب. وَكَمْ جَفَّتْ عُرُوقُ نَفْسِي حِينَ كَانَتْ تَقِيسُ الوُجُودَ بِمَا تَلْمَسُهُ اليَدُ فَقَطْ، حَتَّى أَقَامَتِ الصَّلَاةَ فَانْفَتَحَ فِي صَدْرِي مِحْرَابٌ يَصِلُ أَرْضِي الفَانِيَةَ بِعَرْشِ اللهِ الأَبَدِيّ. أُبْصِرُ الصَّلَاةَ عَمُوداً مِنَ النُّورِ يَرْفَعُ ثِقَلِي البَشَرِيَّ نَحْوَ المَلَكُوتِ، وَأَرَى الإِنْفَاقَ يَداً بَيْضَاءَ تَغْسِلُ القَلْبَ مِنْ دَرَنِ الشُّحِّ وَتُعِيدُ لِلْمَالِ رُوحَهُ حِينَ يَتَحَوَّلُ مِنْ مَادَّةٍ صَمَّاءَ إِلَى رَحْمَةٍ تَسْرِي فِي أَوْصَالِ الفُقَرَاء. فَمَا أَبْدَعَ هَذَا التَّنَاغُمَ بَيْنَ سِرِّ القَلْبِ المؤْمِنِ بِالغَيْبِ، وَحَرَكَةِ الجَسَدِ القَائِمِ بِالصَّلَاةِ، وَسَخَاءِ الكَفِّ المتَحَرِّرَةِ مِنْ قَيْدِ الأَنَانِيَّة. هَكَذَا يَتَحَوَّلُ الرِّزْقُ فِي كَفِّي إِلَى أَمَانَةٍ عُلْوِيَّةٍ أُعِيدُ تَوْزِيعَهَا بِحُبٍّ، لِأُثْبِتَ أَنَّ مَا عِنْدَ البَاقِي أَزْكَى وَأَبْقَى مِمَّا تَكْنِزُهُ الأَيْدِي فِي خَزَائِنِ الفَنَاء. فَكُلُّ مَا تُخْفِيهِ المادَّةُ وَهْمٌ يَنْقَضِي، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِيَقِينٍ عَبَرَ حُجُبَ الغَيْبِ وَتَرْجَمَ إِيمَانَهُ صَلَاةً تُقَامُ وَعَطَاءً لَا يَنْقَطِع.

مِيثَاقُ النُّبُوَّاتِ وَيَقِينُ الآخِرَة

صَدَى {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}

أُطِلُّ عَلَى مَوْكِبِ الوَحْيِ المُتَّصِلِ عَبْرَ قُرُونِ الزَّمَنِ، فَأَرَى رِسَالَاتِ السَّمَاءِ نَهْراً وَاحِداً يَنْبُعُ مِنْ مَشْكَاةِ النُّورِ الأَزَلِيِّ لِيَرْوِيَ عَطَشَ البَشَرِيَّةِ فِي كُلِّ عَصْر. إِنَّ قَلْبِي لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ نُورٍ وَنُورٍ، بَلْ يَحْتَضِنُ القُرْآنَ الخَاتِمَ وَكُلَّ مَا سَبَقَهُ مِنْ كُتُبِ الحَقِّ بِوِجْدَانٍ وَاحِدٍ يُدْرِكُ أَنَّ المُتَكَلِّمَ وَاحِدٌ وَالمَقْصِدَ وَاحِد. وَكَمْ تَشَظَّتِ العُقُولُ حِينَ أَقَامَتِ الجُدْرَانَ بَيْنَ شَرَائِعِ السَّمَاءِ، بَيْنَمَا رُوحِي تَرَى فِي كُلِّ نَبِيٍّ شَمْعَةً أَضَاءَتْ عَتْمَةَ الطَّرِيقِ حَتَّى أَشْرَقَتْ شَمْسُ الرِّسَالَةِ الخَاتِمَةِ تَمْلَأُ الآفَاق. أُبْصِرُ الدُّنْيَا مَعْبَراً ضَيِّقاً يَتَلَاشَى خَلْفَ خُطُوَاتِي، فَيَتَّجِهُ يَقِينِي الكَامِلُ نَحْوَ الدَّارِ الآخِرَةِ الَّتِي تَسْتَقِرُّ فِيهَا الحَقَائِقُ وَتُوزَنُ فِيهَا الأَعْمَالُ بِمِيزَانِ اللهِ العَادِل. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَعِيشَ الإِنْسَانُ وَبَصَرُهُ مُعَلَّقٌ بِالأَبَدِ، فَلَا تَسْتَفِزُّهُ فِتَنُ العَاجِلَةِ وَلَا يَخْدَعُهُ بَرِيقُ المَتَاعِ الزَّائِل. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِي إِلَى مَزْرَعَةٍ لِلْخُلُودِ، أَغْرِسُ فِيهَا اليَقِينَ بِوَحْدَةِ الوَحْيِ وَصِدْقِ اللِّقَاءِ، لِأَحْصُدَ الطُّمَأْنِينَةَ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ وَيَنْكَشِفُ الغِطَاء. فَكُلُّ حَاضِرٍ يَنْقَطِعُ عَنْ مِيثَاقِ السَّمَاءِ سَرَابٌ يَزُولُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِرُوحٍ آمَنَتْ بِمَا أُنْزِلَ وَأَيْقَنَتْ أَنَّ الآخِرَةَ هِيَ الحَيَاةُ الحَقَّةُ وَالمَعْنَى.

مَنَازِلُ النُّورِ وَتَاجُ الفَلَاح

صَدَى {أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}

أَرَى هَؤُلَاءِ السَّالِكِينَ وَقَدِ ارْتَفَعُوا فَوْقَ غُبَارِ التِّيهِ، يَمْشُونَ عَلَى سَحَابٍ مِنَ الهِدَايَةِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهِمْ كَمَا يُحِيطُ الضِّيَاءُ بِالقَمَرِ فِي لَيْلَةِ التَّمَام. إِنَّنِي أَتَأَمَّلُ هَذَا التَّمَكُّنَ الرُّوحِيَّ العَجِيبَ، فَهُمْ لَا يَبْحَثُونَ عَنِ الطَّرِيقِ كَالْحَائِرِينَ، بَلْ هُمْ فَوْقَ جَادَّةِ الحَقِّ يَسْتَمِدُّونَ خُطُوَاتِهِمْ مِنْ رِعَايَةِ رَبِّهِمُ الَّذِي اصْطَفَاهُمْ لِقُرْبِه. وَكَمْ شَقِيَتْ نَفْسِي حِينَ كَانَتْ تَقِيسُ الفَلَاحَ بِمَكَايِيلِ الأَرْضِ وَأَرْقَامِ الفَانِينَ، حَتَّى أَدْرَكَتْ أَنَّ الفَوْزَ الحَقِيقِيَّ هُوَ نَجَاةُ الرُّوحِ مِنْ هَاوِيَةِ الخُسْرَانِ وَظَفَرُهَا بِرِضَا اللهِ العَظِيم. أُبْصِرُ وُجُوهَ المُفْلِحِينَ تَتَلَأْلَأُ بِسَكِينَةِ اليَقِينِ، وَقَدْ تَحَرَّرُوا مِنْ أَسْرِ الشَّهَوَاتِ وَانْتَصَرُوا عَلَى دَوَاعِي الهَوَى وَالِاغْتِرَارِ بِزُخْرُفِ الحَيَاة. فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الشَّهَادَةَ الإِلَهِيَّةَ الَّتِي تُتَوِّجُ رِحْلَةَ الصِّدْقِ وَالعَطَاءِ بِوِسَامِ الفَلَاحِ الأَبَدِيِّ الَّذِي لَا يَبْلَى وَلَا يَزُول. هَكَذَا تَتَطَلَّعُ أَشْوَاقِي إِلَى مَنَازِلِ هَؤُلَاءِ الأَبْرَارِ، فَأَسْأَلُ

سَمَائِي أَنْ تَجْعَلَ نَصِيبِي مِنْ هَذَا النُّورِ حَظّاً يَقُودُنِي إِلَى شَاطِئِ النَّجَاةِ وَالفَوْزِ المبِين. فَكُلُّ ظَفَرٍ دُنْيَوِيٍّ يَنْتَهِي إِلَى التُّرَابِ، وَلَا فَلَاحَ خَالِداً إِلَّا لِمَنِ اسْتَقَرَّ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِ فَبَقِيَ لَهُ الأَثَرُ وَالمعْنَى.

قُلُوبُ الصَّخْرِ وَحِجَابُ العِنَاد

صَدَى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}

أَنْظُرُ بِأَسًى عَمِيقٍ إِلَى تِلْكَ القُلُوبِ الَّتِي أَغْلَقَتْ نَوَافِذَهَا فِي وَجْهِ الشَّمْسِ، فَاسْتَوَتْ عِنْدَهَا نُذُرُ السَّمَاءِ وَصَمْتُ العَدَمِ فِي جُمُودٍ قَاتِل. إِنَّ الكُفْرَ لَيْسَ مُجَرَّدَ جَهْلٍ بِالحَقِيقَةِ، بَلْ هُوَ تَصَخُّرٌ اخْتِيَارِيٌّ يُحَوِّلُ الرُّوحَ إِلَى صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَا تَنْفُذُ إِلَيْهَا قَطَرَاتُ الغَيْثِ وَلَا تُحَرِّكُهَا صَيْحَاتُ التَّحْذِير. وَكَمْ يَرْتَجِفُ قَلْبِي خَوْفاً مِنْ هَذَا التَّبَلُّدِ الرُّوحِيِّ الَّذِي يَجْعَلُ الإِنْسَانَ أَصَمَّ عَنْ نِدَاءِ الفِطْرَةِ، أَعْمَى عَنْ آيَاتِ اللهِ المبْثُوثَةِ فِي الآفَاقِ وَالأَنْفُس. أُبْصِرُ كَلِمَاتِ الإِنْذَارِ تَتَكَسَّرُ عَلَى جُدْرَانِ كِبْرِيَائِهِمْ كَمَا تَتَكَسَّرُ الأَمْوَاجُ عَلَى جُرُفٍ مَيِّتٍ لَا حَيَاةَ فِيهِ وَلَا اسْتِجَابَة. فَمَا أَشَدَّ عَذَابَ النَّفْسِ حِينَ تَصِلُ إِلَى مَرْحَلَةِ الِاسْتِوَاءِ بَيْنَ النُّورِ وَالظَّلَامِ، فَلَا يَهُزُّهَا وَعِيدٌ وَلَا يُوقِظُهَا تَذْكِيرٌ مِنْ سُبَاتِ الجُحُود. هَكَذَا أَتَعَلَّمُ أَنْ أَتَفَقَّدَ لِيُونَةَ قَلْبِي فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَأَنْ أَسْقِيَهُ بِدُمُوعِ الخَشْيَةِ حَتَّى لَا يَتَحَجَّرَ فَيُصْبِحَ غَرِيباً عَنْ نِدَاءِ الوَحْيِ وَرَحْمَةِ السَّمَاء. فَكُلُّ قَلْبٍ يَتَمَرَّدُ عَلَى الفِطْرَةِ يَنْتَهِي إِلَى مَوْتٍ بَطِيءٍ، وَلَا حَيَاةَ إِلَّا لِلرُّوحِ الَّتِي تَرْتَعِشُ عِنْدَ سَمَاعِ الآيَاتِ فَيَبْقَى لَهَا النَّبْضُ وَالمعْنَى.

أَقْفَالُ الغَفْلَةِ وَظُلْمَةُ الحِجَاب

صَدَى {خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}

أَرَى عَاقِبَةَ الإِعْرَاضِ الطَّوِيلِ تَتَجَسَّدُ فِي أَقْفَالٍ ثَقِيلَةٍ تُطْبِقُ عَلَى مَنَافِذِ الإِدْرَاكِ، فَيُصْبِحُ القَلْبُ سِجْناً مُظْلِماً لَا يَدْخُلُهُ ضَوْءٌ وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ أَنِين. إِنَّ هَذَا الخَتْمَ الإِلَهِيَّ لَيْسَ ظُلْماً مِنَ السَّمَاءِ، بَلْ هُوَ قَانُونُ العَدْلِ الَّذِي يُكَرِّسُ الاخْتِيَارَ النَّفْسِ حِينَ أَصَرَّتْ عَلَى إِطْفَاءِ سِرَاجِهَا بِيَدِهَا وَأَلِفَتِ

العَيْشَ فِي السَّرَادِيبِ المُعْتِمَة. وَكَمْ تَشْعُرُ رُوحِي بِالرَّهْبَةِ حِينَ تَتَأَمَّلُ هَذِهِ الغِشَاوَةَ الكَثِيفَةَ الَّتِي تَحْجُبُ العَيْنَ عَنْ رُؤْيَةِ الحَقِّ، فَتَرَى البَاطِلَ حَقّاً وَتَحْسَبُ الضَّلَالَ نَجَاةً وَارْتِفَاعاً. أُبْصِرُ السَّمْعَ وَقَدْ تَعَطَّلَ عَنِ الْتِقَاطِ أَنْغَامِ الهِدَايَةِ، وَالبَصَرَ وَقَدْ تَاهَ فِي ضَبَابِ الأَوْهَامِ، لِيَقُودَ هَذَا العَمَى البَاطِنِيُّ صَاحِبَهُ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ يَلْتَهِمُ كِيَانَهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة. فَمَا أَشَدَّ حَاجَتِي إِلَى الِاسْتِجَارَةِ بِاسْمِ اللهِ مِنْ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُ قَلْبِي بِسَبَبِ ذُنُوبِي، أَوْ أَنْ يَسْدُلَ الغُرُورُ سِتَارَهُ عَلَى بَصِيرَتِي فَأَعِيشَ فِي عَتْمَةِ الحِرْمَان. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ هَذِهِ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى صَرْخَةِ إِيقَاظٍ تَدْفَعُنِي لِتَطْهِيرِ سَمْعِي وَبَصَرِي مِنْ غُبَارِ الغَفْلَةِ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ القَلَمُ وَيُطْبَعَ الخَتْم. فَكُلُّ حَاسَّةٍ تَنْفَصِلُ عَنْ نُورِ اللهِ تَصِيرُ حِجَاباً وَعَذَاباً، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِقَلْبٍ مَفْتُوحٍ يَتَنَفَّسُ الحَقَّ فَيَبْقَى لَهُ الضِّيَاءُ وَالمَعْنَى.

أَقْنِعَةُ الخِدَاعِ وَوَهْمُ النِّفَاق

صَدَى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ}

أَتَأَمَّلُ هَذَا الوَجْهَ المُزْدَوِجَ الَّذِي يَتَسَلَّلُ فِي الظِّلَالِ، فَأَرَى أَلْسِنَةً تَنْطِقُ بِشَهَادَةِ الإِيمَانِ بِبَرَاعَةٍ زَائِفَةٍ، بَيْنَمَا تَخْتَبِئُ فِي الصُّدُورِ خَرَائِبُ الكُفْرِ وَالجُحُود. إِنَّ النِّفَاقَ هُوَ أَقْبَحُ انْقِسَامٍ تَعِيشُهُ الذَّاتُ البَشَرِيَّةُ حِينَ يَنْفَصِلُ الظَّاهِرُ عَنِ البَاطِنِ، فَيَصِيرُ الإِنْسَانُ قِنَاعاً أَجْوَفَ يَتَلَوَّنُ بِحَسَبِ المَصَالِحِ وَالأَهْوَاء. وَكَمْ أَخْشَى عَلَى نَفْسِي مِنْ هَذَا التَّسَلُّلِ الخَفِيِّ لِلرِّيَاءِ، حِينَ تَتَزَيَّنُ الكَلِمَاتُ بِثَوْبِ التَّقْوَى أَمَامَ الخَلْقِ، بَيْنَمَا يَخْلُو القَلْبُ مِنْ حَقِيقَةِ اليَقِينِ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِر. أُبْصِرُ المُتَلَبِّسِينَ بِهَذَا الوَهْمِ يَظُنُّونَ أَنَّ الإِيمَانَ مُجَرَّدُ عِبَارَةٍ تُرَدَّدُ لِكَسْبِ الأَمَانِ الدُّنْيَوِيّ، غَافِلِينَ عَنْ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تَنْظُرُ إِلَى صُوَرِ الأَلْسِنَةِ بَلْ تَخْتَرِقُ أَعْمَاقَ السَّرَائِر. فَمَا أَشَدَّ بُؤْسَ الرُّوحِ الَّتِي تَعِيشُ غَرِيبَةً عَنْ حَقِيقَتِهَا، تَدَّعِي الِانْتِمَاءَ إِلَى قَافِلَةِ النُّورِ وَهِيَ فِي البَاطِنِ غَارِقَةٌ فِي وَحْلِ الظَّلَامِ وَالتَّرَدُّد. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ مُرَاقَبَةُ النِّيَّةِ فِي دَاخِلِي إِلَى جِهَادٍ دَائِمٍ لِتَطْهِيرِ البَاطِنِ حَتَّى يُطَابِقَ الظَّاهِرَ، فَلَا أَقُولُ بِلِسَانِي إِلَّا مَا يَشْهَدُ بِهِ نَبْضُ قَلْبِي الصَّادِق. فَكُلُّ قِنَاعٍ يَسْقُطُ عِنْدَ عَتَبَةِ الحَقِيقَةِ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِإِيمَانٍ تَوَحَّدَ فِيهِ السِّرُّ وَالعَلَنُ فَبَقِيَ لَهُ الصِّدْقُ وَالمَعْنَى.

سَرَابُ المكْرِ وَانْقِلَابُ السِّحْر

صَدَى {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}

أُبْصِرُ مَشْهَداً يَبْعَثُ عَلَى الدَّهْشَةِ وَالرِّثَاءِ؛ عُقُولٌ صَغِيرَةٌ تَنْسِجُ خُيُوطَ العَنْكَبُوتِ لِتَصْطَادَ بِهَا نُورَ الشَّمْسِ، فَتَظُنُّ أَنَّهَا تَخْدَعُ الخَالِقَ العَلِيمَ وَالمؤْمِنِينَ بِمَكْرِهَا الخَفِيّ. إِنَّ هَذَا الغُرُورَ الأَعْمَى يُصَوِّرُ لِلْمُنَافِقِ أَنَّ دَهَاءَهُ البَشَرِيَّ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوَارِيَ سَوْءَاتِ قَلْبِهِ عَنْ عَيْنِ اللهِ الَّتِي تَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور. وَكَمْ تَتَعَجَّبُ رُوحِي مِنْ هَذَا السُّقُوطِ المرِيعِ فِي بَشَرٍ يَحْفِرُونَ قُبُورَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ، فَكُلُّ سَهْمٍ يُطْلِقُونَهُ لِخِدَاعِ الحَقِّ يَرْتَدُّ إِلَى صُدُورِهِمْ سُمّاً يَقْتُلُ بَصَائِرَهُمْ دُونَ أَنْ يَشْعُرُوا. أَرَى حِبَالَ مَكْرِهِمْ تَلْتَفُّ حَوْلَ أَعْنَاقِهِمْ كَالأَفَاعِي، بَيْنَمَا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ فِي مَأْمَنٍ مِنَ الانْكِشَافِ وَأَنَّ لُعْبَةَ التَّلَوُّنِ سَتَدُومُ لَهُمْ إِلَى الأَبَد. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الحِجَابَ الَّذِي يُفْقِدُ الإِنْسَانَ الشُّعُورَ بِخَسَارَتِهِ، فَيَضْحَكُ فِي لَحْظَةِ انْهِيَارِهِ وَيَفْرَحُ بِذَكَائِهِ الَّذِي يَقُودُهُ إِلَى الهَاوِيَةِ السَّحِيقَة. هَكَذَا تَتَجَرَّدُ نَفْسِي أَمَامَ جَلَالِ السَّمَاءِ مِنْ كُلِّ مُحَاوَلَةٍ لِلتَّزْيِينِ أَوِ المرَاوَغَةِ، مُدْرِكَةً أَنَّ الصِّدْقَ العَارِيَ هُوَ طَوْقُ النَّجَاةِ الوَحِيدُ فِي حَضْرَةِ العَلِيمِ الخَبِير. فَكُلُّ خِدَاعٍ يَرْتَدُّ عَلَى صَاحِبِهِ وَيُبَدِّدُ عُمْرَهُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلصَّفَاءِ الَّذِي يَسْتَقِيمُ أَمَامَ اللهِ فَيَبْقَى لَهُ الأَمَانُ وَالمعْنَى.

عِلَّةُ البَاطِنِ وَأَلَمُ الكِذْب

صَدَى {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}

أَتَأَمَّلُ كَيْفَ يَتَحَوَّلُ الشَّكُّ وَالحَسَدُ فِي أَعْمَاقِ الصَّدْرِ إِلَى سُمٍّ بَطِيءٍ يَنْهَشُ عَافِيَةَ الرُّوحِ، فَيُصْبِحُ القَلْبُ عَلِيلاً يَتَأَلَّمُ كُلَّمَا أَشْرَقَ نُورُ الحَقِّ أَوِ ارْتَفَعَتْ رَايَةُ اليَقِين. إِنَّ هَذَا المرَضَ البَاطِنِيَّ لَيْسَ عَارِضاً جَسَدِيّاً يَزُولُ بِالدَّوَاءِ، بَلْ هُوَ فَسَادٌ فِي الفِطْرَةِ يَتَغَذَّى عَلَى الكِذْبِ وَالتَّلَوُّنِ حَتَّى يَفْقِدَ القَلْبُ قُدْرَتَهُ عَلَى تَذَوُّقِ حَلَاوَةِ الإِيمَان. وَكَمْ أَخْشَى عَلَى وِجْدَانِي مِنْ تَرَاكُمِ هَذِهِ العِلَلِ الخَفِيَّةِ حِينَ تَتَسَاهَلُ النَّفْسُ فِي صَغَائِرِ التَّرَدُّدِ، فَتُعَاقَبُ بِمَزِيدٍ مِنَ الضَّيَاعِ وَالحَيْرَةِ الَّتِي تُمَزِّقُ سَكِينَتَهَا.

أُبْصِرُ الكِذْبَ مِطْرَقَةً تَهْدِمُ بُنْيَانَ الرُّوحِ مِنْ الدَّاخِلِ، وتُعِدُّ لِصَاحِبِهَا عَذَاباً أَلِيماً يَبْدَأُ بِقَلَقِ الضَّمِيرِ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَنْتَهِي عِنْدَ نَارِ الآخِرَةِ الموقَدَة. فَمَا أَشَدَّ قَسْوَةَ الجَزَاءِ حِينَ يَكُونُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ؛ فَمَنْ أَحَبَّ السَّقَمَ الرُّوحِيَّ زِيدَ لَهُ فِي سَقَمِهِ، وَمَنِ اتَّخَذَ الكِذْبَ مَنْهَجاً حُصِدَ بِسَيْفِ الأَلَمِ

المقِيم. هَكَذَا أُقْبِلُ عَلَى مِحْرَابِ التَّوْبَةِ لِأَغْسِلَ قَلْبِي مِنْ كُلِّ شَائِبَةٍ، مُسْتَشْفِياً بِنُورِ القُرْآنِ مِنْ أَدْوَاءِ الشَّكِّ وَالرِّيَاءِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَفْحِلَ الدَّاء. فَكُلُّ كِذْبٍ جُرْحٌ غَائِرٌ يُفْنِي صَاحِبَهُ، وَلَا عَافِيَةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِقَلْبٍ سَلِيمٍ تَطَهَّرَ بِالصِّدْقِ فَبَقِيَ لَهُ الشِّفَاءُ وَالمعْنَى.

مَعَاوِلُ الهَدْمِ وَقِنَاعُ الإِصْلَاح

صَدَى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}

أَرَى انْقِلَابَ المَوَازِينِ فِي عُقُولٍ تَحْمِلُ مَعَاوِلَ الهَدْمِ بِيَدٍ، وَتَرْفَعُ لَافِتَاتِ الإِصْلَاحِ بِاليَدِ الأُخْرَى فِي زَيْفٍ يَسْتَفِزُّ الفِطْرَةَ السَّلِيمَة. إِنَّ أَخْطَرَ أَنْوَاعِ الفَسَادِ فِي الأَرْضِ هُوَ ذَلِكَ الَّذِي يَتَدَثَّرُ بِثَوْبِ الحِكْمَةِ وَالتَّنْوِيرِ، فَيُخَرِّبُ القُلُوبَ وَالعُقُولَ تَحْتَ ذَرِيعَةِ التَّطْوِيرِ وَالإِصْلَاح. وَكَمْ تَتَأَلَّمُ بَصِيرَتِي حِينَ تُوَاجِهُ هَذَا العِنَادَ المغَلَّفَ بِالبَرَاءَةِ الزَّائِفَةِ؛ فَكُلَّمَا نَادَاهُمْ صَوْتُ الحَقِّ لِإِيقَافِ نَزِيفِ القِيَمِ، أَجَابُوا بِكِبْرِيَاءِ المغْرُورِ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الرُّؤْيَةِ وَالبِنَاء. أُبْصِرُ الأَرْضَ تَئِنُّ تَحْتَ وَطْأَةِ أَفْكَارِهِمُ المسْمُومَةِ الَّتِي تُفْسِدُ تَوَازُنَ الحَيَاةِ وَتَقْطَعُ صِلَةَ الخَلْقِ بِخَالِقِهِمْ، بَيْنَمَا هُمْ يَتَبَاهَوْنَ بِأَنَّهُمْ يُنْقِذُونَ العَالَمَ. فَمَا أَشَدَّ تِيهَ البَصِيرَةِ حِينَ يَفْقِدُ الإِنْسَانُ البُوصَلَةَ الأَخْلَاقِيَّةَ، فَيُسَمِّي السُّمَّ دَوَاءً، وَيَرَى الظَّلَامَ الدَّامِسَ فَجْراً جَدِيداً يُشْرِقُ عَلَى البَشَرِيَّة. هَكَذَا أُحَاكِمُ أَفْعَالِي دَوْماً إِلَى مِيزَانِ الوَحْيِ الصَّافِي لَا إِلَى أَهْوَاءِ نَفْسِي، كَيْ لَا أَقَعَ فِي فَخِّ تَبْرِيرِ الخَطَأِ بِشِعَارَاتٍ بَرَّاقَةٍ تَخْدَعُ الوِجْدَان. فَكُلُّ بِنَاءٍ يُقَامُ عَلَى أَنْقَاضِ الحَقِّ فَسَادٌ وَهَدْمٌ يَزُولُ، وَلَا إِصْلَاحَ حَقِيقِيّاً إِلَّا مَا اسْتَقَامَ عَلَى مَنْهَجِ اللهِ فَبَقِيَ لَهُ النَّفْعُ وَالمعْنَى.

انْكِشَافُ الزَّيْفِ وَعَمَى البَصِيرَة

صَدَى {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ}

يَنْزِلُ نِدَاءُ السَّمَاءِ الحَاسِمُ كَالصَّاعِقَةِ الَّتِي تُمَزِّقُ سِتَارَ التَّبْرِيرِ، لِيُعْلِنَ بِصَوْتٍ يَهزُّ أَرْكَانَ الوُجُودِ أَنَّ هَؤُلَاءِ المدَّعِينَ هُمْ أَصْلُ الفَسَادِ وَمَنْبَعُ الخَرَاب. إِنَّ هَذَا التَّنْبِيهَ الإِلَهِيَّ يُعَرِّي حَقِيقَتَهُمْ أَمَامَ العَالَمِينَ، وَلَكِنَّ المأْسَاةَ الكُبْرَى تَكْمُنُ فِي كَوْنِهِمْ قَدْ فَقَدُوا حَاسَّةَ الشُّعُورِ بِجَرِيمَتِهِمْ مِن فَرْطِ الإِلْفِ وَالِاعْتِيَاد. وَكَمْ يَرْتَعِشُ كِيَانِي أَمَامَ هَذَا العَمَى الرُّوحِيِّ الَّذِي يُخَدِّرُ الضَّمِيرَ حَتَّى يَمُوتَ فِيهِ

الإِحْسَاسُ بِالذَّنْبِ، فَيَسِيرُ المَرْءُ فِي طَرِيقِ الهَلَاكِ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ يُحْسِنُ صُنْعاً. أُبْصِرُ القَلْبَ حِينَ يَتَغَلَّفُ بِرَانِ المَعَاصِي وَالنِّفَاقِ، كَيْفَ يَتَحَوَّلُ إِلَى جُثَّةٍ هَامِدَةٍ لَا تَشْعُرُ بِوَخْزِ الإِبَرِ وَلَا تَتَأَلَّمُ لِسُقُوطِهَا فِي الوَحْلِ. فَمَا أَعْظَمَ نِعْمَةَ اليَقَظَةِ البَاطِنِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُ الرُّوحَ تَتَأَلَّمُ عِنْدَ الزَّلَّةِ، فَالأَلَمُ الرُّوحِيُّ دَلِيلُ الحَيَاةِ، أَمَّا انْعِدَامُ الشُّعُورِ فَهُوَ إِعْلَانُ الوَفَاةِ الأَبَدِيَّة. هَكَذَا أَتَضَرَّعُ إِلَى رَبِّي أَنْ يُبْقِيَ بَصِيرَتِي حَيَّةً نَابِضَةً تُمَيِّزُ بَيْنَ الصَّلَاحِ وَالفَسَادِ، وَلَا تَغْفُلُ عَنْ عُيُوبِ النَّفْسِ فِي لَحَظَاتِ الغُرُور. فَكُلُّ تَبْرِيرٍ لِلْبَاطِلِ سَرَابٌ يَنْقَشِعُ أَمَامَ حُكْمِ اللهِ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِمَنْ أَبْصَرَ عَيْبَهُ فَاسْتَغْفَرَ فَبَقِيَتْ لَهُ اليَقَظَةُ وَالمَعْنَى.

كِبْرِيَاءُ الجَهْلِ وَتَعَالِي السُّفَهَاء

صَدَى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ}

أُبْصِرُ مَشْهَدَ التَّعَالِي الأَجْوَفِ حِينَ يَنْظُرُ المَغْرُورُونَ بِثَرَائِهِمْ وَمَكَانَتِهِمْ إِلَى بُسَطَاءِ المُؤْمِنِينَ بِعَيْنِ الِازْدِرَاءِ، فَيَرَوْنَ التَّوَاضُعَ لِلْحَقِّ سَفَهاً وَضَعْفاً فِي العُقُول. إِنَّ هَذِهِ العُنْجُهِيَّةَ الطَّبَقِيَّةَ تَجْعَلُهُمْ يَأْنَفُونَ مِنَ الدُّخُولِ فِي صَفِّ الصَّادِقِينَ، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّ كَرَامَتَهُمْ تَأْبَى مُسَاوَاةَ أَنْفُسِهِمْ بِمَنْ خَلَعُوا زِينَةَ الدُّنْيَا لِوَجْهِ الله. وَكَمْ تَضْحَكُ الحَقِيقَةُ بِمَرَارَةٍ مِنْ هَذَا المِقْيَاسِ المَقْلُوبِ؛ فَالَّذِي بَاعَ الفَانِيَ بِالبَاقِي يُوصَفُ بِالسَّفَهِ، بَيْنَمَا يَدَّعِي العَقْلَ مَنِ اشْتَرَى الضَّلَالَةَ بِالهُدَى وَتَمَسَّكَ بِخُيُوطِ الدُّخَان. أَرَى كَلِمَةَ السَّمَاءِ تَرُدُّ السَّهْمَ إِلَى نُحُورِهِمْ بِحَقِيقَةٍ قَاطِعَةٍ: إِنَّ السَّفَهَ الحَقِيقِيَّ هُوَ جَهْلُ الإِنْسَانِ بِمَصِيرِهِ، وَتَفْرِيطُهُ فِي نَجَاةِ رُوحِهِ إِرْضَاءً لِكِبْرِيَاءٍ زَائِفٍ يَأْكُلُهُ التُّرَاب. فَمَا أَعْظَمَ شَرَفَ الِانْتِمَاءِ إِلَى قَافِلَةِ البُسَطَاءِ الَّذِينَ صَفَتْ قُلُوبُهُمْ فَعَرَفُوا رَبَّهُمْ، وَإِنْ احْتَقَرَتْهُمْ عُيُونُ المُتَكَبِّرِينَ فِي أَسْوَاقِ الدُّنْيَا. هَكَذَا تَتَطَهَّرُ رُوحِي مِنْ كُلِّ نَزْعَةٍ لِلتَّفَاخُرِ أَوِ التَّمَايُزِ، لِتَذُوبَ فِي جَمَاعَةِ المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ بِلَا أَلْقَابٍ وَلَا حَوَاجِز. فَكُلُّ كِبْرِيَاءٍ يَمْنَعُ مِنَ الإِيمَانِ سَفَهٌ وَجَهْلٌ يَزُولُ، وَلَا عَقْلَ رَاجِحاً إِلَّا لِمَنْ تَوَاضَعَ لِلْحَقِّ فَبَقِيَ لَهُ الشَّرَفُ وَالمَعْنَى.

تَقَلُّبُ الوُجُوهِ وَعَبَثُ الِاسْتِهْزَاء

صَدَى {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}

أَتَأَمَّلُ هَذِهِ الرِّحْلَةَ المُتَأَرْجِحَةَ بَيْنَ النُّورِ وَالظَّلَامِ؛ وُجُوهٌ تَبْتَسِمُ فِي مَجَالِسِ الإِيمَانِ بِودٍّ مَصْنُوعٍ، ثُمَّ تَنْقَلِبُ فِي خَلَوَاتِ الشَّيَاطِينِ إِلَى أَلْسِنَةٍ سَاخِرَةٍ تَنْهَشُ أَعْرَاضَ الصَّادِقِين. إِنَّ هَذَا التَّذَبْذُبَ المهِيْنَ يَكْشِفُ عَنْ هَشَاشَةِ الرُّوحِ الَّتِي لَا تَمْلِكُ مَبْدَأً ثَابِتاً تَقِفُ عَلَيْهِ، فَهِيَ تَتَقَلَّبُ كَالرِّيشَةِ فِي مَهَبِّ الرِّيَاحِ تَبَعاً لِلْمَكَانِ وَالجُلَسَاء. وَكَمْ تَشْمَئِزُّ الفِطْرَةُ النَّقِيَّةُ مِنْ هَذَا التَّمَلُّقِ الرَّخِيصِ الَّذِي يَجْعَلُ الإِنْسَانَ عَبْداً لِإِرْضَاءِ كُلِّ طَرَفٍ، فَيَخْسَرُ احْتِرَامَ نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْسَرَ مَكَانَتَهُ عِنْدَ الله. أُبْصِرُهُمْ فِي خَلَوَاتِهِمُ المظْلِمَةِ يَتَبَاهَوْنَ بِقُدْرَتِهِمْ عَلَى الِاسْتِهْزَاءِ بِأَهْلِ الحَقِّ، غَافِلِينَ عَنْ أَنَّ كُلَّ ضَحْكَةٍ سُخْرِيَةٍ يُطْلِقُونَهَا هِيَ مِسْمَارٌ يُدَقُّ فِي نَعْشِ سَعَادَتِهِمُ الأَبَدِيَّة. فَمَا أَشَدَّ بُؤْسَ مَنْ يَعِيشُ بِقَلْبَيْنِ وَلِسَانَيْنِ، فَلَا هُوَ يَنْتَمِي إِلَى نُورِ الإِيمَانِ فَيَسْعَدَ، وَلَا هُوَ يَمْلِكُ شَجَاعَةَ المَوَاجَهَةِ فَيَسْتَرِيح. هَكَذَا أَسْأَلُ سَمَائِي أَنْ تَمْنَحَنِي ثَبَاتَ المَوْقِفِ وَصَلَابَةَ المَبْدَأ، فَيَكُونَ قَوْلِي فِي الخَلْوَةِ هُوَ عَيْنُ قَوْلِي فِي الجَلْوَةِ دُونَ تَلَوُّنٍ أَوْ نِفَاق. فَكُلُّ اسْتِهْزَاءٍ بِأَهْلِ اليَقِينِ غُبَارٌ تَذْرُوهُ رِيَاحُ الحَقِيقَةِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلْوُجُوهِ الصَّادِقَةِ الَّتِي لَا تَتَبَدَّلُ فَيَبْقَى لَهَا الوَقَارُ وَالمعْنَى.

سُخْرِيَةُ القَدَرِ وَإِطَالَةُ الحَبْل

صَدَى {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}

تَتَجَلَّى عَظَمَةُ العَدْلِ الإِلَهِيِّ فِي رَدِّ الكَيْدِ إِلَى نُحُورِ الماكِرِينَ، حِينَ يَتَوَلَّى اللهُ بِنَفْسِهِ مُجَازَاةَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِأَنْ يَتْرُكَهُمْ يَتَخَبَّطُونَ فِي عَمَى الطُّغْيَانِ وَالِاغْتِرَار. إِنَّ هَذَا الإِمْهَالَ الَّذِي يَحْسَبُونَهُ نَصْراً وَتَمْكِيناً هُوَ فِي الحَقِيقَةِ اسْتِدْرَاجٌ مَهِيبٌ يُطِيلُ لَهُمْ حَبْلَ الغَفْلَةِ حَتَّى يَبْلُغُوا ذُرْوَةَ السُّقُوطِ المرَوِّع.

وَكَمْ تَرْتَجِفُ رُوحِي مِنْ هَذَا المكْرِ الخَفِيِّ الَّذِي يُزَيِّنُ لِلْغَافِلِ طَرِيقَ الهَلَاكِ، فَيَظُنُّ أَنَّ انْفِتَاحَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ رِضاً مِنَ السَّمَاءِ وَهُوَ عَيْنُ الغَضَبِ وَالِانْتِقَام. أُبْصِرُهُمْ يَعْمَهُونَ فِي تِيهِ الحَيْرَةِ وَالتَّرَدُّدِ كَالسَّكْرَانِ الَّذِي يَمْشِي عَلَى حَافَّةِ الهَاوِيَةِ وَهُوَ يُغَنِّي، لَا يَرَى الحُفْرَةَ الَّتِي تَنْتَظِرُهُ فِي نِهَايَةِ المطَاف. فَمَا أَشَدَّ قَسْوَةَ أَنْ يُوَكِلَ الإِنْسَانُ إِلَى نَفْسِهِ وَهَوَاهُ، فَتُغْلَقَ دُونَهُ أَبْوَابُ التَّنْبِيهِ وَيُتْرَكَ لِيَغْرَقَ فِي بَحْرِ

طُغْيَانِهِ بِلَا مُنْقِذٍ وَلَا مُعِين. هَكَذَا أَفْزَعُ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّي كُلَّمَا تَيَسَّرَتْ لِي أَسْبَابُ الدُّنْيَا، سَائِلاً إِيَّاهُ أَلَّا يَكُونَ عَطَاؤُهُ لِي اسْتِدْرَاجاً بَلْ مَدَداً يُقَرِّبُنِي إِلَى طَاعَتِهِ وَرِضَاه. فَكُلُّ طُغْيَانٍ يُمْلَى لَهُ فِي الظَّلَامِ يَنْتَهِي إِلَى انْكِسَارٍ عَظِيمٍ، وَلَا أَمَانَ إِلَّا لِمَنْ أَيْقَظَتْهُ رِعَايَةُ اللهِ فَبَقِيَ لَهُ الرُّشْدُ وَالمعْنَى.

صَفْقَةُ الخُسْرَانِ وَبَيْعُ النُّور

صَدَى {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}

أَقِفُ أَمَامَ أَغْرَبِ صَفْقَةٍ عَرَفَهَا تَارِيخُ الوُجُودِ؛ أُنَاسٌ يَمْلِكُونَ جَوْهَرَةَ الهِدَايَةِ النَّفِيسَةَ فِي أَيْدِيهِمْ، ثُمَّ يَبِيعُونَهَا بِثَمَنٍ بَخْسٍ لِيَشْتَرُوا بِهَا ظُلُمَاتِ الضَّلَالَةِ وَالتِّيه. إِنَّ هَذِهِ التِّجَارَةَ الخَاسِرَةَ تَكْشِفُ عَنْ سَذَاجَةِ الرُّوحِ حِينَ تَسْتَبْدِلُ اليَقِينَ الأَبَدِيَّ بِأَوْهَامٍ عَابِرَةٍ لَا تَسْمِنُ وَلَا تُغْنِي مِنْ جُوعٍ يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَر. وَكَمْ تَتَحَسَّرُ بَصِيرَتِي عَلَى عُمْرٍ يُنْفَقُ فِي جَمْعِ السَّرَابِ، بَيْنَمَا تُلْقَى مَفَاتِيحُ الجَنَّةِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ إِرْضَاءً لِشَهْوَةٍ عَابِرَةٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ فَانِيَة. أُبْصِرُ دَفَاتِرَ حِسَابَاتِهِمْ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ كُلِّ رِبْحٍ حَقِيقِيٍّ، فَلَا هُمْ ظَفِرُوا بِرَاحَةِ البَالِ فِي الدُّنْيَا، وَلَا هُمْ أَبْقَوْا لِأَنْفُسِهِمْ زَاداً يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ لِقَاءِ الله. فَمَا أَعْظَمَ الخَسَارَةَ حِينَ يَخْرُجُ التَّاجِرُ مِنْ سُوقِ الحَيَاةِ وَقَدْ أَفْلَسَ مِنْ رَأْسِ مَالِهِ الأَصْلِيِّ وَهُوَ الفِطْرَةُ وَالهُدَى، فَلَا مَالَ أَبْقَى وَلَا طَرِيقاً اهْتَدَى. هَكَذَا أَتَمَسَّكُ بِعُرْوَةِ الهِدَايَةِ بِكُلِّ قُوَّتِي، مُدْرِكاً أَنَّهَا الكَنْزُ الوَحِيدُ الَّذِي لَا يُقَدَّرُ بِثَمَنٍ وَلَا يُبَاعُ بِكُلِّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ ذَهَبٍ وَسُلْطَان. فَكُلُّ تِجَارَةٍ تَقُومُ عَلَى التَّفْرِيطِ فِي الحَقِّ بَوَارٌ وَهَلَاكٌ، وَلَا رِبْحَ خَالِداً إِلَّا لِمَنِ اشْتَرَى الآخِرَةَ بِالدُّنْيَا فَبَقِيَ لَهُ الفَوْزُ وَالمعْنَى.

انْطِفَاءُ الشُّعْلَةِ وَوَحْشَةُ الظَّلَام

صَدَى {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ}

أَتَأَمَّلُ هَذَا التَّمْثِيلَ القُرْآنِيَّ المهِيبَ الَّذِي يَرْسُمُ مَأْسَاةَ النِّفَاقِ فِي أَبْلَغِ صُورَةٍ؛ رَجُلٌ يَرْتَجِفُ فِي البَرْدِ وَالعَتْمَةِ فَيُشْعِلُ نَاراً تَمْنَحُهُ الدِّفْءَ وَالضِّيَاءَ، حَتَّى إِذَا اسْتَبْشَرَ بِالنُّورِ انْطَفَأَتْ فَجْأَةً وَتَرَكَتْهُ فِي

ظَلَامٍ أَشَدَّ وَحْشَةً مِمَّا كَانَ فِيه. إِنَّ هَذِهِ النَّارَ المسْتَعَارَةَ هِيَ كَلِمَةُ الإِيمَانِ الَّتِي نَطَقُوا بِهَا ظَاهِراً فَأَمَّنَتْهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يَتَعَهَّدُوهَا بِصِدْقِ البَاطِنِ سَلَبَ اللهُ مِنْهُمْ نُورَهَا وَأَبْقَى لَهُمْ دُخَانَهَا وَحَرْقَهَا. وَكَمْ تَرْتَعِدُ فَرَائِصِي مِنْ لَحْظَةِ الِانْطِفَاءِ المفَاجِئِ حِينَ يَغِيبُ الضَّوْءُ عَنِ العَيْنِ بَعْدَ أَنْ أَلِفَتِ الإِبْصَارَ، فَيَتَخَبَّطُ الإِنْسَانُ فِي دَيَاجِيرِ العَمَى بِلَا دَلِيل. أُبْصِرُهُمْ يَتَلَمَّسُونَ الجُدْرَانَ فِي ظُلُمَاتٍ مُتَرَاكِمَةٍ؛ ظُلْمَةِ النِّفَاقِ، وَظُلْمَةِ الكُفْرِ، وَظُلْمَةِ القَبْرِ وَالحَشْرِ، حَيْثُ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شُعْلَةُ الخِدَاعِ الَّتِي أَطْفَأُوهَا بِأَيْدِيهِم. فَمَا أَعْظَمَ الفَرْقَ بَيْنَ نُورٍ يَنْبُعُ مِنْ أَعْمَاقِ القَلْبِ الصَّادِقِ فَلَا يَنْطَفِئُ أَبَداً، وَنَارٍ مُصْطَنَعَةٍ تَخْبُو عِنْدَ أَوَّلِ عَاصِفَةٍ مِنَ الِابْتِلَاءِ وَالمَوْت. هَكَذَا أَسْأَلُ سَمَائِي نُوراً دَائِماً يَسْكُنُ فُؤَادِي وَيَسْعَى بَيْنَ يَدَيَّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ بِلَا انْقِطَاع. فَكُلُّ ضَوْءٍ مُسْتَعَارٍ لِلْخِدَاعِ يَخْبُو وَيَتَلَاشَى، وَلَا إِشْرَاقَ خَالِداً إِلَّا لِنُورِ اليَقِينِ الَّذِي يُوقِدُهُ اللهُ فِي القُلُوبِ الصَّادِقَةِ فَيَبْقَى لَهَا البَصَرُ وَالمعْنَى.

أَصْنَامُ الحَوَاسِّ وَانْقِطَاعُ الرُّجُوع

صَدَى {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ}

أَرَى تَمَاثِيلَ بَشَرِيَّةً تَمْشِي عَلَى الأَرْضِ بِأَجْسَادٍ حَيَّةٍ، وَلَكِنَّهَا فِي الحَقِيقَةِ جُثَثٌ رُوحِيَّةٌ تَعَطَّلَتْ فِيهَا كُلُّ مَنَافِذِ الحَيَاةِ وَالِاسْتِجَابَةِ لِنِدَاءِ السَّمَاء. إِنَّهُمْ صُمٌّ عَنْ سَمَاعِ مَوَاعِظِ الوَحْيِ الَّتِي تُلَيِّنُ الصَّخْرَ، بُكْمٌ عَنِ النُّطْقِ بِكَلِمَةِ الحَقِّ وَالِاعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ، عُمْيٌ عَنْ رُؤْيَةِ آيَاتِ اللهِ السَّاطِعَةِ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنَ الوُجُود. وَكَمْ يُؤْلِمُنِي هَذَا الانْغِلَاقُ التَّامُّ الَّذِي يَقْطَعُ عَلَيْهِمْ طَرِيقَ العَوْدَةِ إِلَى جَادَّةِ الصَّوَابِ، فَكَيْفَ يَرْجِعُ مَنْ لَا يَسْمَعُ نِدَاءَ المنْقِذِ وَلَا يَرَى مَعَالِمَ الطَّرِيق؟ أُبْصِرُ حَوَاسَّهُمُ المادِّيَّةَ تَعْمَلُ بِدِقَّةٍ فِي شُؤُونِ الدُّنْيَا، بَيْنَمَا حَوَاسُّهُمُ الرُّوحِيَّةُ مَشْلُولَةٌ تَمَاماً أَمَامَ نُورِ الهِدَايَةِ، فَيَسْتَمِرُّونَ فِي السَّيْرِ نَحْوَ الهَاوِيَةِ بِلَا تَوَقُّف. فَمَا أَشَدَّ هَذِهِ العُزْلَةَ الوُجُودِيَّةَ الَّتِي يَفْرِضُهَا الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ حِينَ يُعَطِّلُ أَدَوَاتِ المعْرِفَةِ الَّتِي وَهَبَهَا الخَالِقُ لَهُ لِيَهْتَدِيَ بِهَا إِلَيْه. هَكَذَا أُجَدِّدُ شُكْرِي لِرَبِّي عَلَى نِعْمَةِ السَّمْعِ وَالبَصَرِ وَالفُؤَادِ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَهَا شَاهِدَةً لِي بَالِاسْتِجَابَةِ السَّرِيعَةِ كُلَّمَا دَعَانِي دَاعِي الحَقِّ إِلَى الرُّجُوع. فَكُلُّ حَاسَّةٍ لَا تَقُودُ إِلَى اللهِ عَدَمٌ وَصَمْتٌ، وَلَا حَيَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِرُوحٍ تَسْمَعُ وَتُنْصِتُ وَتُبْصِرُ فَتَعُودُ إِلَى رَبِّهَا فَيَبْقَى لَهَا القُرْبُ وَالمعْنَى.

عَاصِفَةُ الحَيْرَةِ وَصَوَاعِقُ الخَوْف

صَدَى {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ}

أَقِفُ أَمَامَ هَذَا المشْهَدِ الكَوْنِيّ العَاصِفِ الَّذِي يُجَسِّدُ رُعْبَ القُلُوبِ المتَرَدِّدَةِ أَمَامَ جَلَالِ القُرْآنِ وَقُوَّةِ حُجَّتِهِ السَّاطِعَة. إِنَّ الوَحْيَ الَّذِي نَزَلَ غَيْثاً يُحْيِي القُلُوبَ الطَّاهِرَةَ يَتَحَوَّلُ فِي أَعْيُنِ المنَافِقِينَ إِلَى عَاصِفَةٍ هَوْجَاءَ تَمْلَؤُهَا ظُلُمَاتُ الشُّبُهَاتِ وَرَعْدُ الوَعِيدِ وَبَرْقُ البَرَاهِينِ الخَاطِفَةِ لِلْأَبْصَار. وَكَمْ أَرْثِي لِحَالِهِمْ وَهُمْ يَسُدُّونَ آذَانَهُمْ بِأَصَابِعِهِمْ هَرَباً مِنْ صَوَاعِقِ الحَقِيقَةِ الَّتِي تَفْضَحُ دَخَائِلَهُمْ، ظَانِّينَ أَنَّ الهُرُوبَ مِنَ السَّمَاعِ يُنْجِيهِمْ مِنَ المَوْتِ وَالفَنَاء. أُبْصِرُ ارْتِجَافَهُمْ تَحْتَ وَطْأَةِ الخَوْفِ وَالعَجْزِ، بَيْنَمَا تُحِيطُ بِهِمْ قُدْرَةُ اللهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ كَمَا يُحِيطُ السِّوَارُ بِالمِعْصَمِ، فَلَا مَفَرَّ لَهُمْ وَلَا مَلْجَأَ مِنْ قَضَائِه. فَمَا أَعْجَبَ هَذَا التَّنَاقُضَ فِي نَفْسٍ تَهْرُبُ مِنَ المطَرِ الَّذِي فِيهِ حَيَاتُهَا، وَتَخْشَى الصَّاعِقَةَ الَّتِي تُوقِظُهَا مِنْ غَفْلَتِهَا، لِتَقَعَ فِي قَبْضَةِ الإِحَاطَةِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي لَا يُعْجِزُهَا شَيْء. هَكَذَا أَفْتَحُ صَدْرِي وَسَمْعِي لِغَيْثِ القُرْآنِ وَرَعْدِهِ وَبَرْقِهِ، مُوقِناً أَنَّ مَا يَخَافُهُ المكَذِّبُونَ هُوَ عَيْنُ الرَّحْمَةِ وَالحَيَاةِ لِلْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِين. فَكُلُّ هُرُوبٍ مِنْ قَدَرِ اللهِ وَهْمٌ يَتَلَاشَى أَمَامَ إِحَاطَتِهِ الشَّامِلَةِ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِمَنِ اسْتَسْلَمَ لِغَيْثِ الوَحْيِ فَبَقِيَ لَهُ الأَمَانُ وَالمعْنَى.

خَطْفُ البَرْقِ وَحَيْرَةُ الخُطُوَات

**صَدَى {يَكَادُ الْبَرْ

قُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**

أُبْصِرُ حَيْرَةَ القَلْبِ المتَذَبْذِبِ الَّذِي لَا يَمْلِكُ نُوراً ذَاتِيّاً يَهْتَدِي بِهِ، فَهُوَ يَعِيشُ عَلَى وَمَضَاتِ البَرْقِ الخَاطِفَةِ الَّتِي تَكَادُ تَسْلُبُ بَصَرَهُ مِنْ شِدَّةِ سُطُوعِهَا وَقُوَّةِ حُجَّتِهَا. إِنَّ هَذَا التَّرَدُّدَ القَاتِلَ يَجْعَلُ خُطُوَاتِهِمْ مَرْهُونَةً بِالمصَالِحِ وَالأَحْوَالِ؛ فَإِذَا أَضَاءَ لَهُمُ الحَقُّ بِمَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ مَشَوْا فِيهِ خُطُوَاتٍ

حَذِرَةً، وَإِذَا أَظْلَمَتِ الدُّنْيَا بِالِابْتِلَاءِ تَجَمَّدُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ حَائِرِينَ عَاجِزِينَ عَنِ المسِير. وَكَمْ تَشْعُرُ رُوحِي بِعَظَمَةِ الحِلْمِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يُبْقِي لَهُمْ بَقِيَّةً مِنْ سَمْعٍ وَبَصَرٍ رَحْمَةً وَإِمْهَالاً، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَبَ مِنْهُمْ هَذِهِ الجَوَارِحَ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ بِقُدْرَتِهِ الَّتِي لَا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْض.

أَرَى مَأْسَاةَ الإِنْسَانِ حِينَ يَكُونُ إِيمَانُهُ مَوْسِمِيّاً يَتَحَرَّكُ مَعَ الضَّوْءِ العَابِرِ وَيَتَوَقَّفُ عِنْدَ أَوَّلِ عَتْمَةٍ، فَلَا يَقْطَعُ طَرِيقاً وَلَا يَبْلُغُ غَايَةً وَلَا يَسْتَقِرُّ عَلَى يَقِين. فَمَا أَشَدَّ حَاجَتِي إِلَى إِيمَانٍ رَاسِخٍ لَا تَهُزُّهُ العَوَاصِفُ وَلَا تُوقِفُهُ الظُّلُمَاتُ، بَلْ يَسْتَمِدُّ ضِيَاءَهُ مِنْ نُورِ اللهِ الدَّائِمِ الَّذِي لَا يَغِيبُ وَلَا يَنْقَطِع.

هَكَذَا أَتَضَرَّعُ إِلَى القَدِيرِ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يُثَبِّتَ قَدَمِي عَلَى صِرَاطِهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ حَتَّى أَلْقَاهُ بِقَلْبٍ سَلِيم. فَكُلُّ مَسِيرٍ يَتَوَقَّفُ عِنْدَ الِابْتِلَاءِ سَرَابٌ وَحَيْرَةٌ، وَلَا ثَبَاتَ خَالِداً إِلَّا لِرُوحٍ اسْتَنَارَتْ بِقُدْرَةِ اللهِ وَمَشَتْ إِلَيْهِ بِيَقِينٍ فَبَقِيَ لَهَا الوُصُولُ وَالمعْنَى.

سِفْرُ الصَّدَى الثَّالِثُ

نِدَاءُ الفِطْرَةِ وَتَاجُ التَّقْوَى

صَدَى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}

أُصْغِي إِلَى هَذَا النِّدَاءِ الكَوْنِيِّ العَظِيمِ الَّذِي يَعْبُرُ حَوَاجِزَ الزَّمَانِ وَالمكَانِ، فَأَرَى البَشَرِيَّةَ كُلَّهَا وَاقِفَةً أَمَامَ مِرْآةِ أَصْلِهَا الأَوَّلِ حِينَ أَخْرَجَهَا اللهُ مِنْ ظُلْمَةِ العَدَمِ إِلَى نُورِ الوُجُود. إِنَّ عُبُودِيَّتِي لَكَ لَيْسَتْ قَيْداً يَحْبِسُ حُرِّيَّتِي، بَلْ هِيَ اعْتِرَافُ المِصْنُوعِ بِصَانِعِهِ، وَعَوْدَةُ الفَرْعِ إِلَى جَذْرِهِ الَّذِي يَمُدُّهُ بِالحَيَاةِ وَالبَقَاء. وَكَمْ تَاهَ الإِنْسَانُ فِي أَسْوَاقِ التَّبَعِيَّةِ الزَّائِفَةِ حِينَ انْحَنَى لِمَخْلُوقٍ مِثْلِهِ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً، غَافِلاً عَنْ أَنَّ الخَالِقَ الَّذِي أَوْجَدَهُ وَأَوْجَدَ آبَاءَهُ هُوَ وَحْدَهُ المسْتَحِقُّ لِلسُّجُودِ وَالطَّاعَة.

أُبْصِرُ قَوَافِلَ الأَجْيَالِ السَّابِقَةِ تَتَعَاقَبُ عَلَى مَسْرَحِ التَّارِيخِ كَالأَمْوَاجِ المتَلَاحِقَةِ، كُلُّهَا تَحْمِلُ بَصْمَةَ الخَلْقِ الوَاحِدِ الَّذِي أَرَادَ لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنَ العِبَادَةِ دِرْعاً نَقِي بِهِ أَرْوَاحَنَا مِنْ سِهَامِ الهَوَى وَالفَنَاء.

فَمَا أَعْظَمَ أَنْ تَكُونَ التَّقْوَى هِيَ الثَّمَرَةَ اليَانِعَةَ لِهَذَا الخُضُوعِ النَّبِيلِ، فَتُحِيطَ بِالقَلْبِ كَالسُّورِ الحَصِينِ الَّذِي يَمْنَعُ تَسَلُّلَ الغَفْلَةِ وَالخُسْرَان. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ العِبَادَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى رِحْلَةِ عَوْدَةٍ صَادِقَةٍ نَحْوَ مَصْدَرِ وُجُودِي، أَغْسِلُ فِيهَا رُوحِي مِنْ أَدْرَانِ الشِّرْكِ الخَفِيِّ لِأَبْلُغَ مَنَازِلَ المتَّقِين. فَكُلُّ

خُضُوعٍ لِغَيْرِ الخَالِقِ ذُلٌّ وَسَرَابٌ يَزُولُ، وَلَا عِزَّةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنْ عَبَدَ رَبَّهُ الَّذِي خَلَقَهُ فَبَقِيَتْ لَهُ التَّقْوَى وَالمعْنَى.

فِرَاشُ الأَرْضِ وَبِنَاءُ السَّمَاء

صَدَى {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}

أُقَلِّبُ طَرْفِي فِي هَذَا البَيْتِ الكَوْنِيّ الفَسِيحِ الَّذِي هَيَّأَتْهُ يَدُ العِنَايَةِ الإِلَهِيَّةِ، فَأَرَى الأَرْضَ مُمَهَّدَةً تَحْتَ قَدَمَيَّ كَالْفِرَاشِ الوَثِيرِ لَا تَضْطَرِبُ وَلَا تَقْسُو، وَأَرَى السَّمَاءَ مَرْفُوعَةً فَوْقِي كَالبِنَاءِ المحْكَمِ بِلَا عَمَدٍ وَلَا فُطُور. إِنَّنِي أَتَنَفَّسُ فِي حِضْنِ هَذِهِ الرِّعَايَةِ المتَكَاثِفَةِ الَّتِي تَسْكُبُ المَاءَ العَذْبَ مِنْ كَبِدِ الغُيُومِ لِيُفَجِّرَ فِي صَمْتِ التُّرَابِ أَلْوَاناً مِنَ الثَّمَرَاتِ تُغَذِّي الجَسَدَ وَتُدْهِشُ البَصِيرَة. وَكَمْ يَبْدُو جُحُودُ الإِنْسَانِ قَبِيحاً وَمُتَنَاقِضاً حِينَ يَأْكُلُ مِنْ مَائِدَةِ اللهِ المَمْدُودَةِ، وَيَسْتَظِلُّ بِسَقْفِهِ المَرْفُوعِ، ثُمَّ يَذْهَبُ لِيَصْنَعَ لِنَفْسِهِ أَنْدَاداً وَشُرَكَاءَ يَصْرِفُ لَهُمْ وُدَّهُ وَخُضُوعَه. أُبْصِرُ كُلَّ ثَمَرَةٍ تَتَدَلَّى مِنْ غُصْنٍ رِسَالَةً مَكْتُوبَةً بِمِدَادِ التَّوْحِيدِ، تَشْهَدُ أَنَّ الَّذِي أَنْزَلَ المَاءَ وَأَخْرَجَ الحَيَاةَ مِنَ المَوَاتِ لَا يَقْبَلُ أَنْ يُقَاسَمَ فِي مُلْكِهِ أَوْ يُشْبَهَ بِمَخْلُوقٍ عَاجِز. فَمَا أَشَدَّ عَمَى القَلْبِ حِينَ يَعْلَمُ بِفِطْرَتِهِ وَعَقْلِهِ تَفَرُّدَ الخَالِقِ بِالعَطَاءِ، ثُمَّ يُصِرُّ عَلَى تَعْظِيمِ أَصْنَامِ المَادَّةِ وَالهَوَى وَالأَسْبَابِ الفَانِيَة. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي إِلَى الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالمطَرِ إِلَى تَسْبِيحٍ صَامِتٍ يُطَهِّرُ وِجْدَانِي مِنْ كُلِّ نِدٍّ أَوْ شَرِيكٍ يُنَازِعُ الخَالِقَ مَكَانَتَهُ فِي قَلْبِي. فَكُلُّ نِدٍّ يُتَّخَذُ مِنْ دُونِ اللهِ وَهْمٌ يَتَلَاشَى عِنْدَ الحَاجَةِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلْمُنْعِمِ الوَاحِدِ الَّذِي أَبْدَعَ الكَوْنَ رِزْقاً وَآيَةً فَبَقِيَ لَهُ التَّوْحِيدُ وَالمعْنَى.

تَحَدِّي الوَحْيِ وَعَجْزُ البَيَان

صَدَى {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}

أَقِفُ فِي سَاحَةِ التَّحَدِّي الكُبْرَى الَّتِي أَعْلَنَتْهَا السَّمَاءُ عَلَى مَسَامِعِ الدُّهُورِ، فَأَرَى القُرْآنَ يَقِفُ كَالطَّوْدِ الأَشَمِّ أَمَامَ عَبَاقِرَةِ البَيَانِ وَفُرْسَانِ الكَلِمَةِ، يَدْعُوهُمْ لِلْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ تُضَاهِي نُورَهُ وَإِعْجَازَه. إِنَّ هَذَا الصَّوْتَ الوَاثِقَ يَكْشِفُ عَنْ يَقِينٍ لَا يَتَزَحْزَحُ؛ فَلَوْ كَانَ هَذَا الكِتَابُ مِنْ نَسْجِ البَشَرِ لَاسْتَطَاعَ البَشَرُ أَنْ يَنْسِجُوا عَلَى مِثَالِهِ وَلَوْ اجْتَمَعَتْ عُقُولُهُمْ وَشُهَدَاؤُهُمْ مِنْ دُونِ الله. وَكَمْ تَتَصَاغَرُ أَمَامَ بَصِيرَتِي كُلُّ القَصَائِدِ وَالخُطَبِ الَّتِي تَبَاهَى بِهَا التَّارِيخُ، حِينَ تُوضَعُ فِي مِيزَانِ الآيَةِ الوَاحِدَةِ الَّتِي تَهُزُّ أَعْمَاقَ الوِجْدَانِ وَتَخْتَرِقُ حُجُبَ الأَرْوَاح. أُبْصِرُ المُشَكِّكِينَ يَتَرَاجَعُونَ إِلَى الوَرَاءِ وَقَدْ أَخْرَسَتْهُمُ الدَّهْشَةُ وَالعَجْزُ، فَلَا حُرُوفُهُمْ تُسْعِفُهُمْ لِمُجَارَاةِ جَلَالِ التَّنْزِيلِ، وَلَا أَنْصَارُهُمْ يَمْلِكُونَ نَفْخَةً مِنْ رُوحِ الوَحْيِ الحَيّ. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَكُونَ صِدْقُ النُّبُوَّةِ مَحْفُوظاً فِي مَعْجِزَةٍ خَالِدَةٍ تُخَاطِبُ العَقْلَ وَالذَّوْقَ فِي كُلِّ زَمَانٍ، فَتُقِيمُ الحُجَّةَ عَلَى كُلِّ مُرْتَابٍ وَمُعَانِد. هَكَذَا يَزْدَادُ يَقِينِي رُسُوخاً بِأَنَّ هَذَا الكَلَامَ قَدْ تَنَزَّلَ مِنْ حَضْرَةِ القُدُّوسِ عَلَى قَلْبِ عَبْدِهِ المِصْطَفَى لِيَكُونَ بُرْهَاناً لَا يَنْطَفِئ. فَكُلُّ ادِّعَاءٍ بَشَرِيٍّ يَتَهَاوَى أَمَامَ سُلْطَانِ القُرْآنِ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِكَلِمَةِ اللهِ الَّتِي أَعْجَزَتِ العَالَمِينَ فَبَقِيَ لَهَا الإِعْجَازُ وَالمَعْنَى.

نَارُ الحَقِيقَةِ وَوَقُودُ العِنَاد

صَدَى {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}

يَدْوِي هَذَا الحُكْمُ الأَبَدِيُّ القَاطِعُ كَالرَّعْدِ فِي آفَاقِ الزَّمَنِ: إِنَّكُمْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا أَبَداً، فَيُغْلِقُ بَابَ الأَوْهَامِ وَيَضَعُ المِعَانِدِينَ وَجْهاً لِوَجْهٍ أَمَامَ مَصِيرِهِمُ المَرْوِّع. إِنَّنِي أَتَأَمَّلُ هَذَا التَّحْذِيرَ الإِلَهِيَّ المَهِيبَ مِنْ نَارٍ لَا تَتَغَذَّى عَلَى الحَطَبِ الفَانِي، بَلْ تَتَّقِدُ بِأَجْسَادِ المُتَكَبِّرِينَ الَّذِينَ تَحَجَّرَتْ قُلُوبُهُمْ، وَبِالأَحْجَارِ الصَّمَّاءِ الَّتِي عَبَدُوهَا مِنْ دُونِ الله. وَكَمْ تَرْتَعِشُ رُوحِي هَلَعاً مِنْ هَذَا التَّمَاثُلِ المُرِيعِ بَيْنَ قَسْوَةِ قَلْبِ الكَافِرِ وَصَلَابَةِ الحَجَرِ، حَتَّى جَمَعَتْهُمَا نَارُ العَدْلِ فِي مَوْقِدٍ وَاحِدٍ يُذِيبُ كِبْرِيَاءَهُمْ وَيُعَرِّي عَجْزَهُمْ. أُبْصِرُ لَهِيبَ تِلْكَ النَّارِ المُعَدَّةِ لِلْجَاحِدِينَ وَقَدِ اسْتَعَرَ بِسَبَبِ إِصْرَارِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِ الحَقِّ بَعْدَ ظُهُورِ البُرْهَانِ السَّاطِعِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الجَدَل. فَمَا أَشَدَّ غَبَاءَ النَّفْسِ حِينَ تُقَابِلُ نُورَ الهِدَايَةِ بِالمُكَابَرَة، فَتَدْفَعُ بِنَفْسِهَا إِلَى جَحِيمٍ أَبَدِيٍّ كَانَ بِإِمْكَانِهَا أَنْ تَتَّقِيَهُ بِكَلِمَةِ تَوْحِيدٍ وَسَجْدَةِ خُشُوع. هَكَذَا أَلُوذُ بِحِمَى التَّقْوَى هَارِباً مِنْ سَخَطِ السَّمَاءِ، مُسْتَجِيراً بِرَحْمَةِ رَبِّي أَنْ يُلَيِّنَ

قَلْبِي بِذِكْرِهِ حَتَّى لَا يَكُونَ وَقُوداً لِنَارٍ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَر. فَكُلُّ كِبْرِيَاءٍ يَتَحَجَّرُ أَمَامَ الوَحْيِ يَنْتَهِي إِلَى الِاحْتِرَاقِ وَالفَنَاءِ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِقَلْبٍ خَاشِعٍ اتَّقَى النَّارَ بِاليَقِينِ فَبَقِيَتْ لَهُ السَّلَامَةُ وَالمَعْنَى.

جَنَّاتُ الخُلُودِ وَثِمَارُ التَّشَابُه

صَدَى {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}

تَنْفَتِحُ أَمَامَ بَصِيرَتِي بَوَّابَاتُ البِشَارَةِ السَّمَاوِيَّةِ لِتُبَدِّدَ رَهْبَةَ الوَعِيدِ، فَأَرَى أَنْهَارَ النَّعِيمِ تَتَدَفَّقُ بِالعُذُوبَةِ تَحْتَ ظِلَالِ جَنَّاتٍ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ تَرْجَمُوا إِيمَانَهُمْ إِلَى عَمَلٍ صَالِحٍ يَنْبِضُ بِالحَيَاة. إِنَّنِي أَتَأَمَّلُ سِرَّ هَذَا التَّشَابُهِ البَدِيعِ فِي ثِمَارِ الجَنَّةِ؛ حَيْثُ تَتَشَابَهُ الأَلْوَانُ وَالصُّوَرُ لِتَأْنَسَ بِهَا العَيْنُ وَلَا تَسْتَوْحِشَ الغَرَابَةَ، بَيْنَمَا تَتَجَدَّدُ الطُّعُومُ وَاللَّذَّاتُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ بِفَيْضٍ لَا يَعْرِفُ المَلَلَ وَلَا الِانْقِطَاع. وَكَمْ تَشْتَاقُ رُوحِي المُتْعَبَةُ مِنْ كَدَرِ الدُّنْيَا إِلَى ذَلِكَ الصَّفَاءِ المُطْلَقِ، حَيْثُ الأَزْوَاجُ المُطَهَّرَةُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَشَائِبَةٍ، وَحَيْثُ تَسْكُنُ النَّفْسُ فِي جِوَارِ السَّلَامِ الأَبَدِيِّ بِلَا خَوْفٍ مِنْ فِرَاقٍ أَوْ زَوَال. أُبْصِرُ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَقَلَّبُونَ فِي دَهْشَةِ العَطَاءِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يَجْمَعُ لَهُمْ بَيْنَ أُلْفَةِ المَعْرُوفِ وَمُفَاجَأَةِ المَجْهُولِ الجَمِيلِ، فِي خُلُودٍ لَا يَشُوبُهُ فَنَاءٌ وَلَا يُكَدِّرُهُ تَغَيُّر. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ حِينَ يُكَافِئُ صَبْرَ المُؤْمِنِينَ فِي دارِ الِابْتِلَاءِ بِدَارٍ لَا تَنْصَبُ فِيهَا المسَرَّاتُ وَلَا تَذْبُلُ فِيهَا الأَزْهَار. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ أَعْمَالِي الصَّالِحَةُ فِي الدُّنْيَا إِلَى غِرَاسٍ أَبْعَثُ بِهِ أَمَامِي إِلَى تِلْكَ الجِنَانِ، لِأَجِدَ ثَمَرَهُ يَانِعاً يَوْمَ يُنَادَى المُؤْمِنُونَ لِلْخُلُود. فَكُلُّ نَعِيمٍ عَلَى التُّرَابِ ظِلٌّ يَنْقَضِي وَيَذْوِي، وَلَا نَعِيمَ حَقِيقِيّاً إِلَّا فِي جَنَّاتِ الخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ بِهَا الصَّادِقُونَ فَبَقِيَ لَهُمُ النَّعِيمُ وَالمَعْنَى.

مِيزَانُ البَعُوضَةِ وَبَصِيرَةُ الإِيمَان

صَدَى {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ}

أَتَأَمَّلُ كَيْفَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ بِأَصْغَرِ المخْلُوقَاتِ حَجْماً لِيَكْشِفَ بِهَا عَنْ أَعْظَمِ الحَقَائِقِ قَدْراً، فَتَقِفُ البَعُوضَةُ الصَّغِيرَةُ حُجَّةً بَالِغَةً تَفْضَحُ عَجْزَ الآلِهَةِ المزَيَّفَةِ وَتَمْتَحِنُ صَفَاءَ القُلُوب. إِنَّ عَظَمَةَ الخَالِقِ تَتَجَلَّى فِي دِقَّةِ الصُّنْعِ لَا فِي ضَخَامَةِ الجِرْمِ، فَكُلُّ ذَرَّةٍ فِي الكَوْنِ هِيَ مِرْآةٌ تَعْكِسُ حِكْمَةَ التَّدْبِيرِ الإِلَهِيِّ لِمَنْ أَبْصَرَ بِعَيْنِ القَلْبِ وَتَحَرَّرَ مِنْ سَطْحِيَّةِ النَّظَر. وَكَمْ يَتَبَايَنُ مَوْقِفُ الأَرْوَاحِ أَمَامَ هَذَا المثَلِ القُرْآنِيِّ العَجِيب؛ فَالْمُؤْمِنُونَ يَسْتَقْبِلُونَهُ بِيَقِينٍ رَاسِخٍ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ النَّازِلُ مِنْ رَبِّهِمْ، بَيْنَمَا يَتَعَثَّرُ فِيهِ الجَاحِدُونَ بِسُؤَالِ الِاسْتِنْكَارِ وَالِاسْتِهْزَاء. أُبْصِرُ الآيَةَ الوَاحِدَةَ تَصِيرُ نُوراً يَهْدِي قُلُوباً مُتَوَاضِعَةً تَبْحَثُ عَنِ الحِكْمَةِ، وَتَصِيرُ فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ حِجَاباً يُضِلُّ نُفُوساً فَاسِقَةً خَرَجَتْ عَنْ طَاعَةِ الفِطْرَةِ وَأَلِفَتِ التَّمَرُّد. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَكُونَ القُرْآنُ مِيزَاناً يَفْرِزُ مَعَادِنَ النُّفُوسِ، فَلَا يَزْدَادُ بِهِ الصَّادِقُ إِلَّا إِيمَاناً وَبَصِيرَةً، وَلَا يَزْدَادُ بِهِ الفَاسِقُ إِلَّا حَيْرَةً وَتِيهاً. هَكَذَا أَنْحَنِي بِخُشُوعٍ أَمَامَ كُلِّ مَثَلٍ يَضْرِبُهُ الوَحْيُ، مُوقِناً أَنَّ وَرَاءَ أَصْغَرِ الكَلِمَاتِ أَسْرَاراً تَهْدِي الرُّوحَ إِلَى مَعْرِفَةِ رَبِّهَا. فَكُلُّ اعْتِرَاضٍ عَلَى حِكْمَةِ اللهِ فِسْقٌ وَضَلَالٌ يَزُولُ، وَلَا هِدَايَةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنْ سَلَّمَ قَلْبَهُ لِلْحَقِّ فَبَقِيَتْ لَهُ الحِكْمَةُ وَالمعْنَى.

نَقْضُ الميثَاقِ وَخُسْرَانُ القَاطِعِين

صَدَى {الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}

أَرَى جَرِيمَةَ الخِيَانَةِ الرُّوحِيَّةِ فِي أَبْشَعِ صُوَرِهَا حِينَ يُمَزِّقُ الإِنْسَانُ ذَلِكَ العَهْدَ الأَزَلِيَّ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ عَلَى الفِطْرَةِ قَبْلَ أَنْ تَطَأَ الأَقْدَامُ تُرَابَ الأَرْض. إِنَّ نَقْضَ الميثَاقِ الإِلَهِيِّ هُوَ بَدْءُ الانْهِيَارِ الدَّاخِلِيِّ، فَمَنْ خَانَ عَهْدَهُ مَعَ السَّمَاءِ هَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْطَعَ كُلَّ حَبْلٍ أَمَرَ اللهُ بِوَصْلِهِ مِنَ الأَرْحَامِ وَالموَدَّةِ وَالإِيمَان. وَكَمْ تَصِيرُ الحَيَاةُ مُوحِشَةً وَقَاحِلَةً حِينَ تَتَقَطَّعُ أَوَاصِرُ الرَّحْمَةِ بَيْنَ الخَلْقِ، فَيَتَحَوَّلُ الفَاسِقُونَ إِلَى مَعَاوِلِ هَدْمٍ تَنْشُرُ الفَسَادَ فِي كُلِّ بُقْعَةٍ تَحُلُّ فِيهَا. أُبْصِرُ هَؤُلَاءِ القَاطِعِينَ يَسِيرُونَ فِي مَرْكِبِ الخُسْرَانِ المبِينِ؛ فَقَدْ خَسِرُوا صِلَتَهُمْ بِرَبِّهِمْ حِينَ نَقَضُوا عَهْدَهُ، وَخَسِرُوا أُنْسَهُمْ بِالخَلْقِ حِينَ قَطَعُوا مَا أَمَرَ بِوَصْلِهِ، وَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ حِينَ أَفْسَدُوا مَوْضِعَ اسْتِخْلَافِهِمْ. فَمَا أَشَدَّ بُؤْسَ الرُّوحِ الَّتِي تَعِيشُ مَقْطُوعَةً عَنْ مَصْدَرِ نُورِهَا، تَظُنُّ أَنَّ التَّحَلُّلَ مِنَ العُهُودِ حُرِّيَّةٌ وَهُوَ فِي الحَقِيقَةِ سُقُوطٌ

فِي بَثْرِ الوَحْشَةِ وَالهَلَاك. هَكَذَا أُجَدِّدُ مِيثَاقِي مَعَ اللهِ فِي كُلِّ نَفَسٍ، وَأَحْرِصُ عَلَى وَصْلِ كُلِّ رَحِمٍ وَمَعْرُوفٍ أَمَرَ بِهِ لِأَبْقَى فِي دَائِرَةِ الرَّحْمَةِ وَالأَمَان. فَكُلُّ نَقْضٍ لِعَهْدِ اللهِ قَطِيعَةٌ وَخُسْرَانٌ يَزُولُ، وَلَا رِبْحَ خَالِداً إِلَّا لِمَنْ وَفَى بِمِيثَاقِهِ وَوَصَلَ مَا أُمِرَ بِهِ فَبَقِيَتْ لَهُ الصِّلَةُ وَالمِعْنَى.

دَهْشَةُ الكُفْرِ وَسِرُّ الحَيَاةِ وَالمَوْت

صَدَى {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}

أَتَوَقَّفُ مَذْهُولاً أَمَامَ هَذَا السُّؤَالِ الإِلَهِيِّ المدْهِشِ الَّذِي يَسْتَنْطِقُ تَارِيخَ وُجُودِي كُلَّهُ: كَيْفَ يَجْرُؤُ المخْلُوقُ عَلَى جُحُودِ خَالِقِهِ وَجَسَدُهُ يَحْمِلُ أَعْظَمَ دَلِيلٍ عَلَى قُدْرَتِهِ وَرُبُوبِيَّتِه؟ إِنَّنِي أَنْظُرُ إِلَى مَاضِيَّ السَّحِيقِ حِينَ كُنْتُ عَدَماً صَامِتاً وَنُطْفَةً مَيِّتَةً فِي أَصْلَابِ الغَيْبِ، فَنَفَخَ اللهُ فِيَّ مِنْ رُوحِهِ وَأَخْرَجَنِي إِلَى نُورِ الحَيَاةِ بِلَا حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّة. وَكَمْ تَصْغُرُ كِبْرِيَاءُ الإِنْسَانِ حِينَ يَتَذَكَّرُ أَنَّهُ مُحَاصَرٌ بِقَبْضَةِ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ؛ فَالَّذِي أَحْيَاهُ بَعْدَ العَدَمِ سَيُمِيتُهُ عِنْدَ انْقِضَاءِ الأَجَلِ، ثُمَّ يُحْيِيهِ لِلْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، ثُمَّ إِلَيْهِ يَكُونُ المَرْجِعُ وَالمآب. أُبْصِرُ رِحْلَةَ الإِنْسَانِ دَائِرَةً كُبْرَى تَبْدَأُ مِنَ اللهِ وَتَنْتَهِي إِلَى اللهِ، فَمِنْ أَيْنَ يَتَسَلَّلُ الكُفْرُ إِلَى عَقْلٍ يَرَى نَفْسَهُ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ مَوْتَتَيْنِ وَحَيَاتَيْنِ تَحْتَ سُلْطَانِ القَيُّوم؟ فَمَا أَعْجَبَ هَذَا التَّنَاقُضَ فِي نَفْسٍ تَتَنَفَّسُ هَوَاءَ الحَيَاةِ الَّذِي وَهَبَهُ اللهُ لَهَا، ثُمَّ تَسْتَعْمِلُ هَذَا النَّفَسَ فِي إِنْكَارِ وَاهِبِ الحَيَاةِ وَمُدَبِّرِ الأَمْر. هَكَذَا تَنْحَنِي رُوحِي بِاعْتِرَافٍ خَاشِعٍ أَمَامَ واهِبِ النَّبْضِ، مُسْتَعِدَّةً لِلْمَوْتِ الَّذِي يُعِيدُنِي إِلَيْهِ وَلِلْحَيَاةِ الَّتِي تَجْمَعُنِي بِهِ فِي يَوْمِ اللِّقَاء. فَكُلُّ جُحُودٍ لِوَاهِبِ الحَيَاةِ عَبَثٌ وَتَنَاقُضٌ يَزُولُ، وَلَا حَقِيقَةَ خَالِدَةَ إِلَّا أَنَّنَا مِنْهُ بَدَأْنَا وَإِلَيْهِ نَرْجِعُ فَيَبْقَى لَنَا الرُّجُوعُ وَالمِعْنَى.

مَائِدَةُ الأَرْضِ وَإِحَاطَةُ العِلْم

صَدَى {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}

أَمُدُّ بَصَرِي فِي أَرْجَاءِ هَذَا الكَوْنِ الفَسِيحِ، فَأَشْعُرُ بِتَكْرِيمٍ عُلْوِيٍّ يَغْمُرُ كِيَانِي حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ اللهَ قَدْ سَخَّرَ وَخَلَقَ لِأَجْلِي كُلَّ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً لِأَعْتَبِرَ بِهِ وَأَنْتَفِع. إِنَّنِي أَمْشِي فَوْقَ كَنْزٍ عَظِيمٍ مِنَ

النِّعَمِ المَبْثُوثَةِ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَالجِبَالِ، ثُمَّ أَرْفَعُ رَأْسِي فَأَرَى سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً قَدْ سَوَّاهَا القَدِيرُ بِإِتْقَانٍ يُبْهِرُ العُقُولَ وَيُعْجِزُ الأَبْصَار. وَكَمْ تَسْكُنُ رُوحِي وَتَطْمَئِنُّ حِينَ تَسْتَحْضِرُ أَنَّ خَالِقَ هَذَا الصَّرْحِ الكَوْنِيّ العَظِيمِ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، فَلَا تَغِيبُ عَنْهُ هَمْسَةُ قَلْبٍ وَلَا حَرَكَةُ ذَرَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ البِحَار. أُبْصِرُ التَّنَاغُمَ المُطْلَقَ بَيْنَ خَلْقِ الأَرْضِ لِتَكُونَ مَهْداً لِلْإِنْسَانِ وَتَسْوِيَةِ السَّمَاوَاتِ لِتَكُونَ سَقْفاً مَحْفُوظاً، فَتَنْكَشِفُ لِبَصِيرَتِي وَحْدَةُ القَصْدِ وَعَظَمَةُ التَّدْبِير. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ أَعِيشَ فِي كَوْنٍ صُنِعَ لِي بِإِتْقَانٍ وَرَحْمَةٍ، تَحْتَ عَيْنِ عَلِيمٍ خَبِيرٍ يَعْلَمُ سِرِّي وَجَهْرِي وَيَرْعَى خُطُوَاتِي فِي كُلِّ حِين. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الأَرْضُ تَحْتِي إِلَى مِحْرَابٍ لِلشُّكْرِ، وَالسَّمَاءُ فَوْقِي إِلَى كِتَابٍ مَفْتُوحٍ أَقْرَأُ فِيهِ آيَاتِ العِلْمِ وَالقُدْرَةِ المُطْلَقَة. فَكُلُّ مَا فِي الكَوْنِ مُسَخَّرٌ لِيَقُودَ الإِنْسَانَ إِلَى خَالِقِهِ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِعِلْمِ اللهِ الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ فَبَقِيَ لَهُ التَّدْبِيرُ وَالمَعْنَى.

تَاجُ الخِلَافَةِ وَسُؤَالُ المَلَائِكَة

صَدَى {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}

أَعُودُ بِبَصِيرَتِي إِلَى فَجْرِ الخَلِيقَةِ الأَوَّلِ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ الزَّمَانُ، فَأَشْهَدُ ذَلِكَ الحِوَارَ المَلَكُوتِيَّ المَهِيبَ حِينَ أَعْلَنَ الرَّبُّ تَتْوِيجَ الإِنْسَانِ بِوِسَامِ الخِلَافَةِ فِي الأَرْض. إِنَّنِي أَسْمَعُ تَسَاؤُلَ المَلَائِكَةِ المُشْفِقِينَ مِنْ طَبِيعَةِ الطِّينِ الَّتِي قَدْ تَمِيلُ إِلَى الفَسَادِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ، بَيْنَمَا هُمْ غَارِقُونَ فِي التَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ بِلَا فُتُورٍ وَلَا عِصْيَان. وَكَمْ يَرْتَفِعُ قَدْرِي وَتَتَعَاظَمُ مَسْؤُولِيَّتِي حِينَ أَسْمَعُ الجَوَابَ الإِلَهِيَّ الحَاسِمَ الَّذِي يُرَاهِنُ عَلَى هَذَا الكَائِنِ البَشَرِيّ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ مِنْ أَسْرَارِ العِلْمِ وَالمَحَبَّةِ وَالِاخْتِيَار. أُبْصِرُ نَفْسِي وَاقِفَةً بَيْنَ نَزْعَةِ التُّرَابِ الَّتِي تَخْشَاهَا المَلَائِكَةُ وَنَفْخَةِ الرُّوحِ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللهُ فِيَّ لِأَكُونَ خَلِيفَتَهُ فِي عِمَارَةِ الكَوْنِ وَإِقَامَةِ العَدْل. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الِاصْطِفَاءَ الَّذِي جَعَلَ طَاعَةَ الإِنْسَانِ المُخْتَارِ أَحَبَّ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ تَسْبِيحٍ مَجْبُولٍ لَا يَعْرِفُ مُجَاهَدَةَ الهَوَى وَالشَّهَوَات. هَكَذَا أَحْمِلُ أَمَانَةَ الخِلَافَةِ بِخَوْفٍ وَرَجَاءٍ، مُجَاهِداً نَفْسِي كَيْ أَكُونَ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ خَالِقِي بِي، فَأَعْمُرَ الأَرْضَ بِالنُّورِ لَا بِالدَّمِ وَالفَسَاد. فَكُلُّ إِفْسَادٍ فِي الأَرْضِ خِيَانَةٌ لِشَرَفِ الخِلَافَةِ وَسُقُوطٌ فِي الطِّينِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَنْ حَقَّقَ حِكْمَةَ اللهِ فِي خَلْقِهِ فَبَقِيَتْ لَهُ الكَرَامَةُ وَالمَعْنَى.

مِفْتَاحُ الأَسْمَاءِ وَسِرُّ البَيَان

صَدَى {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}

أَتَأَمَّلُ لَحْظَةَ التَّكْرِيمِ الأَعْظَمِ حِينَ انْفَتَحَتْ خَزَائِنُ العِلْمِ الإِلَهِيِّ لِتَسْكُبَ فِي عَقْلِ آدَمَ مَفَاتِيحَ الكَوْنِ وَأَسْمَاءَ الأَشْيَاءِ كُلِّهَا بِلَا اسْتِثْنَاء. إِنَّ القُدْرَةَ عَلَى التَّسْمِيَةِ وَالإِدْرَاكِ هِيَ الَّتِي مَنَحَتِ الإِنْسَانَ سُلْطَانَ المَعْرِفَةِ وَالمُشَاهَدَةِ، فَجَعَلَتْهُ سَيِّدَ المَخْلُوقَاتِ بِالعِلْمِ الَّذِي تَلَقَّاهُ مُبَاشَرَةً مِنْ حَضْرَةِ الخَالِقِ العَلِيم. وَكَمْ يَبْدُو مَشْهَدُ العَرْضِ عَلَى المَلَائِكَةِ مَهِيباً حِينَ طُلِبَ مِنْهُمُ الإِنْبَاءُ بِحَقَائِقِ الوُجُودِ، لِيَظْهَرَ لِلْمَلَكُوتِ كُلِّهِ أَنَّ الخِلَافَةَ تَحْتَاجُ إِلَى عَقْلٍ يَكْتَشِفُ وَيُسَمِّي وَيَرْبِطُ بَيْنَ الأَشْيَاء. أُبْصِرُ الكَلِمَةَ تُولَدُ فِي فَمِ آدَمَ كَالشُّعْلَةِ الأُولَى الَّتِي تُضِيءُ عَتْمَةَ المَجْهُولِ، فَتَتَحَوَّلُ الكَائِنَاتُ الصَّامِتَةُ إِلَى مَعَانٍ مَفْهُومَةٍ تَنْطِقُ بِقُدْرَةِ مَنْ أَبْدَعَهَا وَعَلَّمَ أَسْمَاءَهَا. فَمَا أَعْظَمَ شَرَفَ العِلْمِ حِينَ يَكُونُ هِبَةً مِنَ السَّمَاءِ وَأَدَاةً لِلتَّعَرُّفِ عَلَى آيَاتِ اللهِ، لَا سِلَاحاً لِلْغُرُورِ وَالِاسْتِعْلَاءِ عَلَى الخَلْق. هَكَذَا أَتَلَمَّسُ فِي كُلِّ مَعْرِفَةٍ أَتَعَلَّمُهَا أَثَراً مِنْ ذَلِكَ التَّعْلِيمِ الآدَمِيِّ الأَوَّلِ، فَأَسْتَعْمِلُ الكَلِمَةَ وَالِاسْمَ فِي كَشْفِ الحَقَائِقِ وَتَمْجِيدِ الوَاهِب. فَكُلُّ عِلْمٍ يَنْفَصِلُ عَنْ مَصْدَرِهِ الإِلَهِيِّ جَهْلٌ مُقَنَّعٌ يَزُولُ، وَلَا سُلْطَانَ خَالِداً إِلَّا لِلْمَعْرِفَةِ الَّتِي أَشْرَقَتْ بِنُورِ اللهِ فَبَقِيَ لَهَا البَيَانُ وَالمَعْنَى.

سُجُودُ المَعْرِفَةِ وَاعْتِرَافُ المَلَائِكَة

صَدَى {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَاۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}

أُصْغِي بِانْبِهَارٍ إِلَى هَذَا اللَّحْنِ المَلَائِكِيِّ الشَّفَّافِ الَّذِي يُعْلِنُ التَّسْلِيمَ المُطْلَقَ وَالبَرَاءَةَ مِنْ كُلِّ دَعْوَى لِلْمَعْرِفَةِ الذَّاتِيَّةِ أَمَامَ جَلَالِ العَلِيمِ الحَكِيم. إِنَّ كَلِمَةَ (سُبْحَانَكَ) تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِ المَلَائِكَةِ كَالعِطْرِ الزَّكِيِّ الَّذِي يُطَهِّرُ سَاحَةَ الحِوَارِ مِنْ أَيِّ شَائِبَةِ اعْتِرَاض، مُعْلِنَةً أَنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عَنِ العَبَثِ وَمُحِيطٌ بِأَسْرَارِ التَّدْبِير. وَكَمْ تَتَعَلَّمُ نَفْسِي المُغْتَرَّةُ مِنْ هَذَا التَّوَاضُعِ السَّمَاوِيِّ الرَّفِيعِ؛ فَالْمَلَائِكَةُ الأَطْهَارُ لَمْ يَخْجَلُوا مِنْ قَوْلِ (لَا عِلْمَ لَنَا)، بَلْ رَأَوْا فِي الِاعْتِرَافِ بِالْعَجْزِ ذُرْوَةَ الكَمَالِ وَالعُبُودِيَّةِ لِوَاهِبِ العُلُوم. أُبْصِرُ كُلَّ عِلْمٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قَطْرَةً صَغِيرَةً تَتَسَاقَطُ مِنْ بَحْرِ اللهِ الَّذِي لَا

سَاحِلَ لَهُ، فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَعْلَمُ شَيْئاً بِذَاتِهِ فَقَدْ جَهِلَ حَقِيقَةَ وُجُودِهِ وَافْتِقَارِه. فَمَا أَجْمَلَ أَنْ يَجْتَمِعَ فِي حَمْدِ الخَالِقِ صِفَتَا العِلْمِ الَّذِي يُحِيطُ بِالْخَفَايَا، وَالحِكْمَةِ الَّتِي تَضَعُ كُلَّ مَخْلُوقٍ فِي مَوْضِعِهِ اللَّائِقِ بِهِ بِدِقَّةٍ وَإِتْقَان. هَكَذَا أُطَأْطِئُ رَأْسِي بِخُشُوعٍ كُلَّمَا انْكَشَفَ لِي سِرٌّ مِنَ الأَسْرَارِ، مُرَدِّداً مَعَ المَلَأِ الأَعْلَى أَنَّنِي لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي رَبِّي بِفَضْلِهِ وَكَرَمِه. فَكُلُّ عِلْمٍ يُورِثُ الكِبْرِيَاءَ غُرُورٌ يَتَبَدَّدُ وَيَزُولُ، وَلَا رِفْعَةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنِ اعْتَرَفَ بِفَقْرِهِ أَمَامَ العَلِيمِ الحَكِيمِ فَبَقِيَ لَهُ التَّوْفِيقُ وَالمَعْنَى.

بُرْهَانُ التَّفَوُّقِ وَشَهَادَةُ الغَيْب

صَدَى {قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}

تَصْدَحُ حَنْجَرَةُ آدَمَ بِالأَسْمَاءِ الَّتِي تَلَقَّاهَا مِنْ نَبْعِ الوَحْيِ، فَيَنْكَشِفُ سِتَارُ الحِكْمَةِ أَمَامَ المَلَائِكَةِ وَيَظْهَرُ سِرُّ اصْطِفَاءِ هَذَا الكَائِنِ لِخِلَافَةِ الأَرْض. إِنَّ إِنْبَاءَ آدَمَ لَهُمْ بِمَا عَجَزُوا عَنْهُ هُوَ إِعْلَانُ مِيلَادِ العَقْلِ البَشَرِيِّ المسْتَنِيرِ بِنُورِ السَّمَاءِ، الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْرَأَ كِتَابَ الوُجُودِ وَيُفَكِّكَ رُمُوزَ الكَائِنَات. وَكَمْ يَهُزُّ وِجْدَانِي ذَلِكَ التَّعْقِيبُ الإِلَهِيُّ المهِيبُ الَّذِي يَرْبِطُ بَيْنَ ظُهُورِ الحِكْمَةِ وَإِحَاطَةِ اللهِ بِغَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُخْفِيهِ الصُّدُور. أُبْصِرُ عَيْنَ الرَّقِيبِ الأَزَلِيِّ تَخْتَرِقُ السَّرَائِرَ المَكْتُومَةَ كَمَا تَرَى الكَلِمَاتِ المسْمُوعَةَ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا أَبْدَتْهُ المَلَائِكَةُ مِنْ سُؤَالٍ وَلَا مَا أَضْمَرَهُ إِبْلِيسُ فِي نَفْسِهِ مِنْ كِبْرٍ وَحَسَد. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ أَعِيشَ وَأَنَا مُوقِنٌ أَنَّ خَالِقِي يَعْلَمُ مَا أُبْدِيهِ فِي عَلَنِي وَمَا أَكْتُمُهُ فِي أَعْمَاقِ سِرِّي، فَأُطَهِّرَ بَاطِنِي قَبْلَ ظَاهِرِي. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ مَعْرِفَتِي بِإِحَاطَةِ الغَيْبِ إِلَى رَقِيبٍ دَاخِلِيٍّ يَمْنَعُنِي مِنَ التَّلَوُّنِ وَالنِّفَاقِ، وَيَدْفَعُنِي لِأَكُونَ صَادِقاً فِي حَضْرَةِ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَة. فَكُلُّ سِرٍّ يُكْتَمُ عَنِ الخَلْقِ مَكْشُوفٌ أَمَامَ عِلْمِ اللهِ، وَلَا أَمَانَ خَالِداً إِلَّا لِقَلْبٍ صَفَا سِرُّهُ وَعَلَنُهُ فَبَقِيَ لَهُ الصِّدْقُ وَالمَعْنَى.

سُجُودُ التَّكْرِيمِ وَتَمَرُّدُ الطِّين

صَدَى {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}

أَشْهَدُ أَعْظَمَ مَوْكِبٍ لِلتَّكْرِيمِ عَرَفَهُ المَلَكُوتُ حِينَ خَرَّتِ المَلَائِكَةُ النُّورَانِيَّةُ سَاجِدَةً لِآدَمَ طَاعَةً لِأَمْرِ اللهِ وَتَعْظِيماً لِسِرِّ العِلْمِ وَالرُّوحِ المُوْدَعِ فِيه. إِنَّ هَذَا السُّجُودَ المَهِيبَ لَمْ يَكُنْ عِبَادَةً لِلتُّرَابِ، بَلْ كَانَ انْحِنَاءً أَمَامَ نَفْخَةِ الرُّوحِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي رَفَعَتِ الإِنْسَانَ فَوْقَ مَقَامَاتِ المَخْلُوقَاتِ بِالِاصْطِفَاءِ وَالهِدَايَة. وَكَمْ يَبْدُو مَشْهَدُ إِبْلِيسَ قَبِيحاً وَنَافِراً وَهُوَ يَقِفُ وَحِيداً كَالنَّشَازِ فِي سِيمْفُونِيَّةِ الطَّاعَةِ، يَأْبَى السُّجُودَ وَيَنْتَفِخُ بِكِبْرِيَاءٍ أَعْمَى أَسْقَطَهُ فِي هَاوِيَةِ الكُفْرِ وَاللَّعْنَة. أُبْصِرُ دَاءَ الكِبْرِ وَهُوَ يَلْتَهِمُ حَسَنَاتِ العُمْرِ وَيُحَوِّلُ العَابِدَ الطَّائِعَ إِلَى شَيْطَانٍ رَجِيمٍ لِمُجَرَّدِ أَنَّهُ رَأَى نَفْسَهُ خَيْراً مِنْ غَيْرِهِ وَاعْتَرَضَ عَلَى حِكْمَةِ الخَالِق. فَمَا أَشَدَّ خَوْفِي مِنْ بَذْرَةِ الِاسْتِكْبَارِ الَّتِي قَدْ تَخْتَبِئُ فِي زَوَايَا النَّفْسِ، فَتَمْنَعُنِي مِنَ الِانْحِنَاءِ لِلْحَقِّ أَوِ الِاعْتِرَافِ بِفَضْلِ الآخَرِين. هَكَذَا أَجْعَلُ سُجُودِي لِرَبِّي تِرْيَاقاً دَائِماً يَقْتُلُ فِي دَاخِلِي غُرُورَ إِبْلِيسَ، وَيُعِيدُنِي إِلَى تَوَاضُعِ المَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ. فَكُلُّ كِبْرِيَاءٍ يَرْفُضُ أَمْرَ السَّمَاءِ كُفْرٌ وَطَرْدٌ يَزُولُ، وَلَا رِفْعَةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنْ تَوَاضَعَ وَسَجَدَ طَاعَةً لِلَّهِ فَبَقِيَ لَهُ القُرْبُ وَالمَعْنَى.

رَغَدُ الجَنَّةِ وَحُدُودُ الشَّجَرَة

صَدَى {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}

أَرَى بَوَّابَةَ الجَنَّةِ تُفْتَحُ عَلَى مِصْرَاعَيْهَا لِآدَمَ وَزَوْجِهِ، فَيَدْخُلَانِ إِلَى عَالَمٍ مِنَ الرَّغَدِ وَالسَّعَةِ وَالأُنْسِ لَا يَعْرِفُ الجُوعَ وَلَا العُرْيَ وَلَا الشَّقَاء. إِنَّ هَذَا العَطَاءَ الوَاسِعَ الَّذِي يُبِيحُ لَهُمَا كُلَّ ثِمَارِ الفِرْدَوْسِ حَيْثُ شَاءَا، يَقْتَرِنُ بِقَانُونٍ رُوحِيٍّ دَقِيقٍ يَمْتَحِنُ إِرَادَةَ الإِنْسَانِ وَقُدْرَتَهُ عَلَى ضَبْطِ الرَّغْبَةِ أَمَامَ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ مَمْنُوعَة. وَكَمْ تَكْشِفُ هَذِهِ الشَّجَرَةُ عَنْ طَبِيعَةِ التَّكْلِيفِ الإِلَهِيِّ؛ فَالْحَلَالُ الوَاسِعُ يَغْمُرُ الوُجُودَ كُلَّهُ، وَلَكِنَّ النَّفْسَ البَشَرِيَّةَ تُبْتَلَى بِحَدٍّ وَاحِدٍ لِتُثْبِتَ أَنَّهَا تَخْتَارُ طَاعَةَ رَبِّهَا بِإِرَادَتِهَا الحُرَّة. أُبْصِرُ حُدُودَ اللهِ سِيَاجاً مِنَ الرَّحْمَةِ يَحْمِي الإِنْسَانَ مِنْ ظُلْمِ نَفْسِهِ، فَمَنِ اقْتَرَبَ مِنَ المَحْظُورِ فَقَدْ جَنَى عَلَى رُوحِهِ وَأَخْرَجَهَا مِنْ دَائِرَةِ السَّلَامِ وَالنَّعِيم. فَمَا أَعْجَبَ حَالَ الإِنْسَانِ حِينَ يَتْرُكُ بَسَاتِينَ الحَلَالِ المُمْتَدَّةَ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ، لِيَمُدَّ يَدَهُ نَحْوَ الشَّجَرَةِ الوَحِيدَةِ الَّتِي حَذَّرَتْهُ السَّمَاءُ مِنَ الِاقْتِرَابِ مِنْهَا. هَكَذَا أَتَعَلَّمُ أَنْ أَقِفَ عِنْدَ حُدُودِ رَبِّي بِرِضًا وَقَنَاعَةٍ، مُسْتَمْتِعاً بِفَيْضِ النِّعَمِ المُبَاحَةِ دُونَ أَنْ

تُغْرِيَنِي وَسَاوِسُ الفُضُولِ بِتَجَاوُزِ الحَدّ. فَكُلُّ تَجَاوُزٍ لِحُدُودِ اللهِ ظُلْمٌ لِلنَّفْسِ وَحِرْمَانٌ يَزُولُ، وَلَا سَكَنَ خَالِداً إِلَّا لِمَنِ الْتَزَمَ أَمْرَ رَبِّهِ فَبَقِيَ لَهُ الرَّغَدُ وَالمعْنَى.

هَمْسُ الأَفْعَى وَسُقُوطُ الهُبُوط

صَدَى {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ}

أَتَأَمَّلُ بِحُزْنٍ شَفَّافٍ تِلْكَ اللَّحْظَةَ الفَاصِلَةَ الَّتِي تَسَلَّلَتْ فِيهَا وَسْوَسَةُ الشَّيْطَانِ كَالسُّمِّ النَّاعِمِ، فَأَزَلَّتْ قَدَمَ آدَمَ وَزَوْجِهِ عَنْ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَأَسْقَطَتْهُمَا فِي عَرَاءِ الِابْتِلَاء. إِنَّ هَذَا الإِخْرَاجَ المؤْلِمَ مِنْ دَارِ الرَّغَدِ وَالسَّلَامِ هُوَ الثَّمَنُ البَاهِظُ لِلِاسْتِجَابَةِ لِوَعْدِ العَدُوِّ الكَاذِبِ، حِينَ ظَنَّ القَلْبُ البَشَرِيُّ أَنَّ السَّعَادَةَ تَكْمُنُ خَلْفَ بَابِ المعْصِيَة. وَكَمْ يَهُزُّ كِيَانِي ذَلِكَ النِّدَاءُ الإِلَهِيُّ المعْلِنُ لِبَدْءِ الصِّرَاعِ الأَرْضِيِّ: اهْبِطُوا إِلَى دَارِ الكَدْحِ وَالمجَاهَدَةِ، حَيْثُ تَسْتَعِرُ العَدَاوَةُ الأَبَدِيَّةُ بَيْنَ نُورِ الفِطْرَةِ وَظَلَامِ الوَسْوَسَة. أُبْصِرُ الأَرْضَ تَسْتَقْبِلُ الهَابِطِينَ مِنَ السَّمَاءِ لِتَكُونَ لَهُمْ مُسْتَقَرّاً مُؤَقَّتاً وَمَتَاعاً عَابِراً إِلَى حِينٍ مَعْلُومٍ، فَلَا هِيَ وَطَنُهُمُ الأَصْلِيُّ وَلَا مَتَاعُهَا يَدُومُ لَهُمْ إِلَى الأَبَد. فَمَا أَشَدَّ غُرْبَةَ الرُّوحِ عَلَى هَذَا التُّرَابِ وَهِيَ تَحِنُّ إِلَى فِرْدَوْسِهَا المفْقُودِ، وَتُجَاهِدُ عَدُوَّهَا الَّذِي أَخْرَجَهَا مِنْ جِوَارِ السَّكِينَةِ وَالأَمَان. هَكَذَا أَعِيشُ فِي الدُّنْيَا بِقَلْبِ المسَافِرِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ مُقَامَهُ فِيهَا إِلَى حِينٍ، فَلَا يَغْتَرُّ بِمَتَاعِهَا الزَّائِلِ وَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ شَيْطَانِهَا. فَكُلُّ مَتَاعٍ عَلَى الأَرْضِ ظِلٌّ عَابِرٌ يَنْقَضِي، وَلَا عَوْدَةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنِ انْتَصَرَ عَلَى عَدُوِّهِ وَعَادَ إِلَى جَنَّةِ رَبِّهِ فَبَقِيَ لَهُ الوَطَنُ وَالمعْنَى.

كَلِمَاتُ التَّوْبَةِ وَغَيْثُ المغْفِرَة

صَدَى {فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}

تُشْرِقُ شَمْسُ الرَّجَاءِ فِي عَتْمَةِ الهُبُوطِ وَالِانْكِسَارِ، فَأَرَى السَّمَاءَ تَمُدُّ حَبْلَ النَّجَاةِ لِآدَمَ الحَزِينِ وَتُلْقِي فِي رَوْعِهِ كَلِمَاتٍ نُورَانِيَّةً يَفْتَحُ بِهَا أَبْوَابَ المغْفِرَةِ الموصَدَة. إِنَّ عَظَمَةَ الرَّبِّ تَتَجَلَّى فِي أَنَّهُ لَمْ يَتْرُكْ عَبْدَهُ التَّائِهَ يَغْرَقُ فِي يَأْسِ الخَطِيئَةِ، بَلْ عَلَّمَهُ كَيْفَ يَعْتَذِرُ وَكَيْفَ يَعُودُ إِلَى حِضْنِ الرَّحْمَةِ بَعْدَ أَنْ

زَلَّتْ بِهِ القَدَم. وَكَمْ تَبْعَثُ هَذِهِ الآيَةُ الدِّفْءَ فِي مَفَاصِلِ رُوحِي المُثْقَلَةِ بِالذُّنُوبِ؛ فَبَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ دَوْماً لِمَنِ اعْتَرَفَ بِظُلْمِ نَفْسِهِ وَانْكَسَرَ بَيْنَ يَدَيِ التَّوَّابِ الرَّحِيم. أُبْصِرُ دُمُوعَ النَّدَمِ الصَّادِقِ تَغْسِلُ غُبَارَ الزَّلَّةِ عَنْ وَجْهِ آدَمَ، فَتَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ سَكِينَةُ القَبُولِ الَّتِي تُعِيدُ لِلرُّوحِ طَهَارَتَهَا وَتَرْفَعُ عَنْهَا وَحْشَةَ البُعْدِ وَالحِرْمَان. فَمَا أَعْذَبَ أَنْ يَكُونَ الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ هِبَةً مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ سَعْياً مِنَ العَبْدِ، فَهُوَ الَّذِي يُلْهِمُ التَّوْبَةَ ثُمَّ يَقْبَلُهَا بِرَحْمَتِهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْء. هَكَذَا أَتَلَقَّى كَلِمَاتِ الِاسْتِغْفَارِ كَالْغَيْثِ المَبَارَكِ الَّذِي يُحْيِي مَوَاتَ قَلْبِي كُلَّمَا أَذْنَبْتُ، مُوقِناً أَنَّ رَحْمَةَ التَّوَّابِ أَوْسَعُ مِنْ كُلِّ خَطِيئَة. فَكُلُّ انْكِسَارٍ بَعِيداً عَنِ اللهِ يَأْسٌ وَفَنَاءٌ، وَلَا حَيَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِتَائِبٍ تَلَقَّى كَلِمَاتِ رَبِّهِ فَعَادَ إِلَيْهِ فَبَقِيَتْ لَهُ المَغْفِرَةُ وَالمَعْنَى.

مِيثَاقُ الهُدَى وَأَمَانُ السَّالِكِين

صَدَى {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}

يَتَكَرَّرُ أَمْرُ الهُبُوطِ إِلَى الأَرْضِ مَصْحُوباً بِخَرِيطَةِ النَّجَاةِ الأَبَدِيَّةِ، فَأَرَى البَشَرِيَّةَ تَبْدَأُ رِحْلَتَهَا عَلَى التُّرَابِ وَفِي يَدِهَا وَعْدٌ صَادِقٌ مِنَ السَّمَاءِ بِأَنَّ الوَحْيَ سَيَتَنَزَّلُ لِيُنِيرَ لَهَا دُرُوبَ العَوْدَة. إِنَّنِي أَتَأَمَّلُ هَذَا القَانُونَ الرُّوحِيَّ الثَّابِتَ الَّذِي يَرْبِطُ بَيْنَ اتِّبَاعِ الهُدَى الإِلَهِيِّ وَزَوَالِ أَكْبَرِ عَدُوَّيْنِ يُؤَرِّقَانِ الإِنْسَانَ: الخَوْفُ مِمَّا هُوَ قَادِمٌ، وَالحُزْنُ عَلَى مَا فَاتَ وَانْقَضَى. وَكَمْ تَشْعُرُ نَفْسِي بِالطُّمَأْنِينَةِ وَهِيَ تَسْتَنِدُ إِلَى هَذَا الضَّمَانِ السَّمَاوِيِّ؛ فَكُلُّ مَنْ جَعَلَ هُدَى اللهِ إِمَاماً لِخُطُوَاتِهِ عَاشَ فِي حِصْنٍ مَنِيعٍ لَا تَخْتَرِقُهُ مَ

خَاوِفُ المُسْتَقْبَلِ وَلَا تَهُزُّهُ أَحْزَانُ المَاضِي. أُبْصِرُ نُورَ الهِدَايَةِ خَيْطاً ذَهَبِيّاً يَمْتَدُّ مِنَ الجَنَّةِ المَفْقُودَةِ إِلَى الأَرْضِ، لِيَمْسِكَ بِهِ السَّالِكُونَ فَيَصْعَدُوا عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى مَنَازِلِ الرِّضْوَانِ وَالقُرْب. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ الَّذِي لَمْ يَتْرُكِ الهَابِطِينَ فِي عَتْمَةِ الحَيْرَةِ، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ نُورَهُ لِيُبَدِّدَ وَحْشَةَ الغُرْبَةِ وَيُعِيدَ لِلْقُلُوبِ سَكِينَتَهَا. هَكَذَا أَتَّبِعُ هُدَى رَبِّي بِقَلْبٍ مُطْمَئِنٍّ، مُلْقِياً خَلْفَ ظَهْرِي كُلَّ خَوْفٍ مِنَ المَجْهُولِ وَكُلَّ حُزْنٍ عَلَى الفَانِي. فَكُلُّ دَرْبٍ بَعِيدٍ عَنْ هُدَى اللهِ خَوْفٌ وَحُزْنٌ يَزُولُ، وَلَا أَمَانَ خَالِداً إِلَّا لِمَنِ اتَّبَعَ نُورَ السَّمَاءِ فَبَقِيَتْ لَهُ الطُّمَأْنِينَةُ وَالمَعْنَى.

عَمَى التَّكْذِيبِ وَخُلُودُ الجَحِيم

صَدَى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}

أَنْظُرُ إِلَى الطَّرَفِ الآخَرِ مِنَ المِعَادَلَةِ الكَوْنِيَّةِ، فَأَرَى الَّذِينَ أَدَارُوا ظُهُورَهُمْ لِنُورِ الهِدَايَةِ وَقَابَلُوا آيَاتِ اللهِ السَّاطِعَةِ بِالكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، فَاخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ صُحْبَةَ النَّارِ الأَبَدِيَّة. إِنَّ هَذَا المَصِيرَ المَرَوِّعَ لَيْسَ مُجَرَّدَ عُقُوبَةٍ عَابِرَةٍ، بَلْ هُوَ مُلَازَمَةٌ دَائِمَةٌ تَجْعَلُهُمْ أَصْحَاباً لِلْجَحِيمِ لَا يُفَارِقُونَهُ وَلَا يُفَارِقُهُمْ فِي خُلُودٍ لَا يَعْرِفُ النِّهَايَة. وَكَمْ تَرْتَجِفُ رُوحِي مِنْ هَذِهِ الصُّحْبَةِ المَخِيفَةِ الَّتِي تَسْتَبْدِلُ جِوَارَ الرَّحْمَنِ بِجِوَارِ النِّيرَانِ، لِمُجَرَّدِ أَنَّ العَقْلَ تَكَبَّرَ عَنِ التَّصْدِيقِ وَأَصَرَّ القَلْبُ عَلَى الجُحُود. أُبْصِرُ آيَاتِ اللهِ المَبْثُوثَةَ فِي الكِتَابِ وَالأَكْوَانِ تَقِفُ شَاهِدَةً عَلَيْهِمْ يَوْمَ الحِسَابِ؛ فَقَدْ كَانَتْ مَفَاتِيحَ لِلْجَنَّةِ لَوْ آمَنُوا بِهَا، فَحَوَّلُوهَا بِتَكْذِيبِهِمْ إِلَى حُجَّةٍ تَقُودُهُمْ إِلَى الهَاوِيَة. فَمَا أَشَدَّ قَسْوَةَ الخُلُودِ فِي العَذَابِ عَلَى نَفْسٍ بَاعَتْ أَبَدَهَا السَّعِيدَ بِلَحَظَاتٍ مِنَ العِنَادِ وَالِاسْتِكْبَارِ عَلَى أَمْرِ السَّمَاء. هَكَذَا أُصَدِّقُ بِكُلِّ آيَةٍ أَنْزَلَهَا رَبِّي تَصْدِيقاً يَمْلَأُ جَوَانِحِي بِالنُّورِ وَاليَقِينِ، هَارِباً مِنْ مَصِيرِ المُكَذِّبِينَ إِلَى رَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِين. فَكُلُّ تَكْذِيبٍ لِآيَاتِ اللهِ سُقُوطٌ فِي جَحِيمِ الفَنَاءِ المُقِيمِ، وَلَا نَجَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنْ صَدَّقَ بِالحَقِّ وَعَمِلَ بِهِ فَبَقِيَتْ لَهُ الجَنَّةُ وَالمُغْنَى.

ذَاكِرَةُ النِّعْمَةِ وَمِيثَاقُ الوَفَاء

صَدَى {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}

أُصْغِي إِلَى هَذَا النِّدَاءِ التَّارِيخِيِّ العَمِيقِ الَّذِي يُوقِظُ الذَّاكِرَةَ الغَافِلَةَ، فَأَرَى اللهَ يُذَكِّرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِفَيْضِ النِّعَمِ الَّتِي غَمَرَهُمْ بِهَا عَبْرَ القُرُونِ لِيَسْتَنْهِضَ فِيهِمْ رُوحَ الوَفَاءِ وَالِامْتِنَان. إِنَّ تَذَكُّرَ النِّعْمَةِ هُوَ المِفْتَاحُ الأَوَّلُ لِصَلَاحِ القَلْبِ؛ فَمَنْ نَسِيَ أَيَادِيَ المُنْعِمِ عَلَيْهِ قَسَا قَلْبُهُ وَتَجَرَّأَ عَلَى نَقْضِ العُهُودِ وَالمَوَاثِيقِ الَّتِي قَطَعَهَا عَلَى نَفْسِه. وَكَمْ يَهُزُّ وِجْدَانِي هَذَا المِيزَانُ العَادِلُ الَّذِي يَرْبِطُ بَيْنَ وَفَاءِ العَبْدِ وَوَفَاءِ الرَّبِّ: أَوْفُوا بِعَهْدِي فِي الإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ فِي النَّصْرِ وَالرِّضْوَانِ وَدُخُولِ الجِنَان. أُبْصِرُ الرَّهْبَةَ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ تَقِفُ حَارِساً أَميناً عَلَى هَذَا العَهْدِ، فَتَمْنَعُ القَلْبَ مِنَ الخَوْفِ مِنَ

البَشَرِ أَوِ المسَاوَمَةِ عَلَى دِينِهِ إِرْضَاءً لِلْخَلْقِ الفَانِين. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَكُونَ خَوْفِي كُلُّهُ مَحْصُوراً فِي جَلَالِ اللهِ، فَلَا أَرْهَبُ سِوَى نَقْضِ مِيثَاقِهِ وَلَا أَرْجُو سِوَى الِاسْتِقَامَةِ عَلَى أَمْرِهِ فِي كُلِّ حِين.

هَكَذَا أُقَلِّبُ صَفَحَاتِ نِعَمِ رَبِّي عَلَيَّ لِأُجَدِّدَ عَهْدَ العُبُودِيَّةِ وَالوَفَاءِ، مُرَاقِباً مَقَامَهُ العَظِيمَ بِرَهْبَةٍ تُطَهِّرُ نَفْسِي مِنَ التَّرَدُّدِ وَالمدَاهَنَة. فَكُلُّ نِسْيَانٍ لِلنِّعْمَةِ جُحُودٌ وَخِذْلَانٌ يَزُولُ، وَلَا وَفَاءَ خَالِداً إِلَّا لِمَنْ ذَكَرَ فَضْلَ اللهِ وَرَهِبَ جَلَالَهُ فَبَقِيَ لَهُ العَهْدُ وَالمعْنَى.

سِفْرُ الصَّدَى الرَّابِعُ

مِرْآةُ التَّصْدِيقِ وَصَفْقَةُ البَحْس

صَدَى {وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ}

تَتَعَانَقُ الشُّمُوسُ فِي أُفُقِ الوَحْيِ، فَأَرَى القُرْآنَ يَمُدُّ يَدَ النُّورِ لِيُصَافِحَ بَقَايَا الحَقِّ فِي الكُتُبِ السَّابِقَةِ، كَالمِرْآةِ الصَّافِيَةِ الَّتِي تَكْشِفُ الوَجْهَ الحَقِيقِيَّ بَعْدَ طُولِ غِيَاب. إِنَّنِي أَبْصِرُ شَظَايَا التَّرَدُّدِ تَتَطَايَرُ فِي صُدُورِ الأَحْبَارِ حِينَ طُلِبَ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونُوا طَلِيعَةَ المِصَدِّقِينَ لَا رَأْسَ الحَرْبَةِ فِي الجُحُودِ وَالِارْتِيَاب. وَكَمْ يَنْكَسِرُ قَلْبِي أَمَامَ هَذَا المَشْهَدِ المُقْبِضِ؛ عُقُولٌ تَبِيعُ لَآلِئَ السَّمَاءِ الخَالِدَةَ بِحَفْنَةٍ مِنْ تُرَابِ الرِّئَاسَةِ وَمَتَاعِ الدُّنْيَا الرَّخِيصِ الَّذِي تَذْرُوهُ رِيَاحُ الفَنَاء. أَرَى الآيَاتِ تَتَحَوَّلُ فِي أَسْوَاقِ المِصَالِحِ إِلَى سِلْعَةٍ تُقَايَضُ بِالأَهْوَاءِ، بَيْنَمَا تَصْرُخُ الفِطْرَةُ فِي أَعْمَاقِهِمْ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ الخَاتَمُ هُوَ عَيْنُ مَا بَشَّرَتْ بِهِ أَسْفَارُهُمُ الأُولَى. فَمَا أَشَدَّ عَمَى الجَشَعِ حِينَ يَجْعَلُ العَالِمَ أَوَّلَ الكَافِرِينَ بِمَا يَعْلَمُ، فَيُطْفِئُ سِرَاجَهُ بِيَدِهِ خَوْفاً عَلَى مَقْعَدٍ زَائِلٍ أَوْ جَاهٍ مَصْنُوع. هَكَذَا تَتَجَرَّدُ نَفْسِي مِنْ كُلِّ مُسَاوَمَةٍ عَلَى الحَقِّ، مُعَلِّقَةً خَوْفَهَا بِجَلَالِ اللهِ وَحْدَهُ، كَيْ لَا تَبِيعَ أَبَدَهَا بِثَمَنٍ بَخْسٍ يُورِثُ النَّدَمَ المُقِيم. فَكُلُّ ثَمَنٍ دُنْيَوِيٍّ يُقَابِلُ آيَاتِ اللهِ هَبَاءٌ وَسَرَابٌ يَزُولُ، وَلَا رِبْحَ خَالِداً إِلَّا لِمَنِ اتَّقَى رَبَّهُ وَصَدَّقَ نُورَ الوَحْيِ فَبَقِيَ لَهُ اليَقِينُ وَالمَعْنَى.

غِشَاوَةُ التَّلْبِيسِ وَسِجْنُ الكِتْمَان

صَدَى {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}

أُبْصِرُ يَداً خَفِيَّةً تَخْلِطُ النُّورَ بِالدُّخَانِ، فَتُشَوِّهُ مَلَامِحَ الحَقِيقَةِ بِثَوْبٍ مُرَقَّعٍ مِنَ الأَوْهَامِ لِتُضَلِّلَ العُيُونَ البَاحِثَةَ عَنِ اليَقِين. إِنَّ تَلْبِيسَ الحَقِّ بِالبَاطِلِ هُوَ أَخْبَثُ جَرِيمَةٍ تُرْتَكَبُ فِي حَقِّ الوَعْيِ

الإِنْسَانِيّ؛ حَيْثُ يُقَدَّمُ السُّمُّ فِي كَأْسٍ مِنَ العَسَلِ المَغْشُوشِ لِيَشْرَبَهُ العَطْشَى عَلَى أَنَّهُ مَاءُ الحَيَاة. وَكَمْ تَئِنُّ الحَقِيقَةُ تَحْتَ أَقْفَالِ الكِتْمَانِ حِينَ يَحْبِسُهَا العَارِفُونَ فِي صَنَادِيقِ الصَّدْرِ، فَيُحْفُونَ شَمْسَ النُّبُوَّةِ وَيَطْمِسُونَ مَعَالِمَ الهُدَى وَهُمْ يَعْلَمُونَ صِدْقَهَا يَقِيناً. أَرَى الحُرُوفَ المَكْتُومَةَ تَتَحَوَّلُ فِي جَوْفِ الكَاتِمِينَ إِلَى جَمْرٍ يَحْرِقُ ضَمَائِرَهُمْ، بَيْنَمَا تَتَشَظَّى البَصَائِرُ مِنْ حَوْلِهِمْ فِي ضَبَابِ الحَيْرَةِ الَّذِي صَنَعُوهُ بِأَيْدِيهِمْ. فَمَا أَشَدَّ قَسْوَةَ الخِيَانَةِ حِينَ تَصْدُرُ عَنْ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ، فَيَصِيرُ صَاحِبُ العِلْمِ قَاطِعَ طَرِيقٍ يَسُدُّ مَنَافِذَ الضَّوْءِ عَلَى السَّائِرِينَ إِلَى الله. هَكَذَا أُطَهِّرُ لِسَانِي وَقَلَمِي مِنْ كُلِّ تَمْوِيهٍ أَوْ إِخْفَاءٍ لِلْحَقِّ، فَأَعْرِضُ نُورَ السَّمَاءِ نَقِيّاً صَافِياً كَمَا تَنَزَّلَ دُونَ تَزْيِيفٍ أَوْ كِتْمَان. فَكُلُّ بَاطِلٍ يُلْبَسُ ثَوْبَ الحَقِّ زَيْفٌ يَتَعَرَّى وَيَزُولُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلْحَقِيقَةِ العَارِيَةِ الصَّافِيَةِ الَّتِي تَسْطَعُ بِنُورِ اللهِ فَيَبْقَى لَهَا الوُضُوحُ وَالمَعْنَى.

عَمُودُ الصَّلَاةِ وَمِعْرَاجُ الرُّكُوع

صَدَى {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}

تَنْبَثِقُ مِنْ رُكَامِ المادَّةِ ثَلَاثُ مَنَارَاتٍ تَرْفَعُ الإِنْسَانَ مِنْ وَحْلِ الأَنَانِيَّةِ إِلَى سَمَاءِ القُرْبِ وَالِانْتِمَاء. إِنَّ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ هِيَ اسْتِقَامَةُ الجِذْعِ الرُّوحِيّ فِي عَاصِفَةِ الغَفْلَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ هُوَ تَفْجِيرُ يَنَابِيعِ الرَّحْمَةِ فِي تُرْبَةِ المالِ الجَافَّةِ لِتُزْهِرَ بِالعَطَاءِ وَالتَّكَافُل. وَكَمْ تَتَلَاشَى وَحْشَةُ العُزْلَةِ الفَرْدِيَّةِ حِينَ تَنْحَنِي الظُّهُورُ فِي صَفٍّ وَاحِدٍ، فَيَذُوبُ (الأَنَا) المُتَضَخِّمُ فِي جَمَاعَةِ الرَّاكِعِينَ الخَاشِعِينَ لِجَلَالِ الله. أُبْصِرُ الرُّكُوعَ انْكِسَاراً نَبِيلاً يَكْسِرُ عُنُقَ الكِبْرِيَاءِ المَوْرُوثِ، وَيُدْخِلُ الرُّوحَ فِي تَنَاغُمٍ كَوْنِيّ مَعَ قَافِلَةِ السَّاجِدِينَ وَالعَابِدِينَ فِي مِحْرَابِ التَّوْحِيد. فَمَا أَعْذَبَ أَنْ تَتَوَحَّدَ صِلَةُ الخَالِقِ بِالصَّلَاةِ، وَصِلَةُ الخَلْقِ بِالزَّكَاةِ، وَصِلَةُ الأُمَّةِ بِالرُّكُوعِ الجَمَاعِيِّ الَّذِي يُذِيبُ الفَوَارِقَ وَالأَلْقَاب. هَكَذَا أُقِيمُ صَلَاتِي عَمُوداً لِحَيَاتِي، وَأُزَكِّي مَالِي وَرُوحِي بِالبَذْلِ، وَأَنْضَمُّ بِقَلْبِي وَجَسَدِي إِلَى صُفُوفِ الرَّاكِعِينَ طَلَباً لِلنَّجَاةِ وَالسَّكِينَة. فَكُلُّ انْفِرَادٍ عَنْ قَافِلَةِ العَابِدِينَ تِيهٌ وَشُذُوذٌ يَزُولُ، وَلَا نَجَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَزَكَّى وَرَكَعَ مَعَ الصَّادِقِينَ فَبَقِيَ لَهُ القُرْبُ وَالمَعْنَى.

انْشِطَارُ الذَّاتِ وَمِرْآةُ النِّسْيَان

صَدَى {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}

يَسْقُطُ هَذَا السُّؤَالُ الإِلَهِيُّ كَالمِشْرَطِ الحَادِّ لِيَكْشِفَ عَنْ أَبْشَعِ تَنَاقُضٍ يَعِيشُهُ الوَاعِظُ الغَافِلُ؛ لِسَانٌ يَسْكُبُ الحِكْمَةَ وَالبِرَّ فِي آذَانِ النَّاسِ، وَقَلْبٌ يَمُوتُ عَطَشاً فِي صَحْرَاءِ النِّسْيَانِ وَالجَفَاف. إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذَا الِانْشِطَارَ المِخِيفَ فِي ذَاتٍ تَتْلُو الكِتَابَ لَيْلَ نَهَارَ كَالْمُبَغَّاءِ، فَتُضِيءُ الطَّرِيقَ لِلْآخَرِينَ كَالشَّمْعَةِ الَّتِي تَحْرِقُ نَفْسَهَا وَلَا تُهْدِي بِنُورِهَا. وَكَمْ يَهُزُّ كِيَانِي هَذَا التَّوْبِيخُ السَّمَاوِيُّ المَوجِعُ: أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ فَأَيُّ عَقْلٍ يَبْقَى لِمَنْ يَرَى الدَّوَاءَ فِي يَدِهِ وَيَصِفُهُ لِلْمَرْضَى، بَيْنَمَا السُّمُّ يَسْرِي فِي عُرُوقِهِ دُونَ أَنْ يُعَالِجَ نَفْسَهُ؟ أَرَى حُرُوفَ الكِتَابِ تَقِفُ مُتَعَجِّبَةً مِنْ قَارِئِهَا الَّذِي يُطَالِبُ الخَلْقَ بِالطَّهَارَةِ وَهُوَ غَارِقٌ فِي وَحْلِ التَّقْصِيرِ وَالأَنَانِيَّةِ وَالهَوَى. فَمَا أَشَدَّ خَوْفِي مِنْ أَنْ تَسْبِقَ كَلِمَاتِي أَفْعَالِي، أَوْ أَنْ أَكُونَ جِسْراً يَعْبُرُ عَلَيْهِ النَّاسُ إِلَى الجَنَّةِ ثُمَّ يُلْقَى بِهِ فِي نَارِ الغَفْلَةِ وَالخُسْرَان. هَكَذَا أَبْدَأُ بِوَعْظِ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ لِغَيْرِي، جَاعِلاً تِلَاوَتِي لِلْكِتَابِ مِرْآةً أُصْلِحُ بِهَا عُيُوبِي قَبْلَ أَنْ أُشِيرَ إِلَى عُيُوبِ النَّاس. فَكُلُّ عِلْمٍ لَا يَبْدَأُ بِإِصْلَاحِ صَاحِبِهِ حُجَّةٌ عَلَيْهِ وَسَرَابٌ يَزُولُ، وَلَا عَقْلَ سَلِيماً إِلَّا لِمَنْ تَطَابَقَ قَوْلُهُ مَعَ فِعْلِهِ فَبَقِيَ لَهُ الصِّدْقُ وَالمَعْنَى.

جَنَاحَا الصَّبْرِ وَخُشُوعُ البَصِيرَة

صَدَى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ}

أَتَأَمَّلُ هَذَيْنِ الجَنَاحَيْنِ النُّورَانِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ تَحْلِقُ بِهِمَا الرُّوحُ فَوْقَ أَشْوَاكِ الِابْتِلَاءِ وَعَقَبَاتِ الطَّرِيقِ؛ صَبْرٌ يَحْبِسُ النَّفْسَ عَنِ الجَزَعِ وَالتَّسَخُّطِ، وَصَلَاةٌ تَصِلُ القَلْبَ بِمَنْبَعِ القُوَّةِ الأَزَلِيَّة. إِنَّنِي أَبْصِرُ ثِقَلَ هَذِهِ الفَرِيضَةِ عَلَى القُلُوبِ الغَافِلَةِ المُثْقَلَةِ بِأَوْحَالِ الدُّنْيَا، فَتَرَاهَا جَبَلاً جَاثِماً عَلَى الصُّدُورِ يَصْعُبُ ارْتِقَاؤُهُ عَلَى مَنْ أَلِفَ الكَسَلَ وَالهَوَى. وَكَمْ يَتَبَدَّلُ المَشْهَدُ كُلِّيّاً فِي عَالَمِ الخَاشِعِينَ؛ فَهُمْ يَرَوْنَ فِي الصَّلَاةِ وَاحَةَ الرَّاحَةِ وَسَكِينَةَ الفُؤَادِ، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ قَدْ ذَابَتْ فِي مَحَبَّةِ اللهِ وَتَحَرَّرَتْ مِنْ أَغْلَالِ التُّرَاب. أَرَى الخُشُوعَ مِفْتَاحاً سِحْرِيّاً يُحَوِّلُ التَّكْلِيفَ الشَّاقَّ إِلَى شَوْقٍ عَذْبٍ، فَتَطِيرُ الرُّوحُ نَحْوَ المِحْرَابِ كَمَا يَطِيرُ الطَّيْرُ الغَرِيبُ نَحْوَ عُشِّهِ الدَّافِئِ عِنْدَ الغُرُوب. فَمَا أَشَدَّ حَاجَتِي إِلَى خُشُوعٍ يُلَيِّنُ قَسْوَةَ قَلْبِي، فَيُصْبِحُ الصَّبْرُ زَادِي فِي العَاصِفَةِ، وَتَصِيرُ الصَّلَاةُ قُرَّةَ عَيْنِي وَمَلَاذِي مِنْ ضَجِيجِ الحَيَاة.

هَكَذَا أَسْتَعِينُ بِالصَّبْرِ الجَمِيلِ وَالصَّلَاةِ الخَاشِعَةِ عَلَى مَشَقَّاتِ السَّيْرِ إِلَى اللهِ، مُوقِناً أَنَّ المَدَدَ السَّمَاوِيَّ يَتَنَزَّلُ عَلَى القُلُوبِ المُنْكَسِرَةِ بَيْنَ يَدَيْه. فَكُلُّ قُوَّةٍ بَشَرِيَّةٍ تَنْهَارُ أَمَامَ عَوَاصِفِ الزَّمَنِ وَتَزُولُ، وَلَا ثَبَاتَ خَالِداً إِلَّا لِخَاشِعٍ اسْتَعَانَ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ فَبَقِيَ لَهُ السَّنَدُ وَالمَعْنَى.

يَقِينُ اللِّقَاءِ وَأُنْسُ الرُّجُوع

صَدَى {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}

أَكْتَشِفُ سِرَّ خِفَّةِ الصَّلَاةِ وَعُذُوبَةِ الخُشُوعِ فِي قُلُوبِ الأَبْرَارِ؛ إِنَّهُمْ يَعِيشُونَ فِي الدُّنْيَا بِعَيْنٍ تَرْقُبُ لَحْظَةَ اللِّقَاءِ الكُبْرَى، وَبِوِجْدَانٍ يُوقِنُ أَنَّ الرِّحْلَةَ كُلَّهَا تَنْتَهِي عِنْدَ عَتَبَةِ الرَّبِّ الرَّحِيم. إِنَّ هَذَا اليَقِينَ الرَّاسِخَ بِاللِّقَاءِ وَالرُّجُوعِ يُحَوِّلُ الحَيَاةَ مِنْ عَبَثٍ عَشْوَائِيٍّ إِلَى مَسِيرَةٍ قَاصِدَةٍ نَحْوَ الحَبِيبِ الأَوَّلِ الَّذِي مِنْهُ بَدَأَتِ الرُّوحُ وَإِلَيْهِ تَؤُوب. وَكَمْ تَصْغُرُ مَصَائِبُ الأَرْضِ وَمَغْرِيَاتُهَا فِي عَيْنِي حِينَ أَسْتَحْضِرُ أَنَّنِي مُلَاقٍ رَبِّي لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ أَخْطُوهَا تُقَرِّبُنِي مِنْ مَوْعِدِ العَرْضِ وَالمِسَاءَلَةِ وَالسَّلَام. أُبْصِرُ الخَاشِعِينَ يَسْتَعِدُّونَ لِهَذَا اللِّقَاءِ بِتَطْهِيرِ السَّرَائِرِ وَتَجْمِيلِ الأَعْمَالِ، فَلَا يَخَافُونَ المَوْتَ لِأَنَّهُ الجِسْرُ الَّذِي يُوصِلُهُمْ إِلَى مَنْ يُحِبُّون. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَكُونَ الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ هُوَ البُوصَلَةَ الَّتِي تَضْبِطُ إِيقَاعَ أَنْفَاسِي، فَلَا أَظْلِمُ وَلَا أَغْتَرُّ وَلَا أَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ مَنْ أَنَا رَاجِعٌ إِلَيْه. هَكَذَا أَمْشِي فِي دُرُوبِ العُمْرِ وَقَلْبِي يَخْفِقُ بِشَوْقِ المُسَافِرِ العَائِدِ إِلَى وَطَنِهِ الأَصْلِيِّ، مُسْتَعِدّاً لِلَحْظَةِ الَّتِي يَنْكَشِفُ فِيهَا الحِجَابُ وَيَتَحَقَّقُ اللِّقَاء. فَكُلُّ بَقَاءٍ عَلَى التُّرَابِ حُلْمٌ عَابِرٌ يَنْقَضِي، وَلَا حَقِيقَةَ خَالِدَةَ إِلَّا أَنَّنَا مُلَاقُو رَبِّنَا وَإِلَيْهِ رَاجِعُونَ فَيَبْقَى لَنَا اللِّقَاءُ وَالمَعْنَى.

تَاجُ التَّفْضِيلِ وَذَاكِرَةُ الِاصْطِفَاء

صَدَى {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}

يَتَكَرَّرُ النِّدَاءُ الإِلَهِيُّ لِيَقْرَعَ أَبْوَابَ الذَّاكِرَةِ الموصَدَةِ، فَأَرَى السَّمَاءَ تَسْتَحْضِرُ تَارِيخَ النِّعْمَةِ وَالتَّفْضِيلِ الَّذِي حَبَا اللهُ بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي زَمَانِهِمْ عَلَى عَالَمِي عَصْرِهِمْ بِالنُّبُوَّةِ وَالكِتَابِ وَالنَّجَاة. إِنَّ تَذْكِيرَهُمْ بِهَذَا التَّفْضِيلِ لَيْسَ إِثَارَةً لِلْكِبْرِيَاءِ العِرْقِيِّ، بَلْ هُوَ تَنْبِيهٌ إِلَى عِظَمِ المسْؤُولِيَّةِ الَّتِي تَقَعُ

عَلَى عَاتِقِ مَنْ خَصَّهُمُ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَنُورِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ. وَكَمْ يَبْدُو السُّقُوطُ مُرَوِّعاً حِينَ يَتَحَوَّلُ التَّفْضِيلُ الإِلَهِيُّ فِي عُقُولِ المَغْرُورِينَ إِلَى دَعْوَى لِلاسْتِعْلَاءِ وَالِاحْتِكَارِ، بَدَلَ أَنْ يَكُونَ دَافِعاً لِلشُّكْرِ وَالِاسْتِجَابَةِ لِلنَّبِيِّ الخَاتَمِ. أُبْصِرُ النِّعْمَةَ حِينَ تُقَابَلُ بِالجُحُودِ كَيْفَ تَنْقَلِبُ حُجَّةً دَامِغَةً عَلَى صَاحِبِهَا، فَتُسْحَبُ مِنْهُ رَايَةُ الِاصْطِفَاءِ لِتُمنَحَ لِأُمَّةٍ أُخْرَى تَحْمِلُ أَمَانَةَ التَّوْحِيدِ بِصِدْقٍ وَتَوَاضُع. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ فَضْلٍ يَمْنَحُنِي اللهُ إِيَّاهُ هُوَ ابْتِلَاءٌ لِامْتِحَانِ شُكْرِي، لَا مِلْكاً خَالِصاً أَتَبَاهَى بِهِ عَلَى العِبَاد. هَكَذَا أَقْرَأُ سِجِلَّ النِّعَمِ الإِلَهِيَّةِ بِعَيْنِ الخَوْفِ وَالِامْتِنَانِ، سَائِلاً رَبِّي أَلَّا يَسْلُبَنِي فَضْلَهُ بِسَبَبِ غَفْلَتِي أَوْ كِبْرِيَائِي. فَكُلُّ تَفْضِيلٍ لَا يُقَابَلُ بِالشُّكْرِ وَالطَّاعَةِ يَتَحَوَّلُ إِلَى حُجَّةٍ وَخُسْرَانٍ يَزُولُ، وَلَا اصْطِفَاءَ خَالِداً إِلَّا لِمَنْ حَفِظَ نِعْمَةَ اللهِ فَبَقِيَ لَهُ الفَضْلُ وَالمَعْنَى.

عَرَاءُ المَوْقِفِ وَانْقِطَاعُ الشَّفَاعَات

صَدَى {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ}

أَقِفُ مَذْعُوراً أَمَامَ هَوْلِ ذَلِكَ اليَوْمِ العَارِي مِنْ كُلِّ الأَوْهَامِ، حِينَ تَتَقَطَّعُ الأَنْسَابُ وَتَتَلَاشَى الأَلْقَابُ وَتَقِفُ كُلُّ نَفْسٍ وَحِيدَةً أَمَامَ عَدْلِ اللهِ بِلَا ظِلٍّ وَلَا سَنَد. إِنَّنِي أَبْصِرُ انْهِيَارَ كُلِّ الأَسْبَابِ الَّتِي يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا الغَافِلُونَ فِي الدُّنْيَا؛ فَلَا نَفْسٌ تَحْمِلُ وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرَى، وَلَا شَفَاعَةٌ تُقْبَلُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى الكُفْرِ وَالعِنَادِ، وَلَا فِدْيَةٌ تُؤْخَذُ وَلَوْ مَلَكَ الإِنْسَانُ ذَهَبَ الأَرْضِ جَمِيعاً. وَكَمْ يَرْتَعِدُ كِيَانِي حِينَ أَرَى انْقِطَاعَ النُّصْرَةِ وَالغَوْثِ فِي ذَلِكَ المَشْهَدِ المَهِيبِ؛ فَلَا جَيْشَ يَحْمِي، وَلَا عَشِيرَةَ تَدْفَعُ، وَلَا سُلْطَانَ يَمْلِكُ أَنْ يُؤَخِّرَ قَضَاءَ السَّمَاءِ طَرْفَةَ عَيْن. أَرَى النُّفُوسَ فِي عَرَاءِ الحَشْرِ كَأَوْرَاقِ الخَرِيفِ المُتَنَاثِرَةِ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ، لَا يُنْقِذُهَا إِلَّا مَا قَدَّمَتْهُ أَيْدِيهَا مِنْ إِيمَانٍ صَادِقٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ خَالِصٍ لِوَجْهِ الله. فَمَا أَشَدَّ غَبَاءَ مَنْ يَعْتَمِدُ عَلَى انْتِسَابِهِ لِآبَائِهِ أَوْ شَفَاعَةِ الصَّالِحِينَ وَهُوَ يُضَيِّعُ أَمْرَ رَبِّهِ وَيَسْتَهِينُ بِوَعِيدِه. هَكَذَا أَتَّقِي ذَلِكَ اليَوْمَ العَصِيبَ بِالِاسْتِعْدَادِ الفَرْدِيِّ الصَّادِقِ، مُتَجَرِّداً مِنْ كُلِّ عُكَّازَاتِ الوَهْمِ قَبْلَ أَنْ تَنْكَسِرَ بِي فِي سَاحَةِ الحِسَاب. فَكُلُّ نُصْرَةٍ وَفِدْيَةٍ مِنْ دُونِ اللهِ سَرَابٌ يَتَبَدَّدُ فِي يَوْمِ الدِّينِ، وَلَا نَجَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِنَفْسٍ اتَّقَتْ رَبَّهَا وَأَخْلَصَتْ لَهُ فَبَقِيَ لَهَا الأَمَانُ وَالمَعْنَى.

سِيَاطُ فِرْعَوْنَ وَفَجْرُ النَّجَاة

صَدَى {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ}

أُقَلِّبُ صَفَحَاتِ الأَلَمِ القَدِيمِ، فَأَرَى شَعْباً مُسْتَضْعَفاً يَئِنُّ تَحْتَ سِيَاطِ الطُّغْيَانِ الفِرْعَوْنِيِّ الَّذِي اسْتَبَاحَ الدِّمَاءَ وَالأَعْرَاضَ فِي مَشْهَدٍ يَعْتَصِرُ لَهُ الفُؤَاد. إِنَّنِي أُبْصِرُ سَكَاكِينَ الجَلَّادِينَ تَحْصُدُ أَعْنَاقَ الأَبْنَاءِ الصِّغَارِ خَوْفاً مِنْ نُبُوَّةٍ تَهُزُّ عَرْشَ الظَّالِمِ، بَيْنَمَا تُسْتَبْقَى النِّسَاءُ لِلْخِدْمَةِ وَالِامْتِهَانِ فِي ذُلٍّ يَكْسِرُ الكَرَامَةَ الإِنْسَانِيَّة. وَكَمْ تَتَجَلَّى عَظَمَةُ الرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ حِينَ تَمْتَدُّ يَدُ القُدْرَةِ فِي أَحْلَكِ سَاعَاتِ اللَّيْلِ لِتَنْتَشِلَهُمْ مِنْ جَحِيمِ آلِ فِرْعَوْنَ وَتَفْتَحَ لَهُمْ طَرِيقَ الحُرِّيَّةِ وَالحَيَاة. أَرَى فِي هَذَا المِحْنَةِ وَالمِنْحَةِ بَلَاءً عَظِيماً يَمْتَحِنُ صَبْرَ المَظْلُومِ وَشُكْرَ المَنْصُورِ؛ فَالْعَذَابُ اخْتِبَارٌ لِلْإِيمَانِ، وَالنَّجَاةُ اخْتِبَارٌ لِلْوَفَاءِ وَالطَّاعَةِ بَعْدَ زَوَالِ الكَرْب. فَمَا أَعْجَبَ حَالَ مَنْ نَجَّاهُ اللهُ مِنْ أَنْيَابِ الفَرَاعِنَةِ وَأَخْرَجَهُ مِنَ العُبُودِيَّةِ إِلَى النُّورِ، ثُمَّ قَابَلَ هَذَا الإِنْقَاذَ العَظِيمَ بِالجُحُودِ وَالعِصْيَان. هَكَذَا أَتَذَكَّرُ أَيَّامَ اللهِ فِي نُصْرَةِ المسْتَضْعَفِينَ وَقَصْمِ الجَبَّارِينَ، فَأَشْكُرُ رَبِّي عَلَى نِعْمَةِ الحُرِّيَّةِ وَالأَمَانِ شُكْراً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَفَضْلِه. فَكُلُّ طُغْيَانٍ مَهْمَا تَجَبَّرَ فِي الأَرْضِ دُخَانٌ يَتَلَاشَى أَمَامَ قُدْرَةِ اللهِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِرَحْمَتِهِ الَّتِي تُنْجِي عِبَادَهُ الصَّادِقِينَ فَيَبْقَى لَهُمُ النَّصْرُ وَالمِعْنَى.

انْشِقَاقُ البَحْرِ وَغَرَقُ الطُّغْيَان

صَدَى {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}

أَقِفُ مَبْهُوراً عَلَى شَاطِئِ المُعْجِزَةِ الكُبْرَى حِينَ أَطَاعَتْ أَمْوَاجُ البَحْرِ العَاتِيَةِ أَمْرَ خَالِقِهَا، فَانْفَلَقَ المَاءُ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ لِيَفْتَحَ طَرِيقاً يَابِساً تَعْبُرُ عَلَيْهِ أَقْدَامُ المؤْمِنِينَ إِلَى بَرِّ الأَمَان. إِنَّ هَذَا الِانْشِقَاقَ المُدْهِشَ يَكْشِفُ أَنَّ قَوَانِينَ الطَّبِيعَةِ كُلَّهَا جُنُودٌ مُسَخَّرَةٌ بِيَدِ اللهِ؛ فَالْبَحْرُ الَّذِي كَانَ حَاجِزاً يُهَدِّدُ بِالهَلَاكِ تَحَوَّلَ بِأَمْرِ السَّمَاءِ إِلَى جِسْرٍ لِلنَّجَاةِ وَمَقْبَرَةٍ لِلطُّغَاة. وَكَمْ تَشْفِي هَذِهِ اللَّحْظَةُ صُدُورَ المَظْلُومِينَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ إِلَى جُيُوشِ فِرْعَوْنَ وَهِيَ تَتَهَاوَى فِي لُجَجِ البَحْرِ، فَيُطْبِقُ عَلَيْهَا المَاءُ لِيَطْوِيَ صَفْحَةَ الكِبْرِيَاءِ وَالِادِّعَاءِ إِلَى الأَبَد. أُبْصِرُ عَيْنَ التَّارِيخِ تَشْهَدُ هَذَا التَّقَابُلَ الفَرِيدَ: نَجَاةٌ

كَامِلَةٌ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ، وَغَرَقٌ مُذِلٌّ لِلْمُسْتَكْبِرِينَ، فِي مَشْهَدٍ حَيٍّ يَرَوْنَهُ رَأْيَ العَيْنِ لِيَكُونَ آيَةً لَا تُنْسَى مَدَى الدَّهْر. فَمَا أَعْظَمَ قُدْرَةَ اللهِ الَّذِي جَعَلَ المِاءَ الوَاحِدَ سَبَباً لِحَيَاةِ قَوْمٍ وَسَبَباً لِهَلَاكِ آخَرِينَ فِي آنٍ وَاحِدٍ، لِيُعْلِنَ أَنَّ المُلْكَ وَالأَمْرَ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَه. هَكَذَا يَمْتَلِئُ قَلْبِي يَقِيناً بِأَنَّ البَحْرَ المِغْلَقَ أَمَامَ خُطُوَاتِي سَيَنْشَقُّ بِإِذْنِ رَبِّي مَتَى صَدَقْتُ فِي التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَلُذْتُ بِحِمَاه. فَكُلُّ جَبَرُوتٍ يَتَحَدَّى السَّمَاءَ يَغْرَقُ فِي لُجَجِ الفَنَاءِ وَيَزُولُ، وَلَا نَجَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنْ عَبَرَ بِأَمْرِ اللهِ فَبَقِيَ لَهُ الأَمَانُ وَالمِعْنَى.

مِيعَادُ الطُّورِ وَفِتْنَةُ العِجْل

صَدَى {وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ}

أَتَأَمَّلُ بِدَهْشَةٍ وَأَلَمٍ سُرْعَةَ انْتِكَاسِ القُلُوبِ البَشَرِيَّةِ حِينَ يَغِيبُ عَنْهَا الرَّقِيبُ؛ فَمَا كَادَ مُوسَى يَصْعَدُ إِلَى جَبَلِ الطُّورِ لِيَتَلَقَّى أَلْوَاحَ النُّورِ فِي مِيعَادِ الأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، حَتَّى انْحَدَرَ قَوْمُهُ إِلَى وَحْلِ الوَثَنِيَّةِ وَعَبَدُوا عِجْلاً مِنْ ذَهَبٍ لَا يَنْطِقُ وَلَا يَسْمَع. إِنَّ هَذَا السُّقُوطَ المُفَاجِئَ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ مِنْ مُعْجِزَةِ انْشِقَاقِ البَحْرِ يَكْشِفُ عَنْ هَشَاشَةِ الإِيمَانِ الَّذِي لَمْ يَتَجَذَّرْ فِي أَعْمَاقِ الوِجْدَانِ، فَتَسْقُطُ الرُّوحُ أَمَامَ بَرِيقِ المَعْدِنِ الأَصْفَرِ وَخُوَارِ الأَوْهَام. وَكَمْ يَبْدُو مَشْهَدُهُمْ قَبِيحاً وَهُمْ يَسْجُدُونَ لِتِمْثَالٍ صَنَعُوهُ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ حُلِيِّهِمْ، فَيَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِأَبْشَعِ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا آيَاتِ اللهِ السَّاطِعَةِ بِأَعْيُنِهِم. أُبْصِرُ عِجْلَ الذَّهَبِ يَتَكَرَّرُ فِي كُلِّ زَمَانٍ كُلَّمَا عَبَدَ الإِنْسَانُ المَالَ أَوِ المَادَّةَ أَوِ الصُّورَةَ فِي غِيَابِ اليَقَظَةِ الرُّوحِيَّةِ، فَيَسْتَبْدِلُ الخَالِقَ الأَزَلِيَّ بِصَنَمٍ أَجْوَفَ يَخْدَعُ الحَوَاسّ. فَمَا أَشَدَّ خَوْفِي مِنْ أَنْ تَزِلَّ قَدَمِي فِي لَحْظَةِ غَفْلَةٍ، فَأَتَعَلَّقَ بِبَرِيقٍ فَانٍ يُنْسِينِي مِيثَاقِي مَعَ رَبِّي وَيُوقِعُنِي فِي ظُلْمِ النَّفْس. هَكَذَا أُحَافِظُ عَلَى نُورِ التَّوْحِيدِ مُتَّقِداً فِي قَلْبِي فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، فَلَا يَفْتِنُنِي ذَهَبٌ وَلَا يُضِلُّنِي سَامِرِيٌّ عَنْ جَادَّةِ الحَقِّ المُبِين. فَكُلُّ صَنَمٍ يُصْنَعُ مِنَ المَادَّةِ وَالهَوَى خُوَارٌ وَوَهْمٌ يَزُولُ، وَلَا عِبَادَةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ فَبَقِيَ لَهُ التَّنْزِيهُ وَالمِعْنَى.

غَيْثُ العَفْوِ بَعْدَ الجُرْم

صَدَى {ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}

أَتَوَقَّفُ خَاشِعاً أَمَامَ هَذَا الحِلْمِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يَتَجَاوَزُ حُدُودَ التَّصَوُّرِ البَشَرِيِّ؛ فَبَعْدَ جَرِيمَةِ عِبَادَةِ العِجْلِ وَنَقْضِ المِيثَاقِ، لَمْ تُرْسِلِ السَّمَاءُ صَاعِقَةً تَمْحَقُهُمْ، بَلْ أَنْزَلَتْ سَحَابَةَ العَفْوِ وَالمَغْفِرَةِ لِتَمْحُوَ آثَارَ الذَّنْبِ وَتَمْنَحَهُمْ فُرْصَةً جَدِيدَةً لِلْحَيَاة. إِنَّنِي أَبْصِرُ كَلِمَةَ (عَفَوْنَا) تَتَنَزَّلُ كَالْبَلْسَمِ البَارِدِ عَلَى جُرْحِ الخَطِيئَةِ الكُبْرَى، فَتُعِيدُ لِلْمُذْنِبِينَ أَمَلَ النَّجَاةِ وَتَدْعُوهُمْ إِلَى مِحْرَابِ الشُّكْرِ وَالِاعْتِرَافِ بِالجَمِيل. وَكَمْ تَخْجَلُ رُوحِي مِنْ عَظَمَةِ هَذَا الكَرَمِ السَّمَاوِيِّ الَّذِي يُقَابِلُ أَعْظَمَ الجَرَائِمِ بِأَوْسَعِ المَغْفِرَة، لِيَسْتَنْهِضَ فِي القُلُوبِ القَاسِيَةِ فِطْرَةَ الشُّكْرِ وَالطَّاعَةِ وَالِانْكِسَار. أَرَى العَفْوَ الإِلَهِيَّ نَهْراً جَارِياً يَغْسِلُ سَوَادَ الصَّحَائِفِ كُلَّمَا تَابَ العَبْدُ وَعَادَ، فَلَا يَتْرُكُ لِلْخَطِيئَةِ أَثَراً وَلَا لِلْيَأْسِ مَكَاناً فِي صَدْرِ التَّائِب. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الغَايَةَ مِنْ هَذَا التَّجَاوُزِ الكَرِيم، فَمَنْ عَرَفَ قَدْرَ عَفْوِ اللهِ عَنْهُ ذَابَ قَلْبُهُ امْتِنَاناً وَلَمْ يَعُدْ يَجْرُؤُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ مَرَّةً أُخْرَى. هَكَذَا أَتَنَفَّسُ نَسَائِمَ عَفْوِ رَبِّي كُلَّمَا أَحَاطَتْ بِي ذُنُوبِي، مُقَابِلاً سِتْرَهُ وَمَغْفِرَتَهُ بِشُكْرٍ دَائِمٍ يَمْلَأُ جَوَارِحِي وَوِجْدَانِي. فَكُلُّ ذَنْبٍ مَهْمَا عَظُمَ يَتَلَاشَى أَمَامَ عَفْوِ اللهِ إِذَا صَدَقَتِ التَّوْبَةُ، وَلَا حَيَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِقَلْبٍ شَكَرَ المَغْفِرَةَ فَاسْتَقَامَ فَبَقِيَ لَهُ الرِّضْوَانُ وَالمَعْنَى.

أَلْوَاحُ الكِتَابِ وَنُورُ الفُرْقَان

صَدَى {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}

أَرَى السَّمَاءَ تَمْنَحُ البَشَرِيَّةَ مِيزَانَ الضَّوْءِ بَعْدَ ظُلْمَةِ التِّيهِ، فَتُؤْتِي مُوسَى التَّوْرَاةَ كِتَاباً يَجْمَعُ الشَّرَائِعَ وَالأَحْكَامَ، وَفُرْقَاناً يَفْصِلُ بِحَدِّهِ النُّورَانِيِّ بَيْنَ جَادَّةِ الحَقِّ وَمَتَاهَةِ البَاطِل. إِنَّ هَذَا العَطَاءَ الرُّوحِيَّ يَأْتِي بَعْدَ العَفْوِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ المَغْفِرَةَ لَا تَكْتَمِلُ إِلَّا بِمَنْهَجٍ يَضْبِطُ الحَرَكَةَ وَيَمْنَعُ القَلْبَ مِنَ السُّقُوطِ فِي عِبَادَةِ العِجْلِ مَرَّةً أُخْرَى. وَكَمْ تَحْتَاجُ البَصِيرَةُ التَّائِهَةُ إِلَى هَذَا الفُرْقَانِ الَّذِي يُبَدِّدُ الِالْتِبَاسَ، فَتَتَمَيَّزُ الأَشْيَاءُ بِأَلْوَانِهَا الحَقِيقِيَّة: النُّورُ نُورٌ، وَالظَّلَامُ ظَلَامٌ، وَلَا مَكَانَ لِلرَّمَادِيَّةِ المُضَلِّلَة. أُبْصِرُ الكِتَابَ مِصْبَاحاً يُضِيءُ دُرُوبَ السَّالِكِينَ نَحْوَ الهِدَايَةِ، فَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ نَجَا مِنْ عَثَرَاتِ الهَوَى، وَمَنْ أَلْقَاهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ عَادَ إِلَى سِجْنِ الجَهْلِ وَالضَّيَاع. فَمَا أَعْظَمَ نِعْمَةَ الوَحْيِ الَّذِي يَهَبُ الإِنْسَانَ القُدْرَةَ عَلَى التَّمْيِيزِ، فَيُبْصِرُ مَوَاضِعَ قَدَمِهِ فِي طَرِيقِ الأَبَدِ بِيَقِينٍ لَا يَتَزَحْزَح. هَكَذَا أَحْتَضِنُ كِتَابَ رَبِّي فُرْقَاناً لِحَيَاتِي، أَزِنُ بِهِ الأَفْكَارَ وَالأَعْمَالَ لِأَهْتَدِيَ بِهِ إِلَى صِرَاطِ السَّلَامِ وَالنَّجَاة. فَكُلُّ مَنْهَجٍ يَخْلُو

مِنْ فُرْقَانِ السَّمَاءِ حَيْرَةٌ وَضَلَالٌ يَزُولُ، وَلَا هِدَايَةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنِ اسْتَنَارَ بِكِتَابِ اللهِ فَبَقِيَ لَهُ البَصَرُ وَالمعْنَى.

سَيْفُ التَّوْبَةِ وَمِيلَادُ الحَيَاة

صَدَى {وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}

أَقِفُ مَذْهُولاً أَمَامَ أَعْظَمِ مَلْحَمَةٍ لِلتَّطْهِيرِ الرُّوحِيّ عَرَفَهَا التَّارِيخُ؛ حِينَ يُنَادِي مُوسَى قَوْمَهُ المُلَطَّخِينَ بِعَارِ الشِّرْكِ أَنَّ تَوْبَتَهُمْ لَا تَكْتَمِلُ إِلَّا بِقَتْلِ النُّفُوسِ الَّتِي ظَلَمَتْ وَانْحَرَفَتْ عَنْ بَارِئِهَا. إِنَّ هَذَا الأَمْرَ المهِيبَ يَكْشِفُ أَنَّ جُرْحَ العَقِيدَةِ العَمِيقَ لَا يَبْرَأُ بِالدَّمْعِ البَارِدِ وَحْدَهُ، بَلْ يَحْتَاجُ إِلَى تَضْحِيَةٍ كُبْرَى تَنْتَزِعُ الفَسَادَ مِنْ جُذُورِهِ لِتُولَدَ الحَيَاةُ النَّقِيَّةُ مِنْ رَحِمِ الفَنَاء. وَكَمْ تَشْعُرُ رُوحِي بِالرَّهْبَةِ وَهِيَ تَرَى أَنَّ هَذَا القَتْلَ الرَّحِيمَ هُوَ عَيْنُ الخَيْرِ لَهُمْ عِنْدَ بَارِئِهِمْ؛ لِأَنَّهُ يُطَهِّرُهُمْ مِنْ عَذَابِ الأَبَدِ وَيُعِيدُهُمْ إِلَى حَضْرَةِ التَّوَّابِ الرَّحِيمِ أَنْقِيَاءَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُم. أُبْصِرُ فَجْرَ القَبُولِ يَنْبَثِقُ مِنْ بَيْنِ الدِّمَاءِ الطَّاهِرَةِ الَّتِي سَالَتْ طَاعَةً لِأَمْرِ اللهِ، فَتَتَنَزَّلُ المغْفِرَةُ الشَّامِلَةُ لِتُعْلِنَ أَنَّ بَابَ السَّمَاءِ لَا يُغْلَقُ فِي وَجْهِ مَنْ صَدَقَ فِي التَّوْبَةِ وَبَذَلَ غَايَةَ وُسْعِه. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ أُجَاهِدَ نَفْسِي الأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ وَأَذْبَحَ أَهْوَاءَهَا بِسِكِّينِ الطَّاعَةِ، كَيْ تَحْيَا رُوحِي فِي جِوَارِ بَارِئِي مُطْمَئِنَّةً مَرْضِيَّة. هَكَذَا أَتُوبُ إِلَى خَالِقِي تَوْبَةً تَقْتُلُ فِي دَاخِلِي كُلَّ بَذْرَةٍ لِلشِّرْكِ الخَفِيّ وَالهَوَى، طَامِعاً فِي رَحْمَةِ التَّوَّابِ الَّذِي يُحْيِي القُلُوبَ بَعْدَ مَوْتِهَا. فَكُلُّ تَوْبَةٍ بَارِدَةٍ لَا تَقْتُلُ الهوَى وَهْمٌ يَزُولُ، وَلَا حَيَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنْ تَطَهَّرَ لِبَارِئِهِ بِصِدْقٍ فَبَقِيَتْ لَهُ المغْفِرَةُ وَالمعْنَى.

صَاعِقَةُ الجُرْأَةِ وَبَعْثُ الرَّحْمَة

صَدَى {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}

أَتَأَمَّلُ هَذِهِ الجُزْأَةَ المادِّيَّةَ الغَلِيظَةَ حِينَ يُطَالِبُ العَقْلُ المحْدُودُ بِرُؤْيَةِ الخَالِقِ المطْلَقِ جَهْرَةً بِعَيْنِ التُّرَابِ، وَيَرْبِطُ إِيمَانَهُ بِهَذَا الشَّرْطِ المسْتَحِيلِ فِي تَحَدٍّ سَافِرٍ لِجَلَالِ الأُلُوهِيَّة. إِنَّنِي أَبْصِرُ سَمَاءَ العَظَمَةِ تَرُدُّ عَلَى هَذَا التَّطَاوُلِ بِصَاعِقَةٍ خَاطِفَةٍ تُخْمِدُ أَنْفَاسَهُمْ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، لِتُعَلِّمَ البَشَرِيَّةَ أَنَّ حُجُبَ النُّورِ الإِلَهِيِّ لَا تُطِيقُهَا أَبْصَارُ الفَانِينَ فِي دَارِ الِابْتِلَاء. وَكَمْ يَرْتَجِفُ وِجْدَانِي مِنْ مَشْهَدِ المَوْتِ المفَاجِئِ الَّذِي أَخَذَهُمْ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى بَعْضِهِمْ بَعْضاً فِي ذُهُولٍ وَعَجْزٍ، ثُمَّ تَتَدَخَّلُ يَدُ الرَّحْمَةِ المطْلَقَةِ لِتَبْعَثَهُمْ إِلَى الحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ أَنْ ذَاقُوا طَعْمَ الفَنَاء. أَرَى البَعْثَ بَعْدَ المَوْتِ آيَةً مَلْمُوسَةً تَسْتَنْهِضُ فِيهِمْ رُوحَ الشُّكْرِ وَالإِيمَانِ بِالغَيْبِ، فَقَدْ رَأَوْا قُدْرَةَ اللهِ فِي الإِمَاتَةِ وَالإِحْيَاءِ بِأَعْيُنِهِمْ دُونَ حَاجَةٍ إِلَى رُؤْيَةِ الذَّاتِ العَلِيَّة. فَمَا أَعْظَمَ حِلْمَ اللهِ الَّذِي يُمِيتُ الجَاحِدَ تَأْدِيباً ثُمَّ يُحْيِيهِ رَحْمَةً لَعَلَّهُ يَشْكُرُ وَيَعْتَبِرُ قَبْلَ مَوْعِدِ الحِسَابِ الأَخِير. هَكَذَا أُؤْمِنُ بِرَبِّي إِيمَانَ الغَيْبِ وَاليَقِين، مُنْحَنِياً لِجَلَالِهِ الَّذِي تَخِرُّ لَهُ الجِبَالُ وَتُصْعَقُ دُونَهُ الأَبْصَار. فَكُلُّ جُزْأَةٍ عَلَى مَقَامِ الأُلُوهِيَّةِ صَعْقٌ وَفَنَاءٌ يَزُولُ، وَلَا حَيَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِالغَيْبِ وَشَكَرَ نِعْمَةَ البَعْثِ فَبَقِيَ لَهُ اليَقِينُ وَالمعْنَى.

ظِلُّ الغَمَامِ وَمَائِدَةُ السَّمَاء

صَدَى {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}

أُبْصِرُ قَافِلَةَ التَّائِهِينَ فِي صَحْرَاءِ سِينَاءَ المحْرِقَةِ، وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِمْ رِعَايَةُ السَّمَاءِ كَالْأُمِّ الحَنُونِ؛ فَغَمَامٌ رَقِيقٌ يَسِيرُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ لِيَقِيَهُمْ لَهِيبَ الشَّمْسِ، وَمَائِدَةٌ رَبَّانِيَّةٌ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ بِالمنِّ الحُلْوِ وَالسَّلْوَى الطَّيِّبِ بِلَا كَدٍّ وَلَا عَنَاء. إِنَّ هَذَا الفَيْضَ الكَرِيمَ فِي قَلْبِ القَفْرِ الجَافِّ يُثْبِتُ أَنَّ خَزَائِنَ اللهِ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى الأَسْبَابِ الأَرْضِيَّةِ، بَلْ تَتَدَفَّقُ بِالرِّزْقِ الطَّيِّبِ أَيْنَمَا حَلَّتْ رَحْمَتُهُ وَعِنَايَتُه. وَكَمْ يَبْدُو جُحُودُهُمْ مُؤْلِماً وَمُثِيراً لِلْأَسَى حِينَ قَابَلُوا هَذَا الدَّلَالَ السَّمَاوِيَّ بِالتَّبَرُّمِ وَالعِصْيَانِ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ يُعَانِدُونَ رَبَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ فِي الحَقِيقَةِ يَذْبَحُونَ أَنْفُسَهُمْ بِسِكِّينِ الحِرْمَان. أَرَى قَانُونَ العَدْلِ الإِلَهِيِّ نَاصِعاً لَا تَشُوبُهُ شَائِبَةٌ: إِنَّ السَّمَاءَ لَا يَضُرُّهَا كُفْرُ الجَاحِدِينَ وَلَا يَنْفَعُهَا شُكْرُ الشَّاكِرِينَ، وَإِنَّمَا يَعُودُ وَبَالُ الظُّلْمِ وَالجُحُودِ عَلَى النَّفْسِ الَّتِي حَرَمَتْ ذَاتَهَا مِنْ دَوَامِ النِّعْمَة. فَمَا أَشَدَّ ظُلْمَ الإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ حِينَ يَتَنَكَّرُ لِطَيِّبَاتِ اللهِ وَيَرْفُضُ ظِلَّهُ الوَارِفَ لِيَعُودَ إِلَى هَجِيرِ الشَّقَاءِ وَالتِّيه.

هَكَذَا أَتَلَقَّى كُلَّ رِزْقٍ طَيِّبٍ يَسُوقُهُ اللهُ إِلَيَّ بِامْتِنَانٍ وَرِضًا، حَذِراً مِنْ أَنْ أَظْلِمَ نَفْسِي بِالتَّسَخُّطِ أَوْ نِسْيَانِ فَضْلِ المُنْعِم. فَكُلُّ جُحُودٍ لِنِعَمِ السَّمَاءِ ظُلْمٌ لِلنَّفْسِ وَحِرْمَانٌ يَزُولُ، وَلَا رِزْقَ خَالِداً إِلَّا لِمَنْ أَكَلَ الطَّيِّبَاتِ شَاكِراً لِرَبِّهِ فَبَقِيَتْ لَهُ البَرَكَةُ وَالمَعْنَى.

بَابُ حِطَّةٍ وَتَحْرِيفُ القَوْل

صَدَى {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}

أَتَأَمَّلُ مِفْتَاحَ النَّصْرِ وَالمَغْفِرَةِ حِينَ جَعَلَهُ اللهُ فِي الِانْكِسَارِ وَالتَّوَاضُعِ؛ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا القَرْيَةَ المُقَدَّسَةَ رُكَّعاً سُجَّداً، وَأَنْ تَلْهَجَ أَلْسِنَتُهُمْ بِكَلِمَةِ (حِطَّةٌ) طَلَباً لِحَطِّ الأَوْزَارِ وَتَطْهِيرِ الصَّحَائِفِ. إِنَّ هَذَا الدُّخُولَ الخَاشِعَ كَانَ كَفِيلاً بِأَنْ يَمْحُوَ مَاضِيَهُمُ المُثْقَلَ بِالخَطَايَا وَيَزِيدَ المُحْسِنِينَ مِنْهُمْ فَضْلاً وَرِفْعَةً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَكَمْ يَبْدُو انْحِرَافُ القُلُوبِ الفَاسِقَةِ مُسْتَفِزّاً حِينَ اسْتَبْدَلُوا السُّجُودَ بِالزَّحْفِ المُسْتَهْزِئِ، وَحَرَّفُوا كَلِمَةَ الِاسْتِغْفَارِ إِلَى لَفْظٍ سَاخِرٍ يَسْتَخِفُّ بِأَمْرِ السَّمَاءِ وَيَسْتَهِينُ بِوَعْدِهَا. أُبْصِرُ غَضَبَ اللهِ يَتَنَزَّلُ رِجْزاً وَعَذَاباً مِنَ السَّمَاءِ لِيَسْحَقَ هَذَا التَّلَاعُبَ بِالنُّصُوصِ وَالِاسْتِهْزَاءَ بِالشَّعَائِرِ، فَيُحَوِّلُ فَرْحَةَ الدُّخُولِ إِلَى مَأْتَمٍ وَهَلَاك. فَمَا أَشَدَّ خَطَرَ التَّحْرِيفِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِأَوَامِرِ اللهِ، فَكَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تُبَدَّلُ سُخْرِيَةً كَانَتْ كَافِيَةً لِإِنْزَالِ الصَّاعِقَةِ وَمَحْقِ الظَّالِمِين. هَكَذَا أَلْتَزِمُ أَمْرَ رَبِّي كَمَا جَاءَ بِلَا تَبْدِيلٍ وَلَا تَأْوِيلٍ هَوَائِيٍّ، دَاخِلاً بَابَ عُبُودِيَّتِهِ سَاجِداً مُنْكَسِراً طَلَباً لِغُفْرَانِ خَطَايَايَ. فَكُلُّ تَبْدِيلٍ لِكَلِمَاتِ اللهِ فِسْقٌ وَعَذَابٌ يَزُولُ، وَلَا مَغْفِرَةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنْ سَجَدَ وَقَالَ حِطَّةً بِصِدْقٍ فَبَقِيَ لَهُ الإِحْسَانُ وَالمَعْنَى.

مِعْجِزَةُ الحَجَرِ وَانْفِجَارُ العُيُون

صَدَى {وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}

أَقِفُ مَذْهُولاً أَمَامَ هَذَا التَّفَجُّرِ الرُّوحِيّ وَالمادِّيّ فِي قَلْبِ الصَّحْرَاءِ القَاحِلَةِ؛ حِينَ تَرْتَفِعُ يَدَا مُوسَى بِالدُّعَاءِ لِقَوْمِهِ العِطَاشِ، فَتَأْتِي الإِشَارَةُ الإِلَهِيَّةُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ الصَّلْدَ لِتَسِيلَ مِنْهُ الحَيَاة. إِنَّنِي أَبْصِرُ الصَّخْرَةَ الصَّمَّاءَ تَلِينُ وَتَتَشَقَّقُ عَنِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْناً عَذْبَةً، بِعَدَدِ أَسْبَاطِهِمْ، فَيَعْرِفُ كُلُّ قَبِيلٍ مَشْرَبَهُ بِلَا زِحَامٍ وَلَا صِرَاعٍ وَلَا حِرْمَان. وَكَمْ تَشْعُرُ بَصِيرَتِي بِرَحْمَةِ التَّدْبِيرِ الإِلَهِيّ الَّذِي يُخْرِجُ المَاءَ الزُّلَالَ مِنْ قَلْبِ الجَمَادِ الأَصَمّ، لِيُعَلِّمَ القُلُوبَ القَاسِيَةَ أَنَّ الحَجَرَ أَلْيَنُ مِنْهَا وَأَسْرَعُ اسْتِجَابَةً لِأَمْرِ اللهِ وَتَسْبِيحِه. أَرَى مَائِدَةَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ تَجْتَمِعُ لَهُمْ فِي تَنَاغُمٍ عَجِيبٍ: مَنٌّ وَسَلْوَى مِنَ السَّحَابِ، وَمَاءٌ مَعِينٌ مِنَ الصَّخْرِ، مَعَ وَصِيَّةٍ خَالِدَةٍ تَحْرُسُ هَذِهِ النِّعْمَةَ مِنَ الزَّوَالِ: كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِين. فَمَا أَعْجَبَ حَالَ الإِنْسَانِ الَّذِي يَرَى الحَجَرَ يَتَفَجَّرُ بِالمَاءِ طَاعَةً لِرَبِّهِ، ثُمَّ يُبْقِي قَلْبَهُ جَافّاً كَالصَّخْرِ المَيِّتِ لَا يَفِيضُ بِشُكْرٍ وَلَا يَرْتَوِي بِإِيمَان. هَكَذَا أَضْرِبُ قَسْوَةَ قَلْبِي بِعَصَا الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ، سَائِلاً رَبِّي أَنْ يُفَجِّرَ فِيهِ عُيُونَ الحِكْمَةِ وَاليَقِينِ، وَأَنْ يَحْفَظَنِي مِنَ العَيْثِ وَالفَسَادِ فِي الأَرْض. فَكُلُّ رِزْقٍ يُقَابَلُ بِالإِفْسَادِ نِقْمَةٌ وَحِرْمَانٌ يَزُولُ، وَلَا ارْتِوَاءَ خَالِداً إِلَّا لِرُوحٍ شَرِبَتْ مِنْ مَعِينِ اللهِ وَشَكَرَتْ فَبَقِيَتْ لَهَا الحَيَاةُ وَالمَعْنَى.

شَهْوَةُ التُّرَابِ وَاسْتِبْدَالُ الخَيْر

صَدَى {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ}

أَتَأَمَّلُ هَذَا الِانْحِدَارَ الغَرِيبَ فِي ذَوْقِ الرُّوحِ حِينَ تَسْأَمُ مَائِدَةَ السَّمَاءِ الرَّفِيعَةَ، فَتَحِنُّ إِلَى طَعَامِ التُّرَابِ وَنَبَاتِ الأَرْضِ الَّذِي يُذَكِّرُهَا بِسِنِيِّ العُبُودِيَّةِ وَالِاسْتِذْلَال. إِنَّنِي أَبْصِرُ صَرْخَةَ التَّبَرُّمِ تَخْرُجُ مِنْ حَنَاجِرَ أَلِفَتِ الدُّونَ؛ يَطْلُبُونَ البَقْلَ وَالقِثَّاءَ وَالفُومَ وَالعَدَسَ وَالبَصَلَ، وَيُدِيرُونَ ظُهُورَهُمْ لِلْمَنِّ وَالسَّلْوَى اللَّذَيْنِ تَنَزَّلَا عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ كَدٍّ وَلَا تَعَب. وَكَمْ يَهُزُّ كِيَانِي هَذَا السُّؤَالُ المُسْتَنْكِرُ مِنْ مُوسَى: أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟ فَهِيَ قَاعِدَةُ السُّقُوطِ الأَبَدِيَّةِ حِينَ يُفَضِّلُ الإِنْسَانُ رَغَبَاتِ الطِّينِ الرَّخِيصَةَ عَلَى كَرَامَةِ الحُرِّيَّةِ وَنَفَحَاتِ السَّمَاء. أَرَى وَسْمَ الذِّلَّةِ وَالمَسْكَنَةِ

يُضْرَبُ عَلَى جِبَاهِهِمْ كَالْقَدَرِ المحْتُومِ، لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَتَجَرَّؤُوا عَلَى قَتْلِ الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ جَاؤُوا لِيُحَرِّرُوا أَرْوَاحَهُمْ مِنْ سِجْنِ الشَّهَوَاتِ وَالعِصْيَان. فَمَا أَشَدَّ هَوَانَ النَّفْسِ حِينَ تَخْتَارُ قُيُودَ التُّرَابِ بِإِرَادَتِهَا، فَتَبُوءُ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَتَعِيشُ فِي شَتَاتِ الذُّلِّ وَالِانْكِسَار. هَكَذَا أُرَفِّعُ هِمَّتِي عَنْ دَنَايَا الأَرْضِ وَمُغْرَيَاتِهَا الفَانِيَةِ، مُتَمَسِّكاً بِمَا هُوَ خَيْرٌ وَأَبْقَى عِنْدَ رَبِّي مَهْمَا طَالَ الطَّرِيق. فَكُلُّ اسْتِبْدَالٍ لِلْأَعْلَى بِالأَدْنَى ذِلَّةٌ وَغَضَبٌ يَزُولُ، وَلَا كَرَامَةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنْ صَبَرَ عَلَى عَطَاءِ اللهِ وَعَظَّمَ آيَاتِهِ فَبَقِيَتْ لَهُ العِزَّةُ وَالمعْنَى.

سَعَةُ الرَّحْمَةِ وَمِيزَانُ الإِيمَان

صَدَى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}

تَتَّسِعُ أَمَامَ بَصِيرَتِي آفَاقُ العَدْلِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يُحَطِّمُ جُدْرَانَ التَّعَصُّبِ وَالِادِّعَاءِ، لِيُعْلِنَ أَنَّ النَّجَاةَ لَيْسَتْ حِكْراً عَلَى الأَسْمَاءِ وَالأَلْقَابِ المَوْرُوثَةِ، بَلْ هِيَ ثَمَرَةُ الصِّدْقِ وَالعَمَل. إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذَا المِيزَانَ السَّمَاوِيَّ الدَّقِيقَ الَّذِي يَجْمَعُ البَشَرِيَّةَ كُلَّهَا أَمَامَ شَرْطِ الخُلُودِ الوَحِيدِ: الإِيمَانُ الحَقُّ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتَرْجَمَةُ ذَلِكَ الإِيمَانِ إِلَى عَمَلٍ صَالِحٍ يَنْبِضُ بِالطَّاعَةِ وَالإِخْلَاص. وَكَمْ تَتَلَاشَى أَوْهَامُ التَّفْضِيلِ الأَجْوَفِ حِينَ تَنْطِقُ السَّمَاءُ بِأَنَّ الأَجْرَ مَحْفُوظٌ عِنْدَ الرَّبِّ لِكُلِّ مَنْ صَدَقَ فِي إِقْبَالِهِ عَلَى اللهِ وَاتَّبَعَ نُورَ الوَحْيِ الخَاتِمِ بِقَلْبٍ سَلِيم. أَرَى سَحَائِبَ الخَوْفِ وَالحُزْنِ تَنْقَشِعُ عَنْ وُجُوهِ الصَّادِقِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ، فَلَا خَوْفٌ يُرْعِبُهُمْ مِمَّا يَنْتَظِرُهُمْ فِي الغَيْبِ، وَلَا حُزْنٌ يُؤْلِمُهُمْ عَلَى مَا تَرَكُوهُ خَلْفَهُمْ فِي دَارِ الفَنَاء. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ عِنْدَ اللهِ جَوْهَراً حَيّاً يَقُومُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالصَّلَاحِ، لَا مُجَرَّدَ انْتِسَابٍ جَافٍّ يَخْلُو مِنَ اليَقِينِ وَالِاسْتِقَامَة. هَكَذَا أُجَرِّدُ إِيمَانِي مِنْ كُلِّ دَعْوَى خَاوِيَةٍ، مُقْبِلاً عَلَى رَبِّي بِعَمَلٍ صَالِحٍ يُثْبِتُ صِدْقَ انْتِمَائِي إِلَى قَافِلَةِ النَّاجِينَ. فَكُلُّ انْتِسَابٍ يَخْلُو مِنَ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ سَرَابٌ يَزُولُ، وَلَا أَمَانَ خَالِداً إِلَّا لِمَنْ صَدَقَ مَعَ اللهِ فَبَقِيَ لَهُ الأَجْرُ وَالمعْنَى.

رَهْبَةُ الطُّورِ وَمِيثَاقُ القُوَّة

صَدَى {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}

أَقِفُ مَذْهُولاً أَمَامَ هَذَا المشْهَدِ الكَوْنِيّ المرْعِبِ حِينَ اقْتَلَعَتْ قُدْرَةُ اللهِ جَبَلَ الطُّورِ مِنْ جُذُورِهِ، وَرَفَعَتْهُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ كَالظُّلَّةِ المعَلَّقَةِ فِي الفَضَاءِ لِتُوقِظَ قُلُوبَهُمُ الغَافِلَة. إِنَّ هَذَا التَّجَلِّي المهِيبَ لِقُوَّةِ الخَالِقِ يَكْشِفُ أَنَّ مِيثَاقَ السَّمَاءِ لَيْسَ كَلِمَاتٍ عَابِرَةً تُتْلَى بِفُتُورٍ، بَلْ هُوَ عَهْدٌ ثَقِيلٌ يَجِبُ أَنْ يُؤْخَذَ بِقُوَّةِ العَزِيمَةِ وَصِدْقِ الإِرَادَةِ وَجِدِّيَّةِ العَمَل. وَكَمْ تَرْتَجِفُ نَفْسِي حِينَ تَسْمَعُ هَذَا الأَمْرَ الإِلَهِيَّ الحَاسِمَ: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ؛ فَالْحَقُّ لَا يُحْمَلُ بِأَيْدٍ مُرْتَعِشَةٍ وَلَا بِقُلُوبٍ مُتَرَدِّدَةٍ تَخَافُ لَوْمَةَ اللائِمِين. أُبْصِرُ الجَبَلَ الشَّامِخَ يَشْهَدُ عَلَى ضَعْفِ الإِنْسَانِ وَعِنَادِهِ، فَلَوْلَا رَهْبَةُ السُّقُوطِ وَجَلَالُ القُدْرَةِ مَا اسْتَجَابَتْ تِلْكَ النُّفُوسُ المتَمَرِّدَةُ لِحَمْلِ أَمَانَةِ التَّوْرَاةِ وَتَدَبُّرِ مَا فِيهَا. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَكُونَ تَذَكُّرُ آيَاتِ اللهِ وَالعَمَلُ بِهَا بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ هُوَ الطَّرِيقَ الموصِلَ إِلَى حِصْنِ التَّقْوَى الَّذِي يَقِي الرُّوحَ مِنْ غَضَبِ الجَبَّار. هَكَذَا أَحْتَضِنُ كِتَابَ رَبِّي بِكُلِّ قُوَّةِ قَلْبِي وَعَقْلِي، مُسْتَحْضِراً عَظَمَةَ مَنْ أَنْزَلَهُ كَيْ لَا أَتَهَاوَنَ فِي أَمْرٍ أَوْ أَغْفُلَ عَنْ ذِكْر. فَكُلُّ أَخْذٍ لِلدِّينِ بِفُتُورٍ وَتَرَدُّدٍ هَزِيمَةٌ تَزُولُ، وَلَا تَقْوَى خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنْ حَمَلَ مِيثَاقَ اللهِ بِقُوَّةٍ وَيَقِينٍ فَبَقِيَ لَهُ الثَّبَاتُ وَالمعْنَى.

غَدْرُ التَّوَلِّي وَظِلُّ الفَضْل

صَدَى {ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ}

أَتَأَمَّلُ بِعَجَبٍ كَيْفَ تَنْسَى القُلُوبُ القَاسِيَةُ هَوْلَ الجَبَلِ المعَلَّقِ فَوْقَهَا بِمُجَرَّدِ أَنْ يَعُودَ إِلَى مَكَانِهِ، فَتَتَوَلَّى عَنِ الميثَاقِ وَتُدِيرُ ظَهْرَهَا لِلْعَهْدِ كَأَنَّ شَيْئاً لَمْ يَكُن. إِنَّ هَذَا التَّوَلِّي السَّرِيعَ بَعْدَ تِلْكَ الآيَاتِ المرْعِبَةِ يَكْشِفُ عَنْ جُحُودٍ مُتَأَصِّلٍ لَا تَرْدَعُهُ المعْجِزَاتُ وَلَا تُهَذِّبُهُ النُّذُرُ إِذَا فَسَدَ الجَوْهَرُ الدَّاخِلِيّ. وَكَمْ تَشْعُرُ رُوحِي بِعَظَمَةِ اللُّطْفِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يَتَدَخَّلُ لِيُنْقِذَ البَشَرِيَّةَ مِنْ مَصِيرِهَا المحْتُومِ؛ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ الوَاسِعُ وَرَحْمَتُهُ الَّتِي تَسْبِقُ غَضَبَهُ لَكَانَ هَؤُلَاءِ النَّاكِثُونَ فِي عِدَادِ الهَالِكِينَ الخَاسِرِينَ إِلَى الأَبَد. أُبْصِرُ حَبْلَ الفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ مَمْدُوداً مِنَ السَّمَاءِ لِيَمْنَحَ العُصَاةَ مُهْلَةً لِلتَّوْبَةِ وَالرُّجُوعِ، بَدَلَ أَنْ يَأْخُذَهُمُ العَذَابُ بَغْتَةً بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِم. فَمَا أَعْظَمَ افْتِقَارِي إِلَى فَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فِي كُلِّ نَفَسٍ،

فَلَوْلَا سِتْرُهُ وَحِلْمُهُ لَهَلَكْتُ بِتَقْصِيرِي وَغَفْلَتِي عَنْ عُهُودِي مَعَه. هَكَذَا أَتَمَسَّكُ بِأَذْيَالِ الرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ مُعْتَرِفاً بِعَجْزِي، حَذِراً مِنْ أَنْ أَتَوَلَّى عَنْ طَاعَةِ رَبِّي بَعْدَ أَنْ أَنْعَمَ عَلَيَّ بِالهِدَايَةِ وَالبَصِيرَة. فَكُلُّ تَوَلٍّ عَنْ أَمْرِ اللهِ خُسْرَانٌ مُبِينٌ يَزُولُ، وَلَا نَجَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ الَّتِي تَتَدَارَكُ العِبَادَ فَيَبْقَى لَهُمُ الأَمَلُ وَالمِعْنَى.

مَسْخُ السَّبْتِ وَقِرَدَةُ الحِيَل

صَدَى {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}

أَقِفُ مَذْعُوراً أَمَامَ هَذَا المسْخِ الَّذِي أَصَابَ الأَجْسَادَ بَعْدَ أَنْ مَسَخَتِ الحِيَلُ الشَّيْطَانِيَّةُ أَرْوَاحَهُمْ، حِينَ تَحَايَلُوا عَلَى أَمْرِ اللهِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ لِيَصْطَادُوا حُطَامَ الدُّنْيَا بِمَكْرٍ رَخِيص. إِنَّنِي أَبْصِرُ كَيْفَ يَتَحَوَّلُ الإِنْسَانُ المكَرَّمُ إِلَى قِرْدٍ خَاسِئٍ مَطْرُودٍ مِنْ رَحْمَةِ السَّمَاءِ، حِينَ يَسْتَعْمِلُ عَقْلَهُ فِي الِالْتِفَافِ عَلَى شَرِيعَةِ اللهِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِحُدُودِه. وَكَمْ تَرْتَعِدُ فَرَائِصِي مِنْ هَذَا التَّطَابُقِ المرِيعِ بَيْنَ الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ وَالحَقِيقَةِ البَاطِنَة؛ فَمَنْ قَلَّدَ البَهَائِمَ فِي اتِّبَاعِ الشَّهْوَةِ وَتَرْكِ العَقْلِ اسْتَحَقَّ أَنْ تُطْبَعَ صُورَةُ القِرْدِ عَلَى جَسَدِهِ لِيَكُونَ عِبْرَةً لِلنَّاظِرِين. أَرَى شِبَاكَ الصَّيْدِ الَّتِي نَصَبُوهَا يَوْمَ الجُمُعَةِ لِيَأْخُذُوهَا يَوْمَ الأَحَدِ قَدْ صَادَتْ كَرَامَتَهُمُ الإِنْسَانِيَّةَ، فَأَسْقَطَتْهُمْ مِنْ عَرْشِ التَّكْرِيمِ إِلَى حَضِيضِ المسْخِ وَالذُّلِّ وَالصَّغَار. فَمَا أَشَدَّ خَطَرَ التَّحَايُلِ عَلَى أَحْكَامِ اللهِ، فَالْخَالِقُ يَعْلَمُ مَقَاصِدَ القُلُوبِ وَلَا تَخْدَعُهُ الحِيَلُ الشَّكْلِيَّةُ الَّتِي يُبَرِّرُ بِهَا العُصَاةُ مَعَاصِيَهُم. هَكَذَا أُطَهِّرُ نَفْسِي مِنْ كُلِّ مُحَاوَلَةٍ لِلِالْتِفَافِ عَلَى شَرْعِ رَبِّي، مُسْتَسْلِماً لِأَمْرِهِ بِصِدْقٍ يَحْفَظُ لِي صُورَتِي الإِنْسَانِيَّةَ وَكَرَامَتِي الرُّوحِيَّة. فَكُلُّ تَحَايُلٍ عَلَى حُدُودِ اللهِ مَسْخٌ وَهَوَانٌ يَزُولُ، وَلَا كَرَامَةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنِ اسْتَقَامَ عَلَى الأَمْرِ بِصِدْقٍ فَبَقِيَ لَهُ التَّكْرِيمُ وَالمِعْنَى.

عِبْرَةُ العُصُورِ وَمَوْعِظَةُ المتَّقِين

صَدَى {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ}

أَتَأَمَّلُ كَيْفَ تَتَحَوَّلُ تِلْكَ العُقُوبَةُ المرَوِّعَةُ إِلَى مَنَارَةِ تَحْذِيرٍ تَعْبُرُ الأَجْيَالَ؛ فَتَكُونُ نَكَالاً وَعِبْرَةً قَاسِيَةً لِمَنْ عَاصَرَهَا مِنْ أَهْلِ القُرَى، وَلِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مِمَّنْ يَقْرَأُ خَبَرَهَا فِي كِتَابِ الله.

إِنَّنِي أَبْصِرُ حِكْمَةَ السَّمَاءِ فِي تَخْلِيدِ مَصَارِعِ المُعْتَدِينَ، لِتَبْقَى جَرَاساً يَقْرَعُ أَسْمَاعَ الغَافِلِينَ كُلَّمَا هَمَّتْ نُفُوسُهُمْ بِتَجَاوُزِ حُدُودِ الخَالِقِ أَوِ الِاسْتِهْزَاءِ بِأَوَامِرِه. وَكَمْ يَتَبَايَنُ أَثَرُ هَذِهِ القِصَّةِ فِي القُلُوبِ؛ فَبَيْنَمَا يَمُرُّ عَلَيْهَا القَاسُونَ مَرَّ الكِرَامِ بِلَا تَأَثُّرٍ، تَتَلَقَّاهَا قُلُوبُ المُتَّقِينَ مَوْعِظَةً حَيَّةً تَهُزُّ أَرْكَانَهَا وَتَزِيدُهَا خَشْيَةً وَانْضِبَاطاً. أَرَى التَّارِيخَ فِي القُرْآنِ لَيْسَ حِكَايَاتٍ مَيِّتَةً لِلتَّسْلِيَةِ، بَلْ هُوَ مِرْآةٌ حَيَّةٌ تَرَى فِيهَا الرُّوحُ المُتَّقِيَةُ عَوَاقِبَ الأَعْمَالِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَتَنْجُو بِبَصِيرَتِهَا مِنْ مَزَالِقِ الهَلَاك. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُتَّقِينَ الَّذِينَ يَتَّعِظُونَ بِغَيْرِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَكُونُوا هُمْ عِبْرَةً لِلْآخَرِينَ فِي سِجِلِّ العُقُوبَاتِ الإِلَهِيَّة. هَكَذَا أَقْرَأُ قَصَصَ القُرْآنِ بِقَلْبٍ وَاعٍ يَلْتَقِطُ العِبْرَةَ وَيَخْشَى العَاقِبَةَ، مُسْتَنِيراً بِمَوَاعِظِ السَّمَاءِ فِي دُرُوبِ الحَيَاة. فَكُلُّ غَفْلَةٍ عَنْ عِبَرِ التَّارِيخِ سُقُوطٌ فِي الهَاوِيَةِ يَزُولُ، وَلَا نَجَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ اتَّعَظُوا بِآيَاتِ اللهِ فَبَقِيَتْ لَهُمُ الحِكْمَةُ وَالمَعْنَى.

أَمْرُ البَقَرَةِ وَسُخْرِيَةُ العِنَاد

صَدَى {وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}

أَدْخُلُ إِلَى مِحْرَابِ قِصَّةٍ عَجِيبَةٍ تَكْشِفُ عَنْ مَرَضِ التَّنَطُّعِ وَجَدَلِ القُلُوبِ المَتَلَكِّئَةِ؛ حِينَ يَأْمُرُهُمُ اللهُ بِذَبْحِ بَقَرَةٍ مُطْلَقَةٍ لِكَشْفِ جَرِيمَةٍ غَامِضَةٍ، فَيُقَابِلُونَ الأَمْرَ السَّمَاوِيَّ بِسُؤَالِ الِاسْتِخْفَافِ وَالِاتِّهَامِ بِالهُزْء. إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذَا التَّصَادُمَ بَيْنَ بَسَاطَةِ التَّكْلِيفِ الإِلَهِيِّ الَّذِي كَانَ يَكْفِي فِيهِ أَيُّ بَقَرَةٍ، وَبَيْنَ تَعْقِيدِ النُّفُوسِ الَّتِي تَسْتَغْرِبُ أَوَامِرَ الوَحْيِ لِأَنَّهَا تَقِيسُهَا بِمَقَايِيسِهَا المَادِّيَّةِ الضَّيِّقَة. وَكَمْ يَرْتَفِعُ مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي رَدِّ مُوسَى الحَاسِمِ وَالمؤَدَّبِ: أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ؛ فَالِاسْتِهْزَاءُ فِي مَقَامِ التَّبْلِيغِ عَنِ اللهِ جَهْلٌ مُطْبِقٌ يَتَنَزَّهُ عَنْهُ الأَنْبِيَاءُ وَالصَّادِقُون. أَرَى فِي هَذَا المِشْهَدِ بِدَايَةَ التَّشْدِيدِ الَّذِي جَنَوْهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَلَوْ أَنَّهُمْ بَادَرُوا إِلَى الطَّاعَةِ مِنْ أَوَّلِ لَحْظَةٍ لَانْتَهَى الأَمْرُ بِيُسْرٍ وَسُهُولَةٍ دُونَ عَنَاء. فَمَا أَشَدَّ جَهْلَ الإِنْسَانِ حِينَ يَظُنُّ أَنَّ أَوَامِرَ اللهِ لَا حِكْمَةَ فِيهَا لِمُجَرَّدِ أَنَّ عَقْلَهُ القَاصِرَ لَمْ يُدْرِكْ أَسْرَارَهَا مِنْ أَوَّلِ وَهْلَة. هَكَذَا أَسْتَقْبِلُ كُلَّ أَمْرٍ يَأْتِينِي عَنِ اللهِ بِالتَّسْلِيمِ الفَوْرِيِّ وَالطَّاعَةِ السَّرِيعَةِ، مُسْتَعِيذاً بِرَبِّي مِنَ الجَهْلِ وَالِاعْتِرَاضِ وَسُوءِ الأَدَبِ مَعَ الوَحْي. فَكُلُّ

جَدَلٍ يُؤَخِّرُ الطَّاعَةَ تَعْقِيدٌ وَخُسْرَانٌ يَزُولُ، وَلَا يُسْرَ خَالِداً إِلَّا لِمَنِ اسْتَجَابَ لِأَمْرِ اللهِ بِسُرْعَةٍ فَبَقِيَتْ لَهُ البَرَكَةُ وَالمعْنَى.

مِيزَانُ العَوَانِ وَسُؤَالُ التَّنَطُّع

صَدَى {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ}

أَتَأَمَّلُ بِدَهْشَةٍ سُوءَ الأَدَبِ الَّذِي يَتَسَلَّلُ فِي كَلِمَاتِهِمْ حِينَ يَقُولُونَ لِنَبِيِّهِمْ: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ، وَكَأَنَّهُ رَبُّ مُوسَى وَحْدَهُ دُونَهُمْ، ثُمَّ يَبْدَؤُونَ سِلْسِلَةَ الأَسْئِلَةِ الَّتِي تُضَيِّقُ عَلَيْهِمْ مَا كَانَ وَاسِعاً. إِنَّنِي أَبْصِرُ الجَوَابَ الإِلَهِيَّ يَأْتِي لِيُرْسِيَ قَانُونَ الوَسَطِيَّةِ وَالِاعْتِدَالِ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ هَرِمَةٌ وَلَا بِكْرٌ صَغِيرَةٌ، بَلْ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قِمَّةِ قُوَّتِهَا وَنُضْجِهَا. وَكَمْ يَحْمِلُ هَذَا التَّوْجِيهُ النَّبَوِيُّ الأَخِيرُ مِنَ الشَّفَقَةِ وَالتَّحْذِيرِ: فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ؛ أَيْ بَادِرُوا إِلَى التَّنْفِيذِ الآنَ قَبْلَ أَنْ تَتَوَرَّطُوا فِي مَزِيدٍ مِنَ التَّشْدِيدِ بِسَبَبِ كَثْرَةِ السُّؤَال. أَرَى فِي هَذِهِ البَقَرَةِ العَوَانِ رَمْزاً لِكُلِّ تَكْلِيفٍ رَبَّانِيٍّ يَقُومُ عَلَى العَدْلِ وَالوَسَطِ بَعِيداً عَنِ الإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، وَلَكِنَّ القُلُوبَ المرِيضَةَ تَأْبَى إِلَّا أَنْ تَصْنَعَ لِنَفْسِهَا الأَغْلَالَ بِيَدِهَا. فَمَا أَعْجَبَ حَالَ النَّفْسِ الَّتِي تَتَهَرَّبُ مِنَ العَمَلِ بِإِثَارَةِ التَّفَاصِيلِ الجَانِبِيَّة، فَتُضَيِّعُ الزَّمَنَ وَتُرهِقُ الرُّوحَ فِي جَدَلٍ عَقِيمٍ لَا يُثْمِرُ إِلَّا المشَقَّة. هَكَذَا أُلْزِمُ نَفْسِي بِالمبَادَرَةِ إِلَى فِعْلِ مَا أُمِرْتُ بِهِ دُونَ تَلَكُّؤٍ أَوْ تَنَطُّعٍ، مُتَّخِذاً مِنَ الوَسَطِيَّةِ وَالِاعْتِدَالِ مَنْهَجاً لِحَيَاتِي وَعِبَادَتِي. فَكُلُّ تَنَطُّعٍ فِي الدِّينِ مَشَقَّةٌ وَعَنَاءٌ يَزُولُ، وَلَا اسْتِقَامَةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنْ فَعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ بِصِدْقٍ فَبَقِيَ لَهُ اليُسْرُ وَالمعْنَى.

لَوْنُ الصُّفْرَةِ وَبَهْجَةُ النَّاظِرِين

صَدَى {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}

تَسْتَمِرُّ دَائِرَةُ التَّضْيِيقِ فِي الِانْغِلَاقِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ كُلَّمَا فَتَحُوا بَابَ السُّؤَالِ مِن جَدِيدٍ؛ فَبَعْدَ أَنْ حُدِّدَ سِنُّهَا عَادُوا يَسْأَلُونَ عَنْ لَوْنِهَا، فَجَاءَهُمُ الوَصْفُ الَّذِي يُعِزُّ وُجُودَهُ وَيَغْلُو ثَمَنُهُ: صَفْرَاءُ فَاقِعٌ

لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِين. إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذَا الجَمَالَ البَصَرِيَّ البَدِيعَ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ نَقَاءِ اللَّوْنِ الأَصْفَرِ الفَاقِعِ وَبَهْجَةِ النَّظَرِ الَّتِي تَشْرَحُ الصُّدُورَ، لِيَكُونَ ثَمَنُ تَلَكُّئِهِمْ هُوَ البَحْثُ عَنْ نُدْرَةِ الجَمَالِ وَتَكْلِفَةِ الكَمَال. وَكَمْ تَكْشِفُ هَذِهِ الآيَةُ عَنْ سُنَّةٍ إِلهِيَّةٍ دَقِيقَةٍ؛ فَمَنْ شَدَّدَ عَلَى نَفْسِهِ شَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَرَكَ البَابَ المَفْتُوحَ لِيَبْحَثَ عَنِ القُيُودِ أُلْزِمَ بِمَا طَلَبَهُ لِسَانُهُ وَجَنَتْهُ يَدَاه. أَرَى فِي هَذِهِ البَقَرَةِ الصَّفْرَاءِ الَّتِي تَسُرُّ النَّاظِرِينَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الطَّاعَةَ الخَالِصَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِبَذْلِ أَنْفَسِ مَا تَمْلِكُهُ النَّفْسُ وَأَجْمَلِه، بَعْدَ أَنْ رَفَضُوا التَّيْسِيرَ الأَوَّلَ الَّذِي كَانَ مُتَاحاً لِلْجَمِيع. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَتَعَلَّمَ العَقْلُ الحُدُودَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَقِفَ عِنْدَهَا فِي السُّؤَالِ، فَلَا يَسْتَجْلِبُ لِنَفْسِهِ المَشَقَّةَ بَعْدَ أَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ اليُسْرَ وَالرَّحْمَة. هَكَذَا أَرْضَى بِتَيْسِيرِ رَبِّي وَأُبَادِرُ إِلَى طَاعَتِهِ بِأَجْمَلِ مَا أَمْلِكُ، سَائِلاً إِيَّاهُ أَنْ يَجْعَلَ عَمَلِي خَالِصاً يَسُرُّ النَّاظِرِينَ مِنَ المَلَائِكَةِ وَالصَّالِحِين. فَكُلُّ تَعَقِيدٍ يَصْنَعُهُ الإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ عِبْءٌ ثَقِيلٌ يَزُولُ، وَلَا بَهْجَةَ خَالِدَةَ إِلَّا فِي طَاعَةٍ صَافِيَةٍ تَسُرُّ القُلُوبَ فَيَبْقَى لَهَا الجَمَالُ وَالمَعْنَى.

عَمَى التَّشَابُهِ وَتَعَثُّرُ الإِرَادَة

صَدَى {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ}

أَتَأَمَّلُ كَيْفَ يَتَحَوَّلُ الوُضُوحُ السَّاطِعُ إِلَى ضَبَابٍ وَتَشَابُهٍ فِي أَعْيُنِ مَنْ لَا يُرِيدُ العَمَلَ؛ فَبَعْدَ تَحْدِيدِ السِّنِّ وَاللَّوْنِ الفَاقِعِ الَّذِي يَسُرُّ النَّاظِرِينَ، يَعُودُونَ لِلْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ بِحُجَّةٍ وَاهِيَةٍ: إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا! إِنَّنِي أَبْصِرُ أَنَّ التَّشَابُهَ لَمْ يَكُنْ فِي البَقَرِ نَفْسِهِ، بَلْ كَانَ فِي قُلُوبِهِمُ المُتَرَدِّدَةِ الَّتِي تَخْتَلِقُ الأَعْذَارَ لِتُؤَخِّرَ لَحْظَةَ الِامْتِثَالِ لِأَمْرِ السَّمَاء. وَكَمْ تَشْعُرُ بَصِيرَتِي بِعَظَمَةِ هَذِهِ الكَلِمَةِ الَّتِي أَنْقَذَتْهُمْ مِنَ الحِرْمَانِ الدَّائِمِ مِنَ الهِدَايَةِ حِينَ قَالُوا أَخِيراً: وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ؛ فَبِهَذَا الِاسْتِثْنَاءِ فُتِحَ لَهُمْ بَابُ الوُصُولِ بَعْدَ طُولِ تَعَثُّر. أَرَى مَأْسَاةَ النَّفْسِ حِينَ تُغْمِضُ عَيْنَيْهَا عَنِ الحَقِيقَةِ الوَاضِحَةِ ثُمَّ تَشْكُو مِنَ الظَّلَامِ وَالتَّشَابُهِ، فَتَضِيعُ فِي تَفَاصِيلَ لَا نِهَايَةَ لَهَا حَتَّى تَكَادَ تَعْجِزُ عَنِ التَّنْفِيذ. فَمَا أَشَدَّ حَاجَتِي إِلَى تَعْلِيقِ كُلِّ أَمْرٍ أَعْزِمُ عَلَيْهِ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَحْدَهُ، فَلَا اهْتِدَاءَ وَلَا تَوْفِيقَ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَفَضْلِهِ وَتَيْسِيرِه. هَكَذَا أَتَبَرَّأُ مِنْ حَوْلِي وَقُوَّتِي فِي كُلِّ خُطْوَةٍ أَخْطُوهَا، قَائِلاً بِقَلْبٍ مُفْتَقِرٍ: إِنْ شَاءَ اللهُ، كَيْ تَنْقَشِعَ عَنِّي سُحُبُ التَّشَابُهِ وَالحَيْرَةِ فِي دُرُوبِ الحَيَاة. فَكُلُّ تَعَلُّلٍ بِالتَّشَابُهِ هُرُوبٌ مِنَ الطَّاعَةِ يَزُولُ، وَلَا اهْتِدَاءَ خَالِداً إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ فَبَقِيَ لَهُ الوُضُوحُ وَالمَعْنَى.

سِفْرُ الصَّدَى الخَامِسُ

قَيْدُ الكَمَالِ وَتَضْيِيقُ الحَلْقَة

صَدَى {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ}

تُطْبِقُ حَلْقَةُ التَّكْلِيفِ تَمَاماً بَعْدَ طُولِ المِمَاطَلَةِ، فَيَأْتِي الوَصْفُ النِّهَائِيُّ الَّذِي يُعْجِزُ البَاحِثِينَ إِلَّا بِشَقِّ الأَنْفُسِ: بَقَرَةٌ مُكَرَّمَةٌ لَمْ تُذَلَّلْ لِحِرَاثَةِ الأَرْضِ وَلَا لِسَقْيِ الزَّرْعِ، سَلِيمَةٌ مِنَ العُيُوبِ، خَالِصَةُ الصُّفْرَةِ لَا يَشُوبُهَا أَيُّ لَوْنٍ آخَر. إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذَا التَّعَجُّبَ المُثِيرَ لِلرِّثَاءِ فِي قَوْلِهِمُ الجَافِي: الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ! وَكَأَنَّ نَبِيَّ اللهِ لَمْ يَكُنْ يَنْطِقُ بِالحَقِّ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الأُولَى، بَلْ هُمْ مَنْ ضَيَّقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى وَقَعُوا فِي قَيْدِ الكَمَالِ النَّادِر. وَكَمْ يَكْشِفُ خِتَامُ الآيَةِ عَنْ مَرَارَةِ قُلُوبِهِمْ وَهُمْ يُنَفِّذُونَ الأَمْرَ بَعْدَ أَنْ اشْتَرَوْهَا بِمِلْءِ مَسْكِهَا ذَهَباً: فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ؛ لِشِدَّةِ بُخْلِهِمْ وَثِقَلِ الطَّاعَةِ عَلَى أَرْوَاحِهِم. أَرَى سِكِّينَ الذَّبْحِ تَهْوِي أَخِيراً لِتُثْبِتَ أَنَّ أَمْرَ اللهِ نَافِذٌ لَا مَحَالَةَ، وَلَكِنَّ الفَرْقَ عَظِيمٌ بَيْنَ مَنْ يُطِيعُ بِحُبٍّ وَرِضًا وَيُسْرٍ، وَمَنْ يُطِيعُ بَعْدَ تَعَنُّتٍ وَخَسَارَةٍ وَتَأَخُّر. فَمَا أَشَدَّ خَوْفِي مِنْ أَنْ أَكُونَ مِمَّنْ يَفْعَلُونَ الطَّاعَةَ بِثِقَلٍ وَتَرَدُّدٍ حَتَّى يَكَادُوا لَا يَفْعَلُونَهَا، فَيَذْهَبُ أَجْرُ المُبَادَرَةِ وَتَبْقَى مَشَقَّةُ العِنَاد. هَكَذَا أُبَادِرُ إِلَى أَمْرِ رَبِّي بِقَلْبٍ مُنْشَرِحٍ وَنَفْسٍ سَخِيَّةٍ قَبْلَ أَنْ تَضِيقَ عَلَيَّ الحَلْقَةُ وَيَعْظُمَ الثَّمَن. فَكُلُّ طَاعَةٍ تَأْتِي بَعْدَ العِنَادِ وَالمِمَاطَلَةِ كَدَرٌ وَتَعَبٌ يَزُولُ، وَلَا فَلَاحَ خَالِداً إِلَّا لِمَنْ بَادَرَ إِلَى الحَقِّ بِرِضًا فَبَقِيَتْ لَهُ البَرَكَةُ وَالمَعْنَى.

صَرْخَةُ القَتِيلِ وَانْكِشَافُ السِّرّ

صَدَى {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}

أَتَأَمَّلُ هَذِهِ العَوْدَةَ الفَنِّيَّةَ المُدْهِشَةَ إِلَى أَصْلِ القِصَّةِ الَّتِي أَثَارَتْ كُلَّ ذَلِكَ الجَدَلِ؛ جَرِيمَةُ قَتْلٍ غَامِضَةٌ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، تَتَقَاذَفُهَا الأَلْسِنَةُ وَيَتَبَرَّأُ مِنْهَا الجَمِيعُ، بَيْنَمَا تَقِفُ عَيْنُ اللهِ شَاهِدَةً عَلَى القَاتِلِ المُتَخَفِّي بَيْنَ الصُّفُوف. إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذَا التَّدَافُعَ وَالتَّخَاصُمَ البَشَرِيَّ حِينَ يُحَاوِلُ المُجْرِمُ أَنْ يَدْفِنَ جَرِيمَتَهُ فِي تُرَابِ الكِتْمَانِ، غَافِلاً عَنْ قَانُونِ السَّمَاءِ الصَّارِمِ: وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُون. وَكَمْ تَرْتَعِدُ أَوْصَالُ البَاطِلِ أَمَامَ هَذَا الإِعْلَانِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يُؤَكِّدُ أَنَّهُ لَا تُوجَدُ جَرِيمَةٌ كَامِلَةٌ فِي مَلَكُوتِ

اللهِ، فَكُلُّ سِرٍّ يُخْفَى عَنِ الخَلْقِ سَيُخْرِجُهُ الخَالِقُ إِلَى العَلَنِ فِي الوَقْتِ الَّذِي يَشَاء. أَرَى الحَقِيقَةَ المَكْتُومَةَ كَالْبَذْرَةِ تَحْتَ التُّرَابِ، مَهْمَا أُهِيلَ عَلَيْهَا مِنْ أَكَاذِيبَ وَتَبْرِيرَاتٍ فَإِنَّهَا سَتَشُقُّ الأَرْضَ يَوْماً لِتَفْضَحَ الجَانِي وَتُبَرِّئَ البَرِيء. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَعِيشَ الإِنْسَانُ نَقِيَّ السَّرِيرَةِ طَاهِرَ اليَدِ، فَلَا يَخْشَى انْكِشَافَ مَسْتُورٍ وَلَا يَرْتَعِبُ مِنْ فَضِيحَةِ يَوْمٍ تُبْلَى فِيهِ السَّرَائِر. هَكَذَا أُطَهِّرُ بَاطِنِي مِنْ كُلِّ مَا أَسْتَحِي مِنْ خُرُوجِهِ إِلَى النُّورِ، مُوقِناً أَنَّ رَبِّي مُخْرِجٌ مَا أَكْتُمُهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَة. فَكُلُّ جَرِيمَةٍ تُدْفَنُ فِي الظَّلَامِ سَتَنْبَعِثُ إِلَى الضِّيَاءِ وَيَزُولُ سِتْرُهَا، وَلَا أَمَانَ خَالِداً إِلَّا لِمَنْ صَفَا سِرُّهُ أَمَامَ اللهِ فَبَقِيَتْ لَهُ البَرَاءَةُ وَالمَعْنَى.

مُعْجِزَةُ المَوْتِ وَنُطْقُ الحَيَاة

صَدَى {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}

أَقِفُ مَبْهُوراً أَمَامَ ذُرْوَةِ الإِعْجَازِ حِينَ تَتَلَاقَى نِهَايَةُ البَقَرَةِ المَذْبُوحَةِ مَعَ جُثَّةِ القَتِيلِ الهَامِدَةِ؛ فَبِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ بَعْضِ تِلْكَ البَقَرَةِ تَسْرِي الحَيَاةُ فَجْأَةً فِي العُرُوقِ المَيِّتَةِ، فَيَنْهَضُ القَتِيلُ لِيَنْطِقَ بِاسْمِ قَاتِلِهِ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى مَوْتِهِ مَرَّةً أُخْرَى. إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذَا التَّعْقِيبَ الكَوْنِيَّ العَظِيمَ الَّذِي يَجْعَلُ مِنْ هَذِهِ الحَادِثَةِ بُرْهَاناً حَيّاً عَلَى البَعْثِ وَالنُّشُورِ: كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى؛ فَالَّذِي أَعَادَ الرُّوحَ إِلَى هَذَا الجَسَدِ أَمَامَ أَعْيُنِكُمْ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ البَشَرِيَّةِ كُلِّهَا يَوْمَ القِيَامَةِ بِلَا عَنَاء. وَكَمْ تَشْعُرُ بَصِيرَتِي بِرَحْمَةِ اللهِ الَّذِي يُرِي عِبَادَهُ آيَاتِهِ المَلْمُوسَةَ فِي الآفَاقِ وَالأَنْفُسِ لِيُوقِظَ فِيهِمْ نِعْمَةَ العَقْلِ وَالتَّدَبُّرِ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَان. أَرَى المَوْتَ وَالحَيَاةَ لُعْبَتَيْنِ فِي قَبْضَةِ القَدِيرِ؛ يَجْعَلُ مِنْ جُزْءٍ مَيِّتٍ مِنْ بَقَرَةٍ سَبَباً لِإِحْيَاءِ إِنْسَانٍ مَيِّتٍ، لِيُحَطِّمَ قُيُودَ الأَسْبَابِ المَادِّيَّةِ فِي عُقُولِ الجَاحِدِين. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَقُودَنِي عَقْلِي عِنْدَ رُؤْيَةِ آيَاتِ اللهِ إِلَى اليَقِينِ المُطْلَقِ بِالبَعْثِ وَالحِسَابِ، فَأَسْتَعِدَّ لِذَلِكَ اليَوْمِ الَّذِي تَنْطِقُ فِيهِ الجَوَارِحُ وَتَنْكَشِفُ فِيهِ الحَقَائِق. هَكَذَا أَتَدَبَّرُ آيَاتِ رَبِّي فِي إِحْيَاءِ المَوْتَى وَإِحْيَاءِ القُلُوبِ بِنُورِ الإِيمَانِ، لِأَكُونَ مِنَ العَاقِلِينَ الَّذِينَ أَبْصَرُوا فَعَمِلُوا. فَكُلُّ إِنْكَارٍ لِلْبَعْثِ جَهْلٌ وَغَفْلَةٌ تَزُولُ، وَلَا حَيَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِعَقْلٍ تَدَبَّرَ آيَاتِ اللهِ فَأَيْقَنَ فَبَقِيَ لَهُ الخُلُودُ وَالمَعْنَى.

قَسْوَةُ الحِجَارَةِ وَخَشْيَةُ الصُّخُور

صَدَى {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}

أَقِفُ مَذْعُوراً أَمَامَ هَذَا التَّصْوِيرِ القُرْآنِيّ المرَوّعِ الَّذِي يَفْضَحُ تَحَجُّرَ القُلُوبِ البَشَرِيَّةِ بَعْدَ رُؤْيَةِ المعْجِزَاتِ البَاهِرَةِ؛ فَقَدْ جَفَّتْ فِيهَا يَنَابِيعُ الرَّحْمَةِ حَتَّى صَارَتْ كَالصُّخُورِ الصَّمَّاءِ بَلْ أَشَدَّ مِنْهَا قَسْوَةً وَجُمُوداً. إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذِهِ المفَارَقَةَ الكَوْنِيَّةَ المدْهِشَةَ الَّتِي تَجْعَلُ الحِجَارَةَ أَرَقَّ وَأَخْشَعَ مِنْ قُلُوبِ العُصَاةِ؛ فَمِنَ الحِجَارَةِ مَا يَتَفَجَّرُ بِالأَنْهَارِ الجَارِيَةِ الَّتِي تَسْقِي الحَيَاةَ، وَمِنْهَا مَا يَتَشَقَّقُ لِيَخْرُجَ مِنْهُ المَاءُ العَذْبُ، وَمِنْهَا مَا يَتَدَحْرَجُ وَيَهْبِطُ مِنْ رُؤُوسِ الجِبَالِ خَشْيَةً وَرَهْبَةً مِنْ جَلَالِ الله. وَكَمْ يَرْتَجِفُ فُؤَادِي خَوْفاً مِنْ دَاءِ القَسْوَةِ الَّذِي يُمِيتُ الإِحْسَاسَ بِالمَوْعِظَةِ، فَيَصِيرُ الصَّدْرُ قَبْراً مُظْلِماً لَا يَتَفَجَّرُ بِدَمْعَةِ خَشْيَةٍ وَلَا يَتَشَقَّقُ لِقَبُولِ نُورِ الهِدَايَة. أَرَى عَيْنَ الرَّقِيبِ الأَزَلِيّ تُرَاقِبُ هَذَا الجُمُودَ وَتُحْصِي كُلَّ عَمَلٍ وَنِيَّةٍ فِي صَحَائِفَ لَا تَغْفُلُ وَلَا تَنْسَى: وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ؛ فَالإِمْهَالُ لَيْسَ إِهْمَالاً بَلْ هُوَ اسْتِدْرَاجٌ لِيَوْمِ الحِسَاب. فَمَا أَشَدَّ حَاجَتِي إِلَى رِقَّةِ القَلْبِ وَلِينِ الجَانِبِ عِنْدَ سَمَاعِ ذِكْرِ اللهِ، كَيْ لَا تَكُونَ الصَّخْرَةُ الصَّمَّاءُ أَكْثَرَ خُشُوعاً وَاسْتِجَابَةً مِنِّي لِخَالِقِ الكَوْن. هَكَذَا أَسْقِي قَلْبِي بِدُمُوعِ الخَشْيَةِ وَالتَّدَبُّرِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، سَائِلاً رَبِّي أَنْ يُفَجِّرَ فِيهِ أَنْهَارَ الرَّحْمَةِ وَاليَقِينِ وَيُعِيذَنِي مِنْ قَسْوَةِ الجَاحِدِين. فَكُلُّ قَلْبٍ يَقْسُو عَنْ ذِكْرِ اللهِ جَمَادٌ مَيِّتٌ يَزُولُ، وَلَا حَيَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِقَلْبٍ تَشَقَّقَ بِخَشْيَةِ رَبِّهِ فَفَاضَ بِالنُّورِ وَالمعْنَى.

وَهْمُ الطَّمَعِ وَتَحْرِيفُ الكَلِم

صَدَى {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}

أَتَأَمَّلُ هَذَا النِّدَاءَ الإِلَهِيَّ الموقِظَ لِقُلُوبِ المؤْمِنِينَ؛ يَقْطَعُ خُيُوطَ الطَّمَعِ السَّاذَجِ فِي إِيمَانِ فَرِيقٍ تَشَرَّبَتْ عُرُوقُهُمْ جُرْثُومَةَ التَّزْيِيفِ وَخِيَانَةِ الأَمَانَة. إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذِهِ الجَرِيمَةَ الفِكْرِيَّةَ المرَوّعَةَ حِينَ يَسْمَعُ أَحْبَارُهُمْ كَلَامَ اللهِ الصَّافِيَ وَيَسْتَوْعِبُونَهُ بِعُقُولِهِمْ، ثُمَّ تَمْتَدُّ أَيْدِيهِمْ لِتُحَرِّفَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ

عَنْ عَمْدٍ وَإِصْرَارٍ وَعِلْم. وَكَمْ تَتَبَدَّدُ أَوْهَامُ التَّقَارُبِ أَمَامَ هَذِهِ الحَقِيقَةِ الجَارِحَةِ؛ فَمَنْ جَرُؤَ عَلَى تَبْدِيلِ كِتَابِهِ المقَدَّسِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، فَكَيْفَ يُرْجَى مِنْهُ أَنْ يُصَدِّقَ بِوَحْيٍ جَدِيدٍ يَكْشِفُ زَيْفَهُ وَيُعَرِّي تَلَاعُبَهُ بِالحَقَائِق؟ أَرَى النُّصُوصَ المحَرَّفَةَ تَئِنُّ تَحْتَ مَبَاضِعِ أَهْوَائِهِمْ، حَيْثُ طَمَسُوا صِفَاتِ النَّبِيِّ الخَاتَمِ وَبَدَّلُوا أَحْكَامَ السَّمَاءِ لِيَشْتَرُوا بِهَا مَصَالِحَهُمُ الضَّيِّقَةَ فِي أَسْوَاقِ الفَنَاء. فَمَا أَشَدَّ ظُلْمَةَ العَقْلِ الَّذِي يَسْتَعْمِلُ ذَكَاءَهُ فِي تَغْيِيرِ حَقَائِقِ السَّمَاءِ، فَيُصْبِحُ عَدُوّاً لِلنُّورِ وَخَائِناً لِلرِّسَالَةِ الَّتِي اؤْتُمِنَ عَلَيْهَا. هَكَذَا أُقَبِّلُ كِتَابَ رَبِّي المحْفُوظَ بِحِفْظِ السَّمَاءِ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ، مُقْسِماً أَنْ أَحْفَظَ مَعَانِيَهُ فِي قَلْبِي نَقِيَّةً كَمَا أُنْزِلَتْ دُونَ تَأْوِيلٍ فَاسِد. فَكُلُّ تَحْرِيفٍ لِكَلَامِ اللهِ خِيَانَةٌ عُظْمَى تَزُولُ وَتَنْفَضِحُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلْوَحْيِ المحْفُوظِ الَّذِي صَانَهُ اللهُ فَبَقِيَ لَهُ الصِّدْقُ وَالمعْنَى.

نِفَاقُ الوُجُوهِ وَصِرَاعُ المجَالِس

صَدَى {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}

أَتَأَمَّلُ هَذَا التَّذَبْذُبَ المزْدَوِجَ الَّذِي يَعِيشُهُ مُنَافِقُو أَهْلِ الكِتَابِ؛ فَفِي مَجَالِسِ المؤْمِنِينَ يَرْتَدُونَ قِنَاعَ التَّصْدِيقِ وَيُقِرُّونَ بِبِشَارَاتِ التَّوْرَاةِ بِالنَّبِيِّ المصْطَفَى، فَإِذَا انْغَلَقَتْ عَلَيْهِمُ الأَبْوَابُ انْقَلَبُوا يَتَلَاوَمُونَ فِي ذُعْرٍ وَغَبَاء. إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذَا التَّفْكِيرَ السَّاذَجَ حِينَ يَعْتِبُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ: أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِلْمِ النُّبُوَّةِ لِيَحْتَجُّوا بِهِ عَلَيْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ وَكَأَنَّ الحُجَّةَ عِنْدَ اللهِ تَقُومُ عَلَى اعْتِرَافِ اللِّسَانِ لِلْمُؤْمِنِينَ لَا عَلَى عِلْمِ اللهِ المحِيطِ بِمَا فِي كُتُبِهِمْ وَصُدُورِهِم. وَكَمْ تَضْحَكُ البَصِيرَةُ مِنْ سُؤَالِهِمُ المقْلُوبِ: أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ فَهُمْ يَتَّهِمُونَ بَعْضَهُمْ بِقِلَّةِ العَقْلِ لِأَنَّهُمْ أَفْشَوْا سِرَّ البِشَارَةِ، بَيْنَمَا قِمَّةُ الجُنُونِ هِيَ إِخْفَاءُ الحَقِّ عَنِ الخَلْقِ وَظَنُّهُمْ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يُخْفُونَهُ عَنِ الخَالِق. أَرَى خَوْفَهُمْ مِنَ الحُجَّةِ يَوْمَ الحِسَابِ يَفْضَحُ يَقِينَهُمُ الدَّاخِلِيَّ بِصِدْقِ الإِسْلَامِ، فَلَوْ كَانُوا شَاكِّينَ فِيهِ لَمَا خَافُوا أَنْ يُحَاجَّهُمُ المؤْمِنُونَ بِهِ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي الآخِرَة. فَمَا أَشَدَّ بُؤْسَ مَنْ يَعْرِفُ الحَقَّ وَيَخَافُ عَاقِبَةَ جُحُودِهِ، ثُمَّ يُحَاوِلُ أَنْ يَهْرُبَ مِنَ المسْؤُولِيَّةِ بِالكِتْمَانِ وَالتَّآمُرِ فِي الغُرَفِ المغْلَقَة. هَكَذَا أَجْهَرُ بِالحَقِّ الَّذِي فَتَحَ اللهُ بِهِ عَلَيَّ وَلَا أَكْتُمُهُ خَوْفاً مِنْ حُجَّةٍ أَوْ مَلَامَةٍ، لِأَلْقَى رَبِّي بِقَلْبٍ نَقِيٍّ لَا

يَعْرِفُ المرَاوَغَة. فَكُلُّ كِتْمَانٍ لِلْحَقِّ فِي الخَلَوَاتِ فَضِيحَةٌ وَسَرَابٌ يَزُولُ، وَلَا عَقْلَ سَلِيماً إِلَّا لِمَنْ أَعْلَنَ الحَقِيقَةَ وَاتَّبَعَهَا فَبَقِيَ لَهُ الصِّدْقُ وَالمعْنَى.

عَيْنُ العَلِيمِ وَعَرَاءُ السَّرَائِر

صَدَى {أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}

يَسْقُطُ هَذَا الِاسْتِفْهَامُ السَّمَاوِيُّ المدْهِشُ كَالشَّمْسِ الَّتِي تُبَدِّدُ كُلَّ ظُلُمَاتِ الخَلَوَاتِ وَتَهْدِمُ جُدْرَانَ التَّآمُرِ السِّرِّيِّ بِلَمْحَةِ بَصَر. إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذِهِ الحَقِيقَةَ الكَوْنِيَّةَ المطْلَقَةَ الَّتِي غَفَلَتْ عَنْهَا عُقُولُهُمُ الصَّغِيرَةُ؛ فَالَّذِي يَعْلَمُ مَا يُعْلِنُونَهُ أَمَامَ النَّاسِ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي يَرَى مَا يُسِرُّونَهُ فِي أَعْمَاقِ صُدُورِهِمْ وَمجَالِسِهِمُ المغْلَقَةِ بِلَا فَرْق. وَكَمْ تَصْغُرُ حِيَلُ البَشَرِ وَمُؤَامَرَاتُهُمْ أَمَامَ إِحَاطَةِ العِلْمِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يَخْتَرِقُ الحُجُبَ وَالأَسْتَارَ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ هَمْسُ الشِّفَاهِ وَلَا خَفْقَةُ النَّوَايَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْل. أَرَى سِجِلَّ اللهِ المفْتُوحَ يَرْصُدُ السِّرَّ وَالعَلَنَ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ، فَمَا فَعَلُوهُ مِنَ الكِتْمَانِ وَالتَّلَوُّنِ مَكْشُوفٌ أَمَامَ عَيْنِ القَيُّومِ قَبْلَ أَنْ يَنْطِقُوا بِهِ أَوْ يَكْتُمُوه. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ فِي وِجْدَانِي هَذَا الشُّعُورُ الدَّائِمُ بِمُرَاقَبَةِ اللهِ، فَأَعْلَمَ أَنَّ سِرِّي عِنْدَهُ عَلَانِيَةٌ، وَأَنَّ خَلْوَتِي مَشْهُودَةٌ بِعَيْنٍ لَا تَغْفُلُ وَلَا تَنَام. هَكَذَا أُطَهِّرُ سَرَائِرِي كَمَا أُطَهِّرُ عَلَانِيَتِي، مُسْتَحْيِياً مِنْ نَظَرِ رَبِّي إِلَى قَلْبِي أَنْ يَجِدَ فِيهِ مَا يَكْرَهُهُ أَوْ يَسْخَطُ عَلَيْه. فَكُلُّ سِرٍّ يُظَنُّ أَنَّهُ خَافٍ عَنِ اللهِ وَهُمٌ يَتَلَاشَى وَيَزُولُ، وَلَا نَجَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِقَلْبٍ تَسَاوَى سِرُّهُ وَعَلَنُهُ فِي الطُّهْرِ فَبَقِيَ لَهُ الأَمَانُ وَالمعْنَى.

أُمِّيَّةُ الأَوْهَامِ وَأَمَانِيُّ السَّرَاب

صَدَى {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}

أَنْظُرُ إِلَى الطَّبَقَةِ الأُخْرَى مِنْ هَذَا المجْتَمَعِ المأْزُومِ، فَأَرَى جُمُوعاً مِنَ الأُمِّيِّينَ الَّذِينَ لَا يَقْرَؤُونَ الكِتَابَ وَلَا يَفْقَهُونَ حَقَائِقَ الوَحْيِ، بَلْ يَعِيشُونَ عَلَى أَمَانِيَّ كَاذِبَةٍ وَأَوْهَامٍ وَرِثُوهَا عَنْ أَحْبَارِهِمْ بِالتَّقْلِيدِ الأَعْمَى. إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذِهِ المأْسَاةَ الرُّوحِيَّةَ حِينَ يَتَحَوَّلُ الدِّينُ عِنْدَ العَامَّةِ إِلَى مُجَرَّدِ تِلَاوَةٍ جَوْفَاءَ بِلَا فَهْمٍ، وَأَحْلَامٍ وَرْدِيَّةٍ تُوهِمُهُمْ بِأَنَّهُمْ شَعْبُ اللهِ المخْتَارُ وَأَنَّ النَّارَ لَنْ تَمَسَّهُمْ مَهْمَا فَعَلُوا.

وَكَمْ تَشْعُرُ بَصِيرَتِي بِالْأَسَى عَلَى عُقُولٍ عَطَّلَتْ نِعْمَةَ البَحْثِ وَالتَّدَبُّرِ، فَاكْتَفَتْ بِالظُّنُونِ وَالأَوْهَامِ الَّتِي لَا تُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً عِنْدَ لِقَاءِ الله. أَرَى الأَمَانِيَّ الكَاذِبَةَ كَالسَّرَابِ الَّذِي يَخْدَعُ العَطْشَانَ فِي الصَّحْرَاءِ، فَيَظُنُّ أَنَّهُ مَاءٌ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ بِالعَدْل. فَمَا أَشَدَّ خَطَرَ التَّقْلِيدِ الأَعْمَى وَالِاكْتِفَاءِ بِالظَّنِّ فِي أُمُورِ العَقِيدَةِ وَالمَصِيرِ، فَالْيَقِينُ لَا يُبْنَى عَلَى أَحْلَامِ اليَقَظَةِ بَلْ عَلَى البُرْهَانِ السَّاطِعِ وَالعِلْمِ الصَّحِيح. هَكَذَا أَتَحَرَّرُ مِنْ أَسْرِ الأَمَانِيِّ الجَوْفَاءِ وَالتَّقْلِيدِ البَارِدِ، مُقْبِلاً عَلَى كِتَابِ رَبِّي بِعَقْلٍ يَتَدَبَّرُ وَقَلْبٍ يَطْلُبُ الحَقِيقَةَ وَاليَقِينَ. فَكُلُّ دِينٍ يَقُومُ عَلَى الأَمَانِيِّ وَالظُّنُونِ سَرَابٌ يَتَبَدَّدُ وَيَزُولُ، وَلَا نَجَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِعِلْمٍ يَقِينِيٍّ مُسْتَمَدٍّ مِنْ نُورِ الوَحْيِ فَبَقِيَ لَهُ البُرْهَانُ وَالمَعْنَى.

وَيْلُ التَّزْيِيفِ وَثَمَنُ الخُسْرَان

صَدَى {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ}

يَدْوِي الوَعِيدُ الإِلَهِيُّ المُثَلَّثُ كَالصَّوَاعِقِ المُتَلَاحِقَةِ لِيَصُبَّ الوَيْلَ وَالهَلَاكَ عَلَى تِلْكَ الأَيْدِي الآثِمَةِ الَّتِي تَجْرُؤُ عَلَى تَزْوِيرِ الوَحْيِ وَنِسْبَةِ أَكَاذِيبِهَا إِلَى اللهِ العَظِيم. إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذِهِ الجَرِيمَةَ المُرَكَّبَةَ فِي أَبْشَعِ صُوَرِهَا؛ أَقْلَامٌ مَسْمُومَةٌ تَكْتُبُ الأَهْوَاءَ وَالأَبَاطِيلَ، ثُمَّ تَرْفَعُهَا فَوْقَ الرُّؤُوسِ قَائِلَةً: هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، لِتَبْتَزَّ بِهَا أَمْوَالَ البُسَطَاءِ وَتَشْتَرِيَ بِهَا حُطَامَ الدُّنْيَا الرَّخِيص. وَكَمْ يَهُزُّ أَرْكَانَ وِجْدَانِي هَذَا التَّكْرَارُ المُرْعِبُ لِكَلِمَةِ (وَيْلٌ) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: وَيْلٌ لَهُمْ عَلَى جُرْأَةِ الِافْتِرَاءِ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا سَطَّرَتْهُ أَيْدِيهِمْ مِنَ الضَّلَالِ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَهُ مِنَ السُّحْتِ وَالحَرَام. أَرَى الحِبْرَ الَّذِي كَتَبُوا بِهِ التَّحْرِيفَ يَتَحَوَّلُ فِي الآخِرَةِ إِلَى نَارٍ تَشْتَعِلُ فِي أَصَابِعِهِمْ، وَالمَالَ الَّذِي جَمَعُوهُ بِاسْمِ الدِّينِ يَنْقَلِبُ جَمْراً يَكْوِي جِبَاهَهُمْ وَظُهُورَهُمْ فِي يَوْمِ الحِسَاب. فَمَا أَشَدَّ قُبْحَ المُتَاجَرَةِ بِالدِّينِ وَتَزْيِيفِ كَلِمَاتِ السَّمَاءِ مِنْ أَجْلِ مَتَاعٍ قَلِيلٍ يَفْنَى عِنْدَ أَوَّلِ نَفَسٍ يُغَادِرُ الجَسَد. هَكَذَا أُقَدِّسُ كَلِمَةَ رَبِّي وَأَصُونُهَا مِنْ كُلِّ افْتِرَاءٍ أَوْ تَحْرِيفٍ، مُتَبَرِّئاً مِنَ الَّذِينَ يَبِيعُونَ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيل. فَكُلُّ كِتَابَةٍ تَفْتَرِي عَلَى اللهِ وَيْلٌ وَعَذَابٌ يَزُولُ صَاحِبُهُ فِي الجَحِيمِ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِكَلِمَةِ اللهِ الصَّادِقَةِ الَّتِي لَا يَأْتِيهَا البَاطِلُ فَبَقِيَ لَهَا الطُّهْرُ وَالمَعْنَى.

غُرُورُ الأَيَّامِ وَنَقْضُ العَهْد

صَدَى {وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}

أَتَأَمَّلُ هَذَا الوَهْمَ النَّفْسِيَّ العَجِيبَ الَّذِي يُخَدِّرُ بِهِ العُصَاةُ ضَمَائِرَهُمْ؛ حِينَ يَزْعُمُونَ بِثِقَةٍ زَائِفَةٍ أَنَّ نَارَ الجَحِيمِ لَنْ تَمَسَّهُمْ إِلَّا أَيَّاماً قَلِيلَةً مَعْدُودَةً ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنْهَا إِلَى النَّعِيمِ بِحُكْمِ نَسَبِهِمْ وَاصْطِفَائِهِم. إِنَّنِي أُبْصِرُ سَيْفَ البُرْهَانِ القُرْآنِيّ يَقْطَعُ هَذَا الغُرُورَ مِنْ جُذُورِهِ بِسُؤَالٍ مُفْحِمٍ يَضَعُهُمْ أَمَامَ الحَقِيقَةِ العَارِيَةِ: أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً مَكْتُوباً بِهَذَا الأَمَانِ، أَمْ أَنَّكُمْ تَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَلَا دَلِيل؟ وَكَمْ تَتَهَاوَى قِلَاعُ الأَوْهَامِ أَمَامَ هَذَا التَّحَدِّي العَقْلِيِّ الصَّارِمِ؛ فَالَّذِي يَمْلِكُ خَزَائِنَ الثَّوَابِ وَالعِقَابِ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ، وَلَمْ يُعْطِ أَحَداً صَكَّ غُفْرَانٍ يَسْتَبِيحُ بِهِ المَعَاصِي وَالتَّحْرِيف. أَرَى فِي هَذِهِ الدَّعْوَى الكَاذِبَةِ أَخْطَرَ بَوَّابَةٍ لِلِاسْتِهَانَةِ بِالذُّنُوبِ؛ فَكُلَّمَا ظَنَّ الإِنْسَانُ أَنَّ العَذَابَ خَفِيفٌ وَمُؤَقَّتٌ تَجَرَّأَ عَلَى انْتِهَاكِ الحُرُمَاتِ وَسَفْكِ الحُدُود. فَمَا أَشَدَّ جُرْأَةَ مَنْ يَتَأَلَّى عَلَى اللهِ وَيُقْسِمُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ بِهَوَاهُ، غَافِلاً عَنْ أَنَّ عَدْلَ السَّمَاءِ لَا يُحَابِي أَحَداً بِاسْمِهِ أَوْ نَسَبِهِ. هَكَذَا أَتَجَرَّدُ مِنْ كُلِّ أَمَانِيِّ الغُرُورِ وَالِاتِّكَالِ الكَاذِبِ، مُقْبِلاً عَلَى رَبِّي بِالخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يُنْجِي مِنَ النَّار. فَكُلُّ دَعْوَى لِلنَّجَاةِ بِلَا عَهْدٍ مِنَ اللهِ افْتِرَاءٌ وَسَرَابٌ يَزُولُ، وَلَا أَمَانَ خَالِداً إِلَّا لِمَنْ صَدَقَ مَعَ رَبِّهِ وَاتَّقَى عَذَابَهُ فَبَقِيَ لَهُ اليَقِينُ وَالمَعْنَى.

قَانُونُ الكَسْبِ وَخُلُودُ الجَزَاء

صَدَى {بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}

يَنْزِلُ الجَوَابُ القَاطِعُ مِنَ السَّمَاءِ بِكَلِمَةِ (بَلَى) الَّتِي تَنْسِفُ أَوْهَامَ الأَيَّامِ المَعْدُودَةِ، لِتُقَرِّرَ قَانُونَ العَدْلِ الكَوْنِيِّ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يُحَابِي أَحَداً بِاسْمِهِ أَوْ نَسَبِهِ. إِنَّنِي أُبْصِرُ هَذَا الحِصَارَ الرُّوحِيَّ المَرِيعَ حِينَ يَكْسِبُ الإِنْسَانُ السَّيِّئَةَ وَيُصِرُّ عَلَيْهَا حَتَّى تُحِيطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ كَالسُّورِ المُغْلَقِ الَّذِي يَسُدُّ كُلَّ مَنَافِذِ التَّوْبَةِ وَالرُّجُوع. وَكَمْ يَرْتَعِدُ قَلْبِي مِنْ هَذِهِ الإِحَاطَةِ الخَانِقَةِ؛ حِينَ تَتَحَوَّلُ الذُّنُوبُ المُتَرَاكِمَةُ إِلَى قَيْدٍ ثَقِيلٍ يَشُدُّ الرُّوحَ إِلَى هَاوِيَةِ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ، فَيُصْبِحُ صَاحِبُهَا رَفِيقاً أَبَدِيّاً

لِلنَّارِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَلَا يَنْفَكُّ عَنْهَا. أَرَى الخَطِيئَةَ تَبْدَأُ كَالْخَيْطِ الرَّفِيعِ فِي يَدِ الغَافِلِ، ثُمَّ تَلْتَفُّ حَوْلَ كِيَانِهِ كَالشَّرْنَقَةِ المُظْلِمَةِ حَتَّى تَحْجُبَهُ عَنْ نُورِ اللهِ وَتُسْلِمَهُ إِلَى جَحِيمِ الخُلُود. فَمَا أَشَدَّ خَطَرَ الِاسْتِهَانَةِ بِالْمَعَاصِي وَالإِصْرَارِ عَلَيْهَا دُونَ اسْتِغْفَارٍ، فَمَا زَالَتِ السَّيِّئَةُ تَتَكَاثَرُ حَتَّى تُغْرِقَ صَاحِبَهَا فِي بَحْرٍ لَا سَاحِلَ لَهُ مِنَ الهَلَاك. هَكَذَا أُبَادِرُ إِلَى كَسْرِ حَلَقَاتِ الذُّنُوبِ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالنَّدَمِ قَبْلَ أَنْ تُحِيطَ بِي خَطِيئَتِي وَتُغْلِقَ دُونِي أَبْوَابَ النَّجَاة. فَكُلُّ إِصْرَارٍ عَلَى السَّيِّئَةِ حِصَارٌ وَجَحِيمٌ يَزُولُ فِيهِ الأَمَلُ، وَلَا نَجَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِقَلْبٍ تَطَهَّرَ مِنَ الخَطَايَا فَبَقِيَتْ لَهُ الحُرِّيَّةُ وَالمَعْنَى.

غِرَاسُ الإِيمَانِ وَفِرْدَوْسُ الخُلُود

صَدَى {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}

تَتَجَلَّى الصُّورَةُ المُقَابِلَةُ فِي أَبْهَى حُلَّةٍ نُورَانِيَّةٍ لِتُعِيدَ التَّوَازُنَ إِلَى الوِجْدَانِ؛ فَالَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ نُورِ الإِيمَانِ فِي القَلْبِ وَثَمَرَةِ العَمَلِ الصَّالِحِ فِي الجَوَارِحِ هُمْ وَحْدَهُمْ أَهْلُ الفِرْدَوْسِ وَسُكَّانُهُ الأَبَدِيُّون. إِنَّنِي أُبْصِرُ هَذِهِ الصُّحْبَةَ الهَانِئَةَ بَيْنَ الأَرْوَاحِ الطَّاهِرَةِ وَبَيْنَ الجَنَّةِ الَّتِي تَحْتَضِنُهُمْ بِرَحْمَةِ اللهِ وَفَضْلِهِ، فَلَا يَخْشَوْنَ فِيهَا خُرُوجاً وَلَا فَنَاءً وَلَا انْقِطَاعاً لِلنَّعِيم. وَكَمْ تَشْعُرُ نَفْسِي بِالسَّكِينَةِ وَهِيَ تَتَأَمَّلُ هَذَا التَّلَازُمَ الوَثِيقَ بَيْنَ العَقِيدَةِ وَالسُّلُوكِ؛ فَالْإِيمَانُ بَذْرَةٌ خَفِيَّةٌ فِي تُرَابِ الفُؤَادِ، وَالعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الشَّجَرَةُ المُثْمِرَةُ الَّتِي تَمْتَدُّ أَغْصَانُهَا إِلَى سَمَاءِ الخُلُود. أَرَى أَصْحَابَ الجَنَّةِ يَتَقَلَّبُونَ فِي مَنَازِلِ الكَرَامَةِ وَالسَّلَامِ، وَقَدْ جَنَوْا ثِمَارَ صَبْرِهِمْ وَصِدْقِهِمْ فِي دَارِ الِابْتِلَاءِ، فَتَحَوَّلَتْ لَحَظَاتُ كَدْحِهِمُ القَصِيرَةُ إِلَى أَبَدٍ سَرْمَدِيٍّ مِنَ البَهْجَةِ وَالرِّضْوَان. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَكُونَ طَرِيقُ الجَنَّةِ وَاضِحاً لَا التِبَاسَ فِيهِ وَلَا مُحَابَاةَ؛ إِيمَانٌ يُنِيرُ البَصِيرَةَ، وَعَمَلٌ صَالِحٌ يُزَكِّي الحَيَاةَ، وَخُلُودٌ لَا يَنْقَضِي فِي جِوَارِ الرَّبِّ الكَرِيم. هَكَذَا أَسْقِي شَجَرَةَ إِيمَانِي بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ، طَامِعاً أَنْ أَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ الجَنَّةِ الَّذِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ. فَكُلُّ مَتَاعٍ خَارِجَ الجَنَّةِ ظِلٌّ عَابِرٌ يَنْقَضِي وَيَزُولُ، وَلَا خُلُودَ حَقِيقِيّاً إِلَّا لِأَهْلِ الإِيمَانِ وَالصَّلَاحِ فَبَقِيَ لَهُمُ النَّعِيمُ وَالمَعْنَى.

مِيثَاقُ الإِحْسَانِ وَنَكْثُ القَلِيل

صَدَى {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ}

أَتَأَمَّلُ هَذَا الدُّسْتُورَ الأَخْلَاقِيَّ وَالرُّوحِيَّ الشَّامِلَ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ مِيثَاقاً غَلِيظاً عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ يَبْدَأُ بِتَوْحِيدِ الخَالِقِ وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ، ثُمَّ يَفِيضُ بِالرَّحْمَةِ وَالإِحْسَانِ عَلَى الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِين. إِنَّنِي أُبْصِرُ هَذَا التَّكَاتُفَ البَدِيعَ لِقِيَمِ الجَمَالِ الإِنْسَانِيِّ؛ حَيْثُ يُؤْمَرُ الإِنْسَانُ أَنْ يَنْطِقَ بِالكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ لِلنَّاسِ جَمِيعاً، وَأَنْ يُقِيمَ صِلَتَهُ بِالسَّمَاءِ عَبْرَ الصَّلَاةِ، وَيُطَهِّرَ مَالَهُ وَمُجْتَمَعَهُ عَبْرَ إِيتَاءِ الزَّكَاة. وَكَمْ يَعْتَصِرُ قَلْبِي أَلَماً حِينَ أَرَى خِتَامَ هَذَا المِيثَاقِ النَّبِيلِ بِالِانْكِسَارِ وَالجُحُودِ؛ فَقَدْ أَدَارُوا ظُهُورَهُمْ لِكُلِّ هَذِهِ الوَصَايَا النُّورَانِيَّةِ وَتَوَلَّوْا مُعْرِضِينَ، وَلَمْ يَثْبُتْ عَلَى العَهْدِ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ الصَّادِقِينَ النَّادِرِين. أَرَى فِي ثَبَاتِ تِلْكَ القِلَّةِ المُؤْمِنَةِ مَنَارَةَ أَمَلٍ تُؤَكِّدُ أَنَّ الحَقَّ لَا يُقَاسُ بِكَثْرَةِ الأَتْبَاعِ، بَلْ بِصِدْقِ الوَفَاءِ لِمِيثَاقِ اللهِ حِينَ يَتَسَاقَطُ النَّاسُ فِي وَحْلِ الإِعْرَاضِ وَالنِّسْيَان. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ أَجْعَلَ هَذِهِ الوَصَايَا مَنْهَجاً لِحَيَاتِي؛ أُوَحِّدُ رَبِّي، وَأُحْسِنُ إِلَى الوَالِدَيْنِ وَالضُّعَفَاءِ، وَأُطَيِّبُ كَلَامِي لِلْخَلْقِ، وَأُقِيمُ صَلَاتِي وَزَكَاتِي بِإِخْلَاص. هَكَذَا أَتَمَسَّكُ بِمِيثَاقِ السَّمَاءِ لِأَكُونَ مِنْ تِلْكَ القِلَّةِ الثَّابِتَةِ الَّتِي لَمْ تُغَيِّرْ وَلَمْ تُبَدِّلْ وَلَمْ تُعْرِضْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا. فَكُلُّ إِعْرَاضٍ عَنْ مِيثَاقِ الإِحْسَانِ قَسْوَةٌ وَخُسْرَانٌ يَزُولُ، وَلَا ثَبَاتَ خَالِداً إِلَّا لِلْقَلِيلِ الصَّادِقِ الَّذِي وَفَى بِعَهْدِ اللهِ فَبَقِيَ لَهُ الإِحْسَانُ وَالمَعْنَى.

مِيثَاقُ الدِّمَاءِ وَشَهَادَةُ النَّفْس

صَدَى {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ}

أَقِفُ أَمَامَ هَذَا المِيثَاقِ الإِنْسَانِيِّ المَهِيبِ الَّذِي يُحَرِّمُ سَفْكَ الدِّمَاءِ وَتَهْجِيرَ الأَبْرِيَاءِ مِنْ دِيَارِهِمْ، وَيَجْعَلُ الإِنْسَانَ شَاهِداً عَلَى نَفْسِهِ وَمُقِرّاً بِعَدَالَةِ هَذَا التَّشْرِيعِ السَّمَاوِيِّ الَّذِي يَحْفَظُ الحَيَاة. إِنَّنِي أُبْصِرُ هَذَا التَّعْبِيرَ القُرْآنِيَّ البَلِيغَ الَّذِي يَجْعَلُ دَمَ الأَخِ هُوَ دَمُ النَّفْسِ، وَإِخْرَاجَ القَرِيبِ مِنْ دَارِهِ هُوَ إِخْرَاجٌ لِلذَّاتِ؛ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ البَشَرِيَّةَ جَسَدٌ وَاحِدٌ إِذَا نَزَفَ عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالأَلَمِ وَالفَنَاء. وَكَمْ تَشْعُرُ بَصِيرَتِي بِعِظَمِ الحُجَّةِ المُقَامَةِ عَلَيْهِمْ؛ فَهُمْ لَمْ يُكْرَهُوا عَلَى هَذَا العَهْدِ، بَلْ أَقَرُّوا بِهِ طَائِعِينَ وَشَهِدُوا عَلَى صِحَّتِهِ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَعُقُولِهِمْ فِي مَشْهَدٍ لَا يَقْبَلُ الإِنْكَار. أَرَى حُرْمَةَ الدَّمِ

وَالأَرْضِ تَقِفُ كَالسُّورِ المُقَدَّسِ الَّذِي نَصَبَهُ اللهُ لِيَحْمِيَ المجْتَمَعَاتِ مِنْ شَرِيعَةِ الغَابِ وَوحْشِيَّةِ الِاعْتِدَاءِ وَالتَّشْرِيد. فَمَا أَشَدَّ قُبْحَ مَنْ يَعْتَرِفُ بِحُرْمَةِ الدِّمَاءِ وَالدِّيَارِ بِلِسَانِهِ وَيَشْهَدُ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ تَمْتَدُّ يَدُهُ الآثِمَةُ لِتَنْقُضَ مَا أَقَرَّ بِهِ وَتَسْتَبِيحَ الحُرُمَات. هَكَذَا أَصُونُ دِمَاءَ الخَلْقِ وَأَمْنَهُمْ فِي دِيَارِهِمْ كَمَا أَصُونُ نَفْسِي وَدَارِي، مُوفِياً بِمِيثَاقِ اللهِ الَّذِي أَقْرَرْتُ بِهِ وَشَهِدْتُ عَلَيْه. فَكُلُّ سَفْكٍ لِلدِّمَاءِ وَتَهْجِيرٍ لِلْآمِنِينَ خِيَانَةٌ لِلْعَهْدِ تَزُولُ وَتُحَاسَبُ، وَلَا أَمَانَ خَالِداً إِلَّا لِمَنْ حَفِظَ حُرُمَاتِ اللهِ فَبَقِيَ لَهُ السَّلَامُ وَالمعْنَى.

مُفَارَقَةُ التَّنَاقُضِ وَتَبْعِيضُ الكِتَاب

صَدَى {ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}

أَقِفُ مَذْهُولاً أَمَامَ هَذِهِ المفَارَقَةِ السَّاخِرَةِ وَالمؤْلِمَةِ الَّتِي تَكْشِفُ عَنْ تَمَزُّقِ الضَّمِيرِ الدِّينِيّ؛ فَهُمْ يَقْتُلُونَ إِخْوَتَهُمْ وَيُخْرِجُونَهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ بِالتَّعَاوُنِ مَعَ الأَعْدَاءِ فِي إِثْمٍ وَعُدْوَانٍ، فَإِذَا وَقَعَ هَؤُلَاءِ الإِخْوَةُ أُسَارَى بَادَرُوا إِلَى فِدَائِهِمْ بِالمالِ زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ يُطَبِّقُونَ أَمْرَ التَّوْرَاة! إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذَا الِانْتِقَاءَ الهَوَائِيَّ لِأَحْكَامِ السَّمَاءِ حِينَ يَنْتَزِعُ الإِنْسَانُ مِنَ الكِتَابِ مَا يُوَافِقُ مَصْلَحَتَهُ وَيَرْمِي خَلْفَ ظَهْرِهِ مَا يُقَيِّدُ شَهْوَتَهُ، فَيَسْقُطُ فِي التَّنَاقُضِ الفَاضِح. وَكَمْ يَدْوِي هَذَا السُّؤَالُ الإِلَهِيُّ المزَلْزِلُ فِي أَرْجَاءِ الوُجُودِ: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟ فَالْوَحْيُ كُلٌّ لَا يَتَجَزَّأُ، وَمَنْ رَدَّ حُكْماً وَاحِداً مِنْهُ فَقَدْ كَفَرَ بِالمنْهَجِ كُلِّهِ وَاسْتَحَقَّ الخِزْيَ وَالفَضِيحَة. أَرَى مَصِيرَ المتَلَاعِبِينَ بِالدِّينِ مَكْتُوباً بِحُرُوفٍ مِنَ النَّارِ: خِزْيٌ وَذُلٌّ يُلَاحِقُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَرَدٌّ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ، تَحْتَ عَيْنِ الرَّقِيبِ الَّذِي لَا يَغْفُلُ عَنْ أَعْمَالِهِم. فَمَا أَشَدَّ خَوْفِي مِنْ أَنْ أَكُونَ مِمَّنْ يَأْخُذُونَ مِنَ الدِّينِ مَا يَهْوَوْنَ وَيَتْرُكُونَ مَا يَشُقُّ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَأَسْقُطَ فِي هَذَا التَّجْزِيءِ المهْلِك. هَكَذَا أَسْتَسْلِمُ لِكِتَابِ رَبِّي كُلِّهِ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ بِلَا انْتِقَاءٍ وَلَا تَبْعِيضٍ، طَلَباً لِلْكَرَامَةِ فِي الدُّنْيَا وَالنَّجَاةِ فِي الآخِرَة. فَكُلُّ

تَجْزِيءٍ لِشَرْعِ اللهِ كُفْرٌ وَخِزْيٌ يَزُولُ صَاحِبُهُ فِي العَذَابِ، وَلَا فَلَاحَ خَالِداً إِلَّا لِمَنْ أَخَذَ الكِتَابَ كُلَّهُ بِتَسْلِيمٍ فَبَقِيَتْ لَهُ العِزَّةُ وَالمِعْنَى.

بَيْعُ الآخِرَةِ وَإِفْلَاسُ الدُّنْيَا

صَدَى {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ}

أَقِفُ أَمَامَ المَلَخَّصِ النِّهَائِيِّ لِهَذِهِ المَأْسَاةِ الإِنْسَانِيَّةِ؛ صَفْقَةٌ خَاسِرَةٌ بَاعُوا فِيهَا نَعِيمَ الآخِرَةِ الخَالِدَ، وَدَفَعُوهُ ثَمَناً لِشِرَاءِ لَذَّةِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ وَسُلْطَانِهَا الزَّائِل. إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذَا التَّبَادُلَ الأَحْمَقَ حِينَ يُضَحِّي الإِنْسَانُ بِبَيْتِهِ الأَبَدِيِّ فِي الجَنَّةِ مِنْ أَجْلِ خَيْمَةٍ مُمَزَّقَةٍ فِي صَحْرَاءِ الدُّنْيَا تَعْصِفُ بِهَا رِيَاحُ المَوْتِ فِي أَيِّ لَحْظَة. وَكَمْ تَرْتَعِدُ أَوْصَالِي حِينَ أَرَى عَاقِبَةَ هَذَا الِاخْتِيَارِ المَشْؤُومِ فِي دَارِ الجَزَاءِ؛ فَلَا العَذَابُ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ لِتَسْتَرِيحَ أَرْوَاحُهُمْ، وَلَا نَاصِرَ يَمْتَدُّ إِلَيْهِمْ لِيُنْقِذَهُمْ مِنْ قَبْضَةِ الجَحِيمِ المُطْبِقَةِ عَلَيْهِم. أَرَى الدُّنْيَا الَّتِي اشْتَرَوْهَا بِدِينِهِمْ قَدْ ذَابَتْ كَالثَّلْجِ تَحْتَ شَمْسِ القِيَامَةِ، وَلَمْ يَبْقَ فِي أَيْدِيهِمْ سِوَى النَّدَمِ المُقِيمِ وَالعَذَابِ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَهُون. فَمَا أَعْظَمَ غَبْنَ مَنْ فَضَّلَ العَاجِلَ الفَانِيَ عَلَى الآجِلِ البَاقِي، فَفَقَدَ الدُّنْيَا بِالمَوْتِ وَخَسِرَ الآخِرَةَ بِالكُفْرِ وَالعِصْيَان. هَكَذَا أَبِيعُ دُنْيَايَ الفَانِيَةَ لِأَشْتَرِيَ آخِرَتِي البَاقِيَةَ، جَاعِلاً رِضَا رَبِّي غَايَتِي الكُبْرَى الَّتِي لَا أُقَايِضُهَا بِكُنُوزِ الأَرْضِ جَمِيعاً. فَكُلُّ شِرَاءٍ لِلدُّنْيَا عَلَى حِسَابِ الآخِرَةِ خُسْرَانٌ وَعَذَابٌ يَزُولُ فِيهِ الرَّجَاءُ، وَلَا رِبْحَ خَالِداً إِلَّا لِمَنْ آثَرَ البَاقِيَةَ عَلَى الفَانِيَةِ فَبَقِيَ لَهُ الخُلُودُ وَالمِعْنَى.

مَوْكِبُ الرُّسُلِ وَاسْتِكْبَارُ القَتَلَة

صَدَى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ}

أُطِلُّ عَلَى مَوْكِبِ النُّبُوَّاتِ المُتَتَابِعِ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْخَلْقِ؛ يَبْدَأُ بِمُوسَى وَالتَّوْرَاةِ، ثُمَّ يَتَتَالَى الرُّسُلُ كَالنُّجُومِ المُضِيئَةِ حَتَّى يَأْتِيَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مُؤَيَّداً بِالمُعْجِزَاتِ البَاهِرَةِ وَرُوحِ القُدُسِ جِبْرِيل

عَلَيْهِ السَّلَام. إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذَا التَّدَفُّقَ السَّمَاوِيَّ المتَّصِلَ الَّذِي لَمْ يَتْرُكْ لِلْبَشَرِيَّةِ عُذْراً، وَلَكِنَّهُ يَصْطَدِمُ دَوْماً بِجِدَارِ الأَنَانِيَّةِ وَالهَوَى فِي قُلُوبِ المتَكَبِّرِينَ الَّذِينَ يَرْفُضُونَ كُلَّ حَقٍّ لَا يُوَافِقُ رَغَبَاتِهِم. وَكَمْ يَهُزُّ وِجْدَانِي هَذَا السُّؤَالُ التَّارِيخِيُّ الفَاضِحُ: أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ؟ فَجَعَلُوا أَهْوَاءَهُمُ المرِيضَةَ مِعْيَاراً

لِقَبُولِ الوَحْيِ أَوْ رَدِّهِ، فَمَنْ لَمْ يُطِقْ أَمْرَهُ كَذَّبُوهُ، وَمَنْ فَضَحَ بَاطِلَهُمْ قَتَلُوهُ بِدَمٍ بَارِد. أَرَى دِمَاءَ الأَنْبِيَاءِ الزَّكِيَّةَ تَسِيلُ عَلَى صَفَحَاتِ التَّارِيخِ شَاهِدَةً عَلَى قَسْوَةِ قُلُوبٍ تَعْبُدُ ذَوَاتَهَا وَتَثُورُ كَالْوُحُوشِ الكَاسِرَةِ كُلَّمَا خَالَفَ نُورُ السَّمَاءِ ظُلْمَةَ أَهْوَائِهَا. فَمَا أَشَدَّ خَوْفِي مِنْ أَنْ أُحَكِّمَ هَوَايَ فِي شَرْعِ رَبِّي، فَأَقْبَلَ مِنَ الحَقِّ مَا يُوَافِقُ طَبْعِي وَأَسْتَكْبِرَ عَمَّا يُخَالِفُ رَغْبَتِي. هَكَذَا أُخْضِعُ هَوَايَ وَرَغَبَاتِي لِمَا جَاءَ بِهِ رُسُلُ اللهِ الكِرَامُ، مُسْتَقْبِلاً كُلَّ أَمْرٍ سَمَاوِيٍّ بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّعْظِيمِ وَالإِجْلَال. فَكُلُّ اسْتِكْبَارٍ عَلَى رُسُلِ اللهِ جَرِيمَةٌ وَهَلَاكٌ يَزُولُ، وَلَا نَجَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنْ أَخْضَعَ هَوَاهُ لِوَحْيِ السَّمَاءِ فَبَقِيَ لَهُ القَبُولُ وَالمعْنَى.

غِلَافُ القُلُوبِ وَلَعْنَةُ الجُحُود

صَدَى {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ}

أَتَأَمَّلُ هَذِهِ الحُجَّةَ الوَاهِيَةَ الَّتِي يَتَدَرَّعُ بِهَا المعَانِدُونَ لِتَبْرِيرِ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الهِدَايَةِ؛ حِينَ يَدَّعُونَ بِبُرُودٍ وَتَعَالٍ أَنَّ قُلُوبَهُمْ مُغَلَّفَةٌ بِأَغْشِيَةٍ كَثِيفَةٍ تَمْنَعُهَا مِنْ فَهْمِ كَلَامِ النَّبِيِّ أَوِ التَّأَثُّرِ بِدَعْوَتِه. إِنَّنِي أَبْصِرُ هَذَا التَّبَاهِيَ بِالعَمَى الرُّوحِيِّ حِينَ يَجْعَلُ الإِنْسَانُ قَسْوَةَ قَلْبِهِ وَانْغِلَاقَهُ عُذْراً يَحْتَمِي بِهِ مِنْ مَسْؤُولِيَّةِ الإِيمَانِ، زَاعِماً أَنَّ خَالِقَهُ خَلَقَهُ هَكَذَا غَيْرَ قَابِلٍ لِلاسْتِجَابَةِ. وَكَمْ يَنْزِلُ الرَّدُّ الإِلَهِيُّ حَاسِماً وَقَاصِماً لِهَذَا الِادِّعَاءِ: بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ؛ فَقُلُوبُهُمْ لَمْ تُخْلَقْ مُغَلَّفَةً، وَلَكِنَّ إِصْرَارَهُمْ عَلَى الكُفْرِ وَالعِنَادِ هُوَ الَّذِي جَلَبَ عَلَيْهِمُ الطَّرْدَ وَالإِبْعَادَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ فَانْغَلَقَتْ بَصَائِرُهُم. أَرَى سَحَابَةَ اللَّعْنَةِ وَالحِرْمَانِ تُخَيِّمُ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ بَعْدَ أَنْ رَفَضُوا النُّورَ بِإِرَادَتِهِمْ، فَلَمْ يَبْقَ فِيهِمْ مِنَ الإِيمَانِ إِلَّا قَلِيلٌ نَادِرٌ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُهُمْ مِنَ الهَاوِيَة. فَمَا أَشَدَّ بُؤْسَ مَنْ يَفْتَخِرُ بِانْغِلَاقِ قَلْبِهِ عَنْ نِدَاءِ السَّمَاءِ، فَيَحْرِمُ نَفْسَهُ مِنْ لَذَّةِ القُرْبِ وَيَسْتَجْلِبُ لَهَا اللَّعْنَةَ وَالخِذْلَانَ الأَبَدِيّ. هَكَذَا أَفْتَحُ نَوَافِذَ قَلْبِي كُلَّهَا لِنَسَائِمِ الوَحْيِ وَالإِيمَانِ، مُسْتَجِيراً بِرَبِّي مِنْ أَنْ يَتَغَلَّفَ فُؤَادِي بِرَانِ الذُّنُوبِ أَوْ يُطْرَدَ مِنْ

بَابِ الرَّحْمَة. فَكُلُّ انْغِلَاقٍ عَنْ نُورِ اللهِ لَعْنَةٌ وَحِرْمَانٌ يَزُولُ فِيهِ الأَمَلُ، وَلَا حَيَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِقَلْبٍ مَفْتُوحٍ يَشْرَبُ ضِيَاءَ الإِيمَانِ فَبَقِيَ لَهُ القُرْبُ وَالمعْنَى.

خِذْلَانُ الِاسْتِفْتَاحِ وَلَعْنَةُ الحَسَد

صَدَى {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ}

أَقِفُ مَذْهُولاً أَمَامَ هَذَا الِانْقِلَابِ المرِيعِ الَّذِي تَصْنَعُهُ نَارُ الحَسَدِ وَالعَصَبِيَّةِ فِي القُلُوبِ؛ فَقَدْ كَانُوا قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ الخَاتَمِ يَسْتَنْصِرُونَ بِهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَيُبَشِّرُونَ العَالَمَ بِقُدُومِهِ وَيَقْرَؤُونَ أَوْصَافَهُ فِي كُتُبِهِمْ بِشَوْقٍ وَانْتِظَار. إِنَّنِي أَبْصِرُ لَحْظَةَ الِامْتِحَانِ الكُبْرَى حِينَ أَشْرَقَ هَذَا الكِتَابُ المنَزَّلُ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ، فَعَرَفُوا النَّبِيَّ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْهُ مِنْ غَيْرِ نَسْلِهِمْ كَفَرُوا بِهِ جُحُوداً وَحَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم. وَكَمْ تَنْزِلُ لَعْنَةُ اللهِ قَاصِمَةً وَعَادِلَةً عَلَى هَؤُلَاءِ الكَافِرِينَ الَّذِينَ لَمْ يَكْفُرُوا عَنْ جَهْلٍ أَوِ اشْتِبَاهٍ، بَلْ كَفَرُوا بَعْدَ المعْرِفَةِ اليَقِينِيَّةِ لِمُجَرَّدِ أَنَّ الفَضْلَ الإِلَهِيَّ ذَهَبَ إِلَى أُمَّةٍ أُخْرَى اصْطَفَاهَا الله. أَرَى الحَسَدَ وَالكِبْرَ العِرْقِيَّ يَلْتَهِمُ إِيمَانَهُمْ وَيُحَوِّلُهُمْ مِنْ دُعَاةٍ لِلنَّبِيِّ المنتَظَرِ إِلَى أَلَدِّ أَعْدَائِهِ، فَيَسْتَحِقُّونَ الطَّرْدَ الأَبَدِيَّ مِنْ رَحْمَةِ السَّمَاءِ وَالبَوَاءَ بِالغَضَبِ المقِيم. فَمَا أَشَدَّ خَطَرَ الحَسَدِ وَالتَّعَصُّبِ حِينَ يُعْمِيَانِ البَصِيرَةَ عَنِ الحَقِّ المعْرُوفِ، فَيَدْفَعَانِ الإِنْسَانَ إِلَى مُحَارَبَةِ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ وَيَنْتَظِرُهُ بِالأَمْس. هَكَذَا أُطَهِّرُ قَلْبِي مِنْ كُلِّ حَسَدٍ أَوْ تَعَصُّبٍ يَمْنَعُنِي مِنْ قَبُولِ الحَقِّ أَيّاً كَانَ مَصْدَرُهُ، مُسَلِّماً بِأَنَّ فَضْلَ اللهِ بِيَدِهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاء. فَكُلُّ كُفْرٍ بَعْدَ المعْرِفَةِ حَسَدٌ وَلَعْنَةٌ تَزُولُ بِصَاحِبِهَا فِي الهَاوِيَةِ، وَلَا نَجَاةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِقَلْبٍ صَفَا مِنَ الحَسَدِ وَآمَنَ بِالحَقِّ فَبَقِيَ لَهُ القَبُولُ وَالمعْنَى.

بَيْعُ النَّفْسِ وَبَغْيُ الحَسَد

صَدَى {بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}

أَتَأَمَّلُ هَذِهِ الصَّفْقَةَ المَشْؤُومَةَ الَّتِي خَسِرُوا فِيهَا أَنْفُسَهُمْ وَأَبَدَهُمْ؛ حِينَ بَاعُوا نَجَاتَهُمْ بِالكُفْرِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ، وَلَمْ يَكُنْ دَافِعُهُمْ إِلَّا البَغْيُ وَالحَسَدُ وَالِاعْتِرَاضُ عَلَى مَشِيئَةِ اللهِ فِي اخْتِيَارِ رُسُلِهِ مِنْ عِبَادِه. إِنَّنِي أَبْصِرُ جُرْأَةَ المَخْلُوقِ الضَّعِيفِ وَهُوَ يُنَازِعُ الخَالِقَ فِي تَوْزِيعِ فَضْلِهِ وَنُبُوَّتِهِ، فَيَسْخَطُ لِأَنَّ الوَحْيَ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ العَرَبِيِّ وَلَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِمْ، فَيَكْفُرُ بِالسَّمَاءِ انْتِقَاماً لِكِبْرِيَائِهِ الجَرِيح. وَكَمْ تَتَرَاكَمُ سُحُبُ الغَضَبِ الإِلَهِيِّ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ: غَضَبٌ عَلَى غَضَبٍ؛ غَضَبٌ لِتَحْرِيفِهِمُ التَّوْرَاةَ وَتَكْذِيبِ عِيسَى، وَغَضَبٌ جَدِيدٌ لِكُفْرِهِمْ بِالقُرْآنِ وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِيَنْتَهِيَ بِهِمُ المِطَافُ إِلَى عَذَابٍ مُهِينٍ يَكْسِرُ أُنُوفَهُمْ. أَرَى ذُلَّ الإِهَانَةِ فِي الآخِرَةِ يُقَابِلُ عُنْجُهِيَّةَ التَّكَبُّرِ وَالبَغْيِ فِي الدُّنْيَا، فَمَنْ تَعَالَى عَلَى أَمْرِ اللهِ حَسَداً وَبَغْياً أَذَلَّهُ اللهُ بِعَذَابٍ يُهِينُ كَرَامَتَهُ وَيُعَرِّي عَجْزَهُ أَمَامَ العَالَمِين. فَمَا أَشَدَّ قُبْحَ البَغْيِ وَالِاعْتِرَاضِ عَلَى قَسْمَةِ اللهِ وَفَضْلِهِ، فَالنُّبُوَّةُ وَالهِدَايَةُ رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ يَضَعُهَا حَيْثُ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ وَعِلْمِه. هَكَذَا أَرْضَى بِقَسْمَةِ رَبِّي وَفَضْلِهِ عَلَى عِبَادِهِ، مُسَلِّماً لِحِكْمَتِهِ فِي الِاصْطِفَاءِ، هَارِباً مِنْ بَغْيِ الحَاسِدِينَ الَّذِينَ بَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَب. فَكُلُّ كُفْرٍ يَقُومُ عَلَى البَغْيِ وَالحَسَدِ ذُلٌّ وَعَذَابٌ مُهِينٌ يَزُولُ فِيهِ الكِبْرُ، وَلَا عِزَّةَ خَالِدَةَ إِلَّا لِمَنْ رَضِيَ بِفَضْلِ اللهِ وَآمَنَ بِوَحْيِهِ فَبَقِيَ لَهُ الرِّضْوَانُ وَالمَعْنَى.

سِفْرُ الصَّدَى السَّادِسُ

مِصْبَاحُ السَّمَاءِ وَقِنَاعُ العَصَبِيَّةِ

صَدَى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 91]

أُصْغِي إِلَى نِدَاءِ الوَحْيِ وَهُوَ يَطْرُقُ نَوَافِذَ القُلُوبِ الموصَدَةِ بِسَلَاسِلِ الأَنَا، فَأَرَى كَيْفَ يَتَحَوَّلُ الدِّينُ فِي يَدِ المتَعَصِّبِ إِلَى مِرْآةٍ مَقْلُوبَةٍ لَا تَعْكِسُ إِلَّا صُورَةَ ذَاتِهِ المهْوُوسَةِ بِالِاصْطِفَاءِ، وَكَيْفَ يُغْلِقُ المرْءُ بَابَ السَّمَاءِ بِمِفْتَاحٍ يَزْعُمُ أَنَّهُ هَدِيَّةٌ مِنَ اللهِ؛ وَلَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الحَقِيقَةَ وَطَنٌ ضَيِّقٌ يَسَعُنِي وَحْدِي، وَأَنَّ النُّورَ إِذَا أَشْرَقَ مِنْ غَيْرِ نَافِذَتِي فَهُوَ ظَلَامٌ يَجِبُ إِطْفَاؤُهُ بِرِيَاحِ الجُحُودِ؛ وَكَمْ جَرَّبْتُ أَنْ أَحْبِسَ مَاءَ المطَرِ فِي إِنَاءٍ مَثْقُوبٍ مِنَ التَّعَالِي، فَلَمْ أَجْنِ إِلَّا جَفَافَ الرُّوحِ وَتَشَقُّقَ البَصِيرَةِ تَحْتَ هَجِيرِ الكِبْرِيَاءِ؛ أَتَأَمَّلُ الشَّمْسَ وَهِيَ تَسْكُبُ ذَهَبَهَا عَلَى كُلِّ القِمَمِ دُونَ تَمْيِيزٍ بَيْنَ جَبَلٍ وَآخَرَ، بَيْنَمَا يَحْفِرُ الغَافِلُونَ خَنَادِقَ الطِّينِ لِيَمْنَعُوا الضَّوْءَ مِنَ العُبُورِ إِلَى وِدْيَانِهِمُ المظْلِمَةِ؛ فَمَا أَشَدَّ تَنَاقُضَ تِلْكَ القُلُوبِ الَّتِي تَدَّعِي حُبَّ الرِّسَالَةِ ثُمَّ تَسْتَلُّ خَنَاجِرَ الغَدْرِ لِتَذْبَحَ حَامِلِي المشَاعِلِ وَتُطْفِئَ سُرُجَ النُّبُوَّةِ بِدَمِ الأَبْرِيَاءِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى مِيزَانٍ يَكْسِرُ أَصْنَامَ الهَوَى،

وَيُعْلِنُ أَنَّ الحَقَّ نَهْرٌ وَاحِدٌ تَتَّصِلُ جَدَاوِلُهُ وَلَا تَتَنَافَرُ؛ فَكُلُّ إِيمَانٍ يُفَرِّقُ بَيْنَ أَنْوَارِ السَّمَاءِ هُوَ قِنَاعٌ زَائِفٌ يَسْقُطُ عِنْدَ أَوَّلِ امْتِحَانٍ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِلْحَقِّ المطْلَقِ الَّذِي يَشْهَدُ بِهِ اللهُ وَيُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

رَمَادُ العِجْلِ وَبَرْقُ البَيِّنَاتِ

صَدَى ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: 92]

أَقِفُ مَذْهُولاً أَمَامَ سُقُوطِ الإِنْسَانِ مِنْ قِمَّةِ المعْجِزَةِ إِلَى قَاعِ الوَثَنِيَّةِ، حِينَ تَتَلَاشَى رُعُودُ السَّمَاءِ فِي ذَاكِرَةٍ خَرِبَةٍ لِتَحُلَّ مَحَلَّهَا خُوَارَاتُ الذَّهَبِ المصْهُورِ فِي نَارِ الشَّهْوَةِ؛ وَأَتَحَسَّسُ فِي دَاخِلِي تِلْكَ الهَشَاشَةَ البَشَرِيَّةَ الَّتِي تَمَلُّ مِنْ صُعُودِ الجِبَالِ نَحْوَ المعْنَى، فَتَهْبِطُ مُسْرِعَةً لِتَنْحَتَ لِنَفْسِهَا إِلَهاً صَامِتاً مِنْ طِينِ الأَرْضِ وَبَرِيقِ المعْدِنِ؛ وَكَمْ أَبْهَرَتْنِي بَيِّنَاتُ الفَجْرِ فِي لَحْظَةِ صَفَاءٍ، ثُمَّ مَا لَبِثْتُ أَنْ عُدْتُ عِنْدَ أَوَّلِ غِيَابٍ لِلرَّقِيبِ أُنَقِّبُ فِي رَمَادِ العَادَاتِ عَنْ عِجْلٍ جَدِيدٍ أُعَلِّقُ عَلَيْهِ أَحْلَامِي الخَائِبَةَ؛ أَرَى السَّحَابَ يُمطِرُ اليَقِينَ عَلَى الصُّخُورِ الصَّمَّاءِ فَتَتَفَجَّرُ عُيُوناً، بَيْنَمَا تَبْقَى النُّفُوسُ الجَاحِدَةُ تَعْبُدُ التِّمْثَالَ الَّذِي صَنَعَتْهُ بِأَيْدِيهَا وَتَظُنُّهُ مَلَاذاً مِنَ الخَوْفِ؛ فَمَا أَعْجَبَ عَمَى البَصِيرَةِ حِينَ يَسْتَبْدِلُ المرْءُ جَلَالَ الرِّسَالَةِ السَّمَاوِيَّةِ بِخُوَارِ جَسَدٍ مَيِّتٍ لَا يَمْلِكُ نَفْعاً وَلَا يَدْفَعُ ضُرّاً؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى مِطْرَقَةٍ تُحَطِّمُ أَصْنَامَ الغَفْلَةِ الكَامِنَةِ فِي زَوَايَا القَلْبِ، وَتُعِيدُ تَرْتِيبَ وَلَائِي لِلْخَالِقِ وَحْدَهُ؛ فَكُلُّ مَعْبُودٍ يُنْحَتُ مِنْ مَادَّةِ الفَنَاءِ هُوَ ظُلْمٌ يَرْتَدُّ عَلَى صَاحِبِهِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِنُورِ الحَقِّ الَّذِي لَا يَغِيبُ عَنْ عُيُونِ العَارِفِينَ.

جَبَلُ المِيثَاقِ وَصَمَمُ الجَوَارِحِ

صَدَى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 93]

أَرْفَعُ بَصَرِي نَحْوَ جَبَلِ الميثَاقِ المعَلَّقِ فَوْقَ رُؤُوسِ الخَلَائِقِ كَظُلَّةٍ مِنَ الرَّهْبَةِ وَالجَلَالِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ العَهْدَ مَعَ السَّمَاءِ لَيْسَ كَلِمَاتٍ عَابِرَةً تَذْرُوهَا الرِّيَاحُ، بَلْ هُوَ ثِقَلٌ كَوْنِيٌّ يَسْتَدْعِي قَبْضَةً مِنَ العَزْمِ لَا تَرْتَخِي؛ وَأَنْظُرُ إِلَى تِلْكَ الفَجْوَةِ المخِيفَةِ فِي نَفْسِي بَيْنَ لِسَانٍ يُرَدِّدُ نَشِيدَ الطَّاعَةِ وَقَلْبٍ يَتَشَرَّبُ سُمَّ التَّمَرُّدِ كَمَا تَتَشَرَّبُ الإِسْفِنْجَةُ مَاءَ المسْتَنْقَعِ؛ وَكَمْ قُلْتُ سَمِعْنَا بِشَفَتَيْنِ خَائِفَتَيْنِ مِنْ هَوْلِ الطُّورِ، ثُمَّ سَلَكْتُ دَرْبَ العِصْيَانِ لِأَنَّ مَحَبَّةَ الزَّائِفِ كَانَتْ تَسْرِي فِي عُرُوقِي مَجْرَى الدَّمِ؛ أَتَأَمَّلُ الجِبَالَ الرَّاسِيَاتِ كَيْفَ تَخْشَعُ وَتَتَصَدَّعُ مِنْ خَشْيَةِ خَالِقِهَا، بَيْنَمَا تَقْسُو مُضْغَةُ اللَّحْمِ فِي صَدْرِ الإِنْسَانِ حَتَّى تَصِيرَ أَصْلَبَ مِنَ الصَّخْرِ وَأَشَدَّ جُمُوداً؛ فَمَا أَبْشَعَ أَنْ يَتَحَوَّلَ الإِيمَانُ المدَّعَى إِلَى سَائِقٍ يَقُودُ صَاحِبَهُ نَحْوَ الهَاوِيَةِ، وَيُزَيِّنُ لَهُ عِبَادَةَ الهَوَى تَحْتَ رَايَةِ التَّقْوَى؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي رُوحِي إِلَى نَارٍ مُطَهِّرَةٍ تَسْتَخْرِجُ حُبَّ العِجْلِ مِنْ خَلَايَا القَلْبِ، وَتَمْنَحُنِي قُوَّةَ الأَخْذِ بِالحَقِّ دُونَ تَرَدُّدٍ؛ فَكُلُّ عَهْدٍ لَا يُصَدِّقُهُ الفِعْلُ هُوَ خِيَانَةٌ لِجَلَالِ الميثَاقِ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِقَلْبٍ سَلِيمٍ تَشَرَّبَ حُبَّ اللهِ فَأَثْمَرَ طَاعَةً وَيَقِيناً.

وَهْمُ الِاحْتِكَارِ وَرُعْبُ الرَّحِيلِ

صَدَى ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 94]

أُصْغِي إِلَى التَّحَدِّي الإِلَهِيِّ وَهُوَ يُعَرِّي زَيْفَ الدَّعَاوَى الكَبِيرَةِ بِلَمْسَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الحَقِيقَةِ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَبَخَّرُ غُرُورُ المدَّعِينَ حِينَ يُوضَعُونَ عَلَى حَافَّةِ المَوْتِ الَّذِي هُوَ بَوَّابَةُ اللِّقَاءِ؛ وَأَكْتَشِفُ فِي خَبَايَا نَفْسِي أَنَّ الصِّدْقَ مَعَ السَّمَاءِ لَا يُقَاسُ بِطُولِ الأَمَانِي، بَلْ بِالشَّوْقِ الحَقِيقِيِّ إِلَى عُبُورِ جِسْرِ الفَنَاءِ نَحْوَ مَقْعَدِ الصِّدْقِ؛ وَكَمْ زَخْرَفْتُ فِي خَيَالِي قُصُورَ الآخِرَةِ وَزَعَمْتُ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِمَفَاتِيحِهَا، حَتَّى إِذَا هَبَّتْ نَسْمَةُ المنُونِ تَشَبَّثْتُ بِأَغْصَانِ الدُّنْيَا اليَابِسَةِ كَغَرِيقٍ يَخْشَى العُمْقَ؛ أَرَى الفَرَاشَةَ تَنْدَفِعُ نَحْوَ النُّورِ بِشَوْقٍ لَا يَهَابُ الِاحْتِرَاقَ، بَيْنَمَا يَرْتَعِدُ المدَّعُونَ مِنْ لِقَاءِ مَنْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَحِبَّاؤُهُ وَخَاصَّتُهُ دُونَ العَالَمِينَ؛ فَمَا أَشَدَّ كَذِبَ تِلْكَ القُلُوبِ الَّتِي تَحْتَكِرُ الجَنَّةَ بِأَلْسِنَتِهَا ثُمَّ تَفِرُّ مِنَ الطَّرِيقِ المؤَدِّي إِلَيْهَا فِرَارَ الفَرِيسَةِ مِنَ الصَّيَّادِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى مِحَكٍّ صَادِقٍ يَخْتَبِرُ نَقَاءَ يَقِينِي، وَيُعَلِّمُنِي أَنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَيْسَتْ إِرْثاً عِرْقِيّاً بَلْ ثَمَرَةُ عَمَلٍ وَإِخْلَاصٍ؛ فَكُلُّ

دَعْوَى لَا تُشْبِتُهَا شَجَاعَةُ اللِّقَاءِ هِيَ سَرَابٌ خَادِعٌ، وَلَا فَوْزَ إِلَّا لِمَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللهِ بِقَلْبٍ صَادِقٍ لَا يَخْشَى رَحِيلَ الجَسَدِ.

سَلَاسِلُ الوِزْرِ وَخَوْفُ العُبُورِ

صَدَى ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 95]

أَتَأَمَّلُ الحُكْمَ الأَبَدِيَّ الَّذِي يُغْلِقُ بَابَ الأَمَانِي الكَاذِبَةِ، فَأَرَى كَيْفَ تَتَحَوَّلُ أَعْمَالُ الإِنْسَانِ السَّيِّئَةُ إِلَى أَغْلَالٍ حَدِيدِيَّةٍ تَشُدُّ رُوحَهُ إِلَى تُرَابِ الأَرْضِ وَتَمْنَعُهَا مِنَ التَّحْلِيقِ؛ وَأَشْعُرُ بِثِقَلِ المَسْؤُولِيَّةِ حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ خَطِيئَةٍ تَقْتَرِفُهَا يَدَايَ هِيَ حَجَرٌ أَضَعُهُ بِنَفْسِي لِأَسُدَّ بِهِ نَافِذَةَ الرَّجَاءِ؛ وَكَمْ ظَنَنْتُ أَنَّ الزَّمَنَ يَمْحُو آثَارَ الظُّلْمِ كَمَا تَمْحُو الأَمْوَاجُ خُطُوطَ الرَّمْلِ، فَإِذَا بِالسِّجِلِّ المَكْتُوبِ يَقِفُ حَاجِزاً صُلْباً بَيْنَ المُذْنِبِ وَبَيْنَ تَمَنِّي المَوْتِ؛ أَرَى الطُّيُورَ الخَفِيفَةَ تَسْتَقْبِلُ مَوْسِمَ الهِجْرَةِ بِأَجْنِحَةٍ طَلِيقَةٍ، بَيْنَمَا تَبْقَى الغِرْبَانُ المُثْقَلَةُ بِالجِيَفِ عَاجِزَةً عَنْ مُغَادَرَةِ مُسْتَنْقَعِهَا الآسِنِ؛ فَمَا أَعْظَمَ عَدَالَةَ السَّمَاءِ حِينَ تَجْعَلُ الضَّمِيرَ المُثْقَلَ بِالآثَامِ سِجْناً يَرْتَعِبُ صَاحِبُهُ مِنْ لَحْظَةِ الخُرُوجِ إِلَى سَاحَةِ الحِسَابِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى يَقْظَةٍ دَائِمَةٍ تُنَقِّي مَا تُقَدِّمُهُ يَدَايَ قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى قَيْدٍ يُكَبِّلُ خُطَايَ؛ فَكُلُّ ظُلْمٍ يَصْنَعُهُ المَرْءُ هُوَ جِدَارٌ يَحْجُبُ عَنْهُ نُورَ الطُّمَأْنِينَةِ، وَلَا خَلَاصَ إِلَّا فِي عَمَلٍ صَالِحٍ يَرْضَاهُ اللهُ وَيُخَفِّفُ حِمْلَ الرُّوحِ يَوْمَ اللِّقَاءِ.

لُهَاثُ العَنَاكِبِ وَسَرَابُ الأَلْفِ عَامٍ

صَدَى ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 96]

أُبْصِرُ لُهَاثَ الغَافِلِينَ خَلْفَ خَيْطِ العُمْرِ المُتَهَالِكِ، فَأَرَى عَجَباً مِنْ أُنَاسٍ يَعْرِفُونَ البَعْثَ ثُمَّ يَتَشَبَّثُونَ بِقُشُورِ الفَنَاءِ أَشَدَّ مِنْ تَشَبُّثِ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِغَيْرِ التُّرَابِ؛ وَأَسْتَشْعِرُ فِي أَعْمَاقِي تَفَاهَةَ الكَمِّ الزَّمَنِيِّ حِينَ يَخْلُو مِنَ المَعْنَى، فَأَلْفُ سَنَةٍ فِي قَبْضَةِ الغَفْلَةِ لَيْسَتْ إِلَّا نَفَقاً طَوِيلاً مِنَ الرُّعْبِ المُؤَجَّلِ؛ وَكَمْ حَسِبْتُ أَنَّ امْتِدَادَ الأَيَّامِ هُوَ الحَيَاةُ، حَتَّى أَدْرَكْتُ أَنَّ المَرْءَ قَدْ يَعِيشُ قُرُوناً وَهُوَ جُثَّةٌ

تَتَحَرَّكُ فِي كَفَنِ المادَّةِ وَلَا تَبْلُغُ ضِفَافَ النَّجَاةِ؛ أَتَأَمَّلُ السُّلَحْفَاةَ البَطِيئَةَ تَزْحَفُ مِئَاتِ السِّنِينَ فَوْقَ الرِّمَالِ دُونَ أَنْ تَمْلِكَ أَجْنِحَةَ النَّسْرِ الَّذِي يُعَانِقُ السَّحَابَ فِي لَحَظَاتٍ؛ فَمَا أَشَدَّ بُؤْسَ تِلْكَ الرُّوحِ الَّتِي تَتَمَنَّى أَلْفَ عَامٍ مِنَ الذُّلِّ وَالقَلَقِ لِتُؤَخِّرَ مَوْعِداً مَحْتُوماً لَا يُزَحْزِحُهُ طُولُ البَقَاءِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى بَصِيرَةٍ تَزْهَدُ فِي كَثْرَةِ الأَنْفَاسِ الفَارِغَةِ، وَتَبْحَثُ عَنْ عُمْرٍ مُبَارَكٍ يَصْعَدُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ فَكُلُّ حَيَاةٍ تَخْلُو مِنْ نُورِ اليَقِينِ هِيَ مَوْتٌ مُقَنَّعٌ، وَلَا نَجَاةَ مِنْ عَذَابِ المصِيرِ إِلَّا بِزَادٍ صَالِحٍ يَرَاهُ اللهُ وَيُزَكِّيهِ.

غَيْمَةُ الوَحْيِ وَحَسَدُ الخَفَافِيشِ

صَدَى ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 97]

أَنْظُرُ إِلَى جِبْرِيلَ وَهُوَ يَهْبِطُ بِمَشْعَلِ النُّبُوَّةِ عَلَى قَلْبِ الحَبِيبِ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَحَوَّلُ الرُّوحُ الأَمِينُ إِلَى غَيْمَةٍ مُمْطِرَةٍ تَسْقِي الأَرْضَ العَطْشَى بَعْدَ طُولِ جَدْبٍ؛ وَأَلْمَسُ فِي نَفْسِي مَرَارَةَ الحَسَدِ الإِنْسَانِيّ حِينَ يَعْمَى البَصَرُ عَنْ جَمَالِ الغَيْثِ لمجَرَّدِ أَنَّ السَّحَابَ أَمْطَرَ فِي بُسْتَانِ الآخَرِينَ؛ وَكَمْ ضَاقَ صَدْرِي قَدِيماً بِفَضْلٍ سَاقَتْهُ الأَقْدَارُ إِلَى غَيْرِي، فَكُنْتُ كَمَنْ يُعَادِي الرِّيحَ لِأَنَّهَا حَمَلَتْ عَبِيرَ الوَرْدِ إِلَى نَافِذَةِ جَارِهِ؛ أَرَى الخَفَافِيشَ تَخْتَبِئُ فِي شُقُوقِ الظَّلَامِ وَتُعْلِنُ العَدَاوَةَ لِفَجْرِ الصَّبَاحِ، بَيْنَمَا تَتَفَتَّحُ الأَزْهَارُ لِتَسْتَقْبِلَ نَدَى النُّورِ بِشُكْرٍ وَابْتِهَاجٍ؛ فَمَا أَعْجَبَ جُنُونَ مَنْ يُحَارِبُ سَفِيرَ السَّمَاءِ وَيَرْفُضُ بُشْرَى الهِدَايَةِ لِأَنَّ الوَحْيَ اخْتَارَ قَلْباً طَاهِراً لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابَاتِ الهَوَى؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى نَسِيمٍ يَغْسِلُ صَدْرِي مِنْ غُبَارِ الحَسَدِ، وَيَجْعَلُ قَلْبِي أَرْضاً مُهَيَّأَةً لِقَبُولِ البُشْرَى؛ فَكُلُّ عَدَاوَةٍ لِرُسُلِ النُّورِ هِيَ انْتِحَارٌ فِي ظُلُمَاتِ الجَهْلِ، وَلَا هِدَايَةَ إِلَّا فِي الِاسْتِسْلَامِ لِوَحْيِ اللهِ الَّذِي يَجْمَعُ الحَقَّ وَلَا يُفَرِّقُهُ.

مُعَاداة السَّمَاءِ وَانْكِسَارُ السِّهَامِ

صَدَى ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 98]

أُبْصِرُ وِحْدَةَ الصَّفِّ السَّمَاوِيِّ وَهُوَ يَنْتَظِمُ كَعِقْدٍ مِنَ النُّورِ لَا يَنْفَصِمُ، فَأُدْرِكُ أَنَّ مُعَادَاةَ جُنْدِ الحَقِّ هِيَ إِعْلَانُ حَرْبٍ خَاسِرَةٍ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ نَفْسِهِ؛ وَأَشْعُرُ بِضَآلَةِ الإِنْسَانِ حِينَ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تَجْزِئَةِ الحَقِيقَةِ، فَيُصَافِحُ رَسُولاً وَيَطْعَنُ آخَرَ، أَوْ يُحِبُّ مَلَكاً وَيُبْغِضُ رَفِيقَهُ؛ وَكَمْ ظَنَنْتُ فِي غَفْلَتِي أَنَّ القَلْبَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ وَلَاءِ النُّورِ وَمُعَادَاةِ حَمَلَتِهِ، فَإِذَا بِي أَقِفُ عَارِياً أَمَامَ عَاصِفَةِ الخُذْلَانِ؛ أَرَى الأَمْوَاجَ المُتَلَاطِمَةَ تَتَكَسَّرُ عَلَى صُخُورِ الشَّاطِئِ الصَّامِدَةِ دُونَ أَنْ تُزَحْزِحَ مِنْهَا ذَرَّةً، بَيْنَمَا يَتَلَاشَى زَبَدُهَا فِي الهَوَاءِ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ؛ فَمَا أَشَدَّ خُسْرَانَ مَنْ يَرْمِي سِهَامَهُ نَحْوَ كَبِدِ السَّمَاءِ فَتَرْتَدُّ إِلَى صَدْرِهِ مُثْقَلَةً بِغَضَبِ الجَبَّارِ وَسُخْطِ المَلَائِكَةِ الأَبْرَارِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي رُوحِي إِلَى مِيثَاقِ وَلَاءٍ شَامِلٍ يُوَحِّدُ مَحَبَّتِي لِكُلِّ مَنْ أَرْسَلَتْهُمُ السَّمَاءُ بِالنُّورِ؛ فَكُلُّ خُصُومَةٍ مَعَ أَوْلِيَاءِ الحَقِّ هِيَ هَزِيمَةٌ مَحْتُومَةٌ، وَلَا عِزَّةَ إِلَّا لِمَنِ انْضَوَى تَحْتَ رَايَةِ اللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ أَجْمَعِينَ.

نُجُومُ البَيِّنَاتِ وَخُفَّاشُ الفِسْقِ

صَدَى ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة: 99]

أَتَأَمَّلُ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ وَهِيَ تَتَلَأْلَأُ فِي سَمَاءِ الوَحْيِ كَنُجُومٍ سَاطِعَةٍ تَهْدِي السَّارِينَ فِي لَيْلِ التِّيهِ، فَأَعْلَمُ أَنَّ وُضُوحَ الحَقِّ لَا يَحْتَاجُ إِلَى بُرْهَانٍ يَزِيدُهُ إِشْرَاقاً؛ وَأَلْتَفِتُ إِلَى دَاخِلِي فَأَرَى أَنَّ عَمَى العَيْنِ عَنْ رُؤْيَةِ الشَّمْسِ لَيْسَ عَيْباً فِي الضِّيَاءِ، بَلْ هُوَ مَرَضٌ فِي الحَدَقَةِ الَّتِي أَلِفَتِ العَتْمَةَ وَخَرَجَتْ عَنْ فِطْرَتِهَا؛ وَكَمْ بَحَثْتُ عَنْ أَعْذَارٍ لِتَبْرِيرِ تَرَدُّدِي أَمَامَ وُضُوحِ الدَّلِيلِ، حَتَّى كَشَفَتْ لِي البَصِيرَةُ أَنَّ الفِسْقَ هُوَ خُرُوجُ البَذْرَةِ عَنْ قِشْرَتِهَا نَحْوَ الفَسَادِ بَدَلاً مِنَ الإِنْبَاتِ؛ أَرَى القَمَرَ البَدْرَ يَسْكُبُ فِضَّتَهُ عَلَى وَجْهِ البَحْرِ فَيُبْصِرُهُ كُلُّ ذِي عَيْنَيْنِ، بَيْنَمَا يَنْكَرُهُ مَنْ دَفَنَ رَأْسَهُ فِي رِمَالِ العِنَادِ؛ فَمَا أَعْجَبَ أَمْرَ الفَاسِقِ الَّذِي يَرَى مَنَارَاتِ اليَقِينِ تَشُقُّ الظَّلَامَ ثُمَّ يَخْتَارُ السُّقُوطَ فِي حُفَرِ الشَّكِّ وَالجُحُودِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى مِرْآةٍ صَافِيَةٍ تَعْكِسُ نُورَ الوَحْيِ دُونَ تَشْوِيهٍ، وَتُعِيدُنِي إِلَى حَظِيرَةِ الطَّاعَةِ؛ فَكُلُّ جُحُودٍ أَمَامَ البَيِّنَاتِ هُوَ شَهَادَةٌ بِانْحِرَافِ الفِطْرَةِ، وَلَا نُورَ إِلَّا فِي الانْقِيَادِ لِآيَاتِ اللهِ البَيِّنَاتِ.

نَسِيجُ العَنْكَبُوتِ وَنَقْضُ العُهُودِ

صَدَى ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 100]

أُصْغِي إِلَى صَوْتِ تَمَزُّقِ العُهُودِ وَهِيَ تُنْبَذُ وَرَاءَ الظُّهُورِ كَأَوْرَاقِ الخَرِيفِ اليَابِسَةِ، فَأَرَى كَيْفَ يَنْهَارُ بِنَاءُ المجْتَمَعِ حِينَ تَفْقِدُ الكَلِمَةُ قَدَاسَتَهَا وَيَصِيرُ الوَعْدُ قِنَاعاً لِلْخَدِيعَةِ؛ وَأُفَتِّشُ فِي زَوَايَا نَفْسِي عَنْ تِلْكَ العُقَدِ الوَاهِيَةِ الَّتِي أَرْبِطُهَا فِي لَحْظَةِ الحَاجَةِ ثُمَّ أَحُلُّهَا بِأَصَابِعِ النِّسْيَانِ عِنْدَ الرَّخَاءِ؛ وَكَمْ أَبْرَمْتُ مَعَ نَفْسِي مَوَاثِيقَ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ، ثُمَّ نَبَذْتُهَا عِنْدَ أَوَّلِ رِيحٍ هَبَّتْ مِنْ صَحْرَاءِ الشَّهَوَاتِ؛ أَرَى العَنْكَبُوتَ يَنْسِجُ بَيْتَهُ بِخُيُوطٍ لَامِعَةٍ تَخْدَعُ النَّاظِرِينَ، ثُمَّ تُمَزِّقُهَا أَضْعَفُ نَسْمَةٍ لِأَنَّهَا بُنِيَتْ عَلَى الهَشَاشَةِ وَانْعِدَامِ اليَقِينِ؛ فَمَا أَشَدَّ بُؤْسَ قَوْمٍ جَعَلُوا الغَدْرَ عَادَةً مُسْتَمِرَّةً، فَكُلَّمَا أَشْعَلُوا مِصْبَاحَ العَهْدِ أَطْفَأَهُ أَكْثَرُهُمْ بِرِيَاحِ الكُفْرِ وَالخِيَانَةِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى رِبَاطٍ وَثِيقٍ يَشُدُّ لِسَانِي إِلَى قَلْبِي، وَيُعَلِّمُنِي أَنَّ الوَفَاءَ هُوَ رُوحُ الإِيمَانِ؛ فَكُلُّ عَهْدٍ لَا يَحْرُسُهُ اليَقِينُ هُوَ خَيْطٌ مَقْطُوعٌ، وَلَا ثَبَاتَ إِلَّا لِمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِ اللهِ وَلَمْ يَنْقُضِ المِيثَاقَ.

كِتَابُ السَّمَاءِ خَلْفَ الظُّهُورِ

صَدَى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 101]

أَقِفُ مَذْهُولاً أَمَامَ مَشْهَدِ الكِتَابِ المقَدَّسِ وَهُوَ يُطْرَحُ خَلْفَ الظُّهُورِ كَمَتَاعٍ ثَقِيلٍ يَعُوقُ سَيْرَ المسَافِرِ نَحْوَ مَطَامِعِهِ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَحَوَّلُ العِلْمُ إِلَى حُجَّةٍ عَلَى صَاحِبِهِ حِينَ يَتَعَامَى عَنْهُ؛ وَأَشْعُرُ بِقُشَعْرِيرَةِ الخَوْفِ حِينَ أَتَخَيَّلُ يَدِي وَهِيَ تَدْفَعُ النُّورَ إِلَى الوَرَاءِ لِتَسِيرَ فِي الظَّلَامِ وَتَتَظَاهَرَ بِالجَهْلِ هُرُوباً مِنَ التَّكْلِيفِ؛ وَكَمْ مَرَّتْ بِي آيَاتٌ تُنِيرُ طَرِيقِي وَتُصَدِّقُ مَا فِي فِطْرَتِي، فَأَدَرْتُ لَهَا ظَهْرِي كَأَنِّي لَمْ أَقْرَأْ حَرْفاً وَلَمْ أَسْمَعْ نِدَاءً؛ أَرَى السَّائِرَ فِي الصَّحْرَاءِ يَرْمِي بُوصَلَتَهُ خَلْفَ كَتِفِهِ لِأَنَّهَا تُشِيرُ إِلَى غَيْرِ الاتِّجَاهِ الَّذِي تَهْوَاهُ نَفْسُهُ، فَيَضِيعُ فِي مَتَاهَاتِ الرِّمَالِ؛ فَمَا أَبْشَعَ جَرِيمَةَ العَالِمِ الَّذِي يَدْفِنُ الحَقِيقَةَ فِي تُرَابِ النِّسْيَانِ المتَعَمَّدِ، وَيَتَلَبَّسُ بِثَوْبِ الجَاهِلِينَ لِيُبَرِّرَ جُحُودَهُ بِالرَّسُولِ المصَدِّقِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى بُوصَلَةٍ أَضَعُهَا أَمَامَ عَيْنَيَّ لَا خَلْفَ ظَهْرِي، لِتَقُودَ خُطَايَ نَحْوَ

الصَّوَابِ؛ فَكُلُّ عِلْمٍ يُلقَى وَرَاءَ الظَّهْرِ هُوَ خِيَانَةٌ لِلْأَمَانَةِ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِجَعْلِ كِتَابِ اللهِ إِمَاماً يَسْبِقُنَا إِلَى كُلِّ خَيْرٍ.

دُخَانُ الشَّيَاطِينِ وَنَقَاءُ المِلْكِ

صَدَى ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 102]

أُبْصِرُ الخَيْطَ الفَاصِلَ بَيْنَ نُورِ النُّبُوَّةِ الصَّافِي وَدُخَانِ الشَّعْوَذَةِ الأَسْوَدِ، فَأَرَى كَيْفَ يَتْرُكُ المُفْتُونُونَ مَائِدَةَ الوَحْيِ المَمْدُودَةَ لِيَلْتَقِطُوا فُتَاتَ السِّحْرِ مِنْ مَزَابِلِ الشَّيَاطِينِ؛ وَأَشْعُرُ بِأَلَمِ الصَّفْقَةِ الخَاسِرَةِ حِينَ يَبِيعُ الإِنْسَانُ نَصِيبَهُ مِنَ الخُلُودِ بِحَفْنَةٍ مِنَ الوَهْمِ الَّذِي يُمَزِّقُ أَوَاصِرَ المَوَدَّةِ وَيَزْرَعُ الشَّوْكَ بَيْنَ القُلُوبِ؛ وَكَمْ تَعَلَّقَتْ نَفْسِي قَدِيماً بِأَسْبَابٍ خَفِيَّةٍ وَحِيَلٍ مُلْتَوِيَةٍ، فَمَا زَادَتْنِي إِلَّا ضَرَراً وَعُزْلَةً عَنْ مَنَابِعِ النَّفْعِ الحَقِيقِيِّ؛ أَتَأَمَّلُ العَنْكَبُوتَ السَّامَّ يَنْفُثُ سُمَّهُ فِي الزَّوَايَا المُظْلِمَةِ لِيُفَرِّقَ الأَحِبَّةَ، بَيْنَمَا تَبْقَى مَشِيئَةُ السَّمَاءِ هِيَ السَّقْفَ الَّذِي لَا يَنْفُذُ مِنْهُ ضُرٌّ إِلَّا بِإِذْنٍ مَقْدُورٍ؛ فَمَا أَشَدَّ حَمَاقَةَ مَنْ يَشْتَرِي بِرُوحِهِ بَاطِلاً يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ، وَيَتَجَاهَلُ نِدَاءَ المَلَكَيْنِ المُحَذِّرِ مِنْ هَاوِيَةِ الكُفْرِ وَالضَّيَاعِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى دِرْعٍ مِنَ التَّوَكُّلِ يَحْمِينِي مِنْ أَوْهَامِ السَّحَرَةِ، وَيُطَهِّرُ عَقْلِي مِنْ خُرَافَاتِ الظَّلَامِ؛ فَكُلُّ سِحْرٍ يُبَاعُ بِثَمَنِ الآخِرَةِ هُوَ خُسْرَانٌ مُبِينٌ، وَلَا نَفْعَ وَلَا ضُرَّ فِي الكَوْنِ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ.

جَوْهَرَةُ التَّقْوَى وَتُرَابُ السِّحْرِ

صَدَى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 103]

أُصْغِي إِلَى هَذَا الِاسْتِدْرَاكِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَفْتَحُ نَافِذَةَ الأَمَلِ فِي جِدَارِ الخُسْرَانِ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَفَوَّقُ عَطَاءُ السَّمَاءِ عَلَى كُلِّ مَكْسَبٍ زَائِفٍ يَلْهَثُ وَرَاءَهُ البَشَرُ؛ وَأَتَذَوَّقُ فِي قَلْبِي حَلَاوَةَ التَّقْوَى حِينَ تَكُونُ جِسْراً يَعْبُرُ بِهِ المَرْءُ مِنْ ضِيقِ الأَسْبَابِ الأَرْضِيَّةِ إِلَى سَعَةِ الثَّوَابِ الأَبَدِيِّ؛ وَكَمْ أَضَعْتُ جُهْدِي فِي طَلَبِ مَنَافِعَ صَغِيرَةٍ مِنْ أَبْوَابٍ مُغْلَقَةٍ، وَلَوْ أَنِّي طَرَقْتُ بَابَ الإِيمَانِ لَفُتِحَتْ لِي خَزَائِنُ الرِّضَا دُونَ عَنَاءٍ؛ أَرَى الغَوَّاصَ الجَاهِلَ يَتْرُكُ اللُّؤْلُؤَ المَكْنُونَ فِي قَاعِ البَحْرِ لِيَجْمَعَ الحَصَى المَلَوَّنَ عَلَى الشَّاطِئِ، ظَنّاً مِنْهُ أَنَّهُ حَازَ الكَنْزَ العَظِيمَ؛ فَمَا أَعْظَمَ الفَرْقَ بَيْنَ مَثُوبَةٍ خَالِدَةٍ تُصْنَعُ فِي حَضْرَةِ الجَلَالِ، وَبَيْنَ وَهْمٍ فَانٍ يَتَبَخَّرُ عِنْدَ أَوَّلِ نَفْخَةٍ مِنْ رِيَاحِ الحَقِيقَةِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى مِيزَانٍ دَقِيقٍ يُرَجِّحُ كِفَّةَ الإِيمَانِ وَالتَّقْوَى فَوْقَ كُلِّ إِغْرَاءَاتِ المَادَّةِ؛ فَكُلُّ ثَمَنٍ يُؤْخَذُ مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ الطَّاعَةِ هُوَ بَخْسٌ وَضَيَاعٌ، وَلَا خَيْرَ يَدُومُ إِلَّا مَثُوبَةٌ خَالِصَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِمَنِ اتَّقَى وَعَلِمَ.

طَهَارَةُ اللِّسَانِ وَسُمُومُ التَّوْرِيَةِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 104]

أَتَأَمَّلُ هَذَا التَّأْدِيبَ الرَّبَّانِيَّ الرَّقِيقَ لِأَلْسِنَةِ المؤْمِنِينَ، فَأُدْرِكُ أَنَّ الكَلِمَةَ كَائِنٌ حَيٌّ قَدْ يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ سُمّاً خَفِيّاً إِذَا تَشَابَهَ مَعَ لُغَةِ المَاكِرِينَ؛ وَأُفَتِّشُ فِي مُفْرَدَاتِي اليَوْمِيَّةِ عَنْ تِلْكَ الأَلْفَاظِ الرَّمَادِيَّةِ الَّتِي يَسْتَغِلُّهَا أَهْلُ النِّفَاقِ لِلطَّعْنِ فِي مَقَامِ النُّبُوَّةِ تَحْتَ سِتَارِ البَرَاءَةِ؛ وَكَمْ أَطْلَقْتُ كَلِمَاتٍ عَابِرَةً دُونَ أَنْ أَزِنَ ظِلَالَهَا فِي أَسْمَاعِ الآخَرِينَ، فَكَانَتْ مَدْخَلاً لِسُوءِ الفَهْمِ وَتَشْوِيهِ المَقْصِدِ النَّبِيلِ؛ أَرَى البُسْتَانِيَّ الحَكِيمَ يَقْطَعُ الغُصْنَ المشْتَبَهَ فِيهِ حَتَّى لَا يَلْتَبِسَ بِالأَشْوَاكِ السَّامَّةِ الَّتِي تَزْحَفُ حَوْلَ السِّيَاجِ لِإِفْسَادِ الزُّهُورِ؛ فَمَا أَعْظَمَ عِنَايَةَ الوَحْيِ بِسَدِّ ذَرَائِعِ السُّوءِ وَتَنْقِيَةِ قَامُوسِ الإِيمَانِ مِنْ كُلِّ لَفْظٍ يَتَّخِذُهُ الجَاحِدُونَ سُلَّماً لِلِاسْتِهْزَاءِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى حَارِسٍ يَقِظٍ يَقِفُ عَلَى بَابِ شَفَتَيَّ، فَلَا يَأْذَنُ إِلَّا لِلْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ الصَّرِيحَةِ؛ فَكُلُّ لَفْظٍ يَفْتَحُ باباً لِلْمَكْرِ هُوَ مَزْلَقَةٌ يَجِبُ اجْتِنَابُهَا، وَلَا سَلَامَةَ إِلَّا فِي لِسَانٍ عَفٍّ يَسْمَعُ وَيُطِيعُ أَمْرَ اللهِ بِأَدَبٍ وَوَقَارٍ.

غَيْثُ الرَّحْمَةِ وَجَفَافُ الحَاسِدِينَ

صَدَى ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: 105]

أَنْظُرُ إِلَى سُحُبِ الرَّحْمَةِ وَهِيَ تَسُوقُ الخَيْرَ إِلَى قُلُوبِ المؤْمِنِينَ، فَأَرَى عُيُونَ الحَاسِدِينَ تَشْتَعِلُ غَيْظاً كُلَّمَا نَزَلَتْ قَطْرَةُ فَضْلٍ مِنْ خَزَائِنِ السَّمَاءِ؛ وَأَشْعُرُ بِالطُّمَأْنِينَةِ تَغْمُرُ رُوحِي حِينَ أُوقِنُ أَنَّ مَفَاتِيحَ العَطَاءِ لَيْسَتْ بِيَدِ البَشَرِ الَّذِينَ يَضِيقُونَ بِخَيْرِ غَيْرِهِمْ، بَلْ بِيَدِ الوَاهِبِ المطْلَقِ؛ وَكَمْ خِفْتُ فِي أَيَّامِ ضَعْفِي مِنْ كَيْدِ الكَارِهِينَ الَّذِينَ يَتَمَنَّوْنَ زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنِّي، ثُمَّ أَدْرَكْتُ أَنَّ أَمَانِيَّهُمُ السَّوْدَاءَ لَا تَرُدُّ قَضَاءً وَلَا تَحْبِسُ غَيْثاً؛ أَرَى الصَّحْرَاءَ القَاحِلَةَ تَغْتَاظُ مِنْ هُطُولِ المطَرِ عَلَى الوَاحَةِ الخَضْرَاءِ، وَلَكِنَّ السَّحَابَ لَا يَسْتَأْذِنُ الرِّمَالَ العَطْشَى حِينَ يَسْكُبُ الحَيَاةَ حَيْثُ يَشَاءُ؛ فَمَا أَعْظَمَ فَضْلَ السَّمَاءِ الَّذِي يَتَجَاوَزُ حُدُودَ الأَحْقَادِ البَشَرِيَّةِ، وَيَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنِ اصْطَفَاهُمْ لِحَمْلِ أَمَانَةِ النُّورِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى يَقِينٍ رَاسِخٍ يُحَرِّرُنِي مِنَ الخَوْفِ مِنْ حَسَدِ الخَلْقِ، وَيَرْبِطُ رَجَائِي بِمَنْبَعِ الجُودِ الأَوَّلِ؛ فَكُلُّ كَرَاهِيَةٍ لِنُزُولِ الخَيْرِ هِيَ عَجْزٌ يَأْكُلُ صَاحِبَهُ، وَلَا عَطَاءَ يُضَاهِي رَحْمَةَ اللهِ ذِي الفَضْلِ العَظِيمِ.

تَجَدُّدُ الفُصُولِ وَحِكْمَةُ النَّسْخِ

صَدَى ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106]

أَتَأَمَّلُ حَرَكَةَ التَّشْرِيعِ الإِلَهِيِّ وَهِيَ تَرْعَى تَدَرُّجَ النُّفُوسِ البَشَرِيَّةِ كَمَا تَرْعَى الشَّمْسُ نُضْجَ الثِّمَارِ عَلَى الأَغْصَانِ، فَأَرَى أَنَّ التَّبْدِيلَ فِي مَنْهَجِ السَّمَاءِ لَيْسَ نَقْصاً بَلْ كَمَالٌ فِي التَّرْبِيَةِ؛ وَأَسْتَشْعِرُ فِي دَاخِلِي رَحْمَةَ التَّدْرِيجِ الَّتِي تَأْخُذُ بِيَدِي خُطْوَةً خُطْوَةً، فَتَرْفَعُ عَنِّي حُكْماً لِتَضَعَ مَكَانَهُ مَا هُوَ أَنْفَعُ لِرُوحِي وَأَصْلَحُ لِزَمَانِي؛ وَكَمْ حَزِنْتُ عَلَى أَشْيَاءَ طُوِيَتْ صَفْحَتُهَا مِنْ حَيَاتِي، ثُمَّ كَشَفَتْ لِي الأَيَّامُ أَنَّ الطَّيَّ كَانَ مِفْتَاحاً لِنَشْرِ مَا هُوَ أَجْمَلُ وَأَبْقَى؛ أَرَى الشَّجَرَةَ تُسْقِطُ أَوْرَاقَهَا القَدِيمَةَ فِي الخَرِيفِ بِأَمْرِ خَالِقِهَا، لِتَسْتَقْبِلَ فِي الرَّبِيعِ حُلَّةً خَضْرَاءَ أَكْثَرَ نَضَارَةً وَعَطَاءً؛ فَمَا أَعْظَمَ قُدْرَةَ المدَبِّرِ الحَكِيمِ الَّذِي يَمْلِكُ خَزَائِنَ الكَلِمَاتِ، فَلَا يَمْحُو آيَةً إِلَّا لِيُشْرِقَ بَدَلَهَا نُورٌ أَتَمُّ أَوْ مِثْلُهُ فِي الهِدَايَةِ؛ هَكَذَا

تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى ثِقَةٍ مُطْلَقَةٍ فِي حِكْمَةِ التَّغْيِيرِ، فَلَا أَخْشَى فَقْدَ شَيْءٍ أَرَادَتِ السَّمَاءُ نَسْخَهُ؛ فَكُلُّ تَبْدِيلٍ يَجْرِي بِأَمْرِ الخَالِقِ هُوَ بَابٌ لِخَيْرٍ جَدِيدٍ، وَلَا عَجْزَ يَعْتَرِي قُدْرَةَ اللهِ الَّذِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

قَبْضَةُ السَّمَاوَاتِ وَوَحْشَةُ الغُرْبَةِ

صَدَى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 107]

أَرْفَعُ طَرْفِي إِلَى قُبَّةِ السَّمَاءِ المُتَرَامِيَةِ وَأَمُدُّ نَظَرِي إِلَى أَطْرَافِ الأَرْضِ المَمْدُودَةِ، فَأَرَى الكَوْنَ كُلَّهُ دَاراً وَاحِدَةً تَقْبِضُ عَلَى مَفَاتِيحِهَا يَدُ المَالِكِ الوَاحِدِ؛ وَأَشْعُرُ بِعُرْيِ الإِنْسَانِ وَوَحْشَتِهِ حِينَ يَبْحَثُ عَنْ سَنَدٍ خَارِجَ هَذَا المُلْكِ العَظِيمِ، فَيَجِدُ نَفْسَهُ مُعَلَّقاً فِي الفَرَاغِ بِلَا حَامٍ وَلَا مُعِينٍ؛ وَكَمْ اتَّكَأْتُ فِي رِحْلَتِي عَلَى جُدْرَانٍ بَشَرِيَّةٍ ظَنَنْتُهَا قِلَاعاً حَصِينَةً، فَمَا إِنْ هَبَّتْ عَاصِفَةُ البَلَاءِ حَتَّى تَهَاوَتْ تَحْتَ يَدَيَّ كَالغُبَارِ؛ أَرَى القَطْرَةَ التَّائِهَةَ فِي عُرْضِ المُحِيطِ تَظُنُّ أَنَّ لَهَا كِيَاناً مُسْتَقِلّاً عَنِ البَحْرِ، بَيْنَمَا هِيَ فِي كُلِّ ذَرَّاتِهَا مَحْمُولَةٌ بِقُوَّتِهِ وَمَمْلُوكَةٌ لِجَلَالِهِ؛ فَمَا أَشَدَّ غَفْلَةَ مَنْ يَطْلُبُ النُّصْرَةَ مِنْ عَبِيدٍ مَمْلُوكِينَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً، وَيَنْسَى سُلْطَانَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى مَلَاذٍ آمِنٍ يُسْقِطُ كُلَّ الوَلَاءَاتِ الزَّائِفَةِ، وَيُفْرِدُ المَالِكَ الحَقَّ بِالِاسْتِعَانَةِ وَاللُّجُوءِ؛ فَكُلُّ وَلِيٍّ يُتَّخَذُ مِنْ دُونِ الخَالِقِ هُوَ سَرَابٌ خَاوٍ، وَلَا نَصِيرَ فِي الوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا اللهُ مَالِكُ المُلْكِ.

لَجَاجَةُ السُّؤَالِ وَضَلَالُ السَّبِيلِ

صَدَى ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 108]

أُصْغِي إِلَى التَّحْذِيرِ النَّبَوِيِّ مِنْ دَاءِ التَّعَنُّتِ وَكَثْرَةِ الجِدَالِ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَحَوَّلُ السُّؤَالُ مِنْ مِفْتَاحٍ لِلْفَهْمِ إِلَى فَأْسٍ تَحْفِرُ خَنَادِقَ الشَّكِّ وَالتَّكْلِيفِ الشَّاقِّ؛ وَأُدْرِكُ فِي أَعْمَاقِي أَنَّ اللَّجَاجَةَ أَمَامَ وُضُوحِ الحَقِّ هِيَ أَوَّلُ خُطْوَةٍ فِي صَفْقَةِ الخُسْرَانِ الَّتِي تَسْتَبْدِلُ ظُلْمَةَ الكُفْرِ بِنُورِ الإِيمَانِ؛ وَكَمْ أَرْهَقْتُ عَقْلِي بِأَسْئِلَةٍ مَلِيئَةٍ بِالتَّرَدُّدِ وَالتَّسْوِيفِ، فَكُنْتُ كَمَنْ يُغْلِقُ عَيْنَيْهِ فِي وَضَحِ النَّهَارِ وَيَطْلُبُ

دَلِيلاً عَلَى وُجُودِ الشَّمْسِ؛ أَرَى المسَافِرَ المتَكَبِّرَ يَتْرُكُ الطَّرِيقَ المعَبَّدَ الوَاضِحَ لِيَسْلُكَ شِعَابَ الجِبَالِ الوَعْرَةِ بِحُجَّةِ البَحْثِ عَنْ مَسَارٍ جَدِيدٍ، فَيَتِيهُ فِي المهَالِكِ؛ فَمَا أَبْشَعَ تِلْكَ الصَّفْقَةَ الَّتِي يَبِيعُ فِيهَا المرْءُ جَوْهَرَةَ اليَقِينِ المضِيئَةَ بِحَفْنَةٍ مِنْ تُرَابِ الجُحُودِ وَالتَّعَنُّتِ العَقِيمِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى سَكِينَةٍ تَكُفُّ لِسَانِي عَنِ الجِدَالِ المذْمُومِ، وَتُثَبِّتُ قَدَمَيَّ عَلَى الجَادَّةِ الوَسَطِ؛ فَكُلُّ اسْتِبْدَالٍ لِلنُّورِ بِالظُّلْمَةِ هُوَ ضَلَالٌ عَنِ القَصْدِ، وَلَا اسْتِقَامَةَ إِلَّا فِي التَّسْلِيمِ لِأَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ دُونَ تَعَنُّتٍ.

سِهَامُ الحَسَدِ وَدِرْعُ الصَّفْحِ

صَدَى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 109]

أُبْصِرُ نَارَ الحَسَدِ وَهِيَ تَشْتَعِلُ فِي صُدُورِ العَارِفِينَ بِالحَقِّ بَعْدَ أَنْ بَهَرَهُمْ ضِيَاءُ الإِيمَانِ فِي وُجُوهِ المؤْمِنِينَ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَمَنَّى الجَاحِدُ سُقُوطَ غَيْرِهِ فِي الظَّلَامِ لِكَيْ لَا يَبْقَى وَحِيداً فِي العَتْمَةِ؛ وَأَتَأَمَّلُ عَظَمَةَ التَّوْجِيهِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يُقَابِلُ سِهَامَ الحِقْدِ بِدِرْعِ العَفْوِ وَالصَّفْحِ، لِيَحْتَفِظَ القَلْبُ بِنَقَائِهِ وَلَا يَتَلَوَّثَ بِوَحْلِ الخُصُومَةِ؛ وَكَمْ غَلَتْ فِي صَدْرِي مَرَاجِلُ الغَضَبِ حِينَ رَأَيْتُ مَنْ يُحَاوِلُ سَرِقَةَ يَقِينِي وَتَشْكِيكِي فِي طَرِيقِي، حَتَّى شَفَانِي بَلْسَمُ التَّجَاوُزِ وَالتَّسْلِيمِ لِتَدْبِيرِ السَّمَاءِ؛ أَرَى الجَبَلَ الشَّامِخَ تَهُبُّ عَلَيْهِ الرِّيَاحُ العَاتِيَةُ مُحَاوِلَةً تَفْتِيتَهُ، فَيَقِفُ صَامِتاً وَقُوراً حَتَّى تَنْكَسِرَ العَاصِفَةُ وَيَأْتِيَ أَمْرُ السَّمَاءِ بِالهُدُوءِ؛ فَمَا أَرْفَعَ مَقَامَ النَّفْسِ الَّتِي تَعْفُو عَنْ كَيْدِ الحَاسِدِينَ، وَتَنْتَظِرُ وَعْدَ القَدِيرِ بِثَبَاتٍ لَا تُزَعْزِعُهُ فِتَنُ المتَرَبِّصِينَ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى حِصْنٍ مِنَ الحِلْمِ يَحْمِي إِيمَانِي مِنَ الِارْتِدَادِ، وَيَمْلَأُ رُوحِي بِالثِّقَةِ فِي نَصْرِ السَّمَاءِ القَرِيبِ؛ فَكُلُّ حَسَدٍ يُرِيدُ إِطْفَاءَ النُّورِ هُوَ دُخَانٌ يَتَبَدَّدُ، وَلَا عَاقِبَةَ إِلَّا لِأَمْرِ اللهِ الَّذِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

مِعْرَاجُ الصَّلَاةِ وَبَذْرُ الزَّكَاةِ

**صَدَى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 110

**[

أَشْهَدُ تَعَانُقَ العِبَادَةِ بَيْنَ مِعْرَاجِ الصَّلَاةِ الَّتِي تَرْفَعُ الرُّوحَ إِلَى السَّمَاءِ وَبَذْرِ الزَّكَاةِ الَّذِي يُطَهِّرُ الأَرْضَ مِنَ الشُّحِّ وَالبُؤْسِ، فَأَرَى كَيْفَ يَكْتَمِلُ بِنَاءُ الإِنْسَانِ حِينَ يَتَّصِلُ بِخَالِقِهِ وَيَمُدُّ يَدَهُ بِالخَيْرِ لِخَلْقِهِ؛ وَأَسْتَشْعِرُ فِي أَعْمَاقِي طُمَأْنِينَةَ الإِيدَاعِ الأَبَدِيِّ حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ خَيْرٍ أُقَدِّمُهُ اليَوْمَ لَيْسَ ضَائِعاً فِي رِمَالِ الفَنَاءِ، بَلْ هُوَ كَنْزٌ مَحْفُوظٌ لِنَفْسِي فِي خَزَائِنِ الخُلُودِ؛ وَكَمْ بَخِلْتُ عَلَى رُوحِي بِوَقْتِ الصَّلَاةِ وَبِفَضْلِ المَالِ ظَنّاً مِنِّي أَنَّ الإِمْسَاكَ هُوَ البَقَاءُ، فَإِذَا بِالبَرَكَةِ تَتَسَرَّبُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِي كَالمَاءِ؛ أَرَى الفَلَّاحَ الحَكِيمَ يَنْثُرُ حَبَّاتِ القَمْحِ فِي بَطْنِ الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ وَلَا يَحْسَبُهَا خَسَارَةً، لِأَنَّهُ يُوقِنُ أَنَّهَا سَتَعُودُ إِلَيْهِ سَنَابِلَ مُثْقَلَةً بِالعَطَاءِ فِي مَوْسِمِ الحَصَادِ؛ فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ الرَّقِيبِ البَصِيرِ الَّذِي لَا يُضِيعُ ذَرَّةَ إِحْسَانٍ، بَلْ يَحْفَظُهَا لِصَاحِبِهَا حَتَّى يَجِدَهَا نُوراً يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ يَوْمَ الفَقْرِ الأَكْبَرِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى نَبْضٍ دَائِمٍ بِالعَطَاءِ وَالقُنُوتِ، يُعِيدُ تَرْتِيبَ أَوْلَوِيَّاتِي نَحْوَ البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ؛ فَكُلُّ مَا يُمْسِكُهُ الإِنْسَانُ لِدُنْيَاهُ فَهُوَ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِلْخَيْرِ الَّذِي يُقَدِّمُهُ المَرْءُ لِنَفْسِهِ فَيَجِدُهُ مَحْفُوظاً عِنْدَ اللهِ البَصِيرِ.

أَسْوَارُ الأَمَانِي وَبُرْهَانُ الحَقِيقَةِ

صَدَى ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111]

أُصْغِي إِلَى أَصْوَاتِ المُتَوَهِّمِينَ وَهُمْ يَبْنُونَ حَوْلَ الجَنَّةِ أَسْوَاراً مِنَ الأَسْمَاءِ وَالأَلْقَابِ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَحَوَّلُ الخُلُودُ فِي خَيَالِ الغَافِلِينَ إِلَى حَدِيقَةٍ خَاصَّةٍ يَمْلِكُونَ مَفَاتِيحَهَا بِالْوِرَاثَةِ لَا بِالبُرْهَانِ؛ وَأَشْعُرُ بِضَآلَةِ الأَمَانِي البَشَرِيَّةِ حِينَ تَصْطَدِمُ بِصَخْرَةِ الحَقِيقَةِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي لَا تَعْتَرِفُ بِالشِّعَارَاتِ الجَوْفَاءِ؛ وَكَمْ نَسَجْتُ فِي خَيَالِي قُصُوراً مِنَ الوَهْمِ وَظَنَنْتُ أَنَّ الانتِسَابَ الظَّاهِرَ يَكْفِي لِفَتْحِ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، حَتَّى أَيْقَظَنِي نِدَاءُ البُرْهَانِ مِنْ غَفْلَةِ التَّمَنِّي؛ أَتَأَمَّلُ السَّرَابَ فِي قِيعَانِ الصَّحْرَاءِ كَيْفَ يَخْدَعُ الظَّمْآنَ بِبَرِيقِ المَاءِ، فَإِذَا اقْتَرَبَ مِنْهُ بِمِيزَانِ اليَقِينِ لَمْ يَجِدْ إِلَّا الرَّمْلَ الحَارِقَ؛ فَمَا أَشَدَّ إِفْلَاسَ تِلْكَ القُلُوبِ الَّتِي تَحْتَكِرُ رَحْمَةَ الخَالِقِ بِأَحْلَامِ اليَقَظَةِ، ثُمَّ تَعْجِزُ عَنْ تَقْدِيمِ حُجَّةٍ وَاحِدَةٍ تُثْبِتُ صِدْقَ دَعْوَاهَا أَمَامَ نُورِ الوَحْيِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى مِيزَانٍ يَزِنُ الدَّعَاوَى بِالحُجَّةِ الصَّادِقَةِ،

وَيُبَدِّدُ ضَبَابَ الأَوْهَامِ عَنْ بَصِيرَتِي؛ فَكُلُّ أُمْنِيَّةٍ لَا يَسْنُدُهَا دَلِيلٌ مِنَ الوَحْيِ هِيَ غُبَارٌ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ، وَلَا دُخُولَ إِلَى دَارِ الكَرَامَةِ إِلَّا بِبُرْهَانِ الصِّدْقِ الَّذِي يَرْضَاهُ اللهُ.

إِسْلَامُ الوَجْهِ وَمِيزَانُ الإِحْسَانِ

صَدَى ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 112]

أُبْصِرُ بَابَ النَّجَاةِ الحَقِيقِيَّ وَهُوَ يُفْتَحُ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ أَمَامَ كُلِّ قَلْبٍ صَادِقٍ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَحَرَّرُ الإِنْسَانُ مِنْ قُيُودِ العِرْقِ وَالِادِّعَاءِ لِيَقِفَ عَارِياً إِلَّا مِنْ ثَوْبِ الإِخْلَاصِ وَالإِحْسَانِ؛ وَأَشْعُرُ بِسَكِينَةٍ تَغْمُرُ جَوَانِحِي حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ إِسْلَامَ الوَجْهِ لِلْخَالِقِ هُوَ تَحْرِيرُ الرُّوحِ مِنْ عُبُودِيَّةِ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَتَوْجِيهُ بُوصَلَةِ القَلْبِ نَحْوَ القِبْلَةِ الوَاحِدَةِ؛ وَكَمْ تَشَتَّتَ وَجْهِي بَيْنَ مَرَايَا الدُّنْيَا المَكْسُورَةِ أَبْحَثُ فِيهَا عَنِ الأَمَانِ، فَمَا وَجَدْتُ الطُّمَأْنِينَةَ إِلَّا حِينَ أَسْلَمْتُ قِيَادِي لِمَنْ بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ؛ أَرَى زَهْرَةَ عَبَّادِ الشَّمْسِ كَيْفَ تُدِيرُ وَجْهَهَا بِانْقِيَادٍ تَامٍّ نَحْوَ الضِّيَاءِ أَيْنَمَا اتَّجَهَ، فَتَمْتَلِئُ بِالحَيَاةِ وَلَا تَخْشَى ذُبُولَ العَتْمَةِ؛ فَمَا أَعْظَمَ الوَعْدَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَمْسَحُ عَنْ جَبِينِ المحْسِنِينَ غُبَارَ الخَوْفِ مِنَ المسْتَقْبَلِ، وَيُزِيلُ عَنْ صُدُورِهِمْ حُزْنَ الماضِي بِأَجْرٍ مَحْفُوظٍ فِي خَزَائِنِ الرَّبِّ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى مِيثَاقِ تَسْلِيمٍ وَإِتْقَانٍ، يَجْعَلُ عَمَلِي خَالِصاً وَرُوحِي مُطْمَئِنَّةً؛ فَكُلُّ وِجْهَةٍ لِغَيْرِ الخَالِقِ هِيَ تِيهٌ وَاضْطِرَابٌ، وَلَا أَمَانَ مِنَ الخَوْفِ وَالحُزْنِ إِلَّا لِمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ.

جِدَالُ الأَعْمَيَيْنِ وَفَصْلُ القَضَاءِ

صَدَى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: 113]

أَتَأَمَّلُ مَشْهَدَ التَّنَاحُرِ العَقِيمِ بَيْنَ أَهْلِ الكِتَابِ وَهُمْ يَتَبَادَلُونَ سِهَامَ الإِلْغَاءِ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَسَاوَى حَامِلُ الكِتَابِ المتَعَصِّبُ مَعَ الأُمِّيِّ الجَاهِلِ حِينَ يَتَحَوَّلُ العِلْمُ إِلَى أَدَاةٍ لِلْإِقْصَاءِ لَا لِلْهِدَايَةِ؛ وَأَلْتَفِتُ إِلَى دَاخِلِي فَأَرَى خَطَرَ الغُرُورِ المعْرِفِيِّ الَّذِي يَجْعَلُ المرْءَ يَقْرَأُ آيَاتِ النُّورِ بِلِسَانِهِ بَيْنَمَا يُغْلِقُ

قَلْبَهُ عَنْ فَهْمِ رُوحِهَا الجَامِعَةِ؛ وَكَمْ خُضْتُ فِي مَعَارِكَ الجِدَالِ الكَلَامِيِّ أَظُنُّ أَنِّي أَنْتَصِرُ لِلْحَقِّ، فَإِذَا بِي أُشْبِهُ خُصُومِي فِي الضَّجِيجِ وَالخُلُوِّ مِنَ البَصِيرَةِ؛ أَرَى أَعْمَيَيْنِ يَتَصَارَعَانِ فِي لَيْلٍ بَهِيمٍ وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَزْعُمُ أَنَّ الآخَرَ لَا يُبْصِرُ الطَّرِيقَ، بَيْنَمَا يَحْمِلُ كِلَاهُمَا مِصْبَاحاً مُطْفَأً فِي يَدِهِ؛ فَمَا أَعْجَبَ هَذَا التَّشَابُهَ المؤْلِمَ بَيْنَ مَنْ يَتْلُونَ السُّطُورَ المقَدَّسَةَ وَبَيْنَ مَنْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً، حِينَ يَجْتَمِعُونَ عَلَى لُغَةِ الجُحُودِ وَالتَّنَافِي؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى صَمْتٍ وَقُورٍ يَتَرَفَّعُ عَنْ مُهَاتَرَاتِ الهَوَى، وَيُفَوِّضُ الأَمْرَ كُلَّهُ إِلَى حَكَمِ السَّمَاءِ العَدْلِ؛ فَكُلُّ خُصُومَةٍ تُبْنَى عَلَى التَّعَصُّبِ الأَعْمَى هِيَ جَهْلٌ مُقَنَّعٌ، وَلَا فَصْلَ قَاطِعاً فِي خِلَافَاتِ الخَلْقِ إِلَّا يَوْمَ يَحْكُمُ اللهُ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ.

ظُلْمَةُ المحَارِيبِ وَخِزْيُ المخَرِّبِينَ

صَدَى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 114]

أَقِفُ أَمَامَ أَبْوَابِ المسَاجِدِ الموصَدَةِ بِسَلَاسِلِ الطُّغْيَانِ، فَأَرَى أَبْشَعَ صُوَرِ الظُّلْمِ حِينَ تَمْتَدُّ يَدُ الإِنْسَانِ لِتَقْطَعَ الصِّلَةَ بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَتُخْرِسَ تَسْبِيحَ السَّاجِدِينَ فِي بُيُوتِ الخَالِقِ؛ وَأَتَحَسَّسُ فِي دَاخِلِي قَدَاسَةَ المِحْرَابِ القَلْبِيِّ الَّذِي قَدْ يُخَرِّبُهُ المرْءُ بِيَدِهِ حِينَ يَمْنَعُ فِيهِ ذِكْرَ رَبِّهِ وَيَمْلَؤُهُ بِأَصْنَامِ الغَفْلَةِ وَالضَّجِيجِ؛ وَكَمْ أَغْلَقْتُ نَوَافِذَ رُوحِي أَمَامَ نَسَمَاتِ الذِّكْرِ انْشِغَالاً بِحُطَامٍ زَائِلٍ، فَشَعَرْتُ بِوَحْشَةِ الخَرَابِ تَزْحَفُ إِلَى زَوَايَا صَدْرِي؛ أَرَى الخُفَّاشَ يَسْعَى لِإِطْفَاءِ قَنَادِيلِ المعْبَدِ لِأَنَّهُ يَكْرَهُ النُّورَ، فَيُصْبِحُ المكَانُ مُوحِشاً يَرْتَعِدُ فِيهِ المخَرِّبُ نَفْسُهُ مِنْ صَدَى خُطُوَاتِهِ الخَائِفَةِ؛ فَمَا أَشَدَّ هَوَانَ الطُّغَاةِ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي خَرَابِ بُيُوتِ العِبَادَةِ، فَيُطَارِدُهُمُ الرُّعْبُ فِي الدُّنْيَا حَتَّى لَا يَدْخُلُوهَا إِلَّا وَقُلُوبُهُمْ تَرْجُفُ مِنَ الخِزْيِ وَالذُّلِّ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى عِمَارَةٍ دَائِمَةٍ لِقَلْبِي بِالذِّكْرِ وَالسُّجُودِ، وَحِمَايَةٍ لِبُيُوتِ النُّورِ مِنْ كُلِّ عَبَثٍ؛ فَكُلُّ سَعْيٍ فِي إِطْفَاءِ ذِكْرِ السَّمَاءِ هُوَ خِزْيٌ مُعَجَّلٌ وَعَذَابٌ مُؤَجَّلٌ، وَلَا عِزَّةَ إِلَّا لِمَنْ عَمَّرَ مَسَاجِدَ اللهِ بِالطَّاعَةِ وَالأَمَانِ.

شُمُوسُ المشْرِقِ وَوَسَاعَةُ الوَجْهِ

صَدَى ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 115]

أَمُدُّ بَصَرِي بَيْنَ مَطْلَعِ الشَّمْسِ وَمَغِيبِهَا، فَأَرَى الأُفُقَ الكَوْنِيَّ كُلَّهُ مِحْراباً وَاحِداً لَا تَحُدُّهُ جُدْرَانُ المِكَانِ وَلَا تَحْبِسُهُ حُدُودُ الجِهَاتِ؛ وَأَشْعُرُ بِانْفِسَاحِ رُوحِي وَتَحَرُّرِهَا مِنَ الضِّيقِ حِينَ أُدْرِكُ أَنَّنِي أَيْنَمَا اتَّجَهْتُ فِي أَرْضِ السَّمَاءِ الوَاسِعَةِ فَأَنَا فِي حَضْرَةِ الخَالِقِ المحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ وَكَمْ ظَنَنْتُ فِي غُرْبَتِي وَسَفَرِي أَنَّ البُعْدَ عَنِ الدِّيَارِ يَحْجُبُنِي عَنْ مَظَانِّ القُرْبِ، فَإِذَا بِنُورِ الإِحَاطَةِ يَعْمُرُنِي فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ أُوَلِّي وَجْهِي شَطْرَهَا؛ أَتَأَمَّلُ السَّمَاءَ الزَّرْقَاءَ كَيْفَ تُظِلُّ البِحَارَ وَالقِفَارَ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، فَأَيْنَمَا رَفَعَ المسَافِرُ عَيْنَيْهِ وَجَدَ القُبَّةَ الكُبْرَى تَسْتَقْبِلُ نَظَرَاتِهِ بِالسَّعَةِ وَالِاحْتِوَاءِ؛ فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ الوَاسِعِ العَلِيمِ الَّذِي جَعَلَ الأَرْضَ كُلَّهَا مَسْجِداً وَطَهُوراً، فَلَا يَضِيعُ مُنَاجٍ فِي فَلَاةٍ وَلَا يُحْرَمُ سَاجِدٌ فِي أَسْرٍ مِنْ نُورِ الوِصَالِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى أُفُقٍ رَحْبٍ يَمْحُو وَحْشَةَ المَنْفَى، وَيَجْعَلُ الكَوْنَ كُلَّهُ بَيْتاً لِلمُنَاجَاةِ؛ فَكُلُّ جِهَةٍ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا القَلْبُ الصَّادِقُ هِيَ بَابٌ لِلْقُرْبِ، وَلَا ضِيقَ فِي وُجُودٍ يَمْلِكُ مَشْرِقَهُ وَمَغْرِبَهُ اللهُ الوَاسِعُ العَلِيمُ.

تَسْبِيحُ الأَفْلَاكِ وَتَنَزُّهُ الصَّمَدِ

صَدَى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: 116]

أُصْغِي إِلَى هَمْسِ المجَرَّاتِ وَهِيَ تَسْبَحُ فِي مَدَارَاتِهَا بِخُشُوعٍ أَبَدِيٍّ، فَأَرَى جَلَالَ التَّنْزِيهِ وَهُوَ يَهْدِمُ أَوْهَامَ البَشَرِ الَّذِينَ قَاسُوا الخَالِقَ الصَّمَدَ بِمَقَايِيسِ الحَاجَةِ وَالفَنَاءِ؛ وَأَشْعُرُ بِرَعْشَةِ الإِجْلَالِ فِي قَلْبِي حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ الوَلَدَ ثَمَرَةُ الافْتِقَارِ وَالِامْتِدَادِ لِلْفَانِينَ، أَمَّا الغَنِيُّ المطْلَقُ فَكُلُّ مَا فِي الكَوْنِ مَمْلُوكٌ لَهُ وَخَاضِعٌ لِجَبَرُوتِهِ؛ وَكَمْ زَلَّتِ العُقُولُ القَاصِرَةُ حِينَ حَاوَلَتْ أَنْ تَرْسُمَ لِلْأُلُوهِيَّةِ صُورَةً تُشْبِهُ بُيُوتَ الطِّينِ، فَتَاهَتْ فِي ظُلُمَاتِ التَّشْبِيهِ وَنَسِيَتْ أَنَّ الكُلَّ عَبِيدٌ قَانِتُونَ؛ أَرَى الشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ وَالبِحَارَ تَنْتَظِمُ كَجُنُودٍ مُطِيعِينَ فِي مَمْلَكَةِ المِلكِ الوَاحِدِ، لَا تَمْلِكُ ذَرَّةٌ مِنْهَا نَسَباً يَرْفَعُهَا عَنْ مَقَامِ العُبُودِيَّةِ وَالفُنُوتِ؛ فَمَا أَعْظَمَ كَلِمَةَ التَّسْبِيحِ الَّتِي تُنَزِّهُ السَّمَاءَ عَنْ فِرْيَةِ المفْتَرِينَ، وَتُعِيدُ كُلَّ مَخْلُوقٍ إِلَى حَجْمِهِ الحَقِيقِيِّ فِي مِحْرَابِ الخُضُوعِ الكَوْنِيِّ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي رُوحِي إِلَى تَسْبِيحَةٍ نَقِيَّةٍ تُطَهِّرُ عَقِيدَتِي مِنْ كُلِّ شَائِبَةِ تَجْسِيمٍ، وَتُدْخِلُنِي فِي مَوْكِبِ الكَائِنَاتِ القَانِتَةِ؛ فَكُلُّ ادِّعَاءٍ لِلنَّسَبِ

مَعَ الخَالِقِ هُوَ بُهْتَانٌ عَظِيمٌ، وَلَا مُلْكَ وَلَا سُلْطَانَ فِي الكَوْنِ إِلَّا لِلَّهِ الَّذِي كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَهُ قَانِتُونَ.

إِبْدَاعُ العَدَمِ وَكَلِمَةُ التَّكْوِينِ

صَدَى ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117]

أَقِفُ مَبْهُوراً أَمَامَ عَظَمَةِ الإِبْدَاعِ الأَوَّلِ الَّذِي أَخْرَجَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْ ظُلْمَةِ العَدَمِ دُونَ مِثَالٍ سَابِقٍ وَلَا أَدَوَاتٍ تَتَعَبُ، فَأَرَى الكَوْنَ كُلَّهُ نَغْمَةً وُلِدَتْ مِنْ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ؛ وَأَتَأَمَّلُ عَجْزِي البَشَرِيَّ حِينَ أُعَانِي لِصُنْعِ شَيْءٍ صَغِيرٍ مِنْ مَوَادَّ مَوْجُودَةٍ، بَيْنَمَا تَتَدَفَّقُ المجَرَّاتُ وَالأَرْوَاحُ بِإِشَارَةِ الأَمْرِ المطْلَقِ كُنْ فَيَكُونُ؛ وَكَمْ ظَنَنْتُ أَنَّ أَمَانِيَّ الصَّعْبَةَ وَجِرَاحِي العَمِيقَةَ تَحْتَاجُ إِلَى دُهُورٍ لِتَبْرَأَ، فَنَسِيتُ أَنَّ بَيْنَ العَدَمِ وَالوُجُودِ كَافاً وَنُوناً تُغَيِّرُ مَجْرَى الأَقْدَارِ فِي لَمْحِ البَصَرِ؛ أَرَى البَرْقَ يَشُقُّ كَبِدَ الظَّلَامِ فَيُضِيءُ الأُفُقَ كُلَّهُ فِي جُزْءٍ مِنَ الثَّانِيَةِ دُونَ مُقَدِّمَاتٍ طَوِيلَةٍ وَلَا مُعَالَجَةٍ شَاقَّةٍ؛ فَمَا أَعْظَمَ جَلَالَ البَدِيعِ الَّذِي لَا يَعْجِزُهُ مُسْتَحِيلٌ وَلَا يَسْتَعْصِي عَلَى قَضَائِهِ مَطْلَبٌ، فَكُلُّ مَا أَرَادَهُ يَنْبَثِقُ حَيّاً نَابِضاً بِالكَمَالِ وَالإِتْقَانِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى يَقِينٍ يَهْدِمُ جُدْرَانَ اليَأْسِ، وَيَجْعَلُنِي أَطْرُقُ بَابَ القُدْرَةِ المطْلَقَةِ بِقَلْبٍ لَا يَعْرِفُ المحَالَ؛ فَكُلُّ أَسْبَابِ الأَرْضِ قَاصِرَةٌ وَبَطِيئَةٌ، وَلَا نَفَاذَ حَقِيقِيّاً لِلْأَمْرِ إِلَّا بِكَلِمَةِ اللهِ بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.

تَشَابُهُ القُلُوبِ وَعِنَادُ الجَاهِلِينَ

صَدَى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 118]

أُصْغِي إِلَى صَدَى الِاعْتِرَاضَاتِ المتَكَرِّرَةِ عَبْرَ العُصُورِ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَوَارَثُ الجَاهِلُونَ نَفْسَ الشُّبُهَاتِ العَقِيمَةِ كَأَنَّ قُلُوبَهُمْ صُبَّتْ فِي قَالَبٍ وَاحِدٍ مِنَ الكِبْرِيَاءِ وَالعِنَادِ؛ وَأَلْتَفِتُ إِلَى نَفْسِي فَأُدْرِكُ أَنَّ طَلَبَ الخَوَارِقِ الحِسِّيَّةِ مَعَ الإِعْرَاضِ عَنْ آيَاتِ الكَوْنِ وَالوَحْيِ هُوَ حُجَّةُ العَاجِزِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُخْضِعَ السَّمَاءَ لِشُرُوطِهِ؛ وَكَمْ تَمَنَّيْتُ عَلَامَاتٍ خَارِقَةً تَهُزُّ حَوَاسِّي لِأُؤْمِنَ، وَغَفَلْتُ عَنْ أَنَّ

الشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَنَبْضَ القَلْبِ وَسُطُورَ الوَحْيِ آيَاتٌ سَاطِعَةٌ لِمَنْ يَمْلِكُ بَصِيرَةَ اليَقِينِ؛ أَتَأَمَّلُ الصُّحُورَ الصَّمَّاءَ تَتَشَابَهُ فِي قَسْوَتِهَا وَجَفَافِهَا مَهْمَا اخْتَلَفَتِ الأَزْمِنَةُ وَالأَمْكِنَةُ، فَلَا يَنْفُذُ إِلَى جَوْفِهَا المَاءُ وَلَا تُنْبِتُ زَهْرَةً؛ فَمَا أَشَدَّ تَشَابُهَ قُلُوبِ الجَاحِدِينَ الَّتِي تَطْلُبُ مُخَاطَبَةَ السَّمَاءِ كِبْراً وَتَعَالِياً، بَيْنَمَا تَتَجَلَّى البَرَاهِينُ وَاضِحَةً جَلِيَّةً لِأَهْلِ اليَقِينِ وَالصَّفَاءِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى بَصِيرَةٍ تَكْتَفِي بِآيَاتِ الوَحْيِ المَتْلُوَّةِ فِي الآفَاقِ وَالأَنْفُسِ، وَتَنْأَى عَنْ تَعَنُّتِ المَكْرُورِينَ؛ فَكُلُّ قَلْبٍ أَغْلَقَهُ الكِبْرُ هُوَ نُسْخَةٌ مُكَرَّرَةٌ مِنَ الضَّلَالِ، وَلَا هِدَايَةَ إِلَّا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ البَيِّنَاتِ.

مِيزَانُ البِشَارَةِ وَنَذِيرُ الجَحِيمِ

صَدَى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: 119]

أَنْظُرُ إِلَى رِسَالَةِ النُّبُوَّةِ وَهِيَ تَحْمِلُ فِي يَمِينِهَا بُشْرَى الجَنَّةِ لِلطَّائِعِينَ وَفِي يَسَارِهَا نَذَارَةَ النَّارِ لِلْغَافِلِينَ، فَأَرَى تَوَازُنَ المَنْهَجِ الَّذِي يُوقِظُ القَلْبَ بَيْنَ جَنَاحَيِ الرَّجَاءِ وَالخَوْفِ؛ وَأَشْعُرُ بِرَاحَةِ التَّكْلِيفِ العَادِلِ حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ مُهِمَّةَ الحَقِّ هِيَ البَلَاغُ المُبِينُ، أَمَّا عِنَادُ المُصِرِّينَ عَلَى طَرِيقِ الهَلَاكِ فَلَا يَحْمِلُ وِزْرَهُ الدَّاعِي الصَّادِقُ؛ وَكَمْ أَحْرَقْتُ نَفْسِي بِالْحُزْنِ وَالأَسَى عَلَى مَنْ يَخْتَارُونَ طَرِيقَ النَّارِ بِإِرَادَتِهِمْ، حَتَّى عَلَّمَنِي الوَحْيُ أَنَّ الهِدَايَةَ مِفْتَاحُهَا القَبُولُ وَلَيْسَ الإِكْرَاهُ؛ أَرَى المَنَارَةَ الشَّامِخَةَ عَلَى السَّاحِلِ تُرْسِلُ ضَوْءَهَا لِتُبَشِّرَ السُّفُنَ بِالمِينَاءِ الآمِنِ وَتُنْذِرَهَا مِنَ الصُّخُورِ القَاتِلَةِ، فَلَا تُسْأَلُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ سَفِينَةٍ أَصَرَّ رُبَّانُهَا عَلَى الِارْتِطَامِ بِالجَحِيمِ؛ فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ السَّمَاءِ الَّتِي أَرْسَلَتِ الحَقَّ مُتَوَازِناً بَيْنَ الوَعْدِ وَالوَعِيدِ، وَرَفَعَتْ عَنْ كَاهِلِ الرَّسُولِ تَبِعَةَ مَنْ أَبَى إِلَّا السُّقُوطَ فِي الهَاوِيَةِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى طُمَأْنِينَةٍ تَدْفَعُنِي لِأَدَاءِ وَاجِبِي فِي البَلَاغِ وَالنُّصْحِ دُونَ أَنْ يَتَمَزَّقَ قَلْبِي حَسْرَةً عَلَى المُعْرِضِينَ؛ فَكُلُّ نَفْسٍ رَهِينَةٌ بِاخْتِيَارِهَا أَمَامَ البِشَارَةِ وَالنِّذَارَةِ، وَلَا حِسَابَ عَلَى حَامِلِ الحَقِّ فِي مَصِيرِ مَنْ أَصَرَّ عَلَى الجَحِيمِ بَعْدَ بَيَانِ اللهِ.

سَرَابُ الإِرْضَاءِ وَبُوصَلَةُ الوَحْيِ

صَدَى ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ

وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 120]

أُبْصِرُ الحَقِيقَةَ الكَاشِفَةَ الَّتِي تَحْسِمُ وَهْمَ المسَاوَمَةِ عَلَى الثَّوَابِتِ، فَأَرَى أَنَّ رِضَا أَهْلِ الأَهْوَاءِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ إِلَّا بِالتَّنَازُلِ الكَامِلِ عَنِ الهُوِيَّةِ وَالِانْسِلَاخِ عَنِ النُّورِ؛ وَأَشْعُرُ بِثَبَاتِ القَدَمِ فِي أَعْمَاقِي حِينَ أُوقِنُ أَنَّ التَّنَازُلَ عَنِ العِلْمِ اليَقِينِيِّ لِإِرْضَاءِ البَشَرِ هُوَ صَفْقَةٌ تَفْقِدُ فِيهَا الرُّوحُ وَلَايَةَ السَّمَاءِ وَنُصْرَتَهَا؛ وَكَمْ حَاوَلْتُ فِي مَحَطَّاتِ حَيَاتِي أَنْ أُدَاهِنَ الخَلْقَ عَلَى حِسَابِ مَبَادِئِي طَمَعاً فِي وُدِّهِمْ، فَخَسِرْتُ طُمَأْنِينَتِي وَلَمْ أَنَلْ رِضَاهُمُ المتَقَلِّبَ كَالرِّيحِ؛ أَتَأَمَّلُ النَّهْرَ العَذْبَ الَّذِي يَرْفُضُ أَنْ يَخْلِطَ مَاءَهُ بِمُلُوحَةِ البَحْرِ حَتَّى يَبْقَى صَالِحاً لِلسُّقْيَا، فَلَوِ اتَّبَعَ مَجْرَى المِلُوحَةِ لَفَقَدَ عُذُوبَتَهُ وَصَارَ أُجَاجاً لَا يُرْوِي عَطَشاً؛ فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الحَسْمَ القُرْآنِيَّ الَّذِي يَرْفَعُ رَايَةَ الهُدَى المطْلَقِ فَوْقَ كُلِّ الأَهْوَاءِ، وَيُحَذِّرُ مِنَ السُّقُوطِ فِي وَحْشَةِ الخُذْلَانِ بَعْدَ إِشْرَاقِ العِلْمِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى صَخْرَةٍ صَلْبَةٍ تَتَكَسَّرُ عَلَيْهَا أَمْوَاجُ المسَاوَمَةِ، وَتُبْقِي قَلْبِي مُعَلَّقاً بِرِضَا الخَالِقِ وَحْدَهُ؛ فَكُلُّ رِضاً يُشْتَرَى بِاتِّبَاعِ الأَهْوَاءِ هُوَ ضَيَاعٌ وَخُذْلَانٌ، وَلَا هُدَى حَقِيقِيّاً فِي الوُجُودِ إِلَّا هُدَى اللهِ.

سِفْرُ الصَّدَى السَّابِعُ

تِلَاوَةُ الحَقِّ وَنُورُ البَصِيرَةِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 121]

أُصْغِي إِلَى تَرْتِيلِ الصَّادِقِينَ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَ السَّمَاءِ بِقُلُوبِهِمْ قَبْلَ أَلْسِنَتِهِمْ، فَأَرَى كَيْفَ تَتَحَوَّلُ الكَلِمَاتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إِلَى نَبْضٍ حَيٍّ يُحَرِّكُ الجَوَارِحَ نَحْوَ الطَّاعَةِ وَالِاتِّبَاعِ؛ وَأَخْتَبِرُ فِي دَاخِلِي الفَرْقَ الكَبِيرَ بَيْنَ قِرَاءَةٍ تَمُرُّ عَلَى الحَنْجَرَةِ كَالرِّيحِ العَابِرَةِ، وَبَيْنَ تِلَاوَةٍ تَغُوصُ فِي أَعْمَاقِ الرُّوحِ فَتُزْهِرُ إِيمَاناً وَعَمَلاً؛ وَكَمْ مَرَرْتُ عَلَى السُّطُورِ المقَدَّسَةِ بِعَيْنٍ عَجْلَى لَا تَتَوَقَّفُ عِنْدَ المعْنَى، فَكُنْتُ كَمَنْ يَمُرُّ بِبُسْتَانٍ مُثْمِرٍ دُونَ أَنْ يَقْطِفَ مِنْهُ ثَمَرَةً تَسُدُّ جُوعَهُ؛ أَرَى المطَرَ يَنْزِلُ عَلَى الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ فَتَتَشَرَّبُهُ حَتَّى الأَعْمَاقِ لِتُخْرِجَ نَبَاتاً بَهِيجاً، بَيْنَمَا يَنْزَلِقُ عَنِ الصَّخْرَةِ المِلْسَاءِ دُونَ أَنْ يَتْرُكَ فِيهَا أَثَراً؛ فَمَا أَجْمَلَ حَالَ أَهْلِ الكِتَابِ الحَقِيقِيِّينَ الَّذِينَ يُحِلُّونَ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ وَلَا يُحَرِّفُونَ كَلِمَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ، فَيَفُوزُونَ بِنُورِ الإِيمَانِ بَيْنَمَا يَهْوِي الجَاحِدُونَ فِي قَاعِ الخُسْرَانِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي

نَفْسِي إِلَى مِحْرَابٍ لِلتَّدَبُّرِ الحَيّ، يَجْعَلُ تِلَاوَتِي مِيثَاقَ عَمَلٍ لَا مُجَرَّدَ تَرْدِيدِ حُرُوفٍ؛ فَكُلُّ قِرَاءَةٍ لَا تُثْمِرُ انْقِيَاداً هِيَ حُجَّةٌ عَلَى صَاحِبِهَا، وَلَا فَوْزَ إِلَّا لِمَنْ تَلَا كِتَابَ اللهِ حَقَّ تِلَاوَتِهِ فَآمَنَ بِهِ وَاهْتَدَى.

ذَاكِرَةُ النِّعْمَةِ وَرَهْبَةُ العَدْلِ

صَدَى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 122]

أَتَأَمَّلُ هَذَا النِّدَاءَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي يُوقِظُ ذَاكِرَةَ التَّارِيخِ النَّائِمَةَ، فَأَرَى كَيْفَ يَكُونُ اسْتِحْضَارُ النِّعَمِ القَدِيمَةِ مِفْتَاحاً لِشُكْرِ الحَاضِرِ وَالِاسْتِجَابَةِ لِلْحَقِّ الجَدِيدِ؛ وَأُفَتِّشُ فِي سِجِلِّ حَيَاتِي عَنْ تِلْكَ العَطَايَا الخَفِيَّةِ وَالظَّاهِرَةِ الَّتِي غَمَرَتْنِي بِهَا السَّمَاءُ، فَأُدْرِكُ أَنَّ نِسْيَانَ الفَضْلِ هُوَ أَوَّلُ خُطْوَةٍ فِي طَرِيقِ الجُحُودِ وَالقَسْوَةِ؛ وَكَمْ غَفَلْتُ عَنْ أَيَادٍ بَيْضَاءَ أَنْقَذَتْنِي مِنْ مَهَالِكَ الظَّلَامِ، فَقَابَلْتُ الإِحْسَانَ بِالتَّرَاخِي وَنَسِيتُ أَنَّ التَّفْضِيلَ تَكْلِيفٌ لَا امْتِيَازٌ؛ أَرَى الشَّجَرَةَ الَّتِي سَقَاهَا البُسْتَانِيُّ بِمَاءٍ عَذْبٍ وَفَضَّلَهَا بِالعِنَايَةِ عَنْ سَائِرِ الأَشْجَارِ، كَيْفَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَغْزَرَ ثَمَراً وَأَطْيَبَ ظِلّاً شُكْراً لِمَنْ رَعَاهَا؛ فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ التَّذْكِيرِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يُعِيدُ القُلُوبَ الشَّارِدَةَ إِلَى جَادَّةِ الوَفَاءِ قَبْلَ أَنْ تَنْقَطِعَ عَنْهَا مَوَارِدُ الفَضْلِ وَالتَّفْضِيلِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى يَقْظَةٍ دَائِمَةٍ تَعُدُّ النِّعَمَ بِالشُّكْرِ وَالطَّاعَةِ، وَتَحْذَرُ مِنْ غُرُورِ الِاصْطِفَاءِ؛ فَكُلُّ نِعْمَةٍ لَا تُقَابَلُ بِالشُّكْرِ هِيَ اسْتِدْرَاجٌ نَحْوَ الزَّوَالِ، وَلَا دَوَامَ لِلْفَضْلِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ وَطَاعَتِهِ.

عُرْيُ المَوْقِفِ وَانْقِطَاعُ الأَسْبَابِ

صَدَى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: 123]

أَقِفُ مَرْهُوباً عَلَى مَشَارِفِ ذَلِكَ اليَوْمِ العَظِيمِ الَّذِي تَتَقَطَّعُ فِيهِ كُلُّ الحِبَالِ البَشَرِيَّةِ، فَأَرَى كُلَّ نَفْسٍ تَقِفُ وَحِيدَةً عَارِيَةً أَمَامَ عَدْلِ السَّمَاءِ دُونَ ظِلٍّ يَحْمِيهَا وَلَا سَنَدٍ يَفْدِيهَا؛ وَأَشْعُرُ بِقُشَعْرِيرَةٍ

الوَحْدَةِ المِصِيرِيَّةِ حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ الأَبَ لَا يَحْمِلُ عَنِ ابْنِهِ، وَأَنَّ خَزَائِنَ الذَّهَبِ لَا تَشْتَرِي لَحْظَةَ نَجَاةٍ وَاحِدَةٍ؛ وَكَمْ اتَّكَأْتُ فِي دُنْيَايَ عَلَى الأَنْسَابِ وَالأَمْوَالِ وَالْوَسَاطَاتِ ظَنّاً مِنِّي أَنَّهَا جُدْرَانٌ تَقِينِي حَرَّ الحِسَابِ، فَإِذَا بِهَا تَتَلَاشَى كَالدُّخَانِ عِنْدَ أَوَّلِ نَفْخَةٍ فِي الصُّورِ؛ أَتَأَمَّلُ أَوْرَاقَ الشَّجَرِ فِي عَاصِفَةِ الخَرِيفِ كَيْفَ تَتَسَاقَطُ كُلُّ وَرَقَةٍ بِمُفْرَدِهَا نَحْوَ التُّرَابِ، لَا تَمْلِكُ غُصْناً يَمْنَعُهَا وَلَا رَفِيقَةً تَحْمِلُ عَنْهَا ثِقَلَ السُّقُوطِ؛ فَمَا أَشَدَّ هَوْلَ ذَلِكَ المَوْقِفِ الَّذِي تَبْطُلُ فِيهِ الفِدْيَةُ وَتَصْمُتُ فِيهِ الشَّفَاعَةُ الكَاذِبَةُ وَيَغِيبُ كُلُّ نَصِيرٍ مِنْ دُونِ الخَالِقِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى تَقْوَى حَيَّةٍ تُجَهِّزُ زَادِي الفَرْدِيَّ لِيَوْمِ التَّفَرُّدِ الأَكْبَرِ، وَتَقْطَعُ طَمَعِي فِي كُلِّ شَفِيعٍ زَائِفٍ؛ فَكُلُّ سَنَدٍ أَرْضِيٍّ يَسْقُطُ عِنْدَ عَتَبَةِ القَبْرِ، وَلَا نَجَاةَ فِي يَوْمِ الفَصْلِ إِلَّا بِتَقْوَى اللهِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ.

كَلِمَاتُ الِابْتِلَاءِ وَإِمَامَةُ الصَّابِرِينَ

صَدَى ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 124]

أَنْظُرُ إِلَى الخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ يَعْبُرُ جُسُورَ الِابْتِلَاءِ بِثَبَاتِ الجِبَالِ، فَأَرَى كَيْفَ تُصْنَعُ الإِمَامَةُ الرُّوحِيَّةُ فِي مِحْرَابِ التَّضْحِيَةِ وَالإِتْمَامِ لَا فِي مَجَالِسِ الدَّعَةِ وَالرَّخَاءِ؛ وَأُدْرِكُ فِي أَعْمَاقِي أَنَّ القِيَادَةَ الحَقِيقِيَّةَ لِلْبَشَرِ هِيَ جَائِزَةُ السَّمَاءِ لِمَنْ أَتَمَّ كَلِمَاتِ التَّكْلِيفِ دُونَ تَرَدُّدٍ، وَأَنَّهَا مِيثَاقُ عَمَلٍ لَا إِرْثُ دَمٍ يَنَالُهُ الظَّالِمُونَ؛ وَكَمْ تَمَنَّيْتُ المَقَامَاتِ العَالِيَةَ دُونَ أَنْ أَدْفَعَ مَهْرَهَا مِنَ الصَّبْرِ وَالمجَاهَدَةِ، فَعَلَّمَنِي مِيزَانُ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ العَهْدَ الإِلَهِيَّ لَا يُمْنَحُ إِلَّا لِلْأَنْقِيَاءِ؛ أَرَى الذَّهَبَ الخَالِصَ يَدْخُلُ أَتُونَ النَّارِ فَيَخْرُجُ أَكْثَرَ لَمَعَاناً وَقِيمَةً لِيُصَاغَ تَاجاً، بَيْنَمَا يَحْتَرِقُ الحَبَثُ وَالزَّيْفُ وَيَتَحَوَّلُ إِلَى رَمَادٍ لَا يَصْلُحُ لِشَيْءٍ؛ فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الدَّرْسَ الكَوْنِيَّ الَّذِي يَرْفَعُ المُمْتَلِينَ الصَّابِرِينَ إِلَى ذُرْوَةِ الإِمَامَةِ، وَيُقْصِي الظَّالِمِينَ عَنْ عَهْدِ السَّمَاءِ وَلَوْ كَانُوا مِنْ صُلْبِ الأَنْبِيَاءِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى عَزِيمَةٍ تَسْتَقْبِلُ الِابْتِلَاءَ بِالرِّضَا وَالإِتْمَامِ، وَتُطَهِّرُ قَلْبِي مِنَ الظُّلْمِ؛ فَكُلُّ مَقَامٍ رَفِيعٍ يُبْنَى عَلَى الصَّبْرِ وَالْوَفَاءِ، وَلَا يَنَالُ عَهْدَ اللهِ وَإِمَامَتَهُ إِلَّا المحْسِنُونَ الأَبْرَارُ.

مَثَابَةُ الأَمْنِ وَمَقَامُ السُّجُودِ

صَدَى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: 125]

أُبْصِرُ الكَعْبَةَ المشَرَّفَةَ كَقَلْبٍ يَنْبِضُ فِي صَدْرِ الأَرْضِ، فَتَهْفُو إِلَيْهَا الأَرْوَاحُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ كَمَا تَعُودُ الطُّيُورُ المهَاجِرَةُ إِلَى عُشِّهَا الآمِنِ بَعْدَ طُولِ التَّحْلِيقِ؛ وَأَشْعُرُ بِبَرْدِ السَّلَامِ يَسْرِي فِي أَوْصَالِي حِينَ أَقِفُ عِنْدَ مَقَامِ الخَلِيلِ، فَأَرَى كَيْفَ تَتَحَوَّلُ آثَارُ الصَّالِحِينَ إِلَى مَحَارِيبَ لِلصَّلَاةِ وَمَنَابِعَ لِلطَّهَارَةِ وَالأَمَانِ؛ وَكَمْ تَاهَتْ رُوحِي فِي صَحْرَاءِ القَلَقِ وَالْخَوْفِ، فَمَا وَجَدْتُ مَثَابَةً تَجْمَعُ شَتَاتَهَا إِلَّا فِي رِحَابِ البَيْتِ العَتِيقِ وَمَحَارِيبِ السُّجُودِ؛ أَتَأَمَّلُ السُّفُنَ المتْعَبَةَ مِنْ تَلَاطُمِ الأَمْوَاجِ كَيْفَ تَلْجَأُ إِلَى المِينَاءِ الهَادِئِ لِتَسْتَرِيحَ وَتَتَزَوَّدَ بِالأَمَانِ، فَتَجِدُ فِيهِ طَهَارَةَ المَاءِ وَسَكِينَةَ الشَّاطِئِ؛ فَمَا أَعْظَمَ هَذَا العَهْدَ السَّمَاوِيَّ الَّذِي جَعَلَ تَطْهِيرَ البَيْتِ لِلطَّائِفِينَ وَالعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ رِسَالَةَ الأَنْبِيَاءِ الخَالِدَةَ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى حَنِينٍ دَائِمٍ نَحْوَ القِبْلَةِ، وَإِلَى تَطْهِيرٍ مُسْتَمِرٍّ لِقَلْبِي لِيَكُونَ مَثَابَةً لِلطَّاعَةِ؛ فَكُلُّ مَكَانٍ فِي الأَرْضِ مَخُوفٌ بِالخَوْفِ وَالتَّغَيُّرِ، وَلَا أَمَانَ حَقِيقِيّاً لِلرُّوحِ إِلَّا فِي رِحَابِ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ.

دُعَاءُ الوَاحَةِ وَمَصِيرُ الجَاحِدِينَ

صَدَى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 126]

أُصْغِي إِلَى مُنَاجَاةِ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ يَرْفَعُ كَفَّيْهِ فَوْقَ الوَادِي غَيْرِ ذِي الزَّرْعِ، فَأَرَى كَيْفَ يُحَوِّلُ الدُّعَاءُ الصَّادِقُ الصُّخُورَ الجَرْدَاءَ إِلَى وَاحَةٍ تَفِيضُ بِالأَمْنِ وَالثَّمَرَاتِ؛ وَأَتَأَمَّلُ سَعَةَ الرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَجُودُ بِالرِّزْقِ عَلَى المؤْمِنِ وَالكَافِرِ فِي دَارِ الِابْتِلَاءِ، وَلَكِنَّهَا تَجْعَلُ مَتَاعَ الجَاحِدِ قَلِيلاً يَنْتَهِي إِلَى عَذَابِ النَّارِ؛ وَكَمْ انْخَدَعَتْ عَيْنِي بِرُؤْيَةِ الرِّزْقِ يَتَدَفَّقُ عَلَى الظَّالِمِينَ، فَحَسِبْتُهُ رِضاً وَكَرَامَةً، حَتَّى كَشَفَتْ لِي الآيَةُ أَنَّهُ مَتَاعٌ قَلِيلٌ يَسْبِقُ السُّقُوطَ فِي المصِيرِ المظْلِمِ؛ أَرَى السَّحَابَةَ تَسْقِي الزَّهْرَةَ الطَّيِّبَةَ وَالشَّوْكَةَ الضَّارَّةَ فِي حَقْلٍ وَاحِدٍ، فَتُثْمِرُ الزَّهْرَةُ عِطْراً وَحَيَاةً، بَيْنَمَا تَكْبُرُ الشَّوْكَةُ قَلِيلاً ثُمَّ تُجْمَعُ

لِتُلقَى فِي النَّارِ؛ فَمَا أَعْدَلَ حِكْمَةَ الرَّزَّاقِ الَّذِي يُعْطِي الدُّنْيَا لِمَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يَمْنَحُ أَمَانَ الآخِرَةِ وَنَعِيمَهَا إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِاليَوْمِ الآخِرِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى بَصِيرَةٍ تَشْكُرُ النِّعْمَةَ بِالإِيمَانِ، وَلَا تَغْتَرُّ بِمَتَاعِ الكَافِرِينَ؛ فَكُلُّ رِزْقٍ لَا يَصْحَبُهُ يَقِينٌ هُوَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ يَنْقَضِي، وَلَا مَصِيرَ آمِناً إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ.

رَفْعُ القَوَاعِدِ وَخَشْيَةُ القَبُولِ

صَدَى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127]

أُبْصِرُ الأَبَ الشَّيْخَ وَالِابْنَ الفَتِيَّ وَهُمَا يَرْفَعَانِ حِجَارَةَ البَيْتِ العَتِيقِ بِأَيْدٍ تَرْتَجِفُ مِنَ الإِجْلَالِ وَالخَشْيَةِ، فَأَرَى أَعْظَمَ عَمَلٍ فِي التَّارِيخِ يُقْتَرَنُ بِأَعْظَمِ انْكِسَارٍ وَرَجَاءٍ لِلْقَبُولِ؛ وَأَشْعُرُ بِخَجَلٍ عَمِيقٍ مِنْ نَفْسِي حِينَ أُقَارِنُ بَيْنَ عُجْبِي بِطَاعَاتِي الصَّغِيرَةِ، وَبَيْنَ خَوْفِ الخَلِيلَيْنِ مِنَ الرَّدِّ وَهُمَا يَبْنِيَانِ قِبْلَةَ الأَرْضِ بِأَمْرِ السَّمَاءِ؛ وَكَمْ رَفَعْتُ بِنَاءً مِنَ القَوْلِ أَوِ العَمَلِ ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الرِّضَا وَالِاكْتِفَاءِ، فَأَفْسَدَ الغُرُورُ مَا بَنَتْهُ الجَوَارِحُ؛ أَتَأَمَّلُ الغَوَّاصَ الَّذِي يَسْتَخْرِجُ أَنْفَسَ الدُّرَرِ مِنْ أَعْمَاقِ اللُّجَجِ، ثُمَّ يَقِفُ عَلَى بَابِ المَلِكِ مُطَأْطِئَ الرَّأْسِ يَرْجُو أَنْ تَحْظَى هَدِيَّتُهُ بِالقَبُولِ وَالرِّضَا؛ فَمَا أَرْفَعَ مَقَامَ العُبُودِيَّةِ حِينَ يَجْتَمِعُ فِيهَا البَذْلُ الأَقْصَى مَعَ الِافْتِقَارِ الأَقْصَى إِلَى السَّمِيعِ العَلِيمِ الَّذِي يَعْلَمُ خَفَايَا النِّيَّاتِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى دُعَاءٍ يَسْبِقُ كُلَّ عَمَلٍ وَيَتْبَعُهُ، يَسْأَلُ القَبُولَ وَيَهْرَبُ مِنَ العُجْبِ؛ فَكُلُّ بِنَاءٍ لَا يُرْفَعُ عَلَى قَوَاعِدِ الإِخْلَاصِ وَالِافْتِقَارِ هُوَ هَبَاءٌ مَنْثُورٌ، وَلَا قِيمَةَ لِعَمَلٍ إِلَّا إِذَا تَقَبَّلَهُ اللهُ السَّمِيعُ العَلِيمُ.

مَنَاسِكُ الخُضُوعِ وَمِفْتَاحُ التَّوْبَةِ

صَدَى ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 128]

أُصْغِي إِلَى هَذَا الِابْتِهَالِ الخَاشِعِ الَّذِي يَتَجَاوَزُ حُدُودَ الذَّاتِ لِيَشْمَلَ الأَجْيَالَ القَادِمَةَ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَحَوَّلُ الإِسْلَامُ فِي قَلْبِ المؤْمِنِ إِلَى هَمٍّ مُسْتَمِرٍّ يَطْلُبُ الثَّبَاتَ لِنَفْسِهِ وَلِذُرِّيَّتِهِ؛ وَأَشْعُرُ بِحَاجَةِ رُوحِي المِلحَّةِ إِلَى التَّعْلِيمِ وَالتَّوْبَةِ حَتَّى فِي لَحَظَاتِ الطَّاعَةِ الكُبْرَى، فَالْإِنْسَانُ يَظَلُّ مُفْتَقِراً إِلَى مَنْ يُرِيهِ مَنَاسِكَ القُرْبِ وَيَتُوبُ عَلَيْهِ مِنْ تَقْصِيرِهِ؛ وَكَمْ ظَنَنْتُ أَنِّي اهْتَدَيْتُ إِلَى الطَّرِيقِ فَاكْتَفَيْتُ بِعِلْمِي القَاصِرِ، حَتَّى أَدْرَكْتُ أَنَّ الخَلِيلَ نَفْسَهُ يَسْأَلُ رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ مَنَاسِكَهُ وَيَتُوبَ عَلَيْهِ؛ أَرَى النَّبْعَ الصَّافِيَ الَّذِي يَرْوِي الشَّجَرَةَ الأُمَّ ثُمَّ يَمُدُّ جَدَاوِلَهُ لِيَسْقِيَ الفُرُوعَ الصَّغِيرَةَ مِنْ بَعْدِهَا، حَتَّى لَا تَجِفَّ الأَرْضُ وَلَا يَنْقَطِعَ العَطَاءُ؛ فَمَا أَعْظَمَ جَمَالَ هَذَا الدُّعَاءِ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الِاسْتِسْلَامِ التَّامِّ وَبَصِيرَةِ المَنَاسِكِ وَرَحْمَةِ التَّوْبَةِ المَمْدُودَةِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى نَشِيدِ انْقِيَادٍ وَرَجَاءٍ لِلْأَبْنَاءِ وَالأَحْفَادِ، وَاسْتِغْفَارٍ دَائِمٍ لَا يَنْقَطِعُ؛ فَكُلُّ طَاعَةٍ تَحْتَاجُ إِلَى تَوْبَةٍ تَجْبُرُ نَقْصَهَا، وَلَا هِدَايَةَ لِلْمَنَاسِكِ إِلَّا بِفَضْلِ اللهِ التَّوَّابِ الرَّحِيمِ.

بُذُورُ الدُّعَاءِ وَحَصَادُ النُّبُوَّةِ

صَدَى ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129]

أَتَأَمَّلُ البَذْرَةَ النُّورَانِيَّةَ الَّتِي غَرَسَهَا دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ فِي تُرْبَةِ مَكَّةَ، فَأَتَمَّهَا الأَقْدَارُ عَبْرَ القُرُونِ لِتُثْمِرَ خَاتَمَ الأَنْبِيَاءِ وَرَحْمَةَ السَّمَاءِ لِلْعَالَمِينَ؛ وَأَسْتَشْعِرُ فِي أَعْمَاقِي حَاجَةَ الرُّوحِ البَشَرِيَّةِ إِلَى هَذِهِ الثُّلَاثِيَّةِ الخَالِدَةِ: تِلَاوَةٌ تُوقِظُ العَقْلَ، وَعِلْمٌ وَحِكْمَةٌ يُنِيرَانِ البَصِيرَةَ، وَتَزْكِيَةٌ تُطَهِّرُ القَلْبَ مِنْ أَدْرَانِ المادَّةِ؛ وَكَمْ تَخَبَّطْتُ فِي ظُلُمَاتِ الجَهْلِ وَتَلَوُّثِ النَّفْسِ حِينَ ابْتَعَدْتُ عَنْ مَدْرَسَةِ النُّبُوَّةِ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ نُورِ الكِتَابِ وَطَهَارَةِ التَّزْكِيَةِ؛ أَرَى الفَلَّاحَ الصَّبُورَ يَغْرِسُ نَوَاةَ النَّخْلَةِ فِي صَحْرَاءَ قَاحِلَةٍ وَيَسْقِيهَا بِاليَقِينِ، فَتَمْتَدُّ جُذُورُهَا فِي الأَعْمَاقِ لِتُظِلَّ الأَجْيَالَ بَعْدَ مِئَاتِ السِّنِينَ بِأَطْيَبِ الثِّمَارِ؛ فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ العَزِيزِ الحَكِيمِ الَّذِي اسْتَجَابَ دَعْوَةَ الخَلِيلِ فَبَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى انْتِمَاءٍ حَيٍّ لِمَنْهَجِ التَّزْكِيَةِ وَالحِكْمَةِ، وَثِقَةٍ بِأَنَّ الدُّعَاءَ الصَّادِقَ لَا يَضِيعُ وَلَوْ طَالَ الزَّمَنُ؛ فَكُلُّ عِلْمٍ لَا يَصْحَبُهُ تَطْهِيرٌ لِلنَّفْسِ هُوَ حِمْلٌ ثَقِيلٌ، وَلَا كَمَالَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بِهِدَايَةِ رَسُولِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ.

سَفَهُ الهَوَى وَاصْطِفَاءُ المِلَّةِ

صَدَى ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: 130]

أُبْصِرُ صِرَاطَ الحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ وَهُوَ يَمْتَدُّ مُسْتَقِيماً وَاضِحاً كَشُعَاعِ الفَجْرِ، فَأَعْلَمُ أَنَّ الإِعْرَاضَ عَنْ مِلَّةِ التَّوْحِيدِ الخَالِصَةِ هُوَ جَهْلٌ بِقِيمَةِ النَّفْسِ وَإِلْقَاءٌ بِهَا فِي مَهَاوِي السَّفَهِ وَالضَّيَاعِ؛ وَأَشْعُرُ بِعِزَّةِ الِانْتِسَابِ فِي قَلْبِي حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ السَّيْرَ عَلَى خُطَى الخَلِيلِ هُوَ شَرَفُ الدُّنْيَا وَسَعَادَةُ الآخِرَةِ فِي صُحْبَةِ الصَّالِحِينَ؛ وَكَمْ رَأَيْتُ عُقُولاً تَظُنُّ أَنَّ التَّمَرُّدَ عَلَى فِطْرَةِ التَّوْحِيدِ حُرِّيَّةٌ وَذَكَاءٌ، فَإِذَا بِهَا تَغْرَقُ فِي خُرَافَاتِ الشِّرْكِ وَتَهْدِرُ كَرَامَةَ الرُّوحِ فِي عِبَادَةِ الأَوْهَامِ؛ أَتَأَمَّلُ المسَافِرَ الَّذِي يَتْرُكُ النَّبْعَ العَذْبَ الصَّافِيَ الَّذِي يَرْوِي العَطَشَ وَيُحْيِي البَدَنَ، لِيَشْرَبَ مِنْ بِرْكَةٍ آسِنَةٍ مَمْلُوءَةٍ بِالطِّينِ وَالسُّمُومِ، فَيَحْكُمُ عَلَى نَفْسِهِ بِالهَلَاكِ؛ فَمَا أَشَدَّ سَفَهَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ طَرِيقِ المصْطَفَى فِي الدُّنْيَا وَالفَائِزِ فِي الآخِرَةِ لِيَتْبَعَ سَرَابَ الأَهْوَاءِ وَالمِلَلِ المحَرَّفَةِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى ثَبَاتٍ رَاسِخٍ عَلَى فِطْرَةِ إِبْرَاهِيمَ الحَنِيفِ، وَاعْتِزَازٍ بِمِلَّةِ الإِسْلَامِ الصَّافِيَةِ؛ فَكُلُّ انْحِرَافٍ عَنْ طَرِيقِ التَّوْحِيدِ هُوَ ظُلْمٌ لِلنَّفْسِ وَسَفَهٌ مُبِينٌ، وَلَا رِفْعَةَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فَلَاحَ فِي الآخِرَةِ إِلَّا لِمَنِ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَاصْطَفَاهُ اللهُ فِي الصَّالِحِينَ.

مِحْرَابُ التَّسْلِيمِ وَسُجُودُ العُبُودِيَّةِ

صَدَى ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 131]

أُصْغِي إِلَى هَذَا الحِوَارِ السَّمَاوِيِّ الخَاطِفِ بَيْنَ الخَالِقِ وَخَلِيلِهِ، فَأَرَى كَيْفَ تَتَلَاشَى المسَافَةُ بَيْنَ الأَمْرِ وَالِاسْتِجَابَةِ دُونَ تَرَدُّدٍ وَلَا تَسْوِيفٍ، كَأَنَّ الرُّوحَ كَانَتْ تَنْتَظِرُ إِشَارَةَ النُّورِ لِتَلْقِيَ سِلَاحَ الأَنَا عَلَى عَتَبَةِ المِحْرَابِ؛ وَأَلْتَفِتُ إِلَى دَاخِلِي فَأَرَى كَمْ تُقَاوِمُ النَّفْسُ البَشَرِيَّةُ كَلِمَةَ التَّسْلِيمِ، وَكَمْ تَصْنَعُ مِنَ الأَعْذَارِ لِتُبْقِيَ لِنَفْسِهَا مِسَاحَةً مِنَ التَّمَرُّدِ الخَفِيِّ عَلَى مَشِيئَةِ السَّمَاءِ؛ وَكَمْ أَطَلْتُ الجِدَالَ مَعَ أَقْدَارٍ سَاقَتْهَا الحِكْمَةُ إِلَى بَابِي، فَكُنْتُ كَمَنْ يُحَاوِلُ رَدَّ مَوْجَةِ المحِيطِ بِكَفٍّ ضَعِيفَةٍ بَدَلَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ لِحَمْلِهَا الآمِنِ؛ أَتَأَمَّلُ السُّنْبُلَةَ الذَّهَبِيَّةَ المثْقَلَةَ بِالحَبِّ كَيْفَ تَنْحَنِي بِخُشُوعٍ أَمَامَ نَسِيمِ الفَجْرِ، بَيْنَمَا تَبْقَى الشَّوْكَةُ اليَابِسَةُ مُتَصَلِّبَةً حَتَّى تَقْصِمَهَا الرِّيحُ؛ فَمَا أَعْظَمَ جَمَالَ تِلْكَ اللَّحْظَةِ

الَّتِي يَنْصَهِرُ فِيهَا العَبْدُ فِي طَاعَةِ مَوْلَاهُ، فَيَقُولُ بِكُلِّ ذَرَّاتِهِ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ دُونَ قَيْدٍ أَوْ شَرْطٍ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى مِفْتَاحٍ يَفْتَحُ أَقْفَالَ العِنَادِ فِي صَدْرِي، وَيُعِيدُ رُوحِي إِلَى سَكِينَةِ الِانْقِيَادِ المطْلَقِ؛ فَكُلُّ كِبْرِيَاءٍ أَمَامَ أَمْرِ السَّمَاءِ هُوَ انْكِسَارٌ مَحْتُومٌ، وَلَا عِزَّةَ لِلْعَبْدِ إِلَّا فِي تَسْلِيمِ قِيَادِهِ الكَامِلِ لِرَبِّ العَالَمِينَ.

وَصِيَّةُ البَقَاءِ وَرَايَةُ المَمَاتِ

صَدَى ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 132]

أَقِفُ خَاشِعاً عَلَى أَعْتَابِ الوَدَاعِ الأَخِيرِ لِلْأَنْبِيَاءِ وَهُمْ يُوَدِّعُونَ الدُّنْيَا لَا بِتَوْرِيثِ الذَّهَبِ وَالقُصُورِ، بَلْ بِغَرْسِ رَايَةِ التَّوْحِيدِ فِي قُلُوبِ الأَبْنَاءِ لِتَبْقَى خَفَّاقَةً حَتَّى لَحْظَةِ المَمَاتِ؛ وَأَسْتَشْعِرُ فِي أَعْمَاقِي أَنَّ الخَاتِمَةَ هِيَ مِرْآةُ الحَيَاةِ كُلِّهَا، فَمَنْ عَاشَ يَحْرُسُ جَمْرَةَ الإِسْلَامِ فِي رَمَادِ الفِتَنِ أَدْرَكَهُ المَوْتُ وَهُوَ مُتَدَثِّرٌ بِثَوْبِ النَّجَاةِ؛ وَكَمْ انْشَغَلْتُ بِتَأْمِينِ فُتَاتِ العَيْشِ الفَانِي لِمَنْ حَوْلِي، وَنَسِيتُ أَنَّ أَعْظَمَ مِيرَاثٍ يُنْقِذُ الأَرْوَاحَ هُوَ وَصِيَّةُ الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ السَّمَاءِ حَتَّى النَّفَسِ الأَخِيرِ؛ أَرَى الشَّجَرَةَ المعَمِّرَةَ قَبْلَ ذُبُولِهَا تُرْسِلُ عُصَارَةَ الحَيَاةِ إِلَى جُذُورِهَا الصَّغِيرَةِ لِتَضْمَنَ بَقَاءَ الخُضْرَةِ بَعْدَ رَحِيلِهَا عَنِ البُسْتَانِ؛ فَمَا أَشَدَّ حِرْصَ الآبَاءِ الصَّالِحِينَ عَلَى اصْطِفَاءِ السَّمَاءِ، حِينَ يُحَذِّرُونَ أَبْنَاءَهُمْ مِنْ أَنْ تَخْطَفَهُمُ المنِيَّةُ عَلَى غَيْرِ مِلَّةِ التَّسْلِيمِ وَالإِخْلَاصِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى عَهْدٍ أَبَدِيٍّ أُجَدِّدُهُ فِي كُلِّ صَبَاحٍ، أَنْ أَحْيَا مُسْلِماً وَأَلْقَى خَالِقِي عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلَامِ؛ فَكُلُّ مِيرَاثٍ دُنْيَوِيٍّ يَتَبَدَّدُ عَلَى حَافَّةِ القَبْرِ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِدِينٍ اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبَادِهِ لِيَمُوتُوا عَلَيْهِ مُسْلِمِينَ.

حَضْرَةُ الِاحْتِضَارِ وَعَهْدُ التَّوْحِيدِ

صَدَى ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133]

أَتَسَلَّلُ بِرُوحِي إِلَى تِلْكَ الحُجْرَةِ المضِيئَةِ الَّتِي يَسْتَقْبِلُ فِيهَا يَعْقُوبُ سَكَرَاتِ المَوْتِ، فَلَا يَسْأَلُ بَنِيهِ عَنْ ثَرْوَةٍ يَقْتَسِمُونَهَا وَلَا عَنْ سُلْطَانٍ يَحْمُونَهُ، بَلْ عَنِ المَعْبُودِ الَّذِي سَيَسْجُدُونَ لَهُ بَعْدَ غِيَابِهِ؛ وَأَشْعُرُ بِرَعْشَةِ الصِّدْقِ تَهُزُّ كِيَانِي حِينَ أَرَى اجْتِمَاعَ الأَجْيَالِ عَلَى إِلَهٍ وَاحِدٍ لَا يَتَجَزَّأُ، فَتَتَلَاشَى أَكَاذِيبُ المحَرِّفِينَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الأَنْبِيَاءَ جَاؤُوا بِشَرَائِعَ مُتَنَاحِرَةٍ؛ وَكَمْ خِفْتُ مِنْ تَقَلُّبِ الزَّمَانِ وَضَيَاعِ البُوصَلَةِ بَعْدَ رَحِيلِ الصَّالِحِينَ، حَتَّى أَبْصَرْتُ أَنَّ المِيثَاقَ مَعَ الإِلَهِ الوَاحِدِ هُوَ الحَبْلُ المتِينُ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ بِمَوْتِ البَشَرِ؛ أَتَأَمَّلُ الشَّمْسَ عِنْدَ الغُرُوبِ وَهِيَ تُسَلِّمُ أَمَانَةَ الضِّيَاءِ إِلَى القَمَرِ وَالنُّجُومِ لِتَبْقَى السَّمَاءُ شَاهِدَةً عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الخَالِقِ فِي كُلِّ حِينٍ؛ فَمَا أَعْظَمَ شَهَادَةَ التَّوْحِيدِ الَّتِي انْبَثَقَتْ مِنْ قُلُوبِ الأَبْنَاءِ عِنْدَ رَأْسِ أَبِيهِمُ المحْتَضَرِ، مُعْلِنَةً أَنَّ دِينَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ هُوَ الإِسْلَامُ الخَالِصُ لِلْوَاحِدِ الأَحَدِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى سُؤَالٍ يَقِظٍ أُوَاجِهُ بِهِ قَلْبِي كُلَّ لَيْلَةٍ: مَاذَا تَعْبُدُ يَا قَلْبُ فِي خَلْوَتِكَ وَجَلْوَتِكَ؛ فَكُلُّ وَلَاءٍ لِغَيْرِ الإِلَهِ الوَاحِدِ هُوَ شِرْكٌ خَفِيٌّ يَسْقُطُ عِنْدَ المَوْتِ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا فِي الانْتِمَاءِ لِمَوْكِبِ المسْلِمِينَ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

طَيُّ الصَّحَائِفِ وَفَرْدَانِيَّةُ الحِسَابِ

صَدَى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 134]

أُبْصِرُ قَوَافِلَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ وَهِيَ تَعْبُرُ بَوَّابَةَ التَّارِيخِ وَتُطْوَى صَحَائِفُهَا بِمَا قَدَّمَتْ، فَأُدْرِكُ أَنَّ الزَّمَنَ لَا يَعُودُ إِلَى الوَرَاءِ وَأَنَّ أَمْجَادَ الآبَاءِ لَا تَمْلَأُ مَوَازِينَ الأَبْنَاءِ؛ وَأَشْعُرُ بِثِقَلِ المسْؤُولِيَّةِ الفَرْدِيَّةِ يَسْتَقِرُّ عَلَى كَتِفَيَّ حِينَ أَعْلَمُ أَنَّنِي لَنْ أُحَاسَبَ عَلَى ذُنُوبِ الغَابِرِينَ وَلَنْ أَنْجُوَ بِحَسَنَاتِهِمْ، بَلْ بِمَا كَسَبَتْهُ يَدَايَ فِي حَاضِرِي؛ وَكَمْ اتَّكَأْتُ فِي غَفْلَتِي عَلَى تَارِيخِ الصَّالِحِينَ وَتَبَاهَيْتُ بِانْتِسَابِي إِلَى قَوَافِلِهِمْ، بَيْنَمَا كَانَتْ صَحِيفَتِي الخَاصَّةُ تَشْكُو الفَرَاغَ وَالجَفَافَ؛ أَرَى الشَّجَرَةَ الَّتِي أَثْمَرَتْ فِي مَوْسِمٍ مَاضٍ وَانْتَهَى أَجَلُهَا لَا تُغْنِي عَنْ فَسِيلَةِ اليَوْمِ أَنْ تَضْرِبَ جُذُورَهَا فِي الأَرْضِ وَتَصْنَعَ ثِمَارَهَا بِنَفْسِهَا؛ فَمَا أَعْدَلَ قَانُونَ السَّمَاءِ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ كَسْبِ الأُمَمِ الخَالِيَةِ وَكَسْبِ الأَجْيَالِ الحَاضِرَةِ، فَلَا يَحْمِلُ أَحَدٌ وِزْرَ أَحَدٍ وَلَا يَقْتَاتُ عَاجِزٌ عَلَى مَائِدَةِ غَيْرِهِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى نَاقُوسٍ يُوقِظُنِي مِنْ سُبَاتِ الِاتِّكَالِ عَلَى المَاضِي، وَيَدْفَعُنِي لِأَنْ أَغْرِسَ بِيَدِي مَا أَحْصُدُهُ غَداً؛ فَكُلُّ

تَفَاخُرٍ بِتَارِيخِ الآبَاءِ دُونَ عَمَلٍ هُوَ سَرَابٌ خَادِعٌ، وَلَا نَفْعَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بِمَا كَسَبَتْهُ يَدَاهُ فِي مِيزَانِ اللهِ.

صِبْغَةُ التَّوْحِيدِ وَنَبْعُ الفِطْرَةِ

صَدَى ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: 135]

أُصْغِي إِلَى نِدَاءَاتِ الطَّوَائِفِ المُتَنَافِرَةِ وَهِيَ تَتَجَاذَبُ القُلُوبَ نَحْوَ مَسَالِكِهَا الضَّيِّقَةِ، فَأَرَى كَيْفَ يَنْبَثِقُ صَوْتُ الحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ كَشُعَاعٍ مُسْتَقِيمٍ يَشُقُّ غُبَارَ التَّحَزُّبِ وَالِانْحِرَافِ؛ وَأَسْتَشْعِرُ فِي دَاخِلِي رَاحَةَ الفِطْرَةِ النَّقِيَّةِ حِينَ تَعُودُ إِلَى مَنْبَعِ إِبْرَاهِيمَ الأَوَّلِ، بَعِيداً عَنْ تَعْقِيدَاتِ المحَرِّفِينَ وَأَوْهَامِ الشِّرْكِ الَّتِي لَوَّثَتْ صَفَاءَ العَقِيدَةِ؛ وَكَمْ حَارَتْ قَدَمَايَ بَيْنَ لَافِتَاتٍ كَثِيرَةٍ تَدَّعِي كُلٌّ مِنْهَا امْتِلَاكَ مَفَاتِيحِ الهِدَايَةِ، حَتَّى أَرْشَدَتْنِي البَصِيرَةُ إِلَى أَنَّ الهُدَى الحَقِيقِيَّ هُوَ المَيْلُ التَّامُّ عَنِ البَاطِلِ نَحْوَ التَّوْحِيدِ الخَالِصِ؛ أَرَى الغَزَالَ الظَّمْآنَ فِي البَرِّيَّةِ يَتْرُكُ الجَدَاوِلَ العَكِرَةَ الَّتِي اخْتَلَطَتْ بِالطِّينِ لِيَصْعَدَ إِلَى رَأْسِ الجَبَلِ حَيْثُ يَتَفَجَّرُ النَّبْعُ البِكْرُ الصَّافِي؛ فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الحَسْمَ القُرْآنِيَّ الَّذِي يَرْفُضُ دَعَاوَى التَّحَزُّبِ الضَّيِّقَةِ، وَيُعِيدُ البَشَرِيَّةَ إِلَى مِلَّةِ الخَلِيلِ الحَنِيفِ الَّذِي نَزَّهَ رَبَّهُ عَنْ كُلِّ شَرِيكٍ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى بُوصَلَةٍ لَا تَنْحَرِفُ عَنْ جَادَّةِ التَّوْحِيدِ، وَتَنْبُذُ كُلَّ دَعْوَةٍ تُفَرِّقُ دِينَ السَّمَاءِ؛ فَكُلُّ طَرِيقٍ يَشُوبُهُ الشِّرْكُ أَوِ التَّعَصُّبُ هُوَ تِيهٌ وَضَلَالٌ، وَلَا هِدَايَةَ حَقِيقِيَّةً إِلَّا فِي اتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً مُسْلِماً لِلَّهِ.

عِقْدُ النُّبُوَّةِ وَعَدَالَةُ الإِيمَانِ

صَدَى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136]

أُبْصِرُ مَوْكِبَ الأَنْبِيَاءِ وَهُمْ يَسِيرُونَ فِي طَرِيقِ النُّورِ كَمِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ يُسَلِّمُ فِيهَا كُلُّ رَسُولٍ رَايَةَ الحَقِّ لِمَنْ بَعْدَهُ دُونَ تَنَاقُضٍ أَوْ صِرَاعٍ، فَأَرَى عَظَمَةَ الإِسْلَامِ الَّذِي يَجْمَعُ شَتَاتَ الوَحْيِ فِي قَلْبٍ وَاحِدٍ؛ وَأَشْعُرُ بِسَعَةِ الأُفُقِ وَنَقَاءِ العَدْلِ فِي رُوحِي حِينَ أُؤْمِنُ بِكُلِّ كِتَابٍ أُنْزِلَ وَكُلِّ نَبِيٍّ أُرْسِلَ، فَلَا يَضِيقُ صَدْرِي بِمُوسَى وَلَا بِعِيسَى وَلَا بِالأَسْبَاطِ، بَلْ أَرَاهُمْ جَمِيعاً أَخْوَةً فِي رِسَالَةِ السَّمَاءِ؛ وَكَمْ عَانَتِ البَشَرِيَّةُ مِنْ مَرَارَةِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الرُّسُلِ حِينَ آمَنَ قَوْمٌ بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، فَمَزَّقُوا ثَوْبَ الحَقِيقَةِ الوَاحِدَ بِسِكِّينِ الهَوَى؛ أَتَأَمَّلُ السَّمَاءَ لَيْلاً وَهِيَ تَحْتَضِنُ كُلَّ النُّجُومِ وَالكَوَاكِبِ فِي تَنَاغُمٍ فَرِيدٍ، فَكُلُّ نَجْمٍ يُضِيءُ زَاوِيَةً مِنَ الظَّلَامِ لِيَكْتَمِلَ جَمَالُ اللَّيْلِ وَبَهَاءُ الوُجُودِ؛ فَمَا أَرْفَعَ هَذَا الإِيمَانَ الشَّامِلَ الَّذِي يَرْفُضُ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ رُسُلِ السَّمَاءِ، وَيُعْلِنُ الِاسْتِسْلَامَ المُطْلَقَ لِمَنْ أَرْسَلَهُمْ جَمِيعاً بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى قَلْبٍ كَبِيرٍ يَسَعُ أَنْوَارَ النُّبُوَّةِ كُلَّهَا، وَيَتَبَرَّأُ مِنْ عَصَبِيَّةِ الجَاحِدِينَ؛ فَكُلُّ إِيمَانٍ يُفَرِّقُ بَيْنَ رُسُلِ السَّمَاءِ هُوَ تَمْزِيقٌ لِلْحَقِيقَةِ، وَلَا كَمَالَ لِلْعَقِيدَةِ إِلَّا بِالإِيمَانِ بِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَالإِسْلَامِ لَهُ وَحْدَهُ.

جَادَّةُ الِاهْتِدَاءِ وَشِقَاقُ العِنَادِ

صَدَى ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 137]

أَقِفُ عَلَى مِيزَانِ الهِدَايَةِ الَّذِي جَعَلَ إِيمَانَ الصَّادِقِينَ مِعْيَاراً يُقَاسُ بِهِ صِدْقُ المُدَّعِينَ، فَأَرَى أَنَّ الدُّخُولَ فِي بَابِ النُّورِ يَقْتَضِي التَّسْلِيمَ الكَامِلَ دُونَ انْتِقَاءٍ أَوْ مُسَاوَمَةٍ؛ وَأَشْعُرُ بِبَرْدِ الكِفَايَةِ الإِلَهِيَّةِ يَغْمُرُ صَدْرِي حِينَ أَرَى أَنَّ إِعْرَاضَ المُعَانِدِينَ لَا يَضُرُّ الحَقَّ شَيْئاً، بَلْ يَرْمِي بِهِمْ فِي جَحِيمِ الشِّقَاقِ وَالتَّمَزُّقِ الدَّاخِلِيِّ؛ وَكَمْ قَلِقْتُ مِنْ كَيْدِ المُتَوَلِّينَ وَصَخَبِ المُعَارِضِينَ لِنُورِ الوَحْيِ، حَتَّى سَكَبَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي رُوحِي طُمَأْنِينَةَ الوَعْدِ القَاطِعِ بِأَنَّ السَّمَاءَ تَكْفِي أَوْلِيَاءَهَا شَرَّ المُتَرَبِّصِينَ؛ أَرَى الجَبَلَ الرَّاسِيَ يَثْبُتُ فِي مَكَانِهِ بِيَقِينٍ وَوَقَارٍ، بَيْنَمَا تَتَصَدَّعُ الصُّخُورُ المُنْفَصِلَةُ عَنْهُ وَتَتَهَاوَى فِي الوَادِي السَّحِيقِ لِأَنَّهَا اخْتَارَتِ الشِّقَاقَ وَالِانْفِسَامَ؛ فَمَا أَعْظَمَ هَذَا السَّنَدَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي يُطَمْئِنُ القُلُوبَ المُؤْمِنَةَ، فَيَجْعَلُ التَّوَلِّيَ عَنِ الإِيمَانِ خَسَارَةً لِلْمُعْرِضِينَ وَحِصْناً لِلْمُهْتَدِينَ بِرِعَايَةِ السَّمِيعِ العَلِيمِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى ثِقَةٍ مُطْلَقَةٍ تَطْرُدُ الخَوْفَ مِنْ عَدَاوَةِ الخَلْقِ، وَتُثَبِّتُ قَدَمَيَّ عَلَى

صِرَاطِ الهُدَى؛ فَكُلُّ تَوَلٍّ عَنِ الإِيمَانِ الصَّافِي هُوَ سُقُوطٌ فِي شِقَاقٍ لَا يَنْجَبِرُ، وَلَا حِمَايَةَ أَصْدَقُ وَلَا أَمْنَعُ مِنْ كِفَايَةِ اللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ.

صِبْغَةُ السَّمَاءِ وَزَيْفُ الأَلْوَانِ

صَدَى ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: 138]

أَتَأَمَّلُ صِبْغَةَ الفِطْرَةِ وَالإِيمَانِ وَهِيَ تَسْرِي فِي خَلَايَا الرُّوحِ كَمَا يَسْرِي نُورُ الفَجْرِ فِي أَرْجَاءِ الأُفُقِ، فَيُحَوِّلُ السَّوَادَ إِلَى ضِيَاءٍ وَالجَفَافَ إِلَى نَضَارَةٍ لَا تَذْبُلُ؛ وَأَلْتَفِتُ إِلَى الأَصْبَاغِ البَشَرِيَّةِ الزَّائِفَةِ الَّتِي يَتَلَوَّنُ بِهَا الغَافِلُونَ مِنْ مَظَاهِرَ خَادِعَةٍ وَشِعَارَاتٍ فَانِيَةٍ، فَأَرَاهَا تَتَلَاشَى عِنْدَ أَوَّلِ مَطَرٍ يَغْسِلُ الوُجُوهَ؛ وَكَمْ حَاوَلْتُ أَنْ أُزَيِّنَ ظَاهِرِي بِأَلْوَانِ الرِّيَاءِ وَالتَّصَنُّعِ لِأَنَالَ إِعْجَابَ النَّاظِرِينَ، فَمَا زَادَتْنِي تِلْكَ الطِّلَاءَاتُ إِلَّا ثِقَلاً وَغُرْبَةً عَنْ حَقِيقَتِي؛ أَرَى الوَرْدَةَ البَرِّيَّةَ الَّتِي صَبَغَتْهَا يَدُ القُدْرَةِ بِحُمْرَةِ الحَيَاةِ وَعِطْرِ النَّدَى كَيْفَ تَفُوقُ فِي بَهَائِهَا كُلَّ الزُّهُورِ المَصْنُوعَةِ مِنَ الوَرَقِ وَالأَصْبَاغِ المَيِّتَةِ؛ فَمَا أَبْهَى صِبْغَةَ الخَالِقِ الَّتِي تَطْبَعُ القَلْبَ بِالتَّوْحِيدِ وَالجَوَارِحَ بِالعُبُودِيَّةِ، فَلَا يَبْلَى لَوْنُهَا بِمُرُورِ الزَّمَنِ وَلَا تَبْهَتُ نَضَارَتُهَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى تَطْهِيرٍ شَامِلٍ يَغْسِلُ عَنِّي أَصْبَاغَ الدُّنْيَا الزَّائِلَةِ، وَيُبْقِي فِي رُوحِي لَوْنَ العُبُودِيَّةِ الصَّادِقَةِ؛ فَكُلُّ لَوْنٍ يَصْنَعُهُ البَشَرُ هُوَ طِلَاءٌ زَائِفٌ يَتَقَشَّرُ مَعَ الأَيَّامِ، وَلَا جَمَالَ يَدُومُ إِلَّا صِبْغَةُ اللهِ الَّذِي نَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ.

سَفَاهَةُ المِحَاجَّةِ وَإِخْلَاصُ العَمَلِ

صَدَى ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: 139]

أُصْغِي إِلَى هَذَا البُرْهَانِ العَقْلِيِّ النَّاصِعِ الَّذِي يُسْقِطُ دَعْوَى احْتِكَارِ الرُّبُوبِيَّةِ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَعَجَّبُ الوَحْيُ مِنْ أُنَاسٍ يُجَادِلُونَ فِي الإِلَهِ الوَاحِدِ وَهُوَ رَبُّ الخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ دُونَ تَمْيِيزٍ؛ وَأُدْرِكُ فِي أَعْمَاقِي أَنَّ الجِدَالَ العَقِيمَ حَوْلَ الأَنْسَابِ وَالأَلْقَابِ يَتَبَخَّرُ أَمَامَ حَقِيقَةِ العَمَلِ الصَّالِحِ وَالإِخْلَاصِ الَّذِي هُوَ جَوْهَرُ الدِّينِ وَرُوحُهُ؛ وَكَمْ أَضَعْتُ أَوْقَاتاً فِي نِقَاشَاتٍ جَدَلِيَّةٍ مَعَ المُنْكِرِينَ لِإِثْبَاتِ أَحَقِّيَّةِ الحَقِّ، حَتَّى عَلَّمَنِي القُرْآنُ أَنَّ أَبْلَغَ حُجَّةٍ هِيَ الِانْصِرَافُ إِلَى إِخْلَاصِ العَمَلِ لِلرَّبِّ الوَاحِدِ؛ أَرَى النَّحْلَةَ

العَامِلَةَ تَتْرُكُ طَنِينَ الذُّبَابِ الفَارِغَ فِي الهَوَاءِ لِتَنْصَرِفَ بِصَمْتٍ وَإِخْلَاصٍ إِلَى امْتِصَاصِ الرَّحِيقِ وَصُنْعِ الشِّفَاءِ فِي خَلِيَّتِهَا؛ فَمَا أَرْفَعَ مَقَامَ المُؤْمِنِ الَّذِي يَحْسِمُ خُصُومَاتِ المُتَعَصِّبِينَ بِبَيَانٍ هَادِئٍ يَفْصِلُ بَيْنَ الأَعْمَالِ، وَيُفْرِدُ خَالِقَهُ بِالإِخْلَاصِ الخَالِصِ مِنَ الشَّوَائِبِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى تَرْفُّعٍ عَنِ المِرَاءِ وَالجِدَالِ، وَانْكِبَابٍ صَادِقٍ عَلَى تَجْوِيدِ عَمَلِي وَتَصْفِيَةِ نِيَّتِي؛ فَكُلُّ مُحَاجَّةٍ تَبْنِي عَلَى التَّعَالِي وَالِاحْتِكَارِ هِيَ ضَيَاعٌ لِلْوَقْتِ، وَلَا نَجَاةَ عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ إِلَّا بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي نُخْلِصُهَا لِلَّهِ وَحْدَهُ.

كِتْمَانُ الشَّهَادَةِ وَعَيْنُ الرَّقِيبِ

صَدَى ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 140]

أَقِفُ مَذْهُولاً أَمَامَ جُرْأَةِ المُزَوِّرِينَ الَّذِينَ يُحَاوِلُونَ تَلْوِينَ التَّارِيخِ بِأَصْبَاغِ طَوَائِفِهِمْ، فَيَنْسُبُونَ الأَنْبِيَاءَ الأَوَّلِينَ إِلَى مِلَلٍ حَدَثَتْ بَعْدَهُمْ بِقُرُونٍ طِوَالٍ؛ وَأَشْعُرُ بِهَيْبَةِ الحَقِيقَةِ السَّمَاوِيَّةِ حِينَ تُوَاجِهُهُمْ بِالسُّؤَالِ الصَّاعِقِ الَّذِي يُسْقِطُ دَعْوَاهُمْ مِنْ جُذُورِهَا، فَهَلْ يَمْلِكُ البَشَرُ عِلْماً يَفُوقُ عِلْمَ مَنِ اصْطَفَى الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الكُتُبَ؛ وَكَمْ حَاوَلَتِ النَّفْسُ البَشَرِيَّةُ فِي لَحَظَاتِ الهَوَى أَنْ تَكْتُمَ شَهَادَةَ الحَقِّ المَوْجُودَةَ فِي الفِطْرَةِ وَالكِتَابِ لِتَنْتَصِرَ لِتَعَصُّبِهَا، غَافِلَةً عَنِ العَيْنِ الَّتِي لَا تَنَامُ؛ أَتَأَمَّلُ السَّحَابَ الأَسْوَدَ الَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يَحْجُبَ قُرْصَ الشَّمْسِ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَتَبَدَّدَ لِتَبْقَى الشَّمْسُ سَاطِعَةً تَفْضَحُ كُلَّ مَنْ حَاوَلَ إِخْفَاءَ ضِيَائِهَا؛ فَمَا أَبْشَعَ جَرِيمَةَ كِتْمَانِ الشَّهَادَةِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي تُبَيِّنُ بَرَاءَةَ الأَنْبِيَاءِ مِنَ التَّحَرُّفِ، وَمَا أَشَدَّ غَفْلَةَ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تَرْصُدُ مَكْرَهُ وَتَدْلِيسَهُ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى أَمَانَةٍ عِلْمِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ تَأْبَى كِتْمَانَ الحَقِّ أَوْ تَزْوِيرَهُ، وَتَسْتَحْضِرُ رَقَابَةَ الخَالِقِ فِي كُلِّ حَرْفٍ؛ فَكُلُّ كِتْمَانٍ لِشَهَادَةِ الحَقِّ هُوَ ظُلْمٌ مُضَاعَفٌ وَبُهْتَانٌ، وَلَا شَيْءَ يَخْفَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَلَى اللهِ الَّذِي لَيْسَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

مِيزَانُ الأُمَمِ وَتَجَدُّدُ التَّكْلِيفِ

صَدَى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 141]

أُبْصِرُ هَذَا التَّكْرَارَ القُرْآنِيَّ الحَكِيمَ الَّذِي يُغْلِقُ مَلَفَّ الجِدَالِ حَوْلَ المَاضِي بِقُفْلٍ مِنَ العَدْلِ وَالوَاقِعِيَّةِ، فَيُعِيدُ كُلَّ إِنْسَانٍ إِلَى سَاحَةِ عَمَلِهِ الحَاضِرِ بَعْدَ أَنْ بَرَّأَ الأَنْبِيَاءَ مِنْ دَعَاوَى المُزَوِّرِينَ؛ وَأُدْرِكُ فِي دَاخِلِي أَنَّ تَكْرَارَ التَّذْكِيرِ بِفَرْدَانِيَّةِ الكَسْبِ هُوَ دَوَاءٌ لِدَاءِ التَّوَاكُلِ الَّذِي يُصِيبُ الأُمَمَ حِينَ تَسْتَغْرِقُ فِي البُكَاءِ عَلَى الأَطْلَالِ أَوِ التَّغَنِّي بِالأَمْجَادِ؛ وَكَمْ أَشْغَلْتُ فِكْرِي بِمُحَاكَمَةِ التَّارِيخِ وَتَتَبُّعِ أَخْطَاءِ السَّابِقِينَ، بَيْنَمَا كَانَتْ سَاعَاتُ عُمُرِي تَتَسَرَّبُ كَالرَّمْلِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِي دُونَ إِنْجَازٍ حَقِيقِيٍّ؛ أَرَى النَّهْرَ الجَارِيَ لَا يَتَوَقَّفُ لِيَسْأَلَ عَنِ المِيَاهِ الَّتِي عَبَرَتْ مَجْرَاهُ بِالأَمْسِ وَصَبَّتْ فِي البَحْرِ، بَلْ يَنْدَفِعُ بِقُوَّةٍ لِيَسْقِيَ الحُقُولَ العَطْشَى عَلَى ضِفَافِهِ اليَوْمَ؛ فَمَا أَعْظَمَ تَرْبِيَةَ الوَحْيِ الَّتِي تَفْطِمُ العُقُولَ عَنِ التَّعَلُّقِ المَرَضِيِّ بِكَسْبِ الغَابِرِينَ، وَتَضَعُهَا أَمَامَ مَسْؤُولِيَّتِهَا المُبَاشِرَةِ عَنْ مَصِيرِهَا وَعَمَلِهَا؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى طَاقَةِ عَمَلٍ مُتَجَدِّدَةٍ تَنْشَغِلُ بِبِنَاءِ الحَاضِرِ وَتَعْمِيرِ الصَّحِيفَةِ الشَّخْصِيَّةِ بِالطَّاعَاتِ؛ فَكُلُّ أُمَّةٍ مَضَتْ قَدْ أَفْضَتْ إِلَى مَا قَدَّمَتْ، وَلَا مَنْجَى لِلْحَاضِرِينَ غَداً إِلَّا بِمَا كَسَبَتْهُ أَيْدِيهِمْ فِي طَاعَةِ اللهِ.

ضَجِيجُ السُّفَهَاءِ وَثَبَاتُ القِبْلَةِ

صَدَى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 142]

أُصْغِي إِلَى هَمْسِ التَّشْكِيكِ الَّذِي يُطْلِقُهُ السُّفَهَاءُ كُلَّمَا تَحَرَّكَتْ قَافِلَةُ الإِيمَانِ بِأَمْرٍ جَدِيدٍ مِنَ السَّمَاءِ، فَأَرَى كَيْفَ يَقِيسُ قَاصِرُو النَّظَرِ حِكْمَةَ التَّشْرِيعِ بِمَقَايِيسِ العَادَةِ وَالجُمُودِ؛ وَأَشْعُرُ بِعِزَّةِ الانْقِيَادِ فِي قَلْبِي حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ العُبُودِيَّةَ لَيْسَتْ تَقْدِيساً لِجِهَةٍ بِذَاتِهَا، بَلْ هِيَ طَاعَةٌ لِمَنْ يَمْلِكُ المَشْرِقَ وَالمَغْرِبَ وَيُوَجِّهُ القُلُوبَ حَيْثُ يَشَاءُ؛ وَكَمْ اهْتَزَّتْ نَفْسِي قَدِيماً أَمَامَ سُخْرِيَةِ المُنْتَقِدِينَ الَّذِينَ لَا يَفْهَمُونَ أَسْرَارَ التَّحَوُّلِ الرَّبَّانِيِّ، حَتَّى ثَبَّتَنِي البُرْهَانُ بِأَنَّ الهِدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ مِنْحَةٌ

لَا يَنَالُهَا أَهْلُ السَّفَهِ وَالعِنَادِ؛ أَرَى البُوصَلَةَ الدَّقِيقَةَ تَدُورُ بِانْقِيَادٍ تَامٍّ نَحْوَ القُطْبِ الَّذِي يَجْذِبُهَا، دُونَ أَنْ تَعْبَأَ بِضَجِيجِ الرِّيَاحِ الَّتِي تَعْصِفُ حَوْلَ السَّفِينَةِ وَتَسْخَرُ مِنْ تَغْيِيرِ شِرَاعِهَا؛ فَمَا أَعْظَمَ الرَّدَّ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَسْتَبِقُ شُبُهَاتِ السُّفَهَاءِ وَيَكْشِفُ سَطْحِيَّتَهُمْ، لِيُؤَكِّدَ أَنَّ الجِهَاتِ كُلَّهَا مَمْلُوكَةٌ لِلْخَالِقِ وَأَنَّ الهِدَايَةَ بِيَدِهِ وَحْدَهُ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى مَنَاعَةٍ فِكْرِيَّةٍ لَا تَأْبَهُ بِصَخَبِ المُشَكِّكِينَ، وَتَتَّجِهُ بِقَلْبِهَا حَيْثُ يُشِيرُ نُورُ الوَحْيِ؛ فَكُلُّ اعْتِرَاضٍ عَلَى أَحْكَامِ السَّمَاءِ هُوَ سَفَهٌ وَضَيَاعٌ، وَلَا اسْتِقَامَةَ لِلْخُطَى إِلَّا بِهِدَايَةِ اللهِ مَالِكِ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ.

وَسَطِيَّةُ الشُّهُودِ وَمِحَكُّ الِاتِّبَاعِ

صَدَى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 143]

أَقِفُ مَبْهُوراً أَمَامَ هَذَا الِاصْطِفَاءِ الكَوْنِيِّ الَّذِي جَعَلَ أُمَّةَ التَّوْحِيدِ قَلْباً وَسَطاً بَيْنَ الإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، لِتَقِفَ شَاهِدَةً بِالعَدْلِ عَلَى الخَلَائِقِ تَحْتَ رَايَةِ شَهَادَةِ الرَّسُولِ الكَرِيمِ؛ وَأَتَأَمَّلُ حِكْمَةَ الِابْتِلَاءِ بِتَحْوِيلِ القِبْلَةِ الَّذِي كَانَ كَالمِغْنَاطِيسِ العَظِيمِ الَّذِي يَفْرِزُ مَعْدِنَ الصِّدْقِ وَالِاتِّبَاعِ عَنْ صَدَإِ الِارْتِدَادِ وَالنُّكُوصِ عَلَى الأَعْقَابِ؛ وَكَمْ ثُقُلَتْ عَلَى نَفْسِي بَعْضُ التَّكَالِيفِ الَّتِي تُخَالِفُ مَأْلُوفَ العَادَةِ وَالهَوَى، فَكَانَتْ هِدَايَةُ السَّمَاءِ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تُهَوِّنُ الصَّعْبَ وَتُطَمْئِنُ القَلْبَ بِأَنَّ الإِيمَانَ السَّابِقَ مَحْفُوظٌ لَا يَضِيعُ؛ أَرَى الغِرْبَالَ الدَّقِيقَ فِي يَدِ الفَلَّاحِ يَهْتَزُّ لِيَفْصِلَ حَبَّاتِ القَمْحِ النَّقِيَّةَ الثَّابِتَةَ عَنِ القُشُورِ الخَفِيفَةِ الَّتِي تَتَطَايَرُ مَعَ أَوَّلِ نَفْحَةِ رِيحٍ وَتَنْقَلِبُ إِلَى الوَرَاءِ؛ فَمَا أَعْظَمَ رَأْفَةَ الرَّحِيمِ الَّذِي يَخْتَبِرُ القُلُوبَ لِيُزَكِّيَهَا، ثُمَّ يَمْسَحُ عَنْهَا خَوْفَ الضَّيَاعِ بِبُشْرَى حِفْظِ الأُجُورِ وَتَقَبُّلِ الطَّاعَاتِ السَّالِفَةِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى ثَبَاتٍ رَاسِخٍ خَلْفَ خُطَى الرَّسُولِ فِي كُلِّ تَحَوُّلٍ، وَيَقِينٍ بِرَأْفَةِ السَّمَاءِ الوَاسِعَةِ؛ فَكُلُّ انْقِلَابٍ عَنْ طَاعَةِ الوَحْيِ هُوَ هَزِيمَةٌ أَمَامَ الِامْتِحَانِ، وَلَا ضَيَاعَ لِإِيمَانٍ صَادِقٍ فِي حَضْرَةِ اللهِ الرَّءُوفِ الرَّحِيمِ.

تَقَلُّبُ الوَجْهِ وَمِحْرَابُ الكَعْبَةِ

صَدَى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 144]

أُبْصِرُ وَجْهَ النَّبِيِّ الكَرِيمِ وَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي آفاقِ السَّمَاءِ بِشَوْقٍ صَامِتٍ وَرَجَاءٍ خَاشِعٍ يَنْتَظِرُ الإِذْنَ بِالتَّوَجُّهِ نَحْوَ بَيْتِ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ، فَتُنْزِلُ السَّمَاءُ جَبْرَ الخَاطِرِ لِتُقِرَّ عَيْنَهُ بِقِبْلَةٍ يَرْضَاهَا؛ وَأَسْتَشْعِرُ فِي أَعْمَاقِي لُطْفَ الرَّبِّ الحَنَانِ الَّذِي يَسْتَجِيبُ لِتَطَلُّعَاتِ القُلُوبِ الصَّادِقَةِ قَبْلَ أَنْ تَنْطِقَ بِهَا الشِّفَاهُ، وَيَجْمَعُ شَتَاتَ المؤْمِنِينَ فِي أَقْطَارِ الأَرْضِ نَحْوَ نُقْطَةٍ وَاحِدَةٍ؛ وَكَمْ تَقَلَّبَ بَصَرِي فِي السَّمَاءِ أَبْحَثُ عَنْ مَخْرَجٍ مِنْ حَيْرَتِي وَضِيقِي، فَمَا إِنْ صَدَقَ اللُّجُوءُ حَتَّى انْقَشَعَتِ الغُيُومُ وَتَحَدَّدَتْ وِجْهَةُ النَّجَاةِ بِوُضُوحٍ لَا لَبْسَ فِيهِ؛ أَتَأَمَّلُ إِبْرَةَ المِغْنَاطِيسِ المضْطَرِبَةَ كَيْفَ تَهْدَأُ وَتَسْتَقِرُّ فِي سَكِينَةٍ تَامَّةٍ حِينَ تَسْتَقْبِلُ مَرْكَزَ الجَاذِبِيَّةِ الأَعْظَمَ، بَيْنَمَا يَعْلَمُ الجَاحِدُونَ صِدْقَ اتِّجَاهِهَا وَلَكِنَّهُمْ يُكابِرُونَ؛ فَمَا أَعْظَمَ مَشْهَدَ الأُمَّةِ كُلِّهَا وَهِيَ تَسْتَدِيرُ كَجَسَدٍ وَاحِدٍ شَطْرَ المسْجِدِ الحَرَامِ، لِتُعْلِنَ وِحْدَةَ الصَّفِّ وَصِدْقَ النُّبُوَّةِ رَغْمَ كِتْمَانِ أَهْلِ الكِتَابِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى بُوصَلَةٍ رُوحِيَّةٍ تُوَحِّدُ وِجْهَتِي أَيْنَمَا كُنْتُ، وَتَمْلَأُ قَلْبِي بِالثِّقَةِ فِي اسْتِجَابَةِ السَّمَاءِ؛ فَكُلُّ تَوَجُّهٍ لِغَيْرِ قِبْلَةِ التَّوْحِيدِ هُوَ تَشَتُّتٌ وَحَيْرَةٌ، وَلَا اسْتِقْرَارَ لِلْقَلْبِ إِلَّا فِي اسْتِقْبَالِ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ تَحْتَ بَصَرِ مَنْ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

صَخْرَةُ العِنَادِ وَانْقِطَاعُ التَّبَعِيَّةِ

صَدَى ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 145]

أُبْصِرُ جِدَارَ العِنَادِ الصُّلْبَ الَّذِي يَبْنِيهِ الهَوَى حَوْلَ القُلُوبِ الجَاحِدَةِ، فَلَا تَنْفُذُ إِلَيْهِ أَشِعَّةُ البَرَاهِينِ وَلَوِ اجْتَمَعَتْ كُلُّ آيَاتِ الكَوْنِ وَالمعْجِزَاتِ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ؛ وَأَشْعُرُ بِقُوَّةِ التَّمَايُزِ وَالِاسْتِقْلَالِ الحَقِّ حِينَ يَحْسِمُ الوَحْيُ الأَمْرَ بِانْقِطَاعِ التَّبَعِيَّةِ، فَلَا أَهْلُ النُّورِ يَتْبَعُونَ قِبْلَةَ التَّحْرِيفِ وَلَا المتَنَاحِرُونَ

يَتَّفِقُونَ عَلَى وِجْهَةٍ وَاحِدَةٍ؛ وَكَمْ بَذَلْتُ مِنَ الجُهْدِ لِإِقْنَاعِ قُلُوبٍ أَغْلَقَهَا التَّعَصُّبُ بِأَلْفِ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ، حَتَّى أَدْرَكْتُ أَنَّ العَمَى عَمَى البَصِيرَةِ لَا قِلَّةُ الأَدِلَّةِ، وَأَنَّ مُجَارَاةَ الأَهْوَاءِ بَعْدَ العِلْمِ ظُلْمٌ عَظِيمٌ؛ أَرَى الصَّخْرَةَ الصَّمَّاءَ المِطْلِيَّةَ بِالشَّمْعِ تَنْزَلِقُ عَنْهَا كُلُّ قَطَرَاتِ المَطَرِ الغَزِيرِ دُونَ أَنْ تَبْتَلَّ ذَرَّةٌ مِنْ جَوْفِهَا، بَيْنَمَا تَتَشَقَّقُ الأَرْضُ لِتَبْلَعَ سُيُولَ الغَيْثِ وَتُخْرِجَ الحَيَاةَ؛ فَمَا أَشَدَّ تَحْذِيرَ السَّمَاءِ مِنْ مُدَاهَنَةِ الأَهْوَاءِ البَشَرِيَّةِ بَعْدَ وُضُوحِ العِلْمِ اليَقِينِيِّ، إِذْ يَصِيرُ التَّنَازُلُ عَنِ الحَقِّ انْحِرَاطاً فِي صَفِّ الظَّالِمِينَ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى ثَبَاتٍ لَا يَتَزَحْزَحُ أَمَامَ عِنَادِ الجَاحِدِينَ، وَيُحَصِّنُ عِلْمِي مِنْ لَوْثَةِ المُسَاوَمَةِ؛ فَكُلُّ مُحَاوَلَةٍ لِإِرْضَاءِ المُتَعَصِّبِينَ عَلَى حِسَابِ اليَقِينِ هِيَ ظُلْمٌ لِلنَّفْسِ، وَلَا اسْتِقَامَةَ إِلَّا فِي الثَّبَاتِ عَلَى العِلْمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ.

مَعْرِفَةُ الأَبْنَاءِ وَكِتْمَانُ النُّورِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 146]

أَقِفُ مَذْهُولاً أَمَامَ هَذَا التَّصْوِيرِ القُرْآنِيِّ المُعْجِزِ الَّذِي يَكْشِفُ سَرِيرَةَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ، فَهُمْ يُبْصِرُونَ مَلَامِحَ الرَّسُولِ وَصِدْقَ نُبُوَّتِهِ بِوُضُوحٍ يَفُوقُ مَعْرِفَةَ الأَبِ بِمَلَامِحِ ابْنِهِ بَيْنَ الحُشُودِ؛ وَأَشْعُرُ بِبَشَاعَةِ الجُحُودِ حِينَ يَتَحَوَّلُ اليَقِينُ الدَّاخِلِيُّ إِلَى كِتْمَانٍ مُتَعَمَّدٍ، فَيَدْفِنُ العَالِمُ شَمْسَ الحَقِيقَةِ تَحْتَ رَمَادِ الحَسَدِ وَالخَوْفِ عَلَى الرِّئَاسَةِ وَالمَتَاعِ؛ وَكَمْ رَأَيْتُ الحَقَّ وَاضِحاً كَالشَّمْسِ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ، ثُمَّ نَازَعَتْنِي نَفْسِي لِكِتْمَانِهِ أَوْ تَأْوِيلِهِ خَوْفاً مِنْ خَسَارَةِ مَصْلَحَةٍ عَابِرَةٍ أَوْ مَكَانَةٍ وَهْمِيَّةٍ؛ أَتَأَمَّلُ الأُمَّ الَّتِي تَعْرِفُ صَوْتَ وَلِيدِهَا وَبَصْمَةَ وَجْهِهِ دُونَ شَكٍّ أَوِ الْتِبَاسٍ، ثُمَّ تَتَنَكَّرُ لَهُ أَمَامَ النَّاسِ وَتَدَّعِي أَنَّهَا لَا تَعْرِفُهُ طَمَعاً فِي عَرَضٍ زَائِلٍ؛ فَمَا أَعْظَمَ خِيَانَةَ مَنْ آتَاهُ الخَالِقُ نُورَ الكِتَابِ لِيَهْدِيَ بِهِ الحَائِرِينَ، فَاسْتَخْدَمَ عِلْمَهُ لِإِطْفَاءِ المَنَارَاتِ وَتَضْلِيلِ السَّائِرِينَ وَهُوَ يَعْلَمُ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى شَجَاعَةٍ تَصْدَعُ بِالحَقِّ الَّذِي تَعْرِفُهُ الفِطْرَةُ وَالعِلْمُ، وَتَرْفُضُ جَرِيمَةَ الكِتْمَانِ؛ فَكُلُّ كِتْمَانٍ لِلْحَقِّ بَعْدَ تَمَامِ المَعْرِفَةِ هُوَ جَرِيمَةٌ فِي حَقِّ الحَقِيقَةِ، وَلَا بَرَاءَةَ لِلْعَالِمِ إِلَّا بِإِظْهَارِ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ دُونَ خَوْفٍ أَوْ مُدَاهَنَةٍ.

صَخْرَةُ اليَقِينِ وَزَبَدُ المِمْتَرِينَ

صَدَى ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: 147]

أُبْصِرُ الحَقَّ وَهُوَ يَتَنَزَّلُ مِنْ مَنْبَعِ الرُّبُوبِيَّةِ الصَّافِي كَالشَّلَّالِ العَظِيمِ الَّذِي لَا يَعْتَرِيهِ كَدَرٌ وَلَا يُخَالِطُهُ شَكٌّ، فَتَسْكُنُ إِلَيْهِ الرُّوحُ كَمَا يَسْكُنُ المسَافِرُ التَّائِهُ إِلَى بَيْتِهِ الآمِنِ؛ وَأَشْعُرُ بِقُوَّةِ الحَسْمِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يَقْتَلِعُ جُذُورَ التَّرَدُّدِ وَالِامْتِرَاءِ مِنَ القَلْبِ، فَمَا دَامَ النُّورُ صَادِراً عَنْ رَبِّ العَالَمِينَ فَلَا مَكَانَ لِوَسَاوِسِ المشَكِّكِينَ؛ وَكَمْ تَسَلَّلَتْ إِلَى عَقْلِي غُيُومُ الِارْتِيَابِ حِينَ أَصْغَيْتُ إِلَى ضَجِيجِ المجَادِلِينَ، حَتَّى أَشْرَقَتْ هَذِهِ الحَقِيقَةُ الكَوْنِيَّةُ فَبَدَّدَتْ كُلَّ ضَبَابِ الحَيْرَةِ وَالتَّرَدُّدِ؛ أَرَى الجَبَلَ الأَشَمَّ يَرْسُو فِي أَعْمَاقِ الأَرْضِ بِثَبَاتٍ أَبَدِيٍّ، بَيْنَمَا تَتَلَاشَى رِيَاحُ الشَّكِّ وَالغُبَارِ العَابِرَةِ حَوْلَ قِمَّتِهِ دُونَ أَنْ تُحَرِّكَ فِيهِ حَصَاةً وَاحِدَةً؛ فَمَا أَعْظَمَ هَذَا النِّدَاءَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي يَصُونُ القَلْبَ عَنْ مَهَاوِي الشَّكِّ، وَيُرْسِي سَفِينَةَ الإِيمَانِ عَلَى شَاطِئِ اليَقِينِ المطْلَقِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى حِصْنٍ مَنِيعٍ يَرُدُّ سِهَامَ الوَسْوَسَةِ، وَيَمْلَأُ صَدْرِي بِطُمَأْنِينَةِ التَّصْدِيقِ الجَازِمِ؛ فَكُلُّ امْتِرَاءٍ فِي آيَاتِ السَّمَاء

ِ هُوَ زَبَدٌ يَذْهَبُ جُفَاءً، وَلَا ثَبَاتَ لِلْعَقْلِ وَالرُّوحِ إِلَّا فِي الحَقِّ النَّازِلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

مِضْمَارُ الخَيْرَاتِ وَسَاحَةُ الجَمْعِ

صَدَى ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 148]

أَنْظُرُ إِلَى خَرِيطَةِ البَشَرِ وَقَدْ تَعَدَّدَتْ فِيهَا الوُجْهَاتُ وَالمسَالِكُ، فَأَرَى الوَحْيَ يَخْتَصِرُ مَسَافَاتِ الخِلَافِ بِدَعْوَةٍ عَظِيمَةٍ إِلَى الِاسْتِبَاقِ فِي مِضْمَارِ الخَيْرَاتِ وَالبِرِّ؛ وَأَسْتَشْعِرُ فِي أَعْمَاقِي رَهْبَةَ المَوْعِدِ الأَخِيرِ حِينَ يَطْوِي القَدِيرُ أَبْعَادَ المكَانِ وَالزَّمَانِ لِيَجْمَعَ الخَلَائِقَ كُلَّهَا مِنْ أَقْطَارِ الأَرْضِ وَقُعُورِ البِحَارِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ؛ وَكَمْ أَضَعْتُ طَاقَتِي فِي التَّوَقُّفِ عِنْدَ اخْتِلَافِ الوُجْهَاتِ وَمُرَاقَبَةِ السَّائِرِينَ، بَدَلاً مِنْ أَنْ أُطْلِقَ العَنَانَ لِقَدَمَيَّ فِي سِبَاقِ الإِحْسَانِ وَالطَّاعَةِ قَبْلَ انْقِضَاءِ الأَجَلِ؛ أَتَأَمَّلُ السُّحُبَ المتَفَرِّقَةَ فِي أَرْجَاءِ الأُفُقِ كَيْفَ تَسُوقُهَا رِيَاحُ القُدْرَةِ لِتَجْتَمِعَ فِي سَحَابَةٍ وَاحِدَةٍ حِينَ يَأْذَنُ المدَبِّرُ، فَلَا تَشِذُّ مِنْهَا قَطْرَةٌ وَلَا يَغِيبُ مِنْهَا بُخَارٌ؛ فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الحَثَّ الإِلَهِيَّ الَّذِي يُحَوِّلُ التَّنَوُّعَ إِلَى تَنَافُسٍ شَرِيفٍ فِي الخَيْرِ، وَيُذَكِّرُ كُلَّ سَاعٍ أَنَّ مَرْجِعَ الجَمِيعِ إِلَى قَبْضَةِ القَدِيرِ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ جَمْعُ

الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى هِمَّةٍ عَالِيَةٍ تُسَابِقُ الزَّمَنَ فِي صُنْعِ المَعْرُوفِ، وَتَسْتَعِدُّ لِيَوْمِ الحَشْرِ العَظِيمِ؛ فَكُلُّ تَبَاطُؤٍ عَنْ مَيْدَانِ الخَيْرَاتِ هُوَ خَسَارَةٌ لَا تُعَوَّضُ، وَلَا مَفَرَّ لِأَحَدٍ أَيْنَمَا كَانَ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ الَّذِي يَأْتِي بِالجَمِيعِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

بُوصَلَةُ الحَقِّ وَنِدَاءُ الخُرُوجِ

صَدَى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 149]

أُبْصِرُ الثَّبَاتَ المُبْدَئِيَّ وَهُوَ يَتَجَسَّدُ فِي تَوْجِيهٍ وَاحِدٍ لَا يَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الأَمْكِنَةِ وَالأَسْفَارِ، فَمِنْ أَيِّ بَابٍ خَرَجَ المُسَافِرُ وَفِي أَيِّ أَرْضٍ نَزَلَ يَبْقَى وَجْهُهُ مُتَّجِهاً شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ؛ وَأَشْعُرُ بِرَابِطَةٍ خَفِيَّةٍ تَشُدُّ قَلْبِي إِلَى مَرْكَزِ التَّوْحِيدِ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ، فَتَمْنَحُنِي هَذِهِ القِبْلَةُ الثَّابِتَةُ هُوِيَّةً لَا تَذُوبُ فِي غُرْبَةِ الطُّرُقَاتِ وَلَا تَتَشَتَّتُ فِي زِحَامِ المُدُنِ؛ وَكَمْ تَغَيَّرَتْ مَوَاقِفِي وَاضْطَرَبَتْ قَنَاعَاتِي كُلَّمَا خَرَجْتُ مِنْ بِيئَةٍ إِلَى أُخْرَى، حَتَّى عَلَّمَنِي الوَحْيُ أَنَّ الحَقَّ النَّازِلَ مِنَ السَّمَاءِ ثَابِتٌ لَا يَتَبَدَّلُ بِتَبَدُّلِ الجُغْرَافِيَا؛ أَرَى الفَلَّاحَ الَّذِي يَمْشِي فِي حَقْلِهِ الوَاسِعِ وَيُبْقِي عَيْنَهُ مُثَبَّتَةً عَلَى قِمَّةِ الجَبَلِ البَعِيدَةِ حَتَّى يَسْتَقِيمَ خَطُّ مِحْرَاثِهِ وَلَا يَمِيلَ يَمِيناً وَلَا شِمَالاً؛ فَمَا أَعْظَمَ تَأْكِيدَ السَّمَاءِ عَلَى أَنَّ اسْتِقْبَالَ البَيْتِ الحَرَامِ هُوَ الحَقُّ المُطْلَقُ مِنَ الرَّبِّ، وَأَنَّ كُلَّ حَرَكَةٍ وَالتِفَاتَةٍ مَرْصُودَةٌ بِعِلْمِ الرَّقِيبِ الَّذِي لَا يَغْفُلُ عَنْ أَعْمَالِ العِبَادِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى ثَبَاتٍ فِي السَّفَرِ وَالحَضَرِ، وَمُرَاقَبَةٍ دَائِمَةٍ لِمَنْ يَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِي وَنِيَّتِي؛ فَكُلُّ خُرُوجٍ عَنْ بُوصَلَةِ الحَقِّ هُوَ ضَيَاعٌ فِي التِّيهِ، وَلَا اسْتِقَامَةَ لِلسَّائِرِ إِلَّا بِتَوْلِيَةِ وَجْهِهِ شَطْرَ قِبْلَةِ اللهِ الَّذِي لَيْسَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

حُجَّةُ الثَّبَاتِ وَتَمَامُ النِّعْمَةِ

صَدَى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 150]

أُبْصِرُ الحِكْمَةَ البَالِغَةَ خَلْفَ هَذَا التَّأْكِيدِ الثَّالِثِ عَلَى اسْتِقْبَالِ الكَعْبَةِ، فَأَرَى كَيْفَ يَقْطَعُ الوَحْيُ أَلْسِنَةَ المُتَرَبِّصِينَ وَيُسْقِطُ كُلَّ حُجَّةٍ لِلْمُعَانِدِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَحْتَجُّونَ بِمُوَافَقَةِ قِبْلَتِهِمُ المَنْسُوخَةِ؛ وَأَسْتَشْعِرُ فِي أَعْمَاقِي عِزَّةَ المُؤْمِنِ الَّذِي يَتَحَرَّرُ مِنْ خَوْفِ الظَّالِمِينَ وَأَرَاجِيفِهِمْ، فَلَا يَخْشَى إِلَّا خَالِقَهُ الَّذِي أَرَادَ بِهَذَا التَّشْرِيعِ إِتْمَامَ النِّعْمَةِ وَالهِدَايَةِ عَلَى عِبَادِهِ؛ وَكَمْ أَرْعَبَنِي قَدِيماً كَلَامُ الظَّالِمِينَ وَلَغَطُ المُكَابِرِينَ الَّذِينَ لَا يَقْنَعُونَ بِبُرْهَانٍ وَلَا يَسْكُتُونَ عَنْ طَعْنٍ، حَتَّى شَفَتْنِي هَذِهِ الآيَةُ بِقَاعِدَةٍ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي؛ أَرَى السَّفِينَةَ العِمْلَاقَةَ تَشُقُّ عُبَابَ البَحْرِ بِأَشْرِعَةٍ مَرْفُوعَةٍ نَحْوَ المِينَاءِ المَقْصُودِ، فَلَا تَتَوَقَّفُ لِتُجَادِلَ الصُّخُورَ الصَّمَّاءَ عَلَى السَّاحِلِ وَلَا تَخْشَى زَبَدَ الأَمْوَاجِ المُعَانِدَةِ؛ فَمَا أَعْظَمَ مِنْحَةَ السَّمَاءِ الَّتِي تَجْمَعُ لِلْمُؤْمِنِينَ بَيْنَ قَطْعِ حُجَجِ الخُصُومِ، وَتَحْرِيرِ القُلُوبِ مِنْ خَوْفِ الخَلْقِ، وَإِتْمَامِ نِعْمَةِ الدِّينِ وَالهِدَايَةِ الكَامِلَةِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى شَجَاعَةٍ لَا تَهَابُ ظُلْمَ المُعَانِدِينَ، وَشُكْرٍ عَمِيقٍ عَلَى نِعْمَةِ الهِدَايَةِ التَّامَّةِ؛ فَكُلُّ خَوْفٍ مِنْ غَيْرِ الخَالِقِ هُوَ قَيْدٌ يَشُلُّ الخُطَى، وَلَا تَمَامَ لِلنِّعْمَةِ وَلَا كَمَالَ لِلْهِدَايَةِ إِلَّا فِي طَاعَةِ اللهِ وَخَشْيَتِهِ وَحْدَهُ.

مِشْكَاةُ النُّبُوَّةِ وَيَنَابِيعُ التَّزْكِيَةِ

صَدَى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151]

أُبْصِرُ شَمْسَ الرِّسَالَةِ وَهِيَ تُشْرِقُ مِنْ بَيْنِ أَضْلُعِ البَشَرِيَّةِ، فَأَرَى رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِنَا يَحْمِلُ مَشَاعِلَ التِّلَاوَةِ لِيَغْسِلَ صَدَأَ القُلُوبِ وَيَرْفَعَ العُقُولَ مِنْ حَضِيضِ الجَهْلِ إِلَى آفَاقِ الحِكْمَةِ؛ وَأَسْتَشْعِرُ فِي أَعْمَاقِي حَاجَةَ رُوحِي الدَّائِمَةَ إِلَى هَذَا البِنَاءِ الرَّبَّانِيِّ المُتَكَامِلِ الَّذِي يُطَهِّرُ نَفْسِي بِالتَّزْكِيَةِ قَبْلَ أَنْ يَمْلَأَ عَقْلِي بِالمَعْرِفَةِ؛ وَكَمْ تَاهَتْ بَصِيرَتِي فِي مَتَاهَاتِ الظُّنُونِ وَالجَهْلِ المُطْبِقِ، حَتَّى أَخَذَ الوَحْيُ بِيَدِي لِيُعَلِّمَنِي مَا لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ مِنْ أَسْرَارِ الوُجُودِ وَمَقَاصِدِ الحَيَاةِ؛ أَتَأَمَّلُ البُسْتَانِيَّ الحَكِيمَ كَيْفَ يُنَقِّي الأَرْضَ مِنَ الأَشْوَاكِ الضَّارَّةِ وَيَسْقِيهَا بِالمَاءِ العَذْبِ، ثُمَّ يَغْرِسُ فِيهَا البُذُورَ الطَّيِّبَةَ لِتُثْمِرَ حِكْمَةً وَنُوراً يَسْتَظِلُّ بِهِ السَّائِرُونَ؛ فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ السَّمَاءِ الَّتِي أَرْسَلَتْ فِينَا مُعَلِّماً وَمُزَكِّياً يُخْرِجُ الإِنْسَانَ مِنْ ظُلُمَاتِ الوَهْمِ إِلَى نُورِ اليَقِينِ وَالبَصِيرَةِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى مَدْرَسَةٍ

حَيَّةٍ تُطَهِّرُ قَلْبِي وَتُنِيرُ عَقْلِي بِآيَاتِ الوَحْيِ؛ فَكُلُّ عِلْمٍ يَنْقَطِعُ عَنْ نُورِ النُّبُوَّةِ هُوَ حَيْرَةٌ وَتِيهٌ، وَلَا طَهَارَةَ لِلنَّفْسِ وَلَا حِكْمَةَ لِلْعَقْلِ إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَاهُ اللهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ.

مِحْرَابُ الذِّكْرِ وَمَنْبَعُ الشُّكْرِ

صَدَى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152]

أُصْغِي إِلَى هَذَا العَهْدِ السَّمَاوِيِّ المُدْهِشِ الَّذِي يَرْفَعُ العَبْدَ الفَانِيَ إِلَى مَقَامِ المَذْكُورِينَ فِي المَلَأِ الأَعْلَى، فَكُلَّمَا تَحَرَّكَ اللِّسَانُ وَالقَلْبُ بِذِكْرِ الخَالِقِ أَشْرَقَتْ رَحْمَةُ السَّمَاءِ بِذِكْرِهِ؛ وَأَشْعُرُ بِرَعْشَةِ الفَرَحِ وَالهَيْبَةِ تَسْرِي فِي أَوْصَالِي حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ شُكْرَ النِّعَمِ هُوَ السِّيَاجُ الَّذِي يَحْفَظُهَا مِنَ الزَّوَالِ، بَيْنَمَا يُحَوِّلُهَا الجُحُودُ إِلَى حُجَّةٍ وَوَبَالٍ؛ وَكَمْ جَفَّتْ أَرْضُ رُوحِي وَضَاقَ صَدْرِي بِالْوَحْشَةِ حِينَ غَفَلْتُ عَنِ الذِّكْرِ، فَكُنْتُ كَمَنْ يُغْلِقُ نَافِذَتَهُ عَنِ الشَّمْسِ ثُمَّ يَشْكُو بَرْدَ الظَّلَامِ؛ أَرَى المِرْآةَ الصَّافِيَةَ الَّتِي تَسْتَقْبِلُ أَشِعَّةَ الفَجْرِ كَيْفَ تَتَلَأْلَأُ بِالضِّيَاءِ وَتَعْكِسُهُ عَلَى مَا حَوْلَهَا، بَيْنَمَا تَبْقَى الصَّخْرَةُ المُظْلِمَةُ بَارِدَةً مَحْرُومَةً مِنْ دِفْءِ الشُّرُوقِ؛ فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ الجَلِيلِ الَّذِي يُقَابِلُ ذِكْرَ العَبْدِ الضَّعِيفِ بِذِكْرٍ أَعْظَمَ وَأَبْقَى، وَيَرْبِطُ دَوَامَ العَطَاءِ بِنَبْضِ الشُّكْرِ وَالِاعْتِرَافِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى نَبْضٍ دَائِمٍ لَا يَفْتُرُ عَنِ التَّسْبِيحِ وَالحَمْدِ، فَأَحْيَا فِي مَعِيَّةِ المَذْكُورِينَ؛ فَكُلُّ غَفْلَةٍ عَنِ الذِّكْرِ هِيَ انْقِطَاعٌ عَنْ مَدَدِ الحَيَاةِ، وَلَا رِفْعَةَ لِلْعَبْدِ إِلَّا أَنْ يَذْكُرَ اللهَ فَيَذْكُرَهُ اللهُ.

جَنَاحَا الصَّبْرِ وَمِعْرَاجُ الصَّلَاةِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153]

أَقِفُ عَلَى عَتَبَةِ العَاصِفَةِ وَالرِّيَاحُ تَضْرِبُ أَشْرِعَةَ الحَيَاةِ، فَأَرَى الوَحْيَ يَمْنَحُنِي جَنَاحَيْنِ عَظِيمَيْنِ أُحَلِّقُ بِهِمَا فَوْقَ أَمْوَاجِ البَلَاءِ: صَبْرٌ يُثَبِّتُ الجُذُورَ فِي الأَرْضِ، وَصَلَاةٌ تَصِلُ الرُّوحَ بِالسَّمَاءِ؛ وَأَشْعُرُ بِدِفْءِ المَعِيَّةِ الإِلَهِيَّةِ يَغْمُرُ قَلْبِي حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ الصَّابِرَ لَيْسَ وَحِيداً فِي مَيْدَانِ المُجَاهَدَةِ، بَلْ هُوَ فِي كَنَفِ القَوِيِّ الجَبَّارِ وَرِعَايَتِهِ الخَاصَّةِ؛ وَكَمْ انْكَسَرَتْ مَجَاذِيفِي فِي بَحْرِ الهُمُومِ حِينَ اسْتَعَنْتُ بِحَوْلِي وَقُوَّتِي، فَمَا إِنْ فَرَشْتُ سَجَّادَةَ الصَّلَاةِ وَتَدَرَّعْتُ بِالصَّبْرِ حَتَّى انْقَلَبَتِ المِحْنَةُ إِلَى سَكِينَةٍ؛

أَتَأَمَّلُ النَّخْلَةَ البَاسِقَةَ فِي وَجْهِ الرِّيحِ العَاتِيَةِ كَيْفَ تَضْرِبُ عُرُوقَهَا فِي أَعْمَاقِ الثَّرَى بِصَبْرٍ صَامِتٍ، بَيْنَمَا تَرْفَعُ سَعَفَهَا نَحْوَ السَّمَاءِ لِتَسْتَقْبِلَ النُّورَ وَالنَّدَى؛ فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الزَّادَ الرُّوحِيَّ الَّذِي يَجْعَلُ الصَّبْرَ حِصْناً وَالصَّلَاةَ مِعْرَاجاً، وَيُتَوِّجُ المجَاهِدِينَ بِوَعْدِ المعِيَّةِ الَّذِي لَا يُقْهَرُ صَاحِبُهُ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى مَلَاذٍ أَلْجَأُ إِلَيْهِ عِنْدَ كُلِّ كَرْبٍ، فَأَسْتَمِدُّ القُوَّةَ مِنْ مِحْرَابِ السُّجُودِ وَثَبَاتِ اليَقِينِ؛ فَكُلُّ اسْتِعَانَةٍ بِغَيْرِ الخَالِقِ هِيَ اتِّكَاءٌ عَلَى سَرَابٍ، وَلَا نَصْرَ وَلَا طُمَأْنِينَةَ إِلَّا لِلصَّابِرِينَ الَّذِينَ يَكُونُ مَعَهُمُ اللهُ.

حَيَاةُ الشُّهَدَاءِ وَوَهْمُ الفَنَاءِ

صَدَى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 154]

أُبْصِرُ الحِجَابَ الشَّفَّافَ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ عَالَمِ الشَّهَادَةِ وَعَالَمِ الغَيْبِ، فَأَرَى كَيْفَ تَنْخَدِعُ العُيُونُ القَاصِرَةُ بِسُكُونِ الأَجْسَادِ فِي سَاحَاتِ الفِدَاءِ، بَيْنَمَا تَنْطَلِقُ الأَرْوَاحُ إِلَى حَيَاةٍ أَرْحَبَ وَأَبْقَى؛ وَأَشْعُرُ بِضَآلَةِ مَقَايِيسِي الحِسِّيَّةِ الَّتِي تَحْكُمُ بِالمَوْتِ عَلَى مَنْ خَلَعُوا ثَوْبَ الطِّينِ لِيَرْتَدُوا حُلَلَ الخُلُودِ فِي رِحَابِ الرَّفِيقِ الأَعْلَى؛ وَكَمْ حَزِنْتُ قَدِيماً عَلَى رَحِيلِ الأَبْرَارِ وَظَنَنْتُ أَنَّ دِمَاءَهُمْ قَدْ جَفَّتْ فِي التُّرَابِ، حَتَّى كَشَفَ لِي الوَحْيُ أَنَّهُمْ أَحْيَاءٌ يَرْفُلُونَ فِي نَعِيمٍ لَا تُدْرِكُهُ حَوَاسُّنَا المحْدُودَةُ؛ أَرَى البَذْرَةَ الَّتِي تُدْفَنُ فِي ظُلْمَةِ الأَرْضِ فَيَظُنُّ الجَاهِلُ أَنَّهَا فَنِيَتْ وَانْتَهَتْ، بَيْنَمَا هِيَ تَتَفَتَّحُ فِي الخَفَاءِ لِتُصْبِحَ شَجَرَةً خَضْرَاءَ تُعَانِقُ السَّحَابَ وَتُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ؛ فَمَا أَعْظَمَ كَرَامَةَ الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ لِخَالِقِهِمْ، فَنَقَلَهُمْ مِنَ الحَيَاةِ الضَّيِّقَةِ الفَانِيَةِ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ لَا يَشْعُرُ بِكُنْهِهَا أَهْلُ الدُّنْيَا؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى بَصِيرَةٍ تَرَى المَوْتَ فِي سَبِيلِ الحَقِّ وِلَادَةً جَدِيدَةً، وَتُحَرِّرُنِي مِنْ رُعْبِ الفَنَاءِ؛ فَكُلُّ حَيَاةٍ تُبْذَلُ فِي طَاعَةِ الخَالِقِ هِيَ خُلُودٌ لَا يَنْقَطِعُ، وَلَا مَوْتَ حَقِيقِيّاً لِمَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ بَلْ هُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَهُ.

أَتُونُ الِابْتِلَاءِ وَبُشْرَى الصَّابِرِينَ

صَدَى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 155]

أَقِفُ أَمَامَ سُنَّةِ الِابْتِلَاءِ الكَوْنِيَّةِ الَّتِي تَهُزُّ أَغْصَانَ الحَيَاةِ لِتُسْقِطَ الأَوْرَاقَ الصَّفْرَاءَ وَتُبْقِي الثِّمَارَ النَّاضِجَةَ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَحَوَّلُ الخَوْفُ وَالجُوعُ وَالنَّقْصُ إِلَى مِحَكٍّ يَكْشِفُ صِدْقَ الإِيمَانِ؛ وَأَشْعُرُ بِعِنَايَةِ السَّمَاءِ وَرَحْمَتِهَا حِينَ أُلَاحِظُ أَنَّ البَلَاءَ يَأْتِي بِشَيْءٍ يَسِيرٍ تَحْتَمِلُهُ الطَّاقَةُ البَشَرِيَّةُ، لِيَكُونَ جِسْراً يَعْبُرُ بِهِ المؤْمِنُ نَحْوَ بِشَارَةِ الصَّابِرِينَ؛ وَكَمْ جَزِعْتُ عِنْدَ نَقْصِ الثَّمَرَاتِ أَوْ فَقْدِ الأَحِبَّةِ وَظَنَنْتُ أَنَّ الكَوْنَ قَدْ أَظْلَمَ فِي وَجْهِي، حَتَّى أَبْصَرْتُ نُورَ البِشَارَةِ يَلُوحُ فِي أُفُقِ الصَّبْرِ الجَمِيلِ؛ أَتَأَمَّلُ السَّبِيكَةَ الذَّهَبِيَّةَ تَدْخُلُ نَارَ الصَّائِغِ فَتَنْقُصُ فِي وَزْنِهَا قَلِيلاً حِينَ يَذُوبُ عَنْهَا الزَّغَلُ وَالتُّرَابُ، لِتَخْرُجَ بَعْدَ ذَلِكَ صَافِيَةً نَقِيَّةً تَسْتَحِقُّ أَنْ تَكُونَ تَاجاً؛ فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ المبْتَلِي الحَكِيمِ الَّذِي يَخْتَبِرُ قُلُوبَ عِبَادِهِ بِالضِّيقِ وَالفَقْدِ، ثُمَّ يَزُفُّ البُشْرَى الكُبْرَى لِمَنْ ثَبَتُوا وَلَمْ يَنْكَسِرُوا أَمَامَ عَاصِفَةِ القَدَرِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى اسْتِعْدَادٍ نَفْسِيٍّ يَسْتَقْبِلُ النَّقْصَ بِالرِّضَا، وَيَتَطَلَّعُ إِلَى البُشْرَى المؤْعُودَةِ؛ فَكُلُّ بَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا هُوَ سَحَابَةٌ عَابِرَةٌ تُمَحِّصُ القُلُوبَ، وَلَا فَوْزَ فِي نِهَايَةِ المطَافِ إِلَّا لِلصَّابِرِينَ الَّذِينَ بَشَّرَهُمُ اللهُ.

نَشِيدُ الِاسْتِرْجَاعِ وَتِيجَانُ الرَّحْمَةِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 156-157]

أُصْغِي إِلَى هَذَا النَّشِيدِ السَّمَاوِيِّ الَّذِي يُطْفِئُ نِيرَانَ المصِيبَةِ فِي مَهْدِهَا، فَكُلَّمَا نَزَلَتْ سِهَامُ القَدَرِ عَلَى قُلُوبِ الصَّادِقِينَ قَابَلُوهَا بِإِعْلَانِ المِلْكِيَّةِ الكَامِلَةِ لِلْخَالِقِ وَيَقِينِ العَوْدَةِ إِلَيْهِ؛ وَأَسْتَشْعِرُ فِي أَعْمَاقِي بَرْدَ السَّلَامِ وَالسَّكِينَةِ حِينَ أُدْرِكُ أَنَّنِي وَكُلَّ مَا أَمْلِكُ مِلْكٌ لِلَّهِ يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَ يَشَاءُ، فَلَا حَسْرَةَ عَلَى مَا أَخَذَ وَلَا جَزَعَ مِمَّا قَدَّرَ؛ وَكَمْ احْتَرَقَ صَدْرِي بِجَمْرِ الفَقْدِ حِينَ تَوَهَّمْتُ أَنَّ الأَشْيَاءَ مِلْكِي الخَالِصُ، فَمَا إِنْ نَطَقَ لِسَانِي وَقَلْبِي بِكَلِمَةِ الِاسْتِرْجَاعِ حَتَّى تَنَزَّلَتْ عَلَيَّ سَحَائِبُ السَّلْوَى؛ أَرَى الأَمَانَةَ الثَّمِينَةَ تَعُودُ إِلَى مَالِكِهَا الأَوَّلِ بِهُدُوءٍ وَوَقَارٍ، فَيُكَافِئُ الحَارِسَ الأَمِينَ بِأَوْسِمَةِ

الثَّنَاءِ وَالرَّحْمَةِ وَالهِدَايَةِ الَّتِي تَفُوقُ قِيمَةَ مَا فَقَدَ؛ فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الجَوَائِزَ الثَّلَاثَ الَّتِي تَتَنَزَّلُ عَلَى المسْتَرْجِعِينَ: صَلَوَاتٌ مِنَ الرَّبِّ تَرْفَعُ ذِكْرَهُمْ، وَرَحْمَةٌ تَجْبُرُ كَسْرَهُمْ، وَهِدَايَةٌ تُنِيرُ دَرْبَهُمْ فِي ظُلُمَاتِ الحُزْنِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى مَلَاذٍ فَوْرِيٍّ عِنْدَ كُلِّ صَدْمَةٍ، يُحَوِّلُ الأَلَمَ إِلَى قُرْبٍ وَالفَقْدَ إِلَى رِفْعَةٍ؛ فَكُلُّ جَزَعٍ عِنْدَ المصِيبَةِ هُوَ اعْتِرَاضٌ عَلَى المالِكِ الحَقِّ، وَلَا جَبْرَ لِلْقُلُوبِ المكْسُورَةِ إِلَّا بِصَلَوَاتٍ وَرَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِلصَّابِرِينَ المهْتَدِينَ.

شَعَائِرُ السَّعْيِ وَشَاكِرُ القُلُوبِ

صَدَى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158]

أُبْصِرُ جَبَلَيِ الصَّفَا وَالمرْوَةِ وَهُمَا يَنْتَصِبَانِ كَشَاهِدَيْنِ أَبَدِيَّيْنِ عَلَى سَعْيِ الهَاجِرَةِ الصَّابِرَةِ الَّتِي حَوَّلَتِ العَطَشَ وَاليَأْسَ إِلَى نَبْعٍ يَفِيضُ بِالحَيَاةِ وَالتَّوْحِيدِ؛ وَأَشْعُرُ بِدِفْءِ التَّقْدِيرِ الإِلَهِيِّ حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ أَخْطُوهَا فِي مِضْمَارِ الطَّاعَةِ وَالتَّطَوُّعِ لَا تَضِيعُ فِي تُرَابِ الأَرْضِ، بَلْ يُقَابِلُهَا الخَالِقُ بِالشُّكْرِ وَالعِلْمِ؛ وَكَمْ تَرَدَّدَتْ قَدَمَايَ أَمَامَ بَعْضِ أَبْوَابِ الخَيْرِ خَوْفاً مِنْ شُبْهَةٍ عَابِرَةٍ أَوْ تَعَبٍ جَسَدِيٍّ، حَتَّى أَزَالَ الوَحْيُ الحَرَجَ وَفَتَحَ لِي أُفُقَ التَّطَوُّعِ الوَاسِعَ؛ أَتَأَمَّلُ النَّهْرَ الَّذِي يَجْرِي بَيْنَ ضِفَّتَيْنِ صَخْرِيَّتَيْنِ بِحَرَكَةٍ دَائِبَةٍ لَا تَكَلُّ، فَيُحْيِي الوَادِيَ القَاحِلَ وَيَسْقِي العَطْشَى بَرَكَةً وَعَطَاءً تُكَافِئُهُ السَّمَاءُ بِمَزِيدٍ مِنَ الغَيْثِ؛ فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ الشَّاكِرِ العَلِيمِ الَّذِي يَشْكُرُ لِعَبْدِهِ يَسِيرَ العَمَلِ وَيُضَاعِفُ لَهُ الأَجْرَ، وَيُطَهِّرُ الشَّعَائِرَ مِنْ أَوْهَامِ الجَاهِلِيَّةِ لِتَبْقَى مَنَارَاتٍ لِلْخُضُوعِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى سَعْيٍ دَائِبٍ بَيْنَ مَقَامَاتِ العُبُودِيَّةِ، وَمُسَارَعَةٍ إِلَى التَّطَوُّعِ بِكُلِّ خَيْرٍ؛ فَكُلُّ حَرَكَةٍ تَبْتَغِي وَجْهَ الخَالِقِ هِيَ شَعِيرَةٌ مُبَارَكَةٌ، وَلَا يَضِيعُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ عَمَلٍ عِنْدَ اللهِ الشَّاكِرِ العَلِيمِ.

سِفْرُ الصَّدَى التَّاسِعُ

جَرِيمَةُ الكِتْمَانِ وَأَبْوَابُ التَّوْبَةِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 159-160]

أَقِفُ مَرْعُوباً أَمَامَ هَذَا الوَعِيدِ المَزَلْزِلِ الَّذِي يُطَارِدُ كَاتِمِي الحَقِّ وَنُورِ الهِدَايَةِ، فَأَرَى الكَوْنَ كُلَّهُ يَضِجُّ بِاللَّعْنَةِ عَلَى مَنْ يَحْبِسُ ضِيَاءَ الوَحْيِ عَنْ أَعْيُنِ الحَائِرِينَ طَمَعاً فِي مَتَاعٍ رَخِيصٍ؛ وَأَلْتَفِتُ إِلَى بَابِ الرَّحْمَةِ المَفْتُوحِ رَغْمَ فَدَاحَةِ الجُرْمِ، فَأَرَى أَنَّ التَّوْبَةَ الصَّادِقَةَ مِنْ كِتْمَانِ العِلْمِ لَا تَكْتَمِلُ بِالدُّمُوعِ وَحْدَهَا، بَلْ بِالإِصْلَاحِ وَإِظْهَارِ مَا كَانَ مَكْتُوماً لِلنَّاسِ؛ وَكَمْ صَمَتُّ فِي مَوَاقِفَ كَانَ يَجِبُ أَنْ أَصْدَعَ فِيهَا بِالبَيَانِ خَوْفاً مِنْ لَوْمَةِ لَائِمٍ، فَأَحْرَقَنِي نَدَمُ السُّكُوتِ حَتَّى تَدَارَكْتُ ذَلِكَ بِالبَلَاغِ وَالتَّوْضِيحِ؛ أَرَى السَّدَّ المِظْلِمَ الَّذِي يَحْبِسُ مَاءَ النَّهْرِ العَذْبِ عَنِ الحُقُولِ العَطْشَى فَتَلْعَنُهُ الأَشْجَارُ الذَّابِلَةُ، فَإِذَا تَصَدَّعَ السَّدُّ وَتَدَفَّقَ المَاءُ لِيُصْلِحَ مَا أَفْسَدَهُ الجَفَافُ عَادَتِ الحَيَاةُ وَالرَّحْمَةُ إِلَى الوَادِي؛ فَمَا أَعْظَمَ عَدْلَ السَّمَاءِ الَّتِي تَطْرُدُ المُدَلِّسِينَ مِنْ رَحْمَتِهَا، ثُمَّ تَفْتَحُ لَهُمْ طَوْقَ النَّجَاةِ إِذَا تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا الحَقِيقَةَ دُونَ مَوَارَبَةٍ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى أَمَانَةٍ تَأْبَى كِتْمَانَ الهُدَى، وَتُبَادِرُ إِلَى تَصْحِيحِ كُلِّ صَمْتٍ سَابِقٍ بِالبَيَانِ الصَّرِيحِ؛ فَكُلُّ حَبْسٍ لِنُورِ الكِتَابِ هُوَ خِيَانَةٌ تَسْتَجْلِبُ الطَّرْدَ وَاللَّعْنَةَ، وَلَا مَخْرَجَ لِلْمُقَصِّرِ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ وَالإِصْلَاحِ وَالبَيَانِ فِي كَنَفِ اللهِ التَّوَّابِ الرَّحِيمِ.

خَاتِمَةُ الجُحُودِ وَثِقَلُ اللَّعْنَةِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: 161-162]

أُبْصِرُ بَوَّابَةَ المَوْتِ وَهِيَ تُغْلَقُ بِإِحْكَامٍ خَلْفَ مَنْ أَصَرَّ عَلَى الكُفْرِ حَتَّى انْقَطَعَتْ أَنْفَاسُهُ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَحَوَّلُ العِنَادُ المُؤَقَّتُ فِي الدُّنْيَا إِلَى طَرْدٍ أَبَدِيٍّ تَشْتَرِكُ فِيهِ السَّمَاءُ وَالمَلَائِكَةُ وَالخَلَائِقُ أَجْمَعُونَ؛ وَأَشْعُرُ بِرَهْبَةِ الخَاتِمَةِ تَهُزُّ أَرْكَانَ نَفْسِي حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ الفُرْصَةَ مَمْدُودَةٌ مَا دَامَ القَلْبُ يَنْبِضُ،

فَإِذَا حَضَرَ الأَجَلُ عَلَى الجُحُودِ انْقَطَعَ الإِمْهَالُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا العَذَابُ المُقِيمُ؛ وَكَمْ سَوَّفْتُ فِي تَصْحِيحِ مَسَارِي ظَنّاً مِنِّي أَنَّ الأَيَّامَ تَمْتَدُّ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ، حَتَّى أَيْقَظَتْنِي هَذِهِ الآيَةُ عَلَى خَطَرِ المُفَاجَأَةِ الَّتِي لَا يُخَفِّفُ بَعْدَهَا العَذَابُ وَلَا يُؤَجَّلُ؛ أَتَأَمَّلُ السَّفِينَةَ الَّتِي تَرْفُضُ كُلَّ نِدَاءَاتِ الإِنْقَاذِ حَتَّى تَبْتَلِعَهَا اللُّجَّةُ السَّحِيقَةُ، فَلَا يَبْقَى لَهَا أَثَرٌ عَلَى السَّطْحِ وَلَا تَمْلِكُ العَوْدَةَ إِلَى الشَّاطِئِ الآمِنِ مَهْمَا طَالَ الزَّمَنُ؛ فَمَا أَشَدَّ خُسْرَانَ مَنْ يَمُوتُ وَهُوَ كَافِرٌ بِآيَاتِ رَبِّهِ، فَيُحْرَمُ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالإِنْظَارِ وَيَبْقَى فِي ظُلْمَةِ اللَّعْنَةِ الأَبَدِيَّةِ دُونَ نَصِيرٍ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى مُسَارَعَةٍ صَادِقَةٍ لِتَجْدِيدِ الإِيمَانِ وَالتَّوْبَةِ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ، وَالْخَوْفِ مِنْ سُوءِ الخَاتِمَةِ؛ فَكُلُّ إِصْرَارٍ عَلَى البَاطِلِ حَتَّى المَوْتِ هُوَ سُقُوطٌ فِي هَاوِيَةٍ لَا قَرَارَ لَهَا، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِمَنْ لَقِيَ اللهَ بِقَلْبٍ مُؤْمِنٍ قَبْلَ انْغِلَاقِ بَابِ الإِمْهَالِ.

شَمْسُ الوَحْدَانِيَّةِ وَسِعَةُ الرَّحْمَةِ

صَدَى ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]

أُصْغِي إِلَى هَذَا الإِعْلَانِ الكَوْنِيِّ الفَاصِلِ الَّذِي يَجْمَعُ شَتَاتَ القُلُوبِ التَّائِهَةِ تَحْتَ رَايَةِ التَّوْحِيدِ الخَالِصِ، فَأَرَى المَعْبُودَاتِ الزَّائِفَةَ تَتَهَاوَى كَالأَصْنَامِ الخَشَبِيَّةِ أَمَامَ جَلَالِ الإِلَهِ الوَاحِدِ؛ وَأَشْعُرُ بِدِفْءِ الأَمَانِ يَغْمُرُ رُوحِي حِينَ تَقْتَرِنُ الوَحْدَانِيَّةُ المُطْلَقَةُ بِاسْمَيِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَأَعْلَمُ أَنَّ السُّلْطَانَ المُتَفَرِّدَ بِالكَوْنِ هُوَ مَنْبَعُ الرَّحْمَةِ الوَاسِعَةِ وَلَيْسَ جَبَّاراً يَبْطِشُ بِعِبَادِهِ؛ وَكَمْ تَمَزَّقَ قَلْبِي قَدِيماً بَيْنَ مَخَاوِفَ شَتَّى وَرَغَبَاتٍ مُتَنَاقِضَةٍ تَسْتَعْبِدُ رُوحِي، حَتَّى أَرَاحَنِي التَّوْحِيدُ مِنْ عِبَادَةِ الأَرْبَابِ المُتَفَرِّقَةِ إِلَى عِبَادَةِ الوَاحِدِ الأَحَدِ؛ أَرَى الشَّمْسَ الوَاحِدَةَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ تُرْسِلُ ضِيَاءَهَا وَدِفْئَهَا إِلَى كُلِّ المَخْلُوقَاتِ فِي تَنَاغُمٍ فَرِيدٍ، فَلَوْ كَانَ فِي السَّمَاءِ شَمْسَانِ لَاحْتَرَقَتِ الأَرْضُ وَاخْتَلَّ نِظَامُ الوُجُودِ؛ فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الحَقِيقَةَ الَّتِي تَجْعَلُ التَّوْحِيدَ سَكِينَةً لِلْعَقْلِ وَالرَّحْمَةَ بَلْسَماً لِلْقَلْبِ، فَلَا مَلْجَأَ وَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى مِحْرَابِ طُمَأْنِينَةٍ يُوَحِّدُ وِجْهَتِي، وَيَمْلَأُ صَدْرِي بِالرَّجَاءِ فِي رَحْمَةِ الخَالِقِ؛ فَكُلُّ تَعَدُّدٍ فِي الوَلَاءِ هُوَ تَمَزُّقٌ وَضَيَاعٌ، وَلَا أُلُوهِيَّةَ حَقَّةً فِي الوُجُودِ إِلَّا لِلَّهِ الوَاحِدِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

سِفْرُ الكَوْنِ وَعُقُولُ المتَفَكِّرِينَ

صَدَى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164]

أَفْتَحُ عَيْنَيَّ عَلَى كِتَابِ الكَوْنِ المَنْظُورِ الَّذِي يُصَدِّقُ كِتَابَ الوَحْيِ المَسْطُورِ، فَأَرَى السَّمَاوَاتِ المَرْفُوعَةَ وَالأَرْضَ المَمْدُودَةَ وَتَعَاقُبَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ كَحُرُوفٍ نُورَانِيَّةٍ تَشْهَدُ بِوَحْدَانِيَّةِ الصَّانِعِ البَدِيعِ؛ وَأَسْتَشْعِرُ فِي أَعْمَاقِي دَهْشَةَ العَقْلِ الحَيِّ وَهُوَ يَرَى السُّفُنَ تَمْخُرُ عُبَابَ البَحْرِ، وَالمَطَرَ يُوقِظُ الأَرْضَ المَيِّتَةَ بِالحَيَاةِ وَالدَّوَابِّ، وَالرِّيَاحَ تَسُوقُ السَّحَابَ المُسَخَّرَ كَجُنُودٍ مُطِيعِينَ؛ وَكَمْ مَرَرْتُ عَلَى هَذِهِ المَشَاهِدِ الكَوْنِيَّةِ بِعَيْنٍ بَلِيدَةٍ أَلِفَتِ المُعْجِزَةَ حَتَّى ظَنَنْتُهَا عَادَةً، فَحُرِمْتُ مِنْ لَذَّةِ التَّفَكُّرِ وَالخُشُوعِ؛ أَتَأَمَّلُ السَّاعَةَ الكَوْنِيَّةَ الدَّقِيقَةَ الَّتِي تَدُورُ تُرُوسُهَا العِمْلَاقَةُ مِنَ المَجَرَّاتِ وَالبِحَارِ وَالرِّيَاحِ دُونَ خَلَلٍ أَوْ تَصَادُمٍ، فَكُلُّ ذَرَّةٍ فِيهَا تُشِيرُ بِإِصْبَعِ اليَقِينِ إِلَى عَظَمَةِ المُدَبِّرِ الحَكِيمِ؛ فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الآيَاتِ السَّاطِعَةِ الَّتِي تُخَاطِبُ أَصْحَابَ العُقُولِ النَّيِّرَةِ، فَتُحَوِّلُ النَّظَرَ فِي الطَّبِيعَةِ إِلَى عِبَادَةٍ وَيَقِينٍ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى بَصِيرَةٍ تَقْرَأُ اسْمَ الخَالِقِ عَلَى جَبِينِ السَّحَابِ وَمَوْجِ البَحْرِ وَنَبْتِ الأَرْضِ، وَتُحْيِي عَقْلِي بِالتَّدَبُّرِ؛ فَكُلُّ نَظْرَةٍ فِي الكَوْنِ تَخْلُو مِنَ الِاعْتِبَارِ هِيَ غَفْلَةٌ وَعَمًى، وَلَا يَهْتَدِي بِهَذِهِ البَرَاهِينِ إِلَّا قَوْمٌ يَعْقِلُونَ عَظَمَةَ اللهِ.

أَوْثَانُ الهَوَى وَحُبُّ المُؤْمِنِينَ

صَدَى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: 165]

أُبْصِرُ مَحَارِيبَ القُلُوبِ وَقَدْ انْقَسَمَتْ بَيْنَ قَلْبٍ يَغُصُّ بِالأَنْدَادِ وَالأَوْثَانِ الخَفِيَّةِ مِنْ مَالٍ وَجَاهٍ وَهَوًى، وَقَلْبٍ صَافٍ أَفْرَدَ مَحْبُوبَهُ الأَعْظَمَ بِحُبٍّ جَارِفٍ لَا يُضَاهِيهِ شَيْءٌ فِي الوُجُودِ؛ وَأَخْتَبِرُ فِي دَاخِلِي بُوصَلَةَ المَحَبَّةِ الصَّادِقَةِ الَّتِي تَجْعَلُ حُبَّ الخَالِقِ هُوَ الأَصْلَ وَالمِيزَانَ، فَلَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ مَخْلُوقٌ وَلَا يُزَاحِمُهُ شَرِيكٌ فِي سُوَيْدَاءِ الفُؤَادِ؛ وَكَمْ تَعَلَّقَتْ رُوحِي قَدِيماً بِأَنْدَادٍ وَهْمِيَّةٍ ظَنَنْتُ فِيهَا القُوَّةَ

وَالسَّنَدَ، حَتَّى كَشَفَتْ لِي البَصِيرَةُ أَنَّ القُوَّةَ كُلَّهَا مِلْكٌ لِلَّهِ وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ عَاجِزٌ يَتَبَرَّأُ مِنْ مُحِبِّيهِ عِنْدَ نُزُولِ العَذَابِ؛ أَرَى الفَرَاشَةَ المخْدُوعَةَ تَحُومُ حَوْلَ نَارٍ مُتَّقِدَةٍ تَظُنُّهَا نُوراً وَدِفْئاً فَتَحْتَرِقُ بِهَا، بَيْنَمَا تُحَلِّقُ الطُّيُورُ الحَكِيمَةُ نَحْوَ ضِيَاءِ الشَّمْسِ الصَّافِي الَّذِي يَمْنَحُهَا الحَيَاةَ وَالأَمَانَ؛ فَمَا أَشَدَّ نَدَمَ الظَّالِمِينَ حِينَ يُعَايِنُونَ العَذَابَ فَيُدْرِكُونَ بَعْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ أَنَّ القُوَّةَ جَمِيعاً لِلْجَبَّارِ وَحْدَهُ وَلَا نَصِيرَ لِأَنْدَادِهِمْ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى تَطْهِيرٍ لِقَلْبِي مِنْ كُلِّ شَرِيكٍ فِي المحَبَّةِ، وَإِشْعَالٍ لِجَذْوَةِ العِشْقِ الإِلَهِيِّ الصَّادِقِ؛ فَكُلُّ مَحْبُوبٍ يُتَّخَذُ نِدّاً لِلْخَالِقِ هُوَ وَهْمٌ يَنْهَارُ عِنْدَ الحِسَابِ، وَلَا حُبَّ أَصْدَقُ وَلَا أَبْقَى مِنْ حُبِّ المؤْمِنِينَ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ القُوَّةُ جَمِيعاً.

بَرَاءَةُ الطُّغَاةِ وَحَسْرَةُ الأَتْبَاعِ

صَدَى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: 166-167]

أَقِفُ مَذْهُولاً أَمَامَ مَشْهَدِ الانْقِلَابِ المفْجِعِ فِي سَاحَةِ الحِسَابِ، حِينَ يَتَحَوَّلُ سَادَةُ البَاطِلِ وَقَادَةُ الضَّلَالِ إِلَى أَعْدَاءٍ يَتَبَرَّؤُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِمُ الَّذِينَ سَارُوا خَلْفَهُمْ بِعَمًى وَانْقِيَادٍ؛ وَأَشْعُرُ بِبَرْدِ الرُّعْبِ حِينَ أَرَى تَقَطُّعَ كُلِّ الأَسْبَابِ وَالأَنْسَابِ وَالموَدَّاتِ الزَّائِفَةِ عِنْدَ مُعَايَنَةِ النَّارِ، فَيَتَمَنَّى الأَتْبَاعُ عَوْدَةً مُسْتَحِيلَةً إِلَى الدُّنْيَا لِيَرُدُّوا صَفْعَةَ الخُذْلَانِ؛ وَكَمْ سِرْتُ فِي رِكَابِ التَّقْلِيدِ الأَعْمَى وَسَلَّمْتُ عَقْلِي لِأَصْوَاتٍ صَاخِبَةٍ تُزَيِّنُ البَاطِلَ، فَأَيْقَظَتْنِي هَذِهِ الآيَةُ قَبْلَ أَنْ تَتَحَوَّلَ أَعْمَالِي إِلَى حَسَرَاتٍ تَأْكُلُ رُوحِي؛ أَتَأَمَّلُ الغَرْقَى الَّذِينَ تَعَلَّقُوا بِحَبْلٍ مَوْهُومٍ يَمُدُّهُ غَرِيقٌ مِثْلُهُمْ فِي عُرْضِ المحِيطِ، فَمَا إِنْ اقْتَرَبَ المؤْجُ القَاتِلُ حَتَّى تَقَطَّعَ الحَبْلُ وَغَاصَ الجَمِيعُ فِي الظُّلُمَاتِ دُونَ مُنْقِذٍ؛ فَمَا أَشَدَّ عَذَابَ الحَسْرَةِ حِينَ يَرَى الظَّالِمُونَ أَعْمَالَهُمُ الفَاسِدَةَ تَتَجَسَّدُ أَمَامَهُمْ نَدَماً لَا يَنْفَعُ، وَيُغْلَقُ دُونَهُمْ بَابُ الخُرُوجِ مِنَ النَّارِ إِلَى الأَبَدِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى يَقَظَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَرْفُضُ التَّبَعِيَّةَ العَمْيَاءَ لِأَيِّ مَخْلُوقٍ، وَتَزِنُ كُلَّ دَعْوَةٍ بِمِيزَانِ الوَحْيِ؛ فَكُلُّ رَابِطَةٍ تُبْنَى عَلَى البَاطِلِ تَتَمَزَّقُ أَمَامَ العَذَابِ، وَلَا نَجَاةَ مِنَ الحَسَرَاتِ الأَبَدِيَّةِ إِلَّا بِاتِّبَاعِ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيمِ وَحْدَهُ.

طَيِّبَاتُ الأَرْضِ وَخُطُوَاتُ الشَّيْطَانِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 168-169]

أَنْظُرُ إِلَى مَائِدَةِ الأَرْضِ الوَاسِعَةِ الَّتِي بَسَطَهَا الخَالِقُ لِلْبَشَرِ جَمِيعاً، فَأَرَى الحَلَالَ الطَّيِّبَ نَهْراً عَذْباً يَفِيضُ بِالبَرَكَةِ وَالعَافِيَةِ، بَيْنَمَا يَقِفُ الشَّيْطَانُ عَلَى ضِفَافِهِ لِيَسْتَدْرِجَ الغَافِلِينَ خُطْوَةً بَعْدَ خُطْوَةٍ نَحْوَ الحَرَامِ وَالِافْتِرَاءِ؛ وَأُدْرِكُ فِي دَاخِلِي خَطَرَ الخُطُوَاتِ الصَّغِيرَةِ المُتَتَابِعَةِ الَّتِي تَبْدَأُ بِتَسَاهُلٍ خَفِيفٍ ثُمَّ تَنْتَهِي بِالغَرَقِ فِي السُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَالقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ وَكَمْ انْزَلَقَتْ قَدَمِي فِي مَسَالِكَ الشُّبُهَاتِ حِينَ اسْتَهَنْتُ بِالخُطْوَةِ الأُولَى وَنَسِيتُ أَنَّ العَدُوَّ المُبِينَ لَا يَدْعُو إِلَى الهَاوِيَةِ دَفْعَةً وَاحِدَةً بَلْ بِالتَّدْرِيجِ المَاكِرِ؛ أَرَى الصَّيَّادَ الخَبِيثَ يَنْثُرُ حَبَّاتٍ قَلِيلَةً مِنْ طُعْمٍ مَسْمُومٍ عَلَى مَسَافَاتٍ مُتَقَارِبَةٍ، لِيَجُرَّ الطَّائِرَ الحُرَّ خُطْوَةً خُطْوَةً حَتَّى يُطْبِقَ عَلَيْهِ الفَخُّ المُظْلِمُ وَيَفْقِدَ حُرِّيَّتَهُ؛ فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ الوَحْيِ الَّذِي يُبِيحُ لَنَا كُلَّ طَيِّبٍ نَافِعٍ، وَيَكْشِفُ لَنَا مُخَطَّطَ العَدُوِّ الَّذِي يَأْمُرُ بِالرَّذِيلَةِ وَتَحْرِيمِ الحَلَالِ وَتَحْلِيلِ الحَرَامِ بِالْجَهْلِ وَالكَذِبِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى حَذَرٍ يَقِظٍ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ عَلَى أَوَّلِ خُطْوَةٍ لِلْغِوَايَةِ، وَيَكْتَفِي بِالحَلَالِ الطَّيِّبِ المُبَارَكِ؛ فَكُلُّ مَكْسَبٍ خَبِيثٍ هُوَ سُمٌّ يَقْتُلُ طُمَأْنِينَةَ الرُّوحِ، وَلَا عَافِيَةَ لِلْجَسَدِ وَالدِّينِ إِلَّا فِي التَّمَتُّعِ بِطَيِّبَاتِ اللهِ وَمُخَالَفَةِ عَدُوِّهِ المُبِينِ.

أَغْلَالُ التَّقْلِيدِ وَصَمَمُ الآبَاءِ

صَدَى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170]

أُصْغِي إِلَى هَذَا الجُمُودِ العَقْلِيِّ الَّذِي يُقَيِّدُ العُقُولَ بِسَلَاسِلِ المَوْرُوثِ الأَعْمَى، فَكُلَّمَا دُعِيَ الغَافِلُونَ إِلَى نُورِ الوَحْيِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ تَحَصَّنُوا خَلْفَ عَادَاتِ الآبَاءِ وَلَوْ كَانَتْ غَارِقَةً فِي الجَهْلِ وَالضَّلَالِ؛ وَأَشْعُرُ بِرَغْبَةٍ عَارِمَةٍ فِي تَحْرِيرِ عَقْلِي مِنْ كُلِّ قَيْدٍ يُقَدِّسُ المَأْلُوفَ عَلَى حِسَابِ الحَقِيقَةِ، فَالْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ وَإِنْ خَالَفَ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ السَّابِقِينَ؛ وَكَمْ تَرَدَّدْتُ قَدِيماً فِي قَبُولِ فِكْرَةٍ نَيِّرَةٍ أَوْ تَرْكِ عَادَةٍ فَانِيَةٍ لِمجَرَّدِ أَنَّهَا إِرْثٌ قَدِيمٌ أَلِفَتْهُ العَيْنُ وَالأُذُنُ، حَتَّى صَفَعَنِي السُّؤَالُ القُرْآنِيُّ المَوقِظُ لِلْبَصِيرَةِ؛ أَتَأَمَّلُ القَافِلَةَ التَّائِهَةَ فِي صَحْرَاءَ مُظْلِمَةٍ تَسِيرُ خَلْفَ دَلِيلٍ أَعْمَى لَا يُبْصِرُ النُّجُومَ وَلَا

يَعْرِفُ الطَّرِيقَ، فَتَرْفُضُ نِدَاءَ المُنْقِذِ الحَكِيمِ لِأَنَّهَا أَلِفَتِ السَّيْرَ خَلْفَ الضَّلَالِ؛ فَمَا أَشَدَّ تَعَاسَةَ مَنْ يُلْغِي عَقْلَهُ الَّذِي كَرَّمَهُ بِهِ الخَالِقُ، وَيَرْضَى أَنْ يَكُونَ ظِلّاً لِآبَاءٍ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى صِرَاطِ النُّورِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى ثَوْرَةٍ عَقْلِيَّةٍ تُحَطِّمُ أَصْنَامَ التَّقْلِيدِ الأَعْمَى، وَتَجْعَلُ الوَحْيَ وَحْدَهُ هُوَ الحَكَمَ وَالمِيزَانَ؛ فَكُلُّ مَوْرُوثٍ يُخَالِفُ نُورَ السَّمَاءِ هُوَ قَيْدٌ يَجِبُ كَسْرُهُ، وَلَا هِدَايَةَ حَقِيقِيَّةً لِلْإِنْسَانِ إِلَّا فِي اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِعَقْلٍ بَصِيرٍ.

سِفْرُ الصَّدَى العَاشِرُ

نَعِيقُ الغَفْلَةِ وَصَمَمُ القُلُوبِ

صَدَى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171]

أَقِفُ مَذْهُولاً أَمَامَ هَذَا التَّصْوِيرِ القُرْآنِيِّ النَّافِذِ الَّذِي يَرْسُمُ مَشْهَدَ الدَّاعِي إِلَى الهُدَى وَهُوَ يُنَادِي قُلُوباً مُتَحَجِّرَةً لَا تَفْقَهُ مِنَ الوَحْيِ إِلَّا رَنِينَ الأَصْوَاتِ المجَرَّدَةِ كَالبَهَائِمِ السَّارِحَةِ؛ وَأَتَحَسَّسُ فِي دَاخِلِي خَطَرَ التَّلَقِّي الأَجْوَفِ حِينَ تَمُرُّ الآيَاتُ عَلَى أُذُنِي كَصَدًى عَابِرٍ لَا يُوقِظُ عَقْلاً وَلَا يُحَرِّكُ جَارِحَةً نَحْوَ الفَهْمِ وَالِاتِّبَاعِ؛ وَكَمْ أَغْلَقْتُ نَوَافِذَ بَصِيرَتِي عَنْ مَعَانِي الخِطَابِ السَّمَاوِيِّ فَكُنْتُ أَسْمَعُ الكَلِمَاتِ وَلَا أُدْرِكُ أَسْرَارَهَا، فَأَصْبَحْتُ كَالْأَصَمِّ الأَبْكَمِ الأَعْمَى فِي وَضَحِ النَّهَارِ؛ أَرَى الرَّاعِيَ الصَّادِقَ يَصِيحُ فِي الفَلَاةِ لِيُنْقِذَ القَطِيعَ التَّائِهَ مِنْ شَفَا الهَاوِيَةِ، بَيْنَمَا تَكْتَفِي البَهَائِمُ بِسَمَاعِ نَبْرَةِ الصَّوْتِ دُونَ أَنْ تَعْقِلَ مَعْنَى التَّحْذِيرِ أَوْ طَرِيقَ النَّجَاةِ؛ فَمَا أَشَدَّ تَعَاسَةَ مَنْ عَطَّلَ حَوَاسَّ الإِدْرَاكِ فِيهِ، فَسَدَّ أُذُنَيْهِ عَنِ الحَقِّ وَأَخْرَسَ لِسَانَهُ عَنِ الصِّدْقِ وَأَعْمَى بَصِيرَتَهُ عَنِ البُرْهَانِ حَتَّى فَقَدَ نِعْمَةَ العَقْلِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى يَقَظَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَسْتَقْبِلُ نِدَاءَ الوَحْيِ بِفَهْمٍ وَتَدَبُّرٍ، وَتَخْلَعُ ثَوْبَ الصَّمَمِ وَالغَفْلَةِ؛ فَكُلُّ سَمَاعٍ يَخْلُو مِنَ التَّعَقُّلِ هُوَ نَعِيقٌ فِي الفَرَاغِ، وَلَا حَيَاةَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بِقَلْبٍ يَعْقِلُ نِدَاءَ اللهِ وَيَسْتَجِيبُ لَهُ.

مَائِدَةُ الطَّيِّبَاتِ وَتَسْبِيحُ الشُّكْرِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: 172]

أَنْظُرُ إِلَى نِعَمِ الأَرْضِ المتَدَفِّقَةِ كَيَنَابِيعَ صَافِيَةٍ سَاقَهَا الكَرَمُ الإِلَهِيُّ لِتُقِيمَ صُلْبَ المؤْمِنِ وَتُغَذِّيَ جَسَدَهُ بِالحَلَالِ الطَّيِّبِ دُونَ حَرَجٍ أَوْ تَحْرِيمٍ مُبْتَدَعٍ؛ وَأَشْعُرُ بِرَابِطَةِ العُبُودِيَّةِ الحَقَّةِ تَشُدُّ قَلْبِي حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ لُقْمَةٍ طَيِّبَةٍ أَتَنَاوَلُهَا هِيَ رِسَالَةُ حُبٍّ مِنَ الرَّزَّاقِ تَسْتَوْجِبُ شُكْراً يَتَرْجِمُ إِخْلَاصَ الطَّاعَةِ؛ وَكَمْ تَنَاوَلْتُ رِزْقَ السَّمَاءِ بِغَفْلَةٍ وَاعْتِيَادٍ كَأَنَّهُ حَقٌّ مُكْتَسَبٌ لَا مِنَّةٌ مُهْدَاةٌ، فَنَسِيتُ أَنَّ الشُّكْرَ هُوَ البُرْهَانُ الصَّادِقُ عَلَى تَحْقِيقِ العُبُودِيَّةِ الخَالِصَةِ؛ أَتَأَمَّلُ الطَّائِرَ الحُرَّ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ كَيْفَ يَلْتَقِطُ حَبَّاتِ القَمْحِ الطَّيِّبَةِ ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ نَحْوَ الأُفُقِ مُغَرِّداً بِتَسْبِيحِ الِامْتِنَانِ لِمَنْ رَزَقَهُ وَأَطْعَمَهُ؛ فَمَا أَجْمَلَ هَذَا التَّنَاغُمَ بَيْنَ التَّمَتُّعِ بِالطَّيِّبَاتِ وَبَيْنَ الِاعْتِرَافِ بِفَضْلِ الوَاهِبِ، حَيْثُ يَصِيرُ الطَّعَامُ وَقُوداً لِلطَّاعَةِ وَالشُّكْرُ سِيَاجاً يَحْفَظُ النِّعْمَةَ مِنَ الزَّوَالِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى مَائِدَةٍ مِنَ البَرَكَةِ وَالحَمْدِ، تُحَرِّرُنِي مِنْ قُيُودِ التَّحْرِيمِ الوَهْمِيِّ وَتَمْلَأُ صَدْرِي بِالشُّكْرِ؛ فَكُلُّ رِزْقٍ لَا يُقَابَلُ بِالحَمْدِ هُوَ جُحُودٌ لِلْمُنْعِمِ، وَلَا تَتِمُّ العُبُودِيَّةُ الصَّادِقَةُ إِلَّا بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ وَالشُّكْرِ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

سِيَاجُ الطَّهَارَةِ وَرُخْصَةُ الضَّرُورَةِ

صَدَى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 173]

أُبْصِرُ حُدُودَ الحَرَامِ الضَّيِّقَةَ الَّتِي رَسَمَهَا الوَحْيُ لِيَصُونَ فِطْرَةَ الإِنْسَانِ وَجَسَدَهُ وَعَقِيدَتَهُ مِنْ كُلِّ خَبِيثٍ وَمُنَجَّسٍ يُلَوِّثُ الرُّوحَ وَالبَدَنَ؛ وَأَشْعُرُ بِدِفْءِ الرَّحْمَةِ التَّشْرِيعِيَّةِ وَيُسْرِهَا حِينَ أَرَى بَابَ الضَّرُورَةِ يُفْتَحُ عِنْدَ خَطَرِ الهَلَاكِ لِيُبِيحَ لِلْمُضْطَرِّ مَا يَسُدُّ رَمَقَهُ دُونَ بَغْيٍ أَوْ تَجَاوُزٍ لِلْحَدِّ؛ وَكَمْ ظَنَنْتُ أَنَّ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ قُيُودٌ صَلْبَةٌ لَا تَلِينُ أَمَامَ عَوَاصِفِ الحَاجَةِ، حَتَّى أَبْصَرْتُ كَيْفَ تَحْرُسُ السَّمَاءُ حَيَاةَ الإِنْسَانِ وَتَرْفَعُ عَنْهُ الإِثْمَ عِنْدَ الِاضْطِرَارِ الصَّادِقِ؛ أَرَى السَّائِرَ فِي الصَّحْرَاءِ القَاحِلَةِ الَّذِي أَشْرَفَ عَلَى المَوْتِ جُوعاً كَيْفَ تَمُدُّ لَهُ الرَّحْمَةُ يَدَ الرُّخْصَةِ لِيَأْخُذَ قَدْرَ النَّجَاةِ فَقَطْ دُونَ أَنْ يَسْتَمْرِئَ الخَبِيثَ أَوْ يَتَعَدَّى حُدُودَ الحَاجَةِ؛ فَمَا أَعْظَمَ تَوَازُنَ هَذَا الدِّينِ الَّذِي يُطَهِّرُ المَائِدَةَ مِنَ المَيْتَةِ وَالدَّمِ وَالخِنْزِيرِ وَمَا ذُبِحَ لِلْأَوْثَانِ، ثُمَّ يَحْتَضِنُ ضَعْفَ البَشَرِ بِمَغْفِرَةِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ عِنْدَ الشِّدَّةِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى طَهَارَةٍ تَأْبَى الخَبَائِثَ فِي أَيَّامِ السَّعَةِ، وَثِقَةٍ بِيُسْرِ الشَّرِيعَةِ وَرَحْمَتِهَا فِي

سَاعَاتِ العُسْرَةِ؛ فَكُلُّ خَبِيثٍ حَرَّمَهُ الوَحْيُ هُوَ دَاءٌ لِلْجَسَدِ وَالرُّوحِ، وَلَا حَرَجَ فِي الدِّينِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ الغَفُورُ الرَّحِيمُ.

أَكْلُ النَّارِ وَصَفْقَةُ الكِتْمَانِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 174]

أَقِفُ مَرْعُوباً أَمَامَ هَذِهِ الصُّورَةِ المُفْزِعَةِ الَّتِي تَكْشِفُ حَقِيقَةَ المالِ الحَرَامِ النَّاتِجِ عَنْ كِتْمَانِ آيَاتِ السَّمَاءِ وَبَيْعِ الدِّينِ بِعَرَضٍ زَائِلٍ مِنَ الدُّنْيَا؛ فَأَرَى اللُّقْمَةَ الَّتِي يَبْتَلِعُهَا المدَلِّسُونَ تَتَحَوَّلُ فِي أَجْوَافِهِمْ إِلَى جَمْرٍ مُتَّقِدٍ يُحْرِقُ بُطُونَهُمْ وَأَرْوَاحَهُمْ، بَيْنَمَا يُغْلَقُ دُونَهُمْ بَابُ الكَلَامِ الإِلَهِيِّ وَالتَّطْهِيرِ يَوْمَ الحِسَابِ؛ وَأَشْعُرُ بِقُشَعْرِيرَةِ الخَوْفِ مِنْ هَوَانِ الخَلْقِ عَلَى خَالِقِهِمْ حِينَ يُعْرِضُ عَنْهُمْ فَلَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ جَزَاءَ خِيَانَتِهِمْ لِأَمَانَةِ الكِتَابِ؛ وَكَمْ تَزَيَّنَتِ المطَامِعُ الأَرْضِيَّةُ فِي عُيُونِ الغَافِلِينَ فَبَاعُوا المَادِئَ الخَالِدَةَ بِثَمَنٍ بَخْسٍ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ السَّمَاءِ شَيْئاً؛ أَتَأَمَّلُ الجَائِعَ المخْدُوعَ الَّذِي يَبْتَلِعُ جَمْرَةً مُتَوَهِّجَةً ظَنّاً مِنْهُ أَنَّهَا قِطْعَةُ خُبْزٍ دَافِئَةٌ، فَمَا تَلْبَثُ أَنْ تُمَزِّقَ أَحْشَاءَهُ وَتُحَوِّلَ جَوْفَهُ إِلَى أَتُونٍ مِنَ الأَلَمِ وَالحَسْرَةِ؛ فَمَا أَشَدَّ خُسْرَانَ مَنْ يَكْتُمُ الحَقَّ لِيَحُوزَ فُتَاتَ الدُّنْيَا، فَيُحْرَمُ مِنْ نَظْرَةِ الرِّضَا وَكَلِمَةِ اللُّطْفِ فِي يَوْمٍ يَحْتَاجُ فِيهِ العَبْدُ إِلَى أَدْنَى رَحْمَةٍ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى زُهْدٍ صَادِقٍ فِي كُلِّ مَكْسَبٍ يُشْتَرَى بِتَحْرِيفِ الحَقِّ أَوْ كِتْمَانِهِ، وَخَشْيَةٍ مِنْ إِعْرَاضِ الجَبَّارِ؛ فَكُلُّ ثَمَنٍ يُؤْخَذُ عَلَى حِسَابِ آيَاتِ السَّمَاءِ هُوَ نَارٌ تَأْكُلُ صَاحِبَهَا، وَلَا نَجَاةَ مِنَ العَذَابِ الأَلِيمِ إِلَّا بِصِدْقِ البَلَاغِ عَنِ اللهِ.

تِجَارَةُ الضَّلَالَةِ وَجُرْأَةُ الجَحِيمِ

صَدَى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: 175]

أَتَأَمَّلُ هَذِهِ الصَّفْقَةَ الخَاسِرَةَ الَّتِي تَدْهَشُ لَهَا العُقُولُ، حِينَ يَقِفُ الإِنْسَانُ فِي سُوقِ الحَيَاةِ فَيَدْفَعُ نُورَ الهِدَايَةِ وَسِعَةَ المَغْفِرَةِ ثَمَناً لِيَشْتَرِيَ ظُلْمَةَ الضَّلَالِ وَسَعِيرَ العَذَابِ؛ وَأَشْعُرُ بِالعَجَبِ وَالِاسْتِنْكَارِ أَمَامَ جُرْأَةِ الغَافِلِينَ الَّذِينَ يَسِيرُونَ نَحْوَ الجَحِيمِ بِخُطَى ثَابِتَةٍ كَأَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ جُلُوداً تَصْبِرُ عَلَى لَهِيبِ النَّارِ؛ وَكَمْ رَأَيْتُ نَفْسِي فِي لَحَظَاتِ الانْدِفَاعِ خَلْفَ الشَّهَوَاتِ أُقَايِضُ الطُّمَأْنِينَةَ الخَالِدَةَ بِمُتْعَةٍ عَابِرَةٍ تُورِثُ القَلَقَ وَالنَّدَمَ، فَكَانَتْ هَذِهِ الآيَةُ صَفْعَةً تُوقِظُنِي مِنْ غَفْلَةِ التَّبْدِيدِ؛ أَرَى التَّاجِرَ الأَحْمَقَ الَّذِي يُلْقِي بِالجَوَاهِرِ الثَّمِينَةِ وَمَفَاتِيحِ القُصُورِ فِي الطِّينِ لِيَمْلَأَ جُيُوبَهُ بِالأَشْوَاكِ القَاتِلَةِ وَالعَقَارِبِ السَّامَّةِ ثُمَّ يَظُنُّ نَفْسَهُ رَابِحاً؛ فَمَا أَشَدَّ تَعَجُّبَ السَّمَاءِ مِنْ صَبْرِ هَؤُلَاءِ المُجْرِمِينَ عَلَى أَسْبَابِ النَّارِ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى مُوجِبَاتِ السُّخْطِ دُونَ خَوْفٍ أَوْ تَرَاجُعٍ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى بَصِيرَةٍ تَزِنُ عَوَاقِبَ الأَفْعَالِ قَبْلَ الإِقْدَامِ عَلَيْهَا، وَتَفِرُّ مِنْ كُلِّ صَفْقَةٍ تُغْضِبُ الخَالِقَ؛ فَكُلُّ اسْتِبْدَالٍ لِلْهُدَى بِالضَّلَالِ هُوَ انْتِحَارٌ أَبَدِيٌّ، وَلَا طَاقَةَ لِمَخْلُوقٍ ضَعِيفٍ بِالصَّبْرِ عَلَى نَارِ اللهِ.

سُطُوعُ الحَقِّ وَمَهَاوِي الشِّقَاقِ

صَدَى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: 176]

أُبْصِرُ الكِتَابَ السَّمَاوِيَّ وَهُوَ يَتَنَزَّلُ مُتَلَبِّساً بِالحَقِّ المُطْلَقِ كَنَهْرٍ صَافٍ يَنْبُعُ مِنْ قِمَّةِ الجَبَلِ لِيَجْمَعَ القُلُوبَ وَيُوَحِّدَ الكَلِمَةَ، فَأَرَى كَيْفَ يُمَزِّقُهُ المُخْتَلِفُونَ بِأَهْوَائِهِمْ؛ وَأَشْعُرُ بِوَحْشَةِ البُعْدِ وَالتَّشَتُّتِ حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ الخِلَافَ فِي كِتَابِ السَّمَاءِ لَيْسَ نَاشِئاً عَنْ غُمُوضٍ فِي النُّورِ، بَلْ عَنْ انْقِسَامٍ دَاخِلِيٍّ يَقْذِفُ بِصَاحِبِهِ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ عَنِ الصَّوَابِ؛ وَكَمْ جَرَّتْنِي المَكَابَرَةُ أَحْيَاناً إِلَى تَأْوِيلِ الوَاضِحَاتِ لِتُوَافِقَ رَغْبَتِي، فَشَعَرْتُ بِغُرْبَةٍ عَنِ اليَقِينِ وَتَاهَتْ خُطَايَ فِي شِعَابِ الفُرْقَةِ؛ أَتَأَمَّلُ الشَّمْسَ السَّاطِعَةَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ الَّتِي تُنِيرُ الطَّرِيقَ لِلْجَمِيعِ بِوُضُوحٍ، بَيْنَمَا يَتَشَاجَرُ المُتَنَاحِرُونَ فِي الكُهُوفِ المُنْشَقَّةِ حَوْلَ لَوْنِ الضِّيَاءِ الَّذِي رَفَضُوا الخُرُوجَ إِلَيْهِ؛ فَمَا أَعْظَمَ جَلَالَ الكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ بِالحَقِّ لِيَكُونَ مِيزَاناً يَحْسِمُ النِّزَاعَ، فَمَنْ خَالَفَهُ وَشَقَّ عَصَا الطَّاعَةِ ابْتَعَدَ عَنِ الهُدَى مَسَافَاتٍ سَحِيقَةً؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى انْقِيَادٍ خَاشِعٍ لِظَاهِرِ الكِتَابِ وَرُوحِهِ، وَنَبْذٍ لِكُلِّ جِدَالٍ يُورِثُ

الشِّقَاقَ وَالتَّمَزُّقَ؛ فَكُلُّ اخْتِلَافٍ مَعَ الوَحْيِ هُوَ تِيهٌ فِي وِدْيَانِ البَاطِلِ، وَلَا اجْتِمَاعَ لِلْقُلُوبِ إِلَّا تَحْتَ ظِلِّ الكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَهُ اللهُ بِالحَقِّ.

جَوْهَرُ البِرِّ وَقُشُورُ المظَاهِرِ

صَدَى ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177]

أَقِفُ مَبْهُوراً أَمَامَ هَذَا الدُّسْتُورِ الكَوْنِيِّ الجَامِعِ الَّذِي يَهْدِمُ التَّدَيُّنَ الشَّكْلِيَّ القَائِمَ عَلَى تَحْرِيكِ الأَجْسَادِ نَحْوَ الجِهَاتِ دُونَ حَيَاةٍ فِي القُلُوبِ، لِيَرْسُمَ لَوْحَةَ البِرِّ الحَقِيقِيِّ بِأَبْهَى أَلْوَانِ العَقِيدَةِ وَالعَطَاءِ وَالأَخْلَاقِ؛ وَأَشْعُرُ بِعَظَمَةِ الإِيمَانِ حِينَ أَرَاهُ يَتَدَفَّقُ مِنْ صِدْقِ اليَقِينِ بِالغَيْبِ لِيَسْقِيَ شَجَرَةَ الإِنْسَانِيَّةِ بِبَذْلِ المَالِ المَحْبُوبِ لِلْأَقْرَبِينَ وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَالمُحْتَاجِينَ وَتَحْرِيرِ الرِّقَابِ، ثُمَّ يَتَّصِلُ بِالسَّمَاءِ صَلَاةً وَزَكَاةً وَوَفَاءً وَصَبْراً؛ وَكَمْ احْتَرَلْتُ الدِّينَ قَدِيماً فِي حَرَكَاتٍ ظَاهِرَةٍ وَرُسُومٍ بَاهِتَةٍ، حَتَّى أَيْقَظَنِي هَذَا المِيزَانُ الشَّامِلُ عَلَى أَنَّ الصِّدْقَ وَالتَّقْوَى هُمَا انْصِهَارُ القَلْبِ وَالجَوَارِحِ فِي مِحْرَابِ الإِحْسَانِ وَالثَّبَاتِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ؛ أَتَأَمَّلُ الشَّجَرَةَ المُثْمِرَةَ الَّتِي لَا يُقَاسُ جَمَالُهَا بِاتِّجَاهِ أَغْصَانِهَا شَرْقاً أَوْ غَرْباً، بَلْ بِعُمْقِ جُذُورِهَا فِي تُرْبَةِ الإِيمَانِ وَغَزَارَةِ ثِمَارِهَا الَّتِي تُطْعِمُ الجَائِعِينَ وَتُظِلُّ التَّائِهِينَ فِي هَجِيرِ الحَيَاةِ؛ فَمَا أَرْفَعَ مَقَامَ أُولَئِكَ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ نُورِ العَقِيدَةِ وَسَخَاءِ اليَدِ وَنَقَاءِ العِبَادَةِ وَصَلَابَةِ الصَّبْرِ، فَنَالُوا شَهَادَةَ الصِّدْقِ وَوِسَامَ التَّقْوَى؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى مَنْهَجِ حَيَاةٍ مُتَكَامِلٍ يَتَجَاوَزُ قُشُورَ المظَاهِرِ إِلَى لُبِّ الصِّدْقِ وَالعَطَاءِ؛ فَكُلُّ طَقْسٍ يَخْلُو مِنَ الإِيمَانِ وَالبَذْلِ وَالوَفَاءِ هُوَ جَسَدٌ بِلَا رُوحٍ، وَلَا بِرَّ وَلَا تَقْوَى إِلَّا فِيمَنْ صَدَقُوا مَعَ اللهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ.

مِيزَانُ القِصَاصِ وَمَنْبَعُ العَفْوِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ

بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 178]

أُبْصِرُ سَيْفَ العَدَالَةِ الإِلَهِيَّةِ وَهُوَ يَقْطَعُ دَابِرَ الثَّأْرِ الجَاهِلِيِّ الأَعْمَى، فَيُقِيمُ مِيزَانَ القِصَاصِ العَادِلِ الَّذِي يُسَاوِي بَيْنَ الدِّمَاءِ وَيَمْنَعُ اسْتِبَاحَةَ الأَبْرِيَاءِ بِجَرِيرَةِ الجَانِي؛ وَأَسْتَشْعِرُ فِي أَعْمَاقِي نَسِيمَ الرَّحْمَةِ وَالأُخُوَّةِ حِينَ يَفْتَحُ الوَحْيُ بَابَ العَفْوِ وَالدِّيَةِ، فَيُحَوِّلُ الجَرِيمَةَ إِلَى صُلْحٍ كَرِيمٍ يَسُودُهُ الِاتِّبَاعُ بِالمَعْرُوفِ وَالأَدَاءُ بِالإِحْسَانِ؛ وَكَمْ غَلَتْ فِي النُّفُوسِ البَشَرِيَّةِ مَرَاجِلُ الِانْتِقَامِ الَّتِي تُحْرِقُ الأَخْضَرَ وَاليَابِسَ، حَتَّى أَطْفَأَتْهَا هَذِهِ الشَّرِيعَةُ الرَّحِيمَةُ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ صَرَامَةِ الحَقِّ وَلُطْفِ التَّخْفِيفِ؛ أَرَى الجَرَّاحَ الحَكِيمَ يَسْتَأْصِلُ الوَرَمَ الخَبِيثَ بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ دُونَ أَنْ يَمَسَّ الأَعْضَاءَ السَّلِيمَةَ، ثُمَّ يَضَعُ عَلَى الجُرْحِ بَلْسَمَ العَفْوِ وَالمَعْرُوفِ لِيَلْتَئِمَ الجَسَدُ وَيَعُودَ إِلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ الرَّبِّ الَّذِي خَفَّفَ عَنْ هَذِهِ الأُمَّةِ فَجَعَلَ العَفْوَ وَالدِّيَةَ مَخْرَجاً كَرِيماً، وَحَذَّرَ مَنْ يَعْتَدِي بَعْدَ الصُّلْحِ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَرْدَعُ الغَادِرِينَ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى تَقْدِيسٍ لِحُرْمَةِ الدِّمَاءِ، وَإِعْلَاءٍ لِقِيمَةِ العَدْلِ المَقْرُونِ بِالعَفْوِ وَالإِحْسَانِ؛ فَكُلُّ انْتِقَامٍ يَتَجَاوَزُ حُدُودَ العَدْلِ هُوَ فَسَادٌ فِي الأَرْضِ، وَلَا تَخْفِيفَ وَلَا رَحْمَةَ إِلَّا فِي شَرِيعَةِ اللهِ العَادِلَةِ.

حَيَاةُ القِصَاصِ وَسِيَاجُ التَّقْوَى

صَدَى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179]

أَتَأَمَّلُ هَذِهِ المُفَارَقَةَ القُرْآنِيَّةَ المُعْجِزَةَ الَّتِي تَسْتَخْرِجُ الحَيَاةَ مِنْ قَلْبِ القِصَاصِ، فَمَوْتُ القَاتِلِ عَدْلاً هُوَ الدِّرْعُ الَّذِي يَحْقِنُ دِمَاءَ المِئَاتِ وَيُؤَمِّنُ حَيَاةَ المجْتَمَعِ بِأَسْرِهِ؛ وَأُدْرِكُ فِي دَاخِلِي عُمْقَ الحِكْمَةِ الَّتِي تُخَاطِبُ أَصْحَابَ العُقُولِ الصَّافِيَةِ، فَالرَّدْعُ الحَازِمُ يُوقِظُ التَّقْوَى فِي النُّفُوسِ الجَامِحَةِ وَيُعِيدُ لِلْوُجُودِ أَمَانَهُ وَاسْتِقْرَارَهُ؛ وَكَمْ ظَنَّتِ العُقُولُ السَّطْحِيَّةُ أَنَّ العُقُوبَةَ العَادِلَةَ قَسْوَةٌ، حَتَّى كَشَفَتْ لَهُمُ البَصِيرَةُ أَنَّ التَّسَاهُلَ مَعَ القَاتِلِ هُوَ حُكْمٌ بِالمَوْتِ عَلَى الأَبْرِيَاءِ الآمِنِينَ؛ أَرَى البُسْتَانِيَّ اليَقِظَ يَقْطَعُ الغُصْنَ المتَعَفِّنَ الَّذِي يَحْمِلُ الدُّودَ القَاتِلَ، فَتَبْدُو القَطْعَةُ قَاسِيَةً فِي الظَّاهِرِ وَلَكِنَّهَا تَمْنَحُ الحَيَاةَ وَالنَّضَارَةَ لِلشَّجَرَةِ كُلِّهَا؛ فَمَا أَبْلَغَ هَذَا البَيَانَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَرْبِطُ بَقَاءَ الحَيَاةِ بِإِقَامَةِ العَدْلِ، وَيَجْعَلُ التَّقْوَى ثَمَرَةً لِفَهْمِ أَصْحَابِ الأَلْبَابِ لِحِكْمَةِ التَّشْرِيعِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى بَصِيرَةٍ

تَرَى فِي عَدْلِ السَّمَاءِ رَحْمَةً وَحَيَاةً لِلْبَشَرِيَّةِ، وَتُحْيِي فِي قَلْبِي مَعَانِيَ التَّقْوَى؛ فَكُلُّ تَعْطِيلٍ لِمِيزَانِ العَدْلِ هُوَ تَهْدِيدٌ لِأَمْنِ الخَلَائِقِ، وَلَا حَيَاةَ آمِنَةَ لِلْمُجْتَمَعِ إِلَّا فِي ظِلِّ شَرِيعَةِ اللهِ الحَكِيمَةِ.

عَتَبَةُ الوَدَاعِ وَمِيزَانُ الوَصِيَّةِ

صَدَى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 180]

أَقِفُ عَلَى مَشَارِفِ الرَّحِيلِ حِينَ تَدْنُو سَاعَةُ الوَدَاعِ وَيَتَأَهَّبُ الإِنْسَانُ لِتَرْكِ مَا جَمَعَهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا خَلْفَ ظَهْرِهِ، فَأَرَى الوَحْيَ يُعَلِّمُهُ كَيْفَ يَخْتِمُ حَيَاتَهُ بِالعَدْلِ وَالوَفَاءِ لِأَهْلِ الفَضْلِ وَالقَرَابَةِ؛ وَأَشْعُرُ بِرَهْبَةِ الإِنْصَافِ فِي أَعْمَاقِي حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ المالَ الَّذِي يَتْرُكُهُ المَرْءُ عِنْدَ المَوْتِ يَجِبُ أَنْ يُوَزَّعَ بِالمَعْرُوفِ دُونَ جَوْرٍ أَوْ حِرْمَانٍ، لِيَكُونَ جِسْراً مِنَ المَوَدَّةِ لَا شَرَارَةً لِلْخِصَامِ؛ وَكَمْ غَفَلَ النَّاسُ فِي صِحَّتِهِمْ عَنْ تَرْتِيبِ حُقُوقِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ، حَتَّى إِذَا دَاهَمَتْهُمُ السَّكَرَاتُ اضْطَرَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَضَاعَتِ الأَمَانَاتُ بَيْنَ الطَّمَعِ وَالنِّسْيَانِ؛ أَتَأَمَّلُ الشَّمْسَ عِنْدَ الغُرُوبِ وَهِيَ تُرْسِلُ آخِرَ أَشِعَّتِهَا الذَّهَبِيَّةِ بِهُدُوءٍ وَعَدْلٍ عَلَى القِمَمِ وَالوِدْيَانِ قَبْلَ أَنْ تَغِيبَ، فَتَتْرُكُ وَرَاءَهَا سَكِينَةً وَجَمَالاً يَشْهَدُ بِحُسْنِ الوَدَاعِ؛ فَمَا أَعْظَمَ تَوْجِيهَ السَّمَاءِ الَّذِي يَجْعَلُ الوَصِيَّةَ بِالمَعْرُوفِ عِنْدَ حُضُورِ المَوْتِ حَقّاً ثَابِتاً عَلَى المُتَّقِينَ، لِيَلْقَوْا رَبَّهُمْ بِنُفُوسٍ خَفِيفَةٍ بَرِيئَةٍ مِنَ الظُّلْمِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى اسْتِعْدَادٍ دَائِمٍ لِلِقَاءِ السَّمَاءِ بِأَدَاءِ الحُقُوقِ وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَحِرْصٍ عَلَى أَنْ يَكُونَ أَثَرِي بَعْدَ رَحِيلِي خَيْراً وَمَعْرُوفاً؛ فَكُلُّ تَرْوَةٍ تُتْرَكُ دُونَ عَدْلٍ هِيَ فِتْنَةٌ لِلْأَحْيَاءِ وَوِزْرٌ عَلَى الرَّاحِلِ، وَلَا بَرَاءَةَ لِلذِّمَّةِ عِنْدَ المَوْتِ إِلَّا بِالْتِزَامِ المَعْرُوفِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ اللهُ.

خِيَانَةُ التَّبْدِيلِ وَعِلْمُ السَّمِيعِ

صَدَى ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 181]

أُبْصِرُ يَدَ الخِيَانَةِ وَهِيَ تَمْتَدُّ فِي الظَّلَامِ لِتُغَيِّرَ وَصِيَّةَ الرَّاحِلِ الَّذِي غَادَرَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَعُدْ يَمْلِكُ لِسَاناً يُدَافِعُ بِهِ عَنْ حَقِّهِ، فَأَرَى عَدْلَ السَّمَاءِ يَنْتَصِرُ لِلْمَيِّتِ وَيُحَمِّلُ المُبَدِّلِينَ وَحْدَهُمْ وِزْرَ التَّحْرِيفِ؛ وَأَشْعُرُ بِطُمَأْنِينَةِ المُؤْتَمَنِ عَلَى رَبِّهِ حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ بَرَاءَةَ الموصِي تَظَلُّ مَحْفُوظَةً عِنْدَ خَالِقِهِ، بَيْنَمَا يَقَعُ إِثْمُ التَّغْيِيرِ وَالتَّزْوِيرِ عَلَى عَاتِقِ مَنْ خَانُوا الأَمَانَةَ بَعْدَ سَمَاعِهَا؛ وَكَمْ خَشِيَ الإِنْسَانُ أَنْ تَضِيعَ نِيَّتُهُ الصَّالِحَةُ بِعَبَثِ العَابِثِينَ مِنْ بَعْدِهِ، حَتَّى طَمْأَنَتْهُ هَذِهِ الآيَةُ بِأَنَّ السَّمِيعَ العَلِيمَ قَدْ سَمِعَ كَلِمَتَهُ وَعَلِمَ قَصْدَهُ وَلَنْ يَضِيعَ أَجْرُهُ؛ أَرَى السَّارِقَ الَّذِي يَغْتَصِبُ رِسَالَةً مَخْتُومَةً بَعْدَ رَحِيلِ صَاحِبِهَا فَيُمَزِّقُهَا وَيَكْتُبُ فِيهَا زُوراً، غَافِلاً عَنْ أَنَّ المَلِكَ الأَعْظَمَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى الأَصْلِ المَحْفُوظِ وَسَجَّلَ جَرِيمَةَ التَّزْوِيرِ؛ فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الحِفْظَ الإِلَهِيَّ لِحُقُوقِ الَّذِينَ غَابُوا عَنِ الدُّنْيَا، حَيْثُ تَتَوَلَّى السَّمَاءُ مُحَاسَبَةَ المُبَدِّلِينَ بِعِلْمِ السَّمِيعِ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى أَمَانَةٍ مُقَدَّسَةٍ تَصُونُ عُهُودَ الرَّاحِلِينَ دُونَ تَبْدِيلٍ، وَثِقَةٍ بِأَنَّ عَدْلَ السَّمَاءِ يُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ فَكُلُّ تَحْرِيفٍ لِلْأَمَانَةِ بَعْدَ سَمَاعِهَا هُوَ إِثْمٌ مُبِينٌ يَرْتَدُّ عَلَى فَاعِلِهِ، وَلَا يَضِيعُ حَقٌّ عِنْدَ اللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ.

تَقْوِيمُ المَيْلِ وَمَغْفِرَةُ الإِصْلَاحِ

صَدَى ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 182]

أُبْصِرُ رُوحَ الشَّرِيعَةِ الحَيَّةِ وَهِيَ تُفَرِّقُ بِدِقَّةٍ بَيْنَ خِيَانَةِ التَّبْدِيلِ الظَّالِمِ وَبَيْنَ شَهَامَةِ الإِصْلَاحِ الَّذِي يَرُدُّ الجَنَفَ وَالمَيْلَ عَنْ جَادَّةِ العَدْلِ؛ فَلَا جُمُودَ عَلَى نَصٍّ يَحْمِلُ ظُلْماً لِلْوَرَثَةِ؛ وَأَشْعُرُ بِجَمَالِ المُرُونَةِ الفِقْهِيَّةِ وَالأَخْلَاقِيَّةِ حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ الخَوْفَ مِنَ الوُقُوعِ فِي الإِثْمِ يَدْفَعُ المُصْلِحَ الصَّادِقَ لِلتَّدَخُّلِ بِالحِكْمَةِ لِتَقْرِيبِ القُلُوبِ وَإِقَامَةِ القِسْطِ دُونَ حَرَجٍ؛ وَكَمْ تَرَدَّدْتُ فِي مَوَاقِفَ كَثِيرَةٍ بَيْنَ التَّرْكِ السَّلْبِيِّ لِلْخَطَأِ خَوْفاً مِنَ المَسْؤُولِيَّةِ، وَبَيْنَ الإِقْدَامِ عَلَى الإِصْلَاحِ لِرَفْعِ الظُّلْمِ، فَأَزَالَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَنِّي كُلَّ وَهْمٍ وَحَرَجٍ؛ أَرَى الفَلَّاحَ الحَكِيمَ يَرَى جَدْوَلَ المَاءِ قَدْ مَالَ عَنْ مَجْرَاهُ الصَّحِيحِ فَأَغْرَقَ جَانِباً وَحَرَمَ جَانِباً آخَرَ، فَيُبَادِرُ بِرِفْقٍ لِتَسْوِيَةِ التُّرَابِ حَتَّى يَعُودَ المَاءُ بِالعَدْلِ إِلَى كُلِّ الجُذُورِ؛ فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ الغَفُورِ الرَّحِيمِ الَّذِي يُبَارِكُ سَعْيَ المُصْلِحِينَ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَرْفَعُ عَنْهُمُ الإِثْمَ حِينَ يَتَدَخَّلُونَ لِتَقْوِيمِ الِاعْوِجَاجِ وَإِطْفَاءِ نَارِ النِّزَاعِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى إِيجَابِيَّةٍ فَاعِلَةٍ تَسْعَى

لِلْإِصْلَاحِ وَرَفْعِ الجَنَفِ كُلَّمَا رَأَتْ مَيْلاً عَنِ الحَقِّ؛ فَكُلُّ سَعْيٍ يُقِيمُ العَدْلَ وَيَجْمَعُ الشَّمْلَ هُوَ عِبَادَةٌ مَقْبُولَةٌ، وَلَا حَرَجَ عَلَى المصْلِحِينَ فِي كَنَفِ اللهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ.

مِحْرَابُ الصِّيَامِ وَمِعْرَاجُ التَّقْوَى

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]

أُصْغِي إِلَى هَذَا النِّدَاءِ الإِيمَانِيِّ الدَّافِئِ الَّذِي يَدْعُو الأَرْوَاحَ إِلَى مَدْرَسَةِ الصِّيَامِ العَرِيقَةِ الَّتِي سَلَكَهَا الأَنْبِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ عَبْرَ العُصُورِ، لِتَتَحَرَّرَ النَّفْسُ مِنْ أَسْرِ الطِّينِ وَتَسْمُوَ نَحْوَ آفاقِ التَّقْوَى؛ وَأَشْعُرُ بِخِفَّةِ الرُّوحِ وَصَفَائِهَا حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ الإِمْسَاكَ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ لَيْسَ تَعْذِيباً لِلْجَسَدِ، بَلْ هُوَ تَدْرِيبٌ لِلْإِرَادَةِ عَلَى مَرَاقَبَةِ الخَالِقِ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ؛ وَكَمْ أَثْقَلَتْ كَاهِلِي رَغَبَاتُ الجَسَدِ المِلِحَّةُ حَتَّى كَادَتْ تُطْفِئُ جَذْوَةَ الرُّوحِ، فَجَاءَ الصِّيَامُ لِيُعِيدَ التَّوَازُنَ إِلَى كِيَانِي وَيَفْتَحَ لِي بَابَ التَّقْوَى؛ أَتَأَمَّلُ الطَّائِرَ الَّذِي يَتَخَفَّفُ مِنْ أَثْقَالِهِ عَلَى الأَرْضِ لِيَسْتَطِيعَ التَّحْلِيقَ عَالِياً فِي كَبِدِ السَّمَاءِ، فَكُلَّمَا قَلَّ تَعَلُّقُهُ بِالتُّرَابِ اقْتَرَبَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ وَالنَّقَاءِ؛ فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ الشَّارِعِ الحَكِيمِ الَّذِي جَعَلَ الصِّيَامَ جِسْراً مُشْتَرَكاً بَيْنَ أُمَمِ التَّوْحِيدِ، وَغَايَتَهُ العُظْمَى أَنْ تَتَّقِيَ القُلُوبُ رَبَّهَا وَتَصُونَ نَفْسَهَا عَنِ المعَاصِي؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى شَوْقٍ صَادِقٍ لِسَاعَاتِ الإِمْسَاكِ الخَاشِعَةِ الَّتِي تُهَذِّبُ شَهَوَاتِي وَتُحْيِي تَقْوَايَ؛ فَكُلُّ جَسَدٍ يُطْلَقُ لَهُ العَنَانُ فِي الشَّهَوَاتِ يَغْرَقُ فِي الغَفْلَةِ، وَلَا سُمُوَّ لِلرُّوحِ إِلَّا فِي مِحْرَابِ الصِّيَامِ الَّذِي كَتَبَهُ اللهُ لَعَلَّنَا نَتَّقِي.

أَيَّامُ المعْدُودَاتِ وَرُخْصَةُ اليُسْرِ

صَدَى ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 184]

أُبْصِرُ لُطْفَ السَّمَاءِ وَهُوَ يُهَوِّنُ التَّكْلِيفَ عَلَى القُلُوبِ بِتَسْمِيَةِ زَمَنِ الصِّيَامِ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ، فَتَمُرُّ سَاعَاتُ الجُوعِ وَالعَطَشِ كَسَحَابَةٍ صَيْفِيَّةٍ سَرِيعَةٍ تَتْرُكُ وَرَاءَهَا أَجْراً أَبَدِيّاً؛ وَأَسْتَشْعِرُ فِي دَاخِلِي رَحْمَةَ الرُّخْصَةِ الَّتِي تُرَاعِي ضَعْفَ المرِيضِ وَمَشَقَّةَ المسَافِرِ وَعَجْزَ الشَّيْخِ الكَبِيرِ، فَتَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ القَضَاءِ أَوِ الفِدْيَةِ لِتُطْعِمَ المسَاكِينَ وَتَنْشُرَ التَّكَافُلَ؛ وَكَمْ تَصَوَّرْتُ العِبَادَةَ عِبْئاً ثَقِيلاً يُرْهِقُ الكَاهِلَ، حَتَّى تَذَوَّقْتُ حَلَاوَةَ اليُسْرِ القُرْآنِيّ وَأَدْرَكْتُ أَنَّ فِي الصِّيَامِ خَيْراً عَظِيماً لِلرُّوحِ وَالجَسَدِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَسْرَارَهُ؛ أَرَى الغَوَّاصَ الَّذِي يَحْبِسُ أَنْفَاسَهُ لِثَوَانٍ مَعْدُودَةٍ تَحْتَ المَاءِ لِيَخْرُجَ بِأَثْمَنِ اللَّآلِئِ، بَيْنَمَا يُسَاعِدُ الرَّبَّانُ الرَّحِيمُ الضُّعَفَاءَ عَلَى السَّفِينَةِ فَيُعْفِيهِمْ مِنَ الغَوْصِ وَيَمْنَحُهُمْ نَصِيباً مِنَ الكَنْزِ؛ فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّدَرُّجَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الرُّخْصَةِ عِنْدَ العُذْرِ، وَالتَّرْغِيبِ فِي التَّطَوُّعِ بِالخَيْرِ، وَالبَيَانِ القَاطِعِ بِأَنَّ الصِّيَامَ هُوَ الخَيْرُ الأَعْظَمُ لِأَهْلِ العِلْمِ وَالبَصِيرَةِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى اغْتِنَامٍ شَغُوفٍ لِلْأَيَّامِ المعْدُودَاتِ قَبْلَ انْقِضَائِهَا، وَإِحْسَانٍ إِلَى المسَاكِينِ؛ فَكُلُّ تَعَبٍ فِي طَاعَةِ السَّمَاءِ يَنْقَضِي وَيَبْقَى ثَوَابُهُ، وَلَا خَيْرَ أَزْكَى لِلْإِنْسَانِ مِنْ صِيَامٍ يُقَرِّبُهُ إِلَى اللهِ.

رَبِيعُ القُرْآنِ وَبُرْهَانُ الهِدَايَةِ

صَدَى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 185]

أَسْتَقْبِلُ شَهْرَ رَمَضَانَ كَمَا تَسْتَقْبِلُ الأَرْضُ العَطْشَى مَوْسِمَ الرَّبِيعِ وَالمطَرِ، إِذْ تَنَزَّلَ فِيهِ القُرْآنُ العَظِيمُ نُوراً يَهْدِي البَشَرِيَّةَ وَبَيِّنَاتٍ تَفْصِلُ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ بِوُضُوحٍ لَا يَبْقَى مَعَهُ التِبَاسٌ؛ وَأَشْعُرُ بِفَيْضِ المحَبَّةِ وَاللُّطْفِ الإِلَهِيِّ حِينَ أَقْرَأُ قَاعِدَةَ اليُسْرِ الخَالِدَةَ الَّتِي تَنْفِي العُسْرَ وَالمشَقَّةَ عَنْ شَرِيعَةِ السَّمَاءِ، وَتَدْعُونَا لِإِكْمَالِ العِدَّةِ وَتَكْبِيرِ الخَالِقِ عَلَى نِعْمَةِ الهِدَايَةِ؛ وَكَمْ تَاهَتْ رُوحِي فِي ظُلُمَاتِ الحَيْرَةِ قَبْلَ أَنْ أَسْتَضِيءَ بِنُورِ القُرْآنِ فِي هَذَا الشَّهْرِ المبَارَكِ، فَكُنْتُ كَالمسَافِرِ فِي لَيْلٍ مُظْلِمٍ حَتَّى أَشْرَقَ البَدْرُ فَكَشَفَ لَهُ مَعَالِمَ الطَّرِيقِ؛ أَتَأَمَّلُ النَّهْرَ العَذْبَ الَّذِي يَفِيضُ بِالخَيْرِ فَيَسْقِي الأَصِحَّاءَ المقِيمِينَ بِغَزَارَةٍ، وَيُؤَجِّلُ حِصَّةَ المرْضَى وَالمسَافِرِينَ حَتَّى يَعُودُوا إِلَى دِيَارِهِمْ بِسَلَامٍ فَيَشْرَبُوا حَتَّى يَرْتَوُوا وَيُكَبِّرُوا الرَّزَّاقَ؛ فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الِاحْتِفَاءَ السَّمَاوِيَّ بِالقُرْآنِ وَالصِّيَامِ، الَّذِي يَنْتَهِي بِتَكْبِيرٍ

يَهزُّ الآفَاقَ شُكْراً عَلَى الهِدَايَةِ وَاليُسْرِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى حَيَاةٍ مُتَجَدِّدَةٍ مَعَ القُرْآنِ، وَلِسَانٍ يَلْهَجُ بِالتَّكْبِيرِ وَالشُّكْرِ عَلَى نِعْمَةِ الإِسْلَامِ؛ فَكُلُّ تَعَسُّرٍ فِي الفَهْمِ هُوَ مِنْ قُصُورِ البَشَرِ، وَلَا يُرِيدُ اللهُ بِعِبَادِهِ إِلَّا اليُسْرَ وَالهِدَايَةَ وَالشُّكْرَ.

قُرْبُ الإِجَابَةِ وَمِفْتَاحُ الدُّعَاءِ

صَدَى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186]

أُصْغِي إِلَى هَذَا الهَمْسِ الرَّبَّانِيِّ الحَنُونِ الَّذِي يَسْقُطُ كَالنَّدَى عَلَى القُلُوبِ المُلْتَاعَةِ، حَيْثُ يُجِيبُ الخَالِقُ عَنْ سُؤَالِ عِبَادِهِ بِنَفْسِهِ دُونَ وَاسِطَةٍ لِيُؤَكِّدَ أَنَّهُ قَرِيبٌ يَسْمَعُ نَبْضَ القَلْبِ قَبْلَ هَمْسِ الشِّفَاهِ؛ وَأَشْعُرُ بِانْهِيَارِ كُلِّ جُدْرَانِ الوَحْشَةِ وَالبُعْدِ فِي دَاخِلِي حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ بَابَ السَّمَاءِ مَفْتُوحٌ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ لِلدَّاعِي الصَّادِقِ الَّذِي يَسْتَجِيبُ لِأَمْرِ رَبِّهِ وَيُؤْمِنُ بِوَعْدِهِ؛ وَكَمْ طَرَقْتُ أَبْوَابَ الخَلْقِ الموصَدَةَ بِانْكِسَارٍ وَذُلٍّ فَرَدَّتْنِي خَائِباً، حَتَّى أَلْجَأَتْنِي الحَاجَةُ إِلَى بَابِ القَرِيبِ المجِيبِ فَوَجَدْتُ الفَرَجَ وَالرُّشْدَ؛ أَرَى العُصْفُورَ الصَّغِيرَ فِي عُشِّهِ المظْلِمِ يُطْلِقُ صَوْتاً خَافِتاً فَيَسْمَعُهُ خَالِقُهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ وَيَسُوقُ إِلَيْهِ الرِّزْقَ وَالأَمَانَ دُونَ حَاجِبٍ وَلَا بَوَّابٍ؛ فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ القَرِيبِ الَّذِي يَرْبِطُ إِجَابَةَ الدُّعَاءِ بِالاسْتِجَابَةِ لِطَاعَتِهِ وَالإِيمَانِ بِهِ، لِيَقُودَ العِبَادَ إِلَى مَنَازِلِ الرُّشْدِ وَالسَّدَادِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى مُنَاجَاةٍ دَائِمَةٍ تَثِقُ بِقُرْبِ السَّمَاءِ، وَطَاعَةٍ صَادِقَةٍ تَسْتَجِيبُ لِنِدَاءِ الحَقِّ؛ فَكُلُّ بُعْدٍ عَنِ السَّمَاءِ إِنَّمَا يَصْنَعُهُ العَبْدُ بِغَفْلَتِهِ، وَلَا قُرْبَ أَحْنَى وَلَا إِجَابَةَ أَصْدَقُ مِنْ وَعْدِ اللهِ القَرِيبِ المجِيبِ.

لِبَاسُ المَوَدَّةِ وَحُدُودُ السَّمَاءِ

صَدَى ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ

وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 187]

أُبْصِرُ رَحْمَةَ التَّشْرِيعِ وَهِيَ تُعِيدُ لِلْفِطْرَةِ البَشَرِيَّةِ تَوَازُنَهَا الجَمِيلَ بَيْنَ نَهَارِ الصِّيَامِ المَمْلُوءِ بِالعِفَّةِ وَالصَّبْرِ وَبَيْنَ لَيْلِهِ المَسْوطِ بِالمَوَدَّةِ وَالسَّكَنِ؛ فَتُصَوِّرُ العَلَاقَةَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ كَلِبَاسٍ يَسْتُرُ وَيُدْفِئُ وَيَحْفَظُ؛ وَأَشْعُرُ بِعَظَمَةِ اللُّطْفِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يَعْلَمُ ضَعْفَ النُّفُوسِ وَتَطَلُّعَهَا فَيَتُوبُ وَيَعْفُو وَيَرْسُمُ مَعَالِمَ الوَقْتِ بِخَيْطِ الفَجْرِ الأَبْيَضِ الَّذِي يَشُقُّ خَيْطَ اللَّيْلِ الأَسْوَدِ؛ وَكَمْ حَارَتِ النَّفْسُ بَيْنَ نِدَاءِ الجَسَدِ وَمُتَطَلَّبَاتِ الرُّوحِ، حَتَّى وَضَعَ الوَحْيُ حُدُودَ السَّمَاءِ الوَاضِحَةَ الَّتِي تَصُونُ حُرْمَةَ الِاعْتِكَافِ فِي المَسَاجِدِ وَتُهَذِّبُ الغَرِيزَةَ بِالتَّقْوَى؛ أَتَأَمَّلُ الفَجْرَ الصَّادِقَ وَهُوَ يَنْسُلُ خُيُوطَ الضِّيَاءِ الأُولَى مِنْ جَوْفِ الظَّلَامِ بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ، لِيُعْلِنَ بِدَايَةَ يَوْمٍ جَدِيدٍ مِنَ الإِمْسَاكِ وَالطَّاعَةِ حَتَّى يَغْرُبَ النَّهَارُ فِي أَحْضَانِ اللَّيْلِ؛ فَمَا أَعْظَمَ هَذَا البَيَانَ المحْكَمَ الَّذِي يَجْعَلُ التَّمَتُّعَ بِالحَلَالِ عِبَادَةً، وَيُحِيطُ الحُدُودَ الإِلَهِيَّةَ بِسِيَاجٍ مِنَ الوَرَعِ حَتَّى لَا يَقْرَبَهَا المؤْمِنُ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى انْضِبَاطٍ رُوحِيٍّ يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ الشَّرْعِ بِأَدَبٍ وَخَشْيَةٍ، وَيَشْكُرُ نِعْمَةَ التَّخْفِيفِ وَالعَفْوِ؛ فَكُلُّ اقْتِرَابٍ مِنْ حُدُودِ الحَرَامِ هُوَ تَعْرِيضٌ لِلنَّفْسِ لِلسُّقُوطِ، وَلَا تَقْوَى حَقِيقِيَّةَ إِلَّا فِي الْتِزَامِ الآيَاتِ الَّتِي بَيَّنَهَا اللهُ لِلنَّاسِ.

سُمُّ البَاطِلِ وَحُرْمَةُ الأَمْوَالِ

صَدَى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 188]

أَقِفُ أَمَامَ هَذَا النَّهْيِ الصَّارِمِ الَّذِي يَحْمِي أَمْوَالَ النَّاسِ وَحُقُوقَهُمْ مِنْ أَنْ تَبْتَلِعَهَا أَفْوَاهُ الطَّامِعِينَ بِالْغِشِّ وَالرِّشْوَةِ وَخِدَاعِ القُضَاةِ؛ فَأَرَى المالَ المأْخُوذَ بِالبَاطِلِ كَقِطْعَةٍ مِنَ النَّارِ تُلْقَى فِي جَوْفِ آكِلِهَا وَلَوْ أَخَذَ بِهَا حُكْماً ظَاهِراً مِنَ الحُكَّامِ؛ وَأَشْعُرُ بِرَهْبَةِ الحِسَابِ الدَّاخِلِيِّ حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ حُكْمَ القَاضِي البَشَرِيِّ الَّذِي يَبْنِي عَلَى الظَّاهِرِ لَا يُحِلُّ حَرَاماً وَلَا يُبَرِّئُ ذِمَّةً أَمَامَ عِلْمِ السَّمَاءِ؛ وَكَمْ تَحَايَلَتِ النُّفُوسُ الجَشِعَةُ بِالأَيْمَانِ الكَاذِبَةِ وَالحُجَجِ المزَوَّرَةِ لِتَقْتَطِعَ حَقَّ الضُّعَفَاءِ وَهِيَ تَعْلَمُ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهَا أَنَّهَا تَأْكُلُ الإِثْمَ الصُّرَاحَ؛ أَرَى اللِّصَّ الَّذِي يَسْرِقُ كَأْساً مِنَ السُّمِّ القَاتِلِ وَيُغَلِّفُهُ بِأَوْرَاقٍ رَسْمِيَّةٍ لِيُقْنِعَ الحَاضِرِينَ أَنَّهُ شَرَابٌ حَلَالٌ، فَمَا إِنْ يَتَجَرَّعَهُ حَتَّى يَفْتِكَ بِأَحْشَائِهِ وَيُهْلِكَهُ؛ فَمَا أَبْشَعَ

جَرِيمَةَ مَنْ يَسْتَغِلُّ القَضَاءَ وَالحِيَلَ لِيَسْلُبَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالظُّلْمِ، فَيَجْمَعُ بَيْنَ خِيَانَةِ الأَمَانَةِ وَالعِلْمِ بِالحُرْمَةِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى وَرَعٍ شَدِيدٍ يَتَحَرَّى طِيبَ المَكْسَبِ قَبْلَ كَثْرَتِهِ، وَيَخْشَى رَقَابَةَ الضَّمِيرِ وَالسَّمَاءِ؛ فَكُلُّ مَالٍ يَدْخُلُ الجَيْبَ بِطَرِيقِ البَاطِلِ هُوَ وَبَالٌ وَحَسْرَةٌ، وَلَا بَرَكَةَ إِلَّا فِي الحَلَالِ الخَالِصِ الَّذِي يَرْضَاهُ اللهُ.

مَوَاقِيتُ الأَهِلَّةِ وَأَبْوَابُ البُيُوتِ

صَدَى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 189]

أَنْظُرُ إِلَى الهِلَالِ الوَلِيدِ وَهُوَ يَبْزُغُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ كَخَيْطٍ مِنْ فِضَّةٍ يَكْبُرُ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ لِيَضْبِطَ إِيقَاعَ الزَّمَنِ وَيُحَدِّدَ مَوَاقِيتَ العِبَادَاتِ وَالحَجِّ، فَأَرَى الوَحْيَ يَصْرِفُ العُقُولَ عَنِ الفُضُولِ العَقِيمِ إِلَى الحِكْمَةِ العَمَلِيَّةِ؛ وَأَشْعُرُ بِاسْتِقَامَةِ المَنْهَجِ الرَّبَّانِيِّ حِينَ يَهْدِمُ تَقَالِيدَ الجَاهِلِيَّةِ المَعْكُوسَةِ الَّتِي تَظُنُّ البِرَّ فِي تَسَلُّقِ الجُدْرَانِ وَإِتْيَانِ البُيُوتِ مِنْ ظُهُورِهَا، لِيُؤَكِّدَ أَنَّ البِرَّ الحَقِيقِيَّ هُوَ التَّقْوَى وَسُلُوكُ الأَبْوَابِ المَشْرُوعَةِ؛ وَكَمْ حَاوَلَتِ النُّفُوسُ أَحْيَاناً أَنْ تَصِلَ إِلَى غَايَاتِهَا مِنْ طُرُقٍ مُلْتَوِيَةٍ وَأَبْوَابٍ خَلْفِيَّةٍ تَحْتَ غِطَاءِ التَّدَيُّنِ أَوِ الحِرْصِ، فَعَلَّمَتْنِي الآيَةُ أَنَّ الفَلَاحَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالِاسْتِقَامَةِ وَالوُضُوحِ؛ أَتَأَمَّلُ القَمَرَ فِي مَنَازِلِهِ الدَّقِيقَةِ يَسِيرُ فِي مَدَارِهِ المَرْسُومِ دُونَ انْحِرَافٍ لِيُضِيءَ لِلنَّاسِ مَوَاقِيتَ حَيَاتِهِمْ، بَيْنَمَا يَتَخَبَّطُ التَّائِهُونَ فِي الظَّلَامِ لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا الأَبْوَابَ المَفْتُوحَةَ وَتَسَوَّرُوا الجُدْرَانَ؛ فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّوْجِيهَ النَّبَوِيَّ الَّذِي يَرْبِطُ البِرَّ بِالتَّقْوَى، وَيَأْمُرُ بِإِتْيَانِ الأُمُورِ مِنْ أَبْوَابِهَا الصَّحِيحَةِ لِتَحْقِيقِ الفَلَاحِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى اسْتِقَامَةٍ تَسْلُكُ الطُّرُقَ الوَاضِحَةَ، وَتَنْبُذُ كُلَّ تَنَطُّعٍ أَوِ الْتِفَافٍ؛ فَكُلُّ طَرِيقٍ مُعْوَجٍّ يَبْتَعِدُ عَنْ جَادَّةِ التَّقْوَى هُوَ تِيهٌ وَخُسْرَانٌ، وَلَا فَلَاحَ لِلْعَبْدِ إِلَّا بِإِتْيَانِ البُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا وَتَقْوَى اللهِ.

سَيْفُ الحَقِّ وَمِيزَانُ العَدْلِ

صَدَى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190]

أَقِفُ أَمَامَ سَاحَةِ الجِهَادِ المقَدَّسِ فَأَرَى السَّيْفَ فِي يَدِ المؤْمِنِ مَضْبُوطاً بِمِيزَانِ العَدْلِ وَالأَخْلَاقِ، فَلَا يُرْفَعُ إِلَّا لِدَفْعِ العُدْوَانِ وَحِمَايَةِ الحَقِّ فِي سَبِيلِ السَّمَاءِ دُونَ ظُلْمٍ أَوْ بَغْيٍ؛ وَأَشْعُرُ بِعَظَمَةِ هَذَا الدِّينِ الَّذِي يَضَعُ حُدُوداً صَارِمَةً حَتَّى فِي أَشَدِّ لَحَظَاتِ الصِّرَاعِ وَالغَضَبِ، فَيُحَرِّمُ الِاعْتِدَاءَ عَلَى مَنْ لَمْ يُقَاتِلْ وَيُحَذِّرُ مِنْ مُجَاوَزَةِ الحَدِّ الَّذِي يُفْقِدُ الإِنْسَانَ مَحَبَّةَ خَالِقِهِ؛ وَكَمْ جَرَفَتْ نَشْوَةُ القُوَّةِ أُمَماً وَأَفْرَاداً فَتَحَوَّلُوا مِنْ مُدَافِعِينَ عَنِ الحَقِّ إِلَى طُغَاةٍ يَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، حَتَّى ضَبَطَ الوَحْيُ البُوصَلَةَ بِقَاعِدَةٍ لَا تَعْتَدُوا؛ أَتَأَمَّلُ السَّدَّ المنِيعَ الَّذِي يَقِفُ بِصَلَابَةٍ لِيَرُدَّ طُوفَانَ السَّيْلِ الجَارِفِ عَنِ القُرَى الآمِنَةِ، وَلَكِنَّهُ يَبْقَى ثَابِتاً فِي مَكَانِهِ وَلَا يَزْحَفُ لِيُدَمِّرَ الحُقُولَ الوَادِعَةَ مِنْ حَوْلِهِ؛ فَمَا أَرْفَعَ هَذِهِ الأَخْلَاقَ السَّمَاوِيَّةَ الَّتِي تَجْعَلُ القِتَالَ عِبَادَةً خَالِصَةً لِرَدِّ المعْتَدِينَ، وَتَسْلُبُ مَحَبَّةَ الخَالِقِ عَنْ كُلِّ مَنْ تَجَاوَزَ حُدُودَ العَدْلِ وَالإِنْصَافِ؛ هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى شَجَاعَةٍ مَضْبُوطَةٍ بِالْوَرَعِ، تُدَافِعُ عَنِ الحَقِّ بِقُوَّةٍ وَتَأْبَى الظُّلْمَ وَالِاعْتِدَاءَ؛ فَكُلُّ قُوَّةٍ تَتَجَرَّدُ مِنَ العَدْلِ هِيَ طُغْيَانٌ مَبْغُوضٌ، وَلَا نَصْرَ وَلَا مَحَبَّةَ إِلَّا لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ مِنَ المعْتَدِينَ.

سَيْفُ العَدْلِ وَحُرْمَةُ المِحْرَابِ

صَدَى {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 191]

أَقِفُ عَلَى حَافَّةِ الضَّوْءِ أُرَاقِبُ مِيزَانَ الحَقِّ حِينَ يُشْهِرُ سَيْفَهُ لِيَحْمِيَ قَدَاسَةَ الطِّينِ مِنْ غُبَارِ الفِتْنَةِ، فَيَتَشَظَّى فِي دَاخِلِي وَهْمُ السَّلَامِ البَارِدِ الَّذِي يُسَلِّمُ المِحْرَابَ لِلْعَابِثِينَ وَيُطْفِئُ قَنَادِيلَ الرُّوحِ، وَكَمْ تَاهَتْ خُطَايَ فِي دُرُوبِ التَّرَدُّدِ حِينَ حَسِبْتُ أَنَّ السُّكُوتَ عَنِ البَاطِلِ حِكْمَةٌ وَأَنَّ انْكِسَارَ الجَنَاحِ تَسَامُحٌ، أَرَى البَحْرَ يَلْتَهِمُ الزَّبَدَ الفَاسِدَ لِيَحْفَظَ نَقَاءَ لُؤْلُؤِهِ وَالجِبَالَ تَرُدُّ الرِّيَاحَ الهَوْجَاءَ دُونَ أَنْ تَتَزَحْزَحَ عَنْ سَكِينَتِهَا، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الحَدَّ الفَاصِلَ بَيْنَ سَيْفٍ يَصُونُ الحَيَاةَ وَخِنْجَرٍ يَذْبَحُ اليَقِينَ فِي مَهْدِ الفِتْنَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الصَّرْخَةُ الإِلَهِيَّةُ فِي عُرُوقِي إِلَى دِرْعٍ مِنَ النُّورِ يَحْرُسُ الكَعْبَةَ القَلْبِيَّةَ وَيَطْرُدُ خَفَافِيشَ الظَّلَامِ، فَكُلُّ عُدْوَانٍ يَتَبَدَّدُ كَالدُّخَانِ عِنْدَ أَسْوَارِ الحَقِيقَةِ وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِسَكِينَةِ التَّوْحِيدِ الَّتِي أَرْسَاهَا اللهُ فِي الأَرْضِ.

غَمَامَةُ المَغْفِرَةِ وَانْكِسَارُ النَّصْلِ

صَدَى {فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [البقرة: 192]

أُصْغِي إِلَى هَمْسِ الرَّحْمَةِ وَهُوَ يَسْكُبُ المَاءَ البَارِدَ فَوْقَ جَمْرِ المَعْرَكَةِ لِيُطْفِئَ لَهِيبَ الحِقْدِ، فَيَذُوبُ فِي صَدْرِي صَلَفُ الِانْتِقَامِ وَتَنْكَسِرُ أَشْوَاكُ الغَضَبِ أَمَامَ عَتَبَةِ العَفْوِ، وَكَمْ أَغْلَقْتُ أَبْوَابَ قَلْبِي بِأَقْفَالِ القَسْوَةِ ظَنًّا مِنِّي أَنَّ القُلُوبَ الصَّدِئَةَ لَا تَعْرِفُ طَرِيقَ المَطَرِ، أَتَأَمَّلُ الغُيُومَ الدَّاكِنَةَ كَيْفَ تَتَلَاشَى فَجْأَةً لِتَكْشِفَ عَنْ زُرْقَةٍ تَغْسِلُ وَجْهَ السَّمَاءِ وَتُعِيدُ لِلْعُشْبِ خُضْرَتَهُ، فَمَا أَشَدَّ دَهْشَتِي أَمَامَ بَابٍ يَنْفَتِحُ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ لِلْعَائِدِينَ مِنْ تِيهِ الجُحُودِ دُونَ أَنْ يُطَالِبَهُمْ بِثَمَنِ الرُّجُوعِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ

الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى نَهْرٍ يَجْرُفُ طَمْيَ الضَّغِينَةِ وَيُزْهِرُ عَلَى ضِفَافِهِ وَرْدُ التَّسَامُحِ، فَكُلُّ ظُلْمَةٍ تَنْمَحِي عِنْدَ أَوَّلِ خُطْوَةٍ نَحْوَ النُّورِ وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِرَحْمَةِ اللهِ الَّتِي تَسَعُ المُنْكَسِرِينَ.

مِحْرَابُ الدِّينِ وَتَلَاشِي الأَصْنَامِ

صَدَى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} [البقرة: 193]

أَرْفَعُ بَصَرِي نَحْوَ أُفُقٍ يَتَطَهَّرُ مِنْ دُخَانِ الأَوْثَانِ لِيَسْتَقِيمَ عَمُودُ النُّورِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَيَنْكَشِفُ لِي زَيْفُ الرَّايَاتِ الَّتِي تَتَقَنَّعُ بِالسَّلَامِ لِتَزْرَعَ الشَّوْكَ فِي حُقُولِ العَقِيدَةِ، وَكَمْ تَعَثَّرَتْ رُوحِي فِي مَتَاهَاتِ المجَامَلَةِ حِينَ خَلَطْتُ بَيْنَ لِينِ الجَنَاحِ وَبَيْنَ التَّفْرِيطِ فِي جَوْهَرِ المِيثَاقِ، أَرَى الفَجْرَ يَشُقُّ قَمِيصَ اللَّيْلِ بِحَسْمٍ رَحِيمٍ ثُمَّ يَنْشُرُ دِفْئَهُ فَوْقَ الكَائِنَاتِ دُونَ أَنْ يَظْلِمَ زَهْرَةً وَاحِدَةً، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّوَازُنَ الَّذِي يَجْعَلُ السَّيْفَ خَادِمًا لِلْمِحْرَابِ وَيَكُفُّ اليَدَ عَنِ البَطْشِ حِينَ يَنْتَهِي الطُّغْيَانُ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الكَلِمَاتُ فِي دَاخِلِي إِلَى مِيزَانٍ دَقِيقٍ يَزِنُ الغَضَبَ بِقِسْطَاسِ العَدْلِ وَيُخْلِصُ القَلْبَ مِنْ شَوَائِبِ الهَوَى، فَكُلُّ طُغْيَانٍ يَهْوِي تَحْتَ مِطْرَقَةِ الحَقِّ وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِدِينِ اللهِ الخَالِصِ مِنْ كُلِّ شِرْكٍ.

مِرْآةُ القِصَاصِ وَسِيَاجُ التَّقْوَى

صَدَى {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [البقرة: 194]

أُنْصِتُ إِلَى إِيقَاعِ العَدَالَةِ وَهُوَ يَرْسُمُ حُدُودَ الحُرْمَةِ بِخُيُوطٍ مِنَ النَّارِ وَالنُّورِ كَيْ لَا يُسْتَبَاحَ الوَطَنُ الرُّوحِيُّ، فَيَتَبَدَّدُ فِي أَعْمَاقِي خَوْفُ الضَّعِيفِ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّ الحُرُمَاتِ جُدْرَانٌ هَشَّةٌ تَسْقُطُ أَمَامَ أَوَّلِ عَاصِفَةٍ، وَكَمْ جَرَعْتُ مَرَارَةَ الِانْكِسَارِ حِينَ رَأَيْتُ البَاطِلَ يَتَجَرَّأُ عَلَى الأَشْهُرِ الحُرُمِ وَأَنَا أُكَبِّلُ يَدَيَّ بِأَوْهَامِ العَجْزِ، أَتَأَمَّلُ الجَبَلَ كَيْفَ يُرَجِّعُ الصَّدَى بِقَدْرِ الصَّوْتِ دُونَ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ لِيُعَلِّمَ الرِّيحَ أَدَبَ الحُدُودِ، فَمَا أَشَدَّ جَلَالَ التَّقْوَى حِينَ تَقِفُ حَارِسًا عَلَى حَافَّةِ السَّيْفِ تَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَتَجَاوَزَ مِقْدَارَ الجُرْحِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى سِيَاجٍ مُقَدَّسٍ يَحْفَظُ الكَرَامَةَ مِنْ أَنْ

تُدَاسَ وَيُلْجِمُ النَّفْسَ عَنِ الشَّطَطِ، فَكُلُّ تَجَاوُزٍ يَزُولُ كَالسَّرَابِ وَيَبْقَى اللهُ مَعَ القُلُوبِ الَّتِي تَتَّقِيهِ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ.

قَنَاطِيرُ العَطَاءِ وَهَاوِيَةُ الإِمْسَاكِ

صَدَى {وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: 195]

أَمُدُّ يَدِي فِي فَضَاءِ الكَرَمِ فَأَرَى البَذْرَةَ الَّتِي أُلْقِيهَا فِي تُرْبَةِ الحَقِّ تَنْمُو شَجَرَةً تَسْتَظِلُّ بِهَا أَرْوَاحُ العَابِرِينَ، فَيَنْهَارُ فِي دَاخِلِي صَنَمُ الشُّحِّ الَّذِي يُوهِمُنِي أَنَّ القَبْضَ عَلَى المَاءِ يَحْفَظُهُ مِنَ الجَفَافِ، وَكَمْ حَبَسْتُ عَطَائِي خَوْفًا مِنَ الفَقْرِ فَإِذَا بِي أَحْفِرُ قَبْرِي بِيَدَيَّ وَأُلْقِي بِنَفْسِي فِي تَهْلُكَةِ الجُمُودِ وَالعُزْلَةِ، أَرَى السَّحَابَةَ تَمُوتُ فَرَحًا حِينَ تَسْكُبُ مَاءَهَا لِتُحْيِيَ الأَرْضَ المَيْتَةَ بَيْنَمَا تَتَبَخَّرُ البِرْكَةُ الرَّاكِدَةُ الَّتِي تَبْخَلُ بِقَطَرَاتِهَا، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا السِّرَّ الَّذِي يَجْعَلُ الإِنْفَاقَ طَوْقَ نَجَاةٍ وَالإِمْسَاكَ حَبْلًا يَلْتَفُّ حَوْلَ عُنُقِ البَخِيلِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الأَمْوَالُ وَالأَرْوَاحُ فِي كَفِّي إِلَى قَنَاطِيرَ مِنَ الإِحْسَانِ تَعْبُرُ بِي نَحْوَ مَحَبَّةِ الخَالِقِ، فَكُلُّ مَا نُكَدِّسُهُ يَفْنَى وَيَتَبَدَّدُ وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِمَا نُقَدِّمُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ.

طَوَافُ القُلُوبِ وَفِدْيَةُ التَّقْصِيرِ

صَدَى {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ...} [البقرة: 196]

أَتَسَابَقُ مَعَ أَنْفَاسِ الرُّوحِ لِأُتِمَّ الدَّوْرَةَ فِي فَلَكِ الطَّاعَةِ حِينَ تَتَعَثَّرُ الخُطَى أَمَامَ سِيَاجِ القَدَرِ، فَتَنْفَتِحُ أَبْوَابُ البَدَائِلِ كَمَرَايَا لِلرَّحْمَةِ تُخَفِّفُ عَنِ المَرِيضِ وَالمُتْعَبِ وَزَرَ التَّقْصِيرِ بِنَهْرِ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ، وَكَمْ حَاصَرَنِي الشُّعُورُ بِالعَجْزِ كُلَّمَا حَالَتِ الأَقْدَارُ بَيْنِي وَبَيْنَ تَمَامِ المَنَاسِكِ قَبْلَ أَنْ يَرُدَّنِي اليُسْرُ إِلَى بَرِّ الأَمَانِ، أَتَأَمَّلُ المَاءَ وَهُوَ يَخْتَارُ مَجْرَاهُ بَيْنَ الصُّخُورِ لِيُنْبِتَ العُشْبَ حَيْثُ تَوَقَّعَ البَعْضُ الجَفَافَ، فَمَا أَبْهَى هَذَا التَّكَامُلَ بَيْنَ صِرَامَةِ الحُدُودِ وَلِينِ الرُّخَصِ، هَكَذَا يَتَحَوَّلُ التَّعَبُ فِي قَلْبِي إِلَى قَنَادِيلِ شُكْرٍ تُنِيرُ دُرُوبَ العَائِدِينَ، فَكُلُّ عُسْرٍ يَعْقُبُهُ يُسْرٌ بِلَا شَكٍّ وَلَا بَقَاءَ لِلْخَوْفِ حَيْثُ

تَحْضُرُ تَقْوَى اللهِ. (لِمُطَالَعَةِ النَّصِّ الكَامِلِ لِلْآيَةِ، يُرْجَى العَوْدَةُ إِلَى المصْدَرِ الأَصْلِيِّ [البقرة: 196]).

زَادُ التَّقْوَى وَسَرَابُ المَنَافِعِ

صَدَى {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة: 197]

أَخْلَعُ نَعْلَيَّ عَلَى عَتَبَةِ الزَّمَنِ المقَدَّسِ لِأَرَى كَيْفَ تَتَجَرَّدُ الرُّوحُ مِنْ ثِيَابِ الجَدَلِ وَغُبَارِ الشَّهَوَاتِ حِينَ تَدْخُلُ مِيقَاتَ الطَّاعَةِ، فَيَتَهَاوَى فِي دَاخِلِي صَنَمُ المِرَاءِ الَّذِي يُحَوِّلُ الكَلِمَاتِ إِلَى حَنَاجِرَ تُمَزِّقُ سَكِينَةَ الإِحْرَامِ وَتُطْفِئُ بَرِيقَ النِّيَّةِ الصَّافِيَةِ فِي مَهْدِهَا، وَكَمْ حَمَلْتُ عَلَى ظَهْرِي أَحْمَالًا ثَقِيلَةً مِنْ زَادِ الدُّنْيَا الفَانِي وَظَنَنْتُ أَنَّ أَكْيَاسَ الرَّمْلِ سَتُغْنِينِي فِي صَحْرَاءِ البَعْثِ عَنْ مَاءِ التَّقْوَى العَذْبِ، أَتَأَمَّلُ القَوَافِلَ كَيْفَ تَعْبُرُ الفَلَاةَ مُتَخَفِّفَةً مِنْ فُضُولِ المَتَاعِ لِتَصِلَ إِلَى الوَاحَةِ قَبْلَ أَنْ تَدْهَمَهَا العَوَاصِفُ وَتَدْفِنَ مَعَالِمَ الطَّرِيقِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا النِّدَاءَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَكْشِفُ عَوْرَةَ الزَّادِ المَادِّيِّ وَيُعْلِنُ أَنَّ الخَشْيَةَ الصَّادِقَةَ هِيَ الخُبْزُ الوَحِيدُ الَّذِي لَا يَتَعَفَّنُ فِي أَسْفَارِ الخُلُودِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الأَشْهُرُ المَعْلُومَاتُ فِي وِجْدَانِي إِلَى مِرْآةٍ صَافِيَةٍ تَعْكِسُ خَفَايَا الخَيْرِ المَنْسِيِّ وَتُهَذِّبُ شَرَاسَةَ اللِّسَانِ بِصَمْتِ الخُشُوعِ، فَكُلُّ مَتَاعٍ نَجْمَعُهُ لِلْجَسَدِ يَتَبَدَّدُ كَالهَبَاءِ عِنْدَ أَبْوَابِ القُبُورِ وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِزَادِ التَّقْوَى الَّذِي يَرْعَاهُ اللهُ فِي قُلُوبِ أُولِي الأَلْبَابِ.

إِفَاضَةُ العَرَفَاتِ وَسَكِينَةُ الذِّكْرِ

صَدَى {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ} [البقرة: 198]

أَمُدُّ بَصَرِي بَيْنَ سَعْيِ اليَدِ لِلرِّزْقِ وَسُجُودِ الجَبْهَةِ فِي المِحْرَابِ فَأَرَى المَاءَ وَالنَّارَ يَجْتَمِعَانِ فِي إِنَاءِ الشَّرِيعَةِ دُونَ أَنْ يُطْفِئَ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، فَيَتَبَدَّدُ فِي أَعْمَاقِي وَهْمُ القَطِيعَةِ بَيْنَ كَدْحِ الطِّينِ فِي

الأَسْوَاقِ وَتَخْلِيقِ الرُّوحِ فِي سَمَاوَاتِ المَعْرِفَةِ وَالتَّسْبِيحِ، وَكَمْ تَاهَتْ خُطَايَ فِي ظُلُمَاتِ الحَيْرَةِ قَبْلَ أَنْ يُشْرِقَ نُورُ الهِدَايَةِ عَلَى تِلَالَ عَرَفَاتٍ فَيُعَلِّمَنِي كَيْفَ أَنْطِقُ بِاسْمِ الخَالِقِ بَعْدَ طُولِ خَرَسٍ وَضَيَاعٍ، أَرَى السَّيْلَ العَارِمَ يَنْحَدِرُ مِنْ قِمَمِ الجِبَالِ فِي مَشْهَدٍ مَهِيبٍ ثُمَّ يَسْتَقِرُّ فِي الوَادِي المُقَدَّسِ لِيُسَبِّحَ بِحَمْدِ مَنْ فَجَّرَ يَنَابِيعَهُ مِنْ بَيْنِ الصُّخُورِ الصَّمَّاءِ، فَمَا أَشَدَّ دَهْشَتِي أَمَامَ هَذَا التَّوَازُنِ الدَّقِيقِ الَّذِي يُبِيحُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقْطِفَ ثِمَارَ الأَرْضِ ثُمَّ يَأْمُرُهُ أَنْ يَغْسِلَ كَفَّيْهِ بِالذِّكْرِ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الإِفَاضَةُ فِي نَفْسِي إِلَى نَهْرٍ مِنَ الوَعْيِ يَجْرُفُ غَفْلَةَ المَاضِي وَيُزْهِرُ عَلَى ضِفَافِهِ يَقِينُ الحَاضِرِ وَشُكْرُ النِّعْمَةِ، فَكُلُّ سَعْيٍ يَنْقَطِعُ عَنْ ذِكْرِ السَّمَاءِ يَصِيرُ سَرَابًا بِلَا مَعْنًى وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِلْهِدَايَةِ الَّتِي أَخْرَجَنَا بِهَا اللهُ مِنَ التِّيهِ.

مَوْكِبُ المَسَاوَاةِ وَانْهِدَامُ الأَبْرَاجِ

صَدَى {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [البقرة: 199]

أَنْخَرِطُ فِي طُوفَانِ الأَجْسَادِ المُتَوَشِّحَةِ بِالبَيَاضِ فَأَرَى المُلُوكَ وَالفُقَرَاءَ يَذُوبُونَ فِي بُوتَقَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَعْرِفُ أَنْسَابَ الطِّينِ وَلَا تِيجَانَ الغُرُورِ، فَيَنْهَارُ فِي دَاخِلِي بُرْجُ التَّمَايُزِ الوَهْمِيِّ الَّذِي تَبْنِيهِ النَّفْسُ لِتَتَعَالَى بِهِ عَلَى عِبَادِ الخَالِقِ وَتَنْفَرِدَ بِمَوَاقِفِ الكِبْرِيَاءِ المَزْعُومَةِ، وَكَمْ جَرَعْتُ مَرَارَةَ العُزْلَةِ حِينَ ظَنَنْتُ أَنَّ التَّفَرُّدَ يَكْمُنُ فِي مُخَالَفَةِ مَوْكِبِ الحَقِّ وَالِانْزِوَاءِ فِي زَوَايَا الأَنَانِيَّةِ المَعْزُولَةِ عَنِ الجَمَاعَةِ، أَتَأَمَّلُ قَطَرَاتِ المَطَرِ كَيْفَ تَتَسَاقَطُ مِنَ السَّحَابَةِ ذَاتِهَا وَتَجْرِي فِي مَجْرًى وَاحِدٍ دُونَ أَنْ تَدَّعِيَ قَطْرَةٌ مِنْهَا أَنَّهَا أَصْفَى مَعْدِنًا مِنْ أُخْتِهَا، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الأَمْرَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَكْسِرُ شَوْكَةَ الطَّبَقِيَّةِ وَيَأْمُرُ الجَمِيعَ أَنْ يَعْبُرُوا مِنْ بَوَّابَةِ العُبُودِيَّةِ الوَاحِدَةِ مُثْقَلِينَ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالِانْكِسَارِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الخُطُوَاتُ المُمْتَزِجَةُ بِالغُبَارِ فِي رُوحِي إِلَى سِيمْفُونِيَّةٍ مِنَ التَّوَاضُعِ تَمْحُو أَثَرَ الخَطَايَا وَتَسْتَمْطِرُ سَحَائِبَ الرَّحْمَةِ، فَكُلُّ كِبْرِيَاءٍ يَتَحَطَّمُ تَحْتَ أَقْدَامِ المَسَاوَاةِ الإِلَهِيَّةِ وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَغْفِرَةِ اللهِ الَّتِي تَغْمُرُ المُسْتَغْفِرِينَ.

أَنَاشِيدُ الخُلُودِ وَصَحَبُ الفَانِي

صَدَى {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} [البقرة: 200]

أُصْغِي إِلَى ضَجِيجِ الحَنَاجِرِ بَعْدَ انْقِضَاءِ المَنَاسِكِ فَأَرَى المَشْهَدَ يَنْقَسِمُ إِلَى نَهْرٍ يَصُبُّ فِي بَحْرِ الآخِرَةِ وَجَدْوَلٍ يَجِفُّ فِي رِمَالِ الدُّنْيَا العَطْشَى، فَيَتَكَشَّفُ لِي فَقْرُ الأَمَانِيِّ الَّتِي تَحْبِسُ الدُّعَاءَ فِي قَفَصِ الطِّينِ وَتَجْعَلُ السَّمَاءَ مُجَرَّدَ مَخْزَنٍ لِإِشْبَاعِ جُوعِ الجَسَدِ الفَانِي، وَكَمْ رَفَعْتُ كَفَّيَّ إِلَى الأَعْلَى وَأَنَا أَحْمِلُ قَلْبًا مُثْقَلًا بِحُطَامِ المَتَاعِ فَأَطْلُبُ الزَّبَدَ الذَّاهِبَ وَأَنْسَى اللُّؤْلُؤَ البَاقِيَ فِي أَعْمَاقِ الغَيْبِ، أَرَى الفَرَاشَةَ العَمْيَاءَ تَحْتَرِقُ حَوْلَ شَمْعَةٍ ضَئِيلَةٍ فِي الظَّلَامِ بَيْنَمَا تَتْرُكُ الشَّمْسَ الكُبْرَى الَّتِي تَمْلَأُ الأُفُقَ بِالنُّورِ وَالحَيَاةِ وَالدِّفْءِ الأَبَدِيِّ، فَمَا أَشَدَّ خَسَارَةَ مَنْ يَبِيعُ قُصُورَ الخُلُودِ بِكُوخٍ مِنْ قَشٍّ تَشْتَعِلُ فِيهِ النِّيرَانُ عِنْدَ أَوَّلِ نَفْحَةٍ مِنْ رِيَاحِ المَوْتِ، هَكَذَا يَتَحَوَّلُ الذِّكْرُ فِي صَدْرِي إِلَى نَشِيدٍ يَتَجَاوَزُ أَمْجَادَ الآبَاءِ وَأَنْسَابَ التُّرَابِ لِيَتَعَلَّقَ بِمَلَكُوتٍ لَا يَزُولُ وَلَا يَشِيخُ، فَكُلُّ حَظٍّ نَقْتَطِعُهُ مِنَ الدُّنْيَا وَحْدَهَا يَتَبَخَّرُ كَالسَّرَابِ وَلَا نَصِيبَ حَقِيقِيٌّ إِلَّا لِمَنْ جَعَلَ ذِكْرَ اللهِ جِسْرًا نَحْوَ الآخِرَةِ.

جَنَاحَا الحَسَنَةِ وَسُورُ النَّجَاةِ

صَدَى {وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [البقرة: 201]

أُحَلِّقُ بِجَنَاحَيْنِ مُتَوَازِنَيْنِ فِي سَمَاءِ الدُّعَاءِ فَأَرَى الحَسَنَةَ شَجَرَةً وَاحِدَةً تَضْرِبُ جُذُورُهَا فِي تُرْبَةِ الدُّنْيَا وَتَمْتَدُّ أَغْصَانُهَا المُثْمِرَةُ فِي جِنَانِ الآخِرَةِ، فَيَنْحَلُّ فِي وِجْدَانِي تِلْكَ العُقْدَةُ القَدِيمَةُ الَّتِي تَظُنُّ أَنَّ صَلَاحَ الدُّنْيَا يَعْنِي فَسَادَ الدِّينِ أَوْ أَنَّ نَعِيمَ الآخِرَةِ يُشْتَرَى بِتَعَاسَةِ الحَاضِرِ، وَكَمْ تَأَرْجَحْتُ بَيْنَ خَوْفٍ يَسْحَقُ بَهْجَةَ العَيْشِ وَطَمَعٍ يُنْسِي هَوْلَ الحِسَابِ قَبْلَ أَنْ تُعَلِّمَنِي هَذِهِ الآيَةُ كَيْفَ أَجْمَعُ السَّعَادَتَيْنِ فِي دَعْوَةٍ وَاحِدَةٍ، أَتَأَمَّلُ النَّهْرَ كَيْفَ يَسْقِي البَسَاتِينَ عَلَى ضِفَافِهِ طُولَ رِحْلَتِهِ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يَصُبُّ عَذْبًا زُلَالًا فِي البَحْرِ الكَبِيرِ دُونَ أَنْ يَفْقِدَ نَقَاءَهُ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا السُّؤَالَ الجَامِعَ الَّذِي يَطْلُبُ عَافِيَةَ الطَّرِيقِ وَسَلَامَةَ الوُصُولِ ثُمَّ يَخْتِمُ بِالِاحْتِمَاءِ مِنْ لَهِيبِ النَّارِ الَّتِي تَلْتَهِمُ الغَافِلِينَ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الأُمْنِيَّاتُ المَبْعْثَرَةُ فِي قَلْبِي إِلَى قَصِيدَةِ تَوْحِيدٍ تَسْتَمْطِرُ الخَيْرَ الكَامِلَ وَتَبْنِي حَوْلَ

الرُّوحِ سُورًا مِنَ الأَمَانِ، فَكُلُّ نَعِيمٍ لَا يَحْمِينَا مِنَ النَّارِ هُوَ فِتْنَةٌ مُقَنَّعَةٌ وَلَا فَوْزَ أَبَدِيٌّ إِلَّا بِحَسَنَةِ الدَّارَيْنِ.

حَصَادُ الكَسْبِ وَسُرْعَةُ الميزَانِ

صَدَى {أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [البقرة: 202]

أَنْظُرُ إِلَى الميزَانِ الإِلَهِيِّ المعَلَّقِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَأَرَى كُلَّ نَفَسٍ يَخْرُجُ مِنَ الصَّدْرِ يَتَحَوَّلُ إِلَى بَذْرَةٍ تُنْبِتُ نَصِيبَ صَاحِبِهَا فِي حَقْلِ الغَيْبِ، فَيَتَلَاشَى فِي نَفْسِي وَهْمُ التَّأْجِيلِ الَّذِي يُسَوِّلُ لِلرُّوحِ أَنَّ الزَّمَنَ نَهْرٌ بَطِيءٌ وَأَنَّ سَاعَةَ الحِسَابِ تَقْبَعُ خَلْفَ أَلْفِ جَبَلٍ بَعِيدٍ، وَكَمْ أَسْرَفْتُ فِي تَبْدِيدِ أَيَّامِي ظَنًّا مِنِّي أَنَّ الأَعْمَالَ تَتَبَخَّرُ فِي الهَوَاءِ وَلَا تَتْرُكُ أَثَرًا عَلَى صَفَحَاتِ الكَوْنِ المفْتُوحَةِ، أَرَى البَرْقَ يَخْطَفُ الأَبْصَارَ فِي لَمْحَةٍ وَاحِدَةٍ لِيُذَكِّرَ السَّائِرِينَ فِي الظَّلَامِ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تَحْتَاجُ إِلَى قُرُونٍ لِتَكْشِفَ خَبَايَا المسَافَاتِ، فَمَا أَشَدَّ هَيْبَةَ هَذَا الحِسَابِ السَّرِيعِ الَّذِي يُحْصِي الذَّرَّاتِ وَالنَّوَايَا فِي آنٍ وَاحِدٍ دُونَ أَنْ تَخْتَلِطَ عَلَيْهِ أَصْوَاتُ الخَلَائِقِ وَأَعْمَالُهُمْ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ اللَّحَظَاتُ العَابِرَةُ فِي حَيَاتِي إِلَى جَوَاهِرَ ثَمِينَةٍ أَصُوغُ مِنْهَا نَصِيبِي القَادِمَ قَبْلَ أَنْ يُطْوَى سِجِلُّ الأَنْفَاسِ، فَكُلُّ عَمَلٍ نَزْرَعُهُ اليَوْمَ سَنَحْصُدُ ثَمَرَهُ غَدًا وَلَا مَفَرَّ مِنْ عَدْلِ اللهِ السَّرِيعِ فِي الحِسَابِ.

أَيَّامُ التَّشْرِيقِ وَمَحْطَّةُ المآبِ

صَدَى {وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [البقرة: 203]

أَقِفُ فِي خِيَامِ مِنًى أُودِّعُ الأَيَّامَ المعْدُودَاتِ وَهِيَ تَنْسَلُّ مِنْ بَيْنِ الأَصَابِعِ كَخُيُوطِ الفَجْرِ الَّتِي تُبَشِّرُ بِانْقِضَاءِ لَيْلِ المنَاسِكِ، فَيَسْقُطُ عَنْ كَاهِلِي ثِقَلُ الوَسْوَاسِ الَّذِي يُضَيِّقُ وَاسِعَ الرَّحْمَةِ وَيَجْعَلُ العَجَلَةَ أَوِ التَّأَخُّرَ ذَنْبًا يُطَارِدُ القَلْبَ بَعْدَ التَّمَامِ، وَكَمْ قَيَّدْتُ رُوحِي بِأَغْلَالِ الشَّكْلِ وَنَسِيتُ أَنَّ التَّقْوَى هِيَ المِفْتَاحُ الوَحِيدُ الَّذِي يَفْتَحُ أَبْوَابَ القَبُولِ لِلْمُتَعَجِّلِ وَالمتَأَخِّرِ عَلَى السَّوَاءِ، أَتَأَمَّلُ الطُّيُورَ المهَاجِرَةَ كَيْفَ تُغَادِرُ عُشَّهَا فِي أَسْرَابٍ مُتَتَابِعَةٍ وَكُلُّهَا تَعْلَمُ أَنَّ الفَضَاءَ الفَسِيحَ سَيَجْمَعُهَا فِي

مَوْطِنٍ وَاحِدٍ عِنْدَ نِهَايَةِ الرِّحْلَةِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ اليَسَارَةَ الَّتِي تَمْنَحُ العَبْدَ حُرِّيَّةَ الخُطْوَةِ ثُمَّ تُذَكِّرُهُ بِالحَقِيقَةِ الكُبْرَى أَنَّ الجَمِيعَ مَسُوقُونَ إِلَى مَحْشَرٍ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهُ أَحَدٌ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ أَيَّامُ الذِّكْرِ فِي دَاخِلِي إِلَى بُوصَلَةٍ تَضْبِطُ اتِّجَاهَ السَّيْرِ نَحْوَ الميعَادِ الأَكْبَرِ بِقَلْبٍ مُطْمَئِنٍّ وَنَفْسٍ وَجِلَةٍ، فَكُلُّ مَقَامٍ فِي هَذِهِ الأَرْضِ هُوَ مَحَطَّةٌ عَابِرَةٌ وَلَا مُسْتَقَرَّ نِهَائِيٌّ إِلَّا حِينَ نُحْشَرُ إِلَى اللهِ.

قِنَاعُ البَيَانِ وَخَرَابُ الحَرْثِ

صَدَى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} [البقرة: 204]

صَدَى {وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة: 205]

أُنْصِتُ بِحَذَرٍ إِلَى زَخْرَفِ الكَلَامِ حِينَ يَتَدَفَّقُ كَالعَسَلِ المَسْمُومِ مِنْ شِفَاهٍ تَسْتَعِيرُ ثِيَابَ الصَّالِحِينَ لِتُخْفِيَ خَنَاجِرَ الخُصُومَةِ، فَيَتَمَزَّقُ أَمَامَ بَصِيرَتِي قِنَاعُ البَلَاغَةِ الخَادِعَةِ الَّتِي تَجْعَلُ البَاطِلَ يَلْمَعُ كَالدُّرِّ بَيْنَمَا يَغْلِي فِي الصَّدْرِ حِقْدٌ أَسْوَدُ يَحْرِقُ الأَخْضَرَ وَاليَابِسَ، وَكَمِ انْخَدَعَتْ أُذُنَايَ بِبَرِيقِ الأَيْمَانِ الكَاذِبَةِ الَّتِي تَتَّخِذُ اسْمَ السَّمَاءِ شَاهِدًا عَلَى طُهْرِ السَّرِيرَةِ قَبْلَ أَنْ تَنْقَلِبَ اليَدُ لِتَذْبَحَ الزَّرْعَ وَالنَّسْلَ فِي الظَّلَامِ، أَرَى الجَرَادَ يَهْبِطُ عَلَى الحَقْلِ المُنَوَّرِ بِأَجْنِحَةٍ تَلْمَعُ تَحْتَ الشَّمْسِ ثُمَّ لَا يَتْرُكُ خَلْفَهُ سِوَى أَغْصَانٍ عَارِيَةٍ وَتُرْبَةٍ تَبْكِي خُضْرَتَهَا المَذْبُوحَةَ، فَمَا أَشَدَّ قُبْحَ هَذَا التَّنَاقُضِ بَيْنَ لِسَانٍ يَقْطُرُ عُذُوبَةً فِي المَجَالِسِ وَقَدَمٍ تَدُوسُ سَنَابِلَ الحَيَاةِ وَبَرَاءَةَ الأَجْيَالِ حِينَ تَخْلُو بِالطَّرِيقِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ فِرَاسَةُ القُرْآنِ فِي عَقْلِي إِلَى مِصْبَاحٍ يَكْشِفُ عُيُوبَ النَّوَايَا خَلْفَ جُدْرَانِ الكَلِمَاتِ وَيُحَصِّنُ الرُّوحَ مِنْ فِتْنَةِ المُتَلَوِّنِينَ، فَكُلُّ بَيَانٍ يُخْفِي الفَسَادَ يَنْفَضِحُ عِنْدَ أَوَّلِ خُطْوَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا مَحَبَّةَ عِنْدَ اللهِ لِمَنْ يُهْلِكُ الحَيَاةَ.

عِزَّةُ الإِثْمِ وَمِهَادُ الجَحِيمِ

صَدَى {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} [البقرة: 206]

أَرَى جَبَلَ الكِبْرِيَاءِ يَنْتَفِخُ فِي صَدْرِ العَاصِي كُلَّمَا طَرَقَتْ أُذُنَهُ كَلِمَةُ النَّصِيحَةِ كَأَنَّ التَّذْكِيرَ بِالحَقِّ إِهَانَةٌ لِتَاجِهِ المِصْنُوعِ مِنَ الوَهْمِ، فَيَنْكَشِفُ لِي سِرُّ السُّقُوطِ الأَبَدِيِّ حِينَ تَتَحَوَّلُ العِزَّةُ إِلَى سَوْطٍ يَجْلِدُ بِهِ الإِنْسَانُ فِطْرَتَهُ وَيَدْفَعُ نَفْسَهُ نَحْوَ الهَاوِيَةِ بِيَدَيْهِ، وَكَمْ تَصَلَّبَتْ عُرُوقُ العِنَادِ فِي رَقَبَتِي يَوْمًا حِينَ خَشِيتُ أَنْ يَظُنَّ النَّاسُ أَنَّ الرُّجُوعَ إِلَى الصَّوَابِ انْكِسَارٌ لِهَيْبَتِي وَهَزِيمَةٌ لِأَنَانِيَّتِي، أَتَأَمَّلُ الصَّخْرَةَ الصَّمَّاءَ كَيْفَ تَرْفُضُ أَنْ تَمْتَصَّ قَطَرَاتِ المَطَرِ فَتَظَلُّ جَرْدَاءَ قَاحِلَةً بَيْنَمَا تَتَفَتَّحُ التُّرْبَةُ اللَّيِّنَةُ بِأَلْفِ زَهْرَةٍ وَعِطْرٍ، فَمَا أَبْأَسَ تِلْكَ النَّشْوَةَ الكَاذِبَةَ الَّتِي تَجْعَلُ المَرْءَ يَفْتَخِرُ بِخَطِيئَتِهِ لِيَسْتَيْقِظَ فَجْأَةً عَلَى فِرَاشٍ مِنَ النَّارِ لَا يَعْرِفُ الرَّاحَةَ وَلَا السُّكُونَ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ مَوْعِظَةُ التَّقْوَى فِي قَلْبِي إِلَى نَسِيمٍ بَارِدٍ يُطْفِئُ حُمَّى التَّكَبُّرِ وَيُعِيدُنِي إِلَى رَحَابَةِ الِاعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ، فَكُلُّ عِزَّةٍ تَقُومُ عَلَى الإِثْمِ هِيَ ذُلٌّ مُقِيمٌ فِي جَهَنَّمَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِالِانْكِسَارِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ.

تِجَارَةُ الفِدَاءِ وَرَأْفَةُ السَّمَاءِ

صَدَى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} [البقرة: 207]

أَقِفُ مَبْهُورًا أَمَامَ مَشْهَدِ الصَّفْقَةِ الرَّابِحَةِ حِينَ يَضَعُ العَاشِقُ الصَّادِقُ رُوحَهُ عَلَى كَفِّهِ بَائِعًا طِينَهَا الفَانِيَ لِيَشْتَرِيَ رِضَا المَلِكِ الحَقِّ، فَيَتَقَزَّمُ فِي عَيْنِي كُلُّ مَتَاعِ الأَرْضِ الَّذِي يُسَاوِمُ عَلَيْهِ البُخَلَاءُ بِأَرْوَاحِهِمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّ البَقَاءَ فِي القَفَصِ حَيَاةٌ وَالخُرُوجَ إِلَى الفَضَاءِ مَوْتٌ، وَكَمْ تَرَدَّدْتُ عِنْدَ عَتَبَةِ البَذْلِ خَوْفًا مِنْ ضَيَاعِ النَّفْسِ قَبْلَ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ الرُّوحَ لَا تَحْيَا حَقًّا إِلَّا حِينَ تَذُوبُ فِي مَحَبَّةِ خَالِقِهَا، أَرَى الشَّمْعَةَ تَبْذُلُ جَسَدَهَا لِلنَّارِ بِرِضًا تَامٍّ فَتَتَحَوَّلُ كُلُّ ذَرَّةٍ مِنْهَا إِلَى ضَوْءٍ يَهْدِي الحَائِرِينَ فِي عَتْمَةِ اللَّيْلِ الطَّوِيلِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الكَرَمَ المُتَبَادَلَ بَيْنَ عَبْدٍ يَجُودُ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ وَرَبٍّ رَءُوفٍ يَحْتَضِنُ تَضْحِيَتَهُ بِحَنَانٍ يَفُوقُ رَأْفَةَ الأُمِّ بِوَلِيدِهَا، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ نَفْسِي فِي مِيزَانِ العِشْقِ الإِلَهِيِّ إِلَى سِلْعَةٍ طَاهِرَةٍ أُقَدِّمُهَا بِشَوْقٍ لِأَنَالَ وَسَامَ الرِّضَا الَّذِي لَا يَبْلَى، فَكُلُّ مَا نَبْخَلُ بِهِ عَلَى السَّمَاءِ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِمَنْ بَاعَ نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ.

دُخُولُ السِّلْمِ وَخُطُوَاتُ الظَّلَامِ

صَدَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [البقرة: 208]

أَعْبُرُ بَوَّابَةَ الإِيمَانِ بِكُلِّ جَوَارِحِي لِأَدْخُلَ مَدِينَةَ السَّلَامِ الكَامِلِ دُونَ أَنْ أَتْرُكَ خَلْفَ السُّورِ جُزْءًا مِنْ قَلْبِي يُغَازِلُ أَهْوَاءَ الطِّينِ، فَيَنْكَشِفُ لِي زَيْفُ التَّدَيُّنِ المجَزَّأِ الَّذِي يَأْخُذُ مِنَ النُّورِ مَا يُوَافِقُ مَزَاجَهُ وَيَتْرُكُ البَاقِي لِعَبَثِ الظِّلَالِ وَوَسَاوِسِ العَدُوِّ القَدِيمِ، وَكَمْ مَشَيْتُ فَوْقَ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ المَرْسُومَةِ بِعِنَايَةٍ فَوْقَ الرِّمَالِ النَّاعِمَةِ وَظَنَنْتُهَا طَرِيقًا مُخْتَصَرًا إِلَى السَّعَادَةِ قَبْلَ أَنْ تَقُودَنِي إِلَى حَافَّةِ الجُرُفِ، أَتَأَمَّلُ الجَسَدَ الوَاحِدَ كَيْفَ يَضْطَرِبُ إِذَا خَضَعَتْ يَدُهُ لِلْعَقْلِ وَتَمَرَّدَتْ قَدَمُهُ لِتَسِيرَ فِي اتِّجَاهٍ مُعَاكِسٍ نَحْوَ الهَلَاكِ المحَقَّقِ، فَمَا أَشَدَّ وُضُوحَ هَذَا التَّحْذِيرِ الَّذِي يَفْضَحُ خُطَّةَ العَدُوِّ المبِينِ حِينَ يَسْتَدْرِجُ الإِنْسَانَ خُطْوَةً بَعْدَ خُطْوَةٍ حَتَّى يُخْرِجَهُ مِنْ حِصْنِ الطَّاعَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الأَيَّامُ وَالنَّوَايَا فِي دَاخِلِي إِلَى كُتْلَةٍ وَاحِدَةٍ تَنْقَادُ بِأَسْرِهَا لِشَرِيعَةِ السِّلْمِ وَتَمْحُو آثَارَ الغِوَايَةِ، فَكُلُّ تَرَدُّدٍ عَلَى عَتَبَةِ الإِيمَانِ هُوَ فُرْصَةٌ لِلْعَدُوِّ وَلَا أَمَانَ تَامٌّ إِلَّا بِالِاسْتِسْلَامِ الكَامِلِ لِأَمْرِ اللهِ.

عَثْرَةُ الزَّلَلِ وَحِكْمَةُ العَزِيزِ

صَدَى {فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: 209]

أُنَكِّسُ رَأْسِي خَجَلًا أَمَامَ ضِيَاءِ البَيِّنَاتِ حِينَ تَزِلُّ القَدَمُ عَلَى طَرِيقٍ وَاضِحِ المعَالِمِ لَا يَخْتَبِئُ فِيهِ حَجَرٌ وَلَا يَغْشَاهُ ضَبَابٌ، فَيَتَبَدَّدُ فِي صَدْرِي عُذْرُ الجَاهِلِ الَّذِي يَتَحَجَّجُ بِعَتْمَةِ اللَّيْلِ بَيْنَمَا الشَّمْسُ تَسْطَعُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَتَكْشِفُ كُلَّ المسَالِكِ، وَكَمْ انْزَلَقَتْ رُوحِي فِي وَحْلِ الغَفْلَةِ بَعْدَ أَنْ رَأَتْ آيَاتِ اليَقِينِ رَأْيَ العَيْنِ فَظَنَنْتُ أَنَّ الحِلْمَ الإِلَهِيَّ يُلْغِي قَانُونَ المحَاسَبَةِ وَالعِقَابِ، أَرَى السَّفِينَةَ تَتَحَطَّمُ عَلَى الصُّخُورِ رَغْمَ وُجُودِ المنَارَةِ العَالِيَةِ الَّتِي تُرْسِلُ أَشِعَّتَهَا فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ لِتُحَذِّرَ الرُّبَّانَ الغَافِلَ مِنْ خَطَرِ الِاقْتِرَابِ، فَمَا أَعْظَمَ اقْتِرَانَ العِزَّةِ بِالحِكْمَةِ فِي هَذَا التَّهْدِيدِ الرَّحِيمِ الَّذِي يُعْلِنُ أَنَّ القُدْرَةَ المطْلَقَةَ لَا تَعْجِزُ عَنِ البَطْشِ وَلَكِنَّهَا تَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ بِعَدْلٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ هَيْبَةُ البَيِّنَاتِ فِي وِجْدَانِي إِلَى حَارِسٍ يَقِظٍ يُثَبِّتُ أَقْدَامِي عَلَى الصِّرَاطِ وَيَمْنَعُنِي مِنَ التَّهَاوُنِ بَعْدَ المعْرِفَةِ، فَكُلُّ زَلَّةٍ بَعْدَ وُضُوحِ الحَقِّ هِيَ جُرْأَةٌ خَاسِرَةٌ وَلَا مَلْجَأَ مِنْ عِزَّةِ اللهِ إِلَّا إِلَى حِكْمَتِهِ.

ظُلَلُ الغَمَامِ وَقَضَاءُ الأَمْرِ

صَدَى {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [البقرة: 210]

أَرْفَعُ بَصَرِي إِلَى السَّمَاءِ المُتَلَبِّدَةِ بِالْغَيْبِ فَأَرَى الغَافِلِينَ يَنْتَظِرُونَ مَشْهَدَ النِّهَايَةِ حِينَ تَنْشَقُّ السُّحُبُ عَنْ جَلَالِ المَلَكُوتِ وَيُغْلَقُ بَابُ التَّوْبَةِ إِلَى الأَبَدِ، فَيَرْتَجِفُ فِي دَاخِلِي وَهْمُ الِانْتِظَارِ الطَّوِيلِ الَّذِي يُؤَجِّلُ الإِيمَانَ حَتَّى تَهْبِطَ المَلَائِكَةُ فِي ظُلَلِ الغَمَامِ وَيَصِيرَ اليَقِينُ اضْطِرَارًا لَا أَجْرَ فِيهِ وَلَا نَجَاةَ، وَكَمْ وَقَفْتُ عَلَى رَصِيفِ التَّسْوِيفِ أَرْقُبُ مُعْجِزَةً تَهُزُّ الأَرْضَ لِأُصَدِّقَ الوَعْدَ قَبْلَ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ رُؤْيَةَ الحَقِيقَةِ عِنْدَ الغَرْغَرَةِ أَوِ الحَشْرِ هِيَ إِعْلَانُ الهَزِيمَةِ، أَتَأَمَّلُ الفَلَّاحَ الكَسُولَ الَّذِي يَنْتَظِرُ هُطُولَ المَطَرِ الغَزِيرِ فِي مَوْسِمِ الحَصَادِ لِيَبْدَأَ بِبَذْرِ الحُبُوبِ بَعْدَ أَنْ جَفَّتِ الأَرْضُ وَانْتَهَى زَمَنُ الزِّرَاعَةِ، فَمَا أَشَدَّ هَوْلَ تِلْكَ اللَّحْظَةِ الفَاصِلَةِ حِينَ يُقْضَى الأَمْرُ بِحُكْمٍ لَا رَدَّ لَهُ وَتَعُودُ خُيُوطُ الكَوْنِ كُلُّهَا إِلَى قَبْضَةِ المَالِكِ الأَوَّلِ وَالآخِرِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ هَذِهِ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى صَيْحَةِ إِيقَاظٍ تَدْفَعُنِي لِلْعَمَلِ قَبْلَ أَنْ تَنْقَشِعَ غُيُومُ الدُّنْيَا عَنْ سَاعَةِ الفَصْلِ، فَكُلُّ خُيُوطِ الوُجُودِ تَنْتَهِي عِنْدَ عَتَبَةِ العَرْشِ وَلَا مَرْجِعَ لِلْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَّا إِلَى اللهِ.

سِفْرُ الصَّدَى الثَّانِي عَشَرَ

شَهَادَةُ البَيِّنَاتِ وَسَوْطُ العِقَابِ

صَدَى {سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [البقرة: 211]

أَسْتَنْطِقُ ذَاكِرَةَ التَّارِيخِ المَنْقُوشَةَ عَلَى صُخُورِ التِّيهِ فَأَرَى شَلَّالَاتِ المُعْجِزَاتِ تَنْهَمِرُ فَوْقَ رُؤُوسٍ جَاحِدَةٍ تَغْسِلُ وُجُوهَهَا بِالنُّورِ ثُمَّ تَرْمِي الكَأْسَ فِي الوَحْلِ، فَيَتَشَظَّى فِي دَاخِلِي غُرُورُ العَقْلِ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّ كَثْرَةَ البَرَاهِينِ تَصْنَعُ الإِيمَانَ فِي قَلْبٍ قَدْ أَغْلَقَ نَوَافِذَهُ بِأَقْفَالِ الهَوَى وَالعِنَادِ، وَكَمْ عَبَرْتُ فَوْقَ جُسُورِ النِّعَمِ السَّمَاوِيَّةِ دُونَ أَنْ أُلْتَفِتَ إِلَى اليَدِ الَّتِي مَدَّتْهَا لِي فَوْقَ هَاوِيَةِ العَدَمِ وَالفَنَاءِ، أَتَأَمَّلُ الشَّجَرَةَ الَّتِي تَمْتَصُّ المَاءَ العَذْبَ مِنَ النَّهْرِ ثُمَّ تُثْمِرُ شَوْكًا مُرًّا يَجْرَحُ يَدَ البُسْتَانِيِّ الَّذِي رَعَاهَا وَسَقَاهَا، فَمَا أَشَدَّ هَوْلَ هَذَا الِانْقِلَابِ حِينَ يُبَدِّلُ الإِنْسَانُ عَطَاءَ السَّمَاءِ جُحُودًا فَيَسْتَجْلِبُ سَوْطَ العِقَابِ الشَّدِيدِ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي حِضْنِ الرَّحْمَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَاتُ البَيِّنَاتُ فِي وِجْدَانِي إِلَى أَمَانَةٍ ثَقِيلَةٍ أَحْرُسُهَا بِالشُّكْرِ وَالخَشْيَةِ كَيْ لَا تَنْقَلِبَ حُجَّةً تُدِينُنِي يَوْمَ اللِّقَاءِ، فَكُلُّ نِعْمَةٍ نُقَابِلُهَا بِالتَّبْدِيلِ تَصِيرُ جَمْرًا فِي الكَفِّ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِحِفْظِ مِيثَاقِ اللهِ.

زِينَةُ السَّرَابِ وَمَعْرَاجُ التَّقْوَى

صَدَى {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [البقرة: 212]

أَنْظُرُ إِلَى بَرِيقِ الطِّينِ المَصْقُولِ فِي أَعْيُنِ الغَافِلِينَ فَأَرَاهُمْ يَضْحَكُونَ مِنْ عُزْلَةِ المُؤْمِنِينَ كَمَا يَسْخَرُ الغَرِيقُ المَحْمُومُ مِنَ السَّابِحِ النَّاجِي نَحْوَ الشَّاطِئِ، فَيَنْكَسِرُ فِي صَدْرِي سَهْمُ الِاسْتِهْزَاءِ الَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يُشَكِّكَ الرُّوحَ فِي جَدْوَى الزُّهْدِ وَعَظَمَةِ السَّيْرِ عَكْسَ تَيَّارِ الشَّهَوَاتِ، وَكَمْ جَرَعْتُ مَرَارَةَ الغُرْبَةِ بَيْنَ قَوْمٍ يَقِيسُونَ قِيمَةَ الإِنْسَانِ بِمَا يَلْمَعُ فِي جَيْبِهِ لَا بِمَا يُشْرِقُ فِي سَرِيرَتِهِ مِنْ أَنْوَارِ اليَقِينِ، أَرَى الفَرَاشَةَ المَغْرُورَةَ تَسْخَرُ مِنَ النَّحْلَةِ الكَادِحَةِ فِي الحُقُولِ ثُمَّ تَسْقُطُ مُحْتَرِقَةً عِنْدَ أَوَّلِ مِصْبَاحٍ بَيْنَمَا تَمْتَلِئُ خَلَايَا الأُخْرَى بِالشَّهْدِ المُصَفَّى، فَمَا أَعْظَمَ ذَلِكَ العُلُوَّ الأَبَدِيَّ حِينَ تَنْقَلِبُ المَوَازِينُ

يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَصْعَدُ المُتَّقُونَ فَوْقَ قِمَمِ الكَرَامَةِ وَيَهْوِي السَّاخِرُونَ فِي قَاعِ النَّدَامَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ سُخْرِيَةُ الدُّنْيَا فِي أَعْمَاقِي إِلَى نَسِيمٍ بَارِدٍ يَزِيدُ يَقِينِي رُسُوخًا وَيَفْتَحُ لِي أَبْوَابَ العَطَاءِ الإِلَهِيِّ الَّذِي لَا تَحُدُّهُ أَرْقَامٌ، فَكُلُّ زِينَةٍ فَانِيَةٍ تَذْبُلُ كَالوَرَقِ اليَابِسِ وَلَا رِفْعَةَ حَقِيقِيَّةً إِلَّا لِمَنْ رَزَقَهُ اللهُ التَّقْوَى بِغَيْرِ حِسَابٍ.

وَحْدَةُ الفِطْرَةِ وَصِرَاعُ المَوَاثِيقِ

صَدَى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [البقرة: 213]

أَتَتَبَّعُ خُيُوطَ النُّورِ الأُولَى حِينَ كَانَتِ البَشَرِيَّةُ نَهْرًا وَاحِدًا يَجْرِي فِي مَجْرَى الفِطْرَةِ قَبْلَ أَنْ تُمَزِّقَهُ أَنْيَابُ البَغْيِ وَأَصْنَامُ الأَنَانِيَّةِ، فَيَتَجَلَّى لِي أَنَّ الِاخْتِلَافَ لَمْ يَكُنْ وَلِيدَ الظَّلَامِ بَلْ كَانَ خِيَانَةً لِلضَّوْءِ بَعْدَ أَنْ سَطَعَتِ البَيِّنَاتُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ كَالشَّمْسِ المُشْرِقَةِ، وَكَمْ تَاهَتْ بَوْصَلَةُ قَلْبِي فِي ضَجِيجِ المَذَاهِبِ وَالأَهْوَاءِ حِينَ تَرَكْتُ مِيزَانَ الكِتَابِ المُنَزَّلِ وَرَحْتُ أَبْحَثُ عَنِ الحَقِيقَةِ فِي مَرَايَا البَشَرِ المُتَشَقِّقَةِ، أَتَأَمَّلُ الفَجْرَ كَيْفَ يَنْبَلِجُ بَعْدَ لَيْلٍ طَوِيلٍ مِنَ التَّخَبُّطِ لِيُرْشِدَ السَّائِرِينَ إِلَى الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ بَيْنَ جِبَالِ الشَّكِّ وَأَوْدِيَةِ الضَّلَالِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ المِنَّةَ السَّمَاوِيَّةَ الَّتِي تَجْعَلُ الوَحْيَ حَكَمًا عَدْلًا يَفْصِلُ بَيْنَ خُصُومِ الحَقِيقَةِ وَيَهْدِي القُلُوبَ الصَّادِقَةَ إِلَى جَوْهَرِ اليَقِينِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ نُصُوصُ الكِتَابِ فِي وِجْدَانِي إِلَى مَنَارَةٍ ثَابِتَةٍ تَجْمَعُ شَتَاتَ رُوحِي وَتُعِيدُنِي إِلَى وَحْدَةِ الفِطْرَةِ النَّقِيَّةِ بَعِيدًا عَنْ بَغْيِ المُتَنَازِعِينَ، فَكُلُّ طَرِيقٍ يَتَشَعَّبُ خَارِجَ نُورِ الوَحْيِ يَنْتَهِي إِلَى السَّرَابِ وَلَا هِدَايَةَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ إِلَى صِرَاطِهِ المُسْتَقِيمِ.

زَلْزَلَةُ الِابْتِلَاءِ وَقُرْبُ النَّصْرِ

صَدَى {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ

وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: 214]

أَقِفُ فَوْقَ أَرْضٍ تَمِيدُ تَحْتَ أَقْدَامِ الصَّادِقِينَ فَأَرَى الجَنَّةَ مَحْفُوفَةً بِأَسْوَارٍ مِنَ الجَمْرِ وَالِابْتِلَاءِ لَا يَعْبُرُهَا إِلَّا مَنْ صَهَرَتْهُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ، فَيَنْهَارُ فِي دَاخِلِي وَهْمُ الطَّرِيقِ المَفْرُوشِ بِالْوُرُودِ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّ مَفَاتِيحَ الفِرْدَوْسِ تُوهَبُ لِلْقَاعِدِينَ فِي ظِلَالِ الرَّاحَةِ وَالدَّعَةِ، وَكَمْ صَرَخَتْ أَعْمَاقِي تَحْتَ مِطْرَقَةِ المِحَنِ وَتَسَاءَلَتْ فِي لَحْظَةِ انْكِسَارٍ عَنْ مَوْعِدِ الفَجْرِ بَعْدَ أَنْ طَالَ لَيْلُ الغُرْبَةِ وَاشْتَدَّ الحِصَارُ عَلَى الرُّوحِ، أَرَى البَذْرَةَ تَحْتَ التُّرَابِ تَتَشَقَّقُ وَتَتَأَلَّمُ فِي عَتْمَةِ الأَرْضِ قَبْلَ أَنْ تَخْتَرِقَ القِشْرَةَ اليَابِسَةَ لِتُعَانِقَ ضَوْءَ الشَّمْسِ وَتُزْهِرَ بِالحَيَاةِ، فَمَا أَعْذَبَ هَذَا البَلْسَمَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَهْبِطُ عَلَى القُلُوبِ المُزَلْزَلَةِ لِيُعْلِنَ أَنَّ النَّصْرَ يَقِفُ عَلَى عَتَبَةِ اللَّحْظَةِ الحَرِجَةِ وَأَنَّ الفَرَجَ أَقْرَبُ مِنَ الأَنْفَاسِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الشَّدَائِدُ فِي حَيَاتِي إِلَى بَوَّابَاتٍ لِلتَّطْهِيرِ تَصْقُلُ مَعْدِنَ إِيمَانِي وَتُبَشِّرُنِي بِقُرْبِ المَدَدِ كُلَّمَا ضَاقَتِ الحَلَقَاتُ، فَكُلُّ زَلْزَلَةٍ تَمُرُّ بِالمُؤْمِنِ هِيَ مَخَاضٌ لِوِلَادَةِ الفَجْرِ وَلَا بَقَاءَ لِلْعُسْرِ مَعَ وَعْدِ اللهِ القَرِيبِ.

خَرِيطَةُ الإِنْفَاقِ وَبَصِيرَةُ العَلِيمِ

صَدَى {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [البقرة: 215]

أَبْسُطُ كَفِّي بِالعَطَاءِ فَأَرَى المَاءَ العَذْبَ يَبْدَأُ بِسَقْيِ الجُذُورِ القَرِيبَةِ قَبْلَ أَنْ يَفِيضَ لِيُرْوِيَ السُّهُولَ البَعِيدَةَ وَأَبْنَاءَ الطَّرِيقِ الغُرَبَاءَ، فَيَتَرَتَّبُ فِي وِجْدَانِي فِقْهُ الكَرَمِ الَّذِي يَجْعَلُ الإِنْفَاقَ جِسْرًا يَصِلُ الرَّحِمَ المَقْطُوعَةَ وَيَمْسَحُ دَمْعَةَ اليَتِيمِ وَيُطْعِمُ جُوعَ المِسْكِينِ دُونَ ضَجِيجٍ أَوْ رِيَاءٍ، وَكَمْ بَحَثْتُ عَنْ مَيَادِينَ بَعِيدَةٍ لِلْبَذْلِ وَأَنَا أَغْفُلُ عَنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ المَفْتُوحَةِ فِي وَجْهِ وَالِدَيَّ وَذَوِي القُرْبَى المُنْتَظِرِينَ لَفْتَةَ حَنَانٍ، أَتَأَمَّلُ الشَّمْسَ كَيْفَ تَغْمُرُ بِدِفْئِهَا البَيْتَ القَرِيبَ ثُمَّ تَمْتَدُّ أَشِعَّتُهَا لِتُضِيءَ آفَاقَ الأَرْضِ كُلَّهَا دُونَ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ نُورِهَا شَيْءٌ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الطُّمَأْنِينَةَ الَّتِي تَسْكُنُ قَلْبَ المُعْطِي حِينَ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ ذَرَّةِ خَيْرٍ يَزْرَعُهَا فِي الخَفَاءِ مَرْصُودَةٌ بِعَيْنِ العَلِيمِ الَّذِي لَا يَضِيعُ عِنْدَهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ،

هَكَذَا تَتَحَوَّلُ صَدَقَاتِي الصَّغِيرَةُ فِي نَفْسِي إِلَى نُجُومٍ مُضِيئَةٍ تُنِيرُ سَمَاءَ الآخِرَةِ وَتُطَهِّرُ مَالِي مِنْ شَوَائِبِ الأَثَرَةِ، فَكُلُّ خَيْرٍ نُقَدِّمُهُ لِلْخَلْقِ هُوَ قَرْضٌ مَحْفُوظٌ فِي خَزَائِنِ اللهِ العَلِيمِ.

مِيزَانُ المَكْرُوهِ وَخَفَايَا اللُّطْفِ

صَدَى {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 216]

أَقِفُ أَمَامَ بَوَّابَةِ الأَقْدَارِ المُغْلَقَةِ فَأَرَى السِّكِّينَ الَّتِي تَجْرَحُ الجَسَدَ فِي الظَّاهِرِ هِيَ مِبْضَعُ الجَرَّاحِ الَّذِي يَسْتَأْصِلُ الوَرَمَ لِيُعِيدَ لِلرُّوحِ عَافِيَتَهَا، فَيَسْقُطُ فِي دَاخِلِي غُرُورُ البَصَرِ البَشَرِيِّ القَاصِرِ الَّذِي يَحْكُمُ عَلَى الأَشْيَاءِ مِنْ قُشُورِهَا المُرَّةِ وَيَجْهَلُ اللُّؤْلُؤَ المَخْبُوءَ فِي أَعْمَاقِ الصَّدَفَةِ القَاسِيَةِ، وَكَمْ بَكَيْتُ عَلَى أَبْوَابٍ أُغْلِقَتْ فِي وَجْهِي وَتَمَنَّيْتُ أُمْنِيَّاتٍ بَرَّاقَةً كَانَتْ تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا السُّمَّ الزُّعَافَ لِقَلْبِي وَمَصِيرِي، أَرَى المِطَرَ الشَّتَوِيَّ يَضْرِبُ الأَرْضَ بِقَسْوَةٍ وَبُرُودَةٍ تَكْرَهُهَا النُّفُوسُ ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يُفَجِّرَ الرَّبِيعَ الأَخْضَرَ وَمَلْأَ السَّلَالَ بِالثِّمَارِ اليَانِعَةِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّسْلِيمَ المُطْلَقَ لِعِلْمِ الخَالِقِ المُحِيطِ الَّذِي يَرَى خُيُوطَ النَّسِيجِ كُلَّهَا بَيْنَمَا لَا نَرَى نَحْنُ سِوَى عُقْدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ خَلْفِ القُمَاشِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الأَقْدَارُ المَكْرُوهَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى رَسَائِلِ لُطْفٍ خَفِيَّةٍ أَسْتَقْبِلُهَا بِالرِّضَا وَالسَّكِينَةِ دُونَ اعْتِرَاضٍ أَوْ جَزَعٍ، فَكُلُّ اخْتِيَارٍ نَصْنَعُهُ بِهَوَانَا قَدْ يَقُودُنَا إِلَى الهَلَاكِ وَلَا خَيْرَ حَقِيقِيٌّ إِلَّا فِيمَا يَخْتَارُهُ لَنَا اللهُ العَلِيمُ.

فِتْنَةُ القُلُوبِ وَثَبَاتُ القَوَاعِدِ

صَدَى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ...} [البقرة: 217]

أَزِنُ الجَرَائِمَ فِي مِيزَانِ السَّمَاءِ فَأَرَى تَدْمِيرَ الإِيمَانِ فِي صُدُورِ العِبَادِ وَإِغْلَاقَ بُيُوتِ العِبَادَةِ أَشَدَّ هَوْلًا مِنْ إِرَاقَةِ الدِّمَاءِ فِي الأَشْهُرِ الحُرُمِ، فَيَنْكَشِفُ لِي زَيْفُ المُتَبَاكِينَ عَلَى القُشُورِ الشَّكْلِيَّةِ بَيْنَمَا يَذْبَحُونَ العَقِيدَةَ فِي المَهْدِ وَيُطَارِدُونَ المُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، وَكَمْ حَارَتْ قَدَمِي أَمَامَ شُبُهَاتِ

المتَرَبّصِينَ الَّذِينَ يُضَخِّمُونَ زَلَّةَ المؤْمِنِ لِيُغَطُّوا بِهَا جِبَالَ الكُفْرِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ الحَقِّ وَتَشْرِيدِ الأَبْرِيَاءِ، أَتَأَمَّلُ النَّارَ الَّتِي تَحْرِقُ البَيْتَ مِنْ أَسَاسِهِ كَيْفَ تَكُونُ أَعْظَمَ خَطَرًا مِنْ غُبَارٍ يَعْلَقُ بِالنَّافِذَةِ وَيُمْكِنُ مَسْحُهُ بِقَطْرَةِ مَاءٍ وَاحِدَةٍ، فَمَا أَعْدَلَ هَذَا الحُكْمَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي يَضَعُ الفِتْنَةَ فِي الدِّينِ عَلَى قِمَّةِ البَشَاعَةِ وَيُحَذِّرُ مِنْ مُحَاوَلَاتِ رَدِّ المؤْمِنِينَ عَنْ نُورِهِمْ حَتَّى لَا تَحْبَطَ الأَعْمَالُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ بَصِيرَتِي إِلَى مِيزَانٍ دَقِيقٍ يُفَرِّقُ بَيْنَ الحُرُمَاتِ الصُّغْرَى وَالكُبْرَى وَيَحْمِي شُعْلَةَ الإِيمَانِ مِنْ رِيَاحِ الِارْتِدَادِ، فَكُلُّ عَمَلٍ يَنْقَطِعُ عَنِ التَّوْحِيدِ يَصِيرُ هَبَاءً مَنْثُورًا وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِمَنْ ثَبَتَ عَلَى دِينِ اللهِ حَتَّى المَمَاتِ.

هِجْرَةُ الأَرْوَاحِ وَرَحْمَةُ الرَّجَاءِ

صَدَى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [البقرة: 218]

أُهَاجِرُ بِقَلْبِي مِنْ أَوْطَانِ الغَفْلَةِ وَأَقْبِضُ عَلَى جَمْرِ الجِهَادِ فَأَرَى الرَّجَاءَ يَتَفَتَّحُ كَالزَّهْرَةِ البَيْضَاءِ فِي صَحْرَاءِ التَّعَبِ وَالغُرْبَةِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي نَفْسِي يَأْسُ القَانِطِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ التَّضْحِيَةَ تَذْهَبُ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ أَوْ أَنَّ السَّمَاءَ تَنْسَى خُطُوَاتِ المهَاجِرِينَ إِلَيْهَا، وَكَمْ تَثَاقَلَتْ رُوحِي بِأَغْلَالِ الأَرْضِ وَحَنِينِ الطِّينِ قَبْلَ أَنْ تُعَلِّمَنِي الهِجْرَةُ أَنَّ الوَطَنَ الحَقِيقِيَّ هُوَ حَيْثُ يَسْكُنُ رِضَا المحْبُوبِ، أَرَى الطَّيْرَ يَتْرُكُ عُشَّهُ الدَّافِئَ فِي فَصْلِ الزَّمْهَرِيرِ لِيُحَلِّقَ فَوْقَ البِحَارِ الهَائِجَةِ بَحْثًا عَنِ الدِّفْءِ وَالنُّورِ فِي أَرْضِ الميعَادِ، فَمَا أَجْمَلَ هَذَا الِانْكِسَارَ النَّبِيلَ حِينَ يَبْذُلُ المؤْمِنُونَ كُلَّ مَا يَمْلِكُونَ ثُمَّ لَا يَمُنُّونَ بِعَمَلِهِمْ بَلْ يَقِفُونَ عَلَى بَابِ الرَّجَاءِ يَنْتَظِرُونَ فَيْضَ الرَّحْمَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ مَشَقَّاتُ الطَّرِيقِ فِي دَاخِلِي إِلَى أَجْنِحَةٍ تَرْفَعُنِي نَحْوَ سَمَاءِ القَبُولِ وَتَغْسِلُ ذُنُوبِي بِمَطَرِ المغْفِرَةِ، فَكُلُّ تَعَبٍ نَبْذُلُهُ فِي سَبِيلِ الحَقِّ يَتَحَوَّلُ إِلَى نُورٍ فِي القَبْرِ وَلَا مَلَاذَ لِلْقُلُوبِ الرَّاجِيَةِ إِلَّا رَحْمَةُ اللهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ.

سُمُّ الكُؤُوسِ وَمِيزَانُ العَفْوِ

صَدَى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن

نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} [البقرة: 219]

أَنْظُرُ إِلَى الكَأْسِ المُمَلَّأْلِئَةِ بِالنَّشْوَةِ الكَاذِبَةِ وَمَائِدَةِ القِمَارِ المَزْرُوعَةِ بِالأَوْهَامِ فَأَرَى خَلْفَ بَرِيقِهَا السَّاحِرِ أَفْعًى تَبْتَلِعُ العُقُولَ وَتَهْدِمُ البُيُوتَ، فَيَتَكَشَّفُ لِي خِدَاعُ المَنَافِعِ الجُزْئِيَّةِ الَّتِي تَتَسَتَّرُ بِهَا الرَّذَائِلُ لِتُغْرِيَ النُّفُوسَ الضعِيفَةَ بِرِبْحٍ سَرِيعٍ يَنْتَهِي بِخَرَابِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَكَمْ انْخَدَعَ البَشَرُ بِقَطَرَاتِ اللَّذَّةِ العَابِرَةِ الَّتِي تُغَيِّبُ الوَعْيَ وَتَسْرِقُ العُمُرَ بَيْنَمَا الحِكْمَةُ السَّمَاوِيَّةُ تَدْعُوهُمْ إِلَى إِنْفَاقِ مَا فَاضَ عَنِ الحَاجَةِ لِتَتَطَهَّرَ الأَرْضُ مِنَ الجُوعِ وَالأَنَانِيَّةِ، أَتَأَمَّلُ السَّمَكَةَ الَّتِي تَبْتَلِعُ الطُّعْمَ الصَّغِيرَ فَوْقَ الصِّنَّارَةِ فَتَظُنُّ أَنَّهَا ظَفِرَتْ بِالغَنِيمَةِ قَبْلَ أَنْ تَجِدَ نَفْسَهَا مُعَلَّقَةً فِي الهَوَاءِ تَلْفِظُ أَنْفَاسَهَا الأَخِيرَةَ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا البَيَانَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يُوقِظُ العُقُولَ النَّائِمَةَ لِتَتَفَكَّرَ فِي عَوَاقِبِ الأُمُورِ وَتَزِنَ المَنَافِعَ وَالمَضَارَّ بِمِيزَانِ البَصِيرَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَاتُ فِي عَقْلِي إِلَى مِشْعَلٍ يَفْضَحُ زَيْفَ اللَّذَّاتِ المحَرَّمَةِ وَيُحَرِّرُ يَدِي لِتَجُودَ بِالعَفْوِ دُونَ تَرَدُّدٍ، فَكُلُّ نَفْعٍ يَجُرُّ خَلْفَهُ إِثْمًا أَكْبَرَ هُوَ سُمٌّ فِي الدَّسَمِ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِالتَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللهِ.

حِضْنُ اليَتِيمِ وَبَصِيرَةُ المصْلِحِ

صَدَى {فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: 220]

أَحْنُو بِجَنَاحِ الرَّحْمَةِ عَلَى رَأْسِ اليَتِيمِ المكْسُورِ فَأَرَى يَدَ الشَّرِيعَةِ تَمْتَدُّ لِتَصْنَعَ لَهُ مِنَ المجْتَمَعِ أُسْرَةً دَافِئَةً تَعْصِمُ مَالَهُ مِنَ الضَّيَاعِ وَقَلْبَهُ مِنَ الوَحْشَةِ، فَيَنْحَلُّ فِي نَفْسِي ذَلِكَ الحَرَجُ الَّذِي كَادَ أَنْ يَعْزِلَ اليَتِيمَ فِي جَزِيرَةٍ مَهْجُورَةٍ خَوْفًا مِنَ الوُقُوعِ فِي إِثْمِ الِاخْتِلَاطِ بِمَالِهِ وَطَعَامِهِ، وَكَمْ جَفَّتْ مَشَاعِرُ الأُخُوَّةِ حِينَ تَحَوَّلَتِ الرِّعَايَةُ إِلَى خَوْفٍ بَارِدٍ يَضَعُ الحَوَاجِزَ بَيْنَ القُلُوبِ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَفْتَحَ الأَبْوَابَ لِلْإِصْلَاحِ وَالمؤَانَسَةِ، أَرَى البُسْتَانِيَّ الأَمِينَ يَدْمِجُ الفَسِيلَةَ الصَّغِيرَةَ المقْطُوعَةَ الجُذُورِ فِي تُرْبَةِ الحَدِيقَةِ الكُبْرَى لِتَشْرَبَ مِنَ المَاءِ ذَاتِهِ وَتَنْمُوَ تَحْتَ ظِلِّ الأَشْجَارِ الكَبِيرَةِ بِأَمَانٍ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا اليُسْرَ الرَّحِيمَ الَّذِي يُبِيحُ المخَالَطَةَ بِنِيَّةِ الإِصْلَاحِ ثُمَّ يَضَعُ رَقِيبًا دَاخِلِيًّا يَعْلَمُ خَفَايَا الصُّدُورِ وَيُمَيِّزُ يَدَ

المصْلِحِ مِنْ يَدِ المفْسِدِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ رِعَايَةُ الضُّعَفَاءِ فِي وِجْدَانِي إِلَى عِبَادَةٍ حَيَّةٍ تَمْزِجُ بَيْنَ الحِكْمَةِ فِي التَّدْبِيرِ وَالنَّقَاءِ فِي القَصْدِ، فَكُلُّ نِيَّةٍ خَبِيثَةٍ تَنْكَشِفُ أَمَامَ بَصَرِ السَّمَاءِ وَلَا حَاكِمَ عَلَى السَّرَائِرِ إِلَّا اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ.

سِيَاجُ التَّوْحِيدِ وَجَاذِبِيَّةُ النَّارِ

صَدَى {وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [البقرة: 221]

أَقِفُ عَلَى عَتَبَةِ الميثَاقِ الغَلِيظِ فَأَرَى الزَّوَاجَ رِحْلَةً أَبَدِيَّةً لَا تَسْتَقِيمُ إِذَا كَانَ أَحَدُ الرَّفِيقَيْنِ يَسِيرُ نَحْوَ الجَنَّةِ وَالآخَرُ يَجُرُّ القَافِلَةَ نَحْوَ لَهِيبِ النَّارِ، فَيَسْقُطُ فِي عَيْنِي بَرِيقُ الجَمَالِ الطِّينِيِّ وَالحَسَبِ الفَانِي الَّذِي يُعْمِي الأَبْصَارَ عَنْ سَوَادِ الشِّرْكِ القَابِعِ فِي أَعْمَاقِ النَّفْسِ، وَكَمْ فُتِنَتِ القُلُوبُ بِزَهْرَةٍ سَامَّةٍ تَلْمَعُ أَلْوَانُهَا تَحْتَ الشَّمْسِ ثُمَّ تَنْفُثُ دُخَانَ الجَحِيمِ فِي أَرْكَانِ البَيْتِ وَتُطْفِئُ سِرَاجَ التَّوْحِيدِ فِي صُدُورِ الأَبْنَاءِ، أَتَأَمَّلُ السَّفِينَةَ الَّتِي يَجْذِبُهَا شِرَاعُهَا نَحْوَ مِينَاءِ السَّلَامِ بَيْنَمَا تَشُدُّهَا مِرْسَاةٌ حَدِيدِيَّةٌ ثَقِيلَةٌ نَحْوَ قَاعِ المحِيطِ المظْلِمِ فَتَتَمَزَّقُ أَلْوَاحُهَا فِي عُرْضِ البَحْرِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الميزَانَ العَادِلَ الَّذِي يَرْفَعُ قَدْرَ العَبْدِ المؤْمِنِ وَالأَمَةِ المؤْمِنَةِ فَوْقَ تِيجَانِ المشْرِكِينَ لِأَنَّ الإِيمَانَ هُوَ الجَوْهَرُ الوَحِيدُ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الجَنَّةِ وَالمغْفِرَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ مَعَايِيرُ الِاخْتِيَارِ فِي قَلْبِي إِلَى بُوصَلَةٍ رُوحِيَّةٍ تَبْحَثُ عَنِ الرَّفِيقِ الَّذِي يُعِينُنِي عَلَى الصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ لَا مَنْ يَشُدُّنِي إِلَى الهَاوِيَةِ، فَكُلُّ إِعْجَابٍ يُبْنَى عَلَى الشِّرْكِ هُوَ خُطْوَةٌ نَحْوَ النَّارِ وَلَا فَوْزَ إِلَّا بِتَلْبِيَةِ دَعْوَةِ اللهِ إِلَى الجَنَّةِ.

طُهْرُ الجَسَدِ وَمَحَبَّةُ التَّوَّابِينَ

صَدَى {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222]

أَتَأَمَّلُ حِكْمَةَ الشَّرِيعَةِ وَهِيَ تَرْسُمُ حُدُودَ القُرْبِ وَالِاعْتِزَالِ بِلُطْفٍ رَبَّانِيٍّ يَحْفَظُ كَرَامَةَ الجَسَدِ وَيَصُونُ الفِطْرَةَ مِنْ مُوَاقَعَةِ الأَذَى، فَيَتَبَدَّدُ فِي دَاخِلِي جَفَاءُ الغُلُوِّ الَّذِي يَنْفِرُ مِنَ المَرْأَةِ فِي ضَعْفِهَا كَمَا يَتَلَاشَى جُمُوحُ الشَّهْوَةِ الَّتِي تَتَجَاوَزُ حُدُودَ الطَّبِيعَةِ وَالأَمْرِ الإِلَهِيِّ، وَكَمْ تَخَبَّطَ البَشَرُ بَيْنَ قَسْوَةٍ تَهْجُرُ البَيْتَ بِأَسْرِهِ وَبَهِيمِيَّةٍ لَا تَعْرِفُ مَوَاقِيتَ الطُّهْرِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الوَحْيُ لِيُعَلِّمَهُمْ أَدَبَ المُعَاشَرَةِ وَقَدَاسَةَ النَّظَافَةِ، أَرَى الأَرْضَ العَطْشَى كَيْفَ تَنْتَظِرُ انْقِشَاعَ السَّيْلِ الجَارِفِ وَتَصْفِيَةَ التُّرْبَةِ لِتَسْتَقْبِلَ البُذُورَ فِي مَوْسِمِ الخِصْبِ وَالنَّمَاءِ وَالعَطَاءِ الطَّاهِرِ، فَمَا أَبْهَى هَذِهِ الخَاتِمَةَ النُّورَانِيَّةَ الَّتِي تَرْبِطُ طَهَارَةَ الأَبْدَانِ بِطَهَارَةِ الأَرْوَاحِ وَتُعْلِنُ أَنَّ مَحَبَّةَ الخَالِقِ تَنْزِلُ عَلَى التَّوَّابِينَ وَالمُتَطَهِّرِينَ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ أَحْكَامُ الطَّهَارَةِ فِي حَيَاتِي إِلَى طُقُوسِ إِحْرَامٍ دَائِمَةٍ تَغْسِلُ قَلْبِي بِالتَّوْبَةِ وَجَسَدِي بِالمَاءِ لِأَكُونَ أَهْلًا لِتِلْكَ المَحَبَّةِ العُظْمَى، فَكُلُّ دَنَسٍ نُقَارِفُهُ يُبْعِدُنَا عَنْ نُورِ الفِطْرَةِ وَلَا مَنَالٌ لِمَحَبَّةِ اللهِ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ وَالتَّطَهُّرِ.

حَرْثُ الحَيَاةِ وَمَوْعِدُ اللِّقَاءِ

صَدَى {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [البقرة: 223]

أَنْظُرُ إِلَى المَوَدَّةِ الزَّوْجِيَّةِ فَأَرَاهَا حَقْلًا مُقَدَّسًا تُزْرَعُ فِيهِ بُذُورُ البَقَاءِ وَتَتَفَتَّحُ فِي أَرْجَائِهِ سَنَابِلُ الأَجْيَالِ المُسَبِّحَةِ بِحَمْدِ السَّمَاءِ، فَيَرْتَفِعُ فِي وِجْدَانِي مَعْنَى اللِّقَاءِ البَشَرِيِّ مِنْ مُجَرَّدِ رَغْبَةٍ طِينِيَّةٍ عَابِرَةٍ إِلَى مِيثَاقِ عِمَارَةٍ وَتَقْوَى يَمْتَدُّ أَثَرُهُ إِلَى مَا بَعْدَ المَوْتِ، وَكَمْ غَفَلَتِ النُّفُوسُ فِي لَحَظَاتِ اللَّذَّةِ عَنِ اسْتِحْضَارِ الرَّقِيبِ الأَعْلَى وَنَسِيَتْ أَنَّ تَقْدِيمَ الخَيْرِ لِلنَّفْسِ هُوَ الزَّادُ الوَحِيدُ الَّذِي يَنْفَعُ عِنْدَ سَاعَةِ اللِّقَاءِ، أَتَأَمَّلُ الفَلَّاحَ الوَاعِيَ الَّذِي يَبْذُرُ الحَبَّ فِي الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ وَهُوَ يَرْفَعُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ رَاجِيًا البَرَكَةَ وَالحَصَادَ الوَفِيرَ يَوْمَ يُعْرَضُ العَمَلُ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّذْكِيرَ الجَلِيلَ الَّذِي يَضَعُ حَقِيقَةَ اللِّقَاءِ الإِلَهِيِّ فِي قَلْبِ الحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ لِيُهَذِّبَ الغَرَائِزَ بِالتَّقْوَى وَيَمْلَأَ صُدُورَ المُؤْمِنِينَ بِالبُشْرَى، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ كُلُّ لَحَظَاتِ عَيْشِي إِلَى زِرَاعَةٍ لِلْآخِرَةِ أُرَاقِبُ فِيهَا حُدُودَ الحَلَالِ وَأَسْتَعِدُّ بِهَا لِيَوْمِ العَرْضِ الأَكْبَرِ، فَكُلُّ لَذَّةٍ تَخْلُو مِنَ التَّقْوَى تَنْقَلِبُ حَسْرَةً وَلَا بُشْرَى تَدُومُ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَسْتَعِدُّونَ لِلِقَاءِ اللهِ.

قُدْسِيَّةُ اليَمِينِ وَجُسُورُ الإِصْلَاحِ

صَدَى {وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 224]

أُنْصِتُ بِإِجْلَالٍ إِلَى اسْمِ الجَلَالَةِ وَهُوَ يُنَزَّهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ حَاجِزًا يَمْنَعُ القُلُوبَ مِنَ البِرِّ وَإِصْلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ، فَيَتَحَطَّمُ فِي صَدْرِي ذَلِكَ العِنَادُ المُقَنَّعُ بِالتَّدَيُّنِ الَّذِي يَحْلِفُ بِاسْمِ السَّمَاءِ لِيَقْطَعَ رَحِمًا أَوْ لِيَهْجُرَ مَعْرُوفًا بَيْنَ العِبَادِ، وَكَمْ جَعَلَ الغَاضِبُونَ أَيْمَانَهُمْ سُيُوفًا يَذْبَحُونَ بِهَا المَوَدَّةَ ثُمَّ يَتَعَلَّلُونَ بِتَعْظِيمِ الحَلِفِ لِيُبَرِّرُوا قَسْوَةَ قُلُوبِهِمْ وَجُمُودَ أَيْدِيهِمْ عَنِ الخَيْرِ، أَرَى النَّهْرَ الجَارِيَ حِينَ تَعْتَرِضُهُ صَخْرَةُ العِنَادِ فَيُصِرُّ عَلَى الجَفَافِ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَلْتَفَّ حَوْلَهَا لِيُكْمِلَ رِحْلَتَهُ فِي سَقْيِ البَسَاتِينِ العَطْشَى، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الأَدَبَ القُرْآنِيَّ الَّذِي يَجْعَلُ البِرَّ وَالتَّقْوَى وَالإِصْلَاحَ غَايَةً عُظْمَى لَا يَجُوزُ أَنْ تُعَطِّلَهَا الأَيْمَانُ المُتَسَرِّعَةُ فِي لَحَظَاتِ الغَضَبِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ كَلِمَاتِي وَعُهُودِي إِلَى جُسُورٍ مَفْتُوحَةٍ لِلْخَيْرِ أُنَزِّهُ فِيهَا اسْمَ الخَالِقِ عَنِ اللَّغْوِ وَأُسَارِعُ بِهَا لِرَأْبِ الصَّدْعِ بَيْنَ المُتَخَاصِمِينَ، فَكُلُّ يَمِينٍ تَصُدُّ عَنِ البِرِّ هِيَ حِجَابٌ ظُلْمَانِيٌّ وَلَا يَخْفَى مَقْصِدُ القُلُوبِ عَلَى اللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ.

زَلَّاتُ اللِّسَانِ وَحِلْمُ السَّمَاءِ

صَدَى {لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [البقرة: 225]

أَتَنَفَّسُ الصُّعَدَاءَ فِي رَحَابَةِ الحِلْمِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يَتَجَاوَزُ عَنْ عَثَرَاتِ اللِّسَانِ العَابِرَةِ وَلَا يَحْبِسُ الإِنْسَانَ فِي قَفَصِ الكَلِمَاتِ الَّتِي تَجْرِي بِلَا قَصْدٍ، فَيَتَلَاشَى فِي نَفْسِي رُعْبُ الوَسْوَاسِ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّ السَّمَاءَ تَتَرَصَّدُ هَفَوَاتِ الشِّفَاهِ لِتُوقِعَ العَبْدَ فِي شِبَاكِ المُؤَاخَذَةِ وَالعِقَابِ، وَكَمْ جَرَتْ عَلَى أَلْسِنَتِنَا أَيْمَانٌ خَفِيفَةٌ كَالرِّيشِ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ لَمْ تَعْقِدْ عَلَيْهَا القُلُوبُ عَزْمًا وَلَمْ تَنْوِ بِهَا إِثْمًا أَوْ قَطِيعَةً، أَتَأَمَّلُ السَّمَاءَ الوَاسِعَةَ كَيْفَ تَتَجَاهَلُ غُبَارَ الطُّرُقَاتِ المُتَطَايِرَ فِي الهَوَاءِ وَلَا تُرْسِلُ صَوَاعِقَهَا إِلَّا حِينَ تَتَلَبَّدُ الغُيُومُ السَّوْدَاءُ بِالنَّوَايَا الخَبِيثَةِ فِي أَعْمَاقِ الصُّدُورِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا العَدْلَ الرَّحِيمَ الَّذِي يَجْعَلُ القَلْبَ هُوَ مَحَلَّ المُحَاسَبَةِ الحَقِيقِيَّةِ وَيُغَطِّي زَلَّاتِ اللِّسَانِ بِرِدَاءِ المَغْفِرَةِ وَالأَنَاةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ

مُرَاقَبَتِي لِنَفْسِي إِلَى حِرَاسَةٍ دَقِيقَةٍ لِأَعْمَاقِ قَلْبِي كَيْ لَا يَنْعَقِدَ عَلَى مَعْصِيَةٍ أَوْ بَاطِلٍ بَعْدَ أَنْ طَمْأَنَتْنِي السَّمَاءُ بِسَعَةِ عَفْوِهَا، فَكُلُّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ بِغَيْرِ قَصْدٍ تَذْرُوهَا رِيَاحُ العَفْوِ وَلَا مَلْجَأَ لِلْقُلُوبِ العَاقِدَةِ إِلَّا مَغْفِرَةُ اللهِ وَحِلْمُهُ.

أَجَلُ الهَجْرِ وَفَجْرُ الفَيْءِ

صَدَى {لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [البقرة: 226]

أَقِفُ عَلَى مِيزَانِ الزَّمَنِ الَّذِي ضَرَبَتْهُ الشَّرِيعَةُ حَدًّا لِهَجْرِ القُلُوبِ كَيْ لَا تَظَلَّ المَرْأَةُ مُعَلَّقَةً بَيْنَ سَمَاءِ الزَّوْجِيَّةِ وَأَرْضِ الفِرَاقِ، فَيَنْكَسِرُ فِي دَاخِلِي جَبَرُوتُ الغَضَبِ الَّذِي يُحَوِّلُ البَيْتَ إِلَى سِجْنٍ بَارِدٍ يَنْتَقِمُ فِيهِ الرَّجُلُ بِطُولِ الصَّمْتِ وَجَفَاءِ الهِجْرَانِ، وَكَمْ تَحَجَّرَتِ المِشَاعِرُ فِي مَمَرَّاتِ العِنَادِ الطَّوِيلَةِ حِينَ ظَنَّ أَحَدُ الشَّرِيكَيْنِ أَنَّ تَعْذِيبَ الآخَرِ بِالِانْتِظَارِ هُوَ انتِصَارٌ لِكِبْرِيَائِهِ المَجْرُوحِ، أَرَى الشِّتَاءَ القَاسِيَ كَيْفَ يَمْلِكُ أَشْهُرًا مَعْدُودَةً يَحْبِسُ فِيهَا الدِّفْءَ عَنِ الأَغْصَانِ ثُمَّ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَنْقَشِعَ لِيَعُودَ الرَّبِيعُ بِالحَيَاةِ أَوْ لِتُسْقِطَ الشَّجَرَةُ أَوْرَاقَهَا اليَابِسَةَ بِسَلَامٍ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّدْبِيرَ الحَكِيمَ الَّذِي يَمْنَحُ القُلُوبَ المُتَنَافِرَةَ مُهْلَةً لِلتَّفَكُّرِ وَيَفْتَحُ لِلْعَائِدِينَ بَابَ المَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ إِذَا أَطْفَؤُوا نَارَ الخُصُومَةِ بِالفَيْءِ وَالمَوَدَّةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الخِلَافَاتُ العَابِرَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى سَحَابَةِ صَيْفٍ مَحْدُودَةِ الأَجَلِ أُسَارِعُ إِلَى تَبْدِيدِهَا بِالعَفْوِ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى حَافَّةِ القَطِيعَةِ، فَكُلُّ هَجْرٍ يَتَجَاوَزُ حُدُودَ العَدْلِ هُوَ ظُلْمٌ مَرْفُوضٌ وَلَا بَرَكَةَ إِلَّا فِي عَوْدَةٍ يَغْمُرُهَا اللهُ بِغُفْرَانِهِ وَرَحْمَتِهِ.

حَسْمُ الطَّلَاقِ وَسَمْعُ العَلِيمِ

صَدَى {وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 227]

أُنْصِتُ إِلَى وَقْعِ الكَلِمَةِ الفَاصِلَةِ حِينَ يَنْقَطِعُ حَبْلُ المَوَدَّةِ وَيُصْبِحُ الفِرَاقُ بِإِحْسَانٍ هُوَ المَخْرَجَ الوَحِيدَ مِنْ نَفَقِ الشِّقَاقِ المُظْلِمِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي صَدْرِي وَهْمُ الِاسْتِخْفَافِ بِأَلْفَاظِ الطَّلَاقِ الَّتِي تَظُنُّ النَّفْسُ الغَاضِبَةُ أَنَّهَا مُجَرَّدُ صَرْخَةٍ تَذْهَبُ فِي الهَوَاءِ دُونَ أَنْ تَهُزَّ أَرْكَانَ المِيثَاقِ، وَكَمْ تَسَرَّعَتِ الأَلْسِنَةُ

فِي لَحَظَاتِ الطَّيْشِ لِتَهْدِمَ بُيُوتًا بُنِيَتْ بِالعَرَقِ وَالدُّمُوعِ غَافِلَةً عَنْ أَنَّ السَّمَاءَ تَسْمَعُ كُلَّ هَمْسَةٍ وَتَعْلَمُ كُلَّ نِيَّةٍ خَفِيَّةٍ، أَتَأَمَّلُ الغُصْنَ اليَابِسَ حِينَ يَنْفَصِلُ عَنِ الشَّجَرَةِ بِهُدُوءٍ بَعْدَ أَنْ جَفَّتْ عُرُوقُهُ كَيْ لَا يَمْتَصَّ مَا تَبَقَّى مِنْ عُصَارَةِ الحَيَاةِ فِي الجِذْعِ السَّلِيمِ، فَمَا أَشَدَّ هَيْبَةَ هَذَا التَّذْكِيرِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يُحِيطُ لَحْظَةَ العَزْمِ عَلَى الفِرَاقِ بِصِفَتَيِ السَّمْعِ وَالعِلْمِ لِيَمْنَعَ الظُّلْمَ وَيَصُونَ الحُقُوقَ عِنْدَ نِهَايَةِ الطَّرِيقِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ قَرَارَاتِي المَصِيرِيَّةُ إِلَى وَقْفَةِ حِسَابٍ دَقِيقَةٍ أَزِنُ فِيهَا كَلِمَاتِي بِمِيزَانِ الخَشْيَةِ وَأُنَزِّهُ عَزْمِي عَنِ الكَيْدِ وَالإِضْرَارِ، فَكُلُّ فِرَاقٍ يَتِمُّ بِظُلْمٍ أَوْ خِدَاعٍ هُوَ دَيْنٌ ثَقِيلٌ فِي العُنُقِ وَلَا يَخْفَى شَيْءٌ مِنَ الأَقْوَالِ وَالنَّوَايَا عَلَى اللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ.

عِدَّةُ الأَرْحَامِ وَمِيزَانُ المَعْرُوفِ

صَدَى {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: 228]

أَتَأَمَّلُ حُرْمَةَ الأَرْحَامِ وَهِيَ تَحْتَضِنُ أَسْرَارَ الخَلْقِ فِي عَتْمَةِ الجَسَدِ بَيْنَمَا تَفْرِضُ الشَّرِيعَةُ مُهْلَةً مِنَ التَّرَبُّصِ لِتُصَانَ الأَنْسَابُ وَتُفْتَحَ نَوَافِذُ الصُّلْحِ، فَيَتَلَاشَى فِي وِجْدَانِي ظُلْمُ الجَاهِلِيَّةِ الَّذِي كَانَ يَبْخَسُ المَرْأَةَ حَقَّهَا أَوْ يُحَوِّلُ الرَّجْعَةَ إِلَى سَوْطٍ لِلْإِيذَاءِ وَالتَّعْلِيقِ بِلَا نِيَّةِ إِصْلَاحٍ، وَكَمْ ضَاعَتْ حُقُوقٌ فِي زَوَايَا الكِتْمَانِ وَالأَنَانِيَّةِ حِينَ غَابَتْ مُرَاقَبَةُ اليَوْمِ الآخِرِ عَنِ القُلُوبِ المُتَنَازِعَةِ بَعْدَ انْكِسَارِ الزَّوْجِيَّةِ، أَرَى البُذُورَ الكَامِنَةَ فِي بَطْنِ الأَرْضِ تَحْتَاجُ إِلَى فَصْلٍ كَامِلٍ مِنَ السُّكُونِ وَالمُرَاقَبَةِ قَبْلَ أَنْ تَنْكُشِفَ خَبَايَاهَا وَيَتَّضِحَ مَا إِذَا كَانَتْ سَتُنْبِتُ حَيَاةً جَدِيدَةً أَمْ تَطْوِي صَفْحَتَهَا، فَمَا أَعْدَلَ هَذَا التَّوَازُنَ المُعْجِزَ الَّذِي يَمْنَحُ المَرْأَةَ مِنَ الحُقُوقِ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْهَا بِالمَعْرُوفِ وَيُحَمِّلُ الرَّجُلَ دَرَجَةَ القِوَامَةِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ لِتَسْتَقِيمَ سَفِينَةُ الأُسْرَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الأَحْكَامُ الأُسَرِيَّةُ فِي عَقْلِي إِلَى مِيثَاقِ أَمَانَةٍ يُحَارِبُ الكِتْمَانَ وَيَشْتَرِطُ الإِصْلَاحَ لِإِعَادَةِ بِنَاءِ البَيْتِ المَهْدُومِ، فَكُلُّ رَجْعَةٍ تَخْلُو مِنْ إِرَادَةِ الخَيْرِ هِيَ عُدْوَانٌ مَقِيتٌ وَلَا يَعْجِزُ عَنْ نُصْرَةِ المَظْلُومِ اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ.

حُدُودُ الفِرَاقِ وَإِحْسَانُ التَّسْرِيحِ

صَدَى {الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: 229]

أَقِفُ عَلَى الخَطِّ الأَحْمَرِ الَّذِي رَسَمَهُ الوَحْيُ لِحِمَايَةِ كَرَامَةِ الإِنْسَانِ مِنْ عَبَثِ المُرَاجَعَاتِ الَّتِي تَجْعَلُ المَرْأَةَ أُرْجُوحَةً بَيْنَ الطَّلَاقِ وَالرَّجْعَةِ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ، فَيَسْقُطُ فِي نَفْسِي جَشَعُ الِاسْتِرْدَادِ الَّذِي يَمُدُّ يَدَهُ لِيَنْتَزِعَ مَا أَعْطَى مِنَ المَهْرِ وَالمَتَاعِ عِنْدَ أَوَّلِ خِلَافٍ يَعْصِفُ بِسَقْفِ الدَّارِ، وَكَمْ تَحَوَّلَ الفِرَاقُ فِي غِيَابِ الإِحْسَانِ إِلَى سَاحَةِ حَرْبٍ يُجَرِّدُ فِيهَا القَوِيُّ الضَّعِيفَ مِنْ حُقُوقِهِ وَيَضْرِبُ بِحُدُودِ السَّمَاءِ عُرْضَ الحَائِطِ، أَتَأَمَّلُ السَّجِينَ الَّذِي يَفْتَدِي حُرِّيَّتَهُ بِمَالِهِ حِينَ تَضِيقُ عَلَيْهِ الجُدْرَانُ وَتَسْتَحِيلُ العِشْرَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَجَّانِهِ فَيَخْرُجُ سَالِمًا بِعَدْلِ القَانُونِ وَسَمَاحَةِ الشَّرِيعَةِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الحِصْنَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَحْصُرُ الخِيَارَ بَيْنَ الإِمْسَاكِ بِالمَعْرُوفِ أَوِ التَّسْرِيحِ بِالإِحْسَانِ وَيُحَذِّرُ مِنْ تَجَاوُزِ الحُدُودِ المَرْسُومَةِ بِأَنْوَارِ العَدْلِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ نِهَايَاتُ العَلَاقَاتِ فِي وِجْدَانِي إِلَى مَشْهَدِ نُبْلٍ وَعَفَافٍ أَحْفَظُ فِيهِ مَا وَهَبْتُ وَأَقِفُ فِيهِ عِنْدَ أَسْوَارِ الحَلَالِ وَالحَرَامِ، فَكُلُّ تَعَدٍّ عَلَى حُدُودِ الشَّرِيعَةِ هُوَ ظُلْمٌ لِلنَّفْسِ قَبْلَ الغَيْرِ وَلَا مَكَانَ لِلظَّالِمِينَ فِي رِحَابِ اللهِ.

سَقْفُ الطَّلَاقِ وَبَابُ المُرَاجَعَةِ

صَدَى {فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [البقرة: 230]

أَنْظُرُ إِلَى البَابِ الثَّالِثِ حِينَ يُغْلَقُ بِإِحْكَامٍ لِيُعَلِّمَ العَابِثِينَ بِكَلِمَةِ الطَّلَاقِ أَنَّ المِيثَاقَ الغَلِيظَ لَيْسَ لُعْبَةً فِي أَيْدِي الغَاضِبِينَ وَالمُتَهَوِّرِينَ، فَيَرْتَجِفُ فِي صَدْرِي ذَلِكَ الِاسْتِهْتَارُ الَّذِي يَرْمِي الكَلِمَاتِ المَصِيرِيَّةَ فِي الهَوَاءِ ثُمَّ يَبْكِي عَلَى الحَلِيبِ المَسْكُوبِ بَعْدَ أَنْ جَفَّتِ الأَرْضُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، وَكَمْ أَدْرَكَ الإِنْسَانُ قِيمَةَ النِّعْمَةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَتْ مُحَرَّمَةً عَلَيْهِ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ تَجْرِبَةٍ أُخْرَى صَادِقَةٍ تَكْسِرُ غُرُورَهُ وَتُهَذِّبُ نَفْسَهُ، أَرَى المِفْتَاحَ الَّذِي يَنْكَسِرُ فِي القُفْلِ بَعْدَ

كَثْرَةِ العَبَثِ بِهِ فَلَا يَعُودُ صَالِحًا لِفَتْحِ البَابِ إِلَّا إِذَا أُعِيدَ صَهْرُهُ فِي نَارِ التَّجْرِبَةِ وَصِيغَ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى مَقَايِيسِ الصِّدْقِ وَالِاحْتِرَامِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الحِكْمَةَ البَالِغَةَ الَّتِي تَجْعَلُ إِقَامَةَ حُدُودِ الشَّرْعِ هِيَ الشَّرْطَ الوَحِيدَ لِعَوْدَةِ الحَيَاةِ بَعْدَ الِانْكِسَارِ الكَبِيرِ وَتُخَاطِبُ بِذَلِكَ أَهْلَ العِلْمِ وَالبَصِيرَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ قُدْسِيَّةُ الكَلِمَةِ فِي دَاخِلِي إِلَى أَمَانَةٍ أَصُونُهَا مِنَ التَّهَوُّرِ وَأَزِنُ عَوَاقِبَهَا قَبْلَ أَنْ تَنْفَلِتَ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيَّ، فَكُلُّ حَدٍّ يَضَعُهُ الوَحْيُ هُوَ سِيَاجٌ لِلْكَرَامَةِ وَلَا يَفْقَهُ أَسْرَارَ التَّشْرِيعِ إِلَّا قَوْمٌ يَعْلَمُونَ عَظَمَةَ اللهِ.

سِفْرُ الصَّدَى الثَّالِثَ عَشَرَ

نُبْلُ التَّسْرِيحِ وَقَدَاسَةُ الآيَاتِ

صَدَى {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: 231]

أَقِفُ عَلَى حَافَّةِ الأَجَلِ المَعْدُودِ فَأَرَى المَعْرُوفَ سِيرَةً نُورَانِيَّةً تَحْكُمُ البَقَاءَ وَالرَّحِيلَ عَلَى السَّوَاءِ، فَيَتَشَظَّى فِي دَاخِلِي ذَلِكَ اللُّؤْمُ البَشَرِيُّ الَّذِي يُحَوِّلُ الرَّجْعَةَ إِلَى سِجْنٍ لِلْإِضْرَارِ وَالعُدْوَانِ وَيَظُنُّ أَنَّ التَّلَاعُبَ بِحُدُودِ الشَّرِيعَةِ ذَكَاءٌ وَدَهَاءٌ، وَكَمْ أَظْلَمَتْ زَوَايَا القَلْبِ حِينَ غَابَتْ عَنْهُ مَهَابَةُ الآيَاتِ وَتَحَوَّلَتِ الأَحْكَامُ السَّمَاوِيَّةُ إِلَى أَدَوَاتٍ لِلْكَيْدِ وَالِانْتِقَامِ وَالهُزْءِ بِالمَوَاثِيقِ، أَتَأَمَّلُ النَّهْرَ العَذْبَ كَيْفَ يَمْنَحُ المَاءَ بِسَخَاءٍ ثُمَّ يَنْسَحِبُ بِهُدُوءٍ دُونَ أَنْ يُغْرِقَ الحُقُولَ أَوْ يَتْرُكَ خَلْفَهُ سِوَى الطِّينِ الخَصْبِ وَالذِّكْرَى الطَّيِّبَةِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ المَوْعِظَةَ الجَلِيلَةَ الَّتِي تُذَكِّرُ العِبَادَ بِنِعْمَةِ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ لِتُطْفِئَ نَارَ الأَنَانِيَّةِ وَتُوقِظَ خَشْيَةَ العَلِيمِ الَّذِي يَرَى خَفَايَا القُصُودِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الأَحْكَامُ فِي وِجْدَانِي إِلَى مِيزَانٍ لِلنُّبْلِ أَصُونُ بِهِ كَرَامَةَ الإِنْسَانِ عِنْدَ الوَدَاعِ كَمَا صُنْتُهَا عِنْدَ اللِّقَاءِ، فَكُلُّ عُدْوَانٍ نُوَجِّهُهُ إِلَى الغَيْرِ هُوَ سَهْمٌ يَرْتَدُّ إِلَى صُدُورِنَا وَلَا يَخْفَى مِثْقَالُ ذَرَّةٍ عَلَى اللهِ العَلِيمِ.

رَفْعُ العَضْلِ وَتَرَاضِي القُلُوبِ

صَدَى {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 232]

أُبْصِرُ بَوَّابَاتِ الصُّلْحِ وَهِيَ تَنْفَتِحُ مِنْ جَدِيدٍ بَيْنَ قَلْبَيْنِ عَرَفَا مَرَارَةَ الفِرَاقِ ثُمَّ اشْتَاقَا إِلَى دِفْءِ المَوَدَّةِ، فَيَنْكَسِرُ فِي صَدْرِي سُلْطَانُ الحَمِيَّةِ الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي تَقِفُ حَاجِزًا أَمَامَ التَّرَاضِي وَتَحْبِسُ المَرْأَةَ فِي قَفَصِ العِنَادِ العَائِلِيِّ، وَكَمْ جَفَّتْ يَنَابِيعُ الطَّهَارَةِ حِينَ تَدَخَّلَتْ أَيْدِي العَضْلِ لِتَمْنَعَ التِئَامَ الجِرَاحِ وَتُغْلِقَ نَوَافِذَ الأَمَلِ أَمَامَ الأَرْوَاحِ التَّائِقَةِ إِلَى السَّكِينَةِ، أَرَى الغُصْنَيْنِ المَكْسُورَيْنِ يَلْتَحِمَانِ تَحْتَ رِعَايَةِ البُسْتَانِيِّ الحَكِيمِ لِيُثْمِرَا مِنْ جَدِيدٍ بَعْدَ أَنْ كَادَتْ رِيَاحُ الغَضَبِ أَنْ تَقْتَلِعَهُمَا مِنَ الجُذُورِ، فَمَا أَزْكَى هَذَا النِّدَاءَ السَّمَاوِيَّ الَّذِي يَرْبِطُ رَفْعَ المَوَانِعِ بِالإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ وَيُعْلِنُ أَنَّ التَّرَاضِيَ بِالمَعْرُوفِ هُوَ الطَّرِيقُ الأَطْهَرُ لِلْقُلُوبِ وَالمجْتَمَعِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي إِلَى الخِلَافَاتِ البَشَرِيَّةِ إِلَى جِسْرٍ لِلتَّيْسِيرِ أُعِينُ بِهِ المتَصَالِحِينَ وَلَا أَقِفُ عَقَبَةً فِي وَجْهِ المَوَدَّةِ العَائِدَةِ، فَكُلُّ مَنْعٍ يَقُومُ عَلَى الكِبْرِيَاءِ هُوَ ظُلْمَةٌ وَغَفْلَةٌ وَلَا يُحِيطُ بِأَسْرَارِ الصَّلَاحِ إِلَّا اللهُ العَلِيمُ.

نَبْعُ الرَّضَاعَةِ وَرَحْمَةُ الوُسْعِ

صَدَى {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: 233]

أَتَأَمَّلُ مِحْرَابَ الأُمُومَةِ وَهُوَ يَسْكُبُ الحَيَاةَ قَطْرَةً قَطْرَةً فِي جَوْفِ الرَّضِيعِ بَيْنَمَا تَحْرُسُ الشَّرِيعَةُ هَذَا النَّبْعَ العَذْبَ بِسِيَاجٍ مِنَ الرِّزْقِ وَالكِسْوَةِ وَالعَدْلِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي دَاخِلِي جَفَافُ القُلُوبِ الَّتِي تَجْعَلُ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ سِلْعَةً لِلْمُسَاوَمَةِ وَالإِضْرَارِ بَيْنَ الأَبَوَيْنِ بَعْدَ انْقِطَاعِ حِبَالِ الزَّوْجِيَّةِ، وَكَمْ ضَاعَتْ بَرَاءَةُ الطُّفُولَةِ فِي مَعَارِكِ العِنَادِ وَالتَّقْتِيرِ حِينَ نَسِيَ الكِبَارُ أَنَّ اللَّهَ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَأَنَّ

التَّشَاوُرَ وَالتَّرَاضِيَ هُمَا مِفْتَاحُ الأَمَانِ، أَرَى الشَّجَرَةَ المُثْمِرَةَ تَمُدُّ غُصْنَهَا الغَضَّ بِاللَّبَنِ وَالحَيَاةِ بَيْنَمَا تَسْقِيهَا السَّمَاءُ بِالمطَرِ وَتُظِلُّهَا الغُيُومُ كَيْ لَا تَذْبُلَ فِي هَجِيرِ القَسْوَةِ وَالإِهْمَالِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّدْبِيرَ الحَنُونَ الَّذِي يَصُونُ الوَالِدَةَ وَالوَالِدَ وَالوَلِيدَ مِنْ كُلِّ أَذًى وَيَضَعُ بَصَرَ الخَالِقِ رَقِيبًا عَلَى كُلِّ لَفْتَةٍ وَعَطَاءٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ رِعَايَةُ الضُّعَفَاءِ فِي وِجْدَانِي إِلَى قَدَاسَةٍ رُوحِيَّةٍ أَتَحَرَّى فِيهَا المَعْرُوفَ وَأَبْتَعِدُ عَنْ شُبُهَاتِ الإِضْرَارِ، فَكُلُّ حَقٍّ نَبْحَسُهُ عَنِ الصِّغَارِ هُوَ ظُلْمٌ مَكْشُوفٌ أَمَامَ اللهِ البَصِيرِ.

عُزْلَةُ الحِدَادِ وَوَقَارُ الِانْتِظَارِ

صَدَى {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [البقرة: 234]

أَقِفُ بِخُشُوعٍ أَمَامَ بَيْتٍ خَيَّمَ عَلَيْهِ صَمْتُ المَوْتِ فَأَرَى عِدَّةَ الوَفَاةِ مِحْرَابًا لِلْوَفَاءِ وَسَكِينَةً تُهَذِّبُ لَوْعَةَ الفَقْدِ قَبْلَ أَنْ تَعُودَ الحَيَاةُ إِلَى مَجْرَاهَا الطَّبِيعِيِّ، فَيَسْقُطُ فِي نَفْسِي غُلُوُّ التَّقَالِيدِ الَّتِي تَدْفِنُ الأَرْمَلَةَ حَيَّةً فِي قَبْرِ الحُزْنِ الأَبَدِيِّ كَمَا يَتَلَاشَى التَّهَوُّرُ الَّذِي يَقْفِزُ فَوْقَ حُرْمَةِ المِيثَاقِ الغَلِيظِ قَبْلَ انْقِضَاءِ الأَجَلِ، وَكَمْ تَأَرْجَحَ البَشَرُ بَيْنَ قَسْوَةٍ تَحْرِمُ المَرْأَةَ مِنْ حَقِّهَا فِي الحَيَاةِ بَعْدَ الرَّحِيلِ وَبَيْنَ جَفَاءٍ يَنْسَى العِشْرَةَ الطَّوِيلَةَ فِي لَحْظَةِ انْدِفَاعٍ، أَتَأَمَّلُ الأَرْضَ الَّتِي تَسْتَرِيحُ فِي فَصْلِ السُّكُونِ بَعْدَ حَصَادٍ طَوِيلٍ لِتَسْتَعِيدَ أَنْفَاسَهَا وَتُكْرِمَ تُرْبَتَهَا قَبْلَ أَنْ تَسْتَقْبِلَ مَوْسِمًا جَدِيدًا مِنَ العَطَاءِ وَالخُضْرَةِ، فَمَا أَعْدَلَ هَذَا المِيزَانَ السَّمَاوِيَّ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ وَقَارِ الحِدَادِ المَحْدُودِ وَحُرِّيَّةِ الِاخْتِيَارِ بِالمَعْرُوفِ بَعْدَ بُلُوغِ الأَجَلِ تَحْتَ عَيْنِ الخَبِيرِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي إِلَى الفَقْدِ وَالتَّجَدُّدِ إِلَى تَوَازُنٍ رَحِيمٍ يَحْفَظُ كَرَامَةَ الرَّاحِلِينَ وَيَصُونُ حُقُوقَ البَاقِينَ دُونَ إِفْرَاطٍ أَوْ تَفْرِيطٍ، فَكُلُّ عَمَلٍ نَأْتِيهِ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ هُوَ مَكْشُوفٌ أَمَامَ اللهِ الخَبِيرِ.

أَدَبُ التَّعْرِيضِ وَسِرُّ القُلُوبِ

صَدَى {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ

الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [البقرة: 235]

أُنْصِتُ إِلَى لُغَةِ الإِشَارَةِ اللَّطِيفَةِ حِينَ تَصُونُ الفِطْرَةُ حُرْمَةَ العِدَّةِ فَتَتَكَلَّمُ بِالتَّعْرِيضِ العَفِيفِ دُونَ أَنْ تَخْدِشَ جِدَارَ الِانْتِظَارِ أَوْ تَعْقِدَ وُعُودَ الظَّلَامِ، فَيَتَجَلَّى لِي سُمُوُّ التَّشْرِيعِ الَّذِي يَفْهَمُ أَشْوَاقَ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ وَلَا يَكْبِتُهَا بَلْ يُهَذِّبُهَا بِأَدَبِ الكَلِمَةِ وَطَهَارَةِ المَقْصِدِ، وَكَمْ زَلَّتِ الأَقْدَامُ فِي مَمَرَّاتِ التَّسَرُّعِ وَالخَلْوَةِ حِينَ غَابَتْ مُرَاقَبَةُ العَلِيمِ الَّذِي يَرَى مَا تُكِنُّهُ الصُّدُورُ خَلْفَ حُجُبِ الصَّمْتِ وَالكِتْمَانِ، أَرَى البُرْعُمَ الصَّغِيرَ يَنْتَظِرُ فِي صَمْتٍ وَوَقَارٍ تَحْتَ قِشْرَةِ الغُصْنِ حَتَّى يَنْقَضِيَ زَمَنُ البُرُودَةِ لِيَتَفَتَّحَ فِي النُّورِ زَهْرَةً نَقِيَّةً لَا يَشُوبُهَا عَجَلٌ وَلَا ظِلٌّ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا المَزْجَ الرَّبَّانِيَّ بَيْنَ التَّحْذِيرِ مِنْ خَفَايَا النُّفُوسِ وَبَيْنَ فَتْحِ أَبْوَابِ المَغْفِرَةِ وَالحِلْمِ لِتَعِيشَ الرُّوحُ بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ رَغَبَاتِي الدَّاخِلِيَّةُ إِلَى مِحْرَابٍ طَاهِرٍ أُحَاسِبُ فِيهِ خَوَاطِرِي قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ أَفْعَالًا وَأَنْتَظِرُ مَوَاقِيتَ الحَلَالِ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ، فَكُلُّ عَجَلَةٍ تَتَجَاوَزُ أَجَلَ الكِتَابِ هِيَ تَعَدٍّ مَرْفُوضٌ وَلَا مَلَاذَ لِلْقُلُوبِ الوَجِلَةِ إِلَّا مَغْفِرَةُ اللهِ وَحِلْمُهُ.

مُرُوءَةُ العَطَاءِ وَسَخَاءُ الفَضْلِ

صَدَى {لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: 236]

أَمُدُّ يَدِي بِالمَتَاعِ الجَمِيلِ عِنْدَ نِهَايَةِ طَرِيقٍ لَمْ يَكْتَمِلْ فَأَرَى المُرُوءَةَ تَمْسَحُ غُبَارَ الِانْكِسَارِ وَتُعِيدُ لِلْقَلْبِ المَجْرُوحِ كَرَامَتَهُ وَجَبْرَ خَاطِرِهِ، فَيَتَلَاشَى فِي صَدْرِي شُحُّ النَّفْسِ الَّتِي تَظُنُّ أَنَّ انْقِطَاعَ العَقْدِ يُسْقِطُ وَاجِبَ الإِحْسَانِ وَيُبِيحُ لَهَا أَنْ تُغْلِقَ البَابَ بِقَسْوَةٍ وَبُخْلٍ، وَكَمْ تَصَحَّرَتِ العَلَاقَاتُ الإِنْسَانِيَّةُ حِينَ غَابَ عَنْهَا رُوحُ الفَضْلِ وَالتَّسَامُحِ وَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَاسَبُونَ بِالشِّبْرِ وَالدِّرْهَمِ دُونَ لَفْتَةِ كَرَمٍ أَوْ مُرُوءَةٍ، أَتَأَمَّلُ السَّحَابَةَ العَابِرَةَ الَّتِي لَمْ تُمَكِّنْهَا الرِّيحُ مِنَ الإِقَامَةِ فَوْقَ الوَادِي فَتُرْسِلُ قَبْلَ رَحِيلِهَا رَذَاذًا لَطِيفًا يُبَرِّدُ حَرَارَةَ الأَرْضِ وَيَتْرُكُ أَثَرًا طَيِّبًا فِي النُّفُوسِ، فَمَا أَبْهَى هَذَا التَّكْلِيفَ النَّبِيلَ الَّذِي يُخَاطِبُ المحْسِنِينَ وَيَجْعَلُ العَطَاءَ عَلَى قَدْرِ السَّعَةِ وَالضِّيقِ عُنْوَانًا لِلرُّقِيِّ الرُّوحِيِّ وَالأَدَبِ الإِلَهِيِّ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ تَعَامُلَاتِي مَعَ الخَلْقِ إِلَى مَيْدَانٍ لِلْجُودِ أَجْبُرُ فِيهِ الخَوَاطِرَ عِنْدَ الفِرَاقِ كَمَا

أُكْرِمُهَا عِنْدَ الوِصَالِ، فَكُلُّ عَطَاءٍ يَخْرُجُ بِطِيبِ نَفْسٍ هُوَ ذُخْرٌ لِلْآخِرَةِ وَلَا يَرْتَقِي إِلَى مَقَامِ الإِحْسَانِ إِلَّا مَنْ جَعَلَ المَعْرُوفَ شِعَارًا لِحَيَاتِهِ.

عَدْلُ النِّصْفِ وَجَنَاحُ العَفْوِ

صَدَى {وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: 237]

أَقِفُ بَيْنَ كِفَّتَيِ العَدْلِ الصَّارِمِ وَالفَضْلِ الوَاسِعِ فَأَرَى العَفْوَ يَرْتَفِعُ بِالإِنْسَانِ فَوْقَ حُدُودِ الحُقُوقِ المَادِّيَّةِ لِيُدْخِلَهُ فِي مِحْرَابِ التَّقْوَى وَالسَّمَاحَةِ، فَيَذُوبُ فِي أَعْمَاقِي جَلِيدُ المُشَاحَّةِ الَّتِي تَجْعَلُ المَرْءَ يَتَمَسَّكُ بِآخِرِ ذَرَّةٍ مِنْ حَقِّهِ وَيَنْسَى أَنَّ التَّنَازُلَ الكَرِيمَ هُوَ الرِّبْحُ الأَكْبَرُ عِنْدَ السَّمَاءِ، وَكَمْ ضَاعَتْ مَوَدَّةُ الأَيَّامِ وَذِكْرَيَاتُ الخَيْرِ فِي زَحْمَةِ الخُصُومَاتِ حِينَ غَابَتْ عَنِ الأَذْهَانِ وَصِيَّةُ الوَحْيِ الخَالِدَةُ بِأَلَّا نَنْسَى الفَضْلَ بَيْنَنَا عِنْدَ انْقِطَاعِ السُّبُلِ، أَرَى النَّخْلَةَ البَاسِقَةَ حِينَ تَمُرُّ بِهَا الرِّيَاحُ فَتُسْقِطُ رُطَبَهَا الجَنِيَّ لِلْعَابِرِينَ دُونَ أَنْ تَضِنَّ بِثَمَرِهَا أَوْ تَحْبِسَ ظِلَّهَا عَنِ التَّائِهِينَ فِي الصَّحْرَاءِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ القَاعِدَةَ الذَّهَبِيَّةَ الَّتِي تَجْعَلُ العَفْوَ أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَتُذَكِّرُ القُلُوبَ بِأَنَّ بَصَرَ الخَالِقِ مُحِيطٌ بِكُلِّ مَوْقِفٍ نَبِيلٍ يَصْدُرُ عَنْ نَفْسٍ كَبِيرَةٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ تَنَازُلَاتِي فِي الدُّنْيَا إِلَى مَعَارِجَ لِلرُّوحِ أَشْتَرِي بِهَا القُرْبَ مِنَ الخَالِقِ وَأُبْقِي بِهَا أَثَرَ الفَضْلِ حَيًّا بَعْدَ الفِرَاقِ، فَكُلُّ حَقٍّ نَتَنَازَلُ عَنْهُ ابْتِغَاءَ الرِّضَا يَتَضَاعَفُ فِي مِيزَانِ اللهِ البَصِيرِ.

مِحْرَابُ الصَّلَاةِ وَسَكِينَةُ القُنُوتِ

صَدَى {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة: 238]

أُوقِفُ ضَجِيجَ الحَيَاةِ وَصَخَبَ الأَحْكَامِ وَالمَعَامَلَاتِ لِأَدْخُلَ مِحْرَابَ الصَّلَاةِ فَأَرَى الرُّوحَ تَسْتَرِدُّ أَنْفَاسَهَا الهَارِبَةَ فِي حَضْرَةِ القُنُوتِ وَالخُشُوعِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي دَاخِلِي تَشَتُّتُ القَلْبِ الَّذِي تُمَزِّقُهُ هُمُومُ الرِّزْقِ وَمَشَاكِلُ البُيُوتِ وَيَنْسَى أَنَّ الصَّلَاةَ هِيَ العَمُودُ الَّذِي يَحْمِلُ سَقْفَ الوُجُودِ، وَكَمْ جَرَفَتْنِي

أَمْوَاجُ الدُّنْيَا العَاتِيَةُ عَنْ مَوَاقِيتِ اللِّقَاءِ المُقَدَّسِ وَخَاصَّةً فِي ذُرْوَةِ النَّهَارِ حِينَ تَغْفُلُ العُيُونُ عَنْ حِرَاسَةِ الصَّلَاةِ الوُسْطَى وَتَسْتَسْلِمُ لِلكَسَلِ وَالِانْشِغَالِ، أَتَأَمَّلُ الشَّجَرَةَ الَّتِي تَضْرِبُ جُذُورُهَا فِي عُمْقِ الأَرْضِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ لِتَمْتَصَّ الحَيَاةَ وَتُقَاوِمَ جَفَافَ الهَجِيرِ وَعَوَاصِفَ الرِّيَاحِ دُونَ أَنْ تَمَلَّ أَوْ تَنْقَطِعَ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الفَاصِلَ النُّورَانِيَّ الَّذِي يَأْتِي فِي قَلْبِ التَّشْرِيعَاتِ الأُسَرِيَّةِ لِيُعْلِنَ أَنَّ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ وَالقِيَامَ بِخُشُوعٍ هُمَا السِّرُّ الوَحِيدُ لِتَطْهِيرِ القُلُوبِ وَإِصْلَاحِ البُيُوتِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ صَلَوَاتِي الخَمْسُ إِلَى مَحَطَّاتٍ لِلْإِحْرَامِ اليَوْمِيِّ أَغْسِلُ فِيهَا رُوحِي مِنْ غُبَارِ التُّرَابِ وَأَقِفُ فِيهَا صَامِتًا خَاشِعًا بَيْنَ يَدَيِ المَلِكِ، فَكُلُّ حَيَاةٍ تَنْقَطِعُ عَنْ حَبْلِ الصَّلَاةِ هِيَ مَوْتٌ بَطِيءٌ وَلَا طُمَأْنِينَةَ إِلَّا بِالقُنُوتِ الخَالِصِ لِلهِ.

صَلَاةُ الخَوْفِ وَأَمَانُ الذِّكْرِ

صَدَى {فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 239]

أَسِيرُ عَلَى قَدَمَيَّ أَوْ أَرْكَبُ مَتْنَ الخَطَرِ وَقَلْبِي مُعَلَّقٌ بِالسَّمَاءِ فَأَرَى الصَّلَاةَ لَا تَسْقُطُ حَتَّى تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ وَصَهِيلِ الخُيُولِ، فَيَنْهَارُ فِي نَفْسِي عُذْرُ المُتَثَاقِلِينَ الَّذِينَ يَتْرُكُونَ المِحْرَابَ عِنْدَ أَدْنَى تَعَبٍ أَوْ سَفَرٍ وَيَظُنُّونَ أَنَّ العِبَادَةَ تَرَفٌ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي أَوْقَاتِ الفَرَاغِ وَالدَّعَةِ، وَكَمْ غَفَلَتِ الرُّوحُ عَنْ نِعْمَةِ الأَمْنِ وَالسَّكِينَةِ حِينَ اسْتَقَرَّتْ فِي مَأْمَنِهَا وَنَسِيَتْ أَنْ تَشْكُرَ المُعَلِّمَ الأَعْظَمَ الَّذِي أَخْرَجَهَا مِنْ ظُلُمَاتِ الجَهْلِ إِلَى نُورِ المَعْرِفَةِ وَاليَقِينِ، أَرَى المِصْبَاحَ المُشْتَعِلَ فِي قَلْبِ العَاصِفَةِ الهَوْجَاءِ يَحْتَمِي بِزُجَاجَةِ الإِيمَانِ لِيُضِيءَ الطَّرِيقَ لِلسَّائِرِينَ ثُمَّ يَزْدَادُ إِشْرَاقًا وَبَهَاءً حِينَ تَهْدَأُ الرِّيَاحُ وَيَعُمُّ السَّلَامُ أَرْجَاءَ المَكَانِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ المُرُونَةَ الرَّحِيمَةَ الَّتِي تَجْعَلُ الصَّلَاةَ رَفِيقَةَ الإِنْسَانِ فِي الخَوْفِ وَالأَمْنِ وَتَرْبِطُ اسْتِقْرَارَ الحَالِ بِمُضَاعَفَةِ الذِّكْرِ وَالشُّكْرِ عَلَى نِعْمَةِ الهِدَايَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ أَنْفَاسِي فِي كُلِّ حَالَاتِي إِلَى صَلَاةٍ دَائِمَةٍ لَا تَقْطَعُهَا المَخَاوِفُ وَلَا تُنْسِيهَا النِّعَمُ فَضْلَ مَنْ عَلَّمَنِي مَا لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ، فَكُلُّ أَمْنٍ يَخْلُو مِنَ الذِّكْرِ هُوَ غَفْلَةٌ خَاسِرَةٌ وَلَا شُكْرَ يَلِيقُ بِالنِّعْمَةِ إِلَّا بِدَوَامِ ذِكْرِ اللهِ.

وَصِيَّةُ الوَفَاءِ وَعِزَّةُ الحَكِيمِ

صَدَى {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: 240]

أَنْظُرُ إِلَى سَقْفِ البَيْتِ بَعْدَ رَحِيلِ رَاعِيهِ فَأَرَى الوَصِيَّةَ الإِلَهِيَّةَ تَمُدُّ ظِلَّ الأَمَانِ وَالمَتَاعِ حَوْلًا كَامِلًا كَيْ لَا تَشْعُرَ الأَرْمَلَةُ بِغُرْبَةِ الطَّرْدِ وَانْكِسَارِ الجَنَاحِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي وِجْدَانِي جَفَاءُ الوَرَثَةِ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ إِلَى تَقَاسُمِ التَّرِكَةِ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ تُرَابُ القَبْرِ وَيُغْلِقُونَ أَبْوَابَ الدَّارِ فِي وَجْهِ شَرِيكَةِ العُمُرِ، وَكَمْ جُرِحَتْ كَرَامَةُ الضُّعَفَاءِ حِينَ غَابَتْ رُوحُ الإِحْسَانِ وَالمُرُوءَةِ عَنِ البُيُوتِ المَفْجُوعَةِ وَحَلَّ مَحَلَّهَا طَمَعُ المَالِ وَقَسْوَةُ الإِخْرَاجِ، أَتَأَمَّلُ الشَّجَرَةَ الكَبِيرَةَ الَّتِي تَسْقُطُ فِي الغَابَةِ فَتُبْقِي أَغْصَانُهَا مَأْوًى دَافِئًا لِلْعَصَافِيرِ الصَّغِيرَةِ حَتَّى تَقْوَى أَجْنِحَتُهَا وَتَخْتَارَ بِإِرَادَتِهَا فَضَاءَهَا الجَدِيدَ فِي أَمَانٍ وَسَلَامٍ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّكْرِيمَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي يَحْفَظُ لِلْمَرْأَةِ مَأْوَاهَا وَنَفَقَتَهَا ثُمَّ يَمْنَحُهَا حُرِّيَّةَ الخُرُوجِ بِالمَعْرُوفِ دُونَ إِكْرَاهٍ أَوْ تَضْيِيقٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الوَصِيَّةُ فِي قَلْبِي إِلَى عَهْدِ وَفَاءٍ أَحْفَظُ بِهِ أَهْلَ المَوَدَّةِ فِي غِيَابِ الأَحِبَّةِ وَأُكْرِمُ بِهِ مَنْ كَانَ لَهُمْ فَضْلُ العِشْرَةِ، فَكُلُّ إِخْرَاجٍ يَقُومُ عَلَى الجَشَعِ هُوَ ظُلْمٌ بَيِّنٌ وَلَا يَضَعُ الأُمُورَ فِي نِصَابِهَا إِلَّا اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ.

جَبْرُ الخَوَاطِرِ وَحَقُّ المُتَّقِينَ

صَدَى {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} [البقرة: 241]

أَتَأَمَّلُ هَذِهِ الآيَةَ القَصِيرَةَ المَشْحُونَةَ بِالنُّورِ فَأَرَى المَتَاعَ بَلْسَمًا يُضَمِّدُ جِرَاحَ كُلِّ امْرَأَةٍ عَبَرَتْ نَفَقَ الطَّلَاقِ كَيْ لَا تَخْرُجَ مِنَ البَيْتِ بِقَلْبٍ مَكْسُورٍ وَيَدٍ خَاوِيَةٍ، فَيَسْقُطُ فِي دَاخِلِي ذَلِكَ الجُحُودُ الَّذِي يَمْحُو سَنَوَاتِ المَوَدَّةِ بِكَلِمَةِ فِرَاقٍ وَيَحْسَبُ أَنَّ انْتِهَاءَ الزَّوْجِيَّةِ يَعْنِي انْتِهَاءَ الإِنْسَانِيَّةِ وَالتَّقْوَى، وَكَمْ جَفَّتْ مَشَاعِرُ الرَّحْمَةِ فِي أَوْقَاتِ الخُصُومَةِ حِينَ تَصَوَّرَ البَعْضُ أَنَّ التَّقْوَى تَقْتَصِرُ عَلَى السُّجُودِ فِي المَسَاجِدِ وَلَا تَشْمَلُ جَبْرَ الخَوَاطِرِ عِنْدَ نِهَايَةِ العَلَاقَاتِ، أَرَى النَّسِيمَ العَلِيلَ الَّذِي يَمُرُّ فَوْقَ الحَدِيقَةِ الذَّابِلَةِ فِي نِهَايَةِ الصَّيْفِ فَيُلَطِّفُ جَفَافَهَا وَيَمْنَحُ أَوْرَاقَهَا نَدًى خَفِيفًا يُخَفِّفُ عَنْهَا قَسْوَةَ الذُّبُولِ وَالرَّحِيلِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الرَّبْطَ الوَثِيقَ بَيْنَ العَطَاءِ عِنْدَ الفِرَاقِ وَبَيْنَ صِفَةِ المُتَّقِينَ

لِيَكُونَ الإِحْسَانُ هُوَ الشَّاهِدَ الصَّادِقَ عَلَى حَيَاةِ الضَّمِيرِ وَخَشْيَةِ الخَالِقِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ التَّقْوَى فِي سُلُوكِي إِلَى كَرَمٍ عَمَلِيٍّ يَمْسَحُ دُمُوعَ المُنْكَسِرِينَ وَيُثْبِتُ أَنَّ الإِيمَانَ الحَقَّ يَظْهَرُ مَعْدِنُهُ عِنْدَ الخِلَافِ لَا عِنْدَ الوِفَاقِ، فَكُلُّ فِرَاقٍ يَخْلُو مِنْ جَبْرِ الخَاطِرِ هُوَ قَسْوَةٌ وَجَفَاءٌ وَلَا يَسْتَحِقُّ وَسَامَ التَّقْوَى إِلَّا مَنْ أَحْسَنَ فِي المُنْتَهَى كَمَا أَحْسَنَ فِي المُبْتَدَأِ.

إِشْرَاقَةُ البَيَانِ وَمِيزَانُ العَقْلِ

صَدَى {كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [البقرة: 242]

أَرْفَعُ بَصَرِي بَعْدَ هَذَا الطَّوَافِ الطَّوِيلِ فِي أَحْكَامِ الأُسْرَةِ وَالمُجْتَمَعِ فَأَرَى الآيَاتِ تَتَلَأْلَأُ كَالنُّجُومِ المُتَرَاصَّةِ الَّتِي تَرْسُمُ خَرِيطَةَ النَّجَاةِ لِلْعُقُولِ البَاحِثَةِ عَنِ الحِكْمَةِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي عَقْلِي ضَبَابُ الحَيْرَةِ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّ التَّشْرِيعَاتِ قُيُودٌ ثَقِيلَةٌ تَخْنُقُ حُرِّيَّةَ الإِنْسَانِ بَيْنَمَا هِيَ فِي الحَقِيقَةِ أَجْنِحَةٌ تَحْمِيهِ مِنَ السُّقُوطِ فِي هَاوِيَةِ الفَوْضَى، وَكَمْ تَاهَتِ العُقُولُ البَشَرِيَّةُ حِينَ اعْتَمَدَتْ عَلَى نُورِهَا الضَّئِيلِ وَأَعْرَضَتْ عَنْ شَمْسِ الوَحْيِ الَّتِي تُبَيِّنُ مَوَاضِعَ الخَيْرِ وَالشَّرِّ بِوُضُوحٍ لَا يَقْبَلُ اللَّبْسَ، أَتَأَمَّلُ الفَنَارَ العَالِيَ عَلَى شَاطِئِ البَحْرِ المُظْلِمِ كَيْفَ يُرْسِلُ حُزَمَ الضَّوْءِ المُتَتَابِعَةَ لِيُوقِظَ عَقْلَ الرُّبَّانِ وَيُجَنِّبَ السَّفِينَةَ صُخُورَ الغَرَقِ وَالتَّحَطُّمِ فِي عُرْضِ المُحِيطِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّكْرِيمَ الإِلَهِيَّ لِلْعَقْلِ البَشَرِيِّ حِينَ يَجْعَلُهُ الوَحْيُ الغَايَةَ مِنَ البَيَانِ لِيَتَدَبَّرَ أَسْرَارَ العَدْلِ وَالرَّحْمَةِ فِي كُلِّ حُكْمٍ سَمَاوِيٍّ، هَكَذَا يَتَحَوَّلُ تَفَكُّرِي فِي آيَاتِ الكِتَابِ إِلَى نُورٍ يَزْدَادُ اتِّسَاعًا كُلَّمَا أَعْمَلْتُ بَصِيرَتِي فِي مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَحِكْمَتِهَا البَالِغَةِ، فَكُلُّ عَقْلٍ يَنْفَصِلُ عَنْ هِدَايَةِ الوَحْيِ يَضِلُّ فِي التِّيهِ وَلَا اسْتِنَارَةَ حَقِيقِيَّةً إِلَّا بِتَعَقُّلِ آيَاتِ اللهِ.

فِرَارُ الجَبَانِ وَقَبْضَةُ المَوْتِ

صَدَى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} [البقرة: 243]

أَنْظُرُ إِلَى قَوَافِلِ الهَارِبِينَ مِنْ سَاحَاتِ البَذْلِ فَأَرَى المَوْتَ يَنْتَظِرُهُمْ عِنْدَ نِهَايَةِ الطَّرِيقِ الَّذِي ظَنُّوهُ مَهْرَبًا مِنَ الفَنَاءِ وَحِصْنًا لِلْحَيَاةِ، فَيَتَحَطَّمُ فِي صَدْرِي وَهْمُ الجُبْنِ الَّذِي يُوَسْوِسُ لِلنَّفْسِ أَنَّ الفِرَارَ مِنَ الوَاجِبِ يُطِيلُ العُمُرَ وَأَنَّ الإِقْدَامَ فِي سَبِيلِ الحَقِّ يُقَرِّبُ الأَجَلَ، وَكَمْ هَرَبْتُ بِرُوحِي مِنْ مَوَاطِنِ المَسْؤُولِيَّةِ خَوْفًا مِنَ الخَسَارَةِ فَإِذَا بِي أَسْقُطُ فِي مَوْتٍ مَعْنَوِيٍّ قَبْلَ أَنْ تَنْتَشِلَنِي رَحْمَةُ السَّمَاءِ وَتُعِيدَ إِلَيَّ أَنْفَاسَ اليَقِينِ، أَرَى الهَارِبَ مِنَ المَطَرِ الغَزِيرِ يَرْكُضُ بِكُلِّ قُوَّتِهِ لِيَخْتَبِئَ تَحْتَ جِدَارٍ آيِلٍ لِلسُّقُوطِ فَيَنْهَارُ عَلَيْهِ السَّقْفُ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي ظَنَّ فِيهَا أَنَّهُ قَدْ نَجَا، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الدَّرْسَ الكَوْنِيَّ الَّذِي يُثْبِتُ أَنَّ الحَيَاةَ وَالمَوْتَ بِيَدِ الخَالِقِ وَحْدَهُ وَأَنَّ الفَضْلَ الإِلَهِيَّ يَعُمُّ البَشَرَ بِالآيَاتِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَغْفُلُونَ عَنِ الشُّكْرِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ شَجَاعَتِي فِي الحَيَاةِ إِلَى يَقِينٍ ثَابِتٍ بِأَنَّ الأَجَلَ مَحْتُومٌ لَا يُقَدِّمُهُ إِقْدَامٌ وَلَا يُؤَخِّرُهُ فِرَارٌ وَتَقَاعُسٌ، فَكُلُّ هُرُوبٍ مِنْ قَدَرِ السَّمَاءِ هُوَ سُقُوطٌ فِي قَبْضَتِهَا وَلَا حَيَاةَ كَرِيمَةً إِلَّا بِشُكْرِ فَضْلِ اللهِ.

قَرْضُ الوَفَاءِ وَمُضَاعَفَةُ العَطَاءِ

صَدَى {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة: 244 - 245]

أَسْمَعُ نِدَاءَ السَّمَاءِ وَهُوَ يَسْتَقْرِضُ العَبْدَ الفَقِيرَ مِمَّا وَهَبَهُ إِيَّاهُ فَأَرَى الكَرَمَ الإِلَهِيَّ يُحَوِّلُ الدِّرْهَمَ الفَانِيَ إِلَى جِبَالٍ مِنَ النُّورِ وَالأَجْرِ المُضَاعَفِ، فَيَنْهَارُ فِي دَاخِلِي بُخْلُ الطِّينِ الَّذِي يَقْبِضُ يَدَهُ عَلَى المَالِ خَوْفًا مِنَ النَّفَادِ وَيَنْسَى أَنَّ القَبْضَ وَالبَسْطَ خَزَائِنُ بِيَدِ مَالِكِ المُلْكِ، وَكَمْ تَرَدَّدْتُ عِنْدَ عَتَبَةِ الإِنْفَاقِ وَالجِهَادِ خَشْيَةَ الفَقْرِ قَبْلَ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ البَذْلَ فِي سَبِيلِ الحَقِّ هُوَ التِّجَارَةُ الوَحِيدَةُ المَضْمُونَةُ الرِّبْحِ عِنْدَ السَّمِيعِ العَلِيمِ، أَتَأَمَّلُ حَبَّةَ القَمْحِ الوَاحِدَةَ حِينَ تُلْقَى فِي تُرْبَةِ الأَرْضِ بِسَخَاءٍ كَيْفَ تَنْفَجِرُ عَنْ سَبْعِ سَنَابِلَ تَحْمِلُ مِئَاتِ الحَبَّاتِ الَّتِي تَفُوقُ الحَصْرَ وَالحِسَابَ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّلَطُّفَ الإِلَهِيَّ حِينَ يَطْلُبُ الغَنِيُّ المُطْلَقُ قَرْضًا حَسَنًا مِنْ عَبْدِهِ الضَّعِيفِ لِيُعْطِيَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً يَوْمَ يُرْجَعُ الجَمِيعُ إِلَيْهِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ تَرْوِيَ وَطَاقَتِي إِلَى بُذُورٍ أَزْرَعُهَا فِي حَقْلِ الآخِرَةِ بِثِقَةٍ مُطْلَقَةٍ فِي أَنَّ مَا عِنْدَ الخَالِقِ خَيْرٌ وَأَبْقَى، فَكُلُّ مَالٍ نَحْبِسُهُ عَنِ السَّمَاءِ يَتَلَاشَى عِنْدَ المَوْتِ وَلَا غِنًى أَبَدِيٌّ إِلَّا فِيمَا نُقْرِضُهُ لِلهِ.

عَجَلَةُ الطَّلَبِ وَانْكِشَافُ الزَّيْفِ

صَدَى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [البقرة: 246]

أُصْغِي إِلَى ضَجِيجِ الشِّعَارَاتِ الحَمَاسِيَّةِ قَبْلَ سَاعَةِ الِاخْتِبَارِ فَأَرَى الحَنَاجِرَ تَصْرُخُ بِطَلَبِ المَعْرَكَةِ ثُمَّ تَتَوَارَى الأَجْسَادُ خَلْفَ جُدْرَانِ الخَوْفِ حِينَ يُقْرَعُ طَبْلُ الحَقِيقَةِ، فَيَتَكَشَّفُ لِي زَيْفُ الِانْدِفَاعِ العَاطِفِيِّ الَّذِي يَبْنِي قُصُورَ البُطُولَةِ فِي الخَيَالِ وَيَنْهَارُ عِنْدَ أَوَّلِ مِحْنَةٍ تَطْلُبُ التَّضْحِيَةَ بِالرُّوحِ وَالدَّمِ، وَكَمْ رَفَعْتُ رَايَاتِ العَزْمِ فِي أَوْقَاتِ الرَّخَاءِ وَأَقْسَمْتُ عَلَى الثَّبَاتِ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ لِي شَدَائِدُ الوَاقِعِ هَشَاشَةَ إِرَادَتِي وَضَعْفَ صَبْرِي عِنْدَ اللِّقَاءِ، أَرَى الزَّبَدَ الأَبْيَضَ يَعْلُو فَوْقَ مَوْجِ البَحْرِ بِصَخَبٍ عَظِيمٍ كَأَنَّهُ سَيَبْتَلِعُ الشَّاطِئَ ثُمَّ يَتَلَاشَى فِي ثَانِيَةٍ وَاحِدَةٍ وَلَا يَبْقَى إِلَّا القَلِيلُ الثَّابِتُ فِي الأَعْمَاقِ، فَمَا أَشَدَّ فَدَاحَةَ التَّوَلِّي بَعْدَ ادِّعَاءِ الشَّجَاعَةِ حِينَ يَنْكَشِفُ مَعْدِنُ النُّفُوسِ أَمَامَ التَّكْلِيفِ الشَّاقِّ وَيُفْضَحُ الظَّالِمُونَ الَّذِينَ خَانُوا عُهُودَهُمْ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ عَزَائِمِي إِلَى صَمْتٍ صَادِقٍ وَاسْتِعْدَادٍ خَفِيٍّ أَتَضَرَّعُ فِيهِ إِلَى السَّمَاءِ أَنْ تُثَبِّتَ قَدَمَيَّ عِنْدَ الِابْتِلَاءِ وَلَا تَجْعَلَنِي مِنَ المُدَّعِينَ، فَكُلُّ حَمَاسٍ لَا يَسْتَنِدُ إِلَى صِدْقِ العَقِيدَةِ يَتَبَخَّرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى وَلَا يَخْفَى زَيْفُ الظَّالِمِينَ عَلَى اللهِ العَلِيمِ.

مِيزَانُ المُلْكِ وَسَعَةُ العِلْمِ

صَدَى {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 247]

أَنْظُرُ إِلَى عُيُونِ المَادِّيِّينَ وَهِيَ تَقِيسُ قَدْرَ القَادَةِ بِبَرِيقِ الذَّهَبِ وَكَدْسِ الأَمْوَالِ فَأَرَى مِيزَانَ السَّمَاءِ يَرْفَعُ صَاحِبَ العِلْمِ وَالقُوَّةِ فَوْقَ أَصْحَابِ الخَزَائِنِ وَالأَنْسَابِ، فَيَتَحَطَّمُ فِي صَدْرِي صَنَمُ الثَّرْوَةِ الَّذِي يُوهِمُ البَشَرَ أَنَّ السِّيَادَةَ تُشْتَرَى بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَأَنَّ الفَقِيرَ لَا يَصْلُحُ لِقِيَادَةِ الأُمَمِ وَصِنَاعَةِ

المجْدِ، وَكَمْ حَكَمْتُ عَلَى جَوَاهِرِ الرِّجَالِ مِنْ خِلَالِ مَظَاهِرِهِمُ الخَارِجِيَّةِ وَغَفَلْتُ عَنْ بَسْطَةِ العِلْمِ وَالحِكْمَةِ الَّتِي أَوْدَعَهَا الخَالِقُ فِي صُدُورِ المصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ، أَتَأَمَّلُ السَّيْفَ المصْنُوعَ مِنَ الفُولَاذِ الصَّلْبِ بِدُونِ زَخْرَفَةٍ ذَهَبِيَّةٍ كَيْفَ يَحْسِمُ المعْرَكَةَ بَيْنَمَا يَنْكَسِرُ السَّيْفُ المرَصَّعُ بِالجَوَاهِرِ عِنْدَ أَوَّلِ ضَرْبَةٍ فِي المَيْدَانِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الِاصْطِفَاءَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يُعِيدُ لِلْعَقْلِ وَالجَسَدِ السَّلِيمِ قِيمَتَهُمَا الحَقِيقِيَّةَ وَيُعْلِنُ أَنَّ المُلْكَ هِبَةٌ مِنْ خَزَائِنِ الوَاسِعِ العَلِيمِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ مَقَايِيسُ التَّقْدِيرِ فِي وِجْدَانِي إِلَى بَحْثٍ عَنْ جَوْهَرِ العِلْمِ وَالكَفَاءَةِ وَالنَّزَاهَةِ بَعِيدًا عَنْ بَرِيقِ المالِ الزَّائِلِ، فَكُلُّ رِفْعَةٍ تَقُومُ عَلَى المالِ وَحْدَهُ هِيَ سَرَابٌ خَادِعٌ وَلَا يُؤْتِي المُلْكَ الحَقِيقِيَّ إِلَّا اللهُ الوَاسِعُ العَلِيمُ.

تَابُوتُ السَّكِينَةِ وَآيَةُ المُلْكِ

صَدَى {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [البقرة: 248]

أَرْفَعُ بَصَرِي نَحْوَ الأُفُقِ المفْتُوحِ فَأَرَى المَلَائِكَةَ تَحْمِلُ تَابُوتَ السَّكِينَةِ لِتُطْفِئَ نَارَ الشَّكِّ فِي القُلُوبِ المضْطَرِبَةِ وَتُثَبِّتَ أَرْكَانَ القِيَادَةِ الصَّادِقَةِ، فَيَتَلَاشَى فِي دَاخِلِي تَرَدُّدُ النَّفْسِ الَّتِي تَطْلُبُ العَلَامَاتِ المادِّيَّةَ لِتُصَدِّقَ وَعْدَ السَّمَاءِ وَتَنْسَى أَنَّ السَّكِينَةَ الحَقِيقِيَّةَ هِيَ نُورٌ يَقْذِفُهُ الخَالِقُ فِي صُدُورِ المؤْمِنِينَ، وَكَمْ عَاشَتْ رُوحِي فِي قَلَقٍ وَاضْطِرَابٍ حِينَ انْقَطَعَتْ صِلَتُهَا بِمَوَارِيثِ النُّبُوَّةِ وَبَقَايَا الوَحْيِ الَّتِي تَمْنَحُ القَلْبَ الطُّمَأْنِينَةَ وَاليَقِينَ فِي أَحْلَكِ الظُّرُوفِ، أَرَى السَّفِينَةَ التَّائِهَةَ فِي لُجَجِ البَحْرِ الهَائِجِ كَيْفَ تَسْتَقِرُّ وَتَهْدَأُ أَمْوَاجُهَا حِينَ تَلُوحُ لَهَا مَنَارَةُ الشَّاطِئِ وَتَهْبِطُ عَلَيْهَا نَسَمَاتُ الفَجْرِ الحَنُونَةُ بِالبُشْرَى وَالأَمَانِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الآيَةَ الرَّبَّانِيَّةَ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ مَدَدِ المَلَائِكَةِ وَإِرْثِ الأَنْبِيَاءِ لِتَكُونَ بُرْهَانًا سَاطِعًا لِكُلِّ قَلْبٍ يَحْمِلُ بَذْرَةَ الإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الذِّكْرَيَاتُ النُّورَانِيَّةُ لِلْأَنْبِيَاءِ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَابُوتِ سَكِينَةٍ أَحْتَمِي بِهِ مِنْ عَوَاصِفِ الشَّكِّ وَالخَوْفِ وَأَسْتَمِدُّ مِنْهُ الثَّبَاتَ، فَكُلُّ اضْطِرَابٍ يَسْكُنُ القُلُوبَ يَتَبَدَّدُ عِنْدَ حُضُورِ السَّكِينَةِ الإِلَهِيَّةِ وَلَا بُرْهَانَ يَنْفَعُ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِآيَاتِ اللهِ.

نَهْرُ الِابْتِلَاءِ وَثَبَاتُ القِلَّةِ

صَدَى {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 249]

أَقِفُ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ الرَّقْرَاقِ فِي ذُرْوَةِ العَطَشِ فَأَرَى المَاءَ العَذْبَ يَتَحَوَّلُ إِلَى مِحَاكٍّ يَفْرِزُ أَهْلَ العَزِيمَةِ عَنْ أَسْرَى الشَّهَوَاتِ العَابِرَةِ، فَيَنْكَشِفُ لِي سِرُّ الغَرْبَلَةِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي تُسْقِطُ الكَثْرَةَ الغُثَائِيَّةَ عِنْدَ أَوَّلِ إِغْرَاءٍ وَلَا تُبْقِي فِي سَاحَةِ المَجْدِ إِلَّا القِلَّةَ الصَّابِرَةَ الَّتِي تَمْلِكُ زِمَامَ نَفْسِهَا، وَكَم انْهَزَمْتُ أَمَامَ غُرْفَةِ مَاءٍ أَوْ لَذَّةٍ مُبَاحَةٍ أَسْرَفْتُ فِيهَا فَتَقُلْتُ خُطَايَ عَنْ مُوَاصَلَةِ السَّيْرِ نَحْوَ القِمَّةِ وَفَقَدْتُ طَاقَةَ الصُّمُودِ أَمَامَ جَالُوتِ الهَوَى، أَتَأَمَّلُ الجَمْرَةَ الصَّغِيرَةَ المُلْتَهِبَةَ بِاليَقِينِ كَيْفَ تُحْرِقُ غَابَةً كَثِيفَةً مِنَ الحَطَبِ اليَابِسِ بِإِذْنِ السَّمَاءِ بَيْنَمَا تَعْجَزُ أَكْوَامُ الرَّمَادِ الكَثِيرَةُ عَنْ إِضَاءَةِ شَمْعَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الظَّلَامِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا اليَقِينَ الرَّاسِخَ الَّذِي يُعْلِنُهُ المُؤْمِنُونَ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ أَنَّ النَّصْرَ لَيْسَ بِعَدَدِ الأَجْسَادِ بَلْ بِمَعِيَّةِ الخَالِقِ لِلصَّابِرِينَ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ المِحَنُ وَالمُغْرَيَاتُ فِي طَرِيقِي إِلَى اخْتِبَارٍ لِلْإِرَادَةِ أَكْتَفِي فِيهِ بِالغُرْفَةِ اليَسِيرَةِ لِأَعْبُرَ النَّهْرَ خَفِيفًا نَحْوَ مَعِيَّةِ السَّمَاءِ، فَكُلُّ كَثْرَةٍ تَتَعَلَّقُ بِالطِّينِ تَنْهَارُ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَا غَلَبَةَ حَقِيقِيَّةً إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ الَّذِي يَكُونُ مَعَ الصَّابِرِينَ.

إِفْرَاغُ الصَّبْرِ وَتَثْبِيتُ الأَقْدَامِ

صَدَى {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 250]

أَبْرُزُ بِقَلْبٍ أَعْزَلَ إِلَّا مِنَ اليَقِينِ فِي مُوَاجَهَةِ جَحَافِلِ الطُّغْيَانِ فَأَرَى الدُّعَاءَ يَنْهَمِرُ كَالمَطَرِ الغَزِيرِ لِيُفْرِغَ الصَّبْرَ فِي الصُّدُورِ وَيُثَبِّتَ الأَقْدَامَ فَوْقَ الأَرْضِ المُتَزَلْزِلَةِ، فَيَتَلَاشَى فِي أَعْمَاقِي رُعْبُ المُقَارَنَةِ المَادِّيَّةِ بَيْنَ قِلَّةِ العُدَّةِ وَضَخَامَةِ جَالُوتَ الَّذِي يَمْلَأُ الأُفُقَ بِصَخَبِ الحَدِيدِ وَالغُرُورِ، وَكَمْ وَقَفْتُ حَائِرًا أَمَامَ تَحَدِّيَاتٍ تَفُوقُ طَاقَتِي البَشَرِيَّةَ قَبْلَ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ الصَّبْرَ المَطْلُوبَ هُوَ فَيْضٌ سَمَاوِيٌّ يُسْكَبُ عَلَى القَلْبِ سَكْبًا فَيَغْمُرُهُ بِالسَّكِينَةِ وَالثَّبَاتِ، أَرَى الجَبَلَ الشَّامِخَ يَضْرِبُ أَوْتَادَهُ فِي

أَعْمَاقِ الثَّرَى فَلَا تُحَرِّكُهُ العَوَاصِفُ الهَوْجَاءُ وَلَا تَهْتَزُّ قِمَّتُهُ أَمَامَ زَئِيرِ الرُّعُودِ وَصَوَاعِقِ السَّمَاءِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّرْتِيبَ النُّورَانِيَّ فِي دُعَاءِ القِلَّةِ الصَّادِقَةِ حِينَ يَطْلُبُونَ الصَّبْرَ الدَّاخِلِيَّ أَوَّلًا ثُمَّ ثَبَاتَ القَدَمِ فِي المَيْدَانِ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلُوا النَّصْرَ المُبِينَ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ لَحَظَاتُ المواَجَهَةِ الكُبْرَى فِي حَيَاتِي إِلَى مِحْرَابِ تَضَرُّعٍ أَسْتَمْطِرُ فِيهِ السَّكِينَةَ مِنَ السَّمَاءِ لِتَثْبُتَ رُوحِي أَمَامَ عَوَاصِفِ البَاطِلِ، فَكُلُّ جَبَرُوتٍ يَتَضَاءَلُ أَمَامَ قَلْبٍ أَفْرَغَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ صَبْرًا وَلَا نَصْرَ حَقِيقِيٌّ إِلَّا بِمَدَدٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

سِفْرُ الصَّدَى الرَّابِعَ عَشَرَ

حَجَرُ اليَقِينِ وَسُقُوطُ الجَبَابِرَةِ

صَدَى {فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة: 251]

أَرَى المِقْلَاعَ الصَّغِيرَ فِي يَدِ الفَتَى المؤْمِنِ يَهْوِي بِبُرْجِ جَالُوتَ الحَدِيدِيِّ فَيَتَحَوَّلُ جَبَرُوتُ الطُّغْيَانِ إِلَى غُبَارٍ تَذْرُوهُ رِيَاحُ المعْرَكَةِ، فَيَسْقُطُ فِي أَعْمَاقِي صَنَمُ الأَسْبَابِ المادِّيَّةِ الَّذِي يُوهِمُ العَيْنَ أَنَّ الدُّرُوعَ الثَّقِيلَةَ تَحْمِي البَاطِلَ مِنْ صَدْمَةِ الحَقِّ العَارِي إِلَّا مِنَ اليَقِينِ، وَكَمْ أَخَافَتْنِي قِلَّةُ الزَّادِ وَصِغَرُ الحَجْمِ أَمَامَ جِبَالِ الفَسَادِ قَبْلَ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ المُلْكَ وَالحِكْمَةَ هِبَتَانِ تَهْبِطَانِ عَلَى القُلُوبِ الصَّادِقَةِ مِنْ خَزَائِنِ الغَيْبِ، أَتَأَمَّلُ السَّيْلَ العَارِمَ يَدْفَعُ المِيَاهَ الرَّاكِدَةَ لِيَمْنَعَ تَعَفُّنَ البُحَيْرَةِ وَيُعِيدَ إِلَيْهَا نَقَاءَهَا وَحَيَاتَهَا بِسُنَّةِ التَّدَافُعِ الكَوْنِيِّ الَّتِي تَحْفَظُ تَوَازُنَ الأَرْضِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا اللُّطْفَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَجْعَلُ صِرَاعَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ سِيَاجًا يَمْنَعُ خَرَابَ العَالَمِ وَيُعَلِّمُ العِبَادَ أَنَّ النَّصْرَ يَصْنَعُهُ الإِذْنُ السَّمَاوِيُّ لَا ثِقَلُ السِّلَاحِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ ضَعْفَاتِي البَشَرِيَّةُ فِي مِيزَانِ التَّوَكُّلِ إِلَى قُوَّةٍ ضَارِبَةٍ تَهْزِمُ جُيُوشَ الوَهْمِ وَتَسْتَقْبِلُ فَيْضَ الحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيمِ، فَكُلُّ جَبَرُوتٍ يَقُومُ عَلَى الطُّغْيَانِ يَنْهَارُ عِنْدَ أَوَّلِ حَجَرٍ يُرْمَى بِإِذْنِ اللهِ.

شَهَادَةُ الوَحْيِ وَيَقِينُ الرِّسَالَةِ

صَدَى {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [البقرة: 252]

أُصْغِي إِلَى تَرْتِيلِ السَّمَاءِ وَهُوَ يَسْكُبُ خُلَاصَةَ التَّارِيخِ فِي قَلْبِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ لِيُثَبِّتَ أَقْدَامَ الرِّسَالَةِ فَوْقَ صَخْرَةِ الحَقِّ الأَبَدِيِّ، فَيَتَبَدَّدُ فِي نَفْسِي ضَجِيجُ المشَكِّكِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ أَخْبَارَ الغَيْبِ حِكَايَاتٌ عَابِرَةٌ تَصْنَعُهَا مُخَيِّلَةُ البَشَرِ فِي عَتْمَةِ اللَّيْلِ، وَكَمْ تَاهَتْ رُوحِي فِي دُرُوبِ الظُّنُونِ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَ الوَحْيِ يَتْلُو آيَاتِهِ بِصِدْقٍ يَشُقُّ حُجُبَ الزَّمَنِ وَيَشْهَدُ بِحَقِّ النُّبُوَّةِ الخَاتِمَةِ، أَرَى النَّهْرَ العَظِيمَ يَحْمِلُ عُصَارَةَ اليَنَابِيعِ القَدِيمَةِ لِيَصُبَّهَا صَافِيَةً عَذْبَةً فِي الكَأْسِ الأَخِيرَةِ فَيَرْتَوِي مِنْهَا العَطْشَى فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ دُونَ كَدَرٍ أَوْ نُقْصَانٍ، فَمَا أَجَلَّ هَذِهِ الشَّهَادَةَ الرَّبَّانِيَّةَ الَّتِي تَجْعَلُ تِلَاوَةَ الآيَاتِ بِالحَقِّ بُرْهَانًا سَاطِعًا عَلَى صِدْقِ المبَلِّغِ الأَمِينِ وَنُورًا يَهْدِي الحَائِرِينَ إِلَى شَاطِئِ النَّجَاةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ تِلَاوَتِي لِلْقُرْآنِ إِلَى لِقَاءٍ حَيٍّ مَعَ الحَقِيقَةِ المطْلَقَةِ أَسْتَمِدُّ مِنْهُ الطُّمَأْنِينَةَ وَأَرَى فِيهِ مِرْآةَ الرِّسَالَةِ الصَّادِقَةِ، فَكُلُّ كَلَامٍ يَصْدُرُ عَنِ الهَوَى يَتَلَاشَى كَالدُّخَانِ وَلَا حَقَّ يَبْقَى إِلَّا آيَاتُ اللهِ.

مَرَاتِبُ الرُّسُلِ وَمَشِيئَةُ الِاخْتِلَافِ

صَدَى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: 253]

أَرْفَعُ بَصَرِي إِلَى قِمَمِ النُّبُوَّةِ الشَّامِخَةِ فَأَرَى أَنْوَارَ الرُّسُلِ تَتَفَاوَتُ فِي المَنَازِلِ وَالكَرَامَاتِ بَيْنَ تَكْلِيمٍ مُبَاشِرٍ وَتَأْيِيدٍ بِرُوحِ القُدُسِ دُونَ أَنْ يَنْقُصَ ذَلِكَ مِنْ وَحْدَةِ المصْدَرِ وَطَهَارَةِ المِيثَاقِ، فَيَنْحَلُّ فِي عَقْلِي لُغْزُ التَّنَاقُضِ البَشَرِيِّ حِينَ انْقَسَمَ الأَتْبَاعُ بَعْدَ وُضُوحِ البَيِّنَاتِ وَحَوَّلُوا رِسَالَاتِ السَّلَامِ إِلَى سُيُوفٍ تَسْفِكُ الدِّمَاءَ بِاسْمِ الدِّينِ، وَكَمْ حَارَتْ بَصِيرَتِي أَمَامَ صِرَاعِ الطَّوَائِفِ وَالمذَاهِبِ قَبْلَ أَنْ أَفْهَمَ أَنَّ المشِيئَةَ الإِلَهِيَّةَ تَرَكَتْ لِلْإِنْسَانِ حُرِّيَّةَ الِاخْتِيَارِ لِيَتَمَيَّزَ المؤْمِنُ الصَّادِقُ مِنَ الجَاحِدِ العَنِيدِ، أَتَأَمَّلُ السَّمَاءَ المرَصَّعَةَ بِالنُّجُومِ المتَفَاوِتَةِ فِي اللَّمَعَانِ كَيْفَ تَجْمَعُهَا قُبَّةٌ وَاحِدَةٌ فِي انْسِجَامٍ بَدِيعٍ

بَيْنَمَا تَتَصَادَمُ الصُّخُورُ فِي قَاعِ الوَادِي لِأَنَّهَا أَغْلَقَتْ عُيُونَهَا عَنْ نُورِ الفَضَاءِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الإِرَادَةَ المطْلَقَةَ الَّتِي تَحْكُمُ الكَوْنَ بِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ فَلَا تُكْرِهُ القُلُوبَ عَلَى الهِدَايَةِ وَلَا تَعْجَزُ عَنْ تَنْفِيذِ مَا تُرِيدُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي إِلَى التَّارِيخِ البَشَرِيِّ إِلَى فَهْمٍ عَمِيقٍ لِسُنَّةِ الِابْتِلَاءِ وَالِاخْتِيَارِ أَتَمَسَّكُ فِيهِ بِجَوْهَرِ الإِيمَانِ وَأَبْتَعِدُ عَنْ صِرَاعِ الأَهْوَاءِ، فَكُلُّ خِلَافٍ يَقَعُ بَعْدَ البَيِّنَاتِ هُوَ نَتِيجَةُ الهَوَى البَشَرِيِّ وَلَا رَادَّ لِإِرَادَةِ اللهِ الفَعَّالِ لِمَا يُرِيدُ.

قَافِلَةُ البَذْلِ قَبْلَ سُوقِ الصَّمْتِ

صَدَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: 254]

أَبْسُطُ كَفِّي بِالإِنْفَاقِ قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُ السُّوقِ الدُّنْيَوِيِّ فَأَرَى الدِّرْهَمَ الَّذِي أُخْرِجُهُ اليَوْمَ يَتَحَوَّلُ إِلَى زَادٍ يَنْفَعُنِي فِي يَوْمٍ تَسْقُطُ فِيهِ كُلُّ مَقَايِيسِ التِّجَارَةِ وَالصَّدَاقَةِ وَالوَسَاطَةِ، فَيَتَحَطَّمُ فِي صَدْرِي وَهْمُ التَّأْجِيلِ الَّذِي يُسَوِّلُ لِلنَّفْسِ أَنَّ الكَنْزَ يَحْمِي صَاحِبَهُ أَوْ أَنَّ الأَصْدِقَاءَ سَيَفْتَدُونَهُ عِنْدَ هَوْلِ المَوْقِفِ العَظِيمِ، وَكَمْ قَبَضْتُ يَدِي عَلَى رِزْقٍ هُوَ فِي الأَصْلِ هِبَةٌ مِنَ السَّمَاءِ وَغَفَلْتُ عَنْ أَنَّ المَوْتَ يُجَرِّدُ الإِنْسَانَ مِنْ كُلِّ عَمَلَةٍ إِلَّا عَمَلَةَ الإِحْسَانِ وَالعَطَاءِ، أَرَى التَّاجِرَ اليَقِظَ الَّذِي يَسْتَبْدِلُ أَوْرَاقَهُ النَّقْدِيَّةَ المحَلِّيَّةَ بِذَهَبٍ خَالِصٍ قَبْلَ أَنْ يَعْبُرَ الحُدُودَ إِلَى بَلَدٍ لَا يَعْتَرِفُ بِعُمْلَةِ مَوْطِنِهِ القَدِيمِ وَلَا يَقْبَلُ فِيهِ شَفِيعًا، فَمَا أَشَدَّ هَوْلَ ذَلِكَ اليَوْمِ الَّذِي يَنْقَطِعُ فِيهِ البَيْعُ وَتَتَلَاشَى الخُلَّةُ وَيُصْبِحُ البَخِيلُ الجَاحِدُ ظَالِمًا لِنَفْسِهِ أَمَامَ عَدْلِ السَّمَاءِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ مُمْتَلَكَاتِي فِي وِجْدَانِي إِلَى وَدِيعَةٍ عَابِرَةٍ أُسَارِعُ بِإِرْسَالِهَا إِلَى الآخِرَةِ عَبْرَ أَيْدِي الفُقَرَاءِ قَبْلَ أَنْ يَدُقَّ جَرَسُ الرَّحِيلِ، فَكُلُّ تَرْوَةٍ نُبْقِيهَا خَلْفَنَا تَصِيرُ حَسْرَةً وَلَا نَجَاةَ فِي يَوْمِ الفَصْلِ إِلَّا بِمَا أَنْفَقْنَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ.

عَرْشُ القَيُّومِ وَسَطْوَةُ النُّورِ

صَدَى {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ

مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: 255]

أَقِفُ مَذْهُولًا فِي مِحْرَابِ التَّوْحِيدِ الأَعْظَمِ فَأَرَى الكَوْنَ كُلَّهُ ذَرَّةً تَسْبَحُ فِي قَبْضَةِ الحَيِّ القَيُّومِ الَّذِي لَا يَغْفُو طَرْفَةَ عَيْنٍ عَنْ حِرَاسَةِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَيَذُوبُ فِي دَاخِلِي خَوْفُ العَبْدِ الضَّعِيفِ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّ الوُجُودَ يَتْرُكُهُ لِعَبَثِ الصُّدَفِ أَوْ أَنَّ طُغَاةَ الطِّينِ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي هَذَا المَلَكُوتِ، وَكَمْ تَاهَ عَقْلِي القَاصِرُ فِي أَوْهَامِ الإِحَاطَةِ وَالِاسْتِقْلَالِ قَبْلَ أَنْ تَسْحَقَ هَذِهِ الآيَةُ غُرُورَ البَشَرِ وَتُعْلِنَ أَنَّنَا لَا نُدْرِكُ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا قَطْرَةً يَأْذَنُ بِهَا، أَتَأَمَّلُ الكُرْسِيَّ الوَاسِعَ الَّذِي يَحْتَوِي المجَرَّاتِ وَالأَفْلَاكَ دُونَ أَنْ يُثْقِلَهُ حِفْظُهَا كَمَا تَحْمِلُ السَّمَاءُ الصَّافِيَةُ نُجُومَ اللَّيْلِ بِلَا تَعَبٍ وَلَا كَلَلٍ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الجَلَالَ المطْلَقَ الَّذِي تَخْشَعُ لَهُ الرِّقَابُ فَلَا يَجْرُؤُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ إِلَّا بَعْدَ الإِذْنِ السَّمَاوِيِّ المهِيبِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ آيَةُ الكُرْسِيِّ فِي صَدْرِي إِلَى حِصْنٍ مِنَ النُّورِ يَطْرُدُ وَحْشَةَ اللَّيْلِ وَيَمْلَأُ قَلْبِي بِسَكِينَةِ العُبُودِيَّةِ لِلْعَلِيِّ العَظِيمِ، فَكُلُّ حَيَاةٍ تَسْتَمِدُّ بَقَاءَهَا مِنْ قَيُّومِيَّتِهِ وَلَا سُلْطَانَ فِي الوُجُودِ إِلَّا لِلهِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

حُرِّيَّةُ القَلْبِ وَعُرْوَةُ الوُثْقَى

صَدَى {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 256]

أَتَنَفَّسُ نَسِيمَ الحُرِّيَّةِ الرُّوحِيَّةِ الصَّادِقَةِ فَأَرَى الإِيمَانَ زَهْرَةً تَتَفَتَّحُ بِالرِّضَا وَالِاخْتِيَارِ وَلَا تَنْمُو تَحْتَ سِيَاطِ القَهْرِ وَالإِكْرَاهِ، فَيَسْقُطُ فِي وِجْدَانِي وَهْمُ الفَرْضِ القَسْرِيِّ بَعْدَ أَنْ انْبَلَجَ فَجْرُ الرُّشْدِ وَانْفَصَلَ بِوُضُوحٍ تَامٍّ عَنْ ظُلُمَاتِ الغَيِّ وَالضَّلَالِ، وَكَمْ تَعَلَّقَتْ يَدَايَ فِي المَاضِي بِحِبَالِ الطَّاغُوتِ الوَاهِيَةِ قَبْلَ أَنْ أَكْسِرَ أَصْنَامَ الهَوَى وَأَقْبِضَ بِكُلِّ قُوَّتِي عَلَى العُرْوَةِ الوُثْقَى الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ أَبَدًا، أَرَى المتَسَلِّقَ فَوْقَ هَاوِيَةِ الفَنَاءِ يُمْسِكُ بِسِلْسِلَةٍ فُولَاذِيَّةٍ مَشْدُودَةٍ إِلَى عَرْشِ السَّمَاءِ فَيَنْجُو مِنَ السُّقُوطِ بَيْنَمَا يَهْوِي المتَمَسِّكُونَ بِخُيُوطِ العَنْكَبُوتِ فِي قَاعِ الظَّلَامِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّوَازُنَ المعْجِزَ الَّذِي يَحْتَرِمُ إِرَادَةَ الإِنْسَانِ فِي الِاخْتِيَارِ ثُمَّ يَضْمَنُ لَهُ النَّجَاةَ الأَبَدِيَّةَ إِذَا كَفَرَ بِالطَّاغُوتِ وَأَسْلَمَ قَلْبَهُ لِلسَّمِيعِ العَلِيمِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي إِلَى قَنَاعَةٍ حُرَّةٍ تَنْبُعُ مِنْ أَعْمَاقِ البَصِيرَةِ وَتَمْنَحُ رُوحِي ثَبَاتًا

لَا تُزَعْزِعُهُ عَوَاصِفُ الشُّبُهَاتِ، فَكُلُّ حَبْلٍ نَتَعَلَّقُ بِهِ دُونَ السَّمَاءِ مَقْطُوعٌ وَلَا عُرْوَةَ تَعْصِمُ مِنَ الهَلَاكِ إِلَّا الإِيمَانُ بِاللهِ.

إِشْرَاقُ الوِلَايَةِ وَظُلُمَاتُ الطَّاغُوتِ

صَدَى {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: 257]

أَمْشِي فِي مَوْكِبِ النُّورِ تَحْتَ رِعَايَةِ الوَلِيِّ الأَعْظَمِ فَأَرَى يَدَ اللُّطْفِ الإِلَهِيِّ تَنْتَشِلُ المؤْمِنِينَ مِنْ قَاعِ الظُّلُمَاتِ المتَرَاكِمَةِ إِلَى فَضَاءِ اليَقِينِ المشْرِقِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي صَدْرِي رُعْبُ الوَحْدَةِ فِي هَذَا العَالَمِ المرْتَبِكِ بَعْدَ أَنْ أَدْرَكْتُ أَنَّ الخَالِقَ نَفْسَهُ يَتَوَلَّى تَرْبِيَةَ قُلُوبِ الصَّادِقِينَ وَإِخْرَاجَهُمْ مِنَ الحَيْرَةِ، وَكَمْ تَخَبَّطَتْ أَقْدَامِي فِي دَيَاجِيرِ الشَّكِّ وَالغَفْلَةِ حِينَ سَلَّمْتُ زِمَامَ رُوحِي لِأَوْلِيَاءِ الطَّاغُوتِ الَّذِينَ يُطْفِئُونَ فِطْرَةَ النُّورِ وَيَجُرُّونَ أَتْبَاعَهُمْ إِلَى عَتْمَةِ الجَحِيمِ، أَتَأَمَّلُ الفَجْرَ الصَّادِقَ كَيْفَ يَسْحَبُ خُيُوطَ اللَّيْلِ البَهِيمِ بِرِفْقٍ لِيَغْمُرَ الأَرْضَ بِالضِّيَاءِ بَيْنَمَا يَغُوصُ الخُفَّاشُ الأَعْمَى فِي أَعْمَاقِ الكَهْفِ المظْلِمِ هَرَبًا مِنْ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الدَّافِئَةِ، فَمَا أَشَدَّ البَوْنَ بَيْنَ مَنْ يَتَوَلَّاهُ الرَّحْمَنُ فَيُخْرِجُهُ إِلَى نُورِ الهِدَايَةِ وَبَيْنَ مَنْ يَتَبِعُ الطَّاغُوتَ فَيَنْتَهِي بِهِ المسِيرُ إِلَى خُلُودٍ أَبَدِيٍّ فِي النَّارِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ وِلَايَتِي لِلْحَقِّ إِلَى رِحْلَةِ صُعُودٍ مُسْتَمِرَّةٍ أَخْرُجُ فِيهَا كُلَّ يَوْمٍ مِنْ ظُلْمَةِ الجَهْلِ وَالهَوَى إِلَى رَحَابِ المعْرِفَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ، فَكُلُّ نُورٍ يُفْرَدُ فِيهِ السَّبِيلُ هُوَ النُّورُ الوَاحِدُ المنْبَثِقُ مِنْ وِلَايَةِ اللهِ.

حُجَّةُ الشَّمْسِ وَهُتَانُ الطُّغْيَانِ

صَدَى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: 258]

أَقِفُ فِي بَلَاطِ المُلْكِ الزَّائِفِ أُرَاقِبُ مُنَاظَرَةَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ حِينَ يَنْتَفِخُ الطَّاغِيَةُ بِنِعْمَةِ السُّلْطَانِ فَيَدَّعِي الرُّبُوبِيَّةَ وَيَتَحَدَّى خَالِقَ الأَكْوَانِ، فَيَنْكَسِرُ أَمَامَ بَصِيرَتِي غُرُورُ القُوَّةِ البَشَرِيَّةِ حِينَ تَصْفَعُهَا

حُجَّةُ إِبْرَاهِيمَ البَسِيطَةُ كَالشَّمْسِ وَتُخْرِسُ لِسَانَ النُّمْرُودِ المَغْرُورِ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكَمْ انْخَدَعَتِ العُيُونُ بِبَهْرَجِ العُرُوشِ وَتَحَكُّمِ الجَلَّادِينَ فِي الرِّقَابِ قَبْلَ أَنْ تَنْكُشِفَ عَوْرَةُ العَجْزِ البَشَرِيِّ أَمَامَ قَانُونِ الشُّرُوقِ وَالغُرُوبِ الَّذِي لَا يَمْلِكُهُ إِلَّا القَدِيرُ، أَرَى البَعُوضَةَ الصَّغِيرَةَ تَطِنُّ فَوْقَ رَأْسِ الجَبَّارِ فَتُزَلْزِلُ عَرْشَهُ بَيْنَمَا تَسْبَحُ الشَّمْسُ العَظِيمَةُ فِي مَدَارِهَا المَرْسُومِ لَهَا مُنْذُ الأَزَلِ دُونَ أَنْ يَمْلِكَ طَاغِيَةٌ تَغْيِيرَ مَسَارِهَا مِقْدَارَ شَعْرَةٍ، فَمَا أَعْظَمَ ذَلِكَ البُهْتَانَ الَّذِي يُلْجِمُ الكَافِرَ العَنِيدَ حِينَ يُوَاجَهُ بِحَقِيقَةِ الكَوْنِ السَّاطِعَةِ فَيَبْقَى مَشْدُوهًا عَاجِزًا مَحْرُومًا مِنْ نُورِ الهِدَايَةِ بِسَبَبِ ظُلْمِهِ وَطُغْيَانِهِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ حُجَّةُ التَّوْحِيدِ فِي عَقْلِي إِلَى سَيْفٍ بَاتِرٍ يَقْطَعُ أَوْهَامَ المُتَأَلِّهِينَ فِي الأَرْضِ وَيُرْجِعُ العَظَمَةَ كُلَّهَا لِمُحَرِّكِ الأَفْلَاكِ، فَكُلُّ سُلْطَانٍ يَتَكَبَّرُ عَلَى خَالِقِهِ يَنْتَهِي إِلَى الخِزْيِ وَالبُهْتَانِ وَلَا هِدَايَةَ تَنَالُ الظَّالِمِينَ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

مِئَةُ عَامٍ وَبَعْثُ العِظَامِ

صَدَى {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 259]

أَقِفُ بَيْنَ أَطْلَالِ القَرْيَةِ الخَاوِيَةِ أُرَاقِبُ سُكُونَ المَوْتِ وَهُوَ يُخَيِّمُ عَلَى العُرُوشِ المُتَهَدِّمَةِ فَأَرَى الزَّمَنَ يَتَوَقَّفُ فِي قَبْضَةِ القُدْرَةِ لِيُجِيبَ عَنْ سُؤَالِ الحَيْرَةِ وَالتَّعَجُّبِ، فَيَتَلَاشَى فِي وِجْدَانِي قُصُورُ القِيَاسِ البَشَرِيِّ الَّذِي يَسْتَبْعِدُ عَوْدَةَ الحَيَاةِ إِلَى الرُّفَاتِ البَالِيَةِ وَيَنْسَى أَنَّ الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ لَا يُعْجِزُهُ إِعَادَتُهَا فِي لَمْحِ البَصَرِ، وَكَمْ حَارَ عَقْلِي أَمَامَ انْقِلَابِ الأَحْوَالِ وَبَعْثِ الأَرْوَاحِ قَبْلَ أَنْ أَشْهَدَ آيَةَ الطَّعَامِ الطَّازَجِ بَعْدَ مِئَةِ عَامٍ وَالعِظَامِ النَّخِرَةِ وَهِيَ تَتَجَمَّعُ وَتُكْسَى لَحْمًا أَمَامَ العَيْنِ، أَتَأَمَّلُ الأَرْضَ المَيْتَةَ فِي فَصْلِ الجَفَافِ كَيْفَ تَظَلُّ صَامِتَةً تَحْتَ الرَّمَادِ ثُمَّ تَنْتَفِضُ فَجْأَةً بِالخُضْرَةِ وَالأَزْهَارِ عِنْدَ أَوَّلِ أَمْرٍ يَهْبِطُ مِنَ السَّمَاءِ فَيُحْيِي مَا ظَنَّهُ النَّاسُ قَدِ انْتَهَى إِلَى الأَبَدِ، فَمَا أَعْظَمَ تِلْكَ اللَّحْظَةَ الفَاصِلَةَ حِينَ يَنْكَشِفُ الغِطَاءُ عَنِ البَصِيرَةِ فَيَهْتِفُ القَلْبُ بِيَقِينٍ رَاسِخٍ مُعْلِنًا أَنَّ القُدْرَةَ المُطْلَقَةَ تَتَجَاوَزُ

حُدُودَ الزَّمَانِ وَالمكَانِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي إِلَى المَوْتِ وَالبَعْثِ إِلَى طُمَأْنِينَةٍ عَمِيقَةٍ أَرَى فِيهَا الزَّمَنَ مُجَرَّدَ خَادِمٍ فِي مَمْلَكَةِ الخَالِقِ يَبْسُطُهُ وَيَطْوِيهِ كَيْفَ يَشَاءُ، فَكُلُّ مَا يَمُوتُ فِي هَذَا الكَوْنِ مَرْهُونٌ بِكَلِمَةِ البَعْثِ وَلَا يُعْجِزُ شَيْءٌ قُدْرَةَ اللهِ.

طُيُورُ الخَلِيلِ وَطُمَأْنِينَةُ القَلْبِ

صَدَى {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: 260]

أَقِفُ مَعَ الخَلِيلِ عَلَى قِمَمِ الجِبَالِ المتَبَاعِدَةِ أَرْقُبُ أَشْلَاءَ الطُّيُورِ المُمَزَّقَةِ وَهِيَ تَتَلَاحَمُ فِي الهَوَاءِ لِتُحَلِّقَ مِنْ جَدِيدٍ نَحْوَ نِدَاءِ الحَيَاةِ، فَيَسْتَقِرُّ فِي صَدْرِي ذَلِكَ الفَرْقُ اللَّطِيفُ بَيْنَ يَقِينِ العَقْلِ المؤْمِنِ وَبَيْنَ طُمَأْنِينَةِ القَلْبِ الَّذِي يَتُوقُ إِلَى مُعَايَنَةِ أَسْرَارِ القُدْرَةِ رَأْيَ العَيْنِ، وَكَمْ تَشَوَّقَتْ رُوحِي فِي خَلَوَاتِ التَّفَكُّرِ إِلَى رُؤْيَةِ كَيْفِيَّةِ الخَلْقِ وَالبَعْثِ لِتَسْكُنَ خَوَاطِرُ القَلْبِ وَتَزْدَادَ نُورًا عَلَى نُورٍ دُونَ شَكٍّ أَوِ ارْتِيَابٍ، أَرَى قَطَرَاتِ النَّدَى المبَعْثَرَةَ عَلَى أَوْرَاقِ الشَّجَرِ عِنْدَ الفَجْرِ كَيْفَ تَتَجَمَّعُ بِأَمْرِ الجَاذِبِيَّةِ لِتُشَكِّلَ لُؤْلُؤَةً وَاحِدَةً صَافِيَةً تَعْكِسُ صُورَةَ الشَّمْسِ المشْرِقَةِ فِي السَّمَاءِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الحَنَانَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي يُجِيبُ سُؤَالَ الحَبِيبِ بِتَجْرِبَةٍ كَوْنِيَّةٍ حَيَّةٍ تُثْبِتُ أَنَّ ذَرَّاتِ الوُجُودِ كُلَّهَا تَسْمَعُ النِّدَاءَ وَتُسَارِعُ إِلَى التَّلْبِيَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ تَسَاؤُلَاتِي الرُّوحِيَّةُ إِلَى مَعَارِجَ لِلْيَقِينِ أَطْلُبُ فِيهَا الطُّمَأْنِينَةَ بِأَدَبِ الأَنْبِيَاءِ وَأَشْهَدُ فِيهَا عَظَمَةَ التَّدْبِيرِ الإِلَهِيِّ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ، فَكُلُّ شَتَاتٍ فِي هَذَا الكَوْنِ يَجْتَمِعُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ وَلَا يَتَعَاظَمُ شَيْءٌ عَلَى اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ.

سَبْعُ سَنَابِلَ وَضِعْفُ المشِيئَةِ

صَدَى {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 261]

أُلْقِي حَبَّةَ العَطَاءِ فِي تُرْبَةِ الإِخْلَاصِ فَأَرَاهَا تَنْفَجِرُ عَنْ غَابَةٍ مِنَ السَّنَابِلِ الذَّهَبِيَّةِ الَّتِي تَتَمَايَلُ بِسَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ وَتَمْتَدُّ إِلَى مَا لَا تَحْصُرُهُ الأَرْقَامُ، فَيَتَضَاءَلُ فِي عَيْنِي رِبْحُ التِّجَارَاتِ الأَرْضِيَّةِ البَطِيئَةِ أَمَامَ هَذِهِ البُورْصَةِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي تُضَاعِفُ البَذْرَةَ الصَّغِيرَةَ إِلَى جِبَالٍ مِنَ الحَسَنَاتِ، وَكَمْ حَسِبْتُ الإِنْفَاقَ نَقْصًا فِي الكِيسِ وَقِلَّةً فِي اليَدِ قَبْلَ أَنْ تُفَتِّحَ هَذِهِ الآيَةُ بَصِيرَتِي عَلَى قَانُونِ النَّمَاءِ الرُّوحِيِّ الَّذِي يُحَوِّلُ الفَنَاءَ إِلَى خُلُودٍ، أَتَأَمَّلُ الفَلَّاحَ الوَاثِقَ بِأَرْضِهِ كَيْفَ يَنْثُرُ القَمْحَ فِي التُّرَابِ وَهُوَ يَبْتَسِمُ لِأَنَّهُ يَرَى بِعَيْنِ اليَقِينِ حُقُولَ الحَصَادِ الوَفِيرِ تَمْلَأُ الأُفُقَ بَعْدَ أَشْهُرٍ قَلِيلَةٍ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الكَرَمَ الوَاسِعَ الَّذِي لَا يَقِفُ عِنْدَ حَدِّ السَّبْعِمِئَةِ بَلْ يَفْتَحُ بَابَ المُضَاعَفَةِ بِغَيْرِ حِسَابٍ لِمَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ وَطَابَ مَالُهُ عِنْدَ الوَاسِعِ العَلِيمِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ كَفِّي إِلَى سَحَابَةٍ مُمْطِرَةٍ تَزْرَعُ الخَيْرَ فِي كُلِّ أَرْضٍ عَطْشَى وَتَنْتَظِرُ مَوْسِمَ الحَصَادِ الأَكْبَرِ تَحْتَ ظِلِّ العَرْشِ، فَكُلُّ حَبَّةٍ نُمْسِكُهَا فِي المَخَازِنِ يَأْكُلُهَا السُّوسُ وَلَا نَمَاءَ أَبَدِيٌّ إِلَّا فِيمَا نَزْرَعُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ.

نَقَاءُ الصَّدَقَةِ وَمِعْوَلُ المَنِّ

صَدَى {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 262]

أُحَصِّنُ عَطَائِي بِسِيَاجِ الصَّمْتِ وَالتَّوَاضُعِ فَأَرَى الصَّدَقَةَ النَّقِيَّةَ تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ كَالطَّيْرِ الأَبْيَضِ دُونَ أَنْ تُثْقِلَ جَنَاحَيْهَا سِهَامُ المَنِّ وَالأَذَى، فَيَنْكَسِرُ فِي دَاخِلِي ذَلِكَ الغُرُورُ الخَفِيُّ الَّذِي يُعَيِّرُ الفَقِيرَ بِحَاجَتِهِ وَيَجْرَحُ كَرَامَةَ المَكْسُورِ بِكَلِمَةٍ تَهْدِمُ مَا بَنَتْهُ اليَدُ المُعْطِيَةُ، وَكَمْ أَحْرَقَتْ أَلْسِنَةُ المَانِّينَ حُقُولَ الحَسَنَاتِ الَّتِي تَعِبُوا فِي زِرَاعَتِهَا فَعَادُوا يَوْمَ الحَصَادِ بِأَيْدٍ خَاوِيَةٍ وَقُلُوبٍ تَشْتَعِلُ بِالنَّدَمِ وَالحَسْرَةِ، أَرَى المِطَرَ العَذْبَ يَنْزِلُ بِهُدُوءٍ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ لِيَرْوِيَ الزُّهُورَ العَطْشَى دُونَ أَنْ يَكْسِرَ سَاقَهَا الرَّقِيقَةَ أَوْ يَمُنَّ عَلَيْهَا بِالقَطَرَاتِ الَّتِي أَحْيَتْهَا مِنْ بَعْدِ ذُبُولٍ، فَمَا أَعْذَبَ هَذِهِ الجَائِزَةَ الكُبْرَى الَّتِي تَمْنَحُ المُحْسِنِينَ الأُمَنَاءَ أَجْرَهُمْ كَامِلًا عِنْدَ رَبِّهِمْ وَتَنْزِعُ مِنْ صُدُورِهِمْ كُلَّ خَوْفٍ مِنَ القَادِمِ أَوْ حُزْنٍ عَلَى المَاضِي، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ صَدَقَاتِي إِلَى سِرٍّ بَيْنِي وَبَيْنَ السَّمَاءِ أَنْسَاهُ بِمُجَرَّدِ خُرُوجِهِ مِنْ كَفِّي وَأَصُونُ بِهِ مَاءَ وَجْهِ السَّائِلِينَ، فَكُلُّ عَطَاءٍ يَتْبَعُهُ مَنٌّ أَوْ أَذًى هُوَ بِنَاءٌ مَهْدُومٌ وَلَا أَمَانَ مِنَ الخَوْفِ وَالحُزْنِ إِلَّا لِلْمُخْلِصِينَ عِنْدَ اللهِ.

عُذُوبَةُ الكَلِمَةِ وَغِنَى الحَلِيمِ

صَدَى {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} [البقرة: 263]

أَزِنُ الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ فِي مِيزَانِ السَّمَاءِ فَأَرَاهَا تَرْجَحُ بِجِبَالٍ مِنَ الذَّهَبِ الَّذِي يُلْقَى فِي وُجُوهِ الفُقَرَاءِ مَمْزُوجًا بِالجَفَاءِ وَالإِهَانَةِ، فَيَتَجَلَّى لِي أَنَّ جَبْرَ الخَوَاطِرِ بِاللِّسَانِ الرَّحِيمِ وَمَغْفِرَةَ زَلَّاتِ السَّائِلِينَ أَحَبُّ إِلَى الخَالِقِ مِنْ مَالٍ يَجْرَحُ الكِبْرِيَاءَ الإِنْسَانِيَّةَ، وَكَمْ ظَنَّ الأَغْنِيَاءُ أَنَّ دَرَاهِمَهُمْ تَشْتَرِي لَهُمْ حَقَّ التَّعَالِي عَلَى عِبَادِ السَّمَاءِ وَنَسُوا أَنَّ الغَنِيَّ المُطْلَقَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى صَدَقَةٍ تُلَوِّثُهَا الأَنَانِيَّةُ وَالكِبْرُ، أَتَأَمَّلُ النَّسِيمَ البَارِدَ الَّذِي يَمْسَحُ عَرَقَ التَّعَبِ عَنْ جَبِينِ العَابِرِ بِكَلِمَةِ تَرْحِيبٍ دَافِئَةٍ كَيْفَ يُحْيِي رُوحَهُ أَكْثَرَ مِنْ كُوبِ مَاءٍ عَكِرٍ يُقَدَّمُ لَهُ بِعُبُوسٍ وَازْدِرَاءٍ، فَمَا أَعْظَمَ اقْتِرَانَ الغِنَى بِالحِلْمِ فِي خَاتِمَةِ هَذِهِ الآيَةِ لِيُعْلِنَ أَنَّ السَّمَاءَ غَنِيَّةٌ عَنْ إِنْفَاقِ المانِّينَ وَحَلِيمَةٌ لَا تُعَاجِلُهُمْ بِالعُقُوبَةِ رَغْمَ قُبْحِ صَنِيعِهِمْ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ لُغَتِي مَعَ النَّاسِ إِلَى بَلْسَمٍ يَشْفِي الجِرَاحَ حَتَّى حِينَ تَخْلُو يَدِي مِنَ المالِ فَأَجُودُ بِالِابْتِسَامَةِ وَالعَفْوِ وَالدُّعَاءِ، فَكُلُّ مَالٍ يَكْسِرُ القُلُوبَ مَرْدُودٌ عَلَى صَاحِبِهِ وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الطَّيِّبَ اللهُ الغَنِيُّ الحَلِيمُ.

صَخْرَةُ الرِّيَاءِ وَمَطَرُ الإِبْطَالِ

صَدَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 264]

أَنْظُرُ إِلَى الصَّخْرَةِ المُلْسَاءِ المُغَطَّاةِ بِقِشْرَةٍ رَقِيقَةٍ مِنَ التُّرَابِ فَأَرَى المَطَرَ الغَزِيرَ يَغْسِلُهَا فِي لَحْظَةٍ لِيَكْشِفَ عَنْ صَلَابَتِهَا الجَرْدَاءِ الَّتِي لَا تُنْبِتُ عُشْبًا وَلَا زَهْرًا، فَيَرْتَجِفُ فِي صَدْرِي ذَلِكَ التَّشْبِيهُ المُخِيفُ الَّذِي يَسْوِي بَيْنَ مَنْ يُبْطِلُ صَدَقَتَهُ بِالمَنِّ وَالأَذَى وَبَيْنَ المُرَائِي الَّذِي يُنْفِقُ لِأَعْيُنِ النَّاسِ بِلَا إِيمَانٍ، وَكَمْ جَمَعَتِ النُّفُوسُ أَكْوَامًا مِنَ التُّرَابِ الظَّاهِرِيِّ فَوْقَ قُلُوبٍ صَخْرِيَّةٍ قَاسِيَةٍ ثُمَّ فُوجِئَتْ يَوْمَ الوَابِلِ العَظِيمِ أَنَّ مَوَازِينَهَا صَلْدَاءُ لَا تَحْمِلُ حَبَّةَ خَيْرٍ وَاحِدَةً، أَرَى السَّرَابَ اللَّامِعَ فِي كَبِدِ الصَّحْرَاءِ يَخْدَعُ العَطْشَى مِنْ بَعِيدٍ ثُمَّ يَتَلَاشَى عِنْدَ الِاقْتِرَابِ فَلَا يَجِدُ المُسَافِرُ سِوَى الرِّمَالِ المُحْرِقَةِ

وَالحَسْرَةِ القَاتِلَةِ عَلَى مَا كَسَبَ وَتَعِبَ، فَمَا أَشَدَّ خَسَارَةَ الَّذِينَ يَبْنُونَ أَعْمَالَهُمْ لِتَصْفِيقِ البَشَرِ ثُمَّ يَقِفُونَ يَوْمَ الحِسَابِ عَاجِزِينَ عَنِ الِانْتِفَاعِ بِذَرَّةٍ مِمَّا جَمَعُوا فِي دُنْيَاهُمْ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ مُرَاقَبَتِي لِنِيَّتِي إِلَى حَفْرٍ عَمِيقٍ فِي تُرْبَةِ الإِخْلَاصِ لِتَكُونَ جُذُورُ أَعْمَالِي ضَارِبَةً فِي اليَقِينِ لَا غُبَارًا فَوْقَ صَفْوَانٍ أَمْلَسَ، فَكُلُّ عَمَلٍ يُصْنَعُ لِغَيْرِ السَّمَاءِ يَجْرُفُهُ السَّيْلُ وَلَا هِدَايَةَ تَشْمَلُ الجَاحِدِينَ لِآيَاتِ اللهِ.

جَنَّةُ الرَّبْوَةِ وَمَطَرُ الإِخْلَاصِ

صَدَى {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: 265]

أَصْعَدُ بِبَصِيرَتِي إِلَى تِلْكَ الرَّبْوَةِ العَالِيَةِ المُشْرِفَةِ عَلَى النُّورِ فَأَرَى البُسْتَانَ المُخْضَرَّ يُؤْتِي ثِمَارَهُ ضِعْفَيْنِ تَحْتَ رَذَاذِ المَطَرِ الخَفِيفِ أَوْ هُطُولِ الوَابِلِ الغَزِيرِ، فَيَنْتَعِشُ فِي دَاخِلِي يَقِينُ المُخْلِصِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ رِضَا الخَالِقِ وَتَثْبِيتًا لِأَرْوَاحِهِمْ عَلَى صِرَاطِ الصِّدْقِ وَالعَطَاءِ، وَكَمْ ظَنَنْتُ أَنَّ العَطَاءَ القَلِيلَ لَا يَصْنَعُ جَنَّةً قَبْلَ أَنْ أَرَى كَيْفَ يُغْنِي الطَّلُّ اللَّطِيفُ تِلْكَ الحَدِيقَةَ المُبَارَكَةَ فَتُزْهِرُ وَتُثْمِرُ فِي كُلِّ الفُصُولِ بِلَا انْقِطَاعٍ، أَتَأَمَّلُ الشَّجَرَةَ المَغْرُوسَةَ فِي التُّرْبَةِ الخَصْبَةِ فَوْقَ التَّلِّ المُشْمِسِ كَيْفَ تَشْرَبُ النَّدَى الصَّبَاحِيَّ فَتَتَفَتَّحُ أَغْصَانُهَا بِأَطْيَبِ الثِّمَارِ وَأَعْذَبِ الظِّلَالِ لِلْعَابِرِينَ وَالطُّيُورِ، فَمَا أَجْمَلَ هَذَا الوَعْدَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَجْعَلُ الإِخْلَاصَ تُرْبَةً حَيَّةً تُضَاعِفُ القَلِيلَ وَالكَثِيرَ تَحْتَ رِعَايَةِ البَصِيرِ الَّذِي يَرَى خَفَقَاتِ القُلُوبِ قَبْلَ حَرَكَةِ الأَيْدِي، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ نَفَقَاتِي الصَّغِيرَةُ وَالكَبِيرَةُ إِلَى أَشْجَارٍ أَغْرِسُهَا فِي بُسْتَانِ الرِّضَا لِأَجِدَ ظِلَّهَا وَثَمَرَهَا يَوْمَ يَشْتَدُّ الهَجِيرُ، فَكُلُّ عَطَاءٍ يَنْبُتُ فِي أَرْضِ الإِخْلَاصِ يَتَضَاعَفُ أُكُلُهُ وَلَا يَغِيبُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ عَنْ عَيْنِ اللهِ البَصِيرِ.

إِعْصَارُ النَّارِ وَحَسْرَةُ الشَّيْخُوخَةِ

صَدَى {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} [البقرة: 266]

أَقِفُ مَذْعُورًا أَمَامَ مَشْهَدِ الشَّيْخِ الهَرِمِ وَهُوَ يُرَاقِبُ بُسْتَانَهُ العَامِرَ يَتَحَوَّلُ إِلَى رَمَادٍ أَسْوَدَ تَحْتَ عَاصِفَةٍ مِنَ النَّارِ بَيْنَمَا يُحِيطُ بِهِ أَطْفَالُهُ الضُّعَفَاءُ بِالعَجْزِ وَالبُكَاءِ، فَيَنْفَطِرُ فِي صَدْرِي ذَلِكَ الغُرُورُ الَّذِي يُؤَجِّلُ التَّوْبَةَ وَالإِخْلَاصَ وَيَسْمَحُ لِإِعْصَارِ الرِّيَاءِ وَالمِنِّ أَنْ يَلْتَهِمَ حَسَنَاتِ العُمُرِ عِنْدَ نِهَايَةِ الطَّرِيقِ، وَكَمْ زَرَعْتُ فِي حَقْلِ حَيَاتِي نَخِيلًا وَأَعْنَابًا مِنْ أَعْمَالِ الخَيْرِ ثُمَّ غَفَلْتُ عَنْ حِرَاسَتِهَا مِنْ رِيَاحِ العُجْبِ وَالمَعَاصِي الَّتِي تَحْرِقُ الحَصَادَ فِي لَحْظَةِ انْكِسَارٍ، أَرَى السَّفِينَةَ المَشْحُونَةَ بِالكُنُوزِ الثَّمِينَةِ تَعْبُرُ المحِيطَ بِسَلَامٍ طُولَ الرِّحْلَةِ ثُمَّ تَشْتَعِلُ فِيهَا النِّيرَانُ عَلَى بُعْدِ أَمْتَارٍ قَلِيلَةٍ مِنَ المِينَاءِ فَيَضِيعُ التَّعَبُ كُلُّهُ فِي غَمْضَةِ عَيْنٍ، فَمَا أَبْلَغَ هَذَا المَثَلَ القُرْآنِيَّ الَّذِي يَهُزُّ العُقُولَ الغَافِلَةَ لِتَتَفَكَّرَ فِي عَاقِبَةِ إِحْبَاطِ الأَعْمَالِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا نَقْدِرُ فِيهِ عَلَى إِعَادَةِ الزِّرَاعَةِ مِنْ جَدِيدٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيَاتِي إِلَى حِرَاسَةٍ دَائِمَةٍ لِبُسْتَانِ أَعْمَالِي أُطْفِئُ عَنْهُ شَرَارَ الكِبْرِ وَالأَذَى لِيَبْقَى أَخْضَرَ مُثْمِرًا حَتَّى اللِّقَاءِ، فَكُلُّ جَنَّةٍ نَبْنِيهَا بِغَيْرِ تَقْوَى تَلْتَهِمُهَا نَارُ الحَسْرَةِ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِالتَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللهِ.

طَيِّبَاتُ الكَسْبِ وَغِنَى الحَمِيدِ

صَدَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [البقرة: 267]

أَنْتَقِي أَجْوَدَ مَا فِي كَفِّي وَأَطْيَبَ ثِمَارِ أَرْضِي لِأُقَدِّمَهُ هَدِيَّةً لِلسَّمَاءِ فَأَرَى المَلِكَ الحَقَّ لَا يَقْبَلُ إِلَّا الجَوْهَرَ النَّقِيَّ الَّذِي تَرْضَاهُ النَّفْسُ لِنَفْسِهَا، فَيَسْقُطُ فِي وِجْدَانِي ذَلِكَ الشُّحُّ المخْجِلُ الَّذِي يَخْتَارُ الرَّدِيءَ وَالفَاسِدَ لِيَتَصَدَّقَ بِهِ بَيْنَمَا يَحْتَفِظُ بِالطَّيِّبِ النَّفِيسِ لِشَهَوَاتِ الجَسَدِ وَمَتَاعِهِ، وَكَمْ مَدَّ البَشَرُ أَيْدِيَهُمْ بِبَقَايَا المَائِدَةِ وَحُطَامِ المَتَاعِ الَّذِي تَعَافُهُ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ يُقْرِضُونَ السَّمَاءَ قَرْضًا حَسَنًا يَسْتَحِقُّ المضَاعَفَةَ وَالثَّوَابَ، أَتَأَمَّلُ البُسْتَانِيَّ الَّذِي يُقَدِّمُ لِلْمَلِكِ سَلَّةً مِنَ الثِّمَارِ الذَّابِلَةِ الَّتِي يَغْمِضُ عَيْنَيْهِ كَيْ لَا يَرَى قُبْحَهَا بَيْنَمَا يَخْبِئُ الثِّمَارَ اليَانِعَةَ فِي جَيْبِهِ طَمَعًا وَجَهْلًا بِقَدْرِ المَلِكِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ المهَابَةَ الَّتِي تَجْتَمِعُ فِي صِفَتَيِ الغَنِيِّ الحَمِيدِ لِتُعْلِنَ أَنَّ الخَالِقَ غَنِيٌّ عَنْ رَدِيءِ أَمْوَالِنَا وَمَحْمُودٌ عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ أَخْرَجَهَا لَنَا مِنَ الأَرْضِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ صَدَقَاتِي إِلَى تَحَرٍّ دَقِيقٍ لِأَنْفَسِ مَا

أَمْلِكُ أُقَدِّمُهُ بِحُبٍّ وَتَعْظِيمٍ لِمَنْ وَهَبَنِي الرِّزْقَ كُلَّهُ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي، فَكُلُّ خَبِيثٍ نُخْرِجُهُ هُوَ شَاهِدٌ عَلَى بُخْلِ النَّفْسِ وَلَا يَلِيقُ بِمَقَامِ العُبُودِيَّةِ إِلَّا الطَّيِّبُ لِلهِ الغَنِيِّ الحَمِيدِ.

وَسْوَسَةُ الفَقْرِ وَمَغْفِرَةُ الوَاسِعِ

صَدَى {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 268]

أُصْغِي إِلَى هَمْسَتَيْنِ تَتَصَارَعَانِ فِي أَعْمَاقِ الصَّدْرِ عِنْدَ كُلِّ نَفَقَةٍ فَأَرَى الشَّيْطَانَ يَرْسُمُ أَشْبَاحَ الجُوعِ وَالعَوَزِ لِيَشُلَّ اليَدَ عَنِ العَطَاءِ وَيَدْفَعَهَا إِلَى الفَحْشَاءِ وَالبُخْلِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي دَاخِلِي ذَلِكَ الرُّعْبُ الوَهْمِيُّ الَّذِي يُخِيفُنِي مِنْ نَفَادِ المَالِ حِينَ أَسْمَعُ وَعْدَ السَّمَاءِ الدَّافِئَ بِالمَغْفِرَةِ وَالفَضْلِ وَالخَلَفِ العَظِيمِ، وَكَمْ جَلَسْتُ أَسِيرًا لِحِسَابَاتِ الخَسَارَةِ وَالرِّبْحِ الدُّنْيَوِيَّةِ أُصَدِّقُ نُبُوءَةَ الفَقْرِ الكَاذِبَةِ وَأُكَذِّبُ بُشْرَى الخَالِقِ الَّذِي تَسَعُ خَزَائِنُهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، أَرَى البِئْرَ العَمِيقَةَ كُلَّمَا أَخْرَجْتَ مِنْهَا الدِّلَاءَ لِسَقْيِ العَطْشَى تَفَجَّرَتْ عُيُونُهَا بِمَاءٍ أَعْذَبَ وَأَغْزَرَ بَيْنَمَا تَأْسَنُ البِئْرُ المَهْجُورَةُ الَّتِي يَبْخَلُ صَاحِبُهَا بِمَائِهَا خَوْفًا مِنَ الجَفَافِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الفَرْقَ بَيْنَ عَدُوٍّ يُخَوِّفُكَ بِالفَقْرِ لِيُوقِعَكَ فِي البُخْلِ وَالمَعْصِيَةِ وَبَيْنَ رَبٍّ وَاسِعٍ عَلِيمٍ يَعِدُكَ بِمَحْوِ الذُّنُوبِ وَزِيَادَةِ الرِّزْقِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ لَحَظَاتُ التَّرَدُّدِ فِي نَفْسِي إِلَى انْطِلَاقَةٍ وَاثِقَةٍ أُكَذِّبُ فِيهَا وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ وَأَرْتَمِي فِي حِضْنِ الوَعْدِ الإِلَهِيِّ بِسَخَاءٍ وَيَقِينٍ، فَكُلُّ خَوْفٍ مِنَ الفَقْرِ عِنْدَ الإِنْفَاقِ هُوَ وَحْيُ الشَّيْطَانِ وَلَا سَعَةَ وَلَا فَضْلَ إِلَّا مِنْ خَزَائِنِ اللهِ الوَاسِعِ العَلِيمِ.

نُورُ الحِكْمَةِ وَيَقَظَةُ الأَلْبَابِ

صَدَى {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [البقرة: 269]

أَقِفُ عَلَى قِمَّةِ البَصِيرَةِ فَأَرَى الحِكْمَةَ شَمْسًا تُشْرِقُ فِي القَلْبِ الصَّافِي فَتَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ الصَّحِيحِ وَتَكْشِفُ أَسْرَارَ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ، فَيَتَقَزَّمُ فِي عَيْنِي كُلُّ مَا يَتَنَافَسُ عَلَيْهِ أَهْلُ الطِّينِ مِنْ

ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَجَاهٍ أَمَامَ هَذَا الخَيْرِ الكَثِيرِ الَّذِي يُوهَبُ لِمَنِ اصْطَفَاهُ الخَالِقُ، وَكَمْ جَمَعْتُ مِنَ المَعْلُومَاتِ وَالأَقْوَالِ المَبْعَثَرَةِ قَبْلَ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ الحِكْمَةَ نُورٌ يَقْذِفُهُ المَلِكُ فِي الرُّوحِ لِيُمَيِّزَ بِهِ العَبْدُ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ وَيُحْسِنَ التَّدْبِيرَ، أَتَأَمَّلُ المِصْبَاحَ الذَّهَبِيَّ المَصْنُوعَ بِإِتْقَانٍ كَيْفَ يَظَلُّ قِطْعَةً مِنَ المَعْدِنِ البَارِدِ فِي الظَّلَامِ حَتَّى تَمَسَّهُ شُعْلَةُ النُّورِ السَّمَاوِيَّةُ فَيُضِيءَ أَرْجَاءَ البَيْتِ كُلِّهِ وَيَهْدِي السَّائِرِينَ فِي الدَّرْبِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ المِنَّةَ الَّتِي لَا يَنَالُهَا إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ الَّذِينَ صَفَّوْا عُقُولَهُمْ مِنْ شَوَائِبِ الهَوَى وَفَتَحُوا قُلُوبَهُمْ لِتَذَكُّرِ آيَاتِ السَّمَاءِ وَحِكْمَتِهَا البَالِغَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ رِحْلَتِي فِي طَلَبِ المَعْرِفَةِ إِلَى تَضَرُّعٍ خَاشِعٍ أَسْأَلُ فِيهِ السَّمَاءَ نُورَ الحِكْمَةِ الَّذِي يَعْصِمُنِي مِنَ الزَّلَلِ وَيُبَصِّرُنِي بِعَوَاقِبِ الأُمُورِ، فَكُلُّ ثَرْوَةٍ تَخْلُو مِنَ الحِكْمَةِ هِيَ فَقْرٌ مُقَنَّعٌ وَلَا خَيْرَ كَثِيرَ يَدُومُ إِلَّا مَا وَهَبَهُ اللهُ لِأُولِي الأَلْبَابِ.

سِجِلُّ النَّفَقَةِ وَشَهَادَةُ العَلِيمِ

صَدَى {وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [البقرة: 270]

أُودِعُ نَفَقَتِي الصَّغِيرَةَ وَنَذْرِي الخَفِيَّ فِي خَزَائِنِ الغَيْبِ فَأَرَى السَّمَاءَ تُحْصِي كُلَّ دِرْهَمٍ وَكُلَّ عَهْدٍ بِدِقَّةٍ لَا يَغِيبُ عَنْهَا مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ، فَيَسْتَقِرُّ فِي وِجْدَانِي يَقِينُ المُرَاقَبَةِ الَّذِي يُغْنِينِي عَنْ شَهَادَةِ البَشَرِ وَيُحَذِّرُنِي مِنْ نَقْضِ النُّذُورِ أَوِ الظُّلْمِ فِي الحُقُوقِ وَالوُعُودِ، وَكَمْ أَخْفَى المُخْلِصُونَ صَدَقَاتِهِمْ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ فَوَجَدُوهَا مُسَجَّلَةً بِحُرُوفٍ مِنَ النُّورِ فِي صَحَائِفِ العَلِيمِ بَيْنَمَا انْكَشَفَ بُخْلُ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ مَنَعُوا الحَقَّ وَنَكَثُوا العُهُودَ، أَرَى البَذْرَةَ الدَّقِيقَةَ الَّتِي تَسْقُطُ فِي جَوْفِ الأَرْضِ بَعِيدًا عَنْ أَنْظَارِ الفَلَّاحِينَ كَيْفَ تَرْعَاهَا السَّمَاءُ بِالمَطَرِ وَالحَرَارَةِ حَتَّى تَخْرُجَ سُنْبُلَةً شَاهِدَةً عَلَى رِعَايَةِ الخَالِقِ الَّذِي لَا يَنْسَى شَيْئًا، فَمَا أَشَدَّ هَيْبَةَ هَذَا الوَعِيدِ الخَاتِمِ الَّذِي يُعْلِنُ أَنَّ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِحُقُوقِ العِبَادِ لَنْ يَجِدُوا نَصِيرًا يَحْمِيهِمْ عِنْدَ انْكِشَافِ السَّرَائِرِ وَقِيَامِ الحِسَابِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ كُلُّ نَفَقَةٍ أُخْرِجُهَا وَكُلُّ عَهْدٍ أَقْطَعُهُ إِلَى مِيثَاقٍ مُقَدَّسٍ أُوفِي بِهِ فِي الخَفَاءِ طَمَعًا فِي ثَوَابِ مَنْ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، فَكُلُّ مَا نُخْفِيهِ عَنِ الخَلْقِ هُوَ مَكْشُوفٌ أَمَامَ عَرْشِ السَّمَاءِ وَلَا نَصِيرَ لِلظَّالِمِينَ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

سِفْرُ الصَّدَى الخَامِسَ عَشَرَ

سِرُّ الصَّدَقَةِ وَنُورُ التَّكْفِيرِ

صَدَى {إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [البقرة: 271]

فِي ظِلِّ الخَفَاءِ الرَّحِيمِ يَتَخَفَّى عَطَاءُ الصَّادِقِينَ كَالمَطَرِ اللَّيْلِيِّ الَّذِي يَغْسِلُ وُجُوهَ الزُّهُورِ دُونَ أَنْ تَرَاهُ عُيُونُ العَابِرِينَ، فَيَتَلَاشَى فِي دَاخِلِي بَرِيقُ المَظَاهِرِ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ تَصْفِيقِ الأَيْدِي وَيَنْسَى أَنَّ الصَّدَقَةَ المَسْتُورَةَ تُطْفِئُ جَمْرَ السَّيِّئَاتِ فِي صَمْتٍ، وَكَمْ جَعَلَتِ النُّفُوسُ مِنْ إِحْسَانِهَا مَسْرَحًا لِلِاسْتِعْرَاضِ وَنَسِيَتْ أَنَّ كَرَامَةَ الفَقِيرِ المَكْسُورِ تُصَانُ حِينَ تَصِلُهُ اليَدُ البَيْضَاءُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ النَّاسُ، أَرَى الجُذُورَ العَمِيقَةَ تَحْتَ التُّرَابِ تَمْتَصُّ المَاءَ فِي سُكُونٍ تَامٍّ لِتَرْفَعَ الشَّجَرَةَ نَحْوَ السَّمَاءِ بَيْنَمَا تَتَبَخَّرُ القَطَرَاتُ المَكْشُوفَةُ فَوْقَ الصُّخُورِ تَحْتَ حَرَارَةِ الشَّمْسِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا المِيزَانَ اللَّطِيفَ الَّذِي يُبَارِكُ الإِعْلَانَ إِذَا صَفَتِ النِّيَّةُ وَيُفَضِّلُ الإِخْفَاءَ لِلْفُقَرَاءِ لِيَكُونَ مِمْحَاةً لِلذُّنُوبِ تَحْتَ بَصَرِ الخَبِيرِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ نَفَقَاتِي فِي وِجْدَانِي إِلَى أَسْرَارٍ مُقَدَّسَةٍ أُودِعُهَا كُفُوفَ المَحْرُومِينَ فِي عَتْمَةِ اللَّيْلِ لِتُضِيءَ لِي ظُلُمَاتِ القَبْرِ وَالحِسَابِ، فَكُلُّ عَطَاءٍ يَسْتَتِرُ عَنْ أَعْيُنِ الخَلْقِ يَنْكَشِفُ نُورُهُ عِنْدَ عَرْشِ السَّمَاءِ وَلَا يَخْفَى مِثْقَالُ ذَرَّةٍ عَلَى اللهِ الخَبِيرِ.

نُورُ الهِدَايَةِ وَخَلَفُ الإِنْفَاقِ

صَدَى {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [البقرة: 272]

مَفَاتِيحُ القُلُوبِ بِيَدِ الخَالِقِ وَحْدَهُ تَتَقَلَّبُ بَيْنَ أَصَابِعِ المَشِيئَةِ كَيْفَ يَشَاءُ دُونَ أَنْ يَمْلِكَ الدَّاعِي إِلَّا البَلَاغَ المُبِينَ، فَيَنْزَاحُ عَنْ كَاهِلِي ثِقَلُ الحُزْنِ عَلَى المُعْرِضِينَ وَتَتَحَرَّرُ يَدِي لِتُعْطِيَ الخَيْرَ لِكُلِّ مُحْتَاجٍ دُونَ أَنْ تَشْتَرِطَ عَلَيْهِ مِلَّةً أَوْ مَذْهَبًا، وَكَمْ حَبَسَتِ الأَنَانِيَّةُ البَشَرِيَّةُ العَطَاءَ عَنْ بَعْضِ الخَلْقِ ظَنًّا مِنْهَا أَنَّ البَذْلَ لِغَيْرِ المُوَافِقِينَ يَضِيعُ سُدًى وَلَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَى صَاحِبِهِ، أَتَأَمَّلُ النَّبْعَ الصَّافِيَ الَّذِي يَتَفَجَّرُ فِي الوَادِي فَيَسْقِي الشَّجَرَةَ المُثْمِرَةَ وَالعُشْبَ البَرِّيَّ عَلَى السَّوَاءِ دُونَ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ عُذُوبَتِهِ شَيْءٌ لِأَنَّهُ يَصُبُّ فِي النِّهَايَةِ فِي بَحْرِهِ الكَبِيرِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الحَقِيقَةَ الرُّوحِيَّةَ الَّتِي تُعْلِنُ أَنَّ كُلَّ خَيْرٍ

نُنْفِقُهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ الحَقِّ إِنَّمَا نَزْرَعُهُ لِأَنْفُسِنَا لِنَحْصُدَهُ كَامِلًا بِلَا ظُلْمٍ وَلَا نُقْصَانٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ صَدَقَاتِي إِلَى مِرْآةٍ تَعْكِسُ صَفَاءَ التَّوْحِيدِ فِي صَدْرِي فَأُعْطِي بِرَحْمَةٍ وَأَتْرُكُ هِدَايَةَ الأَرْوَاحِ لِصَاحِبِ الأَمْرِ وَالتَّدْبِيرِ، فَكُلُّ دِرْهَمٍ نَبْذُلُهُ بِإِخْلَاصٍ يَعُودُ إِلَيْنَا مُضَاعَفًا وَلَا يُظْلَمُ أَحَدٌ فِي مِيزَانِ اللهِ.

عِفَّةُ الفُقَرَاءِ وَفِرَاسَةُ البَصِيرَةِ

صَدَى {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [البقرة: 273]

خَلْفَ جُدْرَانِ الصَّمْتِ وَالكِبْرِيَاءِ النَّبِيلَةِ يَقِفُ فُقَرَاءُ المَبْدَأِ الَّذِينَ حَبَسَهُمُ الجِهَادُ وَالعِلْمُ عَنِ السَّعْيِ فِي الأَسْوَاقِ فَيَرْتَدُونَ ثَوْبَ الغِنَى مِنَ التَّعَفُّفِ، فَيَنْكَشِفُ لِي زَيْفُ الأَحْكَامِ السَّطْحِيَّةِ الَّتِي تَغْتَرُّ بِالمَظَاهِرِ الخَارِجِيَّةِ وَتَغْفُلُ عَنْ عُمْقِ الحَاجَةِ المَخْبُوءَةِ خَلْفَ الِابْتِسَامَةِ الوَقُورَةِ، وَكَمْ مَرَرْتُ بِأَصْحَابِ السِّيمَاءِ الطَّاهِرَةِ الَّذِينَ يَتَأَلَّمُونَ فِي سُكُونٍ وَلَا يُرِيقُونَ مَاءَ وُجُوهِهِمْ بِالسُّؤَالِ وَالإِلْحَافِ قَبْلَ أَنْ تُوقِظَ هَذِهِ الآيَةُ فِرَاسَةَ قَلْبِي لِلْبَحْثِ عَنْهُمْ، أَرَى الجَبَلَ الشَّامِخَ المَغَطَّى بِالثُّلُوجِ البَيْضَاءِ يَبْدُو لِلنَّاظِرِ البَعِيدِ كُتْلَةً مِنَ الرُّخَامِ الصَّلْبِ بَيْنَمَا تَذُوبُ أَعْمَاقُهُ بِصَمْتٍ لِتُغَذِّيَ الأَنْهَارَ وَالوِدْيَانَ العَطْشَى دُونَ ضَجِيجٍ أَوْ شَكْوَى، فَمَا أَبْهَى هَذَا التَّكْرِيمَ الإِلَهِيَّ لِلْمُتَعَفِّفِينَ الَّذِينَ صَانُوا كَرَامَتَهُمْ عَنْ ذُلِّ الطَّلَبِ فَتَوَلَّتِ السَّمَاءُ التَّعْرِيفَ بِسِيمَاهُمْ لِيُسَارِعَ المُحْسِنُونَ إِلَى إِكْرَامِهِمْ تَحْتَ رِعَايَةِ العَلِيمِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ عَيْنِي إِلَى مِصْبَاحٍ يَتَفَرَّسُ فِي وُجُوهِ الصَّامِتِينَ لِأُقَدِّمَ لَهُمُ العَوْنَ بِأَدَبٍ وَحَيَاءٍ قَبْلَ أَنْ تَنْطِقَ شِفَاهُهُمْ بِحَاجَةٍ، فَكُلُّ مَا نُقَدِّمُهُ لِأَهْلِ العِفَّةِ هُوَ شَرَفٌ لَنَا قَبْلَهُمْ وَلَا يَغِيبُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ عَنْ عِلْمِ اللهِ.

دَيْمُومَةُ العَطَاءِ وَسَكِينَةُ الأَمَانِ

صَدَى {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 274]

بَيْنَ عَتْمَةِ اللَّيْلِ وَضِيَاءِ النَّهَارِ يَتَدَفَّقُ نَهْرُ الإِحْسَانِ مِنْ أَيْدِي المخْلِصِينَ فَلَا يَحْبِسُهُ زَمَانٌ وَلَا يُقَيِّدُهُ مَكَانٌ بَيْنَ السِّرِّ وَالعَلَنِ، فَيَذُوبُ فِي أَعْمَاقِي تَرَدُّدُ النَّفْسِ الَّتِي تَجْعَلُ العَطَاءَ مَوْسِمًا عَابِرًا وَتَغْفُلُ عَنْ أَنَّ الكَرَمَ الدَّائِمَ هُوَ سِيرَةُ الأَرْوَاحِ المتَّصِلَةِ بِالسَّمَاءِ، وَكَمْ قَيَّدْتُ كَفِّي بِأَعْذَارِ الوَقْتِ وَالحَالِ قَبْلَ أَنْ أَرَى كَيْفَ يَجْمَعُ الصَّادِقُونَ بَيْنَ سَتْرِ الخَفَاءِ لِصَوْنِ الكَرَامَةِ وَإِظْهَارِ البَذْلِ لِإِحْيَاءِ القُدْوَةِ الحَسَنَةِ، أَتَأَمَّلُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كَيْفَ يَتَعَاقَبَانِ فِي فَلَكِ السَّمَاءِ لِيَغْمُرَا الأَرْضَ بِالنُّورِ وَالدِّفْءِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ دُونَ انْقِطَاعٍ كَيْ لَا تَمُوتَ الحَيَاةُ فِي ظُلْمَةِ البُخْلِ وَالجُمُودِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الوِسَامَ الأَبَدِيَّ الَّذِي يَضْمَنُ لِهَؤُلَاءِ المتَدَفِّقِينَ بِالخَيْرِ أَجْرَهُمْ مَحْفُوظًا عِنْدَ رَبِّهِمْ وَيَنْفِي عَنْ قُلُوبِهِمْ كُلَّ خَوْفٍ أَوْ حُزْنٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيَاتِي إِلَى يَنْبُوعٍ لَا يَجِفُّ يَسْقِي العَطْشَى فِي كُلِّ حِينٍ وَيَسْتَمِدُّ مَدَدَهُ وَأَمَانَهُ مِنْ خَزَائِنِ الرَّحْمَةِ الَّتِي لَا تَنْفَدُ، فَكُلُّ عَطَاءٍ يَسْتَمِرُّ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَبْنِي لِصَاحِبِهِ قَصْرًا مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ عِنْدَ اللهِ.

جُنُونُ الرِّبَا وَحِكْمَةُ البَيْعِ

صَدَى {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: 275]

فِي سَاحَةِ الجَشَعِ المظْلِمَةِ يَتَرَنَّحُ آكِلُ الرِّبَا كَالمصْرُوعِ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ بَعْدَ أَنْ سَوَّى بَيْنَ عَرَقِ البَيْعِ الحَلَالِ وَسُمِّ الزِّيَادَةِ المحَرَّمَةِ، فَيَتَحَطَّمُ أَمَامَ بَصِيرَتِي مَنْطِقُ المادَّةِ الأَعْمَى الَّذِي يَرَى الأَرْقَامَ تَنْمُو عَلَى الوَرَقِ بَيْنَمَا تَمْتَصُّ دِمَاءَ الفُقَرَاءِ وَتَهْدِمُ تَوَازُنَ الحَيَاةِ وَالفِطْرَةِ، وَكَمْ زَيَّنَتِ الأَوْهَامُ لِلنُّفُوسِ المرِيضَةِ أَنَّ تَوْلِيدَ المالِ مِنَ المالِ بِلَا جُهْدٍ وَلَا مُخَاطَرَةٍ هُوَ ذَكَاءٌ اقْتِصَادِيٌّ قَبْلَ أَنْ يَكْشِفَ الوَحْيُ عَنْ قُبْحِ هَذَا الجُنُونِ وَعَاقِبَتِهِ الوَخِيمَةِ، أَرَى الشَّجَرَةَ الطُّفَيْلِيَّةَ السَّامَّةَ تَلْتَفُّ حَوْلَ جِذْعِ النَّخْلَةِ المثْمِرَةِ لِتَمْتَصَّ عُصَارَةَ حَيَاتِهَا دُونَ أَنْ تَضْرِبَ جِذْرًا فِي الأَرْضِ حَتَّى تَسْقُطَ الشَّجَرَتَانِ مَعًا فِي قَاعِ الخَرَابِ، فَمَا أَعْدَلَ هَذَا الحُكْمَ السَّمَاوِيَّ الَّذِي يُحِلُّ البَيْعَ القَائِمَ عَلَى التَّعَاوُنِ وَالعَمَلِ وَيُحَرِّمُ الرِّبَا وَيَفْتَحُ بَابَ التَّوْبَةِ لِمَنِ اتَّعَظَ وَانْتَهَى قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ مَكَاسِبِي فِي الدُّنْيَا إِلَى تَحَرٍّ دَقِيقٍ لِلْحَلَالِ الطَّيِّبِ أُطَهِّرُ بِهِ مَالِي مِنْ شُبُهَاتِ الِاسْتِغْلَالِ وَأَحْمِي رُوحِي مِنْ

خَبَطِ الشَّيْطَانِ، فَكُلُّ رِبْحٍ يَقُومُ عَلَى أَنِينِ المحْتَاجِينَ هُوَ جَمْرٌ فِي البَطْنِ وَلَا خُلُودَ فِي النَّارِ إِلَّا لِمَنْ أَصَرَّ عَلَى مُحَارَبَةِ أَمْرِ اللهِ.

مَحْقُ الرِّبَا وَرِبْوُ الصَّدَقَاتِ

صَدَى {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} [البقرة: 276]

قَانُونُ النَّمَاءِ وَالفَنَاءِ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ يَسِيرُ عَكْسَ حِسَابَاتِ البَشَرِ فَيَمْحَقُ بَرَكَةَ الرِّبَا المتَضَخِّمِ وَيُنَمِّي الصَّدَقَاتِ الصَّغِيرَةَ حَتَّى تَمْلَأَ الآفَاقَ، فَيَسْقُطُ فِي وِجْدَانِي غُرُورُ الأَرْقَامِ الكَبِيرَةِ الَّتِي تَجْمَعُهَا الأَيْدِي الآثِمَةُ ثُمَّ تَرَاهَا تَتَبَخَّرُ كَالدُّخَانِ عِنْدَ أَوَّلِ نَفْحَةٍ مِنَ المحْقِ الإِلَهِيِّ، وَكَمْ خَشِيتُ نَقْصَ المالِ عِنْدَ إِخْرَاجِ الصَّدَقَةِ وَانْبَهَرْتُ بِتَرَاكُمِ الأَمْوَالِ الرِّبَوِيَّةِ قَبْلَ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ البَرَكَةَ نُورٌ خَفِيٌّ يَضَعُهُ الخَالِقُ حَيْثُ يَشَاءُ وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ، أَتَأَمَّلُ البَالُونَ المنْفُوخَ بِالهَوَاءِ الفَارِغِ كَيْفَ يَبْدُو ضَخْمًا يَمْلَأُ العَيْنَ ثُمَّ يَنْفَجِرُ عِنْدَ لَمْسَةِ شَوْكَةٍ صَغِيرَةٍ بَيْنَمَا تَنْمُو البَذْرَةُ الصَّغِيرَةُ فِي التُّرْبَةِ الطَّيِّبَةِ لِتُصْبِحَ شَجَرَةً تَسْتَظِلُّ بِهَا الأَجْيَالُ، فَمَا أَشَدَّ هَذَا التَّنْفِيرَ الرَّبَّانِيَّ مِنْ جُحُودِ النِّعْمَةِ وَالإِصْرَارِ عَلَى الإِثْمِ حِينَ يُعْلِنُ الوَحْيُ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ يَسْتَبِيحُ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي إِلَى الثَّرْوَةِ إِلَى بَحْثٍ عَنِ البَرَكَةِ الخَفِيَّةِ فِي الصَّدَقَةِ لَا عَنِ الكَثْرَةِ المَمْحُوقَةِ فِي الرِّبَا، فَكُلُّ مَالٍ يَنْمُو بِالظُّلْمِ مآلُهُ إِلَى الزَّوَالِ وَلَا بَرَكَةَ تَدُومُ إِلَّا فِيمَا يُنَمِّيهِ اللهُ.

عِقْدُ الصَّالِحَاتِ وَجَائِزَةُ الأَمَانِ

صَدَى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 277]

أَرْكَانُ الفَلَاحِ الأَرْبَعَةُ تَجْتَمِعُ فِي لَوْحَةٍ نُورَانِيَّةٍ وَاحِدَةٍ لِتَرْسُمَ مَلَامِحَ الإِنْسَانِ المطْمَئِنِّ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ نُورِ العَقِيدَةِ وَصَلَاحِ العَمَلِ وَصِلَةِ المحْرَابِ وَطَهَارَةِ المالِ، فَيَتَلَاشَى فِي صَدْرِي قَلَقُ المسْتَقْبَلِ وَحُزْنُ المَاضِي بَعْدَ أَنْ اتَّضَحَتْ مَعَالِمُ الطَّرِيقِ الَّذِي يَقُودُ إِلَى مَقْعَدِ الصِّدْقِ وَالأَمَانِ الأَبَدِيِّ، وَكَمْ تَاهَتْ رُوحِي فِي مَتَاهَاتِ الفَصْلِ بَيْنَ الإِيمَانِ القَلْبِيِّ وَالسُّلُوكِ العَمَلِيِّ قَبْلَ أَنْ تُعَلِّمَنِي هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ

الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ هُمَا جَنَاحَا الطَّيَرَانِ نَحْوَ الرِّضَا، أَرَى البَيْتَ المحْكَمَ البُنْيَانِ يَقُومُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَعْمِدَةٍ رَاسِخَةٍ تَحْمِيهِ مِنْ عَوَاصِفِ الرِّيَاحِ وَزَلَازِلِ الأَرْضِ فَيَنْعَمُ سَاكِنُوهُ بِالدِّفْءِ وَالطُّمَأْنِينَةِ بَيْنَمَا تَتَهَاوَى البُيُوتُ الَّتِي تَفْتَقِرُ إِلَى أَحَدِ أَرْكَانِهَا، فَمَا أَعْذَبَ هَذِهِ البُشْرَى المتَكَرِّرَةَ الَّتِي تُؤَكِّدُ أَنَّ أَجْرَ الصَّادِقِينَ مَحْفُوظٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّ الخَوْفَ وَالحُزْنَ لَا يَعْرِفَانِ طَرِيقًا إِلَى قُلُوبِهِمْ عِنْدَ اللِّقَاءِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيَاتِي إِلَى بِنَاءٍ مُتَكَامِلٍ أُقِيمُ فِيهِ الصَّلَاةَ لِتَطْهِيرِ رُوحِي وَأُؤْتِي الزَّكَاةَ لِتَطْهِيرِ مَالِي وَأَسْعَى فِي الصَّالِحَاتِ، فَكُلُّ أَمَانٍ نَبْحَثُ عَنْهُ خَارِجَ هَذِهِ الأَرْكَانِ هُوَ وَهْمٌ زَائِلٌ وَلَا طُمَأْنِينَةَ حَقِيقِيَّةً إِلَّا عِنْدَ اللهِ.

إِعْلَانُ الحَرْبِ وَمِيزَانُ العَدْلِ

صَدَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ} [البقرة: 278 - 279]

نِدَاءُ التَّقْوَى يَدْوِي فِي أَرْجَاءِ الوُجُودِ لِيُعْلِنَ أَنَّ الإِيمَانَ الصَّادِقَ لَا يَجْتَمِعُ فِي قَلْبٍ وَاحِدٍ مَعَ بَقَايَا الرِّبَا وَأَكْلِ حُقُوقِ الضُّعَفَاءِ، فَتَرْتَجِفُ فَرَائِصُ الرُّوحِ أَمَامَ هَذَا الوَعِيدِ المرْعِبِ الَّذِي يَفْتَحُ جَبْهَةَ الحَرْبِ مَعَ السَّمَاءِ وَرَسُولِهَا لِمَنْ يُصِرُّ عَلَى طُغْيَانِ المالِ، وَكَمْ تَسَاهَلَتِ النُّفُوسُ مَعَ البَقَايَا الصَّغِيرَةِ مِنَ الحَرَامِ وَظَنَّتْ أَنَّ القَلِيلَ المنْسِيَّ لَا يُفْسِدُ صَفَاءَ التَّوْبَةِ وَلَا يَسْتَجْلِبُ غَضَبَ الجَبَّارِ العَظِيمِ، أَرَى المِلِكَ القَدِيرَ يُمْهِلُ المتَمَرِّدِينَ فِي مَمْلَكَتِهِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى إِلْقَاءِ سِلَاحِ الجَشَعِ وَالِاكْتِفَاءِ بِرُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ فِي عَدْلٍ مُطْلَقٍ لَا يَظْلِمُ دَائِنًا وَلَا يَسْحَقُ مَدِينًا مُثْقَلًا بِالهُمُومِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الحَسْمَ القُرْآنِيَّ الَّذِي يَضَعُ الإِنْسَانَ أَمَامَ خِيَارٍ وَاضِحٍ بَيْنَ التَّوْبَةِ العَادِلَةِ الَّتِي تَحْفَظُ رَأْسَ المالِ وَبَيْنَ مَعْرَكَةٍ خَاسِرَةٍ لَا طَاقَةَ لِمَخْلُوقٍ بِخَوْضِهَا، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ تَوْبَتِي إِلَى تَطْهِيرٍ شَامِلٍ أَقْتَلِعُ فِيهِ جُذُورَ الشُّبُهَاتِ وَبَقَايَا الظُّلْمِ لِأَدْخُلَ فِي سِلْمٍ أَبَدِيٍّ مَعَ السَّمَاءِ وَرَسُولِهَا، فَكُلُّ إِصْرَارٍ عَلَى البَاطِلِ هُوَ إِعْلَانُ هَزِيمَةٍ مُحَقَّقَةٍ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِالعَدْلِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ اللهُ.

نَظِرَةُ المَيْسَرَةِ وَصَدَقَةُ الإِبْرَاءِ

صَدَى {وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 280]

عَلَى عَتَبَةِ المَدِينِ المَكْسُورِ تَقِفُ الشَّرِيعَةُ حَارِسًا رَحِيمًا تَمْنَعُ سِيَاطَ المُطَالَبَةِ القَاسِيَةِ وَتَفْتَحُ نَافِذَةَ الإِمْهَالِ حَتَّى تَنْقَشِعَ غُيُومُ العُسْرَةِ، فَيَذُوبُ فِي صَدْرِي جَلِيدُ القَسْوَةِ الَّذِي يُطَارِدُ المُعْسِرَ فِي ضِيقِهِ وَيَنْسَى أَنَّ الرِّفْقَ بِعِبَادِ السَّمَاءِ هُوَ المِفْتَاحُ الوَحِيدُ لِتَفْرِيجِ كُرُبَاتِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَكَمْ ضَيَّقَتِ القُلُوبُ القَاسِيَةُ الخِنَاقَ عَلَى المُتَعَثِّرِينَ فِي مَمَرَّاتِ الحَيَاةِ وَغَفَلَتْ عَنْ أَنَّ التَّصَدُّقَ بِالدَّيْنِ وَإِبْرَاءَ الذِّمَّةِ هُوَ الرِّبْحُ الأَعْظَمُ الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا أَهْلُ العِلْمِ وَالبَصِيرَةِ، أَتَأَمَّلُ الغَيْمَةَ الحَنُونَ تُمِدُّ ظِلَّهَا فَوْقَ العَابِرِ المُتْعَبِ فِي هَجِيرِ الصَّحْرَاءِ حَتَّى يَسْتَرِدَّ أَنْفَاسَهُ وَيُكْمِلَ طَرِيقَهُ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَدْفَعَهُ الرِّيحُ إِلَى السُّقُوطِ فِي الرِّمَالِ المُحْرِقَةِ، فَمَا أَبْهَى هَذَا التَّدَرُّجَ النَّبِيلَ الَّذِي يَبْدَأُ بِوَاجِبِ الإِنْظَارِ إِلَى مَيْسَرَةٍ ثُمَّ يَرْتَقِي بِالرُّوحِ إِلَى قِمَّةِ التَّصَدُّقِ وَالتَّنَازُلِ لِتَنَالَ ظِلَّ العَرْشِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ دُيُونِي عِنْدَ النَّاسِ إِلَى فُرَصٍ لِلرَّحْمَةِ أُمهِلُ فِيهَا المُعْسِرَ بِسَمَاحَةٍ وَأَتَنَازَلُ فِيهَا بِطِيبِ نَفْسٍ طَمَعًا فِي عَفْوِ السَّمَاءِ، فَكُلُّ تَيْسِيرٍ تَمْنَحُهُ لِمُعْسِرٍ فِي الأَرْضِ يَعُودُ عَلَيْنَا يُسْرًا وَفَرَجًا مِنْ عِنْدِ اللهِ.

يَوْمُ الرُّجُوعِ وَعَدَالَةُ التَّوْفِيَةِ

صَدَى {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [البقرة: 281]

فِي خِتَامِ مَلْحَمَةِ المَالِ وَالعَطَاءِ وَالرِّبَا تَنْتَصِبُ آيَةُ الرُّجُوعِ الكُبْرَى كَالجَبَلِ الأَشَمِّ لِتُوقِظَ القُلُوبَ الغَافِلَةَ عَلَى حَقِيقَةِ المِيعَادِ الَّذِي لَا مَفَرَّ مِنْهُ، فَيَتَلَاشَى فِي أَعْمَاقِي غُرُورُ البَقَاءِ وَطُولُ الأَمَلِ وَتَقِفُ النَّفْسُ عَارِيَةً أَمَامَ مِيزَانِ العَدْلِ الَّذِي يُوَفِّي كُلَّ إِنْسَانٍ ثَمَرَةَ كَسْبِهِ دُونَ ظُلْمٍ أَوْ مُحَابَاةٍ، وَكَمْ جَرَفَتْنِي تَيَّارَاتُ الحَيَاةِ وَصِرَاعَاتُ المَكْسَبِ وَالخَسَارَةِ فَأَنْسَتْنِي تِلْكَ اللَّحْظَةَ الفَاصِلَةَ حِينَ تُطْوَى الصُّحُفُ وَيَرْجِعُ الجَمِيعُ إِلَى المَالِكِ الحَقِّ فُرَادَى كَمَا خُلِقُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ، أَرَى الأَنْهَارَ كُلَّهَا تَجْرِي فِي مَسَارَاتِهَا المُتَعَرِّجَةِ بَيْنَ الجِبَالِ وَالسُّهُولِ ثُمَّ تَنْتَهِي جَمِيعًا إِلَى المُحِيطِ الكَبِيرِ حَيْثُ لَا يَبْقَى لِجَدْوَلٍ اسْمٌ وَلَا لِمَوْجَةٍ اسْتِقْلَالٌ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الوَصِيَّةَ الوَدَاعِيَّةَ الَّتِي تَجْعَلُ تَقْوَى ذَلِكَ اليَوْمِ حَارِسًا

عَلَى كُلِّ دِرْهَمٍ نَكْسِبُهُ وَكُلِّ كَلِمَةٍ نَنْطِقُهَا قَبْلَ أَنْ يُغْلَقَ بَابُ العَمَلِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ أَيَّامِي فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَى اسْتِعْدَادٍ دَائِمٍ لِيَوْمِ العَوْدَةِ الكُبْرَى أَزِنُ فِيهِ أَفْعَالِي بِمِيزَانِ الآخِرَةِ قَبْلَ أَنْ أُوزَنَ بِهِ، فَكُلُّ طَرِيقٍ نَسْلُكُهُ فِي هَذَا الوُجُودِ يَنْتَهِي عِنْدَ بَوَّابَةِ الرُّجُوعِ إِلَى اللهِ.

مِيثَاقُ الكِتَابَةِ وَعَدَالَةُ الشَّهَادَةِ

صَدَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ... وَاتَّقُوا اللَّهَ ۗ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: 282]

عَلَى سُطُورِ الكِتَابَةِ وَالشَّهَادَةِ تُشَيِّدُ الشَّرِيعَةُ حِصْنًا مَنِيعًا يَحْمِي حُقُوقَ العِبَادِ مِنْ نِسْيَانِ الزَّمَنِ وَنَزَوَاتِ الشَّيْطَانِ، فَيَنْحَسِرُ فِي وِجْدَانِي ذَلِكَ التَّسَاهُلُ العَاطِفِيُّ الَّذِي يَتْرُكُ الدُّيُونَ مُعَلَّقَةً فِي الهَوَاءِ ثُمَّ يَغْرَقُ فِي مُسْتَنْقَعِ الخُصُومَاتِ وَسُوءِ الظَّنِّ عِنْدَ حُلُولِ الأَجَلِ، وَكَمْ ضَاعَتْ مَوَدَّةٌ بَيْنَ الأَصْحَابِ وَالأَقَارِبِ حِينَ اسْتَحْيَوْا مِنْ تَوْثِيقِ العُقُودِ وَغَفَلُوا عَنْ أَنَّ الكِتَابَةَ بِالعَدْلِ وَإِقَامَةَ الشُّهُودِ هُمَا أَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا يَرْتَابُوا، أَتَأَمَّلُ الجِسْرَ الحَجَرِيَّ المَتِينَ الَّذِي يُبْنَى بِإِتْقَانٍ فَوْقَ النَّهْرِ الجَارِي لِيَعْبُرَ عَلَيْهِ المُسَافِرُونَ بِأَمَانٍ فِي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ دُونَ أَنْ تَجْرُفَهُمُ السُّيُولُ أَوْ تَخُونَهُمُ الذَّاكِرَةُ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّعْلِيمَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي يَرْبِطُ دِقَّةَ التَّوْثِيقِ المَالِيِّ بِتَقْوَى السَّمَاءِ وَيُبَشِّرُ المُتَّقِينَ بِفَيْضِ العِلْمِ وَالبَصِيرَةِ مِنَ العَلِيمِ بِكُلِّ شَيْءٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ مُعَامَلَاتِي المَالِيَّةُ إِلَى مِيثَاقٍ وَاضِحٍ أَصُونُ بِهِ الحُقُوقَ الكَبِيرَةَ وَالصَّغِيرَةَ بِالقَلَمِ العَادِلِ لِتَبْقَى القُلُوبُ صَافِيَةً بَعِيدًا عَنِ الرِّيبَةِ وَالشِّقَاقِ، فَكُلُّ حَقٍّ نُوَثِّقُهُ بِأَمَانَةٍ هُوَ حِمَايَةٌ لِلْأُخُوَّةِ وَلَا يَخْفَى مِثْقَالُ ذَرَّةٍ عَلَى اللهِ العَلِيمِ.

رِهَانُ السَّفَرِ وَأَمَانَةُ القُلُوبِ

صَدَى {وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [البقرة: 283]

فِي مَمَرَّاتِ السَّفَرِ الطَّوِيلَةِ حَيْثُ يَغِيبُ القَلَمُ وَالوَرَقُ تَنْتَصِبُ الأَمَانَةُ القَلْبِيَّةُ وَالبُرْهَانُ المَقْبُوضَةُ لِتَحْرُسَ الحُقُوقَ فِي عَرَاءِ الطَّرِيقِ، فَيَتَجَلَّى لِي سُمُوُّ التَّشْرِيعِ الَّذِي لَا يَتْرُكُ فَجْوَةً لِلضَّيَاعِ بَلْ يَجْعَلُ الضَّمِيرَ الحَيَّ وَتَقْوَى الرَّبِّ رَقِيبًا عَلَى مَنِ ائْتُمِنَ فِي غِيَابِ الشُّهُودِ، وَكَمْ جَرَّتْ خِيَانَةُ الأَمَانَةِ وَكِتْمَانُ الشَّهَادَةِ مِنْ ظُلُمَاتٍ سَوْدَاءَ عَلَى القُلُوبِ الَّتِي ظَنَّتْ أَنَّ بُعْدَ المَسَافَةِ يُخْفِي جَرِيمَةَ الجُحُودِ عَنْ عَيْنِ العَلِيمِ، أَرَى المِصْبَاحَ الصَّغِيرَ فِي يَدِ المُسَافِرِ الوَحِيدِ وَسَطَ الصَّحْرَاءِ المُظْلِمَةِ كَيْفَ يَكْفِيهِ لِرُؤْيَةِ مَوْضِعِ قَدَمَيْهِ وَيَحْمِيهِ مِنَ السُّقُوطِ فِي الحُفَرِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَدِينَةِ الأَمَانِ وَالسَّلَامِ، فَمَا أَشَدَّ هَذَا التَّحْذِيرَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَصِمُ قَلْبَ كَاتِمِ الشَّهَادَةِ بِالإِثْمِ وَيُذَكِّرُ المُؤْتَمَنَ بِأَنَّ أَدَاءَ الأَمَانَةِ هُوَ البُرْهَانُ الصَّادِقُ عَلَى خَشْيَةِ الخَالِقِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ ثِقَةُ النَّاسِ فِي شَخْصِي إِلَى تَاجٍ أَحْرُسُهُ بِالتَّقْوَى فَأُؤَدِّي الأَمَانَةَ كَامِلَةً وَأَشْهَدُ بِالحَقِّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِي دُونَ كِتْمَانٍ، فَكُلُّ خِيَانَةٍ تَصْدُرُ فِي الخَفَاءِ تُلَوِّثُ القَلْبَ بِالإِثْمِ وَلَا يَغِيبُ عَمَلٌ عَنْ بَصَرِ اللهِ العَلِيمِ.

مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَمُحَاسَبَةُ السَّرَائِرِ

صَدَى {لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 284]

مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بِكُلِّ ذَرَّاتِهِ وَأَفْلَاكِهِ خَاضِعٌ لِقَبْضَةِ المَالِكِ الوَاحِدِ الَّذِي يَخْتَرِقُ نُورُ عِلْمِهِ حُجُبَ الصُّدُورِ وَخَفَايَا النُّفُوسِ، فَتَرْتَعِدُ فِي دَاخِلِي تِلْكَ الخَوَاطِرُ المُظْلِمَةُ الَّتِي تَظُنُّ أَنَّ أَعْمَاقَ القَلْبِ مَنْطِقَةٌ مَعْزُولَةٌ عَنْ رَقَابَةِ السَّمَاءِ وَمِيزَانِ المحَاسَبَةِ وَالعِقَابِ، وَكَمْ أَخْفَيْتُ فِي طَيَّاتِ الصَّدْرِ نَوَايَا وَأَسْرَارًا حَسِبْتُهَا بَعِيدَةً عَنِ الأَنْظَارِ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ لِي هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ السِّرَّ وَالعَلَنَ سَوَاءٌ فِي حَضْرَةِ القَدِيرِ، أَتَأَمَّلُ البَحْرَ الشَّفَّافَ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ العَمُودِيَّةِ كَيْفَ تَنْكَشِفُ أَعْمَاقُهُ وَحَصَاهُ الدَّقِيقُ لِلنَّاظِرِ مِنَ الأَعْلَى كَمَا تَنْكَشِفُ أَمْوَاجُهُ الظَّاهِرَةُ عَلَى السَّطْحِ دُونَ أَيِّ حِجَابٍ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الهَيْبَةَ الَّتِي تَمْلَأُ الرُّوحَ خَشْيَةً وَرَجَاءً حِينَ تَعْلَمُ أَنَّ أَمْرَ المَغْفِرَةِ وَالعَذَابِ بِيَدِ مَنْ يَمْلِكُ الكَوْنَ كُلَّهُ وَيَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ خَلَوَاتِي الدَّاخِلِيَّةُ إِلَى مِحْرَابٍ طَاهِرٍ أُنَقِّي فِيهِ سَرِيرَتِي مِنَ الغِلِّ وَالحَسَدِ وَالنِّفَاقِ قَبْلَ أَنْ أُطَهِّرَ جَوَارِحِي، فَكُلُّ مَا نُكِنُّهُ فِي الصُّدُورِ مَكْشُوفٌ أَمَامَ عَرْشِ السَّمَاءِ وَلَا يَعْجِزُ شَيْءٌ قُدْرَةَ اللهِ.

إِيمَانُ الرَّسُولِ وَنَشِيدُ الطَّاعَةِ

صَدَى {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة: 285]

فِي مِحْرَابِ التَّصْدِيقِ الأَعْظَمِ يَقِفُ الرَّسُولُ الأَمِينُ وَخَلْفَهُ مَوْكِبُ المؤْمِنِينَ لِيُعْلِنُوا مِيثَاقَ الإِيمَانِ الشَّامِلِ بِالكَوْنِ وَالوَحْيِ وَالمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ جَمِيعًا، فَيَتَبَدَّدُ فِي صَدْرِي ضِيقُ التَّعَصُّبِ الأَعْمَى الَّذِي يُفَرِّقُ بَيْنَ أَنْبِيَاءِ الحَقِّ وَيَحِلُّ مَحَلَّهُ نَشِيدُ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالِانْكِسَارِ عَلَى بَابِ المَغْفِرَةِ، وَكَمْ تَثَاقَلَتِ النَّفْسُ البَشَرِيَّةُ عَنِ الِانْقِيَادِ الكَامِلِ لِأَوَامِرِ السَّمَاءِ قَبْلَ أَنْ تُعَلِّمَهَا هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ السَّعَادَةَ تَكْمُنُ فِي قَوْلِ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا بِقَلْبٍ رَاضٍ وَنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ، أَرَى الكَوَاكِبَ السَّيَّارَةَ تَدُورُ فِي أَفْلَاكِهَا بِانْسِجَامٍ تَامٍّ وَطَاعَةٍ مُطْلَقَةٍ لِقَانُونِ الجَاذِبِيَّةِ الإِلَهِيِّ فَتَصْنَعُ سِيمْفُونِيَّةَ الكَوْنِ البَدِيعَةِ دُونَ تَمَرُّدٍ أَوْ نُشُوزٍ، فَمَا أَبْهَى هَذَا التَّذَلُّلَ النَّبِيلَ حِينَ يَخْتِمُ المؤْمِنُونَ إِيمَانَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ بِطَلَبِ الغُفْرَانِ وَالإِقْرَارِ بِأَنَّ المَصِيرَ النِّهَائِيَّ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ هُوَ إِلَى رَبِّ العَالَمِينَ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي إِلَى سَمْعٍ وَاعٍ وَطَاعَةٍ مُسَارِعَةٍ وَاسْتِغْفَارٍ دَائِمٍ يُمَهِّدُ لِي طَرِيقَ العَوْدَةِ إِلَى مَوْطِنِي الأَصْلِيِّ، فَكُلُّ رِحْلَةٍ فِي هَذَا الوُجُودِ تَبْدَأُ بِالإِيمَانِ وَتَنْتَهِي عِنْدَ مَصِيرِنَا الحَتْمِيِّ إِلَى اللهِ.

رَحْمَةُ الوُسْعِ وَمِنْحَةُ النُّصْرَةِ

صَدَى {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 286]

عَلَى عَتَبَةِ الخِتَامِ النُّورَانِيِّ لِسُورَةِ البَقَرَةِ تَتَنَزَّلُ سَكِينَةُ اليُسْرِ لِتُعْلِنَ أَنَّ التَّكْلِيفَ الإِلَهِيَّ مِيزَانُ رَحْمَةٍ لَا يُثْقِلُ كَاهِلَ الإِنْسَانِ فَوْقَ طَاقَتِهِ، فَيَسْقُطُ فِي أَعْمَاقِي رُعْبُ العَجْزِ الَّذِي خَافَ مِنْ مُحَاسَبَةِ السَّرَائِرِ وَتَنْطَلِقُ الرُّوحُ فِي سَمَاءِ الدُّعَاءِ تَسْتَمْطِرُ العَفْوَ وَالمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ مِنَ المَوْلَى النَّصِيرِ، وَكَمْ تَعَثَّرَتْ خُطَايَ فِي دُرُوبِ النِّسْيَانِ وَالخَطَأِ وَأَثْقَلَتْنِي أَحْمَالُ الحَيَاةِ قَبْلَ أَنْ أَجِدَ فِي هَذِهِ الكَلِمَاتِ

الخَالِدَةِ مَلَاذًا يَحْمِينِي مِنْ آصَارِ الماضِينَ وَأَثْقَالِ العَجْزِ، أَتَأَمَّلُ الطَّيْرَ الصَّغِيرَ يَبْسُطُ جَنَاحَيْهِ فِي الفَضَاءِ الفَسِيحِ فَتَحْمِلُهُ الرِّيَاحُ اللَّطِيفَةُ بِرِفْقٍ دُونَ أَنْ تَقْصِمَ رِيشَهُ الرَّقِيقَ لِأَنَّ خَالِقَهُ قَدَّرَ لَهُ مِنْ قُوَّةِ الطَّيَرَانِ مَا يَتَنَاسَبُ مَعَ صِغَرِ جَسَدِهِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الخِتَامَ الجَامِعَ الَّذِي يَمْزِجُ بَيْنَ عَدْلِ الكَسْبِ وَالِاكْتِسَابِ وَبَيْنَ ضَرَاعَةِ العَبْدِ الفَقِيرِ الَّذِي يَلُوذُ بِمَوْلَاهُ طَالِبًا النُّصْرَةَ وَالثَّبَاتَ حَتَّى يَلْقَاهُ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ خَاتِمَةُ السُّورَةِ فِي قَلْبِي إِلَى نَشِيدِ أَمَانٍ أُغْلِقُ بِهِ كُلَّ أَبْوَابِ الخَوْفِ وَأَرْتَمِي بِهِ فِي حِضْنِ الرَّحْمَةِ المطْلَقَةِ، فَكُلُّ ثِقَلٍ يَنْزَاحُ عَنِ القُلُوبِ بِفَضْلِ اليُسْرِ الإِلَهِيِّ وَلَا نَصِيرَ لَنَا فِي الوُجُودِ إِلَّا مَوْلَانَا اللهُ.

حُرُوفُ النُّورِ وَعَرْشُ القَيُّومِ
صَدَى {الم * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران: 1 – 2]

عَلَى عَتَبَةِ السُّورَةِ المشْرِقَةِ تَتَلَأْلَأُ الحُرُوفُ المقَطَّعَةُ كَمَفَاتِيحَ غَيْبِيَّةٍ تَفْتَحُ أَبْوَابَ التَّوْحِيدِ المطْلَقِ لِلْحَيِّ القَيُّومِ، فَيَتَضَاءَلُ فِي دَاخِلِي غُرُورُ البَيَانِ البَشَرِيِّ الَّذِي يَعْجَزُ عَنْ فَكِّ رُمُوزِ الحَرْفِ الوَاحِدِ بَيْنَمَا يَقُومُ الكَوْنُ كُلُّهُ بِقَيُّومِيَّةِ الخَالِقِ الأَبَدِيِّ، وَكَمْ تَاهَتْ رُوحِي فِي أَوْهَامِ الدَّيْمُومَةِ وَالِاسْتِقْلَالِ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ لِي هَذِهِ الآيَاتُ أَنَّ كُلَّ نَبْضَةٍ فِي الكَوْنِ تَسْتَمِدُّ بَقَاءَهَا مِنْ قَيُّومِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، أَتَأَمَّلُ الشُّمُوسَ السَّابِحَةَ فِي الفَضَاءِ الفَسِيحِ كَيْفَ تَتَعَلَّقُ بِخُيُوطِ القُدْرَةِ الخَفِيَّةِ فَلَا تَهْوِي وَلَا تَنْطَفِئُ لِأَنَّهَا مَحْفُوظَةٌ بِعَيْنِ مَنْ لَا يَمُوتُ وَلَا يَغْفُلُ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الِاسْتِهْلَالَ المهِيبَ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ إِعْجَازِ الحَرْفِ القُرْآنِيِّ وَجَلَالِ الأُلُوهِيَّةِ المتَفَرِّدَةِ الَّتِي تَسْجُدُ لَهَا الجِبَاهُ وَالأَرْوَاحُ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ بِدَايَةُ السُّورَةِ فِي وِجْدَانِي إِلَى صَخْرَةِ ثَبَاتٍ أَرْتَكِزُ عَلَيْهَا فِي عَاصِفَةِ الشُّبُهَاتِ وَأَسْتَمِدُّ مِنْهَا الطُّمَأْنِينَةَ وَاليَقِينَ، فَكُلُّ حَيَاةٍ تَنْفَصِلُ عَنْ مَدَدِ السَّمَاءِ تَذْبُلُ كَالوَرَقِ اليَابِسِ وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الحَيِّ القَيُّومِ.

مِيزَانُ الفُرْقَانِ وَوَحْدَةُ الوَحْيِ
صَدَى {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} [آل عمران: 3 – 4]

نُورُ الوَحْيِ الخَالِدُ يَتَنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ كَالنَّهْرِ الوَاحِدِ الَّذِي يُصَدِّقُ مَا سَبَقَهُ مِنْ يَنَابِيعِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ لِيُقِيمَ فُرْقَانًا يَفْصِلُ بَيْنَ الحَقِّ وَالضَّلَالِ، فَيَتَلَاشَى فِي عَقْلِي وَهْمُ القَطِيعَةِ بَيْنَ رِسَالَاتِ

السَّمَاءِ وَتَتَّضِحُ لِي وِحْدَةُ المِصْدَرِ الَّذِي أَرْسَلَ الهُدَى لِلنَّاسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَكَمْ تَخَبَّطَتِ العُقُولُ فِي ظُلُمَاتِ الجُحُودِ حِينَ كَفَرَتْ بِآيَاتِ اليَقِينِ بَعْدَ أَنْ سَطَعَ الفُرْقَانُ لِيُمَيِّزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَالصِّدْقَ مِنَ الزَّيْفِ، أَرَى الفَجْرَ الصَّادِقَ يَشُقُّ ثَوْبَ اللَّيْلِ البَهِيمِ بِسَيْفٍ مِنَ الضِّيَاءِ فَيَكْشِفُ مَعَالِمَ الطَّرِيقِ لِلسَّائِرِينَ بَيْنَمَا يَحْتَرِقُ المكابِرُونَ الَّذِينَ يُغْمِضُونَ عُيُونَهُمْ عَنِ الشَّمْسِ المشْرِقَةِ، فَمَا أَشَدَّ هَيْبَةَ هَذَا الوَعِيدِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي يَقْرِنُ العِزَّةَ بِالِانْتِقَامِ لِيُنْذِرَ الجَاحِدِينَ بِأَنَّ التَّكْذِيبَ بِالحَقِّ يَسْتَجْلِبُ عَذَابًا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ تِلَاوَتِي لِلْفُرْقَانِ إِلَى مِيزَانٍ دَقِيقٍ أَزِنُ بِهِ الأَفْكَارَ وَالمَوَاقِفَ وَأَصُونُ بِهِ قَلْبِي مِنْ شُبُهَاتِ التَّحْرِيفِ وَالجُحُودِ، فَكُلُّ طَرِيقٍ يُخَالِفُ مِيزَانَ الوَحْيِ يَقُودُ إِلَى الهَاوِيَةِ وَلَا مَفَرَّ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عِزَّةِ اللهِ ذِي الِانْتِقَامِ.

عَيْنُ العَلِيمِ وَأَسْرَارُ الأَرْحَامِ

صَدَى {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: 5 – 6]

فِي ظُلُمَاتِ الأَرْحَامِ المغْلَقَةِ تَتَجَلَّى أَنَامِلُ القُدْرَةِ المبْدِعَةِ لِتُصَوِّرَ الملَامِحَ وَتَنْسُجَ الأَرْوَاحَ تَحْتَ بَصَرٍ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، فَيَسْقُطُ فِي نَفْسِي غُرُورُ الِاخْتِبَاءِ خَلْفَ الجُدْرَانِ وَالأَسْتَارِ بَعْدَ أَنْ أَدْرَكْتُ أَنَّ نُورَ العِلْمِ الإِلَهِيِّ يَخْتَرِقُ أَعْمَاقَ الجَسَدِ وَطَبَقَاتِ الفَضَاءِ عَلَى السَّوَاءِ، وَكَمْ ظَنَنْتُ أَنَّ خَفَايَا الصُّدُورِ وَأَسْرَارَ التَّكْوِينِ بَعِيدَةٌ عَنِ الإِحَاطَةِ قَبْلَ أَنْ تَهْزَنِي حَقِيقَةُ التَّصْوِيرِ فِي الأَرْحَامِ حَيْثُ لَا يَدَ لِبَشَرٍ وَلَا رَقِيبَ إِلَّا الخَالِقُ المصَوِّرُ، أَتَأَمَّلُ البَذْرَةَ الدَّقِيقَةَ فِي جَوْفِ التُّرْبَةِ السَّوْدَاءِ كَيْفَ تَتَشَكَّلُ عُرُوقُهَا وَأَوْرَاقُهَا بِدِقَّةٍ مُعْجِزَةٍ لِتَخْرُجَ زَهْرَةً فَرِيدَةَ اللَّوْنِ وَالعِطْرِ بِأَمْرِ مَنْ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الِاقْتِرَانَ بَيْنَ شُمُولِ العِلْمِ وَإِبْدَاعِ التَّصْوِيرِ الَّذِي يُثْبِتُ أَنَّ العَزِيزَ الحَكِيمَ هُوَ المتَفَرِّدُ بِالخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي إِلَى وُجُودِي إِلَى خُشُوعٍ دَائِمٍ أَسْتَحْضِرُ فِيهِ رَقَابَةَ السَّمَاءِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَأُقِرُّ بِفَضْلِ مَنْ صَوَّرَنِي فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، فَكُلُّ مَا نُخْفِيهِ عَنْ عُيُونِ الخَلْقِ هُوَ مَكْشُوفٌ أَمَامَ بَصَرِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ.

مُحْكَمُ الكِتَابِ وَزَيْغُ المُتَشَابِهِ

صَدَى {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [آل عمران: 7]

أُمُّ الكِتَابِ تَنْتَصِبُ كَالجَبَلِ الرَّاسِخِ فِي قَلْبِ الوَحْيِ لِتَكُونَ المَرْجِعَ الثَّابِتَ الَّذِي يُرَدُّ إِلَيْهِ كُلُّ مُتَشَابِهٍ وَيُفْضَحُ بِهِ زَيْغُ القُلُوبِ المَرِيضَةِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي عَقْلِي ضَبَابُ الشُّبُهَاتِ الَّتِي يَصْطَادُهَا أَهْلُ الفِتْنَةِ فِي المِيَاهِ العَكِرَةِ لِيُشَكِّكُوا البُسَطَاءَ فِي وُضُوحِ الشَّرِيعَةِ وَنَقَاءِ العَقِيدَةِ، وَكَمْ حَاوَلَتِ النَّفْسُ الفُضُولِيَّةُ أَنْ تَقْتَحِمَ أَسْوَارَ الغَيْبِ وَتَبْحَثَ عَنْ تَأْوِيلٍ مَا اسْتَأْثَرَ بِهِ الخَالِقُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَلَّمَ أَدَبَ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ وَتَسْلِيمَهُمُ المُطْلَقَ، أَرَى البَحْرَ الوَاسِعَ تَسْطَعُ الشَّمْسُ عَلَى شَاطِئِهِ الآمِنِ فَيَسْبَحُ فِيهِ العُقَلَاءُ بِيُسْرٍ بَيْنَمَا يَغْرَقُ المُتَهَوِّرُونَ الَّذِينَ يَتْرُكُونَ المِينَاءَ الوَاضِحَ لِيَغُوصُوا فِي اللُّجَجِ السَّحِيقَةِ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا مِصْبَاحٍ، فَمَا أَبْهَى هَذَا التَّوَاضُعَ العِلْمِيَّ الَّذِي يَجْعَلُ العُلَمَاءَ الرَّاسِخِينَ يَهْتِفُونَ بِإِيمَانٍ وَيَقِينٍ أَنَّ الكُلَّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا لِأَنَّهُمْ أُولُو الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ حُدُودَ العَقْلِ البَشَرِيِّ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ قِرَاءَتِي لِلْقُرْآنِ إِلَى انْضِبَاطٍ مَنْهَجِيٍّ أَتَمَسَّكُ فِيهِ بِالمُحْكَمَاتِ الوَاضِحَةِ وَأُسَلِّمُ مَفَاتِيحَ المُتَشَابِهَاتِ لِعَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَكُلُّ بَحْثٍ يَقُومُ عَلَى الزَّيْغِ يَنْتَهِي إِلَى الفِتْنَةِ وَلَا يَعْلَمُ التَّأْوِيلَ المُطْلَقَ إِلَّا اللهُ.

دُعَاءُ الثَّبَاتِ وَوَهْبُ الرَّحْمَةِ

صَدَى {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران: 8]

عَلَى عَتَبَةِ التَّضَرُّعِ الخَاشِعِ يَنْكَسِرُ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ لِيَطْلُبُوا ثَبَاتَ القُلُوبِ بَعْدَ نِعْمَةِ الهِدَايَةِ خَوْفًا مِنْ تَقَلُّبِ الأَهْوَاءِ وَزَلَلِ الأَقْدَامِ، فَيَسْقُطُ فِي وِجْدَانِي غُرُورُ العِلْمِ وَالعَمَلِ الَّذِي يُوهِمُ الإِنْسَانَ أَنَّهُ قَدْ أَمِنَ المَكْرَ وَضَمِنَ البَقَاءَ عَلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ بِلَا مَدَدٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَكَمْ رَأَيْتُ قُلُوبًا أَشْرَقَتْ بِالنُّورِ زَمَنًا ثُمَّ انْحَرَفَتْ عَنِ الجَادَّةِ حِينَ اغْتَرَّتْ بِذَاتِهَا وَنَسِيَتْ أَنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أَصَابِعِ

الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، أَتَأَمَّلُ القِنْدِيلَ المضِيءَ فِي مَهَبِّ الرِّيَاحِ العَاتِيَةِ كَيْفَ يَحْتَاجُ فِي كُلِّ ثَانِيَةٍ إِلَى زَيْتٍ جَدِيدٍ وَيَدٍ حَانِيَةٍ تَحْمِي شُعْلَتَهُ مِنَ الِانْطِفَاءِ حَتَّى يَبْلُغَ الفَجْرَ بِسَلَامٍ، فَمَا أَعْذَبَ هَذَا الِافْتِقَارَ الصَّادِقَ الَّذِي يَتَوَسَّلُ بِاسْمِ الوَهَّابِ لِيَسْتَمْطِرَ رَحْمَةً لَدُنِّيَّةً تَعْصِمُ الرُّوحَ مِنَ الزَّيْغِ وَتُثَبِّتُهَا عَلَى الحَقِّ حَتَّى المَمَاتِ، هَكَذَا يَتَحَوَّلُ هَذَا الدُّعَاءُ فِي لِسَانِي إِلَى نَشِيدٍ يَوْمِيٍّ أَحْرُسُ بِهِ إِيمَانِي مِنَ التَّبَدُّلِ وَأَسْتَمِدُّ بِهِ العَطَاءَ الرَّبَّانِيَّ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَكُلُّ هِدَايَةٍ لَا تَحْرُسُهَا رَحْمَةُ السَّمَاءِ هِيَ عُرْضَةٌ لِلزَّيْغِ وَلَا وَاهِبَ لِلثَّبَاتِ إِلَّا اللهُ الوَهَّابُ.

يَقِينُ الجَمْعِ وَصِدْقُ الميعَادِ

صَدَى {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [آل عمران: 9]

مَوْعِدُ الحَشْرِ الكَبِيرِ يَنْتَصِبُ أَمَامَ عُيُونِ المؤْمِنِينَ كَالحَقِيقَةِ الوَحِيدَةِ الَّتِي لَا يَعْتَرِيهَا شَكٌّ وَلَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا مَخْلُوقٌ فِي هَذَا الوُجُودِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي صَدْرِي ضَجِيجُ الدُّنْيَا المتَفَرِّقَةِ الَّتِي تَظُنُّ أَنَّ الظَّالِمَ سَيَفْلِتُ بِظُلْمِهِ وَأَنَّ المظْلُومَ سَيَمُوتُ بِحَسْرَتِهِ دُونَ لِقَاءٍ يَجْمَعُ الخُصُومَ، وَكَمْ غَفَلَتْ نَفْسِي فِي زَحْمَةِ الأَيَّامِ عَنْ ذَلِكَ اليَوْمِ المشْهُودِ الَّذِي تُطْوَى فِيهِ المسَافَاتُ وَتُبْعَثُ فِيهِ الأَجْسَادُ لِتَقِفَ صَفًّا وَاحِدًا أَمَامَ العَدْلِ المطْلَقِ، أَرَى قَطَرَاتِ المطَرِ المبَعْثَرَةَ فَوْقَ قِمَمِ الجِبَالِ وَأَعْمَاقِ الوِدْيَانِ كَيْفَ تَسُوقُهَا قَوَانِينُ الجَاذِبِيَّةِ لِتَجْتَمِعَ كُلُّهَا فِي مَصَبٍّ وَاحِدٍ عِنْدَ نِهَايَةِ الرِّحْلَةِ دُونَ أَنْ تَضِلَّ قَطْرَةٌ وَاحِدَةٌ طَرِيقَهَا، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا اليَقِينَ الرَّاسِخَ الَّذِي يُخْتَمُ بِهِ دُعَاءُ الرَّاسِخِينَ لِيُعْلِنَ أَنَّ وَعْدَ السَّمَاءِ صِدْقٌ مَحْتُومٌ لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْ مِيقَاتِهِ المرْسُومِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ ذَاكِرَتِي لِيَوْمِ الجَمْعِ إِلَى بُوصَلَةٍ تَضْبِطُ خُطُوَاتِي فِي الأَرْضِ وَتُهَوِّنُ عَلَيَّ مَشَقَّاتِ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ، فَكُلُّ فُرْقَةٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَى اجْتِمَاعٍ وَلَا يُخْلِفُ الميعَادَ أَبَدًا اللهُ.

وَقُودُ النَّارِ وَسَرَابُ الثَّرْوَةِ

صَدَى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ} [آل عمران: 10]

أَمْوَالُ الطُّغَاةِ وَأَبْنَاؤُهُمُ الَّذِينَ يَتَبَاهَوْنَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا يَتَحَوَّلُونَ عِنْدَ سَاعَةِ الحِسَابِ إِلَى هَبَاءٍ مَنْثُورٍ لَا يَرُدُّ عَنْهُمْ ذَرَّةً مِنْ عَذَابِ السَّمَاءِ، فَيَنْهَارُ فِي دَاخِلِي صَنَمُ التَّكَاثُرِ الَّذِي يُوهِمُ البَشَرَ أَنَّ الخَزَائِنَ وَالعِزْوَةَ تَبْنِي حِصْنًا يَحْمِي صَاحِبَهُ مِنْ قَدَرِ المَوْتِ وَالبَعْثِ، وَكَمْ انْبَهَرَتِ الأَعْيُنُ بِمَوَاكِبِ الأَغْنِيَاءِ الجَاحِدِينَ وَظَنَّتْ أَنَّ قُوَّتَهُمْ لَا تُقْهَرُ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ لَنَا الآيَةُ مَصِيرَهُمُ المُرْعِبَ حِينَ يَصِيرُونَ حَطَبًا تَشْتَعِلُ بِهِ نَارُ الجَحِيمِ، أَتَأَمَّلُ الأَشْجَارَ الضَّخْمَةَ اليَابِسَةَ فِي الغَابَةِ كَيْفَ تَبْدُو شَاهِقَةً بِأَغْصَانِهَا الكَثِيفَةِ ثُمَّ تَكُونُ هِيَ أَسْرَعَ الأَشْيَاءِ اشْتِعَالًا وَتَحَوُّلًا إِلَى رَمَادٍ حِينَ تَمَسُّهَا شَرَارَةُ الحَرِيقِ الهَائِلِ، فَمَا أَشَدَّ خَسَارَةَ مَنْ أَفْنَى عُمُرَهُ فِي جَمْعِ الفَانِي وَنَسِيَ زَادَ البَاقِي فَوَجَدَ نَفْسَهُ عَارِيًا مِنْ كُلِّ نَصِيرٍ أَمَامَ لَهِيبِ النَّارِ المُسْتَعِرَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي إِلَى المَالِ وَالأَوْلَادِ إِلَى وَسِيلَةٍ لِلطَّاعَةِ وَالإِنْفَاقِ لَا غَايَةً لِلْغُرُورِ وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنْ مَلِكِ المُلُوكِ، فَكُلُّ مَا نَمْلِكُهُ خَارِجَ دَائِرَةِ الإِيمَانِ هُوَ وَبَالٌ وَحَسْرَةٌ وَلَا يُغْنِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللهِ.

سُنَّةُ الهَلَاكِ وَعِقَابُ الذُّنُوبِ

صَدَى {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [آل عمران: 11]

عَلَى صَفَحَاتِ التَّارِيخِ المِطْوِيَّةِ تَتَكَرَّرُ مَأْسَاةُ الطُّغَاةِ كَمَا وَقَعَتْ لِآلِ فِرْعَوْنَ حِينَ قَابَلُوا البَرَاهِينَ السَّاطِعَةَ بِالتَّكْذِيبِ فَأَخَذَتْهُمْ قَبْضَةُ العَدْلِ بِذُنُوبِهِمْ، فَيَتَلَاشَى فِي عَقْلِي وَهْمُ الِاسْتِثْنَاءِ الَّذِي يُقْنِعُ المُجْرِمِينَ فِي كُلِّ عَصْرٍ أَنَّ أَقْدَارَهُمْ سَتَخْتَلِفُ عَنْ مَصِيرِ الغَابِرِينَ الَّذِينَ ابْتَلَعَهُمُ اليَمُّ وَالخَسْفُ، وَكَمْ غَفَلَتِ الأُمَمُ عَنْ قِرَاءَةِ سُنَنِ الكَوْنِ الثَّابِتَةِ الَّتِي تَرْبِطُ بَيْنَ التَّكْذِيبِ بِآيَاتِ السَّمَاءِ وَبَيْنَ نُزُولِ البَطْشِ الإِلَهِيِّ الَّذِي لَا يُبْقِي وَلَا يَذَرُ، أَرَى الأَمْوَاجَ العَاتِيَةَ تَنْدَفِعُ بِغُرُورٍ نَحْوَ الصُّخُورِ الشَّاطِئِيَّةِ الصَّلْبَةِ المَرَّةَ تِلْوَ الأُخْرَى فَتَتَحَطَّمُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَتَتَلَاشَى زَبَدًا فِي الهَوَاءِ دُونَ أَنْ يَتَغَيَّرَ قَانُونُ البَحْرِ وَالصَّخْرِ أَبَدًا، فَمَا أَشَدَّ هَيْبَةَ هَذَا التَّذْكِيرِ الجَلِيلِ الَّذِي يَخْتِمُ مَشْهَدَ المَصَارِعِ بِإِعْلَانِ شِدَّةِ العِقَابِ لِتَرْتَدِعَ القُلُوبُ عَنْ مُحَاكَاةِ أَهْلِ الطُّغْيَانِ وَالعِنَادِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ قِصَصُ الأَوَّلِينَ فِي وِجْدَانِي إِلَى مَرَايَا حَيَّةٍ أَرَى فِيهَا عَوَاقِبَ الذُّنُوبِ فَأُسَارِعُ إِلَى التَّوْبَةِ وَالتَّصْدِيقِ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ، فَكُلُّ طُغْيَانٍ يَتَكَرَّرُ فِي الأَرْضِ يَلْقَى المَصِيرَ ذَاتَهُ وَلَا رَادَّ لِبَأْسِ اللهِ شَدِيدِ الْعِقَابِ.

نُبُوءَةُ الهَزِيمَةِ وَبِئْسَ المِهَادُ

صَدَى {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران: 12]

فِي ذُرْوَةِ انْتِشَاءِ البَاطِلِ بِقُوَّتِهِ الزَّائِفَةِ يَهْبِطُ الوَعْدُ الإِلَهِيُّ الحَاسِمُ لِيُبَشِّرَ الجَاحِدِينَ بِهَزِيمَةٍ مُحَقَّقَةٍ فِي الدُّنْيَا وَحَشْرٍ مُهِينٍ إِلَى جَهَنَّمَ فِي الآخِرَةِ، فَيَنْكَسِرُ فِي صَدْرِي خَوْفُ المؤْمِنِ مِن انْتِفَاشِ العَدُوِّ وَكَثْرَةِ عَتَادِهِ بَعْدَ أَنْ صَدَرَ الحُكْمُ السَّمَاوِيُّ النِّهَائِيُّ بِغَلَبَةِ الحَقِّ وَانْكِسَارِ الكُفْرِ، وَكَمْ أَظْلَمَتْ سَمَاءُ الأَمَلِ فِي عُيُونِ المسْتَضْعَفِينَ حِينَ ظَنُّوا أَنَّ جَوْلَةَ الظَّلَمَةِ سَتَدُومُ إِلَى الأَبَدِ قَبْلَ أَنْ تُعْلِنَ هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ السُّقُوطَ قَدَرٌ مَحْتُومٌ لَا مَفَرَّ مِنْهُ، أَتَأَمَّلُ اللَّيْلَ المظْلِمَ كَيْفَ يَتَمَدَّدُ بِغُرُورٍ فَوْقَ الأَرْضِ وَيَظُنُّ أَنَّهُ سَيَحْكُمُ الكَوْنَ إِلَى الأَبَدِ ثُمَّ تَأْتِي رَايَةُ الفَجْرِ الصَّغِيرَةُ فَتَهْزِمُ جُيُوشَ العَتْمَةِ وَتَطْرُدُهَا خَلْفَ الأُفُقِ، فَمَا أَبْأَسَ ذَلِكَ المصِيرَ الَّذِي يَنْتَظِرُ المغْلُوبِينَ فِي الدَّارَيْنِ حِينَ يُسَاقُونَ إِلَى فِرَاشٍ مِنَ النَّارِ لَا يَعْرِفُ الرَّاحَةَ وَلَا السُّكُونَ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ ثِقَتِي بِوَعْدِ السَّمَاءِ إِلَى صَلَابَةٍ لَا تَلِينُ أَمَامَ تَهْدِيدَاتِ البَاطِلِ لِأَنَّنِي أَقْرَأُ نِهَايَةَ المعْرَكَةِ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ، فَكُلُّ قُوَّةٍ تَقِفُ فِي وَجْهِ النُّورِ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا الِانْكِسَارُ وَلَا مَلْجَأَ لِلْكَافِرِينَ مِنْ حُكْمِ اللهِ.

عِبْرَةُ الفِئَتَيْنِ وَبَصِيرَةُ التَّأْيِيدِ

صَدَى {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} [آل عمران: 13]

عَلَى رِمَالِ بَدْرٍ الخَالِدَةِ تَتَجَلَّى آيَةُ السَّمَاءِ فِي مَشْهَدِ الفِئَتَيْنِ حِينَ تَتَغَيَّرُ مَقَايِيسُ الرُّؤْيَةِ البَصَرِيَّةِ لِتَصْنَعَ نَصْرَ القِلَّةِ المؤْمِنَةِ عَلَى الكَثْرَةِ الجَاحِدَةِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي عَقْلِي غُرُورُ الحِسَابَاتِ الرِّيَاضِيَّةِ الصَّمَّاءِ الَّتِي تَجْهَلُ أَنَّ يَدَ المِلكِ تُدِيرُ المعْرَكَةَ وَتُضَاعِفُ صُورَةَ المؤْمِنِينَ فِي أَعْيُنِ أَعْدَائِهِمْ، وَكَمْ تَرَدَّدَتِ النُّفُوسُ عِنْدَ مُقَارَنَةِ العَدَدِ وَالعُدَّةِ قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَ أَنَّ النَّصْرَ هِبَةٌ يَمْنَحُهَا الخَالِقُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الصَّادِقِينَ، أَرَى قَطْرَةَ المَاءِ الصَّافِيَةِ تَحْتَ شُعَاعِ الشَّمْسِ تَعْكِسُ أَلْوَانَ الطَّيْفِ كُلَّهَا وَتَمْلَأُ المكَانَ بَرِيقًا يُبْهِرُ الأَبْصَارَ بَيْنَمَا تَتَلَاشَى كُتَلُ الضَّبَابِ الكَثِيفَةِ عِنْدَ أَوَّلِ نَسْمَةٍ دَافِئَةٍ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ العِبْرَةَ النُّورَانِيَّةَ الَّتِي تُوقِظُ أُولِي الأَبْصَارِ لِيَرَوْا تَدْبِيرَ السَّمَاءِ خَلْفَ حُجُبِ الأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ فِي كُلِّ

مَيْدَانٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ رُؤْيَتِي لِلْأَحْدَاثِ إِلَى بَصِيرَةٍ نَافِذَةٍ تَثِقُ بِالتَّأْيِيدِ الإِلَهِيِّ أَكْثَرَ مِنْ ثِقَتِهَا بِالأَرْقَامِ وَالجُيُوشِ، فَكُلُّ نَصْرٍ فِي هَذَا الوُجُودِ هُوَ صِنَاعَةٌ سَمَاوِيَّةٌ وَلَا عِزَّةَ إِلَّا لِمَنْ أَيَّدَهُ اللهُ.

زِينَةُ الشَّهَوَاتِ وَحُسْنُ المآبِ

صَدَى {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [آل عمران: 14]

بَرِيقُ الشَّهَوَاتِ الأَرْضِيَّةِ يُحِيطُ بِالإِنْسَانِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِيَفْتِنَ قَلْبَهُ بِالذَّهَبِ وَالبَنِينَ وَالمَتَاعِ الزَّائِلِ قَبْلَ أَنْ يَكْشِفَ الوَحْيُ أَنَّ حُسْنَ المآبِ يَسْكُنُ هُنَاكَ عِنْدَ المَلِكِ، فَيَسْقُطُ فِي وِجْدَانِي سِحْرُ الزَّخَارِفِ الطِّينِيَّةِ الَّتِي تَسْرِقُ العُمُرَ فِي اللَّهْثِ خَلْفَ السَّرَابِ وَتُنْسِي الرُّوحَ مَوْطِنَهَا الأَبَدِيَّ، وَكَمْ تَعَلَّقَتْ أَصَابِعِي بِقَنَاطِيرِ الدُّنْيَا المُقَنْطَرَةِ وَحَسِبْتُهَا غَايَةَ الوُجُودِ قَبْلَ أَنْ أَرَى كَيْفَ تَتَحَوَّلُ كُلُّهَا إِلَى تُرَابٍ عِنْدَ عَتَبَةِ القَبْرِ، أَتَأَمَّلُ قَوْسَ قُزَحَ المُلَوَّنَ فِي السَّمَاءِ بَعْدَ المَطَرِ كَيْفَ يَسْحَرُ العُيُونَ بِبَهَائِهِ لِدَقَائِقَ مَعْدُودَةٍ ثُمَّ يَتَلَاشَى فِي الفَضَاءِ وَلَا تَبْقَى إِلَّا السَّمَاءُ الزَّرْقَاءُ الصَّافِيَةُ الدَّائِمَةُ، فَمَا أَعْدَلَ هَذَا الوَصْفَ القُرْآنِيَّ الَّذِي لَا يُحَرِّمُ مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَكِنَّهُ يَضَعُهُ فِي حَجْمِهِ الحَقِيقِيِّ كَمَحَطَّةٍ عَابِرَةٍ نَحْوَ المَرْجِعِ الأَجْمَلِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ رَغَبَاتِي فِي الدُّنْيَا إِلَى مَعَابِرَ أَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى الوُصُولِ دُونَ أَنْ أَسْمَحَ لَهَا أَنْ تَسْتَعْبِدَ قَلْبِي أَوْ تَحْجُبَنِي عَنِ الخُلُودِ، فَكُلُّ مَتَاعٍ فَوْقَ التُّرَابِ هُوَ زِينَةٌ مُؤَقَّتَةٌ وَلَا مَآبَ حَسَنٌ يَدُومُ إِلَّا عِنْدَ اللهِ.

جَنَّاتُ الرِّضْوَانِ وَبَصَرُ العِبَادِ

صَدَى {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: 15]

فَوْقَ كُلِّ مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ مِنْ زِينَةِ الطِّينِ تَتَرَبَّعُ جَنَّاتُ الخُلْدِ وَالأَنْهَارُ الجَارِيَةُ وَرِضْوَانُ الخَالِقِ الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ نَعِيمٍ وَجَمَالٍ، فَيَتَقَزَّمُ فِي عَيْنِي ذَهَبُ الدُّنْيَا وَخَيْلُهَا وَحَرْثُهَا أَمَامَ هَذَا العَطَاءِ

السَّمَاوِيِّ الخَالِصِ مِنَ الكَدَرِ وَالفَنَاءِ، وَكَمْ تَعَلَّقَتْ رُوحِي بِاللَّذَّاتِ المشُوبَةِ بِالتَّعَبِ وَالزَّوَالِ قَبْلَ أَنْ تَسْمَعَ هَذَا النَّبَأَ العَظِيمَ الَّذِي يُعِدُّهُ الرَّحْمَنُ لِلْمُتَّقِينَ الصَّادِقِينَ، أَرَى القَطْرَةَ المالِحَةَ فِي قَاعِ البَحْرِ المظْلِمِ تَتُوقُ إِلَى النَّهْرِ العَذْبِ الزُّلَالِ الَّذِي يَجْرِي تَحْتَ ظِلَالِ الأَشْجَارِ المثْمِرَةِ حَيْثُ الطَّهَارَةُ المطْلَقَةُ وَالسَّلَامُ الأَبَدِيُّ، فَمَا أَعْظَمَ ذَلِكَ الوِسَامَ الأَسْمَى الَّذِي يُتَوِّجُ نَعِيمَ الجَنَّةِ بِرِضْوَانِ المَلِكِ تَحْتَ رِعَايَةِ البَصِيرِ الَّذِي يَرَى صِدْقَ المتَّقِينَ وَجِهَادَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ تَطَلُّعَاتِي إِلَى شَوْقٍ عَارِمٍ لِتِلْكَ الدَّارِ البَاقِيَةِ أَبِيعُ لِأَجْلِهَا زُخْرُفَ الفَانِي وَأَتَطَهَّرُ لِأَكُونَ أَهْلًا لِتِلْكَ المَنَازِلِ العُلْيَا، فَكُلُّ نَعِيمٍ فِي الدُّنْيَا يَنْتَهِي بِالحَسْرَةِ وَلَا سَعَادَةَ أَبَدِيَّةٌ إِلَّا بِرِضْوَانٍ مِنَ اللهِ.

نِدَاءُ الإِيمَانِ وَوِقَايَةُ النَّارِ

صَدَى {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: 16]

عَلَى أَعْتَابِ الجَنَّةِ وَالرِّضْوَانِ يَقِفُ المتَّقُونَ بِقُلُوبٍ مُنْكَسِرَةٍ يَتَوَسَّلُونَ بِإِيمَانِهِمْ الصَّادِقِ لِيَمْحُوَ الخَالِقُ ذُنُوبَهُمْ وَيَقِيَهُمْ لَهِيبَ النَّارِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي نَفْسِي كِبْرُ المدَّعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ طَاعَتَهُمْ تُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ بِلَا حَاجَةٍ إِلَى مَغْفِرَةِ السَّمَاءِ وَعَفْوِهَا، وَكَمْ وَقَفْتُ فِي مِحْرَابِ اللَّيْلِ أُحْصِي تَقْصِيرِي وَخَطَايَايَ فَلَمْ أَجِدْ شَفِيعًا أَصْدَقَ مِنْ إِقْرَارِي بِالإِيمَانِ وَضَرَاعَتِي لِكَشْفِ العَذَابِ عَنْ رُوحِي، أَتَأَمَّلُ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ حِينَ يَخْشَى ظُلْمَةَ اللَّيْلِ وَبَرْدَ الشِّتَاءِ فَيَرْتَمِي فِي حِضْنِ أُمِّهِ الحَنُونِ مُعْتَرِفًا بِضَعْفِهِ فَتُحِيطُهُ بِالدِّفْءِ وَالأَمَانِ وَتَطْرُدُ عَنْهُ كُلَّ رُعْبٍ وَأَذًى، فَمَا أَجْمَلَ هَذَا الأَدَبَ القُرْآنِيَّ الَّذِي يُعَلِّمُ العِبَادَ كَيْفَ يَتَوَسَّلُونَ بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ وَإِيمَانِهِمْ لِيَنَالُوا المغْفِرَةَ وَالنَّجَاةَ مِنَ الجَحِيمِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ كَلِمَاتِي فِي الدُّعَاءِ إِلَى مِفْتَاحٍ لِلرَّحْمَةِ أُقَدِّمُ فِيهِ إِيمَانِي بَيْنَ يَدَيْ سُؤَالِي وَأَسْتَجِيرُ بِالعَفْوِ الإِلَهِيِّ مِنْ نَارٍ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ، فَكُلُّ نَجَاةٍ نَرْجُوهَا هِيَ مِنْحَةٌ رَبَّانِيَّةٌ وَلَا وَاقِيَ مِنَ العَذَابِ إِلَّا مَغْفِرَةُ اللهِ.

سِمَاتُ الأَبْرَارِ وَسَكِينَةُ الأَسْحَارِ

صَدَى {الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} [آل عمران: 17]

فِي جَوْفِ السَّحَرِ الهَادِئِ تَتَلَأْلَأُ جَوَاهِرُ الأَبْرَارِ الخَمْسُ بَيْنَ صَبْرٍ جَمِيلٍ وَصِدْقٍ نَقِيٍّ وَقُنُوتٍ خَاشِعٍ وَإِنْفَاقٍ سَخِيٍّ وَاسْتِغْفَارٍ يَغْسِلُ القُلُوبَ، فَيَتَشَكَّلُ أَمَامَ بَصِيرَتِي مِعْرَاجُ الكَمَالِ الرُّوحِيِّ الَّذِي يَصْعَدُ بِالإِنْسَانِ مِنْ طِينِ الأَرْضِ إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ وَالرِّضْوَانِ، وَكَمْ قَضَيْتُ لَيَالِيَ طَوِيلَةً فِي غَفْلَةِ النَّوْمِ وَأَنَا أَحْرِمُ رُوحِي مِنْ نَسَمَاتِ الأَسْحَارِ الَّتِي تَتَنَزَّلُ فِيهَا الرَّحَمَاتُ عَلَى المُسْتَغْفِرِينَ البَاكِينَ، أَرَى الزَّهْرَةَ البَرِّيَّةَ تَفْتَحُ أَوْرَاقَهَا قُبَيْلَ الفَجْرِ لِتَسْتَقْبِلَ قَطَرَاتِ النَّدَى البَارِدَةِ فَتَزْدَادُ نَضَارَةً وَعِطْرًا تَمْلَأُ بِهِ الكَوْنَ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الِانْسِجَامَ البَدِيعَ بَيْنَ ثَبَاتِ الصَّبْرِ وَطَهَارَةِ الصِّدْقِ وَخُشُوعِ القُنُوتِ وَكَرَمِ الإِنْفَاقِ الَّذِي يُتَوَّجُ بِالِانْكِسَارِ وَالِاسْتِغْفَارِ فِي أَطْيَبِ سَاعَاتِ اللَّيْلِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ خَرِيطَةُ سُلُوكِي إِلَى سَعْيٍ دَؤُوبٍ لِلتَّحَلِّي بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الخَمْسِ لِأَكُونَ فِي عِدَادِ أَهْلِ الفِرْدَوْسِ وَالمَغْفِرَةِ، فَكُلُّ لَيْلٍ يَمُرُّ بِلَا اسْتِغْفَارٍ فِي السَّحَرِ هُوَ فُرْصَةٌ ضَائِعَةٌ لِلْقُرْبِ مِنَ اللهِ.

شَهَادَةُ الحَقِّ وَمِيزَانُ القِسْطِ

صَدَى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: 18]

أَعْظَمُ شَهَادَةٍ فِي تَارِيخِ الوُجُودِ تَنْطَلِقُ مِنَ العَرْشِ الأَعْلَى وَتُرَدِّدُهَا المَلَائِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ لِتُقَرِّرَ تَفَرُّدَ الخَالِقِ بِالأُلُوهِيَّةِ وَقِيَامَهُ بِالعَدْلِ المُطْلَقِ، فَيَذُوبُ فِي أَعْمَاقِي كُلُّ شَكٍّ أَوْ تَرَدُّدٍ بَعْدَ أَنْ اجْتَمَعَتْ شَهَادَةُ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ عَلَى حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الكَوْنُ، وَكَمْ شَعَرْتُ بِشَرَفِ العِلْمِ وَالعُلَمَاءِ حِينَ رَأَيْتُ الخَالِقَ يَقْرِنُ اسْمَهُمْ بِاسْمِهِ وَاسْمِ مَلَائِكَتِهِ فِي أَجَلِّ قَضِيَّةٍ وَأَعْظَمِ مِيثَاقٍ كَوْنِيٍّ، أَتَأَمَّلُ المِيزَانَ الذَّهَبِيَّ الدَّقِيقَ المُعَلَّقَ فِي كَبِدِ الفَضَاءِ كَيْفَ يَحْفَظُ تَوَازُنَ المَجَرَّاتِ وَالذَّرَّاتِ بِقِسْطٍ لَا يَمِيلُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً لِأَنَّ صَانِعَهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ، فَمَا أَجَلَّ هَذَا التَّكْرِيمَ الإِلَهِيَّ لِلْعِلْمِ الصَّادِقِ الَّذِي يَقُودُ صَاحِبَهُ إِلَى الشَّهَادَةِ بِالوَحْدَانِيَّةِ وَالإِقْرَارِ بِعَدَالَةِ التَّدْبِيرِ فِي كُلِّ مَخْلُوقٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ شَهَادَةُ التَّوْحِيدِ فِي صَدْرِي إِلَى نُورٍ يَغْمُرُ عَقْلِي وَقَلْبِي وَيَجْعَلُنِي شَاهِدًا بِالحَقِّ وَالعَدْلِ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ أَقِفُهُ، فَكُلُّ عِلْمٍ لَا يَنْتَهِي بِصَاحِبِهِ إِلَى شَهَادَةِ التَّوْحِيدِ هُوَ جَهْلٌ مُقَنَّعٌ وَلَا إِلَهَ فِي الوُجُودِ إِلَّا اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ.

دِينُ الإِسْلَامِ وَبَغْيُ العِلْمِ

صَدَى {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [آل عمران: 19]

عِنْدَ بَوَّابَةِ السَّمَاءِ لَا يُقْبَلُ سِوَى مِيثَاقِ الإِسْلَامِ وَالِاسْتِسْلَامِ الكَامِلِ لِخَالِقِ الأَكْوَانِ بَعْدَ أَنْ مَزَّقَ البَغْيُ وَالحَسَدُ صُفُوفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ رَغْمَ وُضُوحِ العِلْمِ، فَيَنْكَشِفُ لِي أَنَّ الِانْحِرَافَ عَنْ جَادَّةِ الدِّينِ الحَقِّ لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ غُمُوضِ الحَقِيقَةِ بَلْ بِسَبَبِ طُغْيَانِ الأَنَانِيَّةِ وَالتَّنَافُسِ عَلَى الدُّنْيَا، وَكَمْ رَأَيْتُ العِلْمَ يَتَحَوَّلُ فِي صُدُورِ المُتَكَبِّرِينَ إِلَى سِلَاحٍ لِلْفُرْقَةِ وَالجُحُودِ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَكُونَ جِسْرًا لِلْخُضُوعِ وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِ السَّمَاءِ، أَرَى النَّهْرَ الصَّافِيَ يَتَدَفَّقُ مِنْ قِمَّةِ الجَبَلِ بِعُذُوبَةٍ وَنَقَاءٍ ثُمَّ يَقُومُ البَاغُونَ بِبِنَاءِ السُّدُودِ الظَّالِمَةِ لِتَمْزِيقِ مَجْرَاهُ وَتَحْوِيلِهِ إِلَى بِرَكٍ رَاكِدَةٍ تَتَصَارَعُ فِيهَا الأَهْوَاءُ، فَمَا أَشَدَّ هَذَا التَّحْذِيرَ الخَاتِمَ الَّذِي يُنْذِرُ الكَافِرِينَ بِآيَاتِ الوَحْيِ بِأَنَّ سَاعَةَ الحِسَابِ سَرِيعَةٌ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ تَأْوِيلَاتُهُمُ الفَاسِدَةُ شَيْئًا، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي إِلَى اسْتِسْلَامٍ نَقِيٍّ لِشَرِيعَةِ الإِسْلَامِ أُنَزِّهُ فِيهِ عِلْمِي عَنِ البَغْيِ وَالحَسَدِ وَأُسَارِعُ بِهِ إِلَى الطَّاعَةِ قَبْلَ حُلُولِ الأَجَلِ، فَكُلُّ دِينٍ يَقُومُ عَلَى الهَوَى مَرْدُودٌ عَلَى صَاحِبِهِ وَلَا يَقْبَلُ السَّمَاءُ سِوَى الإِسْلَامِ عِنْدَ اللهِ.

سَكِينَةُ الإِسْلَامِ وَبَصَرُ الرَّقِيبِ

صَدَى {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: 20]

فِي مُوَاجَهَةِ ضَجِيجِ المجَادِلِينَ وَعِنَادِ المكَابِرِينَ تَنْتَصِبُ كَلِمَةُ التَّسْلِيمِ المطْلَقِ لِتُعْلِنَ إِخْلَاصَ الوَجْهِ وَالقَلْبِ لِخَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي صَدْرِي عَنَاءُ الجِدَالِ العَقِيمِ بَعْدَ أَنْ أَدْرَكْتُ أَنَّ وَظِيفَةَ المؤْمِنِ هِيَ البَلَاغُ المبِينُ وَتَرْكُ الحِسَابِ لِمَنْ يَرَى خَفَايَا العِبَادِ، وَكَمْ أَرْهَقْتُ نَفْسِي فِي مُحَاوَلَةِ إِقْنَاعِ القُلُوبِ المغْلَقَةِ قَبْلَ أَنْ تُعَلِّمَنِي هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ الهِدَايَةَ تَبْدَأُ حِينَ يُسْلِمُ الإِنْسَانُ وَجْهَهُ لِلسَّمَاءِ بِصِدْقٍ وَيَقِينٍ، أَتَأَمَّلُ زَهْرَةَ عَبَّادِ الشَّمْسِ كَيْفَ تُدِيرُ وَجْهَهَا بِسَكِينَةٍ تَامَّةٍ نَحْوَ القُرْصِ

المضِيءِ طُولَ النَّهَارِ دُونَ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلَى صَخَبِ الرِّيَاحِ أَوْ ظِلَالِ الأَشْجَارِ المحِيطَةِ بِهَا، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الرَّاحَةَ النَّفْسِيَّةَ الَّتِي تَغْمُرُ الدَّاعِيَ إِلَى الحَقِّ حِينَ يُؤَدِّي رِسَالَتَهُ بِوُضُوحٍ ثُمَّ يَمْضِي مُطْمَئِنًّا لِأَنَّ البَصِيرَ بِالعِبَادِ يَعْلَمُ مَنِ اهْتَدَى وَمَنْ تَوَلَّى، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ وِجْهَتِي فِي الحَيَاةِ إِلَى إِسْلَامٍ خَالِصٍ لِوَجْهِ الحَقِّ أُبَلِّغُ فِيهِ رِسَالَةَ النُّورِ بِرِفْقٍ وَأُفَوِّضُ نَتَائِجَ الهِدَايَةِ لِصَاحِبِ المُلْكِ، فَكُلُّ جِدَالٍ لَا يُثْمِرُ التَّسْلِيمَ هُوَ ضَيَاعٌ لِلْوَقْتِ وَلَا يَخْفَى مَوْقِفُ العِبَادِ عَلَى بَصَرِ اللهِ.

سِفْرُ الصَّدَى السَّابِعَ عَشَرَ

مَصْرَعُ الضَّوْءِ وَبُشْرَى الجَحِيمِ

صَدَى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [آل عمران: 21]

خَنَاجِرُ الظَّلَامِ المسْمُومَةُ تَنْغَرِسُ فِي صُدُورِ الأَنْبِيَاءِ وَحُرَّاسِ العَدَالَةِ لِتُطْفِئَ قَنَادِيلَ السَّمَاءِ فَوْقَ رَمَادِ الأَرْضِ، فَيَرْتَعِشُ فِي أَعْمَاقِي شُعُورٌ حَارِقٌ بِوَهْمِ القُوَّةِ الطِّينِيَّةِ الَّتِي تَظُنُّ أَنَّ ذَبْحَ المبَشِّرِينَ بِالضَّوْءِ يَمْنَعُ الفَجْرَ مِنَ الِانْبِلَاجِ، وَكَمْ أَغْمَضْتُ عَيْنِي فِي زَوَايَا الخَوْفِ حِينَ رَأَيْتُ أَصْوَاتَ القِسْطِ تُخْنَقُ فِي الحَنَاجِرِ وَسُيُوفَ البَاطِلِ تَرْقُصُ فَوْقَ جِرَاحِ الحَقِيقَةِ، أَتَأَمَّلُ السَّحَابَةَ السَّوْدَاءَ الكَثِيفَةَ تَبْتَلِعُ نَجْمَةَ الصُّبْحِ فِي غُرُورٍ ثُمَّ تَنْفَجِرُ صَاعِقَةً تُحْرِقُ أَحْشَاءَهَا لِتُعْلِنَ أَنَّ جَرِيمَةَ اغْتِيَالِ النُّورِ لَا تَمُرُّ بِلَا ثَمَنٍ، فَمَا أَشَدَّ سُخْرِيَةَ الِانْتِقَامِ الإِلَهِيِّ حِينَ يَسْتَبْدِلُ تَبَاشِيرَ الفَرَحِ بِبُشْرَى العَذَابِ الأَلِيمِ الَّذِي يَلْتَهِمُ قَتَلَةَ الحَقِّ وَمُغْتَالِي الميزَانِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ صَرْخَةُ المظْلُومِينَ فِي وِجْدَانِي إِلَى جَمْرَةٍ تُوقِظُ ضَمِيرِي لِأَقِفَ فِي صَفِّ العَدَالَةِ وَلَوْ تَكَالَبَتْ عَلَيَّ ظُلُمَاتُ الوُجُودِ، فَكُلُّ سَيْفٍ يُشْهَرُ فِي وَجْهِ الحَقِيقَةِ يَرْتَدُّ إِلَى نَحْرِ صَاحِبِهِ وَلَا مَفَرَّ لِلْقَتَلَةِ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

هَبَاءُ الحَصَادِ وَغِيَابُ النَّصِيرِ

صَدَى {أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} [آل عمران: 22]

رَمَادُ الأَعْمَالِ المحْتَرِقَةِ يَتَطَايَرُ فِي مَهَبِّ الرِّيَاحِ العَاتِيَةِ لِيُعْلِنَ إِفْلَاسَ القَتَلَةِ فِي مَوَازِينِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَيَنْكَشِفُ لِي سَرَابُ الإِنْجَازَاتِ الطِّينِيَّةِ الَّتِي يَبْنِيهَا الجَاحِدُونَ فَوْقَ جَمَاجِمِ الأَبْرِيَاءِ ثُمَّ تَتَلَاشَى كَقُصُورِ الرَّمْلِ عِنْدَ أَوَّلِ مَوْجَةٍ، وَكَمْ انْخَدَعْتُ بِزَخْرَفِ البِنَاءِ الظَّاهِرِيِّ لِأَهْلِ الظُّلْمِ قَبْلَ أَنْ أَرَى كَيْفَ يَتَحَوَّلُ مَا صَنَعُوهُ إِلَى سَرَابٍ خَادِعٍ لَا يَرْوِي عَطَشَ الرُّوحِ يَوْمَ العَرْضِ، أَرَى الشَّجَرَةَ المَنْحُورَةَ الجُذُورِ تَتَبَاهَى بِأَوْرَاقِهَا الصَّفْرَاءِ فِي الخَرِيفِ ثُمَّ تَهْوِي جُثَّةً هَامِدَةً فِي الوَحْلِ بِلَا عُكَّازٍ يَسْنُدُهَا وَلَا يَدٍ تَنْتَشِلُهَا مِنَ السُّقُوطِ، فَمَا أَبْأَسَ تِلْكَ العُزْلَةَ الأَبَدِيَّةَ حِينَ يَقِفُ المجْرِمُونَ عُرَاةً مِنْ كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ وَيَلْتَفِتُونَ حَوْلَهُمْ فَلَا يَجِدُونَ نَصِيرًا يَرُدُّ عَنْهُمْ سِيَاطَ الحِسَابِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ قَنَاعَتِي بِقِيمَةِ الفِعْلِ إِلَى حِرْصٍ شَدِيدٍ عَلَى طَهَارَةِ الجُذُورِ وَالِابْتِعَادِ عَنِ الظُّلْمِ الَّذِي يُخْرِقُ بَسَاتِينَ الحَسَنَاتِ، فَكُلُّ مَجْدٍ يُشَيَّدُ عَلَى دِمَاءِ المظْلُومِينَ يَصِيرُ هَبَاءً مَنْثُورًا وَلَا نَصِيرَ لِلْجَاحِدِينَ مِنْ بَأْسِ اللهِ.

إِعْرَاضُ المتَوَلِّينَ وَمحْرَابُ الكِتَابِ

صَدَى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ} [آل عمران: 23]

عَلَى عَتَبَةِ المِيزَانِ السَّمَاوِيِّ يَتَرَاجَعُ أَسْرَى الأَهْوَاءِ إِلَى الوَرَاءِ خَوْفًا مِنْ مِرْآةِ الكِتَابِ الَّتِي تَكْشِفُ عَوْرَةَ تَحْرِيفِهِمْ وَانْحِرَافِهِمْ، فَيَتَشَظَّى فِي دَاخِلِي وَهْمُ الِاكْتِفَاءِ بِمَعْرِفَةِ الحُرُوفِ بَيْنَمَا القَلْبُ يَهْرُبُ مِنْ حُكْمِ الوَحْيِ كُلَّمَا تَعَارَضَ مَعَ شَهَوَاتِ النَّفْسِ وَمَصَالِحِ الطِّينِ، وَكَمْ دُعِيتُ فِي خَلَوَاتِ الضَّمِيرِ إِلَى الِاحْتِكَامِ لِنُورِ الشَّرِيعَةِ فَتَلَكَّأَتْ خُطَايَ وَأَدَرْتُ ظَهْرِي لِلْحَقِيقَةِ خَشْيَةَ أَنْ تَهْدِمَ قُصُورَ أَنَانِيَّتِي، أَتَأَمَّلُ المرِيضَ المغْرُورَ الَّذِي يَحْمِلُ وَصْفَةَ الطَّبِيبِ فِي جَيْبِهِ ثُمَّ يُشِيحُ بِوَجْهِهِ عَنِ الدَّوَاءِ الشَّافِي لِأَنَّ مَرَارَتَهُ تَفْضَحُ دَاءَهُ الدَّفِينَ فِي أَحْشَائِهِ، فَمَا أَعْجَبَ هَذَا الهُرُوبَ المرِيرَ مِمَّنْ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ العِلْمِ ثُمَّ تَوَلَّوْا مُعْرِضِينَ عَنِ الحَكَمِ العَدْلِ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ خُصُومَاتِ الأَرْضِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ تِلَاوَتِي لِلْآيَاتِ إِلَى خُضُوعٍ فَوْرِيٍّ أُحَاكِمُ بِهِ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أُحَاكِمَ النَّاسَ وَلَا أُدِيرُ ظَهْرِي لِنِدَاءِ الحَقِّ، فَكُلُّ إِعْرَاضٍ عَنْ مِيزَانِ الوَحْيِ هُوَ سُقُوطٌ فِي التِّيهِ وَلَا حَكَمَ أَعْدَلُ مِنْ كِتَابِ اللهِ.

أَكَاذِيبُ الأَمَانِيّ وَسَرَابُ النَّارِ

صَدَى {ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [آل عمران: 24]

خُيُوطُ الوَهْمِ المَنْسُوجَةُ مِنْ أَكَاذِيبِ التَّمَنِّي تُخَدِّرُ القُلُوبَ العَاصِيَةَ لِتُقْنِعَهَا أَنَّ جَهَنَّمَ فُنْدُقٌ عَابِرٌ لِأَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ، فَيَسْقُطُ فِي وِجْدَانِي ذَلِكَ التَّسْوِيفُ المَحْمُورُ الَّذِي يُهَوِّنُ جُرْمَ المَعْصِيَةِ وَيَصْنَعُ لِلْإِنْسَانِ دِينًا مُفَصَّلًا عَلَى مَقَاسِ غُرُورِهِ وَافْتِرَائِهِ، وَكَمْ رَكَنَتْ رُوحِي إِلَى أَمَانِيَّ كَاذِبَةٍ تُبَرِّرُ التَّقْصِيرَ وَتَظُنُّ أَنَّ الِانْتِسَابَ الشَّكْلِيَّ لِلْحَقِّ يَعْصِمُ الجَسَدَ مِنْ لَهِيبِ النِّيرَانِ عِنْدَ سَاعَةِ الفَصْلِ، أَرَى الفَرَاشَةَ المَفْتُونَةَ تَرْقُصُ فَوْقَ فُوَّهَةِ البُرْكَانِ وَهِيَ تَحْسَبُ أَنَّ شَرَارَهُ دِفْءٌ عَابِرٌ لَنْ يُحْرِقَ أَجْنِحَتَهَا الرَّقِيقَةَ سِوَى لَحَظَاتٍ قَلِيلَةٍ قَبْلَ أَنْ تَبْتَلِعَهَا النَّارُ إِلَى الأَبَدِ، فَمَا أَشَدَّ قَسْوَةَ هَذَا الِانْخِدَاعِ الذَّاتِيِّ حِينَ يَشْرَبُ المَرْءُ كَأْسَ الِافْتِرَاءِ الَّتِي صَنَعَهَا بِيَدَيْهِ فَيَسْتَيْقِظُ عَلَى خُلُودِ العَذَابِ بَدَلًا مِنْ أَيَّامِ الأَوْهَامِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقَظَتِي الرُّوحِيَّةُ إِلَى مِحْرَابِ صِدْقٍ أَكْسِرُ فِيهِ أَصْنَامَ الأَمَانِيِّ الكَاذِبَةِ وَأُوَاجِهُ حَقِيقَةَ المَسْؤُولِيَّةِ بِلَا تَزْيِيفٍ، فَكُلُّ افْتِرَاءٍ تُخَدِّرُ بِهِ الضَّمِيرَ يَنْقَلِبُ حَسْرَةً وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِالِانْقِيَادِ الصَّادِقِ لِأَمْرِ اللهِ.

مِيعَادُ الحَشْرِ وَتَوْفِيَةُ الكَسْبِ

صَدَى {فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [آل عمران: 25]

أَمَامَ عَاصِفَةِ الحَشْرِ الَّتِي تَجْمَعُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ تَتَبَخَّرُ كُلُّ أَسَاطِيرِ المُفْتَرِينَ وَأَحْلَامِ الغَافِلِينَ، فَيَرْتَجِفُ فِي صَدْرِي ذَلِكَ السُّؤَالُ الكَوْنِيُّ المَهِيبُ الَّذِي يَكْشِفُ عَجْزَ الإِنْسَانِ حِينَ تُوضَعُ صَحَائِفُ كَسْبِهِ فَوْقَ مِيزَانِ العَدْلِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَكَمْ تَاهَتْ خُطُوَاتِي فِي ضَجِيجِ الأَيَّامِ وَنَسِيتُ أَنَّ كُلَّ هَمْسَةٍ وَنَظْرَةٍ تُخْتَزَنُ فِي ذَاكِرَةِ الزَّمَنِ لِتُوَفَّ كَامِلَةً فِي يَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، أَتَأَمَّلُ الغُبَارَ المُتَطَايِرَ فِي زَوَايَا الغُرْفَةِ المُظْلِمَةِ كَيْفَ يَبْدُو مَعْدُومًا فِي العَتْمَةِ ثُمَّ يَنْكَشِفُ كُلُّ ذَرَّةٍ فِيهِ حِينَ يَخْتَرِقُ شُعَاعُ الشَّمْسِ النَّافِذَةَ فِي وُضُوحٍ تَامٍّ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ العَدَالَةَ المُطْلَقَةَ الَّتِي تَجْمَعُ شَتَاتَ الخَلَائِقِ وَتُعْطِي كُلَّ نَفْسٍ ثَمَرَةَ زَرْعِهَا بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ فِي يَوْمِ التَّلَاقِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ

سَاعَاتُ عُمُرِي إِلَى صَحَائِفَ بَيْضَاءَ أَنْقُشُ فِيهَا الخَيْرَ وَالإِحْسَانَ اسْتِعْدَادًا لِتِلْكَ الوَقْفَةِ الفَاصِلَةِ بَيْنَ يَدَيِ الدَّيَّانِ، فَكُلُّ كَسْبٍ نَجْمَعُهُ فِي الدُّنْيَا هُوَ زَادُنَا يَوْمَ الجَمْعِ وَلَا يُظْلَمُ أَحَدٌ فِي مَحْكَمَةِ اللهِ.

تَدَاوُلُ المُلْكِ وَقَبْضَةُ الخَيْرِ

صَدَى {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: 26]

تِيجَانُ المُلُوكِ وَعُرُوشُ الجَبَابِرَةِ تَتَدَاوَلُهَا أَصَابِعُ المَشِيئَةِ الإِلَهِيَّةِ كَالقَشَّةِ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ فَتَرْفَعُ عَبْدًا إِلَى قِمَمِ العِزِّ وَتَهْوِي بِجَبَّارٍ إِلَى قَاعِ الذُّلِّ، فَيَسْقُطُ فِي أَعْمَاقِي صَنَمُ السُّلْطَةِ البَشَرِيَّةِ الَّذِي يُخِيفُ الضُّعَفَاءَ بِبَرِيقِ سُيُوفِهِ وَيَنْسَى أَنَّ المُلْكَ كُلَّهُ عَارِيَةٌ مُسْتَرَدَّةٌ بِيَدِ مَالِكِ المُلْكِ، وَكَمْ انْحَنَتْ جِبَاهُ الخَلْقِ أَمَامَ عُرُوشٍ مِنْ طِينٍ تَهَاوَتْ فِي لَمْحِ البَصَرِ حِينَ صَدَرَ الأَمْرُ السَّمَاوِيُّ بِنَزْعِ السُّلْطَانِ وَتَبْدِيلِ الأَحْوَالِ، أَرَى مَدَّ البَحْرِ العَظِيمَ يَغْمُرُ الشَّاطِئَ بِزَبَدِهِ وَأَمْوَاجِهِ العَالِيَةِ ظَانًّا أَنَّهُ مَلَكَ اليَابِسَةَ إِلَى الأَبَدِ ثُمَّ يَنْحَسِرُ فِي سَاعَةِ الجَزْرِ لِيَتْرُكَ الرِّمَالَ عَارِيَةً تَحْتَ الشَّمْسِ بِأَمْرِ خَالِقِهِ، فَمَا أَعْذَبَ هَذَا التَّسْبِيحَ النُّورَانِيَّ الَّذِي يُقِرُّ بِأَنَّ الخَيْرَ كُلَّهُ بِيَدِ الخَالِقِ حَتَّى فِيمَا يَظْهَرُ لِلْبَشَرِ مِنْ نَزْعٍ أَوْ إِذْلَالٍ لِأَنَّهُ القَدِيرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي إِلَى تَقَلُّبَاتِ الدُّنْيَا إِلَى سَكِينَةٍ تَامَّةٍ لَا تَغْتَرُّ بِإِقْبَالِ المُلْكِ وَلَا تَجْزَعُ مِنْ إِدْبَارِهِ لِأَنَّ المَفَاتِيحَ كُلَّهَا فِي قَبْضَةِ المَلِكِ الحَقِّ، فَكُلُّ عِزٍّ يَطْلُبُهُ الإِنْسَانُ مِنْ غَيْرِ السَّمَاءِ هُوَ ذُلٌّ مُقَنَّعٌ وَلَا مَالِكَ لِلْمُلْكِ الحَقِيقِيِّ إِلَّا اللهُ.

وُلُوجُ اللَّيْلِ وَإِخْرَاجُ الحَيَاةِ

صَدَى {تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: 27]

خُيُوطُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ تَتَدَاخَلُ فِي مِغْزَلِ القُدْرَةِ كَالنَّسِيجِ الحَرِيرِيِّ لِتُنْبِتَ الحَيَاةَ مِنْ جَوْفِ المَوْتِ وَتُفَجِّرَ الرِّزْقَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَيَتَلَاشَى فِي وِجْدَانِي يَأْسُ القُلُوبِ المُظْلِمَةِ الَّتِي تَظُنُّ أَنَّ لَيْلَ المِحْنَةِ لَنْ يَنْقَشِعَ أَوْ أَنَّ الأَرْضَ المَيْتَةَ لَنْ تَنْبُضَ بِالخُضْرَةِ مِنْ جَدِيدٍ، وَكَمْ حَبَسْتُ أَنْفَاسِي فِي عَتْمَةِ

الشَّدَائِدِ قَبْلَ أَنْ أُبْصِرَ كَيْفَ يَتَسَلَّلُ ضَوْءُ الفَجْرِ إِلَى أَحْشَاءِ الظَّلَامِ لِيُولَدَ المؤْمِنُ الحَيُّ مِنْ صُلْبِ الكَافِرِ المَيِّتِ وَتَنْبَثِقَ السُّنْبُلَةُ مِنَ الحَبَّةِ اليَابِسَةِ، أَتَأَمَّلُ البَيْضَةَ الصَّمَّاءَ المُلْقَاةَ فِي صَمْتِ العُشِّ كَيْفَ تَنْشَقُّ فَجْأَةً عَنْ طَائِرٍ حَيٍّ يَشْدُو بِالتَّسْبِيحِ وَيُحَلِّقُ فِي الفَضَاءِ الفَسِيحِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ جِدَارًا جَامِدًا لَا حَرَاكَ فِيهِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا السَّخَاءَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي يَقْلِبُ الأَضْدَادَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ وَيَصُبُّ عَطَاءَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ دُونَ أَنْ تَحُدَّهُ أَرْقَامُ البَشَرِ وَمَقَايِيسُهُمْ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ فُصُولُ حَيَاتِي المُتَقَلِّبَةُ إِلَى أُنْشُودَةِ أَمَلٍ أَرَى فِيهَا كُلَّ ضِيقٍ بَشِيرًا بِالفَرَجِ وَكُلَّ مَوْتٍ مَعْنَوِيٍّ مَخَاضًا لِوِلَادَةِ الحَيَاةِ، فَكُلُّ مَا يَبْدُو مَيِّتًا فِي عُيُونِنَا قَادِرٌ عَلَى إِحْيَائِهِ رَازِقُ الخَلْقِ بِغَيْرِ حِسَابٍ اللهُ.

سِيَاجُ الوِلَايَةِ وَحِكْمَةُ التُّقَاةِ

صَدَى {لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} [آل عمران: 28]

حِبَالُ الوِلَايَةِ وَالمحَبَّةِ لَا تُرْبَطُ إِلَّا بِأَوْتَادِ التَّوْحِيدِ كَيْ لَا تَنْجَرِفَ سَفِينَةُ الإِيمَانِ نَحْوَ شَوَاطِئِ الكُفْرِ وَالخِذْلَانِ، فَيَنْكَشِفُ لِي خَطَرُ الِانْبِهَارِ بِأَعْدَاءِ العَقِيدَةِ الَّذِي يُمَزِّقُ رَابِطَةَ الأُخُوَّةِ الإِيمَانِيَّةِ وَيُخْرِجُ العَبْدَ مِنْ دَائِرَةِ الرِّعَايَةِ السَّمَاوِيَّةِ بِالكُلِّيَّةِ، وَكَمْ مَالَتِ النُّفُوسُ الضَّعِيفَةُ إِلَى مُوَالَاةِ أَهْلِ الدُّنْيَا طَمَعًا فِي جَاهِهِمْ أَوْ خَوْفًا مِنْ بَطْشِهِمْ فَقَطَعَتْ بِذَلِكَ صِلَتَهَا بِالسَّمَاءِ وَتَرَكَتْ إِخْوَةَ اليَقِينِ فِي مَيْدَانِ الوَحْدَةِ، أَرَى الغُصْنَ الأَخْضَرَ الَّذِي يَنْفَصِلُ عَنْ جِذْعِ شَجَرَتِهِ الأُمِّ لِيَلْتَصِقَ بِصَخْرَةٍ صَمَّاءَ فَيَذْبُلُ وَيَجِفُّ فِي الهَجِيرِ لِأَنَّ الصَّخْرَةَ لَا تَمْلِكُ عُصَارَةَ الحَيَاةِ الَّتِي تَسْرِي فِي عُرُوقِ الشَّجَرَةِ، فَمَا أَشَدَّ هَيْبَةَ هَذَا التَّحْذِيرِ الجَلِيلِ حِينَ يُحَذِّرُنَا الخَالِقُ نَفْسَهُ وَيُبِيحُ فَقَطْ دَرْءَ الخَطَرِ بِالظَّاهِرِ مَعَ بَقَاءِ القَلْبِ مَشْحُونًا بِالْوَلَاءِ لِلْحَقِّ حَتَّى يَوْمِ المَصِيرِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ عَاطِفَتِي وَانْتِمَائِي إِلَى حِصْنٍ طَاهِرٍ أُحِبُّ فِيهِ أَهْلَ الإِيمَانِ وَأَصُونُ فِيهِ عَقِيدَتِي مِنَ الذَّوَبَانِ فِي أَهْوَاءِ الغُرَبَاءِ، فَكُلُّ وَلَاءٍ يُبْنَى عَلَى خِيَانَةِ المَبْدَأِ هُوَ ضَيَاعٌ لِلرُّوحِ وَلَا مَصِيرَ لِلْخَلْقِ جَمِيعًا إِلَّا إِلَى اللهِ.

عُرْيُ السَّرَائِرِ وَقُدْرَةُ المحِيطِ

صَدَى {قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: 29]

أَسْتَارُ الصُّدُورِ الكَثِيفَةُ تَصِيرُ زُجَاجًا شَفَّافًا أَمَامَ نُورِ العِلْمِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يَخْتَرِقُ خَفَايَا النَّوَايَا قَبْلَ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى كَلِمَاتٍ أَوْ أَفْعَالٍ، فَيَتَبَدَّدُ فِي دَاخِلِي وَهْمُ النِّفَاقِ اللَّطِيفِ الَّذِي يُظْهِرُ المَوَدَّةَ لِلْمُؤْمِنِينَ بَيْنَمَا يُخْفِي فِي أَعْمَاقِهِ المَيْلَ إِلَى أَعْدَاءِ السَّمَاءِ، وَكَمْ ظَنَنْتُ أَنَّ كِتْمَانَ الخَوَاطِرِ فِي زَوَايَا القَلْبِ يَحْجُبُهَا عَنِ الرَّقِيبِ الأَعْلَى قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ لِي هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ السِّرَّ وَالعَلَنَ مَكْشُوفَانِ كَالشَّمْسِ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ، أَتَأَمَّلُ القَطْرَةَ المخْتَبِئَةَ فِي قَاعِ المحِيطِ المظْلِمِ وَالنَّجْمَةَ السَّابِحَةَ فِي أَقْصَى المجَرَّاتِ كَيْفَ تَخْضَعَانِ مَعًا لِبَصَرٍ وَاحِدٍ وَقُدْرَةٍ وَاحِدَةٍ لَا يَعْجِزُهَا شَيْءٌ فِي الوُجُودِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ المرَاقَبَةَ الَّتِي تَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَخَفَايَا القُلُوبِ كِتَابًا مَفْتُوحًا يَقْرَأُ فِيهِ القَدِيرُ كُلَّ سَطْرٍ وَكُلَّ نَبْضَةٍ بِلَا حِجَابٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ سَرِيرَتِي إِلَى مِرْآةٍ مَصْقُولَةٍ أُطَهِّرُهَا مِنَ الغِشِّ وَالتَّلَوُّنِ لِيَتَطَابَقَ بَاطِنِي مَعَ ظَاهِرِي فِي حَضْرَةِ المَلِكِ، فَكُلُّ مَا نُخْفِيهِ فِي صُدُورِنَا مَعْلُومٌ عِنْدَ العَرْشِ وَلَا يَعْجِزُ شَيْءٌ قُدْرَةَ اللهِ.

مِرْآةُ العَمَلِ وَرَأْفَةُ التَّحْذِيرِ

صَدَى {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: 30]

عَلَى شَاشَةِ القِيَامَةِ المفْتُوحَةِ تَتَجَسَّدُ أَعْمَالُ الإِنْسَانِ كَائِنَاتٍ حَيَّةً تَقِفُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ فَيَفْرَحُ بِرُؤْيَةِ الخَيْرِ وَيَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سُوءِ فِعْلِهِ مَسَافَةَ المشْرِقَيْنِ، فَيَرْتَعِدُ فِي نَفْسِي ذَلِكَ الِاسْتِخْفَافُ بِالذُّنُوبِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَظُنُّهَا الرُّوحُ تَتَبَخَّرُ مَعَ مُرُورِ الأَيَّامِ بَيْنَمَا هِيَ تَنْتَظِرُنَا هُنَاكَ بِوَجْهِهَا القَبِيحِ، وَكَمْ غَفَلْتُ عَنْ تِلْكَ اللَّحْظَةِ الَّتِي يَتَمَنَّى فِيهَا العَاصِي أَنْ تَفْصِلَهُ قُرُونٌ وَأَبْعَادٌ سَحِيقَةٌ عَنْ خَطِيئَةٍ صَنَعَهَا بِيَدِهِ فِي سَاعَةِ غَفْلَةٍ وَشَهْوَةٍ، أَرَى الرَّجُلَ الَّذِي يَزْرَعُ أَشْوَاكًا سَامَّةً فِي حَدِيقَةِ بَيْتِهِ وَهُوَ يَضْحَكُ ثُمَّ يَسْتَيْقِظُ بَعْدَ سَنَوَاتٍ لِيَجِدَ الأَشْوَاكَ قَدْ أَحَاطَتْ بِسَرِيرِهِ وَتَمَنَّى لَوْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا بُعْدُ السَّمَاءِ عَنِ الأَرْضِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الحَنَانَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي يَمْزِجُ بَيْنَ تَحْذِيرِنَا مِنْ عِقَابِ

نَفْسِهِ وَبَيْنَ إِعْلَانِ رَأْفَتِهِ بِالعِبَادِ لِيُوقِظَنَا قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ أَفْعَالِي اليَوْمِيَّةُ إِلَى رُفَقَاءِ دَرْبٍ أَخْتَارُ أَجْمَلَهُمْ وَأَطْهَرَهُمْ لِأَسُرَّ بِلِقَائِهِمْ يَوْمَ تُحْضَرُ الأَعْمَالُ بَيْنَ يَدَيَّ، فَكُلُّ سُوءٍ نَصْنَعُهُ سَيُطَارِدُنَا غَدًا وَلَا يَحْمِينَا مِنْ عِقَابِهِ إِلَّا رَأْفَةُ اللهِ.

مِيزَانُ المحَبَّةِ وَجَائِزَةُ الِاتِّبَاعِ

صَدَى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [آل عمران: 31]

دَعْوَى المحَبَّةِ الإِلَهِيَّةِ تَقِفُ أَمَامَ مِحَكِّ الِاتِّبَاعِ الصَّادِقِ لِرَسُولِ النُّورِ لِيَتَمَيَّزَ العَاشِقُ الحَقِيقِيُّ مِنْ مُدَّعِي الهَوَى وَالأَمَانِيّ، فَيَسْقُطُ فِي وِجْدَانِي زَيْفُ الشِّعَارَاتِ العَاطِفِيَّةِ الَّتِي تَتَغَنَّى بِالحُبِّ بِلَا طَاعَةٍ وَلَا اقْتِفَاءٍ لِخُطُوَاتِ النَّبِيِّ الأَمِينِ، وَكَمْ رَدَّدَتِ الأَلْسِنَةُ عِبَارَاتِ الشَّوْقِ وَالمحَبَّةِ بَيْنَمَا الجَوَارِحُ تَسِيرُ فِي دُرُوبِ المخَالَفَةِ وَالهَوَى بَعِيدًا عَنْ هَدْيِ السُّنَّةِ وَنُورِ الوَحْيِ، أَتَأَمَّلُ القَمَرَ المنِيرَ فِي كَبِدِ اللَّيْلِ كَيْفَ يَسْتَمِدُّ جَمَالَهُ وَبَهَاءَهُ مِنْ انْعِكَاسِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ عَلَيْهِ وَاتِّبَاعِهِ الدَّقِيقِ لِفَلَكِهَا بَيْنَمَا يَبْقَى الحَجَرُ المعْتِمُ بَارِدًا مَهْجُورًا لِأَنَّهُ أَغْلَقَ وَجْهَهُ عَنْ ضَوْئِهَا، فَمَا أَعْظَمَ تِلْكَ الثَّمَرَةَ الكُبْرَى حِينَ يَتَحَوَّلُ المحِبُّ بِفَضْلِ الِاتِّبَاعِ إِلَى مَحْبُوبٍ عِنْدَ مَلِكِ المُلُوكِ فَتُغْفَرُ ذُنُوبُهُ وَتَعْمُرُهُ الرَّحْمَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ مَحَبَّتِي إِلَى سُلُوكٍ حَيٍّ أَقْتَفِي فِيهِ أَثَرَ الرَّسُولِ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ وَسَكْنَةٍ لِأَنَالَ وَسَامَ المحَبَّةِ الإِلَهِيَّةِ وَالمغْفِرَة، فَكُلُّ حُبٍّ لَا يُثْمِرُ الِاتِّبَاعَ هُوَ سَرَابٌ خَادِعٌ وَلَا مَغْفِرَةَ تُنَالُ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللهِ.

رَايَةُ الطَّاعَةِ وَغَضَبُ الجُحُودِ

صَدَى {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 32]

عَلَى عَتَبَةِ المحَبَّةِ الصَّادِقَةِ تَنْتَصِبُ رَايَةُ الطَّاعَةِ المزْدَوَجَةِ لِلْخَالِقِ وَرَسُولِهِ كَالعَمُودِ الفِقَرِيِّ الَّذِي يَحْمِلُ كِيَانَ الإِيمَانِ وَيَعْصِمُهُ مِنَ السُّقُوطِ، فَيَتَلَاشَى فِي عَقْلِي وَهْمُ الفَصْلِ بَيْنَ طَاعَةِ السَّمَاءِ وَطَاعَةِ النَّبِيِّ المبَلِّغِ عَنْهَا بَعْدَ أَنْ اتَّضَحَ أَنَّ التَّوَلِّيَ عَنْهُمَا هُوَ بَوَّابَةُ الكُفْرِ وَالحِرْمَانِ، وَكَمْ حَاوَلَتِ

النُّفُوسُ المتَكَبِّرَةُ أَنْ تَتَمَلَّصَ مِنْ قُيُودِ الطَّاعَةِ وَتَبْحَثَ عَنْ مَسَالِكَ خَاصَّةٍ تَرْضِي غُرُورَهَا قَبْلَ أَنْ تَصْدِمَهَا حَقِيقَةُ الطَّرْدِ مِنْ دَائِرَةِ المحَبَّةِ الإِلَهِيَّةِ، أَرَى السَّفِينَةَ الَّتِي تَرْفُضُ الِانْقِيَادَ لِدَفَّةِ الرُّبَّانِ وَبُوصَلَةِ السَّمَاءِ فَتَتَقَاذَفُهَا الأَمْوَاجُ الهَوْجَاءُ نَحْوَ الصُّخُورِ القَاتِلَةِ حَتَّى تَتَحَطَّمَ فِي عُرْضِ البَحْرِ بِلَا رَحْمَةٍ، فَمَا أَشَدَّ قَسْوَةَ ذَلِكَ الحُكْمِ النِّهَائِيِّ الَّذِي يَحْرِمُ المتَوَلِّينَ مِنْ أَعْظَمِ كَنْزٍ فِي الوُجُودِ حِينَ يُعْلِنُ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تُحِبُّ الجَاحِدِينَ المعْرِضِينَ عَنْ نُورِ الرِّسَالَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ طَاعَتِي إِلَى انْقِيَادٍ عَذْبٍ أَسْتَسْلِمُ فِيهِ لِأَمْرِ الوَحْيِ وَالسُّنَّةِ بِرِضًا وَفَرَحٍ لِأَبْقَى فِي حِضْنِ الرِّعَايَةِ وَالمحَبَّةِ، فَكُلُّ تَوَلٍّ عَنِ الطَّاعَةِ هُوَ خُرُوجٌ عَنِ النُّورِ وَلَا مَحَبَّةَ تَنَالُ الكَافِرِينَ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

سُلَالَةُ النُّورِ وَاصْطِفَاءُ العَالَمِينَ

صَدَى {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران: 33 – 34]

شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ البَاسِقَةُ تَمْتَدُّ جُذُورُهَا مِنْ طِينِ آدَمَ وَطُوفَانِ نُوحٍ إِلَى مِحْرَابِ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ عِمْرَانَ لِتُظِلَّ العَالَمِينَ بِثِمَارِ الهِدَايَةِ وَالطُّهْرِ، فَيَنْكَشِفُ لِي جَمَالُ الِاصْطِفَاءِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي يَجْعَلُ بُيُوتَ الصَّالِحِينَ مَنَابِعَ مُتَّصِلَةً لِلنُّورِ تَتَوَارَثُ الأَمَانَةَ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَكَمْ ظَنَنْتُ أَنَّ التَّارِيخَ البَشَرِيَّ فَوْضَى مِنَ الصِّرَاعَاتِ المادِّيَّةِ قَبْلَ أَنْ أَرَى هَذَا الخَيْطَ الذَّهَبِيَّ الَّذِي يَرْبِطُ قُلُوبَ المصْطَفَيْنَ فِي سِلْسِلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ التَّوْحِيدِ، أَتَأَمَّلُ النَّهْرَ العَظِيمَ يَتَدَفَّقُ مِنْ قِمَّةِ الجَبَلِ الثَّلْجِيِّ فَيَعْبُرُ الوِدْيَانَ وَالسُّهُولَ مُحَافِظًا عَلَى عُذُوبَتِهِ وَنَقَائِهِ لِأَنَّ كُلَّ قَطْرَةٍ فِيهِ تَحْمِلُ سِرَّ المنْبَعِ الأَوَّلِ وَطَهَارَتَهُ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّكْرِيمَ الإِلَهِيَّ لِلذُّرِّيَّةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي تَوَارَثَتِ الإِيمَانَ وَالإِخْلَاصَ تَحْتَ سَمْعٍ وَبَصَرِ مَنْ يَعْلَمُ خَفَايَا الصُّدُورِ وَأَسْرَارَ الأَنْسَابِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ صِلَتِي بِتَارِيخِ الأَنْبِيَاءِ إِلَى انْتِمَاءٍ رُوحِيٍّ أَقْتَفِي فِيهِ سِيرَةَ المصْطَفَيْنَ وَأَحْرِصُ عَلَى طَهَارَةِ النَّسْلِ وَالعَقِيدَةِ، فَكُلُّ شَرَفٍ فِي هَذَا الوُجُودِ يُقَاسُ بِقُرْبِهِ مِنْ شَجَرَةِ النُّبُوَّةِ وَلَا يَغِيبُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ عَنْ سَمْعٍ وَعِلْمِ اللهِ.

نَذْرُ المِحْرَابِ وَقَبُولُ السَّمِيعِ

صَدَى {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [آل عمران: 35]

فِي خَلْوَةِ الأُمُومَةِ الطَّاهِرَةِ تَرْفَعُ امْرَأَةُ عِمْرَانَ جَنِينَهَا قُرْبَانًا لِلسَّمَاءِ وَتُحَرِّرُهُ مِنْ رِقِّ الدُّنْيَا لِيَكُونَ خَادِمًا خَالِصًا لِبَيْتِ المَقْدِسِ، فَيَذُوبُ فِي صَدْرِي ذَلِكَ الشُّحُّ العَاطِفِيُّ الَّذِي يَحْبِسُ الأَبْنَاءَ فِي قَفَصِ الأَنَانِيَّةِ وَالمَصَالِحِ الأَرْضِيَّةِ وَيَبْخَلُ بِتَقْدِيمِهِمْ لِخِدْمَةِ الدِّينِ وَالحَقِّ، وَكَمْ تَمَنَّيْتُ لِأَبْنَائِي مَنَاصِبَ الطِّينِ وَثَرَوَاتِ الفَنَاءِ وَغَفَلْتُ عَنْ أَنَّ أَعْظَمَ حُرِّيَّةٍ يَنَالُهَا الإِنْسَانُ هِيَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا مُحَرَّرًا لِخَالِقِ الأَكْوَانِ، أَرَى البُسْتَانِيَّ العَاشِقَ يَقْطِفُ أَجْمَلَ زَهْرَةٍ نَبَتَتْ فِي حَدِيقَتِهِ قَبْلَ أَنْ تَتَفَتَّحَ أَوْرَاقُهَا لِيَضَعَهَا فِي مِحْرَابِ المَلِكِ رَاجِيًا أَنْ يَتَقَبَّلَهَا بِرِضَاهُ وَكَرَمِهِ وَعِلْمِهِ المُحِيطِ، فَمَا أَعْذَبَ هَذِهِ الضَّرَاعَةَ الخَاشِعَةَ حِينَ تَخْتِمُ الأُمُّ نَذْرَهَا بِطَلَبِ القَبُولِ مُتَوَسِّلَةً بِصِفَتَيِ السَّمِيعِ العَلِيمِ الَّذِي يَسْمَعُ هَمْسَ الدُّعَاءِ وَيَعْلَمُ صِدْقَ النِّيَّةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ أُمْنِيَاتِي لِذُرِّيَّتِي وَعَمَلِي إِلَى نَذْرٍ مُقَدَّسٍ أُحَرِّرُهُ مِنْ شَوَائِبِ الدُّنْيَا لِأُقَدِّمَهُ خَالِصًا لِوَجْهِ الحَقِّ، فَكُلُّ مَا نُحَرِّرُهُ لِلسَّمَاءِ يَحْفَظُهُ المَلِكُ وَيُرَبِّيهِ وَلَا يَرُدُّ دُعَاءَ الصَّادِقِينَ اللهُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

عُوذَةُ الميلَادِ وَوِسَامُ الطُّهْرِ

صَدَى {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [آل عمران: 36]

عِنْدَ مِيلَادِ الطُّهْرِ تَنْكَشِفُ حِكْمَةُ السَّمَاءِ الَّتِي تَخْتَارُ الأُنْثَى مَرْيَمَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْعَالَمِينَ وَتُحِيطُهَا أُمُّهَا بِحِصْنِ الِاسْتِعَاذَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَيَسْقُطُ فِي وِجْدَانِي قُصُورُ التَّفْكِيرِ البَشَرِيِّ الَّذِي يَتَحَسَّرُ حِينَ تَأْتِي الأَقْدَارُ عَلَى غَيْرِ مَا رَسَمَهُ الخَيَالُ وَيَجْهَلُ أَنَّ الخَيْرَ الأَعْظَمَ مَخْبُوءٌ فِي اخْتِيَارِ العَلِيمِ، وَكَمْ حَزِنَتْ نَفْسِي عَلَى أُمُورٍ ظَنَنْتُهَا دُونَ المَأْمُولِ قَبْلَ أَنْ تُثْبِتَ لِي الأَيَّامُ أَنَّ السَّمَاءَ أَعْلَمُ بِمَا تَضَعُهُ فِي طَرِيقِي مِنْ بَرَكَاتٍ وَمُعْجِزَاتٍ، أَتَأَمَّلُ الصَّدَفَةَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي يَسْتَهِينُ بِهَا الصَّيَّادُ عَلَى الشَّاطِئِ ثُمَّ يَجِدُ فِي جَوْفِهَا أَثْمَنَ لُؤْلُؤَةٍ فِي قَاعِ البَحْرِ تَخْطَفُ الأَبْصَارَ بِبَرِيقِهَا وَنَقَائِهَا الأَبَدِيِّ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ اللَّفْتَةَ الأُمُومِيَّةَ الحَنُونَ حِينَ تَخْتَارُ لَهَا اسْمَ العَابِدَةِ وَتُحَصِّنُهَا وَذُرِّيَّتَهَا بِاسْمِ الخَالِقِ مِنْ

نَزَغَاتِ العَدُوِّ الرَّجِيمِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ تَرْبِيَتِي لِنَفْسِي وَلِأَبْنَائِي إِلَى رِضًا تَامٍّ بِعَطَاءِ السَّمَاءِ وَتَحْصِينٍ دَائِمٍ بِالدُّعَاءِ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ، فَكُلُّ مَوْلُودٍ يَحْرُسُهُ الدُّعَاءُ يَنْشَأُ فِي كَنَفِ الرَّحْمَةِ وَلَا أَعْلَمُ بِأَسْرَارِ العَطَاءِ إِلَّا اللهُ.

نَبَاتُ الطُّهْرِ وَرِزْقُ المِحْرَابِ

صَدَى {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: 37]

فِي حِضْنِ القَبُولِ الحَسَنِ تَنْمُو مَرْيَمُ كَزَهْرَةِ الفِرْدَوْسِ تَحْتَ رِعَايَةِ زَكَرِيَّا فَتَتَنَزَّلُ عَلَيْهَا مَوَائِدُ السَّمَاءِ فِي عُزْلَةِ المِحْرَابِ بِلَا سَبَبٍ أَرْضِيٍّ، فَيَتَحَطَّمُ فِي عَقْلِي صَنَمُ الأَسْبَابِ المَادِّيَّةِ الَّذِي يُوهِمُ الإِنْسَانَ أَنَّ الرِّزْقَ مَحْبُوسٌ فِي الأَسْوَاقِ وَأَنَّ الخَلْوَةَ مَعَ الخَالِقِ تَجْلِبُ الفَقْرَ وَالحِرْمَانَ، وَكَمْ جَرَيْتُ خَلْفَ السَّرَابِ فِي فِجَاجِ الأَرْضِ وَنَسِيتُ أَنَّ بَابَ المِحْرَابِ المَفْتُوحَ عَلَى السَّمَاءِ يَأْتِي بِثِمَارِ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ وَثِمَارِ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، أَرَى الزَّهْرَةَ النَّادِرَةَ تَنْبُتُ فِي قِمَّةِ الصَّخْرَةِ الجَرْدَاءِ بَعِيدًا عَنْ أَيْدِي الفَلَّاحِينَ وَمِيَاهِ الأَنْهَارِ لِتَشْرَبَ مِنْ نَدَى السَّمَاءِ المَبَاشِرِ وَتُبْهِرَ النَّاظِرِينَ بِجَمَالِهَا وَرِزْقِهَا العَجِيبِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا اليَقِينَ الطُّفُولِيَّ النَّقِيَّ الَّذِي تَنْطِقُ بِهِ مَرْيَمُ لِتُعْلِنَ أَنَّ العَطَاءَ مِنْ عِنْدِ المَلِكِ الَّذِي يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ ثِقَتِي بِالرِّزْقِ إِلَى إِقْبَالٍ عَلَى مِحْرَابِ الطَّاعَةِ وَإِخْلَاصِ النِّيَّةِ لِأَنَالَ القَبُولَ الحَسَنَ وَالعَطَاءَ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ، فَكُلُّ مَا فِي الخَزَائِنِ السَّمَاوِيَّةِ يَتَدَفَّقُ لِلصَّادِقِينَ وَلَا يَرْزُقُ بِغَيْرِ حِسَابٍ إِلَّا اللهُ.

شَرَارَةُ الدُّعَاءِ وَنَبْعُ الذُّرِّيَّةِ

صَدَى {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران: 38]

عَلَى عَتَبَةِ المِحْرَابِ الَّذِي شَهِدَ مُعْجِزَةَ الرِّزْقِ تَشْتَعِلُ شَرَارَةُ الأَمَلِ فِي قَلْبِ الشَّيْخِ الفَانِي فَيَرْفَعُ كَفَّيْهِ طَالِبًا ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً تَتَحَدَّى قَوَانِينَ الشَّيْخُوخَةِ وَالعُقْمِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي صَدْرِي جَلِيدُ اليَأْسِ الَّذِي يُقْنِعُ الرُّوحَ أَنَّ أَبْوَابَ المسْتَحِيلِ قَدْ أُغْلِقَتْ بِأَقْفَالِ الزَّمَنِ وَانْقِطَاعِ الأَسْبَابِ البَشَرِيَّةِ، وَكَمْ حَبَسْتُ دَعَوَاتِي فِي صَدْرِي خَجَلًا مِنْ طَلَبِ المُعْجِزَاتِ قَبْلَ أَنْ يُعَلِّمَنِي زَكَرِيَّا أَنَّ رُؤْيَةَ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ هِيَ أَعْظَمُ مِفْتَاحٍ لِفَتْحِ بَابِ الدُّعَاءِ، أَتَأَمَّلُ الجِذْعَ اليَابِسَ فِي قَلْبِ الصَّحْرَاءِ القَاحِلَةِ حِينَ يَرَى السَّحَابَةَ تُمْطِرُ فَوْقَ التَّلِّ المجَاوِرِ فَيَرْفَعُ أَغْصَانَهُ العَارِيَةَ نَحْوَ السَّمَاءِ مُتَضَرِّعًا لِيَسْقِيَهُ الغَيْثُ فَيَتَفَجَّرَ مِنْهُ بُرْعُمٌ أَخْضَرُ يَنْبِضُ بِالحَيَاةِ، فَمَا أَعْذَبَ هَذَا الِانْكِسَارَ النَّبِيلَ حِينَ يَطْلُبُ النَّبِيُّ هِبَةً لَدُنِّيَّةً طَيِّبَةً مُتَوَسِّلًا بِأَنَّ خَالِقَهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ الَّذِي لَا يَرُدُّ سَائِلًا صَادِقًا، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ أُمْنِيَاتِي المسْتَحِيلَةُ إِلَى ابْتِهَالَاتٍ حَارَّةٍ أَرْفَعُهَا فِي مِحْرَابِ اليَقِينِ وَاثِقًا أَنَّ القُدْرَةَ تُجِيبُ المضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ، فَكُلُّ عُقْمٍ فِي الأَرْضِ يَنْقَلِبُ خِصْبًا بِكَلِمَةٍ مِنَ السَّمَاءِ وَلَا يَخِيبُ مَنْ نَادَى سَمِيعَ الدُّعَاءِ اللهُ.

بُشْرَى المَلَائِكَةِ وَسَيِّدُ العِفَّةِ

صَدَى {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: 39]

فِي حَرَمِ الصَّلَاةِ وَسُكُونِ القُنُوتِ تَهْبِطُ بُشْرَى المَلَائِكَةِ كَالمَطَرِ المبَارَكِ لِتَرُفَّ إِلَى زَكَرِيَّا مِيلَادَ يَحْيَى مُتَوَّجًا بِالسِّيَادَةِ وَالعِفَّةِ وَالنُّبُوَّةِ، فَيَسْتَقِرُّ فِي وِجْدَانِي أَنَّ القِيَامَ فِي المِحْرَابِ هُوَ المكَانُ الأَسْرَعُ لِتَلَقِّي إِجَابَاتِ السَّمَاءِ وَفَتْحِ أَبْوَابِ الكَرَامَاتِ، وَكَمْ بَحَثْتُ عَنْ مَخَارِجَ لِهُمُومِي فِي ضَجِيجِ الخَلْقِ وَغَفَلْتُ عَنْ أَنَّ البُشْرَى الكُبْرَى تَنْتَظِرُنِي وَأَنَا قَائِمٌ أُنَاجِي مَوْلَايَ فِي خَلْوَةِ الصَّلَاةِ، أَرَى الفَجْرَ الصَّادِقَ يَشُقُّ صَمْتَ اللَّيْلِ لِيُهْدِيَ السَّاهِرَ فِي المِحْرَابِ أَجْمَلَ وَرْدَةٍ نَبَتَتْ فِي بُسْتَانِ النُّبُوَّةِ تَحْمِلُ عِطْرَ التَّصْدِيقِ وَطَهَارَةَ الحَصُورِ الَّذِي لَا تَمَسُّهُ الشَّهَوَاتُ، فَمَا أَبْهَى هَذِهِ الأَوْصَافَ الجَلِيلَةَ الَّتِي تَجْتَمِعُ فِي الوَلِيدِ المبَشَّرِ بِهِ قَبْلَ أَنْ يُولَدَ لِيَكُونَ سَيِّدًا فِي العِلْمِ وَالعِبَادَةِ وَنَبِيًّا مِنْ صَفْوَةِ الصَّالِحِينَ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ صَلَاتِي إِلَى بَوَّابَةٍ لِلْبَشَائِرِ أَقِفُ فِيهَا بِخُشُوعٍ وَأَنَا مُوقِنٌ أَنَّ نِدَاءَ السَّمَاءِ يَسْمَعُهُ القَائِمُونَ فِي المحَارِيبِ، فَكُلُّ دَعْوَةٍ صَادِقَةٍ تَخْرُجُ مِنَ الصَّلَاةِ تَعُودُ بِالبُشْرَى وَلَا يَخْلِفُ وَعْدَهُ أَبَدًا اللهُ.

صَدَى {قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [آل عمران: 40]

عَلَى عَتَبَةِ الدَّهْشَةِ البَشَرِيَّةِ يَقِفُ زَكَرِيَّا مَذْهُولًا أَمَامَ انْكِسَارِ قَوَانِينِ الطِّينِ بَيْنَ شَيْخُوخَتِهِ الفَانِيَةِ وَعُقْمِ زَوْجَتِهِ لِيَسْمَعَ الجَوَابَ الكَوْنِيَّ الخَالِدَ أَنَّ المشِيئَةَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ، فَيَتَلَاشَى فِي عَقْلِي غُرُورُ الحِسَابَاتِ الأَرْضِيَّةِ الَّتِي تَرْبِطُ النَّتَائِجَ بِالأَسْبَابِ المأْلُوفَةِ وَتَنْسَى أَنَّ مُسَبِّبَ الأَسْبَابِ يَخْرِقُ العَادَاتِ بِكَلِمَةِ كُنْ، وَكَمْ حَارَتْ بَصِيرَتِي أَمَامَ العَوَائِقِ المادِّيَّةِ وَظَنَنْتُ أَنَّ ذُبُولَ الجَسَدِ وَجَفَافَ الرَّحِمِ يُغْلِقَانِ بَابَ الأَمَلِ قَبْلَ أَنْ تَهُزَّنِي هَذِهِ القَاعِدَةُ المطْلَقَةُ، أَتَأَمَّلُ الصَّخْرَةَ الصَّمَّاءَ فِي قَلْبِ البَيْدَاءِ كَيْفَ تَنْفَجِرُ فَجْأَةً عَنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا تَتَدَفَّقُ بِالماءِ العَذْبِ الزُّلَالِ دُونَ غَيْمَةٍ فِي السَّمَاءِ وَلَا مَطَرٍ يَهْطِلُ مِنَ الأَعْلَى، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الطُّمَأْنِينَةَ الَّتِي تَسْكُنُ القَلْبَ حِينَ يَعْلَمُ أَنَّ العُقْمَ وَالكِبَرَ وَالمسْتَحِيلَ مُجَرَّدُ كَلِمَاتٍ فِي قَامُوسِ البَشَرِ أَمَّا فِي قَامُوسِ السَّمَاءِ فَكُلُّ شَيْءٍ هَيِّنٌ وَيَسِيرٌ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ دَهْشَتِي أَمَامَ عَظَمَةِ الخَلْقِ إِلَى تَسْلِيمٍ مُطْلَقٍ لِسُلْطَانِ الإِرَادَةِ الَّتِي لَا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، فَكُلُّ قَانُونٍ فِي هَذَا الكَوْنِ يَخْضَعُ لِأَمْرِ خَالِقِهِ وَلَا رَادَّ لِمَشِيئَةِ اللهِ.

سِفْرُ الصَّدَى الثَّامِنَ عَشَرَ

صَمْتُ اللِّسَانِ وَتَسْبِيحُ الأَصِيلِ

صَدَى {قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ آيَةٗۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزٗاۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} [آل عمران: 41]

عَلَى شِفَاهِ الدَّهْشَةِ النُّورَانِيَّةِ يَنْعَقِدُ لِسَانُ زَكَرِيَّا عَنْ كَلَامِ الطِّينِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لِيَتَفَجَّرَ فِي صَدْرِهِ نَهْرُ التَّسْبِيحِ وَالذِّكْرِ بَيْنَ العَشِيِّ وَالإِبْكَارِ، فَيَتَلَاشَى فِي أَعْمَاقِي ضَجِيجُ الأَصْوَاتِ البَشَرِيَّةِ الَّذِي يُبَدِّدُ طَاقَةَ الرُّوحِ وَيَحْجُبُهَا عَنْ حَلَاوَةِ المُنَاجَاةِ فِي مِحْرَابِ السُّكُونِ، وَكَمْ أَسْرَفْتُ فِي بَعْثَرَةِ كَلِمَاتِي فِي أَسْوَاقِ الغَفْلَةِ قَبْلَ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ الصَّمْتَ عَنِ الخَلْقِ هُوَ البَوَّابَةُ السِّرِّيَّةُ لِلْحَدِيثِ المَفْتُوحِ مَعَ الخَالِقِ، أَتَأَمَّلُ النَّايَ القَصَبِيَّ الَّذِي تُغْلَقُ فُوَّهَتُهُ عَنْ رِيَاحِ العَبَثِ لِتَنْسَابَ مِنْ ثُقُوبِهِ أَلْحَانُ العِشْقِ وَالتَّسْبِيحِ عِنْدَ انْكِسَارِ الشَّمْسِ وَانْبِلَاجِ الفَجْرِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الآيَةَ المُعْجِزَةَ الَّتِي تَجْعَلُ عَجْزَ اللِّسَانِ عَنْ مُخَاطَبَةِ النَّاسِ دَلِيلًا عَلَى كَمَالِ القُدْرَةِ وَانْطِلَاقِهِ بِالذِّكْرِ الكَثِيرِ فِي كُلِّ حِينٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ خَلَوَاتُ صَمْتِي إِلَى بَسَاتِينَ مِنَ التَّسْبِيحِ أَغْسِلُ فِيهَا رُوحِي مِنْ غُبَارِ الجِدَالِ وَأُرَتِّلُ فِيهَا أَنَاشِيدَ الشُّكْرِ، فَكُلُّ كَلَامٍ يَنْقَطِعُ عَنْ ذِكْرِ السَّمَاءِ هُوَ خَرَسٌ مُقَنَّعٌ وَلَا حَيَاةَ لِلِّسَانِ إِلَّا بِتَسْبِيحِ اللهِ.

طَهَارَةُ الِاصْطِفَاءِ وَرُكُوعُ القَانِتِينَ

صَدَى {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [آل عمران: 42 – 43]

تِيجَانُ الطَّهَارَةِ وَالِاصْطِفَاءِ تَتَنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ فَوْقَ جَبِينِ مَرْيَمَ البَتُولِ لِتُتَوِّجَهَا سَيِّدَةً عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ وَتَدْعُوَهَا إِلَى طُولِ القُنُوتِ وَالسُّجُودِ، فَيَسْقُطُ فِي وِجْدَانِي وَهْمُ الكَرَامَةِ الفَارِغَةِ الَّتِي تَظُنُّ أَنَّ الِاصْطِفَاءَ يَعْنِي الرَّاحَةَ وَالدَّعَةَ بَيْنَمَا هُوَ فِي الحَقِيقَةِ تَكْلِيفٌ بِمُضَاعَفَةِ الخُشُوعِ وَالرُّكُوعِ، وَكَمْ ظَنَنْتُ أَنَّ نِعَمَ السَّمَاءِ تُقَابَلُ بِالفَخْرِ وَالتَّبَاهِي قَبْلَ أَنْ أَرَى كَيْفَ يُقَابَلُ الِاصْطِفَاءُ الأَعْظَمُ بِانْكِسَارِ الجَبْهَةِ عَلَى تُرَابِ العُبُودِيَّةِ مَعَ الرَّاكِعِينَ، أَرَى الزَّهْرَةَ النَّادِرَةَ الَّتِي اخْتَارَهَا البُسْتَانِيُّ لِتَكُونَ دُرَّةَ الحَدِيقَةِ تَنْحَنِي بِأَوْرَاقِهَا النَّدِيَّةِ نَحْوَ الأَرْضِ شُكْرًا لِلْغَيْثِ الَّذِي سَقَاهَا وَطَهَّرَهَا مِنْ غُبَارِ

الطَّرِيقِ، فَمَا أَبْهَى هَذَا التَّنَاغُمَ الرُّوحِيَّ بَيْنَ عُلُوِّ المقَامِ عِنْدَ الملَائِكَةِ وَبَيْنَ التَّذَلُّلِ فِي المِحْرَابِ بِالقُنُوتِ وَالسُّجُودِ الَّذِي يَرْفَعُ القَلْبَ إِلَى مَلَكُوتِ الرِّضَا، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ النِّعَمُ الَّتِي تَغْمُرُنِي إِلَى دَافِعٍ لِإِطَالَةِ السُّجُودِ وَمُلَازَمَةِ القَانِتِينَ لِأَحْفَظَ طَهَارَةَ رُوحِي مِنْ شَوَائِبِ الغُرُورِ، فَكُلُّ رِفْعَةٍ لَا تُثْمِرُ خُشُوعًا هِيَ اسْتِدْرَاجٌ خَفِيٌّ وَلَا كَمَالَ لِلْاصْطِفَاءِ إِلَّا بِالسُّجُودِ لِلهِ.

أَقْلَامُ القُرْعَةِ وَأَنْبَاءُ الغَيْبِ

صَدَى {ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [آل عمران: 44]

مِنْ وَرَاءِ حُجُبِ الزَّمَنِ السَّحِيقَةِ تَتَدَفَّقُ أَنْبَاءُ الغَيْبِ الصَّادِقَةُ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ لِتَكْشِفَ مَشْهَدَ الأَقْلَامِ المتَنَافِسَةِ عَلَى كَفَالَةِ الطُّهْرِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي عَقْلِي ظَلَامُ الرَّيْبِ الَّذِي يَتَسَاءَلُ عَنْ مَصْدَرِ القُرْآنِ بَعْدَ أَنْ صَوَّرَ الوَحْيُ تَفَاصِيلَ الخُصُومَةِ الخَفِيَّةِ كَأَنَّهَا تَجْرِي أَمَامَ العَيْنِ، وَكَمْ غَفَلَتِ الأَبْصَارُ عَنْ إِعْجَازِ القَصَصِ القُرْآنِيِّ الَّذِي يَخْتَرِقُ جُدْرَانَ المحَارِيبِ القَدِيمَةِ لِيُثْبِتَ أَنَّ الرِّسَالَةَ تَنْبُعُ مِنْ عَالِمِ السِّرِّ وَالعَلَنِ، أَتَأَمَّلُ الأَقْلَامَ الخَشَبِيَّةَ المُلْقَاةَ فِي النَّهْرِ الجَارِي كَيْفَ تَجْرِفُهَا المِيَاهُ كُلَّهَا إِلَّا قَلَمَ زَكَرِيَّا الَّذِي يَثْبُتُ عَكْسَ التَّيَّارِ بِأَمْرِ السَّمَاءِ لِيَفُوزَ بِشَرَفِ رِعَايَةِ الزَّهْرَةِ المصْطَفَاةِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا البُرْهَانَ النَّاطِقَ الَّذِي يُخْرِسُ أَلْسِنَةَ المكَذِّبِينَ حِينَ يَرْوِي لَهُمُ النَّبِيُّ أَسْرَارًا لَمْ يَشْهَدْهَا بَشَرٌ وَلَمْ تَحْفَظْهَا كُتُبُ الأَرْضِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ قِرَاءَتِي لِأَنْبَاءِ الغَيْبِ إِلَى يَقِينٍ رَاسِخٍ بِأَنَّ هَذَا الكِتَابَ هُوَ كَلَامُ الرَّبِّ الَّذِي يُحِيطُ بِالمَاضِي وَالحَاضِرِ وَالمسْتَقْبَلِ، فَكُلُّ تَارِيخٍ يُرْوَى بِغَيْرِ وَحْيٍ يَشُوبُهُ النَّقْصُ وَالهَوَى وَلَا صِدْقَ مُطْلَقٌ إِلَّا فِي أَنْبَاءِ اللهِ.

كَلِمَةُ السَّمَاءِ وَوَجَاهَةُ المسِيحِ

صَدَى {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [آل عمران: 45]

نَفْحَةٌ عُلْوِيَّةٌ مِنْ رُوحِ القُدُسِ تَحْمِلُهَا المَلَائِكَةُ إِلَى مِحْرَابِ مَرْيَمَ لِتُبَشِّرَهَا بِمِيلَادِ الكَلِمَةِ المُعْجِزَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُتَوَّجًا بِالوَجَاهَةِ وَالقُرْبِ، فَيَنْكَشِفُ لِي جَلَالُ القُدْرَةِ الَّتِي تَخْلُقُ البَشَرَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ دُونَ أَبٍ لِتُعْلِنَ لِلْكَوْنِ أَنَّ الأَسْبَابَ خَادِمَةٌ لِلْمَشِيئَةِ لَا حَاكِمَةً عَلَيْهَا، وَكَمْ حَارَتِ العُقُولُ الضَّيِّقَةُ أَمَامَ سِرِّ المِيلَادِ البَتُولِيِّ قَبْلَ أَنْ يُنْصِفَ القُرْآنُ المَسِيحَ وَأُمَّهُ وَيَضَعَهُمَا فِي مَقَامِ الطُّهْرِ وَالوَجَاهَةِ فِي الدَّارَيْنِ، أَرَى الشُّعَاعَ الأَبْيَضَ يَخْتَرِقُ البَلُّورَةَ الصَّافِيَةَ دُونَ أَنْ يَكْسِرَهَا لِيُشْعِلَ قِنْدِيلَ النُّبُوَّةِ فِي جَوْفِ الظَّلَامِ وَيَهْدِي التَّائِهِينَ إِلَى صِرَاطِ المَحَبَّةِ وَالتَّوْحِيدِ، فَمَا أَبْهَى هَذِهِ المَنْزِلَةَ السَّامِيَةَ الَّتِي يَجْمَعُ فِيهَا المَسِيحُ بَيْنَ شَرَفِ الرِّسَالَةِ فِي الأَرْضِ وَمَقَامِ المُقَرَّبِينَ فِي السَّمَاءِ بَعِيدًا عَنْ غُلُوِّ الغَالِينَ وَجَفَاءِ الجَاحِدِينَ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ مَعْرِفَتِي بِالمَسِيحِ إِلَى إِجْلَالٍ خَالِصٍ لِنَبِيٍّ كَرِيمٍ كَانَ كَلِمَةً سَمَاوِيَّةً أَلْقَاهَا الخَالِقُ إِلَى مَرْيَمَ الطَّاهِرَةِ، فَكُلُّ مُعْجِزَةٍ فِي هَذَا الوُجُودِ هِيَ آيَةٌ عَلَى قُدْرَةِ الخَالِقِ وَلَا وَجَاهَةَ حَقِيقِيَّةً إِلَّا بِقُرْبٍ مِنَ اللهِ.

نُطْقُ المَهْدِ وَوَقَارُ الكُهُولَةِ

صَدَى {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: 46]

فِي لَفَائِفِ المَهْدِ الصَّغِيرِ يَنْطِقُ الرَّضِيعُ بِحِكْمَةِ الكُهُولِ لِيُدَافِعَ عَنْ طَهَارَةِ أُمِّهِ وَيُعْلِنَ نُبُوَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَلَّمَ شَفَتَاهُ حُرُوفَ البَشَرِ، فَيَتَحَطَّمُ فِي عَقْلِي قَيْدُ الزَّمَنِ البَشَرِيِّ الَّذِي يَرْبِطُ النُّضْجَ وَالبَيَانَ بِمُرُورِ السِّنِينَ وَيَنْسَى أَنَّ مُنْطِقَ الكَائِنَاتِ يُفَجِّرُ الحِكْمَةَ فِي المَهْدِ كَمَا يُفَجِّرُهَا فِي الكُهُولَةِ، وَكَمْ ظَنَنْتُ أَنَّ الضَّعْفَ الجَسَدِيَّ أَوْ صِغَرَ السِّنِّ يَمْنَعُ ظُهُورَ الحَقِّ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَ الطِّفْلِ المُعْجِزِ يَشُقُّ صَمْتَ المُتَّهِمِينَ بِبَيَانٍ يَفُوقُ بَلَاغَةَ الشُّيُوخِ، أَتَأَمَّلُ البُرْعُمَ الصَّغِيرَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ التُّرْبَةِ فِي أَوَّلِ الرَّبِيعِ وَهُوَ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ الغَضِّ كُلَّ أَسْرَارِ الشَّجَرَةِ الكَبِيرَةِ وَعِطْرِهَا وَثِمَارِهَا القَادِمَةِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الآيَةَ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ نُطْقِ الطُّفُولَةِ وَوَقَارِ الكُهُولَةِ لِتُعْلِنَ أَنَّ المَسِيحَ عَبْدٌ صَالِحٌ اصْطَفَاهُ الخَالِقُ لِيَكُونَ بُرْهَانًا لِلْعَالَمِينَ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ ثِقَتِي بِالحَقِّ إِلَى يَقِينٍ بِأَنَّ اللهَ يُنْطِقُ بِالحُجَّةِ أَضْعَفَ خَلْقِهِ لِيُبْطِلَ كَيْدَ المُفْتَرِينَ وَيَحْمِيَ أَوْلِيَاءَهُ الصَّادِقِينَ، فَكُلُّ حِكْمَةٍ تَجْرِي عَلَى الأَلْسِنَةِ هِيَ فَيْضٌ سَمَاوِيٌّ وَلَا صَلَاحَ إِلَّا بِهِدَايَةِ اللهِ.

دَهْشَةُ البَتُولِ وَسَيْفُ الإِرَادَةِ

صَدَى {قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [آل عمران: 47]

عَلَى عَتَبَةِ العَفَافِ المطْلَقِ تَتَسَاءَلُ مَرْيَمُ بِحَيَاءٍ وَدَهْشَةٍ كَيْفَ يَتَفَجَّرُ يَنْبُوعُ الحَيَاةِ فِي رَحِمٍ لَمْ يَمْسَسْهُ بَشَرٌ لِتَسْمَعَ صَوْتَ القُدْرَةِ يُعْلِنُ سِرَّ كَلِمَةِ كُنْ، فَيَسْقُطُ فِي أَعْمَاقِي وَهْمُ الِاسْتِحَالَةِ الَّذِي يُحَاصِرُ الأَحْلَامَ وَيُقَيِّدُ الرَّجَاءَ بِسَلَاسِلِ العَادَاتِ الأَرْضِيَّةِ وَالقَوَانِينِ المأْلُوفَةِ، وَكَمْ وَقَفْتُ عَاجِزًا أَمَامَ أَبْوَابٍ مُوصَدَةٍ لَا مِفْتَاحَ لَهَا فِي عَالَمِ المادَّةِ قَبْلَ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ بَيْنَ العَدَمِ وَالوُجُودِ حَرْفَيْنِ اثْنَيْنِ تَنْطِقُ بِهِمَا الإِرَادَةُ فَيَتَحَقَّقُ المسْتَحِيلُ، أَرَى الفَضَاءَ الفَارِغَ المظْلِمَ قَبْلَ خَلْقِ النُّجُومِ كَيْفَ انْبَثَقَتْ فِيهِ الشُّمُوسُ وَالمجَرَّاتُ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ دُونَ أُمٍّ تَلِدُهَا وَلَا أَبٍ يَرْعَاهَا لِأَنَّ الخَالِقَ قَضَى أَمْرَهُ بِكُنْ فَكَانَ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ السُّهُولَةَ المطْلَقَةَ فِي الخَلْقِ وَالإِيجَادِ حِينَ لَا تَحْتَاجُ السَّمَاءُ إِلَى وَسَائِطَ وَلَا زَمَنٍ لِتُنْشِئَ مَا تَشَاءُ بِأَمْرِهَا النَّافِذِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ تَسَاؤُلَاتِي الحَائِرَةُ أَمَامَ الأَقْدَارِ الصَّعْبَةِ إِلَى طُمَأْنِينَةٍ تَامَّةٍ بِأَنَّ كَلِمَةَ كُنْ تَفْتَحُ كُلَّ مُغْلَقٍ وَتُحْيِي كُلَّ رَمِيمٍ، فَكُلُّ أَمْرٍ يَقْضِيهِ الخَالِقُ هُوَ نَافِذٌ بِلَا تَرَدُّدٍ وَلَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِلَّا اللهُ.

عِلْمُ الكِتَابِ وَمِيرَاثُ النُّبُوَّةِ

صَدَى {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ} [آل عمران: 48]

أَنْوَارُ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّ تَتَدَفَّقُ إِلَى قَلْبِ المسِيحِ كَالشَّلَّالِ الصَّافِي لِتَجْمَعَ لَهُ بَيْنَ إِتْقَانِ الكِتَابَةِ وَعُمْقِ الحِكْمَةِ وَفَهْمِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ، فَيَتَجَلَّى لِي أَنَّ الرِّسَالَةَ الصَّادِقَةَ لَا تَقُومُ عَلَى الجَهْلِ بَلْ تُبْنَى عَلَى مِيرَاثٍ عَظِيمٍ مِنَ العِلْمِ وَالبَصِيرَةِ وَتَصْدِيقِ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ، وَكَمْ ظَنَنْتُ أَنَّ العِلْمَ يُنَالُ بِكَدْحِ العُقُولِ وَحْدَهَا قَبْلَ أَنْ أَرَى كَيْفَ يَتَوَلَّى الخَالِقُ بِنَفْسِهِ تَعْلِيمَ أَنْبِيَائِهِ لِيَكُونُوا أَطِبَّاءَ الأَرْوَاحِ وَمُعَلِّمِي البَشَرِيَّةِ، أَتَأَمَّلُ القِنْدِيلَ البَلُّورِيَّ الَّذِي يُمْلَأُ بِزَيْتٍ صَافٍ ثُمَّ تُوقِدُهُ يَدُ النُّورِ فَيُشِعُّ ضِيَاؤُهُ فِي أَرْبَعِ جِهَاتٍ لِيُبَدِّدَ ظُلْمَةَ الجَهْلِ وَالتَّحْرِيفِ وَالجُمُودِ الَّذِي خَيَّمَ عَلَى القُلُوبِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّكْمِيلَ الرُّوحِيَّ حِينَ يَجْتَمِعُ فِي النَّبِيِّ عِلْمُ الشَّرِيعَةِ وَنُورُ الحِكْمَةِ لِيُعِيدَ لِلنَّاسِ جَوْهَرَ التَّوْحِيدِ النَّقِيِّ الَّذِي أَضَاعَتْهُ الأَهْوَاءُ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ رَحْلَتِي فِي طَلَبِ المعْرِفَةِ إِلَى تَضَرُّعٍ لِلْمُعَلِّمِ الأَعْظَمِ أَنْ يَفْتَحَ

عَلَيَّ أَبْوَابَ الحِكْمَةِ وَيُرْزِقَنِي فَهْمَ الكِتَابِ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ، فَكُلُّ عِلْمٍ يَخْلُو مِنَ الحِكْمَةِ هُوَ حُجَّةٌ عَلَى صَاحِبِهِ وَلَا مُعَلِّمَ لِلْحَقِيقَةِ إِلَّا اللهُ.

طَيْرُ الطِّينِ وَبَعْثُ الأَكْمَهِ

صَدَى {وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران: 49]

بَيْنَ أَنَامِلِ المسِيحِ يَنْتَفِضُ الطِّينُ المَيِّتُ طَيْرًا يُحَلِّقُ فِي الفَضَاءِ وَتَتَفَتَّحُ عُيُونُ الأَكْمَهِ وَتَنْبُضُ العُرُوقُ الهَامِدَةُ بِالحَيَاةِ كُلُّ ذَلِكَ بِكَلِمَةٍ إِذْنٍ مِنَ السَّمَاءِ، فَيَسْقُطُ فِي وِجْدَانِي غُرُورُ المَادَّةِ الصَّمَّاءِ الَّتِي تَعْتَقِدُ أَنَّ المَوْتَ وَالعَمَى وَالمَرَضَ قُيُودٌ أَبَدِيَّةٌ لَا تَنْكَسِرُ أَمَامَ رَحْمَةِ الخَالِقِ، وَكَمْ انْبَهَرَ البَشَرُ بِالمُعْجِزَةِ فَفَتَنُوا بِالنَّبِيِّ وَنَسُوا أَنَّهُ يُكَرِّرُ فِي كُلِّ آيَةٍ أَنَّ الفِعْلَ يَتِمُّ بِإِذْنِ رَبِّهِ لِيُعْلِنَ عُبُودِيَّتَهُ الخَالِصَةَ، أَرَى النَّايَ الَّذِي تَنْفُخُ فِيهِ الرِّيحُ السَّمَاوِيَّةُ فَيُطْلِقُ أَعْذَبَ الأَلْحَانِ وَيُحْيِي القُلُوبَ المَيِّتَةَ بَيْنَمَا هُوَ فِي ذَاتِهِ قِطْعَةٌ مِنَ القَصَبِ لَا تَمْلِكُ صَوْتًا وَلَا حَرَكَةً لَوْلَا نَفْخَةُ الحَيَاةِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ البَرَاهِينَ السَّاطِعَةِ الَّتِي تَخْتَرِقُ حَتَّى أَسْرَارَ البُيُوتِ وَمَا يَدَّخِرُهُ النَّاسُ لِتُقِيمَ الحُجَّةَ الدَّامِغَةَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ يَحْمِلُ بَذْرَةَ الإِيمَانِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ رُؤْيَتِي لِلْمُعْجِزَاتِ إِلَى تَعْظِيمٍ لِمُجْرِيهَا وَخُضُوعٍ لِسُلْطَانِ الإِذْنِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يُحْيِي القُلُوبَ قَبْلَ الأَجْسَادِ، فَكُلُّ خَارِقَةٍ فِي الكَوْنِ هِيَ شَاهِدٌ عَلَى الوَحْدَانِيَّةِ وَلَا يَكُونُ شَيْءٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ.

تَصْدِيقُ التَّوْرَاةِ وَيُسْرُ الشَّرِيعَةِ

صَدَى {وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} [آل عمران: 50]

عَلَى جِسْرِ التَّصْدِيقِ وَالتَّيْسِيرِ يَعْبُرُ المسِيحُ بِرِسَالَتِهِ لِيُعِيدَ لِلتَّوْرَاةِ نَقَاءَهَا وَيَفُكَّ عَنِ الأَرْوَاحِ أَغْلَالَ التَّحْرِيمِ الَّتِي أَثْقَلَتْ كَاهِلَ المكَلَّفِينَ، فَيَتَبَدَّدُ فِي صَدْرِي جَفَاءُ التَّشَدُّدِ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّ الدِّينَ عَذَابٌ

وَحِرْمَانٌ وَيَكْتَشِفُ أَنَّ السَّمَاءَ تَبْعَثُ رُسُلَهَا بِالرَّحْمَةِ وَالتَّخْفِيفِ، وَكَمْ قَيَّدَتِ النُّفُوسُ أَنْفُسَهَا بِآصَارٍ وَتَشَدُّدَاتٍ صَنَعَتْهَا الأَهْوَاءُ وَالعِنَادُ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ رِسَالَةُ النُّورِ لِتُحِلَّ الطَّيِّبَاتِ وَتَدْعُوَ إِلَى التَّقْوَى وَالطَّاعَةِ، أَتَأَمَّلُ السَّحَابَةَ الرَّحِيمَةَ الَّتِي تَهْطِلُ عَلَى الأَرْضِ المتَشَقِّقَةِ مِنَ الجَفَافِ وَالقَسْوَةِ فَتُلَيِّنُ تُرْبَتَهَا وَتُطْلِقُ سَرَاحَ البُذُورِ المحْبُوسَةِ لِتَتَنَفَّسَ الحُرِّيَّةَ وَتُزْهِرَ بِالحَيَاةِ وَالجَمَالِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّوَازُنَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الحِفَاظِ عَلَى ثَوَابِتِ الوَحْيِ القَدِيمِ وَبَيْنَ مَنْحِ الرُّخْصَةِ وَاليُسْرِ المقْرُونَيْنِ بِخَشْيَةِ الخَالِقِ وَطَاعَةِ الرَّسُولِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي إِلَى الشَّرِيعَةِ إِلَى حُبٍّ وَامْتِنَانٍ لِيُسْرِهَا وَرَحْمَتِهَا وَالْتِزَامٍ صَادِقٍ بِحُدُودِهَا بِلَا غُلُوٍّ وَلَا تَفْرِيطٍ، فَكُلُّ تَيْسِيرٍ يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ هُوَ نِعْمَةٌ لِلْعِبَادِ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِتَقْوَى اللهِ.

عُبُودِيَّةُ المسِيحِ وَالصِّرَاطُ المسْتَقِيمُ

صَدَى {إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} [آل عمران: 51]

كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ الصَّافِيَةِ تَنْطَلِقُ مِنْ فَمِ المسِيحِ كَالسَّهْمِ النُّورَانِيِّ لِتُسْقِطَ كُلَّ دَعَاوَى التَّأْلِيهِ وَتُعْلِنَ أَنَّهُ عَبْدٌ مَرْبُوبٌ يَقِفُ مَعَ البَشَرِ فِي صَفِّ العُبُودِيَّةِ الوَاحِدِ، فَيَنْهَارُ فِي عَقْلِي ضَبَابُ التَّحْرِيفِ الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يَرْفَعَ الرَّسُولَ إِلَى مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ وَيُؤَكِّدُ أَنَّ الصِّرَاطَ المسْتَقِيمَ هُوَ إِفْرَادُ الخَالِقِ بِالعِبَادَةِ، وَكَمْ تَاهَتِ البَشَرِيَّةُ فِي أَوْدِيَةِ الشِّرْكِ حِينَ غَلَتْ فِي أَنْبِيَائِهَا وَصَالِحِيهَا وَنَسِيَتْ وَصِيَّتَهُمُ الأُولَى وَالأَخِيرَةَ بِأَنَّ الرَّبَّ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي المُلْكِ، أَرَى الشَّمْسَ السَّاطِعَةَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ تَغْمُرُ المرْآةَ الصَّافِيَةَ وَالحَجَرَ الصَّغِيرَ بِنُورِهَا فَتَلْمَعُ المرْآةُ بِبَرِيقٍ عَظِيمٍ لَكِنَّهَا تَظَلُّ مَخْلُوقَةً تَعْكِسُ ضَوْءَ الشَّمْسِ وَلَا تَدَّعِي أَنَّهَا مَصْدَرُ النُّورِ، فَمَا أَوْضَحَ هَذَا الطَّرِيقَ المسْتَقِيمَ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا غُمُوضَ حِينَ يَتَسَاوَى النَّبِيُّ وَالأُمَّةُ فِي الخُضُوعِ لِرَبِّ العَالَمِينَ وَحْدَهُ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي إِلَى تَوْحِيدٍ نَقِيٍّ يُجِلُّ الأَنْبِيَاءَ وَيُحِبُّهُمْ دُونَ أَنْ يَصْرِفَ ذَرَّةً مِنَ العِبَادَةِ لِغَيْرِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَكُلُّ طَرِيقٍ يُشْرِكُ مَعَ الخَالِقِ غَيْرَهُ هُوَ انْحِرَافٌ وَضَلَالٌ وَلَا صِرَاطَ مُسْتَقِيمَ إِلَّا عِبَادَةُ اللهِ.

نِدَاءُ النُّصْرَةِ وَوَفَاءُ الحَوَارِيّينَ

صَدَى {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 52]

فِي لَحْظَةِ الحِصَارِ وَانْكِشَافِ نَوَايَا الجُحُودِ تَدْوِي صَرْخَةُ المَسِيحِ فِي فَضَاءِ التَّارِيخِ بَاحِثَةً عَنْ أَنْصَارٍ يَحْمِلُونَ رَايَةَ النُّورِ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَنْتَفِضُ فِي صَدْرِي رُوحُ البُطُولَةِ الإِيمَانِيَّةِ حِينَ يَتَقَدَّمُ الحَوَارِيُّونَ بِقُلُوبٍ بَيْضَاءَ لِيُعْلِنُوا أَنَّهُمْ أَنْصَارُ الحَقِّ وَشُهُودُ الإِسْلَامِ، وَكَمْ تَرَاجَعَتِ النُّفُوسُ الجَبَانَةُ عِنْدَ سَاعَةِ الِاصْطِفَافِ وَتَرَكَتِ الدُّعَاةَ فِي وَحْشَةِ الغُرْبَةِ قَبْلَ أَنْ يُسَجِّلَ القُرْآنُ مَوْقِفَ هَؤُلَاءِ الأَصْفِيَاءِ الَّذِينَ بَاعُوا الدُّنْيَا لِيَشْتَرُوا شَرَفَ النُّصْرَةِ، أَتَأَمَّلُ النُّجُومَ المُتَلَأْلِئَةَ فِي كَبِدِ اللَّيْلِ البَهِيمِ كَيْفَ تَجْتَمِعُ حَوْلَ القَمَرِ المُنِيرِ لِتُؤَانِسَ وَحْدَتَهُ وَتُبَدِّدَ ظُلْمَةَ الكَوْنِ بِضِيَائِهَا المُتَّحِدِ رَغْمَ كَثَافَةِ الغُيُومِ السَّوْدَاءِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الشَّرَفَ الخَالِدَ الَّذِي نَالَهُ الحَوَارِيُّونَ حِينَ أَشْهَدُوا نَبِيَّهُمْ عَلَى إِيمَانِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ لِرَبِّ العَالَمِينَ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ وَالشِّدَّةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ اسْتِجَابَتِي لِنِدَاءِ الحَقِّ إِلَى مُبَادَرَةٍ فَوْرِيَّةٍ أَقِفُ فِيهَا فِي صَفِّ الأَنْصَارِ الصَّادِقِينَ وَلَا أَخْذُلُ دَعْوَةَ السَّمَاءِ أَبَدًا، فَكُلُّ تَرَدُّدٍ عِنْدَ نِدَاءِ النُّصْرَةِ هُوَ خِذْلَانٌ لِلنَّفْسِ وَلَا عِزَّةَ إِلَّا لِمَنْ كَانَ مِنْ أَنْصَارِ اللهِ.

مِيثَاقُ الشَّهَادَةِ وَاتِّبَاعُ الرَّسُولِ

صَدَى {رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: 53]

عَلَى بَابِ القَبُولِ الإِلَهِيِّ يَقِفُ الحَوَارِيُّونَ لِيَخْتِمُوا مَوْقِفَهُمُ النَّبِيلَ بِدُعَاءٍ يَمْزِجُ بَيْنَ تَصْدِيقِ الوَحْيِ وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ طَالِبِينَ أَنْ يُسَجَّلُوا فِي دِيوَانِ الشَّاهِدِينَ، فَيَسْتَقِرُّ فِي وِجْدَانِي أَنَّ الإِيمَانَ الصَّادِقَ لَا يَكْتَمِلُ إِلَّا بِالجَمْعِ بَيْنَ القَلْبِ المُصَدِّقِ بِالكِتَابِ وَالقَدَمِ السَّائِرَةِ خَلْفَ النَّبِيِّ الأَمِينِ، وَكَمْ تَمَنَّيْتُ أَنْ يُكْتَبَ اسْمِي فِي سِجِلِّ الشُّهَدَاءِ عَلَى الحَقِّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ بِالوَحْدَانِيَّةِ فِي الدُّنْيَا وَيَشْهَدُونَ مَعَ الأَنْبِيَاءِ عَلَى الأُمَمِ يَوْمَ القِيَامَةِ، أَرَى قَطَرَاتِ الحِبْرِ الذَّهَبِيِّ تَنْسَابُ فَوْقَ صَحَائِفِ النُّورِ لِتُخَلِّدَ أَسْمَاءَ الأَوْفِيَاءِ الَّذِينَ لَمْ يُبَدِّلُوا وَلَمْ يُغَيِّرُوا بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا طَرِيقَ النَّجَاةِ وَالتَّوْحِيدِ، فَمَا أَجْمَلَ هَذَا التَّوَسُّلَ الخَاشِعَ الَّذِي لَا يَطْلُبُ مَالًا وَلَا مُلْكًا بَلْ يَطْلُبُ شَرَفَ الشَّهَادَةِ وَالمَعِيَّةِ مَعَ صَفْوَةِ الخَلْقِ عِنْدَ مَلِكِ المُلُوكِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ دَعَوَاتِي إِلَى سَعْيٍ دَؤُوبٍ لِتَحْقِيقِ الإِيمَانِ وَالِاتِّبَاعِ لِأَنَالَ وِسَامَ

الشَّاهِدِينَ فِي سِجِلِّ السَّمَاءِ الخَالِدِ، فَكُلُّ شَرَفٍ يَزُولُ عِنْدَ المَوْتِ إِلَّا شَرَفَ مَنْ كَتَبَهُ مَعَ الشَّاهِدِينَ اللهُ.

مَكْرُ الظَّلَامِ وَتَدْبِيرُ السَّمَاءِ

صَدَى {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران: 54]

فِي غُرَفِ التَّآمُرِ المُظْلِمَةِ يَنْسِجُ الجَاحِدُونَ شِبَاكَ الغَدْرِ لِاصْطِيَادِ رُوحِ المَسِيحِ بَيْنَمَا تُحِيطُ بِهِمْ خُيُوطُ التَّدْبِيرِ الإِلَهِيِّ الَّتِي تَقْلِبُ السِّحْرَ عَلَى السَّاحِرِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي صَدْرِي رُعْبُ المؤَامَرَاتِ البَشَرِيَّةِ الَّتِي تُحَاكُ فِي الخَفَاءِ ضِدَّ أَهْلِ الحَقِّ بَعْدَ أَنْ أَدْرَكْتُ أَنَّ السَّمَاءَ تُدَبِّرُ مِنَ الأَعْلَى بِحِكْمَةٍ تَفُوقُ دَهَاءَ الخَلْقِ، وَكَمْ أَخَافَتْنِي دَسَائِسُ المَاكِرِينَ وَحِيلُ الظَّالِمِينَ قَبْلَ أَنْ تَطْمَئِنَّ رُوحِي إِلَى هَذِهِ القَاعِدَةِ الكَوْنِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُ مَكْرَ العِبَادِ لُعْبَةً صَغِيرَةً أَمَامَ تَدْبِيرِ الخَالِقِ، أَتَأَمَّلُ الصَّيَّادَ المَغْرُورَ الَّذِي يَحْفِرُ حُفْرَةً عَمِيقَةً فِي الظَّلَامِ لِيُوقِعَ فِيهَا الطَّائِرَ البَرِيءَ فَيُطِيرُ الطَّائِرُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَسْقُطُ الصَّيَّادُ نَفْسُهُ فِي قَاعِ حُفْرَتِهِ المَسْمُومَةِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا السُّلْطَانَ المُطْلَقَ الَّذِي يُبْطِلُ كَيْدَ الأَعْدَاءِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ وَيُحَوِّلُ مَكْرَهُمْ إِلَى سُلَّمٍ يَصْعَدُ بِهِ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَى النَّجَاةِ وَالكَرَامَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ مَخَاوِفِي مِنْ كَيْدِ النَّاسِ إِلَى تَفْوِيضٍ كَامِلٍ لِأَمْرِي إِلَى المُدَبِّرِ الأَعْظَمِ الَّذِي يَحْمِي أَنْبِيَاءَهُ وَعِبَادَهُ الصَّالِحِينَ، فَكُلُّ مَكْرٍ يُدَبَّرُ فِي الأَرْضِ يَنْهَارُ أَمَامَ تَدْبِيرِ خَيْرِ المَاكِرِينَ اللهِ.

رَفْعُ الطُّهْرِ وَعُلُوُّ الأَتْبَاعِ

صَدَى {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [آل عمران: 55]

أَجْنِحَةُ الرَّحْمَةِ وَالعِصْمَةِ تَحْتَضِنُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ لِتَرْفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ طَاهِرًا مِنْ أَدْنَاسِ الكَافِرِينَ وَتُعْلِيَ شَأْنَ أَتْبَاعِهِ الصَّادِقِينَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، فَيَتَلَاشَى فِي عَقْلِي وَهْمُ الصَّلْبِ وَالإِهَانَةِ الَّذِي زَعَمَهُ الجَاحِدُونَ وَيَتَجَلَّى لِي كَرَمُ الخَالِقِ الَّذِي لَا يُسَلِّمُ أَنْبِيَاءَهُ لِأَيْدِي القَتَلَةِ وَالمجْرِمِينَ، وَكَمْ

حَارَتِ العُقُولُ فِي خِلَافَاتِ الأَدْيَانِ وَتَأْوِيلَاتِ البَشَرِ حَوْلَ مَصِيرِ المسِيحِ قَبْلَ أَنْ يَحْسِمَ القُرْآنُ القَضِيَّةَ وَيُؤَجِّلَ الفَصْلَ النِّهَائِيَّ فِي كُلِّ خِلَافٍ إِلَى يَوْمِ المرْجِعِ الكَبِيرِ، أَرَى القَطْرَةَ الصَّافِيَةَ الَّتِي تُحَاوِلُ الأَوْحَالُ تَلْوِيثَهَا فَتُرْسِلُ الشَّمْسُ أَشِعَّتَهَا الدَّافِئَةَ لِتَرْفَعَهَا بُخَارًا نَقِيًّا إِلَى كَبِدِ السَّمَاءِ بَعِيدًا عَنْ أَدْرَانِ الأَرْضِ وَظُلُمَاتِهَا، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الوَعْدَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَجْعَلُ العُلُوَّ وَالغَلَبَةَ لِأَهْلِ الإِيمَانِ وَالِاتِّبَاعِ الصَّحِيحِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ثُمَّ يَعُودُ الجَمِيعُ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمُ الحَكَمُ العَدْلُ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ ثِقَتِي بِعَدَالَةِ السَّمَاءِ إِلَى يَقِينٍ بِأَنَّ البَاطِلَ لَا يَنْتَصِرُ عَلَى الحَقِّ أَبَدًا وَأَنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ فِي الدَّارَيْنِ، فَكُلُّ خِلَافٍ يَدُورُ فِي الأَرْضِ سَيُحْسَمُ عِنْدَ المرْجِعِ الكَبِيرِ إِلَى اللهِ.

عَذَابُ الدَّارَيْنِ وَخِذْلَانُ الكَافِرِينَ

صَدَى {فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} [آل عمران: 56]

سِيَاطُ العَذَابِ الشَّدِيدِ تُلَاحِقُ الجَاحِدِينَ فِي مَمَرَّاتِ الدُّنْيَا الضَّيِّقَةِ قَبْلَ أَنْ تَبْتَلِعَهُمْ نِيرَانُ الآخِرَةِ بِلَا شَفِيعٍ وَلَا نَصِيرٍ، فَيَسْقُطُ فِي وِجْدَانِي بَرِيقُ النَّعِيمِ الظَّاهِرِيِّ الَّذِي يَتَقَلَّبُ فِيهِ الكَافِرُونَ بَيْنَمَا تَخْتَرِقُ أَرْوَاحُهُمْ فِي الدَّاخِلِ بِالْقَلَقِ وَالخِزْيِ وَالضَّيَاعِ، وَكَمْ اغْتَرَّ البُسَطَاءُ بِمَظَاهِرِ القُوَّةِ وَالرَّفَاهِيَةِ عِنْدَ أَعْدَاءِ السَّمَاءِ وَغَفَلُوا عَنْ أَنَّ الشَّقَاءَ الدَّاخِلِيَّ وَالحِرْمَانَ مِنَ السَّكِينَةِ هُمَا أَوَّلُ مَنَازِلِ العَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ، أَتَأَمَّلُ الشَّجَرَةَ المقْطُوعَةَ الجُذُورِ تَظَلُّ أَوْرَاقُهَا خَضْرَاءَ لِأَيَّامٍ قَلِيلَةٍ بَيْنَمَا هِيَ فِي الحَقِيقَةِ تَمُوتُ بِبُطْءٍ وَتَجِفُّ مِنْ أَعْمَاقِهَا حَتَّى تَصِيرَ حَطَبًا يَابِسًا لِلنَّارِ، فَمَا أَشَدَّ هَذَا الوَعِيدَ الصَّارِمَ الَّذِي يُغْلِقُ كُلَّ مَنَافِذِ الهُرُوبِ أَمَامَ المكَذِّبِينَ فَلَا يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ طُمَأْنِينَةً وَلَا فِي السَّمَاءِ مُغِيثًا يَدْفَعُ عَنْهُمُ الهَلَاكَ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ رُؤْيَتِي لِحَالِ الجَاحِدِينَ إِلَى شَفَقَةٍ وَحَذَرٍ أَحْمِي بِهِمَا قَلْبِي مِنْ أَسْبَابِ الكُفْرِ وَالغَفْلَةِ لِأَنْجُوَ مِنْ عَذَابِ الدَّارَيْنِ، فَكُلُّ حَيَاةٍ تَنْقَطِعُ عَنْ نُورِ الإِيمَانِ هِيَ جَحِيمٌ مُعَجَّلٌ وَلَا نَاصِرَ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

وَفَاءُ الأُجُورِ وَبُغْضُ الظَّالِمِينَ

صَدَى {وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: 57]

فِي مِيزَانِ العَدْلِ المطْلَقِ تَتَدَفَّقُ الأُجُورُ الكَامِلَةُ عَلَى أَهْلِ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ بَيْنَمَا تُغْلَقُ أَبْوَابُ المحَبَّةِ الإِلَهِيَّةِ فِي وُجُوهِ الظَّالِمِينَ، فَيَنْتَعِشُ فِي دَاخِلِي يَقِينُ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ يَبْذُلُونَ الجُهْدَ وَالعَرَقَ فِي سَبِيلِ الخَيْرِ وَهُمْ مُوقِنُونَ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تَبْخَسُ عَامِلًا أَجْرَهُ أَبَدًا، وَكَمْ تَعِبَتِ الأَرْوَاحُ فِي الأَرْضِ مِنْ جُحُودِ البَشَرِ وَبَخْسِهِمْ لِحُقُوقِ المحْسِنِينَ قَبْلَ أَنْ تَسْتَرِيحَ عِنْدَ هَذَا الوَعْدِ الصَّادِقِ بِالتَّوْفِيَةِ الكَامِلَةِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ، أَرَى الفَلَّاحَ الأَمِينَ الَّذِي سَقَى أَرْضَهُ بِدُمُوعِهِ وَعَرَقِهِ طُولَ العَامِ يَقِفُ يَوْمَ الحَصَادِ أَمَامَ بَيَادِرِ القَمْحِ الذَّهَبِيَّةِ الَّتِي تَفُوقُ تَوَقُّعَاتِهِ بَيْنَمَا تَبْقَى أَرْضُ الظَّالِمِينَ قَاحِلَةً مَلْعُونَةً لَا تُنْبِتُ إِلَّا الشَّوْكَ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ المقَابَلَةَ العَادِلَةَ الَّتِي تَجْعَلُ الإِيمَانَ وَالعَمَلَ الصَّالِحَ طَرِيقًا لِلْوَفَاءِ وَالثَّوَابِ وَتَجْعَلُ الظُّلْمَ حِجَابًا يَحْرِمُ صَاحِبَهُ مِنْ محَبَّةِ الخَالِقِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ أَعْمَالِي الصَّالِحَةُ إِلَى وَدَائِعَ مَضْمُونَةٍ أَنْتَظِرُ ثَمَرَهَا مِنَ السَّمَاءِ وَأَطْهُرُ نَفْسِي مِنْ كُلِّ ذَرَّةِ ظُلْمٍ لِئَلَّا أُطْرَدَ مِنْ رَحْمَةِ المِلكِ، فَكُلُّ جُهْدٍ يُبْذَلُ فِي الخَيْرِ مَحْفُوظٌ بِالتَّمَامِ وَلَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ أَبَدًا اللهُ.

نُورُ الآيَاتِ وَالذِّكْرُ الحَكِيمُ

صَدَى {ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ} [آل عمران: 58]

آيَاتُ البَيَانِ السَّاطِعَةُ وَالذِّكْرُ الحَكِيمُ تَتَنَزَّلُ كَالغَيْثِ المبَارَكِ لِتَحْسِمَ الجِدَالَ البَشَرِيَّ حَوْلَ قِصَّةِ المسِيحِ وَتَضَعَ الحَقِيقَةَ فِي نِصَابِهَا الصَّحِيحِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي عَقْلِي ضَبَابُ الأَسَاطِيرِ وَالتَّحْرِيفَاتِ الَّتِي نَسَجَهَا التَّارِيخُ حَوْلَ الأَنْبِيَاءِ وَيَشْرُقُ نُورُ القُرْآنِ حَكَمًا فَيْصَلًا لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، وَكَمْ حَارَتِ العُقُولُ البَاحِثَةُ عَنِ اليَقِينِ بَيْنَ رِوَايَاتِ البَشَرِ المتَنَاقِضَةِ قَبْلَ أَنْ تَهْتَدِيَ إِلَى مِشْكَاةِ الذِّكْرِ الحَكِيمِ الَّذِي يَرْوِي الحَقِيقَةَ بِأَعْذَبِ بَيَانٍ وَأَصْدَقِ بُرْهَانٍ، أَتَأَمَّلُ المِصْبَاحَ الزُّجَاجِيَّ الصَّافِيَ الَّذِي يُوضَعُ فِي قَلْبِ الظَّلَامِ فَيَكْشِفُ مَعَالِمَ الغُرْفَةِ كُلَّهَا بِوُضُوحٍ وَيُبَدِّدُ أَشْبَاحَ الخَوْفِ وَالأَوْهَامِ الَّتِي كَانَتْ تَرْسُمُهَا العَتْمَةُ عَلَى الجُدْرَانِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ النِّعْمَةَ السَّمَاوِيَّةَ حِينَ يَتْلُو الوَحْيُ عَلَى النَّبِيِّ خُلَاصَةَ الحَقَائِقِ الكُبْرَى بِأُسْلُوبٍ حَكِيمٍ يَشْفِي الصُّدُورَ وَيُقِيمُ الحُجَّةَ عَلَى

العَالَمِينَ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ تِلَاوَتِي لِلْقُرْآنِ إِلَى انْصَاتٍ خَاشِعٍ لِصَوْتِ الحِكْمَةِ المطْلَقَةِ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، فَكُلُّ قَوْلٍ يُخَالِفُ القُرْآنَ هُوَ وَهْمٌ وَسَرَابٌ وَلَا حِكْمَةَ أَبْلَغُ مِنْ آيَاتِ اللهِ.

مِيزَانُ التُّرَابِ وَبُرْهَانُ الخَلْقِ

صَدَى {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [آل عمران: 59]

عَلَى صَخْرَةِ المَنْطِقِ السَّمَاوِيِّ الدَّامِغِ تَتَحَطَّمُ حُجَجُ الغَالِينَ حِينَ يُقَارِنُ الوَحْيُ مِيلَادَ عِيسَى بِخَلْقِ آدَمَ الأَوَّلِ مِنْ تُرَابٍ بِلَا أَبٍ وَلَا أُمٍّ بِكَلِمَةِ كُنْ فَيَكُونُ، فَيَنْجَلِي فِي عَقْلِي وَجْهُ الحَقِيقَةِ السَّاطِعُ الَّذِي يُثْبِتُ أَنَّ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ أُمٍّ بِلَا أَبٍ أَهْوَنُ فِي قِيَاسِ البَشَرِ مِنْ خَلْقِهِ مِنْ طِينِ الأَرْضِ بِلَا أَبَوَيْنِ، وَكَمْ غَفَلَ المجَادِلُونَ عَنْ أَصْلِ نَشْأَتِهِمُ الأُولَى وَتَعَجَّبُوا مِنْ مُعْجِزَةِ المسِيحِ بَيْنَمَا هُمْ أَنْفُسُهُمْ أَبْنَاءُ التُّرَابِ الَّذِي نَفَخَتْ فِيهِ القُدْرَةُ رُوحَ الحَيَاةِ، أَرَى الصَّانِعَ المَاهِرَ الَّذِي أَبْدَعَ التُّحْفَةَ الفَرِيدَةَ مِنَ الطِّينِ الخَالِصِ دُونَ قَالَبٍ سَابِقٍ كَيْفَ يَسْهُلُ عَلَيْهِ أَنْ يَصْنَعَ تُحْفَةً أُخْرَى بِأَمْرِهِ النَّافِذِ دُونَ أَنْ يَعْجِزَهُ شَيْءٌ فِي الوُجُودِ، فَمَا أَبْلَغَ هَذَا البُرْهَانَ القُرْآنِيَّ الموجَزَ الَّذِي يَقْطَعُ دَابِرَ الشُّبُهَاتِ وَيُعِيدُ المسِيحَ إِلَى فِطْرَتِهِ البَشَرِيَّةِ المكَرَّمَةِ كَعَبْدٍ مَخْلُوقٍ بِكَلِمَةِ القُدْرَةِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ حُجَّتِي فِي التَّوْحِيدِ إِلَى يَقِينٍ عَقْلِيٍّ وَرُوحِيٍّ لَا يَتَزَعْزَعُ أَمَامَ تَأْوِيلَاتِ البَشَرِ وَغُلُوِّهِمْ فِي الأَنْبِيَاءِ، فَكُلُّ مَخْلُوقٍ فِي هَذَا الكَوْنِ هُوَ أَثَرٌ لِكَلِمَةِ كُنْ وَلَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ.

حَقِيقَةُ السَّمَاءِ وَتَحْرِيمُ المرَاءِ

صَدَى {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ} [آل عمران: 60]

شَمْسُ الحَقِيقَةِ المطْلَقَةِ تُشْرِقُ مِنْ أُفُقِ الرُّبُوبِيَّةِ لِتُعْلِنَ نِهَايَةَ الشَّكِّ وَالمرَاءِ وَتُثَبِّتَ القَلْبَ عَلَى اليَقِينِ الَّذِي لَا يَتَزَحْزَحُ أَمَامَ عَوَاصِفِ الجِدَالِ، فَيَسْقُطُ فِي وِجْدَانِي تَرَدُّدُ النَّفْسِ الَّتِي تَتَأَثَّرُ بِكَلَامِ المشَكِّكِينَ بَعْدَ أَنْ جَاءَهَا البَيَانُ الشَّافِي وَالحُجَّةُ البَالِغَةُ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ، وَكَمْ تَاهَتْ أَرْوَاحٌ فِي

أَوْدِيَةِ المِرَاءِ وَالحَيْرَةِ حِينَ تَرَكَتْ مِشْكَاةَ الوَحْيِ الصَّافِيَةَ وَأَصْغَتْ إِلَى وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَشُبُهَاتِ المِغْرُورِينَ بِعُقُولِهِمُ القَاصِرَةِ، أَتَأَمَّلُ الصَّخْرَةَ الجَبَلِيَّةَ الرَّاسِخَةَ فِي قَلْبِ البَحْرِ الهَائِجِ كَيْفَ تَظَلُّ ثَابِتَةً فِي مَكَانِهَا لَا تُحَرِّكُهَا الأَمْوَاجُ المتَلَاطِمَةُ لِأَنَّ جُذُورَهَا ضَارِبَةٌ فِي أَعْمَاقِ الأَرْضِ بِأَمْرِ خَالِقِهَا، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الخِتَامَ الفَاصِلَ لِقِصَّةِ المسِيحِ الَّذِي يَقْطَعُ كُلَّ رَيْبٍ وَيَأْمُرُ بِالثَّبَاتِ عَلَى الحَقِّ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ بِلَا تَرَدُّدٍ أَوِ ارْتِيَابٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ قَنَاعَتِي بِالوَحْيِ إِلَى صَخْرَةِ يَقِينٍ أَطْرُدُ بِهَا كُلَّ خَاطِرَةِ شَكٍّ وَأَسِيرُ بِهَا فِي نُورِ الهِدَايَةِ بِثَبَاتٍ وَطُمَأْنِينَةٍ، فَكُلُّ حَقٍّ يَثْبُتُ فِي الوُجُودِ هُوَ نُورٌ سَمَاوِيٌّ وَلَا مَصْدَرَ لِلْيَقِينِ المطْلَقِ إِلَّا اللهُ.

سِفْرُ الصَّدَى التَّاسِعَ عَشَرَ

مِيدَانُ المبَاهَلَةِ وَصَاعِقَةُ الكَاذِبِينَ

صَدَى {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} [آل عمران: 61]

عَلَى صَعِيدِ الحَقِيقَةِ السَّاطِعَةِ يَقِفُ النَّبِيُّ بِأَهْلِ بَيْتِهِ وَأَبْنَائِهِ لِيُوَاجِهَ عِنَادَ المجَادِلِينَ بِسِلَاحِ الِابْتِهَالِ وَاللَّعْنَةِ عَلَى الكَاذِبِينَ، فَيَتَشَظَّى فِي دَاخِلِي غُرُورُ البَلَاغَةِ المزَيَّفَةِ الَّتِي تَتَهَرَّبُ مِنْ مُوَاجَهَةِ الضَّمِيرِ حِينَ يُسْتَدْعَى الأَبْنَاءُ وَالأَنْفُسُ إِلَى سَاحَةِ الفَصْلِ الإِلَهِيِّ، وَكَمْ جَادَلَتِ الأَلْسِنَةُ فِي أَسْوَاقِ الكَلَامِ وَأَصَرَّتْ عَلَى البَاطِلِ قَبْلَ أَنْ تَرْتَعِدَ فَرَائِصُهَا عِنْدَمَا تُوضَعُ الرُّوحُ وَالأَهْلُ رَهِينَةً لِصِدْقِ الدَّعْوَى، أَتَأَمَّلُ السَّحَابَتَيْنِ المتَقَابِلَتَيْنِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ حِينَ تَصْطَدِمُ صَاعِقَةُ اليَقِينِ بِدُخَانِ الزَّيْفِ فَيَتَبَدَّدُ الدُّخَانُ فِي الهَوَاءِ خَوْفًا مِنَ الِاحْتِرَاقِ وَتَبْقَى الشَّمْسُ سَاطِعَةً بِحَقِّهَا الأَبَدِيِّ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الحَسْمَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي يُحَوِّلُ الخُصُومَةَ العَقْلِيَّةَ إِلَى مُبَاهَلَةٍ رُوحِيَّةٍ تَكْشِفُ المعْدِنَ الصَّادِقَ مِنْ زَيْفِ المكَابِرِينَ فِي لَحْظَةِ صِدْقٍ تَامٍّ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ قَنَاعَتِي بِالحَقِّ إِلَى شَجَاعَةٍ صَادِقَةٍ أَضَعُ فِيهَا كُلَّ مَا أَمْلِكُ تَحْتَ رَايَةِ التَّوْحِيدِ دُونَ خَوْفٍ أَوْ تَرَدُّدٍ، فَكُلُّ كَذِبٍ يَتَسَتَّرُ خَلْفَ الجِدَالِ يَنْفَضِحُ عِنْدَ سَاعَةِ الِابْتِهَالِ وَلَا تَحِلُّ اللَّعْنَةُ إِلَّا عَلَى الكَاذِبِينَ عِنْدَ اللهِ.

قَصَصُ الحَقِّ وَعِزَّةُ الحَكِيمِ

صَدَى {إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: 62]

خُلَاصَةُ الحَقِيقَةِ الكَوْنِيَّةِ تَتَقَطَّرُ مِنْ نَبْعِ الوَحْيِ الصَّافِي لِتُقَرِّرَ أَنَّ مَا تَلَاهُ القُرْآنُ هُوَ القَصَصُ الحَقُّ الَّذِي يَهْدِمُ أَوْثَانَ التَّعَدُّدِ وَالتَّثْلِيثِ، فَيَسْتَقِرُّ فِي أَعْمَاقِي يَقِينُ التَّوْحِيدِ الخَالِصِ بَعْدَ أَنْ انْجَلَتْ غُيُومُ الأَسَاطِيرِ وَتَلَاشَتْ أَصْوَاتُ المحَرِّفِينَ أَمَامَ سَطْوَةِ البَيَانِ الإِلَهِيِّ، وَكَمْ تَاهَتِ العُقُولُ فِي مَتَاهَاتِ الرِّوَايَاتِ البَشَرِيَّةِ المشُوبَةِ بِالهَوَى قَبْلَ أَنْ تَسْتَرِيحَ عَلَى ضِفَافِ هَذَا النَّهْرِ النَّقِيِّ الَّذِي يُعْلِنُ وَحْدَانِيَّةَ المَلِكِ الحَقِّ، أَرَى المَاسَةَ الفَرِيدَةَ تَتَلَأْلَأُ فِي قَلْبِ الظَّلَامِ فَتَعْكِسُ شُعَاعًا وَاحِدًا صَافِيًا يَفْضَحُ زَيْفَ الزُّجَاجِ المُلَوَّنِ المكْسُورِ الَّذِي يَتَنَاثَرُ حَوْلَهَا فِي الوَحْلِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الإِيقَاعَ التَّوْحِيدِيَّ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ صِدْقِ الخَبَرِ القُرْآنِيِّ وَبَيْنَ نَفْيِ الأُلُوهِيَّةِ عَنْ كُلِّ مَا سِوَى العَزِيزِ الحَكِيمِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ ذَاكِرَتِي إِلَى مِحْرَابٍ يَحْفَظُ القَصَصَ الحَقَّ وَيُرَدِّدُ شَهَادَةَ التَّوْحِيدِ بِكُلِّ نَبْضَةٍ وَنَفَسٍ، فَكُلُّ حِكَايَةٍ تُنْسَجُ خَارِجَ نُورِ الوَحْيِ هِيَ وَهْمٌ زَائِلٌ وَلَا إِلَهَ فِي الوُجُودِ إِلَّا اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ.

وَقْفَةُ التَّوَلِّي وَعَيْنُ العَلِيمِ

صَدَى {فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} [آل عمران: 63]

خَلْفَ ظُهُورِ المعْرِضِينَ الَّذِينَ يَهْرُبُونَ مِنْ نُورِ الحُجَّةِ وَسَاحَةِ المبَاهَلَةِ تَقِفُ عَيْنُ الرَّقِيبِ الأَعْلَى لِتَرْصُدَ نَوَايَا الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي صَدْرِي ذَلِكَ الحُزْنُ العَقِيمُ عَلَى مَنْ يَخْتَارُ العَمَى بَعْدَ وُضُوحِ الضَّوْءِ وَيُصِرُّ عَلَى تَشْوِيهِ الفِطْرَةِ وَالتَّوْحِيدِ، وَكَمْ ظَنَّ المتَوَلُّونَ عَنْ مِيزَانِ الحَقِّ أَنَّ انْسِحَابَهُمْ مِنَ المواَجَهَةِ يُخْفِي حَقِيقَةَ عِنَادِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ لِعُقُولِ البُسَطَاءِ وَأَرْوَاحِهِمْ، أَتَأَمَّلُ الخُفَّاشَ الأَعْمَى الَّذِي يُدِيرُ ظَهْرَهُ لِشَمْسِ النَّهَارِ وَيَطِيرُ نَحْوَ الكَهْفِ المظْلِمِ ظَانًّا أَنَّهُ هَرَبَ مِنَ الضِّيَاءِ بَيْنَمَا أَشِعَّةُ الشَّمْسِ تُحِيطُ بِجَبَلِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَتَكْشِفُ مَخْبَأَهُ، فَمَا أَشَدَّ هَيْبَةَ هَذَا الوَعِيدِ الموجَزِ الَّذِي يَصِمُ المتَوَلِّينَ بَعْدَ البَيَانِ بِصِفَةِ الإِفْسَادِ وَيُؤَكِّدُ أَنَّ عِلْمَ السَّمَاءِ مُحِيطٌ بِخَفَايَا صُدُورِهِمْ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ رُؤْيَتِي لِإِعْرَاضِ المعَانِدِينَ إِلَى طُمَأْنِينَةٍ تَامَّةٍ بِأَنَّ الحَقَّ قَدْ بَرِئَتْ ذِمَّتُهُ وَأَنَّ الحِسَابَ بِيَدِ مَنْ لَا يَخْفَى

عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَكُلُّ هُرُوبٍ مِنْ وَجْهِ الحَقِيقَةِ هُوَ شَهَادَةٌ عَلَى البَاطِلِ وَلَا يَغِيبُ مَكْرُ المُفْسِدِينَ عَنْ عِلْمِ اللهِ.

كَلِمَةُ السَّوَاءِ وَمِيثَاقُ العُبُودِيَّةِ

صَدَى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 64]

عَلَى جِسْرِ التَّوْحِيدِ العَادِلِ يَمُدُّ الإِسْلَامُ يَدَهُ لِأَهْلِ الكِتَابِ دَاعِيًا إِيَّاهُمْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ تُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنْ عُبُودِيَّةِ البَشَرِ وَالأَصْنَامِ، فَيَنْفَتِحُ فِي وِجْدَانِي أُفُقُ الحِوَارِ النَّبِيلِ الَّذِي لَا يَتَنَازَلُ عَنْ جَوْهَرِ العَقِيدَةِ وَلَا يَقْبَلُ أَنْ يَتَّخِذَ البَشَرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الخَالِقِ، وَكَمْ رَزَحَتِ البَشَرِيَّةُ تَحْتَ نِيرِ الطُّغَاةِ وَالأَحْبَارِ الَّذِينَ يُحَلِّلُونَ وَيُحَرِّمُونَ بِأَهْوَائِهِمْ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الخَالِدَةُ لِتُعْلِنَ حُرِّيَّةَ الضَّمِيرِ وَوَحْدَانِيَّةَ المَعْبُودِ، أَرَى الأَنْهَارَ المُتَفَرِّقَةَ فِي الأَوْدِيَةِ السَّحِيقَةِ تُدْعَى لِلِاجْتِمَاعِ فِي مَجْرًى وَاحِدٍ صَافٍ يَصُبُّ فِي بَحْرِ الحَقِيقَةِ الكَبِيرِ بَعْدَ أَنْ تَتَطَهَّرَ مِيَاهُهَا مِنْ طَمْيِ التَّحْرِيفِ وَأَوْحَالِ التَّقْلِيدِ الأَعْمَى، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الثَّبَاتَ المُشْرِقَ حِينَ يُعْلِنُ المُؤْمِنُونَ إِسْلَامَهُمْ وَشَهَادَتَهُمْ عَلَى الحَقِّ حَتَّى لَوْ أَدَارَ الآخَرُونَ ظُهُورَهُمْ لِكَلِمَةِ السَّوَاءِ وَالعَدْلِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ دَعْوَتِي إِلَى النَّاسِ إِلَى نِدَاءٍ صَادِقٍ لِتَحْرِيرِ العُقُولِ مِنْ رِقِّ المَخْلُوقِينَ وَرَبْطِهَا بِخَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَكُلُّ سُلْطَانٍ يُنَازِعُ السَّمَاءَ فِي التَّشْرِيعِ هُوَ رُبُوبِيَّةٌ زَائِفَةٌ وَلَا عُبُودِيَّةَ تَلِيقُ بِالإِنْسَانِ إِلَّا لِلهِ.

مِيزَانُ الزَّمَنِ وَحَنِيفِيَّةُ الخَلِيلِ

صَدَى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [آل عمران: 65]

تَسَلْسُلُ الزَّمَنِ الكَوْنِيّ يَصْفَعُ أَوْهَامَ المُتَعَصِّبِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ انْتِسَابَ إِبْرَاهِيمَ إِلَى شَرَائِعَ لَمْ تَنْزِلْ إِلَّا بَعْدَ رَحِيلِهِ بِقُرُونٍ طَوِيلَةٍ، فَيَتَكَشَّفُ لِي سُقُوطُ التَّعَصُّبِ الطَّائِفِيّ حِينَ يَصْطَدِمُ بِبَدَاهَةِ العَقْلِ

وَحَقِيقَةِ التَّارِيخِ الَّتِي تَجْعَلُ الأَصْلَ سَابِقًا لِلْفَرْعِ، وَكَمْ جَادَلَ المتَوَهِّمُونَ فِي قَضَايَا يَنْقُضُهَا العَقْلُ البَسِيطُ حِينَ أَعْمَتْهُمُ الأَنَانِيَّةُ عَنْ رُؤْيَةِ تَرْتِيبِ الأَيَّامِ وَتَنَزُّلِ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، أَتَأَمَّلُ الجَذْرَ العَمِيقَ الضَّارِبَ فِي بَطْنِ الأَرْضِ مُنْذُ فَجْرِ التَّارِيخِ كَيْفَ يَسْخَرُ مِنْ غُصْنَيْنِ نَبَتَا فِي أَعْلَى الشَّجَرَةِ بَعْدَ أَجْيَالٍ ثُمَّ ادَّعَى كُلٌّ مِنْهُمَا أَنَّ الجَذْرَ الأَوَّلَ وُلِدَ مِنْ أَوْرَاقِهِ، فَمَا أَبْلَغَ هَذَا الاِسْتِنْكَارَ القُرْآنِيَّ الَّذِي يُوقِظُ العُقُولَ النَّائِمَةَ لِتُدْرِكَ أَنَّ مِلَّةَ الخَلِيلِ كَانَتْ نَبْعَ التَّوْحِيدِ الصَّافِي قَبْلَ تَفَرُّعِ الشَّرَائِعِ وَتَبْدِيلِ الكُتُبِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ قِرَاءَتِي لِلتَّارِيخِ إِلَى بَصِيرَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَرُدُّ الفُرُوعَ إِلَى أُصُولِهَا النَّقِيَّةِ وَلَا تَنْخَدِعُ بِدَعَاوَى المحْتَكِرِينَ لِإِرْثِ الأَنْبِيَاءِ، فَكُلُّ دَعْوَى تُخَالِفُ مَنْطِقَ الزَّمَنِ وَالعَقْلِ هِيَ بَاطِلٌ مَكْشُوفٌ وَلَا عِلْمَ يُحِيطُ بِالبِدَايَاتِ وَالنِّهَايَاتِ إِلَّا عِلْمُ اللهِ.

حُدُودُ المعْرِفَةِ وَغُرُورُ الجِدَالِ

صَدَى {هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [آل عمران: 66]

عَلَى حَافَّةِ الجَهْلِ المتَكَبِّرِ يَقِفُ المجَادِلُونَ لِيَخُوضُوا فِي أَسْرَارِ الغَيْبِ وَتَارِيخِ الأَنْبِيَاءِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ، فَيَتَلَاشَى فِي عَقْلِي صَخَبُ الفُضُولِ البَشَرِيِّ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِلَا بُرْهَانٍ وَيَنْسَى أَنَّ العِلْمَ المحِيطَ مَحْصُورٌ فِي حَضْرَةِ الخَالِقِ، وَكَمْ انْزَلَقَ اللِّسَانُ فِي الخَوْضِ فِيمَا لَا يُدْرِكُهُ البَصَرُ وَلَا تَبْلُغُهُ المعْرِفَةُ قَبْلَ أَنْ تَرُدَّهُ هَذِهِ الآيَةُ إِلَى أَدَبِ التَّوَقُّفِ عِنْدَ حُدُودِ العِلْمِ، أَرَى السَّابِحَ فِي بِرْكَةٍ ضَحْلَةٍ يَظُنُّ أَنَّ إِتْقَانَهُ لِلعَوْمِ فِيهَا يُبِيحُ لَهُ اقْتِحَامَ أَعْمَاقِ المحِيطِ المظْلِمِ بِلَا سَفِينَةٍ وَلَا بُوصَلَةٍ فَيَبْتَلِعُهُ المَوْجُ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ القَاعِدَةَ العِلْمِيَّةَ الخَالِدَةَ الَّتِي تَضَعُ الفَاصِلَ بَيْنَ مَعْرِفَةِ البَشَرِ القَاصِرَةِ وَبَيْنَ عِلْمِ السَّمَاءِ الشَّامِلِ الَّذِي يُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ كَلِمَاتِي وَحِوَارَاتِي إِلَى انْضِبَاطٍ دَقِيقٍ أَنْطِقُ فِيهِ بِمَا أَعْلَمُ بِبُرْهَانٍ وَأَصْمُتُ بِأَدَبٍ عَمَّا اسْتَأْثَرَ بِهِ عَالِمُ الغَيْبِ، فَكُلُّ جِدَالٍ يَقُومُ عَلَى الظَّنِّ وَالجَهْلِ هُوَ ضَيَاعٌ فِي الظَّلَامِ وَلَا يَعْلَمُ الحَقَائِقَ المطْلَقَةَ إِلَّا اللهُ.

حَنِيفِيَّةُ الخَلِيلِ وَبَرَاءَةُ التَّوْحِيدِ

صَدَى {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: 67]

فِي فَضَاءِ الفِطْرَةِ النَّقِيَّةِ يُحَلِّقُ إِبْرَاهِيمُ الخَلِيلُ مُتَجَرِّدًا مِنْ كُلِّ التَّسْمِيَاتِ الطَّائِفِيَّةِ لِيَكُونَ حَنِيفًا مُسْلِمًا مَائِلًا عَنِ الشِّرْكِ إِلَى نُورِ التَّوْحِيدِ، فَيَسْقُطُ فِي وِجْدَانِي قَيْدُ التَّحَزُّبِ الضَّيِّقِ الَّذِي يُمَزِّقُ دِينَ الأَنْبِيَاءِ الوَاحِدَ إِلَى مِلَلٍ مُتَنَاحِرَةٍ وَيُعِيدُ لِكَلِمَةِ الإِسْلَامِ مَعْنَاهَا الكَوْنِيَّ الخَالِدَ، وَكَمْ حَاوَلَ المحَرِّفُونَ أَنْ يَصْبُغُوا أَبَا الأَنْبِيَاءِ بِصِبْغَةِ أَهْوَائِهِمْ وَشِرْكِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُبَرِّئَهُ الوَحْيُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ وَيُثْبِتَ أَنَّهُ إِمَامُ الحُنَفَاءِ وَالمسْلِمِينَ، أَتَأَمَّلُ النَّبْعَ الأَوَّلَ الصَّافِيَ الَّذِي يَتَفَجَّرُ مِنْ قِمَّةِ الجَبَلِ قَبْلَ أَنْ تَتَفَرَّعَ مِنْهُ الجَدَاوِلُ فِي السُّهُولِ وَتَخْتَلِطَ بِأَلْوَانِ التُّرْبَةِ المخْتَلِفَةِ فَيَظَلُّ النَّبْعُ الأَصْلِيُّ نَقِيًّا عَذْبًا لَا يَنْتَسِبُ إِلَى طِينِ الوِدْيَانِ، فَمَا أَبْهَى هَذِهِ الهُوِيَّةَ النُّورَانِيَّةَ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ الحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ وَالإِسْلَامِ الخَالِصِ وَالبَرَاءَةِ التَّامَّةِ مِنَ الشِّرْكِ وَالمشْرِكِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ هُوِيَّتِي الرُّوحِيَّةُ إِلَى انْتِمَاءٍ صَادِقٍ لِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ أَتَبَرَّأُ فِيهَا مِنْ كُلِّ شِرْكٍ خَفِيٍّ أَوْ جَلِيٍّ وَأُسْلِمُ قَلْبِي لِرَبِّ العَالَمِينَ، فَكُلُّ انْتِسَابٍ يَشُوبُهُ الشِّرْكُ هُوَ خُرُوجٌ عَنْ فِطْرَةِ الخَلِيلِ وَلَا وَلِيَّ لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَّا اللهُ.

قَرَابَةُ الإِيمَانِ وَوِلَايَةُ المؤْمِنِينَ

صَدَى {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 68]

رَابِطَةُ العَقِيدَةِ وَالِاتِّبَاعِ تَسْمُو فَوْقَ رَوَابِطِ الدَّمِ وَالتُّرَابِ لِتَجْعَلَ النَّبِيَّ الخَاتَمَ وَالمؤْمِنِينَ هُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِمِيرَاثِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ، فَيَتَبَدَّدُ فِي صَدْرِي غُرُورُ الأَنْسَابِ الطِّينِيَّةِ الَّتِي يَتَبَاهَى بِهَا المتَخَلِّفُونَ عَنْ رَكْبِ الإِيمَانِ بَيْنَمَا يَحْمِلُ الغُرَبَاءُ الصَّادِقُونَ رَايَةَ النُّبُوَّةِ بِحَقِّهَا، وَكَمْ ظَنَّ البَشَرُ أَنَّ القَرَابَةَ الجَسَدِيَّةَ تَمْنَحُهُمْ حَقَّ الوِرَاثَةِ الرُّوحِيَّةِ لِلْأَنْبِيَاءِ وَنَسُوا أَنَّ النَّسَبَ الحَقِيقِيَّ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ هُوَ نَسَبُ الطَّاعَةِ وَالتَّوْحِيدِ، أَرَى الشُّعْلَةَ المضِيئَةَ الَّتِي تَنْتَقِلُ مِنْ مِصْبَاحٍ إِلَى مِصْبَاحٍ فَتَمْلَأُ المكَانَ بِالنُّورِ الوَاحِدِ بَيْنَمَا يَبْقَى الحَطَبُ المُلْقَى بِجِوَارِ المِصْبَاحِ بَارِدًا مُعْتِمًا لِأَنَّهُ رَفَضَ أَنْ يَقْتَبِسَ مِنْ شُعْلَةِ الحَيَاةِ وَالإِيمَانِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الوِسَامَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يُتَوِّجُ أَهْلَ الإِيمَانِ بِوِلَايَةِ الخَالِقِ وَيُثْبِتُ أَنَّهُمْ

الوَرَثَةُ الشَّرْعِيُّونَ لِحَنِيفِيَّةِ الخَلِيلِ فِي كُلِّ عَصْرٍ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ مَوَازِينُ القُرْبِ فِي قَلْبِي إِلَى تَقْدِيرٍ لِأَهْلِ الإِيمَانِ وَالِاتِّبَاعِ أَيْنَمَا كَانُوا فَأَرَاهُمْ إِخْوَتِي وَأَهْلِي فِي مَوْكِبِ التَّوْحِيدِ، فَكُلُّ نَسَبٍ يَنْقَطِعُ عَنِ العَقِيدَةِ هُوَ سَرَابٌ عِنْدَ الحِسَابِ وَلَا وَلِيَّ لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَّا اللهُ.

فِخَاخُ الإِضْلَالِ وَعَمَى الماكِرِينَ

صَدَى {وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [آل عمران: 69]

فِي ظُلُمَاتِ الحَسَدِ الدَّفِينِ تَتَمَنَّى طَائِفَةٌ مِنَ الجَاحِدِينَ أَنْ تَسْرِقَ نُورَ الهِدَايَةِ مِنْ قُلُوبِ المؤْمِنِينَ فَلَا تَحْصُدُ إِلَّا مَزِيدًا مِنَ الضَّلَالِ لِأَنْفُسِهَا، فَيَنْكَشِفُ لِي مَكْرُ المتَرَبِّصِينَ الَّذِينَ يَنْصِبُونَ الفِخَاخَ لِأَهْلِ اليَقِينِ ثُمَّ يَقَعُونَ هُمْ فِي حُفَرِ العَمَى وَالخِذْلَانِ دُونَ أَنْ يَشْعُرُوا بِهَلَاكِهِمْ، وَكَمْ خَشِيتُ عَلَى إِيمَانِي مِنْ شُبُهَاتِ المشَكِّكِينَ وَدَسَائِسِ الماكِرِينَ قَبْلَ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ النُّورَ الإِلَهِيَّ مَحْفُوظٌ بِعَيْنِ السَّمَاءِ وَأَنَّ سِهَامَهُمْ تَرْتَدُّ إِلَى صُدُورِهِمْ، أَتَأَمَّلُ الرَّجُلَ الأَعْمَى الَّذِي يَنْفُخُ بِفَمِهِ عَلَى شَمْسِ الظَّهِيرَةِ لِيُطْفِئَ ضَوْءَهَا فَلَا يَزْدَادُ إِلَّا لَهَاثًا وَتَعَبًا وَعَمًى بَيْنَمَا تَظَلُّ الشَّمْسُ تَغْمُرُ الكَوْنَ بِأَشِعَّتِهَا الدَّافِئَةِ بِلَا نُقْصَانٍ، فَمَا أَشَدَّ غَفْلَةَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي إِطْفَاءِ نُورِ الوَحْيِ فَيُغْرِقُونَ أَرْوَاحَهُمْ فِي وَحْلِ الضَّلَالِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقَظَتِي أَمَامَ مَكْرِ الأَعْدَاءِ إِلَى حَذَرٍ وَاعٍ وَثِقَةٍ مُطْلَقَةٍ بِحِفْظِ السَّمَاءِ لِدِينِهَا وَأَوْلِيَائِهَا الصَّادِقِينَ، فَكُلُّ مُحَاوَلَةٍ لِإِضْلَالِ المؤْمِنِينَ هِيَ سُقُوطٌ جَدِيدٌ لِلْمَاكِرِينَ وَلَا حَافِظَ لِلْهِدَايَةِ إِلَّا اللهُ.

عَمَى البَصِيرَةِ وَجُحُودُ الشُّهُودِ

صَدَى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ} [آل عمران: 70]

عَلَى مَرْأًى وَمَسْمَعٍ مِنْ شَهَادَةِ الضَّمِيرِ وَنُصُوصِ الكُتُبِ القَدِيمَةِ يَرْتَكِبُ الجَاحِدُونَ جَرِيمَةَ الكُفْرِ بِآيَاتِ السَّمَاءِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ صِدْقَهَا، فَيَتَشَظَّى فِي عَقْلِي وَهْمُ الجَهْلِ المبَرَّرِ بَعْدَ أَنْ اتَّضَحَ أَنَّ الكُفْرَ كَثِيرًا مَا يَكُونُ عِنَادًا مَقْصُودًا يَذْبَحُ الحَقِيقَةَ عَلَى مَذْبَحِ الهَوَى وَالمصَالِحِ، وَكَمْ تَعَجَّبْتُ مِنْ

قُلُوبٍ تَرَى البَرَاهِينَ السَّاطِعَةَ كَالفَلَقِ ثُمَّ تُغْلِقُ أَجْفَانَهَا بِقُوَّةٍ لِتُنْكِرَ وُجُودَ الشَّمْسِ وَتَشْهَدَ بِالزُّورِ عَلَى نَفْسِهَا، أَرَى الحَارِسَ الخَائِنَ الَّذِي يَحْمِلُ مِفْتَاحَ القَصْرِ فِي يَدِهِ وَيَرَى المَلِكَ يَدْخُلُ مِنْ بَوَّابَتِهِ الكُبْرَى ثُمَّ يُقْسِمُ أَمَامَ النَّاسِ أَنَّ المَلِكَ لَمْ يَأْتِ وَأَنَّ البَابَ لَمْ يُفْتَحْ أَبَدًا، فَمَا أَقْبَحَ هَذَا الجُحُودَ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ مَعْرِفَةِ الحَقِّ وَإِنْكَارِهِ لِيُقِيمَ الحُجَّةَ الدَّامِغَةَ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ وَتَنْطِقُ الجَوَارِحُ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ شَهَادَتِي لِلْحَقِّ إِلَى إِقْرَارٍ فَوْرِيٍّ وَتَسْلِيمٍ صَادِقٍ لِكُلِّ آيَةٍ تَظْهَرُ لِي دُونَ مُكَابَرَةٍ أَوْ تَلْوِينٍ، فَكُلُّ كُفْرٍ يَقَعُ مَعَ العِلْمِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ خِيَانَةٌ لِلْفِطْرَةِ وَلَا يَغْفُلُ عَنْ جُحُودِ الجَاحِدِينَ اللهُ.

تَلْبِيسُ البَاطِلِ وَكِتْمَانُ النُّورِ

صَدَى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [آل عمران: 71]

خُيُوطُ البَاطِلِ السَّوْدَاءُ تُنْسَجُ بِمَكْرٍ حَوْلَ ثَوْبِ الحَقِّ الأَبْيَضِ لِتُخْفِيَ بَرِيقَهُ عَنْ أَعْيُنِ البَاحِثِينَ عَنِ الهِدَايَةِ فِي عَتْمَةِ الشُّبُهَاتِ، فَيَنْكَشِفُ لِي خَطَرُ التَّلْبِيسِ وَالكِتْمَانِ الَّذِي يَخْلِطُ الصِّدْقَ بِالكَذِبِ لِيُحَيِّرَ العُقُولَ وَيَحْبِسَ نُورَ الوَحْيِ فِي أَقْبِيَةِ الجُحُودِ، وَكَمْ انْخَدَعَتِ الأَبْصَارُ بِقَلِيلٍ مِنَ الحَقِّ يَتَسَتَّرُ خَلْفَهُ كَثِيرٌ مِنَ البَاطِلِ قَبْلَ أَنْ تَفْضَحَ هَذِهِ الآيَةُ جَرِيمَةَ كِتْمَانِ العِلْمِ وَتَشْوِيهِ الحَقِيقَةِ، أَتَأَمَّلُ السَّاقِيَ الغَاشَّ الَّذِي يَصُبُّ قَطَرَاتٍ مِنَ السُّمِّ الزُّعَافِ فِي كَأْسِ المَاءِ العَذْبِ الزُّلَالِ ثُمَّ يُقَدِّمُهَا لِلْعَطْشَى مُدَّعِيًا أَنَّهَا شَرَابُ الحَيَاةِ وَالشِّفَاءِ، فَمَا أَشَدَّ جُرْمَ مَنْ يَعْلَمُ الحَقِيقَةَ ثُمَّ يَدْفِنُهَا فِي التُّرَابِ أَوْ يُلْبِسُهَا قِنَاعَ الزَّيْفِ لِيَصُدَّ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ النَّجَاةِ وَاليَقِينِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ أَمَانَتِي العِلْمِيَّةُ إِلَى وَضُوحٍ نَقِيٍّ أُجَرِّدُ فِيهِ الحَقَّ مِنْ كُلِّ شَائِبَةٍ وَأُظْهِرُهُ لِلنَّاسِ كَالشَّمْسِ بِلَا كِتْمَانٍ أَوْ تَلْبِيسٍ، فَكُلُّ خَلْطٍ بَيْنَ النُّورِ وَالظَّلَامِ هُوَ خِدَاعٌ لِلْخَلْقِ وَلَا يَخْفَى مَا يَكْتُمُونَ عَلَى اللهِ.

مُؤَامَرَةُ الإِيمَانِ وَتَشْكِيكُ الفَجْرِ

صَدَى {وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [آل عمران: 72]

مَسْرَحِيَّةُ الإِيمَانِ الكَاذِبِ تُنْصَبُ فُصُولُهَا مَعَ إِشْرَاقَةِ الصَّبَاحِ لِتَنْتَهِيَ بِالكُفْرِ عِنْدَ الغُرُوبِ فِي مُحَاوَلَةٍ خَبِيثَةٍ لِزَعْزَعَةِ يَقِينِ المُؤْمِنِينَ، فَيَتَلَاشَى فِي صَدْرِي ذَلِكَ الِانْبِهَارُ السَّاذَجُ بِدُخُولِ المَلَوِّنِينَ إِلَى صَفِّ الحَقِّ بَعْدَ أَنْ انْكَشَفَتْ خُطَّتُهُمْ فِي التَّشْكِيكِ وَالإِرْجَافِ، وَكَمْ حَاوَلَتِ النُّفُوسُ المَاكِرَةُ أَنْ تَسْتَغِلَّ ثِقَةَ الصَّادِقِينَ لِتَزْرَعَ بُذُورَ الِارْتِيَابِ فِي قُلُوبِهِمْ حِينَ تُظْهِرُ التَّصْدِيقَ ثُمَّ تَدَّعِي أَنَّهَا اكْتَشَفَتْ مَا يَدْعُو إِلَى الرُّجُوعِ، أَرَى المُمَثِّلَ المُخَادِعَ يَرْتَدِي ثِيَابَ الأَطِبَّاءِ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ ثُمَّ يَخْلَعُهَا فِي المَسَاءِ صَارِخًا أَنَّ الدَّوَاءَ لَا يَنْفَعُ لِيُقْنِعَ المَرْضَى بِتَرْكِ العِلَاجِ وَالمَوْتِ فِي أَسِرَّتِهِمْ، فَمَا أَحْقَرَ هَذَا التَّلَاعُبَ بِعَقَائِدِ النَّاسِ الَّذِي يَتَّخِذُ الإِيمَانَ وَالكُفْرَ لُعْبَةً يَوْمِيَّةً لِصَدِّ السَّائِرِينَ عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ ثِقَتِي بِدِينِي إِلَى رُسُوخٍ جَبَلِيٍّ لَا يَهْتَزُّ بِإِقْبَالِ المَلَوِّنِينَ وَلَا يَضْطَرِبُ بِإِدْبَارِهِمْ لِأَنَّ يَقِينِي يَسْتَنِدُ إِلَى بُرْهَانِ السَّمَاءِ، فَكُلُّ إِيمَانٍ يُصْنَعُ لِلْمَكْرِ يَنْفَضِحُ قَبْلَ المَسَاءِ وَلَا يُثَبِّتُ القُلُوبَ إِلَّا اللهُ.

احْتِكَارُ الفَضْلِ وَمَفَاتِيحُ العَطَاءِ

صَدَى {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران: 73]

أَسْوَارُ الأَنَانِيَّةِ الطَّائِفِيَّةِ تُغْلِقُ أَبْوَابَ الحَقِيقَةِ دُونَ البَشَرِ لِتَحْتَكِرَ النُّبُوَّةَ وَالفَضْلَ فِي طَائِفَةٍ وَاحِدَةٍ فَتَصْفَعُهَا الحَقِيقَةُ الكُبْرَى أَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ الخَالِقِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، فَيَسْقُطُ فِي وِجْدَانِي غُرُورُ الِاحْتِكَارِ الَّذِي يَحْسَدُ الخَلْقَ عَلَى مَا آتَاهُمُ المَلِكُ مِنَ الهُدَى وَالرِّسَالَةِ وَالعِلْمِ، وَكَمْ حَاوَلَ الحَاسِدُونَ أَنْ يَحْبِسُوا غَيْثَ السَّمَاءِ عَنْ أَرْضِ غَيْرِهِمْ وَيَكْتُمُوا فَضَائِلَ المُصْطَفَيْنَ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَعْلُوَ شَأْنُهُمْ عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ، أَتَأَمَّلُ البَخِيلَ الَّذِي يَبْنِي جِدَارًا عَالِيًا حَوْلَ بَيْتِهِ لِيَمْنَعَ أَشِعَّةَ الشَّمْسِ مِنَ الوُصُولِ إِلَى حَدِيقَةِ جَارِهِ فَلَا يَجْنِي سِوَى الظُّلْمَةِ وَالبُرُودَةِ بَيْنَمَا تَغْمُرُ الشَّمْسُ الفَضَاءَ كُلَّهُ بِكَرَمِهَا وَسَعَتِهَا، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الإِعْلَانَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يُحَرِّرُ الهُدَى وَالفَضْلَ مِنْ قُيُودِ البَشَرِ وَيَرُدُّهُمَا إِلَى خَزَائِنِ الوَاسِعِ العَلِيمِ الَّذِي لَا يُحْجَرُ عَلَى كَرَمِهِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي إِلَى عَطَايَا السَّمَاءِ إِلَى فَرَحٍ بِكُلِّ فَضْلٍ يَمْنَحُهُ الخَالِقُ لِعِبَادِهِ وَطَمَعٍ فِي كَرَمِهِ الوَاسِعِ بِلَا حَسَدٍ أَوْ ضِيقٍ، فَكُلُّ فَضْلٍ فِي الوُجُودِ هُوَ هِبَةٌ سَمَاوِيَّةٌ وَلَا يُؤْتِي الكَرَامَةَ مَنْ يَشَاءُ إِلَّا اللهُ.

اخْتِصَاصُ الرَّحْمَةِ وَسَعَةُ الفَضْلِ

صَدَى {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [آل عمران: 74]

فَيْضُ الرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ يَتَنَزَّلُ كَالسَّحَابِ المُثْقَلِ بِالغَيْثِ لِيَخْتَصَّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الصَّادِقِينَ بِلَا وَسَاطَةٍ مِنْ بَشَرٍ وَلَا إِذْنٍ مِنْ مُتَكَبِّرٍ، فَيَنْتَعِشُ فِي صَدْرِي رَجَاءٌ عَظِيمٌ بِأَنَّ أَبْوَابَ النُّبُوَّةِ وَالهِدَايَةِ وَالكَرَامَةِ مَفْتُوحَةٌ لِمَنِ اصْطَفَاهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ، وَكَمْ ظَنَّ المُتَحَجِّرُونَ أَنَّ مَفَاتِيحَ الرَّحْمَةِ مَحْبُوسَةٌ فِي جُيُوبِهِمْ قَبْلَ أَنْ تَهُزَّهُمْ هَذِهِ الآيَةُ الموجَزَةُ الَّتِي تَضَعُ مِيزَانَ العَطَاءِ فِي يَدِ المَلِكِ الحَقِّ، أَرَى النَّسِيمَ العَلِيلَ يَهُبُّ مِنْ أَعَالِي الجِبَالِ لِيُدَاعِبَ أَغْصَانَ الوَادِي المُخْتَارَةَ فَيَمْنَحَهَا الحَيَاةَ وَالنَّضَارَةَ دُونَ أَنْ يَسْتَأْذِنَ الصُّخُورَ الجَامِدَةَ الَّتِي تَقِفُ عَلَى حَافَّةِ الطَّرِيقِ، فَمَا أَعْذَبَ هَذِهِ الطُّمَأْنِينَةَ الَّتِي تَغْمُرُ القَلْبَ المُؤْمِنَ حِينَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَنْتَمِي إِلَى رَبٍّ ذِي فَضْلٍ عَظِيمٍ يَغْمُرُ أَوْلِيَاءَهُ بِرَحْمَتِهِ وَيَرْفَعُ أَقْدَارَهُمْ فِي الدَّارَيْنِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ ضَرَاعَتِي إِلَى تَعَرُّضٍ دَائِمٍ لِنَفَحَاتِ الرَّحْمَةِ السَّمَاوِيَّةِ أَطْلُبُ فِيهَا الِاخْتِصَاصَ بِالهُدَى وَالقَبُولِ مِنْ صَاحِبِ الجُودِ المطْلَقِ، فَكُلُّ رَحْمَةٍ تَنَالُهَا الأَرْوَاحُ هِيَ نَفْحَةٌ عُلْوِيَّةٌ وَلَا ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ فِي الوُجُودِ إِلَّا اللهُ.

أَمَانَةُ القِنْطَارِ وَخِيَانَةُ الدِّينَارِ

صَدَى {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: 75]

فِي مِيزَانِ الأَمَانَةِ وَالأَخْلَاقِ يُنْصِفُ القُرْآنُ الأُمَنَاءَ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ القِنْطَارَ وَيَفْضَحُ الخَائِنِينَ الَّذِينَ يَسْرِقُونَ الدِّينَارَ بِفَتَاوَى الزَّيْفِ وَالكَذِبِ، فَيَتَجَلَّى لِي عَدْلُ الوَحْيِ الَّذِي لَا يُعَمِّمُ الحُكْمَ ظُلْمًا بَلْ يُمَيِّزُ المَعْدِنَ النَّقِيَّ مِنَ المَعْدِنِ الصَّدِئِ الَّذِي يَسْتَبِيحُ أَمْوَالَ المخَالِفِينَ بِالْبَاطِلِ، وَكَمْ جَرَّتِ العُنْصُرِيَّةُ الدِّينِيَّةُ المَزْعُومَةُ مِنْ وَبَالٍ عَلَى صَاحِبِهَا حِينَ افْتَرَى عَلَى السَّمَاءِ كَذِبًا لِيُبَرِّرَ أَكْلَ حُقُوقِ النَّاسِ وَخِيَانَةَ العُهُودِ وَالمَوَاثِيقِ، أَتَأَمَّلُ المِيزَانَ الذَّهَبِيَّ الحَسَّاسَ الَّذِي يَحْمِلُ القِنْطَارَ الثَّقِيلَ بِثَبَاتٍ وَأَمَانَةٍ فَيُعِيدُهُ كَامِلًا بَيْنَمَا يَنْكَسِرُ مِيزَانُ الخِيَانَةِ عِنْدَ الدِّينَارِ الصَّغِيرِ لِأَنَّ صَاحِبَهُ مَلَأَ كِفَّتَهُ بِأَوْهَامِ التَّعَالِي وَالِافْتِرَاءِ، فَمَا أَقْبَحَ أَنْ يَنْسُبَ الإِنْسَانُ خِيَانَتَهُ وَجَشَعَهُ إِلَى شَرِيعَةِ السَّمَاءِ وَهُوَ يَعْلَمُ فِي قَرَارَةِ

نَفْسِهِ أَنَّهُ يَكْذِبُ عَلَى خَالِقِهِ لِيُشْبِعَ نَهَمَ الطِّينِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ أَمَانَتِي مَعَ الخَلْقِ إِلَى مَبْدَأٍ لَا يَتَجَزَّأُ أُؤَدِّي فِيهِ الحَقَّ لِلْقَرِيبِ وَالبَعِيدِ وَالمُوَافِقِ وَالمُخَالِفِ طَاعَةً لِمَنْ حَرَّمَ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِهِ، فَكُلُّ خِيَانَةٍ تُبَرَّرُ بِالدِّينِ هِيَ افْتِرَاءٌ مَكْشُوفٌ وَلَا يَرْضَى بِالكَذِبِ عَلَيْهِ أَبَدًا اللهُ.

وَفَاءُ العَهْدِ وَمَحَبَّةُ المُتَّقِينَ

صَدَى {بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 76]

عَلَى صَخْرَةِ الوَفَاءِ وَالتَّقْوَى تَتَحَطَّمُ أَكَاذِيبُ المُتَحَلِّلِينَ مِنَ الحُقُوقِ لِتُعْلِنَ السَّمَاءُ أَنَّ السَّبِيلَ الوَحِيدَ لِمَحَبَّتِهَا هُوَ الِالْتِزَامُ بِالعُهُودِ وَخَشْيَةُ الرَّقِيبِ، فَيَسْتَقِرُّ فِي وِجْدَانِي أَنَّ الدِّينَ الحَقَّ هُوَ أَمَانَةٌ وَوَفَاءٌ وَانْضِبَاطٌ أَخْلَاقِيٌّ يَسْمُو فَوْقَ الأَهْوَاءِ وَالعَصَبِيَّاتِ وَالمَصَالِحِ الضَّيِّقَةِ، وَكَمْ بَحَثَتِ الأَرْوَاحُ عَنْ طُرُقٍ مُخْتَصَرَةٍ لِنَيْلِ رِضَا المَلِكِ فَلَمْ تَجِدْ أَقْرَبَ وَلَا أَصْدَقَ مِنْ رَجُلٍ يَحْفَظُ مِيثَاقَهُ مَعَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَيَتَّقِي الظُّلْمَ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ، أَرَى الجَبَلَ الأَشَمَّ الَّذِي قَطَعَ عَهْدًا مَعَ الأَرْضِ أَنْ يَحْمِيَ تَوَازُنَهَا فَيَظَلُّ ثَابِتًا فِي مَكَانِهِ تَحْتَ الشَّمْسِ المُحْرِقَةِ وَالعَوَاصِفِ الهَوْجَاءِ فَتُكَلِّلُهُ السَّمَاءُ بِتَاجٍ مِنَ الغُيُومِ البَيْضَاءِ وَالنُّورِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ النَّتِيجَةَ المُشْرِقَةَ الَّتِي تَجْعَلُ الوَفَاءَ بِالعَهْدِ وَالتَّقْوَى مِفْتَاحًا لِأَعْظَمِ كَنْزٍ فِي الوُجُودِ وَهُوَ مَحَبَّةُ الخَالِقِ لِلْمُتَّقِينَ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ عُهُودِي وَمَوَاثِيقِي إِلَى قَدَاسَةٍ أَحْرُسُهَا بِخَشْيَتِي لِأَفُوزَ بِتِلْكَ المَحَبَّةِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي تُنِيرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ، فَكُلُّ عَهْدٍ نُوفِي بِهِ بِصِدْقٍ يَرْفَعُنَا دَرَجَةً فِي سُلَّمِ المَحَبَّةِ عِنْدَ اللهِ.

صَفْقَةُ الخُسْرَانِ وَعَذَابُ الإِعْرَاضِ

صَدَى {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: 77]

فِي سُوقِ الغَفْلَةِ البَخْسِ يَبِيعُ الخَائِنُونَ مِيثَاقَ السَّمَاءِ وَأَيْمَانَهُمُ المُغَلَّظَةَ بِحُطَامٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا لِيَخْرُجُوا مِنَ الآخِرَةِ بِلَا نَصِيبٍ وَلَا نَظْرَةِ رَحْمَةٍ، فَتَرْتَعِدُ أَوْصَالُ رُوحِي أَمَامَ هَذَا الهِجْرَانِ الإِلَهِيِّ المُرْعِبِ حِينَ يُعْرِضُ الجَبَّارُ عَنْ تَكْلِيمِهِمْ أَوِ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ أَوْ تَطْهِيرِهِمْ يَوْمَ الفَصْلِ العَظِيمِ، وَكَمْ

غَرَّتِ الدُّنْيَا أَصْحَابَ الذِّمَمِ الخَرِبَةِ فَحَلَفُوا بِاسْمِ المِلكِ كَذِبًا لِيَقْتَطِعُوا حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ وَنَسُوا أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا ثَمَنٌ قَلِيلٌ أَمَامَ غَضَبِ الدَّيَّانِ، أَتَأَمَّلُ التَّاجِرَ المِجْنُونَ الَّذِي يَبِيعُ قَصْرًا مِنَ المِاسِ وَالنُّورِ بِحَفْنَةٍ مِنَ التُّرَابِ المِلْوَّثِ ثُمَّ يَقِفُ عَلَى بَابِ القَصْرِ فِي لَيْلَةِ الزَّمْهَرِيرِ فَلَا يُكَلِّمُهُ الحُرَّاسُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ المِلِكُ وَيُطْرَدُ إِلَى الجَحِيمِ، فَمَا أَشَدَّ قَسْوَةَ هَذَا العِقَابِ المِعْنَوِيِّ وَالحِسِّيِّ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الحِرْمَانِ مِنَ النَّظَرِ الإِلَهِيِّ وَالتَّزْكِيَةِ وَبَيْنَ العَذَابِ الأَلِيمِ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الأَيْمَانُ وَالعُهُودُ فِي حَيَاتِي إِلَى جَمْرٍ أَخْشَى الاقْتِرَابَ مِنْهُ بِالكَذِبِ لِئَلَّا أُحْرَمَ مِنْ لَذَّةِ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الكَرِيمِ يَوْمَ اللِّقَاءِ، فَكُلُّ مَكْسَبٍ يُنَالُ بِالغَدْرِ وَالحَلِفِ الكَاذِبِ هُوَ إِفْلَاسٌ أَبَدِيٌّ وَلَا يَنْظُرُ إِلَى الخَائِنِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ اللهُ.

لِيُّ الأَلْسِنَةِ وَافْتِرَاءُ الكِتَابِ

صَدَى {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: 78]

عَلَى أَلْسِنَةِ المحَرِّفِينَ تَلْتَوِي الحُرُوفُ وَتَتَبَدَّلُ المعَانِي لِتُوهِمَ السَّامِعِينَ أَنَّ أَهْوَاءَ البَشَرِ هِيَ وَحْيُ السَّمَاءِ وَتَنْزِيلُ الكِتَابِ، فَيَنْكَشِفُ لِي زَيْفُ التَّلَاعُبِ بِالنُّصُوصِ الَّذِي يَسْتَغِلُّ قَدَاسَةَ الكَلِمَةِ لِيُمَرِّرَ سُمُومَ التَّحْرِيفِ وَالِافْتِرَاءِ عَلَى خَالِقِ الأَكْوَانِ، وَكَمْ حَاوَلَ أَهْلُ الزَّيْغِ أَنْ يُخْضِعُوا نُصُوصَ السَّمَاءِ لِرَغَبَاتِهِمْ فَيَلْوُوا أَعْنَاقَ الآيَاتِ وَيُنْطِقُوهَا بِمَا لَمْ تَقُلْهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يَفْتَرُونَ الكَذِبَ بِلَا حَيَاءٍ، أَرَى المِرْآةَ المعْوَجَّةَ الَّتِي يَضَعُهَا المخَادِعُ أَمَامَ الشَّمْسِ لِتَعْكِسَ صُورَةً مُشَوَّهَةً مُظْلِمَةً ثُمَّ يَصْرُخُ فِي النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ هِيَ صُورَةُ الشَّمْسِ الحَقِيقِيَّةُ بَيْنَمَا الشَّمْسُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ بَرِيئَةٌ مِنْ عِوَجِ مِرْآتِهِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الفَضِيحَةَ القُرْآنِيَّةَ الَّتِي تُعَرِّي أَسَالِيبَ المحَرِّفِينَ وَتُحَذِّرُ المؤْمِنِينَ مِنَ الِانْخِدَاعِ بِالتَّلَاوَةِ المزَيَّفَةِ وَالتَّأْوِيلِ الفَاسِدِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ قِرَاءَتِي لِلْوَحْيِ إِلَى أَمَانَةٍ صَادِقَةٍ أَنْطِقُ فِيهَا بِالحَقِّ كَمَا أُنْزِلَ بِلَا لَيٍّ لِلِّسَانِ وَلَا تَحْرِيفٍ لِلْمَعَانِي، فَكُلُّ كَلِمَةٍ تُنْسَبُ إِلَى السَّمَاءِ بِالهَوَى هِيَ جُرْأَةٌ خَاسِرَةٌ وَلَا يَخْفَى كَذِبُ المفْتَرِينَ عَلَى اللهِ.

أَدَبُ النُّبُوَّةِ وَرَبَّانِيَّةُ العِلْمِ

صَدَى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} [آل عمران: 79]

فِي مِحْرَابِ النُّبُوَّةِ الصَّادِقَةِ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَدْعُوَ الرَّسُولُ المصْطَفَى النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ بَعْدَ أَنْ أَكْرَمَهُ الخَالِقُ بِالكِتَابِ وَالحِكْمَةِ وَالرِّسَالَةِ، فَيَتَلَاشَى فِي عَقْلِي وَهْمُ تَقْدِيسِ الأَشْخَاصِ وَالغُلُوِّ فِيهِمْ وَيَشْرُقُ مَعْنَى الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تَرْبِطُ العُلَمَاءَ وَالمتَعَلِّمِينَ بِرَبِّ العَالَمِينَ وَحْدَهُ، وَكَمْ حَوَّلَ الجَاهِلُونَ أَنْبِيَاءَهُمْ وَعُلَمَاءَهُمْ إِلَى أَصْنَامٍ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ المَلِكِ بَيْنَمَا كَانَتْ دَعْوَةُ الأَنْبِيَاءِ دَائِمًا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ رَبَّانِيِّينَ يَتَخَلَّقُونَ بِأَخْلَاقِ الوَحْيِ وَيُعَلِّمُونَ الكِتَابَ، أَتَأَمَّلُ القَمَرَ المنِيرَ الَّذِي يَرْفَعُهُ الخَالِقُ فِي سَمَاءِ اللَّيْلِ لِيَهْدِيَ السَّائِرِينَ فَيَظَلُّ القَمَرُ خَاضِعًا لِفَلَكِهِ مُشِيرًا بِضَوْئِهِ إِلَى عَظَمَةِ الشَّمْسِ الَّتِي أَمَدَّتْهُ بِالنُّورِ وَلَا يَدَّعِي لِنَفْسِهِ سُلْطَانًا مِنْ دُونِهَا، فَمَا أَبْهَى هَذِهِ الصُّورَةَ النَّقِيَّةَ لِلْعَالِمِ الرَّبَّانِيّ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الكِتَابَ وَيَدْرُسُهُ لِيُقَرِّبَهُمْ مِنْ خَالِقِهِمْ لَا لِيَسْتَعْبِدَهُمْ لِذَاتِهِ وَأَهْوَائِهِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ رَحْلَتِي فِي العِلْمِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى رَبَّانِيَّةٍ خَالِصَةٍ أُوَجِّهُ فِيهَا القُلُوبَ نَحْوَ السَّمَاءِ وَأَبْرَأُ مِنْ كُلِّ دَعْوَى تُعَظِّمُ المخْلُوقَ عَلَى حِسَابِ الخَالِقِ، فَكُلُّ نَبِيٍّ وَعَالِمٍ صَادِقٍ هُوَ دَلِيلٌ إِلَى النُّورِ وَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ.

بَرَاءَةُ الرُّسُلِ وَمِيثَاقُ الإِسْلَامِ

صَدَى {وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران: 80]

عَلَى قِمَّةِ التَّوْحِيدِ الشَّامِخَةِ تَتَبَرَّأُ المَلَائِكَةُ المقَرَّبُونَ وَالأَنْبِيَاءُ المرْسَلُونَ مِنْ كُلِّ دَعْوَةٍ تَجْعَلُهُمْ أَرْبَابًا يُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ الخَالِقِ، فَيَسْقُطُ فِي وِجْدَانِي كُلُّ تَعَلُّقٍ شِرْكِيٍّ بِالمخْلُوقَاتِ العُلْوِيَّةِ وَالأَرْضِيَّةِ بَعْدَ أَنْ حَسَمَ الوَحْيُ أَنَّ صَرْفَ العِبَادَةِ لِغَيْرِ المَلِكِ هُوَ كُفْرٌ بَعْدَ الإِسْلَامِ، وَكَمْ انْزَلَقَتِ الأُمَمُ السَّابِقَةُ فِي هَاوِيَةِ تَأْلِيهِ المَلَائِكَةِ وَالمسِيحِ وَعُزَيْرٍ وَظَنَّتْ أَنَّهَا تَتَقَرَّبُ بِذَلِكَ إِلَى السَّمَاءِ بَيْنَمَا كَانَتْ تَهْدِمُ أَصْلَ الإِسْلَامِ وَالتَّوْحِيدِ، أَرَى النُّجُومَ السَّاطِعَةَ وَالأَقْمَارَ المنِيرَةَ فِي قُبَّةِ الفَلَكِ تَخِرُّ سَاجِدَةً لِخَالِقِهَا وَتَصْرُخُ فِي وَجْهِ العَابِدِينَ لَهَا أَنَّنَا مَخْلُوقَاتٌ مِثْلُكُمْ نَسْبَحُ فِي فَلَكِ العُبُودِيَّةِ وَلَا نَمْلِكُ لِأَنْفُسِنَا ضَرًّا

وَلَا نَفْعًا، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الِاسْتِنْكَارَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يُنَزِّهُ سَاحَةَ النُّبُوَّةِ عَنِ الأَمْرِ بِالكُفْرِ وَيُثَبِّتُ المسْلِمِينَ عَلَى نَقَاءِ العَقِيدَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا جَمِيعُ الرُّسُلِ، هَكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي إِلَى تَوْحِيدٍ صَافٍ لَا يَشُوبُهُ غُلُوٌّ فِي مَلَكٍ وَلَا فِي نَبِيٍّ بَلْ يُفْرِدُ المِلكَ الحَقَّ بِالخُضُوعِ وَالدُّعَاءِ وَالعِبَادَةِ، فَكُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ هُمْ عِبَادٌ مَرْبُوبُونَ وَلَا رَبَّ لِلْعَالَمِينَ إِلَّا اللهُ.

سِفْرُ الصَّدَى العِشْرُونَ

مِيثَاقُ النُّبُوَّةِ وَظِلُّ الشَّهَادَةِ

صَدَى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

مَوَاثِيقُ السَّمَاءِ أَوْتَادٌ مَغْرُوسَةٌ فِي صُدُورِ الأَنْبِيَاءِ قَبْلَ أَنْ تَتَفَتَّحَ أَكْمَامُ الزَّمَانِ عَلَى مَشَاهِدِ الأَرْضِ، فَتَنْكَسِرُ عَلَى عَتَبَتِهَا كُلُّ رَايَاتِ الأَنَانِيَّةِ البَشَرِيَّةِ الَّتِي تَتَوَهَّمُ امْتِلَاكَ الحَقِيقَةِ وَحْدَهَا. إِنِّي أَتَلَمَّسُ فِي طَيَّاتِ رُوحِي ثِقَلَ ذَلِكَ العَهْدِ القَدِيمِ، فَأَرَى نَفْسِي عَارِيَةً مِنْ كُلِّ دَعْوَى عِنْدَمَا تُشْرِقُ شَمْسُ الرِّسَالَةِ الخَاتِمَةِ لِتُذِيبَ جَلِيدَ التَّحَيُّزِ وَالِانْغِلَاقِ. وَكَمْ تَعَثَّرَتْ خُطَايَ فِي دُرُوبِ التَّمَسُّكِ بِالظِّلَالِ الفَانِيَةِ، حِينَ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الفَانُوسَ الصَّغِيرَ فِي يَدِي يُغْنِينِي عَنْ وَهَجِ النَّهَارِ الكَامِلِ. أَتَأَمَّلُ مَوَاكِبَ الكَوَاكِبِ وَهِيَ تُسَلِّمُ رَايَةَ الضِّيَاءِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ فِي نِظَامٍ كَوْنِيٍّ لَا يَعْرِفُ التَّنَافُرَ أَوِ الجُحُودَ، بَيْنَمَا تَتَصَارَعُ قُلُوبُ البَشَرِ عَلَى حُطَامِ الأَلْقَابِ وَزَبَدِ المَوَارِيثِ. فَمَا أَعْظَمَ ذَلِكَ الإِقْرَارَ الَّذِي انْعَقَدَ فِي مَلَكُوتِ الغَيْبِ لِيَجْعَلَ نُصْرَةَ الحَقِّ فَوْقَ كُلِّ انْتِمَاءٍ، وَمَا أَشَدَّ عَمَى القُلُوبِ الَّتِي تَنْكُصُ عَنْ شَهَادَةِ السَّمَاءِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى مِيزَانٍ دَقِيقٍ يَزِنُ صِدْقَ الوَلَاءِ، فَيُجَرِّدُ قَلْبِي مِنْ كُلِّ عَصَبِيَّةٍ ضَيِّقَةٍ لِيَصْهَرَهُ فِي نُورِ الإِيمَانِ الجَامِعِ. فَكُلُّ مَجْدٍ يَنْقَطِعُ عَنْ مِيثَاقِ اللَّهِ هُوَ سَرَابٌ يَتَلَاشَى فِي رِمَالِ العَدَمِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِكَلِمَةٍ صَادِقَةٍ أَشْهَدَ عَلَيْهَا رَبُّ العَالَمِينَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ.

مَزَالِقُ النُّكُوصِ وَعَاصِفَةُ الفُسُوقِ

صَدَى ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

خُرُوجُ البَذْرَةِ عَنْ دِفْءِ التُّرْبَةِ الحَاضِنَةِ يَحْكُمُ عَلَيْهَا بِالجَفَافِ فِي مَهَبِّ الرِّيَاحِ العَاتِيَةِ، كَمَا يَحْكُمُ الإِعْرَاضُ بَعْدَ اليَقِينِ عَلَى الرُّوحِ بِالتِّيهِ الأَبَدِيِّ. أَجِدُ فِي وَجْدَانِي رَعْشَةَ الخَوْفِ مِنْ تِلْكَ اللحْظَةِ الَّتِي يَنْفَلِتُ فِيهَا زِمَامُ القَلْبِ مِنْ حَبْلِ الميثَاقِ، فَيَهْوِي فِي هَاوِيَةِ النُّكُوصِ بَعْدَ أَنْ لَامَسَ عَتَبَاتِ النُّورِ. وَكَمْ رَأَيْتُ فِي مِرْآةِ أَيَّامِي نُفُوسًا تَتَرَاجَعُ خُطْوَةً خَلْفَ خُطْوَةٍ عَنْ سَاحَةِ الصِّدْقِ، حَتَّى تَصِيرَ غَرِيبَةً عَنْ فِطْرَتِهَا كَأَنَّهَا غُصْنٌ مَقْطُوعٌ مِنْ شَجَرَةِ الحَيَاةِ. أَرَى الأَنْهَارَ تَجْرِي طَائِعَةً فِي مَجَارِيهَا المَرْسُومَةِ لَهَا مُنْذُ الأَزَلِ، فَإِذَا تَمَرَّدَ المَاءُ عَلَى ضِفَافِهِ اسْتَحَالَ وَحْلًا رَاكِدًا تَعَافُهُ الطُّيُورُ وَالأَشْجَارُ. فَمَا أَقْسَى أَنْ يُدِيرَ الإِنْسَانُ ظَهْرَهُ لِلشَّمْسِ بَعْدَ أَنْ أَبْصَرَ شُعَاعَهَا، وَمَا أَظْلَمَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُفْضِي إِلَى الفُسُوقِ بَعْدَ انْكِشَافِ البُرْهَانِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الكَلِمَةُ القُرْآنِيَّةُ فِي دَاخِلِي إِلَى سِيَاجٍ نَارِيٍّ يَحْمِي خُطُوَاتِي مِنَ الِانْحِرَافِ، وَيُوقِظُ فِي بَصِيرَتِي حَذَرَ المسَافِرِ عَلَى حَافَّةِ الهَاوِيَةِ. فَكُلُّ انْحِرَافٍ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ هُوَ سُقُوطٌ فِي وَحْشَةِ الضَّيَاعِ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِالثَّبَاتِ عَلَى العَهْدِ حَتَّى يَنْقَضِيَ أَجَلُ الفَنَاءِ.

فِطْرَةُ الأَكْوَانِ وَمُكَابَرَةُ الطِّينِ

صَدَى ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ سُجُودُ الكَائِنَاتِ فِي مِحْرَابِ الوُجُودِ نَشِيدٌ أَزَلِيٌّ يَمْلَأُ أَرْجَاءَ الكَوْنِ، فَلَا يَشِذُّ عَنْ إِيقَاعِهِ إِلَّا قَلْبٌ أَغْلَقَ نَوَافِذَهُ دُونَ نَسِيمِ الفِطْرَةِ. أَشْعُرُ بِضَآلَةِ الكِبْرِيَاءِ البَشَرِيِّ حِينَ أُصْغِي إِلَى تَسْبِيحِ الذَّرَّاتِ وَالأَفْلَاكِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ العِنَادَ لَيْسَ إِلَّا صَرْخَةً مَكْسُورَةً فِي فَضَاءٍ يَدِينُ كُلُّهُ بِالطَّاعَةِ لِخَالِقِهِ. وَكَمْ حَاوَلَتْ نَفْسِي فِي غَفْلَتِهَا أَنْ تَبْتَدِعَ لَهَا مَسَالِكَ خَاصَّةً بَعِيدًا عَنْ سُنَنِ السَّمَاءِ، فَمَا جَنَتْ سِوَى التَّمَزُّقِ بَيْنَ نِدَاءِ رُوحِهَا وَتَمَرُّدِ طِينِهَا. أَتَأَمَّلُ الظِّلَّ كَيْفَ يَتَمَدَّدُ وَيَتَقَلَّصُ خَاضِعًا لِحَرَكَةِ الشَّمْسِ دُونَ اخْتِيَارٍ، وَأَرَى النُّجُومَ تَسْبَحُ فِي مَدَارَاتِهَا طَوْعًا كَأَنَّهَا لَآلِئُ مَنْظُومَةٌ فِي عِقْدِ العُبُودِيَّةِ الخَالِصَةِ. فَمَا أَعْجَبَ أَمْرَ هَذَا الإِنْسَانِ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ شَرِيعَةٍ غَيْرِ شَرِيعَةِ رَبِّهِ، وَكُلُّ خَلِيَّةٍ فِي جَسَدِهِ تَنْبِضُ بِالِاسْتِسْلَامِ لِقَدَرِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي كِيَانِي إِلَى جِسْرٍ يَصِلُ قَلْبِي بِتَسْبِيحِ الكَوْنِ الكَبِيرِ، فَيَذُوبُ نَشَازُ الأَنَا فِي سِيمْفُونِيَّةِ الخُضُوعِ الطَّوْعِيِّ لِلْحَقِّ. فَكُلُّ مَسَارٍ يُخَالِفُ نَامُوسَ الخَالِقِ مَآلُهُ الِاصْطِدَامُ بِصَخْرَةِ الحَقِيقَةِ، وَلَا مَرْجِعَ لِلْخَلَائِقِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا إِلَّا إِلَى مَلِكِ المُلُوكِ.

وَحْدَةُ النُّورِ وَتَكَامُلُ المِشَاهِدِ

صَدَى ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ يَنَابِيعُ الوَحْيِ كُلُّهَا تَنْبَجِسُ مِنْ غَيْمَةٍ وَاحِدَةٍ فِي سَمَاءِ الرَّحْمَةِ، لِتَسْقِيَ أَرْضَ البَشَرِيَّةِ العَطْشَى بِمَاءِ الهِدَايَةِ الصَّافِي دُونَ تَفْرِيقٍ أَوِ انْقِطَاعٍ. إِنِّي أَشْهَدُ فِي قَلْبِي تَعَانُقَ الأَنْوَارِ النَّبَوِيَّةِ عَبْرَ العُصُورِ، فَتَسْقُطُ حَوَاجِزُ الزَّمَانِ وَالمِكَانِ الَّتِي أَقَامَهَا الجَهْلُ لِيُمَزِّقَ وَحْدَةَ الرِّسَالَةِ الإِلَهِيَّةِ. وَكَمْ ضَاقَتْ رُؤْيَتِي فِي سَالِفِ أَيَّامِي حِينَ كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى التَّارِيخِ كَجُزُرٍ مُتَبَاعِدَةٍ، قَبْلَ أَنْ يَكْشِفَ لِي القُرْآنُ أَنَّ مِشْكَاةَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ تُضِيءُ بِنَارٍ وَاحِدَةٍ. أَرَى المَطَرَ يَنْزِلُ عَلَى القِمَمِ الشَّاهِقَةِ وَالأَوْدِيَةِ السَّحِيقَةِ فَيُحْيِي التُّرَابَ بِرُوحٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنِ اخْتَلَفَتْ أَلْوَانُ الزُّهُورِ وَأَشْكَالُ الثِّمَارِ فِي البَسَاتِينِ. فَمَا أَرْوَعَ هَذَا الإِيمَانَ الشَّامِلَ الَّذِي يَحْتَضِنُ كُلَّ رُسُلِ السَّمَاءِ بِمَحَبَّةٍ وَتَوْقِيرٍ، وَمَا أَضْيَقَ العُقُولَ الَّتِي تُؤْمِنُ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُ بِبَعْضٍ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى أُفُقٍ رَحْبٍ يَتَّسِعُ لِكُلِّ حَقٍّ أَنْزَلَهُ اللَّهُ، فَيَتَطَهَّرُ صَدْرِي مِنَ الغِلِّ وَيَسْتَقِيمُ لِسَانِي عَلَى شَهَادَةِ الإِسْلَامِ الخَالِصِ. فَكُلُّ تَفْرِيقٍ بَيْنَ أَنْبِيَاءِ الرَّحْمَنِ هُوَ تَمْزِيقٌ لِثَوْبِ الحَقِيقَةِ الوَاحِدِ، وَلَا كَمَالَ لِلْإِيمَانِ إِلَّا بِالتَّسْلِيمِ المطْلَقِ لِرَبِّ الأَرْبَابِ.

بَوَّابَةُ القَبُولِ وَسَرَابُ الأَدْيَانِ المزَيَّفَةِ

صَدَى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ عَلَى بَوَّابَةِ المَلَكُوتِ لَا تَمُرُّ إِلَّا العُمْلَةُ الَّتِي تَحْمِلُ خَتْمَ الإِخْلَاصِ وَالاِسْتِسْلَامِ لِلْوَاحِدِ الأَحَدِ، أَمَّا الأَوْهَامُ المسْكُوكَةُ فِي مَعَامِلِ الهَوَى فَتُرَدُّ عَلَى أَصْحَابِهَا كَالرَّمَادِ. أَرْتَجِفُ فِي دَاخِلِي حِينَ أَتَصَوَّرُ هَوْلَ الخُسْرَانِ الأُخْرَوِيِّ لِمَنْ أَفْنَى عُمْرَهُ يَبْنِي قُصُورًا مِنَ السَّرَابِ، ثُمَّ وَجَدَهَا عِنْدَ اللِّقَاءِ هَبَاءً مَنْثُورًا لَا يَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ. وَكَمْ خُدِعَتِ البَصَائِرُ بِبَرِيقِ المَنَاهِجِ الأَرْضِيَّةِ الَّتِي تُزَيِّنُ لِلْإِنْسَانِ عِبَادَةَ ذَاتِهِ أَوْ عَقْلِهِ، فَتَسْرِقُ مِنْهُ عُمْرَهُ لِتُلْقِيَهُ فِي صَحْرَاءِ الحِرْمَانِ الكُبْرَى. أَتَأَمَّلُ السُّفُنَ فِي عُرْضِ البَحْرِ المتَلَاطِمِ كَيْفَ تَغْرَقُ إِذَا لَمْ تَلْتَزِمْ بِبُوصَلَةِ السَّمَاءِ وَشِرَاعِ الهِدَايَةِ، فَتَتَحَطَّمُ أَلْوَاحُهَا عَلَى صُخُورِ التِّيهِ وَالضَّيَاعِ. فَمَا أَشَدَّ حَسْرَةَ التَّاجِرِ الَّذِي يَعُودُ مِنْ سَفَرِ الحَيَاةِ بِصُنْدُوقٍ مَمْلُوءٍ بِالحِجَارَةِ وَالأَوْهَامِ، وَقَدْ أَضَاعَ جَوْهَرَةَ الإِسْلَامِ الَّتِي لَا يُقْبَلُ سِوَاهَا. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى بُوصَلَةٍ حَاسِمَةٍ تَفْرِزُ الطَّرِيقَ المسْتَقِيمَ مِنْ بَيْنِ آلَافِ السُّبُلِ المعْوَجَّةِ، فَتُثَبِّتُ قَدَمَيَّ عَلَى صَخْرَةِ التَّوْحِيدِ

الصَّلْبَةِ. فَكُلُّ دِينٍ يُبْتَغَى مِنْ غَيْرِ مِشْكَاةِ اللَّهِ هُوَ صَفْقَةٌ خَاسِرَةٌ فِي سُوقِ الآخِرَةِ، وَلَا قَبُولَ عِنْدَ الخَالِقِ إِلَّا لِقَلْبٍ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ.

انْطِفَاءُ البَصِيرَةِ بَعْدَ إِشْرَاقِ البَيِّنَاتِ

صَدَى ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

إِغْمَاضُ العَيْنِ عَمْدًا فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ يَحْرِمُ صَاحِبَهُ مِنَ الإِبْصَارِ وَلَوْ غَمَرَتْهُ شُمُوسُ الأَكْوَانِ كُلُّهَا، كَمَا يَحْجُبُ الجُحُودُ بَعْدَ المَعْرِفَةِ نُورَ الهِدَايَةِ عَنِ القُلُوبِ الظَّالِمَةِ. أَشْعُرُ بِرَهْبَةٍ تَسْرِي فِي أَوْصَالِي وَأَنَا أَقْرَأُ هَذَا التَّسَاؤُلَ الإِلَهِيَّ المُزَلْزِلَ، فَأَخْشَى عَلَى نَفْسِي مِنْ ظُلْمِ إِطْفَاءِ سِرَاجِ اليَقِينِ بَعْدَ أَنْ أَنَارَ اللهُ بِهِ زَوَايَا رُوحِي. وَكَمْ شَهِدْتُ فِي تَقَلُّبَاتِ الدُّنْيَا عُقُولًا عَرَفَتِ الحَقَّ وَتَذَوَّقَتْ حَلَاوَتَهُ، ثُمَّ آثَرَتْ ظُلْمَةَ الهَوَى وَالمَصَالِحِ فَانْطَمَسَتْ بَصَائِرُهَا كَأَنَّهَا لَمْ تَرَ نُورًا قَطُّ. أَرَى الأَرْضَ البُورَ الَّتِي تَبْتَلِعُ الغَيْثَ الغَزِيرَ ثُمَّ لَا تُنْبِتُ إِلَّا الشَّوْكَ وَالعَلْقَمَ، فَتَمْتَنِعُ عَنْهَا السَّحَائِبُ وَتَتْرُكُهَا لِلْجَفَافِ وَالتَّشَقُّقِ المُسْتَمِرِّ. فَمَا أَعْظَمَ جُرْمَ مَنْ يَشْهَدُ بِصِدْقِ الرَّسُولِ وَيَرَى البَيِّنَاتِ السَّاطِعَةَ ثُمَّ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَمَا أَعْدَلَ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي حِرْمَانِ الظَّالِمِينَ مِنْ فَيْضِ التَّوْفِيقِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى حَارِسٍ يَقِظٍ يَصُونُ نِعْمَةَ الهِدَايَةِ مِنَ البَطَرِ وَالجُحُودِ، وَيَدْفَعُنِي لِشُكْرِ البَيِّنَاتِ بِالثَّبَاتِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. فَكُلُّ جُحُودٍ بَعْدَ انْكِشَافِ الحَقِيقَةِ هُوَ إِغْلَاقٌ لِأَبْوَابِ السَّمَاءِ بِيَدِ العَبْدِ نَفْسِهِ، وَلَا هِدَايَةَ لِمَنْ ظَلَمَ فِطْرَتَهُ وَأَطْفَأَ نُورَ يَقِينِهِ.

طَوْقُ اللَّعْنَةِ وَخُلُودُ العَذَابِ

صَدَى ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾

طَرْدُ الرُّوحِ مِنْ حَضْرَةِ الرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ هُوَ الزَّمْهَرِيرُ الأَبَدِيُّ الَّذِي لَا تُدْفِئُهُ شَمْسٌ وَلَا يُؤْنِسُهُ صَوْتٌ فِي وَحْشَةِ الخُلُودِ. إِنِّي أَضَعُ يَدِي عَلَى قَلْبِي وَقَدْ أَثْقَلَهُ مَشْهَدُ الإِجْمَاعِ الكَوْنِيِّ عَلَى لَعْنَةِ الجَاحِدِينَ، حَيْثُ تَتَبَرَّأُ السَّمَاءُ وَالمَلَائِكَةُ وَالأَرْضُ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ خَانَ الحَقِيقَةَ بَعْدَ انْكِشَافِهَا. وَكَمْ تَغْتَرُّ النُّفُوسُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِإِمْهَالِ الزَّمَانِ وَسِعَةِ الحِلْمِ، فَتَحْسَبُ أَنَّ سَاعَةَ الحِسَابِ بَعِيدَةٌ أَوْ أَنَّ العَذَابَ سَيُخَفَّفُ عَنْهَا بِشَفَاعَةِ الأَوْهَامِ. أَتَأَمَّلُ الصَّخْرَةَ الصَّمَّاءَ الَّتِي تَهْوِي مِنْ قِمَّةِ الجَبَلِ الشَّاهِقِ إِلَى قَاعِ الوَادِي السَّحِيقِ، فَلَا تَمْلِكُ قُوَّةً تُوقِفُ سُقُوطَهَا وَلَا زَمَنًا يُؤَجِّلُ ارْتِطَامَهَا المُدَوِّي.

فَمَا أَهْوَلَ ذَلِكَ الخُلُودَ فِي العَذَابِ حَيْثُ يُغْلَقُ بَابُ الإِنْظَارِ وَالتَّخْفِيفِ، وَمَا أَشَدَّ غُرُورَ مَنْ يَشْتَرِي لَذَّةً عَابِرَةً بِغَضَبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَتَانِ فِي وُجْدَانِي إِلَى صَيْحَةِ إِيقَاظٍ تَهُزُّ أَرْكَانَ الغَفْلَةِ فِي دَاخِلِي، فَتَجْعَلُنِي أَفِرُّ مِنْ أَسْبَابِ الطَّرْدِ إِلَى رِحَابِ الرِّضَا وَالطَّاعَةِ. فَكُلُّ إِصْرَارٍ عَلَى البَاطِلِ هُوَ حَفْرٌ لِهُوَّةِ الشَّقَاءِ الأَبَدِيِّ، وَلَا مَلْجَأَ مِنَ العَذَابِ المُقِيمِ إِلَّا فِي كَنَفِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ.

بَابُ الرَّحْمَةِ المَفْتُوحُ لِلتَّائِبِينَ

صَدَى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

بَيْنَ رُكَامِ الخَطَايَا وَظُلُمَاتِ النُّكُوصِ تَنْبَثِقُ كُوَّةُ التَّوْبَةِ كَخَيْطِ فَجْرٍ يُبَدِّدُ لَيْلَ اليَأْسِ وَيُعِيدُ لِلْغُصْنِ اليَابِسِ نَضَارَةَ الحَيَاةِ. أَشْعُرُ بِدُمُوعِ الرَّجَاءِ تَغْسِلُ غُبَارَ الخَوْفِ عَنْ قَلْبِي كُلَّمَا تَلَوْتُ هَذَا الِاسْتِثْنَاءَ الرَّحِيمَ، فَأُدْرِكُ أَنَّ بَابَ السَّمَاءِ لَا يُوصَدُ فِي وَجْهِ عَبْدٍ نَدِمَ وَأَصْلَحَ مَا أَفْسَدَ. وَكَمْ حَاصَرَتْنِي ذُنُوبُ الأَمْسِ بِسِيَاطِ القُنُوطِ وَسَوَّلَتْ لِي أَنَّ العَوْدَةَ مُسْتَحِيلَةٌ، حَتَّى أَدْرَكَنِي نَسِيمُ المَغْفِرَةِ لِيُثْبِتَ أَنَّ الإِصْلَاحَ الصَّادِقَ يَمْحُو آثَارَ الخَرَابِ القَدِيمِ. أَرَى الأَرْضَ المُحْتَرِقَةَ بَعْدَ الحَرَائِقِ الكُبْرَى كَيْفَ تَعُودُ خَضْرَاءَ مُزْهِرَةً حِينَ تَهْطِلُ عَلَيْهَا أَمْطَارُ الرَّبِيعِ وَتَرْعَاهَا يَدُ العِنَايَةِ الرَّحِيمَةِ. فَمَا أَوْسَعَ مَغْفِرَةَ الرَّبِّ الَّتِي تَقْبَلُ أَوْبَةَ الشَّارِدِينَ بَعْدَ طُولِ الغِيَابِ، وَمَا أَجْمَلَ أَنْ يَقْتَرِنَ النَّدَمُ القَلْبِيُّ بِعَمَلٍ يُرَمِّمُ مَا هَدَّمَ فِي النَّفْسِ وَالوَاقِعِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى نَبْعٍ مُتَدَفِّقٍ بِالأَمَلِ وَالتَّجَدُّدِ، يَدْفَعُنِي لِتَرْمِيمِ عُيُوبِي بِالإِصْلَاحِ الدَّائِمِ وَالإِقْبَالِ الصَّادِقِ عَلَى الخَالِقِ. فَكُلُّ ذَنْبٍ يَتَبَدَّلُ نُورًا إِذَا صَدَقَتِ التَّوْبَةُ وَتَبِعَهَا الإِصْلَاحُ، وَلَا يَأْسَ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ.

وَهْمُ التَّوْبَةِ الكَاذِبَةِ وَبُؤْسُ الِازْدِيَادِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾

تَرَاكُمُ الصَّدَأِ عَلَى مِرْآةِ القَلْبِ حَتَّى يَأْكُلَ جَوْهَرَ المِعْدِنِ يَجْعَلُ الصَّقْلَ عِنْدَ الغَرْغَرَةِ عَبَثًا لَا يُعِيدُ لَهَا صَفَاءَ الرُّؤْيَةِ أَبَدًا. أَرْتَعِدُ مِنْ خَدِيعَةِ التَّسْوِيفِ الَّتِي تُغْرِي النَّفْسَ بِالِازْدِيَادِ فِي الغَيِّ، ظَنًّا مِنْهَا أَنَّهَا تَمْلِكُ مَفَاتِيحَ التَّوْبَةِ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ تَشَاءُ وَلَوْ بَعْدَ أَنْ يَتَحَجَّرَ الفُؤَادُ. وَكَمْ تَهَاوَنْتُ نَفْسِي بِصَغَائِرِ الغَفْلَةِ فَتَرَاكَمَتْ كَالغُيُومِ السَّوْدَاءِ الَّتِي تَحْجُبُ الشَّمْسَ، فَعَلِمْتُ أَنَّ التَّمَادِيَ فِي الظُّلْمَةِ يُورِثُ العَمَى الدَّائِمَ وَيُسْقِطُ العَبْدَ فِي وَادِي الضَّلَالِ. أَتَأَمَّلُ السَّفِينَةَ الَّتِي تَتْرُكُ الثُّقُوبَ تَتَّسِعُ فِي قَاعِهَا دُونَ إِصْلَاحٍ، حَتَّى إِذَا غَمَرَهَا المَاءُ وَأَشْرَفَتْ عَلَى الغَرَقِ لَمْ يَنْفَعْهَا نَدَمُ الرُّبَّانِ وَلَا صُرَاخُ الرُّكَّابِ.

فَمَا أَخْطَرَ الِازْدِيَادَ فِي الكُفْرِ وَالعِنَادِ بَعْدَ انْكِشَافِ الحَقِّ، وَمَا أَبْأَسَ تِلْكَ التَّوْبَةَ المُتَأَخِّرَةَ الَّتِي تَأْتِي بَعْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ وَانْغِلَاقِ الأَبْوَابِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى نَاقُوسِ خَطَرٍ يُعَجِّلُ بِأَوْبَتِي قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّسَ القَلْبُ، وَيَحْمِينِي مِنْ لُعْبَةِ التَّسْوِيفِ القَاتِلَةِ. فَكُلُّ تَمَادٍ فِي البَاطِلِ هُوَ إِغْلَاقٌ تَدْرِيجِيٌّ لِمَنَافِذِ النُّورِ، وَلَا قَبُولَ لِتَوْبَةٍ زَائِفَةٍ تَأْتِي بَعْدَ أَنْ يَسْتَحْكِمَ الضَّلَالُ فِي الرُّوحِ.

فِدَاءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَعَجْزُ المَوَازِينِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾

مَوَازِينُ السَّمَاءِ لَا تَزِنُ بَرِيقَ المَعَادِنِ الفَانِيَةِ وَلَا كُنُوزَ التُّرَابِ المَغْصُوبَةِ، بَلْ تَزِنُ نُورَ الإِيمَانِ الَّذِي يَحْمِلُهُ القَلْبُ حِينَ يَعْبُرُ جِسْرَ المَوْتِ. أَشْعُرُ بِتَفَاهَةِ الدُّنْيَا وَكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ زُخْرُفٍ حِينَ أَتَخَيَّلُ مِلْءَ الأَرْضِ ذَهَبًا يُرْمَى كَالحَصَى التَّافِهِ أَمَامَ عَتَبَةِ العَدْلِ الإِلَهِيِّ، فَلَا يَشْتَرِي لِصَاحِبِهِ لَحْظَةَ أَمَانٍ وَاحِدَةٍ. وَكَمْ لَهَثَتْ قُلُوبُ البَشَرِ خَلْفَ جَمْعِ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَتَوَهَّمَتْ أَنَّ الثَّرْوَةَ وَالجَاهَ وَالأَنْصَارَ يَمْلِكُونَ لَهَا النَّجَاةَ فِي يَوْمٍ تَتَقَطَّعُ فِيهِ كُلُّ الأَسْبَابِ. أَرَى الثَّلْجَ المُتَرَاكِمَ عَلَى قِمَمِ الجِبَالِ يَبْدُو صَلْبًا كَالرُّخَامِ فِي عَتْمَةِ اللَّيْلِ، فَإِذَا أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الحَقِيقَةِ ذَابَ فِي لَحَظَاتٍ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ أَثَرٌ يُذْكَرُ. فَمَا أَعْظَمَ حَسْرَةَ مَنْ مَاتَ عَلَى الكُفْرِ فَوَجَدَ ذَهَبَ الأَرْضِ كُلَّهُ عَاجِزًا عَنِ افْتِدَاءِ نَفْسِهِ، وَمَا أَشَدَّ وَحْدَتَهُ حِينَ يَتَخَلَّى عَنْهُ كُلُّ نَاصِرٍ وَمُعِينٍ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى مِقْيَاسٍ يُحَرِّرُنِي مِنْ عُبُودِيَّةِ المَالِ وَالمَادَّةِ، فَأَبْحَثُ عَنِ الكَنْزِ البَاقِي الَّذِي لَا يَفْنَى بِالمَوْتِ وَلَا يَرُدُّهُ المِيزَانُ. فَكُلُّ ثَرْوَةِ الأَرْضِ هَبَاءٌ عِنْدَ لِقَاءِ اللَّهِ إِذَا خَلَا القَلْبُ مِنَ الإِيمَانِ، وَلَا نَاصِرَ لِلْعَبْدِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ العَصِيبِ إِلَّا عَمَلُهُ الصَّالِحُ وَرَحْمَةُ رَبِّهِ.

مِفْتَاحُ البِرِّ وَانْعِتَاقُ القَلْبِ مِنَ المِلْكِيَّةِ

صَدَى ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

قِمَمُ البِرِّ الشَّاهِقَةُ لَا يَبْلُغُهَا إِلَّا مَنْ تَخَفَّفَ مِنْ أَثْقَالِ التَّمَلُّكِ، وَأَلْقَى بِأَحَبِّ مَا يَمْلِكُ فِي كَفِّ العَطَاءِ الخَالِصِ لِوَجْهِ الحَقِّ. أَجِدُ فِي صَدْرِي ذَلِكَ الصِّرَاعَ الخَفِيَّ بَيْنَ شُحِّ النَّفْسِ الَّتِي تَتَشَبَّثُ بِمَحْبُوبَاتِهَا، وَبَيْنَ نِدَاءِ الرُّوحِ الَّتِي تَتُوقُ إِلَى التَّحَلُّلِ مِنْ أَسْرِ المَادَّةِ لِتُحَلِّقَ فِي سَمَاءِ الإِحْسَانِ. وَكَمْ ظَنَنْتُ فِي سَالِفِ أَيَّامِي أَنَّ البِرَّ يُنَالُ بِفُضُولِ المَالِ وَبَقَايَا الأَشْيَاءِ الَّتِي لَا تَتَعَلَّقُ بِهَا النَّفْسُ، حَتَّى أَيْقَظَتْنِي هَذِهِ الآيَةُ لِأُدْرِكَ أَنَّ الصِّدْقَ يُخْتَبَرُ عِنْدَ نُقْطَةِ الحُبِّ وَالِارْتِبَاطِ. أَتَأَمَّلُ السَّحَابَةَ المُثْقَلَةَ

بِالمَاءِ العَذْبِ كَيْفَ لَا تَصِيرُ غَيْثًا مُبَارَكًا إِلَّا حِينَ تَجُودُ بِأَغْلَى مَا تَحْمِلُهُ لِتُحْيِيَ الأَرْضَ العَطْشَى، فَيَعُودُ إِلَيْهَا عَطَاؤُهَا رِيًّا وَنَمَاءً. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الِاخْتِبَارَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يُحَرِّرُ القَلْبَ مِنْ عُبُودِيَّةِ الأَشْيَاءِ المَحْبُوبَةِ، وَمَا أَلْطَفَ عِلْمَ اللَّهِ الَّذِي يُحْصِي كُلَّ ذَرَّةِ عَطَاءٍ وَإِنْ دَقَّتْ وَخَفِيَتْ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى مِحَكٍّ يَكْشِفُ مَدَى حُرِّيَّتِي الحَقِيقِيَّةِ، فَأُبَادِرُ بِإِنْفَاقِ مَا أُحِبُّ لِأَشْتَرِيَ بِهِ رِضَا المَحْبُوبِ الأَعْظَمِ. فَكُلُّ مَا نُمْسِكُهُ بِالبُخْلِ يَفْنَى وَيُقَيِّدُ أَرْوَاحَنَا فِي الطِّينِ، وَلَا بُلُوغَ لِمَنَازِلِ البِرِّ العَالِيَةِ إِلَّا بِبَذْلِ النَّفِيسِ تَحْتَ بَصَرِ العَلِيمِ الخَبِيرِ.

جُذُورُ التَّحْرِيمِ وَمِيزَانُ التَّوْرَاةِ الصَّادِقِ

صَدَى ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

الأَصْلُ فِي مَائِدَةِ الخَالِقِ السِّعَةُ وَالطَّهَارَةُ وَالإِبَاحَةُ، وَلَمْ تَنْشَأِ القُيُودُ وَالمَحْرُومَاتُ إِلَّا بِسَبَبِ اجْتِهَادَاتِ البَشَرِ أَوْ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى بَغْيِهِمْ وَتَجَاوُزِهِمْ. أَشْعُرُ بِرَاحَةِ اليَقِينِ وَأَنَا أَرَى القُرْآنَ يَكْشِفُ زَيْفَ الأَسَاطِيرِ وَالأَحْكَامِ المُخْتَلَقَةِ، فَيَرُدُّ المَكَابِرِينَ إِلَى كِتَابِهِمُ الأَوَّلِ لِيَفْضَحَ تَلَاعُبَهُمْ بِنُصُوصِ السَّمَاءِ. وَكَمْ تَثْقُلُ كَوَاهِلُ النَّاسِ حِينَ يَسْتَبْدِلُونَ بِسَمَاحَةِ الدِّينِ الفِطْرِيِّ أَغْلَالًا وَأَوْهَامًا يَصْنَعُونَهَا بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ يَنْسُبُونَهَا زُورًا إِلَى شَرِيعَةِ السَّمَاءِ لِيُبَرِّرُوا جُمُودَهُمْ. أَرَى النَّبْعَ الصَّافِيَ يَتَدَفَّقُ عَذْبًا زُلَالًا مِنْ بَاطِنِ الجَبَلِ لِيَرْوِيَ كُلَّ عَطْشَانَ، حَتَّى يَأْتِيَ مَنْ يَضَعُ الصُّخُورَ فِي مَجْرَاهُ فَيُضَيِّقَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى النَّاسِ وَاسِعًا. فَمَا أَقْوَى هَذَا التَّحَدِّي القُرْآنِيَّ الَّذِي يُطَالِبُ المُدَّعِينَ بِإِحْضَارِ البُرْهَانِ المَكْتُوبِ وَتِلَاوَتِهِ عَلَى المَلَأِ، وَمَا أَضْعَفَ حُجَّةَ مَنْ يَبْنِي عَقِيدَتَهُ عَلَى الأَهْوَاءِ وَالتَّحْرِيفِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي بَصِيرَتِي إِلَى مَنْهَجٍ عِلْمِيٍّ صَارِمٍ يَرُدُّ كُلَّ دَعْوَى إِلَى أَصْلِهَا الصَّحِيحِ، وَيُطَهِّرُ عَقْلِي مِنَ التَّقْلِيدِ الأَعْمَى وَالأَوْهَامِ المَوْرُوثَةِ. فَكُلُّ تَشْرِيعٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ هُوَ قَيْدٌ مُخْتَلَقٌ يَتَهَاوَى أَمَامَ نُورِ الحُجَّةِ، وَلَا صِدْقَ إِلَّا فِيمَا شَهِدَتْ بِهِ الكُتُبُ المُنَزَّلَةُ بِالحَقِّ.

جَرِيمَةُ الِافْتِرَاءِ وَتَزْيِيفُ التَّوْقِيعِ الإِلَهِيِّ

صَدَى ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

تَزْيِيفُ الحَقَائِقِ وَنِسْبَةُ الأَكَاذِيبِ إِلَى سَاحَةِ القُدْسِ الأَعْلَى جُرْأَةٌ تُزَلْزِلُ أَرْكَانَ السَّمَاءِ، وَتَضَعُ صَاحِبَهَا فِي صَفِّ أَعْتَى الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلْوُجُودِ. أَرْتَجِفُ خَوْفًا مِنْ زَلَّةِ اللِّسَانِ أَوْ هَوَى النَّفْسِ الَّذِي قَدْ يَدْفَعُ الإِنْسَانَ لِتَبْرِيرِ أَخْطَائِهِ بِاسْمِ الدِّينِ، فَيَجْتَرِئُ عَلَى القَوْلِ بِغَيْرِ عِلْمٍ بَعْدَ

وُضُوحِ الحُجَّةِ. وَكَمْ رَأَيْتُ فِي مَسِيرَةِ البَشَرِ أَقْلَامًا وَأَلْسِنَةً تَصُوغُ البَاطِلَ فِي قَوَالِبَ مُقَدَّسَةٍ لِتَخْدَعَ البُسَطَاءَ، غَافِلَةً عَنْ أَنَّ عَيْنَ الرَّقِيبِ تَرْصُدُ كُلَّ كَلِمَةٍ مُزَوَّرَةٍ تَخْرُجُ مِنَ الأَفْوَاهِ. أَتَأَمَّلُ السَّرَابَ فِي الصَّحْرَاءِ القَاحِلَةِ كَيْفَ يَتَظَاهَرُ بِأَنَّهُ مَاءٌ زُلَالٌ لِيَخْدَعَ المُسَافِرَ الظَّمْآنَ، فَلَا يَزِيدُهُ إِذَا بَلَغَهُ إِلَّا هَلَاكًا وَضَيَاعًا فِي الرِّمَالِ المُحْرِقَةِ. فَمَا أَعْظَمَ ظُلْمَ مَنْ يَفْتَرِي الكَذِبَ بَعْدَ أَنْ انْكَشَفَتِ البَرَاهِينُ وَتَلَتِ الحَقَائِقُ نَفْسَهَا، وَمَا أَبْشَعَ أَنْ يُتَّخَذَ اسْمُ الخَالِقِ سِتَارًا لِتَمْرِيرِ الأَبَاطِيلِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى مِيزَانٍ لِلْوَرَعِ وَالتَّثَبُّتِ، يُلْجِمُ لِسَانِي عَنِ الخَوْضِ فِيمَا لَا أَعْلَمُ وَيُطَهِّرُ قَلْبِي مِنَ الِافْتِرَاءِ. فَكُلُّ كَذِبٍ يُنْسَبُ إِلَى اللَّهِ هُوَ ظُلْمٌ مُظْلِمٌ يَرْتَدُّ بِالوَبَالِ عَلَى صَاحِبِهِ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِالْوُقُوفِ عِنْدَ حُدُودِ الصِّدْقِ وَالوَحْيِ المَعْصُومِ.

صَفَاءُ الحَنِيفِيَّةِ وَبَرَاءَةُ الخَلِيلِ مِنَ الشِّرْكِ

صَدَى ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

صِدْقُ الكَلِمَةِ الإِلَهِيَّةِ شَمْسٌ تَمْحُو ظُلُمَاتِ الجِدَالِ العَقِيمِ، وَتُعِيدُ القُلُوبَ الحَائِرَةَ إِلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الحَنِيفَةِ الَّتِي تَمِيلُ عَنِ البَاطِلِ كُلِّهِ نَحْوَ الوَاحِدِ الأَحَدِ. أَشْعُرُ بِانْشِرَاحٍ يَمْلَأُ جَوَانِحِي وَأَنَا أُرَدِّدُ شَهَادَةَ الصِّدْقِ المُطْلَقِ لِلْخَالِقِ، فَأَرَى طَرِيقَ الخَلِيلِ مُمْدُودًا أَمَامِي كَالنَّهْرِ الصَّافِي الَّذِي لَمْ تُعَكِّرْهُ شَوَائِبُ الشِّرْكِ وَالأَوْثَانِ. وَكَمْ تَشَتَّتَتْ خُطُوَاتِي بَيْنَ مَذَاهِبِ الفِكْرِ وَتَعَقُّدَاتِ الجَدَلِ قَبْلَ أَنْ أَعُودَ إِلَى بَسَاطَةِ الحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، حَيْثُ يَتَوَجَّهُ القَلْبُ كُلُّهُ لِفَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ دُونَ شَرِيكٍ. أَرَى الطَّيْرَ المحَلِّقَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ يَشُقُّ الفَضَاءَ بِجَنَاحَيْنِ حُرَّيْنِ مُتَّجِهًا نَحْوَ وِجْهَتِهِ دُونَ أَنْ تَعُوقَهُ أَشْوَاكُ الأَرْضِ أَوْ أَوْحَالُ الأَوْدِيَةِ. فَمَا أَجْمَلَ أَنْ يَتَحَرَّرَ الإِنْسَانُ مِنْ كُلِّ صَنَمٍ خَفِيٍّ أَوْ جَلِيٍّ لِيَسِيرَ عَلَى خُطَا إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ، وَمَا أَصْدَقَ وَعْدَ الرَّبِّ الَّذِي يَهْدِي المُتَّبِعِينَ لِمِلَّتِهِ إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى بُوصَلَةِ تَوْحِيدٍ خَالِصَةٍ تَقْطَعُ كُلَّ تَعَلُّقٍ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَتَجْعَلُ وِجْهَةَ قَلْبِي حَنِيفَةً مُسْتَقِيمَةً لَا تَمِيلُ مَعَ الأَهْوَاءِ. فَكُلُّ مِلَّةٍ تَشُوبُهَا شَائِبَةُ الشِّرْكِ هِيَ انْحِرَافٌ عَنْ فِطْرَةِ الخَلِيلِ، وَلَا هِدَايَةَ إِلَّا فِي الِاتِّبَاعِ الصَّادِقِ لِأَمْرِ اللَّهِ الصَّادِقِ الوَعْدِ.

مَثَابَةُ الأَرْضِ وَمِحْرَابُ البَرَكَةِ الأَوَّلُ

صَدَى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾

فِي قَلْبِ الوَادِي غَيْرِ ذِي الزَّرْعِ تَرْسُو قَوَاعِدُ البَيْتِ العَتِيقِ كَقُطْبٍ مَغْنَاطِيسِيٍّ يَجْذِبُ أَفْئِدَةَ العَالَمِينَ، لِيَفِيضَ عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا بِالبَرَكَةِ وَالهِدَايَةِ مُنْذُ فَجْرِ الخَلِيقَةِ. إِنِّي أَشْعُرُ بِرُوحِي تَطُوفُ

حَوْلَ تِلْكَ الحِجَارَةِ المُقَدَّسَةِ كُلَّمَا ضَاقَتْ بِي سُبُلُ الحَيَاةِ، فَأَجِدُ فِيهَا سَكِينَةَ الوَطَنِ الأَوَّلِ الَّذِي وُضِعَ لِلنَّاسِ جَمِيعًا دُونَ تَمْيِيزٍ. وَكَمْ تَاهَتْ خُطَايَ فِي مُدُنِ الصَّخَبِ وَالمَادَّةِ الَّتِي تَبْنِي نَاطِحَاتٍ مِنَ الإِسْمَنْتِ وَالزُّجَاجِ، ثُمَّ تَتْرُكُ الأَرْوَاحَ تَتَضَوَّرُ جُوعًا فِي صَحْرَاءِ الفَرَاغِ الرُّوحِيِّ. أَتَأَمَّلُ نَبْعَ المَاءِ الحَيِّ فِي قَلْبِ الصَّحْرَاءِ القَاحِلَةِ كَيْفَ تَهْوِي إِلَيْهِ الطُّيُورُ وَالقَوَافِلُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، فَيُحْيِي بِبَرَكَتِهِ القُلُوبَ الظَّمْأَى وَيُرْشِدُ التَّائِهِينَ إِلَى طَرِيقِ النَّجَاةِ. فَمَا أَعْظَمَ شَأْنَ هَذَا البَيْتِ المُبَارَكِ الَّذِي جَعَلَهُ الخَالِقُ مَنَارَةَ هِدَايَةٍ لِلْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، وَمَا أَبْهَى تِلْكَ السَّكِينَةَ الَّتِي تَعْمُرُ كُلَّ مَنْ يَمَّمَ وَجْهَهُ شَطْرَهُ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى قِبْلَةٍ دَاخِلِيَّةٍ تُوَحِّدُ شَتَاتَ رُوحِي، فَتَرْبِطُ قَلْبِي بِمَهْبِطِ الوَحْيِ وَمَنْبَعِ البَرَكَةِ الخَالِدَةِ. فَكُلُّ صَرْحٍ يُبْنَى لِغَيْرِ اللَّهِ تَذْرُوهُ رِيَاحُ الفَنَاءِ، وَلَا بَقَاءَ وَبَرَكَةَ إِلَّا لِلْبَيْتِ العَتِيقِ الَّذِي أَقَامَهُ اللَّهُ هُدًى لِلْعَالَمِينَ.

آيَاتُ الأَمَانِ وَفَرِيضَةُ الحَجِّ الكُبْرَى

صَدَى ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

عَلَى عَتَبَةِ الحَرَمِ الآمِنِ تَسْقُطُ سُيُوفُ الخَوْفِ وَتَتَلَاشَى مَخَالِبُ القَلَقِ، حَيْثُ تَشْهَدُ آثَارُ الخَلِيلِ عَلَى أَنَّ الطَّاعَةَ تَصْنَعُ مِنَ الصَّخْرِ الصَّمَّاءِ مِحْرَابًا لِلْأَمَانِ الأَبَدِيِّ. أَجِدُ فِي نَفْسِي شَوْقًا عَارِمًا لِتِلْكَ الرِّحْلَةِ المُقَدَّسَةِ الَّتِي يَتَجَرَّدُ فِيهَا الإِنْسَانُ مِنْ ثِيَابِ الدُّنْيَا وَأَلْقَابِهَا، لِيَقِفَ عَبْدًا خَاضِعًا فِي ضِيَافَةِ مَلِكِ المُلُوكِ. وَكَمْ بَحَثْتُ عَنِ الأَمَانِ فِي حُصُونِ الدُّنْيَا وَقِلَاعِهَا المَادِّيَّةِ فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا الوَجَلَ وَالتَّرَقُّبَ، حَتَّى عَلِمْتُ أَنَّ الأَمْنَ الحَقِيقِيَّ هُوَ هِبَةٌ يَمْنَحُهَا السَّلَامُ لِمَنْ دَخَلَ حِمَاهُ مُلَبِّيًا. أَرَى الأَسْرَابَ المُهَاجِرَةَ تَقْطَعُ القَارَّاتِ وَالبِحَارَ بِفِطْرَةٍ مُودَعَةٍ فِيهَا لِتَبْلُغَ مَوْطِنَ الدِّفْءِ وَالأَمَانِ، بَيْنَمَا يَتَثَاقَلُ بَعْضُ المُسْتَطِيعِينَ عَنْ تَلْبِيَةِ نِدَاءِ الحَجِّ بُخْلًا وَجُحُودًا. فَمَا أَكْرَمَ ضِيَافَةَ الرَّبِّ لِوُفُودِهِ المُشْتَاقِينَ إِلَى بَيْتِهِ الحَرَامِ، وَمَا أَعْظَمَ غِنَاهُ المُطْلَقَ عَنْ كُلِّ جَاحِدٍ يَظُنُّ أَنَّ طَاعَتَهُ تَزِيدُ فِي مُلْكِ السَّمَاوَاتِ شَيْئًا. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى زَادٍ لِلْمَسِيرِ نَحْوَ الحَقِّ، يُحَرِّرُنِي مِنَ التَّثَاقُلِ إِلَى الأَرْضِ وَيُشْعِلُ فِي رُوحِي جَذْوَةَ التَّلْبِيَةِ الصَّادِقَةِ. فَكُلُّ أَمَانٍ خَارِجَ حِمَى اللَّهِ هُوَ سَرَابٌ مُهَدَّدٌ بِالزَّوَالِ، وَلَا غِنَى وَلَا كَمَالَ إِلَّا لِلْخَالِقِ الغَنِيِّ عَنِ العَالَمِينَ.

صَدُّ العُمْيَانِ عَنْ نُورِ السَّبِيلِ

صَدَى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾

تَغْطِيَةُ عَيْنِ الشَّمْسِ بِغِرْبَالِ الأَوْهَامِ لَا يَحْجُبُ ضِيَاءَهَا عَنِ المُبْصِرِينَ، بَلْ يَفْضَحُ مَكْرَ مَنْ يُحَاوِلُ إِطْفَاءَ نُورِ الوَحْيِ تَحْتَ رَقَابَةِ السَّمَاءِ الَّتِي لَا تَغْفُلُ. أَشْعُرُ بِدَهْشَةٍ مُمْزُوجَةٍ بِالأَسَى وَأَنَا أَتَأَمَّلُ حَالَ مَنْ يَحْمِلُ الكِتَابَ بِيَدِهِ ثُمَّ يَجْحَدُ الآيَاتِ الَّتِي تُصَدِّقُ مَا مَعَهُ، كَأَنَّهُ يَهْدِمُ بَيْتَهُ بِيَدِهِ كَيْ لَا يَسْكُنَهُ غَيْرُهُ. وَكَمْ تَغْفُلُ النَّفْسُ البَشَرِيَّةُ فِي لَحَظَاتِ المَكْرِ وَالخُصُومَةِ عَنْ وُجُودِ الشَّهِيدِ المطَّلِعِ عَلَى خَفَايَا الصُّدُورِ، فَتَحْسَبُ أَنَّ تَزْيِيفَهَا لِلْحَقَائِقِ سَيَمُرُّ دُونَ حِسَابٍ أَوْ كَشْفٍ. أَتَأَمَّلُ السَّارِقَ الَّذِي يَتَسَلَّلُ فِي الظَّلَامِ لِيَطْمِسَ مَعَالِمَ الطَّرِيقِ أَمَامَ القَوَافِلِ، غَافِلًا عَنْ أَنَّ أَضْوَاءَ المَرَاقِبِ العُلْيَا تُسَجِّلُ كُلَّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِهِ بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ. فَمَا أَعْجَبَ هَذَا العِنَادَ الَّذِي يَدْفَعُ أَهْلَ الكِتَابِ إِلَى الكُفْرِ بِآيَاتٍ وَاضِحَةٍ كَالصُّبْحِ، وَمَا أَشَدَّ وَقْعَ شَهَادَةِ اللَّهِ عَلَى كُلِّ مَكْرٍ يُحَاكُ فِي الخَفَاءِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى مِرْآةٍ لِلْمُرَاقَبَةِ الذَّاتِيَّةِ تَمْنَعُنِي مِنْ مُكَابَرَةِ الحَقِّ، وَتُذَكِّرُنِي بِأَنَّ أَعْمَالِي كُلَّهَا مَكْشُوفَةٌ أَمَامَ الشَّهِيدِ الرَّقِيبِ. فَكُلُّ جُحُودٍ لِآيَاتِ السَّمَاءِ هُوَ فَضِيحَةٌ مَكْتُوبَةٌ فِي سِجِلِّ الغَيْبِ، وَلَا مَهْرَبَ لِمَاكِرٍ مِنْ شَهَادَةِ اللَّهِ المحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ.

قُطَّاعُ الطُّرُقِ عَلَى صِرَاطِ الهِدَايَةِ

صَدَى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

تَشْوِيهُ مَعَالِمِ الطَّرِيقِ المسْتَقِيمِ لِإِيقَاعِ السَّالِكِينَ فِي مُسْتَنْقَعَاتِ التِّيهِ جَرِيمَةٌ مُضَاعَفَةٌ، حِينَ يَرْتَكِبُهَا مَنْ يَعْرِفُ الجَادَّةَ الصَّحِيحَةَ وَيَشْهَدُ عَلَى اسْتِقَامَتِهَا. أَجِدُ فِي قَلْبِي غَيْرَةً عَلَى نُورِ الحَقِّ حِينَ أَرَى سِهَامَ التَّشْكِيكِ تُوَجَّهُ إِلَى قُلُوبِ المؤْمِنِينَ، لِتَصُدَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ النَّجَاةِ وَتَزْرَعَ العِوَجَ فِي طَرِيقِهِمُ الصَّافِي. وَكَمْ عَانَتْ رُوحِي فِي رِحْلَةِ البَحْثِ مِنْ ضَجِيجِ المشَكِّكِينَ الَّذِينَ يَضَعُونَ الأَشْوَاكَ فِي دُرُوبِ اليَقِينِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ فِي قَرَارَةِ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمُ المبْطِلُونَ الحَاسِدُونَ. أَرَى مَنْ يَسُمُّ البِئْرَ العَذْبَةَ فِي الوَاحَةِ كَيْ لَا يَرْتَوِيَ مِنْهَا العَابِرُونَ بَعْدَ أَنْ شَرِبَ مِنْهَا وَعَرَفَ طِيبَهَا، فَيَجْمَعُ بَيْنَ خِيَانَةِ المعْرِفَةِ وَعَدَاوَةِ الإِنْسَانِيَّةِ. فَمَا أَبْشَعَ أَنْ يَبْغِيَ العَالِمُ بِالحَقِّ عِوَجًا لِسَبِيلِ الهِدَايَةِ لِيُضِلَّ غَيْرَهُ، وَمَا أَعْظَمَ التَّهْدِيدَ الإِلَهِيَّ بِأَنَّ الرَّقِيبَ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَنْ مَكْرِهِمْ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى دِرْعٍ يَحْمِي يَقِينِي مِنْ شُبُهَاتِ الصَّادِّينَ، وَيَجْعَلُنِي دَلِيلَ خَيْرٍ يَفْتَحُ الطُّرُقَ لِلسَّائِرِينَ وَلَا يَسُدُّهَا. فَكُلُّ مُحَاوَلَةٍ لِتَعْوِيجِ صِرَاطِ اللَّهِ هِيَ خَسَارَةٌ مُحَقَّقَةٌ تَحْتَ عَيْنِ مَنْ لَا يَغْفُلُ وَلَا يَنَامُ، وَلَا ثَبَاتَ إِلَّا عَلَى الجَادَّةِ البَيْضَاءِ.

سُمُومُ التَّبَعِيَّةِ وَفِخَاخُ الِارْتِدَادِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾

تَسْلِيمُ مَقَاوِدِ القَلْبِ لِخُصُومِ النُّورِ يَقُودُ القَافِلَةَ حَتْمًا إِلَى حُفَرِ الظَّلَامِ وَالرِّدَّةِ، حَيْثُ يُسْرَقُ رَأْسُ مَالِ الإِنْسَانِ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ يُحْسِنُ صُنْعًا. أَشْعُرُ بِحَذَرٍ شَدِيدٍ يَتَسَلَّلُ إِلَى بَصِيرَتِي وَأَنَا أَسْمَعُ هَذَا النِّدَاءَ الإِلَهِيَّ المشْفِقَ، فَأُدْرِكُ أَنَّ الطَّاعَةَ الفِكْرِيَّةَ وَالوَلَاءَ لِأَهْلِ الزَّيْغِ هُمَا البَوَّابَةُ الخَفِيَّةُ لِانْسِلَاخِ الرُّوحِ عَنْ إِيمَانِهَا. وَكَمْ انْخَدَعَتْ قُلُوبٌ طَيِّبَةٌ بِزُخْرُفِ القَوْلِ وَمَعْسُولِ النَّصِيحَةِ مِنْ أَعْدَاءِ العَقِيدَةِ، فَتَنَازَلَتْ عَنْ ثَوَابِتِهَا جُزْءًا بَعْدَ جُزْءٍ حَتَّى اسْتَيْقَظَتْ عَارِيَةً مِنْ ثَوْبِ الإِيمَانِ. أَتَأَمَّلُ الشَّاةَ الوَدِيعَةَ الَّتِي تَتْبَعُ الذِّئْبَ المتَنَكِّرَ فِي ثِيَابِ الرَّاعِي طَاعَةً وَاسْتِسْلَامًا، فَلَا يَقُودُهَا إِلَّا إِلَى مَخَالِبِ الهَلَاكِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ فِي حِمَى القَطِيعِ الآمِنِ. فَمَا أَشَدَّ خَطَرَ طَاعَةِ الفَرِيقِ الحَاقِدِ الَّذِي لَا يَرْضَى لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَّا الِارْتِدَادَ عَنْ دِينِهِمْ، وَمَا أَحْوَجَ القَلْبَ إِلَى اليَقَظَةِ الدَّائِمَةِ لِحِمَايَةِ كَنْزِ الإِيمَانِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى حِصْنٍ فِكْرِيٍّ وَرُوحِيٍّ يَرْفُضُ التَّبَعِيَّةَ الذَّلِيلَةَ، وَيَصُونُ اسْتِقْلَالَ عَقِيدَتِي مِنْ كُلِّ اخْتِرَاقٍ نَاعِمٍ أَوْ مُبَاشِرٍ. فَكُلُّ طَاعَةٍ لِغَيْرِ مَنْهَجِ اللَّهِ هِيَ خُطْوَةٌ نَحْوَ القَهْقَرَى وَالكُفْرَانِ، وَلَا أَمَانَ لِلْإِيمَانِ إِلَّا بِالِاعْتِصَامِ بِالوَحْيِ وَحْدَهُ.

سِفْرُ الصَّدَى الحَادِي وَالعِشْرُونَ

حِصْنُ الوَحْيِ وَحَبْلُ الِاعْتِصَامِ

صَدَى ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٠١)

تَدَفُّقُ النُّورِ الإِلَهِيِّ فِي قَلْبِ الزَّمَانِ يَسُدُّ كُلَّ مَنَافِذِ الظُّلْمَةِ، وَيَجْعَلُ سُقُوطَ القَدَمِ فِي وَحْلِ الجُحُودِ غَرَابَةً تَسْتَنْكِرُهَا السَّمَاءُ وَالأَرْضُ. أَشْعُرُ بِدِفْءِ الأَمَانِ يَغْمُرُ رُوحِي وَأَنَا أَسْتَحْضِرُ مَعِيَّةَ الآيَاتِ المُتْلُوَّةِ وَهَدْيَ الرِّسَالَةِ الخَالِدَةِ، فَأَرَى كُلَّ شُبْهَةٍ تَتَبَدَّدُ كَالدُّخَانِ أَمَامَ هَذَا الحُضُورِ الرَّبَّانِيِّ المهِيبِ. وَكَمْ تَقَاذَفَتْنِي أَمْوَاجُ الحَيْرَةِ حِينَ تَرَاخَتْ قَبْضَتِي عَنْ عُرْوَةِ الوَحْيِ، قَبْلَ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ الِاعْتِصَامَ بِالخَالِقِ هُوَ الحَبْلُ الفُولاذِيُّ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ مَهْمَا عَصَفَتِ الرِّيَاحُ. أَرَى السَّفِينَةَ الرَّاسِيَةَ بِمِرْسَاتِهَا الصَّلْبَةِ فِي قَاعِ المِينَاءِ الآمِنِ كَيْفَ تَثْبُتُ فِي وَجْهِ الأَعَاصِيرِ الهَوْجَاءِ، بَيْنَمَا تَتَحَطَّمُ القَوَارِبُ التَّائِهَةُ عَلَى صُخُورِ التِّيهِ وَالضَّيَاعِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الإِنْكَارَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يُوقِظُ القُلُوبَ الغَافِلَةَ إِلَى عِظَمِ النِّعْمَةِ الحَاضِرَةِ بَيْنَ أَيْدِيهَا، وَمَا أَبْهَى تِلْكَ الهِدَايَةَ المِضْمُونَةَ لِكُلِّ مَنِ اسْتَمْسَكَ بِجَنَابِ الرَّحْمَنِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى قَبْضَةٍ لَا تَلِينُ عَلَى حَبْلِ السَّمَاءِ، فَتَسْتَقِيمُ خُطُوَاتِي عَلَى الجَادَّةِ الوَاضِحَةِ دُونَ تَرَدُّدٍ أَوِ انْحِرَافٍ. فَكُلُّ سَنَدٍ غَيْرُ اللَّهِ هُوَ خَيْطُ عَنْكَبُوتٍ تُمَزِّقُهُ أَنْفَاسُ الفَنَاءِ، وَلَا نَجَاةَ وَلَا اسْتِقَامَةَ إِلَّا لِمَنِ اعْتَصَمَ بِحَبْلِ اللَّهِ المَتِينِ.

وَقَارُ التَّقْوَى وَخَاتِمَةُ الإِسْلَامِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢)

يَقَظَةُ الضَّمِيرِ فِي مِحْرَابِ العُبُودِيَّةِ دِرْعٌ شَفَّافٌ يَحْمِي الرُّوحَ مِنْ سِهَامِ الغَفْلَةِ، وَيُبْقِي سِرَاجَ التَّسْلِيمِ مُتَّقِدًا حَتَّى يَنْطَفِئَ نَفَسُ الحَيَاةِ الأَخِيرُ. أَجِدُ فِي صَدْرِي رَهْبَةَ المسَافِرِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ بَوَّابَةَ الرَّحِيلِ قَدْ تُفْتَحُ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ، فَأَتَشَبَّثُ بِثَوْبِ الإِسْلَامِ خَشْيَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي المَوْتُ عَلَى غَيْرِ هَيْئَةِ الطَّاعَةِ وَالخُضُوعِ. وَكَمْ سَوَّفْتُ فِي سَالِفِ أَيَّامِي تَجْدِيدَ العَهْدِ مَعَ السَّمَاءِ ظَنًّا مِنِّي أَنَّ العُمْرَ مَمْدُودٌ بِغَيْرِ حِسَابٍ، حَتَّى أَيْقَظَنِي هَذَا النِّدَاءُ لِأُدْرِكَ أَنَّ المَوْتَ عَلَى الإِسْلَامِ ثَمَرَةُ الحَيَاةِ المتَّقِيَةِ كُلِّهَا. أَتَأَمَّلُ الشَّجَرَةَ البَاسِقَةَ الَّتِي تَشْرَبُ مَاءَ النَّقَاءِ طَوَالَ فُصُولِ السَّنَةِ فَتُثْمِرُ عِنْدَ الحَصَادِ طِيبًا وَعَسَلًا، بَيْنَمَا تُنْتِجُ الشَّجَرَةُ المهْمَلَةُ حَطَبًا يَابِسًا لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلنَّارِ. فَمَا أَعْظَمَ مَقَامَ التَّقْوَى الحَقَّةِ الَّتِي تُطَهِّرُ

السَّرِيرَةَ وَالعَلَنَ، وَمَا أَجْمَلَ تِلْكَ الخَاتِمَةَ الَّتِي يَلْقَى فِيهَا العَبْدُ رَبَّهُ بِقَلْبٍ مُسْلِمٍ سَلِيمٍ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى حَارِسٍ لَا يَنَامُ يُرَاقِبُ خُطُوَاتِي فِي كُلِّ نَفَسٍ، فَيَجْعَلُ حَيَاتِي كُلَّهَا اسْتِعْدَادًا صَادِقًا لِحُسْنِ الخِتَامِ. فَكُلُّ عُمْرٍ يَنْقَضِي بِغَيْرِ تَقْوَى اللَّهِ هُوَ حُلْمٌ عَابِرٌ يَنْتَهِي إِلَى النَّدَمِ، وَلَا فَوْزَ أَبَدِيًّا إِلَّا لِمَنْ غَادَرَ الدُّنْيَا وَهُوَ مِنَ المُسْلِمِينَ الصَّادِقِينَ.

حَبْلُ الأُخُوَّةِ وَانْتِشَالُ الغَرْقَى

صَدَى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠٣)

حَبْلُ السَّمَاءِ المَمْدُودُ إِلَى الأَرْضِ هُوَ العُرْوَةُ الوَحِيدَةُ الَّتِي تَجْمَعُ شَتَاتَ القُلُوبِ المُتَنَافِرَةِ، وَتَنْتَشِلُ الأَرْوَاحَ المُنْزَلِقَةَ مِنْ شَفَا هَاوِيَةِ النِّيرَانِ. إِنِّي أَلْمَسُ فِي جِدَارِ صَدْرِي أَثَرَ تِلْكَ اليَدِ الرَّحِيمَةِ الَّتِي أَطْفَأَتْ نِيرَانَ العَدَاوَةِ القَدِيمَةِ، وَصَهَرَتِ الجَلِيدَ بَيْنَ الأَفْئِدَةِ لِتَصْنَعَ مِنْهَا بُنْيَانًا مَرْصُوصًا يَسُودُهُ الوِدُّ وَالإِخَاءُ. وَكَمْ تَمَزَّقَتْ أَوْصَالُنَا حِينَ تَرَكْنَا أَهْوَاءَنَا تَسُوقُنَا إِلَى حَافَّةِ التَّهْلُكَةِ وَالتَّنَاحُرِ، فَكُنَّا كَالْعُمْيَانِ الَّذِينَ يَتَدَافَعُونَ نَحْوَ البِئْرِ السَّحِيقَةِ دُونَ أَنْ يُبْصِرُوا الهَلَاكَ المُحْدِقَ بِهِمْ. أَرَى قَطَرَاتِ المَطَرِ المُتَبَاعِدَةِ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ تَتَّحِدُ حِينَ تَلْتَقِي فِي مَجْرًى وَاحِدٍ فَتَصْنَعُ نَهْرًا عَظِيمًا يَسْقِي البِلَادَ وَيُحْيِي العِبَادَ، بَيْنَمَا تَجِفُّ القَطَرَاتُ المُتَفَرِّقَةُ عَلَى الرِّمَالِ المُحْرِقَةِ. فَمَا أَعْظَمَ نِعْمَةَ الأُلْفَةِ الَّتِي يَقْذِفُهَا الخَالِقُ فِي القُلُوبِ بَعْدَ طُولِ الشِّقَاقِ، وَمَا أَبْهَى هَذَا الإِنْقَاذَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يُبَيِّنُ لَنَا طَرِيقَ الهِدَايَةِ وَالسَّلَامِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى جِسْرٍ مِنَ المَحَبَّةِ يَصِلُنِي بِإِخْوَانِي فِي العَقِيدَةِ، فَيُذِيبُ أَنَانِيَّتِي فِي بَوْتَقَةِ الجَمَاعَةِ المُتَمَاسِكَةِ. فَكُلُّ تَفَرُّقٍ عَنْ مَنْهَجِ اللَّهِ هُوَ انْزِلَاقٌ نَحْوَ حُفْرَةِ الفَنَاءِ وَالعَذَابِ، وَلَا عِزَّةَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِالِاجْتِمَاعِ عَلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ الخَالِصَةِ.

مَنَارَةُ الأَمْرِ وَمِيزَانُ الفَلَاحِ

صَدَى ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤)

فِي ظُلُمَاتِ البَحْرِ المُتَلَاطِمِ لَا بُدَّ مِنْ مَنَارَةٍ شَاهِقَةٍ تَبْعَثُ أَشِعَّةَ الهِدَايَةِ لِلسُّفُنِ التَّائِهَةِ، وَتُحَذِّرُهَا مِنَ الِاصْطِدَامِ بِصُخُورِ الرَّذِيلَةِ وَالفَسَادِ. أَشْعُرُ بِثِقَلِ الأَمَانَةِ المُقَدَّسَةِ المُلْقَاةِ عَلَى عَاتِقِ كُلِّ ضَمِيرٍ حَيٍّ، فَأُدْرِكُ أَنَّ السُّكُوتَ عَنِ المُنْكَرِ صَدَأٌ يَأْكُلُ قَلْبَ المُجْتَمَعِ حَتَّى يُحِيلَهُ إِلَى رُكَامٍ هَشٍّ. وَكَمْ

مَرَرْتُ فِي غَفْلَتِي بِمَشَاهِدِ الزَّيْغِ وَالانْحِرَافِ مُتَوَهِّمًا أَنَّ السَّلَامَةَ تَكْمُنُ فِي العُزْلَةِ وَالصَّمْتِ، قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ أَنَّ الفَلَاحَ الحَقِيقِيَّ مَرْهُونٌ بِالشَّهَادَةِ الصَّادِقَةِ لِلْخَيْرِ وَالمَعْرُوفِ. أَتَأَمَّلُ الحَارِسَ اليَقِظَ عَلَى أَسْوَارِ المَدِينَةِ كَيْفَ يَرْصُدُ كُلَّ ثَغْرَةٍ يَتَسَلَّلُ مِنْهَا العَدُوُّ فَيَسُدُّهَا بِعَزْمٍ وَحِكْمَةٍ، لِيَنَامَ الأَهْلُ فِي أَمَانٍ وَتَزْدَهِرَ الحَيَاةُ دَاخِلَ الحُصُونِ. فَمَا أَشْرَفَ رِسَالَةَ الدُّعَاةِ إِلَى الخَيْرِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ مَشَاعِلَ الإِصْلَاحِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَمَا أَعْظَمَ البُشْرَى الإِلَهِيَّةَ الَّتِي تَخْتِمُ سَعْيَهُمْ بِوِسَامِ الفَلَاحِ الأَبَدِيِّ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى نَبْضٍ إِيجَابِيٍّ يَدْفَعُنِي لِإِحْيَاءِ المَعْرُوفِ وَإِمَاتَةِ المُنْكَرِ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، فَأَكُونُ لَبِنَةً صَالِحَةً فِي بِنَاءِ الأُمَّةِ المُفْلِحَةِ. فَكُلُّ سَلْبِيَّةٍ أَمَامَ البَاطِلِ هِيَ تَخَلٍّ عَنْ رِسَالَةِ الِاسْتِخْلَافِ فِي الأَرْضِ، وَلَا فَلَاحَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا لِمَنْ جَعَلَ حَيَاتَهُ دَعْوَةً صَادِقَةً إِلَى النُّورِ وَالحَقِّ.

شُؤْمُ الشِّقَاقِ بَعْدَ وُضُوحِ البَيِّنَاتِ

صَدَى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥)

تَمْزِيقُ ثَوْبِ الحَقِيقَةِ الوَاحِدِ بَعْدَ إِشْرَاقِ البَيِّنَاتِ السَّاطِعَةِ جِنَايَةٌ كُبْرَى تَجُرُّ عَلَى أَصْحَابِهَا وَبَالَ الشَّتَاتِ فِي الدُّنْيَا وَسَعِيرَ العَذَابِ العَظِيمِ فِي الآخِرَةِ. أَرْتَعِدُ خَوْفًا مِنْ دَاءِ الجَدَلِ العَقِيمِ وَالتَّعَصُّبِ الأَعْمَى الَّذِي يَحُوِّلُ النُّورَ الجَامِعَ إِلَى سُيُوفٍ مُتَنَاحِرَةٍ، فَتَضِيعُ البَيِّنَاتُ فِي غُبَارِ الخُصُومَاتِ وَالأَهْوَاءِ. وَكَمْ شَهِدْتُ فِي مَسِيرَةِ الأُمَمِ كَيْفَ يَتَحَوَّلُ الِاخْتِلَافُ بَعْدَ وُضُوحِ الحُجَّةِ إِلَى مِعْوَلِ هَدْمٍ يُقَوِّضُ أَرْكَانَ الحَضَارَاتِ، وَيُحِيلُ القُلُوبَ المُتَآخِيَةَ إِلَى جُزُرٍ مُتَبَاغِضَةٍ. أَرَى المِرْآةَ الصَّافِيَةَ الَّتِي تَعْكِسُ وَجْهَ الشَّمْسِ كَامِلًا كَيْفَ تَتَحَوَّلُ إِذَا كُسِرَتْ إِلَى شَظَايَا مُتَنَاثِرَةٍ تَجْرَحُ الأَيْدِي وَلَا تُعْطِي صُورَةً صَحِيحَةً أَبَدًا. فَمَا أَقْبَحَ أَنْ يَتَفَرَّقَ النَّاسُ بَعْدَ أَنْ جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ كَالشَّمْسِ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ، وَمَا أَشَدَّ الوَعِيدَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَنْتَظِرُ صُنَّاعَ الفُرْقَةِ وَالشِّقَاقِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى مِيزَانٍ يَضْبِطُ عَقْلِي وَقَلْبِي عِنْدَ كُلِّ خِلَافٍ، فَيَرُدُّنِي إِلَى صَفَاءِ البَيِّنَةِ الأُولَى وَيُبْعِدُنِي عَنْ مَزَالِقِ التَّشَرْذُمِ. فَكُلُّ اخْتِلَافٍ يَقُومُ عَلَى الهَوَى بَعْدَ وُضُوحِ الحَقِّ هُوَ خُسْرَانٌ مُبِينٌ، وَلَا سَلَامَةَ مِنَ العَذَابِ العَظِيمِ إِلَّا بِالوُقُوفِ صَفًّا وَاحِدًا تَحْتَ رَايَةِ الوَحْيِ.

تَبَايُنُ الوُجُوهِ فِي يَوْمِ الحِسَابِ

صَدَى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٠٦)

عَلَى مَسْرَحِ القِيَامَةِ المهِيبِ تَتَجَلَّى سَرَائِرُ القُلُوبِ أَلْوَانًا سَاطِعَةً عَلَى الجِبَاهِ، فَيُشْرِقُ البَيَاضُ كَالبَدْرِ عَلَى وُجُوهِ الصَّادِقِينَ وَيُخَيِّمُ السَّوَادُ كَاللَّيْلِ البَهِيمِ عَلَى وُجُوهِ النَّاكِثِينَ. أَضَعُ يَدِي عَلَى وَجْهِي وَأَنَا أَتَصَوَّرُ تِلْكَ اللَّحْظَةَ الفَاصِلَةَ الَّتِي تُفْضَحُ فِيهَا كُلُّ الأَقْنِعَةِ المزَيَّفَةِ، فَأَسْأَلُ نَفْسِي بِوَجَلٍ عَنِ اللَّوْنِ الَّذِي تَصْنَعُهُ أَعْمَالِي اليَوْمَ لِغَدٍ لَا رَيْبَ فِيهِ. وَكَمْ انْشَغَلَتِ النُّفُوسُ فِي دَارِ الفَنَاءِ بِتَجْمِيلِ المظَاهِرِ الخَارِجِيَّةِ وَتَبْيِيضِ الصُّوَرِ أَمَامَ أَعْيُنِ الخَلْقِ، غَافِلَةً عَنْ أَنَّ البَيَاضَ الحَقِيقِيَّ يُصْنَعُ فِي مَحَارِيبِ الإِيمَانِ وَالثَّبَاتِ. أَتَأَمَّلُ القَمَرَ المنِيرَ الَّذِي يَسْتَمِدُّ بَيَاضَهُ مِنْ مَوَاجَهَةِ الشَّمْسِ المبَاشِرَةِ، بَيْنَمَا يَبْقَى الجَانِبُ المدْبِرُ عَنِ الضِّيَاءِ غَارِقًا فِي عَتْمَةٍ مُطْبِقَةٍ لَا نُورَ فِيهَا. فَمَا أَقْسَى ذَلِكَ التَّوْبِيخَ الإِلَهِيَّ لِمَنْ بَاعَ نُورَ إِيمَانِهِ بِظُلْمَةِ الكُفْرَانِ وَالرِّدَّةِ، وَمَا أَمَرَّ مَذَاقَ العَذَابِ الَّذِي يَجْنِيهِ الجَاحِدُونَ ثَمَرَةً لِخِيَانَةِ العَهْدِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى مِرْآةٍ أَبَدِيَّةٍ أَنْظُرُ فِيهَا إِلَى مَآلِ كُلِّ فِعْلٍ وَنِيَّةٍ، فَأَسْعَى لِتَنْقِيَةِ قَلْبِي مِنَ النِّفَاقِ كَيْ يَشِعَّ وَجْهِي بِنُورِ اليَقِينِ يَوْمَ العَرْضِ. فَكُلُّ زِينَةٍ أَرْضِيَّةٍ تَتَلَاشَى عِنْدَ نَفْحَةِ الصُّورِ، وَلَا بَيَاضَ لِلْوُجُوهِ غَدًا إِلَّا بِصِدْقِ الإِيمَانِ وَالثَّبَاتِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ.

رِحَابُ الرَّحْمَةِ وَخُلُودُ النَّعِيمِ

صَدَى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٠٧)

إِشْرَاقَةُ النُّورِ عَلَى وُجُوهِ الأَبْرَارِ هِيَ بَوَّابَةُ العُبُورِ إِلَى جَنَّاتِ الرَّحْمَةِ الوَاسِعَةِ، حَيْثُ يَسْتَقِرُّ القَلْبُ فِي دَارِ الأَمَانِ الأَبَدِيِّ بَعْدَ طُولِ السَّفَرِ وَالمكَابَدَةِ. أَشْعُرُ بِنَسَمَاتِ السَّكِينَةِ تَهُبُّ عَلَى رُوحِي وَأَنَا أَتَأَمَّلُ هَذَا المآلَ الكَرِيمَ، فَيَهُونُ فِي عَيْنِي كُلُّ تَعَبٍ أَلْقَاهُ فِي سَبِيلِ الحَقِّ طَمَعًا فِي الانْغِمَاسِ فِي بَحْرِ الرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ. وَكَمْ أَرْهَقَتْنِي شَوَاغِلُ الدُّنْيَا وَكَدَرُهَا حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ الرَّاحَةَ سَرَابٌ لَا يُدْرَكُ، فَجَاءَتْ هَذِهِ البُشْرَى لِتُؤَكِّدَ أَنَّ الرَّاحَةَ الحَقِيقِيَّةَ هِيَ الخُلُودُ فِي رَحْمَةِ الرَّحْمَنِ الَّتِي لَا تَنْفَدُ وَلَا تَزُولُ. أَرَى الطَّيْرَ المتْعَبَ الَّذِي قَطَعَ البِحَارَ وَالقِفَارَ فِي العَوَاصِفِ كَيْفَ يَحُطُّ أَخِيرًا فِي حَدِيقَةٍ غَنَّاءَ يَفِيضُ فِيهَا المَاءُ وَالظِّلُّ وَالأَمَانُ، فَيَنْسَى كُلَّ مَشَقَّةٍ مَرَّتْ بِهِ فِي الطَّرِيقِ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ الخَالِقِ الَّذِي يُكَلِّلُ جِهَادَ المؤْمِنِينَ بِبَيَاضِ الوُجُوهِ وَالخُلُودِ فِي رَحْمَتِهِ، وَمَا أَجْمَلَ تِلْكَ الحَيَاةَ الَّتِي لَا يَعْتَرِيهَا مَوْتٌ وَلَا حُزْنٌ وَلَا انْقِطَاعٌ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى وَقُودٍ رُوحِيٍّ يَدْفَعُنِي لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالصَّبْرِ الجَمِيلِ، طَمَعًا فِي أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الوُجُوهِ المشْرِقَةِ الخَالِدِينَ فِي كَنَفِ الرَّحْمَةِ. فَكُلُّ نَعِيمٍ فِي هَذِهِ الأَرْضِ ظِلٌّ زَائِلٌ يَنْقَضِي بِطَرْفَةِ عَيْنٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا سَعَادَةَ تَامَّةَ إِلَّا فِي جِوَارِ اللَّهِ وَفِي رِحَابِ رَحْمَتِهِ الوَاسِعَةِ.

مِيزَانُ الحَقِّ وَنَزَاهَةُ القَضَاءِ الإِلَهِيِّ

صَدَى ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٨)

كَلِمَاتُ الوَحْيِ المُنَزَّلَةُ سِهَامٌ مِنَ النُّورِ تَنْطَلِقُ بِالعَدْلِ المُطْلَقِ، لِتُقِيمَ قِسْطَاسَ الحَقِّ فِي الأَرْضِ وَتُنَزِّهَ سَاحَةَ الخَالِقِ عَنْ كُلِّ ذَرَّةِ ظُلْمٍ أَوْ جَوْرٍ. أَشْعُرُ بِطُمَأْنِينَةٍ عَمِيقَةٍ تَسْرِي فِي مَفَاصِلِ عَقْلِي وَقَلْبِي وَأَنَا أُصْغِي إِلَى هَذَا التَّقْرِيرِ الإِلَهِيِّ الحَاسِمِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ مَا يَجْرِي فِي مَلَكُوتِ الوُجُودِ مَبْنِيٌّ عَلَى العَدْلِ وَالحِكْمَةِ البَالِغَةِ. وَكَمْ تَسَلَّلَتِ الوَسَاوِسُ إِلَى النُّفُوسِ الضَّعِيفَةِ عِنْدَ نُزُولِ البَلَاءِ أَوْ تَفَاوُتِ الأَرْزَاقِ، فَتَوَهَّمَتْ فِي قَسْوَةِ المِحْنَةِ غِيَابَ العَدْلِ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ لَهَا الآيَاتُ أَنَّ الظُّلْمَ مُسْتَحِيلٌ فِي حَقِّ رَبِّ العَالَمِينَ. أَتَأَمَّلُ المِيزَانَ الذَّهَبِيَّ الدَّقِيقَ الَّذِي لَا يَمِيلُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً وَلَوْ وُضِعَتْ فِيهِ ذَرَّةُ غُبَارٍ، فَأَرَى فِي نِظَامِ الكَوْنِ وَشَرِيعَةِ السَّمَاءِ دِقَّةً أَعْظَمَ وَعَدْلًا أَشْمَلَ يَحْفَظُ حَقَّ كُلِّ مَخْلُوقٍ. فَمَا أَصْدَقَ تِلَاوَةَ الحَقِّ الَّتِي تَجْلُو الصَّدَأَ عَنِ البَصَائِرِ وَتُثَبِّتُ اليَقِينَ فِي الصُّدُورِ، وَمَا أَعْظَمَ تَنَزُّهَ الرَّبِّ الغَنِيِّ عَنْ إِرَادَةِ الظُّلْمِ لِأَيِّ كَائِنٍ فِي العَالَمِينَ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى رِضًا مُطْلَقٍ بِأَقْدَارِ السَّمَاءِ وَأَحْكَامِهَا، فَيَسْكُنُ قَلْبِي إِلَى عَدْلِ الخَالِقِ الَّذِي لَا يَضِيعُ عِنْدَهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ. فَكُلُّ شَكٍّ فِي عَدَالَةِ التَّدْبِيرِ الإِلَهِيِّ هُوَ جَهْلٌ بِحَقِيقَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَلَا حُكْمَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَعْدَلُ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ العَلِيمِ الحَكِيمِ.

سُلْطَانُ المُلْكِ وَمَرْجِعُ الأُمُورِ

صَدَى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (١٠٩)

مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرَضِينَ كُلِّهَا مَقْبُوضَةٌ فِي يَمِينِ المَالِكِ الوَاحِدِ، وَإِلَيْهِ تَعُودُ خُيُوطُ المَصَائِرِ وَالأَحْدَاثِ بَعْدَ أَنْ تَكْتَمِلَ دَوْرَةُ الزَّمَانِ. أَجِدُ فِي وَجْدَانِي تَحَرُّرًا كَامِلًا مِنْ خَوْفِ المَخْلُوقِينَ وَسَطْوَةِ الأَسْبَابِ الفَانِيَةِ، حِينَ أُوقِنُ أَنَّ كُلَّ ذَرَّةٍ فِي الكَوْنِ هِيَ مِلْكٌ خَالِصٌ لِلْخَالِقِ وَأَنَّ المَرْجِعَ النِّهَائِيَّ إِلَيْهِ وَحْدَهُ. وَكَمْ تَعَلَّقَ قَلْبِي فِي سَالِفِ أَيَّامِي بِأَبْوَابِ البَشَرِ وَأَوْهَامِ السُّلْطَةِ وَالمَالِ، فَذُقْتُ مَرَارَةَ الخَيْبَةِ حَتَّى أَدْرَكْتُ أَنَّهُمْ مَمْلُوكُونَ عَاجِزُونَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا. أَرَى الأَنْهَارَ وَالجَدَاوِلَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي تَتَفَرَّعُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ عَبْرَ القَارَّاتِ كَيْفَ تَعُودُ جَمِيعُهَا فِي النِّهَايَةِ لِتَصُبَّ فِي البَحْرِ الكَبِيرِ الَّذِي انْبَثَقَتْ مِنْهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ. فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ المَلْكِيَّةَ المُطْلَقَةَ الَّتِي لَا يُنَازِعُ الخَالِقَ فِيهَا شَرِيكٌ وَلَا ظَهِيرٌ، وَمَا أَرْوَعَ انْتِهَاءَ الأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى حَضْرَةِ العَدْلِ وَالحِكْمَةِ العُلْيَا. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى مَلْجَأٍ أَمِينٍ أُفَوِّضُ فِيهِ أَمْرِي كُلَّهُ لِلْمَالِكِ الحَقِّ، فَتَهْدَأُ عَوَاصِفُ القَلَقِ فِي

دَاخِلِي وَيَسْتَقِرُّ يَقِينِي. فَكُلُّ مُلْكٍ يَدَّعِيهِ البَشَرُ هُوَ عَارِيَةٌ مُسْتَرَدَّةٌ عِنْدَ المَوْتِ، وَلَا دَوَامَ وَلَا مَرْجِعَ لِلْخَلَائِقِ وَالأَقْدَارِ إِلَّا إِلَى اللهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ.

شَرَفُ الخَيْرِيَّةِ وَرِسَالَةُ الشَّهَادَةِ

صَدَى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١١٠)

وِسَامُ الخَيْرِيَّةِ المَمْنُوحُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ لَيْسَ تَشْرِيفًا أَجْوَفَ يُتَغَنَّى بِهِ فِي المَحَافِلِ، بَلْ هُوَ تَكْلِيفٌ رُوحِيٌّ وَأَخْلَاقِيٌّ يَقُومُ عَلَى الإِصْلَاحِ وَالإِيمَانِ الصَّادِقِ لِإِنْقَاذِ البَشَرِيَّةِ. أَشْعُرُ بِعِزَّةِ الِانْتِمَاءِ المَمْزُوجَةِ بِهَيْبَةِ المَسْؤُولِيَّةِ وَأَنَا أَقْرَأُ هَذِهِ الشَّهَادَةَ السَّمَاوِيَّةَ، فَأُدْرِكُ أَنَّ خَيْرِيَّتَنَا تَبْقَى مَرْهُونَةً بِقِيَامِنَا بِوَاجِبِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ. وَكَمْ تَرَاجَعَتْ خُطُوَاتُنَا حِينَ اكْتَفَيْنَا بِفَخْرِ الِانْتِسَابِ وَتَرَكْنَا رِسَالَةَ الإِخْرَاجِ لِلنَّاسِ، فَبَقِيَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ غَارِقِينَ فِي فُسُوقِهِمْ لِغِيَابِ النَّمُوذَجِ الحَيِّ الَّذِي يَجْذِبُهُمْ إِلَى نُورِ الإِيمَانِ. أَتَأَمَّلُ السِّرَاجَ المُنِيرَ الَّذِي يُوضَعُ فِي وَسَطِ الدَّارِ المُظْلِمَةِ فَيُضِيءُ زَوَايَاهَا كُلَّهَا وَيَهْدِي أَهْلَهَا، فَلَوْ انْطَفَأَتْ فَتِيلَتُهُ لَفَقَدَ قِيمَتَهُ وَصَارَ قِطْعَةً مِنَ الزُّجَاجِ البَارِدِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الشَّرَفَ الَّذِي يَجْعَلُ المُؤْمِنِينَ رَحْمَةً مُهْدَاةً لِلْعَالَمِينَ، وَمَا أَخْسَرَ الفَاسِقِينَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْ خَيْرِ الإِيمَانِ وَآثَرُوا التَّمَرُّدَ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي قَلْبِي إِلَى عَهْدٍ عَمَلِيٍّ أُجَدِّدُ بِهِ إِيمَانِي وَأَسْعَى لِنَفْعِ النَّاسِ، لِأَكُونَ جَدِيرًا بِشَرَفِ الِانْتِمَاءِ إِلَى خَيْرِ أُمَّةٍ. فَكُلُّ أُمَّةٍ تَتَخَلَّى عَنْ رِسَالَةِ الإِصْلَاحِ وَالإِيمَانِ تَفْقِدُ مَكَانَتَهَا تَحْتَ الشَّمْسِ، وَلَا خَيْرِيَّةَ حَقِيقِيَّةَ إِلَّا بِالِارْتِبَاطِ الوَثِيقِ بِمَنْهَجِ اللهِ وَخِدْمَةِ خَلْقِهِ.

عَجْزُ الخُصُومِ وَضَعْفُ الكَيْدِ

صَدَى ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ (١١١)

ضَجِيجُ الأَعْدَاءِ وَمَكْرُهُمْ زَبَدٌ عَابِرٌ يَتَلَاشَى عَلَى صَخْرَةِ اليَقِينِ، فَلَا يَمْلِكُ أَنْ يَمَسَّ جَوْهَرَ العَقِيدَةِ إِلَّا بِأَذًى سَطْحِيٍّ يَزُولُ كَسَحَابَةِ صَيْفٍ. أَشْعُرُ بِسَكِينَةٍ تَمْلَأُ صَدْرِي وَتُبَدِّدُ أَوْهَامَ الخَوْفِ مِنْ تَكَالُبِ الخُصُومِ، حِينَ أَسْمَعُ هَذَا الوَعْدَ الإِلَهِيَّ القَاطِعَ بِأَنَّ كَيْدَهُمْ مَقْصُورٌ عَلَى الأَذَى العَابِرِ وَأَنَّ مَآلَهُمُ الفِرَارُ وَالخِذْلَانُ. وَكَمْ أَخَافَتْنِي فِي سَالِفِ أَيَّامِي أَصْوَاتُ التَّهْدِيدِ وَضَجِيجُ البَاطِلِ المُتَضَخِّمِ فِي الآفَاقِ، قَبْلَ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ البَاطِلَ هَشٌّ مِنْ دَاخِلِهِ وَيَحْمِلُ بُذُورَ هَزِيمَتِهِ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ. أَرَى الجَبَلَ الأَشَمَّ الَّذِي تَضْرِبُهُ الرِّيَاحُ العَاتِيَةُ وَالحَصَى المُتَطَايِرُ فَلَا يَزْدَادُ إِلَّا ثَبَاتًا وَرُسُوخًا، بَيْنَمَا تَتَبَدَّدُ

العَاصِفَةُ فِي الفَرَاغِ دُونَ أَنْ تُزَحْزِحَ مِنْهُ صَخْرَةً وَاحِدَةً. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّثْبِيتَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي يَزْرَعُ الشَّجَاعَةَ فِي قُلُوبِ المؤْمِنِينَ، وَمَا أَذَلَّ مَصِيرَ المعْتَدِينَ الَّذِينَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ مَخْذُولِينَ بِلَا نَاصِرٍ وَلَا مُعِينٍ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى قُوَّةٍ دَاخِلِيَّةٍ تَسْتَصْغِرُ مَكْرَ الخُصُومِ، فَأَمْضِي فِي طَرِيقِ الحَقِّ ثَابِتَ الجَنَانِ وَاثِقًا بِنَصْرِ السَّمَاءِ. فَكُلُّ كَيْدٍ يُحَاكُ ضِدَّ أَهْلِ الإِيمَانِ هُوَ صَرْخَةٌ فِي وَادٍ سَحِيقٍ، وَلَا نَصْرَ وَلَا غَلَبَةَ فِي نِهَايَةِ المطَافِ إِلَّا لِجُنْدِ اللَّهِ الصَّابِرِينَ.

لَعْنَةُ الذِّلَّةِ وَحِبَالُ الأَمَانِ

صَدَى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (١١٢)

الخُرُوجُ عَنْ مِيثَاقِ السَّمَاءِ وَالِاجْتِرَاءُ عَلَى دِمَاءِ الأَنْبِيَاءِ يَكْسُو الرُّوحَ ثَوْبًا مِنَ الذِّلَّةِ وَالمسْكَنَةِ، فَلَا تَجِدُ لَهَا كَرَامَةً فِي أَيِّ بُقْعَةٍ تَحُلُّ فِيهَا إِلَّا أَنْ تَتَعَلَّقَ بِحَبْلِ عَهْدٍ أَوْ ذِمَّةٍ. أَشْعُرُ بِرَهْبَةِ العَدْلِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يَرْبِطُ بَيْنَ العِصْيَانِ وَالِاعْتِدَاءِ وَبَيْنَ الهَوَانِ الأَبَدِيِّ، فَأُدْرِكُ أَنَّ العِزَّةَ لَيْسَتْ سِلْعَةً تُشْتَرَى بَلْ هِيَ نُورٌ يَمْنَحُهُ الخَالِقُ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ وَالوَفَاءِ. وَكَمْ رَأَيْتُ فِي تَقَلُّبَاتِ التَّارِيخِ قُوًى تَتَجَبَّرُ وَتَعْتَدِي عَلَى الحُقُوقِ وَالمقَدَّسَاتِ، ثُمَّ تَنْكَمِشُ مَذْعُورَةً تَبْحَثُ عَنْ حِبَالِ الحِمَايَةِ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ بَعْدَ أَنْ أَحَاطَ بِهَا الغَضَبُ الإِلَهِيُّ. أَتَأَمَّلُ الغُصْنَ المقْطُوعَ عَنْ جِذْعِ الشَّجَرَةِ الأُمِّ كَيْفَ يَذْبُلُ وَتَدُوسُهُ الأَقْدَامُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَلَا يَقِفُ إِلَّا إِذَا أُسْنِدَ إِلَى جِدَارٍ أَوْ رُبِطَ بِحَبْلٍ خَارِجِيٍّ يَمْنَعُ سُقُوطَهُ فِي التُّرَابِ. فَمَا أَعْدَلَ هَذَا الجَزَاءَ الَّذِي يُلَاحِقُ مَنْ كَفَرَ بِآيَاتِ السَّمَاءِ وَقَتَلَ دُعَاةَ الحَقِّ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَمَا أَشَدَّ شُؤْمَ المعْصِيَةِ وَالِاعْتِدَاءِ عَلَى عِزَّةِ الإِنْسَانِ وَكَرَامَتِهِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى مِيزَانٍ لِصِيَانَةِ الكَرَامَةِ عَبْرَ طَاعَةِ الخَالِقِ وَاجْتِنَابِ الظُّلْمِ، فَأَطْلُبُ العِزَّةَ مِنْ مَنْبَعِهَا الصَّافِي وَلَا أَرْكَنُ إِلَى حِبَالِ الوَهْمِ. فَكُلُّ تَمَرُّدٍ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ هُوَ اسْتِجْلَابٌ لِلذِّلَّةِ وَالمسْكَنَةِ فِي الدَّارَيْنِ، وَلَا عِزَّةَ حَقِيقِيَّةَ إِلَّا فِي ظِلِّ الإِيمَانِ وَالعَدْلِ.

إِنْصَافُ الوَحْيِ وَقِيَامُ الأَبْرَارِ

صَدَى ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣)

عَدَالَةُ السَّمَاءِ لَا تَأْخُذُ البَرِيءَ بِجَرِيرَةِ المجْرِمِ، بَلْ تَفْرِزُ بِمِيزَانِ النُّورِ تِلْكَ الثُّلَّةَ الصَّادِقَةَ الَّتِي تُحْيِي

ظُلْمَةَ اللَّيْلِ بِالتِّلَاوَةِ وَالسُّجُودِ الخَاشِعِ. أَشْعُرُ بِانْشِرَاحٍ وَإِكْبَارٍ لِهَذَا الإِنْصَافِ القُرْآنِيّ الفَرِيدِ الَّذِي يُمَيِّزُ بَيْنَ الخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ حَتَّى فِي صُفُوفِ الخُصُومِ، فَيُعَلِّمُنِي أَلَّا أُطْلِقَ الأَحْكَامَ الجَائِرَةَ دُونَ تَمْيِيزٍ وَعَدْلٍ. وَكَمْ جَرَفَتْنِي العَاطِفَةُ فِي سَالِفِ أَيَّامِي إِلَى التَّعْمِيمِ القَاسِي عِنْدَ الخُصُومَةِ، قَبْلَ أَنْ يُهَذِّبَنِي الوَحْيُ بِقَوْلِهِ الفَاصِلِ لَيْسُوا سَوَاءً، فَأَبْصَرْتُ نُورَ الصَّادِقِينَ السَّاجِدِينَ فِي عَتْمَةِ الأَسْحَارِ. أَرَى الجَوْهَرَةَ النَّفِيسَةَ الَّتِي تَلْمَعُ فِي قَاعِ المُنْجَمِ المُظْلِمِ كَيْفَ يَسْتَخْرِجُهَا الصَّائِغُ الخَبِيرُ بِرِفْقٍ وَتَقْدِيرٍ، فَلَا يُلْقِيهَا مَعَ التُّرَابِ وَالحِجَارَةِ الصَّمَّاءِ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ قِيمَتَهَا الحَقِيقِيَّةَ. فَمَا أَرْوَعَ مَشْهَدَ تِلْكَ الأُمَّةِ القَائِمَةِ الَّتِي تَتْلُو آيَاتِ الرَّبِّ آنَاءَ اللَّيْلِ وَجِبَاهُهَا سَاجِدَةٌ عَلَى عَتَبَاتِ العُبُودِيَّةِ، وَمَا أَعْدَلَ شَهَادَةَ القُرْآنِ لَهُمْ بِالصِّدْقِ وَالِاسْتِقَامَةِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى مَنْهَجٍ لِلْإِنْصَافِ وَالعَدْلِ مَعَ كُلِّ النَّاسِ، وَتُشْعِلُ فِي قَلْبِي شَوْقَ التَّهَجُّدِ وَالسُّجُودِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ البَهِيمِ. فَكُلُّ حُكْمٍ يَخْلُو مِنَ العَدْلِ وَالتَّمَيُّزِ هُوَ جَوْرٌ تَأْبَاهُ شَرِيعَةُ اللهِ، وَلَا يَضِيعُ عِنْدَ الخَالِقِ سُجُودُ عَبْدٍ أَخْلَصَ لَهُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ.

سِبَاقُ الصَّالِحِينَ فِي مَيَادِينِ الخَيْرِ

صَدَى ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٤)

الإِيمَانُ الحَيُّ لَيْسَ سُكُونًا بَارِدًا فِي زَوَايَا القَلْبِ، بَلْ هُوَ طَاقَةٌ مُتَدَفِّقَةٌ تَدْفَعُ صَاحِبَهَا لِلْمُسَارَعَةِ فِي الخَيْرَاتِ كَالسَّيْلِ العَذْبِ الَّذِي يُحْيِي كُلَّ أَرْضٍ يَمُرُّ بِهَا. أَجِدُ فِي صَدْرِي غِبْطَةً نَقِيَّةً وَأَنَا أَتَأَمَّلُ أَوْصَافَ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ يَقِينِ القَلْبِ وَحَرَكَةِ الإِصْلَاحِ وَالمُبَادَرَةِ إِلَى كُلِّ مَكْرُمَةٍ، فَأَسْتَحِي مِنْ تَبَاطُئِي وَتَرَدُّدِي عِنْدَ أَبْوَابِ البِرِّ. وَكَمْ أَضَعْتُ مِنْ فُرَصِ العَطَاءِ وَالخَيْرِ بِسَبَبِ التَّسْوِيفِ وَالِانْتِظَارِ، حَتَّى عَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ سِمَةَ الصَّالِحِينَ هِيَ المسَارَعَةُ وَالسَّبْقُ قَبْلَ أَنْ تَنْغَلِقَ أَبْوَابُ الفُرَصِ. أَتَأَمَّلُ الغَيْثَ المُنْهَمِرَ مِنَ السَّمَاءِ كَيْفَ يُسَارِعُ إِلَى شُقُوقِ الأَرْضِ العَطْشَى لِيُرْوِيَ البُذُورَ الكَامِنَةَ فِيهَا دُونَ إِبْطَاءٍ، فَتَتَفَتَّحُ الرِّيَاضُ بِالأَزْهَارِ وَالثِّمَارِ فِي لَحَظَاتٍ. فَمَا أَجْمَلَ هَذَا التَّكَامُلَ بَيْنَ الإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ وَالمسَارَعَةِ فِي الخَيْرَاتِ، وَمَا أَشْرَفَ شَهَادَةَ السَّمَاءِ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى مِضْمَارِ سِبَاقٍ رُوحِيٍّ أُبَادِرُ فِيهِ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ دُونَ تَلَكُّؤٍ، لِأَلْحَقَ بِرَكْبِ الصَّالِحِينَ المسَارِعِينَ إِلَى مَرْضَاةِ

الرَّبِّ. فَكُلُّ تَبَاطُؤٍ عَنْ فِعْلِ المَعْرُوفِ هُوَ خَسَارَةٌ لِرَصِيدِ العُمْرِ الفَانِي، وَلَا رِفْعَةَ فِي مِيزَانِ اللَّهِ إِلَّا لِمَنْ سَارَعَ فِي الخَيْرَاتِ بِقَلْبٍ مُؤْمِنٍ مُخْلِصٍ.

خُلُودُ العَمَلِ وَعِلْمُ الخَبِيرِ

صَدَى ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (١١٥)

فِي مَصْرِفِ السَّمَاءِ الأَمِينِ لَا تَضِيعُ ذَرَّةُ خَيْرٍ وَلَوْ كَانَتْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ، بَلْ تُحْفَظُ وَتُنَمَّى تَحْتَ رِعَايَةِ العَلِيمِ بِالمُتَّقِينَ. أَشْعُرُ بِبَرْدِ اليَقِينِ يُطْفِئُ حَرَارَةَ الخَيْبَةِ الَّتِي قَدْ تُصِيبُنِي حِينَ يَجْحَدُ البَشَرُ مَعْرُوفِي أَوْ يَنْسَوْنَ إِحْسَانِي، فَأَتَذَكَّرُ أَنَّ مُعَامَلَتِي مَعَ رَبٍّ شَكُورٍ لَا يَكْفُرُ سَعْيَ عَبْدِهِ أَبَدًا. وَكَمْ تَرَدَّدَتْ نَفْسِي فِي بَذْلِ الخَيْرِ أَحْيَانًا حِينَ لَمْ تَجِدْ ثَنَاءً مِنَ النَّاسِ أَوْ تَقْدِيرًا فِي الوَاقِعِ، قَبْلَ أَنْ يُوقِظَنِي هَذَا الوَعْدُ الإِلَهِيُّ لِأُدْرِكَ أَنَّ عِلْمَ الخَالِقِ بِالمُتَّقِينَ يُغْنِي عَنْ شَهَادَةِ العَالَمِينَ كُلِّهِمْ. أَرَى البَذْرَةَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي تُدْفَنُ فِي بَاطِنِ التُّرَابِ بَعِيدًا عَنْ أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ كَيْفَ تَرْعَاهَا قُدْرَةُ السَّمَاءِ حَتَّى تَشُقَّ الأَرْضَ شَجَرَةً وَارِفَةَ الظِّلَالِ تَحْمِلُ أَطْيَبَ الثِّمَارِ. فَمَا أَكْرَمَ الرَّبَّ الَّذِي يَشْكُرُ القَلِيلَ مِنَ العَمَلِ وَيُضَاعِفُهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، وَمَا أَلْطَفَ عِلْمَهُ المُحِيطَ بِكُلِّ قَلْبٍ اتَّقَاهُ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى إِخْلَاصٍ صَافٍ يَبْتَغِي وَجْهَ الخَالِقِ وَحْدَهُ، فَأَزْرَعُ الخَيْرَ فِي كُلِّ مَكَانٍ دُونَ انْتِظَارِ شُكْرٍ مِنْ مَخْلُوقٍ. فَكُلُّ مَعْرُوفٍ يُبْذَلُ لِغَيْرِ وَجْهِ اللَّهِ هُوَ سَرَابٌ يَتَبَخَّرُ مَعَ جُحُودِ البَشَرِ، وَلَا خُلُودَ وَلَا جَزَاءَ أَوْفَ إِلَّا لِمَا حَفِظَهُ اللَّهُ العَلِيمُ بِالمُتَّقِينَ.

بُطْلَانُ الأَسْبَابِ وَوَقُودُ النَّارِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦)

حُصُونُ الثَّرْوَةِ وَعَصَبِيَّةُ الأَوْلَادِ أَوْرَاقٌ يَابِسَةٌ تَتَطَايَرُ أَمَامَ رِيَاحِ القَدَرِ الإِلَهِيِّ، فَلَا تَمْلِكُ أَنْ تَدْفَعَ عَنِ الجَاحِدِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ عَذَابِ السَّمَاءِ. أَشْعُرُ بِتَجَرُّدٍ عَمِيقٍ مِنْ فِتْنَةِ المَالِ وَالبَنِينَ حِينَ أَتَأَمَّلُ عَجْزَهُمَا المُطْلَقَ يَوْمَ اللِّقَاءِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ التَّعَلُّقَ بِهِمَا دُونَ الإِيمَانِ هُوَ اسْتِنَادٌ إِلَى جِدَارٍ مَائِلٍ يُوشِكُ أَنْ يَنْهَارَ. وَكَمْ غَرَّتْنِي زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا بِبَرِيقِ الأَمْوَالِ وَكِبْرِيَاءِ العِزْوَةِ وَالأَوْلَادِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ القُوَّةَ تَكْمُنُ فِي الكَثْرَةِ المَادِّيَّةِ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ لِي الآيَةُ حَقِيقَةَ الفَقْرِ وَالعَجْزِ عِنْدَ الحِسَابِ. أَتَأَمَّلُ القُصُورَ الرَّمْلِيَّةَ الشَّاهِقَةَ الَّتِي يَبْنِيهَا الصِّبْيَةُ عَلَى شَاطِئِ البَحْرِ وَيُزَيِّنُونَهَا بِالأَصْدَافِ، فَمَا إِنْ تَأْتِي مَوْجَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ المُحِيطِ حَتَّى تَمْحُوَهَا كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بِالأَمْسِ. فَمَا أَشَدَّ خَيْبَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ

يَجِدُونَ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ عَاجِزِينَ عَنْ إِنْقَاذِهِمْ، وَمَا أَهْوَلَ مَصِيرَهُمْ حِينَ يُصْبِحُونَ أَصْحَابَ النَّارِ الخَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى مِيزَانٍ يَضَعُ المالَ وَالأَوْلَادَ فِي مَوْضِعِهِمَا الصَّحِيحِ كَوَسِيلَةٍ لِلطَّاعَةِ لَا كَإِلَهٍ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الخَالِقِ، فَأَطْلُبُ النَّجَاةَ بِالإِيمَانِ وَحْدَهُ. فَكُلُّ ثَرْوَةٍ وَعِزْوَةٍ تَنْقَطِعُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ هِيَ حَسْرَةٌ عَلَى صَاحِبِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا مُغْنِيَ عَنِ العَبْدِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِلَّا قَلْبٌ سَلِيمٌ.

صِرُّ البَاطِلِ وَحَصَادُ الرَّمَادِ

صَدَى ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٧)

عَطَاءُ الجَاحِدِينَ الَّذِي يُبْذَلُ لِصَدِّ النَّاسِ عَنْ سَبِيلِ الحَقِّ هُوَ رِيحٌ جَلِيدِيَّةٌ قَاتِلَةٌ تَخْرِقُ الزَّرْعَ وَتُبِيدُ الثَّمَرَ، فَلَا يَجْنِي صَاحِبُهُ يَوْمَ الحَصَادِ إِلَّا الهَشِيمَ وَالخُسْرَانَ. أَرْتَجِفُ مِنْ هَذَا التَّصْوِيرِ القُرْآنِيِّ المُعْجِزِ الَّذِي يَكْشِفُ مَآلَ الأَعْمَالِ الفَاسِدَةِ النِّيَّةِ، فَأَخْشَى عَلَى سَعْيِي وَعَطَائِي أَنْ تَضْرِبَهُ رِيحُ الرِّيَاءِ أَوِ الفَسَادِ فَتُحِيلَهُ إِلَى رَمَادٍ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ. وَكَمْ انْخَدَعَتِ الأَبْصَارُ فِي دَارِ الدُّنْيَا بِمَظَاهِرِ الإِنْفَاقِ الضَّخْمِ وَالمَشَارِيعِ البَرَّاقَةِ الَّتِي يُقِيمُهَا الظَّالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ، غَافِلَةً عَنْ أَنَّ بَرْدَ الكُفْرِ وَالاِعْتِدَاءِ يَقْتُلُ البَرَكَةَ فِي جُذُورِهَا قَبْلَ أَنْ تَنْمُوَ. أَرَى الحَقْلَ الأَخْضَرَ المُمْتَدَّ عَلَى مَدِّ البَصَرِ وَقَدِ امْتَلَأَتْ سَنَابِلُهُ بِالحَبِّ، فَتَهُبُّ عَلَيْهِ عَاصِفَةٌ صَقِيعِيَّةٌ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ فَتُصْبِحُ السَّنَابِلُ سَوْدَاءَ مُحْتَرِقَةً لَا تَصْلُحُ لِطَعَامٍ وَلَا لِبَذْرٍ. فَمَا أَعْدَلَ سُنَّةَ الخَالِقِ الَّتِي تُبْطِلُ كَيْدَ الظَّالِمِينَ وَتُهْلِكُ حَرْثَهُمْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَمَا أَبْعَدَ سَاحَةَ الرَّبِّ العَادِلِ عَنْ ظُلْمِ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى مِيزَانٍ لِتَصْحِيحِ النِّيَّةِ وَإِخْلَاصِ العَطَاءِ، حَتَّى يَكُونَ عَمَلِي كَالغَيْثِ الدَّافِئِ الَّذِي يُنْبِتُ الخَيْرَ وَلَا يُهْلِكُ الحَرْثَ. فَكُلُّ إِنْفَاقٍ يَقُومُ عَلَى البَاطِلِ وَظُلْمِ النَّفْسِ هُوَ سَرَابٌ تَحْرِقُهُ رِيحُ الصِّرِّ القَاتِلَةِ، وَلَا بَرَكَةَ وَلَا نَمَاءَ إِلَّا لِعَمَلٍ أُسِّسَ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ.

سُمُومُ البِطَانَةِ وَأَقْنِعَةُ المَوَدَّةِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١١٨)

إِيدَاعُ أَسْرَارِ القَلْبِ وَمَفَاتِيحِ الأَمْنِ فِي أَيْدِي الخُصُومِ المُتَرَبِّصِينَ انْتِحَارٌ رُوحِيٌّ وَوُجُودِيٌّ، حَيْثُ تَتَسَلَّلُ سُمُومُ الخَبَالِ وَالفَسَادِ تَحْتَ أَقْنِعَةِ النُّصْحِ وَالمَوَدَّةِ الزَّائِفَةِ. أَشْعُرُ بِبَصِيرَتِي تَسْتَيْقِظُ عَلَى

صَوْتِ هَذَا التَّحْذِيرِ الرَّبَّانِيّ الكَاشِفِ لِخَبَايَا الصُّدُورِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ السَّذَاجَةَ وَحُسْنَ الظَّنّ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ يُفْتَحَانِ ثَغَرَاتِ الهَلَاكِ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَكَمْ انْخَدَعَتْ قُلُوبٌ نَقِيَّةٌ بِمَعْسُولِ الكَلَامِ وَبَرِيقِ الِابْتِسَامَاتِ المِصْنُوعَةِ، فَأَطْلَعَتْ أَعْدَاءَهَا عَلَى مَوَاطِنِ ضَعْفِهَا حَتَّى فَلَتَتْ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ شَرَارَاتُ البَغْضَاءِ الَّتِي تَفْضَحُ النِّيرَانَ المُسْتَعِرَةَ فِي صُدُورِهِمْ. أَتَأَمَّلُ السُّمَّ النَّاقِعَ الَّذِي يُدَسُّ فِي قَدَحٍ مِنَ العَسَلِ الصَّافِي لِيَشْرَبَهُ الغَافِلُ مُطْمَئِنًّا، فَمَا إِنْ يَسْتَقِرَّ فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَفْتِكَ بِحَيَاتِهِ وَيُحِيلَ عَافِيَتَهُ إِلَى أَلَمٍ وَهَلَاكٍ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ الخَالِقِ الَّذِي يَكْشِفُ لِلْمُؤْمِنِينَ عَدَاوَةَ المُبْغِضِينَ وَيُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ لِيُحَكِّمُوا عُقُولَهُمْ، وَمَا أَشَدَّ غَفْلَةَ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ عَدُوِّهِ بِطَانَةً وَمُسْتَشَارًا. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى وَعْيٍ حَادٍّ يَصُونُ أَسْرَارِي وَعَقِيدَتِي مِنْ تَسَلُّلِ المُتَرَبِّصِينَ، فَأَخْتَارُ بِطَانَتِي مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالإِيمَانِ وَالتَّقْوَى. فَكُلُّ ثِقَةٍ تُمْنَحُ لِخُصُومِ المِنْهَجِ هِيَ خَنْجَرٌ يُسَلَّمُ لِطَعْنِ الذَّاتِ، وَلَا حِصْنَ لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَّا بِالْوَعْيِ البَصِيرِ وَالِاعْتِصَامِ بِآيَاتِ اللَّهِ.

سَذَاجَةُ الحُبِّ وَنِيرَانُ الحَسَدِ

صَدَى ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١١٩)

سَذَاجَةُ العَاطِفَةِ حِينَ تَمْنَحُ المَوَدَّةَ لِقُلُوبٍ تَغْلِي بِالحِقْدِ وَالغَيْظِ هِيَ وَهْمٌ يَصْطَدِمُ بِصَخْرَةِ النِّفَاقِ، حَيْثُ يُظْهِرُ الخُصُومُ الإِيمَانَ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَيَعَضُّونَ الأَنَامِلَ غَيْظًا عِنْدَ الخَلْوَةِ. أَشْعُرُ بِعِزَّةِ الإِيمَانِ الشَّامِلِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالكِتَابِ كُلِّهِ دُونَ تَفْرِيقٍ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَحَوَّلُ نَقَاءُ المُؤْمِنِينَ إِلَى شُعْلَةٍ تُحْرِقُ صُدُورَ الحَاسِدِينَ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ إِلَّا التَّمَزُّقَ فِي الظَّلَامِ. وَكَمْ أَسَرَتْنِي رِقَّةُ القَلْبِ فِي سَالِفِ أَيَّامِي فَجَعَلَتْنِي أَبْذُلُ الوِدَّ الصَّادِقَ لِأُنَاسٍ يَلْبَسُونَ أَقْنِعَةَ الوِفَاقِ أَمَامِي، حَتَّى كَشَفَتْ لِي الأَيَّامُ وَالآيَاتُ عَنْ أَنَامِلِهِمُ المُتَآكِلَةِ مِنْ شِدَّةِ الحَسَدِ وَالبَغْضَاءِ. أَرَى الشَّمْسَ السَّاطِعَةَ الَّتِي تَمْنَحُ الدِّفْءَ وَالضِّيَاءَ لِلْكَوْنِ كُلِّهِ بِنَقَاءٍ وَسَخَاءٍ، بَيْنَمَا تَخْتَبِئُ الخَفَافِيشُ فِي الكُهُوفِ المُظْلِمَةِ تَصْرُخُ غَيْظًا مِنْ إِشْرَاقِ النَّهَارِ الَّذِي لَا تَسْتَطِيعُ إِطْفَاءَهُ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الحَسْمَ القُرْآنِيَّ الَّذِي يُوَاجِهُ نِفَاقَ الحَاقِدِينَ بِقَوْلِهِ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ، وَمَا أَشَدَّ طُمَأْنِينَةَ القَلْبِ حِينَ يَعْلَمُ أَنَّ الخَالِقَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى نُضْجٍ عَاطِفِيٍّ وَإِيمَانِيٍّ يَضَعُ الحُبَّ فِي مَوْضِعِهِ الصَّحِيحِ، وَلَا يَعْبَأُ بِغَيْظِ المُتَلَوِّنِينَ مَا دَامَتِ السَّمَاءُ تَرْعَى الصَّادِقِينَ. فَكُلُّ نِفَاقٍ يَتَخَفَّى خَلْفَ أَقْنِعَةِ اللِّقَاءِ مَفْضُوحٌ عِنْدَ عَلَّامِ الغُيُوبِ، وَلَا غَلَبَةَ لِغَيْظِ الحَاسِدِينَ عَلَى نُورِ الإِيمَانِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِكِتَابِ اللَّهِ كُلِّهِ.

نَارُ الحَسَدِ وَدِرْعُ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى

صَدَى ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١٢٠)

عَدَاوَةُ الحَاسِدِ مَرَضٌ مُزْمِنٌ يَتَأَلَّمُ لِإِشْرَاقِ الحَسَنَةِ عَلَى المُؤْمِنِينَ وَيَرْقُصُ فَرَحًا عِنْدَ نُزُولِ المِحْنَةِ بِهِمْ، وَلَكِنَّ الصَّبْرَ وَالتَّقْوَى يَصْنَعَانِ دِرْعًا فُولاذِيًّا يَتَحَطَّمُ عَلَيْهِ كُلُّ كَيْدٍ. أَجِدُ فِي صَدْرِي رَاحَةً عَمِيقَةً وَأَنَا أَقْرَأُ هَذِهِ المعَادَلَةَ الرَّبَّانِيَّةَ المعْصُومَةَ، فَأُدْرِكُ أَنَّ نَجَاتِي مِنْ مَكْرِ الخُصُومِ لَا تَكْمُنُ فِي مُجَارَاتِهِمْ فِي الحِقْدِ بَلْ فِي الِارْتِقَاءِ إِلَى مَقَامِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى. وَكَمْ اسْتَنْزَفَتْ طَاقَتِي فِي سَالِفِ أَيَّامِي مُحَاوَلَاتُ الِانْتِصَارِ لِلنَّفْسِ وَتَتَبُّعُ شَمَاتَةِ الشَّامِتِينَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ أَنَّ التَّقْوَى وَالصَّبْرَ يُحِيطَانِ القَلْبَ بِسُورٍ لَا يَخْتَرِقُهُ ضَرَرُ الكَائِدِينَ أَبَدًا. أَتَأَمَّلُ النَّخْلَةَ الشَّامِخَةَ الَّتِي تُرْمَى بِالحِجَارَةِ فَلَا تَتَأَثَّرُ بِالأَذَى بَلْ تَثْبُتُ جُذُورُهَا فِي الأَرْضِ وَتُعْطِي أَطْيَبَ الرُّطَبِ، بَيْنَمَا يَعُودُ الرَّامِي بِالخَيْبَةِ وَالتَّعَبِ تَحْتَ رَقَابَةِ السَّمَاءِ المحِيطَةِ بِكُلِّ شَيْءٍ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الحِصْنَ المنِيعَ الَّذِي يَبْنِيهِ الصَّبْرُ وَالتَّقْوَى حَوْلَ أَهْلِ الإِيمَانِ، وَمَا أَشَدَّ إِحَاطَةَ الخَالِقِ بِكُلِّ مَا يَعْمَلُهُ المتَرَبِّصُونَ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى مِفْتَاحٍ لِلْمَنَاعَةِ الرُّوحِيَّةِ وَالثَّبَاتِ الأَبَدِيِّ، فَأُقَابِلُ شَمَاتَةَ الحَاسِدِينَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ وَتَقْوَى خَالِصَةٍ تَجْعَلُ كَيْدَهُمْ هَبَاءً مَنْثُورًا. فَكُلُّ مَكْرٍ يُحَاكُ فِي الظَّلَامِ هُوَ مَحْصُورٌ فِي قَبْضَةِ القُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ المحِيطَةِ، وَلَا ضَرَرَ يَمَسُّ قَلْبًا تَحَصَّنَ بِالصَّبْرِ وَتَقْوَى اللَّهِ.

سِفْرُ الصَّدَى الثَّانِي وَالعِشْرُونَ

خَرِيطَةُ المعْرَكَةِ وَأُذُنُ السَّمَاءِ

صَدَى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢١)

فِي فَجْرِ الِابْتِلَاءِ العَظِيمِ تَتَرَتَّبُ صُفُوفُ الصَّادِقِينَ عَلَى خَرِيطَةِ الثَّبَاتِ، حَيْثُ يُحِيطُ سَمْعُ السَّمَاءِ وَعِلْمُهَا بِكُلِّ نَبْضَةٍ تَخْفِقُ فِي صُدُورِ المجَاهِدِينَ قَبْلَ الْتِحَامِ السُّيُوفِ. أَشْعُرُ بِهَيْبَةِ المَوْقِفِ تَسْرِي فِي أَوْصَالِي وَأَنَا أَتَخَيَّلُ رَسُولَ الهُدَى يَغْدُو فِي الصَّبَاحِ البَاكِرِ لِيَضَعَ كُلَّ مُؤْمِنٍ فِي مَقْعَدِهِ المَرْسُومِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ النَّصْرَ يَبْدَأُ مِنَ الِانْضِبَاطِ وَالثَّبَاتِ فِي المَوْقِعِ الصَّحِيحِ. وَكَمْ تَشَتَّتَتْ قُوَى نَفْسِي فِي مَعَارِكِ الحَيَاةِ حِينَ غَادَرَتْ مَقْعَدَهَا الَّذِي أَقَامَهَا فِيهِ الحَقُّ، فَصَارَتْ كَالجُنْدِيِّ الَّذِي يَتْرُكُ ثَغْرَهُ لِيَبْحَثَ عَنْ مَغْنَمٍ زَائِلٍ فَيَنْكَشِفُ ظَهْرُهُ لِلْخُصُومِ. أَتَأَمَّلُ النُّجُومَ فِي قُبَّةِ السَّمَاءِ كَيْفَ يَلْتَزِمُ كُلُّ كَوْكَبٍ بِمَدَارِهِ الدَّقِيقِ دُونَ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ، فَيَظَلُّ الكَوْنُ مُتَمَاسِكًا تَحْتَ بَصَرِ الخَالِقِ السَّمِيعِ العَلِيمِ. فَمَا أَعْظَمَ تِلْكَ الرِّعَايَةَ الإِلَهِيَّةَ الَّتِي تَسْمَعُ هَمَسَاتِ القُلُوبِ وَتَعْلَمُ صِدْقَ النَّوَايَا قَبْلَ انْطِلَاقِ السِّهَامِ، وَمَا أَجْمَلَ أَنْ يَغْدُوَ الإِنْسَانُ إِلَى مَيْدَانِ الوَاجِبِ بِقَلْبٍ مُطْمَئِنٍّ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى بُوصَلَةِ انْضِبَاطٍ تُثَبِّتُ قَدَمَيَّ فِي الثَّغْرِ الَّذِي أَقَامَنِي فِيهِ الوَحْيُ، وَلَا أَبْرَحُهُ مَهْمَا عَصَفَتِ الرِّيَاحُ. فَكُلُّ خُرُوجٍ عَنِ المقْعَدِ الَّذِي رَسَمَهُ مَنْهَجُ اللَّهِ هُوَ ثَغْرَةٌ لِلْهَزِيمَةِ، وَلَا ثَبَاتَ فِي مَيَادِينِ الِابْتِلَاءِ إِلَّا تَحْتَ سَمْعِ السَّمِيعِ العَلِيمِ.

وَمْضَةُ الوَهَنِ وَعِصْمَةُ التَّوَكُّلِ

صَدَى ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٢)

عَلَى حَافَّةِ التَّرَدُّدِ البَشَرِيِّ تَتَسَلَّلُ رَعْشَةُ الوَهَنِ إِلَى أَطْرَافِ القَلْبِ، فَتُوشِكُ القَدَمُ أَنْ تَنْزَلِقَ لَوْلَا يَدُ الوَلَايَةِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَمْتَدُّ لِتَمْسِكَ بِزِمَامِ الرُّوحِ قَبْلَ السُّقُوطِ. أَجِدُ فِي صَدْرِي تِلْكَ الهَشَاشَةَ البَشَرِيَّةَ الَّتِي تَضْعُفُ أَمَامَ هَوْلِ الشَّدَائِدِ، فَأَشْعُرُ بِالِامْتِنَانِ لِرَحْمَةِ الخَالِقِ الَّذِي لَا يَتَخَلَّى عَنْ عِبَادِهِ حِينَ تَهْتَزُّ عَزَائِمُهُمْ فِي لَحْظَةِ الخَوْفِ. وَكَمْ رَاوَدَتْنِي فِي أَيَّامِ الضِّيقِ خَوَاطِرُ الفَشَلِ وَالِانْسِحَابِ مِنْ مَيَادِينِ الصَّبْرِ، حَتَّى أَدْرَكْتُ أَنَّ التَّوَكُّلَ الصَّادِقَ هُوَ الجِسْرُ الَّذِي يَعْبُرُ بِهِ الضَّعِيفُ فَوْقَ هَاوِيَةِ اليَأْسِ. أَرَى الشَّجَرَةَ الفَتِيَّةَ الَّتِي تَمِيلُ بِشِدَّةٍ تَحْتَ عَاصِفَةِ الرِّيَاحِ حَتَّى تَكَادُ تَنْكَسِرُ، ثُمَّ تَرْتَدُّ قَائِمَةً بِفَضْلِ جُذُورِهَا العَمِيقَةِ المَمْسُوكَةِ بِتُرْبَةِ الأَرْضِ الدَّافِئَةِ. فَمَا أَرْحَمَ وَلَايَةَ الرَّبِّ الَّتِي تَعْصِمُ القُلُوبَ

المؤْمِنَةَ مِنَ الِاخْتِيَارِ فِي سَاعَاتِ العُسْرَةِ، وَمَا أَعْظَمَ قُوَّةَ التَّوَكُّلِ الَّذِي يَرْبِطُ عَجْزَ العَبْدِ بِقُدْرَةِ القَوِيِّ العَزِيزِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى مَلَاذٍ آمِنٍ أَفِرُّ إِلَيْهِ كُلَّمَا أَحْسَسْتُ بِدَبِيبِ الوَهَنِ، فَأُسَلِّمُ أَمْرِي لِوَلِيِّي الحَقِّ وَأَسْتَعِيدُ صَلَابَتِي. فَكُلُّ اعْتِمَادٍ عَلَى قُوَّةِ النَّفْسِ المجَرَّدَةِ هُوَ مَقْدِمَةٌ لِلْفَشَلِ وَالانْكِسَارِ، وَلَا عِصْمَةَ لِلْقُلُوبِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ إِلَّا بِالتَّوَكُّلِ الخَالِصِ عَلَى اللَّهِ.

مِيزَانُ بَدْرٍ وَفَيْضُ الشُّكْرِ

صَدَى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢٣)

فِي قَاعِ الِانْكِسَارِ المادِّيِّ وَقِلَّةِ العَتَادِ تَتَفَجَّرُ يَنَابِيعُ النَّصْرِ السَّمَاوِيِّ، لِتُعْلِنَ أَنَّ الغَلَبَةَ لَيْسَتْ بِكَثْرَةِ الجُمُوعِ بَلْ بِمَدَدِ الخَالِقِ الَّذِي يَرْفَعُ الأَذِلَّاءَ الصَّادِقِينَ. أَشْعُرُ بِخُشُوعٍ يَمْلَأُ كِيَانِي وَأَنَا أَسْتَحْضِرُ مَشْهَدَ بَدْرٍ الخَالِدَ، حَيْثُ انْقَلَبَ الضَّعْفُ البَشَرِيُّ إِلَى قُوَّةٍ كَوْنِيَّةٍ سَحَقَتْ جَبَرُوتَ الطُّغْيَانِ بِإِذْنِ السَّمَاءِ. وَكَمْ انْكَسَرَتْ نَفْسِي أَمَامَ ضَخَامَةِ العَقَبَاتِ وَتَوَهَّمَتْ أَنَّ فَقْرَ الأَسْبَابِ يَعْنِي الهَزِيمَةَ المحْتُومَةَ، قَبْلَ أَنْ تُذَكِّرَنِي هَذِهِ الآيَةُ بِأَنَّ النَّصْرَ يَأْتِي حِينَ يَتَجَرَّدُ القَلْبُ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ. أَتَأَمَّلُ البَذْرَةَ الضَّئِيلَةَ الدَّفِينَةَ تَحْتَ صُخُورِ الأَرْضِ الصَّمَّاءِ كَيْفَ تَشُقُّ الصَّخْرَ بِقُدْرَةِ الخَالِقِ لِتُعَانِقَ الضِّيَاءَ، فَتَصِيرَ دَوْحَةً عَظِيمَةً تَتَفَيَّأُ ظِلَالَهَا القَوَافِلُ. فَمَا أَعْظَمَ تِلْكَ المِنَّةَ الإِلَهِيَّةَ الَّتِي تَجْبُرُ كَسْرَ المسْتَضْعَفِينَ وَتُنْزِلُ عَلَيْهِمُ النَّصْرَ المبِينَ، وَمَا أَوْجَبَ التَّقْوَى الَّتِي تَحْفَظُ النِّعْمَةَ بِالشُّكْرِ وَالعِرْفَانِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى ذَاكِرَةٍ حَيَّةٍ لِأَيَّامِ اللُّطْفِ الإِلَهِيِّ فِي حَيَاتِي، فَأُقَابِلُ نِعَمَ السَّمَاءِ بِالتَّقْوَى وَالشُّكْرِ لَا بِالبَطَرِ وَالنِّسْيَانِ. فَكُلُّ نَصْرٍ يُنْسَبُ إِلَى المادَّةِ وَالأَسْبَابِ هُوَ جُحُودٌ لِفَضْلِ المنْعِمِ، وَلَا دَوَامَ لِلْغَلَبَةِ وَالعِزَّةِ إِلَّا بِتَقْوَى اللَّهِ وَشُكْرِ آلَائِهِ.

بُشْرَى السَّمَاءِ وَتَتَابُعُ المدَدِ

صَدَى ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ (١٢٤)

عِنْدَمَا تَضِيقُ دَائِرَةُ الأَرْضِ بِأَهْلِ الحَقِّ تَنْفَتِحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بِجُنُودٍ لَا تُرَى، فَيَنْزِلُ المدَدُ المَلَائِكِيُّ كَالشَّلَّالِ النُّورَانِيِّ لِيَمْلَأَ صُدُورَ المؤْمِنِينَ بِالكِفَايَةِ وَاليَقِينِ. أَجِدُ فِي قَلْبِي اتِّسَاعًا عَجِيبًا يَبْتَلِعُ كُلَّ مَخَاوِفِ الوَحْدَةِ وَالاسْتِضْعَافِ، حِينَ أَسْمَعُ هَذَا السُّؤَالَ المطَمْئِنَ الَّذِي يَرْبِطُ أَهْلَ الأَرْضِ بِمَلَكُوتِ السَّمَاءِ الأَعْلَى. وَكَمْ شَعَرْتُ فِي لَيَالِي الكُرْبَةِ أَنَّنِي وَحِيدٌ فِي مُوَاجَهَةِ عَوَاصِفِ البَاطِلِ وَالوَسَاوِسِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ فِي رُوحِي حَقِيقَةُ أَنَّ جُنُودَ الرَّحْمَنِ تُحِيطُ بِالصَّادِقِينَ وَتُثَبِّتُ أَقْدَامَهُمْ. أَرَى الغَيْثَ

المُنْهَمِرَ مِنَ السَّحَابِ العَالِي عَلَى الأَرْضِ العَطْشَى كَيْفَ يُبَدِّلُ جَفَافَهَا خُضْرَةً وَحَيَاةً فِي لَحَظَاتٍ مَعْدُودَةٍ، فَتَنْتَعِشُ كُلُّ جُذُورِهَا بَعْدَ أَنْ كَادَتْ تَهْلِكُ مِنَ الظَّمَأِ. فَمَا أَكْرَمَ هَذَا العَطَاءَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي يُنْزِلُ المَلَائِكَةَ المُقَرَّبِينَ لِتَثْبِيتِ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ مِنَ البَشَرِ، وَمَا أَعْظَمَ كِفَايَةَ الرَّبِّ لِمَنْ صَدَقَ فِي اللُّجُوءِ إِلَيْهِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى يَقِينٍ لَا يَتَزَعْزَعُ بِأَنَّ المَدَدَ السَّمَاوِيَّ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ صَادِقٍ، فَأَسْتَغْنِي بِرَبِّي عَنْ كُلِّ حِشْدٍ أَرْضِيٍّ. فَكُلُّ قُوَّةٍ مَادِّيَّةٍ تَتَلَاشَى أَمَامَ جُنُودِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَا كِفَايَةَ حَقِيقِيَّةَ لِلْعَبْدِ إِلَّا بِمَدَدٍ يُنْزِلُهُ اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ.

شَرْطُ الصَّبْرِ وَتَضَاعُفُ الفَيْضِ

صَدَى ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (١٢٥)

مِفْتَاحُ الخَزَائِنِ السَّمَاوِيَّةِ مَصْنُوعٌ مِنْ جَوْهَرَيِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى، فَكُلَّمَا اشْتَدَّ هُجُومُ الخُصُومِ وَتَدَفَّقَتْ أَمْوَاجُهُمْ تَضَاعَفَ المَدَدُ الإِلَهِيُّ لِيَسْحَقَ البَاطِلَ فِي لَحْظَةِ انْدِفَاعِهِ. أَشْعُرُ بِعَزِيمَةٍ فُولَاذِيَّةٍ تَسْرِي فِي دَاخِلِي وَأَنَا أَقْرَأُ هَذَا الوَعْدَ المُتَصَاعِدَ، فَأُدْرِكُ أَنَّ اشْتِدَادَ الأَزْمَةِ لَيْسَ نَذِيرَ هَلَاكٍ بَلْ هُوَ بَشِيرٌ بِمَدَدٍ أَعْظَمَ وَنَصْرٍ أَكْبَرَ إِذَا ثَبَتَ القَلْبُ عَلَى الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى. وَكَمْ جَزِعَتْ رُوحِي عِنْدَ تَوَالِي المِحَنِ وَتَسَارُعِ الضَّرَبَاتِ فِي زَمَنٍ وَاحِدٍ، قَبْلَ أَنْ تُعَلِّمَنِي هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ الفَوْرَ الَّذِي يَأْتِي فِيهِ العَدُوُّ هُوَ عَيْنُ اللَّحْظَةِ الَّتِي تَنْزِلُ فِيهَا المَلَائِكَةُ المسَوِّمَةُ. أَتَأَمَّلُ السَّدَّ المتِينَ الَّذِي كُلَّمَا زَادَ ضَغْطُ المِيَاهِ المُنْدَفِعَةِ نَحْوَهُ ازْدَادَتْ قُوَّةُ تَمَاسُكِهِ وَرُسُوخِهِ فِي الأَرْضِ، لِيَحُولَ دُونَ غَرَقِ الوَادِي وَيَحْفَظَ الحَيَاةَ خَلْفَهُ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الكَرَمَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَرْفَعُ المَدَدَ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ إِلَى خَمْسَةِ آلَافٍ جَزَاءً لِلصَّبْرِ وَالتَّقْوَى، وَمَا أَبْهَى تِلْكَ العَلَامَاتِ الَّتِي تُمَيِّزُ جُنْدَ السَّمَاءِ فِي سَاحَةِ الفِدَاءِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى قَانُونٍ لِلثَّبَاتِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الكُرُوبِ، فَأَزْدَادُ صَبْرًا وَتَقْوَى كُلَّمَا تَكَاثَرَتِ الخُطُوبُ. فَكُلُّ هُجُومٍ لِلْبَاطِلِ يَصْطَدِمُ بِصَبْرِ المؤْمِنِينَ وَتَقْوَاهُمْ هُوَ انْتِحَارٌ لِلْخُصُومِ، وَلَا مَدَدَ يَتَضَاعَفُ إِلَّا لِقَلْبٍ صَبَرَ وَاتَّقَى اللَّهَ.

بُشْرَى الطُّمَأْنِينَةِ وَانْفِرَادُ النَّصْرِ

صَدَى ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١٢٦)

الأَسْبَابُ الظَّاهِرَةُ وَالمَدَدُ المَنْظُورُ لَيْسَا إِلَّا رَسَائِلَ بُشْرَى تُهَدْهِدُ رَوْعَ القُلُوبِ البَشَرِيَّةِ، أَمَّا حَقِيقَةُ

النَّصْرِ فَهِيَ نُورٌ خَالِصٌ يَصْدُرُ مِنْ حَضْرَةِ العَزِيزِ الحَكِيمِ وَحْدَهُ. أَشْعُرُ بِسُكُونٍ عَمِيقٍ يَهْبِطُ عَلَى أَعْمَاقِ نَفْسِي فَيُطْفِئُ ضَجِيجَ القَلَقِ وَالتَّعَلُّقِ بِالوَسَائِلِ المادِّيَّةِ، حِينَ أُوقِنُ أَنَّ كُلَّ مَا فِي الكَوْنِ مِنَ الأَسْبَابِ إِنَّمَا هُوَ لِطُمَأْنِينَةِ الفُؤَادِ وَلَا يَمْلِكُ النَّصْرَ بِذَاتِهِ. وَكَمْ تَعَلَّقَتْ بَصِيرَتِي فِي سَالِفِ أَيَّامِي بِالأَدَوَاتِ وَالوَسَائِلِ حَتَّى كَادَتْ تَنْسَى مُسَبِّبَ الأَسْبَابِ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِتُطَهِّرَ تَوْحِيدِي وَتَرُدَّ القَلْبَ كُلَّهُ إِلَى مَنْبَعِ العِزَّةِ وَالحِكْمَةِ. أَرَى الطِّفْلَ الصَّغِيرَ الَّذِي يَمْشِي فِي الظَّلَامِ فَيَمْنَحُهُ أَبُوهُ مِصْبَاحًا صَغِيرًا لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ، بَيْنَمَا عَيْنُ الأَبِ السَّاهِرَةُ وَيَدُهُ القَوِيَّةُ هُمَا اللَّتَانِ تَحْمِيَانِهِ حَقًّا مِنْ كُلِّ خَطَرٍ. فَمَا أَلْطَفَ تَدْبِيرَ الخَالِقِ الَّذِي يُرَاعِي ضَعْفَ القُلُوبِ البَشَرِيَّةِ فَيَبْعَثُ لَهَا البُشْرَى لِتَسْكُنَ وَتَطْمَئِنَّ، وَمَا أَعْظَمَ حِكْمَتَهُ فِي حَصْرِ النَّصْرِ فِي جَنَابِهِ العَزِيزِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى تَوْحِيدٍ خَالِصٍ يَتَّخِذُ الأَسْبَابَ بِجِدٍّ وَلَا يَعْبُدُهَا، وَيَطْلُبُ النَّصْرَ وَالسَّكِينَةَ مِنْ مَالِكِ المُلْكِ وَحْدَهُ. فَكُلُّ سَبَبٍ فِي الوُجُودِ هُوَ آيَةٌ لِطُمَأْنِينَةِ القَلْبِ وَلَيْسَ شَرِيكًا فِي الفِعْلِ، وَلَا نَصْرَ وَلَا غَلَبَةَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ.

انْكِسَارُ الطُّغْيَانِ وَخَيْبَةُ الجَاحِدِينَ

صَدَى ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ (١٢٧)

سَيْفُ القَدَرِ الإِلَهِيِّ حِينَ يَنْزِلُ عَلَى جَبْهَةِ البَاطِلِ يَقْطَعُ أَطْرَافَهُ المُتَجَبِّرَةَ، أَوْ يَكْبِتُ كِبْرِيَاءَهُ بِالخِزْيِ فَيَعُودُ الجَاحِدُونَ يَجُرُّونَ أَذْيَالَ الخَيْبَةِ وَالانْكِسَارِ. أَشْعُرُ بِعَظَمَةِ الهَيْمَنَةِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي تُحِيطُ بِأَعْدَاءِ الحَقِّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَحَوَّلُ زَحْفُهُمُ المَغْرُورُ إِلَى هَلَاكٍ لِقَادَتِهِمْ أَوْ حَسْرَةٍ تَأْكُلُ صُدُورَهُمْ دُونَ أَنْ يُحَقِّقُوا مَأْرَبًا. وَكَمْ أَزْعَجَنِي فِي مَسِيرَةِ الحَيَاةِ انْتِفَاشُ البَاطِلِ وَعُلُوُّ صَوْتِ المُتَكَبِّرِينَ، حَتَّى كَشَفَتْ لِي هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ نِهَايَةَ كُلِّ طُغْيَانٍ مَحْصُورَةٌ بَيْنَ القَطْعِ وَالاسْتِئْصَالِ أَوِ الكَبْتِ وَالخَيْبَةِ. أَتَأَمَّلُ المَوْجَةَ الهَائِجَةَ الَّتِي تَنْدَفِعُ بِزَبَدِهَا وَضَجِيجِهَا نَحْوَ الصَّخْرَةِ الشَّاطِئِيَّةِ لِتُحَطِّمَهَا، فَمَا إِنْ تَصْطَدِمَ بِهَا حَتَّى تَتَكَسَّرَ أَطْرَافُهَا وَتَرْتَدَّ خَائِبَةً إِلَى قَاعِ البَحْرِ بِلَا أَثَرٍ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ الخَالِقِ الَّذِي يُدِيرُ مَعَارِكَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ لِيُذِلَّ رُؤُوسَ الكُفْرِ، وَمَا أَبْأَسَ حَالَ مَنْ يَخْرُجُ لِمُحَارَبَةِ نُورِ السَّمَاءِ فَيَنْقَلِبُ مَكْبُوتًا خَائِبًا. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى بَصِيرَةٍ نَافِذَةٍ تَرَى نِهَايَةَ الظَّالِمِينَ قَبْلَ وُقُوعِهَا، فَلَا أَرْهَبُ جَبَرُوتَهُمْ وَلَا أَشُكُّ فِي خَيْبَةِ مَسْعَاهُمْ. فَكُلُّ تَجَمُّعٍ لِلْبَاطِلِ ضِدَّ شَرِيعَةِ اللَّهِ مَآلُهُ القَطْعُ أَوِ الخِزْيُ المُبِينُ، وَلَا عَاقِبَةَ لِلْجَاحِدِينَ إِلَّا الانْقِلَابُ بِالخَيْبَةِ وَالخُسْرَانِ.

سِيَادَةُ المشِيئَةِ وَتَنَزُّهُ الرُّبُوبِيَّةِ

صَدَى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨)

مَفَاتِيحُ الهِدَايَةِ وَالعَذَابِ مُعَلَّقَةٌ بِعَرْشِ الرُّبُوبِيَّةِ وَحْدَهُ، فَلَا يَمْلِكُ أَيُّ مَخْلُوقٍ مَهْمَا عَظُمَ قَدْرُهُ أَنْ يَتَدَخَّلَ فِي تَقْدِيرِ المصَائِرِ أَوْ إِغْلَاقِ أَبْوَابِ التَّوْبَةِ. أَشْعُرُ بِرَهْبَةِ العُبُودِيَّةِ الخَالِصَةِ وَأَنَا أَقْرَأُ هَذَا الخِطَابَ الحَاسِمَ لِأَشْرَفِ الخَلْقِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ حُدُودَ الإِنْسَانِ تَقِفُ عِنْدَ البَلَاغِ وَالصَّبْرِ أَمَّا الحُكْمُ النِّهَائِيُّ فَهُوَ لِلْخَالِقِ المتَفَرِّدِ بِالأَمْرِ. وَكَمْ تَجَاوَزَتْ نَفْسِي حُدُودَهَا فِي سَالِفِ أَيَّامِي فَحَكَمَتْ عَلَى العِبَادِ بِالهَلَاكِ أَوْ يَئِسَتْ مِنْ تَوْبَةِ العُصَاةِ عِنْدَ نُزُولِ الأَذَى، قَبْلَ أَنْ تُؤَدِّبَنِي هَذِهِ الآيَةُ بِأَنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يَتُوبُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ أَوْ يُعَذِّبُ الظَّالِمِينَ بِعَدْلِهِ. أَرَى الفَلَّاحَ الَّذِي يَبْذُرُ الحَبَّ فِي الأَرْضِ وَيَسْقِيهِ بِعَرَقِهِ ثُمَّ يَقِفُ خَاضِعًا يَنْتَظِرُ أَمْرَ السَّمَاءِ فِي إِنْبَاتِ الزَّرْعِ أَوْ إِمْسَاكِ القَطْرِ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ الحَيَاةِ شَيْئًا. فَمَا أَعْظَمَ تَرْبِيَةَ الوَحْيِ الَّتِي تَرُدُّ العُبُودِيَّةَ إِلَى نِصَابِهَا الصَّحِيحِ وَتُطَهِّرُ القُلُوبَ مِنَ التَّأَلُّهِ الخَفِيِّ، وَمَا أَوْسَعَ رَحْمَةَ الرَّبِّ الَّذِي قَدْ يَتُوبُ عَلَى مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِالأَمْسِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى أَدَبٍ رَفِيعٍ مَعَ أَقْدَارِ السَّمَاءِ، فَأُؤَدِّي وَاجِبِي بِإِخْلَاصٍ وَأَتْرُكُ مَصَائِرَ الخَلْقِ لِحِكْمَةِ المالِكِ الحَكِيمِ. فَكُلُّ تَدَخُّلٍ بَشَرِيٍّ فِي مَقَادِيرِ الهِدَايَةِ وَالعَذَابِ هُوَ تَجَاوُزٌ لِحَدِّ العُبُودِيَّةِ، وَلَا أَمْرَ فِي الكَوْنِ إِلَّا لِلَّهِ يَتُوبُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ أَوْ يُعَذِّبُ الظَّالِمِينَ.

سَعَةُ المغْفِرَةِ وَعَدْلُ العِقَابِ

صَدَى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٩)

مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قَبْضَةٌ وَاحِدَةٌ فِي يَمِينِ الرَّحْمَنِ، يَتَصَرَّفُ فِيهَا بِمَشِيئَتِهِ النَّافِذَةِ فَيَغْمُرُ التَّائِبِينَ بِفَيْضِ المغْفِرَةِ وَيُذِيقُ المصِرِّينَ عَدْلَ العِقَابِ. أَجِدُ فِي صَدْرِي تَوَازُنًا عَجِيبًا بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَأَنَا أَتَأَمَّلُ هَذِهِ المُلْكِيَّةَ المطْلَقَةَ، فَأَخْشَى عَذَابَ المالِكِ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَأَطْمَعُ فِي مَغْفِرَةِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ الَّذِي سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ. وَكَمْ تَأَرْجَحَتْ رُوحِي بَيْنَ شَطَطِ القُنُوطِ الَّذِي يُغْلِقُ بَابَ الأَمَلِ وَبَيْنَ غُرُورِ الأَمْنِ الَّذِي يُجَرِّئُ عَلَى المعَاصِي، حَتَّى اسْتَقَرَّتْ عَلَى شَاطِئِ هَذِهِ الآيَةِ الجَامِعَةِ لِلْهَيْبَةِ وَالرَّحْمَةِ. أَتَأَمَّلُ السَّمَاءَ الوَاسِعَةَ الَّتِي تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا بُرُوقَ الوَعِيدِ وَرُعُودَ الهَيْبَةِ، وَلَكِنَّهَا تَجُودُ فِي النِّهَايَةِ بِالغَيْثِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَغْسِلُ الأَرْضَ وَيُحْيِي المَوَاتَ. فَمَا أَعْظَمَ

سُلْطَانَ المالِكِ الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، وَمَا أَجْمَلَ خَتْمَ الآيَةِ بِاسْمَيِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ لِتَبْقَى بَوَّابَةُ الرَّجَاءِ مَفْتُوحَةً لِكُلِّ مُقْبِلٍ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى جَنَاحَيْنِ أُحَلِّقُ بِهِمَا نَحْوَ السَّمَاءِ؛ جَنَاحُ الخَوْفِ مِنْ عَدْلِهِ وَجَنَاحُ الرَّجَاءِ فِي رَحْمَتِهِ الوَاسِعَةِ. فَكُلُّ نَجَاةٍ فِي هَذَا الكَوْنِ هِيَ مَحْضُ فَضْلٍ وَمَغْفِرَةٍ مِنْ مَالِكِ المُلْكِ، وَلَا مَلْجَأَ لِلْعَبْدِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ.

جَشَعُ الرِّبَا وَطَرِيقُ الفَلَاحِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٠)

ابْتِلَاعُ دِمَاءِ المحْتَاجِينَ عَبْرَ أَغْلَالِ الرِّبَا المتَضَاعِفَةِ هُوَ مَسْخٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ وَحَرْبٌ عَلَى السَّمَاءِ، يَمْحَقُ بَرَكَةَ المالِ وَيُحِيلُ القَلْبَ إِلَى حَجَرٍ صَلْدٍ لَا يَعْرِفُ الرَّحْمَةَ. أَشْعُرُ بِاشْمِئْزَازٍ رُوحِيٍّ مِنْ تِلْكَ الشَّرَاهَةِ المادِّيَّةِ الَّتِي تَسْتَغِلُّ ضَعْفَ المكْرُوبِ لِتُضَاعِفَ عَلَيْهِ الدُّيُونَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، فَأُدْرِكُ أَنَّ الفَلَاحَ الحَقِيقِيَّ يَبْدَأُ مِنْ تَطْهِيرِ اللُّقْمَةِ وَالقَلْبِ مِنْ سُمُومِ الحَرَامِ. وَكَمْ خُدِعَتْ عُقُولٌ بَشَرِيَّةٌ بِوَهْمِ النَّمَاءِ الزَّائِفِ الَّذِي تَعِدُ بِهِ الأَرْقَامُ الرِّبَوِيَّةُ، قَبْلَ أَنْ تَكْتَشِفَ أَنَّهَا تَأْكُلُ جَمْرًا يُحْرِقُ طُمَأْنِينَةَ النَّفْسِ وَيُدَمِّرُ بُنْيَانَ المجْتَمَعِ. أَرَى الوَرَمَ الخَبِيثَ الَّذِي يَتَضَاعَفُ فِي الجَسَدِ بِسُرْعَةٍ مُخِيفَةٍ فَيَظُنُّ الجَاهِلُ أَنَّهُ زِيَادَةٌ فِي الصِّحَّةِ، بَيْنَمَا هُوَ فِي الحَقِيقَةِ يَلْتَهِمُ الحَيَاةَ وَيَقُودُ إِلَى الفَنَاءِ المحَتَّمِ. فَمَا أَرْحَمَ شَرِيعَةَ السَّمَاءِ الَّتِي تَحْمِي المؤْمِنِينَ مِنْ وَبَاءِ الجَشَعِ وَتُوَجِّهُهُمْ إِلَى التَّقْوَى، وَمَا أَصْدَقَ وَعْدَهَا بِالفَلَاحِ لِمَنْ تَرَكَ الحَرَامَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى سِيَاجٍ يَحْمِي كَسْبِي وَقَلْبِي مِنَ الطَّمَعِ المدَمِّرِ، فَأَطْلُبُ البَرَكَةَ فِي الحَلَالِ الطَّيِّبِ وَإِنْ قَلَّ. فَكُلُّ مَالٍ يَنْمُو عَلَى أَنِينِ الفُقَرَاءِ وَأَضْعَافِ الرِّبَا هُوَ خَرَابٌ مُقَنَّعٌ، وَلَا فَلَاحَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِلَّا بِتَقْوَى اللَّهِ وَالِالْتِزَامِ بِأَحْكَامِهِ.

وَقَايَةُ السَّعِيرِ وَرَحْمَةُ الطَّاعَةِ

صَدَى ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٣١ – ١٣٢)

بَيْنَ هَوْلِ السَّعِيرِ المعَدِّ لِلْجَاحِدِينَ وَبَيْنَ نَسَائِمِ الرَّحْمَةِ المصْبُوبَةِ عَلَى المطِيعِينَ، يَقِفُ الإِنْسَانُ أَمَامَ مَفْتَرَقِ الطُّرُقِ الأَبَدِيِّ لِيَخْتَارَ مَصِيرَهُ بِيَدِهِ. أَرْتَجِفُ خَوْفًا مِنْ نَارٍ وُقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِمَنْ كَفَرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ، ثُمَّ يَغْمُرُنِي رَجَاءٌ دَافِئٌ حِينَ أَرَى بَوَّابَةَ النَّجَاةِ مَفْتُوحَةً عَبْرَ طَاعَةِ الخَالِقِ وَرَسُولِهِ الكَرِيمِ. وَكَمْ غَفَلَتِ النَّفْسُ فِي زَحْمَةِ الشَّهَوَاتِ عَنْ حَقِيقَةِ أَنَّ النَّارَ مَخْلُوقَةٌ مُعَدَّةٌ تَنْتَظِرُ

المعْرِضِينَ، وَأَنَّ الطَّاعَةَ لَيْسَتْ قَيْدًا ثَقِيلًا بَلْ هِيَ طَوْقُ النَّجَاةِ الَّذِي يَجْلِبُ رَحْمَةَ السَّمَاءِ. أَتَأَمَّلُ المسَافِرَ فِي الصَّحْرَاءِ المحْرِقَةِ الَّذِي يَرَى أَمَامَهُ هَاوِيَةً تَتَأَجَّجُ بِالنِّيرَانِ وَطَرِيقًا ظَلِيلًا يَقُودُ إِلَى وَاحَةٍ خَضْرَاءَ، فَيَكُونُ مِنَ الجُنُونِ أَنْ يَتْرُكَ دَلِيلَ الطَّرِيقِ لِيُلْقِيَ بِنَفْسِهِ فِي اللَّهِيبِ. فَمَا أَبْلَغَ هَذَا التَّرْهِيبَ المقْتَرِنَ بِالتَّرْغِيبِ الَّذِي يُحَرِّكُ جَنَاحَيِ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فِي القَلْبِ، وَمَا أَعْظَمَ تِلْكَ الرَّحْمَةَ الَّتِي تَتَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ مَنْ أَطَاعَ الوَحْيَ وَاتَّبَعَ الهُدَى. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَتَانِ فِي وُجْدَانِي إِلَى حَافِزٍ دَائِمٍ لِلِاسْتِقَامَةِ وَالطَّاعَةِ الصَّادِقَةِ، فَأَتَّقِي النَّارَ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ وَأَتَعَرَّضُ لِنَفَحَاتِ الرَّحْمَةِ بِالِاتِّبَاعِ. فَكُلُّ عِصْيَانٍ لِأَمْرِ السَّمَاءِ هُوَ اقْتِرَابٌ مِنْ لَهِيبِ الجَحِيمِ، وَلَا نَجَاةَ وَلَا رَحْمَةَ إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

سِبَاقُ المغْفِرَةِ وَاتِّسَاعُ الجِنَانِ

صَدَى ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣)

نِدَاءُ السَّبْقِ الأَعْظَمِ يَدْوِي فِي أَرْجَاءِ الوُجُودِ لِيَسْتَنْهِضَ الهِمَمَ الخَامِلَةَ، فَيَدْعُوهَا إِلَى مَغْفِرَةٍ تَمْحُو الذُّنُوبَ وَجَنَّةٍ يَتَّسِعُ عَرْضُهَا لِيَشْمَلَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. أَشْعُرُ بِرُوحِي تَتَحَرَّرُ مِنْ ثِقَلِ الطِّينِ وَتَنْطَلِقُ كَالسَّهْمِ نَحْوَ الأُفُقِ الأَعْلَى، حِينَ أَتَخَيَّلُ رَحَابَةَ تِلْكَ الجَنَّةِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ فَأَسْتَصْغِرُ كُلَّ ضِيقٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ. وَكَمْ تَبَاطَأَتْ خُطُوَاتِي فِي مَيَادِينِ الطَّاعَةِ بَيْنَمَا كُنْتُ أُرْكِضُ لَاهِثًا خَلْفَ حُطَامٍ زَائِلٍ لَا يَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، حَتَّى أَيْقَظَنِي هَذَا الأَمْرُ بِالمسَارَعَةِ قَبْلَ أَنْ يُطْوَى بِسَاطُ العُمْرِ. أَرَى الخُيُولَ الأَصِيلَةَ فِي مِضْمَارِ السِّبَاقِ الكَبِيرِ كَيْفَ تَطْوِي الأَرْضَ طَيًّا دُونَ أَنْ تَلْتَفِتَ يَمْنَةً أَوْ يَسْرَةً، لِأَنَّ أَعْيُنَهَا مُعَلَّقَةٌ بِخَطِّ النِّهَايَةِ حَيْثُ التَّكْرِيمُ وَالفَوْزُ العَظِيمُ. فَمَا أَوْسَعَ جَنَّةَ الرَّحْمَنِ الَّتِي لَا تَضِيقُ بِسَاكِنِيهَا وَلَا يَنْفَدُ نَعِيمُهَا، وَمَا أَجْدَرَ العَاقِلَ بِأَنْ يَجْعَلَ حَيَاتَهُ كُلَّهَا سِبَاقًا مَحْمُومًا نَحْوَ المغْفِرَةِ وَالرِّضْوَانِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى وَثْبَةٍ رُوحِيَّةٍ تَكْسِرُ قُيُودَ الكَسَلِ وَالتَّسْوِيفِ، فَأُسَارِعُ إِلَى كُلِّ طَاعَةٍ تُقَرِّبُنِي مِنْ مَنَازِلِ المتَّقِينَ. فَكُلُّ تَلَكُّؤٍ فِي طَرِيقِ الآخِرَةِ هُوَ غَبْنٌ لِلنَّفْسِ فِي أَعْظَمِ صَفْقَةٍ، وَلَا مَقَامَ فِي الجَنَّةِ الَّتِي عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا لِمَنْ سَارَعَ بِتَقْوَى اللَّهِ.

سِيمَا المحْسِنِينَ وَعَظَمَةُ الحِلْمِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤)

مَعْدِنُ المُتَّقِينَ الأَصِيلُ يَتَلَأْلَأُ فِي كُلِّ الفُصُولِ، فَيَجُودُونَ بِالعَطَاءِ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ، وَيَبْتَلِعُونَ جَمْرَ الغَيْظِ فِي صُدُورِهِمْ لِيُقَابِلُوا الإِسَاءَةَ بِالعَفْوِ وَالإِحْسَانِ. أَجِدُ فِي وَجْدَانِي شَوْقًا عَمِيقًا لِلِارْتِقَاءِ إِلَى هَذِهِ القِمَّةِ الأَخْلَاقِيَّةِ الشَّامِخَةِ، حَيْثُ يَنْتَصِرُ الإِنْسَانُ عَلَى شُحِّ نَفْسِهِ وَغَضَبِ طَبْعِهِ لِيَفُوزَ بِأَغْلَى وِسَامٍ فِي الوُجُودِ وَهُوَ مَحَبَّةُ الخَالِقِ. وَكَمْ غَلَبَتْنِي ثَوْرَةُ الغَضَبِ عِنْدَ الإِسَاءَةِ أَوْ أَمْسَكْتُ يَدِي عَنِ الإِنْفَاقِ خَوْفَ الفَقْرِ فِي الضَّرَّاءِ، قَبْلَ أَنْ تُعَلِّمَنِي هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ الإِحْسَانَ الحَقِيقِيَّ هُوَ أَنْ تَبْذُلَ وَأَنْتَ مُحْتَاجٌ وَتَعْفُوَ وَأَنْتَ قَادِرٌ. أَتَأَمَّلُ الشَّجَرَةَ المُثْمِرَةَ الَّتِي تَجُودُ بِظِلِّهَا وَثِمَارِهَا فِي الصَّيْفِ الحَارِّ وَالشِّتَاءِ القَارِسِ، وَإِذَا رَمَاهَا عَابِرٌ بِحَجَرٍ أَسْقَطَتْ عَلَيْهِ أَطْيَبَ ثِمَارِهَا بِنَقَاءٍ وَسَخَاءٍ. فَمَا أَرْوَعَ هَذَا التَّدَرُّجَ النُّورَانِيَّ مِنْ كَظْمِ الغَيْظِ إِلَى العَفْوِ ثُمَّ إِلَى مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ العُلْيَا، وَمَا أَعْظَمَ جَائِزَةَ المُحْسِنِينَ حِينَ يَحْظَوْنَ بِمَحَبَّةِ رَبِّ العَالَمِينَ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى دُسْتُورٍ لِتَهْذِيبِ الرُّوحِ وَتَرْوِيضِ الغَضَبِ، فَأَبْذُلُ فِي كُلِّ حَالٍ وَأَعْفُو طَمَعًا فِي مَحَبَّةِ الرَّحْمَنِ. فَكُلُّ انْتِقَامٍ لِلنَّفْسِ وَبُخْلٍ عِنْدَ الشِّدَّةِ هُوَ سُقُوطٌ فِي وَحْلِ الأَنَانِيَّةِ، وَلَا مَحَبَّةَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا لِلْمُحْسِنِينَ الصَّادِقِينَ.

مِحْرَابُ الِاسْتِغْفَارِ وَتَطْهِيرُ الزَّلَّاتِ

صَدَى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥)

عَظَمَةُ المُتَّقِينَ لَا تَعْنِي العِصْمَةَ المُطْلَقَةَ مِنَ الزَّلَلِ، بَلْ تَعْنِي سُرْعَةَ الِاسْتِيقَاظِ عِنْدَ السَّقْطَةِ وَالفِرَارَ إِلَى مِحْرَابِ الِاسْتِغْفَارِ دُونَ إِصْرَارٍ عَلَى الذَّنْبِ. أَشْعُرُ بِدُمُوعِ الرَّاحَةِ تَغْسِلُ قَلْبِي وَأَنَا أَقْرَأُ هَذَا الوَصْفَ الرَّحِيمَ، فَأُدْرِكُ أَنَّ بَابَ التَّقْوَى مَفْتُوحٌ لِكُلِّ مَنْ كَبَتْ بِهِ قَدَمُهُ ثُمَّ ذَكَرَ عَظَمَةَ رَبِّهِ فَبَادَرَ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ. وَكَمْ كَادَ الشَّيْطَانُ أَنْ يُقْنِطَنِي مِنْ رَحْمَةِ السَّمَاءِ كُلَّمَا أَلَمَّتْ بِي زَلَّةٌ أَوْ ظَلَمْتُ نَفْسِي بِتَقْصِيرٍ، حَتَّى أَخَذَتْ هَذِهِ الآيَةُ بِيَدِي لِتُؤَكِّدَ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا الغَفُورُ الوَاحِدُ. أَرَى الثَّوْبَ الأَبْيَضَ النَّاصِعَ الَّذِي إِذَا أَصَابَتْهُ بُقْعَةٌ مِنَ الطِّينِ بَادَرَ صَاحِبُهُ إِلَى غَسْلِهَا بِالمَاءِ الطَّهُورِ فَوْرًا، فَيَعُودُ الثَّوْبُ نَقِيًّا كَمَا كَانَ وَلَا يَتْرُكُ الطِّينَ يَجِفُّ وَيَتَغَلْغَلُ فِي نَسِيجِهِ. فَمَا أَرْحَمَ الخَالِقَ الَّذِي يَقْبَلُ أَوْبَةَ المُنْكَسِرِينَ وَيَمْحُو خَطَايَاهُمْ بِمُجَرَّدِ الذِّكْرِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَمَا أَخْطَرَ الإِصْرَارَ عَلَى المَعْصِيَةِ مَعَ العِلْمِ بِقُبْحِهَا وَحُرْمَتِهَا. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى يَقْظَةٍ دَائِمَةٍ تَجْعَلُ الذَّنْبَ

جِسْرًا لِلِانْكِسَارِ وَالِاسْتِغْفَارِ لَا بَوَّابَةً لِلْيَأْسِ وَالتَّمَادِي. فَكُلُّ إِصْرَارٍ عَلَى الخَطِيئَةِ هُوَ تَحَجُّرٌ فِي القَلْبِ وَغَفْلَةٌ عَنِ الرَّقِيبِ، وَلَا غَافِرَ لِلذُّنُوبِ جَمِيعًا إِلَّا اللَّهُ الوَاحِدُ الأَحَدُ.

جَائِزَةُ العَامِلِينَ وَنَعِيمُ الخُلُودِ

صَدَى ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (١٣٦)

ثَمَرَةُ المجَاهَدَةِ الصَّادِقَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ الدَّائِمِ تَتَوَّجُ بِمَغْفِرَةٍ تَمْحُو كُلَّ أَثَرٍ لِلذَّنْبِ، وَجَنَّاتٍ فَيَّاضَةٍ بِالأَنْهَارِ يَخْلُدُ فِيهَا العَامِلُونَ فِي سَعَادَةٍ لَا تَزُولُ. أَشْعُرُ بِبَرْدِ السَّكِينَةِ يَسْرِي فِي أَوْصَالِي وَأَنَا أَتَأَمَّلُ عَظَمَةَ هَذَا الأَجْرِ الإِلَهِيِّ، فَيَتَلَاشَى كُلُّ تَعَبٍ أَلْقَاهُ فِي طَرِيقِ الطَّاعَةِ أَمَامَ هَذَا العَطَاءِ الكَرِيمِ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ. وَكَمْ اسْتَثْقَلَتْ نَفْسِي مَشَقَّةَ العَمَلِ وَالمصَابَرَةِ فِي دَارِ الِابْتِلَاءِ حِينَ نَظَرَتْ إِلَى قِصَرِ النَّفَسِ البَشَرِيِّ، حَتَّى أَشْرَقَ فِي بَصِيرَتِي هَذَا الثَّنَاءُ السَّمَاوِيُّ عَلَى أَجْرِ العَامِلِينَ الصَّادِقِينَ. أَتَأَمَّلُ الغَرَّاسَ الَّذِي يَتْعَبُ فِي حَرْثِ الأَرْضِ وَسَقْيِ الفَسَائِلِ تَحْتَ هَجِيرِ الشَّمْسِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فِي خَرِيفِ عُمْرِهِ تَحْتَ ظِلَالِ البُسْتَانِ الوَارِفِ يَنْعَمُ بِخَرِيرِ الأَنْهَارِ وَطِيبِ الثِّمَارِ. فَمَا أَكْرَمَ الرَّبَّ الَّذِي يُكَلِّلُ سَعْيَ عِبَادِهِ بِالمغْفِرَةِ وَالخُلُودِ فِي الجِنَانِ، وَمَا أَعْظَمَ شَرَفَ العَمَلِ لِلْآخِرَةِ حِينَ يُشِيدُ الخَالِقُ نَفْسُهُ بِحُسْنِ الأَجْرِ وَالِانْتِهَاءِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى دَافِعٍ لَا يَفْتُرُ لِلْبَذْلِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، فَأَزْرَعُ اليَوْمَ بِصَبْرٍ لِأَحْصُدَ غَدًا فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. فَكُلُّ أَجْرٍ أَرْضِيٍّ يَفْنَى بِفَنَاءِ الدُّنْيَا وَزَوَالِهَا، وَلَا نَعِيمَ خَالِدًا وَلَا أَجْرَ أَوْفَى إِلَّا مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْعَامِلِينَ.

سُنَنُ التَّارِيخِ وَعَاقِبَةُ المكَذِّبِينَ

صَدَى ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٣٧)

التَّارِيخُ لَيْسَ رُكَامًا مِنَ الحِكَايَاتِ المَيِّتَةِ، بَلْ هُوَ مِرْآةٌ كَوْنِيَّةٌ تَعْكِسُ سُنَنَ السَّمَاءِ الثَّابِتَةَ الَّتِي لَا تُحَابِي أَحَدًا، حَيْثُ يَنْتَهِي كُلُّ تَكْذِيبٍ وَطُغْيَانٍ إِلَى الدَّمَارِ وَالعِبْرَةِ. أَشْعُرُ بِاتِّسَاعِ الرُّؤْيَةِ وَعُمْقِ البَصِيرَةِ وَأَنَا أَسْتَجِيبُ لِأَمْرِ السَّيْرِ وَالنَّظَرِ فِي مَصَارِعِ الغَابِرِينَ، فَأَرَى أَطْلَالَ المتَكَبِّرِينَ تَشْهَدُ عَلَى أَنَّ البَاطِلَ مَهْمَا انْتَفَشَ فَإِنَّ سُنَّةَ الهَلَاكِ تَتَرَبَّصُ بِهِ. وَكَمْ ضَاقَتْ نَظْرَتِي عِنْدَ الحَاضِرِ القَرِيبِ فَتَوَهَّمْتُ أَنَّ الظُّلْمَ سَيَدُومُ أَوْ أَنَّ المكَذِّبِينَ سَيُفْلِتُونَ مِنَ الحِسَابِ، قَبْلَ أَنْ تَرُدَّنِي هَذِهِ الآيَةُ إِلَى سُنَنِ الأَوَّلِينَ لِأَرَى حَتْمِيَّةَ انْتِصَارِ الحَقِّ. أَرَى الأَشْجَارَ اليَابِسَةَ المتَسَاقِطَةَ عَلَى ضِفَافِ النَّهْرِ

القَدِيمِ كَيْفَ تُخْبِرُ كُلَّ عَابِرٍ بِأَنَّ العَاصِفَةَ الَّتِي اقْتَلَعَتْهَا مَا زَالَتْ تَهُبُّ عَلَى كُلِّ جِذْعٍ خَاوٍ يَتَحَدَّى قَانُونَ السَّمَاءِ. فَمَا أَبْلَغَ دُرُوسَ الأَرْضِ المَفْتُوحَةِ لِمَنْ يَسِيرُ فِيهَا بِعَيْنِ الِاعْتِبَارِ وَالتَّأَمُّلِ، وَمَا أَشَدَّ غَفْلَةَ مَنْ يُكَرِّرُ جَرَائِمَ المُكَذِّبِينَ وَيَنْتَظِرُ نَتِيجَةً مُخْتَلِفَةً. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي عَقْلِي إِلَى وَعْيٍ سُنَنِيٍّ يُحَرِّرُنِي مِنْ وَهْمِ اللحْظَةِ الرَّاهِنَةِ، فَأَثِقُ بِأَنَّ عَاقِبَةَ الصَّابِرِينَ هِيَ النَّصْرُ وَعَاقِبَةَ المُكَذِّبِينَ هِيَ البَوَارُ. فَكُلُّ أُمَّةٍ تَصْطَدِمُ بِسُنَنِ الخَالِقِ فِي الكَوْنِ تَتَحَطَّمُ عَلَى صَخْرَةِ الحَقِيقَةِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَنِ اعْتَبَرَ بِمَصَارِعِ الغَابِرِينَ وَاسْتَقَامَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ.

مِشْعَلُ القُرْآنِ وَنُورُ المَوْعِظَةِ

صَدَى ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٨)

القُرْآنُ المَجِيدُ شَمْسٌ كَوْنِيَّةٌ تَكْشِفُ الحَقَائِقَ لِلْبَشَرِ أَجْمَعِينَ، وَلَكِنَّ نُورَ الهِدَايَةِ وَحَرَارَةَ المَوْعِظَةِ لَا يَنْتَفِعُ بِهِمَا إِلَّا قَلْبٌ تَهَيَّأَ بِالتَّقْوَى وَالصَّفَاءِ. أَشْعُرُ بِجَلَالِ هَذَا الكِتَابِ المُبِينِ يَغْمُرُ رُوحِي وَيَجْلُو عَنْهَا غُبَارَ الشُّبُهَاتِ، فَأَرَى فِيهِ البَيَانَ القَاطِعَ الَّذِي يُقِيمُ الحُجَّةَ عَلَى النَّاسِ وَالهُدَى الَّذِي يَأْخُذُ بِيَدِي نَحْوَ النَّجَاةِ. وَكَمْ مَرَرْتُ عَلَى الآيَاتِ فِي أَوْقَاتِ الغَفْلَةِ فَلَمْ أَرَ فِيهَا سِوَى البَيَانِ العَامِّ، حَتَّى إِذَا رَقَّ القَلْبُ بِالتَّقْوَى تَفَجَّرَتْ فِي دَاخِلِي يَنَابِيعُ الهِدَايَةِ وَالمَوْعِظَةِ الَّتِي تُحْيِي المَوَاتَ. أَتَأَمَّلُ الغَيْثَ الَّذِي يَهْطِلُ بِالسَّوِيَّةِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ وَعَلَى التُّرْبَةِ الطَّيِّبَةِ؛ فَالصَّخْرَةُ لَا تَحْتَفِظُ بِالمَاءِ وَلَا تُنْبِتُ زَرْعًا، بَيْنَمَا التُّرْبَةُ النَّقِيَّةُ تَشْرَبُ الغَيْثَ فَتُزْهِرُ رِيَاضًا وَبَسَاتِينَ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا البَيَانَ الإِلَهِيَّ الَّذِي لَا يَتْرُكُ لِضَالٍّ عُذْرًا وَلَا لِمُتَّقٍ حَيْرَةً، وَمَا أَحْوَجَ القُلُوبَ إِلَى التَّقْوَى كَيْ تَتَفَتَّحَ أَكْمَامُهَا لِتَلَقِّي مَوَاعِظِ الوَحْيِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى مِحْرَابٍ لِتَزْكِيَةِ النَّفْسِ بِالتَّقْوَى كُلَّمَا أَقْبَلْتُ عَلَى التِّلَاوَةِ، فَيَكُونَ القُرْآنُ لِي نُورًا وَشِفَاءً وَمَوْعِظَةً بَالِغَةً. فَكُلُّ قَلْبٍ يَخْلُو مِنَ التَّقْوَى يُحْرَمُ مِنْ ثِمَارِ الهِدَايَةِ وَإِنْ أَبْصَرَ البَيَانَ، وَلَا نُورَ يَهْدِي الحَائِرِينَ إِلَّا نُورُ كِتَابِ اللَّهِ المُبِينِ.

شُمُوخُ اليَقِينِ وَتَجَاوُزُ الجِرَاحِ

صَدَى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩)

فِي لَحْظَةِ انْكِسَارِ الجَسَدِ وَنَزْفِ الجِرَاحِ يَرْتَفِعُ نِدَاءُ السَّمَاءِ لِيَنْفُخَ فِي الرُّوحِ عِزَّةَ الِاسْتِعْلَاءِ الإِيمَانِيِّ، فَيَمْنَعَ الوَهَنَ مِنَ التَّسَلُّلِ إِلَى العَزِيمَةِ وَالحُزْنَ مِنْ إِغْرَاقِ الفُؤَادِ. أَشْعُرُ بِقَامَتِي الرُّوحِيَّةِ تَشْمَخُ فَوْقَ كُلِّ آلَامِ الوَاقِعِ وَهَزَائِمِهِ العَابِرَةِ وَأَنَا أَتَلَقَّى هَذَا التَّثْبِيتَ المَهِيبَ، فَأُدْرِكُ أَنَّ عُلُوَّ المُؤْمِنِ نَابِعٌ مِنْ صِلَتِهِ بِالعَلِيِّ الأَعْلَى وَلَا تُسْقِطُهُ كَبْوَةٌ أَوْ جُرْحٌ. وَكَمْ أَثْقَلَ الحُزْنُ عَلَى المَاضِي وَالوَهَنُ أَمَامَ

المسْتَقْبَلِ كَاهِلَ رُوحِي عِنْدَ الشَّدَائِدِ، حَتَّى أَيْقَظَنِي هَذَا الوِسَامُ الإِلَهِيُّ لِأَعْلَمَ أَنَّ الإِيمَانَ الصَّادِقَ يَجْعَلُ صَاحِبَهُ فِي القِمَّةِ مَهْمَا تَغَيَّرَتِ الأَحْوَالُ. أَرَى النَّسْرَ الجَرِيحَ الَّذِي تَلَقَّى سَهْمًا فِي جَنَاحِهِ فَهَبَطَ قَلِيلًا إِلَى السَّفْ

حِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْفُضَ غُبَارَ السَّقْطَةِ وَيُحَلِّقَ عَالِيًا فَوْقَ القِمَمِ الشَّاهِقَةِ حَيْثُ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ سِهَامُ الصَّيَّادِينَ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا البَلْسَمَ السَّمَاوِيَّ الَّذِي يُضَمِّدُ جِرَاحَ المَكْلُومِينَ وَيَزْرَعُ فِيهِمُ الكِبْرِيَاءَ الإِيمَانِيَّ النَّقِيَّ، وَمَا أَبْهَى مَقَامَ العُلُوِّ الَّذِي يَرْفَعُ المؤْمِنِينَ فَوْقَ كُلِّ طُغْيَانٍ أَرْضِيٍّ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى رَايَةٍ مَرْفُوعَةٍ لَا تَنْكَسُ أَمَامَ العَوَاصِفِ، فَأَنْفُضُ عَنِّي غُبَارَ الوَهَنِ وَالحُزْنِ وَأَمْضِي شَامِخًا بِيَقِينِي. فَكُلُّ انْكِسَارٍ يَسْتَسْلِمُ لِلْحُزْنِ وَالوَهَنِ هُوَ تَرَاجُعٌ عَنْ مَقَامِ الشَّهَادَةِ، وَلَا عُلُوَّ حَقِيقِيًّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا لِقَلْبٍ عَمَرَهُ الإِيمَانُ بِاللَّهِ.

مُدَاوَلَةُ الأَيَّامِ وَاصْطِفَاءُ الشُّهَدَاءِ

صَدَى ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٠)

تَقَلُّبُ الأَيَّامِ بَيْنَ النَّصْرِ وَالجِرَاحِ لَيْسَ عَبَثًا تَصْنَعُهُ المصَادَفَاتُ، بَلْ هُوَ مِصْهَرٌ كَوْنِيٌّ يُدِيرُهُ الخَالِقُ لِيُمَيِّزَ مَعْدِنَ الصَّادِقِينَ وَيَصْطَفِيَ مِنْهُمُ الشُّهَدَاءَ المقَرَّبِينَ. أَجِدُ فِي صَدْرِي عَزَاءً عَمِيقًا وَحِكْمَةً بَالِغَةً تُفَسِّرُ لِي آلامَ الِابْتِلَاءِ وَتَدَاوُلَ الدُّوَلِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ الجُرْحَ الَّذِي يُصِيبُ أَهْلَ الحَقِّ هُوَ بَوَّابَةٌ لِلِاصْطِفَاءِ وَالرِّفْعَةِ بَيْنَمَا جِرَاحُ البَاطِلِ هِيَ مَقْدِمَةٌ لِلْهَلَاكِ وَالخِذْلَانِ. وَكَمْ حَارَ عَقْلِي أَمَامَ انْتِفَاشِ الظَّالِمِينَ فِي بَعْضِ فُصُولِ الزَّمَانِ، قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ لِي هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ مُدَاوَلَةَ الأَيَّامِ إِنَّمَا هِيَ لِكَيْ لَا يُحِبَّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ فَيُدْرِجَهُمْ فِي غُرُورِهِمْ حَتَّى يَأْخُذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ. أَتَأَمَّلُ الذَّهَبَ الخَامَ حِينَ يُوضَعُ فِي أَتُونِ النَّارِ الملْتَهِبَةِ فَيَتَطَهَّرُ مِنَ الشَّوَائِبِ وَيَزْدَادُ بَرِيقًا وَنَقَاءً لِيُصْنَعَ مِنْهُ تَاجُ المُلُوكِ، بَيْنَمَا يَتَحَوَّلُ الرَّصَاصُ الرَّخِيصُ فِي النَّارِ نَفْسِهَا إِلَى رَمَادٍ وَدُخَانٍ لَا قِيمَةَ لَهُ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ الرَّبِّ الَّذِي يَجْعَلُ المِحَنَ سُلَّمًا لِاتِّخَاذِ الشُّهَدَاءِ وَتَمْحِيصِ القُلُوبِ المؤْمِنَةِ، وَمَا أَشَدَّ بُغْضَهُ لِلظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَغْتَرُّونَ بِإِمْهَالِ الأَيَّامِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى بَصِيرَةٍ تَرَى فِي كُلِّ جُرْحٍ مِفْتَاحًا لِلِاصْطِفَاءِ وَالثَّبَاتِ، فَأَرْضَى بِتَدْبِيرِ الخَالِقِ فِي تَقَلُّبِ الزَّمَانِ. فَكُلُّ دَوْلَةٍ لِلظَّالِمِينَ هِيَ سَحَابَةٌ عَابِرَةٌ يَبْغَضُهَا الخَالِقُ وَيَمْحَقُهَا، وَلَا خُلُودَ وَلَا شَرَفَ أَعْلَى إِلَّا لِمَنِ اصْطَفَاهُ اللَّهُ شَهِيدًا عَلَى الحَقِّ.

سِفْرُ الصَّدَى الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ

كِيرُ التَّمْحِيصِ وَمَحْقُ الجَاحِدِينَ

صَدَى ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤١)

نِيرَانُ الِابْتِلَاءِ فِي مِحْرَابِ الوُجُودِ كِيرٌ رَبَّانِيٌّ يَصْهَرُ مَعْدِنَ القُلُوبِ المؤْمِنَةِ لِيُجَرِّدَهَا مِنْ شَوَائِبِ الغَفْلَةِ، بَيْنَمَا يَلْتَهِمُ رُكَامَ البَاطِلِ فَيَمْحَقُهُ مِنَ الجُذُورِ دُونَ أَنْ يُبْقِيَ لَهُ أَثَرًا. أَشْعُرُ بِرَاحَةٍ عَمِيقَةٍ تَتَسَلَّلُ إِلَى صَدْرِي وَأَنَا أُبْصِرُ الحِكْمَةَ الخَفِيَّةَ وَرَاءَ آلامِ المِحَنِ وَتَقَلُّبَاتِ المصَائِرِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ وَجَعٍ يَمَسُّ رُوحِي هُوَ مِشْرَطُ جَرَّاحٍ رَحِيمٍ يُنَقِّي إِيمَانِي وَيَرْفَعُ دَرَجَتِي. وَكَمْ جَزِعَتْ نَفْسِي فِي أَوْقَاتِ الشِّدَّةِ وَتَوَهَّمَتْ أَنَّ طُولَ البَلَاءِ هُوَ تَخَلٍّ عَنِ الصَّادِقِينَ وَتَمْكِينٌ لِلظَّالِمِينَ، قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ لِي هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ سُنَّةَ السَّمَاءِ تَجْمَعُ بَيْنَ تَنْقِيَةِ المؤْمِنِينَ وَمَحْقِ الجَاحِدِينَ فِي آنٍ وَاحِدٍ. أَتَأَمَّلُ الحَدِيدَ الخَامَ حِينَ يَدْخُلُ أَتُونَ النَّارِ الملْتَهِبَةِ فَيَتَطَهَّرُ مِنَ الخَبَثِ وَيَصِيرُ سَيْفًا صَقِيلًا لَا يَنْثَنِي، بَيْنَمَا يَتَحَوَّلُ الخَشَبُ اليَابِسُ فِي اللَّهِيبِ نَفْسِهِ إِلَى رَمَادٍ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ فِي الفَرَاغِ. فَمَا أَعْظَمَ لُطْفَ الخَالِقِ الَّذِي يُحَوِّلُ جِرَاحَ عِبَادِهِ إِلَى طَهَارَةٍ وَصَفَاءٍ، وَمَا أَشَدَّ مَكْرَهُ بِالكَافِرِينَ الَّذِينَ يَسْتَدْرِجُهُمْ بِالغُرُورِ حَتَّى يَمْحَقَهُمْ مَحْقًا. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى بَصِيرَةٍ تَرَى فِي كُلِّ مِحْنَةٍ نِعْمَةَ التَّمْحِيصِ، فَأَصْبِرُ عَلَى حَرَارَةِ البَلَاءِ رَجَاءَ أَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ نَقِيَّ القَلْبِ. فَكُلُّ عُلُوٍّ لِلْبَاطِلِ هُوَ مُقَدِّمَةٌ لِانْهِيَارِهِ وَمَحْقِهِ التَّامِّ، وَلَا طَهَارَةَ لِلْأَرْوَاحِ المؤْمِنَةِ إِلَّا فِي بَوْتَقَةِ التَّمْحِيصِ الَّتِي يُدِيرُهَا اللَّهُ بِحِكْمَتِهِ.

قَنْطَرَةُ الجِهَادِ وَمِحَكُّ الصَّابِرِينَ

صَدَى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٢)

بَوَّابَةُ الخُلُودِ العَالِيَةُ لَا تُفْتَحُ لِلْأَمَانِيِّ البَارِدَةِ وَالدَّعَاوَى الفَارِغَةِ، بَلْ تُعْبَرُ عَلَى جِسْرٍ مَشْدُودٍ فَوْقَ هَاوِيَةِ الِابْتِلَاءِ لَا يَجْتَازُهُ إِلَّا أَهْلُ الجِهَادِ وَالصَّبْرِ الجَمِيلِ. أَجِدُ فِي صَدْرِي يَقَظَةً تَهُزُّ رُكُودَ الرُّوحِ وَتُبَدِّدُ وَهْمَ السَّلَامَةِ الدَّائِمَةِ، حِينَ أَسْمَعُ هَذَا التَّسَاؤُلَ الإِلَهِيَّ المزَلْزِلَ الَّذِي يَرْبِطُ دُخُولَ الجَنَّةِ بِبُرْهَانِ المجَاهَدَةِ وَالثَّبَاتِ. وَكَمْ حَلَمَتْ نَفْسِي بِقُصُورِ النَّعِيمِ وَأَنْهَارِ الفِرْدَوْسِ وَهِيَ مُتَّكِئَةٌ عَلَى وِسَادَةِ الرَّاحَةِ وَالدَّعَةِ، حَتَّى أَيْقَظَتْنِي هَذِهِ الآيَةُ لِأُدْرِكَ أَنَّ سِلْعَةَ السَّمَاءِ غَالِيَةٌ وَثَمَنَهَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى. أَرَى الجَوْهَرَةَ النَّفِيسَةَ الَّتِي تَسْتَقِرُّ فِي أَعْمَاقِ المحِيطِ المتَلَاطِمِ لَا يَظْفَرُ بِهَا مَنْ يَقِفُ

عَلَى الشَّاطِئِ يَتَمَنَّى، بَلْ يَنَالُهَا الغَوَّاصُ الصَّابِرُ الَّذِي يَشُقُّ العُبَابَ وَيَحْتَمِلُ ضَغْطَ الأَعْمَاقِ. فَمَا أَعْدَلَ سُنَّةَ الرَّبِّ الَّتِي تَفْرِزُ الصَّادِقِينَ مِنَ المُدَّعِينَ فِي مَيْدَانِ العَمَلِ وَالمُكَابَدَةِ، وَمَا أَشْرَفَ شَهَادَةَ العِلْمِ الإِلَهِيِّ لِمَنْ جَاهَدَ هَوَاهُ وَصَبَرَ عَلَى أَذَى الطَّرِيقِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى عَزِيمَةٍ صَلْبَةٍ تَسْتَقْبِلُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ بِرِضًا وَثَبَاتٍ، فَأَبْذُلُ جُهْدِي وَصَبْرِي مَهْرًا لِجَنَّةِ الخُلْدِ. فَكُلُّ رَجَاءٍ فِي النَّعِيمِ يَخْلُو مِنَ الجِهَادِ وَالصَّبْرِ هُوَ سَرَابٌ خَادِعٌ، وَلَا دُخُولَ لِدَارِ السَّلَامِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَرَى اللَّهُ صِدْقَ الصَّابِرِينَ.

مَوَاقِفُ المَوْتِ وَبُهْتَانُ الأَمَانِيِّ

صَدَى ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (١٤٣)

شَجَاعَةُ اللِّسَانِ فِي سَاعَاتِ الرَّخَاءِ سَرْعَانَ مَا تَتَبَخَّرُ عِنْدَ بَرِيقِ السُّيُوفِ، حِينَ يَشْخَصُ المَوْتُ بِأَنْيَابِهِ أَمَامَ العُيُونِ فَيَفْضَحُ الفَارِقَ الكَبِيرَ بَيْنَ الحُلْمِ وَالحَقِيقَةِ. أَشْعُرُ بِرَهْبَةِ الصِّدْقِ وَأَنَا أَتَأَمَّلُ هَذَا العِتَابَ القُرْآنِيَّ اللَّطِيفَ، فَأُفَتِّشُ فِي زَوَايَا نَفْسِي خَشْيَةَ أَنْ أَكُونَ مِمَّنْ يَتَمَنَّى المَوَاقِفَ العَظِيمَةَ فِي الخَيَالِ ثُمَّ يَنْكَمِشُ عِنْدَ حُلُولِهَا فِي الوَاقِعِ. وَكَمْ رَفَعَتْ نَفْسِي رَايَاتِ البُطُولَةِ فِي مَجَالِسِ الكَلَامِ وَأَمَانِ الطُّمَأْنِينَةِ، فَلَمَّا هَبَّتْ رِيَاحُ الِاخْتِبَارِ الحَقِيقِيِّ أَدْرَكْتُ أَنَّ الثَّبَاتَ هِبَةٌ رَبَّانِيَّةٌ لَا تُنَالُ بِالتَّمَنِّي وَالِادِّعَاءِ. أَتَأَمَّلُ السَّابِحَ الَّذِي يَصِفُ شَجَاعَتَهُ فِي مُصَارَعَةِ الأَمْوَاجِ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى الرِّمَالِ الجَافَّةِ، فَمَا إِنْ يَلْمَسَ البَحْرَ الهَائِجَ حَتَّى تَرْتَعِدَ فَرَائِصُهُ وَيَشْخَصَ بَصَرُهُ أَمَامَ هَوْلِ اللُّجَّةِ. فَمَا أَبْلَغَ هَذَا الدَّرْسَ السَّمَاوِيَّ الَّذِي يُعَلِّمُنَا التَّوَاضُعَ وَسُؤَالَ العَافِيَةِ وَالثَّبَاتِ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَمَا أَشَدَّ حَيْرَةَ الإِنْسَانِ حِينَ يَرَى مَا كَانَ يَتَمَنَّاهُ وَاقِعًا مَاثِلًا أَمَامَ عَيْنَيْهِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى صِدْقٍ مَعَ الذَّاتِ يَهْجُرُ ضَجِيجَ الأَمَانِيِّ الكَاذِبَةِ، وَيَسْتَعِدُّ لِلْحَقِيقَةِ بِالتَّضَرُّعِ وَالإِعْدَادِ الصَّامِتِ. فَكُلُّ بُطُولَةٍ تُبْنَى عَلَى خَيَالِ اللِّسَانِ تَنْهَارُ عِنْدَ أَوَّلِ مُوَاجَهَةٍ، وَلَا ثَبَاتَ عِنْدَ حُضُورِ الأَجَلِ إِلَّا بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَثْبِيتِهِ.

بَقَاءُ الرِّسَالَةِ وَفَنَاءُ الرُّسُلِ

صَدَى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤)

نُورُ العَقِيدَةِ الحَقَّةِ مَرْبُوطٌ بِالْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، أَمَّا الرُّسُلُ فَهُمْ سُفَرَاءُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَعْبُرُونَ جِسْرَ الفَنَاءِ كَمَا عَبَرَ الأَوَّلُونَ لِتَبْقَى الرِّسَالَةُ خَالِدَةً فِي قُلُوبِ الشَّاكِرِينَ. أَشْعُرُ بِرُسُوخِ كَوْنِيٍّ يَشُدُّ

قَلْبِي إِلَى عَرْشِ الرَّحْمَنِ فَلَا يَتَزَلْزَلُ بِفَقْدِ الرِّجَالِ أَوْ تَبَدُّلِ الأَحْوَالِ، حِينَ أَسْتَحْضِرُ هَذِهِ الحَقِيقَةَ الفَاصِلَةَ الَّتِي أَعَادَتْ تَوَازُنَ الأُمَّةِ فِي أَشَدِّ لَحَظَاتِ الصَّدْمَةِ وَالذُّهُولِ. وَكَمْ تَعَلَّقَتِ النُّفُوسُ البَشَرِيَّةُ بِالأَشْخَاصِ وَالقَادَةِ حَتَّى ظَنَّتْ أَنَّ رَحِيلَهُمْ يَعْنِي نِهَايَةَ الدِّينِ وَانْطِفَاءَ الشُّعْلَةِ، قَبْلَ أَنْ تُعْلِنَ هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ الِانْقِلَابَ عَلَى الأَعْقَابِ لَا يَضُرُّ السَّمَاءَ شَيْئًا بَلْ يُهْلِكُ المُنْقَلِبِينَ وَحْدَهُمْ. أَرَى السِّرَاجَ المُنِيرَ الَّذِي يُوقَدُ مِنْ شَمْسِ النَّهَارِ الخَالِدَةِ؛ فَإِذَا انْطَفَأَ السِّرَاجُ أَوِ انْكَسَرَ إِنَاؤُهُ بَقِيَتِ الشَّمْسُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ تَغْمُرُ الكَوْنَ بِالضِّيَاءِ وَالحَيَاةِ دُونَ نُقْصَانٍ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّحْرِيرَ العَقَدِيَّ الَّذِي يَرْفَعُ الإِيمَانَ فَوْقَ صَدَمَاتِ الفَقْدِ وَالفَنَاءِ، وَمَا أَكْرَمَ جَزَاءَ الشَّاكِرِينَ الَّذِينَ يَثْبُتُونَ عَلَى العَهْدِ بَعْدَ رَحِيلِ الأَنْبِيَاءِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى وَلَاءٍ خَالِصٍ لِلْمَنْهَجِ الرَّبَّانِيِّ البَاقِي، فَأَمْضِي فِي طَرِيقِ الشُّكْرِ وَالثَّبَاتِ لَا يَرُدُّنِي مَوْتٌ وَلَا فِتْنَةٌ. فَكُلُّ إِيمَانٍ يَرْتَهِنُ بِحَيَاةِ بَشَرٍ هُوَ إِيمَانٌ مُهَدَّدٌ بِالِانْقِلَابِ وَالزَّوَالِ، وَلَا دَوَامَ وَلَا غِنَى مُطْلَقَ إِلَّا لِلَّهِ الحَيِّ القَيُّومِ.

كِتَابُ الآجَالِ وَثِمَارُ النَّوَايَا

صَدَى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٥)

أَنْفَاسُ المَخْلُوقَاتِ مَعْدُودَةٌ فِي سِجِلِّ الغَيْبِ بِأَجَلٍ لَا يَتَقَدَّمُ لَحْظَةً وَلَا يَتَأَخَّرُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَلَا يَمْلِكُ سَيْفٌ أَنْ يَقْطَعَ عُمْرًا لَمْ يَأْذَنْ خَالِقُهُ بِانْقِضَائِهِ. أَجِدُ فِي صَدْرِي شَجَاعَةً تَسْتَهْزِئُ بِكُلِّ مَخَاوِفِ المَوْتِ وَالتَّلَفِ، حِينَ أُوقِنُ أَنَّ رُوحِي مَحْفُوظَةٌ بِإِذْنِ الخَالِقِ حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ، فَيَتَحَرَّرُ قَلْبِي لِتَصْحِيحِ النِّيَّةِ وَالِاخْتِيَارِ بَيْنَ ثَوَابِ الدُّنْيَا الفَانِي وَثَوَابِ الآخِرَةِ البَاقِي. وَكَمْ جَبُنَتْ نَفْسِي عَنِ الإِقْدَامِ خَوْفًا عَلَى حَيَاةٍ مَكْتُوبَةٍ سَلَفًا، أَوِ انْشَغَلَتْ بِحُطَامِ الدُّنْيَا العَاجِلِ فَحُرِمَتْ مِنْ كُنُوزِ الآخِرَةِ الَّتِي تَنْتَظِرُ الصَّادِقِينَ الشَّاكِرِينَ. أَتَأَمَّلُ الشَّمْعَةَ الَّتِي حُدِّدَ طُولُ فَتِيلَتِهَا مُنْذُ صُنْعِهَا؛ فَلَنْ تَنْطَفِئَ قَبْلَ نَفَادِ زَيْتِهَا المَقْدُورِ وَلَوْ هَبَّتْ حَوْلَهَا النَّسَائِمُ، وَلَكِنَّ الشَّأْنَ كُلَّهُ فِي مَا تُضِيئُهُ تِلْكَ الشَّمْعَةُ قَبْلَ أَنْ تَذُوبَ. فَمَا أَعْظَمَ السَّكِينَةَ الَّتِي يَمْنَحُهَا الإِيمَانُ بِالقَدَرِ وَالأَجَلِ المَكْتُوبِ، وَمَا أَبْهَى عَطَاءَ الرَّبِّ الَّذِي يُؤْتِي كُلَّ إِنْسَانٍ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ وَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ أَوْفَى الجَزَاءِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى حُرِّيَّةٍ كَامِلَةٍ مِنَ الخَوْفِ وَالطَّمَعِ الأَرْضِيِّ، فَأَجْعَلُ هِمَّتِي مُعَلَّقَةً بِثَوَابِ الآخِرَةِ وَأَشْكُرُ اللَّهَ عَلَى نِعْمَةِ الحَيَاةِ. فَكُلُّ هَرَبٍ مِنَ الوَاجِبِ خَوْفًا مِنَ المَوْتِ هُوَ وَهْمٌ لَا يُؤَخِّرُ أَجَلًا مَكْتُوبًا، وَلَا فَوْزَ أَعْظَمَ مِنْ جَزَاءِ اللَّهِ لِلشَّاكِرِينَ.

صَلَابَةُ الرِّبِّيِّينَ وَصُمُودُ القِمَمِ

صَدَى ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦)

عَبْرَ مَسِيرَةِ النُّبُوَّاتِ تَصْطَفُّ مَوَاكِبُ الرِّبِّيِّينَ كَالْجِبَالِ الرَّاسِيَةِ الَّتِي لَا تَهْتَزُّ لِقَصْفِ الرُّعُودِ، فَلَا يَكْسِرُهُمُ الجُرْحُ وَلَا يُذِلُّهُمُ البَلَاءُ بَلْ يَزْدَادُونَ صَلَابَةً تَسْتَجْلِبُ مَحَبَّةَ السَّمَاءِ. أَشْعُرُ بِقُشَعْرِيرَةِ الفَخْرِ وَالإِكْبَارِ وَأَنَا أَتَأَمَّلُ هَذِهِ اللَّوْحَةَ الخَالِدَةَ لِأَهْلِ الرَّبَّانِيَّةِ الصَّادِقَةِ، حَيْثُ انْتَفَى عَنْهُمُ الوَهَنُ فِي القَلْبِ وَالضَّعْفُ فِي الجَسَدِ وَالِاسْتِكَانَةُ لِلْخُصُومِ مَهْمَا عَظُمَتِ التَّضْحِيَاتُ. وَكَمْ تَرَاخَتْ عَزِيمَتِي عِنْدَ أَوَّلِ خَدْشٍ أَوْ خَسَارَةٍ فِي طَرِيقِ الِالْتِزَامِ، فَنَظَرْتُ إِلَى هَؤُلَاءِ الرِّبِّيِّينَ الَّذِينَ حَوَّلُوا جِرَاحَهُمْ إِلَى أَوْسِمَةٍ نَالُوا بِهَا أَعْلَى مَرْتَبَةٍ فِي الوُجُودِ وَهِيَ مَحَبَّةُ الخَالِقِ لِلصَّابِرِينَ. أَرَى السِّنْدِيَانَةَ العَتِيقَةَ فِي قِمَّةِ الجَبَلِ كَيْفَ تَقْصِفُ الرِّيَاحُ بَعْضَ أَغْصَانِهَا وَتَنْهَمِرُ عَلَيْهَا الثُّلُوجُ القَارِسَةُ، فَلَا تَنْحَنِي وَلَا تَسْتَسْلِمُ بَلْ تَضْرِبُ بِجُذُورِهَا أَعْمَقَ فِي الصَّخْرِ حَتَّى يُشْرِقَ الرَّبِيعُ. فَمَا أَعْظَمَ مَدْرَسَةَ الرِّبِّيِّينَ الَّتِي تُرَبِّي النُّفُوسَ عَلَى العِزَّةِ وَالصُّمُودِ فِي سَبِيلِ الحَقِّ، وَمَا أَجْمَلَ تِلْكَ المَحَبَّةَ الإِلَهِيَّةَ الَّتِي تَغْمُرُ الصَّابِرِينَ وَتَمْسَحُ عَنْهُمْ كُلَّ أَلَمٍ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى قُدْوَةٍ حَيَّةٍ تَطْرُدُ الوَهَنَ وَالِاسْتِسْلَامَ مِنْ قَلْبِي، فَأَثْبُتُ فِي طَرِيقِ رَبِّي مَهْمَا أَصَابَنِي. فَكُلُّ اسْتِكَانَةٍ لِلْبَاطِلِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ هِيَ سُقُوطٌ عَنْ مَرْتَبَةِ الرِّبِّيِّينَ، وَلَا مَحَبَّةَ مِنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ مَحَبَّتِهِ لِلصَّابِرِينَ.

ابْتِهَالُ الصَّابِرِينَ وَثَوَابُ الدَّارَيْنِ

صَدَى ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤٧ – ١٤٨)

فِي ذُرْوَةِ المِحْنَةِ لَا يَرْتَفِعُ مِنْ أَفْوَاهِ الصَّادِقِينَ ضَجِيجُ الشَّكْوَى وَالتَّبَرُّمِ، بَلْ يَنْبَجِسُ دُعَاءٌ رَقِيقٌ يَعْتَرِفُ بِالتَّقْصِيرِ وَيَطْلُبُ المَغْفِرَةَ وَالثَّبَاتَ وَالنَّصْرَ، فَيَفِيضُ عَلَيْهِمُ العَطَاءُ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. أَجِدُ فِي وَجْدَانِي خُشُوعًا يَهُزُّ أَرْكَانَ الغُرُورِ فِي نَفْسِي وَأَنَا أَتَأَمَّلُ أَدَبَ هَؤُلَاءِ الأَبْطَالِ، الَّذِينَ بَدَأُوا دُعَاءَهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَإِسْرَافِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلُوا النَّصْرَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ. وَكَمْ أَخْطَأَتْ نَفْسِي حِينَ تَعَلَّقَتْ بِالأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ وَنَسِيَتْ أَنَّ الذُّنُوبَ هِيَ الثَّغْرَةُ الحَقِيقِيَّةُ الَّتِي يَنْفُذُ مِنْهَا الخِذْلَانُ، وَأَنَّ الِانْكِسَارَ بَيْنَ يَدَيِ الخَالِقِ هُوَ مِفْتَاحُ الثَّبَاتِ وَالنَّصْرِ. أَتَأَمَّلُ الغَيْمَةَ المُثْقَلَةَ بِالمَاءِ

كَيْفَ تَنْخَفِضُ نَحْوَ الأَرْضِ بِتَوَاضُعٍ لِتَسْقِيَ التُّرَابَ العَطْشَانَ، فَيُكْرِمُهَا الخَالِقُ بِأَنْ يُنْبِتَ مِنْهَا أَجْمَلَ الرِّيَاضِ وَأَطْيَبَ الثِّمَارِ فِي الدُّنْيَا وَيَرْفَعَ بُخَارَهَا طَاهِرًا إِلَى السَّمَاءِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الجَمْعَ الإِلَهِيَّ بَيْنَ ثَوَابِ الدُّنْيَا مِنَ النَّصْرِ وَالعِزَّةِ وَبَيْنَ حُسْنِ ثَوَابِ الآخِرَةِ مِنَ الجَنَّةِ وَالرِّضْوَانِ، وَمَا أَبْهَى خَتْمَ الآيَةِ بِمَحَبَّةِ الخَالِقِ لِلْمُحْسِنِينَ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَتَانِ فِي قَلْبِي إِلَى مِحْرَابِ دُعَاءٍ وَمُحَاسَبَةٍ عِنْدَ كُلِّ شِدَّةٍ، فَأَبْدَأُ بِتَطْهِيرِ ذَنْبِي قَبْلَ أَنْ أَطْلُبَ نَصْرِي. فَكُلُّ نَصْرٍ يُطْلَبُ مَعَ الإِصْرَارِ عَلَى الذُّنُوبِ هُوَ سَرَابٌ مَخْذُولٌ، وَلَا فَوْزَ بِثَوَابِ الدُّنْيَا وَحُسْنِ ثَوَابِ الآخِرَةِ إِلَّا لِلْمُحْسِنِينَ الصَّادِقِينَ مَعَ اللَّهِ.

فَخُّ الطَّاعَةِ وَانْقِلَابُ الخَاسِرِينَ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٤٩)

الِاسْتِسْلَامُ لِوَسَاوِسِ الجَاحِدِينَ فِي سَاعَاتِ الِانْكِسَارِ هُوَ السُّقُوطُ فِي الفَخِّ القَاتِلِ، حَيْثُ يُقَادُ المُؤْمِنُ خُطْوَةً خُطْوَةً لِيَرْتَدَّ عَلَى عَقِبَيْهِ فَيَخْسَرَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ فِي صَفْقَةٍ مَشْؤُومَةٍ. أَشْعُرُ بِحَذَرٍ يَقِظٍ يَسْرِي فِي بَصِيرَتِي وَأَنَا أَسْمَعُ هَذَا النِّدَاءَ الإِلَهِيَّ المُشْفِقَ الَّذِي يَكْشِفُ غَايَةَ أَعْدَاءِ الإِيمَانِ، فَأُدْرِكُ أَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ لَنَا إِلَّا النُّكُوصَ عَنْ طَرِيقِ النُّورِ وَالعَوْدَةَ إِلَى ظُلُمَاتِ الجَاهِلِيَّةِ. وَكَمْ مَالَتْ نَفْسِي فِي أَوْقَاتِ الضَّعْفِ إِلَى مُسَايَرَةِ أَهْلِ البَاطِلِ أَوِ الإِصْغَاءِ إِلَى شُبُهَاتِهِمْ طَلَبًا لِلرَّاحَةِ العَاجِلَةِ، قَبْلَ أَنْ تُحَذِّرَنِي هَذِهِ الآيَةُ مِنْ أَنَّ نِهَايَةَ هَذَا الطَّرِيقِ هِيَ الِانْقِلَابُ بِالخُسْرَانِ المُبِينِ. أَرَى المُسَافِرَ الَّذِي قَطَعَ مَفَاوِزَ شَاقَّةً حَتَّى أَشْرَفَ عَلَى وَاحَةِ النَّجَاةِ وَمَدِينَةِ السَّلَامِ، فَيُصْغِي إِلَى قُطَّاعِ الطُّرُقِ الَّذِينَ يُقْنِعُونَهُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الوَرَاءِ فَيَهْلِكُ عَطَشًا فِي الصَّحْرَاءِ بَعْدَ أَنْ كَانَ عَلَى أَبْوَابِ الحَيَاةِ. فَمَا أَشَدَّ خَطَرَ طَاعَةِ الكَافِرِينَ وَتَقْلِيدِهِمْ فِي مَنَاهِجِ الحَيَاةِ وَالفِكْرِ، وَمَا أَبْأَسَ حَالَ مَنْ يَبِيعُ نُورَ الهِدَايَةِ لِيَعُودَ عَلَى عَقِبَيْهِ خَاسِرًا. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى دِرْعٍ يَحْمِي اسْتِقْلَالَ عَقِيدَتِي وَثَبَاتَ خُطْوَاتِي، فَلَا أُطِيعُ مَنْ يَدْعُونِي إِلَى التَّرَاجُعِ عَنْ دِينِي أَبَدًا. فَكُلُّ طَاعَةٍ لِأَهْلِ الكُفْرِ وَالزَّيْغِ هِيَ تَقَهْقُرٌ نَحْوَ الهَاوِيَةِ، وَلَا رِبْحَ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا فِي الثَّبَاتِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ المُسْتَقِيمِ.

وَلَايَةُ الخَالِقِ وَخَيْرُ النَّاصِرِينَ

صَدَى ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ (١٥٠)

تَتَهَاوَى كُلُّ الرَّايَاتِ الأَرْضِيَّةِ وَتَتَلَاشَى أَوْهَامُ السَّنَدِ البَشَرِيِّ أَمَامَ هَذِهِ الحَقِيقَةِ الكَوْنِيَّةِ السَّاطِعَةِ: أَنَّ الخَالِقَ العَظِيمَ هُوَ مَوْلَى المُؤْمِنِينَ وَوَلِيُّهُمْ وَخَيْرُ مَنْ يَنْصُرُهُمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ. أَشْعُرُ بِعِزَّةٍ تَمْلَأُ

أَرْجَاءَ رُوحِي وَتُغْنِينِي عَنْ أَبْوَابِ المخْلُوقِينَ جَمِيعًا، حِينَ أَسْتَقِرُّ فِي ظِلِّ هَذِهِ الوَلَايَةِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي لَا يَخْذُلُ صَاحِبَهَا وَلَا يَضِيعُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهَا. وَكَمْ تَعَلَّقَ قَلْبِي فِي سَالِفِ أَيَّامِي بِوُعُودِ البَشَرِ وَنُصْرَةِ الأَصْحَابِ فَمَا جَنَى سِوَى الخَيْبَةِ وَالِانْكِسَارِ، حَتَّى أَوَتْنِي هَذِهِ الآيَةُ إِلَى كَنَفِ المَوْلَى الحَقِّ الَّذِي يُحِيطُ عِبَادَهُ بِالرِّعَايَةِ وَالنَّصْرِ المؤَزَّرِ. أَتَأَمَّلُ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ الخَطَرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَيَرْتَمِي فِي أَحْضَانِ مَلِكٍ قَوِيٍّ رَحِيمٍ يَتَوَلَّى حِمَايَتَهُ وَرِعَايَتَهُ، فَيَشْعُرُ بِأَمَانٍ يَجْعَلُهُ يَبْتَسِمُ فِي وَجْهِ العَوَاصِفِ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ فِي حِمَى مَنْ لَا يُغْلَبُ. فَمَا أَعْظَمَ شَرَفَ الوَلَايَةِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُ القَوِيَّ العَزِيزَ سَنَدًا لِلضُّعَفَاءِ الصَّادِقِينَ، وَمَا أَصْدَقَ وَعْدَهُ بِالنَّصْرِ الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ نُصْرَةٍ فِي الوُجُودِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى مَلَاذٍ أَبَدِيٍّ أُفَوِّضُ فِيهِ أَمْرِي لِمَوْلَايَ الحَقِّ، فَأَمْشِي فِي الأَرْضِ مَرْفُوعَ الرَّأْسِ وَاثِقًا بِأَنَّ النَّصْرَ آتٍ لَا مَحَالَةَ. فَكُلُّ وَلَايَةٍ لِغَيْرِ الخَالِقِ هِيَ سَرَابٌ يَنْقَطِعُ عِنْدَ الشِّدَّةِ، وَلَا مَوْلَى لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا نَاصِرَ أَعْظَمَ مِنَ اللَّهِ.

سِهَامُ الرُّعْبِ وَمَأْوَى الظَّالِمِينَ

صَدَى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٥١)

حِينَ يَتَسَلَّلُ الشِّرْكُ إِلَى حَنَايَا الصَّدْرِ يَفْقِدُ القَلْبُ حِصْنَ الأَمَانِ الكَوْنِيِّ، فَتَقْذِفُ فِيهِ السَّمَاءُ سِهَامَ الرُّعْبِ الَّتِي تُزَلْزِلُ كِيَانَهُ مِنَ الدَّاخِلِ قَبْلَ أَنْ تَمَسَّهُ سُيُوفُ الخُصُومِ. أَشْعُرُ بِهَيْبَةِ العَدْلِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يَجْعَلُ عُقُوبَةَ المشْرِكِينَ نَابِعَةً مِنْ دَاخِلِ أَرْوَاحِهِمُ المَمْلُوءَةِ بِالأَوْهَامِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ الشِّرْكَ بِالخَالِقِ هُوَ مَنْبَعُ كُلِّ خَوْفٍ وَفَزَعٍ فِي الدُّنْيَا وَسَبَبُ الخُلُودِ فِي النَّارِ فِي الآخِرَةِ. وَكَمْ ظَنَّ المتَجَبِّرُونَ أَنَّ دُرُوعَهُمُ الحَدِيدِيَّةَ وَحُصُونَهُمُ العَالِيَةَ تَحْمِيهِمْ مِنْ خَوْفِ اللِّقَاءِ، فَإِذَا بِالرُّعْبِ يَتَسَلَّلُ إِلَى قُلُوبِهِمْ كَالشَّبَحِ الخَفِيِّ فَيَشُلُّ أَيْدِيَهُمْ وَيُبَدِّدُ جُمُوعَهُمْ بِلَا قِتَالٍ. أَرَى البَيْتَ المبْنِيَّ مِنَ الزُّجَاجِ الرَّقِيقِ فَوْقَ رِمَالٍ مُتَحَرِّكَةٍ كَيْفَ يَرْتَجِفُ سَاكِنُهُ عِنْدَ كُلِّ نَسْمَةِ هَوَاءٍ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَسْتَنِدُ إِلَى أَوْهَامٍ لَمْ يُنَزِّلِ الخَالِقُ بِهَا سُلْطَانًا وَلَا بُرْهَانًا. فَمَا أَعْظَمَ قُدْرَةَ الرَّبِّ الَّذِي يَمْلِكُ نَوَاصِيَ القُلُوبِ فَيَمْلَأُ صُدُورَ المؤْمِنِينَ سَكِينَةً وَيَقْذِفُ فِي قُلُوبِ الكَافِرِينَ الرُّعْبَ، وَمَا أَبْأَسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ فِي سَعِيرِ الجَحِيمِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى تَوْحِيدٍ خَالِصٍ يَطْرُدُ كُلَّ شَرِيكٍ وَوَهْمٍ مِنْ قَلْبِي، لِأَنْعَمَ بِالأَمَانِ الدَّائِمِ وَأَنْجُوَ مِنْ رُعْبِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ. فَكُلُّ تَعَلُّقٍ بِغَيْرِ الخَالِقِ هُوَ بَوَّابَةٌ لِلْخَوْفِ وَالهَلَعِ، وَلَا أَمَانَ لِلْقُلُوبِ إِلَّا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَالِابْتِعَادِ عَنِ الظُّلْمِ.

صِدْقُ الوَعْدِ وَفِتْنَةُ التَّنَازُعِ

صَدَى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥٢)

مِيزَانُ النَّصْرِ السَّمَاوِيِّ لَا يُخْلِفُ مِيعَادَهُ أَبَدًا، وَلَكِنَّ هَزِيمَةَ النَّفْسِ أَمَامَ بَرِيقِ الدُّنْيَا وَتَنَازُعَ الصُّفُوفِ وَعِصْيَانَ الأَمْرِ هِيَ الثَّغَرَاتُ الَّتِي تَقْلِبُ طَعْمَ الغَلَبَةِ إِلَى مَرَارَةِ الِابْتِلَاءِ. أَشْعُرُ بِوَجَلٍ عَمِيقٍ يَهُزُّ أَرْكَانَ ضَمِيرِي وَأَنَا أَتَأَمَّلُ هَذَا التَّشْرِيحَ الدَّقِيقَ لِأَسْبَابِ الانْكِسَارِ، فَأَرَى كَيْفَ يَتَسَلَّلُ حُبُّ الدُّنْيَا فِي لَحْظَةِ النَّصْرِ لِيُفْسِدَ ثَمَرَةَ الطَّاعَةِ وَالثَّبَاتِ. وَكَمْ انْتَصَرَتْ رُوحِي فِي بَعْضِ جَوَلَاتِ الصَّبْرِ حَتَّى إِذَا لَاحَتْ لَهَا مَغَانِمُ الدُّنْيَا الزَّائِلَةُ تَنَازَعَتْ وَعَصَتْ، فَأَدْرَكَهَا لُطْفُ الخَالِقِ بِالِابْتِلَاءِ ثُمَّ غَمَرَهَا بِالعَفْوِ وَالفَضْلِ الكَبِيرِ. أَتَأَمَّلُ السَّفِينَةَ الَّتِي شَقَّتْ عُبَابَ البَحْرِ وَأَشْرَفَتْ عَلَى شَاطِئِ الأَمَانِ، فَتَنَازَعَ مَلَّاحُوهَا عَلَى الغَنَائِمِ وَتَرَكُوا الدَّفَّةَ فَانْحَرَفَتْ بِهِمُ الأَمْوَاجُ لِيَتَعَلَّمُوا أَنَّ الطَّاعَةَ هِيَ سِرُّ النَّجَاةِ. فَمَا أَعْدَلَ سُنَّةَ الرَّبِّ الَّتِي تَرْبِطُ النَّصْرَ بِالطَّاعَةِ وَالوَحْدَةِ وَإِرَادَةِ الآخِرَةِ، وَمَا أَوْسَعَ عَفْوَهُ وَفَضْلَهُ الَّذِي لَا يَتْرُكُ المؤْمِنِينَ فِي هَاوِيَةِ أَخْطَائِهِمْ بَلْ يَغْفِرُ لَهُمْ وَيُرَبِّيهِمْ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى حَارِسٍ يَقِظٍ يَحْمِي قَلْبِي مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا عِنْدَ إِقْبَالِ النِّعَمِ، فَأَشْكُرُ عَفْوَ الخَالِقِ وَأُخْلِصُ إِرَادَتِي لِلْآخِرَةِ. فَكُلُّ نِزَاعٍ وَعِصْيَانٍ بَعْدَ انْكِشَافِ النِّعْمَةِ هُوَ اسْتِجْلَابٌ لِلِابْتِلَاءِ، وَلَا نَجَاةَ مِنْ عَثَرَاتِ النُّفُوسِ إِلَّا بِعَفْوِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ عَلَى المؤْمِنِينَ.

تِيهُ الهَرَبِ وَغَمُّ الفَاجِعَةِ

صَدَى ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٥٣)

فِي سَاعَةِ الذُّهُولِ وَالهَلَعِ تَتَشَتَّتُ الخُطُوَاتُ صُعُودًا فِي الجَبَلِ دُونَ الْتِفَاتٍ، بَيْنَمَا يَظَلُّ صَوْتُ الهُدَى يُنَادِي الشَّارِدِينَ مِنْ خَلْفِهِمْ لِيُعِيدَهُمْ إِلَى جَادَّةِ الثَّبَاتِ وَيُدَاوِيَ غَمَّهُمْ بِغَمٍّ أَعْظَمَ يُنْسِيهِمْ حُطَامَ الدُّنْيَا. أَجِدُ فِي صَدْرِي عَجَبًا مِنْ هَذِهِ الحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ اللَّطِيفَةِ الَّتِي تُدَاوِي الجُرْحَ بِالجُرْحِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ تَتَابُعَ الغُمُومِ عَلَى القَلْبِ المؤْمِنِ قَدْ يَكُونُ رَحْمَةً خَفِيَّةً تَصْرِفُهُ عَنِ الحَسْرَةِ عَلَى المَغَانِمِ الفَائِتَةِ وَالآلَامِ العَابِرَةِ. وَكَمْ جَرَيْتُ فِي دُرُوبِ الحَيَاةِ مَذْعُورًا خَلْفَ أَوْهَامِ النَّجَاةِ الفَرْدِيَّةِ مُعْرِضًا عَنْ نِدَاءِ الوَحْيِ، حَتَّى أَدْرَكَنِي لُطْفُ الخَالِقِ بِابْتِلَاءٍ أَيْقَظَنِي مِنْ غَفْلَتِي وَطَهَّرَ قَلْبِي مِنَ التَّعَلُّقِ بِمَا فَاتَنِي.

أَتَأَمَّلُ الطَّبِيبَ الحَكِيمَ الَّذِي يُحْدِثُ وَخْزَةً شَدِيدَةً فِي جَسَدِ المَرِيضِ لِيُوقِظَهُ مِنْ غَيْبُوبَةٍ قَاتِلَةٍ، فَيَنْسَى المَرِيضُ أَلَمَ جُرْحِهِ القَدِيمِ وَيَسْتَعِيدُ وَعْيَهُ لِيَنْجُوَ بِحَيَاتِهِ كُلِّهَا. فَمَا أَدَقَّ خِبْرَةَ الخَالِقِ بِخَبَايَا النُّفُوسِ البَشَرِيَّةِ وَتَقَلُّبَاتِهَا فِي سَاعَاتِ الشِّدَّةِ، وَمَا أَرْحَمَ تَرْبِيَتَهُ الَّتِي تُحَرِّرُ القُلُوبَ مِنَ الحُزْنِ عَلَى الدُّنْيَا. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى تَسْلِيمٍ مَلِيءٍ بِالثِّقَةِ عِنْدَ تَوَالِي الكُرُوبِ، فَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ غَمٍّ يَسُوقُهُ القَدَرُ إِنَّمَا هُوَ دَوَاءٌ لِتَطْهِيرِ رُوحِي. فَكُلُّ فِرَارٍ عَنْ نِدَاءِ الحَقِّ هُوَ ضَيَاعٌ فِي شِعَابِ التِّيهِ، وَلَا شِفَاءَ لِأَحْزَانِ القُلُوبِ إِلَّا بِتَدْبِيرِ اللَّهِ الخَبِيرِ بِمَا يَعْمَلُونَ.

سَكِينَةُ النُّعَاسِ وَظُنُونُ الجَاهِلِيَّةِ

صَدَى ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٥٤)

فِي عُمْقِ العَاصِفَةِ وَبَعْدَ اشْتِدَادِ الغَمِّ يَهْبِطُ النُّعَاسُ كَنَسْمَةِ سَلَامٍ سَمَاوِيَّةٍ لِيُغْشِيَ جُفُونَ المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، بَيْنَمَا تَتَمَزَّقُ قُلُوبُ المُنَافِقِينَ بِالظُّنُونِ الجَاهِلِيَّةِ وَالهَلَعِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ. أَشْعُرُ بِدِفْءِ هَذِهِ السَّكِينَةِ العَجِيبَةِ الَّتِي تَجْعَلُ العَبْدَ يَنَامُ مُطْمَئِنًّا وَالسُّيُوفُ فَوْقَ رَأْسِهِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ الأَمَانَ الحَقِيقِيَّ هُوَ هِبَةٌ يَقْذِفُهَا الخَالِقُ فِي القُلُوبِ المُوَحِّدَةِ وَلَا تَصْنَعُهُ الحُصُونُ وَلَا البُيُوتُ المُغْلَقَةُ. وَكَمْ حَاوَلَتْ نَفْسِي أَنْ تَهْرُبَ مِنَ القَدَرِ إِلَى مَخَابِئِ الحَذَرِ وَسُوءِ الظَّنِّ، فَعَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ المَوْتُ سَيَخْرُجُ بِقَدَمَيْهِ إِلَى مَضْجَعِهِ وَلَوْ كَانَ فِي أَحْصَنِ القُصُورِ، وَأَنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِ المَالِكِ الحَكِيمِ. أَرَى الطَّيْرَ المُطْمَئِنَّ الَّذِي يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ فِي عُشِّهِ الصَّغِيرِ فَوْقَ غُصْنٍ تَهُزُّهُ الرِّيَاحُ لِأَنَّهُ يَثِقُ بِرِعَايَةِ خَالِقِهِ، بَيْنَمَا يَرْتَجِفُ الثَّعْلَبُ المَاكِرُ فِي جُحْرِهِ المُظْلِمِ لَا يَذُوقُ طَعْمَ النَّوْمِ مِنْ شِدَّةِ القَلَقِ وَسُوءِ الظَّنِّ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّمْحِيصَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَكْشِفُ مَا فِي الصُّدُورِ وَيُنَقِّي القُلُوبَ مِنْ أَدْرَانِ الجَاهِلِيَّةِ، وَمَا أَبْهَى طُمَأْنِينَةَ اليَقِينِ بِقَدَرِ السَّمَاءِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى مَلَاذٍ مِنَ السَّكِينَةِ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِرَبِّي فِي أَحْلَكِ الظُّرُوفِ، فَأُسَلِّمُ الأَمْرَ كُلَّهُ لِمَالِكِهِ وَأَنَامُ قَرِيرَ العَيْنِ. فَكُلُّ حَذَرٍ يَقُودُ إِلَى سُوءِ الظَّنِّ بِالخَالِقِ هُوَ عَذَابٌ مُعَجَّلٌ فِي الصُّدُورِ، وَلَا أَمَنَةَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِالتَّسْلِيمِ لِلَّهِ العَلِيمِ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

زَلَّةُ الِاسْتِزْلَالِ وَعَفْوُ الحَلِيمِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٥٥)

لَحْظَةُ التَّرَاجُعِ وَالفِرَارِ عِنْدَ الْتِحَامِ الصُّفُوفِ لَمْ تَكُنْ نِفَاقًا مُتَأَصِّلًا فِي قُلُوبِ الصَّادِقِينَ، بَلْ كَانَتْ زَلَّةً عَابِرَةً اسْتَدْرَجَهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَيْهَا بِسَبَبِ بَعْضِ ذُنُوبِهِمُ السَّابِقَةِ، فَأَدْرَكَتْهُمْ مَغْفِرَةُ الحَلِيمِ وَعَفْوُهُ الوَاسِعُ. أَشْعُرُ بِرَهْبَةٍ وَرَجَاءٍ يَتَعَانَقَانِ فِي صَدْرِي وَأَنَا أَقْرَأُ هَذَا التَّحْلِيلَ النَّفْسِيَّ وَالرُّوحِيَّ الدَّقِيقَ، فَأُدْرِكُ أَنَّ المَعَاصِيَ الصَّغِيرَةَ فِي أَيَّامِ الرَّخَاءِ هِيَ الحَبْلُ الَّذِي يَسْحَبُنَا بِهِ الشَّيْطَانُ نَحْوَ السُّقُوطِ فِي سَاعَاتِ الشِّدَّةِ. وَكَمْ تَعَثَّرَتْ قَدَمِي فِي مَوَاقِفِ الثَّبَاتِ فَتَلَمَّسْتُ السَّبَبَ فَوَجَدْتُهُ أَثَرًا لِذَنْبٍ قَدِيمٍ كَسَبَتْهُ يَدَايَ فِي غَفْلَةٍ، ثُمَّ غَمَرَنِي حِلْمُ الخَالِقِ وَعَفْوُهُ فَأَعَادَنِي إِلَى صَفِّ الصَّادِقِينَ مَرَّةً أُخْرَى.

أَتَأَمَّلُ السَّائِرَ فِي الطَّرِيقِ الزَّلِقِ الَّذِي تَرَكَ بَقَايَا الطِّينِ تَعْلَقُ بِنَعْلِهِ فِي أَوَّلِ المِسِيرِ، فَلَمَّا بَلَغَ المُنْحَدَرَ الصَّعْبَ انْزَلَقَتْ قَدَمُهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ الطِّينِ القَدِيمِ، فَمَدَّ إِلَيْهِ المَلِكُ الرَّحِيمُ يَدَ العَفْوِ وَأَقَامَهُ مِنْ عَثْرَتِهِ. فَمَا أَعْظَمَ حِلْمَ الرَّبِّ الَّذِي لَا يُعَاجِلُ عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ بِالعُقُوبَةِ عِنْدَ الزَّلَلِ، وَمَا أَجْمَلَ بَشَارَةَ العَفْوِ الَّتِي تَمْسَحُ عَارَ الهَزِيمَةِ وَتُعِيدُ لِلْقَلْبِ ثِقَتَهُ وَكَرَامَتَهُ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى حَذَرٍ مِنَ الذُّنُوبِ الخَفِيَّةِ حَتَّى لَا تَكُونَ مَدْخَلًا لِلشَّيْطَانِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَطَمَعٍ دَائِمٍ فِي عَفْوِ الغَفُورِ الحَلِيمِ. فَكُلُّ ذَنْبٍ يَتَهَاوَنُ بِهِ العَبْدُ هُوَ ثَغْرَةٌ يَسْتَزِلُّهُ مِنْهَا الشَّيْطَانُ يَوْمَ اللِّقَاءِ، وَلَا إِقَالَةَ لِلْعَثَرَاتِ إِلَّا بِمَغْفِرَةِ اللَّهِ الغَفُورِ الحَلِيمِ.

حَسْرَةُ المُكَذِّبِينَ وَبَصِيرَةُ التَّوْحِيدِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٥٦)

كَلِمَةٌ لَوْ حِينَ تَصْدُرُ عَنْ قَلْبٍ جَاحِدٍ تَعْتَرِضُ عَلَى قَدَرِ المَوْتِ وَالحَيَاةِ، فَتَتَحَوَّلُ إِلَى خَنْجَرٍ مِنَ الحَسْرَةِ يَغْرِسُهُ الخَالِقُ فِي صَدْرِ قَائِلِهَا لِيُعَذِّبَهُ بِأَوْهَامِهِ. أَشْعُرُ بِطُمَأْنِينَةٍ تَمْلَأُ جَوَانِحِي وَتُطْفِئُ نِيرَانَ النَّدَمِ عَلَى المَاضِي وَأَنَا أُصْغِي إِلَى هَذَا النَّهْيِ الإِلَهِيِّ الرَّحِيمِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ الإِحْيَاءَ وَالإِمَاتَةَ بِيَدِ الخَالِقِ وَحْدَهُ لَا يَمْنَعُهُمَا بَقَاءٌ فِي الدِّيَارِ وَلَا يُعَجِّلُ بِهِمَا سَفَرٌ أَوْ جِهَادٌ. وَكَمْ أَحْرَقَتْ نَفْسِي قَلْبَهَا بِأَسْئِلَةِ التَّحَسُّرِ وَالتَّمَنِّي عَلَى أَحْدَاثٍ مَضَتْ وَآجَالٍ انْقَضَتْ، قَبْلَ أَنْ تُحَرِّرَنِي هَذِهِ الآيَةُ مِنْ عَذَابِ

الحَسْرَةِ الجَاهِلِيَّةِ وَتَرُدَّنِي إِلَى الرِّضَا بِقَضَاءِ البَصِيرِ العَلِيمِ. أَرَى الوَرَقَةَ الخَضْرَاءَ الَّتِي حَانَ مَوْعِدُ سُقُوطِهَا فِي الخَرِيفِ كَيْفَ تَنْفَصِلُ عَنِ الغُصْنِ بِسُكُونٍ سَوَاءٌ كَانَتْ فِي قَلْبِ الغَابَةِ الكَثِيفَةِ أَوْ عَلَى قِمَّةِ الجَبَلِ المَكْشُوفِ، لِأَنَّ أَمْرَ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ يَسْرِي عَلَيْهَا بِإِذْنِ خَالِقِهَا لَا بِحَسَبِ مَكَانِهَا. فَمَا أَشْقَى قُلُوبَ الكَافِرِينَ الَّتِي تَتَمَزَّقُ بِالحَسْرَةِ وَالأَلَمِ لِجَهْلِهَا بِحَقِيقَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَمَا أَسْعَدَ المُؤْمِنَ الَّذِي يُسَلِّمُ أَمْرَ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ لِمَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى بَلْسَمٍ يَشْفِي صَدْرِي مِنْ مَرَارَةِ الحَسْرَةِ وَالِاعْتِرَاضِ، فَأَرْضَى بِتَدْبِيرِ رَبِّي فِي كُلِّ حَالٍ. فَكُلُّ اعْتِرَاضٍ عَلَى مَقَادِيرِ المَوْتِ وَالحَيَاةِ هُوَ حَسْرَةٌ مُقِيمَةٌ فِي القُلُوبِ، وَلَا مُحْيِيَ وَلَا مُمِيتَ فِي الكَوْنِ إِلَّا اللَّهُ البَصِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ.

كَنْزُ الشَّهَادَةِ وَمِيزَانُ الخَيْرِ الأَعْظَمِ

صَدَى ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١٥٧)

عَلَى ضِفَافِ المَوْتِ فِي سَبِيلِ الحَقِّ تَتَهَاوَى كُلُّ كُنُوزِ الأَرْضِ وَتَصْغُرُ جِبَالُ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ أَمَامَ جَوْهَرَتَيِ المَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ اللَّتَيْنِ يَهَبُهُمَا الخَالِقُ لِعِبَادِهِ الصَّادِقِينَ. أَشْعُرُ بِزُهْدٍ حَقِيقِيٍّ يَمْلَأُ قَلْبِي وَيَجْعَلُنِي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَجْمَعُهُ أَهْلُ الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ وَجَاهٍ كَأَنَّهُ رَمَادٌ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ، حِينَ أُقَارِنُهُ بِفَيْضِ المَغْفِرَةِ الَّتِي تَمْحُو الزَّلَّاتِ وَالرَّحْمَةِ الَّتِي تُدْخِلُ الجِنَانَ. وَكَمْ بَهَرَتْنِي فِي سَالِفِ أَيَّامِي أَرْقَامُ الثَّرَوَاتِ وَبَرِيقُ الممْتَلَكَاتِ الَّتِي يَتَهَالَكُ عَلَيْهَا البَشَرُ لَيْلَ نَهَارَ، حَتَّى كَشَفَتْ لِي هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ لَحْظَةَ مَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. أَتَأَمَّلُ الغَوَّاصَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ قَاعِ البَحْرِ حَامِلًا دُرَّةً يَتِيمَةً لَا تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ تَكْفِيهِ وَتُغْنِيهِ إِلَى الأَبَدِ، بَيْنَمَا يَنْشَغِلُ الصِّبْيَةُ عَلَى الشَّاطِئِ بِجَمْعِ الحَصَى المُلَوَّنِ وَالأَصْدَافِ الفَارِغَةِ الَّتِي تَتَكَسَّرُ فِي أَيْدِيهِمْ عِنْدَ الرُّجُوعِ. فَمَا أَعْظَمَ رِبْحَ مَنْ بَاعَ نَفْسَهُ الفَانِيَةَ فِي سَبِيلِ رَبِّهِ فَنَالَ المَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ الخَالِدَةَ، وَمَا أَخْسَرَ صَفْقَةَ مَنْ أَفْنَى عُمْرَهُ فِي جَمْعِ التُّرَابِ ثُمَّ غَادَرَهُ عَارِيًا. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى مِقْيَاسٍ رُوحِيٍّ يُرَتِّبُ أَوْلَوِيَّاتِ حَيَاتِي، فَأَجْعَلُ سَعْيِي كُلَّهُ لِتَحْصِيلِ مَغْفِرَةِ السَّمَاءِ وَرَحْمَتِهَا. فَكُلُّ مَا يَجْمَعُهُ البَشَرُ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا هُوَ سَرَابٌ يَنْقَطِعُ عِنْدَ المَوْتِ، وَلَا خَيْرَ أَبْقَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْ مَغْفِرَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

بَوَّابَةُ الحَشْرِ وَوِجْهَةُ الخَلَائِقِ

صَدَى ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١٥٨)

تَتَعَدَّدُ أَسْبَابُ الرَّحِيلِ عَنْ هَذِهِ الأَرْضِ بَيْنَ مَوْتٍ عَلَى الفِرَاشِ أَوْ قَتْلٍ فِي مَيْدَانِ الفِدَاءِ، وَلَكِنَّ

البَوَّابَةَ النِّهَائِيَّةَ وَاحِدَةٌ تَقُودُ الخَلَائِقَ كُلَّهَا إِلَى سَاحَةِ الحَشْرِ بَيْنَ يَدَيِ الخَالِقِ العَظِيمِ. أَجِدُ فِي وَجْدَانِي يَقَظَةً تَخْتَصِرُ مَسَافَةَ الزَّمَنِ وَتَجْعَلُنِي أَرَى نِهَايَةَ المِطَافِ مَاثِلَةً أَمَامَ عَيْنَيَّ، فَيَهُونُ عَلَيَّ كَيْفَ يَكُونُ المَوْتُ وَمَتَى يَأْتِي مَا دَامَ المَصِيرُ الحَتْمِيُّ هُوَ اللِّقَاءَ بِرَبِّ العَالَمِينَ. وَكَمْ انْشَغَلَتْ عُقُولُ النَّاسِ بِتَفَاصِيلِ الوَسَائِلِ وَمَخَاوِفِ الحَوَادِثِ وَالأَمْرَاضِ، غَافِلَةً عَنِ الحَقِيقَةِ الكُبْرَى وَهِيَ الِاسْتِعْدَادُ لِذَلِكَ الحَشْرِ المَهِيبِ الَّذِي لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهُ أَحَدٌ. أَرَى الأَنْهَارَ العَظِيمَةَ وَالجَدَاوِلَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي تَشُقُّ طُرُقًا مُخْتَلِفَةً عَبْرَ السُّهُولِ وَالوِدْيَانِ كَيْفَ تَنْتَهِي جَمِيعُهَا إِلَى مَصَبٍّ وَاحِدٍ فِي المُحِيطِ الكَبِيرِ، فَلَا يَبْقَى نَهْرٌ مُعَلَّقًا فِي الطَّرِيقِ وَلَا جَدْوَلٌ يَضِيعُ عَنْ وِجْهَتِهِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّذْكِيرَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يُوَحِّدُ بُوصَلَةَ الإِنْسَانِ نَحْوَ يَوْمِ اللِّقَاءِ وَالحِسَابِ، وَمَا أَجْدَرَ العَاقِلَ بِأَنْ يُصْلِحَ زَادَهُ قَبْلَ أَنْ يُسَاقَ إِلَى مَوْقِفِ العَرْضِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى اسْتِعْدَادٍ دَائِمٍ لِيَوْمِ الحَشْرِ، فَلَا أَخْشَى تَنَوُّعَ أَسْبَابِ المَوْتِ بَلْ أَهْتَمُّ بِسَلَامَةِ القَلْبِ عِنْدَ اللِّقَاءِ. فَكُلُّ طَرِيقٍ يَسْلُكُهُ الإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ يَنْتَهِي عِنْدَ عَتَبَةِ المَوْتِ، وَلَا مَصِيرَ لِلْخَلَائِقِ جَمِيعًا إِلَّا الحَشْرُ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ.

لِينُ الرَّحْمَةِ وَنُورُ الشُّورَى

صَدَى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١٥٩)

رَحْمَةُ السَّمَاءِ حِينَ تَتَنَزَّلُ عَلَى قَلْبِ القَائِدِ تُحِيلُهُ نَسِيمًا رَقِيقًا يَجْمَعُ القُلُوبَ المُنْكَسِرَةَ حَوْلَهُ، وَلَوْ كَانَ صَخْرَةً غَلِيظَةً لَتَنَاثَرَتِ الأَرْوَاحُ مِنْ حَوْلِهِ كَالأَوْرَاقِ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ. أَجِدُ فِي صَدْرِي انْحِنَاءً وَإِكْبَارًا لِهَذَا المَنْهَجِ النَّبَوِيِّ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي يُدَاوِي عَثَرَاتِ الأَتْبَاعِ بِاللِّينِ وَالعَفْوِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالمُشَاوَرَةِ، ثُمَّ يَنْطَلِقُ بِعَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ مُتَوَكِّلًا عَلَى الخَالِقِ لِيَنَالَ مَحَبَّتَهُ. وَكَمْ أَفْسَدَتْ قَسْوَةُ الطَّبْعِ وَغِلْظَةُ القَلْبِ عِنْدَ الخَطَأِ رَوَابِطَ المَوَدَّةِ وَالأُخُوَّةِ فِي حَيَاتِي، حَتَّى عَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ اللِّينَ هُوَ المِغْنَاطِيسُ الإِلَهِيُّ الَّذِي يَأْسِرُ القُلُوبَ وَيُعِيدُ بِنَاءَ الثِّقَةِ بَعْدَ الانْكِسَارِ. أَتَأَمَّلُ الماءَ العَذْبَ الرَّقِيقَ كَيْفَ يَحْتَضِنُ البُذُورَ وَالصُّخُورَ بِلُطْفٍ فَتَجْتَمِعُ حَوْلَهُ الحَيَاةُ وَتُزْهِرُ الضِّفَافُ، بَيْنَمَا النَّارُ المحْرِقَةُ الغَلِيظَةُ تَدْفَعُ كُلَّ كَائِنٍ حَيٍّ إِلَى الفِرَارِ وَالِابْتِعَادِ عَنْ لَهِيبِهَا. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الدُّسْتُورَ التَّرْبَوِيَّ وَالقِيَادِيَّ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّحْمَةِ وَالشُّورَى وَالعَزْمِ وَالتَّوَكُّلِ، وَمَا أَجْمَلَ جَائِزَةَ المتَوَكِّلِينَ الَّذِينَ يَحْظَوْنَ بِمَحَبَّةِ رَبِّ العَالَمِينَ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى مَنْهَجِ حَيَاةٍ يُطَهِّرُ قَلْبِي مِنَ الغِلْظَةِ وَالِاسْتِبْدَادِ،

فَأَعْفُو وَأُشَاوِرُ وَأَتَوَكَّلُ عَلَى رَبِّي فِي كُلِّ أَمْرٍ. فَكُلُّ قَسْوَةٍ وَغِلْظَةٍ فِي المعَامَلَةِ هِيَ مِعْوَلٌ يُفَرِّقُ القُلُوبَ وَيَهْدِمُ البُنْيَانَ، وَلَا مَحَبَّةَ مِنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ مَحَبَّتِهِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ الصَّادِقِينَ.

مِيزَانُ الغَلَبَةِ وَخِذْلَانُ المخْلُوقِينَ

صَدَى ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٦٠)

مُعَادَلَةُ القُوَّةِ فِي الكَوْنِ مُخْتَصَرَةٌ فِي كَلِمَتَيْنِ تَهْزِمَانِ كُلَّ جَبَرُوتٍ أَرْضِيٍّ: نَصْرُ السَّمَاءِ الَّذِي لَا يُقْهَرُ، وَخِذْلَانُهَا الَّذِي لَا تَجْبُرُهُ جُيُوشُ الأَرْضِ وَكُنُوزُهَا أَجْمَعِينَ. أَشْعُرُ بِعِزَّةٍ تَخْتَرِقُ حُجُبَ الخَوْفِ وَتُسْقِطُ هَيْبَةَ الطُّغَاةِ مِنْ عَيْنِي وَأَنَا أَقْرَأُ هَذَا التَّقْرِيرَ الكَوْنِيَّ المطْلَقَ، فَأُدْرِكُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الخَالِقُ مَعِي فَمَنْ عَلَيَّ، وَإِذَا تَخَلَّى عَنِّي فَمَنْ ذَا الَّذِي يَمْلِكُ نَفْعِي أَوْ نُصْرَتِي. وَكَمْ أَخَافَتْنِي فِي سَالِفِ أَيَّامِي تَخَالُفَاتُ البَشَرِ وَضَخَامَةُ الأَعْدَادِ، أَوِ اطْمَأَنَّ قَلْبِي إِلَى وُعُودِ الخَلْقِ وَسَنَدِهِمْ، حَتَّى أَيْقَظَتْنِي هَذِهِ الآيَةُ لِتُرْجِعَ التَّوَكُّلَ كُلَّهُ إِلَى مَالِكِ النَّصْرِ وَالخِذْلَانِ. أَرَى السَّفِينَةَ الَّتِي تَدْفَعُهَا رِيَاحُ السَّمَاءِ المؤَاتِيَةُ كَيْفَ تَشُقُّ المحِيطَ وَتَصِلُ إِلَى مَرْفَئِهَا وَلَوْ تَكَالَبَتْ عَلَيْهَا الأَمْوَاجُ، بَيْنَمَا السَّفِينَةُ المخْذُولَةُ الَّتِي أَمْسَكَتْ عَنْهَا الرِّيحُ تَبْقَى سَاكِنَةً عَاجِزَةً وَلَوِ اجْتَمَعَ أَهْلُ الأَرْضِ لِدَفْعِهَا بِأَيْدِيهِمْ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّوْحِيدَ الخَالِصَ الَّذِي يَقْطَعُ الرَّجَاءَ مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ وَيَرْبِطُ القَلْبَ المؤْمِنَ بِرَبِّهِ وَحْدَهُ، وَمَا أَشَدَّ عَجْزَ الخَلْقِ كُلِّهِمْ إِذَا أَرَادَ الخَالِقُ خِذْلَانَ عَبْدٍ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى صَخْرَةِ تَوَكُّلٍ لَا تَتَزَحْزَحُ أَمَامَ الأَعَاصِيرِ، فَلَا أَخْشَى غَالِبًا إِذَا نَصَرَنِي رَبِّي وَلَا أَرْجُو نَاصِرًا سِوَاهُ. فَكُلُّ قُوَّةٍ تَقِفُ فِي وَجْهِ مَنْ نَصَرَهُ الخَالِقُ هِيَ هَبَاءٌ مَنْثُورٌ، وَلَا مَلْجَأَ وَلَا مُتَوَكَّلَ لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَّا عَلَى اللهِ.

سِفْرُ الصَّدَى الرَّابِعُ وَالعِشْرُونَ

نَزَاهَةُ النُّبُوَّةِ وَثِقَلُ الغُلُولِ

صَدَى ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦١)

سَاحَةُ النُّبُوَّةِ مِحْرَابٌ طَاهِرٌ تَتَنَزَّهُ عَنْ دَنَسِ الخِيَانَةِ وَغُلُولِ المالِ، فَلَا يَمْتَدُّ ظِلُّ الشُّبْهَةِ إِلَى أُمَنَاءِ السَّمَاءِ بَيْنَمَا يَحْمِلُ الخَائِنُ مَسْرُوقَاتِهِ ثِقْلًا فَاضِحًا عَلَى ظَهْرِهِ يَوْمَ العَرْضِ الكَبِيرِ. أَشْعُرُ بِرَهْبَةِ الأَمَانَةِ تَسْرِي فِي أَوْصَالِي وَأَنَا أَتَصَوَّرُ مَشْهَدَ القِيَامَةِ حِينَ يَأْتِي كُلُّ غَالٍّ بِمَا احْتَلَسَهُ فِي الخَفَاءِ، فَأَخْشَى عَلَى يَدِي وَقَلْبِي مِنْ أَيِّ حَقٍّ ضَائِعٍ أَوْ أَمَانَةٍ مَنْقُوصَةٍ تُثْقِلُ كَاهِلِي غَدًا. وَكَمْ ظَنَّتِ النُّفُوسُ الضَّعِيفَةُ فِي عَتْمَةِ الدُّنْيَا أَنَّ المالَ المَغْلُولَ يَزِيدُ فِي رَصِيدِهَا أَوْ يَمْنَحُهَا القُوَّةَ، قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ لَهَا هَذِهِ الآيَةُ أَنَّهُ حِمْلٌ مِنَ النَّارِ وَالفَضِيحَةِ يَنْتَظِرُ صَاحِبَهُ عِنْدَ المِيزَانِ العَادِلِ. أَتَأَمَّلُ السَّارِقَ الَّذِي يُخْبِئُ الجَمْرَ المُتَّقِدَ تَحْتَ ثِيَابِهِ الفَاخِرَةِ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ كَنْزٌ ثَمِينٌ، فَلَا يَلْبَثُ اللَّهِيبُ أَنْ يَخْرِقَ سِتْرَهُ وَيَفْضَحَ سَرِقَتَهُ أَمَامَ أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ. فَمَا أَعْظَمَ نَزَاهَةَ الرُّسُلِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ أَمَانَةَ السَّمَاءِ بِيَدٍ بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ، وَمَا أَعْدَلَ قَضَاءَ الرَّبِّ الَّذِي يُوَفِّي كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ دُونَ ذَرَّةِ ظُلْمٍ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى مِيزَانٍ دَقِيقٍ لِلْأَمَانَةِ وَالنَّزَاهَةِ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ، فَأُطَهِّرُ كَسْبِي مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ خَشْيَةَ الفَضِيحَةِ يَوْمَ اللِّقَاءِ. فَكُلُّ مَالٍ يُؤْخَذُ بِغَيْرِ حَقٍّ هُوَ عِبْءٌ فَاضِحٌ عَلَى عُنُقِ صَاحِبِهِ يَوْمَ الدِّينِ، وَلَا نَجَاةَ عِنْدَ مِيزَانِ اللَّهِ إِلَّا بِيَدٍ نَقِيَّةٍ وَذِمَّةٍ بَرِيئَةٍ.

مِيزَانُ الرِّضْوَانِ وَهَاوِيَةُ السَّخَطِ

صَدَى ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٦٢)

بَيْنَ مَنْ يَسِيرُ فِي مَدَارِ الرِّضْوَانِ الإِلَهِيِّ مُتَلَمِّسًا مَوَاقِعَ المَحَبَّةِ وَالطَّاعَةِ، وَبَيْنَ مَنْ يَعُودُ مُثْقَلًا بِغَضَبِ السَّمَاءِ نَحْوَ جَهَنَّمَ، تَنْفَتِحُ هُوَّةٌ سَحِيقَةٌ لَا يَسْتَوِي طَرَفَاهَا فِي مِيزَانِ العَقْلِ وَلَا الفِطْرَةِ. أَشْعُرُ بِبَصِيرَتِي تَفْرِزُ الطَّرِيقَيْنِ بِوُضُوحٍ قَاطِعٍ يَطْرُدُ كُلَّ حَيْرَةٍ أَوْ تَرَدُّدٍ، فَأَرَى أَنَّ مَقْصِدَ الحَيَاةِ كُلِّهَا يَتَلَخَّصُ فِي تَحْصِيلِ رِضَا الخَالِقِ وَاجْتِنَابِ مَوَاطِنِ سَخَطِهِ. وَكَمْ تَشَابَهَتْ عَلَى البَصَائِرِ الغَافِلَةِ السُّبُلُ فِي دَارِ الفَنَاءِ حِينَ قَاسَتْهَا بِمَقَايِيسِ المادَّةِ وَالشَّهَوَاتِ، قَبْلَ أَنْ يُوقِظَهَا هَذَا الِاسْتِفْهَامُ الإِنْكَارِيُّ المُزَلْزِلُ لِيُبَيِّنَ الفَارِقَ الأَبَدِيَّ بَيْنَ نَعِيمِ الرِّضَا وَجَحِيمِ السَّخَطِ. أَرَى الطَّائِرَ الَّذِي يُحَلِّقُ فِي

أُفُقِ السَّمَاءِ الصَّافِيَةِ نَحْوَ حَدَائِقِ الضِّيَاءِ وَالأَمَانِ، بَيْنَمَا يَهْوِي الخُفَّاشُ الأَعْمَى فِي أَعْمَاقِ كَهْفٍ مُظْلِمٍ يَمْتَلِئُ بِالدُّخَانِ وَالخَرَابِ. فَمَا أَعْظَمَ الفَوْزَ لِمَنْ جَعَلَ رِضْوَانَ الرَّبِّ قِبْلَةً لِقَلْبِهِ وَخُطُوَاتِهِ، وَمَا أَبْأَسَ مَصِيرَ مَنْ بَاءَ بِالغَضَبِ فَاسْتَقَرَّ فِي بِئْسَ المَصِيرِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى بُوصَلَةٍ حَاسِمَةٍ تَزِنُ كُلَّ فِعْلٍ وَكَلِمَةٍ بِمِقْيَاسِ الرِّضَا وَالسَّخَطِ، فَأُقْدِمُ عَلَى مَا يُرْضِي رَبِّي وَأَفِرُّ مِمَّا يُغْضِبُهُ. فَكُلُّ مَسَارٍ يُفْضِي إِلَى سَخَطِ السَّمَاءِ هُوَ سُقُوطٌ فِي بِئْسَ المَصِيرِ، وَلَا فَوْزَ وَلَا سَعَادَةَ إِلَّا فِي اتِّبَاعِ رِضْوَانِ اللَّهِ.

تَفَاوُتُ المَنَازِلِ وَبَصَرُ الرَّقِيبِ

صَدَى ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٣)

فِي مَلَكُوتِ الحَقِّ لَا تَتَسَاوَى الهِمَمُ وَلَا تَتَطَابَقُ المَقَامَاتُ، بَلْ يَرْتَفِعُ الصَّادِقُونَ دَرَجَاتٍ عُلْيَا بِقَدْرِ إِخْلَاصِهِمْ وَبَذْلِهِمْ، بَيْنَمَا يَهْبِطُ المُعْرِضُونَ دَرَكَاتٍ سُفْلَى تَحْتَ بَصَرِ الرَّقِيبِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ عَمَلٌ. أَجِدُ فِي صَدْرِي طُمُوحًا رُوحِيًّا يَسْتَنْهِضُ عَزِيمَتِي لِارْتِقَاءِ سُلَّمِ القُرْبِ وَالإِحْسَانِ، حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ تَضْحِيَةٍ خَفِيَّةٍ وَكُلَّ صَبْرٍ صَامِتٍ يَرْفَعُنِي دَرَجَةً عِنْدَ مَالِكِ المُلْكِ. وَكَمْ حَزِنَتْ نَفْسِي حِينَ لَمْ تَجِدْ تَقْدِيرًا أَوْ تَمْيِيزًا فِي مَوَازِينِ البَشَرِ الَّتِي تَخْلِطُ بَيْنَ المُجْتَهِدِ وَالخَامِلِ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِتُطَمْئِنَ قَلْبِي بِأَنَّ المَنَازِلَ الحَقِيقِيَّةَ مَحْفُوظَةٌ عِنْدَ البَصِيرِ بِالأَعْمَالِ. أَتَأَمَّلُ النُّجُومَ المُتَلَأْلِئَةَ فِي قُبَّةِ اللَّيْلِ كَيْفَ تَتَفَاوَتُ فِي بَرِيقِهَا وَارْتِفَاعِهَا فِي الفَضَاءِ الفَسِيحِ، فَمِنْهَا الكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ السَّاطِعُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَمِنْهَا النَّجْمُ الخَافِتُ فِي الأُفُقِ البَعِيدِ. فَمَا أَعْدَلَ تَقْسِيمَ الدَّرَجَاتِ فِي حَضْرَةِ الخَالِقِ الَّذِي يُحْصِي النَّوَايَا وَالحَرَكَاتِ بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ، وَمَا أَجْدَرَ المُؤْمِنَ بِأَنْ يُنَافِسَ فِي الخَيْرَاتِ لِيَبْلُغَ أَعْلَى المَقَامَاتِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى سُلَّمٍ لِلِارْتِقَاءِ الدَّائِمِ فِي مَيَادِينِ الطَّاعَةِ وَالإِخْلَاصِ، فَلَا أَرْضَى بِالدُّونِ فِي دِينِي وَلَا أَنْشَغِلُ بِتَقْيِيمِ الخَلْقِ. فَكُلُّ مَنْزِلَةٍ فِي الدُّنْيَا هِيَ رُتْبَةٌ وَهْمِيَّةٌ تَزُولُ بِالمَوْتِ، وَلَا رِفْعَةَ حَقِيقِيَّةَ إِلَّا فِي الدَّرَجَاتِ العُلَا عِنْدَ اللَّهِ البَصِيرِ بِمَا يَعْمَلُونَ.

مِنَّةُ البِعْثَةِ وَفَجْرُ الهِدَايَةِ

صَدَى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١٦٤)

بِعْثَةُ النُّورِ الخَاتِمِ فِي قَلْبِ البَشَرِيَّةِ هِيَ المِنَّةُ الكُبْرَى الَّتِي أَخْرَجَتِ الأَرْوَاحَ مِنْ ظُلُمَاتِ الضَّلَالِ المُبِينِ، لِتَصْنَعَ مِنْهَا نَمَاذِجَ طَاهِرَةً تَتَنَفَّسُ الآيَاتِ وَتَتَزَكَّى بِالكِتَابِ وَالحِكْمَةِ. أَشْعُرُ بِفَيْضٍ مِنَ

الِامْتِنَانِ وَالمحَبَّةِ يَغْمُرُ جَوَانِحِي وَأَنَا أَسْتَحْضِرُ هَذِهِ النِّعْمَةَ الجَلِيلَةَ، فَأَرَى كَيْفَ انْتَشَلَنَا الخَالِقُ بِرَسُولٍ مِنْ أَنْفُسِنَا يَعْرِفُ آلامَنَا وَيَأْخُذُ بِأَيْدِينَا نَحْوَ الطَّهَارَةِ وَالرُّشْدِ. وَكَمْ تَاهَتْ خُطُوَاتُ الإِنْسَانِ فِي قِفَارِ الجَاهِلِيَّةِ وَالأَوْهَامِ حِينَ حُرِمَ مِنْ نُورِ الوَحْيِ، فَصَارَ كَالأَعْمَى الَّذِي يَتَخَبَّطُ فِي لَيْلٍ بَهِيمٍ حَتَّى أَشْرَقَتْ شَمْسُ الرِّسَالَةِ فَأَنَارَتْ لَهُ المعَالِمَ وَالطَّرِيقَ. أَرَى الأَرْضَ القَاحِلَةَ المتَشَقِّقَةَ الَّتِي غَطَّاهَا الجَفَافُ وَالشَّوْكُ دَهْرًا طَوِيلًا كَيْفَ تَتَحَوَّلُ إِلَى جَنَّةٍ خَضْرَاءَ مُزْهِرَةٍ حِينَ يَتَعَهَّدُهَا الغَيْثُ العَذْبُ وَالبُسْتَانِيُّ الرَّحِيمُ بِالسَّقْيِ وَالتَّهْذِيبِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ المِنَّةَ السَّمَاوِيَّةَ الَّتِي جَمَعَتْ بَيْنَ تِلَاوَةِ الآيَاتِ وَتَزْكِيَةِ النُّفُوسِ وَتَعْلِيمِ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ، وَمَا أَبْشَعَ الضَّلَالَ الَّذِي كَانَ يُخَيِّمُ عَلَى العَالَمِ قَبْلَ فَجْرِ الإِسْلَامِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى شُكْرٍ دَائِمٍ عَلَى نِعْمَةِ الهِدَايَةِ وَالِاتِّبَاعِ، فَأُقْبِلُ عَلَى مَدْرَسَةِ النُّبُوَّةِ لِتُزَكِّيَ نَفْسِي وَتُعَلِّمَنِي الحِكْمَةَ. فَكُلُّ حَضَارَةٍ تَخْلُو مِنْ نُورِ النُّبُوَّةِ وَتَزْكِيَةِ الوَحْيِ هِيَ ضَلَالٌ مُبِينٌ، وَلَا مِنَّةَ أَعْظَمُ عَلَى البَشَرِ مِنْ مِنَّةِ اللهِ بِبِعْثَةِ رَسُولِهِ الكَرِيمِ.

مِفْتَاحُ المصِيبَةِ وَبَصِيرَةُ النَّفْسِ

صَدَى ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٥)

عِنْدَمَا تَنْزِلُ صَدْمَةُ المصِيبَةِ بِسَاحَةِ الإِنْسَانِ تَنْدَفِعُ النَّفْسُ بِدَهْشَةٍ تَبْحَثُ عَنِ السَّبَبِ خَارِجَ ذَاتِهَا، فَيَأْتِي الجَوَابُ القُرْآنِيُّ الحَاسِمُ لِيُوَجِّهَ البَصِيرَةَ إِلَى الدَّاخِلِ مُعْلِنًا أَنَّ الخَلَلَ نَابِعٌ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِنَا. أَجِدُ فِي صَدْرِي صِدْقًا يُوَاجِهُ تَبْرِيرَاتِ الهَوَى وَالتَّنَصُّلِ مِنَ المسْؤُولِيَّةِ وَأَنَا أَقْرَأُ هَذَا التَّشْخِيصَ الدَّقِيقَ، فَأُدْرِكُ أَنَّ انْكِسَارَ الأُمَّةِ أَوِ الفَرْدِ لَا يَقَعُ إِلَّا حِينَ تَخْتَلُّ الطَّاعَةُ فِي الدَّاخِلِ رَغْمَ سَابِقِ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ. وَكَمْ وَقَفْتُ أَمَامَ عَثَرَاتِي وَخَسَائِرِي مُتَعَجِّبًا أَتَسَاءَلُ أَنَّى هَذَا وَأُلْقِي بِاللَّوْمِ عَلَى الظُّرُوفِ وَالأَقْدَارِ، حَتَّى أَيْقَظَتْنِي هَذِهِ الآيَةُ لِأُفَتِّشَ عَنْ ذُنُوبِي وَتَقْصِيرِي الَّذِي جَلَبَ المصِيبَةَ. أَتَأَمَّلُ الحِصْنَ المنِيعَ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ العَدُوُّ اخْتِرَاقَ أَسْوَارِهِ العَالِيَةِ مِنَ الخَارِجِ، وَلَكِنَّهُ يَسْقُطُ حِينَ يَقُومُ أَحَدُ حُرَّاسِهِ بِفَتْحِ البَوَّابَةِ الدَّاخِلِيَّةِ بِغَفْلَتِهِ وَعِصْيَانِهِ. فَمَا أَعْدَلَ هَذَا المنْهَجَ القُرْآنِيَّ الَّذِي يُرَبِّي المؤْمِنِينَ عَلَى المحَاسَبَةِ الذَّاتِيَّةِ وَالإِقْرَارِ بِالتَّقْصِيرِ، وَمَا أَعْظَمَ قُدْرَةَ الخَالِقِ الَّذِي يُدِيرُ الأَسْبَابَ وَالمسَبَّبَاتِ بِحِكْمَتِهِ المطْلَقَةِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى مِرْآةٍ لِلْمُرَاجَعَةِ الصَّادِقَةِ عِنْدَ كُلِّ أَزْمَةٍ، فَأُصْلِحُ دَاخِلِي لِيَصْلُحَ وَاقِعِي. فَكُلُّ هَزِيمَةٍ تَحُلُّ بِالمؤْمِنِينَ إِنَّمَا تَبْدَأُ مِنْ ثَغْرَةٍ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَلَا رَافِعَ لِلْبَلَاءِ وَلَا مُغَيِّرَ لِلْأَحْوَالِ إِلَّا اللهُ القَدِيرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

سُنَّةُ الِافْتِرَاقِ وَمِيزَانُ المَعْرِفَةِ

صَدَى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٦٦)

تَحْتَ مِظَلَّةِ القَدَرِ الإِلَهِيِّ النَّافِذِ تَلْتَقِي الصُّفُوفُ فِي مَيْدَانِ الِابْتِلَاءِ، لِتَنْكَشِفَ حَقَائِقُ القُلُوبِ وَيَتَمَيَّزَ المُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ الَّذِينَ يَثْبُتُونَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ عَنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالتَّرَدُّدِ. أَشْعُرُ بِسَكِينَةٍ تَمْلَأُ قَلْبِي وَتُزِيلُ عَنْهُ مَرَارَةَ الأَلَمِ حِينَ أُوقِنُ أَنَّ كُلَّ مَا جَرَى فِي يَوْمِ الِابْتِلَاءِ إِنَّمَا كَانَ بِإِذْنِ السَّمَاءِ وَلِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ، وَهِيَ إِظْهَارُ مَعْدِنِ الإِيمَانِ الحَقِيقِيِّ فِي الوَاقِعِ المَشْهُودِ. وَكَمْ تَأَلَّمَتْ رُوحِي عِنْدَ انْكِشَافِ الزَّيْفِ وَتَسَاقُطِ بَعْضِ الوُجُوهِ فِي أَوْقَاتِ العُسْرَةِ، قَبْلَ أَنْ تُرْشِدَنِي هَذِهِ الآيَةُ إِلَى أَنَّ الِابْتِلَاءَ هُوَ المِصْفَاةُ الرَّبَّانِيَّةُ الَّتِي تُبْقِي الصَّافِيَ وَتُزِيلُ الرَّبَدَ. أَرَى المِغْنَاطِيسَ القَوِيَّ الَّذِي يُمَرَّرُ فَوْقَ كُومَةٍ مِنَ التُّرَابِ وَالحَدِيدِ، فَيَجْذِبُ إِلَيْهِ قِطَعَ الحَدِيدِ النَّقِيَّةَ وَيَتْرُكُ التُّرَابَ الرَّخِيصَ مُتَنَاثِرًا عَلَى الأَرْضِ بِلَا قِيمَةٍ. فَمَا أَعْظَمَ تَدْبِيرَ الخَالِقِ الَّذِي يَجْعَلُ التِقَاءَ الجَمْعَيْنِ مِحَكًّا لِتَزْكِيَةِ الصُّفُوفِ وَتَمْيِيزِ الصَّادِقِينَ، وَمَا أَبْهَى شَهَادَةَ الإِيمَانِ لِمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى رِضًا بِأَقْدَارِ الِاخْتِبَارِ وَثَبَاتٍ فِي مَوَاقِفِ التَّمْيِيزِ، لِأَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَزْدَادُونَ يَقِينًا عِنْدَ اللِّقَاءِ. فَكُلُّ حَدَثٍ فِي الكَوْنِ لَا يَقَعُ إِلَّا بِإِذْنٍ وَحِكْمَةٍ مِنَ الخَالِقِ، وَلَا تَمْيِيزَ لِصِدْقِ القُلُوبِ إِلَّا فِي مَوَاطِنِ الِابْتِلَاءِ الَّتِي يُقَدِّرُهَا اللَّهُ.

تَعَرِّي النِّفَاقِ وَأَعْذَارُ المُتَخَاذِلِينَ

صَدَى ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (١٦٧)

عِنْدَمَا تَدُقُّ طُبُولُ الجِدِّ وَالتَّضْحِيَةِ تَتَسَاقَطُ أَقْنِعَةُ النِّفَاقِ وَتَتَعَرَّى الأَلْسِنَةُ الَّتِي تَصُوغُ الأَعْذَارَ البَارِدَةَ لِتُخْفِيَ جُبْنَ القُلُوبِ وَقُرْبَهَا مِنَ الكُفْرِ وَالخِذْلَانِ. أَشْعُرُ بِاشْمِئْزَازٍ رُوحِيٍّ مِنْ تِلْكَ الِازْدِوَاجِيَّةِ المَقِيتَةِ الَّتِي تَجْعَلُ المُنَافِقَ يَنْطِقُ بِفَمِهِ كَلِمَاتِ الوَفَاءِ بَيْنَمَا يَغْلِي صَدْرُهُ بِالغَدْرِ وَالتَّهَرُّبِ مِنْ نُصْرَةِ الحَقِّ. وَكَمْ خُدِعَتِ الأَبْصَارُ فِي أَيَّامِ السِّلْمِ بِبَرِيقِ الأَلْسِنَةِ المُتَمَلِّقَةِ الَّتِي تَدَّعِي الشَّجَاعَةَ وَالبَذْلَ، حَتَّى جَاءَتْ سَاعَةُ الفَصْلِ فَفَضَحَتْ مَا كَانُوا يَكْتُمُونَ تَحْتَ رَقَابَةِ عَلَّامِ الغُيُوبِ. أَتَأَمَّلُ الطَّبْلَ الأَجْوَفَ الكَبِيرَ الَّذِي يُصْدِرُ ضَجِيجًا عَالِيًا عِنْدَ قَرْعِهِ فِي سَاحَةِ الِاحْتِفَالِ، فَإِذَا شُقَّ جِلْدُهُ انْكَشَفَ أَنَّ دَاخِلَهُ فَارِغٌ لَا يَحْمِلُ إِلَّا الهَوَاءَ وَالظَّلَامَ. فَمَا أَشَدَّ قُرْبَ المُتَخَاذِلِينَ مِنَ الكُفْرِ

حِينَ يَرْفُضُونَ القِتَالَ فِي سَبِيلِ الحَقِّ أَوْ حَتَّى الدِّفَاعَ عَنْ دِيَارِهِمْ بِحُجَجٍ واهِيَةٍ، وَمَا أَعْظَمَ عِلْمَ الخَالِقِ بِالأَسْرَارِ المَكْتُومَةِ فِي الصُّدُورِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى مِيزَانٍ لِتَطْهِيرِ سَرِيرَتِي مِنَ النِّفَاقِ وَالتَّبْرِيرِ، لِيُطَابِقَ لِسَانِي صِدْقَ قَلْبِي فِي كُلِّ مَوْقِفٍ. فَكُلُّ عُذْرٍ يُتَّخَذُ لِلْفِرَارِ مِنْ نُصْرَةِ الحَقِّ هُوَ خُطْوَةٌ نَحْوَ الكُفْرِ، وَلَا خَفَاءَ لِأَسْرَارِ المُنَافِقِينَ عَنْ اللهِ الأَعْلَمِ بِمَا يَكْتُمُونَ.

غُرُورُ القَاعِدِينَ وَتَهَاوِي المَنَاعَةِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٦٨)

مِنْ خَلْفِ جُدْرَانِ القُعُودِ وَالسَّلَامَةِ المَوْهُومَةِ تَرْتَفِعُ أَصْوَاتُ الشَّمَاتَةِ وَالغُرُورِ لِتَتَّهِمَ الشُّهَدَاءَ بِالتَّهَوُّرِ، فَيَصْعُقُهَا التَّحَدِّي الإِلَهِيُّ المُفْحِمُ بِأَنْ تَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهَا شَبَحَ المَوْتِ الَّذِي يُطَارِدُهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ. أَشْعُرُ بِعِزَّةِ الإِيمَانِ تَسْخَرُ مِنْ سَذَاجَةِ هَؤُلَاءِ القَاعِدِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ الجُبْنَ يُطِيلُ الأَعْمَارَ أَوْ يَمْنَعُ سَهْمَ الأَجَلِ إِذَا انْطَلَقَ مِنْ قَوْسِ القَدَرِ. وَكَمْ حَاوَلَتْ وَسَاوِسُ الخَوْفِ أَنْ تُقْنِعَ الإِنْسَانَ بِأَنَّ القُعُودَ عَنِ الوَاجِبِ هُوَ الحِكْمَةُ وَالنَّجَاةُ، حَتَّى أَسْقَطَتْ هَذِهِ الآيَةُ كُلَّ حُجَّةٍ لِلْجُبَنَاءِ حِينَ طَالَبَتْهُمْ بِدَرْءِ المَوْتِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ. أَرَى الأَوْرَاقَ اليَابِسَةَ المُتَعَلِّقَةَ بِأَغْصَانِ الشَّجَرَةِ فِي آخِرِ الخَرِيفِ تَسْخَرُ مِنَ الأَوْرَاقِ الَّتِي سَقَطَتْ فِي العَاصِفَةِ، غَافِلَةً عَنْ أَنَّ الرِّيحَ القَادِمَةَ سَتَقْتَلِعُهَا جَمِيعًا وَلَنْ تَمْلِكَ لِنَفْسِهَا بَقَاءً وَلَا دَفْعًا. فَمَا أَبْلَغَ هَذَا البُرْهَانَ العَقْلِيَّ وَالإِيمَانِيَّ الَّذِي يَكْشِفُ عَجْزَ البَشَرِ أَمَامَ سُلْطَانِ المَوْتِ، وَمَا أَشَدَّ خِزْيَ القَاعِدِينَ الَّذِينَ يَتَبَاهَوْنَ بِتَخَاذُلِهِمْ وَيُعَيِّرُونَ أَهْلَ التَّضْحِيَةِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى شَجَاعَةٍ لَا تَهَابُ المَوْتَ فِي سَبِيلِ الحَقِّ، لِأَنَّ المَوْتَ آتٍ لَا مَحَالَةَ فَلْيَكُنْ فِي مَرْضَاةِ الرَّبِّ. فَكُلُّ هَرَبٍ مِنَ التَّضْحِيَةِ طَلَبًا لِلْبَقَاءِ هُوَ وَهْمٌ عَاجِزٌ عَنْ دَرْءِ الأَجَلِ، وَلَا نَجَاةَ مِنَ المَوْتِ لِأَحَدٍ فِي مَلَكُوتِ اللهِ.

حَيَاةُ الشُّهَدَاءِ وَفَيْضُ البِشَارَةِ

صَدَى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٦٩ - ١٧٠)

مَا يَرَاهُ النَّاسُ مَوْتًا وَانْقِطَاعًا لِلحَيَاةِ عَلَى تُرَابِ المَعْرَكَةِ لَيْسَ إِلَّا وِلَادَةً نُورَانِيَّةً ثَانِيَةً، حَيْثُ يُحَلِّقُ الشُّهَدَاءُ أَحْيَاءً فِي جِوَارِ رَبِّهِمْ يَنْعَمُونَ بِالرِّزْقِ وَالفَرَحِ وَيُبَشِّرُونَ السَّائِرِينَ خَلْفَهُمْ بِالأَمَانِ الأَبَدِيِّ.

أَشْعُرُ بِبَهْجَةٍ رُوحِيَّةٍ تَغْمُرُ قَلْبِي وَتَمْحُو عَنْهُ كُلَّ وَحْشَةٍ أَوْ حُزْنٍ عَلَى فِرَاقِ الأَحِبَّةِ الشُّهَدَاءِ، فَأَرَاهُمْ فِي مَقَامِ القُرْبِ وَالنَّعِيمِ يَتَنَعَّمُونَ بِفَضْلِ السَّمَاءِ بَيْنَمَا نَحْنُ نُكَابِدُ أَتْعَابَ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ. وَكَمْ خَدَعَتْنَا الحَوَاسُّ الظَّاهِرَةُ حِينَ حَسِبَتْ أَنَّ سُكُونَ الجَسَدِ يَعْنِي فَنَاءَ الرُّوحِ وَخَسَارَةَ الحَيَاةِ، حَتَّى كَشَفَتْ لَنَا هَذِهِ الآيَاتُ حَقِيقَةَ الحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ عِنْدَ الرَّبِّ الكَرِيمِ حَيْثُ لَا خَوْفٌ وَلَا حُزْنٌ. أَتَأَمَّلُ البَذْرَةَ الَّتِي تُدْفَنُ فِي التُّرَابِ فَيَظُنُّ الجَاهِلُ أَنَّهَا مَاتَتْ وَانْتَهَتْ، بَيْنَمَا هِيَ فِي الحَقِيقَةِ قَدْ تَحَرَّرَتْ مِنْ قِشْرَتِهَا الضَّيِّقَةِ لِتَنْبُتَ شَجَرَةً عَظِيمَةً تُعَانِقُ السَّمَاءَ وَتُثْمِرُ فِي بُسْتَانِ المَلِكِ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ الخَالِقِ الَّذِي يُكْرِمُ الشُّهَدَاءَ بِالحَيَاةِ وَالرِّزْقِ وَالفَرَحِ المُقِيمِ، وَمَا أَجْمَلَ تِلْكَ البِشَارَةَ الَّتِي يُرْسِلُونَهَا لِإِخْوَانِهِمْ فِي الأَرْضِ لِتُثَبِّتَ أَقْدَامَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَتَانِ فِي وُجْدَانِي إِلَى شَوْقٍ لِلِّقَاءِ وَطُمَأْنِينَةٍ عَلَى مَصِيرِ الصَّادِقِينَ، فَيَهُونُ عَلَيَّ فِرَاقُ الفَانِي فِي سَبِيلِ البَاقِي. فَكُلُّ حَيَاةٍ فِي الدُّنْيَا هِيَ ظِلٌّ زَائِلٌ يَنْتَهِي بِالفَنَاءِ، وَلَا حَيَاةَ حَقِيقِيَّةَ وَلَا فَرَحَ أَبَدِيًّا إِلَّا عِنْدَ اللَّهِ لِلشُّهَدَاءِ الأَبْرَارِ.

بُشْرَى الفَضْلِ وَضَمَانُ الأَجْرِ

صَدَى ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١)

فِي مَلَكُوتِ القُرْبِ وَالنَّعِيمِ تَتَوَالَى البَشَائِرُ عَلَى أَرْوَاحِ الشُّهَدَاءِ وَالمُؤْمِنِينَ بِفَيْضٍ مِنَ النِّعْمَةِ وَالفَضْلِ المُتَجَدِّدِ، وَيَقِينٍ قَاطِعٍ بِأَنَّ عَدْلَ السَّمَاءِ لَا يُضِيعُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ أَجْرِ الصَّادِقِينَ. أَجِدُ فِي صَدْرِي رَاحَةً عَمِيقَةً تَغْسِلُ كُلَّ تَعَبٍ وَنَصَبٍ أَلْقَاهُ فِي مَسِيرَةِ الإِيمَانِ، حِينَ أَسْمَعُ هَذَا الوَعْدَ الإِلَهِيَّ المُؤَكَّدَ بِأَنَّ أَجْرَ المُؤْمِنِينَ مَحْفُوظٌ وَمُضَاعَفٌ بِفَضْلِ الرَّحْمَنِ وَلَا يَطَالُهُ الضَّيَاعُ أَبَدًا. وَكَمْ تَسَلَّلَ القَلَقُ إِلَى النُّفُوسِ البَشَرِيَّةِ فِي دَارِ الِابْتِلَاءِ خَشْيَةَ أَنْ تَذْهَبَ جُهُودُهَا وَتَضْحِيَاتُهَا هَبَاءً مَنْثُورًا فِي زَحْمَةِ النِّسْيَانِ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِتُعْلِنَ أَنَّ بُنُوكَ السَّمَاءِ لَا تَعْرِفُ الخَسَارَةَ وَلَا الجُحُودَ. أَرَى الفَلَّاحَ الَّذِي يُودِعُ بُذُورَهُ النَّقِيَّةَ فِي أَرْضٍ خَصْبَةٍ تَرْعَاهَا السَّمَاءُ بِالغَيْثِ وَالشَّمْسِ، فَيَسْتَبْشِرُ عِنْدَ الحَصَادِ بِسَنَابِلَ مُتَضَاعِفَةٍ لَمْ تَضِعْ مِنْهَا حَبَّةٌ وَاحِدَةٌ بَلْ زَادَتْ بِفَضْلِ الخَالِقِ وَكَرَمِهِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الكَرَمَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي يَجْمَعُ لِلْمُؤْمِنِينَ بَيْنَ العَدْلِ فِي حِفْظِ الأَجْرِ وَالفَضْلِ فِي زِيَادَةِ النِّعْمَةِ، وَمَا أَجْمَلَ تِلْكَ البِشَارَةَ الَّتِي تَمْلَأُ القُلُوبَ بِالسُّرُورِ وَالثِّقَةِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى طَاقَةٍ لِلْبَذْلِ المُسْتَمِرِّ دُونَ خَوْفٍ مِنْ ضَيَاعِ الجُهْدِ، فَأَعْمَلُ لِرَبِّي وَاثِقًا بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ. فَكُلُّ سَعْيٍ يُبْذَلُ لِلْبَشَرِ قَدْ يُقَابَلُ بِالنِّسْيَانِ وَالجُحُودِ، وَلَا ضَيَاعَ أَبَدًا لِأَجْرِ المُؤْمِنِينَ عِنْدَ اللَّهِ.

اسْتِجَابَةُ الجِرَاحِ وَعَظَمَةُ الأَجْرِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢)

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ نَزْفِ الجِرَاحِ وَآلَامِ الأَبْدَانِ تَنْبَعِثُ صَيْحَةُ الِاسْتِجَابَةِ الفَوْرِيَّةِ لِنِدَاءِ السَّمَاءِ وَالرَّسُولِ، لِتُبَرْهِنَ أَنَّ عَزِيمَةَ المؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ أَقْوَى مِنَ الأَلَمِ وَأَصْلَبُ مِنَ الهَزِيمَةِ. أَشْعُرُ بِانْبِهَارٍ وَإِجْلَالٍ أَمَامَ هَذِهِ القَامَاتِ الشَّامِخَةِ الَّتِي لَمْ تَقْعُدْ تَبْكِي جِرَاحَهَا أَوْ تَلْتَمِسُ الأَعْذَارَ، بَلْ هَبَّتْ مُلَبِّيَةً لِلنِّدَاءِ لِتَنَالَ وِسَامَ الإِحْسَانِ وَالتَّقْوَى وَالأَجْرَ العَظِيمَ. وَكَمْ تَثَاقَلَتْ رُوحِي عَنِ الطَّاعَةِ عِنْدَ أَدْنَى تَعَبٍ أَوْ أَلَمٍ عَابِرٍ يُصِيبُ الجَسَدَ أَوِ النَّفْسَ، حَتَّى أَخْجَلَتْنِي هَذِهِ الآيَةُ بِصُورَةِ أَبْطَالٍ يَنْهَضُونَ بِجِرَاحِهِمُ الدَّامِيَةِ لِيُجِيبُوا دَاعِيَ الحَقِّ بِكُلِّ قُوَّةٍ وَيَقِينٍ. أَتَأَمَّلُ الجَوَادَ الأَصِيلَ الَّذِي أَصَابَهُ سَهْمٌ فِي جَوْلَةِ السِّبَاقِ الأُولَى، فَمَا إِنْ يَسْمَعُ نِدَاءَ فَارِسِهِ حَتَّى يَنْطَلِقَ كَالبَرْقِ مُتَجَاوِزًا آلَامَهُ لِيَبْلُغَ خَطَّ النِّهَايَةِ وَيَفُوزَ بِالتَّكْرِيمِ. فَمَا أَعْظَمَ مَقَامَ الِاسْتِجَابَةِ بَعْدَ القَرْحِ وَالِابْتِلَاءِ الَّتِي تَكْشِفُ عَنْ جَوْهَرِ الإِحْسَانِ وَالتَّقْوَى، وَمَا أَكْرَمَ الأَجْرَ العَظِيمَ الَّذِي أَعَدَّهُ الخَالِقُ لِهَؤُلَاءِ الصَّادِقِينَ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى قُوَّةٍ تَقْهَرُ الأَلَمَ وَالتَّرَاخِي، فَأُلَبِّي نِدَاءَ رَبِّي فِي كُلِّ حَالٍ رَجَاءَ الإِحْسَانِ وَالتَّقْوَى. فَكُلُّ تَوَقُّفٍ عَنِ الطَّاعَةِ بِسَبَبِ الجِرَاحِ هُوَ تَرَاجُعٌ عَنْ مَنَازِلِ السَّابِقِينَ، وَلَا أَجْرَ أَعْظَمُ مِمَّا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُحْسِنِينَ المتَّقِينَ.

زَلْزَلَةُ التَّخْوِيفِ وَصَرْخَةُ الحَسْبِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣)

حِينَ تَتَعَالَى أَبْوَاقُ الإِرْجَافِ وَالتَّخْوِيفِ لِتَزْرَعَ الرُّعْبَ فِي القُلُوبِ مِنْ تَجَمُّعِ الخُصُومِ، تَنْقَلِبُ تِلْكَ التَّهْدِيدَاتُ فِي صُدُورِ المؤْمِنِينَ إِلَى وَقُودٍ يَزِيدُهُمْ إِيمَانًا وَيُطْلِقُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ صَرْخَةَ التَّوَكُّلِ الخَالِدَةَ: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ. أَشْعُرُ بِثَبَاتٍ كَوْنِيٍّ يَسْرِي فِي عُرُوقِي وَيُذِيبُ كُلَّ خَوْفٍ مِنْ تَحَالُفَاتِ البَاطِلِ، حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ ضَجِيجَ المخَوِّفِينَ لَا يَزِيدُ المؤَحِّدَ إِلَّا يَقِينًا بِكِفَايَةِ الخَالِقِ وَحُسْنِ وَكَالَتِهِ. وَكَمْ حَاوَلَتْ رِيَاحُ الشَّائِعَاتِ وَأَصْوَاتُ المرْجِفِينَ أَنْ تَهُزَّ سَكِينَةَ قَلْبِي فِي أَوْقَاتِ الأَزَمَاتِ، فَكُنْتُ أَلْجَأُ إِلَى هَذِهِ الكَلِمَةِ النُّورَانِيَّةِ فَأَجِدُ فِيهَا حِصْنًا مَنِيعًا تَتَكَسَّرُ عَلَيْهِ كُلُّ السِّهَامِ. أَرَى النَّارَ المتَّقِدَةَ فِي القِفَارِ كَيْفَ يَظُنُّ الجَاهِلُ أَنَّ الرِّيَاحَ الهَائِجَةَ سَتُطْفِئُهَا، فَإِذَا بِالرِّيَاحِ تَزِيدُهَا اشْتِعَالًا وَتَوَهُّجًا

حَتَّى تَلْتَهِمَ كُلَّ مَا يَقِفُ فِي طَرِيقِهَا. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الانْقِلَابَ الإِيمَانِيَّ الَّذِي يُحَوِّلُ التَّخْوِيفَ إِلَى زِيَادَةٍ فِي اليَقِينِ، وَمَا أَبْلَغَ تَفْوِيضَ الأَمْرِ إِلَى الوَكِيلِ الَّذِي يَكْفِي عَبْدَهُ كُلَّ مَا أَهَمَّهُ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى دِرْعٍ يَرُدُّ كُلَّ إِرْجَافٍ وَتَهْدِيدٍ، فَأَرْفَعُ شِعَارَ الحَسْبِ وَالوَكَالَةِ فِي وَجْهِ كُلِّ خَطْبٍ. فَكُلُّ تَجَمُّعٍ لِلْخَلْقِ هُوَ هَبَاءٌ أَمَامَ عَظَمَةِ الخَالِقِ، وَلَا كَافِيَ وَلَا وَكِيلَ أَعْظَمُ مِنَ اللَّهِ.

غَنِيمَةُ السَّلَامَةِ وَفَضْلُ الرِّضْوَانِ

صَدَى ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤)

ثَمَرَةُ الصِّدْقِ وَالتَّوَكُّلِ الخَالِصِ تَتَجَلَّى عَوْدَةً مُظَفَّرَةً مَغْمُورَةً بِالنِّعْمَةِ وَالفَضْلِ وَالسَّلَامَةِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، مَعَ الفَوْزِ الأَكْبَرِ بِاتِّبَاعِ رِضْوَانِ السَّمَاءِ. أَشْعُرُ بِغِبْطَةٍ تَمْلَأُ قَلْبِي وَأَنَا أَرَى نِهَايَةَ هَذَا المَشْهَدِ البَهِيجِ الَّذِي يُثْبِتُ أَنَّ مَنْ لَجَأَ إِلَى الرَّحْمَنِ لَا يَخِيبُ أَبَدًا، بَلْ يَعُودُ سَالِمًا غَانِمًا بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَكَمْ تَصَوَّرَتِ الأَوْهَامُ البَشَرِيَّةُ أَنَّ الإِقْدَامَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالثَّبَاتِ سَيَجْلِبُ الهَلَاكَ وَالسُّوءَ، فَإِذَا بِالقَدَرِ الإِلَهِيِّ يَصْرِفُ عَنِ المُتَوَكِّلِينَ كُلَّ أَذًى وَيَغْمُرُهُمْ بِالفَضْلِ العَظِيمِ. أَتَأَمَّلُ القَافِلَةَ الَّتِي سَارَتْ فِي وَادِي المَخَاوِفِ مُتَوَكِّلَةً عَلَى دَلِيلِهَا الخَبِيرِ، فَعَادَتْ إِلَى دِيَارِهَا مُحَمَّلَةً بِالكُنُوزِ وَالهَدَايَا لَمْ يَمَسَّهَا شَوْكٌ وَلَا غُبَارٌ بَيْنَمَا هَلَكَ المُتَرَدِّدُونَ فِي خَوْفِهِمْ. فَمَا أَكْرَمَ عَطَاءَ الرَّبِّ ذِي الفَضْلِ العَظِيمِ الَّذِي يَجْمَعُ لِعِبَادِهِ بَيْنَ الحِفْظِ مِنَ السُّوءِ وَتَحْقِيقِ الرِّضْوَانِ، وَمَا أَصْدَقَ وَعْدَهُ لِمَنْ فَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَيْهِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى يَقِينٍ بِحُسْنِ العَاقِبَةِ لِكُلِّ مُتَوَكِّلٍ صَادِقٍ، فَأَمْضِي فِي طَرِيقِ رِضْوَانِ رَبِّي مُطْمَئِنًّا لِحِفْظِهِ وَفَضْلِهِ. فَكُلُّ خَوْفٍ يَمْنَعُ العَبْدَ مِنْ طَاعَةِ السَّمَاءِ هُوَ حِرْمَانٌ مِنَ النِّعْمَةِ وَالأَمَانِ، وَلَا فَضْلَ أَعْظَمُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ الصَّادِقِينَ.

حَقِيقَةُ الوَسْوَاسِ وَتَوْجِيهُ الخَوْفِ

صَدَى ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٥)

تِلْكَ الأَشْبَاحُ المَخِيفَةُ الَّتِي تَتَرَاءَى فِي خَيَالِ الغَافِلِينَ لَيْسَتْ إِلَّا وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ الَّذِي يُضَخِّمُ قُوَّةَ أَوْلِيَائِهِ لِيَشُلَّ حَرَكَةَ المُؤْمِنِينَ، فَيَأْتِي الأَمْرُ الإِلَهِيُّ لِيَكْسِرَ هَذَا الصَّنَمَ الوَهْمِيَّ وَيُوَجِّهَ الخَوْفَ كُلَّهُ نَحْوَ الخَالِقِ وَحْدَهُ. أَشْعُرُ بِتَحَرُّرٍ كَامِلٍ مِنْ أَغْلَالِ الرَّهْبَةِ البَشَرِيَّةِ وَأَنَا أُبْصِرُ حَقِيقَةَ هَذِهِ اللُّعْبَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ خَوْفِي مِنْ أَوْلِيَاءِ البَاطِلِ هُوَ خُضُوعٌ لِخُدْعَةِ العَدُوِّ وَنُقْصَانٌ فِي مِيزَانِ الإِيمَانِ. وَكَمْ أَرْهَبَتْنِي فِي سَالِفِ أَيَّامِي ظِلَالُ المُتَجَبِّرِينَ وَتَهْوِيلَاتُ الشَّيْطَانِ فِي الصَّدْرِ، حَتَّى كَشَفَتْ لِي

هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُخَوِّفُ أَتْبَاعَهُ الضُّعَفَاءَ أَمَّا المؤْمِنُ الحَقُّ فَلَا يَخَافُ إِلَّا مَالِكَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. أَرَى الظِّلَّ الطَّوِيلَ الَّذِي تَصْنَعُهُ الشَّمْعَةُ الخَافِتَةُ عَلَى الجِدَارِ لِحَشَرَةٍ صَغِيرَةٍ فَيَظُنُّهُ الطِّفْلُ وَحْشًا عِمْلَاقًا يَبْتَلِعُ المكَانَ، فَمَا إِنْ يُضَاءُ المِصْبَاحُ الحَقِيقِيُّ حَتَّى يَتَلَاشَى الظِّلُّ وَتَنْكَشِفَ ضَآلَةُ تِلْكَ الحَشَرَةِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّحْرِيرَ الرُّوحِيَّ الَّذِي يَقْتَلِعُ جُذُورَ الخَوْفِ مِنَ المخْلُوقِينَ، وَيَزْرَعُ مَكَانَهَا هَيْبَةَ الخَالِقِ وَمَخَافَتَهُ الَّتِي تَمْنَحُ العَبْدَ القُوَّةَ وَالعِزَّةَ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى شَجَاعَةٍ تُسْقِطُ أَوْهَامَ الشَّيْطَانِ وَأَوْلِيَائِهِ، فَلَا أَخْشَى فِي الحَقِّ لَوْمَةَ لَائِمٍ وَلَا أَخَافُ إِلَّا رَبِّي. فَكُلُّ خَوْفٍ مِنْ غَيْرِ الخَالِقِ هُوَ اسْتِجَابَةٌ لِتَهْوِيلِ الشَّيْطَانِ، وَلَا مَخَافَةَ تَلِيقُ بِقَلْبِ المؤْمِنِ إِلَّا خَوْفُ اللهِ وَحْدَهُ.

سَلْوَى القَلْبِ وَخَيْبَةُ المسَارِعِينَ فِي الكُفْرِ

صَدَى ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦)

تَهَالُكُ الجَاحِدِينَ عَلَى حُفَرِ الكُفْرِ وَمُسَارَعَتُهُمْ فِي مُحَارَبَةِ الحَقِّ يَنْبَغِي أَلَّا يُثْقِلَ قَلْبَ الدَّاعِيَةِ بِالحُزْنِ، لِأَنَّ سَعْيَهُمُ المحْمُومَ لَا يَمَسُّ جَلَالَ السَّمَاءِ بِضَرَرٍ بَلْ يَحْرِمُهُمْ مِنْ نَصِيبِ الآخِرَةِ وَيَسُوقُهُمْ إِلَى العَذَابِ العَظِيمِ. أَجِدُ فِي صَدْرِي سَلْوَى رَقِيقَةً تَمْسَحُ غُبَارَ الأَسَى الَّذِي قَدْ يُصِيبُنِي حِينَ أَرَى إِعْرَاضَ النَّاسِ وَعِنَادَهُمْ، فَأُدْرِكُ أَنَّ الخَالِقَ يُرِيدُ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ أَلَّا يَجْعَلَ لِهَؤُلَاءِ المتَكَبِّرِينَ حَظًّا فِي دَارِ الخُلُودِ. وَكَمْ حَزِنَتْ نَفْسِي وَتَأَلَّمَتْ لِتَمَادِي المعْرِضِينَ وَتَكْذِيبِهِمْ ظَنًّا مِنِّي أَنَّ ذَلِكَ يُنْقِصُ مِنْ قَدْرِ الحَقِّ شَيْئًا، حَتَّى طَمْأَنَتْنِي هَذِهِ الآيَةُ بِأَنَّ المحْرُومَ الحَقِيقِيَّ هُوَ مَنْ خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ حَظٍّ فِي الآخِرَةِ. أَتَأَمَّلُ الفَرَاشَةَ المغْرُورَةَ الَّتِي تُسَارِعُ بِأَجْنِحَتِهَا نَحْوَ لَهِيبِ النَّارِ المُلْتَهِبَةِ لِتُطْفِئَهَا بِزَعْمِهَا، فَلَا تَضُرُّ النَّارَ شَيْئًا بَلْ تَحْتَرِقُ هِيَ وَتَتَحَوَّلُ إِلَى رَمَادٍ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ. فَمَا أَلْطَفَ هَذِهِ المؤَاسَاةَ الإِلَهِيَّةَ الَّتِي تُخَفِّفُ وَطْأَةَ الحُزْنِ عَنْ قُلُوبِ الصَّادِقِينَ، وَمَا أَشَدَّ الحِرْمَانَ الَّذِي يُصِيبُ المسَارِعِينَ فِي الكُفْرِ حِينَ يَفْقِدُونَ كُلَّ نَصِيبٍ فِي النَّعِيمِ الأَبَدِيِّ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى طُمَأْنِينَةٍ تَمْنَعُ الحُزْنَ مِنَ التَّسَلُّلِ إِلَى قَلْبِي أَمَامَ عِنَادِ المبْطِلِينَ، فَأَمْضِي فِي طَرِيقِي وَاثِقًا بِعَدْلِ رَبِّي. فَكُلُّ مُسَارَعَةٍ فِي الكُفْرِ وَالعِنَادِ هِيَ انْتِحَارٌ لِلرُّوحِ وَحِرْمَانٌ مِنَ الخُلُودِ، وَلَا ضَرَرَ يَمَسُّ جَنَابَ اللهِ مِنْ جُحُودِ الجَاحِدِينَ.

صَفْقَةُ الخُسْرَانِ وَشِرَاءُ الضَّلَالِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٧)

أَبْأَسُ تِجَارَةٍ فِي أَسْوَاقِ الوُجُودِ هِيَ أَنْ يَبِيعَ الإِنْسَانُ جَوْهَرَةَ الإِيمَانِ النَّفِيسَةَ لِيَشْتَرِيَ بِثَمَنِهَا ظُلْمَةَ الكُفْرِ وَالشَّقَاءِ، فَلَا يَضُرُّ بِخَسَارَتِهِ تِلْكَ سَاحَةَ الخَالِقِ شَيْئًا بَلْ يَجْنِي لِنَفْسِهِ عَذَابًا أَلِيمًا لَا يُطَاقُ. أَشْعُرُ بِعَجَبٍ مِنْ حَمَاقَةِ النَّفْسِ الَّتِي تَسْتَبْدِلُ النُّورَ بِالظَّلَامِ وَالهِدَايَةَ بِالضَّلَالِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ الإِيمَانَ هُوَ رَأْسُ المالِ الوَحِيدُ الَّذِي إِنْ ضَاعَ لَمْ يَبْقَ لِلْإِنْسَانِ قِيمَةٌ وَلَا نَجَاةٌ. وَكَمْ رَأَيْتُ فِي سُوقِ الدُّنْيَا مَنْ يُفَرِّطُ فِي ثَوَابِتِ دِينِهِ وَيَقِينِهِ مُقَابِلَ لَذَّةٍ عَابِرَةٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ فَانِيَةٍ، غَافِلًا عَنْ أَنَّهُ يَعْقِدُ صَفْقَةَ الخُسْرَانِ المبِينِ الَّتِي تَنْتَهِي بِالأَلَمِ المقِيمِ. أَرَى التَّاجِرَ السَّفِيهَ الَّذِي يُلْقِي بِتَاجِ الذَّهَبِ وَاليَاقُوتِ فِي قَاعِ البِئْرِ لِيَمْلَأَ كَفَّيْهِ بِالتُّرَابِ وَالشَّوْكِ، ثُمَّ يَظُنُّ أَنَّهُ أَغَاضَ مَلِكَ البِلَادِ بَيْنَمَا هُوَ لَمْ يُهْلِكْ إِلَّا نَفْسَهُ وَمُسْتَقْبَلَهُ. فَمَا أَعْظَمَ غِنَى الخَالِقِ عَنْ طَاعَةِ المطِيعِينَ وَكُفْرِ الكَافِرِينَ، وَمَا أَشَدَّ وَبَالَ تِلْكَ الصَّفْقَةِ الخَاسِرَةِ الَّتِي تَجْلِبُ العَذَابَ الأَلِيمَ لِأَصْحَابِهَا. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى حِرْصٍ شَدِيدٍ عَلَى كَنْزِ الإِيمَانِ الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيَّ، فَلَا أَبِيعُهُ بِالدُّنْيَا كُلِّهَا وَلَا أَسْتَبْدِلُ بِهِ شَيْئًا. فَكُلُّ تَفْرِيطٍ فِي الإِيمَانِ مُقَابِلَ حُطَامِ الدُّنْيَا هُوَ صَفْقَةٌ خَاسِرَةٌ، وَلَا ضَرَرَ يَلْحَقُ بِجَلَالِ اللَّهِ مِنْ جُحُودِ المسْتَبْدِلِينَ.

فَخُّ الإِمْهَالِ وَاسْتِدْرَاجُ الطُّغَاةِ

صَدَى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٧٨)

إِطَالَةُ الحَبْلِ لِلظَّالِمِينَ وَتَدَفُّقُ النِّعَمِ وَالعَافِيَةِ عَلَيْهِمْ فِي دَارِ الغُرُورِ لَيْسَتْ كَرَامَةً مِنَ السَّمَاءِ، بَلْ هِيَ مِصْيَدَةُ الِاسْتِدْرَاجِ الَّتِي يَزْدَادُونَ فِيهَا إِثْمًا حَتَّى يَنْقَضَّ عَلَيْهِمُ العَذَابُ المهِينُ فِي ذُرْوَةِ غَفْلَتِهِمْ. أَرْتَعِدُ مِنْ هَذَا المكْرِ الإِلَهِيِّ الخَفِيِّ الَّذِي يُحَوِّلُ إِمْهَالَ الزَّمَانِ إِلَى حُجَّةٍ قَاتِلَةٍ عَلَى المجْرِمِينَ، فَأُفَتِّشُ فِي نَفْسِي كُلَّمَا أُعْطِيتُ نِعْمَةً أَوْ أُمْهِلْتُ عِنْدَ ذَنْبٍ خَشْيَةَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا لَا إِكْرَامًا. وَكَمْ انْخَدَعَتْ أَبْصَارُ الخَلْقِ بِطُولِ أَعْمَارِ الطُّغَاةِ وَسِعَةِ أَرْزَاقِهِمْ فَحَسِبَتْ أَنَّهُمْ فِي خَيْرٍ وَنَعِيمٍ، قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ لَنَا هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَمُرُّ عَلَيْهِمْ فِي الكُفْرِ إِنَّمَا يُضَاعِفُ أَوْزَارَهُمْ وَيُعِدُّ لَهُمُ الهَوَانَ الأَبَدِيَّ. أَتَأَمَّلُ الشَّاةَ الَّتِي تُسَاقُ إِلَى مَرْعًى خَصِيبٍ فَتَأْكُلُ وَتَسْمَنُ وَتَظُنُّ أَنَّ صَاحِبَهَا يُكْرِمُهَا وَيُحِبُّهَا، بَيْنَمَا هُوَ فِي الحَقِيقَةِ يُسَمِّنُهَا لِيَوْمِ الذَّبْحِ الَّذِي اقْتَرَبَ مَوْعِدُهُ. فَمَا أَشَدَّ غَفْلَةَ الجَاحِدِينَ الَّذِينَ يَغْتَرُّونَ بِحِلْمِ الرَّبِّ وَإِمْهَالِهِ، وَمَا أَقْسَى ذَلِكَ العَذَابَ المهِينَ الَّذِي يَكْسِرُ كِبْرِيَاءَهُمْ بَعْدَ طُولِ التَّمَادِي. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى يَقْظَةٍ تَبَادِرُ بِالتَّوْبَةِ وَالشُّكْرِ

عِنْدَ كُلِّ إِمْهَالٍ وَنِعْمَةٍ، وَلَا تَغْتَرُّ بِسِتْرِ السَّمَاءِ وَتَأْخِيرِ الحِسَابِ. فَكُلُّ إِمْهَالٍ يَخْلُو مِنَ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ هُوَ اسْتِدْرَاجٌ نَحْوَ الإِثْمِ وَالهَلَاكِ، وَلَا مَهْرَبَ لِلْمُتَجَبِّرِينَ مِنَ العَذَابِ المهِينِ عِنْدَ اللَّهِ.

مِصْفَاةُ الِابْتِلَاءِ وَاصْطِفَاءُ الرُّسُلِ

صَدَى ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٩)

حِكْمَةُ الخَالِقِ تَأْبَى أَنْ يَبْقَى الصَّفُّ المؤْمِنُ مَخْلُوطًا بَيْنَ الخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ تَحْتَ سِتَارِ الدَّعَاوَى المتَشَابِهَةِ، فَتَنْزِلُ مِصْفَاةُ الِابْتِلَاءِ لِتَفْرِزَ المعَادِنَ فِي الوَاقِعِ دُونَ الحَاجَةِ إِلَى كَشْفِ أَسْرَارِ الغَيْبِ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا الرَّبُّ رُسُلَهُ المصْطَفَيْنَ. أَجِدُ فِي صَدْرِي فَهْمًا عَمِيقًا لِسِرِّ الفِتَنِ وَالتَّمْحِيصِ الَّذِي يَمُرُّ بِهِ أَهْلُ الإِيمَانِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ سُنَّةَ التَّمْيِيزِ ضَرُورَةٌ كَوْنِيَّةٌ لِتَنْقِيَةِ البُنْيَانِ وَلَا مَفَرَّ مِنْهَا إِلَّا بِتَحْقِيقِ الإِيمَانِ الصَّادِقِ وَالتَّقْوَى. وَكَمْ تَمَنَّتِ النُّفُوسُ أَنْ تَعْرِفَ خَبَايَا القُلُوبِ وَأَسْرَارَ المسْتَقْبَلِ بِمُجَرَّدِ النَّظَرِ، حَتَّى بَيَّنَتْ لَهَا هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ الغَيْبَ مَحْجُوبٌ عَنِ البَشَرِ وَأَنَّ المِحَكَّ الحَقِيقِيَّ هُوَ الإِيمَانُ بِالخَالِقِ وَرُسُلِهِ وَالتَّقْوَى الَّتِي تَجْلِبُ الأَجْرَ العَظِيمَ. أَرَى حَبَّاتِ القَمْحِ النَّقِيَّةَ المخْلُوطَةَ بِالتِّبْنِ وَالشَّوَائِبِ فِي البَيْدَرِ الكَبِيرِ كَيْفَ لَا تَتَمَيَّزُ إِلَّا حِينَ تَهُبُّ عَلَيْهَا الرِّيَاحُ الشَّدِيدَةُ فَتُطَيِّرُ التِّبْنَ الخَفِيفَ فِي الهَوَاءِ وَتُبْقِي الحَبَّ الثَّقِيلَ مُسْتَقِرًّا عَلَى الأَرْضِ. فَمَا أَعْظَمَ تَدْبِيرَ الرَّبِّ الَّذِي يَمِيزُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ بِحِكْمَتِهِ البَالِغَةِ، وَمَا أَكْرَمَ وَعْدَهُ بِالأَجْرِ العَظِيمِ لِمَنْ جَمَعَ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالتَّقْوَى. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى ثَبَاتٍ عِنْدَ هُبُوبِ رِيَاحِ التَّمْيِيزِ، فَأُحَقِّقُ الإِيمَانَ وَالتَّقْوَى لِأَكُونَ مِنَ الطَّيِّبِينَ الفَائِزِينَ بِالأَجْرِ العَظِيمِ. فَكُلُّ صَفٍّ يَخْلُو مِنَ التَّمْحِيصِ يَبْقَى مُثْقَلًا بِالخَبِيثِ وَالنِّفَاقِ، وَلَا نَجَاةَ وَلَا أَجْرَ عَظِيمًا إِلَّا بِالإِيمَانِ الصَّادِقِ وَتَقْوَى اللَّهِ.

أَغْلَالُ البُخْلِ وَمِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ

صَدَى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٨٠)

كَنْزُ الأَمْوَالِ وَإِمْسَاكُهَا عَنْ حَقِّ السَّمَاءِ وَالمحْتَاجِينَ لَيْسَ حِفْظًا لِلثَّرْوَةِ وَلَا أَمَانًا لِلْمُسْتَقْبَلِ، بَلْ هُوَ صِنَاعَةٌ لِأَغْلَالٍ نَارِيَّةٍ تُطَوِّقُ أَعْنَاقَ البُخَلَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ بَعْدَ أَنْ يَرِثَ الخَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا. أَشْعُرُ بِرَهْبَةِ هَذَا المشْهَدِ المخِيفِ الَّذِي يُحَوِّلُ الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ المحْبُوسَ إِلَى

ثُعْبَانٍ أَقْرَعَ يَلْتَفُّ حَوْلَ عُنُقِ صَاحِبِهِ، فَأُبَادِرُ إِلَى تَطْهِيرِ يَدِي وَقَلْبِي مِنَ الشُّحِّ وَالبُخْلِ بِمَا آتَانِي الرَّبُّ مِنْ فَضْلِهِ. وَكَمْ خَدَعَ الشَّيْطَانُ القُلُوبَ البَشَرِيَّةَ بِأَنَّ الإِمْسَاكَ هُوَ الخَيْرُ وَالقُوَّةُ وَالبَقَاءُ، حَتَّى كَشَفَتْ لَنَا هَذِهِ الآيَةُ أَنَّهُ الشَّرُّ المحِيطُ الَّذِي سَيُفَارِقُهُ صَاحِبُهُ عِنْدَ المَوْتِ لِيَعُودَ المُلْكُ كُلُّهُ إِلَى وَارِثِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. أَتَأَمَّلُ السَّحَابَةَ الشَّحِيحَةَ الَّتِي تَبْخَلُ بِمَائِهَا عَلَى الأَرْضِ العَطْشَى وَتَحْبِسُهُ فِي جَوْفِهَا ظَنًّا مِنْهَا أَنَّهَا تَحْفَظُ كَنْزَهَا، فَتَتَحَوَّلُ بِسَبَبِ ثِقَلِ المَاءِ المحْبُوسِ إِلَى غَيْمَةٍ سَوْدَاءَ تُمَزِّقُهَا الصَّوَاعِقُ وَالبُرُوقُ حَتَّى تَتَلَاشَى فِي العَدَمِ. فَمَا أَبْشَعَ عَاقِبَةَ البُخْلِ بِفَضْلِ الرَّحْمَنِ الَّذِي يُجِيلُ النِّعْمَةَ إِلَى طَوْقٍ مِنَ العَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، وَمَا أَعْظَمَ خِبْرَةَ الخَالِقِ بِأَعْمَالِ العِبَادِ وَنَوَايَاهُمْ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى جُودٍ وَسَخَاءٍ يُحَرِّرُ عُنُقِي مِنْ أَغْلَالِ المادَّةِ، فَأُنْفِقُ مِمَّا آتَانِي رَبِّي قَبْلَ أَنْ يَرِثَ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا. فَكُلُّ مَالٍ يُحْبَسُ عَنْ طَاعَةِ السَّمَاءِ هُوَ طَوْقٌ مِنْ شَرٍّ وَعَذَابٍ يَوْمَ الحِسَابِ، وَلَا مَالِكَ وَلَا وَارِثَ لِلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا اللَّهُ الخَبِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ.

سِفْرُ الصَّدَى الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ

سِجِلُّ الِافْتِرَاءِ وَذَوْقُ الحَرِيقِ

صَدَى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١)

أَبْشَعُ صُوَرِ الجُرْأَةِ البَشَرِيَّةِ هِيَ تِلْكَ الكَلِمَةُ المتَجَبِّرَةُ الَّتِي تَنْسِبُ الفَقْرَ إِلَى الغَنِيِّ المطْلَقِ، فَتُدَوَّنُ فِي صَحَائِفِ السَّمَاءِ مَعَ جَرَائِمِ قَتْلِ الأَنْبِيَاءِ لِتُقَابَلَ يَوْمَ الدِّينِ بِصَيْحَةِ العَذَابِ المحْرِقِ. أَشْعُرُ بِرَعْشَةِ الهَيْبَةِ تَسْرِي فِي أَوْصَالِي وَأَنَا أُبْصِرُ كَيْفَ يَرْصُدُ سَمْعُ الخَالِقِ كُلَّ هَمْسَةِ جُحُودٍ وَيُثْبِتُهَا فِي سِجِلِّ الغَيْبِ لَا يَمْحُوهَا تَقَادُمُ الزَّمَانِ، فَأَخْشَى عَلَى لِسَانِي مِنْ أَيِّ كَلِمَةٍ تَسْتَخِفُّ بِأَمْرِ السَّمَاءِ أَوْ تَبْخَلُ بِحَقِّ المالِكِ الكَرِيمِ. وَكَمْ تَجَرَّأَتْ أَلْسِنَةُ المغْرُورِينَ بِالمالِ وَالقُوَّةِ عَلَى مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ حِينَ ظَنُّوا أَنَّ طَلَبَ الإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ الحَقِّ هُوَ حَاجَةٌ مِنَ الخَالِقِ إِلَيْهِمْ، فَجَمَعُوا بَيْنَ سُوءِ الأَدَبِ مَعَ السَّمَاءِ وَسَفْكِ دِمَاءِ الصَّالِقِينَ. أَتَأَمَّلُ القَطْرَةَ الصَّغِيرَةَ العَكِرَةَ الَّتِي تَتَبَاهَى بِوُجُودِهَا أَمَامَ المحِيطِ الأَعْظَمِ وَتَزْعُمُ أَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِيَمْتَلِئَ، فَمَا إِنْ تَلْمَسُ حَرَارَةَ الشَّمْسِ حَتَّى تَتَبَخَّرَ وَتَخْتَرِقَ دُونَ أَنْ تَتْرُكَ أَثَرًا يُذْكَرُ. فَمَا أَعْظَمَ حِلْمَ الرَّبِّ الَّذِي يَسْمَعُ كُفْرَ الجَاحِدِينَ وَيُؤَجِّلُ حِسَابَهُمْ إِلَى يَوْمٍ يَذُوقُونَ فِيهِ لَهِيبَ الحَرِيقِ، وَمَا أَبْشَعَ عَاقِبَةَ مَنْ تَطَاوَلَ عَلَى خَالِقِهِ وَقَتَلَ دُعَاةَ الحَقِّ بِغَيْرِ حَقٍّ.

هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى وَرَعٍ يَضْبِطُ لِسَانِي وَقَلْبِي أَمَامَ جَلَالِ الخَالِقِ، فَأَبْذُلُ مَالِي عُبُودِيَّةً لِلْغَنِيِّ الحَمِيدِ. فَكُلُّ تَطَاوُلٍ عَلَى مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ هُوَ وُقُودٌ مُؤَجَّلٌ لِنَارِ الجَحِيمِ، وَلَا غِنَى مُطْلَقَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ.

ثَمَرَةُ الأَيْدِي وَعَدَالَةُ الحِسَابِ

صَدَى ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (١٨٢)

لَهِيبُ العَذَابِ الَّذِي يُحِيطُ بِالمجْرِمِينَ لَيْسَ قَدَرًا جَائِرًا فُرِضَ عَلَيْهِمْ مِنْ الخَارِجِ، بَلْ هُوَ الثَّمَرَةُ المرَّةُ الَّتِي غَرَسَتْهَا أَيْدِيهِمْ فِي دَارِ العَمَلِ تَحْتَ مِيزَانِ الخَالِقِ المنَزَّهِ عَنِ الظُّلْمِ. أَجِدُ فِي صَدْرِي يَقِينًا رَاسِخًا بِعَدَالَةِ السَّمَاءِ يُطَهِّرُ عَقْلِي مِنْ كُلِّ وَسْوَسَةٍ أَوِ اعْتِرَاضٍ، فَأُدْرِكُ أَنَّ الإِنْسَانَ هُوَ صَانِعُ مَصِيرِهِ الأَبَدِيِّ بِمَا تُقَدِّمُهُ يَدَاهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ. وَكَمْ حَاوَلَتِ النَّفْسُ الهَارِبَةُ مِنْ مَسْؤُولِيَّةِ أَفْعَالِهَا أَنْ تَتَّهِمَ الأَقْدَارَ أَوْ تَلْتَمِسَ المعَاذِيرَ عِنْدَ نُزُولِ العُقُوبَةِ، حَتَّى قَطَعَتْ هَذِهِ الآيَةُ كُلَّ حُجَّةٍ حِينَ أَعْلَنَتْ أَنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ مَا قَدَّمَتِ الأَيْدِي. أَرَى الفَلَّاحَ الَّذِي يَزْرَعُ أَشْوَاكًا سَامَّةً فِي حَقْلِهِ طَوَالَ العَامِ ثُمَّ يَبْكِي عِنْدَ الحَصَادِ حِينَ تَجْرَحُ الأَشْوَاكُ يَدَيْهِ، فَلَا يَلُومُ إِلَّا نَفْسَهُ لِأَنَّ الأَرْضَ لَمْ تُنْبِتْ إِلَّا البُذُورَ الَّتِي أَلْقَاهَا فِيهَا بِيَدِهِ. فَمَا أَعْظَمَ تَنَزُّهَ الرَّبِّ عَنِ الظُّلْمِ فِي قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، وَمَا أَبْلَغَ هَذَا التَّذْكِيرَ الَّذِي يَجْعَلُ كُلَّ عَبْدٍ رَقِيبًا عَلَى مَا تُقَدِّمُهُ يَدَاهُ لِغَدٍ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى مَسْؤُولِيَّةٍ كَامِلَةٍ عَنْ أَعْمَالِي وَخُطُوَاتِي، فَأَزْرَعُ الخَيْرَ اليَوْمَ لِأَحْصُدَ السَّلَامَةَ غَدًا. فَكُلُّ عَذَابٍ يَنَالُهُ العَبْدُ فِي الآخِرَةِ هُوَ حَصَادُ مَا كَسَبَتْهُ يَدَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَلَا ظُلْمَ أَبَدًا فِي حُكْمِ اللَّهِ العَادِلِ الحَكِيمِ.

قِنَاعُ القُرْبَانِ وَتَارِيخُ الغَدْرِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٨٣)

خَلْفَ قِنَاعِ الشُّرُوطِ المزَيَّفَةِ وَالدَّعَاوَى الكَاذِبَةِ يَخْتَبِئُ عِنَادُ المكَابِرِينَ الَّذِينَ يَرْفُضُونَ الحَقَّ مَهْمَا سَطَعَتْ بَرَاهِينُهُ، فَيَفْضَحُهُمُ التَّارِيخُ بِدِمَاءِ الرُّسُلِ الَّذِينَ جَاؤُوهُمْ بِكُلِّ مَا اشْتَرَطُوهُ ثُمَّ قَتَلُوهُمْ غَدْرًا وَبَغْيًا. أَشْعُرُ بِبَصِيرَةٍ تَكْشِفُ زَيْفَ التَّعَنُّتِ الفِكْرِيِّ وَالمطَالَبَةِ بِالمعْجِزَاتِ عِنْدَ أَهْلِ الهَوَى، فَأُدْرِكُ أَنَّ القَلْبَ المغْلَقَ لَا يَنْفَعُهُ نُزُولُ النَّارِ مِنَ السَّمَاءِ لِتَأْكُلَ القُرْبَانَ مَا دَامَتِ النِّيَّةُ مَعْقُودَةً عَلَى الجُحُودِ. وَكَمْ تَعَلَّلَتِ النُّفُوسُ المعْرِضَةُ بِطَلَبِ البَرَاهِينِ الإِضَافِيَّةِ لِتُؤَجِّلَ الِاسْتِجَابَةَ لِأَمْرِ الوَحْيِ،

قَبْلَ أَنْ يُسْقِطَ هَذَا الحِوَارُ القُرْآنِيُّ حُجَّتَهُمْ حِينَ وَاجَهَهُمْ بِحَقِيقَةِ جَرَائِمِهِمُ السَّابِقَةِ ضِدَّ أَنْبِيَاءِ السَّمَاءِ. أَتَأَمَّلُ المرِيضَ المَغْرُورَ الَّذِي يَرْفُضُ الدَّوَاءَ الشَّافِيَ وَيَشْتَرِطُ أَنْ يُقَدَّمَ لَهُ فِي كَأْسٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَلَمَّا أُتِيَ بِهِ فِي الكَأْسِ الذَّهَبِيَّةِ أَرَاقَهُ عَلَى الأَرْضِ وَقَتَلَ الطَّبِيبَ لِأَنَّهُ يَكْرَهُ الشِّفَاءَ وَيَعْشَقُ المَرَضَ. فَمَا أَفْحَمَ هَذَا التَّبْكِيتَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يُعَرِّي كَذِبَ المدَّعِينَ وَيَكْشِفُ تَنَاقُضَ أَقْوَالِهِمْ مَعَ أَفْعَالِهِمْ، وَمَا أَبْشَعَ جَرِيمَةَ قَتْلِ الرُّسُلِ بَعْدَ إِقَامَةِ الحُجَّةِ وَالبَيِّنَاتِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى تَسْلِيمٍ صَادِقٍ لِبَيِّنَاتِ الوَحْيِ دُونَ تَعَنُّتٍ أَوْ شُرُوطٍ، فَأُقْبِلُ عَلَى الحَقِّ بِقَلْبٍ خَاضِعٍ. فَكُلُّ اشْتِرَاطٍ لِلْمُعْجِزَاتِ مَعَ إِصْرَارِ القَلْبِ عَلَى الكِبْرِ هُوَ كَذِبٌ مَفْضُوحٌ، وَلَا صِدْقَ إِلَّا فِي الِانْقِيَادِ لِآيَاتِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ.

عَزَاءُ الرِّسَالَةِ وَمَوَاكِبُ المكَذَّبِينَ

صَدَى ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (١٨٤) عَلَى طَرِيقِ الدَّعْوَةِ الشَّائِكِ لَيْسَ التَّكْذِيبُ بِدْعَةً جَدِيدَةً تَكْسِرُ قَلْبَ الصَّادِقِ، بَلْ هُوَ قَانُونٌ قَدِيمٌ وَاجَهَهُ أَنْبِيَاءُ السَّمَاءِ وَهُمْ يَحْمِلُونَ البَيِّنَاتِ السَّاطِعَةَ وَالكُتُبَ المنِيرَةَ الَّتِي تَهْدِي الحَائِرِينَ. أَجِدُ فِي صَدْرِي سَكِينَةً وَتَثْبِيتًا يَمْسَحَانِ أَلَمَ الوَحْدَةِ وَالِاسْتِغْرَابِ عِنْدَ مُوَاجَهَةِ جُحُودِ الخَلْقِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ تَكْذِيبَ البَاطِلِ لِلْحَقِّ هُوَ شَهَادَةٌ عَلَى أَنَّنِي أَسِيرُ فِي مَوْكِبِ الرُّسُلِ الكِرَامِ. وَكَمْ تَأَلَّمَتْ رُوحِي حِينَ رُدَّتْ كَلِمَةُ الصِّدْقِ وَاسْتُقْبِلَ النُّورُ بِالإِعْرَاضِ وَالسُّخْرِيَةِ، حَتَّى وَاسَتْنِي هَذِهِ الآيَةُ بِذِكْرِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالكِتَابِ المنِيرِ فَقُوبِلُوا بِالتَّكْذِيبِ وَالعِنَادِ. أَرَى الشَّمْسَ المشْرِقَةَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ كَيْفَ لَا تَتَوَقَّفُ عَنْ إِرْسَالِ أَشِعَّتِهَا الدَّافِئَةِ لِأَنَّ العُمْيَانَ يُنْكِرُونَ وُجُودَهَا، بَلْ تَمْضِي فِي مَدَارِهَا الكَوْنِيِّ تُنِيرُ الكَوْنَ لِلْمُبْصِرِينَ وَتُقِيمُ الحُجَّةَ عَلَى الجَاحِدِينَ. فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ التَّسْلِيَةَ الرَّبَّانِيَّةَ الَّتِي تَرْبِطُ قَلْبَ النَّبِيِّ وَالدَّاعِيَةِ بِسِلْسِلَةِ النُّبُوَّاتِ الخَالِدَةِ، وَمَا أَبْهَى نُورَ الكِتَابِ الَّذِي لَا تُطْفِئُهُ أَفْوَاهُ المكَذِّبِينَ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى صَبْرٍ جَمِيلٍ وَثَبَاتٍ عَلَى البَلَاغِ، فَلَا يَهُزُّنِي تَكْذِيبُ المعْرِضِينَ مَا دُمْتُ أَحْمِلُ نُورَ الوَحْيِ. فَكُلُّ جُحُودٍ يُوَاجِهُ الحَقَّ هُوَ امْتِدَادٌ لِسُنَّةِ المكَذِّبِينَ الغَابِرِينَ، وَلَا ضِيَاءَ يَهْدِي البَشَرِيَّةَ إِلَّا نُورُ كِتَابِ اللَّهِ المنِيرِ.

حَقِيقَةُ الفَوْزِ وَغُرُورُ المتَاعِ

صَدَى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (١٨٥)

كَأْسُ المَوْتِ دَائِرَةٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ حَيَّةٍ لَا يَسْتَثْنِي شَرَابَهَا مَلِكٌ وَلَا مَمْلُوكٌ، لِيَنْتَقِلَ الجَمِيعُ إِلَى سَاحَةِ الوَفَاءِ الكَامِلِ حَيْثُ يَتَحَقَّقُ الفَوْزُ الحَقِيقِيُّ بِالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ وَدُخُولِ الجَنَّةِ بَعْدَ انْكِشَافِ زَيْفِ الدُّنْيَا. أَشْعُرُ بِرَعْشَةِ اليَقْظَةِ تَسْرِي فِي كِيَانِي وَتُوقِظُنِي مِنْ سُبَاتِ الغَفْلَةِ وَالتَّعَلُّقِ بِزُخْرُفِ الأَرْضِ، فَأَرَى الدُّنْيَا بِكُلِّ بَرِيقِهَا مَتَاعًا خَادِعًا يَتَلَاشَى عِنْدَ أَوَّلِ رَشْفَةٍ مِنْ كَأْسِ المَنِيَّةِ. وَكَمْ انْخَدَعْتُ فِي سَالِفِ أَيَّامِي بِمَقَايِيسِ الفَوْزِ الأَرْضِيَّةِ الَّتِي تَحْصُرُ النَّجَاحَ فِي جَمْعِ الثَّرَوَاتِ وَتَشْيِيدِ القُصُورِ، حَتَّى صَحَّحَتْ هَذِهِ الآيَةُ بُوصَلَتِي لِتُؤَكِّدَ أَنَّ الفَائِزَ الوَحِيدَ هُوَ مَنْ زُحْزِحَ عَنِ السَّعِيرِ وَأُدْخِلَ دَارَ النَّعِيمِ. أَتَأَمَّلُ السَّرَابَ اللَّامِعَ فِي وَسَطِ الصَّحْرَاءِ المحْرِقَةِ الَّذِي يَخْدَعُ المسَافِرَ العَطْشَانَ فَيُبَدِّدُ طَاقَتَهُ فِي الرَّكْضِ خَلْفَهُ، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ وَجَدَهُ رِمَالًا قَاحِلَةً بَيْنَمَا كَانَتْ وَاحَةُ الحَيَاةِ تَنْتَظِرُهُ فِي الاتِّجَاهِ الآخَرِ. فَمَا أَبْلَغَ هَذَا التَّلْخِيصَ الكَوْنِيَّ لِحَقِيقَةِ الوُجُودِ وَالمَوْتِ وَالبَعْثِ وَالجَزَاءِ، وَمَا أَعْظَمَ ذَلِكَ الفَوْزَ الأَبَدِيَّ لِمَنْ نَجَا مِنَ النَّارِ وَظَفِرَ بِالجِنَانِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى زُهْدٍ فِي مَتَاعِ الغُرُورِ وَاجْتِهَادٍ لِسَاعَةِ اللِّقَاءِ، فَأُعِدُّ زَادِي لِيَوْمٍ يُوَفَّى كُلُّ عَامِلٍ أَجْرَهُ. فَكُلُّ مَتَاعٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا هُوَ غُرُورٌ زَائِلٌ يَنْقَضِي بِالمَوْتِ، وَلَا فَوْزَ حَقِيقِيًّا إِلَّا بِالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ وَدُخُولِ جَنَّةِ اللَّهِ.

عَزْمُ الأُمُورِ وَاحْتِمَالُ الأَذَى

صَدَى ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٨٦)

سُنَّةُ الِابْتِلَاءِ الحَتْمِيَّةُ تَمْتَدُّ لِتَحْتَبِرَ ثَبَاتَ المؤْمِنِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَتُقَابِلَهُمْ بِسِهَامِ الأَذَى الكَثِيرِ مِنْ أَلْسِنَةِ الخُصُومِ، فَلَا يَصْمُدُ فِي هَذِهِ العَاصِفَةِ إِلَّا أَهْلُ العَزِيمَةِ الَّذِينَ تَدَرَّعُوا بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى. أَشْعُرُ بِتَهَيُّؤٍ رُوحِيٍّ وَصَلَابَةٍ دَاخِلِيَّةٍ تَمْنَعُ المفَاجَأَةَ وَالِانْهِيَارَ عِنْدَ نُزُولِ البَلَاءِ أَوْ سَمَاعِ الإِسَاءَةِ، حِينَ أُدْرِكُ أَنَّ هَذَا الطَّرِيقَ مَحْفُوفٌ بِالِاخْتِبَارِ وَأَنَّ الصَّبْرَ وَالتَّقْوَى هُمَا مِفْتَاحُ العَزْمِ وَالنَّجَاةِ. وَكَمْ ضَاقَ صَدْرِي فِي سَالِفِ أَيَّامِي مِنْ أَذَى الأَلْسِنَةِ وَتَقَلُّبِ الأَحْوَالِ فِي المالِ وَالنَّفْسِ، حَتَّى أَرْشَدَتْنِي هَذِهِ الآيَةُ إِلَى أَنَّ الرَّدَّ الحَقِيقِيَّ عَلَى الأَذَى الكَثِيرِ لَيْسَ الانْجِرَارَ إِلَى الخُصُومَةِ بَلْ الِارْتِقَاءُ إِلَى مَقَامِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى. أَتَأَمَّلُ السَّفِينَةَ العِمْلَاقَةَ الَّتِي تَشُقُّ عُبَابَ المحِيطِ وَتَتَلَاطَمُ عَلَى جَوَانِبِهَا الأَمْوَاجُ وَالزَّبَدُ، فَلَا تَتَوَقَّفُ لِتُصَارِعَ كُلَّ مَوْجَةٍ بَلْ تَمْضِي بِعَزْمٍ وَثَبَاتٍ نَحْوَ مِينَائِهَا المقْصُودِ بَعْدَ أَنْ تَتَكَسَّرَ الأَمْوَاجُ عَلَى هَيْكَلِهَا الصُّلْبِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّوَطِينَ الرَّبَّانِيَّ لِلنُّفُوسِ قَبْلَ وُقُوعِ المِحَنِ، وَمَا أَشْرَفَ مَقَامَ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى الَّذِي جَعَلَهُ الخَالِقُ مِنْ أَعْلَى عَزَائِمِ الأُمُورِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي

وُجْدَانِي إِلَى قُوَّةٍ تَحْتَمِلُ الأَذَى وَتَثْبُتُ عِنْدَ الِابْتِلَاءِ، فَأَجْمَعُ بَيْنَ الصَّبْرِ الجَمِيلِ وَالتَّقْوَى الخَالِصَةِ. فَكُلُّ جَزَعٍ عِنْدَ الِابْتِلَاءِ أَوْ فَوْرٍ عِنْدَ سَمَاعِ الأَذَى هُوَ ضَعْفٌ فِي العَزِيمَةِ، وَلَا ثَبَاتَ فِي مَيَادِينِ الحَقِّ إِلَّا بِالصَّبْرِ وَتَقْوَى اللَّهِ.

خِيَانَةُ الميثَاقِ وَتِجَارَةُ الهَوَانِ

صَدَى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٨٧)

أَمَانَةُ العِلْمِ وَالوَحْيِ مِيثَاقٌ غَلِيظٌ أَخَذَهُ الخَالِقُ عَلَى حَمَلَةِ الكِتَابِ لِيَنْشُرُوا النُّورَ بَيْنَ النَّاسِ وَلَا يَحْبِسُوهُ فِي الظَّلَامِ، فَلَمَّا نَبَذُوهُ خَلْفَ ظُهُورِهِمْ وَبَاعُوا الحَقِيقَةَ بِثَمَنٍ بَخْسٍ سَقَطُوا فِي أَبْأَسِ صَفْقَةٍ عَرَفَهَا التَّارِيخُ. أَشْعُرُ بِرَهْبَةِ هَذِهِ المَسْؤُولِيَّةِ المُقَدَّسَةِ تَهُزُّ ضَمِيرِي كُلَّمَا عَلِمْتُ حَقًّا أَوْ فَقِهْتُ آيَةً، فَأَخْشَى أَنْ أَكْتُمَ شَهَادَةَ الحَقِّ خَوْفًا مِنَ الخَلْقِ أَوْ طَمَعًا فِي عَرَضٍ زَائِلٍ مِنَ الدُّنْيَا. وَكَمْ رَأَيْتُ فِي مَسِيرَةِ الحَيَاةِ مَنْ يُخْفِي الحَقِيقَةَ وَيُلَبِّسُ البَاطِلَ لِيَحْفَظَ مَنْصِبًا أَوْ يَنَالَ رِضَا سُلْطَانٍ أَوْ مَالٍ، غَافِلًا عَنْ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا ثَمَنٌ قَلِيلٌ تَافِهٌ إِذَا قُورِنَ بِمِيثَاقِ السَّمَاءِ. أَرَى الحَارِسَ الخَائِنَ الَّذِي أُؤْتُمِنَ عَلَى مِصْبَاحِ المَنَارَةِ لِيُضِيءَ الطَّرِيقَ لِلسُّفُنِ فِي اللَّيْلِ البَهِيمِ، فَأَطْفَأَ المِصْبَاحَ وَأَلْقَاهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُقَابِلَ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ لِيَتَسَبَّبَ فِي غَرَقِ القَوَافِلِ وَهَلَاكِ الأَبْرِيَاءِ. فَمَا أَقْبَحَ جَرِيمَةَ كِتْمَانِ العِلْمِ وَنَبْذِ الميثَاقِ الإِلَهِيِّ وُرَاءَ الظُّهُورِ، وَمَا أَبْأَسَ تِلْكَ التِّجَارَةَ الخَاسِرَةَ الَّتِي تَسْتَبْدِلُ رِضَا الرَّبِّ بِحُطَامٍ فَانٍ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى عَهْدٍ بِالبَيَانِ وَالصَّدْعِ بِالحَقِّ دُونَ كِتْمَانٍ أَوْ مُدَاهَنَةٍ، فَأَصُونُ مِيثَاقَ السَّمَاءِ عَنْ بَيْعِهِ بِأَثْمَانِ الدُّنْيَا الرَّخِيصَةِ. فَكُلُّ كِتْمَانٍ لِلْحَقِّ طَمَعًا فِي عَرَضٍ أَرْضِيٍّ هُوَ خِيَانَةٌ لِلْمِيثَاقِ، وَلَا أَبْأَسَ مِنْ صَفْقَةِ مَنْ بَاعَ عَهْدَ اللَّهِ بِثَمَنٍ قَلِيلٍ.

سَرَابُ الثَّنَاءِ وَمِصْيَدَةُ العَذَابِ

صَدَى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨٨)

النَّشْوَةُ الكَاذِبَةُ الَّتِي تَمْلَأُ صُدُورَ المخَادِعِينَ بِمَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ إِثْمٍ وَتَضْلِيلٍ، وَتَعَطُّشُهُمُ المَرَضِيُّ لِلثَّنَاءِ وَالمدِيحِ عَلَى بُطُولَاتٍ لَمْ يَصْنَعُوهَا، لَنْ يُنْجِيَهُمْ مِنْ قَبْضَةِ العَذَابِ الأَلِيمِ الَّذِي يُطْبِقُ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. أَجِدُ فِي صَدْرِي يَقَظَةً تُفَتِّشُ فِي خَبَايَا النَّفْسِ خَشْيَةَ أَنْ يَتَسَلَّلَ إِلَيْهَا حُبُّ المحْمَدَةِ البَاطِلَةِ أَوِ الفَرَحُ بِالتَّقْصِيرِ وَالخِدَاعِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ تَزْيِيفَ الحَقَائِقِ أَمَامَ البَشَرِ لَا يَنْطَلِي عَلَى مِيزَانِ

السَّمَاءِ. وَكَمْ رَأَيْتُ فِي مَسَارِحِ الحَيَاةِ مَنْ يَسْرِقُ جُهُودَ الصَّادِقِينَ وَيَتَبَاهَى بِأَعْمَالٍ لَمْ يَفْعَلْهَا لِيَنَالَ تَصْفِيقَ الغَافِلِينَ، ظَانًّا أَنَّهُ فِي مَأْمَنٍ مِنَ الحِسَابِ وَالعِقَابِ. أَتَأَمَّلُ الطَّائِرَ الأَجْوَفَ الَّذِي يَلْبَسُ رِيشَ الطَّاوُوسِ المُسْتَعَارَ وَيَتَبَخْتَرُ فِي السَّاحَةِ طَالِبًا الثَّنَاءَ وَالإِعْجَابَ، فَمَا إِنْ تَهُبُّ رِيحُ الحَقِيقَةِ حَتَّى يَتَسَاقَطَ الرِّيشُ المُزَيَّفُ وَيَنْكَشِفَ قُبْحُهُ وَعُرْيُهُ أَمَامَ الجَمِيعِ. فَمَا أَشَدَّ وَعِيدَ الرَّبِّ لِهَؤُلَاءِ المُتَبَاهِينَ بِالبَاطِلِ المُتَشَبِّعِينَ بِمَا لَمْ يُعْطَوْا، وَمَا أَبْعَدَهُمْ عَنِ النَّجَاةِ وَالفَوْزِ حِينَ يَنْتَظِرُهُمُ العَذَابُ الأَلِيمُ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى إِخْلَاصٍ يَكْرَهُ الرِّيَاءَ وَالثَّنَاءَ الكَاذِبَ، فَلَا أَفْرَحُ إِلَّا بِطَاعَةٍ صَادِقَةٍ وَلَا أَطْلُبُ الحَمْدَ إِلَّا مِنْ رَبِّي. فَكُلُّ ثَنَاءٍ يُبْنَى عَلَى الخِدَاعِ وَالِادِّعَاءِ هُوَ حُجَّةٌ عَلَى صَاحِبِهِ، وَلَا مَفَازَةَ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ لِلْمُخَادِعِينَ.

مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَشُمُولُ القُدْرَةِ

صَدَى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨٩)

تَتَضَاءَلُ كُلُّ المَمَالِكِ الأَرْضِيَّةِ وَتَتَلَاشَى عُرُوشُ المُتَجَبِّرِينَ أَمَامَ هَذَا الإِعْلَانِ الكَوْنِيِّ المُطْلَقِ: أَنَّ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مِلْكٌ خَالِصٌ لِلْخَالِقِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ قُدْرَتَهُ النَّافِذَةَ تُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ دُونَ عَجْزٍ أَوِ اسْتِثْنَاءٍ. أَشْعُرُ بِعِزَّةِ العُبُودِيَّةِ لِمَالِكِ المُلْكِ تَمْلَأُ كِيَانِي وَتُحَرِّرُنِي مِنْ ذُلِّ الحَاجَةِ إِلَى المَخْلُوقِينَ، فَأَرَى كُلَّ ذَرَّةٍ فِي الكَوْنِ خَاضِعَةً لِسُلْطَانِهِ وَمُتَحَرِّكَةً بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ. وَكَمْ أَخَافَتْنِي فِي سَالِفِ أَيَّامِي تَعْقِيدَاتُ الوَاقِعِ وَعَقَبَاتُ الطَّرِيقِ حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِعَيْنِ العَجْزِ البَشَرِيِّ، حَتَّى أَشْرَقَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي قَلْبِي لِتُذَكِّرَنِي بِأَنَّ المَالِكَ القَدِيرَ يَمْلِكُ مَفَاتِيحَ كُلِّ مُغْلَقٍ. أَرَى قَطْرَةَ النَّدَى الصَّغِيرَةَ الَّتِي تَسْتَقِرُّ عَلَى وَرَقَةِ الشَّجَرِ كَيْفَ تَعْكِسُ فِي جَوْفِهَا صُورَةَ السَّمَاءِ الوَاسِعَةِ وَالأَرْضِ المُمْتَدَّةِ، لِتَشْهَدَ بِأَنَّ صَانِعَ الذَّرَّةِ وَالمَجَرَّةِ هُوَ المَالِكُ الوَاحِدُ القَدِيرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا السُّلْطَانَ الَّذِي لَا يُنَازِعُهُ فِيهِ مُنَازِعٌ وَلَا يَخْرُجُ عَنْ قَبْضَتِهِ كَائِنٌ، وَمَا أَشَدَّ طُمَأْنِينَةَ القَلْبِ الَّذِي يَأْوِي إِلَى كَنَفِ القَدِيرِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى ثِقَةٍ مُطْلَقَةٍ بِتَدْبِيرِ المَالِكِ القَدِيرِ، فَلَا أَسْتَعْظِمُ مُشْكِلَةً وَلَا أَخْشَى سُلْطَانًا سِوَاهُ. فَكُلُّ مُلْكٍ فِي الوُجُودِ هُوَ عَارِيَةٌ مَحْدُودَةٌ تَزُولُ بِأَمْرِ المَالِكِ الحَقِّ، وَلَا قُدْرَةَ مُطْلَقَةَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا لِلَّهِ.

مِحْرَابُ التَّفَكُّرِ وَنَبْضُ الأَلْبَابِ

صَدَى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠)

صَفَحَاتُ الكَوْنِ المَفْتُوحَةُ بِسَمَاوَاتِهَا الشَّاهِقَةِ وَأَرْضِهَا المُمَهَّدَةِ وَتَعَاقُبِ لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا، هِيَ كِتَابٌ نَاطِقٌ بِآيَاتِ العَظَمَةِ وَالإِبْدَاعِ لَا يَقْرَأُ أَسْرَارَهُ إِلَّا أَصْحَابُ العُقُولِ الصَّافِيَةِ وَالأَلْبَابِ الحَيَّةِ. أَشْعُرُ بِرُوحِي تَتَّسِعُ لِتُعَانِقَ أَرْجَاءَ الفَضَاءِ الفَسِيحِ وَأَنَا أَتَأَمَّلُ هَذَا التَّنَاغُمَ المُعْجِزَ بَيْنَ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ السَّاكِنِ وَإِشْرَاقِ النَّهَارِ المُتَحَرِّكِ، فَيَخْشَعُ قَلْبِي أَمَامَ جَلَالِ الخَالِقِ المُبْدِعِ. وَكَمْ مَرَرْتُ عَلَى مَشَاهِدِ الطَّبِيعَةِ وَتَقَلَّبِ الفُصُولِ بِعَيْنٍ غَافِلَةٍ أَلِفَتِ العَادَةَ فَفَقَدَتِ الدَّهْشَةَ، حَتَّى أَيْقَظَتْنِي هَذِهِ الآيَةُ لِأَنْظُرَ بِعَيْنِ اللُّبِّ وَالبَصِيرَةِ إِلَى صُنْعِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ. أَتَأَمَّلُ الفَلَكَ الدَّائِرَ بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ حَيْثُ يَنْسَلِخُ النَّهَارُ مِنَ اللَّيْلِ كَخَيْطِ النُّورِ الَّذِي يَشُقُّ ثَوْبَ الظَّلَامِ دُونَ تَصَادُمٍ أَوِ اخْتِلَالٍ، فَيَشْهَدُ كُلُّ نَجْمٍ وَكُلُّ نَسْمَةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الفَاطِرِ العَظِيمِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الآيَاتِ الكَوْنِيَّةَ الَّتِي تَهُزُّ وَجْدَانَ أُولِي الأَلْبَابِ وَتَقُودُهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ رَبِّهِمْ، وَمَا أَشَدَّ بَلَادَةَ العُقُولِ الَّتِي تَعِيشُ فِي هَذَا الكَوْنِ البَدِيعِ كَالأَنْعَامِ لَا تَتَفَكَّرُ وَلَا تَعْتَبِرُ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى عِبَادَةِ التَّفَكُّرِ الدَّائِمِ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَيَزْدَادُ يَقِينِي مَعَ كُلِّ شُرُوقٍ وَغُرُوبٍ. فَكُلُّ ذَرَّةٍ فِي الكَوْنِ هِيَ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى الخَالِقِ المُبْدِعِ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِآيَاتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ.

سِيمَا الذَّاكِرِينَ وَبَرَاءَةُ الخَلْقِ مِنَ البَاطِلِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٩١)

فِي مِحْرَابِ أُولِي الأَلْبَابِ يَمْتَزِجُ نَبْضُ الذِّكْرِ الدَّائِمِ فِي كُلِّ الأَحْوَالِ بِعُمْقِ التَّفَكُّرِ فِي أَسْرَارِ الوُجُودِ، لِيُثْمِرَ يَقِينًا مُطْلَقًا بِحِكْمَةِ الخَلْقِ وَتَسْبِيحًا يَنْتَهِي بِالِاسْتِجَارَةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ. أَجِدُ فِي صَدْرِي انْشِرَاحًا وَسُمُوًّا وَأَنَا أَرَى كَيْفَ يَتَحَوَّلُ كِيَانُ الإِنْسَانِ كُلُّهُ قَائِمًا وَقَاعِدًا وَمُضْطَجِعًا إِلَى مِحْرَابٍ لَا يَنْقَطِعُ فِيهِ صِلَةُ العَبْدِ بِرَبِّهِ وَلَا تَأْمُلُهُ فِي غَايَةِ الوُجُودِ. وَكَمْ ضَاعَتْ أَوْقَاتِي بَيْنَ غَفْلَةٍ عَنِ الذِّكْرِ وَنَظَرٍ سَطْحِيٍّ لِلْحَيَاةِ يُوحِي بِالعَبَثِ وَالفَرَاغِ، حَتَّى عَلَّمَنِي هَذَا الدُّعَاءُ النُّورَانِيُّ أَنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ خُلِقَ بِالحَقِّ وَالحِكْمَةِ وَلَمْ يُخْلَقْ بَاطِلًا أَبَدًا. أَتَأَمَّلُ السَّاعَةَ الكَوْنِيَّةَ الدَّقِيقَةَ الَّتِي يَدُورُ فِيهَا كُلُّ تُرْسٍ وَكُلُّ كَوْكَبٍ بِغَايَةٍ مَرْسُومَةٍ لَا تَخْتَلُّ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ، فَيَنْطِقُ لِسَانُ العَقْلِ وَالقَلْبِ مَعًا بِالتَّنْزِيهِ وَالتَّسْبِيحِ وَالخَوْفِ مِنْ تَضْيِيعِ غَايَةِ الخَلْقِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّكَامُلَ بَيْنَ ذِكْرِ اللِّسَانِ وَالقَلْبِ وَبَيْنَ تَفَكُّرِ العَقْلِ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمَا أَصْدَقَ تِلْكَ الضَّرَاعَةَ الَّتِي تَطْلُبُ الوِقَايَةَ مِنَ السَّعِيرِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى حَيَاةٍ مَوْصُولَةٍ بِالذِّكْرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ، فَأُسَبِّحُ

رَبِّي وَأَسْأَلُهُ النَّجَاةَ مِنَ النَّارِ. فَكُلُّ نَظْرَةٍ لِلْوُجُودِ تَخْلُو مِنَ الغَايَةِ وَالحِكْمَةِ هِيَ ضَلَالٌ وَبَاطِلٌ، وَلَا نَجَاةَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ وَالتَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ.

خِزْيُ النَّارِ وَانْقِطَاعُ الأَنْصَارِ

صَدَى ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (١٩٢)

دُخُولُ النَّارِ لَيْسَ مُجَرَّدَ أَلَمٍ يَحْرِقُ الأَبْدَانَ، بَلْ هُوَ الخِزْيُ الأَبَدِيُّ وَالهَوَانُ الفَاضِحُ الَّذِي يَكْسِرُ الأَرْوَاحَ حِينَ تَتَقَطَّعُ كُلُّ الحِبَالِ وَلَا يَجِدُ الظَّالِمُونَ نَاصِرًا وَلَا مُغِيثًا. أَرْتَعِدُ خَوْفًا وَأَنَا أُكَرِّرُ هَذَا الِاعْتِرَافَ الخَاشِعَ بَيْنَ يَدَيِ الخَالِقِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ العَارَ الحَقِيقِيَّ وَالخِزْيَ الأَكْبَرَ إِنَّمَا هُوَ الطَّرْدُ مِنْ رَحْمَةِ السَّمَاءِ وَالسُّقُوطُ فِي هَاوِيَةِ الجَحِيمِ. وَكَمْ خَشِيَتِ النُّفُوسُ فِي الدُّنْيَا مِنْ مَذَلَّةِ الفَقْرِ أَوْ خِزْيِ العُيُونِ البَشَرِيَّةِ الفَانِيَةِ، وغَفَلَتْ عَنْ ذَلِكَ الخِزْيِ العَظِيمِ الَّذِي يَحُلُّ بِمَنْ أُدْخِلَ النَّارَ بِظُلْمِهِ وَعِنَادِهِ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ شَفِيعًا وَلَا نَصِيرًا. أَرَى المجْرِمَ الَّذِي كَانَ يَتَبَاهَى بِأَعْوَانِهِ وَحُصُونِهِ فِي دَارِ الغُرُورِ كَيْفَ يَقِفُ عَارِيًا مَكْسُورَ الجَنَاحِ أَمَامَ عَرْشِ العَدْلِ الإِلَهِيِّ، وَقَدْ تَبَرَّأَ مِنْهُ كُلُّ صَدِيقٍ وَنَصِيرٍ لِيُسَاقَ ذَلِيلًا إِلَى السَّعِيرِ. فَمَا أَبْلَغَ تَوَسُّلَ أُولِي الأَلْبَابِ إِلَى رَبِّهِمْ لِيُجِيرَهُمْ مِنْ خِزْيِ النَّارِ وَمَصِيرِ الظَّالِمِينَ، وَمَا أَشَدَّ عَجْزَ الخَلْقِ عَنْ نُصْرَةِ مَنْ أَرَادَ الخَالِقُ إِهَانَتَهُ وَعَذَابَهُ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى خَوْفٍ يَطْرُدُ الظُّلْمَ وَالغُرُورَ مِنْ قَلْبِي، فَأَتَضَرَّعُ إِلَى رَبِّي لِيَحْفَظَنِي مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. فَكُلُّ نُصْرَةٍ يَتَوَهَّمُهَا الظَّالِمُونَ فِي الدُّنْيَا هِيَ سَرَابٌ يَتَلَاشَى عِنْدَ الحِسَابِ، وَلَا مُجِيرَ مِنْ خِزْيِ النَّارِ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ.

نِدَاءُ الإِيمَانِ وَتَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ

صَدَى ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (١٩٣)

صَوْتُ الوَحْيِ المدَوِّي فِي أَرْجَاءِ الكَوْنِ يَدْعُو الأَرْوَاحَ الحَائِرَةَ إِلَى نُورِ الإِيمَانِ، فَتُسَارِعُ القُلُوبُ الصَّادِقَةُ إِلَى التَّلْبِيَةِ الفَوْرِيَّةِ ثُمَّ تَتَوَسَّلُ بِإِيمَانِهَا لِتَنَالَ مَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ وَتَكْفِيرَ السَّيِّئَاتِ وَحُسْنَ الخِتَامِ مَعَ الأَبْرَارِ. أَشْعُرُ بِعُذُوبَةِ هَذَا النِّدَاءِ وَرِقَّةِ هَذِهِ الِاسْتِجَابَةِ تَسْرِي فِي مَفَاصِلِ رُوحِي، فَأُجَدِّدُ إِيمَانِي بِرَبِّي وَأَرْفَعُ أَكُفَّ الضَّرَاعَةِ طَالِبًا سِتْرَ العُيُوبِ وَمَحْوَ الزَّلَّاتِ وَالمَوْتَ فِي رَكْبِ الصَّالِحِينَ. وَكَمْ تَاهَتْ أُذُنُ الإِنْسَانِ فِي ضَجِيجِ نِدَاءَاتِ الهَوَى وَالشَّهَوَاتِ الَّتِي تَدْعُوهُ إِلَى السُّقُوطِ، حَتَّى أَدْرَكَتْهُ رَحْمَةُ السَّمَاءِ بِنِدَاءِ الإِيمَانِ الَّذِي يُحْيِي القُلُوبَ وَيُطَهِّرُ الصَّحَائِفَ مِنَ الأَوْزَارِ. أَتَأَمَّلُ المسَافِرَ التَّائِهَ فِي

لَيْلٍ عَاصِفٍ حِينَ يَسْمَعُ صَوْتَ المُنَادِي مِنَ المَدِينَةِ الآمِنَةِ يُرْشِدُهُ إِلَى البَوَّابَةِ المَفْتُوحَةِ، فَيُسْرِعُ نَحْوَ الضِّيَاءِ وَالدِّفْءِ لِيَغْسِلَ عَنْهُ غُبَارَ السَّفَرِ وَيَنْضَمَّ إِلَى قَافِلَةِ السُّعَدَاءِ. فَمَا أَجْمَلَ هَذَا التَّوَسُّلَ الإِيمَانِيَّ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ سُرْعَةِ الِاسْتِجَابَةِ لِلْمُنَادِي وَبَيْنَ الِانْكِسَارِ لِطَلَبِ المَغْفِرَةِ وَمُرَافَقَةِ الأَبْرَارِ عِنْدَ المَمَاتِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى نَشِيدِ تَلْبِيَةٍ وَدُعَاءٍ دَائِمٍ، فَأُجِيبُ نِدَاءَ الوَحْيِ وَأَسْأَلُ رَبِّي حُسْنَ الخِتَامِ مَعَ الأَبْرَارِ. فَكُلُّ نِدَاءٍ غَيْرُ نِدَاءِ الإِيمَانِ هُوَ صَيْحَةٌ فِي وَادِي الضَّيَاعِ، وَلَا مَغْفِرَةَ وَلَا خِتَامَ كَرِيمَ إِلَّا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

يَقِينُ الوَعْدِ وَصِدْقُ المِيعَادِ

صَدَى ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (١٩٤) عَلَى جِسْرِ الرَّجَاءِ الثَّابِتِ تَقِفُ القُلُوبُ المؤْمِنَةُ تَطْلُبُ مَوْعُودَ السَّمَاءِ الَّذِي بَلَّغَتْهُ الرُّسُلُ الكِرَامُ، مُتَعَوِّذَةً مِنْ خِزْيِ يَوْمِ العَرْضِ الأَكْبَرِ بِيَقِينٍ لَا يَتَزَعْزَعُ فِي أَنَّ الخَالِقَ لَا يُخْلِفُ مِيعَادَهُ أَبَدًا. أَجِدُ فِي صَدْرِي طُمَأْنِينَةً تَسْتَنِدُ إِلَى صِدْقِ الكَلِمَةِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَثْبَتُ مِنَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ، فَأَسْأَلُ رَبِّي مَا وَعَدَ بِهِ عِبَادَهُ الصَّادِقِينَ مِنَ النَّصْرِ وَالجَنَّةِ وَالسِّتْرِ فِي يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ. وَكَمْ خَذَلَتْنِي وُعُودُ البَشَرِ الَّتِي تَتَبَدَّلُ مَعَ تَقَلُّبِ المَصَالِحِ وَالأَهْوَاءِ وَتَتَبَخَّرُ عِنْدَ أَوَّلِ عَقَبَةٍ، حَتَّى اسْتَقَرَّ قَلْبِي عَلَى مِيعَادِ الرَّبِّ الصَّادِقِ الَّذِي لَا يَعْتَرِيهِ تَبْدِيلٌ وَلَا نِسْيَانٌ. أَرَى الفَجْرَ الصَّادِقَ الَّذِي يَنْبَلِجُ فِي مَوْعِدِهِ المَحَدَّدِ كُلَّ يَوْمٍ لِيَبُدِّدَ ظُلْمَةَ اللَّيْلِ البَهِيمِ دُونَ أَنْ يَتَأَخَّرَ ثَانِيَةً وَاحِدَةً، لِيُؤَكِّدَ لِكُلِّ ذِي بَصِيرَةٍ أَنَّ مُدَبِّرَ الكَوْنِ صَادِقٌ فِي وَعْدِهِ وَمِيعَادِهِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا اليَقِينَ الَّذِي يَمْلَأُ أَدْعِيَةَ الصَّالِحِينَ بِالثِّقَةِ وَالِانْكِسَارِ مَعًا، وَمَا أَجْمَلَ خَتْمَ الدُّعَاءِ بِالثَّنَاءِ عَلَى صِدْقِ الرَّبِّ وَوَفَائِهِ بِالمِيعَادِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي نَفْسِي إِلَى رَجَاءٍ صَادِقٍ لَا يُخَالِطُهُ شَكٌّ فِي مَوْعُودِ السَّمَاءِ، فَأَعْمَلُ بِإِخْلَاصٍ وَأَنْتَظِرُ وَعْدَ رَبِّي الصَّادِقِ. فَكُلُّ وَعْدٍ بَشَرِيٍّ هُوَ عُرْضَةٌ لِلْخُلْفِ وَالزَّوَالِ، وَلَا أَصْدَقَ قِيلًا وَلَا أَوْفَى بِالمِيعَادِ مِنَ اللَّهِ.

مِيزَانُ المُسَاوَاةِ وَعَدَالَةُ الِاسْتِجَابَةِ

صَدَى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (١٩٥) فِي لَحْظَةِ القَبُولِ السَّمَاوِيِّ يَتَنَزَّلُ الجَوَابُ الإِلَهِيُّ الفَوْرِيُّ لِيُعْلِنَ عَدَالَةَ المِيزَانِ الَّذِي لَا يُضِيعُ عَمَلَ

ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، وَيُكَلِّلُ تَضْحِيَاتِ المهَاجِرِينَ وَالمؤْذَيْنَ وَالشُّهَدَاءِ بِتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ وَجَنَّاتِ النَّعِيمِ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ مَالِكِ الفَضْلِ. أَشْعُرُ بِبَهْجَةٍ تَغْمُرُ كِيَانِي وَأَنَا أَرَى سُرْعَةَ الِاسْتِجَابَةِ لِضَرَاعَةِ أُولِي الأَلْبَابِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ هِجْرَةٍ عَنِ البَاطِلِ وَكُلَّ أَذًى يُحْتَمَلُ فِي سَبِيلِ الحَقِّ هُوَ مَهْرٌ مَقْبُولٌ لِدُخُولِ الجَنَّاتِ. وَكَمْ ضَاقَتِ المَوَازِينُ الأَرْضِيَّةُ بِجُهُودِ الصَّادِقِينَ وَفَرَّقَتْ بَيْنَ البَشَرِ بِالأَنْسَابِ وَالأَلْقَابِ، حَتَّى أَقَامَتْ هَذِهِ الآيَةُ قِسْطَاسَ العَدْلِ المطْلَقِ الَّذِي يَجْعَلُ التَّفَاضُلَ بِالعَمَلِ وَالتَّضْحِيَةِ وَالصَّبْرِ وَحْدَهُ. أَتَأَمَّلُ الغَيْثَ الكَرِيمَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى البُسْتَانِ فَيَسْقِي كُلَّ شَجَرَةٍ وَكُلَّ زَهْرَةٍ بِقَدْرِ مَا أَلْقَتْ مِنْ جُذُورٍ فِي الأَرْضِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا أَطْيَبَ الثِّمَارِ وَأَجْمَلَ الأَلْوَانِ دُونَ أَنْ يُضِيعَ سَعْيَ بَذْرَةٍ وَاحِدَةٍ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ الرَّبِّ الَّذِي يَسْتَجِيبُ لِدُعَاءِ عِبَادِهِ وَيُضَاعِفُ لَهُمُ الثَّوَابَ عَلَى مَا لَقُوا فِي سَبِيلِهِ، وَمَا أَبْهَى تِلْكَ الجَنَّاتِ الَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى يَقِينٍ بِقَبُولِ العَمَلِ الصَّالِحِ وَاحْتِمَالِ الأَذَى فِي سَبِيلِ رَبِّي، طَمَعًا فِي حُسْنِ الثَّوَابِ الَّذِي عِنْدَهُ. فَكُلُّ تَضْحِيَةٍ تُبْذَلُ فِي الدُّنْيَا لِغَيْرِ السَّمَاءِ هِيَ جُهْدٌ ضَائِعٌ، وَلَا ثَوَابَ أَحْسَنُ وَلَا أَبْقَى مِمَّا عِنْدَ اللَّهِ.

سَرَابُ التَّقَلُّبِ وَمَتَاعُ الزَّوَالِ

صَدَى ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٩٦ – ١٩٧)

صَخَبُ الجَاحِدِينَ وَتَنَقُّلُهُمْ بِالثَّرْوَةِ وَالنُّفُوذِ فِي أَرْجَاءِ البِلَادِ لَيْسَ إِلَّا مَشْهَدًا مَسْرَحِيًّا قَصِيرًا يَسْبِقُ السُّقُوطَ المدَوِّيَ، حَيْثُ يَنْتَهِي ذَلِكَ المتَاعُ القَلِيلُ إِلَى جَهَنَّمَ الَّتِي هِيَ أَبْأَسُ فِرَاشٍ وَمُسْتَقَرٍّ. أَشْعُرُ بِبَصِيرَةٍ تَخْتَرِقُ بَرِيقَ الحَضَارَاتِ المادِّيَّةِ الزَّائِفَةِ وَقُوَّةَ الطُّغَاةِ العَابِرَةِ، فَلَا تَنْخَدِعُ عَيْنِي بِحَرَكَةِ الجَاحِدِينَ وَتَرَفِهِمْ لِأَنَّنِي أَرَى نِهَايَةَ الطَّرِيقِ المفْتُوحَةَ عَلَى السَّعِيرِ. وَكَمْ بَهَرَتْ أَبْصَارَ الغَافِلِينَ زِينَةُ الكَافِرِينَ وَتَقَلُّبُهُمْ فِي الأَسْوَاقِ وَالعَوَاصِمِ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَلَكُوا الدُّنْيَا وَالأَبَدَ، قَبْلَ أَنْ تَصْغُرَ هَذِهِ الآيَاتُ شَأْنَهُمْ كُلَّهُ فِي كَلِمَتَيْنِ فَاصِلَتَيْنِ: مَتَاعٌ قَلِيلٌ. أَرَى الفَرَاشَةَ المِلَوَّنَةَ الَّتِي تَتَقَلَّبُ بِزَهْوٍ وَغُرُورٍ حَوْلَ شُعْلَةِ النَّارِ المتَّقِدَةِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، فَيَظُنُّ النَّاظِرُ الجَاهِلُ أَنَّهَا تَمْلِكُ الضِّيَاءَ وَالحُرِّيَّةَ، وَلَا تَلْبَثُ لَحَظَاتٍ حَتَّى تَهْوِيَ مُحْتَرِقَةً فِي قَلْبِ اللَّهِيبِ. فَمَا أَبْلَغَ هَذَا التَّحْذِيرَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي يَعْصِمُ قُلُوبَ المؤْمِنِينَ مِنَ الِانْبِهَارِ بِزُخْرُفِ البَاطِلِ، وَمَا أَشَدَّ بُؤْسَ الجَاحِدِينَ الَّذِينَ يَسْتَبْدِلُونَ مَتَاعًا قَلِيلًا بِعَذَابٍ أَبَدِيٍّ فِي بِئْسَ المِهَادِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَتَانِ فِي نَفْسِي إِلَى مَنَاعَةٍ ضِدَّ الِاغْتِرَارِ بِقُوَّةِ

الظَّالِمِينَ وَتَرَفِهِمْ، فَأَثْبُتُ عَلَى يَقِينِي وَلَا أَحْسُدُ أَهْلَ البَاطِلِ عَلَى زَوَالِهِمْ. فَكُلُّ تَقَلُّبٍ لِلْجَاحِدِينَ فِي الأَرْضِ هُوَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ يَنْقَضِي بِطَرْفَةِ عَيْنٍ، وَلَا مَأْوَى لِلْمُعْرِضِينَ عَنْ مَنْهَجِ اللَّهِ إِلَّا جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ.

ضِيَافَةُ الأَبْرَارِ وَخُلُودُ الجِنَانِ

صَدَى ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (١٩٨)

عَلَى الضِّفَّةِ المُقَابِلَةِ لِسَرَابِ الجَاحِدِينَ تَتَلَأْلَأُ قُصُورُ المُتَّقِينَ وَسَطَ جَنَّاتٍ فَيَّاضَةٍ بِالأَنْهَارِ، حَيْثُ يُقَامُ لَهُمْ أَوَّلُ نُزُلٍ وَضِيَافَةٍ مِنْ عِنْدِ مَلِكِ المُلُوكِ لِيَنْعَمُوا بِالخُلُودِ الأَبَدِيِّ وَبِخَيْرٍ لَا يَنْفَدُ وَلَا يَزُولُ. أَشْعُرُ بِرَاحَةِ المُسَافِرِ الَّذِي بَلَغَ أَخِيرًا قَصْرَ المَلِكِ الكَرِيمِ بَعْدَ طُولِ السَّفَرِ فِي مَفَاوِزِ الدُّنْيَا، فَتُفْتَحُ لَهُ أَبْوَابُ الضِّيَافَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تُنْسِيهِ كُلَّ وَعْثَاءِ الطَّرِيقِ وَأَلَمِ الصَّبْرِ. وَكَمْ تَاقَتْ رُوحِي إِلَى مَقَامِ القُرْبِ وَالأَمَانِ حِينَ ضَاقَتْ بِهَا مَسَالِكُ الأَرْضِ وَتَقَلُّبَاتُ الزَّمَانِ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِتُعْلِنَ أَنَّ مَا عِنْدَ الخَالِقِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِأَهْلِ البِرِّ وَالتَّقْوَى مِنْ كُلِّ مَا فِي الوُجُودِ. أَتَأَمَّلُ النَّبْعَ العَذْبَ الَّذِي يَتَدَفَّقُ مِنْ جَبَلِ النُّورِ لِيَسْقِيَ حَدَائِقَ الفِرْدَوْسِ بِمَاءِ الحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ، حَيْثُ لَا يَجِفُّ النَّهْرُ وَلَا تَذْبُلُ الزَّهْرَةُ وَلَا يَنْقَطِعُ كَرَمُ المُضِيفِ الجَلِيلِ عَنْ ضُيُوفِهِ الأَبْرَارِ. فَمَا أَعْظَمَ شَرَفَ النُّزُلِ وَالضِّيَافَةِ حِينَ تَكُونُ مِنْ عِنْدِ رَبِّ العَالَمِينَ لِمَنِ اتَّقَاهُ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ، وَمَا أَصْدَقَ وَعْدَهُ بِأَنَّ عَطَاءَهُ هُوَ الخَيْرُ المُطْلَقُ لِلْأَبْرَارِ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى شَوْقٍ عَارِمٍ لِلتَّقْوَى وَالبِرِّ طَمَعًا فِي ضِيَافَةِ السَّمَاءِ، فَأَزْهَدُ فِي فُتَاتِ الدُّنْيَا لِأَنَالَ خَيْرَ الآخِرَةِ. فَكُلُّ نَعِيمٍ فِي هَذِهِ الأَرْضِ هُوَ ظِلٌّ عَابِرٌ يَنْقَضِي بِالفَنَاءِ، وَلَا خَيْرَ أَبْقَى وَلَا أَعْظَمَ لِلْأَبْرَارِ مِمَّا عِنْدَ اللَّهِ.

خُشُوعُ الصَّادِقِينَ وَنَزَاهَةُ الأَمَانَةِ

صَدَى ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٩٩)

فِي مِيزَانِ العَدْلِ القُرْآنِيِّ لَا يَضِيعُ خُشُوعُ الصَّادِقِينَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ الَّذِينَ آمَنُوا بِالوَحْيِ كُلِّهِ، وَرَفَضُوا أَنْ يَبِيعُوا آيَاتِ السَّمَاءِ بِأَثْمَانِ الدُّنْيَا الرَّخِيصَةِ، فَأَثْبَتَ لَهُمُ الخَالِقُ أَجْرَهُمُ الكَامِلَ عِنْدَهُ فِي حِسَابٍ سَرِيعٍ لَا يَتَأَخَّرُ. أَشْعُرُ بِجَلَالِ الإِنْصَافِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يُكَرِّمُ القُلُوبَ الخَاشِعَةَ أَيْنَمَا كَانَتْ وَيَصُونُ حُقُوقَ الأُمَنَاءِ الَّذِينَ لَمْ يُحَرِّفُوا الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، فَأَتَعَلَّمُ أَنَّ العِبْرَةَ فِي الدِّينِ هِيَ الخُشُوعُ

وَالأَمَانَةُ وَالتَّسْلِيمُ لِكُلِّ مَا أَنْزَلَ الخَالِقُ. وَكَمْ جَرَفَتِ العَصَبِيَّاتُ البَشَرِيَّةُ قُلُوبَ النَّاسِ إِلَى البَحْسِ وَالظُّلْمِ عِنْدَ الخُصُومَةِ، حَتَّى أَقَامَتْ هَذِهِ الآيَةُ قِسْطَاسَ الحَقِّ الَّذِي يَشْهَدُ لِلْخَاشِعِينَ بِالإِيمَانِ وَيَضْمَنُ لَهُمْ أَجْرَهُمْ عِنْدَ سَرِيعِ الحِسَابِ. أَرَى اللُّؤْلُؤَةَ البَيْضَاءَ الصَّافِيَةَ الَّتِي تَتَلَأْلَأُ فِي صَدَفَتِهَا المُغْلَقَةِ فِي قَاعِ البَحْرِ كَيْفَ يَسْتَخْرِجُهَا الغَوَّاصُ العَادِلُ لِيَضَعَهَا فِي تَاجِ المَلِكِ دُونَ أَنْ يَظْلِمَهَا بِمَا حَوْلَهَا مِنَ الرِّمَالِ وَالأَعْشَابِ. فَمَا أَعْظَمَ شَرَفَ الخُشُوعِ لِلْخَالِقِ وَالتَّنَزُّهِ عَنْ بَيْعِ الآيَاتِ بِثَمَنٍ قَلِيلٍ، وَمَا أَشَدَّ وَقْعَ التَّذْكِيرِ بِسُرْعَةِ الحِسَابِ الَّذِي يُحْصِي كُلَّ ذَرَّةِ صِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى خُشُوعٍ يَصُونُ آيَاتِ رَبِّي عَنِ المَتَاجَرَةِ وَالهَوَى، فَأَعْمَلُ بِصِدْقٍ اسْتِعْدَادًا لِسُرْعَةِ الحِسَابِ. فَكُلُّ مُتَاجَرَةٍ بِآيَاتِ السَّمَاءِ هِيَ خَسَارَةٌ فَادِحَةٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلَا أَجْرَ أَضْمَنُ وَلَا أَوْفَى مِمَّا حَفِظَهُ اللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ.

وِصَايَا الثَّبَاتِ وَبَوَّابَةُ الفَلَاحِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٠٠)

فِي خِتَامِ هَذَا السِّفْرِ المَهِيبِ تَتَجَمَّعُ أَرْكَانُ النَّجَاةِ وَالفَلَاحِ فِي أَرْبَعِ وَصَايَا نُورَانِيَّةٍ تُسَيِّجُ قَلْبَ المُؤْمِنِ وَوَاقِعَهُ: صَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ وَالبَلَاءِ، وَمُصَابَرَةٌ تَفُوقُ جَلَدَ الخُصُومِ، وَمُرَابَطَةٌ عَلَى ثُغُورِ الحَقِّ وَالقَلْبِ، وَتَقْوَى تَصُونُ المَسِيرَةَ حَتَّى بُلُوغِ الفَلَاحِ الأَبَدِيِّ. أَجِدُ فِي صَدْرِي جَمْعًا لِشَتَاتِ الرُّوحِ وَرُسُوخًا لِلْقَدَمِ وَأَنَا أَتَلَقَّى هَذَا الدُّسْتُورَ الخِتَامِيَّ الجَامِعَ، فَأُدْرِكُ أَنَّ الحَيَاةَ كُلَّهَا رِبَاطٌ مُسْتَمِرٌّ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ دَاخِلِيٍّ وَمُصَابَرَةٍ خَارِجِيَّةٍ وَتَقْوَى تُرَاقِبُ السَّمَاءَ فِي كُلِّ نَفَسٍ. وَكَمْ تَبَعْثَرَتْ قُوَى نَفْسِي عِنْدَمَا صَبَرَتْ سَاعَةً ثُمَّ تَرَاجَعَتْ أَمَامَ صَبْرِ أَهْلِ البَاطِلِ أَوْ غَادَرَتْ ثَغْرَ الرِّبَاطِ فِي لَحْظَةِ غَفْلَةٍ، حَتَّى أَحْكَمَتْ هَذِهِ الآيَةُ سِيَاجَ الثَّبَاتِ حَوْلَ قَلْبِي لِتَقُودَنِي إِلَى فَلَاحِ الدَّارَيْنِ. أَتَأَمَّلُ الحِصْنَ العَظِيمَ القَائِمَ عَلَى قِمَّةِ الجَبَلِ بِأَعْمِدَتِهِ الأَرْبَعَةِ الرَّاسِخَةِ الَّتِي تَتَشَابَكُ فِي السَّقْفِ لِتَحْمِيَ الكَنْزَ النَّفِيسَ فِي دَاخِلِهِ مِنْ كُلِّ عَاصِفَةٍ وَعَدُوٍّ، فَيَظَلُّ صَامِدًا مَنِيعًا حَتَّى يُشْرِقَ فَجْرُ النَّصْرِ وَالفَلَاحِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الخَاتِمَةَ القُرْآنِيَّةَ الَّتِي تَخْتَصِرُ طَرِيقَ السَّالِكِينَ إِلَى مَرْضَاةِ الرَّبِّ وَالفَوْزِ الأَبَدِيِّ، وَمَا أَصْدَقَ وَعْدَ السَّمَاءِ بِالفَلَاحِ لِمَنْ صَبَرَ وَصَابَرَ وَرَابَطَ وَاتَّقَى. هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وُجْدَانِي إِلَى مِيثَاقِ حَيَاةٍ أَلْتَزِمُهُ حَتَّى اللِّقَاءِ، فَأَصْبِرُ وَأُصَابِرُ وَأُرَابِطُ عَلَى ثَغْرِ قَلْبِي وَدِينِي رَجَاءَ الفَلَاحِ. فَكُلُّ فَوْزٍ يَخْلُو مِنَ الصَّبْرِ وَالرِّبَاطِ وَالتَّقْوَى هُوَ سَرَابٌ عَابِرٌ، وَلَا فَلَاحَ حَقِيقِيًّا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِلَّا لِمَنِ اتَّقَى اللَّهَ وَثَبَتَ عَلَى عَهْدِهِ.

سِفْرُ الصَّدَى السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ

سورة النساء

رَحِمُ الوَحْدَةِ وَظِلَالُ الأَنْفُسِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

جِذْرُ الخَلِيقَةِ الأَوَّلُ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ تَفَرَّعَتْ مِنْهَا أَغْصَانُ البَشَرِ فِي رَحِمِ الوُجُودِ، فَأَبْصَرْتُ خُيُوطَ القُرْبَى تَشُدُّ شَتَاتَ رُوحِي إِلَى مَنَابِعِ التَّكْوِينِ الأُولَى. وَكَمْ تَوَهَّمْتُ أَنَانِيَّتِي أَنَّهَا جَزِيرَةٌ مَعْزُولَةٌ فِي بَحْرِ الذَّوَاتِ، فَتَنَكَّرْتُ لِنَبْضِ الأَرْحَامِ وَاسْتَغْنَتْ بِوَهْمِ الفَرْدِيَّةِ الصَّمَّاءِ. أَتَأَمَّلُ السَّحَابَ المُتَجَمِّعَ مِنْ قَطَرَاتِ البَحْرِ الوَاحِدِ وَالجِبَالَ الشَّامِخَةَ المُتَّكِئَةَ عَلَى صَخْرِ الأَرْضِ الأُمِّ، فَأَرَى المِادَّةَ تَتَنَافَرُ حِينَ تَجْفُو أَصْلَهَا وَتَذُوبُ كَالزَّبَدِ المُتَطَايِرِ. فَمَا أَعْظَمَ مِيثَاقَ الرَّحِمِ الَّذِي يَرْبِطُ السَّمَاءَ بِالأَرْضِ وَيَجْعَلُ عَيْنَ الرَّقِيبِ حَارِسَةً لِخَفَقَاتِ القُلُوبِ وَأَسْرَارِ الصِّلَاتِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى مِيزَانٍ دَقِيقٍ يَرُدُّ كُلَّ شَارِدَةٍ مِنْ رُوحِي إِلَى حِضْنِ الأَصْلِ الكَبِيرِ وَيُطَهِّرُ مَسَامَّ الوِجْدَانِ مِنْ غُبَارِ القَطِيعَةِ. فَكُلُّ عُزْلَةٍ يَبْنِيهَا الغُرُورُ جِدَارٌ مِنْ رَمْلٍ تُبَدِّدُهُ رِيَاحُ الفَنَاءِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِوُدٍّ يَسْقِيهِ خَوْفُ اللَّهِ وَيَحْرُسُهُ نُورُ رَقَابَتِهِ الأَبَدِيَّةِ.

مَوَازِينُ اليُتْمِ وَسَرَابُ الطَّيِّبِ وَالخَبِيثِ

صَدَى ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾

عَلَى عَتَبَةِ اليَتِيمِ المَكْسُورِ تَقِفُ أَمَانَةُ السَّمَاءِ مِيزَانًا يَفْصِلُ بَيْنَ نُورِ الطَّيِّبِ وَظُلْمَةِ الخَبِيثِ، فَأَصْغَيْتُ إِلَى أَنِينِ الضَّعْفِ وَهُوَ يَسْتَنْطِقُ ضَمِيرِي الغَافِلَ. تَرَاجَعَتْ أَطْمَاعِي الخَفِيَّةُ أَمَامَ هَيْبَةِ الحَقِّ، وَانْكَشَفَتْ هَشَاشَةُ يَدِي حِينَ تَمْتَدُّ لِتَخْلِطَ مَاءَ الصَّفَاءِ بِطِينِ الشَّهْوَةِ. وَكَمْ زَيَّنَتْ لِي النَّفْسُ الأَمَّارَةُ التِهَامَ حُقُوقِ العَاجِزِينَ تَحْتَ سِتَارِ الوِصَايَةِ الكَاذِبَةِ، فَابْتَلَعْتُ جَمْرًا ظَنَنْتُهُ لُقْمَةً سَائِغَةً فِي جَوْفِي. أَرَى الجَدَاوِلَ الصَّافِيَةَ تَرْفُضُ الامْتِزَاجَ بِالمُسْتَنْقَعَاتِ الآسِنَةِ، وَأَرَى الخَبِيثَ يَنْتَفِخُ كَالطَّبْلِ الأَجْوَفِ ثُمَّ يَتَلَاشَى عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ لِلْحَقِيقَةِ. فَمَا أَشَدَّ قَبْضَةَ الحُوبِ الكَبِيرِ حِينَ يَلْتَفُّ كَالأَفْعَى حَوْلَ عُنُقِ الطَّامِعِ وَيُحَوِّلُ قُصُورَ مَالِهِ إِلَى رَمَادٍ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الكَلِمَاتُ فِي صَدْرِي إِلَى نَارٍ مُطَهِّرَةٍ تَفْرِزُ مَعْدِنَ رُوحِي وَتُعِيدُ كُلَّ حَقٍّ إِلَى صَاحِبِهِ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ

مِدَادُ العُمْرِ. فَكُلُّ مَالٍ يُشَابُ بِدَمْعَةِ يَتِيمٍ سُمٌّ يَنْخُرُ عِظَامَ صَاحِبِهِ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِكَفٍّ نَقِيَّةٍ أَدَّتِ الأَمَانَةَ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ وَطَمَعًا فِي رِضَاهُ.

مِحْرَابُ العَدْلِ وَأَجْنِحَةُ القِسْطِ

صَدَى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾

مِيزَانُ القِسْطِ فِي مَلَكُوتِ التَّشْرِيعِ سَيْفٌ مُرْهَفٌ يَحْرُسُ القُلُوبَ مِنَ المَيْلِ وَالجَوْرِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ الهَنْدَسَةِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَضْبِطُ نَبْضَ الغَرِيزَةِ بِلِجَامِ العَدْلِ. انْكَمَشَتْ رَغَبَاتِي المُتَفَلِّتَةُ حِينَ أَدْرَكْتُ أَنَّ السَّعَةَ لَيْسَتْ مَرْتَعًا لِلْهَوَى، بَلْ هِيَ امْتِحَانٌ عَسِيرٌ لِاسْتِقَامَةِ الرُّوحِ وَتَوَازُنِهَا. وَكَمْ جَرَفَتْنِي أَمْوَاجُ التَّكَاثُرِ وَالِامْتِلَاكِ دُونَ أَنْ أَحْسُبَ ثِقَلَ التَّبِعَةِ، فَمِلْتُ كَالمِيزَانِ المَكْسُورِ نَحْوَ حَظِّ نَفْسِي وَتَرَكْتُ العَدْلَ غَرِيبًا عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ. أَتَأَمَّلُ الكَوَاكِبَ السَّابِحَةَ فِي أَفْلَاكِهَا بِدِقَّةٍ لَا تَزِيغُ قِيدَ أُنْمُلَةٍ، فَأَرَى الكَوْنَ كُلَّهُ يَقُومُ عَلَى التَّعَادُلِ الصَّارِمِ بَيْنَ الجَذْبِ وَالدَّفْعِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الحَدَّ الفَاصِلَ الَّذِي يَرُدُّ الإِنْسَانَ إِلَى وَاحِدَةٍ تَصُونُ دِينَهُ إِذَا خَشِيَ عَلَى قَلْبِهِ العَوَلَ وَالِانْحِرَافَ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى بَوْصَلَةٍ تُقَوِّمُ اعْوِجَاجَ مَشَاعِرِي وَتَجْعَلُ الوَرَعَ حَارِسًا عَلَى أَبْوَابِ رَغَبَاتِي. فَكُلُّ تَوَسُّعٍ يَفْتَقِدُ رُوحَ العَدْلِ انْحِدَارٌ نَحْوَ الهَاوِيَةِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِقَلْبٍ اسْتَقَامَ عَلَى مِيزَانِ اللَّهِ فَأَمِنَ شَرَّ المَيْلِ وَالضَّيَاعِ.

نَدَى الصَّدَاقِ وَطِيبُ النُّفُوسِ

صَدَى ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾

فِي كَفِّ العَطَاءِ الصَّادِقِ يُزْهِرُ الصَّدَاقُ نِحْلَةً رَبَّانِيَّةً تُتَوِّجُ كَرَامَةَ المَرْأَةِ وَتُطَهِّرُ المِيثَاقَ مِنْ شَوَائِبِ المُقَايَضَةِ، فَرَأَيْتُ المَالَ يَرْتَقِي مِنْ طِينِ المَادَّةِ إِلَى سَمَاءِ المَوَدَّةِ. ذَابَتْ قَسْوَةُ الشُّحِّ فِي صَدْرِي، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَتَحَوَّلُ الحَقُّ المَفْرُوضُ إِلَى جِسْرٍ مِنَ السَّكِينَةِ يَعْبُرُ عَلَيْهِ الوِئَامُ بَيْنَ الرُّوحَيْنِ. وَكَمْ حَبَسَتِ النُّفُوسُ الضَّيِّقَةُ هَذَا النَّدَى عَنْ أَصْحَابِهِ، فَجَفَّتْ بَسَاتِينُ الأُلْفَةِ وَاسْتَحَالَتِ البُيُوتُ إِلَى قِلَاعٍ مُوحِشَةٍ يَسْكُنُهَا الجَفَاءُ. أَرَى السَّحَابَ يَهَبُ الغَيْثَ لِلْأَرْضِ نِحْلَةً دُونَ مَنٍّ وَلَا أَذًى، فَتُخْرِجُ الأَرْضُ زَهْرَهَا طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهَا لِتُطْعِمَ الكَائِنَاتِ هَنِيئًا مَرِيئًا. فَمَا أَرَقَّ هَذَا التَّبَادُلَ الشَّفَّافَ الَّذِي يَجْعَلُ طِيبَ النَّفْسِ شَرْطًا لِحِلِّ العَطَاءِ وَبَرَكَةِ اللُّقْمَةِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الكَلِمَاتُ فِي وِجْدَانِي إِلَى نَبْعٍ يَغْسِلُ جَفَافَ المَادِّيَّةِ وَيُعَلِّمُ رُوحِي أَنَّ السَّخَاءَ هُوَ رُوحُ الشَّرِيعَةِ. فَكُلُّ مَالٍ يُنْتَزَعُ بِالإِكْرَاهِ أَوِ

الحَيَاءِ غُصَّةٌ فِي الحَلْقِ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِعَطَاءٍ خَالِصٍ تَرْضَى بِهِ النُّفُوسُ وَيُبَارِكُهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

قِيَامُ المَالِ وَسِياجُ الرُّشْدِ

صَدَى ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

عَمُودُ الحَيَاةِ الَّذِي أَقَامَهُ الخَالِقُ لِصَلَاحِ العِبَادِ أَمَانَةٌ ثَقِيلَةٌ لَا تُسَلَّمُ إِلَى عَبَثِ السَّفَهِ وَطَيْشِ الغَفْلَةِ، فَنَطَقَتْ بَصِيرَتِي بِحِكْمَةِ الصِّيَانَةِ وَالرِّعَايَةِ الرَّحِيمَةِ. انْقَشَعَتْ عَنْ عَيْنِي غِشَاوَةُ الفَوْضَى المَالِيَّةِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ المَالَ نَسَبُهُ إِلَى الجَمَاعَةِ قَبْلَ الفَرْدِ لِيَكُونَ قِوَامًا لِأَبْدَانِهِمْ وَأَرْوَاحِهِمْ. وَكَمْ بَدَّدَتْ يَدُ الطَّيْشِ كُنُوزَ العُمْرِ فِي سَرَابِ اللَّهْوِ، فَانْهَارَتْ أَرْكَانُ العَيْشِ وَبَقِيَتِ النُّفُوسُ عَارِيَةً فِي عَاصِفَةِ الحَاجَةِ. أَتَأَمَّلُ السُّدُودَ العَظِيمَةَ تَحْبِسُ المَاءَ الهَادِرَ لِتَسْقِيَ الحُقُولَ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ، وَلَوْ أُطْلِقَ المَاءُ لِسَفَهِ السَّيْلِ لَأَغْرَقَ الزَّرْعَ وَالضَّرْعَ. فَمَا أَبْدَعَ هَذَا الجَمْعَ الرَّحِيمَ بَيْنَ حَجْبِ المَالِ عَنِ التَّبْدِيدِ وَإِغْدَاقِ الرِّزْقِ وَالكُسْوَةِ وَالقَوْلِ المَعْرُوفِ عَلَى العَاجِزِينَ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى مَنَارَةِ حِكْمَةٍ تَحْمِي نِعَمَ اللَّهِ مِنَ الضَّيَاعِ وَتَكْسُو قَلْبِي بِرِفْقِ الرِّعَايَةِ. فَكُلُّ ثَرْوَةٍ تُسْلَمُ لِلْعَبَثِ هَشِيمٌ تَأْكُلُهُ النَّارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِتَدْبِيرٍ رَشِيدٍ يَحْفَظُ قِيَامَ الحَيَاةِ وَيَصُونُ كَرَامَةَ الإِنْسَانِ بِأَمْرِ اللَّهِ.

مِحَكُّ الِابْتِلَاءِ وَإِشْرَاقُ الرُّشْدِ

صَدَى ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾

فِي بُوتَقَةِ الِابْتِلَاءِ الصَّادِقِ يَتَمَيَّزُ مَعْدِنُ الرُّشْدِ عَنْ زَبَدِ الطُّفُولَةِ، فَرَأَيْتُ التَّرْبِيَةَ الرَّبَّانِيَّةَ تَصْنَعُ الإِنْسَانَ قَبْلَ أَنْ تُسَلِّمَهُ مَفَاتِيحَ الأَرْضِ. تَطَهَّرَتْ نَفْسِي مِنْ شَهْوَةِ التَّسَلُّطِ وَالِاسْتِحْوَاذِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَجِبُ أَنْ أَكُونَ حَارِسًا أَمِينًا يَنْتَظِرُ لَحْظَةَ الإِشْرَاقِ لِيُسَلِّمَ الرَّايَةَ بِنَقَاءٍ. وَكَمْ سَارَعَتِ الأَيْدِي الآثِمَةُ إِلَى نَهْبِ الأَمَانَاتِ قَبْلَ أَنْ يَشْتَدَّ عُودُ اليَتِيمِ، فَغَرِقَتْ فِي وَحْلِ الإِسْرَافِ وَالبِدَارِ المَشْؤُومِ. أَرَى البَذْرَةَ تَحْتَ التُّرَابِ تُخْتَبَرُ بِالظُّلْمَةِ وَالرُّطُوبَةِ حَتَّى يَشْتَدَّ سَاقُهَا، فَإِذَا أَزْهَرَتْ تَرَكَتْهَا الأَرْضُ لِتُعَانِقَ الشَّمْسَ بِحُرِّيَّةٍ. فَمَا أَعْظَمَ عِفَّةَ الغَنِيِّ وَقَنَاعَةَ الفَقِيرِ بِالمَعْرُوفِ حِينَ تَقِفُ شَهَادَةُ الحَسِيبِ فَوْقَ كُلِّ شُهُودِ الأَرْضِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الكَلِمَاتُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانٍ لِلْوَرَعِ يَزِنُ خَطَوَاتِي فِي

الخَفَاءِ وَالعَلَنِ. فَكُلُّ يَدٍ تَمْتَدُّ لِلتَّعَجُّلِ بِالحَرَامِ مَقْطُوعَةُ البَرَكَةِ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِأَمَانَةٍ أُدِّيَتْ بِشَهَادَةِ الصِّدْقِ وَرَقَابَةِ اللَّهِ الحَسِيبِ.

قَسْمَةُ الحَقِّ وَنِسْبَةُ النَّصِيبِ

صَدَى ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾

نَصِيبُ السَّمَاءِ المَفْرُوضُ مِيثَاقٌ مَحْفُورٌ فِي لَوْحِ العَدْلِ لَا تَمْحُوهُ أَعْرَافُ الجَاهِلِيَّةِ وَلَا أَهْوَاءُ البَشَرِ، فَأَبْصَرْتُ المِيرَاثَ يَتَحَوَّلُ مِنْ غَنِيمَةٍ لِلْأَقْوِيَاءِ إِلَى حَقٍّ مُقَدَّسٍ لِلْجَمِيعِ. انْهَارَتْ فِي دَاخِلِي حَوَاجِزُ التَّفْرِقَةِ الظَّالِمَةِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ قَلِيلَ المَالِ وَكَثِيرَهُ يَخْضَعَانِ لِقَانُونِ الإِنْصَافِ الإِلَهِيِّ دُونَ تَمْيِيزٍ. وَكَمْ حَرَمَتْ قُلُوبٌ قَاسِيَةٌ النِّسَاءَ وَالضُّعَفَاءَ مِنْ حُقُوقِهِمْ بِحُجَّةِ القِلَّةِ أَوِ العُرْفِ، فَبَنَتْ بُيُوتَهَا عَلَى أَنْقَاضِ الظُّلْمِ وَالقَطِيعَةِ. أَتَأَمَّلُ النُّجُومَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَالذَّرَّاتِ فِي جَوْفِ الثَّرَى، فَأَرَى كُلَّ مَخْلُوقٍ يَأْخُذُ نَصِيبَهُ المَقْدُورَ مِنَ النُّورِ وَالحَيَاةِ بِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ. فَمَا أَعْدَلَ هَذَا التَّقْدِيرَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي سَاوَى بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي أَصْلِ الِاسْتِحْقَاقِ وَجَعَلَهُ فَرِيضَةً لَا تَقْبَلُ التَّبْدِيلَ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى نُورٍ يَكْشِفُ زَيْفَ الأَعْرَافِ الجَائِرَةِ وَيُثَبِّتُ أَرْكَانَ الحَقِّ فِي قَلْبِي. فَكُلُّ قِسْمَةٍ تُخَالِفُ شَرْعَ الخَالِقِ بُهْتَانٌ مآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِفَرِيضَةٍ أَحْكَمَهَا العَدْلُ الإِلَهِيُّ وَصَانَتْهَا القُلُوبُ المؤْمِنَةُ.

نَدَى القِسْمَةِ وَرِزْقُ القُلُوبِ المَنْكَسِرَةِ

صَدَى ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

عَلَى مَائِدَةِ القِسْمَةِ تَتَطَلَّعُ أَعْيُنُ المَحْرُومِينَ بِانْكِسَارٍ صَامِتٍ يَسْتَنْطِقُ مُرُوءَةَ الوَارِثِينَ، فَأَصْغَيْتُ إِلَى نِدَاءِ الرَّحْمَةِ وَهُوَ يَجْبُرُ كَسْرَ الخَوَاطِرِ قَبْلَ جُوعِ البُطُونِ. تَلَاشَتْ قَسْوَةُ الجُمُودِ القَانُونِيِّ فِي نَفْسِي، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ رُوحَ الشَّرِيعَةِ أَوْسَعُ مِنْ حُدُودِ الأَرْقَامِ وَالحِصَصِ الصَّمَّاءِ. وَكَمْ أَغْلَقَتِ الأَيْدِي الشَّحِيحَةُ أَبْوَابَهَا فِي وُجُوهِ القُرْبَى وَالمَسَاكِينِ عِنْدَ تَوْزِيعِ الغَنَائِمِ، فَنَزَعَتِ البَرَكَةَ مِنْ أَمْوَالِهَا وَأَوْحَشَتْ قُلُوبَهَا. أَرَى السَّنَابِلَ المُثْقَلَةَ بِالحَبِّ تُسْقِطُ بَعْضَ حَبَّاتِهَا لِلطَّيْرِ الجَائِعَةِ، فَتَزْدَادُ الأَرْضُ خُصُوبَةً وَنَمَاءً بِفَضْلِ هَذَا الجُودِ العَفْوِيِّ. فَمَا أَجْمَلَ اجْتِمَاعَ الرِّزْقِ المَادِّيِّ مَعَ القَوْلِ المَعْرُوفِ لِيَكُونَا بَلْسَمًا يَمْسَحُ غُبَارَ الحِرْمَانِ عَنِ الوُجُوهِ الشَّاحِبَةِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى نَبْضِ

إِحْسَانٍ يَفِيضُ عَلَى كُلِّ مَنْ حَضَرَ مَجْلِسِي أَوْ تَعَلَّقَتْ عَيْنُهُ بِمَا فِي يَدِي. فَكُلُّ ثَرْوَةٍ تَبْخَلُ بِفُتَاتِهَا عَلَى المُنْكَسِرِينَ حَجَرٌ صَلْدٌ لَا يُنْبِتُ خَيْرًا، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِسَخَاءٍ يَجْبُرُ الخَوَاطِرَ وَيُرضِي الرَّحْمَنَ.

مِرْآةُ الخَشْيَةِ وَسِياجُ الذُّرِّيَّةِ

صَدَى ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾

فِي مِرْآةِ الغَيْبِ المخُوفِ يَرَى الإِنْسَانُ ضَعْفَ ذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ فَيَرْتَجِفُ قَلْبُهُ خَشْيَةً عَلَى يَتَامَى النَّاسِ، فَوَقَفْتُ مَذْهُولًا أَمَامَ هَذَا الرَّابِطِ الوِجْدَانِيّ العَمِيقِ. انْكَسَرَتْ صَلَابَةُ غَفْلَتِي حِينَ تَصَوَّرْتُ صِغَارِي تَائِهِينَ فِي عَاصِفَةِ الحَيَاةِ بِلَا سَنَدٍ وَلَا رَحِيمٍ، فَأَدْرَكْتُ أَنَّ حِفْظَ أَبْنَائِي يَبْدَأُ مِنْ رِعَايَتِي لِأَبْنَاءِ غَيْرِي. وَكَمْ جَارَتِ الأَلْسِنَةُ وَالأَيْدِي عَلَى الضُّعَفَاءِ غُرُورًا بِالقُوَّةِ الحَاضِرَةِ، وَنَسِيَتْ أَنَّ دَوَائِرَ الزَّمَانِ تَدُورُ بِمَا كَسَبَتْهُ الأَيْدِي. أَتَأَمَّلُ الطَّيْرَ فِي عُشِّهَا تَحْمِي فِرَاخَهَا الزُّغْبَ مِنْ عَوَاصِفِ اللَّيْلِ، فَأَرَى الفِطْرَةَ كُلَّهَا تَخْشَى عَلَى الضَّعْفِ أَنْ تَلْتَهِمَهُ وَحْشَةُ الوُجُودِ. فَمَا أَعْظَمَ التَّقْوَى وَالقَوْلَ السَّدِيدَ حِينَ يَكُونَانِ حِصْنًا مَنِيعًا يَحْرُسُ الذُّرِّيَّةَ بَعْدَ رَحِيلِ الآبَاءِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى دِرْعٍ مِنَ الوَرَعِ يَحْمِي أَقْوَالِي وَأَفْعَالِي مِنَ الزَّلَلِ. فَكُلُّ حِصْنٍ مَادِّيٍّ يَبْنِيهِ الإِنْسَانُ لِأَبْنَائِهِ دُونَ تَقْوَى سَرَابٌ يَنْهَارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحِفْظِ اللَّهِ الَّذِي يُكْلَأُ بِهِ الصَّالِحُونَ ذُرِّيَّاتِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ.

جَمْرُ البُطُونِ وَسَعِيرُ الظُّلْمِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾

نَارٌ مُسْتَعِرَةٌ تَتَخَفَّى فِي صُورَةِ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ حِينَ تُمْتَدُّ إِلَيْهَا يَدُ الظُّلْمِ لِتَسْلِبَ حَقَّ اليَتِيمِ، فَأَبْصَرْتُ الحَقِيقَةَ العَارِيَةَ خَلْفَ بَرِيقِ المادَّةِ الخَادِعِ. ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُ رُوحِي مِنْ هَوْلِ التَّصْوِيرِ، وَتَبَدَّدَ وَهْمُ اللَّذَّةِ العَابِرَةِ الَّتِي يَجِدُهَا الآكِلُونَ لِحُقُوقِ الضُّعَفَاءِ. وَكَمْ زَيَّنَ الشَّيْطَانُ لِلنُّفُوسِ الجَشِعَةِ أَنَّ مَالَ اليَتِيمِ غَنِيمَةٌ بَارِدَةٌ، فَإِذَا هُوَ شَرَرٌ يَشْوِي الأَحْشَاءَ وَيُمَهِّدُ الطَّرِيقَ إِلَى السَّعِيرِ. أَرَى الجَمْرَ المتَّقِدَ تَحْتَ الرَّمَادِ البَارِدِ يَبْدُو سَاكِنًا لِلْعَيْنِ، فَإِذَا لَمَسَتْهُ اليَدُ أَحْرَقَ العَظْمَ وَاللَّحْمَ بِلَا رَحْمَةٍ. فَمَا أَشَدَّ هَذَا الوَعِيدَ الَّذِي يَكْشِفُ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ وَيَجْعَلُ جَوْفَ الظَّالِمِ تَنُّورًا لِلْعَذَابِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِلَى صَيْحَةِ نَذِيرٍ تَزْجُرُ نَفْسِي عَنِ الِاقْتِرَابِ مِنْ حِمَى الضُّعَفَاءِ. فَكُلُّ مَالٍ حَرَامٍ يَدْخُلُ الجَوْفَ حَطَبٌ لِجَهَنَّمَ يَأْكُلُ صَاحِبَهُ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِلُقْمَةٍ حَلَالٍ طَهَّرَتْهَا خَشْيَةُ الخَالِقِ وَصَانَهَا العَدْلُ.

هَنْدَسَةُ الفَرَائِضِ وَعِلْمُ العَلِيمِ الحَكِيمِ

صَدَى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

وَصِيَّةُ السَّمَاءِ الخَالِدَةُ تَرْسُمُ خَرِيطَةَ العَدْلِ بَيْنَ الأُصُولِ وَالفُرُوعِ بِمِيزَانٍ لَا يَخْطِئُ وَلَا يَحِيفُ، فَأَصْغَيْتُ إِلَى هَذَا التَّقْسِيمِ المُحْكَمِ الَّذِي يُلْغِي ظُنُونَ البَشَرِ القَاصِرَةِ. تَضَاءَلَ عَقْلِي المَحْدُودُ أَمَامَ هَذِهِ الحِكْمَةِ المُحِيطَةِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّنِي لَا أَمْلِكُ البَصِيرَةَ لِأَعْرِفَ مَنْ هُوَ أَقْرَبُ لِي نَفْعًا مِنْ أَبِي أَوِ ابْنِي. وَكَمْ تَصَرَّفَ الآبَاءُ فِي أَمْوَالِهِمْ بِمُقْتَضَى العَاطِفَةِ العَمْيَاءِ فَحَرَمُوا مُسْتَحِقًّا وَأَعْطَوْا غَيْرَ مُسْتَحِقٍّ، فَأَشْعَلُوا نَارَ العَدَاوَةِ بَيْنَ الإِخْوَةِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ. أَتَأَمَّلُ الشَّجَرَةَ البَاسِقَةَ يَسْرِي فِيهَا المَاءُ مِنَ الجُذُورِ إِلَى الأَغْصَانِ وَالثِّمَارِ بِقَدَرٍ مَوْزُونٍ يَضْمَنُ حَيَاةَ الكُلِّ دُونَ طُغْيَانِ جُزْءٍ عَلَى جُزْءٍ. فَمَا أَعْظَمَ تَقْدِيمَ الدَّيْنِ وَالوَصِيَّةِ لِتَبْرَأَ ذِمَّةُ المَيِّتِ قَبْلَ أَنْ تَتَقَاسَمَ الأَيْدِي تُرَاثَهُ الفَانِيَ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى تَسْلِيمٍ مُطْلَقٍ لِتَدْبِيرِ العَلِيمِ الحَكِيمِ الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا. فَكُلُّ تَدْبِيرٍ بَشَرِيٍّ يَصْطَدِمُ بِفَرَائِضِ اللَّهِ هَبَاءٌ مَنْثُورٌ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحُكْمٍ صَدَرَ عَنْ عِلْمٍ مُحِيطٍ وَحِكْمَةٍ أَزَلِيَّةٍ.

مِيزَانُ الزَّوْجِيَّةِ وَبَرَاءَةُ الذِّمَمِ

صَدَى ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾

فِي مِحْرَابِ المِيثَاقِ الغَلِيظِ تَتَوَاصَلُ خُيُوطُ الوَفَاءِ حَتَّى بَعْدَ انْقِطَاعِ الأَنْفَاسِ، فَرَأَيْتُ الشَّرِيعَةَ تَحْفَظُ حَقَّ الزَّوْجَيْنِ وَالكَلَالَةِ بِدِقَّةٍ تَمْنَعُ الإِضْرَارَ وَالتَّلَاعُبَ. تَلَاشَتْ أَوْهَامُ التَّمَلُّكِ المُطْلَقِ فِي نَفْسِي، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ العَلَاقَاتِ الإِنْسَانِيَّةَ مَحْكُومَةٌ بِقَانُونِ العَدْلِ الَّذِي يَزِنُ القُرْبَى بِمِيزَانِ الذَّهَبِ. وَكَمْ اتَّخَذَ المُضَارُّونَ الوَصِيَّةَ وَالدَّيْنَ سِلَاحًا خَفِيًّا لِحِرْمَانِ الوَرَثَةِ، فَحَوَّلُوا لَحَظَاتِ الوَدَاعِ الأَخِيرَةِ إِلَى مَعْرَكَةٍ

لِلْكَيْدِ وَالِانْتِقَامِ. أَرَى النَّهْرَ يَتَفَرَّعُ إِلَى جَدَاوِلَ صَغِيرَةٍ حِينَ يَكْثُرُ الشُّرَكَاءُ، وَيَفِيضُ بِسَعَةٍ حِينَ يَقِلُّونَ، لِتَرْتَوِيَ كُلُّ أَرْضٍ بِقَدْرِ حَاجَتِهَا دُونَ بَخْسٍ وَلَا شَطَطٍ. فَمَا أَعْظَمَ قَيْدَ غَيْرَ مُضَارٍّ الَّذِي يُطَهِّرُ نِيَّةَ الموصِي مِنَ الحِقْدِ وَيُذَكِّرُهُ بِحِلْمِ العَلِيمِ الحَلِيمِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الكَلِمَاتُ فِي صَدْرِي إِلَى عَهْدٍ بِالنَّزَاهَةِ يَصُونُ ذِمَّتِي فِي الحَيَاةِ وَعِنْدَ المَمَاتِ. فَكُلُّ وَصِيَّةٍ مَشُوبَةٍ بِالضِّرَارِ حُجَّةٌ عَلَى صَاحِبِهَا يَوْمَ اللِّقَاءِ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِعَدْلٍ أَحْكَمَهُ اللَّهُ العَلِيمُ الحَلِيمُ.

حُدُودُ النُّورِ وَمَآلُ الطَّاعَةِ وَالعِصْيَانِ

صَدَى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾

حُدُودُ الخَالِقِ أَسْوَارٌ مِنَ النُّورِ تَفْصِلُ بَيْنَ جَنَّاتِ الخُلُودِ وَنِيرَانِ الهَوَانِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الحَدِّ الفَاصِلِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ المسَاوَمَةَ أَوِ التَّعَدِّي. انْكَمَشَتْ جُرْأَةُ نَفْسِي الأَمَّارَةِ حِينَ أَبْصَرْتُ أَنَّ تَجَاوُزَ هَذِهِ المَعَالِمِ هُوَ قَفْزٌ فِي هَاوِيَةِ العَذَابِ المهِينِ. وَكَمْ غَرَّتْنِي سَعَةُ الحِلْمِ الإِلَهِيِّ فَظَنَنْتُ الحُدُودَ خُطُوطًا وَهْمِيَّةً يَسْهُلُ تَخَطِّيهَا، فَإِذَا هِيَ مَوَازِينُ المصِيرِ الأَبَدِيِّ. أَتَأَمَّلُ مَدَارَاتِ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ لَا يَتَعَدَّى أَحَدُهُمَا حَدَّهُ المَرْسُومَ، وَلَوْ تَعَدَّاهُ لَاحْتَرَقَ الكَوْنُ وَانْهَارَ نِظَامُ الوُجُودِ فِي لَحْظَةٍ. فَمَا أَعْظَمَ الفَوْزَ العَظِيمَ لِمَنْ وَقَفَ عِنْدَ الحُدُودِ طَائِعًا فَاسْتَحَقَّ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى سِيَاجٍ يَحْمِي رُوحِي مِنَ التِّيْهِ وَيُثَبِّتُ قَدَمِي عَلَى صِرَاطِ الطَّاعَةِ. فَكُلُّ عِصْيَانٍ يُغْرِي بِاللَّذَّةِ الفَانِيَةِ بَابٌ إِلَى الذُّلِّ وَالهَوَانِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِطَاعَةٍ أَثْمَرَتْ رِضَا اللَّهِ وَخُلُودَ النَّعِيمِ.

صِيَانَةُ الطُّهْرِ وَمَخْرَجُ التَّوْبَةِ

صَدَى ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾

عَلَى أَسْوَارِ الفَضِيلَةِ يَقِفُ التَّشْرِيعُ حَارِسًا يَصُونُ طُهْرَ المجْتَمَعِ بِبَيِّنَةٍ سَاطِعَةٍ وَيَفْتَحُ نَافِذَةً لِلْأَمَلِ، فَأَبْصَرْتُ الحَزْمَ الرَّبَّانِيَّ يَمْتَزِجُ بِالرَّحْمَةِ فِي تَدْبِيرِ الزَّلَّاتِ. تَطَهَّرَ فِكْرِي مِنْ عَجَلَةِ الاتِّهَامِ وَالظُّنُونِ الكَاذِبَةِ حِينَ رَأَيْتُ اشْتِرَاطَ الأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ لِصِيَانَةِ الأَعْرَاضِ مِنَ التَّلْوِيثِ. وَكَمْ تَسَارَعَتِ الأَلْسِنَةُ الجَاهِلَةُ إِلَى رَمْيِ الغَافِلَاتِ بِالْبُهْتَانِ دُونَ بُرْهَانٍ، فَأَشَاعَتِ الفَاحِشَةَ وَهَدَمَتِ البُيُوتَ بِأَوْهَامٍ مَرِيضَةٍ. أَرَى البُسْتَانَ المسَوَّرَ يَحْمِي أَزْهَارَهُ مِنَ العَبَثِ وَالرِّيَاحِ السَّامَّةِ، فَإِذَا ذَبُلَتْ زَهْرَةٌ احْتَضَنَهَا

الظِّلُّ حَتَّى يَأْذَنَ الغَيْثُ بِإِحْيَائِهَا مِنْ جَدِيدٍ. فَمَا أَحْكَمَ هَذَا الإِمْسَاكَ الصَّائِنَ الَّذِي يَكُفُّ الأَذَى وَيَنْتَظِرُ السَّبِيلَ الَّذِي يَجْعَلُهُ الخَالِقُ مَخْرَجًا لِلتَّائِبِينَ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الكَلِمَاتُ فِي وِجْدَانِي إِلَى مِيزَانٍ يَزِنُ الشَّهَادَةَ بِالقِسْطِ وَيُغْلِقُ أَبْوَابَ الفِتْنَةِ. فَكُلُّ اتِّهَامٍ بِلَا بَيِّنَةٍ ظُلْمٌ يَرْتَدُّ عَلَى صَاحِبِهِ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِطَهَارَةٍ حَرَسَهَا شَرْعُ اللَّهِ وَزَكَّاهَا الصِّدْقُ.

نَارُ النَّدَمِ وَغَيْثُ المَغْفِرَةِ

صَدَى ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾

فِي مَيْدَانِ التَّطْهِيرِ الرُّوحِيِّ يَلْتَقِي أَلَمُ الزَّجْرِ بِنَسِيمِ العَفْوِ لِيُعِيدَ الشَّارِدِينَ إِلَى جَادَّةِ الفِطْرَةِ، فَرَأَيْتُ العُقُوبَةَ دَوَاءً لَا انْتِقَامًا وَالتَّوْبَةَ وِلَادَةً جَدِيدَةً. ذَابَتْ قَسْوَةُ التَّعْيِيرِ فِي قَلْبِي حِينَ أَدْرَكْتُ أَنَّ الإِعْرَاضَ عَنِ التَّائِبِ المِصْلِحِ فَرِيضَةٌ تَصُونُ كَرَامَتَهُ بَعْدَ الأَوْبَةِ. وَكَمْ طَارَدَتِ النُّفُوسُ القَاسِيَةُ المُنْكَسِرِينَ بِسِيَاطِ التَّذْكِيرِ بِالذَّنْبِ حَتَّى بَعْدَ أَنْ غَسَلُوا أَدْرَانَهُمْ بِدُمُوعِ الإِصْلَاحِ، فَأَغْلَقَتْ فِي وُجُوهِهِمْ بَابَ الأَمَلِ. أَتَأَمَّلُ الحَدِيدَ يُصْهَرُ فِي النَّارِ لِيَتَخَلَّصَ مِنْ شَوَائِبِهِ، فَإِذَا صَفَا مَعْدِنُهُ أُخْرِجَ مِنَ اللَّهَبِ لِيُصَاغَ مِنْهُ سَيْفٌ لَامِعٌ أَوْ إِنَاءٌ نَفِيسٌ. فَمَا أَوْسَعَ رَحْمَةَ التَّوَّابِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ المَقْرُونَةَ بِالإِصْلَاحِ وَيَمْحُو أَثَرَ الخَطِيئَةِ مِنَ الصُّحُفِ وَالقُلُوبِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى بَلْسَمٍ يَشْفِي جِرَاحَ الذُّنُوبِ وَيُعَلِّمُ رُوحِي السَّتْرَ وَالصَّفْحَ. فَكُلُّ تَعْيِيرٍ بَعْدَ التَّوْبَةِ جَهْلٌ بِسُنَّةِ العَفْوِ الإِلَهِيِّ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصَلَاحٍ أَحْيَاهُ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ فِي القُلُوبِ العَائِدَةِ إِلَيْهِ.

مِيقَاتُ الأَوْبَةِ وَسَرَابُ التَّسْوِيفِ

صَدَى ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

بَابُ التَّوْبَةِ المَفْتُوحُ نَافِذَةُ نَجَاةٍ لِلْقُلُوبِ الَّتِي تَزِلُّ بِجَهَالَةِ البَشَرِيَّةِ ثُمَّ تُسَارِعُ إِلَى الأَوْبَةِ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ، فَأَصْغَيْتُ إِلَى نِدَاءِ المُبَادَرَةِ وَهُوَ يَسْتَنْهِضُ عَزْمِي المُتَرَاخِي. انْقَشَعَتْ عَنْ بَصِيرَتِي سُحُبُ التَّسْوِيفِ الخَادِعَةِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ قُرْبَ التَّوْبَةِ هُوَ دَلِيلُ حَيَاةِ القَلْبِ وَيَقَظَةِ الضَّمِيرِ. وَكَمْ أَجَّلَتْ نَفْسِي الرُّجُوعَ إِلَى رَبِّهَا اغْتِرَارًا بِطُولِ الأَمَلِ، فَإِذَا الذَّنْبُ يَتَرَاكَمُ كَالصَّدَأِ فَوْقَ مِرْآةِ الرُّوحِ حَتَّى يَطْمِسَ نُورَهَا. أَرَى الجُرْحَ الطَّرِيَّ يَلْتَئِمُ بِسُرْعَةٍ إِذَا بُودِرَ بِالدَّوَاءِ قَبْلَ أَنْ يَسْرِيَ فِيهِ الفَسَادُ، وَإِذَا أُهْمِلَ اسْتَعْصَى عَلَى الشِّفَاءِ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ العَلِيمِ الحَكِيمِ الَّذِي جَعَلَ قَبُولَ التَّوْبَةِ عَهْدًا

مَكْتُوبًا عَلَى نَفْسِهِ لِلْمُسَارِعِينَ إِلَى مَرْضَاتِهِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الكَلِمَاتُ فِي صَدْرِي إِلَى جَنَاحَيْنِ يَحْمِلَانِي فَوْرًا كُلَّمَا عَثَرَتْ قَدَمِي فِي طَرِيقِ الحَيَاةِ. فَكُلُّ تَأْجِيلٍ لِلْأَوْبَةِ مُقَامَرَةٌ خَاسِرَةٌ بِالأَنْفَاسِ المَعْدُودَةِ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِتَوْبَةٍ صَادِقَةٍ أَدْرَكَتْهَا رَحْمَةُ اللَّهِ قَبْلَ انْقِضَاءِ الأَجَلِ.

حَشْرَجَةُ الغَرْغَرَةِ وَوَهْمُ النَّدَمِ المتَأَخِّرِ

صَدَى ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

عِنْدَ عَتَبَةِ الغَرْغَرَةِ تَنْكَشِفُ الأَسْتَارُ وَيَسْقُطُ قِنَاعُ الِاخْتِيَارِ، فَلَا يَبْقَى لِلنَّدَمِ المضْطَرِّ وَزْنٌ فِي مِيزَانِ القَبُولِ، فَوَقَفْتُ مَذْعُورًا أَمَامَ هَذِهِ الحَقِيقَةِ القَاطِعَةِ. انْهَارَتْ حُجَجُ نَفْسِي المتَمَرِّدَةِ حِينَ رَأَيْتُ أَنَّ التَّوْبَةَ عِبَادَةُ الأَحْيَاءِ المخْتَارِينَ لَا صَرْخَةُ الغَرْقَى عِنْدَ المَمَاتِ. وَكَمْ غَرَّتِ الدُّنْيَا أَقْوَامًا فَأَسْرَفُوا فِي السَّيِّئَاتِ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ كَلِمَةً عِنْدَ النَّزْعِ تَمْحُو عُمْرًا مِنَ الجُحُودِ، فَإِذَا البَابُ قَدْ أُغْلِقَ دُونَهُمْ بِإِحْكَامٍ. أَتَأَمَّلُ السَّفِينَةَ تَتَحَطَّمُ عَلَى الصُّخُورِ بَعْدَ أَنْ رَفَضَ رُبَّانُهَا طَوَالَ الرِّحْلَةِ أَنْ يُغَيِّرَ مَسَارَهَا، فَلَا يُغْنِي صُرَاخُهُ حِينَ تَبْتَلِعُهَا الأَمْوَاجُ العَاتِيَةُ. فَمَا أَشَدَّ هَوْلَ العَذَابِ الأَلِيمِ الَّذِي أُعِدَّ لِلْمُصِرِّينَ عَلَى العِنَادِ حَتَّى لَحْظَةِ انْقِطَاعِ الأَنْفَاسِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى نَاقُوسِ خَطَرٍ يُوقِظُنِي مِنْ غَفْلَةِ الأَمَانِي الكَاذِبَةِ. فَكُلُّ نَدَمٍ يَأْتِي بَعْدَ مُعَايَنَةِ المَوْتِ صَيْحَةٌ فِي وَادٍ سَحِيقٍ لَا صَدَى لَهَا، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِإِيمَانٍ صَادِقٍ وَتَوْبَةٍ خَالِصَةٍ فِي زَمَنِ الإِمْهَالِ.

مِيثَاقُ المعَاشَرَةِ وَكَرَامَةُ المرْأَةِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

حُرِّيَّةُ الإِنْسَانِ وَكَرَامَتُهُ مِيثَاقٌ رَبَّانِيٌّ يَأْبَى أَنْ تُورَثَ المرْأَةُ كَالمتَاعِ أَوْ تُحْبَسَ بِالعَضْلِ الظَّالِمِ، فَأَبْصَرْتُ نُورَ العَدْلِ يُحَرِّرُ القُلُوبَ مِنْ أَغْلَالِ الجَاهِلِيَّةِ. تَطَهَّرَتْ رُوحِي مِنْ أَنَانِيَّةِ التَّسَلُّطِ وَالِابْتِزَازِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ المعَاشَرَةَ بِالمعْرُوفِ هِيَ السِّيَاجُ الَّذِي يَحْفَظُ البُيُوتَ مِنَ الِانْهِيَارِ. وَكَمْ عَضَلَتِ النُّفُوسُ اللَّئِيمَةُ أَزْوَاجَهَا لِتَسْتَرِدَّ مَا أَعْطَتْهُنَّ بِالإِكْرَاهِ، فَحَوَّلَتِ السَّكَنَ الرَّحِيمَ إِلَى سِجْنٍ مُظْلِمٍ يَعُجُّ بِالأَلَمِ. أَرَى السَّحَابَةَ الدَّاكِنَةَ تَبْدُو كَرِيهَةً لِلنَّاظِرِ لِحُجْبِهَا ضَوْءَ الشَّمْسِ، ثُمَّ تَنْفَجِرُ غَيْثًا عَذْبًا يُحْيِي مَوَاتَ الأَرْضِ وَيُفِيضُ بِالخَيْرِ الكَثِيرِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ البَصِيرَةَ الإِلَهِيَّةَ الَّتِي تُعَلِّمُ القَلْبَ الصَّبْرَ عَلَى مَا يَكْرَهُ

رَجَاءَ الخَيْرِ الخَفِيِّ الَّذِي يُقَدِّرُهُ الخَالِقُ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الكَلِمَاتُ فِي وِجْدَانِي إِلَى نَبْعٍ مِنَ الرِّفْقِ وَالتَّسَامُحِ يُلَبِّيْ قَسْوَةَ الطِّبَاعِ. فَكُلُّ تَسَلُّطٍ يَقْهَرُ النُّفُوسَ ظُلْمٌ زَائِلٌ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِعِشْرَةٍ طَيِّبَةٍ سَادَهَا المَعْرُوفُ وَبَارَكَهَا اللَّهُ بِالخَيْرِ الكَثِيرِ.

قَدَاسَةُ القِنْطَارِ وَهَيْبَةُ الميثَاقِ الغَلِيظِ

صَدَى ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

عَلَى عَتَبَةِ الفِرَاقِ تَقِفُ المُرُوءَةُ وَالذِّمَّةُ لِتَصُونَ قِنْطَارَ العَطَاءِ مِنْ غَدْرِ الجُحُودِ وَبُهْتَانِ الِافْتِرَاءِ، فَأَصْغَيْتُ إِلَى هَذَا العِتَابِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يَهُزُّ أَرْكَانَ الضَّمِيرِ. تَلَاشَتْ كُلُّ ذَرَّةِ طَمَعٍ فِي دَاخِلِي أَمَامَ هَيْبَةِ الإِفْضَاءِ الرُّوحِيِّ وَالجَسَدِيِّ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ القَلْبَيْنِ فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ. وَكَمْ تَنَكَّرَتِ القُلُوبُ القَاسِيَةُ لِعَهْدِ المَوَدَّةِ عِنْدَ الِافْتِرَاقِ، فَلَفَّقَتِ التُّهَمَ البَاطِلَةَ لِتَسْلِبَ مَا وَهَبَتْهُ فِي لَحَظَاتِ الصَّفَاءِ. أَتَأَمَّلُ النَّهْرَ العَظِيمَ يَهَبُ مَاءَهُ لِلْوَادِي ثُمَّ يَنْصَرِفُ بِسَلَامٍ دُونَ أَنْ يَعُودَ لِيَنْتَزِعَ الخُضْرَةَ الَّتِي أَنْبَتَهَا فِي ضِفَافِهِ. فَمَا أَعْظَمَ تَسْمِيَةَ عَقْدِ الزَّوْجِيَّةِ بِالمِيثَاقِ الغَلِيظِ الَّذِي تَشْهَدُ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَتَرْتَجِفُ لِقَدَاسَتِهِ الأَرْضُ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانٍ لِلْوَفَاءِ يَحْفَظُ العُهُودَ حَتَّى بَعْدَ انْقِطَاعِ الأَسْبَابِ. فَكُلُّ مَالٍ يُسْتَرَدُّ بِالبُهْتَانِ نَارٌ تَأْكُلُ المُرُوءَةَ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِوَفَاءٍ صَانَ الميثَاقَ الغَلِيظَ وَرَاقَبَ اللَّهَ فِي الوَصْلِ وَالفِرَاقِ.

سِيَاجُ الحُرُمَاتِ وَنَقَاءُ الأَنْسَابِ

صَدَى ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾

حُرُمَاتُ الأَنْسَابِ وَمَقَامُ الأُبُوَّةِ حُصُونٌ طَاهِرَةٌ يُنَزِّهُهَا الشَّرْعُ عَنْ دَنَسِ الفَاحِشَةِ وَمَقْتِ السَّمَاءِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا التَّطْهِيرِ الجَذْرِيِّ لِشَجَرَةِ العَائِلَةِ. انْكَمَشَتْ ظِلَالُ المَوْرُوثَاتِ الجَاهِلِيَّةِ المَقِيتَةِ فِي ذِهْنِي، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَرْفَعُ الإِسْلَامُ كَرَامَةَ المَرْأَةِ وَقَدَاسَةَ العَلَاقَاتِ الأُسَرِيَّةِ فَوْقَ أَهْوَاءِ الطِّينِ. وَكَمْ انْحَدَرَتِ البَشَرِيَّةُ فِي ظُلُمَاتِ التَّارِيخِ حِينَ اسْتَبَاحَتْ حُرُمَاتِ الآبَاءِ، فَأَشْعَلَتْ نَارَ المَقْتِ وَالْقَطِيعَةِ بَيْنَ الأُصُولِ وَالفُرُوعِ. أَرَى الجِذْرَ الشَّامِخَ فِي الأَرْضِ يَحْمِي السَّاقَ وَالأَغْصَانَ مِنَ الِالْتِوَاءِ، وَلَوْ تَدَاخَلَتِ الأَغْصَانُ فِي جِذْرِهَا لَفَسَدَتِ الشَّجَرَةُ وَيَبِسَتْ ثِمَارُهَا. فَمَا أَشَدَّ وَصْفَ

هَذَا الفِعْلِ بِالفَاحِشَةِ وَالمَقْتِ وَسُوءِ السَّبِيلِ لِيَنْفِرَ مِنْهُ كُلُّ قَلْبٍ سَلِيمٍ وَفِطْرَةٍ نَقِيَّةٍ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى نُورٍ يَحْرُسُ طَهَارَةَ الفِطْرَةِ وَيُعَظِّمُ حُرُمَاتِ الخَالِقِ. فَكُلُّ سَبِيلٍ يَتَجَاوَزُ حُدُودَ الفِطْرَةِ هَاوِيَةٌ مِنَ المَقْتِ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِطُهْرٍ أَقَامَهُ اللَّهُ لِيَحْفَظَ لِلْإِنْسَانِ شَرَفَهُ وَنَقَاءَهُ.

مِحْرَابُ الفِطْرَةِ وَأَسْوَارُ المَحَارِمِ

صَدَى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ مُحِيطٌ مِنَ الطُّهْرِ وَالسَّكِينَةِ يَلْتَفُّ حَوْلَ القَلْبِ فَيَعْصِمُهُ مِنْ عَوَاصِفِ الغَرَائِزِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا البِنَاءِ الأُسَرِيِّ المُحْكَمِ الَّذِي يُحَدِّدُ مَدَارَاتِ القَرَابَةِ بِدِقَّةٍ وَجَلَالٍ. تَبَدَّدَتْ أَوْهَامُ الفَوْضَى العَاطِفِيَّةِ فِي ذِهْنِي، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَجْعَلُ الشَّرْعُ بَيْتَ الإِنْسَانِ وَاحَةً لِلْمَوَدَّةِ البَرِيئَةِ الَّتِي لَا تَشُوبُهَا أَطْمَاعُ الشَّهْوَةِ. وَكَمْ تَاهَتْ أُمَمٌ فِي دُرُوبِ الضَّيَاعِ حِينَ هَدَمَتْ أَسْوَارَ المَحَارِمِ، فَفَقَدَتْ أَمَانَ الرَّحِمِ وَانْقَلَبَتْ مَجَالِسُ الأُنْسِ فِيهَا إِلَى بُؤَرٍ لِلرِّيبَةِ وَالانْحِرَافِ. أَرَى النَّهْرَ العَذْبَ يَجْرِي فِي مَجْرَاهُ الآمِنِ بَيْنَ ضِفَّتَيْنِ صَلْبَتَيْنِ تَمْنَعَانِهِ مِنَ الطُّغْيَانِ، وَلَوْلَا تِلْكَ الضِّفَافُ لَتَحَوَّلَ المَاءُ المُبَارَكُ إِلَى مُسْتَنْقَعٍ يُفْسِدُ الأَرْضَ وَالحَرْثَ. فَمَا أَرْحَمَ أَنْ يَخْتِمَ اللَّهُ هَذَا التَّشْرِيعَ الصَّارِمَ بِالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ لِيَمْحُوَ مَا سَلَفَ وَيَفْتَحَ لِلْقُلُوبِ بَابَ التَّوْبَةِ وَالنَّقَاءِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى سِيَاجٍ أَمِينٍ يَحْرُسُ قَدَاسَةَ الرَّحِمِ وَيُصَفِّي نَبْعَ المَحَبَّةِ الإِنْسَانِيَّةِ. فَكُلُّ عَاطِفَةٍ تَلْتَزِمُ حُدُودَ اللَّهِ تَزْهُو بِالنُّورِ، وَلَا أَمَانَ لِلْبُيُوتِ إِلَّا فِي ظِلِّ مَحَارِمَ تُصَانُ بِالتَّقْوَى وَتُحَاطُ بِالرَّحْمَةِ.

مِيثَاقُ الإِحْصَانِ وَطُهْرُ النِّكَاحِ

صَدَى ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٢٤] حُرْمَةُ البُيُوتِ القَائِمَةِ وَصِيَانَةُ الأَعْرَاضِ سَدٌّ مَنِيعٌ يَحْمِي المُجْتَمَعَ مِنْ عَبَثِ السِّفَاحِ، فَوَقَفْتُ

خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا المِيزَانِ الدَّقِيقِ الَّذِي يُفَرِّقُ بَيْنَ العِفَّةِ وَالفَوْضَى. تَلَاشَتْ فِي ذِهْنِي خُيُوطُ الهَوَى العَابِرِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَرْبِطُ القُرْآنُ بَيْنَ البَذْلِ المَالِيِّ الكَرِيمِ وَبَيْنَ الإِحْصَانِ وَالتَّرَاضِي النَّبِيلِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ. وَكَمْ تَفَكَّكَتْ حَضَارَاتٌ وَانْهَارَتْ أُسَرٌ حِينَ اسْتَهَانَتْ بِعُقُودِ الزَّوَاجِ الوَثِيقَةِ، فَجَعَلَتِ العَلَاقَةَ الإِنْسَانِيَّةَ مُجَرَّدَ مُتْعَةٍ زَائِلَةٍ بِلَا مِيثَاقٍ وَلَا مَسْؤُولِيَّةٍ. أَرَى الحِصْنَ المَبْنِيَّ بِالحِجَارَةِ الصَّلْبَةِ يَحْفَظُ مَنْ بِدَاخِلِهِ مِنْ رِيَاحِ الصَّحْرَاءِ، وَلَوْ بُنِيَ عَلَى رِمَالٍ مُتَحَرِّكَةٍ لَانْهَارَ مَعَ أَوَّلِ عَاصِفَةٍ وَضَاعَ أَهْلُهُ. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يُخْتَمَ هَذَا التَّشْرِيعُ بِالعِلْمِ وَالحِكْمَةِ لِيُطَمْئِنَ القُلُوبَ أَنَّ كُلَّ حَدٍّ شَرَعَهُ اللَّهُ إِنَّمَا هُوَ صِيَانَةٌ لِلْكَرَامَةِ وَبِنَاءٌ لِلْمَوَدَّةِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى مِيثَاقٍ يُقَدِّسُ العِفَّةَ وَيُعْلِي قِيمَةَ الوَفَاءِ وَالتَّرَاضِي. فَكُلُّ رِبَاطٍ يُبْنَى عَلَى الإِحْصَانِ يُثْمِرُ سَكِينَةً، وَلَا كَرَامَةَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا فِي ظِلِّ شَرْعٍ عَلِيمٍ يَحْفَظُ الحُقُوقَ وَيُزَكِّي النُّفُوسَ.

عَدَالَةُ التَّيْسِيرِ وَعِصْمَةُ العَفَافِ

صَدَى ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥]

رَحْمَةُ التَّشْرِيعِ تَفْتَحُ أَبْوَابَ العِفَّةِ لِكُلِّ قَلْبٍ يَخْشَى العَنَتَ وَيَطْلُبُ السَّتْرَ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا التَّوَازُنِ البَدِيعِ بَيْنَ ضَرُورَةِ البَشَرِ وَسُمُوِّ الأَخْلَاقِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي فَوَارِقُ الطَّبَقَاتِ الجَاهِلِيَّةِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يُسَوِّي الإِيمَانُ بَيْنَ البَشَرِ حِينَ يَجْعَلُهُمْ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ فِي الكَرَامَةِ وَالمَصِيرِ. وَكَمْ تَعَثَّرَتْ أُمَمٌ فِي وَحْلِ الفَوَاحِشِ السِّرِّيَّةِ وَالعَلَنِيَّةِ حِينَ أَغْلَقَتْ أَبْوَابَ الزَّوَاجِ المَيْسُورِ وَاحْتَقَرَتْ ضُعَفَاءَ المجْتَمَعِ. أَرَى الجِسْرَ المَمْدُودَ فَوْقَ الهَاوِيَةِ يَنْقُلُ السَّائِرَ بِأَمَانٍ إِلَى الضِّفَّةِ الأُخْرَى، وَلَوْلَا ذَلِكَ الجِسْرُ لَسَقَطَ المَرْهَقُونَ فِي ظُلُمَاتِ الانْجِرَافِ وَالضَّيَاعِ. فَمَا أَعْدَلَ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ الصَّبْرَ مَقَامًا أَعْلَى وَيُقَدِّرَ الظُّرُوفَ فِي العُقُوبَةِ، ثُمَّ يَخْتِمَ الآيَةَ بِالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ لِتَطْمَئِنَّ النُّفُوسُ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى نُورٍ يَهْدِي الحَائِرِينَ نَحْوَ العَفَافِ وَيُعْلِي قِيمَةَ الإِيمَانِ فَوْقَ كُلِّ

اعْتِبَارٍ. فَكُلُّ تَيْسِيرٍ يَصُونُ الفِطْرَةَ هُوَ رَحْمَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَا عِزَّةَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا فِي ظِلِّ شَرْعٍ يَرْفَعُ الإِيمَانَ وَيَغْفِرُ الزَّلَّاتِ.

نُورُ البَيَانِ وَفُرْقَانُ الهِدَايَةِ

صَدَى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]

إِرَادَةُ السَّمَاءِ تَتَجَلَّى فِي إِضَاءَةِ الطَّرِيقِ لِلْعِبَادِ حَتَّى لَا يَتِيهُوا فِي ظُلُمَاتِ الجَهْلِ وَالهَوَى، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الفَيْضِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ البَيَانِ وَالهِدَايَةِ وَالتَّوْبَةِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي سُحُبُ الحَيْرَةِ وَالتَّرَدُّدِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَرْبِطُ القُرْآنُ مَسِيرَةَ المُؤْمِنِينَ بِمَوْكِبِ الصَّالِحِينَ وَالأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ سَلَكُوا سُنَنَ الحَقِّ مِنْ قَبْلُ. وَكَمْ ضَلَّتْ أَجْيَالٌ حِينَ انْقَطَعَتْ عَنْ مِيرَاثِ النُّبُوَّةِ الصَّافِي، فَأَعَادَتْ أَخْطَاءَ المَاضِي وَغَرِقَتْ فِي مَتَاهَاتِ التَّجْرِبَةِ العَمْيَاءِ. أَرَى المَنَارَةَ الشَّامِخَةَ عَلَى شَاطِئِ البَحْرِ تُرْشِدُ السُّفُنَ فِي اللَّيْلِ البَهِيمِ، وَلَوْلَا ضَوْؤُهَا السَّاطِعُ لَارْتَطَمَتِ السُّفُنُ بِصُخُورِ الهَلَاكِ وَغَرِقَ رُكَّابُهَا. فَمَا أَكْرَمَ الخَالِقَ حِينَ يُرِيدُ لِعِبَادِهِ البَيَانَ الوَاضِحَ وَالتَّوْبَةَ الصَّادِقَةَ، مُحِيطًا تَشْرِيعَهُ بِالعِلْمِ الشَّامِلِ وَالحِكْمَةِ البَالِغَةِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى يَقِينٍ يُبَصِّرُنِي بِحِكْمَةِ الأَوَامِرِ وَيُشْعِرُنِي بِقُرْبِ اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ. فَكُلُّ هِدَايَةٍ تَنْبُعُ مِنَ الوَحْيِ هِيَ أَمَانٌ مِنَ الضَّيَاعِ، وَلَا نَجَاةَ لِلْقَلْبِ إِلَّا فِي السَّيْرِ عَلَى سُنَنِ المُرْسَلِينَ تَحْتَ ظِلِّ التَّوْبَةِ وَالحِكْمَةِ.

صِرَاعُ الإِرَادَاتِ بَيْنَ التَّوْبَةِ وَالشَّهْوَةِ

صَدَى ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]

مُفْتَرَقُ طُرُقٍ حَاسِمٌ يَكْشِفُ لِلْإِنْسَانِ حَقِيقَةَ المَعْرَكَةِ الدَّائِرَةِ حَوْلَ قَلْبِهِ وَفِطْرَتِهِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا التَّقَابُلِ الصَّارِخِ بَيْنَ رَحْمَةِ الخَالِقِ وَمَكْرِ أَتْبَاعِ الشَّهَوَاتِ. انْكَشَفَتْ فِي ذِهْنِي أَقْنِعَةُ الدَّاعِينَ إِلَى التَّحَلُّلِ وَالانْفِلَاتِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ لِلْبَشَرِ سَعَادَةً بَلْ يُرِيدُونَ لَهُمُ المَيْلَ العَظِيمَ عَنْ جَادَّةِ الحَقِّ وَالفِطْرَةِ. وَكَمْ سَقَطَتْ مُجْتَمَعَاتٌ فِي هَاوِيَةِ الانْجِرَافِ حِينَ أَصْغَتْ لِنِدَاءَاتِ الغَرِيزَةِ العَابِثَةِ، فَفَقَدَتْ تَوَازُنَهَا الرُّوحِيَّ وَغَرِقَتْ فِي الشَّقَاءِ وَالضَّنْكِ. أَرَى السَّفِينَةَ تَمْخُرُ عُبَابَ البَحْرِ بَيْنَ رِيحٍ طَيِّبَةٍ تَدْفَعُهَا نَحْوَ مِينَاءِ السَّلَامِ وَأَمْوَاجٍ عَاتِيَةٍ تُحَاوِلُ إِمَالَتَهَا لِتَنْقَلِبَ فِي الأَعْمَاقِ. فَمَا أَعْظَمَ الفَرْقَ بَيْنَ رَبٍّ رَحِيمٍ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْنَا لِيَرْفَعَنَا، وَبَيْنَ غَافِلِينَ يُرِيدُونَ إِغْرَاقَنَا فِي وَحْلِ

الشَّهَوَاتِ لِنُشَارِكَهُمُ السُّقُوطَ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى بَصِيرَةٍ نَافِذَةٍ تُمَيِّزُ بَيْنَ نِدَاءِ النَّجَاةِ وَدَعْوَةِ الهَلَاكِ. فَكُلُّ انْحِرَافٍ عَنِ الصِّرَاطِ هُوَ مَيْلٌ نَحْوَ الهَاوِيَةِ، وَلَا ثَبَاتَ لِلنَّفْسِ إِلَّا بِالِاعْتِصَامِ بِتَوْبَةِ اللَّهِ وَالِاسْتِعْلَاءِ عَلَى أَهْوَاءِ الطِّينِ.

تَخْفِيفُ الأَعْبَاءِ عَنْ ضَعْفِ الإِنْسَانِ

صَدَى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]

لَمْسَةُ حَنَانٍ إِلَهِيَّةٌ تُدْرِكُ حَقِيقَةَ الطِّينَةِ البَشَرِيَّةِ وَتَرْفَعُ عَنْهَا مَشَقَّةَ التَّكْلِيفِ الشَّاقِّ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الِاعْتِرَافِ الرَّبَّانِيِّ اللَّطِيفِ بِضَعْفِ الإِنْسَانِ أَمَامَ فِتَنِ الحَيَاةِ. تَلَاشَتْ فِي ذِهْنِي وَسَاوِسُ القَسْوَةِ وَالتَّعْقِيدِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَبْنِي اللَّهُ شَرِيعَتَهُ عَلَى التَّخْفِيفِ وَالتَّيْسِيرِ لِتُطِيقَهَا النُّفُوسُ الضَّعِيفَةُ وَتَسْتَقِيمَ بِهَا دُونَ انْكِسَارٍ. وَكَمْ انْهَارَ بَشَرٌ تَحْتَ وَطْأَةِ الشَّرَائِعِ المحَرَّفَةِ وَالأَغْلَالِ الَّتِي صَنَعَهَا الرُّهْبَانُ وَالمتَشَدِّدُونَ، فَتَمَرَّدُوا عَلَى الدِّينِ أَوْ هَلَكُوا مِنَ العَنَتِ. أَرَى الطَّائِرَ الصَّغِيرَ يَحْمِلُ رِيشَهُ الخَفِيفَ فَيُحَلِّقُ فِي الفَضَاءِ الفَسِيحِ، وَلَوْ عُلِّقَتْ فِي جَنَاحَيْهِ أَثْقَالُ الحَدِيدِ لَسَقَطَ عَلَى الأَرْضِ عَاجِزًا عَنِ الطَّيَرَانِ. فَمَا أَرْحَمَ الخَالِقَ الَّذِي خَلَقَ الإِنْسَانَ ضَعِيفًا فَأَحَاطَهُ بِتَشْرِيعٍ يُخَفِّفُ عَنْهُ ثِقَلَ الغَرَائِزِ وَيَمْنَحُهُ القُدْرَةَ عَلَى العَفَافِ وَالسَّلَامِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى بَلْسَمٍ يَشْفِي انْكِسَارَ النَّفْسِ وَيُعَمِّقُ الثِّقَةَ بِرَحْمَةِ المشَرِّعِ الحَكِيمِ. فَكُلُّ تَكْلِيفٍ رَبَّانِيٍّ هُوَ تَخْفِيفٌ وَرَحْمَةٌ، وَلَا قُوَّةَ لِلْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ إِلَّا حِينَ يَسْتَنِدُ إِلَى يُسْرِ الشَّرْعِ وَلُطْفِ الخَالِقِ.

حُرْمَةُ الأَمْوَالِ وَصِيَانَةُ الأَنْفُسِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]

نِدَاءُ الإِيمَانِ يَرْبِطُ بَيْنَ طَهَارَةِ اللُّقْمَةِ وَحُرْمَةِ الدَّمِ فِي مِيثَاقٍ اجْتِمَاعِيٍّ يُحَصِّنُ الأُمَّةَ مِنَ التَّآكُلِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا التَّلَازُمِ العَجِيبِ بَيْنَ أَكْلِ المالِ بِالبَاطِلِ وَقَتْلِ الأَنْفُسِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي أَوْهَامُ الكَسْبِ السَّرِيعِ القَائِمِ عَلَى الغِشِّ وَالِاسْتِغْلَالِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَجْعَلُ القُرْآنُ التَّرَاضِيَ الصَّادِقَ أَسَاسًا لِلتِّجَارَةِ الحَلَالِ الَّتِي تُنَمِّي المَوَدَّةَ بَيْنَ النَّاسِ. وَكَمْ انْهَارَتْ مُجْتَمَعَاتٌ وَاشْتَعَلَتْ فِيهَا الحُرُوبُ الأَهْلِيَّةُ حِينَ اسْتَبَاحَ أَهْلُهَا أَمْوَالَ بَعْضِهِمْ بِالخِدَاعِ وَالرِّبَا، فَأَدَّى ذَلِكَ حَتْمًا إِلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ وَتَدْمِيرِ الذَّاتِ. أَرَى الجَسَدَ الوَاحِدَ تَجْرِي فِيهِ الدِّمَاءُ النَّقِيَّةُ فَتُغَذِّي كُلَّ عُضْوٍ بِالعَدْلِ، وَلَوِ امْتَصَّ عُضْوٌ دَمَ الآخَرِ لَمَاتَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَانْتَهَتِ الحَيَاةُ. فَمَا أَعْظَمَ أَنْ يُنَبِّهَنَا اللَّهُ إِلَى أَنَّ ظُلْمَ

الآخَرِ هُوَ قَتْلٌ لِلنَّفْسِ، ثُمَّ يَخْتِمَ الآيَةَ بِرَحْمَتِهِ الوَاسِعَةِ الَّتِي تَمْنَعُنَا مِنْ إِهْلَاكِ أَنْفُسِنَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى دُسْتُورٍ لِلْعَدْلِ يَحْمِي الأَمْوَالَ وَالأَرْوَاحَ وَيُشِيعُ الأَمَانَ فِي المجْتَمَعِ. فَكُلُّ مَالٍ يُكْسَبُ بِالتَّرَاضِي هُوَ بَرَكَةٌ وَحَيَاةٌ، وَلَا بَقَاءَ لِأُمَّةٍ إِلَّا حِينَ تَصُونُ دِمَاءَهَا وَأَمْوَالَهَا بِمِيزَانِ العَدْلِ وَالرَّحْمَةِ.

وَهَجُ الوَعِيدِ لِلْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ

صَدَى ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٣٠]

صَيْحَةُ إِنْذَارٍ تَهُزُّ الضَّمَائِرَ الغَافِلَةَ الَّتِي تَسْتَهِينُ بِحُقُوقِ العِبَادِ وَتَتَجَرَّأُ عَلَى مَحَارِمِ اللَّهِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الحَسْمِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يُقَابِلُ العُدْوَانَ بِالنَّارِ. تَلَاشَتْ فِي ذِهْنِي جُرْأَةُ الظَّالِمِينَ المغْتَرِّينَ بِقُوَّتِهِمْ وَحِيلَتِهِمْ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَتَضَاءَلُ طُغْيَانُ البَشَرِ أَمَامَ قُدْرَةِ الجَبَّارِ الَّذِي يَسْهُلُ عَلَيْهِ إِحْرَاقُ المعْتَدِينَ. وَكَمْ تَجَبَّرَ طُغَاةٌ وَمُحْتَالُونَ فِي الأَرْضِ ظَانِّينَ أَنَّ أَمْوَالَهُمْ وَسُلْطَانَهُمْ سَتَحْمِيهِمْ مِنَ العِقَابِ، فَإِذَا بِهِمْ يُسَاقُونَ إِلَى مَصِيرٍ مُظْلِمٍ لَا نَاصِرَ لَهُمْ فِيهِ. أَرَى الفَرَاشَةَ المغْرُورَةَ تَقْتَرِبُ مِنَ اللَّهَبِ المسْتَعِرِ ظَانَّةً أَنَّهَا تَمْلِكُ السَّيْطَرَةَ، فَمَا إِنْ تَلْمَسَهُ حَتَّى تَتَحَوَّلَ إِلَى رَمَادٍ فِي لَحْظَةٍ يَسِيرَةٍ. فَمَا أَشَدَّ وَقْعَ هَذِهِ الخَاتِمَةِ الَّتِي تُؤَكِّدُ أَنَّ إِصْلَاءَ الظَّالِمِينَ النَّارَ أَمْرٌ يَسِيرٌ عَلَى اللَّهِ لَا يَعْجِزُهُ وَلَا يَرُدُّهُ شَيْءٌ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى رَادِعٍ يَقِظٍ يَكُفُّ النَّفْسَ عَنْ أَيِّ تَعَدٍّ عَلَى مَالٍ أَوْ نَفْسٍ. فَكُلُّ عُدْوَانٍ عَلَى الخَلْقِ هُوَ اسْتِدْعَاءٌ لِغَضَبِ الخَالِقِ، وَلَا أَمَانَ لِلْعَبْدِ إِلَّا بِالْوُقُوفِ عِنْدَ حُدُودِ اللَّهِ خَوْفًا مِنْ يَوْمٍ لَا يُرَدُّ فِيهِ العَذَابُ.

بَشَائِرُ التَّكْفِيرِ بِاجْتِنَابِ الكَبَائِرِ

صَدَى ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]

نَافِذَةُ أَمَلٍ وَاسِعَةٌ تُطِلُّ عَلَى الجَنَّةِ بَعْدَ وَعِيدِ النَّارِ لِتُثَبِّتَ القُلُوبَ المجَاهِدَةَ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الكَرَمِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يَمْحُو الصَّغَائِرَ بِمُجَرَّدِ اجْتِنَابِ الكَبَائِرِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي سُحُبُ اليَأْسِ مِنَ الزَّلَّاتِ اليَوْمِيَّةِ البَشَرِيَّةِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يُعَامِلُ اللَّهُ عِبَادَهُ بِالفَضْلِ وَالإِحْسَانِ حِينَ يَصْدُقُونَ فِي الابتِعَادِ عَنْ عَظَائِمِ الذُّنُوبِ. وَكَمْ قَنَطَ مُذْنِبُونَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ حِينَ حَاصَرَتْهُمْ صَغَائِرُ الأَعْمَالِ، فَتَرَكُوا الطَّاعَةَ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ النَّجَاةَ مُسْتَحِيلَةٌ لِغَيْرِ المعْصُومِينَ. أَرَى الشَّجَرَةَ البَاسِقَةَ تَحْمِي جِذْعَهَا

الرَّئِيسَ مِنْ فَأْسِ الحَطَّابِ، فَتَسْقُطُ عَنْهَا بَعْضُ الأَوْرَاقِ اليَابِسَةِ فِي الخَرِيفِ ثُمَّ تَعُودُ لِتُزْهِرَ بِثِمَارٍ كَرِيمَةٍ فِي الرَّبِيعِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الوَعْدَ الكَرِيمَ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ تَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالإِدْخَالِ المُكَرَّمِ إِلَى دَارِ السَّلَامِ فِي الآخِرَةِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى دَافِعٍ قَوِيٍّ لِلْيَقَظَةِ الدَّائِمَةِ وَحِرَاسَةِ القَلْبِ مِنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ. فَكُلُّ اجْتِنَابٍ لِلْكَبَائِرِ هُوَ مِفْتَاحٌ لِلْمَغْفِرَةِ، وَلَا فَوْزَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ العَبْدُ جَنَّةَ رَبِّهِ مُكَرَّمًا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

سَلَامَةُ الصُّدُورِ وَعَدْلُ العَطَاءِ

صَدَى ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢]

تَطْهِيرٌ عَمِيقٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ جَمْرَةِ الحَسَدِ وَالتَّطَلُّعِ المَرِيضِ إِلَى أَرْزَاقِ الآخَرِينَ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا المِيزَانِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي يُقِيمُ التَّنَافُسَ عَلَى العَمَلِ وَالدُّعَاءِ لَا عَلَى التَّمَنِّي العَاجِزِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي مَشَاعِرُ المُقَارَنَةِ الظَّالِمَةِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَجْعَلُ اللَّهُ الِاكْتِسَابَ الصَّالِحَ مِعْيَارًا لِلْكَرَامَةِ وَالجَزَاءِ لِلْجَمِيعِ. وَكَمْ تَمَزَّقَتْ أُسَرٌ وَمُجْتَمَعَاتٌ حِينَ اشْتَعَلَتْ فِيهَا نَارُ الحَسَدِ وَالتَّنَازُعِ عَلَى الخَصَائِصِ، فَانْشَغَلَ النَّاسُ بِمُرَاقَبَةِ بَعْضِهِمْ عَنِ العَمَلِ وَسُؤَالِ الخَالِقِ. أَرَى البُسْتَانَ الوَاسِعَ تَتَنَوَّعُ فِيهِ الأَشْجَارُ بَيْنَ نَخِيلٍ بَاسِقٍ وَزَيْتُونٍ مُبَارَكٍ، فَكُلُّ شَجَرَةٍ تَرْتَوِي مِنْ نَبْعِ السَّمَاءِ وَتُثْمِرُ بِقَدْرِ مَا أُودِعَ فِيهَا مِنْ حِكْمَةٍ. فَمَا أَجْمَلَ أَنْ يُوَجِّهَنَا القُرْآنُ إِلَى سُؤَالِ اللَّهِ مِنْ فَضْلِهِ الوَاسِعِ الَّذِي لَا يَنْفَدُ، مُطَمْئِنًا قُلُوبَنَا بِأَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يُصْلِحُ كُلَّ إِنْسَانٍ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى طُمَأْنِينَةٍ تَمْلَأُ الصَّدْرَ بِالرِّضَا وَتَدْفَعُ اليَدَ إِلَى العَمَلِ وَاللِّسَانَ إِلَى الدُّعَاءِ. فَكُلُّ رِضًا بِقِسْمَةِ اللَّهِ هُوَ غِنًى لِلرُّوحِ، وَلَا خَيْرَ أَبْقَى مِنْ فَضْلٍ يَسْأَلُهُ العَبْدُ مِنْ خَزَائِنِ العَلِيمِ الحَكِيمِ.

مِيزَانُ المَوَارِيثِ وَأَمَانَةُ العُهُودِ

صَدَى ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٣]

إِحْكَامٌ لِرَوَابِطِ القَرَابَةِ وَالْوَلَاءِ يُثَبِّتُ الحُقُوقَ المَالِيَّةَ وَيَصُونُ المَوَاثِيقَ مِنَ الجُحُودِ وَالنِّسْيَانِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا النِّظَامِ الدَّقِيقِ الَّذِي يَرْعَى أَوَاصِرَ الدَّمِ وَالعَهْدِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي ظُلُمَاتُ الِاسْتِئْثَارِ بِالتَّرِكَاتِ وَإِضَاعَةِ حُقُوقِ الوَرَثَةِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَرْبِطُ الإِسْلَامُ بَيْنَ إِيتَاءِ كُلِّ ذِي حَقٍّ نَصِيبَهُ وَبَيْنَ شَهَادَةِ اللَّهِ المُحِيطَةِ بِكُلِّ شَيْءٍ. وَكَمْ تَقَطَّعَتْ أَرْحَامٌ وَتَفَكَّكَتْ عَائِلَاتٌ حِينَ تَلَاعَبَ

الأَقْوِيَاءُ بِالمَوَارِيثِ وَنَقَضُوا العُهُودَ الَّتِي عَقَدَتْهَا الأَيْمَانُ، فَحَلَّتِ البَغْضَاءُ مَحَلَّ المَوَدَّةِ. أَرَى السَّاقِيَةَ العَذْبَةَ تَتَفَرَّعُ إِلَى جَدَاوِلَ صَغِيرَةٍ تَصِلُ إِلَى كُلِّ غَرْسٍ فِي الأَرْضِ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ، وَلَوْ حَبَسَ جَدْوَلٌ المَاءَ عَنْ جَارِهِ لَيَبِسَتِ الحَدِيقَةُ وَضَاعَ جُهْدُ الزَّارِعِينَ. فَمَا أَعْظَمَ اسْتِحْضَارَ شَهَادَةِ اللَّهِ فِي خِتَامِ الآيَةِ لِيَشْعُرَ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنَّ الرَّقِيبَ الأَعْلَى يُبْصِرُ خَفَايَا الصُّدُورِ وَقِسْمَةَ الأَمْوَالِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى أَمَانَةٍ تُلْزِمُنِي بِالْوَفَاءِ بِالعُهُودِ وَحِفْظِ حُقُوقِ الأَقْرَبِينَ. فَكُلُّ حَقٍّ يُؤَدَّى بِأَمَانَةٍ هُوَ بَرَكَةٌ فِي الرِّزْقِ، وَلَا أَمَانَ لِلْحُقُوقِ إِلَّا فِي ظِلِّ قُلُوبٍ تَسْتَحْضِرُ شَهَادَةَ اللَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

قِوَامَةُ المسْؤُولِيَّةِ وَحِكْمَةُ الإِصْلَاحِ

صَدَى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]

هَنْدَسَةٌ رَبَّانِيَّةٌ لِبِنَاءِ الأُسْرَةِ تَجْعَلُ القِوَامَةَ تَكْلِيفًا بِالرِّعَايَةِ وَالإِنْفَاقِ لَا تَسَلُّطًا وَلَا اسْتِبْدَادًا، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا التَّكَامُلِ الَّذِي يَحْفَظُ سَفِينَةَ البَيْتِ مِنَ الغَرَقِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي أَوْهَامُ الصِّرَاعِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ تَتَلَاقَى قِوَامَةُ الرَّجُلِ الكَرِيمِ مَعَ صَلَاحِ المَرْأَةِ القَانِتَةِ الحَافِظَةِ لِلْغَيْبِ لِيَصْنَعَا مَعًا مِحْرَابًا لِلسَّكِينَةِ. وَكَمْ تَصَدَّعَتْ بُيُوتٌ حِينَ تَحَوَّلَتِ القِوَامَةُ إِلَى بَغْيٍ وَظُلْمٍ، أَوْ حِينَ تَمَرَّدَتِ النُّفُوسُ عَلَى مِيزَانِ المسْؤُولِيَّةِ فَفَقَدَتِ الأُسْرَةُ رُبَّانَهَا وَتَاهَتْ فِي الأَمْوَاجِ. أَرَى الجَنَاحَيْنِ فِي الطَّائِرِ الوَاحِدِ يَتَعَاوَنَانِ بِتَنَاغُمٍ دَقِيقٍ لِيَرْتَفِعَ فِي السَّمَاءِ، وَلَوْ تَنَازَعَ الجَنَاحَانِ أَوْ بَغَى أَحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ لَهَوَى الطَّائِرُ إِلَى الأَرْضِ. فَمَا أَهْيَبَ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمَيِ اللَّهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ لِيَرْتَدِعَ كُلُّ رَجُلٍ عَنِ البَغْيِ وَالظُّلْمِ، مُتَذَكِّرًا أَنَّ فَوْقَهُ رَبًّا عَلِيًّا كَبِيرًا يَنْتَصِرُ لِلْمَظْلُومِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى مِيزَانٍ لِلْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ يُدِيرُ الخِلَافَ بِحِكْمَةٍ وَيَمْنَعُ التَّجَاوُزَ. فَكُلُّ قِوَامَةٍ تَقُومُ عَلَى الإِحْسَانِ هِيَ أَمَانٌ لِلْأُسْرَةِ، وَلَا عُلُوَّ لِأَحَدٍ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِقَدْرِ خُضُوعِهِ لِعَظَمَةِ العَلِيِّ الكَبِيرِ.

سَفَارَةُ الصُّلْحِ وَتَوْفِيقُ السَّمَاءِ

صَدَى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥]

مُبَادَرَةٌ مُجْتَمَعِيَّةٌ حَكِيمَةٌ تُسَارِعُ إِلَى رَأْبِ الصَّدْعِ قَبْلَ أَنْ يَتَّسِعَ الشِّقَاقُ وَيَنْهَارَ البُنْيَانُ الأُسَرِيُّ،

فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الحِرْصِ الإِلَهِيِّ عَلَى بَقَاءِ المَوَدَّةِ وَالسَّكِينَةِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي غُيُومُ التَّعَنُّتِ وَالكِبْرِيَاءِ الَّتِي تُغْلِقُ أَبْوَابَ الحِوَارِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَجْعَلُ اللَّهُ إِرَادَةَ الإِصْلَاحِ الصَّادِقَةِ مِفْتَاحًا لِلتَّوْفِيقِ الإِلَهِيِّ بَيْنَ القُلُوبِ المُتَنَافِرَةِ. وَكَمْ انْهَدَمَتْ بُيُوتٌ عَامِرَةٌ بِسَبَبِ تَدَخُّلِ المُفْسِدِينَ أَوْ تَرْكِ الزَّوْجَيْنِ لِنِيرَانِ الغَضَبِ دُونَ حُكَمَاءَ يَحْمِلُونَ رَايَةَ الصُّلْحِ وَالأَمَانَةِ. أَرَى الشَّقَّ الصَّغِيرَ فِي الجِدَارِ يُبَادِرُ البَنَّاءُ المَاهِرُ إِلَى تَرْمِيمِهِ بِالمَاءِ وَالطِّينِ الطَّيِّبِ فَيَعُودُ الجِدَارُ أَقْوَى مِمَّا كَانَ، وَلَوْ أُهْمِلَ لَتَصَدَّعَ البَيْتُ كُلُّهُ وَسَقَطَ عَلَى أَهْلِهِ. فَمَا أَعْظَمَ الوَعْدَ بِالتَّوْفِيقِ حِينَ تَصْدُقُ النَّوَايَا فِي الإِصْلَاحِ، تَحْتَ رِعَايَةِ العَلِيمِ الخَبِيرِ الَّذِي يَعْلَمُ دَخَائِلَ النُّفُوسِ وَمَفَاتِيحَ القُلُوبِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى رِسَالَةِ سَلَامٍ تَدْعُونِي لِأَنْ أَكُونَ جِسْرًا لِلْوِئَامِ كُلَّمَا رَأَيْتُ خِلَافًا بَيْنَ قَلْبَيْنِ. فَكُلُّ سَعْيٍ صَادِقٍ فِي الإِصْلَاحِ يَسْتَمِدُّ مَدَدَهُ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَا تَوْفِيقَ لِلْمُتَخَاصِمِينَ إِلَّا حِينَ تَخْلُصُ النَّوَايَا لِوَجْهِ العَلِيمِ الخَبِيرِ.

مِيثَاقُ التَّوْحِيدِ وَمَنْظُومَةُ الإِحْسَانِ

صَدَى ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]

دَائِرَةُ نُورٍ تَبْدَأُ مِنْ مِحْرَابِ التَّوْحِيدِ الخَالِصِ لِتَعْمُرَ المُجْتَمَعَ كُلَّهُ بِفَيْضٍ مِنَ البِرِّ وَالرَّحْمَةِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا التَّلَازُمِ البَدِيعِ بَيْنَ عِبَادَةِ الخَالِقِ وَالإِحْسَانِ إِلَى الخَلْقِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي حَوَاجِزُ الأَنَانِيَّةِ وَالِانْغِلَاقِ عَلَى الذَّاتِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَمْتَدُّ الإِحْسَانُ مِنَ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ لِيَشْمَلَ اليَتِيمَ وَالمِسْكِينَ وَالجَارَ وَالصَّاحِبَ وَابْنَ السَّبِيلِ. وَكَمْ قَسَتِ القُلُوبُ وَتَفَكَّكَتِ الأَوْطَانُ حِينَ تَعَالَى الأَغْنِيَاءُ بِالكِبْرِ وَالفَخْرِ، فَنَسُوا حَقَّ اللَّهِ فِي التَّوْحِيدِ وَحَقَّ الضُّعَفَاءِ فِي الرِّعَايَةِ وَالتَّكَافُلِ. أَرَى الشَّمْسَ السَّاطِعَةَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ تُرْسِلُ أَشِعَّتَهَا الدَّافِئَةَ لِتُضِيءَ القُرْبَ وَالبُعْدَ دُونَ تَمْيِيزٍ، فَتُحْيِي البُذُورَ الكَامِنَةَ فِي كُلِّ بِقَاعِ الأَرْضِ. فَمَا أَبْلَغَ خِتَامَ الآيَةِ بِتَحْذِيرِ المُخْتَالِ الفَخُورِ الَّذِي يُفْسِدُ بِنَاءَ التَّكَافُلِ بِكِبْرِيَائِهِ، لِيَعْلَمَ الإِنْسَانُ أَنَّ التَّوَاضُعَ وَالإِحْسَانَ هُمَا طَرِيقُ مَحَبَّةِ اللَّهِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى مَنْهَجِ حَيَاةٍ يَجْعَلُ قَلْبِي مَوْصُولًا بِاللَّهِ وَيَدِي مَمْدُودَةً بِالخَيْرِ لِكُلِّ مَنْ حَوْلِي. فَكُلُّ تَوْحِيدٍ صَادِقٍ يُثْمِرُ إِحْسَانًا لِلْعِبَادِ، وَلَا مَحَبَّةَ لِلَّهِ فِي قَلْبٍ يَسْكُنُهُ الِاخْتِيَالُ وَالفَخْرُ عَلَى الضُّعَفَاءِ.

ظُلْمَةُ البُخْلِ وَجحُودُ النِّعَمِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ٣٧]

تَعْرِيَةٌ مُخِيفَةٌ لِجَرِيمَةِ الشُّحِّ الَّذِي لَا يَكْتَفِي بِحَبْسِ المالِ بَلْ يَنْشُرُ عَدْوَى البُخْلِ وَيَكْتُمُ فَضْلَ السَّمَاءِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الوَصْفِ الَّذِي يَقْرِنُ البُخْلَ وَالكِتْمَانَ بِالكُفْرِ وَالإِهَانَةِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي أَقْنِعَةُ الحِرْصِ الكَاذِبِ الَّذِي يَتَذَرَّعُ بِالخَوْفِ مِنَ الفَقْرِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ كِتْمَانَ نِعَمِ اللَّهِ العِلْمِيَّةِ وَالمالِيَّةِ هُوَ جُحُودٌ لِفَضْلِ المُنْعِمِ الكَرِيمِ. وَكَمْ جَفَّتْ يَنَابِيعُ الخَيْرِ فِي المجْتَمَعَاتِ حِينَ تَحَوَّلَ البُخَلَاءُ إِلَى دُعَاةٍ لِلشُّحِّ، فَأَمَاتُوا رُوحَ البَذْلِ وَحَرَمُوا الفُقَرَاءَ مِنْ حَقِّهِمُ المَعْلُومِ. أَرَى البِئْرَ المُغْلَقَةَ بِالصُّخُورِ الثَّقِيلَةِ فِي وَسَطِ الصَّحْرَاءِ تَحْبِسُ المَاءَ العَذْبَ فِي ظُلْمَتِهَا حَتَّى يَأْسَنَ وَيَفْسُدَ، بَيْنَمَا يَمُوتُ العَطْشَى حَوْلَهَا دُونَ أَنْ يَنْتَفِعُوا بِقَطْرَةٍ. فَمَا أَعْدَلَ أَنْ يُقَابَلَ هَذَا التَّعَالِي وَالبُخْلُ بِعَذَابٍ مُهِينٍ يَكْسِرُ كِبْرِيَاءَ الجَاحِدِينَ الَّذِينَ بَخِلُوا بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَحْرِيرٍ لِنَفْسِي مِنْ قُيُودِ الشُّحِّ وَحَثٍّ دَائِمٍ عَلَى إِظْهَارِ نِعَمِ اللَّهِ بِالعَطَاءِ وَالبَيَانِ. فَكُلُّ نِعْمَةٍ تُكْتَمُ تَتَحَوَّلُ إِلَى حُجَّةٍ عَلَى صَاحِبِهَا، وَلَا عِزَّةَ لِلْمَالِ وَالعِلْمِ إِلَّا حِينَ يَفِيضَانِ بِالكَرَمِ شُكْرًا لِفَضْلِ الوَهَّابِ.

سَرَابُ الرِّيَاءِ وَقَرِينُ الشَّيْطَانِ

صَدَى ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨]

كَشْفٌ دَقِيقٌ لِآفَةِ النِّيَّةِ الفَاسِدَةِ الَّتِي تُحَوِّلُ صُورَةَ البَذْلِ إِلَى رَمَادٍ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا المِيزَانِ البَاطِنِيِّ الَّذِي يَرْفُضُ العَطَاءَ المُلَوَّثَ بِالرِّيَاءِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي بَهْرَجَةُ الأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي تَطْلُبُ ثَنَاءَ البَشَرِ وَشُهْرَةَ المجَالِسِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ الإِنْفَاقَ بِلَا إِيمَانٍ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ هُوَ صُحْبَةٌ مُظْلِمَةٌ مَعَ الشَّيْطَانِ. وَكَمْ ضَاعَتْ أَمْوَالٌ وَجُهُودٌ عَظِيمَةٌ فِي مَيَادِينِ التَّفَاخُرِ وَالسُّمْعَةِ، فَبَقِيَ أَصْحَابُهَا خَاوِيَ الوِفَاضِ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ لِأَنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ قَرِينًا. أَرَى السَّرَابَ اللَّامِعَ فِي الهَجِيرِ يَخْدَعُ النَّاظِرَ مِنْ بَعِيدٍ بِبَرِيقِهِ الكَاذِبِ، فَلَمَّا يَصِلُ إِلَيْهِ الظَّمْآنُ لَا يَجِدُ مَاءً بَلْ يَجِدُ رِمَالًا مُحْرِقَةً وَسُوءَ مَصِيرٍ. فَمَا أَبْشَعَ أَنْ يَكُونَ الشَّيْطَانُ قَرِينًا لِلْإِنْسَانِ يُزَيِّنُ لَهُ الرِّيَاءَ وَيَسُوقُهُ إِلَى الخُسْرَانِ المبِينِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى حَارِسٍ يَقِظٍ يَتَفَقَّدُ خَبَايَا النِّيَّةِ قَبْلَ

كُلِّ عَطَاءٍ لِيُخْلِصَهُ لِوَجْهِ اللَّهِ وَحْدَهُ. فَكُلُّ عَمَلٍ يُرَادُ بِهِ غَيْرُ اللَّهِ هُوَ سَرَابٌ وَقَرِينُ سُوءٍ، وَلَا قَبُولَ لِلْإِنْفَاقِ إِلَّا حِينَ يَنْتَظِمُ مَعَ الإِيمَانِ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ.

تَسَاؤُلُ الحِكْمَةِ عَنْ أَمَانِ الإِيمَانِ

صَدَى ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩]

اسْتِفْهَامٌ لَطِيفٌ يُوقِظُ العُقُولَ الحَائِرَةَ لِتُدْرِكَ أَنَّ طَرِيقَ السَّعَادَةِ وَالإِيمَانِ يَسِيرٌ لَا كُلْفَةَ فِيهِ وَلَا ضَرَرَ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا العِتَابِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَدْعُو القُلُوبَ إِلَى النَّجَاةِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي أَوْهَامُ الخَسَارَةِ الَّتِي يُلْقِيهَا الشَّيْطَانُ فِي رُوعِ البُخَلَاءِ وَالمُعْرِضِينَ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ الإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالإِنْفَاقَ مِنْ رِزْقِهِ هُمَا عَيْنُ الرِّبْحِ وَالطُّمَأْنِينَةِ. وَكَمْ شَقِيَ إِنْسَانٌ بِعِنَادِهِ وَإِعْرَاضِهِ عَنْ نِدَاءِ الفِطْرَةِ، فَضَيَّعَ حَيَاتَهُ فِي القَلَقِ وَالبُخْلِ وَلَوْ آمَنَ وَأَنْفَقَ لَعَاشَ فِي نَعِيمِ القَلْبِ وَبَرَكَةِ الرِّزْقِ. أَرَى الطَّيْرَ الحَبِيسَ فِي قَفَصٍ ضَيِّقٍ يَخَافُ الخُرُوجَ إِلَى الفَضَاءِ الرَّحْبِ، وَلَوْ بَسَطَ جَنَاحَيْهِ فِي سَمَاءِ الحُرِّيَّةِ لَأَدْرَكَ أَنَّ النُّورَ وَالرِّزْقَ كَانَا يَنْتَظِرَانِهِ بِلَا مَشَقَّةٍ. فَمَا أَلْطَفَ أَنْ يُذَكِّرَنَا القُرْآنُ بِأَنَّ المالَ الَّذِي نُنْفِقُهُ هُوَ مِمَّا رَزَقَنَا اللَّهُ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِصِدْقِ الإِيمَانِ وَخَفَايَا البَذْلِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى بَابٍ مَفْتُوحٍ لِلْعَوْدَةِ إِلَى اللَّهِ بِقَلْبٍ مُؤْمِنٍ وَيَدٍ سَخِيَّةٍ. فَكُلُّ إِقْبَالٍ عَلَى الإِيمَانِ وَالعَطَاءِ هُوَ رِبْحٌ خَالِصٌ لِلْعَبْدِ، وَلَا خَسَارَةَ أَبَدًا لِمَنْ آمَنَ بِرَبِّهِ وَأَنْفَقَ مِمَّا رَزَقَهُ العَلِيمُ الخَبِيرُ.

دِقَّةُ المِيزَانِ وَمُضَاعَفَةُ الإِحْسَانِ

صَدَى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]

مِيزَانُ العَدْلِ المطْلَقِ يَمْتَزِجُ بِبَحْرِ الجُودِ الإِلَهِيِّ لِيُطَمْئِنَ كُلَّ نَفْسٍ عَامِلَةٍ أَنَّ سَعْيَهَا مَحْفُوظٌ وَمُضَاعَفٌ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الوَعْدِ الَّذِي يَرْفَعُ قِيمَةَ الذَّرَّةِ الصَّغِيرَةِ إِلَى آيَاتٍ مِنَ الأَجْرِ العَظِيمِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي مَخَاوِفُ ضَيَاعِ الجُهْدِ الخَفِيِّ الَّذِي لَا يَرَاهُ النَّاسُ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَتَعَامَلُ اللَّهُ مَعَ عِبَادِهِ بِالْعَدْلِ التَّامِّ فِي المِيزَانِ وَبِالْكَرَمِ الوَاسِعِ فِي المضَاعَفَةِ. وَكَمْ فَتَرَتْ هِمَمُ العَامِلِينَ حِينَ ظَنُّوا أَنَّ الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ أَوِ الصَّدَقَةَ اليَسِيرَةَ لَا وَزْنَ لَهَا، فَأَهْمَلُوا صَغَائِرَ البِرِّ وَحَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ كُنُوزِ المضَاعَفَةِ. أَرَى البَذْرَةَ الدَّقِيقَةَ تُودَعُ فِي الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ بِإِخْلَاصٍ، فَتُنْبِتُ سَنَابِلَ خَضْرَاءَ تَحْمِلُ مِئَاتِ الحَبَّاتِ المبَارَكَةِ بِفَضْلِ السَّمَاءِ وَغَيْثِهَا. فَمَا أَكْرَمَ الرَّبَّ الَّذِي يُنَزِّهُ نَفْسَهُ عَنْ ظُلْمِ

مِثْقَالِ ذَرَّةٍ، ثُمَّ يُضَاعِفُ الحَسَنَةَ وَيَمْنَحُ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا لَا تُحِيطُ بِهِ العُقُولُ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى شَغَفٍ دَائِمٍ بِالمِسَارَعَةِ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ مَهْمَا صَغُرَ فِي أَعْيُنِ البَشَرِ. فَكُلُّ ذَرَّةِ إِحْسَانٍ تَنْمُو فِي خَزَائِنِ الكَرِيمِ، وَلَا ضَيَاعَ لِعَمَلٍ صَالِحٍ عِنْدَ رَبٍّ يَجْمَعُ بَيْنَ العَدْلِ المطْلَقِ وَالأَجْرِ العَظِيمِ.

سِفْرُ الصَّدَى السَّابِعُ وَالعِشْرُونَ

مَشْهَدُ الشَّهَادَةِ وَهَيْبَةُ الحِسَابِ

صَدَى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]

مَوْقِفٌ مَهِيبٌ تَخْشَعُ لَهُ الأَبْصَارُ وَتَرْتَجِفُ أَمَامَهُ القُلُوبُ حِينَ يُجْمَعُ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ لِفَصْلِ القَضَاءِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ جَلَالِ هَذِهِ الشَّهَادَةِ النَّبَوِيَّةِ العُظْمَى. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي غَفْلَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَشَاغُلُهَا، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَقِفُ كُلُّ نَبِيٍّ شَاهِدًا عَلَى أُمَّتِهِ وَيَأْتِي خَاتَمُ المرْسَلِينَ شَهِيدًا عَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ. وَكَمْ غَفَلَتْ أُمَمٌ عَنْ هَذَا اللِّقَاءِ المحْتُومِ فَاسْتَخَفَّتْ بِرِسَالَاتِ السَّمَاءِ، حَتَّى إِذَا نُصِبَتْ مَوَازِينُ الحَقِّ لَمْ تَجِدْ لَهَا عُذْرًا وَلَا شَفِيعًا. أَرَى السَّمَاءَ الصَّافِيَةَ تَنْشَقُّ عَنْ نُورٍ سَاطِعٍ يَكْشِفُ كُلَّ خَبِيئَةٍ فِي الأَرْضِ، فَلَا يَبْقَى ظِلٌّ يَسْتُرُ مُقَصِّرًا وَلَا عُذْرٌ يُنْجِي مُعْرِضًا. فَمَا أَعْظَمَ مَقَامَ النُّبُوَّةِ الَّذِي يُكَلَّفُ بِالشَّهَادَةِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ العَصِيبِ، وَمَا أَحْوَجَ قُلُوبَنَا لِأَنْ تَسْتَعِدَّ لِشَهَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ بِالطَّاعَةِ وَالِاتِّبَاعِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى يَقَظَةٍ دَائِمَةٍ تُذَكِّرُنِي بِوُقُوفِي بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَحْتَ شَهَادَةِ نَبِيِّهِ الكَرِيمِ. فَكُلُّ عَمَلٍ فِي الدُّنْيَا مَرْصُودٌ لِيَوْمِ الشَّهَادَةِ، وَلَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ إِلَّا بِصِدْقِ الِاتِّبَاعِ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ الشُّهَدَاءُ لِرَبِّ العَالَمِينَ.

حَسْرَةُ العُصَاةِ وَأُمْنِيَةُ الفَنَاءِ

صَدَى ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]

صَرْخَةُ نَدَمٍ تَمْزِقُ أَفْئِدَةَ الجَاحِدِينَ حِينَ يُعَايِنُونَ الحَقِيقَةَ الكُبْرَى وَيَعْجِزُونَ عَنِ الإِنْكَارِ وَالمرَاوَغَةِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الِانْكِسَارِ المذِلِّ لِأَهْلِ الكُفْرِ وَالعِصْيَانِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي أَوْهَامُ الكِبْرِيَاءِ الَّتِي تَدْفَعُ الإِنْسَانَ لِمُعَانَدَةِ الوَحْيِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَتَمَنَّى المتَكَبِّرُونَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ أَنْ يَتَحَوَّلُوا إِلَى تُرَابٍ تَحْتَ الأَقْدَامِ هَرَبًا مِنْ هَوْلِ الحِسَابِ. وَكَمْ جَادَلَ المبْطِلُونَ فِي الدُّنْيَا بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ وَأَخْفَوْا جَرَائِمَهُمْ عَنِ النَّاسِ، فَإِذَا بِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عُرَاةً أَمَامَ عَلَّامِ الغُيُوبِ لَا يَسْتَطِيعُونَ

كِتْمَانَ حَدِيثٍ وَاحِدٍ. أَرَى الجَبَلَ الشَّامِخَ يَتَفَتَّتُ تَحْتَ وَطْأَةِ الزِّلْزَالِ العَنِيفِ فَيَصِيرُ هَبَاءً مَنْثُورًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ، بَعْدَ أَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يُقْهَرُ وَلَا يَزُولُ. فَمَا أَشَدَّ هَذَا المِشْهَدَ الَّذِي تَنْطِقُ فِيهِ الجَوَارِحُ وَتَتَلَاشَى فِيهِ الأَكَاذِيبُ، لِيَتَمَنَّى العَاصِي لَوْ أَنَّ الأَرْضَ انْشَقَّتْ وَابْتَلَعَتْهُ قَبْلَ هَذَا الفَضْحِ العَظِيمِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى صِدْقٍ خَالِصٍ مَعَ اللَّهِ يُطَهِّرُ السَّرِيرَةَ قَبْلَ يَوْمِ كَشْفِ السَّرَائِرِ. فَكُلُّ كِتْمَانٍ لِلْحَقِّ فِي الدُّنْيَا هُوَ فِضِيحَةٌ فِي الآخِرَةِ، وَلَا أَمَانَ لِلْقَلْبِ إِلَّا بِطَاعَةِ الرَّسُولِ وَالِاعْتِرَافِ بِالحَقِّ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ.

قَدَاسَةُ الصَّلَاةِ وَطَهَارَةُ المُنَاجَاةِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣]

تَعْظِيمٌ لِشَعِيرَةِ الصَّلَاةِ وَتَنْزِيهٌ لِمَقَامِ المُنَاجَاةِ عَنْ غَيْبُوبَةِ العَقْلِ وَدَنَسِ الجَسَدِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الأَدَبِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي يُهَيِّئُ العَبْدَ لِلْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكِ المُلُوكِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي صُوَرُ الغَفْلَةِ وَالِاسْتِخْفَافِ بِالْعِبَادَةِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَجْمَعُ الإِسْلَامُ بَيْنَ الحَزْمِ فِي حِفْظِ الوَعْيِ وَالطَّهَارَةِ وَبَيْنَ التَّيْسِيرِ الرَّحِيمِ بِالتَّيَمُّمِ عِنْدَ المَرَضِ وَالسَّفَرِ وَفَقْدِ المَاءِ. وَكَمْ تَاهَتْ أُمَمٌ فِي طُقُوسٍ جَوْفَاءَ يُؤَدِّيهَا أَصْحَابُهَا بِعُقُولٍ غَائِبَةٍ أَوْ أَجْسَادٍ مُلَوَّثَةٍ، أَوْ شَقُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِتَكَلُّفٍ يُبْعِدُهُمْ عَنْ رُوحِ العِبَادَةِ. أَرَى الطَّائِرَ يَغْسِلُ رِيشَهُ فِي النَّبْعِ الصَّافِي قَبْلَ أَنْ يُحَلِّقَ فِي السَّمَاءِ، فَإِذَا عَزَّ عَلَيْهِ المَاءُ مَسَحَ جَنَاحَيْهِ بِتُرَابِ الأَرْضِ الطَّيِّبِ لِيَظَلَّ نَقِيًّا خَفِيفًا. فَمَا أَلْطَفَ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمَيِ اللَّهِ العَفُوِّ الغَفُورِ لِيُطَمْئِنَ المُؤْمِنِينَ أَنَّ رُخْصَةَ التَّيَمُّمِ هِيَ عَفْوٌ وَمَغْفِرَةٌ وَتَيْسِيرٌ مِنَ الخَالِقِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى حُضُورٍ قَلْبِيٍّ وَنَقَاءٍ ظَاهِرِيٍّ كُلَّمَا أَقْبَلْتُ عَلَى الصَّلَاةِ وَاجِدًا لِحَلَاوَةِ المُنَاجَاةِ. فَكُلُّ وُقُوفٍ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ يَسْتَوْجِبُ وَعْيًا وَطُهْرًا، وَلَا مَشَقَّةَ فِي دِينٍ جَعَلَ الأَرْضَ الطَّيِّبَةَ طَهُورًا وَخَتَمَ التَّشْرِيعَ بِالعَفْوِ وَالمَغْفِرَةِ.

صَفْقَةُ الضَّلَالِ وَمَكْرُ المُنْحَرِفِينَ

صَدَى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤]

عَجَبٌ يَمْلَأُ النَّفْسَ مِنْ حَالِ أَقْوَامٍ أُعْطُوا نُورَ العِلْمِ فَبَاعُوهُ بِظُلْمَةِ الضَّلَالِ وَسَعَوْا لِإِضْلَالِ المؤْمِنِينَ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا التَّحْذِيرِ القُرْآنِيِّ مِن انْحِرَافِ عُلَمَاءِ السُّوءِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي خِدْعَةُ الانْبِهَارِ بِالمظَاهِرِ العِلْمِيَّةِ المجَرَّدَةِ عَنِ الإِخْلَاصِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَتَحَوَّلُ النَّصِيبُ مِنَ الكِتَابِ إِلَى حُجَّةٍ عَلَى صَاحِبِهِ حِينَ يَسْتَبْدِلُ الهُدَى بِالهَوَى. وَكَمْ ضَلَّتْ شُعُوبٌ عَنِ الصِّرَاطِ المسْتَقِيمِ حِينَ سَلَّمَتْ عُقُولَهَا لِأَحْبَارٍ وَمُحَرِّفِينَ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ بِأَثْمَانِ الدُّنْيَا البَخْسَةِ وَيُزَيِّنُونَ البَاطِلَ لِلنَّاسِ. أَرَى الدَّلِيلَ الخَائِنَ فِي الصَّحْرَاءِ يَحْمِلُ المِصْبَاحَ بِيَدِهِ ثُمَّ يُطْفِئُهُ عَمْدًا لِيُوقِعَ القَافِلَةَ فِي حُفَرِ الهَلَاكِ وَيَسْتَأْثِرَ بِمَتَاعِهَا. فَمَا أَخْسَرَ تِلْكَ الصَّفْقَةَ الَّتِي يَدْفَعُ فِيهَا الإِنْسَانُ نُورَ الوَحْيِ لِيَشْتَرِيَ بِهِ التِّيهَ وَالضَّيَاعَ، ثُمَّ يَحْسُدُ المهْتَدِينَ فَيَتَمَنَّى لَهُمُ الانْحِرَافَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى يَقَظَةٍ فِكْرِيَّةٍ تَحْمِينِي مِنْ كُلِّ دَعْوَةٍ مُضِلَّةٍ تَتَسَتَّرُ بِالْعِلْمِ وَالمعْرِفَةِ. فَكُلُّ عِلْمٍ لَا يَزِيدُ صَاحِبَهُ هِدَايَةً هُوَ وَبَالٌ عَلَيْهِ، وَلَا نَجَاةَ لِلْمُؤْمِنِ إِلَّا بِالِاعْتِصَامِ بِالوَحْيِ الصَّافِي بَعِيدًا عَنْ مَكْرِ المنْحَرِفِينَ.

عِصْمَةُ الوِلَايَةِ وَنُصْرَةُ الرَّحْمَنِ

صَدَى ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥]

طُمَأْنِينَةٌ تَسْكُبُ البَرْدَ وَالسَّلَامَ فِي قُلُوبِ المؤْمِنِينَ أَمَامَ كَيْدِ الأَعْدَاءِ وَمَكْرِ المتَرَبِّصِينَ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ الكِفَايَةِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي تُغْنِي عَنْ كُلِّ حِصْنٍ بَشَرِيٍّ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي مَخَاوِفُ المؤَامَرَاتِ الخَفِيَّةِ الَّتِي تُحَاكُ فِي الظَّلَامِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ المحِيطَ يَكْشِفُ خَبَايَا الأَعْدَاءِ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ سِهَامُهُمْ إِلَى صَفِّ الإِيمَانِ. وَكَمْ ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُ أَقْوَامٍ حِينَ نَظَرُوا إِلَى كَثْرَةِ خُصُومِهِمْ وَعُدَّتِهِمْ، فَنَسُوا أَنَّ مَنْ كَانَ اللَّهُ وَلِيَّهُ وَنَصِيرَهُ فَلَنْ يُغْلَبَ وَلَنْ يُخْذَلَ. أَرَى الطِّفْلَ الصَّغِيرَ يَسِيرُ فِي الغَابَةِ الموحِشَةِ مُتَمَسِّكًا بِيَدِ أَبِيهِ القَوِيِّ الحَكِيمِ، فَلَا يَخَافُ زَئِيرَ الوُحُوشِ وَلَا ظُلْمَةَ الأَشْجَارِ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَبَاهُ يُبْصِرُ كُلَّ خَطَرٍ وَيَدْفَعُهُ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّكْرَارَ المطَمْئِنَ لِكِفَايَةِ اللَّهِ وَلِيًّا يَتَوَلَّى أَمْرَ عِبَادِهِ وَنَصِيرًا يَدْفَعُ عَنْهُمْ كَيْدَ الأَعْدَاءِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى سَكِينَةٍ رَاسِخَةٍ تَجْعَلُ تَوَكُّلِي عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ فِي كُلِّ مِحْنَةٍ وَخَطْبٍ. فَكُلُّ كَيْدٍ مَهْمَا عَظُمَ يَتَلَاشَى أَمَامَ عِلْمِ اللَّهِ، وَلَا عِزَّةَ وَلَا غَلَبَةَ لِلْمُؤْمِنِ إِلَّا حِينَ يَكْتَفِي بِاللَّهِ وَلِيًّا وَنَصِيرًا.

جَرِيمَةُ التَّحْرِيفِ وَخِيَانَةُ الكَلِمَةِ

صَدَى ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ

وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]

فَضْحٌ لِأَسَالِيبِ التَّلَاعُبِ بِالأَلْفَاظِ وَتَحْرِيفِ الحَقَائِقِ لِلطَّعْنِ فِي الدِّينِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِالنُّبُوَّةِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا البَيَانِ الكَاشِفِ لِسُوءِ الأَدَبِ مَعَ الوَحْيِ وَالرَّسُولِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي حِيَلُ أَهْلِ الزَّيْغِ الَّذِينَ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالكَلِمَاتِ المُتَشَابِهَةِ لِيُخْفُوا حِقْدَهُمْ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ كَانَ الأَدَبُ وَالطَّاعَةُ هُمَا سَبِيلَ الخَيْرِ وَالِاسْتِقَامَةِ لَوْ أَنَّهُمْ عَقَلُوا. وَكَمْ هَلَكَتْ أُمَمٌ حِينَ تَجَرَّأَتْ عَلَى تَبْدِيلِ كَلِمَاتِ اللَّهِ وَالِاسْتِخْفَافِ بِأَوَامِرِهِ، فَاسْتَحَقَّتِ اللَّعْنَةَ وَالطَّرْدَ مِنْ رَحْمَةِ السَّمَاءِ وَقَسَتْ قُلُوبُهَا عَنِ الإِيمَانِ. أَرَى النَّبْعَ الصَّافِيَ يَتَدَفَّقُ بِالمَاءِ العَذْبِ مِنْ قِمَّةِ الجَبَلِ، فَيَأْتِي العَابِثُونَ لِيُلْقُوا فِيهِ الطِّينَ وَيُحَوِّلُوا مَجْرَاهُ عَنْ أَرْضِ الزَّرْعِ لِيَمُوتَ النَّاسُ عَطَشًا. فَمَا أَشْقَى قُلُوبًا تَسْمَعُ نِدَاءَ الحَقِّ فَتَقُولُ عِصْيَانًا بَدَلَ الطَّاعَةِ، فَتُغْلَقُ دُونَهَا أَبْوَابُ الهِدَايَةِ بِسَبَبِ كُفْرِهَا وَعِنَادِهَا! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَعْظِيمٍ مُطْلَقٍ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَتَأَدُّبٍ كَامِلٍ مَعَ رَسُولِهِ فِي القَوْلِ وَالفِعْلِ. فَكُلُّ تَلَاعُبٍ بِالحَقِّ هُوَ طَرْدٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَا خَيْرَ وَلَا اسْتِقَامَةَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا فِي قَوْلِ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا بِقَلْبٍ خَاضِعٍ وَمُحِبٍّ.

إِنْذَارُ المسْخِ وَمُبَادَرَةُ الإِيمَانِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧]

نِدَاءٌ حَاسِمٌ يَضَعُ أَهْلَ الكِتَابِ أَمَامَ فُرْصَةِ الإِيمَانِ الأَخِيرَةِ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ بِهِمُ العَذَابُ المُغَيِّرُ لِلْفِطْرَةِ وَالصُّورَةِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ الرَّهْبَةِ الَّتِي تَهُزُّ الكِيَانَ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي أَوْهَامُ التَّسْوِيفِ وَالتَّأْجِيلِ فِي قَبُولِ الحَقِّ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَأْتِي القُرْآنُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ مِنَ الحَقِّ فَيُقِيمُ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ القَاطِعَةَ الَّتِي لَا تَقْبَلُ العِنَادَ. وَكَمْ أَصَرَّتْ أُمَمٌ عَلَى الجُحُودِ بَعْدَ وُضُوحِ الآيَاتِ، فَحَلَّ بِهَا سَخَطُ اللَّهِ وَعِقَابُهُ كَمَا حَلَّ بِأَصْحَابِ السَّبْتِ الَّذِينَ تَحَايَلُوا عَلَى مَحَارِمِ اللَّهِ فَمُسِخُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ. أَرَى المسَافِرَ يَقِفُ عَلَى حَافَةِ الجُرُفِ الصَّخْرِيِّ وَالسَّيْلُ العَارِمُ يَقْتَرِبُ مِنْهُ بِسُرْعَةٍ، فَيُنَادِيهِ المشْفِقُ لِيَقْفِزَ إِلَى بَرِّ الأَمَانِ قَبْلَ أَنْ يَجْرِفَهُ الطُّوفَانُ الَّذِي لَا يُرَدُّ. فَمَا أَشَدَّ وَقْعَ هَذِهِ الخَاتِمَةِ الَّتِي تُؤَكِّدُ أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ مَفْعُولٌ لَا مَحَالَةَ، فَلَا يَقِفُ أَمَامَ إِرَادَتِهِ عِنَادُ جَاحِدٍ وَلَا مَكْرُ مُعْرِضٍ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى مُبَادَرَةٍ سَرِيعَةٍ لِقَبُولِ كُلِّ حَقٍّ يَصِلُنِي مِنَ السَّمَاءِ دُونَ تَرَدُّدٍ أَوْ

تَأْخِيرٍ. فَكُلُّ إِعْرَاضٍ عَنْ تَصْدِيقِ الوَحْيِ هُوَ تَعَرُّضٌ لِسَخَطِ الجَبَّارِ، وَلَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ إِلَّا بِالِاسْتِجَابَةِ الفَوْرِيَّةِ لِنِدَاءِ الإِيمَانِ قَبْلَ نَفَاذِ أَمْرِ اللَّهِ.

حَدُّ التَّوْحِيدِ الفَاصِلُ بَيْنَ المَغْفِرَةِ وَالهَلَاكِ

صَدَى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]

قَاعِدَةُ الوُجُودِ الكُبْرَى الَّتِي تُحَدِّدُ مَصِيرَ الإِنْسَانِ الأَبَدِيَّ وَتُفَرِّقُ بَيْنَ الذَّنْبِ المَغْفُورِ وَالجَرِيمَةِ الَّتِي لَا تُغْتَفَرُ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الحَسْمِ الإِلَهِيِّ المُطْلَقِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي كُلُّ أَشْكَالِ التَّهَاوُنِ بِمَسْأَلَةِ التَّوْحِيدِ وَالعَقِيدَةِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَتَّسِعُ بَحْرُ المَغْفِرَةِ لِكُلِّ ذَنْبٍ دُونَ الشِّرْكِ، بَيْنَمَا يُغْلَقُ البَابُ تَمَامًا أَمَامَ مَنْ يَجْعَلُ لِلَّهِ نِدًّا وَشَرِيكًا. وَكَمْ ضَلَّتْ بَشَرِيَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الوَثَنِيَّةِ وَالتَّعَلُّقِ بِالمَخْلُوقِينَ، فَافْتَرَتْ عَلَى الخَالِقِ أَعْظَمَ إِثْمٍ وَحَرَمَتْ نَفْسَهَا مِنْ رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ. أَرَى القَصْرَ المَنِيعَ لَهُ مِفْتَاحٌ وَاحِدٌ يَفْتَحُ جَمِيعَ أَبْوَابِهِ وَخَزَائِنِهِ، فَمَنْ كَسَرَ ذَلِكَ المِفْتَاحَ بَقِيَ فِي العَرَاءِ المُظْلِمِ مَحْرُومًا مِنَ الدُّخُولِ مَهْمَا حَمَلَ مِنْ أَمْتِعَةٍ. فَمَا أَعْظَمَ التَّوْحِيدَ الَّذِي يَفْتَحُ لِلْعَبْدِ أَبْوَابَ المَغْفِرَةِ الوَاسِعَةِ، وَمَا أَبْشَعَ الشِّرْكَ الَّذِي يُعَدُّ افْتِرَاءً عَظِيمًا يَهْدِمُ أَصْلَ العُبُودِيَّةِ وَيُغْلِقُ بَابَ النَّجَاةِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى حِرَاسَةٍ دَائِمَةٍ لِقَلْبِي مِنْ كُلِّ شَائِبَةِ شِرْكٍ ظَاهِرٍ أَوْ خَفِيٍّ. فَكُلُّ ذَنْبٍ يُرْجَى غُفْرَانُهُ تَحْتَ مَشِيئَةِ الرَّحْمَنِ، وَلَا خُلُودَ فِي النَّارِ إِلَّا لِمَنِ افْتَرَى إِثْمَ الشِّرْكِ العَظِيمِ وَمَاتَ عَلَيْهِ.

تَهَافُتُ التَّزْكِيَةِ وَعَدَالَةُ المِيزَانِ

صَدَى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]

سُقُوطٌ مُدَوٍّ لِأَوْهَامِ الغُرُورِ الدِّينِيِّ وَالدَّعَاوَى الكَاذِبَةِ الَّتِي يَمْدَحُ بِهَا البَشَرُ أَنْفُسَهُمْ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا التَّصْحِيحِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يَرُدُّ التَّزْكِيَةَ الحَقِيقِيَّةَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي أَصْوَاتُ المُتَبَجِّحِينَ بِأَنْسَابِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ قِيمَةَ الإِنْسَانِ لَا تُقَاسُ بِمَا يَدَّعِيهِ لِسَانُهُ بَلْ بِمَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ مِنْ طَهَارَةِ قَلْبِهِ وَصِدْقِ عَمَلِهِ. وَكَمْ اغْتَرَّتْ طَوَائِفُ وَأَفْرَادٌ بِأَلْقَابِهِمْ وَشِعَارَاتِهِمْ فَعَاشُوا فِي سَكْرَةِ الإِعْجَابِ بِالذَّاتِ، حَتَّى فُوجِئُوا يَوْمَ الحِسَابِ بِإِفْلَاسِهِمُ التَّامِّ. أَرَى العُمْلَةَ الزَّائِفَةَ تَلْمَعُ فِي يَدِ صَاحِبِهَا فَيَمْدَحُ بَرِيقَهَا أَمَامَ النَّاسِ، حَتَّى إِذَا عُرِضَتْ عَلَى مِيزَانِ الصَّرَّافِ الخَبِيرِ انْكَشَفَ زَيْفُهَا وَسَقَطَتْ قِيمَتُهَا. فَمَا أَعْدَلَ اللَّهَ الَّذِي يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ بِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا وَلَوْ

مِقْدَارَ الخَيْطِ الدَّقِيقِ فِي شَقِّ النَّوَاةِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَوَاضُعٍ صَادِقٍ يَكْسِرُ كِبْرِيَاءَ النَّفْسِ وَيَجْعَلُنِي أَسْأَلُ اللهَ التَّزْكِيَةَ وَالقَبُولَ. فَكُلُّ مَدْحٍ لِلنَّفْسِ هُوَ غُرُورٌ وَسَرَابٌ، وَلَا رِفْعَةَ لِلْعَبْدِ إِلَّا حِينَ يُزَكِّيهِ اللهُ بِعَدْلِهِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ فَتِيلًا.

فَضِيحَةُ الِافْتِرَاءِ عَلَى الخَالِقِ

صَدَى ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ٥٠]

دَعْوَةٌ لِلتَّأَمُّلِ العَمِيقِ فِي بَشَاعَةِ الكَذِبِ عَلَى اللهِ وَنِسْبَةِ الأَبَاطِيلِ إِلَى شَرْعِهِ وَوَعْدِهِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الِاسْتِنْكَارِ القُرْآنِيِّ لِجُرْأَةِ المُفْتَرِينَ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي كُلُّ المُبَرِّرَاتِ الوَاهِيَةِ الَّتِي يَسُوقُهَا المُحَرِّفُونَ لِتَمْرِيرِ أَكَاذِيبِهِمْ بِاسْمِ الدِّينِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ الِافْتِرَاءَ عَلَى اللهِ هُوَ قِمَّةُ الجَرَاءَةِ وَسُوءِ الأَدَبِ مَعَ الخَالِقِ. وَكَمْ شُوِّهَتْ حَقَائِقُ وَضُلِّلَتْ أَجْيَالٌ بِسَبَبِ رِوَايَاتٍ مَكْذُوبَةٍ وَدَعَاوَى بَاطِلَةٍ نُسِبَتْ زُورًا إِلَى السَّمَاءِ، فَحَمَلَ أَصْحَابُهَا وِزْرَهُمْ وَأَوْزَارَ مَنْ أَضَلُّوهُمْ. أَرَى السَّحَابَةَ السَّوْدَاءَ تَحْجُبُ ضَوْءَ الشَّمْسِ عَنِ الأَرْضِ فَتُوهِمُ النَّاظِرِينَ أَنَّ النَّهَارَ قَدِ انْقَضَى، وَمَا هِيَ إِلَّا دُخَانٌ كَثِيفٌ يَتَبَدَّدُ أَمَامَ رِيحِ الحَقِيقَةِ. فَمَا أَبْشَعَ هَذَا الذَّنْبَ الَّذِي يَكْفِي وَحْدَهُ لِيَكُونَ إِثْمًا وَاضِحًا مُبِينًا يُوبِقُ صَاحِبَهُ وَيُورِدُهُ مَوَارِدَ الهَلَاكِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَحَرٍّ دَقِيقٍ لِلْحَقِّ وَتَوَرُّعٍ شَدِيدٍ عَنِ القَوْلِ عَلَى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ. فَكُلُّ كَذِبٍ يُنْسَبُ إِلَى اللهِ هُوَ إِثْمٌ مُبِينٌ، وَلَا سَلَامَةَ لِلِّسَانِ وَالقَلْبِ إِلَّا بِالِالْتِزَامِ الصَّادِقِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ.

انْتِكَاسُ الفِطْرَةِ وَالإِيمَانُ بِالطَّاغُوتِ

صَدَى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]

مَشْهَدٌ مُذْهِلٌ لِانْقِلَابِ المَوَازِينِ حِينَ يَنْتَكِسُ أَهْلُ الكِتَابِ فَيُصَدِّقُونَ السِّحْرَ وَالأَوْثَانَ وَيُفَضِّلُونَ الكُفْرَ عَلَى التَّوْحِيدِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا السُّقُوطِ الأَخْلَاقِيِّ وَالعَقَدِيِّ المَرِيعِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي خُيُوطُ النِّفَاقِ الَّذِي يَدْفَعُ أَصْحَابَ الأَهْوَاءِ لِلتَّحَالُفِ مَعَ البَاطِلِ ضِدَّ الحَقِّ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يُعْمِي الحَسَدُ وَالحِقْدُ البَصَائِرَ فَتَرَى الظَّلَامَ أَهْدَى مِنَ النُّورِ. وَكَمْ تَحَالَفَ أَهْلُ الزَّيْغِ فِي كُلِّ زَمَانٍ مَعَ قُوَى الطُّغْيَانِ وَالخُرَافَةِ لِمُحَارَبَةِ دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ الصَّافِيَةِ، فَبَاعُوا دِينَهُمْ وَمَبَادِئَهُمْ فِي سُوقِ العَدَاوَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ. أَرَى العَيْنَ المَرِيضَةَ تَنْفِرُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ السَّاطِعِ وَتَمْدَحُ ظُلْمَةَ الكَهْفِ الرَّطْبِ، لَا لِأَنَّ الكَهْفَ أَجْمَلُ بَلْ لِأَنَّ المَرَضَ أَفْسَدَ رُؤْيَتَهَا وَقَلَبَ حَقَائِقَ الأَشْيَاءِ عِنْدَهَا. فَمَا

أَعْجَبَ هَذَا الانْحِدَارَ الَّذِي يَجْعَلُ حَامِلِي الكِتَابِ يَشْهَدُونَ بِالهِدَايَةِ لِعُبَّادِ الأَصْنَامِ نِكَايَةً فِي أَتْبَاعِ الرَّسُولِ الخَاتَمِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَحْصِينٍ لِبَصِيرَتِي مِنْ كُلِّ حِقْدٍ أَوْ حَسَدٍ قَدْ يَطْمِسُ نُورَ الحَقِّ فِي قَلْبِي. فَكُلُّ مُوَالَاةٍ لِلطَّاغُوتِ هِيَ انْتِكَاسٌ فِي الفِطْرَةِ، وَلَا هِدَايَةَ حَقِيقِيَّةً إِلَّا فِي صَفِّ التَّوْحِيدِ وَالإِيمَانِ الخَالِصِ لِلَّهِ.

وَحْشَةُ اللَّعْنَةِ وَانْعِدَامُ النَّصِيرِ

صَدَى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢]

عَاقِبَةٌ مُظْلِمَةٌ تَحُلُّ بِمَنْ بَاعَ الحَقَّ وَنَاصَرَ الطَّاغُوتَ، فَيُطْرَدُ مِنْ رَحْمَةِ السَّمَاءِ وَيَبْقَى وَحِيدًا بِلَا مُعِينٍ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الحِرْمَانِ الأَبَدِيِّ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي أَوْهَامُ القُوَّةِ الَّتِي يَسْتَمِدُّهَا المُنَافِقُونَ مِنْ تَحَالُفَاتِهِمْ مَعَ أَهْلِ الكُفْرِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ مَنْ طَرَدَهُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ فَلَنْ يَنْفَعَهُ جَمْعُ الأَرْضِ كُلُّهُ. وَكَمْ اسْتَقْوَى ظَالِمُونَ وَمُحَرِّفُونَ بِأَحْلَافٍ بَشَرِيَّةٍ ظَنُّوا أَنَّهَا سَتَحْمِيهِمْ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، فَإِذَا هُمْ يَتَهَاوَوْنَ وَاحِدًا تِلْوَ الآخَرِ دُونَ أَنْ يَجِدُوا نَصِيرًا يَدْفَعُ عَنْهُمُ الهَلَاكَ. أَرَى الوَرَقَةَ اليَابِسَةَ تَنْفَصِلُ عَنْ غُصْنِ الشَّجَرَةِ الحَيَّةِ فَتَتَقَاذَفُهَا الرِّيَاحُ العَاصِفَةُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، فَلَا تَسْتَقِرُّ عَلَى أَرْضٍ وَلَا تَجِدُ غُصْنًا يَحْمِيهَا مِنَ التَّمَزُّقِ. فَمَا أَشْقَى إِنْسَانًا تَخَلَّى عَنْهُ خَالِقُهُ وَلَعَنَهُ بِسَبَبِ جُحُودِهِ وَخِيَانَتِهِ، فَأَصْبَحَ مَخْذُولًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَا نَصِيرَ لَهُ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى خَوْفٍ مُقَدَّسٍ مِنْ أَسْبَابِ الطَّرْدِ وَاللَّعْنَةِ وَتَعَلُّقٍ دَائِمٍ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَنُصْرَتِهِ. فَكُلُّ عِزٍّ بَعِيدًا عَنِ اللَّهِ هُوَ ذُلٌّ وَخِذْلَانٌ، وَلَا نَصِيرَ لِلْعَبْدِ فِي الوجودِ إِلَّا رَبُّ العَالَمِينَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ.

لُؤْمُ الشُّحِّ وَحَسَدُ النُّبُوَّةِ

صَدَى ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]

تَعْرِيَةٌ سَاخِرَةٌ لِضِيقِ نُفُوسِ الحَاسِدِينَ الَّذِينَ يَضِيقُونَ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّهِ وَلَوْ مَلَكُوا خَزَائِنَ الأَرْضِ لَمَا أَعْطَوْا أَحَدًا مِقْدَارَ نُقْرَةٍ فِي ظَهْرِ نَوَاةٍ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا التَّصْوِيرِ الدَّقِيقِ لِجَشَعِ البُخَلَاءِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي أَقْنِعَةُ الحَاسِدِينَ الَّذِينَ يَتَظَاهَرُونَ بِالحِرْصِ عَلَى الخَلْقِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ قُلُوبَهُمُ المظْلِمَةَ مَجْبُولَةٌ عَلَى الشُّحِّ وَالأَنَانِيَّةِ وَالِاسْتِئْثَارِ. وَكَمْ عَانَتِ البَشَرِيَّةُ حِينَ تَسَلَّطَ عَلَيْهَا أَصْحَابُ النُّفُوسِ الضَّيِّقَةِ الَّذِينَ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى نِعَمِ اللَّهِ وَيَمْنَعُونَ عَنْهُمْ أَبْسَطَ الحُقُوقِ وَالمَنَافِعِ. أَرَى الحَجَرَ الصَّلْدَ فِي وَسَطِ النَّهْرِ الجَارِي يَمُرُّ عَلَيْهِ المَاءُ العَذْبُ لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَا يَتَشَرَّبُ مِنْهُ قَطْرَةً وَلَا يُنْبِتُ زَهْرَةً وَاحِدَةً مِنْ شِدَّةِ قَسْوَتِهِ وَجُمُودِهِ. فَمَا أَرْحَمَ اللَّهَ الَّذِي جَعَلَ

خَزَائِنَ المُلْكِ وَالنُّبُوَّةِ بِيَدِهِ الوَاسِعَةِ الكَرِيمَةِ، وَلَمْ يَجْعَلْ لِهَؤُلَاءِ الحَاسِدِينَ فِيهَا نَصِيبًا وَلَا سُلْطَانًا!

هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَطْهِيرٍ لِنَفْسِي مِنَ الشُّحِّ وَالحَسَدِ وَشُكْرٍ لِلَّهِ عَلَى أَنَّ الرِّزْقَ وَالفَضْلَ بِيَدِهِ وَحْدَهُ. فَكُلُّ قَلْبٍ يَسْكُنُهُ الحَسَدُ هُوَ قَلْبٌ ضَيِّقٌ لَا يَعْرِفُ العَطَاءَ، وَلَا رَحْمَةَ لِلْخَلْقِ إِلَّا فِي قُلُوبٍ تَتَخَلَّقُ بِجُودِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ الوَاسِعِ.

فَيْضُ النُّبُوَّةِ وَإِرْثُ الحِكْمَةِ

صَدَى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]

كَشْفٌ لِجَذْوَرِ الحَسَدِ العَمِيقَةِ الَّتِي تَدْفَعُ المُنْحَرِفِينَ لِإِنْكَارِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفَاضَ مِنْ قَبْلُ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالمُلْكَ العَظِيمَ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الِامْتِدَادِ النُّورَانِيِّ لِفَضْلِ السَّمَاءِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي شُبُهَاتُ المعَانِدِينَ الَّذِينَ يَحْتَكِرُونَ فَضْلَ اللَّهِ لِأَنْفُسِهِمْ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَتَوَاصَلُ مَوْكِبُ النُّبُوَّةِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ إِلَى خَاتَمِ الأَنْبِيَاءِ بِعَطَاءٍ إِلَهِيٍّ لَا يَحُدُّهُ عِرْقٌ وَلَا حَسَدٌ. وَكَمْ أَحْرَقَ الحَسَدُ قُلُوبَ أُمَمٍ وَأَفْرَادٍ حِينَ رَأَوْا نِعْمَةَ اللَّهِ تَتَنَزَّلُ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَعَادَوْا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ وَأَنْبِيَاءَهُ بَدَلَ أَنْ يَفْرَحُوا بِفَضْلِ السَّمَاءِ وَيَتَّبِعُوا النُّورَ. أَرَى السَّحَابَ المُثْقَلَ بِالغَيْثِ يُمْطِرُ عَلَى الوَادِي الخَصِيبِ فَيُخْرِجُ الأَزْهَارَ وَالثِّمَارَ، بَيْنَمَا تَغْتَاظُ الصَّخْرَةُ الجَرْدَاءُ مِنَ الخُضْرَةِ الَّتِي حَوْلَهَا دُونَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِالمطَرِ. فَمَا أَعْظَمَ فَضْلَ اللَّهِ الَّذِي يَجْمَعُ لِأَنْبِيَائِهِ بَيْنَ نُورِ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ وَعِزِّ المُلْكِ العَظِيمِ، لِيُقِيمُوا العَدْلَ وَالهِدَايَةَ فِي الأَرْضِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى فَرَحٍ عَارِمٍ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّهِ الكَرِيمِ وَاعْتِزَازٍ بِالِانْتِمَاءِ إِلَى هَذَا المِيرَاثِ الإِبْرَاهِيمِيِّ المُبَارَكِ. فَكُلُّ فَضْلٍ يُؤْتِيهِ اللَّهُ لِعِبَادِهِ هُوَ حِكْمَةٌ وَرَحْمَةٌ، وَلَا يَضِيقُ بِعَطَاءِ الرَّحْمَنِ إِلَّا قَلْبٌ أَفْسَدَهُ الحَسَدُ وَالكِبْرِيَاءُ.

انْقِسَامُ المَوَاقِفِ وَسَعِيرُ الجَحِيمِ

صَدَى ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٥]

افْتِرَاقُ البَشَرِيَّةِ أَمَامَ نُورِ الوَحْيِ إِلَى فَرِيقٍ مُهْتَدٍ وَفَرِيقٍ صَادٍّ مُعَانِدٍ يَنْتَظِرُهُ لَهِيبُ جَهَنَّمَ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الفَرْزِ الحَاسِمِ لِلْمَصَائِرِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي حَيْرَةُ التَّسَاؤُلِ عَنْ تَبَايُنِ النَّاسِ أَمَامَ الحَقِّ الوَاضِحِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ الإِيمَانَ اخْتِيَارٌ يُنِيرُ القَلْبَ وَأَنَّ الصُّدُودَ جَرِيمَةٌ تَسْتَوْجِبُ السَّعِيرَ. وَكَمْ وَقَفَتْ قَوَى البَاطِلِ فِي وَجْهِ دَعَوَاتِ الإِصْلَاحِ وَالهِدَايَةِ تَصُدُّ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَظَنَّتْ أَنَّهَا

قَادِرَةٌ عَلَى إِطْفَاءِ النُّورِ، وَمَا دَرَتْ أَنَّ جَهَنَّمَ تَسْتَعِرُ لِاسْتِقْبَالِ المعْرِضِينَ. أَرَى النَّهْرَ العَذْبَ يَجْرِي بَيْنَ النَّاسِ فَيَشْرَبُ مِنْهُ المؤْمِنُونَ فَيَرْتَوُونَ وَتَحْيَا قُلُوبُهُمْ، بَيْنَمَا يُدِيرُ المتَكَبِّرُونَ ظُهُورَهُمْ لَهُ وَيَبْنُونَ السُّدُودَ لِمَنْعِهِ فَيَمُوتُونَ عَطَشًا فِي الهَجِيرِ. فَمَا أَشَدَّ وَقْعَ هَذِهِ الخَاتِمَةِ الموجِزَةِ الَّتِي تَكْتَفِي بِذِكْرِ جَهَنَّمَ سَعِيرًا لِتَكُونَ أَبْلَغَ زَاجِرٍ لِكُلِّ مَنْ يَصُدُّ عَنْ دِينِ اللَّهِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى ثَبَاتٍ فِي صَفِّ المؤْمِنِينَ المقْبِلِينَ عَلَى نُورِ اللَّهِ وَحَذَرٍ شَدِيدٍ مِنْ أَيِّ صُدُودٍ أَوْ إِعْرَاضٍ. فَكُلُّ مَوْقِفٍ مِنَ الوَحْيِ يُحَدِّدُ مَصِيرَ الإِنْسَانِ، وَلَا عِقَابَ أَشَدَّ عَلَى الصَّادِّينَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ جَهَنَّمَ الَّتِي كَفَى بِهَا سَعِيرًا.

خُلُودُ العَذَابِ وَتَجَدُّدُ الآلَامِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]

صُورَةٌ تَقْشَعِرُّ مِنْهَا الأَبْدَانُ وَتَذُوبُ لَهَا القُلُوبُ مِنْ هَوْلِ العَذَابِ المسْتَمِرِّ لِلْجَاحِدِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الوَعِيدِ الرَّهِيبِ الَّذِي يُذِيبُ كُلَّ قَسْوَةٍ فِي النَّفْسِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي أَوْهَامُ انْقِطَاعِ الأَلَمِ أَوْ نِهَايَةِ العِقَابِ فِي الآخِرَةِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ تَتَجَدَّدُ الجُلُودُ كُلَّمَا نَضِجَتْ لِيَسْتَمِرَّ ذَوْقُ العَذَابِ جَزَاءً وِفَاقًا لِلْكُفْرِ وَالعِنَادِ. وَكَمْ اسْتَهَانَ الكَافِرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَسَخِرُوا مِنْ إِنْذَارِ الرُّسُلِ، فَإِذَا بِهِمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي نَارٍ لَا تَخْمُدُ وَلَا تَفْتُرُ عَنْهُمْ لَحْظَةً وَاحِدَةً. أَرَى المعْدِنَ الصَّلْبَ يُلْقَى فِي الأَتُونِ المشْتَعِلِ فَيَذُوبُ وَيَتَحَوَّلُ، فَكُلَّمَا كَادَ أَنْ يَفْنَى أُعِيدَ تَشْكِيلُهُ لِيُوَاجِهَ لَهِيبَ النَّارِ مِنْ جَدِيدٍ بِلَا تَوَقُّفٍ. فَمَا أَعْظَمَ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمَيِ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ هَذَا العَذَابَ صَادِرٌ عَنْ عِزَّةٍ لَا تُقْهَرُ وَحِكْمَةٍ تَضَعُ العِقَابَ فِي مَوْضِعِهِ العَادِلِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَعْظِيمٍ لِآيَاتِ اللَّهِ وَخَوْفٍ يَدْفَعُنِي لِلِاسْتِجَارَةِ بِرَحْمَتِهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ. فَكُلُّ جُحُودٍ لِآيَاتِ اللَّهِ هُوَ إِصْلَاءٌ لِنَارٍ لَا تَنْطَفِئُ، وَلَا مَلْجَأَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا فِي الإِيمَانِ وَالتَّسْلِيمِ لِعَزِيزٍ حَكِيمٍ.

ظِلَالُ الجَنَّاتِ وَخُلُودُ النَّعِيمِ

صَدَى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]

نَسَمَاتُ الرَّحْمَةِ تَهُبُّ عَلَى القُلُوبِ بَعْدَ لَفَحَاتِ الجَحِيمِ لِتُبَشِّرَ أَهْلَ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ بِالنَّعِيمِ

الأَبَدِيِّ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا المآلِ الكَرِيمِ الَّذِي تَشْتَاقُ إِلَيْهِ الأَرْوَاحُ. انْفَشَعَتْ فِي ذِهْنِي أَتْعَابُ الدُّنْيَا وَمَشَقَّةُ الطَّاعَةِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يُكْرِمُ اللَّهُ المؤْمِنِينَ بِجَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَأَزْوَاجٍ مُطَهَّرَةٍ وَظِلٍّ ظَلِيلٍ لَا حَرَّ فِيهِ وَلَا زَمْهَرِيرَ. وَكَمْ صَبَرَ الصَّالِحُونَ عَلَى هَجِيرِ الابتِلَاءِ وَمَشَقَّةِ الجِهَادِ فِي الدُّنْيَا، فَكَانَ جَزَاؤُهُمُ الخُلُودَ الأَبَدِيَّ فِي ظِلَالِ الرَّحْمَنِ الوَارِفَةِ الَّتِي لَا تَزُولُ. أَرَى المسَافِرَ المرْهَقَ يَخْرُجُ مِنْ لَهِيبِ الصَّحْرَاءِ المحْرِقَةِ لِيَدْخُلَ بُسْتَانًا غَنَّاءَ تَتَدَفَّقُ فِيهِ الجَدَاوِلُ العَذْبَةُ وَتَتَعَانَقُ أَغْصَانُهُ لِتُظِلَّهُ بِسَكِينَةٍ لَا تَنْقَطِعُ. فَمَا أَرْوَعَ هَذَا التَّقَابُلَ القُرْآنِيَّ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ صِدْقِ الإِيمَانِ وَصَلَاحِ العَمَلِ لِيُثْمِرَا خُلُودًا أَبَدِيًّا فِي ظِلٍّ ظَلِيلٍ وَطَهَارَةٍ كَامِلَةٍ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى شَوْقٍ مُحَرِّكٍ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ وَاستِصْغَارٍ لِكُلِّ تَعَبٍ فِي سَبِيلِ الوُصُولِ إِلَى تِلْكَ الظِّلَالِ. فَكُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ يَسْبِقُهُ إِيمَانٌ هُوَ غَرْسٌ فِي الجَنَّةِ، وَلَا رَاحَةَ حَقِيقِيَّةَ لِلْمُؤْمِنِ إِلَّا حِينَ يَدْخُلُ ظِلَّ اللَّهِ الظَّلِيلَ خَالِدًا فِيهِ أَبَدًا.

أَمَانَةُ الحُقُوقِ وَقِسْطُ الحُكْمِ

صَدَى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]

دُسْتُورُ الحَضَارَةِ الإِسْلَامِيَّةِ يَرْتَكِزُ عَلَى دِعَامَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ هُمَا أَدَاءُ الأَمَانَاتِ وَالحُكْمُ بِالعَدْلِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الأَمْرِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يُقِيمُ أَرْكَانَ المجْتَمَعِ الفَاضِلِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي مَعَايِيرُ المحَابَاةِ وَالخِيَانَةِ وَالظُّلْمِ الَّتِي تُدَمِّرُ الأَوْطَانَ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ تَشْمَلُ الأَمَانَةُ كُلَّ حَقٍّ لِلَّهِ وَلِلْعِبَادِ وَيَشْمَلُ العَدْلُ كُلَّ حُكْمٍ بَيْنَ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ. وَكَمْ انْهَارَتْ دُوَلٌ وَسَقَطَتْ أُمَمٌ حِينَ ضُيِّعَتْ فِيهَا الأَمَانَاتُ وَأُسْنِدَتْ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا، وَحَكَمَ فِيهَا القُضَاةُ بِالهَوَى وَالظُّلْمِ بَدَلَ القِسْطِ وَالمِيزَانِ. أَرَى المِيزَانَ الذَّهَبِيَّ الدَّقِيقَ يَقِفُ مُعْتَدِلًا فِي كَفِّ الحَاكِمِ الأَمِينِ فَلَا يَمِيلُ مَعَ ذَهَبِ الغَنِيِّ وَلَا يَظْلِمُ ضَعْفَ الفَقِيرِ، فَيَأْمَنُ الجَمِيعُ تَحْتَ ظِلِّهِ. فَمَا أَبْلَغَ مَدْحَ اللَّهِ لِهَذِهِ الوَصِيَّةِ الجَامِعَةِ وَخَتْمَهَا بِأَنَّهُ سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ الحُكَّامِ بَصِيرٌ بِأَفْعَالِ المؤْتَمَنِينَ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى مِيثَاقِ شَرَفٍ يُلْزِمُنِي بِأَدَاءِ كُلِّ أَمَانَةٍ وَالِالْتِزَامِ بِالعَدْلِ فِي كُلِّ حُكْمٍ وَشَهَادَةٍ. فَكُلُّ أَمَانَةٍ تُؤَدَّى هِيَ حِصْنٌ لِلْمُجْتَمَعِ، وَلَا اسْتِقْرَارَ لِلْأَرْضِ إِلَّا حِينَ يَسُودُ العَدْلُ تَحْتَ رَقَابَةِ السَّمِيعِ البَصِيرِ.

مَرْجِعِيَّةُ الطَّاعَةِ وَمِيزَانُ التَّنَازُعِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ

فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]

مَنْظُومَةُ الانْضِبَاطِ وَالوَحْدَةِ تُحَدِّدُ مَرَاتِبَ الطَّاعَةِ وَتَضَعُ المَرْجِعَ الأَعْلَى لِفَضِّ النِّزَاعَاتِ وَحَسْمِ الخِلَافَاتِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا البِنَاءِ التَّشْرِيعِيِّ المحْكَمِ الَّذِي يَعْصِمُ الأُمَّةَ مِنَ التَّمَزُّقِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي ضَبَابِيَّةُ التَّنَازُعِ الفِكْرِيِّ وَالتَّعَصُّبِ لِلْآرَاءِ البَشَرِيَّةِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ تَكُونُ طَاعَةُ اللَّهِ وَالرَّسُولِ مُطْلَقَةً بَيْنَمَا تَكُونُ طَاعَةُ أُولِي الأَمْرِ تَبَعًا لَهَا وَمُقَيَّدَةً بِطَاعَةِ الخَالِقِ. وَكَمْ تَشَرْذَمَتِ الأُمَّةُ وَانْقَسَمَتْ إِلَى شِيَعٍ وَأَحْزَابٍ حِينَ رَدَّ النَّاسُ خِلَافَاتِهِمْ إِلَى أَهْوَائِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ بَدَلَ أَنْ يَرُدُّوهَا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ. أَرَى السُّفُنَ الكَثِيرَةَ فِي عُرْضِ البَحْرِ تَهْتَدِي جَمِيعُهَا إِلَى نَجْمٍ وَاحِدٍ ثَابِتٍ فِي السَّمَاءِ فَتَسِيرُ فِي اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ وَتَصِلُ إِلَى المِينَاءِ بِسَلَامٍ، وَلَوْ اتَّبَعَتْ كُلُّ سَفِينَةٍ مِصْبَاحًا مُتَحَرِّكًا لَاصْطَدَمَتْ وَغَرِقَتْ. فَمَا أَعْظَمَ رَبْطَ الرَّدِّ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ بِصِدْقِ الإِيمَانِ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الخَيْرُ فِي الحَالِ وَالأَحْسَنُ عَاقِبَةً فِي المآلِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَسْلِيمٍ مُطْلَقٍ لِحُكْمِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عِنْدَ كُلِّ خِلَافٍ يَعْتَرِضُ طَرِيقِي. فَكُلُّ طَاعَةٍ لِمَخْلُوقٍ تَنْضَبِطُ بِطَاعَةِ الخَالِقِ، وَلَا نَجَاةَ مِنَ الفُرْقَةِ إِلَّا بِالرَّدِّ الصَّادِقِ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ابْتِغَاءَ الخَيْرِ وَحُسْنِ التَّأْوِيلِ.

زَيْفُ الدَّعْوَى وَالتَّحَاكُمُ إِلَى الطَّاغُوتِ

صَدَى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]

كَشْفٌ صَارِخٌ لِلتَّنَاقُضِ الفَاضِحِ بَيْنَ دَعْوَى الإِيمَانِ بِاللِّسَانِ وَبَيْنَ الرَّغْبَةِ فِي التَّحَاكُمِ إِلَى شَرَائِعِ الطَّاغُوتِ المنْحَرِفَةِ عَنْ وَحْيِ اللَّهِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا المِعْيَارِ الحَاسِمِ لِحَقِيقَةِ الإِيمَانِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي أَوْهَامُ الفَصْلِ بَيْنَ العَقِيدَةِ وَالتَّشْرِيعِ وَالحُكْمِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ الإِيمَانَ الصَّادِقَ يَقْتَضِي الكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالِاحْتِكَامَ الخَالِصَ إِلَى شَرْعِ السَّمَاءِ. وَكَمْ ادَّعَى مُنَافِقُونَ فِي كُلِّ عَصْرٍ الإِيمَانَ بِالقُرْآنِ وَالكُتُبِ السَّابِقَةِ، ثُمَّ هَرَعُوا عِنْدَ الخُصُومَةِ إِلَى قَوَانِينِ الهَوَى وَالطَّاغُوتِ طَمَعًا فِي حُكْمٍ جَائِرٍ يُوَافِقُ مَصَالِحَهُمْ، فَوَقَعُوا فِي فِخَاخِ الشَّيْطَانِ. أَرَى المرِيضَ يَزْعُمُ الثِّقَةَ بِالطَّبِيبِ الحَاذِقِ وَيَمْدَحُ دَوَاءَهُ الشَّافِيَ، ثُمَّ يَذْهَبُ فِي الخَفَاءِ إِلَى دَجَّالٍ يَسْقِيهِ السُّمَّ النَّاقِعَ فَيَهْلِكُ بِسَبَبِ تَنَاقُضِهِ وَخِدَاعِهِ

لِنَفْسِهِ. فَمَا أَبْلَغَ تَحْذِيرَ القُرْآنِ مِنْ مَكْرِ الشَّيْطَانِ الَّذِي يُزَيِّنُ التَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاغُوتِ لِيُبْعِدَ القُلُوبَ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ ضَلَالًا بَعِيدًا! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَوْحِيدٍ كَامِلٍ لِلْحَاكِمِيَّةِ وَرَفْضٍ قَاطِعٍ لِكُلِّ حُكْمٍ يُخَالِفُ شَرْعَ اللَّهِ. فَكُلُّ إِيمَانٍ لَا يُثْمِرُ تَحَاكُمًا إِلَى الوَحْيِ هُوَ زَعْمٌ بَاطِلٌ، وَلَا نَجَاةَ مِنَ الضَّلَالِ البَعِيدِ إِلَّا بِالكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ وَالتَّسْلِيمِ الكَامِلِ لِحُكْمِ اللَّهِ.

سِفْرُ الصَّدَى الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ

صُدُودُ المُنَافِقِينَ عَنْ حُكْمِ الوَحْيِ

صَدَى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]

انْكِشَافٌ فَاضِحٌ لِسَرِيرَةِ النِّفَاقِ حِينَ يُدْعَى أَصْحَابُهُ إِلَى مَائِدَةِ الوَحْيِ وَحُكْمِ النُّبُوَّةِ فَيُوَلُّونَ الأَدْبَارَ بِاسْتِكْبَارٍ وَنُفُورٍ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا المِحَكِّ العَمَلِيِّ الَّذِي يُعَرِّي زَيْفَ الدَّعَاوَى. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي أَقْنِعَةُ المجَامَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ الَّتِي يَتَسَتَّرُ بِهَا المُنَافِقُونَ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ العَلَامَةَ الفَارِقَةَ لِلنِّفَاقِ هِيَ الصُّدُودُ العَمَلِيُّ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ عِنْدَ الجِدِّ وَالِاحْتِكَامِ. وَكَمْ تَشَدَّقَ مُدَّعُونَ بِمَحَبَّةِ الدِّينِ فِي الرَّخَاءِ، فَلَمَّا دُعُوا إِلَى تَحْكِيمِ الشَّرْعِ فِي خُصُومَاتِهِمْ وَمَصَالِحِهِمُ انْقَلَبُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ وَصَدُّوا صُدُودًا عَنِيفًا. أَرَى الخُفَّاشَ الأَعْمَى يَعِيشُ فِي ظُلْمَةِ الغَارِ الموحِشِ، فَمَا إِنْ يُفْتَحُ لَهُ بَابُ النُّورِ وَيُدْعَى إِلَى الضِّيَاءِ حَتَّى يَفِرَّ مُذْعُورًا إِلَى أَعْمَاقِ الظَّلَامِ. فَمَا أَشَدَّ هَذَا الصُّدُودَ الَّذِي يُكَرِّرُهُ القُرْآنُ لِيُصَوِّرَ شِدَّةَ نُفُورِ المُنَافِقِينَ مِنْ عَدْلِ السَّمَاءِ وَتَمَسُّكِهِمْ بِأَحْكَامِ الطَّاغُوتِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى مِيزَانٍ أَفْحَصُ بِهِ سُرْعَةَ اسْتِجَابَتِي كُلَّمَا دُعِيتُ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ. فَكُلُّ نُفُورٍ مِنْ شَرْعِ اللَّهِ هُوَ شُعْبَةٌ مِنَ النِّفَاقِ، وَلَا صِدْقَ لِلْإِيمَانِ إِلَّا بِالْإِقْبَالِ الخَاضِعِ عَلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ.

حَصَادُ الأَيْدِي وَأَيْمَانُ التَّبْرِيرِ

صَدَى ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢]

مَشْهَدٌ مُخْزٍ لِتَلَوُّنِ المُنَافِقِينَ حِينَ تَحِلُّ بِهِمْ عَاقِبَةُ أَفْعَالِهِمُ السَّيِّئَةِ فَيُبَادِرُونَ إِلَى الأَيْمَانِ الكَاذِبَةِ وَتَزْيِينِ النَّوَايَا الفَاسِدَةِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الكَشْفِ النَّفْسِيِّ الدَّقِيقِ لِأَهْلِ النِّفَاقِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي خِدْعَةُ الشِّعَارَاتِ البَرَّاقَةِ الَّتِي يَرْفَعُهَا المفْسِدُونَ حِينَ يُفْتَضَحُ أَمْرُهُمْ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّهُمْ

يَسْتَخْدِمُونَ اسْمَ اللَّهِ وَدَعْوَى الإِحْسَانِ وَالتَّوْفِيقِ سِتَارًا لِتَبْرِيرِ خِيَانَتِهِمْ وَتَحَاكُمِهِمْ لِلطَّاغُوتِ. وَكَمْ تَسَتَّرَ المُحَرِّفُونَ عَبْرَ التَّارِيخِ بِعِبَارَاتِ الإِصْلَاحِ وَالتَّقْرِيبِ وَالنِّيَّةِ الحَسَنَةِ كُلَّمَا حَاصَرَتْهُمُ المِصَائِبُ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ لِلْوَحْيِ. أَرَى اللِّصَّ الَّذِي أَشْعَلَ النَّارَ فِي البُسْتَانِ فَلَمَّا امْتَدَّتِ النِّيرَانُ إِلَى ثِيَابِهِ أَقْسَمَ أَمَامَ صَاحِبِ الأَرْضِ أَنَّهُ مَا أَرَادَ إِلَّا إِضَاءَةَ الطَّرِيقِ وَتَدْفِئَةَ الأَشْجَارِ. فَمَا أَبْشَعَ الجَرِيمَةَ حِينَ تُغَلَّفُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ بِاللَّهِ وَادِّعَاءِ الإِحْسَانِ، بَدَلَ التَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ وَالِاعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى حَذَرٍ شَدِيدٍ مِنْ تَبْرِيرِ الأَخْطَاءِ بِالنَّوَايَا الحَسَنَةِ أَوِ الِاسْتِهَانَةِ بِالحَلِفِ بِاللَّهِ. فَكُلُّ مُصِيبَةٍ تَحِلُّ بِالعَبْدِ هِيَ أَثَرٌ لِمَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ، وَلَا مَخْرَجَ مِنَ المِحَنِ إِلَّا بِالِاعْتِرَافِ الصَّادِقِ لَا بِأَيْمَانِ التَّبْرِيرِ الكَاذِبَةِ.

بَصِيرَةُ الوَحْيِ وَحِكْمَةُ المَوْعِظَةِ

صَدَى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]

إِحَاطَةٌ إِلَهِيَّةٌ تَكْشِفُ خَبَايَا الصُّدُورِ وَتَرْسُمُ لِلنَّبِيِّ مَنْهَجَ التَّعَامُلِ الحَكِيمِ مَعَ المُنَافِقِينَ بَيْنَ الإِعْرَاضِ عَنْ أَعْذَارِهِمْ وَالمَوْعِظَةِ البَلِيغَةِ الَّتِي تَهُزُّ أَعْمَاقَهُمْ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا السُّمُوِّ التَّرْبَوِيِّ.

تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي مَخَاوِفُ انْخِدَاعِ أَهْلِ الحَقِّ بِأَيْمَانِ المُبْطِلِينَ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ بِمَا فِي القُلُوبِ يَفْضَحُ السَّرَائِرَ، وَمَعَ ذَلِكَ يَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ النَّجَاةِ بِالكَلِمَةِ البَلِيغَةِ النَّافِذَةِ إِلَى الأَنْفُسِ. وَكَمْ فَقَدَ الدُّعَاةُ تَأْثِيرَهُمْ حِينَ انْشَغَلُوا بِمُجَادَلَةِ المُنَافِقِينَ فِي تَبْرِيرَاتِهِمُ السَّطْحِيَّةِ وَتَرَكُوا المَوْعِظَةَ الصَّادِقَةَ الَّتِي تُوقِظُ الضَّمَائِرَ المَيِّتَةَ. أَرَى الطَّبِيبَ الحَاذِقَ يَعْرِفُ مَوْضِعَ الدَّاءِ الخَفِيِّ فِي الجَسَدِ، فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى شَكْوَى المَرِيضِ الكَاذِبَةِ بَلْ يَضَعُ الدَّوَاءَ المُرَّ المُبَاشِرَ عَلَى الجُرْحِ لِيَسْتَأْصِلَ الفَسَادَ. فَمَا أَرْحَمَ هَذَا المَنْهَجَ الَّذِي يُعْرِضُ عَنِ العُذْرِ الكَاذِبِ وَلَا يَيْأَسُ مِنْ هِدَايَةِ القَلْبِ فَيُخَاطِبُهُ بِقَوْلٍ بَلِيغٍ يَصِلُ إِلَى أَعْمَاقِ النَّفْسِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى مُرَاقَبَةٍ دَائِمَةٍ لِقَلْبِي الَّذِي يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِيهِ، وَإِلَى حِكْمَةٍ فِي النُّصْحِ تَخْتَرِقُ حُجُبَ الغَفْلَةِ. فَكُلُّ خَبِيئَةٍ فِي الصَّدْرِ مَكْشُوفَةٌ أَمَامَ عَلَّامِ الغُيُوبِ، وَلَا دَوَاءَ لِأَمْرَاضِ القُلُوبِ إِلَّا المَوْعِظَةُ الصَّادِقَةُ وَالقَوْلُ البَلِيغُ.

مِحْوَرِيَّةُ الطَّاعَةِ وَبَوَّابَةُ الاسْتِغْفَارِ

صَدَى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]

تَقْرِيرٌ قَاطِعٌ لِغَايَةِ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي لَمْ تُبْعَثْ لِلتَّبَرُّكِ أَوِ الجِدَالِ بَلْ لِلطَّاعَةِ المطْلَقَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ، مَعَ فَتْحِ بَابِ التَّوْبَةِ الوَاسِعِ لِلْمُقَصِّرِينَ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الجَمْعِ بَيْنَ الهَيْبَةِ وَالرَّحْمَةِ.

انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي أَوْهَامُ التَّدَيُّنِ الشَّكْلِيِّ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ محَبَّةِ الرَّسُولِ وَطَاعَةِ أَمْرِهِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ ظُلْمَ النَّفْسِ بِالمعْصِيَةِ لَا يُعَالَجُ بِالِاسْتِكْبَارِ بَلْ بِالِاعْتِرَافِ وَالِاسْتِغْفَارِ الصَّادِقِ. وَكَمْ هَلَكَتْ نُفُوسٌ حِينَ أَصَرَّتْ عَلَى ذُنُوبِهَا وَأَنِفَتْ مِنَ العَوْدَةِ إِلَى مَنْهَجِ النُّبُوَّةِ وَطَلَبِ المغْفِرَةِ، فَحَرَمَتْ نَفْسَهَا مِنْ تَوْبَةِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَرَى الجُنْدِيَّ المقَصِّرَ يَعُودُ إِلَى قَائِدِهِ مُعْتَرِفًا بِزَلَّتِهِ خَاضِعًا لِأَمْرِهِ، فَيَشْفَعُ لَهُ القَائِدُ عِنْدَ المِلِكِ الكَرِيمِ فَيَجِدُ صَفْحًا جَمِيلًا وَعَطَاءً لَا يَنْقَطِعُ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الفَضْلَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَجْعَلُ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ مِفْتَاحًا لِوِجْدَانِ اللَّهِ تَوَّابًا رَحِيمًا يَمْحُو الزَّلَّاتِ وَيُبَدِّلُ السَّيِّئَاتِ حَسَنَاتٍ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى طَاعَةٍ خَالِصَةٍ لِسُنَّةِ الرَّسُولِ وَإِلَى مُسَارَعَةٍ دَائِمَةٍ لِلِاسْتِغْفَارِ كُلَّمَا ظَلَمْتُ نَفْسِي بِتَقْصِيرٍ. فَكُلُّ رِسَالَةٍ سَمَاوِيَّةٍ هِيَ مِيثَاقٌ لِلطَّاعَةِ وَالِاتِّبَاعِ، وَلَا مَلْجَأَ لِلْمُذْنِبِينَ إِلَّا فِي رِحَابِ التَّوَّابِ الرَّحِيمِ.

مِيزَانُ الإِيمَانِ وَتَمَامُ التَّسْلِيمِ

صَدَى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]

قَسَمٌ إِلَهِيٌّ مُؤَكَّدٌ يَنْفِي أَصْلَ الإِيمَانِ عَمَّنْ لَمْ يَجْعَلْ حُكْمَ الرَّسُولِ هُوَ الفَيْصَلَ فِي كُلِّ خِلَافٍ، مَعَ انْشِرَاحِ الصَّدْرِ وَالتَّسْلِيمِ الكَامِلِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ الذُّرْوَةِ السَّامِيَةِ لِلْعُبُودِيَّةِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي كُلُّ مَسَاحَاتِ التَّرَدُّدِ أَوِ الِاعْتِرَاضِ الخَفِيِّ عَلَى أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ الإِيمَانَ الحَقَّ يَمُرُّ بِمَرَاحِلَ ثَلَاثٍ: التَّحْكِيمِ الظَّاهِرِيِّ، وَزَوَالِ الحَرَجِ القَلْبِيِّ، وَالتَّسْلِيمِ المطْلَقِ الَّذِي لَا يُبْقِي أَثَرًا لِلْهَوَى. وَكَمْ ادَّعَى أُنَاسٌ الإِيمَانَ ثُمَّ ضَاقَتْ صُدُورُهُمْ بِأَحْكَامِ الدِّينِ حِينَ خَالَفَتْ رَغَبَاتِهِمْ وَمَصَالِحَهُمْ، فَبَقُوا فِي دَائِرَةِ الشَّكِّ وَالحَرَجِ بَعِيدِينَ عَنْ حَقِيقَةِ اليَقِينِ. أَرَى السَّفِينَةَ تَخْفِضُ شِرَاعَهَا كُلِّيًّا لِلرِّيحِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي يُوَجِّهُهَا الرُّبَّانُ الحَكِيمُ، فَتَنْسَابُ فَوْقَ الأَمْوَاجِ بِسَلَاسَةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ دُونَ مُقَاوَمَةٍ تُحَطِّمُ أَلْوَاحَهَا. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا القَسَمَ بِرَبِّ النَّبِيِّ الَّذِي يَجْعَلُ التَّسْلِيمَ القَلْبِيَّ وَالعَمَلِيَّ شَرْطًا لَا يَتَجَزَّأُ لِصِحَّةِ الإِيمَانِ وَنَجَاةِ الإِنْسَانِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى رِضًا كَامِلٍ وَانْشِرَاحِ صَدْرٍ لِكُلِّ حُكْمٍ جَاءَ بِهِ الوَحْيُ وَلَوْ خَالَفَ هَوَى النَّفْسِ. فَكُلُّ حَرَجٍ فِي الصَّدْرِ مِنْ قَضَاءِ الرَّسُولِ هُوَ نَقْصٌ فِي الإِيمَانِ، وَلَا طُمَأْنِينَةَ لِلْقَلْبِ إِلَّا حِينَ يُسَلِّمُ لِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ تَسْلِيمًا.

يُسْرُ التَّكْلِيفِ وَثَمَرَةُ الِاسْتِجَابَةِ

صَدَى ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]

مُقَارَنَةٌ حَكِيمَةٌ تُظْهِرُ رَحْمَةَ اللَّهِ فِي تَخْفِيفِ التَّكَالِيفِ عَنِ العِبَادِ، وَتَكْشِفُ أَنَّ السِّرَّ فِي ثَبَاتِ القَلْبِ وَخَيْرِيَّتِهِ يَكْمُنُ فِي العَمَلِ بِالمَوَاعِظِ القُرْآنِيَّةِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا اللُّطْفِ الإِلَهِيِّ.

انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي أَوْهَامُ اسْتِثْقَالِ الطَّاعَاتِ اليَسِيرَةِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُكَلِّفْنَا بِقَتْلِ الأَنْفُسِ أَوِ الخُرُوجِ مِنَ الدِّيَارِ كَمَا كَلَّفَ بَعْضَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ، بَلْ أَمَرَنَا بِمَا فِيهِ حَيَاتُنَا وَسَعَادَتُنَا. وَكَمْ تَزَلْزَلَتْ أَقْدَامٌ وَاضْطَرَبَتْ قُلُوبٌ حِينَ أَهْمَلَتِ العَمَلَ بِالعِلْمِ وَالمَوْعِظَةِ، فَفَقَدَتْ نُورَ الثَّبَاتِ وَسَقَطَتْ عِنْدَ أَوَّلِ فِتْنَةٍ وَابْتِلَاءٍ. أَرَى الشَّجَرَةَ الَّتِي تَشْرَبُ المَاءَ العَذْبَ بِانْتِظَامٍ تَمْتَدُّ جُذُورُهَا فِي أَعْمَاقِ الأَرْضِ فَتَصْمُدُ أَمَامَ الأَعَاصِيرِ، بَيْنَمَا تَقْتَلِعُ الرِّيَاحُ الشَّجَرَةَ الَّتِي أَعْرَضَتْ عَنِ المَاءِ وَجَفَّتْ عُرُوقُهَا. فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ القَاعِدَةَ الرَّبَّانِيَّةَ الَّتِي تَرْبِطُ بَيْنَ العَمَلِ بِالمَوْعِظَةِ وَبَيْنَ نَيْلِ الخَيْرِيَّةِ وَأَشَدِّ التَّثْبِيتِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى حِرْصٍ عَمَلِيٍّ عَلَى تَطْبِيقِ كُلِّ مَوْعِظَةٍ أَسْمَعُهَا طَلَبًا لِلْخَيْرِ وَالثَّبَاتِ. فَكُلُّ عَمَلٍ بِالوَحْيِ هُوَ جِذْرٌ لِلثَّبَاتِ فِي القَلْبِ، وَلَا رُسُوخَ لِلْإِيمَانِ إِلَّا حِينَ يَتَحَوَّلُ العِلْمُ إِلَى طَاعَةٍ وَاسْتِجَابَةٍ.

الأَجْرُ العَظِيمُ وَالصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ

صَدَى ﴿وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٧-٦٨]

تَتَابُعٌ نُورَانِيٌّ لِثَمَرَاتِ الطَّاعَةِ وَالِاسْتِجَابَةِ، حَيْثُ يُفِيضُ اللَّهُ عَلَى المُسْتَجِيبِينَ أَجْرًا عَظِيمًا مِنْ خَزَائِنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الكَرَمِ المُتَّصِلِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي مَخَاوِفُ الضَّيَاعِ فِي مَتَاهَاتِ الحَيَاةِ وَظُلُمَاتِ الفِتَنِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ الطَّاعَةَ الصَّادِقَةَ تَسْتَجْلِبُ مَعُونَةَ الهِدَايَةِ المُسْتَمِرَّةِ وَالأَجْرَ العَظِيمَ مِنَ الرَّحْمَنِ. وَكَمْ تَاهَ أُنَاسٌ عَنِ الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ لِأَنَّهُمْ أَغْلَقُوا بَابَ الِاسْتِجَابَةِ الأُولَى، فَحُرِمُوا مِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ وَهِدَايَتِهِ لِمَا بَعْدَهَا مِنَ الخَيْرَاتِ. أَرَى السَّائِرَ فِي اللَّيْلِ يُشْعِلُ شَمْعَةَ الطَّاعَةِ الصَّغِيرَةِ فَيُكْرِمُهُ المَلِكُ الكَرِيمُ بِإِشْرَاقِ الشَّمْسِ السَّاطِعَةِ الَّتِي تُنِيرُ لَهُ الطَّرِيقَ المُسْتَقِيمَ حَتَّى يَصِلَ إِلَى قَصْرِ السَّعَادَةِ. فَمَا أَكْرَمَ الرَّبَّ الَّذِي يُكَافِئُ العَمَلَ بِالمَوْعِظَةِ بِجَائِزَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ: أَجْرٍ عَظِيمٍ يَسُرُّ القَلْبَ، وَهِدَايَةٍ لِلصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ تَعْصِمُ مِنَ

الزَّلَلِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَتَانِ فِي أَعْمَاقِي إِلَى يَقِينٍ بِأَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ نَحْوَ اللَّهِ تُفْتَحُ بِهَا أَبْوَابُ الهِدَايَةِ وَالعَطَاءِ العَظِيمِ. فَكُلُّ طَاعَةٍ هِيَ مِفْتَاحٌ لِهِدَايَةٍ جَدِيدَةٍ، وَلَا سَعَادَةَ لِلْعَبْدِ إِلَّا بِالْفَوْزِ بِالأَجْرِ العَظِيمِ وَالثَّبَاتِ عَلَى الصِّرَاطِ المسْتَقِيمِ.

مَوْكِبُ النُّورِ وَأُنْسُ الصُّحْبَةِ

صَدَى ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]

قِمَّةُ الأَمَانِي وَأَسْمَى المرَاتِبِ حِينَ تَرْتَفِعُ الطَّاعَةُ بِالعَبْدِ لِيَكُونَ رَفِيقًا لِصَفْوَةِ الخَلْقِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الشَّرَفِ الَّذِي تَذُوبُ أَمَامَهُ كُلُّ مَنَاصِبِ الدُّنْيَا. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي وَحْشَةُ الغُرْبَةِ الَّتِي قَدْ يَشْعُرُ بِهَا المؤْمِنُ فِي زَمَنِ الفِتَنِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ طَاعَةَ اللَّهِ وَالرَّسُولِ تَضُمُّهُ إِلَى أَعْظَمِ مَوْكِبٍ نُورَانِيٍّ عَرَفَتْهُ البَشَرِيَّةُ. وَكَمْ تَعَلَّقَ الغَافِلُونَ بِصُحْبَةِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالمتْرَفِينَ فَانْتَهَتْ رِفْقَتُهُمْ بِالعَدَاوَةِ وَالحَسْرَةِ، بَيْنَمَا ظَفِرَ المطِيعُونَ بِرِفْقَةِ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. أَرَى النَّجْمَ الصَّغِيرَ يَسِيرُ فِي مَدَارِ الطَّاعَةِ فَيَنْتَظِمُ فِي عِقْدِ المجَرَّةِ المضِيئَةِ بِجِوَارِ الشُّمُوسِ العِظَامِ وَالكَوَاكِبِ الدُّرِّيَّةِ، فَيَكْتَسِبُ مِنْ بَهَائِهَا وَنُورِهَا. فَمَا أَجْمَلَ هَذَا الثَّنَاءَ الإِلَهِيَّ عَلَى تِلْكَ الصُّحْبَةِ المبَارَكَةِ بِقَوْلِهِ: وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، لِتَطْمَئِنَّ النُّفُوسُ التَّوَّاقَةُ لِلْكَمَالِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى شَوْقٍ جَارِفٍ لِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ طَمَعًا فِي رِفْقَةِ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي دَارِ الخُلُودِ. فَكُلُّ طَاعَةٍ صَادِقَةٍ هِيَ تَذْكِرَةٌ لِمُرَافَقَةِ الصَّفْوَةِ المخْتَارَةِ، وَلَا أُنْسَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ رُفَقَاءَ الدَّرْبِ وَالمصِيرِ.

فَضْلُ الوَهَّابِ وَإِحَاطَةُ العَلِيمِ

صَدَى ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٧٠]

تَنْزِيهٌ لِلْعَبْدِ عَنِ الإِعْجَابِ بِعَمَلِهِ وَرَدٌّ لِكُلِّ رِفْعَةٍ وَكَرَامَةٍ إِلَى فَضْلِ اللَّهِ الوَاسِعِ وَعِلْمِهِ المحِيطِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الأَدَبِ الإِيمَانِيِّ الرَّفِيعِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي أَوْهَامُ اسْتِحْقَاقِ الجَنَّةِ بِمُجَرَّدِ الجُهْدِ البَشَرِيِّ القَاصِرِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ التَّوْفِيقَ لِلطَّاعَةِ وَنَيْلَ رِفْقَةِ الأَنْبِيَاءِ هُمَا مَحْضُ فَضْلٍ وَجُودٍ مِنَ اللَّهِ الكَرِيمِ. وَكَمْ اغْتَرَّ عَابِدُونَ بِأَعْمَالِهِمْ فَنَسُوا مِنَّةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ بِالعُجْبِ وَالكِبْرِيَاءِ، بَيْنَمَا انْكَسَرَ العَارِفُونَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِمْ مُعْتَرِفِينَ بِأَنَّ كُلَّ خَيْرٍ هُوَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ. أَرَى البَذْرَةَ الَّتِي أَثْمَرَتْ فِي الحَقْلِ تَشْكُرُ السَّمَاءَ الَّتِي أَنْزَلَتِ الغَيْثَ وَأَشْرَقَتْ عَلَيْهَا الشَّمْسَ، لِأَنَّهَا تَعْلَمُ

أَنَّهَا لَوْلَا فَضْلُ السَّمَاءِ لَبَقِيَتْ حَبَّةً جَافَّةً فِي التُّرَابِ. فَمَا أَعْظَمَ خِتَامَ الآيَةِ بِكِفَايَةِ عِلْمِ اللَّهِ الَّذِي يَعْلَمُ مَنْ يَسْتَحِقُّ هَذَا الفَضْلَ لِصِدْقِ قَلْبِهِ وَإِخْلَاصِ طَاعَتِهِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى شُكْرٍ دَائِمٍ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ طَاعَةٍ وَفَّقَنِي إِلَيْهَا وَتَبَرُّؤٍ مِنْ حَوْلِي وَقُوَّتِي. فَكُلُّ نِعْمَةٍ وَرِفْعَةٍ هِيَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ، وَلَا يَخْفَى صِدْقُ المُخْلِصِينَ عَلَى رَبٍّ كَفَى بِهِ عَلِيمًا.

يَقَظَةُ الحَذَرِ وَانْضِبَاطُ الصَّفِّ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]

نِدَاءُ القِيَادَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يَجْمَعُ بَيْنَ اليَقَظَةِ الأَمْنِيَّةِ وَالحَذَرِ الوَاعِي وَبَيْنَ التَّحَرُّكِ المَنْظَّمِ لِحِمَايَةِ العَقِيدَةِ وَالأُمَّةِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا التَّوَازُنِ بَيْنَ التَّوَكُّلِ وَالأَخْذِ بِالأَسْبَابِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي مَفَاهِيمُ التَّوَاكُلِ السَّلْبِيِّ وَالعَشْوَائِيَّةِ فِي مُوَاجَهَةِ التَّحَدِّيَاتِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ الإِيمَانَ يَصْنَعُ مُجْتَمَعًا يَقِظًا يَأْخُذُ حِذْرَهُ وَيَنْفِرُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَةً أَوْ جَيْشًا وَاحِدًا حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الحِكْمَةُ. وَكَمْ دُهِمَتْ أُمَمٌ فِي عُقْرِ دَارِهَا حِينَ أَلْقَتْ سِلَاحَ الحَذَرِ وَاسْتَسْلَمَتْ لِلْغَفْلَةِ وَالفَوْضَى، فَسَهُلَ عَلَى أَعْدَائِهَا اخْتِرَاقُ صُفُوفِهَا وَنَهْبُ خَيْرَاتِهَا. أَرَى الحَارِسَ الأَمِينَ عَلَى أَسْوَارِ المَدِينَةِ يُبْقِي عَيْنَيْهِ مَفْتُوحَتَيْنِ فِي اللَّيْلِ وَيُنَظِّمُ الجُنُودَ فِي مَوَاقِعِهِمْ بِدِقَّةٍ، فَتَنَامُ المَدِينَةُ فِي أَمَانٍ وَيَرْتَدِعُ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ عَنِ الِاقْتِرَابِ. فَمَا أَحْكَمَ هَذَا التَّوْجِيهَ الَّذِي يُعَلِّمُ المُؤْمِنِينَ أَنَّ أَخْذَ الحِذْرِ وَالنَّفِيرَ المَنْظَّمَ هُمَا سِيَاجُ الحَقِّ الَّذِي يَحْمِيهِ مِنْ غَدْرِ الأَعْدَاءِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى يَقَظَةٍ دَائِمَةٍ وَانْضِبَاطٍ فِي أَدَاءِ الوَاجِبَاتِ دُونَ غَفْلَةٍ أَوْ تَهَوُّرٍ. فَكُلُّ حَقٍّ لَا تَحْمِيهِ اليَقَظَةُ وَالحِذْرُ هُوَ عُرْضَةٌ لِلضَّيَاعِ، وَلَا نَصْرَ لِأُمَّةٍ إِلَّا حِينَ تَنْفِرُ بِوَعْيٍ وَنِظَامٍ ثُبَاتٍ أَوْ جَمِيعًا.

تَخَاذُلُ المُبَطِّئِينَ وَانْكِشَافُ السَّرَائِرِ

صَدَى ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٢]

كَشْفٌ لِطَبِيعَةِ المُنَافِقِينَ المُثَبِّطِينَ الَّذِينَ يَتَثَاقَلُونَ عَنِ النُّصْرَةِ وَيُثَبِّطُونَ الهِمَمَ، ثُمَّ يَفْرَحُونَ بِسَلَامَتِهِمُ الأَنَانِيَّةِ عِنْدَ ابْتِلَاءِ المُؤْمِنِينَ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا التَّعْرِيَةِ النَّفْسِيَّةِ لِأَهْلِ الخِذْلَانِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي أَعْذَارُ المُتَخَاذِلِينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ الحِكْمَةَ وَالحِرْصَ عِنْدَ القُعُودِ عَنِ الوَاجِبِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ البُعْدَ عَنْ مَوَاطِنِ التَّضْحِيَةِ نِعْمَةً وَمَكْسَبًا حِينَ يُصَابُ الصَّادِقُونَ بِقَرْحٍ. وَكَمْ أَضَرَّ المُبَطِّئُونَ بِصُفُوفِ الإِصْلَاحِ وَالجِهَادِ حِينَ بَثُّوا الرَّجْفَةَ وَالتَّرَدُّدَ فِي القُلُوبِ، ثُمَّ شَمِتُوا بِالمُجَاهِدِينَ

عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَحَمِدُوا اللَّهَ عَلَى قُعُودِهِمُ المخْزِي. أَرَى الجَبَانَ يَخْتَبِئُ فِي جُحْرِهِ أَثْنَاءَ العَاصِفَةِ بَيْنَمَا يَخْرُجُ الرِّجَالُ لِإِنْقَاذِ الغَرْقَى، فَلَمَّا يُصَابُ أَحَدُ المنْقِذِينَ بِجُرْحٍ يَفْرَحُ الجَبَانُ بِأَنَّهُ بَقِيَ آمِنًا فِي جُحْرِهِ المعْزُولِ. فَمَا أَحْقَرَ هَذِهِ النَّظْرَةَ الأَنَانِيَّةَ الَّتِي تَرَى فِي القُعُودِ عَنْ نُصْرَةِ الحَقِّ نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ، وَتَجْهَلُ أَنَّ مَقَامَ الشَّهَادَةِ وَالبَذْلِ هُوَ الشَّرَفُ الأَعْظَمُ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَحْصِينٍ لِنَفْسِي مِنْ دَاءِ التَّبْطِيءِ وَالتَّخَاذُلِ وَمُبَادَرَةٍ صَادِقَةٍ لِمُشَارَكَةِ المؤْمِنِينَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ. فَكُلُّ قُعُودٍ عَنْ نُصْرَةِ الحَقِّ هُوَ خِذْلَانٌ وَحِرْمَانٌ، وَلَا شَرَفَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا حِينَ يَكُونُ حَاضِرًا مَعَ الصَّادِقِينَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ.

حَسْرَةُ المتَخَلِّفِينَ عِنْدَ الفَوْزِ العَظِيمِ

صَدَى ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٣]

تَقَلُّبٌ عَجِيبٌ يَفْضَحُ نَفْعِيَّةَ المنَافِقِينَ الَّذِينَ لَا يَرْبِطُهُمْ بِالمؤْمِنِينَ إِيمَانٌ وَلَا مَوَدَّةٌ بَلْ طَمَعٌ فِي المغَانِمِ وَالمكَاسِبِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا التَّصْوِيرِ الدَّقِيقِ لِهَشَاشَةِ القُلُوبِ المرِيضَةِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي أَقْنِعَةُ الصَّدَاقَةِ الكَاذِبَةِ الَّتِي يَرْتَدِيهَا أَصْحَابُ المصَالِحِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّهُمْ عِنْدَ النَّصْرِ وَالفَضْلِ يَتَحَسَّرُونَ عَلَى فَوَاتِ الغَنِيمَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ لَا عَلَى فَوَاتِ أَجْرِ الطَّاعَةِ وَالشَّهَادَةِ. وَكَمْ رَأَيْنَا مُتَلَوِّنِينَ يَنْفُضُونَ أَيْدِيَهُمْ مِنَ المؤْمِنِينَ وَقْتَ المِحْنَةِ، فَإِذَا لَاحَتْ بَشَائِرُ النَّصْرِ وَالعَطَاءِ تَزَاحَمُوا عَلَى الصُّفُوفِ الأُولَى مُتَحَسِّرِينَ عَلَى غِيَابِهِمْ بِلَا حَيَاءٍ وَلَا مَوَدَّةٍ. أَرَى الطَّيْرَ الجَارِحَ يَحُومُ بَعِيدًا أَثْنَاءَ الصَّيْدِ الشَّاقِّ، فَمَا إِنْ يَسْقُطُ الصَّيْدُ فِي يَدِ الصَّيَّادِينَ حَتَّى يَنْقَضَّ مُتَلَهِّفًا لِيَنَالَ نَصِيبَهُ دُونَ أَنْ يُشَارِكَ فِي التَّعَبِ أَوِ الخَطَرِ. فَمَا أَبْلَغَ قَوْلَهُ تَعَالَى: كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ، لِيُبَيِّنَ أَنَّ النِّفَاقَ يَقْطَعُ أَوَاصِرَ المحَبَّةِ الإِيمَانِيَّةِ وَيَجْعَلُ الإِنْسَانَ عَبْدًا لِلْمَصَالِحِ الزَّائِلَةِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَجْرِيدٍ لِلْمَوَدَّةِ الإِيمَانِيَّةِ مِنْ كُلِّ غَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ وَثَبَاتٍ مَعَ إِخْوَانِي فِي الضَّرَّاءِ قَبْلَ السَّرَّاءِ. فَكُلُّ رِفْقَةٍ تُبْنَى عَلَى المصَالِحِ تَنْهَارُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَلَا فَوْزَ عَظِيمًا إِلَّا لِمَنْ بَذَلَ نَفْسَهُ لِلَّهِ فِي كُلِّ الظُّرُوفِ.

تِجَارَةُ الخُلُودِ وَبَيْعُ الفَانِي بِالبَاقِي

صَدَى ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤]

نِدَاءُ البُطُولَةِ الإِيمَانِيَّةِ الَّتِي تَسْتَعْلِي عَلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ وَتَبِيعُهُ طَوْعًا لِتَشْتَرِيَ جَنَّةَ الخُلْدِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ الصَّفْقَةِ الرَّابِحَةِ الَّتِي لَا تَعْرِفُ الخَسَارَةَ أَبَدًا. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي حِسَابَاتُ الرِّبْحِ وَالخَسَارَةِ المادِّيَّةِ الضَّيِّقَةِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ المؤْمِنَ الصَّادِقَ يَخْرُجُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ بَيْنَ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ: الشَّهَادَةِ أَوِ النَّصْرِ، وَفِي كِلْتَا الحَالَتَيْنِ يَنْتَظِرُهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ مِنَ اللَّهِ. وَكَمْ صَنَعَتْ هَذِهِ العَقِيدَةُ مِنْ أَبْطَالٍ غَيَّرُوا مَجْرَى التَّارِيخِ لِأَنَّهُمْ تَحَرَّرُوا مِنْ خَوْفِ المؤْتِ وَحِرْصِ الحَيَاةِ، فَبَذَلُوا أَرْوَاحَهُمْ رَخِيصَةً فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ. أَرَى التَّاجِرَ الذَّكِيَّ يُقَدِّمُ دِرْهَمًا وَاحِدًا بَالِيًا لِيَأْخُذَ مَكَانَهُ قَصْرًا مُشَيَّدًا مِنَ الذَّهَبِ وَاليَاقُوتِ، فَهُوَ يَبْتَسِمُ وَيُقْبِلُ عَلَى البَيْعِ بِكُلِّ يَقِينٍ وَسُرُورٍ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ قِيمَةَ مَا يَشْتَرِيهِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الوَعْدَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَضْمَنُ الأَجْرَ العَظِيمَ لِلْقَتِيلِ وَالغَالِبِ عَلَى السَّوَاءِ مَا دَامَتِ النِّيَّةُ خَالِصَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَحَرُّرٍ مِنْ قُيُودِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ وَتَعَلُّقٍ بِالآخِرَةِ البَاقِيَةِ وَبَذْلٍ لِلْغَالِي وَالنَّفِيسِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ. فَكُلُّ تَضْحِيَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هِيَ رِبْحٌ مَضْمُونٌ، وَلَا خَسَارَةَ أَبَدًا لِمَنْ بَاعَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا لِيَشْتَرِيَ الأَجْرَ العَظِيمَ فِي الآخِرَةِ.

نُصْرَةُ المسْتَضْعَفِينَ وَنِدَاءُ الإِنْسَانِيَّةِ

صَدَى ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]

اسْتِنْهَاضٌ هَادِرٌ لِلضَّمَائِرِ الحَيَّةِ وَالنُّفُوسِ الأَبِيَّةِ لِتَهُبَّ لِإِنْقَاذِ المظْلُومِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ الَّذِينَ يَئِنُّونَ تَحْتَ وَطْأَةِ الطُّغْيَانِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ الرَّحْمَةِ الإِسْلَامِيَّةِ العَالَمِيَّةِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي أَوْهَامُ القُعُودِ وَالسَّلْبِيَّةِ أَمَامَ آهَاتِ المقْهُورِينَ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ القِتَالَ فِي الإِسْلَامِ لَيْسَ عُدْوَانًا بَلْ هُوَ رَحْمَةٌ وَإِنْقَاذٌ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ يَرْفَعُونَ أَكُفَّهُمْ إِلَى السَّمَاءِ طَالِبِينَ وَلِيًّا وَنَصِيرًا. وَكَمْ تَأَلَّمَتْ شُعُوبٌ وَسُحِقَ أَبْرِيَاءُ حِينَ تَخَلَّى أَهْلُ القُوَّةِ وَالإِيمَانِ عَنْ وَاجِبِ النُّصْرَةِ، فَتَرَكُوا الظَّالِمِينَ يَعِيثُونَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَيَفْتِنُونَ النَّاسَ فِي دِينِهِمْ. أَرَى الفَارِسَ الشُّجَاعَ يَسْمَعُ صُرَاخَ الطِّفْلِ وَالأُمِّ مِنْ خَلْفِ جُدْرَانِ السِّجْنِ المظْلِمِ، فَتَغْلِي الدِّمَاءُ فِي عُرُوقِهِ وَيَنْطَلِقُ كَالسَّهْمِ لِتَحْطِيمِ الأَغْلَالِ وَإِجَابَةِ دَعْوَةِ المظْلُومِينَ. فَمَا أَرَقَّ هَذَا الدُّعَاءَ الَّذِي يُعَلِّمُنَا إِيَّاهُ القُرْآنُ عَلَى لِسَانِ المسْتَضْعَفِينَ: وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا، لِيَجْعَلَ اللَّهُ المؤْمِنِينَ

هُمْ جُنْدَ الإِجَابَةِ لِهَذَا الدُّعَاءِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى مَسْؤُولِيَّةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ وَإِيمَانِيَّةٍ تَجْعَلُنِي نَصِيرًا لِكُلِّ مَظْلُومٍ وَمُسْتَضْعَفٍ فِي الأَرْضِ. فَكُلُّ قُوَّةٍ يَمْلِكُهَا المؤْمِنُ هِيَ أَمَانَةٌ لِنُصْرَةِ المقْهُورِينَ، وَلَا عُذْرَ لِمَنْ يَسْمَعُ أَنِينَ المسْتَضْعَفِينَ ثُمَّ يَقْعُدُ عَنْ إِغَاثَتِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

رَايَةُ الحَقِّ وَهَشَاشَةُ كَيْدِ الشَّيْطَانِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]

فَرْزٌ حَاسِمٌ لِرَايَاتِ الصِّرَاعِ فِي الأَرْضِ يُبَدِّدُ كُلَّ التِبَاسٍ وَيُبَشِّرُ المؤْمِنِينَ بِهَشَاشَةِ قُوَى البَاطِلِ مَهْمَا انْتَفَشَتْ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا اليَقِينِ الإِلَهِيِّ المطَمْئِنِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي رَهْبَةُ تَرْسَانَاتِ الطُّغْيَانِ وَمَكْرِ الشَّيَاطِينِ، وَأَبْصَرْتُ الفَارِقَ الجَوْهَرِيَّ بَيْنَ مَنْ يُقَاتِلُ تَحْتَ رَايَةِ اللَّهِ القَوِيِّ العَزِيزِ وَبَيْنَ مَنْ يُقَاتِلُ تَحْتَ رَايَةِ الطَّاغُوتِ وَالشَّيْطَانِ الضَّعِيفِ. وَكَمْ انْخَدَعَتْ أَبْصَارُ الضُّعَفَاءِ بِضَجِيجِ البَاطِلِ وَمَكْرِ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، فَنَسُوا حَقِيقَةَ القُرْآنِ الخَالِدَةَ بِأَنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا يَتَبَدَّدُ أَمَامَ صِدْقِ الإِيمَانِ وَالتَّوَكُّلِ. أَرَى بَيْتَ العَنْكَبُوتِ الوَاهِيَ يَمْتَدُّ عَلَى فَمِ الغَارِ فَيَظُنُّهُ النَّاظِرُ مِنْ بَعِيدٍ حِصْنًا مَنِيعًا، فَمَا إِنْ تَهُبُّ عَلَيْهِ نَسْمَةٌ مِنَ الحَقِّ حَتَّى يَتَمَزَّقَ وَيَتَلَاشَى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ. فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ البِشَارَةَ الَّتِي تَمْلَأُ قَلْبَ المؤْمِنِ شَجَاعَةً وَثَبَاتًا: إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا، لِيُقْبِلَ عَلَى مُوَاجَهَةِ البَاطِلِ بِيَقِينِ المنْتَصِرِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى اسْتِعْلَاءٍ إِيمَانِيٍّ يَحْتَقِرُ كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَأَوْلِيَاءَهُ وَيَثِقُ بِنَصْرِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ. فَكُلُّ قُوَّةٍ تَسْتَنِدُ إِلَى الطَّاغُوتِ هِيَ هَشَّةٌ وَضَعِيفَةٌ، وَلَا غَلَبَةَ حَقِيقِيَّةً إِلَّا لِمَنْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَحْدَهُ.

تَقَلُّبُ النُّفُوسِ وَحَقِيقَةُ مَتَاعِ الدُّنْيَا

صَدَى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]

تَشْرِيحٌ دَقِيقٌ لِنَفْسِيَّةِ الحَمَاسِ المتَعَجِّلِ الَّذِي يَتَبَخَّرُ عِنْدَ سَاعَةِ الجِدِّ وَالتَّكْلِيفِ، مَعَ تَصْحِيحِ مِيزَانِ القِيَمِ بَيْنَ الدُّنْيَا القَلِيلَةِ وَالآخِرَةِ الخَيْرِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الدَّرْسِ التَّرْبَوِيِّ البَلِيغِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي أَوْهَامُ التَّعَلُّقِ بِالحَيَاةِ الفَانِيَةِ وَالخَوْفِ مِنَ البَشَرِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَخْتَبِرُ اللَّهُ صِدْقَ

الدَّعَاوَى بِالتَّكْلِيفِ العَمَلِيِّ، فَيَكْشِفُ أَنَّ مَتَاعَ الدُّنْيَا كُلَّهُ قَلِيلٌ وَأَنَّ الآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِأَهْلِ التَّقْوَى. وَكَمْ رَفَعَ أُنَاسٌ شِعَارَاتِ البُطُولَةِ قَبْلَ أَوَانِهَا، فَلَمَّا جَاءَتْ سَاعَةُ الِابْتِلَاءِ ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُمْ خَشْيَةً مِنَ النَّاسِ وَتَمَنَّوْا تَأْجِيلَ المَوْقِفِ طَمَعًا فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ مِنَ الدُّنْيَا. أَرَى الفَرَاشَةَ تَحُومُ حَوْلَ الزَّهْرَةِ الذَّابِلَةِ فِي أَوَاخِرِ الخَرِيفِ مُتَشَبِّثَةً بِرَحِيقِهَا القَلِيلِ، وَتَغْفُلُ عَنْ بُسْتَانِ الرَّبِيعِ الخَالِدِ الَّذِي يَنْتَظِرُهَا خَلْفَ التَّلِّ. فَمَا أَبْلَغَ الجَوَابَ النَّبَوِيَّ الحَاسِمَ: قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا، لِيُعِيدَ لِلْقَلْبِ تَوَازُنَهُ وَيُحَرِّرَهُ مِنْ خَوْفِ الخَلْقِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَرْبِيَةٍ لِنَفْسِي عَلَى الطَّاعَةِ فِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ وَزُهْدٍ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا القَلِيلِ رَغْبَةً فِي نَعِيمِ الآخِرَةِ. فَكُلُّ خَشْيَةٍ مِنَ النَّاسِ تُضْعِفُ الإِيمَانَ، وَلَا خَيْرَ يَدُومُ إِلَّا فِي الآخِرَةِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ بِعَدْلِهِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ فَتِيلًا.

حَتْمِيَّةُ المَوْتِ وَعَدَالَةُ التَّقْدِيرِ

صَدَى ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]

حَقِيقَةٌ كَوْنِيَّةٌ قَاهِرَةٌ تُسْقِطُ أَوْهَامَ الفِرَارِ مِنَ الأَجَلِ، وَتُصَحِّحُ عَقِيدَةَ القَضَاءِ وَالقَدَرِ فِي الصُّدُورِ المَرِيضَةِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الحَسْمِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنَ الجُبْنِ وَالتَّشَاؤُمِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي خُرَافَاتُ الهُرُوبِ مِنَ المَوْتِ بِالقُعُودِ أَوِ التَّحَصُّنِ فِي الحُصُونِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ المَوْتَ مُدْرِكٌ لِلْإِنْسَانِ وَلَوْ كَانَ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ، وَأَنَّ كُلَّ مَا يَقَعُ فِي الكَوْنِ مِنْ خَيْرٍ أَوِ ابْتِلَاءٍ هُوَ بِقَدَرِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ. وَكَمْ تَطَيَّرَ المُنَافِقُونَ وَالغَافِلُونَ بِدَعْوَةِ الحَقِّ فَنَسَبُوا كُلَّ نِعْمَةٍ إِلَى اللَّهِ وَنَسَبُوا كُلَّ مِحْنَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَى الرَّسُولِ وَأَتْبَاعِهِ، لِضَعْفِ فِقْهِهِمْ وَسُوءِ ظَنِّهِمْ. أَرَى السَّهْمَ المُنْطَلِقَ بِأَمْرِ السَّمَاءِ يَخْتَرِقُ أَسْوَارَ القَلْعَةِ الحَجَرِيَّةِ العَالِيَةِ لِيَصِلَ إِلَى صَاحِبِ الأَجَلِ فِي مَخْدَعِهِ الآمِنِ، فَلَا تَمْنَعُهُ الجُدْرَانُ وَلَا تُؤَخِّرُهُ الحُرَّاسُ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّوْحِيدَ الَّذِي يُرِيحُ القَلْبَ بِأَنَّ الآجَالَ بِيَدِ اللَّهِ وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَرِهِ، فَيُقْبِلُ العَبْدُ عَلَى وَاجِبِهِ شُجَاعًا فَقِيهًا بِسُنَنِ اللَّهِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى شَجَاعَةٍ لَا تَهَابُ المَوْتَ وَإِلَى فِقْهٍ عَمِيقٍ يَرَى حِكْمَةَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَا يَجْرِي فِي الحَيَاةِ. فَكُلُّ حِصْنٍ دُونَ أَجَلِ اللَّهِ هُوَ سَرَابٌ، وَلَا فِقْهَ لِلْحَيَاةِ إِلَّا بِالإِيمَانِ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ.

نِسْبَةُ النِّعْمَةِ لِلَّهِ وَالمعْصِيَةِ لِلنَّفْسِ

صَدَى ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]

مِيزَانٌ عَقَدِيٌّ وَأَخْلَاقِيٌّ دَقِيقٌ يَرُدُّ كُلَّ نِعْمَةٍ وَخَيْرٍ إِلَى فَضْلِ اللَّهِ وَجُودِهِ، وَيُنَبِّهُ الإِنْسَانَ إِلَى أَنَّ مَا يُصِيبُهُ مِنْ سُوءٍ وَبَلَاءٍ إِنَّمَا هُوَ ثَمَرَةُ ذُنُوبِهِ وَتَقْصِيرِهِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الأَدَبِ الكَامِلِ مَعَ الخَالِقِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي عَادَةُ إِلْقَاءِ اللَّوْمِ عَلَى الأَقْدَارِ أَوِ الآخَرِينَ عِنْدَ الفَشَلِ وَالمِحَنِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ العَبْدَ الصَّادِقَ يَشْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ حَسَنَةٍ وَيَتَّهِمُ نَفْسَهُ عِنْدَ كُلِّ سَيِّئَةٍ فَيُبَادِرُ إِلَى التَّوْبَةِ وَالإِصْلَاحِ. وَكَمْ تَمَادَى الغَافِلُونَ فِي أَخْطَائِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُحَاسِبُوا أَنْفُسَهُمْ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ تَقْصِيرَهُمْ هُوَ سَبَبُ شَقَائِهِمْ، بَيْنَمَا

شَهِدَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ بِصِدْقِ الرِّسَالَةِ وَالبَلَاغِ العَامِّ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ. أَرَى البُسْتَانِيَّ يَرَى التِّمَارَ اليَانِعَةَ فَيَحْمَدُ الغَيْثَ الَّذِي أَنْزَلَتْهُ السَّمَاءُ، فَإِذَا رَأَى غُصْنًا يَابِسًا عَرَفَ أَنَّهُ قَصَّرَ فِي سَقْيِهِ وَرِعَايَتِهِ فَبَادَرَ إِلَى إِصْلَاحِهِ دُونَ أَنْ يَلُومَ السَّمَاءَ. فَمَا أَعْظَمَ شَهَادَةَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ بِالرِّسَالَةِ الخَالِدَةِ: وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، لِتَسْقُطَ كُلُّ شُبُهَاتِ المُرْجِفِينَ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى شُكْرٍ دَائِمٍ لِلَّهِ فِي السَّرَّاءِ وَمُحَاسَبَةٍ صَادِقَةٍ لِنَفْسِي عِنْدَ كُلِّ بَلَاءٍ أَوْ تَقْصِيرٍ. فَكُلُّ خَيْرٍ فِينَا هُوَ مِنَّةٌ مِنَ الوَهَّابِ، وَلَا عِلَاجَ لِلْبَلَاءِ إِلَّا بِالِاعْتِرَافِ بِتَقْصِيرِ النَّفْسِ وَالِاتِّبَاعِ الصَّادِقِ لِلرَّسُولِ الَّذِي كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا عَلَى رِسَالَتِهِ.

وَحْدَةُ الطَّاعَةِ وَبَرَاءَةُ الرَّسُولِ

صَدَى ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]

تَلَازُمٌ مُقَدَّسٌ يَرْفَعُ طَاعَةَ الرَّسُولِ إِلَى مَقَامِ طَاعَةِ اللَّهِ مُبَاشَرَةً، وَيُخَفِّفُ عَنْ قَلْبِ النَّبِيِّ هَمَّ إِعْرَاضِ المعَانِدِينَ لِأَنَّ وَظِيفَتَهُ البَلَاغُ لَا الإِكْرَاهُ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الحَسْمِ الإِلَهِيِّ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي كُلُّ مُحَاوَلَاتِ الفَصْلِ بَيْنَ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ أَوِ الِاسْتِغْنَاءِ عَنْ هَدْيِ النُّبُوَّةِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ هِيَ عَيْنُ طَاعَةِ اللَّهِ، وَأَنَّ مَنْ تَوَلَّى وَأَعْرَضَ فَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ وَلَا يُكَلَّفُ الرَّسُولُ بِمُرَاقَبَةِ أَعْمَالِهِمْ وَمُحَاسَبَتِهِمْ. وَكَمْ حَزِنَتْ قُلُوبُ المصْلِحِينَ عَلَى إِعْرَاضِ النَّاسِ عَنِ الهُدَى، فَجَاءَ هَذَا التَّوْجِيهُ الرَّبَّانِيُّ لِيُعَلِّمَهُمْ أَنَّ الهِدَايَةَ بِيَدِ اللَّهِ وَأَنَّ عَلَى الرَّسُولِ وَالدَّاعِي البَلَاغَ المبِينَ فَقَطْ. أَرَى المِصْبَاحَ المضِيءَ فِي الطَّرِيقِ يُرْسِلُ نُورَهُ لِكُلِّ سَائِرٍ، فَمَنِ اهْتَدَى بِهِ وَصَلَ إِلَى مَقْصِدِهِ بِسَلَامٍ،

وَمَنْ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَسَقَطَ فِي الحُفْرَةِ فَلَا لَوْمَ عَلَى المِصْبَاحِ الَّذِي أَدَّى رِسَالَتَهُ بِأَمَانَةٍ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّشْرِيفَ لِلنَّبِيِّ الكَرِيمِ بِجَعْلِ طَاعَتِهِ طَاعَةً لِلَّهِ، وَمَا أَلْطَفَ تَسْلِيَتَهُ بِأَنَّهُ لَيْسَ حَفِيظًا وَمُحَاسِبًا لِلْمُتَوَلِّينَ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَعْظِيمٍ مُطْلَقٍ لِسُنَّةِ الرَّسُولِ وَالْتِزَامٍ بِأَمْرِهِ بِيَقِينٍ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ. فَكُلُّ طَاعَةٍ لِلرَّسُولِ هِيَ قُرْبٌ مِنَ اللَّهِ، وَلَا عُذْرَ لِمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ أَنْ بَلَّغَ النَّبِيُّ الرِّسَالَةَ وَأَدَّى الأَمَانَةَ.

سِفْرُ الصَّدَى التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ

تَلَوُّنُ المُنَافِقِينَ وَرَقَابَةُ السَّمَاءِ

صَدَى ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]

تَعْرِيَةٌ مُحْكَمَةٌ لِازْدِوَاجِيَّةِ المُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الطَّاعَةَ فِي المَلَأِ ثُمَّ يُدَبِّرُونَ المَكَايِدَ فِي الخَفَاءِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الإِحْصَاءِ الإِلَهِيِّ لِخَفَايَا اللَّيْلِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي خِدْعَةُ الكَلِمَاتِ المَعْسُولَةِ الَّتِي تُقَالُ أَمَامَ الأَعْيُنِ ثُمَّ تُنْقَضُ فِي الخَلَوَاتِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ اللَّهَ يَكْتُبُ كُلَّ مَا يُبَيِّتُهُ المُتَآمِرُونَ فِي الظَّلَامِ لِيُحَاسِبَهُمْ عَلَيْهِ. وَكَمْ حَاكَتْ طَوَائِفُ النِّفَاقِ مُؤَامَرَاتِهَا تَحْتَ جُنْحِ اللَّيْلِ ظَانَّةً أَنَّ أَحَدًا لَا يَرَاهَا، فَإِذَا بِالوَحْيِ يَفْضَحُ أَسْرَارَهَا وَيُثَبِّتُ قَلْبَ النَّبِيِّ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ. أَرَى الثَّعْلَبَ المَاكِرَ يُظْهِرُ الوَدَاعَةَ أَمَامَ رَاعِي الغَنَمِ فِي النَّهَارِ، فَإِذَا أَرْخَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ تَسَلَّلَ لِيَحْفِرَ نَفَقًا تَحْتَ السِّيَاجِ وَعَيْنُ السَّمَاءِ تَرْصُدُ كُلَّ حَرَكَةٍ يَخْطُوهَا. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّوْجِيهَ النَّبَوِيَّ الَّذِي يَأْمُرُ بِالإِعْرَاضِ عَنْ مَكْرِهِمْ وَالِاعْتِمَادِ الكَامِلِ عَلَى اللَّهِ الَّذِي كَفَى بِهِ وَكِيلًا! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى صِدْقٍ يَتَسَاوَى فِيهِ السِّرُّ وَالعَلَنُ، وَتَوَكُّلٍ خَالِصٍ يُحْمِينِي مِنْ كَيْدِ المُتَلَوِّنِينَ. فَكُلُّ مَكْرٍ يُدَبَّرُ فِي الظَّلَامِ مَكْتُوبٌ عِنْدَ عَلَّامِ الغُيُوبِ، وَلَا طُمَأْنِينَةَ لِلْمُؤْمِنِ إِلَّا حِينَ يُعْرِضُ عَنِ المُنَافِقِينَ وَيَكْتَفِي بِاللَّهِ وَكِيلًا.

مِيزَانُ التَّدَبُّرِ وَإِعْجَازُ الانْسِجَامِ

صَدَى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]

دَعْوَةٌ عَقْلِيَّةٌ وَرُوحِيَّةٌ سَاطِعَةٌ لِلْغَوْصِ فِي أَعْمَاقِ الوَحْيِ وَاكْتِشَافِ وَحْدَتِهِ المُعْجِزَةِ الَّتِي تَشْهَدُ بِرَبَّانِيَّتِهِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا البُرْهَانِ القَاطِعِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي ظُلُمَاتُ القِرَاءَةِ العَابِرَةِ

الغَافِلَةِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ التَّدَبُّرَ الصَّادِقَ يَكْشِفُ تَنَاسُقَ القُرْآنِ العَجِيبَ بَيْنَ آيَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ وَأَخْبَارِهِ، مِمَّا يَسْتَحِيلُ صُدُورُهُ عَنْ بَشَرٍ تَتَغَيَّرُ أَحْوَالُهُ وَأَفْكَارُهُ. وَكَمْ تَنَاقَضَتْ كُتُبُ البَشَرِ وَمَنَاهِجُهُمْ عَبْرَ العُصُورِ لِأَنَّهَا صَادِرَةٌ عَنْ عُقُولٍ قَاصِرَةٍ يَعْتَرِيهَا النَّقْصُ وَالِاضْطِرَابُ، بَيْنَمَا بَقِيَ القُرْآنُ نَسِيجًا مُحْكَمًا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا تَنَاقُضَ. أَرَى الجَوْهَرَةَ النَّادِرَةَ المُتَعَدِّدَةَ الأَوْجُهِ كُلَّمَا أَدَرْتَهَا تَحْتَ ضَوْءِ الشَّمْسِ أَشَعَّتْ بِنُورٍ مُتَنَاغِمٍ يَزِيدُهَا جَمَالًا وَبَهَاءً دُونَ أَنْ تَجِدَ فِيهَا صَدْعًا أَوْ شَائِبَةً. فَمَا أَبْلَغَ هَذَا الِاسْتِفْهَامَ الَّذِي يُوَبِّخُ المُعْرِضِينَ عَنِ التَّدَبُّرِ وَيُقِيمُ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ بِانْسِجَامِ كَلَامِ اللَّهِ وَكَمَالِهِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى شَغَفٍ دَائِمٍ بِتَدَبُّرِ القُرْآنِ وَتَأَمُّلِ حِكْمَتِهِ الَّتِي تُبَدِّدُ كُلَّ شُبْهَةٍ وَتَزِيدُ القَلْبَ يَقِينًا. فَكُلُّ كَلَامٍ بَشَرِيٍّ يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ الِاخْتِلَافَ وَالنَّقْصَ، وَلَا كَمَالَ وَلَا انْسِجَامَ مُطْلَقًا إِلَّا فِي كِتَابٍ أَنْزَلَهُ العَلِيمُ الحَكِيمُ.

انْضِبَاطُ الأَخْبَارِ وَمَرْجِعِيَّةُ الاسْتِنْبَاطِ

صَدَى ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]

تَأْسِيسٌ لِأَخْلَاقِيَّاتِ الإِعْلَامِ وَأَمْنِ المجْتَمَعِ بِمَنْعِ إِشَاعَةِ الأَخْبَارِ قَبْلَ التَّثَبُّتِ وَرَدِّهَا إِلَى أَهْلِ القِيَادَةِ وَالِاسْتِنْبَاطِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الِانْضِبَاطِ الحَضَارِيِّ الَّذِي يَحْمِي الصَّفَّ مِنَ الرَّجْفَةِ.

انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي فَوْضَى التَّسَرُّعِ فِي نَقْلِ الإِشَاعَاتِ وَتَضْخِيمِ المخَاوِفِ أَوِ الآمَالِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ رَدَّ الأُمُورِ العَامَّةِ إِلَى الرَّسُولِ وَأُولِي الأَمْرِ وَالعُلَمَاءِ المسْتَنْبِطِينَ يَكْشِفُ الحَقَائِقَ وَيُفَوِّتُ الفُرْصَةَ عَلَى الأَعْدَاءِ. وَكَمْ انْهَارَتْ جُيُوشٌ وَاضْطَرَبَتْ مُجْتَمَعَاتٌ بِسَبَبِ شَائِعَةٍ طَائِشَةٍ أَذَاعَهَا السُّفَهَاءُ وَالمرْجِفُونَ فَأَلْقَوْا الرُّعْبَ فِي القُلُوبِ أَوْ خَدَّرُوا اليَقَظَةَ. أَرَى السَّدَّ المنِيعَ يَحْبِسُ المِيَاهَ الهَادِرَةَ لِيُوَزِّعَهَا الحُكَمَاءُ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ يُحْيِي الأَرْضَ، فَلَوْ فَتَحَ العَابِثُونَ بَوَّابَاتِهِ بِطَيْشٍ لَأَغْرَقَ السَّيْلُ القُرَى وَأَتْلَفَ الزَّرْعَ. فَمَا أَعْظَمَ تَذْكِيرَ اللَّهِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ الَّتِي عَصَمَتِ المؤْمِنِينَ مِنَ اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ فِي نَشْرِ الفَوْضَى وَالرَّجْفَةِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَثَبُّتٍ وَاعٍ يَضْبِطُ اللِّسَانَ عَنْ إِذَاعَةِ كُلِّ مَا يُسْمَعُ وَيَرُدُّ النَّوَازِلَ إِلَى أَهْلِ العِلْمِ وَالحِكْمَةِ. فَكُلُّ إِذَاعَةٍ غَيْرِ مَسْؤُولَةٍ هِيَ خِدْمَةٌ لِلشَّيْطَانِ، وَلَا أَمَانَ لِلْأُمَّةِ إِلَّا حِينَ تَسُودُ المرْجِعِيَّةُ الرَّاشِدَةُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

فَرْدِيَّةُ المسْؤُولِيَّةِ وَتَحْرِيضُ المؤْمِنِينَ

صَدَى ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤]

نِدَاءُ الشَّجَاعَةِ الفَرْدِيَّةِ الَّتِي لَا تَنْتَظِرُ إِجْمَاعَ المتَخَاذِلِينَ لِتَقُومَ بِوَاجِبِهَا، مَعَ اسْتِنْهَاضِ هِمَمِ المؤْمِنِينَ لِتَحْقِيقِ الكَفِّ الإِلَهِيِّ لِبَأْسِ الكَافِرِينَ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ القُوَّةِ الرُّوحِيَّةِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي أَعْذَارُ التَّرَاجُعِ عِنْدَ قِلَّةِ النَّاصِرِ أَوْ تَبَاطُؤِ الآخَرِينَ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ المؤْمِنَ مُكَلَّفٌ بِنَفْسِهِ أَوَّلًا أَنْ يَثْبُتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّضَ إِخْوَانَهُ عَلَى البَذْلِ وَالثَّبَاتِ. وَكَمْ انْتَصَرَتْ فِئَاتٌ قَلِيلَةٌ حِينَ أَقْدَمَ قَادَتُهَا بِشَجَاعَةٍ فَرْدِيَّةٍ فَأَلْهَبُوا الحَمَاسَةَ فِي صُفُوفِ المؤْمِنِينَ وَكَفَّ اللَّهُ بِهِمْ طُغْيَانَ الجَبَابِرَةِ. أَرَى الفَارِسَ الوَحِيدَ يَمْتَطِي صَهْوَةَ جَوَادِهِ فِي وَجْهِ العَاصِفَةِ وَيَرْفَعُ رَايَةَ الحَقِّ عَالِيًا، فَتَتَبَعُهُ القُلُوبُ الصَّادِقَةُ وَتَتَحَوَّلُ شُعْلَتُهُ الصَّغِيرَةُ إِلَى نُورٍ يَبْتَلِعُ الظَّلَامَ. فَمَا أَشَدَّ هَيْبَةَ الخَاتِمَةِ الَّتِي تُذَكِّرُ بِأَنَّ بَأْسَ اللَّهِ وَتَنْكِيلَهُ أَشَدُّ مِنْ كُلِّ قُوَّةٍ بَشَرِيَّةٍ، فَلَا يَخْشَى المؤْمِنُ بَأْسَ الطُّغَاةِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى مُبَادَرَةٍ ذَاتِيَّةٍ تَبْدَأُ بِنَفْسِي فِي نُصْرَةِ الحَقِّ وَلَا تَتَوَقَّفُ عَلَى تَقَاعُسِ القَاعِدِينَ. فَكُلُّ إِنْسَانٍ مَسْؤُولٌ عَنْ ثَبَاتِ نَفْسِهِ أَمَامَ اللَّهِ، وَلَا قُوَّةَ تَقِفُ أَمَامَ رَبٍّ هُوَ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا.

مِيزَانُ الشَّفَاعَةِ وَعَدَالَةُ المكَافَأَةِ

صَدَى ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥]

قَانُونُ التَّأْثِيرِ وَالتَّسَبُّبِ الَّذِي يَجْعَلُ الإِنْسَانَ شَرِيكًا فِي ثَمَرَةِ سَعْيِهِ بَيْنَ النَّاسِ خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ الدِّقَّةِ الإِلَهِيَّةِ فِي رَصْدِ الوَسَاطَاتِ وَالشَّفَاعَاتِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي أَوْهَامُ البَرَاءَةِ مِنَ النَّتَائِجِ عِنْدَ التَّوَسُّطِ فِي الأُمُورِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ الشَّفَاعَةَ الحَسَنَةَ الَّتِي تَجْلِبُ نَفْعًا أَوْ تَدْفَعُ ظُلْمًا تُثْمِرُ لِصَاحِبِهَا نَصِيبًا مِنَ الأَجْرِ، بَيْنَمَا الشَّفَاعَةُ السَّيِّئَةُ تُحَمِّلُهُ كِفْلًا مِنَ الوِزْرِ. وَكَمْ فَسَدَتْ مُجْتَمَعَاتٌ بِسَبَبِ الوَسَاطَاتِ الظَّالِمَةِ الَّتِي تُعْطِي الحُقُوقَ لِغَيْرِ أَهْلِهَا، وَكَمْ أُحْيِيَتْ نُفُوسٌ بِشَفَاعَةٍ صَالِحَةٍ فَرَجَتْ كُرْبَةً أَوْ أَصْلَحَتْ بَيْنَ مُتَخَاصِمَيْنِ. أَرَى الجَدْوَلَ الصَّغِيرَ يَصِلُ بَيْنَ النَّبْعِ وَالبُسْتَانِ فَيُحْيِي الزَّرْعَ وَيَنْعَمُ هُوَ بِعُذُوبَةِ الماءِ الجَارِي فِيهِ، بِخِلَافِ القَنَاةِ الَّتِي تَنْقُلُ الماءَ الآسِنَ فَتَتَلَوَّثُ بِهِ وَتُفْسِدُ الأَرْضَ. فَمَا أَعْظَمَ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمِ اللَّهِ المقِيتِ الحَفِيظِ القَادِرِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ ذِي حَقٍّ قُوتَهُ وَجَزَاءَهُ بِمِيزَانٍ لَا يَخْتَلُّ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى حِرْصٍ شَدِيدٍ عَلَى أَنْ أَكُونَ

مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ وَشَفِيعًا فِي كُلِّ مَعْرُوفٍ، وَحَذَرٍ مِنَ الإِعَانَةِ عَلَى أَيِّ إِثْمٍ. فَكُلُّ سَعْيٍ فِي الخَيْرِ يَعُودُ نَصِيبُهُ عَلَى صَاحِبِهِ، وَلَا يَضِيعُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ عِنْدَ رَبٍّ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا.

أَدَبُ التَّحِيَّةِ وَفَضْلُ الإِحْسَانِ

صَدَى ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]

تَرْبِيَةٌ رَاقِيَةٌ لِلذَّوْقِ الاجْتِمَاعِيِّ تُعَلِّمُ المؤْمِنِينَ أَنْ يُقَابِلُوا الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ بِمَا هُوَ أَجْمَلُ مِنْهَا أَوْ بِمِثْلِهَا عَلَى الأَقَلِّ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا السُّمُوِّ الأَخْلَاقِيِّ الَّذِي يَنْشُرُ المَوَدَّةَ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي جَفْوَةُ الطِّبَاعِ وَبُخْلُ الأَلْسِنَةِ بِالكَلِمَةِ اللَّطِيفَةِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ الإِسْلَامَ يَبْنِي جُسُورَ السَّلَامِ بَيْنَ القُلُوبِ مِنْ خِلَالِ رَدِّ التَّحِيَّةِ بِأَحْسَنَ مِنْهَا لِيَزْدَادَ الوُدُّ وَتَتَلَاشَى الوَحْشَةُ. وَكَمْ تَنَافَرَتْ قُلُوبٌ وَقَسَتْ نُفُوسٌ حِينَ أَهْمَلَ النَّاسُ آدَابَ السَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ وَقَابَلُوا البَشَاشَةَ بِالعُبُوسِ وَالإِعْرَاضِ. أَرَى الزَّهْرَةَ العَطِرَةَ تُرْسِلُ شَذَاهَا مَعَ النَّسِيمِ فَتُقَابِلُهَا الحَدِيقَةُ بِأَرِيجٍ أَزْكَى وَأَعْمَقَ يَمْلَأُ الأَجْوَاءَ بِالبَهْجَةِ وَالسَّلَامِ. فَمَا أَعْظَمَ رَبْطَ هَذَا الأَدَبِ اللَّطِيفِ بِمُرَاقَبَةِ اللَّهِ الحَسِيبِ الَّذِي يُحْصِي حَتَّى كَلِمَاتِ التَّحِيَّةِ وَيُجَازِي عَلَى صِدْقِ الإِحْسَانِ فِيهَا! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى بَشَاشَةٍ دَائِمَةٍ وَمُسَارَعَةٍ لِرَدِّ كُلِّ تَحِيَّةٍ وَمَعْرُوفٍ بِمَا هُوَ أَفْضَلُ وَأَكْرَمُ. فَكُلُّ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ تُرَدُّ بِأَحْسَنَ مِنْهَا هِيَ بَذْرَةٌ لِلْمَحَبَّةِ، وَلَا يَخْفَى مِثْقَالُ الإِحْسَانِ عَلَى رَبٍّ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا.

يَقِينُ التَّوْحِيدِ وَحَتْمِيَّةُ اللِّقَاءِ

صَدَى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]

تَقْرِيرٌ جَلِيلٌ يَجْمَعُ بَيْنَ أَعْظَمِ حَقِيقَتَيْنِ فِي الوُجُودِ: وَحْدَانِيَّةِ الخَالِقِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَحَتْمِيَّةِ البَعْثِ وَالجَمْعِ لِيَوْمِ القِيَامَةِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا اليَقِينِ المطْلَقِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي كُلُّ ظُلُمَاتِ الرَّيْبِ وَالتَّرَدُّدِ فِي مَصِيرِ الإِنْسَانِ بَعْدَ المَوْتِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ الإِيمَانَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ يَسْتَلْزِمُ اليَقِينَ بِعَدْلِهِ الَّذِي يَجْمَعُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِيَوْمِ الفَصْلِ وَالجَزَاءِ. وَكَمْ عَاشَ المنْكِرُونَ لِلْبَعْثِ فِي ضَيَاعٍ وَعَبَثٍ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِوَعْدِ اللَّهِ، حَتَّى يَأْتِيَهُمُ اليَوْمُ المَوْعُودُ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ فَيَرَوْا صِدْقَ حَدِيثِ اللَّهِ رَأْيَ العَيْنِ. أَرَى الشَّمْسَ تَغْرُبُ فِي الأُفُقِ كُلَّ مَسَاءٍ فَيَظُنُّ الجَاهِلُ أَنَّهَا فَنِيَتْ، ثُمَّ تُشْرِقُ فِي الصَّبَاحِ بِنُورِهَا السَّاطِعِ لِتُؤَكِّدَ أَنَّ وَعْدَ الخَالِقِ حَقٌّ لَا يَتَخَلَّفُ. فَمَا أَبْلَغَ هَذَا التَّسَاؤُلَ

التَّقْرِيرِيَّ الَّذِي يَمْلَأُ القَلْبَ طُمَأْنِينَةً: وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا، فَلَا أَصْدَقَ مِنْ كَلَامِهِ وَلَا أَوْفَى مِنْ وَعْدِهِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَوْحِيدٍ خَالِصٍ وَاسْتِعْدَادٍ دَائِمٍ لِيَوْمِ الجَمْعِ العَظِيمِ بِيَقِينٍ لَا يُخَالِطُهُ شَكٌّ. فَكُلُّ مَا وَعَدَ بِهِ اللَّهُ هُوَ الحَقُّ اليَقِينُ، وَلَا أَصْدَقَ حَدِيثًا مِنَ اللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

حَسْمُ الانْقِسَامِ وَفَضْحُ المُتَرَدِّدِينَ

صَدَى ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨]

عِتَابٌ إِلَهِيٌّ يُوَجِّدُ رُؤْيَةَ المُؤْمِنِينَ تِجَاهَ المُنَافِقِينَ الَّذِينَ ارْتَكَسُوا فِي الكُفْرِ بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الحَسْمِ الَّذِي يَرْفَعُ الضَّبَابِيَّةَ عَنِ المَوَاقِفِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي أَوْهَامُ التَّسَاهُلِ العَاطِفِيِّ مَعَ مَنْ أَصَرَّ عَلَى النِّفَاقِ وَالخِيَانَةِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ انْقِسَامَ المُؤْمِنِينَ إِلَى فِئَتَيْنِ فِي شَأْنِ المُنَافِقِينَ هُوَ ضَعْفٌ فِي البَصِيرَةِ بَعْدَ أَنْ أَرْكَسَهُمُ اللَّهُ وَرَدَّهُمْ إِلَى الضَّلَالِ بِسَبَبِ كَسْبِهِمْ. وَكَمْ تَشَتَّتَتْ صُفُوفُ أَهْلِ الحَقِّ حِينَ اخْتَلَفُوا فِي تَقْيِيمِ المُتَلَوِّنِينَ وَحَاوَلُوا هِدَايَةَ مَنْ أَغْلَقَ قَلْبَهُ عَمْدًا وَاسْتَحَقَّ الإِضْلَالَ بِعِنَادِهِ. أَرَى السَّفِينَةَ الَّتِي ثَقَبَ رُكَّابُهَا قَاعَهَا بِأَيْدِيهِمْ فَهَوَتْ إِلَى قَاعِ المُحِيطِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ مَنْ عَلَى الشَّاطِئِ إِنْقَاذَهَا بَعْدَ أَنْ غَرِقَتْ بِسَبَبِ صَنِيعِ أَهْلِهَا. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا البَيَانَ الَّذِي يُبَيِّنُ أَنَّ إِضْلَالَ اللَّهِ لَهُمْ لَمْ يَكُنْ ظُلْمًا بَلْ كَانَ جَزَاءً عَادِلًا لِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ مِنَ المَكْرِ وَالنِّفَاقِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى وُضُوحٍ فِي الرُّؤْيَةِ وَوَحْدَةٍ فِي المَوْقِفِ مَعَ إِخْوَانِي تِجَاهَ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالخِيَانَةِ. فَكُلُّ ارْتِكَاسٍ فِي الضَّلَالِ هُوَ ثَمَرَةٌ لِكَسْبِ الإِنْسَانِ السَّيِّئِ، وَلَا سَبِيلَ لِهِدَايَةِ مَنْ أَغْلَقَ فِطْرَتَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ بِعَدْلِهِ.

مِيزَانُ الوَلَاءِ وَقِسْطُ التَّعَامُلِ

صَدَى ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٨٩]

كَشْفٌ لِحَقِيقَةِ الأَمَانِي الخَفِيَّةِ فِي صُدُورِ المُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَتَمَنَّوْنَ سُقُوطَ المُؤْمِنِينَ فِي الكُفْرِ لِيَتَسَاوَوْا مَعَهُمْ فِي الضَّيَاعِ، مَعَ تَحْدِيدِ ضَوَابِطِ الوَلَاءِ وَالبَرَاءِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ اليَقْظَةِ الإِيمَانِيَّةِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي سَذَاجَةُ الثِّقَةِ بِالمُنَافِقِينَ القَاعِدِينَ عَنِ الهِجْرَةِ وَالنُّصْرَةِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّهُمْ يَحْسُدُونَ

المؤْمِنِينَ عَلَى نِعْمَةِ الإِيمَانِ وَيَوَدُّونَ لَوْ يَرْتَدُّونَ كُفَّارًا، فَلَا يَجُوزُ اتِّخَاذُهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يَبْرُزَ صِدْقُهُمْ بِالهِجْرَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَكَمْ انْخَدَعَتْ أُمَمٌ بِالمُلَوِّنِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ المَوَدَّةَ وَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ لَهَا الانْحِرَافَ وَالسُّقُوطَ، فَلَمَّا اتَّخَذَتْهُمْ أَوْلِيَاءَ طَعَنُوهَا فِي ظَهْرِهَا وَأَسْلَمُوهَا لِأَعْدَائِهَا. أَرَى المَرِيضَ الحَاقِدَ الَّذِي يَتَمَنَّى أَنْ تَنْتَقِلَ عَدْوَى مَرَضِهِ القَاتِلِ إِلَى الأَصِحَّاءِ لِيَتَسَاوَى الجَمِيعُ فِي الأَلَمِ، فَيَحْتَاطُ العُقَلَاءُ مِنْ مُخَالَطَتِهِ حَتَّى يَتَطَهَّرَ وَيَبْرَأَ مِنْ دَائِهِ. فَمَا أَحْكَمَ هَذَا التَّشْرِيعَ الَّذِي يَجْعَلُ الهِجْرَةَ وَالتَّضْحِيَةَ مَحَكًّا لِصِدْقِ الإِيمَانِ، وَيَحْمِي المُجْتَمَعَ المُسْلِمَ مِنْ غَدْرِ المُتَوَلِّينَ المُحَارِبِينَ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى اعْتِزَازٍ بِنِعْمَةِ الإِيمَانِ وَحَذَرٍ مِنْ كُلِّ مَنْ يُرِيدُ جَرِّي إِلَى التَّنَازُلِ عَنْ دِينِي وَمَبَادِئِي. فَكُلُّ وَلَاءٍ يُمْنَحُ لِلْمُنَافِقِينَ قَبْلَ صِدْقِ التَّوْبَةِ هُوَ خَطَرٌ عَلَى الصَّفِّ، وَلَا أَمَانَ لِلْمُؤْمِنِ إِلَّا بِالِاعْتِصَامِ بِأَهْلِ الإِيمَانِ وَالهِجْرَةِ الصَّادِقَةِ.

رَحْمَةُ السِّلْمِ وَقَاعِدَةُ كَفِّ الأَذَى

صَدَى ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠]

تَجَلٍّ بَدِيعٌ لِعَدَالَةِ الإِسْلَامِ وَأَخْلَاقِهِ السَّامِيَةِ فِي الحَرْبِ وَالسِّلْمِ، حَيْثُ يُحَرِّمُ الِاعْتِدَاءَ عَلَى المُعَاهَدِينَ وَالمُعْتَزِلِينَ الَّذِينَ يُلْقُونَ السَّلَمَ وَيَكُفُّونَ أَذَاهُمْ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الإِنْصَافِ الإِلَهِيِّ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي كُلُّ دَعَاوَى التَّعَصُّبِ وَالعُدْوَانِ العَشْوَائِيِّ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ الإِسْلَامَ يَحْتَرِمُ المَوَاثِيقَ وَالعُهُودَ وَيُقَدِّرُ مَوْقِفَ مَنْ ضَاقَتْ صُدُورُهُمْ عَنِ القِتَالِ فَاعْتَزَلُوا الحَرْبَ وَأَلْقَوُا السَّلَمَ، فَلَا يَجْعَلُ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا. وَكَمْ أَشْعَلَتْ جَاهِلِيَّاتُ البَشَرِ حُرُوبًا ظَالِمَةً أَبَادَتِ المُسَالِمِينَ وَالمُعَاهَدِينَ بِلَا تَمْيِيزٍ، بَيْنَمَا أَرْسَى القُرْآنُ قَوَاعِدَ العَدْلِ وَالرَّحْمَةِ حَتَّى مَعَ المُخَالِفِينَ مَا دَامُوا مُسَالِمِينَ. أَرَى الفَارِسَ النَّبِيلَ يُغْمِدُ سَيْفَهُ فَوْرًا حِينَ يَرَى خَصْمَهُ يُلْقِي سِلَاحَهُ وَيَعْتَزِلُ القِتَالَ طَالِبًا السَّلَامَ، فَيَصُونُ دَمَهُ وَيَحْفَظُ عَهْدَهُ بِكُلِّ شَرَفٍ وَإِنْصَافٍ. فَمَا أَلْطَفَ تَذْكِيرَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمِنَّتِهِ عَلَيْهِمْ إِذْ كَفَّ أَيْدِيَ هَؤُلَاءِ عَنْ قِتَالِهِمْ، لِيَشْكُرُوا اللَّهَ بِقَبُولِ السِّلْمِ مِنْهُمْ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى عَدْلٍ وَإِنْصَافٍ يَحْتَرِمُ العُهُودَ وَيَمْنَحُ الأَمَانَ لِكُلِّ مُسَالِمٍ يَكُفُّ أَذَاهُ. فَكُلُّ مَنْ أَلْقَى السَّلَمَ وَاعْتَزَلَ العُدْوَانَ فَهُوَ آمِنٌ بِحُكْمِ اللَّهِ، وَلَا سَبِيلَ لِلْمُؤْمِنِ عَلَى مَنْ وَفَى بِالمِيثَاقِ وَسَالَمَ.

حَزْمُ المواجَهَةِ مَعَ نَاقِضِي العُهُودِ

صَدَى ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ٩١]

بَصِيرَةٌ نَافِذَةٌ تَكْشِفُ صِنْفًا آخَرَ مِنَ المتَلَوِّنِينَ الَّذِينَ يَلْعَبُونَ عَلَى الحَبْلَيْنِ فَيَطْلُبُونَ الأَمَانَ مِنَ المؤْمِنِينَ نِفَاقًا ثُمَّ يَنْغَمِسُونَ فِي فِتْنَةِ القِتَالِ كُلَّمَا دُعُوا إِلَيْهَا، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الحَزْمِ الوَاقِي. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي حِيَلُ المخَادِعِينَ الَّذِينَ يَسْتَغِلُّونَ سَمَاحَةَ الإِسْلَامِ لِلطَّعْنِ فِي الظَّهْرِ، وَأَبْصَرْتُ الفَارِقَ الدَّقِيقَ بَيْنَ المسَالِمِ الصَّادِقِ الَّذِي يُعْطَى الأَمَانَ وَبَيْنَ الغَادِرِ الَّذِي يَرْفُضُ الِاعْتِزَالَ وَكَفَّ اليَدِ فَيَسْتَحِقُّ الرَّدْعَ الحَاسِمَ. وَكَمْ دَفَعَتْ أُمَمٌ ثَمَنًا بَاهِظًا حِينَ سَاوَتْ بَيْنَ المسَالِمِ الصَّادِقِ وَالغَادِرِ المرَاوِغِ، فَتَرَكَتِ الثَّغَابِينَ تَتَسَلَّلُ إِلَى صُفُوفِهَا تَحْتَ غِطَاءِ الأَمَانِ الكَاذِبِ. أَرَى الحَارِسَ اليَقِظَ يُمَيِّزُ بَيْنَ عَابِرِ السَّبِيلِ المسَالِمِ فَيَفْتَحُ لَهُ البَابَ، وَبَيْنَ المتَسَلِّلِ الَّذِي يُخْفِي الخِنْجَرَ تَحْتَ ثِيَابِهِ وَيَنْقَضُّ عِنْدَ كُلِّ فُرْصَةٍ فَيُوَاجِهُهُ بِقُوَّةٍ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. فَمَا أَعْدَلَ هَذَا المِيزَانَ القُرْآنِيَّ الَّذِي يَمْنَحُ الفُرْصَةَ لِلسَّلَامِ أَوَّلًا، فَإِنْ أَبَوْا إِلَّا الغَدْرَ وَالفِتْنَةَ جَعَلَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى حِكْمَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ الرَّحْمَةِ بِالمسَالِمِينَ وَالحَزْمِ القَاطِعِ مَعَ الغَادِرِينَ نَاقِضِي العُهُودِ. فَكُلُّ غَدْرٍ يَسْتَتِرُ بِالسَّلَامِ الكَاذِبِ يَسْقُطُ أَمَامَ يَقَظَةِ الإِيمَانِ، وَلَا عِصْمَةَ لِمَنْ رَفَضَ كَفَّ يَدِهِ وَارْتَكَسَ فِي الفِتْنَةِ.

حُرْمَةُ الدَّمِ المؤْمِنِ وَعَدَالَةُ الكَفَّارَةِ

صَدَى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢]

تَعْظِيمٌ جَلِيلٌ لِقَدَاسَةِ الدَّمِ المؤْمِنِ حَتَّى يَسْتَبْعِدَ القُرْآنُ وُقُوعَ القَتْلِ العَمْدِ بَيْنَ المؤْمِنِينَ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الخَطَأِ، مَعَ تَشْرِيعِ الكَفَّارَةِ وَالدِّيَةِ جَبْرًا لِلْكَسْرِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ الصِّيَانَةِ لِلْأَرْوَاحِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي أَيُّ اسْتِهَانَةٍ بِحُرْمَةِ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يُعَالِجُ الشَّرْعُ القَتْلَ الخَطَأَ بِتَحْرِيرِ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ لِتَعْوِيضِ المجْتَمَعِ نَفْسًا حُرَّةً، وَبِالدِّيَةِ المسَلَّمَةِ لِأَهْلِ القَتِيلِ لِإِطْفَاءِ نَارِ الحُزْنِ

وَالثَّأْرِ، مَعَ فَتْحِ بَابِ العَفْوِ وَالصَّدَقَةِ. وَكَمْ اشْتَعَلَتْ حُرُوبٌ دَامِيَةٌ بَيْنَ القَبَائِلِ وَالشُّعُوبِ بِسَبَبِ حَادِثِ خَطَأٍ لَمْ يَجِدْ شَرْعًا عَادِلًا يَضْبِطُ العُقُوبَةَ وَيُطَهِّرُ النُّفُوسَ بِالتَّوْبَةِ وَالصِّيَامِ. أَرَى العُصْنَ المُثْمِرَ يَنْكَسِرُ فِي البُسْتَانِ دُونَ قَصْدٍ، فَيُبَادِرُ البُسْتَانِيُّ الأَمِينُ إِلَى غَرْسِ شَجَرَةٍ جَدِيدَةٍ حُرَّةٍ مَكَانَهُ وَتَعْوِيضِ صَاحِبِ الأَرْضِ بِأَطْيَبِ الثِّمَارِ حَتَّى يَعُودَ البُسْتَانُ عَامِرًا بِالحَيَاةِ. فَمَا أَحْكَمَ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمَيِ اللَّهِ العَلِيمِ الحَكِيمِ الَّذِي يَعْلَمُ بَرَاءَةَ القَاتِلِ مِنَ العَمْدِ وَيَشْرَعُ لَهُ مِنَ الكَفَّارَةِ وَالتَّوْبَةِ مَا يُطَهِّرُ قَلْبَهُ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَعْظِيمٍ مُطْلَقٍ لِحُرْمَةِ الدِّمَاءِ وَحَذَرٍ شَدِيدٍ مِنْ أَيِّ تَهَوُّرٍ قَدْ يُؤَدِّي إِلَى إِزْهَاقِ رُوحٍ بَرِيئَةٍ. فَكُلُّ نَفْسٍ مُؤْمِنَةٍ هِيَ حُرْمَةٌ مُقَدَّسَةٌ، وَلَا عَدْلَ يَضْبِطُ الخَطَأَ البَشَرِيَّ إِلَّا شَرْعُ العَلِيمِ الحَكِيمِ.

وَعِيدُ الخُلُودِ لِقَاتِلِ المُؤْمِنِ عَمْدًا

صَدَى ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]

صَاعِقَةٌ مِنَ الوَعِيدِ الرَّهِيبِ تَنْزِلُ عَلَى كُلِّ مَنْ يَسْتَبِيحُ دَمَ المُؤْمِنِ عَمْدًا وَعُدْوَانًا، فَتَجْمَعُ عَلَيْهِ خَمْسَ عُقُوبَاتٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهَا الجُلُودُ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الزَّجْرِ الإِلَهِيِّ المَهُولِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي كُلُّ المُبَرِّرَاتِ الوَاهِيَةِ لِلْعُنْفِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ البَرِيئَةِ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَتَوَعَّدُ اللَّهُ قَاتِلَ المُؤْمِنِ مُتَعَمِّدًا بِجَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا، وَغَضَبِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَعْنَتِهِ وَطَرْدِهِ، وَإِعْدَادِ عَذَابٍ عَظِيمٍ لَهُ. وَكَمْ تَجَرَّأَ طُغَاةٌ وَغُلَاةٌ عَلَى قَتْلِ المُؤْمِنِينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ظَانِّينَ أَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ قُرْبَانًا أَوْ يُحَقِّقُونَ مَصْلَحَةً، فَإِذَا بِهِمْ يَسْتَجْلِبُونَ غَضَبَ الجَبَّارِ وَلَعْنَتَهُ الأَبَدِيَّةَ. أَرَى المِصْبَاحَ المُقَدَّسَ فِي المِحْرَابِ يَمُدُّ يَدَهُ مُجْرِمٌ عَاتٍ فَيُحَطِّمُهُ عَمْدًا لِيُطْفِئَ نُورَ اللَّهِ فِي الأَرْضِ، فَتَنْفَتِحُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ هَاوِيَةٌ مِنَ النَّارِ وَالغَضَبِ لَا خُرُوجَ مِنْهَا. فَمَا أَشَدَّ هَذَا التَّغْلِيظَ القُرْآنِيَّ الَّذِي يَجْعَلُ قَتْلَ المُؤْمِنِ عَمْدًا جَرِيمَةً تَهْتَزُّ لَهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَتَسْتَوْجِبُ أَشَدَّ أَنْوَاعِ العَذَابِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى رَهْبَةٍ عَظِيمَةٍ تَصُونُ يَدِي وَلِسَانِي عَنِ التَّعَرُّضِ لِأَيِّ مُؤْمِنٍ بِأَذًى أَوْ عُدْوَانٍ. فَكُلُّ دَمٍ مُؤْمِنٍ يُسْفَكُ عَمْدًا هُوَ اسْتِجْلَابٌ لِغَضَبِ اللَّهِ وَلَعْنَتِهِ، وَلَا أَمَانَ لِقَاتِلٍ مُتَعَمِّدٍ مِنْ جَهَنَّمَ وَالعَذَابِ العَظِيمِ.

فِقْهُ التَّبَيُّنِ وَحَقْنُ الدِّمَاءِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ

فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤]

تَوْجِيهٌ نَبَوِيٌّ حَكِيمٌ يُلْزِمُ المجَاهِدِينَ بِالتَّثَبُّتِ الدَّقِيقِ وَقَبُولِ ظَاهِرِ الإِسْلَامِ وَالسَّلَامِ دُونَ التَّنْقِيبِ عَنِ القُلُوبِ طَمَعًا فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الحِرْصِ عَلَى حَقْنِ الدِّمَاءِ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي جُرْأَةُ التَّكْفِيرِ المتَسَرّعِ وَالحُكْمِ عَلَى النَّوَايَا البَاطِنَةِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ مَنْ أَلْقَى السَّلَامَ وَأَظْهَرَ الإِسْلَامَ فَقَدْ عَصَمَ دَمَهُ، وَأَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ المغَانِمِ الكَثِيرَةِ أَعْظَمُ وَأَبْقَى مِنْ عَرَضِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ. وَكَمْ أُزْهِقَتْ أَرْوَاحٌ بَرِيئَةٌ فِي التَّارِيخِ بِسَبَبِ العَجَلَةِ وَسُوءِ الظَّنِّ وَاتِّهَامِ النَّاسِ فِي إِيمَانِهِمْ، فَنَسِيَ المتَسَرّعُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا بِالأَمْسِ فِي الضَّلَالِ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالهِدَايَةِ. أَرَى البُسْتَانِيَّ يَرَى غَرْسًا صَغِيرًا يَبْدَأُ فِي الإِزْهَارِ فَيَتَأَنَّى وَيَسْقِيهِ بِرِفْقٍ حَتَّى يَكْبَرَ وَيُثْمِرَ، وَلَوْ تَعَجَّلَ وَاقْتَلَعَهُ ظَنًّا أَنَّهُ نَبْتَةٌ بَرِّيَّةٌ لَخَسِرَ ثَمَرًا طَيِّبًا كَانَ سَيَنْمُو بِإِذْنِ اللَّهِ. فَمَا أَبْلَغَ تَكْرَارَ الأَمْرِ بِالتَّبَيُّنِ مَرَّتَيْنِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ مَعَ التَّذْكِيرِ بِمِنَّةِ اللَّهِ وَخِبْرَتِهِ بِالأَعْمَالِ لِيَتَرَسَّخَ الوَرَعُ فِي القُلُوبِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَأَنٍّ وَتَثَبُّتٍ قَبْلَ إِصْدَارِ أَيِّ حُكْمٍ عَلَى النَّاسِ وَاعْتِرَافٍ بِفَضْلِ اللَّهِ الَّذِي هَدَانِي لِلْإِيمَانِ. فَكُلُّ تَسَرُّعٍ فِي اتِّهَامِ المسْلِمِينَ هُوَ ظُلْمٌ وَخَطَرٌ عَظِيمٌ، وَلَا سَلَامَةَ لِلْيَدِ وَاللِّسَانِ إِلَّا بِالتَّبَيُّنِ الدَّائِمِ تَحْتَ رَقَابَةِ الخَبِيرِ البَصِيرِ.

تَفَاضُلُ المنَازِلِ بَيْنَ المجَاهِدِينَ وَالقَاعِدِينَ

صَدَى ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]

مِيزَانُ العَدْلِ الرَّبَّانِيِّ يَرْفَعُ أَهْلَ البَذْلِ وَالتَّضْحِيَةِ بِالأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ دَرَجَاتٍ عُلَا، مَعَ حِفْظِ مَكَانَةِ المؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ وَإِنْصَافِ أَصْحَابِ الأَعْذَارِ وَالضَّرَرِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا التَّقْدِيرِ الإِلَهِيِّ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي أَوْهَامُ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ مَنْ بَذَلَ رُوحَهُ وَمَالَهُ وَبَيْنَ مَنْ آثَرَ الرَّاحَةَ بِلَا عُذْرٍ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يُعْذَرُ أُولُو الضَّرَرِ الَّذِينَ حَبَسَهُمُ العُذْرُ وَقُلُوبُهُمْ مَعَ المجَاهِدِينَ، بَيْنَمَا يَفُوزُ المجَاهِدُونَ بِالأَجْرِ العَظِيمِ وَالتَّفْضِيلِ الكَبِيرِ. وَكَمْ فَتَرَتِ الهِمَمُ فِي المجْتَمَعَاتِ حِينَ تَسَاوَى العَامِلُ المضَحِّي مَعَ القَاعِدِ المسْتَرِيحِ، فَجَاءَ الوَحْيُ لِيُقِيمَ مِعْيَارَ التَّفَاضُلِ الصَّحِيحِ القَائِمِ عَلَى البَذْلِ وَالعَطَاءِ. أَرَى النَّسْرَ المحَلِّقَ فِي أَعَالِي السَّحَابِ يَشُقُّ الرِّيَاحَ بِجَنَاحَيْهِ القَوِيَّيْنِ فَيَنَالُ القِمَمَ الشَّامِخَةَ، بَيْنَمَا يَبْقَى الطَّائِرُ الوَادِعُ فِي عُشِّهِ القَرِيبِ مِنَ الأَرْضِ آمِنًا وَلَكِنَّهُ لَا يَبْلُغُ آفَاقَ العُلُوِّ وَالمجْدِ. فَمَا

أَعْدَلَ اللَّهَ الَّذِي وَعَدَ كُلَّ مُؤْمِنٍ صَادِقِ الحُسْنَى، ثُمَّ خَصَّ المجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ بِأَجْرٍ عَظِيمٍ يَلِيقُ بِعِظَمِ تَضْحِيَتِهِمْ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى تَنَافُسٍ شَرِيفٍ فِي البَذْلِ بِالمالِ وَالنَّفْسِ طَلَبًا لِأَعْلَى الدَّرَجَاتِ عِنْدَ اللَّهِ. فَكُلُّ تَضْحِيَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هِيَ رِفْعَةٌ لَا تُضَاهَى، وَلَا يَسْتَوِي عِنْدَ اللَّهِ مَنْ بَذَلَ وَجَاهَدَ مَعَ مَنْ قَعَدَ وَاسْتَرَاحَ.

مَرَاتِبُ الكَرَامَةِ وَفَيْضُ المغْفِرَةِ

صَدَى ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]

تَفْصِيلٌ لِلْأَجْرِ العَظِيمِ الَّذِي يَنْتَظِرُ المجَاهِدِينَ الصَّادِقِينَ، حَيْثُ تَتَوَالَى عَلَيْهِمُ الدَّرَجَاتُ العَالِيَةُ وَالمغْفِرَةُ الشَّامِلَةُ وَالرَّحْمَةُ الوَاسِعَةُ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا السَّخَاءِ الإِلَهِيِّ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي مَخَاوِفُ التَّقْصِيرِ البَشَرِيِّ الَّذِي قَدْ يَعْتَرِي الإِنْسَانَ أَثْنَاءَ سَعْيِهِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْفَعُ المجَاهِدِينَ دَرَجَاتٍ فَحَسْبُ بَلْ يَغْمُرُهُمْ بِمَغْفِرَةٍ تَمْحُو زَلَّاتِهِمْ وَرَحْمَةٍ تُدْخِلُهُمْ جَنَّاتِهِ. وَكَمْ جَاهَدَ المخْلِصُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُمْ يَخْشَوْنَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِتُبَشِّرَهُمْ بِأَنَّ الجِهَادَ الصَّادِقَ مَمْحَاةٌ لِلْخَطَايَا وَبَوَّابَةٌ لِلرَّحْمَةِ الأَبَدِيَّةِ. أَرَى الغَيْثَ الغَزِيرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الجَبَلِ الشَّامِخِ فَيَغْسِلُ عَنْ صُخُورِهِ كُلَّ غُبَارٍ عَالِقٍ ثُمَّ يَكْسُوهُ بِحُلَّةٍ خَضْرَاءَ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ. فَمَا أَرْحَمَ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمَيِ اللَّهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ وَالمغْفِرَةَ نَابِعَةٌ مِنْ صِفَاتِ جُودِهِ وَكَرَمِهِ الَّذِي لَا يَنْفَدُ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى رَجَاءٍ عَظِيمٍ فِي مَغْفِرَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ وَرَغْبَةٍ صَادِقَةٍ فِي الِارْتِقَاءِ فِي دَرَجَاتِ البَذْلِ وَالعَطَاءِ. فَكُلُّ خُطْوَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَرْفَعُ العَبْدَ دَرَجَاتٍ، وَلَا سَعَادَةَ أَتَمُّ مِنْ أَنْ يَجْتَمِعَ لِلْإِنْسَانِ عُلُوُّ الدَّرَجَةِ وَمَغْفِرَةُ الذَّنْبِ وَرَحْمَةُ الغَفُورِ الرَّحِيمِ.

مِحْنَةُ التَّخَاذُلِ وَمَسْؤُولِيَّةُ الهِجْرَةِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]

مَشْهَدٌ مُرْعِبٌ عِنْدَ سَكَرَاتِ المَوْتِ يُسْقِطُ عُذْرَ الاستِسْلَامِ لِلذُّلِّ وَالبَقَاءِ فِي دَارِ الفِتْنَةِ مَعَ القُدْرَةِ عَلَى الهِجْرَةِ وَالفِرَارِ بِالدِّينِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الحِسَابِ الصَّارِمِ. انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي أَعْذَارُ الخُمُولِ وَالتَّعَلُّقِ بِالأَوْطَانِ وَالأَمْوَالِ عَلَى حِسَابِ العَقِيدَةِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ مَنْ يَرْضَى بِالإِقَامَةِ فِي مَكَانٍ يُفْتَنُ فِيهِ عَنْ دِينِهِ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الهِجْرَةِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَاسْتَحَقَّ وَعِيدَ جَهَنَّمَ. وَكَمْ تَذَرَّعَ

قَاعِدُونَ بِالِاسْتِضْعَافِ الكَاذِبِ حِرْصًا عَلَى تِجَارَتِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ، حَتَّى فَاجَأَهُمُ المَوْتُ فَوَبَّخَتْهُمُ المَلَائِكَةُ بِسِعَةِ أَرْضِ اللهِ الَّتِي كَانَتْ تَتَّسِعُ لِهِجْرَتِهِمْ وَنَجَاتِهِمْ. أَرَى الطَّيْرَ الحُرَّ يَبْقَى فِي القَفَصِ المَفْتُوحِ وَسَطَ أَرْضٍ مُخْتَرِقَةٍ طَمَعًا فِي حَبَّاتٍ مَنْثُورَةٍ هُنَاكَ، فَتَلْتَهِمُهُ النِّيرَانُ وَالسَّمَاءُ الفَسِيحَةُ كَانَتْ مَفْتُوحَةً أَمَامَ جَنَاحَيْهِ لِيُحَلِّقَ نَحْوَ الأَمَانِ. فَمَا أَشَدَّ هَذَا التَّوْبِيخَ المَلَائِكِيَّ الَّذِي يُعَلِّمُ الأُمَّةَ أَنَّ الدِّينَ أَغْلَى مِنَ الأَرْضِ وَالمَالِ، وَأَنَّ أَرْضَ اللهِ وَاسِعَةٌ لِكُلِّ مَنْ أَرَادَ العِزَّةَ وَالطَّاعَةَ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى حُرِّيَّةٍ إِيمَانِيَّةٍ لَا تَرْضَى بِالذُّلِّ فِي الدِّينِ وَتَسْتَعِدُّ لِلهِجْرَةِ وَالتَّضْحِيَةِ مَتَى ضَاقَتْ سُبُلُ الطَّاعَةِ. فَكُلُّ رِضًا بِالِاسْتِضْعَافِ مَعَ القُدْرَةِ عَلَى الهِجْرَةِ هُوَ ظُلْمٌ لِلنَّفْسِ، وَلَا عُذْرَ لِمَنْ فَرَّطَ فِي دِينِهِ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ.

رَحْمَةُ الِاسْتِثْنَاءِ لِأَهْلِ العَجْزِ الحَقِيقِيِّ

صَدَى ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٨-٩٩]

لَمْسَةُ عَدْلٍ وَحَنَانٍ تَرْفَعُ الحَرَجَ وَالعِقَابَ عَنِ العَاجِزِينَ حَقًّا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ قُوَّةً وَلَا يَعْرِفُونَ طَرِيقًا لِلْخُرُوجِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الإِنْصَافِ الإِلَهِيِّ الدَّقِيقِ.

تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي مَخَاوِفُ مُؤَاخَذَةِ الضُّعَفَاءِ بِمَا لَا يُطِيقُونَ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ اللهَ يُفَرِّقُ بِعِلْمِهِ بَيْنَ المُتَخَاذِلِ القَادِرِ الَّذِي يَدَّعِي الضَّعْفَ كَذِبًا وَبَيْنَ العَاجِزِ الصَّادِقِ الَّذِي حَبَسَهُ المَرَضُ أَوِ الفَقْرُ أَوِ الجَهْلُ بِالطَّرِيقِ. وَكَمْ أَنَّتْ قُلُوبٌ صَادِقَةٌ فِي دِيَارِ الغُرْبَةِ وَالقَهْرِ وَهِيَ تَتَشَوَّقُ لِلْهِجْرَةِ وَالنُّصْرَةِ وَلَكِنَّهَا عَاجِزَةٌ عَنِ الحِيلَةِ وَالسَّبِيلِ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِتَمْسَحَ دُمُوعَهَا بِوَعْدِ العَفْوِ وَالمَغْفِرَةِ. أَرَى الشَّجَرَةَ الصَّغِيرَةَ المَغْرُوسَةَ فِي شَقِّ الصَّخْرَةِ البَعِيدَةِ تَتَطَلَّعُ نَحْوَ الوَادِي الخَصِيبِ وَلَكِنَّ جُذُورَهَا عَالِقَةٌ لَا تَمْلِكُ حَرَكَةً، فَتَرْحَمُهَا السَّمَاءُ وَتُرْسِلُ إِلَيْهَا قَطَرَاتِ النَّدَى لِتَبْقَى حَيَّةً نَقِيَّةً. فَمَا أَرَقَّ خِتَامَ الآيَتَيْنِ بِاسْمَيِ اللهِ العَفُوِّ الغَفُورِ لِيُطَمْئِنَ كُلَّ عَاجِزٍ صَادِقٍ أَنَّ عَفْوَ اللهِ يَسَعُهُ وَمَغْفِرَتَهُ تَشْمَلُهُ!

هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَتَانِ فِي أَعْمَاقِي إِلَى يَقِينٍ بِعَدْلِ اللهِ الَّذِي لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَيَعْفُو عَنْ أَهْلِ العَجْزِ وَالِاضْطِرَارِ. فَكُلُّ عَاجِزٍ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ مَعَ اللهِ فَهُوَ مَرْحُومٌ وَمَعْفُوٌّ عَنْهُ، وَلَا ظُلْمَ عِنْدَ رَبٍّ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا.

سَعَةُ الأَرْضِ وَبِشَارَةُ الهِجْرَةِ

صَدَى ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا

إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠] نَافِذَةُ أَمَلٍ وَانْطِلَاقٍ تَفْتَحُ آفَاقَ الأَرْضِ الوَاسِعَةِ أَمَامَ كُلِّ مُهَاجِرٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَتَضْمَنُ لَهُ الأَجْرَ الكَامِلَ حَتَّى لَوْ أَدْرَكَهُ المَوْتُ فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الكَرَمِ المطْلَقِ.

انْقَشَعَتْ فِي ذِهْنِي مَخَاوِفُ الفَقْرِ وَالغُرْبَةِ عِنْدَ تَرْكِ الدِّيَارِ لِأَجْلِ الدِّينِ، وَأَبْصَرْتُ أَنَّ مَنْ يُهَاجِرُ لِلَّهِ يَجِدُ فِي الأَرْضِ مُتَّسَعًا لِلرِّزْقِ وَالعِزَّةِ وَإِرْغَامِ الأَعْدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ فِي سَفَرِهِ فَقَدْ ثَبَتَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَفَازَ بِالجَنَّةِ. وَكَمْ تَرَدَّدَ أُنَاسٌ فِي الهِجْرَةِ وَالتَّغْيِيرِ نَحْوَ الطَّاعَةِ خَوْفًا مِنْ ضِيقِ العَيْشِ أَوْ انْقِطَاعِ الأَجَلِ قَبْلَ الوُصُولِ، فَبَدَّدَ القُرْآنُ مَخَاوِفَهُمْ بِضَمَانِ السَّعَةِ فِي الدُّنْيَا وَالأَجْرِ العَظِيمِ عِنْدَ المَوْتِ.

أَرَى النَّهْرَ المحْبُوسَ بَيْنَ الصُّخُورِ يَنْطَلِقُ مُتَدَفِّقًا نَحْوَ السَّهْلِ الفَسِيحِ فَيَتَّسِعُ مَجْرَاهُ وَتَزْدَهِرُ ضِفَافُهُ بِالخَيْرِ، وَحَتَّى لَوْ تَبَخَّرَتْ قَطَرَاتُهُ فِي السَّمَاءِ قَبْلَ البَحْرِ فَإِنَّهَا تَعُودُ غَيْثًا مُبَارَكًا مَقْبُولًا عِنْدَ الخَالِقِ.

فَمَا أَعْظَمَ قَوْلَهُ تَعَالَى: فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا، لِيُكافِئَ النِّيَّةَ الصَّادِقَةَ وَالشُّرُوعَ فِي الطَّاعَةِ بِكَمَالِ الأَجْرِ وَالمغْفِرَة! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى شَجَاعَةٍ فِي تَرْكِ كُلِّ مَا يُبْعِدُنِي عَنِ اللَّهِ وَيَقِينٍ بِأَنَّ النِّيَّةَ الصَّادِقَةَ تَبْلُغُ بِصَاحِبِهَا أَعْلَى المنَازِلِ وَلَوْ لَمْ يَكْتَمِلِ السَّعْيُ. فَكُلُّ هِجْرَةٍ إِلَى اللَّهِ هِيَ سَعَةٌ وَعِزَّةٌ وَنَجَاةٌ، وَلَا يَضِيعُ أَجْرُ مَنْ خَرَجَ صَادِقًا إِلَى رَبِّهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ.

سِفْرُ الصَّدَى الثَّلَاثُونَ

رُخْصَةُ السَّفَرِ وَإِحْكَامُ الصَّلَاةِ عِنْدَ الخَوْفِ

صَدَى ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٠١]

إِشْرَاقَةُ التَّخْفِيفِ فِي دُرُوبِ التَّرْحَالِ وَمَيَادِينِ الحَذَرِ تُبْرِزُ سَمَاحَةَ الشَّرِيعَةِ، فَتَأَمَّلْتُ بِإِجْلَالٍ هَذَا اللُّطْفَ الَّذِي يُرَاعِي مَشَقَّةَ السَّفَرِ وَتَرَبُّصَ الخُصُومِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي مَخَاوِفُ الِانْشِغَالِ أَثْنَاءَ الطَّرِيقِ، وَأَدْرَكْتُ كَيْفَ يَجْعَلُ الإِسْلَامُ قَصْرَ الصَّلَاةِ رَحْمَةً تَصُونُ خُشُوعَ القَلْبِ وَتُبْقِي اليَقْظَةَ حَاضِرَةً أَمَامَ العَدُوِّ المُبِينِ. وَكَمْ أُزْهِقَتْ أُمَمٌ سَابِقَةٌ بِأَثْقَالٍ لَا تَنْفَكُّ عَنْهَا فِي حِلِّهَا وَتَرْحَالِهَا، فَانْقَطَعَتْ عَنْ مِحْرَابِهَا أَوْ غَفَلَتْ عَنْ حِرَاسَةِ ثُغُورِهَا. يُشْبِهُ ذَلِكَ الفَارِسَ الَّذِي يَتَخَفَّفُ مِنْ أَحْمَالِهِ الزَّائِدَةِ لِيَقْطَعَ الصَّحْرَاءَ بِرَشَاقَةٍ وَحَذَرٍ، فَيَبْلُغَ غَايَتَهُ دُونَ أَنْ يُدْرِكَهُ التَّعَبُ أَوْ يُبَاغِتَهُ قُطَّاعُ الطَّرِيقِ. فَمَا أَبْلَغَ التَّنْبِيهَ الإِلَهِيَّ فِي خِتَامِ الآيَةِ إِلَى عَدَاوَةِ الكَافِرِينَ الظَّاهِرَةِ لِتَظَلَّ البَصِيرَةُ مُسْتَيْقِظَةً حَتَّى فِي لَحَظَاتِ المُنَاجَاةِ! وَهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي مِيزَانًا يَجْمَعُ بَيْنَ يُسْرِ العِبَادَةِ وَالحَذَرِ الوَاعِي فِي كُلِّ سَفَرٍ وَمُهِمَّةٍ. فَكُلُّ رُخْصَةٍ شَرْعِيَّةٍ هِيَ هَدِيَّةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، وَلَا تَعَارُضَ أَبَدًا بَيْنَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَأَخْذِ الحِيطَةِ مِنَ العَدُوِّ المُبِينِ.

مِحْرَابُ الخَوْفِ وَثَبَاتُ الصُّفُوفِ

صَدَى ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢]

مَشْهَدٌ فَرِيدٌ تَتَعَانَقُ فِيهِ جَبْهَةُ السُّجُودِ مَعَ قَبْضَةِ السِّلَاحِ فِي أَحْلَكِ سَاعَاتِ المواجَهَةِ، فَوَقَفْتُ مُنْبَهِرًا أَمَامَ هَذَا النِّظَامِ البَدِيعِ الَّذِي لَا يُسْقِطُ الصَّلَاةَ حَتَّى تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي صُوَرُ الفَوْضَى أَوِ التَّفْرِيطِ فِي العِبَادَةِ أَوِ الأَمْنِ، وَتَبَيَّنَ لِي كَيْفَ يَتَنَاوَبُ المؤْمِنُونَ بَيْنَ الصَّلَاةِ خَلْفَ إِمَامِهِمْ وَبَيْنَ الحِرَاسَةِ اليَقِظَةِ لِإِحْبَاطِ أَمَانِيِّ العَدُوِّ فِي الانْقِضَاضِ. وَكَمْ سَقَطَتْ

حُصُونٌ عَبْرَ التَّارِيخِ لِأَنَّ أَهْلَهَا غَفَلُوا عَنْ سِلَاحِهِمْ وَأَمْتِعَتِهِمْ لَحْظَةَ انْشِغَالِهِمْ بِطُقُوسِهِمْ، فَمَالَ عَلَيْهِمْ خُصُومُهُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً أَنْهَتْ وُجُودَهُمْ. كَأَنَّ الجَيْشَ خَلِيَّةٌ حَيَّةٌ تَنْقَسِمُ بِانْتِظَامٍ مُذْهِلٍ؛ نِصْفُهَا يَسْتَمِدُّ القُوَّةَ مِنَ السَّمَاءِ بِالسُّجُودِ، وَنِصْفُهَا يَحْرُسُ الأَرْضَ بِالسِّلَاحِ، ثُمَّ يَتَبَادَلَانِ الأَدْوَارَ دُونَ أَنْ تَنْقَطِعَ الصَّلَاةُ أَوْ تَخْتَلَّ الحِرَاسَةُ. فَمَا أَرْحَمَ الرُّخْصَةَ الَّتِي تَسْمَحُ بِوَضْعِ السِّلَاحِ عِنْدَ المَطَرِ وَالمَرَضِ مَعَ البَقَاءِ عَلَى الحَذَرِ، مُتَوَعِّدَةً الكَافِرِينَ بِعَذَابٍ مُهِينٍ يَكْسِرُ غُرُورَهُمْ! وَبِهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي رَمْزًا لِلْقُوَّةِ الرُّوحِيَّةِ وَالتَّنْظِيمِ الدَّقِيقِ الَّذِي لَا يَنْفَصِلُ فِيهِ المِحْرَابُ عَنِ المَيْدَانِ. فَكُلُّ صَلَاةٍ تُقَامُ فِي وَقْتِ الشِّدَّةِ هِيَ مَدَدٌ لِلنَّصْرِ، وَلَا غَفْلَةَ تَعْتَرِي أُمَّةً تَجْمَعُ بَيْنَ الخُشُوعِ لِلَّهِ وَأَخْذِ الحِذْرِ مِنَ المُتَرَبِّصِينَ.

تَسْبِيحُ الأَنْفَاسِ وَانْضِبَاطُ المَوَاقِيتِ

صَدَى ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]

فَيْضٌ مُتَّصِلٌ مِنَ الذِّكْرِ يَمْلَأُ الفَضَاءَ بَعْدَ انْقِضَاءِ صَلَاةِ الخَوْفِ لِيَبْقَى القَلْبُ مَوْصُولًا بِالسَّمَاءِ فِي كُلِّ حَالٍ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي طُمَأْنِينَةٌ عَمِيقَةٌ أَمَامَ هَذَا الحُضُورِ الدَّائِمِ مَعَ اللَّهِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي فِكْرَةُ انْقِطَاعِ العِبَادَةِ بِمُجَرَّدِ التَّسْلِيمِ مِنَ الصَّلَاةِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى الجُنُوبِ يُحَوِّلُ حَيَاةَ المُؤْمِنِ كُلَّهَا إِلَى عِبَادَةٍ نَابِضَةٍ، فَإِذَا عَادَ الأَمْنُ عَادَتِ الصَّلَاةُ بِتَمَامِ أَرْكَانِهَا وَأَوْقَاتِهَا المُحَدَّدَةِ. وَكَمْ تَبَعْثَرَتْ أَوْقَاتُ النَّاسِ وَضَاعَتْ أَعْمَارُهُمْ حِينَ غَفَلُوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي تَقَلُّبَاتِهِمْ وَتَهَاوَنُوا بِمَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ المَفْرُوضَةِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ النَّبْضَ المُتَوَاصِلَ فِي القَلْبِ الحَيِّ؛ يَخْفِقُ فِي الحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ دُونَ تَوَقُّفٍ، وَيَنْتَظِمُ إِيقَاعُهُ بِدِقَّةٍ عَجِيبَةٍ تَحْفَظُ لِلْجَسَدِ حَيَاتَهُ وَتَوَازُنَهُ. فَمَا أَعْظَمَ وَصْفَ الصَّلَاةِ بِأَنَّهَا كِتَابٌ مَوْقُوتٌ، أَيْ فَرْضٌ مُحَدَّدٌ بِأَوْقَاتٍ لَا تَتَقَدَّمُ وَلَا تَتَأَخَّرُ لِتُرَبِّيَ المُؤْمِنَ عَلَى احْتِرَامِ الزَّمَنِ وَالانْضِبَاطِ! وَبِهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي مَنْهَجًا لِلْحَيَاةِ يَجْعَلُ الذِّكْرَ رَفِيقَ كُلِّ لَحْظَةٍ وَالصَّلَاةَ مِيزَانَ كُلِّ يَوْمٍ. فَكُلُّ نَفَسٍ يَتَرَدَّدُ بِذِكْرِ اللَّهِ هُوَ حَيَاةٌ لِلرُّوحِ، وَلَا اسْتِقَامَةَ لِلْعَبْدِ إِلَّا بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ فِي مَوَاقِيتِهَا المَكْتُوبَةِ.

عَزِيمَةُ الصَّابِرِينَ وَرَجَاءُ السَّمَاءِ

صَدَى ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]

نَفْحَةٌ مِنَ العَزِيمَةِ وَالثَّبَاتِ تَطْرُدُ الوَهَنَ وَالِانْكِسَارَ مِنْ قُلُوبِ المؤْمِنِينَ عِنْدَ الجِرَاحِ وَالآلَامِ، فَتَأَمَّلْتُ بِإِجْلَالٍ هَذِهِ المَوَازَنَةَ النَّفْسِيَّةَ الَّتِي تَرْفَعُ رُوحَ المجَاهِدِ فَوْقَ أَلَمِ الجَسَدِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي وَهْمِيَّةُ تَفَوُّقِ الخُصُومِ أَوْ عَدَمِ تَأَثُّرِهِمْ بِالضَّرَبَاتِ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ الأَلَمَ البَشَرِيَّ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ، وَلَكِنَّ المؤْمِنَ يَمْتَازُ بِرَجَائِهِ العَظِيمِ فِي نَصْرِ اللَّهِ وَجَنَّتِهِ بَيْنَمَا يُقَاتِلُ الكَافِرُ بِلَا أَمَلٍ وَلَا رَجَاءٍ. وَكَمْ انْهَارَتْ صُفُوفٌ فِي مَيَادِينِ الصِّرَاعِ لِأَنَّهَا ظَنَّتْ أَنَّهَا وَحْدَهَا مَنْ يَتَأَلَّمُ، فَنَسِيَتْ أَنَّ خُصُومَهَا يَتَجَرَّعُونَ مَرَارَةَ الأَلَمِ نَفْسَهَا دُونَ أَنْ يَمْلِكُوا عَزَاءَ الإِيمَانِ. كَأَنَّ المتَسَابِقَيْنِ يَصْعَدَانِ جَبَلًا وَعْرًا تَحْتَ الهَجِيرِ فَيُصِيبُهُمَا التَّعَبُ وَالعَطَشُ، غَيْرَ أَنَّ أَحَدَهُمَا يَرَى قَصْرَ المَلِكِ وَجَائِزَتَهُ الكُبْرَى فِي القِمَّةِ فَيَزْدَادُ نَشَاطًا، وَالآخَرُ يَصْعَدُ نَحْوَ المجْهُولِ فَيَهْوِي مِنَ اليَأْسِ. فَمَا أَعْظَمَ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمَيِ اللَّهِ العَلِيمِ الحَكِيمِ الَّذِي يَعْلَمُ مِقْدَارَ أَلَمِ عِبَادِهِ وَيُقَدِّرُ الابتِلَاءَ بِحِكْمَتِهِ لِيُمَحِّصَ قُلُوبَهُمْ! وَبِهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي قُوَّةً تَهْزِمُ الضَّعْفَ وَتَجْعَلُ الرَّجَاءَ فِي اللَّهِ بَلْسَمًا يَشْفِي كُلَّ جُرْحٍ. فَكُلُّ أَلَمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُوَ مَغْفُورٌ وَمَأْجُورٌ، وَلَا يَغْلِبُ اليَأْسُ قَلْبًا يَرْجُو مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُوهُ الجَاحِدُونَ.

قِسْطُ المِيزَانِ وَعِصْمَةُ القَضَاءِ

صَدَى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]

إِعْلَانٌ صَارِمٌ عَنْ نَزَاهَةِ الوَحْيِ وَتَجَرُّدِ القَضَاءِ الإِسْلَامِيِّ مِنْ كُلِّ عَصَبِيَّةٍ أَوْ مُحَابَاةٍ لِلْخَائِنِينَ وَلَوْ تَسَتَّرُوا بِانْتِمَائِهِمْ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا العَدْلِ المطْلَقِ الَّذِي يَنْتَصِرُ لِلْبَرِيءِ وَيَفْضَحُ الخَائِنَ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي نَزَعَاتُ الدِّفَاعِ عَنِ القَرِيبِ أَوِ الصَّدِيقِ عَلَى حِسَابِ الحَقِيقَةِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ الكِتَابَ نَزَلَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ جَمِيعًا بِالقِسْطِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ المؤْمِنُ مُدَافِعًا عَنِ الخَوَنَةِ أَوْ مُخَاصِمًا عَنْهُمْ. وَكَمْ فَسَدَتْ أَنْظِمَةٌ وَضَاعَتْ حُقُوقُ الضُّعَفَاءِ حِينَ تَحَوَّلَ القَضَاءُ وَالدِّفَاعُ إِلَى أَدَاةٍ لِتَبْرِئَةِ الخَائِنِينَ بِسَبَبِ القَرَابَةِ أَوِ الجَاهِ أَوِ المالِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ المِيزَانَ الحَسَّاسَ فِي مَخْزَنِ الجَوَاهِرِ لَا يُجَامِلُ صَاحِبَهُ وَلَا يَمِيلُ مَعَ بَرِيقِ الزُّجَاجِ، بَلْ يُعْطِي كُلَّ مَعْدِنٍ وَزْنَهُ الحَقِيقِيَّ بِأَمَانَةٍ وَصِدْقٍ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الدَّرْسَ القُرْآنِيَّ الَّذِي نَزَلَ لِيُبَرِّئَ مَظْلُومًا وَيَكْشِفَ خِيَانَةَ مَنْ أَرَادَ إِلْصَاقَ التُّهْمَةِ بِغَيْرِهِ، لِيَبْقَى عَدْلُ الإِسْلَامِ نَاصِعًا لَا تُلَوِّثُهُ العَصَبِيَّةُ! وَبِهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي مِيثَاقًا لِلْعَدَالَةِ يُلْزِمُنِي بِالْوُقُوفِ مَعَ الحَقِّ المجَرَّدِ وَالبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ خَائِنٍ مَهْمَا كَانَتْ صِلَتُهُ. فَكُلُّ دِفَاعٍ عَنِ الخِيَانَةِ هُوَ خُصُومَةٌ لِلْحَقِّ، وَلَا رِفْعَةَ لِأُمَّةٍ إِلَّا حِينَ يَحْكُمُ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ بِالعَدْلِ المطْلَقِ.

بَابُ الاسْتِغْفَارِ وَجَدَلُ الخَوَنَةِ

صَدَى ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦-١٠٧]

تَزْكِيَةٌ لِلْقَلْبِ بِالِاسْتِغْفَارِ وَتَنْزِيهٌ لِلِّسَانِ عَنِ الجِدَالِ البَاطِلِ فِي نُصْرَةِ مَنْ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالمَعْصِيَةِ وَالغَدْرِ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي رَهْبَةٌ مِنْ عَاقِبَةِ الخِيَانَةِ وَبُغْضِ اللَّهِ لِأَهْلِهَا. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي حَقِيقَةُ أَنَّ الخَائِنَ لِلنَّاسِ إِنَّمَا يَخُونُ نَفْسَهُ أَوَّلًا لِأَنَّهُ يُورِدُهَا مَوَارِدَ الهَلَاكِ وَيَحْرِمُهَا مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ، فَلَا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الحَقِّ أَنْ يُجَادِلَ عَنْهُ أَوْ يُبَرِّرَ جَرِيمَتَهُ. وَكَمْ انْزَلَقَ أُنَاسٌ فِي الدِّفَاعِ عَنِ المُجْرِمِينَ وَالمُخْتَلِسِينَ فَحَمَلُوا وِزْرَ الجِدَالِ بِالبَاطِلِ وَخَسِرُوا رِضَا الرَّحْمَنِ الَّذِي لَا يُحِبُّ الخَوَّانَ الأَثِيمَ. كَأَنَّ السُّوسَ الخَفِيَّ يَنْخُرُ فِي جِذْعِ الشَّجَرَةِ مِنَ الدَّاخِلِ فَيَظُنُّ أَنَّهُ يَأْكُلُ غَيْرَهُ، وَمَا يَدْرِي أَنَّهُ يُسْقِطُ البَيْتَ الَّذِي يَسْكُنُهُ وَيُهْلِكُ نَفْسَهُ بِيَدِهِ. فَمَا أَلْطَفَ أَنْ يُسْبَقَ النَّهْيُ عَنِ الجِدَالِ بِالأَمْرِ بِالِاسْتِغْفَارِ وَذِكْرِ المَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، لِيَظَلَّ القَلْبُ مُنْكَسِرًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ طَالِبًا لِلْعِصْمَةِ مِنَ الزَّلَلِ! وَبِهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَتَانِ فِي وِجْدَانِي تَطْهِيرًا لِنَفْسِي بِالِاسْتِغْفَارِ وَكُفًّا لِلِسَانِي عَنِ الخُصُومَةِ فِي البَاطِلِ. فَكُلُّ خِيَانَةٍ يُقْدِمُ عَلَيْهَا الإِنْسَانُ هِيَ طَعْنَةٌ فِي نَفْسِهِ، وَلَا يَنَالُ مَحَبَّةَ اللَّهِ مَنْ أَلِفَ الغَدْرَ وَالإِثْمَ.

غَفْلَةُ التَّسَتُّرِ وَإِحَاطَةُ العَلِيمِ

صَدَى ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]

تَصْوِيرٌ نَفْسِيٌّ مُذْهِلٌ لِانْقِلَابِ المَوَازِينِ فِي قُلُوبِ الغَافِلِينَ الَّذِينَ يَهَابُونَ أَعْيُنَ البَشَرِ وَيَنْسَوْنَ رَقَابَةَ الخَالِقِ المُحِيطِ بِهِمْ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ المَعِيَّةِ الإِلَهِيَّةِ الكَاشِفَةِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي أَوْهَامُ السِّرِّيَّةِ وَالِاخْتِبَاءِ خَلْفَ الجُدْرَانِ وَالأَسْتَارِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ اللَّهَ حَاضِرٌ بِعِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ مَعَ المُتَآمِرِينَ حِينَ يُبَيِّتُونَ فِي الظَّلَامِ مَا لَا يَرْضَاهُ مِنَ القَوْلِ وَالتَّدْبِيرِ. وَكَمْ جَعَلَ النَّاسُ اللَّهَ أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِمْ فَتَجَمَّلُوا أَمَامَ الخَلْقِ وَتَجَرَّؤُوا عَلَى المَعَاصِي وَالمَكَايِدِ فِي الخَلَوَاتِ، حَتَّى فَضَحَتْهُمْ إِحَاطَةُ اللَّهِ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ مَنْ يُغْلِقُ نَوَافِذَ غُرْفَتِهِ الصَّغِيرَةِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَرَاهُ الجِيرَانُ، وَيَنْسَى أَنَّ سَقْفَ الغُرْفَةِ مَكْشُوفٌ تَمَامًا تَحْتَ عَيْنِ السَّمَاءِ وَضَوْءِ الشَّمْسِ السَّاطِعَةِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّنْبِيهَ الَّذِي يُوقِظُ الحَيَاءَ الحَقِيقِيَّ مِنَ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ، لِأَنَّ إِحَاطَتَهُ بِالأَعْمَالِ لَا تَتْرُكُ مَجَالًا لِلْهَرَبِ أَوِ الإِنْكَارِ! وَبِهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي مُرَاقَبَةً دَائِمَةً تَجْعَلُ خَلْوَتِي أَشَدَّ طُهْرًا

وَنَقَاءً مِنْ جَلْوَتِي أَمَامَ النَّاسِ. فَكُلُّ خَبِيئَةٍ يُدَبِّرُهَا الإِنْسَانُ فِي الظَّلَامِ مَكْشُوفَةٌ أَمَامَ رَبِّ العَالَمِينَ، وَلَا حَيَاءَ صَادِقًا إِلَّا حِينَ يَكُونُ الخَوْفُ مِنَ اللَّهِ أَعْظَمَ مِنَ الخَوْفِ مِنَ البَشَرِ.

سُؤَالُ المصِيرِ وَوَحْشَةُ الحِسَابِ

صَدَى ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩]

تَبْكِيتٌ بَلِيغٌ يُوقِظُ الضَّمَائِرَ مِنْ غَفْلَةِ التَّعَصُّبِ الدُّنْيَوِيِّ بِتَذْكِيرِهَا بِمَوْقِفِ الحِسَابِ الأَكْبَرِ حَيْثُ تَسْقُطُ كُلُّ الوَسَاطَاتِ وَتَخْرَسُ الأَلْسِنَةُ المدَافِعَةُ عَنِ البَاطِلِ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي رَهْبَةٌ مِنْ يَوْمِ التَّنَادِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي هَشَاشَةُ الحِمَايَةِ البَشَرِيَّةِ الَّتِي يَغْتَرُّ بِهَا المجْرِمُونَ فِي الدُّنْيَا، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ الجِدَالَ عَنِ الخَوَنَةِ قَدْ يُنْقِذُهُمْ مُؤَقَّتًا فِي مَحَاكِمِ الأَرْضِ، وَلَكِنْ مَنْ يَجْرُؤُ عَلَى مُجَادَلَةِ اللَّهِ عَنْهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَوْ يَتَوَلَّى الدِّفَاعَ عَنْهُمْ؟ وَكَمْ غَرَّتِ البِطَانَةُ الفَاسِدَةُ أَصْحَابَ السُّلْطَانِ وَالمالِ بِتَبْرِيرِ ظُلْمِهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَلَمَّا جَاءَ المَوْتُ تَبَرَّأَ الجَمِيعُ مِنَ الجَمِيعِ وَبَقِيَ الظَّالِمُ وَحِيدًا أَمَامَ عَدْلِ الجَبَّارِ. كَأَنَّ المحَامِيَ الماهِرَ يُدَافِعُ عَنْ مُذْنِبٍ أَمَامَ قَاضٍ بَشَرِيٍّ غَافِلٍ فَيُخْرِجُهُ مِنَ السِّجْنِ الصَّغِيرِ، حَتَّى إِذَا دُعِيَ إِلَى مَحْكَمَةِ المَلِكِ العَلِيمِ الَّذِي يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ فَرَّ المحَامِي وَتَرَكَهُ لِمَصِيرِهِ المحْتُومِ. فَمَا أَبْلَغَ هَذَا الِاسْتِفْهَامَ الَّذِي يَكْسِرُ غُرُورَ المُطِلِينَ وَيُذَكِّرُ المدَافِعِينَ عَنْهُمْ بِأَنَّ نُصْرَتَهُمْ لِلْبَاطِلِ لَا تُغْنِي عَنْ أَصْحَابِهِ شَيْئًا عِنْدَ اللَّهِ! وَبِهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي مِعْيَارًا يَزِنُ كُلَّ مَوْقِفٍ بِمِيزَانِ يَوْمِ القِيَامَةِ قَبْلَ مِيزَانِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ. فَكُلُّ دِفَاعٍ عَنِ البَاطِلِ فِي الدُّنْيَا هُوَ سَرَابٌ وَخِذْلَانٌ، وَلَا وَكِيلَ وَلَا شَفِيعَ لِلْخَائِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ.

بَشَائِرُ التَّوْبَةِ وَسِعَةُ المغْفِرَةِ

صَدَى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]

نَافِذَةُ أَمَلٍ وَرَحْمَةٍ تُشْرِقُ بَعْدَ ظُلْمَةِ التَّحْذِيرِ وَالوَعِيدِ لِتَفْتَحَ بَابَ العَوْدَةِ لِكُلِّ مُذْنِبٍ نَادِمٍ مَهْمَا عَظُمَتْ زَلَّتُهُ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الكَرَمِ الرَّبَّانِيِّ الوَاسِعِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي وَسَاوِسُ القُنُوطِ الَّتِي يَبُثُّهَا الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِ العُصَاةِ لِيَمْنَعَهُمْ مِنَ التَّوْبَةِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ الفَارِقَ بَيْنَ المغْفُورِ لَهُ وَالمطْرُودِ هُوَ الِاعْتِرَافُ وَالِاسْتِغْفَارُ الصَّادِقُ بَعْدَ الذَّنْبِ لَا الإِصْرَارُ وَالمجَادَلَةُ بِالبَاطِلِ. وَكَمْ أَحْيَتْ هَذِهِ الآيَةُ قُلُوبًا كَادَتْ تَهْلِكُ تَحْتَ وَطْأَةِ الذُّنُوبِ، فَأَقْبَلَتْ عَلَى رَبِّهَا مُسْتَغْفِرَةً تَائِبَةً فَوَجَدَتْهُ غَفُورًا يَسْتُرُ العَيْبَ وَرَحِيمًا يَمْحُو الأَثَرَ. يُشْبِهُ ذَلِكَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ الَّذِي يُصِيبُهُ غُبَارُ الطَّرِيقِ فَيُسَارِعُ

صَاحِبُهُ إِلَى غَسْلِهِ فِي النَّبْعِ الصَّافِي فَيَعُودُ أَنْقَى وَأَشْرَقَ مِمَّا كَانَ قَبْلَ الِاتِّسَاخِ. فَمَا أَرَقَّ وَعْدَ اللَّهِ الصَّادِقَ: يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا، لِيُطَمْئِنَ كُلَّ تَائِبٍ أَنَّ المَغْفِرَةَ تَنْتَظِرُهُ عِنْدَ أَوَّلِ خُطْوَةِ رُجُوعٍ صَادِقَةٍ! وَبِهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي مَلَاذًا آمِنًا أَفِرُّ إِلَيْهِ بِالِاسْتِغْفَارِ كُلَّمَا زَلَّتِ القَدَمُ أَوْ ظَلَمْتُ نَفْسِي بِتَقْصِيرٍ. فَكُلُّ ذَنْبٍ يُتْبَعُ بِاسْتِغْفَارٍ صَادِقٍ يَتَلَاشَى فِي بَحْرِ الجُودِ، وَلَا خَيْبَةَ أَبَدًا لِمَنْ طَرَقَ بَابَ الغَفُورِ الرَّحِيمِ.

فَرْدِيَّةُ الجَزَاءِ وَعَدْلُ التَّبِعَةِ

صَدَى ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١١]

قَانُونُ العَدَالَةِ الإِلَهِيَّةِ الَّذِي يَحْصُرُ وَبَالَ المَعْصِيَةِ فِي صَاحِبِهَا فَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي طُمَأْنِينَةٌ أَمَامَ هَذَا الإِنْصَافِ المُطْلَقِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي أَوْهَامُ تَحْمِيلِ الأَبْرِيَاءِ جَرَائِرَ المُذْنِبِينَ أَوِ نَجَاةِ العَاصِي بِإِلْقَاءِ التُّهْمَةِ عَلَى غَيْرِهِ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ كُلَّ إِثْمٍ يَكْسِبُهُ الإِنْسَانُ إِنَّمَا هُوَ حِمْلٌ ثَقِيلٌ يَضَعُهُ عَلَى عَاتِقِ نَفْسِهِ وَحْدَهَا. وَكَمْ ظَلَمَتْ شَرَائِعُ البَشَرِ أُنَاسًا أَبْرِيَاءَ بِسَبَبِ جَرَائِمِ أَقَارِبِهِمْ أَوْ قَبَائِلِهِمْ، فَجَاءَ الإِسْلَامُ لِيُقَرِّرَ أَنَّ المَسْؤُولِيَّةَ فَرْدِيَّةٌ خَالِصَةٌ لَا تَتَعَدَّى الفَاعِلَ إِلَى غَيْرِهِ. كَأَنَّ السَّائِرَ فِي الطَّرِيقِ يَلْتَقِطُ حِجَارَةً ثَقِيلَةً وَيَضَعُهَا فِي حَقِيبَتِهِ ظَانًّا أَنَّهُ يَضُرُّ بِهَا رُفَقَاءَ الدَّرْبِ، فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَنُوءَ ظَهْرُهُ تَحْتَ ثِقَلِهَا وَيَسْقُطَ وَحْدَهُ فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ. فَمَا أَعْظَمَ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمَيِ اللَّهِ العَلِيمِ الحَكِيمِ الَّذِي يَعْلَمُ الفَاعِلَ الحَقِيقِيَّ لِكُلِّ ذَنْبٍ وَيَضَعُ الجَزَاءَ فِي مَوْضِعِهِ بِحِكْمَةٍ لَا تُخْتَلُّ! وَبِهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي يَقَظَةً تُنْعِنِي مِنِ اكْتِسَابِ أَيِّ إِثْمٍ لِعِلْمِي أَنَّ ضَرَرَهُ عَائِدٌ عَلَيَّ وَحْدِي. فَكُلُّ مَعْصِيَةٍ هِيَ جِنَايَةٌ يَرْتَكِبُهَا العَبْدُ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، وَلَا يُؤْخَذُ بَرِيءٌ بِذَنْبِ غَيْرِهِ عِنْدَ العَلِيمِ الحَكِيمِ.

بَشَاعَةُ البُهْتَانِ وَجَرِيمَةُ التَّلْفِيقِ

صَدَى ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٢]

تَغْلِيظٌ شَدِيدٌ لِلْجَرِيمَةِ المُرَكَّبَةِ الَّتِي يَجْمَعُ فِيهَا الظَّالِمُ بَيْنَ ارْتِكَابِ الذَّنْبِ وَبَيْنَ إِلْصَاقِ التُّهْمَةِ بِإِنْسَانٍ بَرِيءٍ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الحِسَابِ المُضَاعَفِ الَّذِي يَنْتَصِرُ لِلْمَظْلُومِينَ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي حِيَلُ الفَارِّينَ مِنَ المَسْؤُولِيَّةِ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الضُّعَفَاءَ كَبْشَ فِدَاءٍ لِتَبْرِئَةِ أَنْفُسِهِمْ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ رَمْيَ البَرِيءِ بِالتُّهْمَةِ يُضَاعِفُ الجَرِيمَةَ فَيَحْتَمِلُ صَاحِبُهَا وِزْرَ البُهْتَانِ وَالكَذِبِ فَوْقَ وِزْرِ

خَطِيئَتِهِ الأُولَى. وَكَمْ عَانَى شُرَفَاءُ وَأَبْرِيَاءُ فِي سُجُونِ الظُّلْمِ بِسَبَبِ شَهَادَاتِ الزُّورِ وَتَلْفِيقِ التُّهَمِ مِنْ قِبَلِ المجْرِمِينَ الحَقِيقِيِّينَ، فَكَانَ وَعِيدُ السَّمَاءِ لَهُمْ بِالإِثْمِ المبِينِ عَزَاءً لِكُلِّ مَظْلُومٍ. يُشْبِهُ ذَلِكَ مَنْ يُلْقِي السُّمَّ فِي بِئْرِ القَرْيَةِ ثُمَّ يَضَعُ القَارُورَةَ الفَارِغَةَ فِي ثِيَابِ جَارِهِ الصَّالِحِ لِيُوهِمَ النَّاسَ بِبَرَاءَتِهِ، فَيَكْشِفُهُ المِلكُ وَيُعَاقِبُهُ عَلَى السُّمِّ وَالتَّزْوِيرِ مَعًا. فَمَا أَبْشَعَ البُهْتَانَ الَّذِي يَهْدِمُ الأَعْرَاضَ وَيَظْلِمُ الأَبْرِيَاءَ، لِيَحْمِلَ صَاحِبُهُ عِبْئًا ثَقِيلًا يَنُوءُ بِهِ يَوْمَ الحِسَابِ! وَهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي وَرَعًا شَدِيدًا يَصُونُ لِسَانِي عَنِ اتِّهَامِ أَيِّ بَرِيءٍ وَيُلْزِمُنِي بِتَحَمُّلِ مَسْؤُولِيَّةِ أَخْطَائِي بِشَجَاعَةٍ وَصِدْقٍ. فَكُلُّ مَنْ رَمَى بَرِيئًا بِذَنْبِهِ فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الخِيَانَةِ وَالظُّلْمِ، وَلَا نَجَاةَ لِمَنْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا.

عِصْمَةُ النُّبُوَّةِ وَفَضْلُ الرَّحْمَنِ

صَدَى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]

تَجَلِّي الحِمَايَةِ الإِلَهِيَّةِ لِخَاتَمِ الأَنْبِيَاءِ حِينَ كَشَفَ لَهُ الوَحْيُ مَكْرَ المتَآمِرِينَ وَعَصَمَهُ مِنْ خِدَاعِهِمْ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي سَكِينَةٌ وَاعْتِزَازٌ بِعِنَايَةِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ الكَرِيمِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي أَوْهَامُ قُدْرَةِ المَاكِرِينَ عَلَى تَضْلِيلِ أَهْلِ الحَقِّ الصَّادِقِينَ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ مَكْرَهُمْ يَرْتَدُّ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَلَا يَضُرُّونَ الرَّسُولَ شَيْئًا، وَأَنَّ اللَّهَ أَحَاطَ نَبِيَّهُ بِالكِتَابِ وَالحِكْمَةِ وَالعِلْمِ الَّذِي يَكْشِفُ الخَفَايَا. وَكَمْ حَاوَلَتْ طَوَائِفُ الزَّيْغِ عَبْرَ العُصُورِ تَلْبِيسَ البَاطِلِ بِثَوْبِ الحَقِّ لِخِدَاعِ القَادَةِ وَالمصْلِحِينَ، فَتَكَفَّلَتْ عِنَايَةُ السَّمَاءِ بِفَضْحِ مُؤَامَرَاتِهِمْ وَتَثْبِيتِ أَوْلِيَائِهَا بِنُورِ العِلْمِ وَالحِكْمَةِ. كَأَنَّ الجَبَلَ الشَّامِخَ تُحِيطُ بِهِ سُحُبُ الدُّخَانِ لِتَحْجُبَ قِمَّتَهُ عَنِ النَّاظِرِينَ، فَتُرْسِلُ السَّمَاءُ رِيحًا طَيِّبَةً تُبَدِّدُ الدُّخَانَ وَتُشْرِقُ الشَّمْسُ عَلَى قِمَّتِهِ لِتُظْهِرَ عُلُوَّهُ وَشُمُوخَهُ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الِامْتِنَانَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يُعَدِّدُ نِعَمَ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّهِ مِنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيمِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِ عَظِيمٌ لَا يُحِيطُ بِهِ وَصْفٌ! وَهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي يَقِينًا بِأَنَّ التَّمَسُّكَ بِالكِتَابِ وَالحِكْمَةِ هُوَ الحِصْنُ المنِيعُ ضِدَّ كُلِّ تَضْلِيلٍ وَخِدَاعٍ. فَكُلُّ مَكْرٍ يُرَادُ بِهِ إِضْلَالُ أَهْلِ الحَقِّ يَنْقَلِبُ وَبَالًا عَلَى أَصْحَابِهِ، وَلَا عِصْمَةَ لِلْقَلْبِ إِلَّا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ وَنُورِ وَحْيِهِ.

طَهَارَةُ النَّجْوَى وَمَرْضَاةُ الرَّحْمَنِ

صَدَى ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ

يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]

تَصْفِيَةٌ شَامِلَةٌ لِمَجَالِسِ البَشَرِ وَأَحَادِيثِهِمُ الخَفِيَّةِ تُسْقِطُ اللَّغْوَ وَالمؤَامَرَاتِ وَلَا تُبْقِي إِلَّا ثَلَاثَةَ أَبْوَابٍ لِلْخَيْرِ: الصَّدَقَةَ وَالمعْرُوفَ وَالإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا المِعْيَارِ النَّبِيلِ لِلْكَلَامِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي قِيمَةُ الجَدَلِ العَقِيمِ وَالنَّجْوَى الَّتِي تَمْلَأُ المجَالِسَ بِالْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ الكَلِمَةَ تَكْتَسِبُ خُلُودَهَا حِينَ تُثْمِرُ عَطَاءً لِلْفَقِيرِ أَوْ إِحْسَانًا لِلْخَلْقِ أَوْ صُلْحًا بَيْنَ مُتَخَاصِمَيْنِ مَعَ إِخْلَاصِ النِّيَّةِ لِلَّهِ. وَكَمْ أُهْدِرَتْ أَعْمَارٌ فِي هَمْسِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِيمَا لَا يَنْفَعُ بَلْ يُفْسِدُ القُلُوبَ، بَيْنَمَا رَفَعَ الإِسْلَامُ السَّاعِينَ فِي الصُّلْحِ وَالمعْرُوفِ إِلَى مَقَامِ الأَجْرِ العَظِيمِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ النَّسِيمَ العَلِيلَ يَمُرُّ عَلَى الحَدِيقَةِ فَيَحْمِلُ حُبُوبَ اللِّقَاحِ بَيْنَ الأَزْهَارِ لِتُثْمِرَ وَتَزْدَهِرَ، بِخِلَافِ الرِّيحِ الصَّفْرَاءِ الَّتِي تَحْمِلُ الغُبَارَ وَالشَّوْكَ فَتُؤْذِي الأَعْيُنَ وَتُذْبِلُ الأَوْرَاقَ. فَمَا أَعْظَمَ الشَّرْطَ القَلْبِيَّ الَّذِي يَجْعَلُ هَذِهِ الأَعْمَالَ الجَلِيلَةَ مَقْبُولَةً: ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ، لِيُكافِئَ اللَّهُ صَاحِبَهَا بِأَجْرٍ عَظِيمٍ لَا يَنْقَطِعُ! وَبِهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي رَقِيبًا عَلَى كُلِّ حَدِيثٍ وَاجْتِمَاعٍ لِأَجْعَلَهُ مِفْتَاحًا لِلصَّدَقَةِ أَوِ المعْرُوفِ أَوِ الإِصْلَاحِ. فَكُلُّ نَجْوَى تَخْلُو مِنْ نَفْعِ الخَلْقِ هِيَ ضَيَاعٌ وَخَسَارَةٌ، وَلَا أَجْرَ عَظِيمًا إِلَّا لِمَنْ سَعَى فِي الخَيْرِ خَالِصًا لِوَجْهِ اللَّهِ.

خَطَرُ المشَاقَّةِ وَالِانْحِرَافِ عَنِ الجَمَاعَةِ

صَدَى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]

تَحْذِيرٌ حَاسِمٌ مِنْ شَقِّ عَصَا الطَّاعَةِ لِلرَّسُولِ وَمُفَارَقَةِ سَبِيلِ المؤْمِنِينَ بَعْدَ وُضُوحِ الحَقِّ، حَيْثُ يُتْرَكُ المنْحَرِفُ لِضَلَالِهِ ثُمَّ يُسَاقُ إِلَى جَهَنَّمَ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي رَهْبَةٌ مِنْ عَاقِبَةِ الشُّذُوذِ وَالعِنَادِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي خُطُورَةُ الِانْعِزَالِ الفِكْرِيِّ وَمُخَالَفَةِ إِجْمَاعِ الأُمَّةِ وَهَدْيِ النُّبُوَّةِ بَعْدَ بَيَانِ الهُدَى، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ أَشَدَّ العُقُوبَاتِ فِي الدُّنْيَا أَنْ يُوَلِّيَ اللَّهُ العَبْدَ مَا تَوَلَّى فَيَخْذُلَهُ وَيَتْرُكَهُ تَائِهًا فِي طَرِيقِ الهَوَى. وَكَمْ ضَلَّتْ فِرَقٌ وَأَفْرَادٌ حِينَ أَعْجَبَتْهُمْ آرَاؤُهُمُ الشَّاذَّةُ فَخَالَفُوا الرَّسُولَ وَتَرَكُوا سَبِيلَ المؤْمِنِينَ، فَوَكَلَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَسَقَطُوا فِي هَاوِيَةِ الجَحِيمِ. كَأَنَّ السَّائِرَ فِي القَافِلَةِ الآمِنَةِ يَتْرُكُ الطَّرِيقَ المضِيءَ وَرُفَقَاءَ الدَّرْبِ بَعْدَ أَنْ عَرَفَ المعَالِمَ، فَيَسْلُكُ شِعَابَ الصَّحْرَاءِ المظْلِمَةِ وَحْدَهُ فَتَتَخَطَّفُهُ الوُحُوشُ وَيَهْلِكُ عَطَشًا. فَمَا أَشَدَّ هَذَا التَّلَازُمَ بَيْنَ مُشَاقَّةِ الرَّسُولِ وَاتِّبَاعِ غَيْرِ سَبِيلِ المؤْمِنِينَ، لِيَعْلَمَ المسْلِمُ أَنَّ النَّجَاةَ فِي لُزُومِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ! وَبِهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَمَسُّكًا وَثِيقًا بِهَدْيِ الرَّسُولِ

وَمَنْهَجِ المؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ وَخَوْفًا مِنْ أَنْ يَكِلَنِي اللَّهُ إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ. فَكُلُّ خُرُوجٍ عَنْ هَدْيِ النُّبُوَّةِ وَسَبِيلِ المؤْمِنِينَ هُوَ طَرِيقٌ إِلَى الجَحِيمِ، وَلَا أَمَانَ لِلْعَبْدِ إِلَّا فِي الثَّبَاتِ مَعَ رَكْبِ الهُدَى حَتَّى اللِّقَاءِ.

ظُلْمَةُ الشِّرْكِ وَسِعَةُ الرَّحْمَةِ

صَدَى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]

تَأْكِيدٌ مُتَجَدِّدٌ لِأَعْظَمِ حَقَائِقِ العَقِيدَةِ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ النُّورِ وَالظَّلَامِ، حَيْثُ يُغْلَقُ بَابُ المغْفِرَةِ دُونَ الشِّرْكِ وَيَبْقَى مَفْتُوحًا لِمَا دُونَهُ تَحْتَ مَشِيئَةِ الرَّحْمَنِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ جَلَالِ التَّوْحِيدِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي كُلُّ أَوْهَامِ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ تَعْظِيمِ الأَسْبَابِ دُونَ المسَبِّبِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ الشِّرْكَ لَيْسَ مُجَرَّدَ ذَنْبٍ عَابِرٍ بَلْ هُوَ ضَلَالٌ بَعِيدٌ يَقْطَعُ الصِّلَةَ بِالخَالِقِ وَيُفْسِدُ الفِطْرَةَ مِنْ جُذُورِهَا. وَكَمْ تَاهَتْ بَشَرِيَّةٌ فِي أَوْدِيَةِ الخُرَافَةِ وَالوَثَنِيَّةِ حِينَ صَرَفَتْ قُلُوبَهَا لِلْمَخْلُوقِينَ، فَابْتَعَدَتْ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ ضَلَالًا بَعِيدًا لَا عَوْدَةَ مِنْهُ إِلَّا بِتَوْبَةٍ صَادِقَةٍ قَبْلَ الموْتِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ المسَافِرَ الَّذِي يُدِيرُ ظَهْرَهُ لِلْقِبْلَةِ وَيَمْشِي فِي الاتِّجَاهِ المعَاكِسِ بِكُلِّ قُوَّتِهِ، فَكُلَّمَا زَادَ فِي السَّيْرِ ازْدَادَ بُعْدًا عَنِ البَيْتِ الحَرَامِ وَتَاهَ فِي مَفَاوِزِ الهَلَاكِ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللَّهِ الَّتِي تَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْكَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ الموَحِّدِينَ، لِيَظَلَّ التَّوْحِيدُ هُوَ طَوْقَ النَّجَاةِ الأَعْظَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ! وَبِهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَحْرِيدًا خَالِصًا لِلْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَحَذَرًا مِنْ كُلِّ مَا يَقْدَحُ فِي صَفَاءِ التَّوْحِيدِ. فَكُلُّ ذَنْبٍ يُرْجَى غُفْرَانُهُ مَا دَامَ أَصْلُ التَّوْحِيدِ سَلِيمًا، وَلَا ضَلَالَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يُشْرِكَ العَبْدُ بِخَالِقِهِ سِوَاهُ.

خُرَافَةُ الأَوْثَانِ وَعُبُودِيَّةُ الشَّيْطَانِ

صَدَى ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧]

كَشْفٌ لِحَقِيقَةِ الشِّرْكِ الهَزِيلَةِ الَّتِي تَنْحَدِرُ بِالإِنْسَانِ المكَرَّمِ لِيَدْعُوَ أَصْنَامًا عَاجِزَةً وَيُطِيعَ فِي الحَقِيقَةِ شَيْطَانًا مَرِيدًا مُتَمَرِّدًا عَلَى الخَيْرِ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي شَفَقَةٌ عَلَى عُقُولٍ عَطَّلَتْ نُورَهَا. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي زَخَارِفُ الوَثَنِيَّةِ القَدِيمَةِ وَالحَدِيثَةِ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ هُوَ عَاجِزٌ لَا يَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَأَنَّ المشْرِكِينَ فِي حَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ يَسْتَجِيبُونَ لِوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ المرِيدِ الَّذِي يُزَيِّنُ لَهُمُ البَاطِلَ. وَكَمْ أَذَلَّ البَشَرُ أَنْفُسَهُمْ لِحِجَارَةٍ صَمَّاءَ وَأَسْمَاءٍ وَهْمِيَّةٍ وَأَهْوَاءٍ زَائِفَةٍ، فَتَرَكُوا عِبَادَةَ القَوِيِّ العَزِيزِ وَسَلَّمُوا زِمَامَهُمْ لِأَلَدِّ أَعْدَائِهِمْ. كَأَنَّ المِلِكَ المتَوَّجَ يَتْرُكُ قَصْرَهُ العَامِرَ وَخَزَائِنَهُ المِلْوءَةَ لِيَقِفَ

عَلَى بَابِ دُمْيَةٍ مِنْ طِينٍ يَسْأَلُهَا الطَّعَامَ، بَيْنَمَا يَقِفُ لِصٌّ خَبِيثٌ خَلْفَ الدُّمْيَةِ يَضْحَكُ مِنْ سَذَاجَتِهِ وَيَسْرِقُ مَا بَقِيَ مَعَهُ. فَمَا أَبْلَغَ هَذَا البَيَانَ القُرْآنِيَّ الَّذِي يَفْضَحُ المحَرِّكَ الخَفِيَّ لِكُلِّ شِرْكٍ وَانْحِرَافٍ وَهُوَ الشَّيْطَانُ المرِيدُ المجَرَّدُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ! وَبِهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَحَرُّرًا كَامِلًا مِنْ كُلِّ عُبُودِيَّةٍ لِغَيْرِ اللَّهِ وَيَقَظَةً تِجَاهَ تَلْبِيسِ الشَّيْطَانِ وَخِدَاعِهِ. فَكُلُّ دُعَاءٍ يُصْرَفُ لِغَيْرِ اللَّهِ هُوَ تَعَلُّقٌ بِالوَهْمِ وَالعَجْزِ، وَلَا عِزَّةَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بِالسُّجُودِ لِلْخَالِقِ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ.

مَكْرُ العَدُوِّ وَتَشْوِيهُ الفِطْرَةِ

صَدَى ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٨-١١٩]

كَشْفٌ مُرِيعٌ لِمُخَطَّطِ إِبْلِيسَ المَلْعُونِ الَّذِي أَقْسَمَ عَلَى إِضْلَالِ البَشَرِ وَإِغْرَاقِهِمْ فِي الأَمَانِي الكَاذِبَةِ وَتَشْوِيهِ فِطْرَةِ اللَّهِ وَخَلْقِهِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ الحَرْبِ الشَّيْطَانِيَّةِ المعْلَنَةِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي غَفْلَةُ الأَمَانِ مِنْ وَسَاوِسِ إِبْلِيسَ، وَأَدْرَكْتُ خُطُوَاتِهِ الأَرْبَعَ فِي الإِغْوَاءِ: الإِضْلَالَ عَنِ الحَقِّ، وَالتَّسْوِيفَ بِالأَمَانِي البَاطِلَةِ، وَتَحْرِيمَ الحَلَالِ كَتَقْطِيعِ آذَانِ الأَنْعَامِ، وَتَغْيِيرَ خَلْقِ اللَّهِ الحِسِّيِّ وَالمعْنَوِيِّ بِالْفِسْقِ وَالانْحِرَافِ. وَكَمْ انْسَاقَتْ أُمَمٌ خَلْفَ أَوَامِرِ الشَّيْطَانِ فَعَبَثَتْ بِفِطْرَتِهَا وَشَوَّهَتْ خَلْقَ اللَّهِ وَعَاشَتْ فِي سَرَابِ الأَمَانِي حَتَّى هَوَتْ فِي الخُسْرَانِ المبِينِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ العَدُوَّ اللَّدُودَ الَّذِي يَتَسَلَّلُ إِلَى الحَدِيقَةِ الغَنَّاءِ فَيَقْطَعُ أَغْصَانَهَا المثْمِرَةَ وَيُشَوِّهُ أَزْهَارَهَا الجَمِيلَةَ وَيُلَوِّثُ مَاءَهَا الصَّافِيَ لِيُفْسِدَ صُنْعَ البُسْتَانِيِّ الحَكِيمِ. فَمَا أَشَدَّ وَقْعَ الخَاتِمَةِ الَّتِي تُحَذِّرُ مِنْ مُوَالَاةِ الشَّيْطَانِ مِنْ دُونِ اللَّهِ لِأَنَّ عَاقِبَتَهَا هِيَ الخُسْرَانُ المبِينُ الَّذِي لَا جَبْرَ لَهُ! وَبِهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَتَانِ فِي وِجْدَانِي حِرَاسَةً دَائِمَةً لِفِطْرَتِي النَّقِيَّةِ وَرَفْضًا قَاطِعًا لِكُلِّ تَغْيِيرٍ أَوْ تَشْوِيهٍ يُخَالِفُ خَلْقَ اللَّهِ وَشَرْعَهُ. فَكُلُّ اسْتِجَابَةٍ لِتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ هِيَ إِفْسَادٌ لِلْفِطْرَةِ وَالخَلْقِ، وَلَا خُسْرَانَ أَفْدَحُ مِنْ أَنْ يَتَّخِذَ العَبْدُ عَدُوَّهُ المَلْعُونَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ.

سَرَابُ الغُرُورِ وَحَقِيقَةُ المصِيرِ

صَدَى ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١٢٠-١٢١]

إِسْدَالُ السِّتَارِ عَلَى خِدْعَةِ الشَّيْطَانِ الكُبْرَى الَّتِي تَقُومُ عَلَى الوُعُودِ الكَاذِبَةِ وَالأَمَانِي الزَّائِفَةِ ثُمَّ تَنْتَهِي بِأَتْبَاعِهِ إِلَى جَهَنَّمَ حَيْثُ لَا مَهْرَبَ

وَلَا مَلْجَأَ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي رَهْبَةٌ مِنْ نِهَايَةِ الغُرُورِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي بَهْرَجَةُ الدُّنْيَا الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا إِبْلِيسُ لِتَخْدِيرِ القُلُوبِ عَنِ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلآخِرَةِ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ كُلَّ وُعُودِهِ بِطُولِ الأَمَلِ وَالمَغْفِرَةِ بِلَا عَمَلٍ هِيَ مَحْضُ غُرُورٍ وَخِدَاعٍ يَسُوقُ أَصْحَابَهُ إِلَى مَأْوَى النَّارِ. وَكَمْ عَاشَ غَافِلُونَ أَسْرَى لِأَمَانِيّ الشَّيْطَانِ حَتَّى فَاجَأَهُمُ المَوْتُ وَهُمْ خَاوُو الوِفَاضِ، فَوَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ مُحَاصَرِينَ فِي جَهَنَّمَ لَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا وَلَا مَفَرًّا. كَأَنَّ التَّائِهَ فِي الصَّحْرَاءِ يَرْكُضُ خَلْفَ بَرِيقِ السَّرَابِ ظَانًّا أَنَّهُ بُحَيْرَةٌ عَذْبَةٌ، فَلَمَّا يَصِلُ إِلَى نِهَايَةِ الشَّوْطِ يَسْقُطُ فِي حُفْرَةٍ عَمِيقَةٍ مِنَ النَّارِ المُلْتَهِبَةِ أُغْلِقَتْ فُوَّهَتُهَا مِنْ فَوْقِهِ فَلَا يَجِدُ مِنْهَا مَخْرَجًا. فَمَا أَبْلَغَ هَذَا الحَسْمَ القُرْآنِيَّ الَّذِي يَكْشِفُ زَيْفَ وُعُودِ الشَّيْطَانِ فِي الدُّنْيَا وَيُؤَكِّدُ حَتْمِيَّةَ المَأْوَى فِي جَهَنَّمَ لِمَنِ انْخَدَعَ بِغُرُورِهِ! وَبِهَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَتَانِ فِي وِجْدَانِي يَقَظَةً تَكْسِرُ قُيُودَ التَّسْوِيفِ وَطُولِ الأَمَلِ وَتَدْفَعُنِي إِلَى العَمَلِ الصَّادِقِ قَبْلَ انْغِلَاقِ الأَبْوَابِ. فَكُلُّ وَعْدٍ مِنَ الشَّيْطَانِ هُوَ غُرُورٌ وَخِدَاعٌ، وَلَا مَحِيصَ عَنْ جَهَنَّمَ إِلَّا بِالْإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ وَالصِّدْقِ مَعَ اللَّهِ.

سِفْرُ الصَّدَى الحَادِي وَالثَّلَاثُونَ

رِياضُ الخُلْدِ وَمِيثَاقُ الوَعْدِ الصَّادِقِ

صَدَى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]

تَتَفَتَّحُ أَزَاهِيرُ البِشَارَةِ فِي بَسَاتِينِ الإِيمَانِ لِتُبَدِّدَ وَحْشَةَ الوَعِيدِ وَتَسْكُبَ فِي الرُّوحِ عَذْبَ اليَقِينِ، فَسَرَى فِي كِيَانِي نَسِيمُ الطُّمَأْنِينَةِ أَمَامَ هَذَا العَهْدِ الرَّبَّانِيّ المَكْتُوبِ بِالنُّورِ. انْقَشَعَتْ عَنْ بَصِيرَتِي سُحُبُ الشَّكِّ فِي مَآلِ المُحْسِنِينَ، وَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَتَعَانَقُ صِدْقُ العَقِيدَةِ مَعَ إِتْقَانِ العَمَلِ لِيُثْمِرَا خُلُودًا أَبَدِيًّا فِي جَنَّاتٍ تَنْسَابُ الأَنْهَارُ تَحْتَ ظِلَالِهَا. وَكَمْ شَقِيَ المُغْتَرُّونَ بِسَرَابِ الدُّنْيَا الَّذِي يَتَلَاشَى عِنْدَ أَوَّلِ خُطْوَةٍ، بَيْنَمَا رَسَتْ سَفِينَةُ الصَّالِحِينَ عَلَى شَاطِئِ الوَعْدِ الحَقِّ الَّذِي لَا يَتَخَلَّفُ وَلَا يَزُولُ. كَأَنَّ البَذْرَةَ الَّتِي اسْتَقَرَّتْ فِي تُرْبَةِ الإِخْلَاصِ وَارْتَوَتْ بِغَيْثِ الطَّاعَةِ قَدْ أَيْنَعَتْ شَجَرَةً بَاسِقَةً تُعَانِقُ أَغْصَانُهَا السَّمَاءَ وَتُؤْتِي ثِمَارَهَا كُلَّ حِينٍ بِلَا انْقِطَاعٍ. فَمَا أَبْلَغَ هَذَا التَّسَاؤُلَ الَّذِي يَخْتِمُ الآيَةَ بِجَلَالٍ مُطْلَقٍ: وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا، لِيُسْقِطَ كُلَّ وُعُودِ البَشَرِ وَالشَّيَاطِينِ أَمَامَ

صِدْقِ الخَالِقِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي نَبْضًا يُحَرِّكُ الهِمَّةَ نَحْوَ العَمَلِ الصَّالِحِ وَيَمْلَأُ القَلْبَ ثِقَةً بِوَعْدِ الرَّحْمَنِ. فَكُلُّ سَعْيٍ يُبْنَى عَلَى الإِيمَانِ هُوَ مَحْفُوظٌ فِي خَزَائِنِ السَّمَاءِ، وَلَا أَصْدَقَ قِيلًا مِنَ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَ الجَنَّةَ دَارَ الخُلُودِ لِلْمُحْسِنِينَ.

سُقُوطُ الأَمَانِي وَمِيزَانُ الأَعْمَالِ

صَدَى ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]

تَهْوِي قُصُورُ الأَوْهَامِ الَّتِي شَيَّدَتْهَا النُّفُوسُ عَلَى رِمَالِ الدَّعَاوَى الفَارِغَةِ حِينَ يَصْدَحُ مِيزَانُ العَدْلِ الإِلَهِيِّ بِحَقِيقَةِ الجَزَاءِ، فَأَطْرَقْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ الصَّرَاحَةِ الَّتِي لَا تُجَامِلُ أَحَدًا. انْحَسَرَتْ عَنْ خَيَالِي أَحْلَامُ النَّجَاةِ بِمُجَرَّدِ الِانْتِسَابِ أَوِ التَّمَنِّي البَارِدِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ لَا تُحَابِي مُسْلِمًا وَلَا كِتَابِيًّا، فَمَنْ يَقْتَرِفِ السُّوءَ يَلْقَ جَزَاءَهُ العَادِلَ دُونَ أَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا يَمْنَعُهُ أَوْ نَصِيرًا يُنْقِذُهُ. وَكَمْ اغْتَرَّتْ طَوَائِفُ بِأَمَانِيهَا الكَاذِبَةِ فَتَمَادَتْ فِي الغَفْلَةِ وَالعِصْيَانِ، حَتَّى صَدَمَتْهَا حَقِيقَةُ المِيزَانِ الَّذِي لَا يَزِنُ إِلَّا العَمَلَ الصَّادِقَ. يُشْبِهُ ذَلِكَ التِّلْمِيذَ الَّذِي يَقْضِي عَامَهُ فِي اللَّهْوِ وَالأَحْلَامِ وَيَظُنُّ أَنَّ اسْمَ مَدْرَسَتِهِ سَيُغْنِيهِ عَنِ الِامْتِحَانِ، فَلَمَّا جَاءَتْ سَاعَةُ التَّقْيِيمِ وَجَدَ صَحِيفَتَهُ بَيْضَاءَ خَالِيَةً مِنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ. فَمَا أَعْدَلَ هَذَا الدُّسْتُورَ الَّذِي يُحَرِّرُ العُقُولَ مِنَ التَّوَاكُلِ وَيَرْبِطُ المَصِيرَ بِالمَسْؤُولِيَّةِ الفَرْدِيَّةِ وَالِاسْتِقَامَةِ العَمَلِيَّةِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي يَقْظَةً تَكْسِرُ غُرُورَ الأَمَانِي وَتَدْفَعُنِي إِلَى مُحَاسَبَةِ نَفْسِي قَبْلَ يَوْمِ الجَزَاءِ. فَكُلُّ أُمْنِيَةٍ لَا يُصَدِّقُهَا العَمَلُ هِيَ سَرَابٌ خَادِعٌ، وَلَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ مِنْ جَزَاءِ السُّوءِ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ وَالإِحْسَانِ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ.

عَدَالَةُ المِيزَانِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ

صَدَى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]

تَتَسَاوَى الكِفَّتَانِ فِي مِيزَانِ الكَرَامَةِ الإِلَهِيَّةِ لِتُعْلِنَ السَّمَاءُ أَنَّ الإِيمَانَ وَالعَمَلَ الصَّالِحَ هُمَا المِعْيَارُ الوَحِيدُ لِلْفَوْزِ بِالجَنَّةِ دُونَ تَفْرِقَةٍ بَيْنَ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، فَفَاضَتْ نَفْسِي إِجْلَالًا لِهَذَا الإِنْصَافِ الرَّبَّانِيِّ. تَبَدَّدَتْ فِي ذِهْنِي مَوَارِيثُ التَّمْيِيزِ الظَّالِمِ الَّتِي كَانَتْ تَبْخَسُ المَرْأَةَ حَقَّهَا وَقَدْرَهَا، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ بَابَ الجَنَّةِ مَفْتُوحٌ لِكُلِّ نَفْسٍ مُؤْمِنَةٍ عَامِلَةٍ، وَأَنَّ أَجْرَهَا مَحْفُوظٌ بِدِقَّةٍ لَا تَنْقُصُ مِقْدَارَ نُقْرَةٍ فِي ظَهْرِ نَوَاةٍ. وَكَمْ عَانَتِ البَشَرِيَّةُ مِنْ جَاهِلِيَّاتٍ أَعْلَتْ جِنْسًا عَلَى جِنْسٍ فِي القِيمَةِ وَالمَصِيرِ، فَجَاءَ الوَحْيُ

لِيُقَرِّرَ أَنَّ التَّفَاضُلَ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِصِدْقِ الإِيمَانِ وَنَفْعِ العَمَلِ. كَأَنَّ النَّبْعَ العَذْبَ يَتَدَفَّقُ فِي الوَادِي فَيَسْقِي النَّخْلَةَ البَاسِقَةَ وَالزَّهْرَةَ الرَّقِيقَةَ بِمَاءٍ وَاحِدٍ، فَتُثْمِرُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِحَسَبِ إِخْلَاصِهَا وَعَطَائِهَا تَحْتَ رِعَايَةِ الخَالِقِ العَادِلِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الضَّمَانَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يَنْفِي الظُّلْمَ وَلَوْ بِمِقْدَارِ نَقِيرٍ لِيُطَمْئِنَ كُلَّ عَامِلٍ وَعَامِلَةٍ أَنَّ جُهْدَهُمَا مَرْصُودٌ وَمُكَرَّمٌ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَقْدِيرًا عَمِيقًا لِكُلِّ سَعْيٍ صَالِحٍ وَيَقِينًا بِأَنَّ العَدْلَ الإِلَهِيَّ يَحْفَظُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ ثَمَرَةَ إِيمَانِهِ وَعَمَلِهِ. فَكُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ يَنْبُعُ مِنْ قَلْبٍ مُؤْمِنٍ هُوَ طَرِيقٌ مُمَهَّدٌ إِلَى الجَنَّةِ، وَلَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَ اللَّهِ مِقْدَارَ نَقِيرٍ.

إِسْلَامُ الوَجْهِ وَمِلَّةُ الخَلِيلِ

صَدَى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]

تَتَجَلَّى ذُرْوَةُ الجَمَالِ الرُّوحِيِّ فِي انْقِيَادِ القَلْبِ وَالجَوَارِحِ لِلَّهِ وَحْدَهُ مَعَ إِتْقَانِ الإِحْسَانِ وَالسَّيْرِ عَلَى نَهْجِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ، فَارْتَعَشَ وِجْدَانِي شَوْقًا إِلَى هَذَا المَقَامِ السَّامِي. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي ضَبَابِيَّةُ المَنَاهِجِ المُنْحَرِفَةِ وَالمَذَاهِبِ المُتَفَرِّقَةِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ أَحْسَنَ الدِّينِ هُوَ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ خُلُوصِ التَّوْحِيدِ لِلَّهِ وَبَيْنَ الإِحْسَانِ فِي العِبَادَةِ وَالمعَامَلَةِ، مُقْتَفِيًا أَثَرَ الخَلِيلِ الَّذِي مَالَ عَنِ الشِّرْكِ كُلِّهِ إِلَى الحَقِّ. وَكَمْ تَاهَتْ عُقُولٌ فِي طُقُوسٍ مُعَقَّدَةٍ خَالِيَةٍ مِنَ الإِخْلَاصِ وَالإِحْسَانِ، بَيْنَمَا أَنَارَ اللَّهُ دَرْبَ الحُنَفَاءِ بِمَحَبَّتِهِ الَّتِي رَفَعَتْ إِبْرَاهِيمَ إِلَى مَرْتَبَةِ الخُلَّةِ الكُبْرَى. كَأَنَّ السَّائِرَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ يَرْفَعُ وَجْهَهُ نَحْوَ نَجْمِ القُطْبِ الثَّابِتِ فَيَسْتَقِيمُ مَسِيرُهُ وَيُضِيءُ نُورُ السَّمَاءِ مَلَامِحَهُ، فَيَنَالُ قُرْبَ المَلِكِ وَأُنْسَ حِوَارِهِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الشَّرَفَ الَّذِي يَرْبِطُ المُؤْمِنَ المحْسِنَ بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ، لِيَكُونَ الإِسْلَامُ وَالإِحْسَانُ هُمَا جَنَاحَيِ الوُصُولِ إِلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي إِخْلَاصًا يَتَجَرَّدُ فِيهِ الوَجْهُ لِلَّهِ وَإِحْسَانًا يُتْقِنُ كُلَّ عَمَلٍ ابْتِغَاءَ خُلَّةِ الرَّحْمَنِ وَرِضَاهُ. فَكُلُّ دِينٍ يَقُومُ عَلَى إِسْلَامِ الوَجْهِ لِلَّهِ وَالإِحْسَانِ هُوَ أَسْمَى المَنَاهِجِ، وَلَا رِفْعَةَ تَضَاهِي اتِّبَاعَ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا.

مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَإِحَاطَةُ القَيُّومِ

صَدَى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦]

يَتَّسِعُ الأُفُقُ أَمَامَ النَّاظِرِ لِيَشْمَلَ الكَوْنَ كُلَّهُ بِأَفْلَاكِهِ وَأَرْضِهِ، مُعْلِنًا أَنَّ المُلْكَ الخَالِصَ وَالإِحَاطَةَ التَّامَّةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَسَرَتْ فِي أَوْصَالِي هَيْبَةُ العَظَمَةِ وَغِنَى الخَالِقِ عَنِ الخَلْقِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي أَوْهَامُ تَمَلُّكِ البَشَرِ أَوِ اسْتِغْنَاءِ الخَلْقِ عَنْ رَبِّهِمْ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ اتِّخَاذَ اللَّهِ لِإِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا لَمْ يَكُنْ عَنْ

حَاجَةٍ إِلَيْهِ بَلْ هُوَ مَحْضُ جُودٍ وَتَكْرِيمٍ مِمَّنْ يَمْلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَيُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَقُدْرَةً. وَكَمْ تَجَبَّرَ مُلُوكٌ وَأَغْنِيَاءُ عَلَى شِبْرٍ مِنَ التُّرَابِ، وَنَسُوا أَنَّهُمْ وَمَا يَمْلِكُونَ قَبْضَةٌ صَغِيرَةٌ فِي مَلَكُوتِ مَنْ يُحِيطُ بِالكَوْنِ كُلِّهِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ المحِيطَ الوَاسِعَ الَّذِي يَحْتَضِنُ كُلَّ القَطَرَاتِ وَالأَمْوَاجِ فِي جَوْفِهِ دُونَ أَنْ يَزِيدَهُ وُجُودُهَا أَوْ يَنْقُصَهُ غِيَابُهَا، بَلْ هِيَ قَائِمَةٌ بِهِ وَمُحَاطَةٌ بِسِعَتِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّنْزِيهَ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ مُلْكِيَّةِ اللَّهِ الشَّامِلَةِ وَإِحَاطَتِهِ المطْلَقَةِ لِيَمْلَأَ القَلْبَ تَعْظِيمًا وَخُضُوعًا لِلْقَيُّومِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَحَرُّرًا مِنَ الخَوْفِ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ وَاسْتِشْعَارًا لِقُدْرَتِهِ المحِيطَةِ بِكُلِّ ذَرَّةٍ فِي الوُجُودِ. فَكُلُّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ هُوَ مِلْكٌ خَالِصٌ لِلَّهِ، وَلَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ إِحَاطَةِ الخَالِقِ العَظِيمِ.

قِسْطُ الفَتْوَى وَصِيَانَةُ الضُّعَفَاءِ

صَدَى ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧]

تَتَنَزَّلُ فَتْوَى السَّمَاءِ مُبَاشَرَةً لِتَحْمِيَ حُقُوقَ النِّسَاءِ وَيَتَامَى النِّسَاءِ وَالصِّغَارِ المسْتَضْعَفِينَ مِنْ أَطْمَاعِ الأَوْلِيَاءِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ الرِّعَايَةِ الإِلَهِيَّةِ لِلضُّعَفَاءِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي صُوَرُ الظُّلْمِ الجَاهِلِيِّ الَّذِي كَانَ يَبْخَسُ اليَتِيمَةَ مَهْرَهَا وَمِيرَاثَهَا طَمَعًا فِي مَالِهَا أَوْ رَغْبَةً عَنْهَا، وَأَدْرَكْتُ كَيْفَ يُلْزِمُ القُرْآنُ المجْتَمَعَ بِالقِيَامِ لِلْيَتَامَى بِالقِسْطِ وَالعَدْلِ الكَامِلِ. وَكَمْ ضَاعَتْ حُقُوقُ الأَيْتَامِ وَالضُّعَفَاءِ حِينَ غَابَتِ الرَّقَابَةُ الإِيمَانِيَّةُ وَتَحَكَّمَتِ الأَهْوَاءُ المادِّيَّةُ فِي تَقْسِيمِ التَّرِكَاتِ وَعُقُودِ الزَّوَاجِ. كَأَنَّ السُّورَ المنِيعَ يَلْتَفُّ حَوْلَ الغِرَاسِ الصَّغِيرَةِ الطَّرِيَّةِ لِيَحْمِيَهَا مِنْ رِيَاحِ الجَشَعِ وَعَوَاصِفِ الِاسْتِغْلَالِ حَتَّى تَشْتَدَّ عُودُهَا وَتَأْخُذَ حَقَّهَا كَامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ. فَمَا أَرَقَّ خِتَامَ الآيَةِ الَّذِي يُحَفِّزُ عَلَى الإِحْسَانِ بِأَنَّ كُلَّ خَيْرٍ يُقَدَّمُ لِلْيَتَامَى وَالضُّعَفَاءِ مَعْلُومٌ عِنْدَ اللَّهِ وَمَحْفُوظٌ لِصَاحِبِهِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي أَمَانَةً تُوجِبُ نُصْرَةَ المرْأَةِ وَاليَتِيمِ وَالقِيَامَ بِالقِسْطِ فِي كُلِّ حَقٍّ مَالِيٍّ وَاجْتِمَاعِيٍّ. فَكُلُّ إِنْصَافٍ لِلْيَتَامَى وَالضُّعَفَاءِ هُوَ قُرْبَةٌ عَظِيمَةٌ، وَلَا يَخْفَى مِثْقَالُ خَيْرٍ عَلَى رَبٍّ كَانَ بِهِ عَلِيمًا.

سَكِينَةُ الصُّلْحِ وَتَدْبِيرُ الأُسْرَةِ

صَدَى ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا

صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨]

حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ تُعَالِجُ فُتُورَ المشَاعِرِ فِي البُيُوتِ بِمَرُونَةِ الصُّلْحِ وَالتَّرَاضِي بَدَلَ الهَدْمِ وَالفِرَاقِ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي دَهْشَةٌ أَمَامَ هَذَا الفَهْمِ العَمِيقِ لِطَبِيعَةِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي صَلَابَةُ المكابَرَةِ الَّتِي تَدْفَعُ الزَّوْجَيْنِ إِلَى تَدْمِيرِ الأُسْرَةِ عِنْدَ أَوَّلِ خِلَافٍ أَوْ إِعْرَاضٍ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ التَّنَازُلَ المتَبَادَلَ لِإِبْقَاءِ المَوَدَّةِ وَالسَّكِينَةِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَاقِ، مَعَ التَّنْبِيهِ إِلَى آفَةِ الشُّحِّ المغْرُوزَةِ فِي النُّفُوسِ وَالَّتِي تَمْنَعُ كُلَّ طَرَفٍ مِنَ البَذْلِ وَالتَّسَامُحِ. وَكَمْ تَهَدَّمَتْ بُيُوتٌ عَامِرَةٌ بِسَبَبِ شُحِّ النُّفُوسِ بِالعَاطِفَةِ وَالمالِ وَالعَفْوِ، بَيْنَمَا عَاشَتْ أُسَرٌ فِي أَمَانٍ حِينَ أَخَذَتْ بِوَصِيَّةِ الإِحْسَانِ وَالتَّقْوَى. يُشْبِهُ ذَلِكَ الرُّبَّانَ الحَكِيمَ الَّذِي يُخَفِّفُ بَعْضَ الأَحْمَالِ الزَّائِدَةِ عَنِ السَّفِينَةِ عِنْدَ هُبُوبِ الرِّيَاحِ لِتَبْقَى طَافِيَةً آمِنَةً حَتَّى تَصِلَ إِلَى مِينَاءِ السَّلَامِ بَدَلَ أَنْ تَغْرَقَ بِمَنْ فِيهَا. فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ القَاعِدَةَ الجَامِعَةَ: وَالصُّلْحُ خَيْرٌ، مَقْرُونَةً بِالدَّعْوَةِ إِلَى الإِحْسَانِ وَالتَّقْوَى تَحْتَ بَصَرِ الخَبِيرِ الَّذِي يُكَافِئُ المحْسِنِينَ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي سَمَاحَةً تُقَدِّمُ الصُّلْحَ وَالإِحْسَانَ عَلَى الشُّحِّ وَالمشَاحَّةِ فِي كُلِّ عَلَاقَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ. فَكُلُّ صُلْحٍ يُطْفِئُ نَارَ الشِّقَاقِ هُوَ خَيْرٌ وَبَرَكَةٌ، وَلَا يَضِيعُ إِحْسَانٌ وَتَقْوَى عِنْدَ رَبٍّ كَانَ بِمَا نَعْمَلُ خَبِيرًا.

عَدْلُ المعَامَلَةِ وَرَحْمَةُ التَّكْلِيفِ

صَدَى ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩]

إِنْصَافٌ رَبَّانِيٌّ يُدْرِكُ حُدُودَ الطَّاقَةِ البَشَرِيَّةِ فِي مَيْلِ القَلْبِ وَالعَاطِفَةِ، فَيَرْفَعُ الحَرَجَ عَمَّا لَا يُسْتَطَاعُ وَيَضْبِطُ السُّلُوكَ الظَّاهِرَ بِالعَدْلِ وَعَدَمِ الجَوْرِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ الوَاقِعِيَّةِ التَّشْرِيعِيَّةِ الفَذَّةِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي مَخَاوِفُ المؤَاخَذَةِ عَلَى مَشَاعِرِ القَلْبِ الَّتِي لَا يَمْلِكُهَا الإِنْسَانُ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ الشَّرْعَ يُحَرِّمُ المَيْلَ الكُلِّيَّ الظَّالِمَ الَّذِي يَتْرُكُ الزَّوْجَةَ كَالمعَلَّقَةِ لَا هِيَ ذَاتُ زَوْجٍ يَرْعَاهَا وَلَا هِيَ مُطَلَّقَةٌ تَبْحَثُ عَنْ حَيَاتِهَا. وَكَمْ ظُلِمَتْ نِسَاءٌ تَحْتَ وَطْأَةِ الهَجْرِ وَالتَّعْلِيقِ المؤْلِمِ حِينَ غَابَتِ التَّقْوَى وَسَادَ الهَوَى، فَجَاءَ القُرْآنُ لِيَدْعُوَ إِلَى الإِصْلَاحِ وَالتَّقْوَى وَيَفْتَحَ بَابَ المغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ. كَأَنَّ البُسْتَانِيَّ قَدْ يَمِيلُ قَلْبُهُ لِشَجَرَةٍ مُعَيَّنَةٍ فِي حَدِيقَتِهِ، وَلَكِنَّ أَمَانَتَهُ تَمْنَعُهُ مِنْ قَطْعِ المَاءِ وَالرِّعَايَةِ عَنْ بَقِيَّةِ الأَشْجَارِ حَتَّى تَذْبُلَ وَتَمُوتَ عَطَشًا. فَمَا أَلْطَفَ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمَيِ اللَّهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ لِيُطَمْئِنَ كُلَّ مَنْ يَجْتَهِدُ

فِي الإِصْلَاحِ وَالتَّقْوَى أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ قَلْبُهُ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَوَازُنًا يَحْفَظُ كَرَامَةَ المَرْأَةِ وَيَمْنَعُ كُلَّ ظُلْمٍ أَوْ تَعْلِيقٍ يُؤْذِي النُّفُوسَ. فَكُلُّ عَدْلٍ مَقْدُورٍ عَلَيْهِ هُوَ وَاجِبٌ شَرْعِيٌّ، وَلَا يَخِيبُ مَنْ أَصْلَحَ وَاتَّقَى فِي رِحَابِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ.

سَعَةُ الرَّحْمَانِ عِنْدَ الفِرَاقِ

صَدَى ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠]

تَنْفِيسٌ رَحِيمٌ لِكُرْبَةِ انْغِلَاقِ السُّبُلِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ حِينَ تَسْتَحِيلُ العِشْرَةُ وَيَتَعَذَّرُ الإِصْلَاحُ، فَيُبَشِّرُهُمَا اللَّهُ بِالغِنَى مِنْ سَعَتِهِ بَعْدَ الفِرَاقِ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي سَكِينَةٌ تَطْرُدُ اليَأْسَ وَالخَوْفَ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي أَوْهَامُ الضَّيَاعِ وَالفَقْرِ الَّتِي تُخِيفُ النَّاسَ عِنْدَ نِهَايَةِ العَلَاقَاتِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ خَزَائِنَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ لَا تَنْفَدُ، فَهُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يُغْنِيَ كُلَّ طَرَفٍ بِفَضْلِهِ وَيُعَوِّضَهُ خَيْرًا مِمَّا فَاتَهُ. وَكَمْ عَاشَ أَزْوَاجٌ فِي جَحِيمٍ دَائِمٍ خَوْفًا مِنَ المسْتَقْبَلِ، أَوْ تَحَوَّلَ طَلَاقُهُمْ إِلَى عَدَاوَةٍ وَانْتِقَامٍ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِتَجْعَلَ الفِرَاقَ بَوَّابَةً لِلسَّعَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالحِكْمَةِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ النَّهْرَ الَّذِي يَنْقَسِمُ عِنْدَ الصَّخْرَةِ الكَبِيرَةِ إِلَى فَرْعَيْنِ، فَيَجْرِي كُلُّ فَرْعٍ فِي وَادٍ جَدِيدٍ لِيَسْقِيَ أَرْضًا أُخْرَى وَيُزْهِرَ بِالخَيْرِ تَحْتَ سَمَاءٍ وَاسِعَةٍ لَا تَضِيقُ بِأَحَدٍ. فَمَا أَجْمَلَ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمَيِ اللَّهِ الوَاسِعِ الحَكِيمِ الَّذِي يَسَعُ عِبَادَهُ بِجُودِهِ وَيُقَدِّرُ أَقْدَارَهُمْ بِحِكْمَتِهِ البَالِغَةِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي ثِقَةً مُطْلَقَةً بِسَعَةِ رِزْقِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ فِي كُلِّ اجْتِمَاعٍ وَافْتِرَاقٍ. فَكُلُّ بَابٍ يُغْلَقُ بِإِذْنِ اللَّهِ يَفْتَحُ وَرَاءَهُ أَبْوَابًا مِنَ السَّعَةِ، وَلَا فَقْرَ مَعَ رَبٍّ كَانَ وَاسِعًا حَكِيمًا.

وَصِيَّةُ التَّقْوَى لِلْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ

صَدَى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١]

تَتَوَحَّدُ رِسَالَةُ السَّمَاءِ عَبْرَ العُصُورِ كُلِّهَا فِي وَصِيَّةٍ جَامِعَةٍ هِيَ تَقْوَى اللَّهِ، مَعَ تَقْرِيرِ غِنَى الخَالِقِ المطْلَقِ عَنْ طَاعَةِ المطِيعِينَ وَكُفْرِ الجَاحِدِينَ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ العَظَمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي وَحْدَةُ المنْهَجِ الإِلَهِيِّ الَّذِي أُوصِيَ بِهِ أَهْلُ الكِتَابِ مِنْ قَبْلُ وَأُوصِيَتْ بِهِ هَذِهِ الأُمَّةُ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ ثَمَرَةَ التَّقْوَى تَعُودُ بِالنَّفْعِ عَلَى العَبْدِ وَحْدَهُ، أَمَّا الكُفْرُ فَلَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا لِأَنَّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ. وَكَمْ ظَنَّ الغَافِلُونَ أَنَّ طَاعَتَهُمْ تَزِيدُ فِي مُلْكِ اللَّهِ أَوْ أَنَّ

إِعْرَاضَهُمْ يَنْقُصُ مِنْ جَلَالِهِ، فَجَاءَ التَّكْرَارُ المهِيبُ لِمُلْكِيَّةِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لِيَكْسِرَ كُلَّ غُرُورٍ بَشَرِيٍّ. كَأَنَّ الشَّمْسَ السَّاطِعَةَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ تُرْسِلُ ضِيَاءَهَا لِأَهْلِ الأَرْضِ فَمَنْ فَتَحَ نَافِذَتَهُ انْتَفَعَ بِالنُّورِ وَالدِّفْءِ، وَمَنْ أَغْلَقَهَا بَقِيَ فِي الظَّلَامِ دُونَ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ نُورِ الشَّمْسِ شَيْءٌ. فَمَا أَجَلَّ هَذَا التَّذْكِيرَ بِأَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ خَلْقِهِ حَمِيدٌ فِي ذَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، لِيَسْعَى العَبْدُ إِلَى التَّقْوَى افْتِقَارًا إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَمَسُّكًا بِوَصِيَّةِ التَّقْوَى وَاعْتِرَافًا بِفَقْرِي التَّامِّ إِلَى الغَنِيِّ الحَمِيدِ. فَكُلُّ تَقْوَى يَلْتَزِمُهَا الإِنْسَانُ هِيَ نَجَاةٌ لِنَفْسِهِ، وَلَا يَضُرُّ كُفْرُ الكَافِرِينَ رَبًّا كَانَ غَنِيًّا حَمِيدًا.

كَفَايَةُ الوَكِيلِ وَقَيُّومِيَّةُ الخَالِقِ

صَدَى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٣٢]

تَرْسِيخٌ لِحَقِيقَةِ المُلْكِ المطْلَقِ الَّذِي يُثْمِرُ كَمَالَ التَّوَكُّلِ وَالتَّفْوِيضِ إِلَى مَنْ بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَسَرَتْ فِي قَلْبِي رَاحَةٌ عَمِيقَةٌ تُذِيبُ كُلَّ قَلَقٍ وَاضْطِرَابٍ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي مَخَاوِفُ تَدْبِيرِ المعِيشَةِ وَحِرَاسَةِ المسْتَقْبَلِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ مَنْ يَمْلِكُ الكَوْنَ كُلَّهُ هُوَ أَحَقُّ مَنْ تُفَوَّضُ إِلَيْهِ الأُمُورُ وَيُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ شَأْنٍ. وَكَمْ أَرْهَقَ البَشَرُ أَنْفُسَهُمْ بِالِاعْتِمَادِ عَلَى الأَسْبَابِ الفَانِيَةِ وَالوُكَلَاءِ العَاجِزِينَ، فَلَمَّا تَوَكَّلُوا عَلَى مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَجَدُوا الكِفَايَةَ التَّامَّةَ وَالرِّعَايَةَ الكَامِلَةَ. يُشْبِهُ ذَلِكَ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ الَّذِي يَنَامُ قَرِيرَ العَيْنِ فِي قَصْرِ أَبِيهِ المِلِكِ العَظِيمِ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا حَوْلَهُ فِي قَبْضَةِ أَبِيهِ وَتَحْتَ رِعَايَتِهِ الَّتِي لَا تَغْفُلُ. فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الكِفَايَةَ الإِلَهِيَّةَ المطَمْئِنَةَ: وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا، الَّتِي تَجْعَلُ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ جَنَّةً مُعَجَّلَةً فِي صَدْرِ المؤْمِنِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَفْوِيضًا كَامِلًا لِأَمْرِي كُلِّهِ إِلَى مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَقِينًا بِكِفَايَتِهِ. فَكُلُّ أَمْرٍ يُفَوَّضُ إِلَى اللَّهِ هُوَ مَحْفُوظٌ وَمُيَسَّرٌ، وَلَا حَاجَةَ لِوَكِيلٍ سِوَى مَنْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَفَى بِهِ وَكِيلًا.

قُدْرَةُ الِاسْتِبْدَالِ وَقَهْرُ الجَبَّارِ

صَدَى ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]

تَذْكِيرٌ مُزَلْزِلٌ بِسُنَّةِ الِاسْتِبْدَالِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي تُسْقِطُ كِبْرِيَاءَ البَشَرِ وَتُؤَكِّدُ أَنَّ بَقَاءَهُمْ فِي الأَرْضِ مَرْهُونٌ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ القُدْرَةِ القَاهِرَةِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي أَوْهَامُ الخُلُودِ البَشَرِيِّ وَالاغْتِرَارِ بِالحَضَارَاتِ وَالقُوَى المادِّيَّةِ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى إِذْهَابِ

البَشَرِ جَمِيعًا وَالإِتْيَانِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ يُطِيعُونَهُ وَيَقُومُونَ بِأَمْرِهِ. وَكَمْ بَادَتْ أُمَمٌ وَحَضَارَاتٌ ظَنَّتْ أَنَّهَا لَا تُقْهَرُ وَلَا تَزُولُ، فَلَمَّا تَنَكَّبَتْ صِرَاطَ اللَّهِ أَذْهَبَهَا بِقُدْرَتِهِ وَأَوْرَثَ أَرْضَهَا لِآخَرِينَ لِيَكُونُوا عِبْرَةً لِلنَّاظِرِينَ. كَأَنَّ البَحْرَ العَظِيمَ يَمْحُو بِمَوْجَةٍ هَادِئَةٍ قِلَاعَ الرِّمَالِ الَّتِي بَنَاهَا اللَّاعِبُونَ عَلَى الشَّاطِئِ، ثُمَّ يُعِيدُ تَسْوِيَةَ الشَّاطِئِ نَقِيًّا كَأَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ بِنَاءٌ بِالأَمْسِ. فَمَا أَهْيَبَ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمِ اللَّهِ القَدِيرِ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ إِفْنَاءُ الخَلْقِ وَلَا إِنْشَاءُ غَيْرِهِمْ، لِيَبْقَى الإِنْسَانُ خَاضِعًا لِرَبِّهِ شَاكِرًا لِنِعْمَةِ البَقَاءِ وَالإِمْهَالِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَوَاضُعًا صَادِقًا وَخَوْفًا مِنْ أَنْ أَكُونَ مِمَّنْ يُسْتَبْدَلُونَ بِسَبَبِ التَّقْصِيرِ وَالإِعْرَاضِ. فَكُلُّ وُجُودٍ بَشَرِيٍّ هُوَ مَحْضُ فَضْلٍ وَإِمْهَالٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَا يَعْجِزُ عَنِ الِاسْتِبْدَالِ رَبٌّ كَانَ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا.

سَعَةُ الثَّوَابِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

صَدَى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]

تَوْسِيعٌ لِمَدَارِكِ الهِمَّةِ البَشَرِيَّةِ حَتَّى لَا تَحْبِسَ طُمُوحَهَا فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا الفَانِي وَتَنْسَى أَنَّ خَزَائِنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَعًا بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي يَقَظَةٌ تُصَحِّحُ بُوصَلَةَ الطَّلَبِ وَالرَّجَاءِ.

تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي قِصَرُ النَّظَرِ الَّذِي يَجْعَلُ الإِنْسَانَ يَعْمَلُ لِأَجْلِ عَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ زَائِلٍ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ مَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ وَطَلَبَ ثَوَابَ الآخِرَةِ أَعْطَاهُ اللَّهُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَنَعِيمَ الآخِرَةِ لِأَنَّ كِلَيْهِمَا عِنْدَهُ وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ. وَكَمْ خَسِرَ طُلَّابُ الدُّنْيَا المِحْضَةِ حِينَ قَصَرُوا نِيَّاتِهِمْ عَلَى التُّرَابِ الفَانِي فَحُرِمُوا مِنْ نَعِيمِ الآخِرَةِ وَلَمْ يَنَالُوا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُمْ. يُشْبِهُ ذَلِكَ مَنْ يَدْخُلُ قَصْرَ المَلِكِ الكَرِيمِ المَمْلُوءَ بِاليَاقُوتِ وَالذَّهَبِ فَيَنْحَنِي لِيَلْتَقِطَ حَبَّةَ قَمْحٍ سَقَطَتْ عَلَى الأَرْضِ وَيَتْرُكَ الكُنُوزَ الخَالِدَةَ الَّتِي أَعَدَّهَا المَلِكُ لِزُوَّارِهِ. فَمَا أَعْظَمَ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمَيِ اللَّهِ السَّمِيعِ البَصِيرِ الَّذِي يَسْمَعُ دُعَاءَ السَّائِلِينَ وَيُبْصِرُ نِيَّاتِ العَامِلِينَ فَيُعْطِي كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي عُلُوَّ هِمَّةٍ يَطْلُبُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ بِنِيَّةٍ صَادِقَةٍ تَبْتَغِي وَجْهَهُ الكَرِيمَ. فَكُلُّ خَيْرٍ فِي الدَّارَيْنِ هُوَ مِلْكٌ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَلَا يَخْفَى صِدْقُ الطَّلَبِ عَلَى رَبٍّ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا.

مِحْرَابُ القِسْطِ وَشَهَادَةُ الحَقِّ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]

ذُرْوَةٌ شَامِخَةٌ لِلْعَدَالَةِ الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَسْتَعْلِي فَوْقَ رَوَابِطِ النَّفْسِ وَالْوَالِدَيْنِ وَالقَرَابَةِ وَالغِنَى وَالفَقْرِ لِتُقِيمَ شَهَادَةَ الحَقِّ خَالِصَةً لِوَجْهِ اللَّهِ، فَوَقَفْتُ مُنْبَهِرًا أَمَامَ هَذَا السُّمُوِّ الأَخْلَاقِيِّ المُعْجِزِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي كُلُّ مَسَاحَاتِ المجَامَلَةِ أَوِ العَاطِفَةِ الَّتِي قَدْ تُمِيلُ المِيزَانَ لِصَالِحِ القَرِيبِ أَوِ الغَنِيِّ أَوْ حَتَّى شَفَقَةً عَلَى الفَقِيرِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِعِبَادِهِ وَأَرْحَمُ بِهِمْ، فَوَاجِبُ المؤْمِنِ هُوَ القِيَامُ الدَّائِمُ بِالقِسْطِ دُونَ اتِّبَاعِ الهَوَى. وَكَمْ انْهَارَتْ مَوَازِينُ العَدْلِ فِي الأَرْضِ حِينَ لَوَى الشُّهُودُ أَلْسِنَتَهُمْ بِالتَّحْرِيفِ أَوْ أَعْرَضُوا عَنْ أَدَاءِ الشَّهَادَةِ خَوْفًا أَوْ طَمَعًا. كَأَنَّ المَنَارَةَ الشَّامِخَةَ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّلْبَةِ تُرْسِلُ شُعَاعَهَا المسْتَقِيمَ فَوْقَ الأَمْوَاجِ العَاتِيَةِ فَلَا تَنْحَنِي لِغِنَى سَفِينَةٍ وَلَا تَتَغَيَّرُ لِفَقْرِ قَارِبٍ، بَلْ تَهْدِي الجَمِيعَ إِلَى بَرِّ الأَمَانِ بِثَبَاتٍ وَصِدْقٍ. فَمَا أَهْيَبَ تَحْذِيرَ الخَاتِمَةِ مِنْ لَيِّ اللِّسَانِ أَوِ الإِعْرَاضِ عَنِ الحَقِّ لِأَنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِخَفَايَا الأَعْمَالِ وَدَوَافِعِ القُلُوبِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي شَجَاعَةً أَخْلَاقِيَّةً تَنْتَصِرُ لِلْحَقِّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِي وَأَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيَّ. فَكُلُّ شَهَادَةٍ تُؤَدَّى بِالقِسْطِ هِيَ عِبَادَةٌ خَالِصَةٌ لِلَّهِ، وَلَا يَخْفَى تَحْرِيفٌ أَوْ كِتْمَانٌ عَلَى رَبٍّ كَانَ بِمَا نَعْمَلُ خَبِيرًا.

تَجْدِيدُ الإِيمَانِ وَصِيَانَةُ اليَقِينِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]

نِدَاءٌ رَبَّانِيٌّ لِتَعْمِيقِ الإِيمَانِ فِي قُلُوبِ المؤْمِنِينَ وَتَجْدِيدِ يَقِينِهِمْ بِأَرْكَانِ العَقِيدَةِ الكُبْرَى، مَعَ التَّحْذِيرِ مِنْ شُؤْمِ الكُفْرِ بِأَيِّ رُكْنٍ مِنْهَا، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي يَقَظَةٌ تُجَدِّدُ العَهْدَ مَعَ اللَّهِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي رَتَابَةُ الإِيمَانِ التَّقْلِيدِيِّ الَّذِي قَدْ يَفْتُرُ مَعَ الأَيَّامِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ المؤْمِنَ مَأْمُورٌ دَوْمًا بِالِارْتِقَاءِ مِنْ إِيمَانِ الإِقْرَارِ إِلَى إِيمَانِ اليَقِينِ وَالثَّبَاتِ وَالشُّمُولِ الَّذِي يُصَدِّقُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ دُونَ تَفْرِيقٍ. وَكَمْ انْحَرَفَتْ أُمَمٌ عَنْ جَادَّةِ الحَقِّ حِينَ آمَنَتْ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَكَفَرَتْ بِبَعْضٍ، فَضَلَّتْ ضَلَالًا بَعِيدًا عَنْ صِرَاطِ السَّمَاءِ المسْتَقِيمِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ البِنَاءَ العَظِيمَ الَّذِي يَقُومُ عَلَى أَعْمِدَةٍ مُتَرَابِطَةٍ؛ فَكُلَّمَا تَعَاهَدَ البَنَّاءُ أَعْمِدَتَهُ بِالتَّقْوِيَةِ وَالرِّعَايَةِ ازْدَادَ البِنَاءُ شُمُوخًا وَصُمُودًا، وَلَوِ انْهَارَ عَمُودٌ وَاحِدٌ لَتَهَاوَى البِنَاءُ كُلُّهُ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الشُّمُولَ العَقَدِيَّ الَّذِي يَرْبِطُ المؤْمِنَ بِكُلِّ رُسُلِ اللَّهِ وَكُتُبِهِ السَّمَاوِيَّةِ فِي وَحْدَةٍ نُورَانِيَّةٍ تَعْصِمُهُ مِنَ الضَّلَالِ البَعِيدِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَجْدِيدًا

مُسْتَمِرًّا لِإِيمَانِي وَتَصْدِيقًا كَامِلًا بِكُلِّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ. فَكُلُّ إِيمَانٍ يَتَجَدَّدُ بِاليَقِينِ هُوَ حِصْنٌ لِلْقَلْبِ، وَلَا ضَلَالَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يَكْفُرَ الإِنْسَانُ بِأَرْكَانِ الوَحْيِ وَاليَوْمِ الآخِرِ.

خَطَرُ التَّذَبْذُبِ وَإِغْلَاقُ القُلُوبِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧]

تَصْوِيرٌ مُخِيفٌ لِحَالَةِ الِارْتِكَاسِ المُتَكَرِّرِ وَالِاسْتِهَانَةِ بِالدِّينِ حَتَّى يَرِينَ الكُفْرُ عَلَى القَلْبِ فَتُغْلَقَ دُونَهُ أَبْوَابُ المَغْفِرَةِ وَالهِدَايَةِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ العَاقِبَةِ المرِيعَةِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي خُطُورَةُ التَّلَاعُبِ بِالإِيمَانِ وَالتَّنَقُّلِ بَيْنَ الهُدَى وَالضَّلَالِ تَبَعًا لِلْأَهْوَاءِ وَالمصَالِحِ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ الِازْدِيَادَ فِي الكُفْرِ وَالإِصْرَارَ عَلَيْهِ يُفْسِدُ الفِطْرَةَ تَمَامًا فَلَا يَبْقَى فِيهَا مَوْضِعٌ لِقَبُولِ النُّورِ. وَكَمْ فَقَدَ المتَذَبْذِبُونَ نُورَ البَصِيرَةِ حِينَ اتَّخَذُوا الإِيمَانَ ثَوْبًا يَلْبَسُونَهُ تَارَةً وَيَخْلَعُونَهُ تَارَةً أُخْرَى، حَتَّى طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَحُرِمُوا مِنَ المَغْفِرَةِ وَسَبِيلِ الرَّشَادِ. كَأَنَّ المرِيضَ يَأْخُذُ الدَّوَاءَ الشَّافِيَ ثُمَّ يَشْرَبُ السُّمَّ عَمْدًا، ثُمَّ يُكَرِّرُ ذَلِكَ مِرَارًا وَيَزْدَادُ فِي شُرْبِ السُّمِّ حَتَّى تَتَلَفَ أَعْضَاؤُهُ تَمَامًا فَلَا يَعُودُ الدَّوَاءُ يُجْدِي فِيهِ نَفْعًا. فَمَا أَشَدَّ هَذَا التَّحْذِيرَ الَّذِي يُوقِظُ القُلُوبَ لِتَثْبُتَ عَلَى الإِيمَانِ وَتَحْذَرَ مِنَ الرِّدَّةِ وَالتَّقَلُّبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ القَلْبُ وَيُغْلَقَ البَابُ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي حِرْصًا شَدِيدًا عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى الحَقِّ وَدُعَاءً دَائِمًا لِمُقَلِّبِ القُلُوبِ أَنْ يُثَبِّتَ قَلْبِي عَلَى دِينِهِ. فَكُلُّ تَذَبْذُبٍ فِي العَقِيدَةِ هُوَ خُطْوَةٌ نَحْوَ الهَلَاكِ، وَلَا نَجَاةَ لِمَنِ ازْدَادَ كُفْرًا وَأَغْلَقَ قَلْبَهُ عَنْ نُورِ الهِدَايَةِ.

بُشْرَى التَّبْكِيتِ وَسُقُوطُ وَلَايَةِ الكَافِرِينَ

صَدَى ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩]

هَكُمٌ بَلِيغٌ يُبَشِّرُ المنَافِقِينَ بِالعَذَابِ الأَلِيمِ بَدَلَ النَّعِيمِ، وَيَكْشِفُ سَفَاهَةَ بَحْثِهِمْ عَنِ العِزَّةِ عِنْدَ الكَافِرِينَ بَيْنَمَا العِزَّةُ كُلُّهَا بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي عِزَّةٌ إِيمَانِيَّةٌ تَسْتَعْلِي عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي أَوْهَامُ القُوَّةِ وَالمَنَعَةِ الَّتِي يَظُنُّ الضُّعَفَاءُ أَنَّهُمْ يَنَالُونَهَا بِمُوَالَاةِ أَعْدَاءِ الدِّينِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ مُوَالَاةَ الكَافِرِينَ مِنْ دُونِ المؤْمِنِينَ هِيَ عَيْنُ الذُّلِّ وَالهَوَانِ لِأَنَّ مَصْدَرَ العِزَّةِ الحَقِيقِيَّةِ هُوَ اللَّهُ العَزِيزُ القَهَّارُ. وَكَمْ أَذَلَّ المنَافِقُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَبْوَابِ الطُّغَاةِ طَلَبًا لِلْمَكَانَةِ وَالحِمَايَةِ، فَتَرَكَهُمْ أَوْلِيَاؤُهُمْ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ وَبَقِيَتِ العِزَّةُ خَالِصَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ. يُشْبِهُ ذَلِكَ مَنْ يَتْرُكُ

الشَّمْسَ السَّاطِعَةَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَيَذْهَبُ لِيَلْتَمِسَ الدِّفْءَ وَالنُّورَ مِنْ جَمْرَةٍ رَمَادِيَّةٍ مُنْطَفِئَةٍ، فَلَا يَنَالُ مِنْهَا إِلَّا السَّوَادَ وَالبَرْدَ وَالخَيْبَةَ. فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ القَاعِدَةَ اليَقِينِيَّةَ: فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، الَّتِي تُحَرِّرُ المؤْمِنَ مِنَ الخُضُوعِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَتَمْلَأُ صَدْرَهُ شُمُوخًا وَيَقِينًا! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَتَانِ فِي وِجْدَانِي وَلَاءً خَالِصًا لِلَّهِ وَالمؤْمِنِينَ وَطَلَبًا لِلْعِزَّةِ مِنْ مَالِكِهَا الوَحِيدِ سُبْحَانَهُ. فَكُلُّ عِزَّةٍ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ هِيَ ذُلٌّ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ، وَلَا رِفْعَةَ حَقِيقِيَّةَ إِلَّا لِمَنْ اعْتَزَّ بِاللَّهِ الَّذِي لَهُ العِزَّةُ جَمِيعًا.

حُرْمَةُ المجَالِسِ وَبَرَاءَةُ المؤْمِنِ مِنَ الِاسْتِهْزَاءِ

صَدَى ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]

سِيَاجٌ وَاقٍ لِكَرَامَةِ الوَحْيِ وَصَفَاءِ القَلْبِ المؤْمِنِ يَمْنَعُ الجُلُوسَ فِي مَجَالِسِ الكُفْرِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيَجْعَلُ السُّكُوتَ وَالبَقَاءَ فِيهَا مُشَارَكَةً فِي الإِثْمِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ الغَيْرَةِ الإِيمَانِيَّةِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي خُطُورَةُ المجَامَلَةِ السَّلْبِيَّةِ فِي المجَالِسِ الَّتِي يُطْعَنُ فِيهَا فِي الدِّينِ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ المؤْمِنَ الصَّادِقَ يَغَارُ عَلَى كَلَامِ رَبِّهِ فَيُفَارِقُ مَكَانَ الِاسْتِهْزَاءِ فَوْرًا حَتَّى يَتَغَي

ّرَ الحَدِيثُ لِئَلَّا يَكُونَ شَرِيكًا لَهُمْ فِي الوِزْرِ وَالمصِيرِ. وَكَمْ ذَابَتْ شَخْصِيَّاتُ المسْلِمِينَ وَرَقَّ دِينُهُمْ حِينَ أَلِفُوا الجُلُوسَ فِي مَجَالِسِ السُّخْرِيَةِ بِالشَّرِيعَةِ دُونَ إِنْكَارٍ أَوْ مُفَارَقَةٍ، حَتَّى انْتَهَى بِهِمُ الأَمْرُ إِلَى مُمَاثَلَةِ المسْتَهْزِئِينَ فِي القَلْبِ وَالمآلِ. كَأَنَّ الجَالِسَ فِي مَكَانٍ يَنْبَعِثُ مِنْهُ دُخَانٌ سَامٌّ يُحْرِقُ الصُّدُورَ؛ فَإِنْ بَقِيَ فِيهِ مُجَامَلَةً لِلْجَالِسِينَ اخْتَنَقَ بِالسُّمِّ مِثْلَهُمْ، وَإِنْ غَادَرَهُ فَوْرًا نَجَا بِرُوحِهِ وَحَفِظَ نَقَاءَ أَنْفَاسِهِ. فَمَا أَشَدَّ هَذَا الوَعِيدَ الَّذِي يَجْمَعُ المنَافِقِينَ وَالكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا لِأَنَّهُمُ اجْتَمَعُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى الِاسْتِهْزَاءِ بِآيَاتِ اللَّهِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي غَيْرَةً مُقَدَّسَةً عَلَى آيَاتِ اللَّهِ وَشَجَاعَةً فِي مُفَارَقَةِ كُلِّ مَجْلِسٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ الدِّينُ. فَكُلُّ جُلُوسٍ مَعَ المسْتَهْزِئِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ هُوَ رِضًا بِالبَاطِلِ، وَلَا نَجَاةَ مِنَ المصِيرِ المشْتَرَكِ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا بِالِاعْتِزَالِ الوَاعِي وَتَعْظِيمِ حُرُمَاتِ اللَّهِ.

تَرَبُّصُ المتَلَوِّنِينَ وَحِصْنُ الإِيمَانِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]

تَتَقَلَّبُ وُجُوهُ النِّفَاقِ كَأَمْوَاجِ السَّرَابِ فِي هَجِيرِ المِعَارِكِ، تَرْقُبُ الرِّيحَ لِتَمِيلَ مَعَ الغَالِبِ بِلَا مَبْدَأٍ وَلَا ثَبَاتٍ، فَأَطْرَقْتُ مُتَأَمِّلًا هَذَا التَّذَبْذُبَ الَّذِي يُعَرِّي هَشَاشَةَ القُلُوبِ المزَيَّفَةِ. انْحَسَرَتْ عَنْ بَصَرِي أَقْنِعَةُ الصَّدَاقَةِ الكَاذِبَةِ الَّتِي يَرْتَدِيهَا المتَرَبِّصُونَ عِنْدَ إِشْرَاقَةِ الفَتْحِ، وَتَبَيَّنَ لِي كَيْفَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى صُفُوفِ الكُفْرِ عِنْدَ الشِّدَّةِ لِيَمُنُّوا عَلَيْهِمْ بِالخِذْلَانِ وَالتَّثْبِيطِ. وَكَمْ طَعَنَتْ أُمَّةٌ فِي ظَهْرِهَا مِنْ أَبْنَاءِ الجِلْدَةِ الَّذِينَ جَعَلُوا وَلَاءَهُمْ سِلْعَةً تُبَاعُ فِي سُوقِ المِصَالِحِ، حَتَّى يَفْصِلَ اللَّهُ بَيْنَ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ بِعَدْلِهِ المطْلَقِ. كَأَنَّ الحِرْبَاءَ المتَلَوِّنَةَ تَتَسَلَّقُ أَغْصَانَ الشَّجَرَةِ فَتَكْتَسِي خُضْرَتَهَا إِذَا أَيْنَعَتْ، فَإِذَا هَبَّتْ رِيحُ الخَرِيفِ تَلَوَّنَتْ بِصُفْرَةِ الرِّمَالِ لِتَنْجُوَ بِنَفْسِهَا دُونَ جِذْرٍ يُثَبِّتُهَا. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الوَعْدَ الخَالِدَ الَّذِي يَخْتِمُ الآيَةَ بِالعِزَّةِ: وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا، لِيَظَلَّ صَرْحُ الإِيمَانِ شَامِخًا لَا تُقْهَرُ رَايَتُهُ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي يَقِينًا بِأَنَّ النَّصْرَ وَالغَلَبَةَ الحَقِيقِيَّةَ مَعْقُودَانِ بِصِدْقِ الإِيمَانِ وَالثَّبَاتِ عَلَى المبْدَأِ. فَكُلُّ تَلَوُّنٍ مَعَ الأَهْوَاءِ هُوَ سُقُوطٌ فِي مِيزَانِ السَّمَاءِ، وَلَا سَبِيلَ لِلْكَافِرِينَ عَلَى أَهْلِ الإِيمَانِ الصَّادِقِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

خِدَاعُ الغَافِلِينَ وَتَثَاقُلُ الأَرْوَاحِ

صَدَى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]

تَزْحَفُ ظِلَالُ الكَسَلِ عَلَى جَوَارِحِ المنَافِقِينَ كَأَغْلَالٍ مِنْ حَدِيدٍ حِينَ يُنَادِي مُنَادِي الصَّلَاةِ، فَتَنْتَفِضُ أَبْدَانُهُمْ لِعُيُونِ البَشَرِ بَيْنَمَا تَغُطُّ أَرْوَاحُهُمْ فِي سُبَاتِ الغَفْلَةِ، فَسَرَتْ فِي أَوْصَالِي رَهْبَةٌ مِنْ هَذَا المشْهَدِ الكَاشِفِ. تَبَدَّدَتْ فِي خَاطِرِي أَوْهَامُ التَّظَاهُرِ بِالعِبَادَةِ أَمَامَ الخَلْقِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ مَنْ يُحَاوِلُ خِدَاعَ عَلَّامِ الغُيُوبِ إِنَّمَا يَسْتَدْرِجُ نَفْسَهُ إِلَى الهَلَاكِ حِينَ يُحْرَمُ لَذَّةَ المنَاجَاةِ وَنُورَ الذِّكْرِ. وَكَمْ جَفَّتْ قُلُوبٌ فِي المحَارِيبِ لِأَنَّ أَصْحَابَهَا قَامُوا إِلَيْهَا بِأَجْسَادٍ مُثْقَلَةٍ تَبْحَثُ عَنْ ثَنَاءِ النَّاسِ وَتَغْفُلُ عَنْ نَظَرِ الرَّحْمَنِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ التِّمْثَالَ الخَشَبِيَّ الَّذِي يُحَرِّكُهُ الخَيْطُ أَمَامَ المتَفَرِّجِينَ فَيَرْكَعُ وَيَسْجُدُ

بِحَرَكَاتٍ جَافَّةٍ، لَكِنَّهُ خَاوٍ مِنَ الرُّوحِ وَالحَيَاةِ لَا يَشْعُرُ بِدِفْءِ النُّورِ وَلَا حَلَاوَةِ القُرْبِ. فَمَا أَبْلَغَ هَذَا الميزَانَ الدَّقِيقَ الَّذِي يَجْعَلُ النَّشَاطَ فِي الصَّلَاةِ وَكَثْرَةَ الذِّكْرِ وَالإِخْلَاصَ لِلَّهِ هِيَ عَلَامَاتُ الحَيَاةِ الإِيمَانِيَّةِ الصَّادِقَةِ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي يَقْظَةً تُطَهِّرُ صَلَاتِي مِنَ الكَسَلِ وَالرِّيَاءِ وَتَمْلَأُ قَلْبِي بِذِكْرِ اللَّهِ فِي كُلِّ حِينٍ. فَكُلُّ عِبَادَةٍ تَخْلُو مِنَ الإِخْلَاصِ وَالحُضُورِ هِيَ جَسَدٌ بِلَا رُوحٍ، وَلَا نَجَاةَ مِنَ الخِدَاعِ إِلَّا بِقَلْبٍ يَشْتَاقُ إِلَى الصَّلَاةِ وَيَلْهَجُ بِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا.

حَيْرَةُ التَّائِهِينَ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ

صَدَى ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣]

تَتَقَاذَفُ رِيَاحُ الحَيْرَةِ أَرْوَاحَ المتَرَدِّدِينَ كَرِيشَةٍ فِي مَهَبِّ العَاصِفَةِ، فَلَا هُمْ يَسْتَقِرُّونَ فِي مِينَاءِ الإِيمَانِ وَلَا هُمْ يَجْرُؤُونَ عَلَى المجَاهَرَةِ بِالكُفْرِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الضَّيَاعِ المؤْلِمِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصِيرَتِي مَرَارَةُ الِانْقِسَامِ الدَّاخِلِيِّ الَّذِي يُمَزِّقُ صَاحِبَهُ بَيْنَ صَفَّيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ التَّرَدُّدَ فِي قَبُولِ الحَقِّ يُورِثُ القَلْبَ ظُلْمَةً وَتِيهًا لَا يَنْتَهِي إِلَّا بِالخُسْرَانِ. وَكَمْ عَاشَ مُتَذَبْذِبُونَ فِي قَلَقٍ دَائِمٍ وَغُرْبَةٍ مُوحِشَةٍ لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا إِرْضَاءَ الجَمِيعِ فَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَخَسِرُوا هِدَايَةَ السَّمَاءِ. كَأَنَّ السَّفِينَةَ الحَائِرَةَ تَقِفُ فِي مُنْتَصَفِ البَحْرِ المتَلَاطِمِ بَيْنَ شَاطِئِ النُّورِ وَشَاطِئِ الظَّلَامِ، تُدِيرُ دَفَّتَهَا يَمِينًا وَشِمَالًا بِلَا وُجْهَةٍ حَتَّى تَبْتَلِعَهَا الأَمْوَاجُ العَاتِيَةُ فِي الأَعْمَاقِ. فَمَا أَشَدَّ هَذَا الحَسْمَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يُؤَكِّدُ أَنَّ مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ بِسَبَبِ تَرَدُّدِهِ وَعِنَادِهِ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ مُرْشِدًا وَلَا طَرِيقًا لِلنَّجَاةِ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي ثَبَاتًا وَوُضُوحًا فِي الِانْتِمَاءِ إِلَى صَفِّ الإِيمَانِ دُونَ تَرَدُّدٍ أَوْ مُدَاهَنَةٍ. فَكُلُّ تَذَبْذُبٍ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ هُوَ تِيهٌ وَضَيَاعٌ، وَلَا سَبِيلَ لِلْهِدَايَةِ إِلَّا بِحَسْمِ الوِجْهَةِ وَالتَّسْلِيمِ الكَامِلِ لِلَّهِ.

بَوْصَلَةُ الوَلَاءِ وَبَرَاءَةُ الذِّمَّةِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]

يُشْرِقُ نِدَاءُ الإِيمَانِ كَالفَجْرِ الصَّادِقِ لِيُبَدِّدَ غُيُومَ التَّمَاهِي مَعَ الخُصُومِ وَيُعِيدَ تَوْجِيهَ قُلُوبِ المؤْمِنِينَ نَحْوَ أُخُوَّةِ العَقِيدَةِ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي يَقْظَةٌ تُصَحِّحُ مَوَازِينَ الحُبِّ وَالنُّصْرَةِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي مُبَرِّرَاتُ التَّقَرُّبِ إِلَى أَعْدَاءِ الدِّينِ عَلَى حِسَابِ أَهْلِ الإِيمَانِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ مُوَالَاةَ الكَافِرِينَ مِنْ دُونِ المؤْمِنِينَ تَجْعَلُ لِلَّهِ حُجَّةً قَاطِعَةً وَسُلْطَانًا مُبِينًا عَلَى مُعَاقَبَةِ مَنْ خَانَ عَهْدَ الأُخُوَّةِ الإِيمَانِيَّةِ. وَكَمْ

تَفَكَّكَتْ عُرَى الأُمَّةِ وَضَعُفَتْ شَوْكَتُهَا حِينَ اسْتَبْدَلَ بَعْضُ أَبْنَائِهَا وَلَايَةَ المُؤْمِنِينَ بِمُوَالَاةِ الأَعْدَاءِ، فَأَسْلَمُوا أَنْفُسَهُمْ لِسَخَطِ اللَّهِ وَحُجَّتِهِ القَاهِرَةِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ الغُصْنَ الَّذِي يَنْفَصِلُ عَنْ جِذْعِ شَجَرَتِهِ المُثْمِرَةِ لِيَلْتَفَّ حَوْلَ شَجَرَةِ الشَّوْكِ البَرِّيَّةِ، فَيَجِفُّ عُودُهُ وَيَسْتَحِقُّ القَطْعَ لِأَنَّهُ تَنَكَّرَ لِأَصْلِهِ الطَّيِّبِ. فَمَا أَبْلَغَ هَذَا الِاسْتِفْهَامَ الَّذِي يَهُزُّ الضَّمَائِرَ: أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا، لِيَرْتَدِعَ كُلُّ قَلْبٍ يَخْشَى حُجَّةَ اللَّهِ وَعِقَابَهُ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي وَلَاءً خَالِصًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَبَرَاءَةً مِنْ كُلِّ مَا يَجْلِبُ سُلْطَانَ الغَضَبِ الإِلَهِيِّ. فَكُلُّ وَلَايَةٍ تُمْنَحُ لِلْكَافِرِينَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ هِيَ حُجَّةٌ عَلَى صَاحِبِهَا، وَلَا أَمَانَ لِلْمُؤْمِنِ إِلَّا فِي صَفِّ إِخْوَانِهِ الصَّادِقِينَ.

قَاعُ الجَحِيمِ وَأَبْوَابُ التَّوْبَةِ المَفْتُوحَةِ

صَدَى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦]

تَهْوِي أَرْوَاحُ الخَادِعِينَ إِلَى أَعْمَقِ هَاوِيَةٍ فِي قَعْرِ الجَحِيمِ حَيْثُ يَشْتَدُّ اللَّهِيبُ وَيَنْعَدِمُ المَغِيثُ، ثُمَّ يَنْبَلِجُ فَجْأَةً شُعَاعٌ مِنَ الرَّحْمَةِ يَفْتَحُ لَهُمْ طَوْقَ النَّجَاةِ، فَوَقَفْتُ مَذْهُولًا بَيْنَ رَهْبَةِ القَاعِ وَجَمَالِ الرُّجُوعِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي خُطُورَةُ النِّفَاقِ الَّذِي يَجْعَلُ صَاحِبَهُ أَسْوَأَ حَالًا مِنَ الكَافِرِ المُعْلِنِ لِخِدَاعِهِ وَتَلَوُّنِهِ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ النَّجَاةَ مِنْ هَذَا الدَّرْكِ الأَسْفَلِ تَتَطَلَّبُ أَرْبَعَةَ أَرْكَانٍ: التَّوْبَةَ الصَّادِقَةَ، وَإِصْلَاحَ العَمَلِ، وَالِاعْتِصَامَ بِاللَّهِ، وَإِخْلَاصَ الدِّينِ لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ. وَكَمْ غَرِقَتْ نُفُوسٌ فِي ظُلُمَاتِ النِّفَاقِ حَتَّى تَدَارَكَتْهَا رَحْمَةُ اللَّهِ بِهَذِهِ الوَصْفَةِ النُّورَانِيَّةِ، فَعَادَتْ إِلَى صَفِّ المُؤْمِنِينَ وَنَالَتْ شَرَفَ الأَجْرِ العَظِيمِ. كَأَنَّ الغَرِيقَ الَّذِي هَوَى إِلَى قَاعِ المُحِيطِ المُظْلِمِ يُمَدُّ لَهُ حَبْلٌ مَتِينٌ مِنَ السَّمَاءِ مُضَفَّرٌ بِالتَّوْبَةِ وَالإِصْلَاحِ وَالِاعْتِصَامِ وَالإِخْلَاصِ، فَيَتَشَبَّثُ بِهِ لِيَصْعَدَ مِنْ ظُلُمَاتِ الهَلَاكِ إِلَى شَاطِئِ النُّورِ وَالكَرَامَةِ. فَمَا أَرْحَمَ اللَّهَ الَّذِي يَضُمُّ التَّائِبِينَ المُخْلِصِينَ إِلَى رَكْبِ المُؤْمِنِينَ وَيَعِدُهُمْ بِالأَجْرِ العَظِيمِ دُونَ أَنْ يُعَيِّرَهُمْ بِمَاضِيهِمْ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَتَانِ فِي وِجْدَانِي خَوْفًا مِنَ النِّفَاقِ وَتَمَسُّكًا بِأَرْكَانِ الإِخْلَاصِ وَالِاعْتِصَامِ بِاللَّهِ. فَكُلُّ نِفَاقٍ يَقُودُ إِلَى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وَلَا نَجَاةَ مِنْهُ إِلَّا بِتَوْبَةٍ صَادِقَةٍ وَإِخْلَاصٍ يَرْفَعُ العَبْدَ إِلَى مَنَازِلِ المُؤْمِنِينَ.

غِنَى الشَّاكِرِ وَعَدَالَةُ الجَزَاءِ

صَدَى ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]

تَتَدَفَّقُ رَحْمَةُ السَّمَاءِ بِعِتَابٍ رَقِيقٍ يَمْسَحُ عَنِ الْقُلُوبِ وَهْمَ الْقَسْوَةِ الإِلَهِيَّةِ، مُؤَكِّدَةً أَنَّ الخَالِقَ الغَنِيَّ لَا يَتَشَفَّى بِعَذَابِ عِبَادِهِ إِذَا أَقْبَلُوا عَلَيْهِ بِالشُّكْرِ وَالإِيمَانِ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ إِجْلَالًا لِهَذَا اللُّطْفِ الرَّبَّانِيّ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي كُلُّ ظُنُونِ السُّوءِ الَّتِي يَبُثُّهَا الشَّيْطَانُ حَوْلَ تَكْلِيفِ العِبَادِ وَحِسَابِهِمْ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ العَذَابَ إِنَّمَا هُوَ دَوَاءٌ مُرٌّ لِلْقُلُوبِ الجَاحِدَةِ، أَمَّا الشَّاكِرُونَ المُؤْمِنُونَ فَيُقَابِلُهُمُ اللَّهُ بِشُكْرِهِ الوَاسِعِ وَعِلْمِهِ المحِيطِ فَيُضَاعِفُ لَهُمُ الثَّوَابَ. وَكَمْ أَشْقَى البَشَرُ أَنْفُسَهُمْ بِالجُحُودِ وَالإِعْرَاضِ فَجَلَبُوا العَذَابَ لِأَنْفُسِهِمْ، وَلَوْ شَكَرُوا نِعَمَ اللَّهِ وَآمَنُوا بِهِ لَعَاشُوا فِي نَعِيمِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ البُسْتَانِيَّ الرَّحِيمَ الَّذِي لَا يَقْطَعُ أَغْصَانَ الشَّجَرَةِ إِلَّا إِذَا يَبِسَتْ وَأَفْسَدَتِ الحَدِيقَةَ، أَمَّا الشَّجَرَةُ الَّتِي تُزْهِرُ وَتُثْمِرُ شُكْرًا لِلْغَيْثِ فَإِنَّهُ يَسْقِيهَا بِأَعْذَبِ المَاءِ وَيَحْرُسُهَا بِكُلِّ حَنَانٍ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الوَصْفَ الجَلِيلَ لِلْخَالِقِ: وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا، أَيْ يُثِيبُ عَلَى القَلِيلِ بِالكَثِيرِ وَيَعْلَمُ صِدْقَ القُلُوبِ الشَّاكِرَةِ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي طُمَأْنِينَةً تَمْلَأُ قَلْبِي حُبًّا لِلَّهِ وَإِقْبَالًا عَلَى الشُّكْرِ وَالإِيمَانِ بِكُلِّ جَوَارِحِي. فَكُلُّ شُكْرٍ وَإِيمَانٍ هُوَ أَمَانٌ مُطْلَقٌ مِنَ العَذَابِ، وَلَا يَضِيعُ سَعْيُ المحْسِنِينَ عِنْدَ رَبٍّ كَانَ شَاكِرًا عَلِيمًا.

صَوْنُ اللِّسَانِ وَحَقُّ المظْلُومِ

صَدَى ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨]

يَضَعُ الوَحْيُ سِيَاجًا مِنَ العِفَّةِ وَالأَدَبِ حَوْلَ أَلْسِنَةِ النَّاسِ فَيُحَرِّمُ إِشَاعَةَ الفُحْشِ وَالسُّوءِ، ثُمَّ يَفْتَحُ نَافِذَةَ الإِنْصَافِ لِلْمَظْلُومِ لِيَرْفَعَ صَوْتَهُ بِشَكْوَاهُ وَيَسْتَرِدَّ حَقَّهُ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا التَّوَازُنِ العَادِلِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي حُدُودُ الحُرِّيَّةِ الكَلَامِيَّةِ الَّتِي تَصُونُ المجْتَمَعَ مِنْ تَلْوِيثِ الأَسْمَاعِ بِالقَبِيحِ مِنَ القَوْلِ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ الإِسْلَامَ لَا يُكَمِّمُ أَفْوَاهَ المقْهُورِينَ بَلْ يَأْذَنُ لِلْمَظْلُومِ أَنْ يَجْهَرَ بِظُلَامَتِهِ وَيَدْعُوَ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ دُونَ تَجَاوُزٍ أَوِ افْتِرَاءٍ. وَكَمْ تَفَسَّخَتْ مُجْتَمَعَاتٌ حِينَ اسْتَبَاحَ أَهْلُهَا الجَهْرَ بِالسُّوءِ وَالبَذَاءَةِ، أَوْ حِينَ قَمَعَتِ الضُّعَفَاءَ وَمَنَعَتْهُمْ مِنَ الجَهْرِ بِشَكْوَاهُمْ أَمَامَ الطُّغَاةِ. كَأَنَّ النَّبْعَ الصَّافِيَ يُمْنَعُ أَنْ يُلْقَى فِيهِ الكَدَرُ وَالطِّينُ لِيَبْقَى عَذْبًا لِلشَّارِبِينَ، غَيْرَ أَنَّ مَنْ غَرِقَ فِي وَحْلِ الظُّلْمِ يُؤْذَنُ لَهُ أَنْ يَصْرُخَ مُسْتَغِيثًا لِيَسْمَعَهُ المنْقِذُونَ وَيَرْفَعُوا عَنْهُ الأَذَى. فَمَا أَعْظَمَ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمَيِ اللَّهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ الَّذِي يَسْمَعُ أَنِينَ المظْلُومِ وَيَعْلَمُ صِدْقَ دَعْوَاهُ وَحُدُودَ تَجَاوُزِ الظَّالِمِ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَطْهِيرًا لِلِسَانِي مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَفُحْشٍ، وَنُصْرَةً لِكُلِّ مَظْلُومٍ يَرْفَعُ صَوْتَهُ طَالِبًا

لِلْإِنْصَافِ. فَكُلُّ جَهْرٍ بِالسُّوءِ مَبْغُوضٌ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا صَرْخَةَ مَظْلُومٍ، وَلَا يَغْفُلُ عَنْ نُصْرَةِ المَقْهُورِينَ رَبٌّ كَانَ سَمِيعًا عَلِيمًا.

سُمُوُّ العَفْوِ وَقُدْرَةُ القَدِيرِ

صَدَى ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]

تَرْتَقِي الرُّوحُ الإِيمَانِيَّةُ مِنْ مَقَامِ اسْتِيفَاءِ الحَقِّ إِلَى ذُرْوَةِ التَّسَامُحِ وَالإِحْسَانِ حِينَ تُقَابِلُ الإِسَاءَةَ بِالعَفْوِ وَتَنْشُرُ الخَيْرَ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ، فَسَرَتْ فِي قَلْبِي سَكِينَةٌ تَغْسِلُ كُلَّ ضَغِينَةٍ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي رَغْبَةُ الِانْتِقَامِ وَالتَّشَفِّي الَّتِي تُرْهِقُ النُّفُوسَ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ العَفْوَ عِنْدَ المَقْدِرَةِ هُوَ تَخَلُّقٌ بِصِفَاتِ الرَّحْمَنِ الَّذِي يَعْفُو عَنْ عِبَادِهِ مَعَ كَمَالِ قُدْرَتِهِ عَلَى أَخْذِهِمْ وَمُعَاقَبَتِهِمْ. وَكَمْ أُطْفِئَتْ نِيرَانُ العَدَاوَاتِ وَتَحَوَّلَ الأَعْدَاءُ إِلَى أَصْدِقَاءَ بِكَلِمَةِ عَفْوٍ صَادِقَةٍ تَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ العَفُوِّ القَدِيرِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ الشَّجَرَةَ الكَرِيمَةَ الَّتِي يَرْمِيهَا العَابِثُونَ بِالحِجَارَةِ فَتُسْقِطُ عَلَيْهِمْ أَطْيَبَ ثِمَارِهَا، وَتُظِلُّهُمْ بِأَغْصَانِهَا المورِقَةِ دُونَ أَنْ تَحْمِلَ فِي جِذْعِهَا حِقْدًا أَوْ ضَغِينَةً. فَمَا أَبْلَغَ الجَمْعَ بَيْنَ اسْمَيِ اللَّهِ العَفُوِّ وَالقَدِيرِ فِي خِتَامِ الآيَةِ لِيُعَلِّمَنَا أَنَّ العَفْوَ الحَقِيقِيَّ هُوَ عَفْوُ الأَقْوِيَاءِ لَا عَجْزُ الضُّعَفَاءِ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي سَمَاحَةً تُبَادِرُ بِالخَيْرِ سِرًّا وَجَهْرًا وَتَعْفُو عَنِ المسِيئِينَ طَمَعًا فِي عَفْوِ القَدِيرِ. فَكُلُّ عَفْوٍ يَبْذُلُهُ العَبْدُ هُوَ رِفْعَةٌ لِقَدْرِهِ وَطَهَارَةٌ لِصَدْرِهِ، وَلَا أَكْرَمَ مِنَ التَّخَلُّقِ بِصِفَاتِ مَنْ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا.

جَرِيمَةُ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الرُّسُلِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]

تَسْقُطُ أَقْنِعَةُ الِانْتِقَاءِ المَزْعُومِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِبَعْضِ الأَنْبِيَاءِ وَيَجْحَدُ بَعْضَهُمْ، لِيُعْلِنَ القُرْآنُ أَنَّ رِسَالَاتِ السَّمَاءِ وَحْدَةٌ لَا تَتَجَزَّأُ وَأَنَّ جَحْدَ نَبِيٍّ وَاحِدٍ هُوَ كُفْرٌ بِاللَّهِ وَبِجَمِيعِ الرُّسُلِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الحَسْمِ العَقَدِيِّ. انْجَلَتْ عَنْ بَصِيرَتِي خِدْعَةُ أَهْلِ الهَوَى الَّذِينَ يُحَاوِلُونَ اخْتِرَاعَ طَرِيقٍ وَسَطٍ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالكُفْرِ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ مَنْ قَالَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ فَقَدْ كَذَّبَ المُرْسِلَ سُبْحَانَهُ وَاسْتَحَقَّ وَصْفَ الكُفْرِ الحَقِيقِيِّ وَالعَذَابَ المهِينَ. وَكَمْ تَمَزَّقَتْ أُمَمٌ عَبْرَ التَّارِيخِ حِينَ جَعَلَتْ عَقِيدَتَهَا خَاضِعَةً لِلْأَهْوَاءِ وَالعَصَبِيَّاتِ فَقَبِلَتْ مَا يُوَافِقُهَا وَرَفَضَتْ مَا يُخَالِفُهَا، فَوَقَعَتْ فِي

الكُفْرِ الصَّرِيحِ. كَأَنَّ العِقْدَ الفَرِيدَ المَنْظُومَ مِنْ لَآلِئِ النُّبُوَّةِ فِي خَيْطِ التَّوْحِيدِ؛ فَإِذَا قَطَعَ العَابِثُ الخَيْطَ وَأَسْقَطَ لُؤْلُؤَةً وَاحِدَةً تَنَاثَرَ العِقْدُ كُلُّهُ وَفَقَدَ قِيمَتَهُ وَبَهَاءَهُ. فَمَا أَشَدَّ هَذَا التَّأْكِيدَ القُرْآنِيَّ: أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا، لِيَقْطَعَ الطَّرِيقَ أَمَامَ كُلِّ مُرَاوَغَةٍ تَزْعُمُ الإِيمَانَ بِاللَّهِ مَعَ تَكْذِيبِ خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَتَانِ فِي وِجْدَانِي تَصْدِيقًا كَامِلًا بِجَمِيعِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ دُونَ تَفْرِقَةٍ أَوِ انْتِقَاءٍ. فَكُلُّ تَفْرِيقٍ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ هُوَ كُفْرٌ مَحْضٌ، وَلَا نَجَاةَ مِنَ العَذَابِ المُهِينِ إِلَّا بِالإِيمَانِ الشَّامِلِ بِكُلِّ مَنْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ لِهِدَايَةِ البَشَرِ.

وَحْدَةُ الإِيمَانِ وَبِشَارَةُ الأُجُورِ

صَدَى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢]

تُشْرِقُ سَمَاءُ الإِيمَانِ الصَّافِي بِمَوْكِبِ المُوَحِّدِينَ الَّذِينَ احْتَضَنَتْ قُلُوبُهُمْ جَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ بِحُبٍّ وَتَصْدِيقٍ دُونَ تَفْرِيقٍ، فَيَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ وَعْدُ اللَّهِ بِالأُجُورِ الوَافِيَةِ وَالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي بَهْجَةُ الِانْتِمَاءِ إِلَى هَذَا الرَّكْبِ المُبَارَكِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي كُلُّ نَزَعَاتِ التَّعَصُّبِ الضَّيِّقِ الَّذِي يُقَصِّي رُسُلَ السَّمَاءِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ عَظَمَةَ الإِسْلَامِ تَتَجَلَّى فِي كَوْنِهِ دِينَ الأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا، فَمَنْ آمَنَ بِهِمْ كُلِّهِمْ نَالَ أَجْرَهُ كَامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ. وَكَمْ نَعِمَتْ قُلُوبُ المُؤْمِنِينَ بِالسَّكِينَةِ وَالاتِّسَاعِ حِينَ رَأَتْ فِي كُلِّ نَبِيٍّ شُعْلَةً مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ أَشْرَقَتْ لِتَهْدِيَ البَشَرِيَّةَ إِلَى رَبِّ العَالَمِينَ. يُشْبِهُ ذَلِكَ النَّهْرَ العَظِيمَ الَّذِي تَصُبُّ فِيهِ يَنَابِيعُ صَافِيَةٌ مِنْ قِمَمِ الجِبَالِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْ مَصَبِّهِ المُبَارَكِ فَقَدِ ارْتَوَى مِنْ عُذُوبَةِ كُلِّ تِلْكَ اليَنَابِيعِ دُونَ أَنْ يَحْرِمَ نَفْسَهُ مِنْ قَطْرَةٍ وَاحِدَةٍ. فَمَا أَرَقَّ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمَيِ اللَّهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ لِيُطَمْئِنَ المُؤْمِنِينَ أَنَّ أُجُورَهُمْ مَحْفُوظَةٌ وَزَلَّاتِهِمْ مَغْفُورَةٌ بِفَضْلِ الرَّحْمَنِ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي حُبًّا وَتَعْظِيمًا لِكُلِّ رُسُلِ اللَّهِ وَيَقِينًا بِأَنَّ وَحْدَةَ الإِيمَانِ هِيَ مِفْتَاحُ الأَجْرِ وَالمَغْفِرَةِ. فَكُلُّ إِيمَانٍ يَجْمَعُ وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الرُّسُلِ هُوَ صِدْقٌ وَيَقِينٌ، وَلَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ رَبٌّ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا.

تَعَنُّتُ السُّؤَالِ وَتَارِيخُ الجُحُودِ

صَدَى ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣]

تَنْكَشِفُ صَفَحَاتُ التَّارِيخِ لِتُعَرِّيَ خَاتَمَ الأَنْبِيَاءِ عَنْ تَعَنُّتِ أَهْلِ الكِتَابِ وَاقْتِرَاحَاتِهِمُ المُتَكَبِّرَةِ،

مُذَكِّرَةً بِجُرْأَةِ أَسْلَافِهِمْ مَعَ مُوسَى حِينَ طَلَبُوا رُؤْيَةَ اللَّهِ جَهْرَةً وَعَبَدُوا العِجْلَ بَعْدَ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الحِلْمِ الإِلَهِيِّ العَجِيبِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي حَقِيقَةُ أَنَّ المَعَانِدَ لَا تُقْنِعُهُ كَثْرَةُ المُعْجِزَاتِ الحِسِّيَّةِ، فَطَلَبُهُمْ إِنْزَالَ كِتَابٍ مَكْتُوبٍ مِنَ السَّمَاءِ لَيْسَ طَلَبًا لِلْهِدَايَةِ بَلْ هُوَ امْتِدَادٌ لِتَارِيخٍ طَوِيلٍ مِنَ الجُحُودِ الَّذِي قُوبِلَ بِالصَّاعِقَةِ ثُمَّ بِالعَفْوِ الإِلَهِيِّ. وَكَمْ جَابَهَ المُصْلِحُونَ عَبْرَ الزَّمَنِ عُقُولًا تَتَعَلَّلُ بِطَلَبِ الخَوَارِقِ لِتَتَهَرَّبَ مِنَ الِاسْتِجَابَةِ لِلْحَقِّ الوَاضِحِ وَالبُرْهَانِ السَّاطِعِ. كَأَنَّ الأَعْمَى الَّذِي يَرْفُضُ ضَوْءَ الشَّمْسِ السَّاطِعَ فِي وَضَحِ النَّهَارِ وَيَشْتَرِطُ أَنْ تَنْزِلَ الشَّمْسُ إِلَى يَدِهِ لِيُصَدِّقَ بِوُجُودِهَا، فَيُصِيبُهُ لَهِيبُهَا بِظُلْمِهِ وَعِنَادِهِ. فَمَا أَعْظَمَ حِلْمَ اللَّهِ الَّذِي عَفَا عَنْهُمْ بَعْدَ عِبَادَةِ العِجْلِ وَأَيَّدَ مُوسَى بِالسُّلْطَانِ المُبِينِ وَالحُجَّةِ القَاهِرَةِ لِتَقُومَ عَلَيْهِمُ البَيِّنَةُ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَسْلِيمًا لِحُجَّةِ القُرْآنِ البَيِّنَةِ وَحَذَرًا مِنْ دَاءِ التَّعَنُّتِ وَاقْتِرَاحِ الآيَاتِ عَلَى اللَّهِ. فَكُلُّ عِنَادٍ أَمَامَ البَيِّنَاتِ هُوَ ظُلْمٌ يَسْتَجْلِبُ الصَّاعِقَةَ، وَلَا يَنْفَعُ الجَاحِدِينَ إِنْزَالُ الكُتُبِ مِنَ السَّمَاءِ مَا دَامَتِ القُلُوبُ مُغْلَقَةً عَنِ الحَقِّ.

نَقْضُ المَوَاثِيقِ وَالتَّعَدِّي عَلَى الحُرُمَاتِ

صَدَى ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤]

تَهْتَزُّ الجِبَالُ الشَّامِخَةُ فَوْقَ الرُّؤُوسِ كَالظُّلَّةِ لِتَشْهَدَ عَلَى أَخْذِ المِيثَاقِ الغَلِيظِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَتُذَكِّرَهُمْ بِأَوَامِرِ السَّمَاءِ فِي التَّوَاضُعِ وَحِفْظِ حُرْمَةِ السَّبْتِ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي رَهْبَةٌ مِنْ جَلَالِ العُهُودِ الإِلَهِيَّةِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي أَيُّ اسْتِهَانَةٍ بِمَوَاثِيقِ الدِّينِ وَحُدُودِ الشَّرْعِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ اللَّهَ أَقَامَ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ بِالآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ البَاهِرَةِ كَرَفْعِ جَبَلِ الطُّورِ فَوْقَهُمْ، وَأَمَرَهُمْ بِدُخُولِ البَابِ سُجَّدًا خُضُوعًا لِلَّهِ وَتَرْكِ الِاعْتِدَاءِ فِي السَّبْتِ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ عَهْدًا مُؤَكَّدًا. وَكَمْ تَلَاعَبَتِ النُّفُوسُ الجَاحِدَةُ بِالأَوَامِرِ الرَّبَّانِيَّةِ فَبَدَّلَتِ السُّجُودَ اسْتِكْبَارًا وَتَحَايَلَتْ عَلَى حُرْمَةِ السَّبْتِ بِالجَشَعِ وَالطَّمَعِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ مَنْ يَقِفُ تَحْتَ سَقْفٍ صَخْرِيٍّ عَظِيمٍ يُمْسِكُهُ المَلِكُ بِقُدْرَتِهِ وَيُعَاهِدُهُ عَلَى الطَّاعَةِ وَالأَمَانَةِ، فَمَا إِنْ يَأْمَنَ المَكَانَ حَتَّى يَنْقُضَ العَهْدَ وَيَتَجَرَّأَ عَلَى مَحَارِمِ المَلِكِ بِلَا حَيَاءٍ. فَمَا أَعْظَمَ شَأْنَ المِيثَاقِ الغَلِيظِ الَّذِي يُلْزِمُ الإِنْسَانَ بِالْوَفَاءِ التَّامِّ لِرَبِّهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَنَهْيٍ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَعْظِيمًا لِعُهُودِ اللَّهِ وَخُضُوعًا تَامًّا لِأَوَامِرِهِ دُونَ تَحَايُلٍ أَوْ تَبْدِيلٍ. فَكُلُّ مِيثَاقٍ مَعَ اللَّهِ هُوَ أَمَانَةٌ غَلِيظَةٌ تَشْهَدُ عَلَيْهَا السَّمَاوَاتُ وَالجِبَالُ، وَلَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ إِلَّا بِالْوَفَاءِ وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ.

جَرَائِمُ الجُحُودِ وَطَبْعُ القُلُوبِ

صَدَى ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]

تَتَوَالَى لَائِحَةُ الجَرَائِمِ العُظْمَى الَّتِي أَوْرَثَتِ القُلُوبَ القَسْوَةَ وَالخَتْمَ الإِلَهِيَّ، مِنْ نَقْضِ المِيثَاقِ وَالكُفْرِ بِالآيَاتِ إِلَى قَتْلِ الأَنْبِيَاءِ وَالِادِّعَاءِ بِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مُغَلَّفَةٌ لَا تَفْقَهُ الوَحْيَ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الحِسَابِ التَّارِيخِيِّ الصَّارِمِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصِيرَتِي سُنَّةُ اللَّهِ فِي مَسْخِ القُلُوبِ الَّتِي تَتَمَادَى فِي العِصْيَانِ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ قَوْلَهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ كَانَ تَبْرِيرًا كَاذِبًا لِإِعْرَاضِهِمْ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ كُفْرَهُمْ وَجَرَائِمَهُمْ هِيَ الَّتِي أَوْجَبَتِ الطَّبْعَ وَالخَتْمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَمْ يَعُودُوا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا. وَكَمْ تَجَرَّأَ المجْرِمُونَ عَلَى دِمَاءِ المرْسَلِينَ وَالمصْلِحِينَ وَنَقَضُوا عُهُودَ اللَّهِ، حَتَّى تَحَجَّرَتْ أَفْئِدَتُهُمْ وَانْقَطَعَ عَنْهَا مَدَدُ الهِدَايَةِ وَالنُّورِ. كَأَنَّ الإِنَاءَ الثَّمِينَ الَّذِي يَمْلَؤُهُ صَاحِبُهُ بِالسُّمِّ وَالقَذَارَةِ عَمْدًا ثُمَّ يُغْلِقُ فُوَّهَتَهُ بِالشَّمْعِ الأَسْوَدِ، فَيُصْبِحُ مَخْتُومًا عَلَى فَسَادِهِ لَا يَدْخُلُ إِلَيْهِ مَاءُ الحَيَاةِ وَلَا نُورُ الشَّمْسِ. فَمَا أَشَدَّ عَاقِبَةَ الطَّبْعِ عَلَى القُلُوبِ بِسَبَبِ الكُفْرِ وَالعِنَادِ، لِيَحْذَرَ كُلُّ مُؤْمِنٍ مِنْ تَرَاكُمِ الذُّنُوبِ وَنَقْضِ العُهُودِ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي يَقَظَةً تَحْرُسُ قَلْبِي مِنْ قَسْوَةِ الغَفْلَةِ وَتُحَافِظُ عَلَى نَقَائِهِ لِيَبْقَى مَفْتُوحًا لِنُورِ الوَحْيِ. فَكُلُّ جُرْأَةٍ عَلَى حُرُمَاتِ اللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ هِيَ مِسْمَارٌ يُغْلِقُ القَلْبَ، وَلَا أَقْسَى مِنَ العُقُوبَةِ حِينَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى القَلْبِ بِسَبَبِ كُفْرِهِ.

بُهْتَانُ العَفَافِ وَبَرَاءَةُ البَتُولِ

صَدَى ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]

تَنْتَفِضُ السَّمَاءُ غَيْرَةً عَلَى طَهَارَةِ الصِّدِّيقَةِ مَرْيَمَ البَتُولِ الَّتِي رَمَاهَا الجَاحِدُونَ بِالإِفْكِ وَالبُهْتَانِ العَظِيمِ بَعْدَ كُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، فَفَاضَتْ نَفْسِي إِجْلَالًا لِتَبْرِئَةِ الوَحْيِ لِهَذِهِ الجَوْهَرَةِ الطَّاهِرَةِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي كُلُّ أَرَاجِيفِ المفْتَرِينَ الَّذِينَ لَا يَتَوَرَّعُونَ عَنْ طَعْنِ الأَطْهَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ قَذْفَ مَرْيَمَ العَفِيفَةِ كَانَ جَرِيمَةً كُبْرَى انْضَافَتْ إِلَى سِجِلِّ كُفْرِهِمْ لِتُؤَكِّدَ فَسَادَ ضَمَائِرِهِمْ وَانْحِطَاطَ أَخْلَاقِهِمْ. وَكَمْ تَعَرَّضَ أَهْلُ الطُّهْرِ وَالعَفَافِ لِسِهَامِ البُهْتَانِ مِنْ أَعْدَاءِ الفَضِيلَةِ، فَتَوَلَّى اللَّهُ الدِّفَاعَ عَنْهُمْ وَتَخْلِيدَ بَرَاءَتِهِمْ فِي كِتَابٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ البَدْرَ المنِيرَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ الصَّافِيَةِ يَنْبَحُ عَلَيْهِ كَلْبٌ فِي الظَّلَامِ وَيَرْمِيهِ بِالتُّرَابِ، فَلَا يَصِلُ التُّرَابُ إِلَى عُلُوِّهِ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ نُورِهِ شَيْءٌ، بَلْ يَرْتَدُّ التُّرَابُ عَلَى وَجْهِ الرَّامِي. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الِانْتِصَارَ الإِلَهِيَّ لِكَرَامَةِ المرْأَةِ

العَفِيفَةِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، لِيُحْرِسَ أَلْسِنَةَ السُّوءِ إِلَى الأَبَدِ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي غَيْرَةً عَلَى أَعْرَاضِ الصَّالِحِينَ وَتَنْزِيهًا لِلِّسَانِ عَنْ كُلِّ بُهْتَانٍ وَافْتِرَاءٍ. فَكُلُّ طَعْنٍ فِي أَهْلِ الطَّهَارَةِ هُوَ بُهْتَانٌ عَظِيمٌ يَسْتَجْلِبُ سَخَطَ الجَبَّارِ، وَلَا أَزْكَى مِنْ سِيرَةٍ طَهَّرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ.

يَقِينُ النَّجَاةِ وَدَحْضُ فِرْيَةِ الصَّلْبِ

صَدَى ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]

يُبَدِّدُ نُورُ القُرْآنِ أَكْبَرَ أُسْطُورَةٍ تَارِيخِيَّةٍ تَبَجَّحَ بِهَا الجَاحِدُونَ، مُعْلِنًا بِيَقِينٍ قَاطِعٍ أَنَّ المَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ لَمْ يُقْتَلْ وَلَمْ يُصْلَبْ بَلْ نَجَّاهُ اللَّهُ وَأَلْقَى الشَّبَهَ عَلَى غَيْرِهِ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي طُمَأْنِينَةُ اليَقِينِ أَمَامَ هَذَا الحَسْمِ الإِلَهِيِّ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي ضَبَابِيَّةُ الرِّوَايَاتِ المُتَنَاقِضَةِ الَّتِي غَرِقَ فِيهَا المُخْتَلِفُونَ بِلَا عِلْمٍ وَلَا بُرْهَانٍ سِوَى اتِّبَاعِ الظَّنِّ، وَتَبَيَّنَ لِي كَيْفَ يَحْفَظُ اللَّهُ رُسُلَهُ مِنْ كَيْدِ القَتَلَةِ وَيَفْضَحُ دَعَاوَى المُتَبَجِّحِينَ بِالجَرِيمَةِ. وَكَمْ بُنِيَتْ عَقَائِدُ وَأَوْهَامٌ عَلَى ظُنُونٍ وَاهِيَةٍ وَحِكَايَاتٍ مُضْطَرِبَةٍ، فَجَاءَ الوَحْيُ الخَاتَمُ لِيُقَرِّرَ الحَقِيقَةَ النَّاصِعَةَ بِقَوْلِهِ: وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. كَأَنَّ الصَّيَّادِينَ الغَافِلِينَ يَرْمُونَ سِهَامَهُمْ فِي الضَّبَابِ الكَثِيفِ عَلَى خَيَالٍ عَابِرٍ فَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ أَصَابُوا الصَّقْرَ الحُرَّ، بَيْنَمَا حَلَّقَ الصَّقْرُ عَالِيًا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ الآمِنَةِ بَعِيدًا عَنْ مَكْرِهِمْ وَسِهَامِهِمْ. فَمَا أَعْظَمَ سُلْطَانَ القُرْآنِ الَّذِي يَفْصِلُ فِي قَضَايَا التَّارِيخِ وَالعَقِيدَةِ بِالعِلْمِ اليَقِينِيِّ الَّذِي يَهْدِمُ صُرُوحَ الظَّنِّ وَالشَّكِّ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي يَقِينًا رَاسِخًا بِعِصْمَةِ رُسُلِ اللَّهِ وَاعْتِمَادًا عَلَى عِلْمِ الوَحْيِ الصَّادِقِ دُونَ ظُنُونِ البَشَرِ. فَكُلُّ مَا يُبْنَى عَلَى الظَّنِّ وَالشَّكِّ هُوَ سَرَابٌ مُتَهَافِتٌ، وَلَا يَقِينَ إِلَّا فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَلَّامُ الغُيُوبِ فِي كِتَابِهِ المُبِينِ.

مِعْرَاجُ الرَّفْعِ وَعِزَّةُ الحَكِيمِ

صَدَى ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]

تَتَفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لِتَسْتَقْبِلَ رَسُولَ اللَّهِ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ حَيًّا مُكَرَّمًا بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ، فَيَسْمُو فَوْقَ مَكْرِ الأَرْضِ وَيَنَالُ شَرَفَ الرَّفْعِ الإِلَهِيِّ، فَارْتَعَشَ قَلْبِي إِجْلَالًا لِهَذِهِ الكَرَامَةِ السَّمَاوِيَّةِ.

تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي صُوَرُ الهَوَانِ وَالانْكِسَارِ الَّتِي أَرَادَهَا الأَعْدَاءُ لِنَبِيِّ اللَّهِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ عِزَّةَ اللَّهِ القَاهِرَةَ لَا تُمَكِّنُ الطُّغَاةَ مِنْ إِذْلَالِ أَصْفِيَائِهِ، وَأَنَّ حِكْمَتَهُ البَالِغَةَ تَضَعُ النَّجَاةَ وَالرَّفْعَ فِي المَوْضِعِ

الأَلِيَقِ بِجَلَالِهِ. وَكَمْ حَاوَلَ أَهْلُ البَاطِلِ إِطْفَاءَ نُورِ النُّبُوَّةِ بِالقَتْلِ وَالصَّلْبِ، فَكَانَ رَدُّ السَّمَاءِ رَفْعًا وَتَكْرِيمًا لِلنَّبِيِّ وَخِزْيًا وَحَيْرَةً لِلْجَاحِدِينَ. يُشْبِهُ ذَلِكَ النَّجْمَ الَّذِي تَظُنُّ الأَيْدِي العَابِثَةُ فِي الأَرْضِ أَنَّهَا قَادِرَةٌ عَلَى إِسْقَاطِهِ بِالحِجَارَةِ، فَيَزْدَادُ ارْتِفَاعًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ وَيَسْتَقِرُّ فِي جِوَارِ النُّورِ حَيْثُ لَا تَطَالُهُ أَيْدِي العَابِثِينَ. فَمَا أَعْظَمَ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمَيِ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ الَّذِي غَلَبَ بِعِزَّتِهِ مَكْرَ اليَهُودِ وَدَبَّرَ بِحِكْمَتِهِ نَجَاةَ المَسِيحِ وَرَفْعَهُ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي ثِقَةً مُطْلَقَةً بِعِزَّةِ اللَّهِ الَّتِي تَنْصُرُ أَوْلِيَاءَهُ وَحِكْمَتِهِ الَّتِي تُحْبِطُ كَيْدَ الأَعْدَاءِ. فَكُلُّ مَكْرٍ يُدَبِّرُهُ الخَلْقُ يَتَضَاءَلُ أَمَامَ عِزَّةِ الخَالِقِ، وَلَا رِفْعَةَ حَقِيقِيَّةَ إِلَّا مَا كَتَبَهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ.

شَهَادَةُ اليَقِينِ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ

صَدَى ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]

تَنْكَشِفُ أَسْتَارُ الغَيْبِ عَنْ لَحْظَةِ الحَقِيقَةِ الكُبْرَى حِينَ يُدْرِكُ كُلُّ كِتَابِيٍّ حَقِيقَةَ المَسِيحِ قَبْلَ المَوْتِ أَوْ عِنْدَ نُزُولِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، ثُمَّ يَقِفُ عِيسَى شَاهِدًا عَلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي رَهْبَةٌ مِنْ يَقِينٍ يَأْتِي بَعْدَ إِغْلَاقِ بَابِ التَّوْبَةِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصِيرَتِي خُطُورَةُ التَّأْخِيرِ فِي قَبُولِ الحَقِّ حَتَّى سَاعَةِ الِاحْتِضَارِ وَانْكِشَافِ الغِطَاءِ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ الإِيمَانَ الَّذِي يُنْجِي العَبْدَ هُوَ إِيمَانُ الغَيْبِ فِي سَعَةِ الحَيَاةِ قَبْلَ أَنْ تُعَايَنَ الحَقَائِقُ عِنْدَ المَوْتِ. وَكَمْ أَفَاقَتْ عُقُولٌ مُعَانِدَةٌ عِنْدَ سَكَرَاتِ المَوْتِ فَرَأَتْ صِدْقَ الرُّسُلِ وَبُطْلَانَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَنْفَعْهَا الإِيمَانُ المُتَأَخِّرُ وَانْقَلَبَتْ حُجَّةُ الرَّسُولِ شَهَادَةً عَلَيْهَا يَوْمَ الحِسَابِ. كَأَنَّ السَّائِرَ فِي اللَّيْلِ يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ عَنِ المِصْبَاحِ طَوَالَ الطَّرِيقِ حَتَّى يَسْقُطَ فِي الحُفْرَةِ العَمِيقَةِ، فَيَفْتَحُ عَيْنَيْهِ فِي قَعْرِهَا لِيَرَى نُورَ المِصْبَاحِ فَوْقَهُ بَعْدَ أَنْ فَقَدَ القُدْرَةَ عَلَى الصُّعُودِ. فَمَا أَهْيَبَ شَهَادَةَ المَسِيحِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيُبَرِّئَ نَفْسَهُ مِمَّا ادَّعَوْهُ عَلَيْهِ وَيُقِيمَ الحُجَّةَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَغَلَا! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي مُسَارَعَةً صَادِقَةً إِلَى الإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ فِي زَمَنِ الإِمْهَالِ قَبْلَ سَاعَةِ المُعَايَنَةِ. فَكُلُّ يَقِينٍ يَأْتِي عِنْدَ المَوْتِ لَا يَرْفَعُ العَذَابَ عَنِ المُعَانِدِينَ، وَلَا نَجَاةَ يَوْمَ شَهَادَةِ الرُّسُلِ إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِالحَقِّ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ.

حِرْمَانُ الظَّالِمِينَ مِنْ طَيِّبَاتِ الحَيَاةِ

صَدَى ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠]

تُضِيءُ الآيَةُ قَانُونَ العَدْلِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي يَرْبِطُ بَيْنَ سُلُوكِ الإِنْسَانِ وَبَيْنَ سَعَةِ الرِّزْقِ وَالحَلَالِ، فَتُبَيِّنُ أَنَّ التَّشْدِيدَ وَالتَّحْرِيمَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ عُقُوبَةً لِظُلْمِهِمْ وَصَدِّهِمُ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ السُّنَّةِ الكَوْنِيَّةِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي فِكْرَةُ انْفِصَالِ الأَخْلَاقِ عَنِ النِّعَمِ وَالطَّيِّ

بَاتِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ الظُّلْمَ وَالصَّدَّ عَنْ دِينِ اللَّهِ يُغْلِقَانِ أَبْوَابَ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَوِّلَانِ الحَيَاةَ إِلَى قُيُودٍ وَآصَارٍ ثَقِيلَةٍ جَزَاءً وِفَاقًا لِلْمَعَاصِي. وَكَمْ حُرِمَتْ أُمَمٌ وَأَفْرَادٌ مِنْ بَرَكَةِ الرِّزْقِ وَسَعَةِ الحَلَالِ بِسَبَبِ بَغْيِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْ شَرْعِ السَّمَاءِ وَتَثْبِيطِهِمُ الخَلْقَ عَنِ الهُدَى. يُشْبِهُ ذَلِكَ صَاحِبَ البُسْتَانِ المُثْمِرِ الَّذِي يَقْطَعُ الطَّرِيقَ عَلَى عَابِرِي السَّبِيلِ وَيُفْسِدُ السَّاقِيَةَ بِالظُّلْمِ، فَيُعَاقِبُهُ المَلِكُ بِسَدِّ مَنَابِعِ الماءِ العَذْبِ عَنْ بُسْتَانِهِ حَتَّى تَذْبُلَ أَطْيَبُ أَشْجَارِهِ وَيُحْرَمَ مِنْ ثِمَارِهَا. فَمَا أَعْدَلَ هَذَا الحُكْمَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يُعَلِّمُنَا أَنَّ التَّيْسِيرَ وَإِحْلَالَ الطَّيِّبَاتِ فِي شَرِيعَتِنَا هُمَا نِعْمَةٌ عُظْمَى تُحْفَظُ بِالشُّكْرِ وَالعَدْلِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ! هَكَذَا تَسْتَقِرُّ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى سَمَاحَةِ الإِسْلَامِ وَحَذَرًا مِنَ الظُّلْمِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِهِ حَتَّى تَدُومَ النِّعَمُ وَالطَّيِّبَاتُ. فَكُلُّ ظُلْمٍ وَصَدٍّ عَنِ الحَقِّ هُوَ سَبَبٌ لِلْحِرْمَانِ وَالتَّضْيِيقِ، وَلَا تَدُومُ الطَّيِّبَاتُ إِلَّا فِي ظِلِّ العَدْلِ وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَى سَبِيلِ اللَّهِ.

سِفْرُ الصَّدَى الثَّالِثُ وَالثَّلَاثُونَ

رَجْسُ الرِّبَا وَنَهْبُ المَعَاشِ

صَدَى ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦١]

تَنْهَشُ أَنْيَابُ الرِّبَا أَجْسَادَ الفُقَرَاءِ كَوَحْشٍ كَاسِرٍ يَقْتَاتُ عَلَى عَرَقِ الكَادِحِينَ وَيَسْتَبِيحُ حُرْمَةَ المالِ بِالبَاطِلِ رَغْمَ نَهْيِ السَّمَاءِ، فَأَطْرَقْتُ وَجِلًا أَمَامَ هَذَا السُّقُوطِ الأَخْلَاقِيِّ المَرِيعِ. انْحَسَرَتْ عَنْ بَصِيرَتِي أَقْنِعَةُ الثَّرَاءِ الزَّائِفِ القَائِمِ عَلَى امْتِصَاصِ دِمَاءِ المحْتَاجِينَ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ أَكْلَ الرِّبَا وَالسُّحْتِ هُوَ حَرْبٌ مُعْلَنَةٌ عَلَى عَدْلِ الخَالِقِ تُورِثُ أَصْحَابَهَا العَذَابَ الأَلِيمَ. وَكَمْ انْهَارَتْ حَضَارَاتٌ وَتَمَزَّقَتْ أَوَاصِرُ المجْتَمَعَاتِ حِينَ تَحَوَّلَ المالُ مِنْ أَدَاةٍ لِلْعُمْرَانِ وَالتَّكَافُلِ إِلَى قَيْدٍ يُكَبِّلُ الضُّعَفَاءَ وَيُضَاعِفُ آهَاتِهِمْ. كَأَنَّ العَلَقَةَ السَّوْدَاءَ تَلْتَصِقُ بِوَرِيدِ العَطْشَانِ فِي الصَّحْرَاءِ لِتَمْتَصَّ قَطَرَاتِ دَمِهِ القَلِيلَةِ وَتَنْتَفِخَ بِالبَاطِلِ، فَيُصِيبُهَا سَهْمُ العَدْلِ الإِلَهِيِّ لِيُفَجِّرَ جَشَعَهَا وَيُرْدِيَهَا فِي هَاوِيَةِ العَذَابِ. فَمَا أَعْدَلَ هَذَا الوَعِيدَ الَّذِي يُعِدُّ لِلْكَافِرِينَ الجَاحِدِينَ عَذَابًا أَلِيمًا يَمْحُو لَذَّةَ المالِ الحَرَامِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَنْزِيهًا لِلْكَسْبِ عَنْ دَنَسِ الرِّبَا وَالبَاطِلِ وَحِرْصًا عَلَى طَهَارَةِ

اللُّقْمَةِ. فَكُلُّ مَالٍ يَنْمُو بِالرِّبَا وَالظُّلْمِ هُوَ نَارٌ تَأْكُلُ صَاحِبَهَا، وَلَا بَرَكَةَ فِي رِزْقٍ لَمْ يُبْنَ عَلَى الحَلَالِ وَالعَدْلِ.

مِحْرَابُ الرَّاسِخِينَ وَيَقِينُ العُلَمَاءِ

صَدَى ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢]

تَشْمَخُ قِمَمُ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ كَالجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي لَا تُزَحْزِحُهَا عَوَاصِفُ الشُّبُهَاتِ، فَتُعَانِقُ أَرْوَاحُهُمْ نُورَ الوَحْيِ الخَاتِمِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ بِيَقِينٍ رَاسِخٍ، فَفَاضَتْ نَفْسِي إِجْلَالًا لِهَذَا الصِّدْقِ العِلْمِيِّ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي غُيُومُ التَّعَصُّبِ وَالجُحُودِ الَّتِي أَعْمَتِ المحَرِّفِينَ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ العِلْمَ الحَقِيقِيَّ إِذَا رَسَخَ فِي القَلْبِ قَادَ صَاحِبَهُ حَتْمًا إِلَى التَّصْدِيقِ بِالقُرْآنِ وَالكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَتَرْجَمَ ذَلِكَ إِلَى صِلَةٍ بِاللَّهِ بِالصَّلَاةِ وَإِحْسَانٍ إِلَى الخَلْقِ بِالزَّكَاةِ. وَكَمْ أَشْرَقَتْ عُقُولٌ مُنْصِفَةٌ عَبْرَ التَّارِيخِ حِينَ تَجَرَّدَتْ لِلْحَقِّ فَوَجَدَتْ فِي القُرْآنِ ضَالَّتَهَا المَنْشُودَةَ وَنَالَتْ شَرَفَ الأَجْرِ العَظِيمِ.

يُشْبِهُ ذَلِكَ الشَّجَرَةَ المبَارَكَةَ الَّتِي ضَرَبَتْ جُذُورُهَا فِي أَعْمَاقِ الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ، فَمَا إِنْ أَشْرَقَتْ عَلَيْهَا شَمْسُ الوَحْيِ حَتَّى تَفَتَّحَتْ أَزْهَارُهَا بِالصَّلَاةِ وَأَيْنَعَتْ ثِمَارُهَا بِالزَّكَاةِ لِتُطْعِمَ الجَائِعِينَ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الثَّنَاءَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يُكَرِّمُ العُلَمَاءَ المخْلِصِينَ وَالمؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ بِأَجْرٍ عَظِيمٍ لَا يَنْفَدُ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي رَغْبَةً صَادِقَةً فِي الرُّسُوخِ فِي العِلْمِ النَّافِعِ الَّذِي يُثْمِرُ خُشُوعًا وَعَطَاءً وَيَقِينًا. فَكُلُّ عِلْمٍ لَا يَقُودُ إِلَى الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ هُوَ حُجَّةٌ عَلَى صَاحِبِهِ، وَلَا رِفْعَةَ أَسْمَى مِنْ مَقَامِ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ عِنْدَ اللَّهِ.

مَوْكِبُ النُّبُوَّةِ وَنَبْعُ الوَحْيِ الوَاحِدِ

صَدَى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]

تَتَلَأْلَأُ كَوَاكِبُ النُّبُوَّةِ فِي سَمَاءِ التَّارِيخِ كَعِقْدٍ نُورَانِيٍّ فَرِيدٍ يَمْتَدُّ مِنْ نُوحٍ إِلَى خَاتَمِ المرْسَلِينَ، فَيَرْتَوِي جَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ مِشْكَاةِ وَحْيٍ وَاحِدَةٍ، فَارْتَعَشَتْ رُوحِي إِجْلَالًا لِهَذَا التَّنَاغُمِ السَّمَاوِيِّ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي أَوْهَامُ الغَرَابَةِ الَّتِي أَثَارَهَا المعَانِدُونَ حَوْلَ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَبَيَّنَ لِي

أَنَّهُ لَيْسَ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ بَلْ هُوَ مِسْكُ الخِتَامِ لِمَوْكِبٍ عَظِيمٍ ضَمَّ نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَكَمْ تَاهَتْ بَشَرِيَّةٌ حِينَ فَصَلَتْ بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ، بَيْنَمَا جَمَعَهُمُ القُرْآنُ فِي رِسَالَةٍ وَاحِدَةٍ تَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ الخَالِقِ وَتَزْكِيَةِ الإِنْسَانِ. كَأَنَّ النَّهْرَ الخَالِدَ يَنْبُعُ مِنْ قِمَّةِ التَّوْحِيدِ العَالِيَةِ فَيَمُرُّ بِوَادٍ بَعْدَ وَادٍ وَيَسْقِي حَدَائِقَ النُّبُوَّةِ عَبْرَ العُصُورِ بِمَاءٍ عَذْبٍ وَاحِدٍ حَتَّى يَبْلُغَ مَصَبَّهُ الأَكْمَلَ فِي الرِّسَالَةِ الخَاتَمَةِ. فَمَا أَبْهَى هَذَا التَّرَابُطَ المُقَدَّسَ الَّذِي يُشْعِرُ المُؤْمِنَ بِأَنَّهُ وَرِيثُ كُلِّ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَحَامِلُ لِوَائِهِمُ الخَالِدِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي أُنْسًا عَمِيقًا بِمَوْكِبِ المُرْسَلِينَ وَيَقِينًا بِأَنَّ الوَحْيَ القُرْآنِيَّ هُوَ نُورُ السَّمَاءِ المُتَّصِلُ لِهِدَايَةِ العَالَمِينَ. فَكُلُّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ هُوَ شُعْلَةٌ مِنْ مِشْكَاةِ الوَحْيِ الوَاحِدِ، وَلَا نَجَاةَ لِلْبَشَرِيَّةِ إِلَّا بِالسَّيْرِ فِي رَكْبِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ.

تَكْلِيمُ الكَلِيمِ وَسَعَةُ الرِّسَالَاتِ

صَدَى ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]

تَتَّسِعُ آفَاقُ التَّارِيخِ الإِيمَانِيِّ لِتَشْمَلَ أَنْبِيَاءَ قُصَّتْ أَخْبَارُهُمْ وَآخَرِينَ طَوَى الغَيْبُ أَسْمَاءَهُمْ لِيَظَلَّ الكَوْنُ كُلُّهُ شَاهِدًا عَلَى رَحْمَةِ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَتَجَلَّى شَرَفُ التَّكْلِيمِ الإِلَهِيِّ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي هَيْبَةٌ لِجَلَالِ الخَالِقِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي مَحْدُودِيَّةُ المَعْرِفَةِ البَشَرِيَّةِ الَّتِي تَظُنُّ أَنَّ التَّارِيخَ انْحَصَرَ فِيمَا عَرَفَتْهُ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ رُسُلًا كَثِيرِينَ لِكُلِّ أُمَّةٍ حَتَّى لَا يَبْقَى قَوْمٌ بِلَا نَذِيرٍ، وَخَصَّ مُوسَى بِتَكْلِيمٍ مُبَاشِرٍ يَشْهَدُ بِعُلُوِّ مَقَامِهِ وَصِدْقِ نُبُوَّتِهِ. وَكَمْ حَارَتِ العُقُولُ القَاصِرَةُ أَمَامَ صِفَاتِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ فَأَوَّلَتْهَا أَوْ جَحَدَتْهَا، فَجَاءَ التَّأْكِيدُ القُرْآنِيُّ المُطْلَقُ: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا، لِيُثْبِتَ الحَقِيقَةَ بِلَا تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ. يُشْبِهُ ذَلِكَ السَّمَاءَ الزَّرْقَاءَ المُرَصَّعَةَ بِالنُّجُومِ؛ مِنْهَا نُجُومٌ سَاطِعَةٌ يَعْرِفُهَا السَّارُونَ وَيَهْتَدُونَ بِأَسْمَائِهَا، وَمِنْهَا مَجَرَّاتٌ بَعِيدَةٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا خَالِقُهَا، وَكُلُّهَا تُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَتُضِيءُ الكَوْنَ بِأَمْرِهِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الإِجْلَالَ الإِلَهِيَّ لِرُسُلِهِ الكِرَامِ، حَيْثُ يُكَرِّمُ مَنْ ذُكِرَ وَمَنْ لَمْ يُذْكَرْ وَيُعْلِي شَأْنَ كَلِيمِهِ مُوسَى! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَعْظِيمًا لِكَلَامِ اللَّهِ وَإِيمَانًا بِجَمِيعِ رُسُلِهِ مَنْ عَرَفْتُ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ أَعْرِفْ. فَكُلُّ أَرْضٍ وَطِئَهَا الإِنْسَانُ قَدْ أَشْرَقَتْ عَلَيْهَا شَمْسُ الرِّسَالَةِ، وَلَا شَرَفَ يُضَاهِي تَكْلِيمَ الرَّحْمَنِ لِأَصْفِيَائِهِ.

بِشَارَةُ الرُّسُلِ وَإِقَامَةُ الحُجَّةِ

صَدَى ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا

حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]

تَتَنَزَّلُ مَنَارَاتُ الهِدَايَةِ عَلَى طُرُقِ البَشَرِ تَحْمِلُ بُشْرَى الجَنَّةِ لِلطَّائِعِينَ وَنَذِيرَ النَّارِ لِلْغَافِلِينَ، لِتَسْقُطَ كُلُّ أَعْذَارِ الجَهْلِ وَالتَّقْصِيرِ يَوْمَ الحِسَابِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا العَدْلِ المحْكَمِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصِيرَتِي حِكْمَةُ إِرْسَالِ الرُّسُلِ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ لِتُوقِظَ الفِطْرَةَ وَتُقِيمَ الحُجَّةَ القَاطِعَةَ عَلَى العِبَادِ فَلَا يَقُولَ أَحَدٌ يَوْمَ القِيَامَةِ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ. وَكَمْ حَاوَلَ العُصَاةُ التَّمَلُّصَ مِنَ المسْؤُولِيَّةِ بِادِّعَاءِ الغَفْلَةِ، فَأَحْرَسَتْهُمْ رِسَالَاتُ السَّمَاءِ الَّتِي بَيَّنَتِ الصِّرَاطَ وَحَذَّرَتْ مِنَ الهَاوِيَةِ. كَأَنَّ المِلكَ الرَّحِيمَ يَضَعُ عَلَى الطَّرِيقِ الجَبَلِيِّ الوَعْرِ مَصَابِيحَ مُضِيئَةً وَلَوْحَاتٍ وَاضِحَةً تُبَشِّرُ السَّائِرَ بِقُصُورِ النَّعِيمِ فِي نِهَايَةِ الطَّرِيقِ وَتُنْذِرُهُ مِنْ حُفَرِ الهَلَاكِ عَلَى الجَانِبَيْنِ، فَمَنْ سَقَطَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَا حُجَّةَ لَهُ إِلَّا عِنَادُهُ. فَمَا أَعْظَمَ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمَيِ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ الَّذِي قَهَرَ بِعِزَّتِهِ المعَانِدِينَ وَأَقَامَ بِحِكْمَتِهِ الحُجَّةَ عَلَى العَالَمِينَ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي يَقْظَةً تَغْتَنِمُ بِشَارَةَ الرُّسُلِ وَتَحْذَرُ نِذَارَتَهُمْ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ الحُجَّةُ يَوْمَ الدِّينِ. فَكُلُّ رِسَالَةٍ سَمَاوِيَّةٍ هِيَ رَحْمَةٌ وَإِعْذَارٌ مِنَ الخَالِقِ، وَلَا حُجَّةَ لِأَحَدٍ عَلَى اللَّهِ بَعْدَ بَعْثَةِ الرُّسُلِ المبَشِّرِينَ وَالمنْذِرِينَ.

شَهَادَةُ الجَبَّارِ وَتَسْبِيحُ المِلَائِكَةِ

صَدَى ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]

تَنْشَقُّ حُجُبُ الغَيْبِ عَنْ أَعْظَمِ شَهَادَةٍ فِي الوُجُودِ حِينَ يَشْهَدُ رَبُّ العَالَمِينَ وَمَلَائِكَتُهُ المقَرَّبُونَ بِصِدْقِ القُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ المحِيطِ، فَفَاضَتْ نَفْسِي سَكِينَةً وَاعْتِزَازًا أَمَامَ هَذَا التَّأْيِيدِ السَّمَاوِيِّ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي تَرَهَاتُ المكَذِّبِينَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ شَهَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهَا كَافِيَةٌ لِإِسْقَاطِ كُلِّ جُحُودٍ بَشَرِيٍّ، فَكَيْفَ وَقَدِ انْضَمَّتْ إِلَيْهَا شَهَادَةُ المِلَائِكَةِ الأَبْرَارِ؟ وَكَمْ حَزِنَ المصْلِحُونَ حِينَ كَذَّبَهُمْ أَهْلُ الأَرْضِ، فَجَاءَتْ شَهَادَةُ السَّمَاءِ لِتَرْفَعَ قَدْرَهُمْ وَتُثَبِّتَ أَقْدَامَهُمْ عَلَى الحَقِّ المبِينِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ الشَّمْسَ السَّاطِعَةَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ يُنْكِرُ وُجُودَهَا أَهْلُ الكَهْفِ المظْلِمِ، فَتَشْهَدُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَالكَوَاكِبُ كُلُّهَا بِضِيَائِهَا وَحَرَارَتِهَا، فَلَا يَضُرُّهَا إِنْكَارُ المحْجُوبِينَ عَنِ النُّورِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الحَسْمَ القُرْآنِيَّ الَّذِي يَخْتِمُ الآيَةَ بِالكِفَايَةِ المطْلَقَةِ: وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُ النَّبِيِّ وَقُلُوبُ المؤْمِنِينَ إِلَى الأَبَدِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي يَقِينًا لَا يَتَزَعْزَعُ بِأَنَّ القُرْآنَ هُوَ عِلْمُ اللَّهِ المحْكَمُ الَّذِي شَهِدَ لَهُ الرَّبُّ وَمَلَائِكَتُهُ. فَكُلُّ

تَكْذِيبٍ بَشَرِيٍّ يَتَلَاشَى أَمَامَ شَهَادَةِ السَّمَاءِ، وَلَا شَهِيدَ أَصْدَقُ وَأَعْظَمُ مِنَ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ الكِتَابَ بِعِلْمِهِ.

تِيهُ الصَّادِّينَ وَعَاقِبَةُ الضَّلَالِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧]

تَنْكَشِفُ سَوْءَةُ الجَاحِدِينَ الَّذِينَ لَمْ يَكْتَفُوا بِكُفْرِهِمْ بَلْ وَقَفُوا قُطَّاعَ طَرِيقٍ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَتَاهُوا فِي مَفَاوِزِ الضَّلَالِ البَعِيدِ بِلَا مَنَارَةٍ وَلَا دَلِيلٍ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا التِّيهِ المظْلِمِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصِيرَتِي خُطُورَةُ الجَرِيمَةِ المُزْدَوَجَةِ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ ضَلَالِ النَّفْسِ وَإِضْلَالِ الغَيْرِ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ مَنْ يَسُدُّ طَرِيقَ الهِدَايَةِ أَمَامَ العِبَادِ يَبْتَعِدُ عَنِ الحَقِّ مَسَافَةً سَحِيقَةً يَصْعُبُ مَعَهَا الرُّجُوعُ. وَكَمْ حَارَبَ أَئِمَّةُ الكُفْرِ وَالنِّفَاقِ دَعَوَاتِ الإِيمَانِ بِالشُّبُهَاتِ وَالأَذَى لِيَمْنَعُوا القُلُوبَ العَطْشَى مِنْ وُرُودِ نَبْعِ الوَحْيِ، فَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الضَّلَالُ البَعِيدُ. كَأَنَّ التَّائِهَ فِي الصَّحْرَاءِ القَاحِلَةِ يُطْفِئُ مَشَاعِلَ الطَّرِيقِ وَيَرْدُمُ الآبَارَ خَلْفَهُ لِيَمْنَعَ القَوَافِلَ مِنَ النَّجَاةِ، فَيُصْبِحُ هُوَ أَوَّلَ الهَالِكِينَ فِي عُمقِ التِّيهِ وَالظَّلَامِ. فَمَا أَبْلَغَ هَذَا التَّصْوِيرَ القُرْآنِيَّ لِبُعْدِ شُقَّةِ الضَّلَالِ الَّذِي سَقَطَ فِيهِ الصَّادُّونَ عَنْ دِينِ اللَّهِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي حِرْصًا عَلَى أَنْ أَكُونَ دَلِيلًا لِلْخَيْرِ وَمِفْتَاحًا لِلْهُدَى لَا عَائِقًا فِي طَرِيقِ السَّائِرِينَ إِلَى اللَّهِ. فَكُلُّ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ هُوَ إِغْرَاقٌ فِي الضَّلَالِ البَعِيدِ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِفَتْحِ أَبْوَابِ الهِدَايَةِ وَالسَّيْرِ فِيهَا بِصِدْقٍ.

إِغْلَاقُ المَغْفِرَةِ وَطَرِيقُ الجَحِيمِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]

تُغْلَقُ بَوَّابَاتُ السَّمَاءِ دُونَ المصِرِّينَ عَلَى الكُفْرِ وَالظُّلْمِ حَتَّى المَوْتِ، فَلَا تَبْقَى أَمَامَ خُطَاهُمْ إِلَّا جَادَّةٌ وَاحِدَةٌ تَقُودُهُمْ إِلَى خُلُودٍ أَبَدِيٍّ فِي جَهَنَّمَ، فَسَرَتْ فِي أَوْصَالِي رَهْبَةٌ مِنْ نِهَايَةِ العِنَادِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي أَوْهَامُ النَّجَاةِ مَعَ الإِصْرَارِ عَلَى الشِّرْكِ وَالبَغْيِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ اللَّهَ بِعَدْلِهِ لَا يَغْفِرُ لِمَنْ جَمَعَ بَيْنَ جُحُودِ الخَالِقِ وَظُلْمِ الخَلْقِ وَلَمْ يَتُبْ، بَلْ يَسُوقُهُمْ إِلَى طَرِيقِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا دُونَ أَنْ يُعْجِزَهُ ذَلِكَ. وَكَمْ تَجَبَّرَ ظَالِمُونَ وَكَافِرُونَ فِي الأَرْضِ ظَانِّينَ أَنَّهُمْ فَوْقَ الحِسَابِ، فَلَمَّا انْتَهَتْ مُهْلَةُ الدُّنْيَا وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ مُسَاقِينَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ اليَسِيرَةِ إِلَى قَعْرِ الجَحِيمِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ السَّفِينَةَ الَّتِي حَطَّمَ رُبَّانُهَا كُلَّ أَشْرِعَتِهَا وَمَجَاذِيفِهَا عَمْدًا فِي وَسَطِ التَّيَّارِ الجَارِفِ، فَلَمْ يَبْقَ لَهَا مَسَارٌ

إِلَّا السُّقُوطُ الحَتْمِيُّ فِي الشَّلَّالِ السَّحِيقِ بِلَا عَوْدَةٍ. فَمَا أَشَدَّ هَيْبَةَ الخَاتِمَةِ الَّتِي تُؤَكِّدُ أَنَّ إِدْخَالَ الطُّغَاةِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَمْرٌ يَسِيرٌ عَلَى اللهِ لَا يَرُدُّهُ شَيْءٌ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَتَانِ فِي وِجْدَانِي فِرَارًا دَائِمًا مِنَ الكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَتَمَسُّكًا بِطَرِيقِ الإِيمَانِ وَالعَدْلِ. فَكُلُّ كُفْرٍ وَظُلْمٍ يُمَاتُ عَلَيْهِ هُوَ تَذْكِرَةٌ لِلْخُلُودِ فِي جَهَنَّمَ، وَلَا يَعْجِزُ عَنْ أَخْذِ الظَّالِمِينَ رَبٌّ كَانَ ذَلِكَ عَلَيْهِ يَسِيرًا.

نِدَاءُ الحَقِّ لِلْعَالَمِينَ وَغِنَى الخَالِقِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧٠]

يَدْوِي النِّدَاءُ العَالَمِيُّ لِيَشْمَلَ البَشَرِيَّةَ قَاطِبَةً بِبِشَارَةِ مَجِيءِ الرَّسُولِ الخَاتَمِ بِالحَقِّ اليَقِينِ، مُخَيِّرًا إِيَّاهُمْ بَيْنَ الإِيمَانِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ وَبَيْنَ الكُفْرِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَالِكَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الشُّمُولِ الإِلَهِيِّ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي حَوَاجِزُ الجُغْرَافِيَا وَالأَعْرَاقِ أَمَامَ رِسَالَةِ الإِسْلَامِ الخَالِدَةِ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ اللَّهَ يَدْعُو النَّاسَ لِلْإِيمَانِ رَحْمَةً بِهِمْ لِأَنَّ الخَيْرَ كُلَّهُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، أَمَّا كُفْرُهُمْ فَلَا يَنْقُصُ مِنْ مُلْكِ العَلِيمِ الحَكِيمِ ذَرَّةً وَاحِدَةً. وَكَمْ شَقِيَتِ البَشَرِيَّةُ حِينَ أَدَارَتْ ظَهْرَهَا لِنِدَاءِ الحَقِّ وَظَنَّتْ أَنَّهَا تَسْتَغْنِي بِعُقُولِهَا القَاصِرَةِ عَنْ هَدْيِ النُّبُوَّةِ. كَأَنَّ الطَّبِيبَ الرَّحِيمَ يُنَادِي المَرْضَى فِي الوَادِي المَوْبُوءِ وَبِيَدِهِ التِّرْيَاقُ الشَّافِي فَيَقُولُ لَهُمْ تَدَاوَوْا خَيْرًا لَكُمْ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنْ يَضُرَّ إِبَاؤُكُمْ صِحَّةَ الطَّبِيبِ وَلَا خَزَائِنَ دَوَائِهِ. فَمَا أَعْظَمَ خِتَامَ الآيَةِ بِاسْمَيِ اللَّهِ العَلِيمِ الحَكِيمِ الَّذِي يَعْلَمُ مَا يُصْلِحُ الخَلْقَ وَيَضَعُ الهِدَايَةَ وَالعُقُوبَةَ فِي مَوْضِعِهِمَا بِحِكْمَةٍ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَلْبِيَةً صَادِقَةً لِنِدَاءِ الرَّبِّ وَاعْتِزَازًا بِالإِيمَانِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ بِالحَقِّ. فَكُلُّ إِيمَانٍ بِالرَّسُولِ هُوَ خَيْرٌ خَالِصٌ لِلْإِنْسَانِ، وَلَا يَضُرُّ الكُفْرُ رَبًّا لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا.

تَنْزِيهُ التَّوْحِيدِ عَنْ غُلُوِّ التَّثْلِيثِ

صَدَى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١]

يُشْرِقُ سَيْفُ التَّوْحِيدِ النَّاصِعُ لِيَقْطَعَ خُيُوطَ الغُلُوِّ وَالشِّرْكِ، فَيَضَعُ المَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فِي

مَقَامِهِ النَّبَوِيِّ الكَرِيمِ كَرَسُولٍ لِلَّهِ وَكَلِمَتِهِ، وَيُنَزِّهُ الخَالِقَ الوَاحِدَ عَنِ الوَلَدِ وَالتَّثْلِيثِ، فَسَرَتْ فِي قَلْبِي طُمَأْنِينَةُ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي تَعْقِيدَاتُ الفَلْسَفَاتِ المحَرَّفَةِ الَّتِي حَوَّلَتْ عُبُودِيَّةَ المسِيحِ إِلَى أُلُوهِيَّةٍ مَزْعُومَةٍ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ الغُلُوَّ فِي الدِّينِ هُوَ بَوَّابَةُ الضَّلَالِ، وَأَنَّ النَّجَاةَ فِي الانْتِهَاءِ عَنْ قَوْلِ ثَلَاثَةٍ وَالإِيمَانِ بِأَنَّ اللَّهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ يَمْلِكُ الكَوْنَ كُلَّهُ. وَكَمْ تَاهَتْ عُقُولٌ حِينَ تَجَاوَزَتْ حُدُودَ التَّعْظِيمِ المشْرُوعِ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فَرَفَعَتْهُمْ إِلَى مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ فَأَفْسَدَتْ دِينَهَا وَعَقْلَهَا. يُشْبِهُ ذَلِكَ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى القَمَرِ المنِيرِ الَّذِي يَعْكِسُ ضَوْءَ الشَّمْسِ بِأَمْرِ الخَالِقِ فَيَظُنُّهُ شَمْسًا أُخْرَى أَوْ جُزْءًا مِنْ ذَاتِ الشَّمْسِ، فَيُصَحِّحُ لَهُ العَالِمُ الحَكِيمُ أَنَّ القَمَرَ مَخْلُوقٌ مُسَخَّرٌ وَأَنَّ الشَّمْسَ وَاحِدَةٌ لَا شَرِيكَ لَهَا. فَمَا أَجَلَّ هَذَا التَّنْزِيهَ الرَّبَّانِيَّ: سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَوْحِيدًا صَافِيًا يُجِلُّ المسِيحَ كَرَسُولٍ عَظِيمٍ وَيُفْرِدُ اللَّهَ الوَاحِدَ بِالأُلُوهِيَّةِ وَالعِبَادَةِ. فَكُلُّ غُلُوٍّ فِي المخْلُوقِينَ هُوَ انْحِرَافٌ عَنِ الحَقِّ، وَلَا إِلَهَ فِي الوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ الوَاحِدُ الَّذِي كَفَى بِهِ وَكِيلًا.

شَرَفُ العُبُودِيَّةِ لِلْمَسِيحِ وَالمَلَائِكَةِ

صَدَى ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢]

تَتَسَابَقُ أَشْرَفُ المخْلُوقَاتِ مِنَ المسِيحِ الكَرِيمِ وَالمَلَائِكَةِ المقَرَّبِينَ إِلَى التَّشَرُّفِ بِوَسَامِ العُبُودِيَّةِ لِلَّهِ دُونَ أَنْفَةٍ أَوِ اسْتِكْبَارٍ، بَيْنَمَا يُسَاقُ المتَكَبِّرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى الحَشْرِ وَالحِسَابِ، فَوَقَفْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الجَلَالِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصَرِي حَقِيقَةُ أَنَّ أَعْلَى مَقَامٍ يَبْلُغُهُ المخْلُوقُ هُوَ كَمَالُ العُبُودِيَّةِ لِلْخَالِقِ، فَلَمْ يَأْنَفِ المسِيحُ وَلَا المَلَائِكَةُ المقَرَّبُونَ مِنْ أَنْ يَكُونُوا عِبَادًا خَاضِعِينَ لِلَّهِ، وَإِنَّمَا يَسْتَنْكِفُ الجَاهِلُونَ المغْتَرُّونَ الَّذِينَ سَيُجْمَعُونَ رَغْمًا عَنْهُمْ بَيْنَ يَدَيِ الجَبَّارِ. وَكَمْ أَهْلَكَ الكِبْرُ طُغَاةً وَمُتَفَلْسِفِينَ أَنِفُوا مِنَ السُّجُودِ لِرَبِّ العَالَمِينَ فَحُشِرُوا صَاغِرِينَ أَذِلَّاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ. كَأَنَّ قَادَةَ الجَيْشِ العِظَامَ وَحُرَّاسَ المَلِكِ المقَرَّبِينَ يَنْحَنُونَ بِكُلِّ فَخْرٍ وَاعْتِزَازٍ لِخِدْمَةِ المَلِكِ الأَعْظَمِ، بَيْنَمَا يَقِفُ بَعْضُ الخَدَمِ الضُّعَفَاءِ فِي الفِنَاءِ مُتَكَبِّرِينَ عَنِ الطَّاعَةِ فَيَأْمُرُ المَلِكُ بِسَوْقِهِمْ جَمِيعًا إِلَى سَاحَةِ العِقَابِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا المِيزَانَ الَّذِي يَجْعَلُ العُبُودِيَّةَ لِلَّهِ تَاجًا عَلَى رُؤُوسِ الأَنْبِيَاءِ وَالمَلَائِكَةِ وَيَجْعَلُ الِاسْتِكْبَارَ طَرِيقًا إِلَى الذُّلِّ وَالهَوَانِ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي شَرَفًا وَاعْتِزَازًا بِكَوْنِي عَبْدًا

خَاضِعًا لِلَّهِ وَبَرَاءَةً مِنْ كُلِّ ذَرَّةِ كِبْرٍ فِي الصَّدْرِ. فَكُلُّ عُبُودِيَّةٍ لِلَّهِ هِيَ عِزٌّ وَرِفْعَةٌ وَشَرَفٌ، وَلَا مَهْرَبَ لِلْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ حَشْرِ اللَّهِ الَّذِي يَجْمَعُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا.

فَصْلُ القَضَاءِ بَيْنَ المحْسِنِينَ وَالمسْتَكْبِرِينَ

صَدَى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٣]

يَنْقَسِمُ المشْهَدُ الأُخْرَوِيُّ إِلَى مَصِيرَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ؛ فَيُغْمَرُ أَهْلُ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ بِوَفَاءِ الأُجُورِ وَزِيَادَةِ الفَضْلِ، بَيْنَمَا يَتَجَرَّعُ المسْتَكْبِرُونَ العَذَابَ الأَلِيمَ بِلَا وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ، فَسَرَتْ فِي نَفْسِي رَغْبَةٌ وَرَهْبَةٌ تُوقِظَانِ القَلْبَ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي كُلُّ ظُنُونِ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ المتَوَاضِعِ العَامِلِ وَالمتَكَبِّرِ المعْرِضِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ كَرَمَ اللَّهِ لَا يَقِفُ عِنْدَ إِعْطَاءِ المؤْمِنِينَ أُجُورَهُمْ كَامِلَةً بَلْ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، فِي حِينِ يَنْفَرِدُ المتَكَبِّرُونَ بِآلَامِهِمْ دُونَ مُغِيثٍ. وَكَمْ اغْتَرَّ المتَكَبِّرُونَ فِي الدُّنْيَا بِأَعْوَانِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فَتَرَفَّعُوا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، حَتَّى وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الآخِرَةِ عُرَاةً مِنَ النَّاصِرِ وَالوَلِيِّ تَحْتَ سِيَاطِ العَذَابِ الأَلِيمِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ حَصَادَ المؤْسِمِ العَظِيمِ؛ فَالزَّارِعُ المجْتَهِدُ يُعْطَى ثَمَرَ تَعَبِهِ كَامِلًا ثُمَّ يُهْدِيهِ المِلِكُ الكَرِيمُ كُنُوزًا إِضَافِيَّةً مِنْ جُودِهِ، بَيْنَمَا المتَكَبِّرُ الَّذِي أَحْرَقَ الحَقْلَ يُلْقَى فِي السِّجْنِ المظْلِمِ وَحِيدًا لَا يَجِدُ مَنْ يَشْفَعُ لَهُ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الفَضْلَ الإِلَهِيَّ الَّذِي يُضَاعِفُ العَطَاءَ لِلْمُحْسِنِينَ وَيُقِيمُ العَدْلَ الصَّارِمَ عَلَى المسْتَكْبِرِينَ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَوَاضُعًا وَإِقْبَالًا عَلَى العَمَلِ الصَّالِحِ طَمَعًا فِي زِيَادَةِ فَضْلِ اللَّهِ وَخَوْفًا مِنْ وَحْشَةِ العَذَابِ. فَكُلُّ إِيمَانٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ يَسْتَجْلِبُ وَفَاءَ الأَجْرِ وَزِيَادَةَ الفَضْلِ، وَلَا نَصِيرَ يَوْمَ القِيَامَةِ لِمَنِ اسْتَنْكَفَ وَاسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ.

بُرْهَانُ السَّمَاءِ وَالنُّورُ المبِينُ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]

تَشُقُّ أَنْوَارُ القُرْآنِ ظُلُمَاتِ الحَيْرَةِ البَشَرِيَّةِ لِتُعْلِنَ لِلْعَالَمِينَ مَجِيءَ البُرْهَانِ القَاطِعِ وَالنُّورِ المبِينِ الَّذِي يَكْشِفُ الحَقَائِقَ وَيَهْدِي الضَّالِّينَ، فَفَاضَتْ رُوحِي بَهْجَةً وَامْتِنَانًا لِهَذِهِ الهَدِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ. انْجَلَتْ عَنْ بَصِيرَتِي سُحُبُ الشَّكِّ وَالتَّرَدُّدِ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ القُرْآنَ وَالرَّسُولَ هُمَا بُرْهَانُ اللَّهِ القَاهِرُ الَّذِي لَا يَصْمُدُ أَمَامَهُ بَاطِلٌ، وَنُورُهُ السَّاطِعُ الَّذِي يُبَدِّدُ دَيَاجِيرَ الجَهْلِ وَالخُرَافَةِ وَيُضِيءُ دُرُوبَ الحَيَاةِ. وَكَمْ تَخَبَّطَتِ البَشَرِيَّةُ فِي عَتْمَةِ الفَلْسَفَاتِ وَالأَهْوَاءِ قَبْلَ أَنْ يُشْرِقَ عَلَيْهَا هَذَا النُّورُ المبِينُ الَّذِي أَحْيَا القُلُوبَ

وَعَمَّرَ الأَرْضَ بِالْعَدْلِ وَالعِلْمِ. كَأَنَّ قَافِلَةً ضَلَّتْ طَرِيقَهَا فِي لَيْلٍ بَهِيمٍ عَاصِفٍ حَتَّى أَشْرَقَتْ فَجْأَةً شَمْسٌ سَاطِعَةٌ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ فَأَظْهَرَتْ كُلَّ المَعَالِمِ وَكَشَفَتْ كُلَّ الحُفَرِ وَقَادَتِ القَافِلَةَ إِلَى وَاحَةِ الأَمَانِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الِامْتِنَانَ الإِلَهِيَّ عَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ بِإِرْسَالِ البُرْهَانِ وَإِنْزَالِ النُّورِ المُبِينِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَعَلُّقًا وَثِيقًا بِالقُرْآنِ العَظِيمِ كَمِصْبَاحٍ يُنِيرُ عَقْلِي وَقَلْبِي فِي كُلِّ خُطْوَةٍ أَخْطُوهَا. فَكُلُّ حَيْرَةٍ تَتَبَدَّدُ أَمَامَ بُرْهَانِ السَّمَاءِ، وَلَا هِدَايَةَ أَصْفَى وَلَا أَوْضَحَ مِنَ النُّورِ المُبِينِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ لِلْعَالَمِينَ.

رَحْمَةُ الِاعْتِصَامِ وَالصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ

صَدَى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥]

تَتَفَتَّحُ أَحْضَانُ الرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ لِتَسْتَقْبِلَ كُلَّ قَلْبٍ آمَنَ بِاللَّهِ وَتَمَسَّكَ بِحَبْلِهِ المَتِينِ، فَيُغْمَرُ بِالرَّحْمَةِ وَالفَضْلِ وَيُهْدَى إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ المُوصِلِ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ، فَسَرَتْ فِي كِيَانِي سَكِينَةٌ لَا تُوصَفُ. تَلَاشَتْ فِي خَاطِرِي مَخَاوِفُ الِانْزِلَاقِ فِي مَتَاهَاتِ الفِتَنِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ الِاعْتِصَامَ بِاللَّهِ وَبِكِتَابِهِ هُوَ السِّرُّ فِي نَيْلِ الرَّحْمَةِ الَّتِي تَعْصِمُ مِنَ العَذَابِ، وَالفَضْلِ الَّذِي يُضَاعِفُ الثَّوَابَ، وَالهِدَايَةِ الَّتِي تَجْعَلُ السَّيْرَ إِلَى اللَّهِ مُسْتَقِيمًا بِلَا اعْوِجَاجٍ. وَكَمْ نَجَتْ قُلُوبٌ مِنْ أَعَاصِيرِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ حِينَ اعْتَصَمَتْ بِاللَّهِ وَحْدَهُ فَأَدْخَلَهَا فِي كَنَفِ رَحْمَتِهِ وَأَنَارَ لَهَا الطَّرِيقَ إِلَيْهِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ المُسَافِرَ الَّذِي يَتَمَسَّكُ بِالحَبْلِ الذَّهَبِيِّ المَمْدُودِ مِنْ قَصْرِ المَلِكِ وَسَطَ الرِّيَاحِ العَاتِيَةِ، فَيَسْحَبُهُ الحَبْلُ بِرِفْقٍ وَأَمَانٍ فَوْقَ جِسْرٍ مُسْتَقِيمٍ حَتَّى يُدْخِلَهُ إِلَى رِحَابِ النَّعِيمِ وَالكَرَامَةِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ البِشَارَةَ الثُّلَاثِيَّةَ لِأَهْلِ الإِيمَانِ وَالِاعْتِصَامِ: رَحْمَةٌ وَفَضْلٌ وَصِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ يُوصِلُهُمْ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِمْ! هَكَذَا تَنْتَظِمُ الآيَةُ فِي وِجْدَانِي تَمَسُّكًا دَائِمًا بِحَبْلِ اللَّهِ وَاعْتِصَامًا بِهِ فِي كُلِّ نَازِلَةٍ طَلَبًا لِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَصِرَاطِهِ المُسْتَقِيمِ. فَكُلُّ اعْتِصَامٍ بِاللَّهِ هُوَ نَجَاةٌ وَرِفْعَةٌ، وَلَا وُصُولَ إِلَى مَرْضَاةِ الرَّحْمَنِ إِلَّا عَبْرَ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ الَّذِي يَهْدِي إِلَيْهِ المُخْلِصِينَ.

خِتَامُ الفَرَائِضِ وَكَمَالُ البَيَانِ

صَدَى ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء:

[١٧٦

عَلَى مِيزَانِ النُّورِ الخَاتِمِ، تَتَعَانَقُ نِهَايَةُ السُّورَةِ المُبَارَكَةِ مَعَ مَطْلَعِهَا المهِيبِ، لِتَرْسُمَ دَائِرَةً مِنَ العَدْلِ وَالرَّحْمَةِ تَصُونُ الحُقُوقَ وَالمَوَارِيثَ لِلْأَقْرَبِينَ، وَتَفْصِلُ أَحْكَامَ الكَلَالَةِ بِدِقَّةٍ تُبَدِّدُ ضَبَابَ التَّنَازُعِ وَتَعْصِمُ العُقُولَ مِنَ التِّيهِ، فَأَقِفُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذَا الإِحْكَامِ الرَّبَّانِيِّ الجَلِيلِ. فِي أَعْمَاقِ بَصِيرَتِي تَنْجَلِي وَحْدَةُ السُّورَةِ الَّتِي أَشْرَقَتْ أَوَّلُهَا بِمِيثَاقِ التَّقْوَى وَصِلَةِ الأَرْحَامِ وَجَبْرِ كَسْرِ الضُّعَفَاءِ، ثُمَّ تُوِّجَتْ أَوَاخِرُهَا بِفَتْوَى السَّمَاءِ فِي مِيرَاثِ الإِخْوَةِ وَالأَخَوَاتِ حِينَ تَنْقَطِعُ الأُصُولُ وَالفُرُوعُ، لِتُثْبِتَ أَنَّ رِعَايَةَ السَّمَاءِ تُطَوِّقُ الإِنْسَانَ فِي كُلِّ مَنَازِلِ حَيَاتِهِ. وَكَمْ تَمَزَّقَتْ أَوَاصِرُ القُرْبَى وَاشْتَعَلَتْ نِيرَانُ الخُصُومَةِ فِي أَرْضِ البَشَرِ حِينَ غَفَلَتِ القُلُوبُ عَنْ قِسْمَةِ الحَقِّ العَادِلَةِ أَوِ انْحَرَفَتْ عَنْ نُورِ بَيَانِهَا المحْكَمِ. أَتَأَمَّلُ هَذَا الصَّرْحَ الشَّامِخَ الَّذِي أُسِّسَتْ قَوَاعِدُهُ عَلَى التَّقْوَى وَالإِحْسَانِ فِي بَدْءِ السُّورَةِ، كَيْفَ اسْتَقَرَّتْ فِي قِمَّتِهِ لَبِنَةُ الخِتَامِ الذَّهَبِيَّةُ، لِتَكْتَمِلَ هَنْدَسَةُ المجْتَمَعِ الفَاضِلِ الَّذِي لَا يَسْحَقُ صَغِيرًا، وَلَا يَبْخَسُ أُنْثَى، وَلَا يَتْرُكُ مَالًا سَائِبًا بِلَا مِيزَانٍ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا المِسْكَ الخِتَامِيَّ الَّذِي يَغْمُرُ الوُجُودَ بِإِحَاطَةِ العِلْمِ الإِلَهِيِّ الشَّامِلِ: {يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ}، لِيَظَلَّ الكِتَابُ مَنَارَةً شَاهِقَةً تَهْدِي السَّائِرِينَ فِي ظُلُمَاتِ الحَيْرَةِ وَالضَّلَالِ! هَكَذَا تَتَحَوَّلُ الآيَةُ وَالسُّورَةُ كُلُّهَا فِي وِجْدَانِي إِلَى نَشِيدٍ يَقِينٍ بِعَدْلِ الشَّرِيعَةِ وَرَحْمَتِهَا، وَمِحْرَابِ شُكْرٍ عَلَى نِعْمَةِ البَيَانِ وَالهِدَايَةِ. فَكُلُّ حُكْمٍ شَرَعَهُ اللَّهُ هُوَ سِيَاجُ أَمَانٍ مِنَ الظُّلْمِ وَالزَّيْغِ، وَلَا أَحْكَمَ وَلَا أَعْدَلَ مِنْ تَدْبِيرِ رَبٍّ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا.

